بسم الله الرحمن الرحيم

(وقف لله تعالى)

يوزع مجاناً

موارد الظمآن لدروس الزمان

خطب وحكم وأحكام وقواعد ومواعظ وآداب واخلاق حسان

تأليف الفقير إلى عفو ربه

عبد العزيز بن محمد السلمان

المدرس في معهد إمام الدعوة بالرياض

الجزء الأول

الطبعة الحادية عشر

١٤٠٢ هـ ١٩٨٢ م

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

بالله يا ناظراً فيه ومنتفعاً ● منه سل الله توفيقاً لجامعه

وقل أنلْهُ إلهَ العرشِ مغفرةً ● واقبلْ دُعاه وجنِّب عن موانعه

وخُصَّ نفسَكَ من خيرٍ دعوتَ به ● ومَن يقومُ بما يكفي لطابعه

والمسلمينَ جميعاً ما بدا قمرٌ ● أو كوكبٌ مستنيرٌ من مطالعه

ومَن أرادَ طِبَاعَتِهِ إبْتِغَاءَ وَجْه اللَّه تَعَالىٰ لا يُرِيْدُ به عرضاً مِن الدنيا ، فقد أُذِنَ لَه في ذلك وَجَزَى اللهُ خيراً مَن طَبَعَهُ وَقْفاً لِلهِ ، أو أعانَ على طبعِهِ ، أو تَسَبَّبَ لِطَبْعِهِ وتوزيعه على إخوانه المسلمين . فقد وَرَدَ عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال :

« إنَّ اللهَ يُدْخِلُ في السَّهْمِ الوَاحِدِ ثلاثةَ نَفَرٍ الجَنَّة : صَانِعَهُ يَحْتَسِبُ في صَنْعَتِهِ الخَيْرَ والرَّامِيْ بِهِ ، ومُنْبِلَه » الحديث ، رواه أبو داود .

وورد عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال :

« إذَا مَاتَ الإنسَانُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إلا مِنْ ثَلَاثٍ : صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ ، أو عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُوْ له » الحديث رواه مسلم .

وَعَنْ زَيدْ بن خَالد رَضي اللهُ عَنْهُ أنّ رسُول الله صلى الله عليه وسلم قال : « مَنْ جَهزَ غَازياً في سَبيلِ اللَّهِ فَقَدْ غَزَا وَمَنْ خَلف غازياً في أهْله بِخَير فَقَدْ غزا » متفق عليه .

(بسم الله الرحمن الرحيم)

خطبة الكتاب

الحمدُ للهِ الذي تَفَرَّدَ بالجلالِ والعظمةِ والعِزِ والكبريآء والجَمَالِ وأشكرُهُ شكرَ عَبدٍ مُعْتَرِفٍ بالتقصيرِ عن شكرِ بعض ما أوليهُ مِن الانعامِ والأفضالِ وأشهد أنْ لَا إلـهَ إلاَ اللّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ صلّىٰ اللّه عَليهِ وَسَلَمْ .

وَبَعْدُ فَبِمَا أَنِي رَأَيتُ كِتَابَ المَنَاهلِ الحسانِ مطلوباً ومرغوباً رأَيتُ أَني أَوّسِعُهُ وَأَزِيْدُ فيهِ زِيادَاتٍ كَثِيْرَةً مَا بَيْنَ حِكَمٍ وأَحْكامٍ وَقَوَاعِدَ وَمَوَاعظَ وآدابٍ وأخلاقٍ وقصائِدَ زُهْدياتٍ لِيَكُونَ جَامِعَاً نَافِعَاً صَالِحاً وَمُنَاسِباً لِرَمَضَانَ وَغَيْرِهِ وللْعَالِمِ والمُتَعلِمِ وللأَئمَّةِ وَغَيْرِهِمْ وَبَذَلْتُ وُسْعِي وَاعْتَنَيْتُ جُهْدِي في تَهْذِيْبِهِ وَتَنْقِيْحِهِ وَتَرْتِيْبِهِ وَقَدْ أَكْمَلتُ تَشْكِيْلَهُ لِيَعْذُبَ لِلسَّامِعِ والقَارِىءِ وَيَسْهُلَ عَلَيهِ .

وأَسْأَلُ اللّهَ الحَيَّ القَيُّوْمَ العَلِيَّ العَظِيْمَ القَوِيَّ العَزِيْزَ ذَا الجَلالِ والإكرامِ الوَاحدَ الأحدَ الفردِ الصَمدَ الذي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُوْلَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفْواً أَحَدْ الحَليمَ الكَريمَ القَريبَ المُجِيْبَ أَنْ يَجْعَلَ عَملَنَا خَالِصاً لِوَجْهِهِ الكَرِيمِ مُقَرِّباً لَنَا وَلِمَنْ قَرَأَهُ وَسَمِعَهُ لَدَيْهِ في جَناتِ النَعِيْمِ وأَنْ يَأجرَ مَنْ

طَبَعَهَ وَمَنْ أَعَانَ عَلىٰ طَبْعِهِ وَمَنْ تَسَبَّبَ لِطَبْعِهِ مَدَىٰ اللَّيَالِي والأَيَّامِ وأَنْ يَغْفِرَ لَنَا وَلَهُ وَلِوَالِدَيْنَا وَوَالِدَيْهِ وَجَمِيْعِ المُسْلِمِينَ الأَحْيَاءِ منهُمْ والمَيتِينَ بِرَحْمَتِهِ إِنَهُ أَرْحَمُ الرَّاحِمِين وصَلّىٰ اللّه على محمدٍ وعلى آلِهِ وصَحْبِهِ أَجْمَعِين .

وَسَمَّيْتُ هَذَا الكِتَابَ الجَامِعَ المُسَلِّي لِقَارِئِهِ وَسَامِعِهِ :

(مَوَارِدَ الظَّمْآنِ لِدُرُوْسِ الزَّمَان)

حِكَم وأَحْكَام وَقَوَاعِد وَمَوَاعِظ وآداب وأَخْلَاق حِسان .

عبد العزيز المحمد السلمان
المدرس في معهد امام الدعوة
بالرياض

(هَذَا الكِتَاب وقف للّه تَعَالىٰ عَلَىٰ طَلبة العلمْ) وَغَيرهمْ مِمَنْ يُريد الانتفَاع به .

بِـاللهِ يَـا قَـارئـاً كُتْبِيْ وَسَـامِعَـهَـا
أَسْبِـلْ عَليـهَـا رِدَاءَ الحُكْمِ والكَـرَمِ
واسْتُـرْ بِلُطْفِـكَ مَـا تَلْقَـاهُ مِن خَـطَاءٍ
أَوْ أَصْلِحَنْـهُ تُثَبْ إِنْ كُـنْتَ ذَا فَـهَـمِ
فَكَـمْ جَـوادٍ كَبَـى والسَّبْـقُ عَـادَتُـه
وَكَـمْ حُسَـامٍ نَـبَـا أَوْ عَـادَ ذُوْ ثُـلَمِ
وَكُـلُّنَـا يَـا أَخِـيْ خَـطَّاءُ ذُوْ زَلَـلٍ
والـعُـذْرُ يَقْبَلُهُ ذُوْ الـفَضْـلِ والـشِيَـمِ

وقال آخر :

أَخَـا العِلْم لا تَـعْجَـلْ لِـعَيْب مُصَـنِّفٍ
ولَـم تَـتَيَقَـنْ زَلَّـةً مِـنْـهُ تُـعْـرَفُ
فَكَمْ أَفْسَـدَ الـرَّاوِيْ كَـلاَمَـاً بِـنَقْـلِهِ
وَكَمْ حَـرَّفَ المَنْقـوْلَ قَـوْمٌ وَصَـحَّفُـوْا
وَكَمْ نَـاسِـخٍ أَضْحَى لِمَعْنىً مُغَيِّـراً
وَجَـاءَ بِـشَيْءٍ لَـمْ يُـرِدْهُ الـمُـصَنِّـفُ

الفصل الأول
في التوبة من المعاصي

اعْلَمْ وَفقَنَا اللّهُ وإياكَ وَجَميعَ المُسلمينَ ، أن الذنوبَ حجابٌ عن اللّهِ ، والانصرافُ عن كِل ما يُبْعِدُ عن اللّهِ واجبٌ ، وانما يَتمُ ذلكَ بالعِلم والندمِ والعزمِ ، فانه مَتَى لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ الذنوبَ أسْبابُ البُعْدِ عن اللّهِ لَمْ يَنْدَمِ على الذنوبِ ولم يَتَوَجَّعْ بِسَبَبِ سُلُوكِهِ طَرِيْقَ البُعْدِ ، وإذَا لَمْ يَتَوَجَّعْ لَمْ يَرْجِعْ ، والتَّوْبَةُ : الرجوعُ عَن المَعْصِيَةِ إلى الطاعةِ وهِيَ واجبةٌ مِنْ كلِ ذَنْبٍ ، فان كانتِ المعصيةُ بينَ العبدِ وبينَ ربِهِ تَعالى لا تَتَعَلَّقُ بِحَقِّ آدمِيٍ ، فلها ثَلاثَةُ شُروطٍ :

الأولُ : الإقلاعُ عَنْ المَعْصِيةِ التي هُو مُتَلَبِّسٌ بِهَا ، وَعَلاَمَتُهُ مُفارَقَةُ الذنبِ فَوْراً .

الثاني : النَّدَمُ عَلَىٰ فِعْلِهَا ، وَعَلاَمَتُهُ طُوْلُ الحُزْنِ على مَا فَاتَ وورد عن ابن مسعودٍ رضيَ اللّهُ عَنْهُ ، أنّ رَسُولَ اللّهِ صلّى اللّهُ عَليهِ وَسَلَمْ قال : « النَدمُ تَوبةٌ » .

الثالثُ : العَزْمُ أَنْ لا يَعُوْدَ إلى مَعْصِيَةٍ أبَـدَا ، وَعَلاَمَتُـهُ التَّدَارُكُ لِمَا فَاتَ وَاصْلاَحُ مَا يَأتِي ، فانْ كَانَ المَاضِيْ تَفْرِيْطاً في عِبادةٍ

قَضاهَا ، أَوْ مَظْلَمةٍ أدَّاهَا ، أوْ خَطِيْئَةٍ لا تُوْجِبُ غَرَامَةً حَزِنَ اذْ تَعاطَاهَا .

فإن فُقِدَ أَحَدُ الشُرُوْطِ الثَّلاثَةِ لَمْ تَصِحَّ تَوْبَتُهُ . وانْ كَانَتْ المعصيَةُ تَتَعَلَّقُ بآدمِي ، فَشُرُوْطُها أرْبَعَةٌ ، الثلاثةُ الشُروطُ المذكورةُ والرابعُ : أن يَبْرَأَ مِنْ حَقّ صَاحِبها ، فانْ كَانَتْ مالاً أو نحوَهُ رَدَّهُ إليهِ ، إنْ كانَ مَوْجُوداً أَوْ رَدَّ بدَلَهُ عندَ تَلَفِهِ مِن قِيْمَةٍ أو مِثْلٍ . وانْ كَانَتْ حَدَّ قذفٍ وَنَحْوَه مَكّنَهُ مِنْهُ أَوْ طَلَبَ عَفْوَهُ ، وانْ كَانَتْ غِيْبَةً اسْتَحَلَّهُ مِنْهَا انْ كَانَ عَاقِلاً حَلِيْمَاً ، يَغْلِبُ عَلَىٰ الظَنِ أنَّهُ اذَا جَاءَهُ أخُوْهُ المُسْلِمُ نادِماً تائباً عَفَا عَنْهُ وَسَامَحَهُ ، وإلاَ فَلْيَسْتَغْفِرْ لَهُ . لِمَا وَرَدَ عَن أنسٍ قَالَ : قَالَ رسولُ اللّهِ صلّى اللّه عليه وسلم : « إنَّ مِنْ كَفَّارَةِ الغِيْبَةِ أَنْ تَستغفرَ لِمَنِ اغْتَبْتَهُ تَقُولُ : اللهم اغْفِرْ لَنَا وَلَهُ » .

وروى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة عن النبي صلّى اللّه عليه وسلم قال : « مَنْ كَانَتْ عِنْدَهُ مظلمةٌ لِأَخِيْهِ مِن عِرْضٍ أو مالٍ فَلْيَتَحَلَّلْهُ منهُ اليومَ قَبلَ أنْ لا يكونَ دِرْهَمٌ ولا دينارٌ ، إنْ كانَ له عملٌ صالحٌ أُخِذَ بِقَدْرِ مَظْلَمَتِهِ ، وانْ لَمْ يَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ أُخِذَ مِن سَيِئآتِ صَاحِبِهِ فَحُمِلَ عَليه » .

وَقَدْ أَمَرَ اللّهُ سُبْحَانه وَتعالَىٰ بالتَّوْبَةِ ، وَبيَّنَ مَا لِلتَّائِبِينَ مِن الكَرَامَةِ والأَجْرِ ، فقال : ﴿ يا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوا تُوبُوا إلى اللّه توبةً نصوحاً عَسى رَبُكم أَنْ يُكَفِرَ عَنْكُمْ سَيِئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جناتٍ تجري مِنْ تَحْتِهَا الأَنهَار ﴾ .

قال ابنُ القَيّم رحمهُ اللّه : والنُّصْحُ في التوبةِ يَتَضَمَّنُ ثَلاثَةَ أَشْيَاء ،

الأولُ : تَعْمِيْمُ جَمِيْعَ الذُّنوبِ واستغْراقُهَا بها بِحَيْثُ لا تَدَعُ ذَنْباً إلا تَنَاوَلَتْهُ وَالثانِي : اجماعُ العَزْمِ والصِّدْقِ بِكُلِّيَتِهِ عَلَيْهَا بِحَيْثُ لا يَبْقَى تَرَدُّدٌ ولا تَلُوُّمٌ ولا انْتِظارٌ بَلْ يُجْمِعُ كلَّ إرَادَتِهِ وَعَزِيْمَتِهِ مُبَادِراً بِهَا .

الثالثُ : تَخْلِيْصُهَا مِن الشَّوَائِبِ والعِلَلِ القَادِحَةِ في اخْلاَصِهَا وَوُقُوْعِهَا لِمَحْضِ الخَوْفِ مِن خَشْيَةِ اللّهِ ، والرَّغْبَةِ فِيْمَا لَدَيْهِ ، والرَّهْبَةِ مِمَّا عِنْدَهُ ، لا كَمَنْ يَتُوبُ لِحِفْظِ جَاهِهِ وحُرْمَتِهِ وَمَنْصِبِهِ ورِيَاسَتِهِ ، أو لِحِفْظِ حَالِهِ أو لِحِفْظِ قُوَّتِهِ وَمَالِهِ أو اسْتِدْعَاءِ حَمْدِ الناسِ أو لِهَرَبٍ مِن ذَمِّهِمْ أَوْ لِئَلاَ يَتَسَلَّطْ عَلَيْهِ السُّفَهَاءُ أو لِقَضَاءِ نَهْمَتِهِ مِن الدنيا أو لإفلاسِهِ وَعَجْزِهِ وَنَحْوَ ذَلِكَ مِن العِلَلِ الَّتِي تَقْدَحُ في صِحَّتِهَا وَخُلُوصِهَا لِلّهِ عَزَّ وَجَلَّ أ هـ .

وأخْبَرَ أَنَّهُ غَفَّارٌ لِذُنُوبِ التَّائِبِيْنَ ، فقال عَزَّ شَأْنُه : ﴿ والذينَ اذا فَعَلُوا فاحِشةً أو ظَلَمُوا أَنْفُسَهم ذَكَرُوْا اللّهَ فاستغفروا لِذُنُوبهم وَمَن يَغفرُ الذنوبَ إلاَّ اللّهُ ولَمْ يُصِرُوا على ما فَعَلُوا وهُم يَعْلَمُون . أولئكَ جَزَاؤُهم مَغْفِرَةٌ مِن رَبِّهم وجَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحتِهَا الأَنهارُ خالدينَ فِيها وَنِعْمَ أجرُ العامِلين ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ وتُوبُوا إلى اللّهِ جميعاً أَيُها المؤمنونَ لَعَلَكم تُفْلِحُون ﴾ وأخبرَ سبحانَه أنه يُحِبُ التوابينَ ، فقال تعالى : ﴿ إنَّ اللّه يُحِبُ التوابينَ ﴾ .

وقال النَبي صلّى اللّه عليه وسلم : « يا أيُها الناسُ تُوبُوا إلى اللّهِ واستَغْفِرُوْهُ فإني أَتُوبُ في اليوم مائةَ مَرة » رواه مسلم .

وقال صلى الله عليه وسلم : « والله إني لاستغفرُ اللّهَ وأتُوبُ اليه في اليومِ أكثرَ مِنْ سَبْعِيْنَ مَرَّة » رواه البخاري .

وقال صلّى الله عليه وسلم : « لَلّهُ أَشَدُ فَرَحاً بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ حِيْنَ يَتُوبُ إليهِ مِنْ أَحدِكُم كانَ على رَاحِلتِه بأرضِ فلاةٍ فانفَلتَتْ منه وَعَليهَا طَعامُه وَشَرَابُه فأَيِسَ منها ، فأتَى شَجرةً فاضْطَجَعَ في ظِلِّهَا وَقَدْ أَيِسَ مِن رَاحِلَتِهِ فَبَيْنَمَا هُو كَذَلِكَ إِذْ هُوَ بِهَا قائِمةً عندَهُ فأَخَذَ بِخِطامِهَا ، ثُمَّ قَال مِن شِدَّةِ الفَرَحِ : اللهم أنْتَ عَبْدِي وأنا رَبُكَ ، أخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الفَرَحِ » الحديث رواه مسلم .

وقال صلّى الله عليه وسلم : « إِنَّ اللّهَ تَعَالى يَبْسُطُ يَدَهُ باللّيلِ لِيَتُوْبَ مُسيءُ النهارِ ويَبْسُطُ يَدَهُ بالنهارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ الليلِ حتَّى تَطْلُعَ الشمسُ مِن مَغْرِبِهَا » رواه مُسلم .

والأحاديثُ في هذا كَثِيْرةٌ ، والاجماعُ مُنْعَقِدٌ عَلى وُجُوْبِ التَّوبَةِ لأَمْرِ اللّهِ ورسولِهِ بها ، ولِأن الذنوبَ مُهْلِكاتٌ مُبْعداتٌ عن اللّهِ فَيَجِبُ الهَرَبُ مِنْها على الفَورِ ، ولْيَحْذَرْ الإنسانُ كُلَّ الحذرِ مِن الذنوبِ الكبَائِرِ والصَّغائِرِ . وُوُجُوبُ التوبةِ مِن الكبائرِ أَهَمُّ وآكدُ ، والاصْرارُ على الصغيرةِ أيضاً كبيرةٌ ، فلا صَغِيرةَ مع الإصْرارِ ولا كَبيرةَ مَعَ التوبةِ والْاسْتِغْفارِ . وَتواتُرُ الصَّغائِرِ عظيمُ التأْثيرِ في تسْوِيدِ القلبِ وهوَ كَتواتُرِ قَطراتِ الماءِ على الحَجَرِ ، فإنهُ يُحْدِثُ فيهِ حُفْرَةً لا مَحالةَ مَعَ لِيْنِ الماءِ وَصَلابةِ الحجرِ . فَعَلَى العاقِلِ أن يَسْتَرْصِدَ قَلبَهُ باسْتِمْرَارٍ ويُراقِبَ حركاتِهِ وَيُسجّلَ تصَّرُفَاتِهِ ولا يَتَساهلَ ولا يقولَ إنها مِن التوافِهِ الصِغارِ وَصَدَقَ رسولُ اللّهِ صلّى اللّهُ عليهِ وسلّم حيثُ يقولُ : « إياكُمْ وَمُحَقّراتِ الذنوبِ

فإنهنَّ يجْتمعْنَ على الرجلِ يُهْلِكنَه .

وَإلى هذا المَعْنَى أشَارَ الشاعرُ :

ولا تَحْتَقِرْ كَيْدَ الضَّعِيْفِ فَرُبَّما
تَمُوْتُ الأَفَاعِيْ مِن سُمُومِ العَقَارِبِ
وَقَدْ هَدَّ قِدْمَاً عَرْشَ بَلْقِيْسَ هُدْهُدُ
وَخَرَّبَ حَفْرُ الفَارِ سَدَّ مَآرِبِ

وقال الآخر :

لا تَحْقِرَنَّ صَغِيراً في مُخَاصَمَةٍ
إنّ البَعُوضَةَ تُدْمِي مُقْلَةَ الأَسَدِ

وكما أنَّ خيرَ الأعْمالِ الصالحةِ أدْوَمُها وإنْ قَلَّ ، وأيضاً الكبائرُ قَلَّما تَقَعُ مِن غَيرِ سَوابِقَ وَمُقَدِّماتٍ مِن الصَغائِرِ ، فَمَثَلاً الزنا ـ والعِيَاذُ باللّهِ ـ قَلّمَا يَقَعُ فَجْأَةً بل تَتَقَدَّمُ عليهِ مُرَاوَدَةٌ أو قُبْلَةٌ أو لَمْسٍ .

اللهم أرزِقْنَا العَافِيَةَ في أبْدانِنَا والعِصْمَةَ في دِيْنِنَا وأَحْسِنْ مُنْقَلَبَنَا وَوَفِّقْنَا لِلْعَمَلِ بطاعَتِكَ أبَدَاً ما أبْقَيْتَنَا واجْمَعْ لَنَا بَينَ خَيْرَيَ الدنيا والآخِرةِ واغْفِرْ لنا وَلِوالِدِيْنا وَلِجَميعِ المسلمين الأحياءِ منهُمْ والميّتِين برحْمتِكَ يا أرحَمَ الراحمين وصلّى اللّهُ على محمدٍ وعلى آلِهِ وَصَحْبِهِ أجمعين .

الفصل الثاني

قال ابنُ القَيمِ رَحِمَهُ اللّهُ : وللمَعَاصِي من الآثارِ المُضِرَّةِ بالقلبِ والبَدَنِ في الدنيا والآخرةِ ما لا يَعْلَمُهُ إلا اللّه ، فمنها أنها مَدَدٌ مِنَ الإنسانِ يَمُدُّ بِهِ عَدُوَّهُ عليهِ وَجَيْشٌ يُقَوِّيهِ بِهِ على حَرْبِهِ ومِن عُقُوباتِها أَنَّهَا تَخُونُ العَبْدَ أَحْوَجَ ما يكون إلى نفْسِهِ . ومنها أنها تُجَرِّىءُ العبدَ على مَنْ لم يكُنْ يَجْتَرِىءُ عَليهِ . وَمنها الطَبْعُ على القلب إذا تكاثَرَتْ حتى يَصيرَ صَاحبُ الذَنْبِ منَ الغافِلين ، كما قال بعضُ السَلَفِ في قوله تَعَالى : « كلا بَلْ رانَ على قلوبهِمْ ما كانوا يَكْسِبُون » هو الذَنْبُ بعدَ الذنْبِ وقال : هو الذَنْبُ على الذنْبِ حتى يَعْمَى القلبُ . وأصْلُ هذا أنَّ القَلْبَ يَصْدأُ مِنَ المعصيةِ فإذا زادَتْ غَلَبَ الصدأُ حتى يَصيرَ رَاناً ثم يغلبُ حتى يَصِيرَ طَبْعاً وَقَفْلاً وَخَتْماً فَيَصِيرَ القلبُ في غِشَاوةٍ وَغِلافٍ .

ومنها إفْسادُ العقلِ فإنَّ العقلَ نُورٌ والمعصيةُ تُطْفىءُ نُورَ العقلِ .

ومنها أن العبدَ لا يَزالُ يَرْتَكِبُ الذُنوبَ حتى تَهونَ عليهِ وَتَصْغُرَ في قلبِهِ .

ومنها أنْ يَنْسَلِخَ مِنَ القلبِ آسْتِقْباحُها فتصيرَ لهُ عادةً .

ومنها أنَّ المعاصِيَ تزْرَعُ أمثالَها وَيُوَلِّدُ بعضُها بَعضاً .

ومنها ظُلْمَةٌ يَجِدُها في قلبِهِ يُحِسُّ بِها كما يُحِسُّ بِظُلْمَةِ الليلِ .

ومنها أنَّ المعاصِيَ تُوهنُ القلبَ والبَدَنَ أمّا وَهَنُها لِلْقلبِ فَأمْرٌ ظاهِرٌ بل لا تزالُ تُوهِنُهُ حتى تُزيلَ حياتَهُ بالكُلِيّةِ وأمَّا وَهَنُها للبَدَنِ فانّ المؤمنَ قُوتُهُ في قلبِهِ وكُلّما قَوِيَ قلبُهُ قَوِيَ بَدَنُه .

وَمِنْها أنّ المعاصِيَ تَمْحَقُ العُمْرَ إذْ أنَّ المَعاصِيَ كُلَّها شُرُورٌ .

وَمِنْهَا شَمَاتَةُ الأَعْداءِ فَإنّ المَعَاصِيَ كُلَّها أَضْرارٌ في الدِّينِ والدُّنْيا وَهَذَا مَا يُفَرِّحُ العَدُوَّ وَيُسِيءُ الصَّديقَ .

وَمِنْهَا تَعْسيرُ أُمُورِهِ فَلا يَتَوَجَّهُ لِأمْرٍ إلاَّ يَجِدُهُ مُغْلَقاً دُوْنَه أَوْ مُتَعَسِّراً عَلَيْه .

وَمِنْهَا الْوَحْشَةُ الَّتي تَحْصُلُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّاسِ وَلاَ سِيَّمَا أَهلُ الخَيْرِ . وَمِنْهَا حِرْمَانُ دَعْوَةِ الرَّسُولِ صَلّىٰ اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَدَعْوةِ الملاَئِكَةِ لِلَذِيْنَ تابُوا وَمِنْهَا أنَّ الذُّنُوبَ تَدْخُلُ العَبْدَ تَحْتَ لَعْنَةِ رَسُولِ اللّهِ صلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ .

وَمِنْهَا أَنَّها تُحْدِثُ في الأَرْضِ أَنواعاً مِنَ الفَسَادِ في المِيَاهِ وَالْهَوَاءِ والزَّرْعِ وَالثِّمارِ والمَسَاكِن .

وَمِنْهَا أَنَّها تُطْفِىءُ مِنَ الْقَلْبِ نارَ الغَيْرَةِ .

وَمِنْهَا ذَهَابُ الحيَاءِ الذِي هُوَ مَادَّةُ حَيَاةِ القلبِ .

وَمِنْهَا أنَّها تُضْعِفُ في القلبِ تَعْظِيمَ الرّبِّ وَتُضْعِفُ وَقَارَهُ في قَلْبِ العَبْدِ .

وَمِنْهَا أنّهَا تَسْتَدْعِي نِسْيَانَ اللّهِ لِعَبْدِهِ وَتَرْكِهِ . وَمِنْهَا أنَّهَا تُخْرِجُ العَبْدَ مِنْ دائِرةِ الإِحْسَانِ وَتَمْنَعُهُ ثَوابَ المُحْسِنِين . ومِنْهَا أنّها تُضْعِفُ سَيْرَ القَلبِ إلى اللّهِ والدَّارِ الآخِرَةِ . ومنها أنّها تَصْرِفُ القلبَ عنْ صِحَّتِهِ واسْتِقَامَتِهِ .

وَمِنْهَا أنَّها تُعْمِي بَصِيرَةَ القلبِ وَتَطْمِسُ نُورَهُ وَتَسُدُّ طُرُقَ العِلْمِ . وَمِنْهَا أنَّها تُصَغِّرُ النَفْسَ وَتَحْقِرُهَا وَتَقْمَعُهَا .

وَمِنْهَا أنَّ العَاصِيَ في أَسْرِ شَيْطَانِهِ وَسِجْنِ شَهَوَاتِهِ .

وَمِنْهَا سُقُوطُ الجَاهِ والمَنْزِلَةِ والكَرَامَةِ عِنْدَ اللّهِ وَعِنْدَ خَلْقِهِ . وَمِنْهَا أنَّها تُوجِبُ القَطيعَةَ بينَ العبْدِ وَبينَ رَبِّهِ . وَمِنْهَا أنَّهَا تَسْلُبُ صَاحِبَها أَسْماءَ المَدْحِ والشرَفِ . وَمِنْهَا أنَّها تَجْعَلُ صَاحِبَها من السَفَلةِ انتهى .

شعراً :

أَلاَ أَيُّهـا المُسْتَطرِفُ الـذَّنْبَ جَـاهِـداً
هُـوَ اللّهُ لا تَخْفَى عليـه السَّـرَائِـرُ
فـإِنْ كُنْتَ لم تَعْـرِفْـهُ حِيْنَ عَـصَيْتَـهُ
فـانَّ الـذِي لا يَـعْـرِفُ اللّهَ كَـافِـرُ
وإِنْ كُـنْتَ عـن عِـلْمٍ وَمَـعْـرِفَـةٍ بـهِ
عَصَيْتَ فـأَنْتَ الـمُسْتَهِيْنُ الـمُجَـاهِـرُ

فَـأَيَّـةَ حَـالَـيْـكَ اعْـتَـقَـدْتَ فـإِنَّـهُ
عليمٌ بـمـا تُـطْوَى عليـه الـضَـمَـائِرُ

اللهم اهْدِنا لِصَالِح الأعمالِ والأخلاقِ لا يَهْدِي لأَحْسَنِهَا إِلَّا أَنْتَ واصْرِفْ عَنَّا سَيِءَ الأَعْمَالِ والأخلاقِ لا يَصْرِفُ عَنَّا سَيِئَهَا إلا أنْتَ واغفِر لنا وَلِوَالدينا ولِجَميع الأحياءِ منهم والميتينَ برحمتك يا أَرْحَمَ الراحمين وصلّى اللّه على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

الفصل الثالث

قَالَ ابنُ القَيّم رَحمَه اللّهُ تعالى : ممَّا يَنْبَغِي أَنْ يُعْلَمَ أَنَّ الذنوبَ والمَعَاصيَ تَضُرُ ولا بُدَّ ، أنَّ ضَرَرَهَا في القَلْبِ كَضَرِرِ السُّمُومِ في الأبدانِ على إختلافِ دَرَجَاتِها في الضَرَرِ . وهَلْ في الدُنيا والآخِرَةِ شَرٌّ وداءٌ ، إلَّا بِسَبَبِ الذُنوبِ والمعاصِي ؟

الى أن قالَ رحِمَهُ اللهُ : فما الذي أخْرجَ الأبَوَيْنِ مِنَ الجنةِ والنَعيمِ واللَّذةِ والبَهْجَةِ والسُرور إلى دارِ الآلامِ والأحْزانِ والمصائِبِ وما الذي أخْرجَ إبْليسَ مِنْ مَلَكُوتِ السَمَاءِ وَطَرَدَهُ وَلَعَنَهُ وَمَسَخَ ظاهِرَهُ وباطِنَهُ فَجَعَلَ صُورَتَهُ أقْبَحَ صُوْرَةٍ وأشْنَعَهَا وباطِنَهُ أقْبَحَ مِنْ صُورَتِهِ وَأشْنَعَ وَبُدّلَ بالقُرْبِ بُعْداً وبالرَّحْمَةِ لَعْنَةً وبالجَمَالِ قُبْحاً وبالجنةِ ناراً تلظَّى وبالأيْمَانِ كُفْراً ، وَبِمُوَالاةِ الوَليّ الحَميدِ عَدَاوَةً وَمُشَاقّةً وبِزَجَلِ التَّسْبيْحِ والتَّقْدِيْسِ والتَّهْلِيلِ زَجَلَ الكُفْرِ والفُسوقِ والعِصْيَانِ ، فَهَانَ على اللّهِ تعالى غَايَةَ الهَوَانِ وسَقطَ مِنْ عَيْنِهِ غايَةَ السُقوط وحَلَّ عليْهِ غَضَبُ الربِّ تعالى فأهْوَاهُ ، وَمَقَتَهُ أكْبَرَ المَقْتِ فأرْدَاهُ ، فَصَارَ قَوَّاداً لِكُلِّ فاسِقٍ ومُجْرِمٍ رَضِيَ لِنَفْسِهِ بالقِيادَةِ بَعْدَ تِلْكَ العِبَادَةِ والسِّيادَةِ .

فَعِياذاً بِكَ اللهُمَّ مِنْ مُخالفَةِ أَمْرِكَ وآرْتِكابِ نَهْيِك .

وَمَا الذِي أَغْرَقَ أَهْلَ الأَرْض كُلَّهمْ حَتَّى عَلاَ الْمَاءُ فوقَ رُؤُوْسِ الجِبَال . وَمَا الذي سَلّطَ الريحَ على قَومِ عادٍ حتى أَلْقَتْهم مَوْتَى على وَجْهِ الأرضَ كأنَّهم أَعْجازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ودمَّرَتْ ما مَرّتْ عليه مِنْ دِيارِهِمْ وحُرُوْثِهِمْ وزُرُوْعِهِمْ وَدَوابّهِمْ حتى صارُوا عِبْرةً للأُمَمِ إلى يومِ القِيامةِ .

وَمَا الذي أَرْسل على قومِ ثَمُودَ الصَيْحَةَ حتى قَطَعَتْ قُلوبَهم في أَجْوَافِهِمْ وماتُوا عن آخِرِهم ، وما الذي رَفَعَ قُرى اللُوطيّةِ حتى سَمعتْ الملائكةُ بُباحَ كِلابِهِم ثم قَلَبَها عليهم فَجَعَلَ عالِيَها سافِلَها فأهلكهم جميعا ثم أَتْبَعَهم حجارةً مِنْ السماءِ أَمرَها عليهم فجمع عليهم مِنْ العُقوبَةِ ما لمْ يَجْمعْه على أُمَّةٍ غيرِهِم ، ولإِخْوانِهِم أمثالُها قال تعالى : ﴿ وَمَا هِيَ مِنَ الظالِمينَ ببعيد ﴾ .

وَمَا الذي أرسل عَلى قَومِ شُعَيْبٍ سَحَابَ العذابِ كالظُّلَلِ فَلَمَّا صَارَ فوقَ رؤوسِهِمْ أَمْطَرَ عليهم ناراً تلظَّى . وَمَا الذي أَغْرَقَ فرعونَ وقومَهُ في البحر ثم نُقِلَتْ أَرْوَاحُهُم إلى جَهَنَّمَ ، فالأَجْسَادُ لِلْغَرَقِ والأَرواحُ لِلْحَرَقِ ، وَمَا الذي خَسَفَ بقَارُوْنَ ودَارِهِ ومالِهِ وأَهْلِهِ ، وَمَا الذي أهلَكَ القُرُوْنَ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ بأنواعِ العُقوباتِ ودَمَّرها تدميراً ، وَمَا الذي أهلكَ قومَ صاحِبِ يَس بالصيحةِ حتى خَمَدُوا عنْ آخِرِهِم .

وَمَا الذي بعثَ على بني إِسْرائيلَ قوماً أُولى بأسٍ شديدٍ فجاسُوا خِلال الدِّيارِ وقَتَلوا الرِجالَ وسَبَوُا الذُرّيةَ والنسَاءَ ، وأحْرقوا الديارَ ونَهَبُوا الأموالَ ، ثم بَعَثَهُم عليهم مَرَّةً ثانِيَةً فأَهْلَكُوا ما قَدِرُوا عليه وتَبَّروا ما عَلَوْا تتْبيرا ، وَمَا الذي سَلَّط عليهم أنواعَ العُقوباتِ مَرَّةً بالقتل والسَّبْى وخَراب البلادِ ومَرَّةً بِجَوْرِ الملوكِ ومَرَّةً بمَسْخِهِمْ قِرَدَةً وخنازيرَ وآخِرُ ذلك أقسم

الربُّ تبارك وتعالى لَيَبْعَثَنَّ عليهم إلى يومِ القيامةِ مَنْ يَسُؤْمُهُمْ سُوءَ العذابِ .

شعراً :

دَعُـونِـيْ على نَـفْـسِـي أَنُـوحُ وأنْـدُبُ
بِـدَمْـعٍ غَـزِيْـرٍ واكِـفٍ يَـتَـصَـبَّـبُ
دعُـونِـيْ على نَـفْـسِـي أنـوحُ فـانَـنـي
أخَـافُ على نَفْسِي الضَّعِيْفـةِ تَـعْـطَبُ
وَإِنِّـيْ حَـقِـيـقٌ بـالـتَـضـرُّعِ والـبُـكَـا
إذا مـا هَـذَا الـنُّـوامُ والليـلُ غَـيْهَـبُ
وَجَـالَتْ دَوَاعي الحُـزنِ مِنْ كُـلّ جانبٍ
وغـارَتْ نُجُـومُ الليـلِ وانْقضَّ كَـوْكبُ
كَـفَى أَنَّ عَـيْـنِي بـالـدُمُـوعِ بَـخِـيْـلَةٌ
وأَنِّـيْ بـآفـاتِ الـذُنـوبِ مُـعَـذَّبُ
فَمَنْ لي إذا نـادَى المُنادِي بِمَنْ عَصَى
إلـى أيـنَ إلْـجَـائِي إلـى أَيْـنَ أهْـرُبُ
وقـد ظَهَـرتْ تِلكَ الفضـائـحُ كُلُّهـا
وَقَـدْ قُـرِّبَ الـمـيـزانُ والـنـارُ تَـلْهَـبُ
فَيَـا طُولَ حُـزْنِي ثم يـا طُـولَ حَسْـرَتِي
لئنْ كُنـتُ في قَـعْـرِ الجـحيـمِ أُعَـذَّبُ
فقـدّ فـازَ بـالمُلْكِ العَظيمِ عِصَـابـةٌ
تَبِيتُ قيـامـاً في دُجَى الليـلِ تَـرْهَبُ

إذا أشْرَفَ الْجَبَّارُ مِنْ فَوْقِ عَرْشِهِ
وقد زُيِّنَتْ حورُ الجِنانِ الكَواعِبُ
فَنَادَاهُمُ أهلاً وسهلاً ومَرْحَباً
أبَحْتُ لَكُمْ دارِي وما شِئْتُمُ اطْلُبُوا

قال العلمآءُ وتعظُمُ الصغيرةُ بأسبابٍ منها : أنْ يَسْتَصْغِرَها الانسانُ ويَسْتَهينَ بها فلا يَغْتمَّ بسببِها ولا يُبَالي ، ولكنَّ المؤمنَ المُجلَّ للّهِ المُعَظِمَ له هو المستعظمُ لذَنْبِهِ وإنْ صَغُر فإنَّ الذنْبَ كلَما آستعظَمَهُ العَبْدُ صَغُرَ عِنْدَ اللّهِ تعالى وكُلَما استصغرَهُ كَبُرَ عِنْدَ اللّهِ تعالى فإنَّ استعظامَهُ يَكونُ عَنْ نُفُورِ القلبِ مِنْهُ وكَراهيَتِهِ لَهُ .

قال ابنُ مسعودٍ : إنّ المؤمنَ يَرَى ذنْبَهُ كأنَّهُ في أصْلِ جَبَلٍ يَخَافُ أنْ يَقَعَ عليهِ وإنّ الفاجِرَ يَرَى ذنْبَهُ كذُبابٍ وقَعَ على أنفِهِ فقال بِهِ هَكَذَا ، أخْرَجاه في الصحيحين . وفي البُخاري مِنْ حَديثِ أنَسٍ رضِيَ اللّهُ عنْهُ : إنكُمْ لَتَعْمَلون أعْمَالاً هِيَ أدَقُّ في أعْيِنكُم مِنْ الشَعْرِ كُنّا لَنَعُدُّها على عَهدِ رسولِ اللّهِ صلى اللّهُ عليهِ وسلمَ مِنْ المُوبِقَاتِ .

وقَالَ بِلالُ بنُ سعدٍ رضِيَ اللّهُ عنْهُ : لا تَنْظُرْ إلى صِغَرِ الخَطِيئةِ ولكنْ انظُرْ إلى عَظَمَةِ مَنْ عَصَيْتَ . ومنها : السُرورُ بِها والتَبَجُّحُ بسببِها واعتِقَادُ التَّمكُّنِ منها نِعْمةً حتى إنَّ المُذنِبَ المُجاهِرَ بالمَعاصِي لَيَفْتخِرُ بِها فيقولُ : ما رَأيتَني كيف شَتَمتُهُ وكَيْفَ مَزَّقْتُ عِرْضَه وكَيْفَ خَدَعتُهُ في المُعَامَلَةِ .

ومنها : أن يَتَهَاوَنَ بِسترِ اللّهِ عَلَيهِ .

ومنها : أن يُجاهِرَ بالذنْبِ ويُظْهِرَهُ ويَذْكُرَهُ بعدَ فِعْلِهِ ، وقد قال صلى اللّه عليه وسلم : « كلُّ أُمتي مُعَافىً إلا المُجاهِرُون » . ومِنها : أنْ تَصْدُرَ الصغيرةُ عنْ عالِمٍ يُقْتَدَى بَهَ فذلك عظيمٌ ، لِأَنه يَتْبَعُهُ عليها خَلْقٌ كثيرٌ ، ويَبْقَى أثرُهَا بَعْدَهُ .

اللهمَّ كَما صُنْتَ وجُوْهَنا عنِ السُّجُودِ لِغيرِكَ فَصُنْ وُجُوْهَنا عنِ المسألةِ لِغَيْرِكَ . اللهم مَنْ كان على هَوَىً وهو يَظُنُّ أنه عَلى الحقّ فرُدَّهُ إلى الحقِ حَتَّى لا يَظِلَّ مِنْ هذِهِ الأُمةِ أَحَدٌ . اللهم لا تَشْغَلْ قُلوبَنا بمَا تكفَّلتَ لنا بِهِ ولا تَجْعَلْنَا في رِزْقِكَ خَوَلاً لِغَيرِكَ ولا تَمْنَعْنَا خَيرَ ما عِندَكَ بشرِّ ما عِندَنا واغفرْ لنا ولِوَالِدِيْنَا ولَجَمِيْعِ المُسْلِمِينَ الأَحْيَاءِ مِنْهُمْ والميتين برحمَتِك يا أرحمَ الراحمين ، وصلى اللّه على مُحَمَدْ وآلِهِ وصحبِهِ أجمعين .

الفصل الرابع

واعلمْ أنَّ التوبةَ إذا صحتْ بأَنِ اجْتمعتْ شروطُها وانْتفَتْ مَوانِعُها قُبِلتْ بلا شكٍ إذا وقَعتْ قبلَ نزولِ الموتِ ، لو كانتْ عن أيِّ ذنْبٍ كانَ وقبلَ طُلوعِ الشمسِ مِنْ مغْرِبِها كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَأْتي بعضُ آياتِ ربِك لا ينفعُ نفساً إيْمانُها لم تَكُنْ آمَنتْ مِنْ قبلُ أو كسَبَتْ في إيمانِها خيراً ﴾ .

وأخرجَ الإمامُ أحمدُ والترمذيُّ عن آبنِ عُمرَ أنَّ رسولَ اللّهِ صلى اللّهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « إنّ اللّهَ تعالَى يَقْبَلُ توبةَ العبْدِ ما لمْ يُغَرْغِرْ أيْ ما لمْ تَبْلُغْ روحُهُ حُلْقومَهُ فيكونُ بمَنْزلةِ الشْيءِ الذي يَتَغَرْغرْ بِهِ الْمَريضُ ، والغَرْغَرةُ أنْ يُجْعلَ المَشْرُوْبُ في الفمِ ويُرَدَّدَ إلى أصْلِ الحَلْقِ ولا يُبْلَعَ ، فهذه الحالةُ حالةُ حُضور الموتِ وبعدَ حُضورِ الموتِ لا يُقْبَلُ مِن العاصِينَ تَوبةٌ ولا مِنَ الكَافرينَ رُجوعٌ كما قال تعالى عن فِرعونَ : ﴿ فَلَمَّا أَدْرَكَهُ الغَرَقُ قال : آمنتُ أنَّهُ لا إلهَ إلا الذي آمنَتْ بِهِ بَنُو إسرائيل ﴾ .

ومِنَ المُعَوّقاتِ الضَّارَّةِ التَّسْويفُ بالتَّوْبَةِ فَمِنْ أَيْنَ يَعْلمُ الانسانُ . أنه يَبْقَى إلى أنْ يَتوبَ فتَارِكُ المُبَادَرَةِ بالتوبةِ بَيْنَ خَطَرَيْنِ عَظِيْمَينِ أحَدُهُما

أَنْ تَتَرَاكَمَ الظُّلْمَةُ على قَلْبِهِ مِنَ المَعَاصِي حتى تَصِيْرَ رَيْناً وَطَبْعاً وثانِيْهِمَا أنْ يُعَاجِلَهُ المَرَضُ فلا يَجِدَ مُهْلَةً لِلاشْتِغالِ بِمَحْوِ ما وَقَعَ مِنَ الظلمةِ في القَلْبِ فَيَأتي رَبَّه بقلبٍ غيرِ سَليمٍ ولا يَنْجُو إلا مَنْ أتى اللّهَ بقلبٍ سليمٍ .

ويَجبُ على الانسانِ أنْ لا يَمْتَنِعَ مِنَ التوبةِ خشْيةَ الوُقُوْعِ في ذَنْبٍ مَرّةً أُخْرَى فإنّ هذا ظنٌ يُدْخِلُهُ الشيطانُ في قلْبِهِ لِيُؤخِرَ التوبةَ وَلَرُبَّمَا يَقُولُ في نَفْسِهِ سَأسْتَمِرُّ في المعاصِي أيَّامَ شَبَابِي وصِحَّتي ثُمَّ أتوبُ بعدَ ذلك ، وهكذا يُسَوِّفُ ويُؤخّرُ ، واذا بالموتِ أو المرضِ يُفاجِئُهُ فلا يَجِدُ مُتَّسعاً للتوبةِ والرّجوعِ الى اللّهِ . نعوذُ باللّهِ مِنْ سوءِ الخاتِمَةِ . ولِذلكَ كان السلَفُ الصالحُ تكادُ تنخلعُ قلوبُهم في كلِ مَرْضةٍ يَمْرَضُونَها ، لاحْتِمالِ أنْ تكونَ تلك المَرْضَةُ إخراجاً لهم مِنَ الدُنيا قبلَ أن يَتَمَكنوا مِنْ تَدارُكِ ما فاتَ مِنَ الهَفَواتِ بالتوبةِ النّصُوحِ وللاسْتِكْثارِ مِنَ الباقياتِ الصالحاتِ . ومَرِضَ مرةً بعضُ الصالحينَ فدخلَ عليهِ أصحابُهُ يَعُودُوْنَهُ فقالوا له كيفَ تجِدُكَ ؟ قال : مُوَقّراً بالذنوبِ فقالوا : هَلْ تَشْتَهي شيئاً ؟ قال : نعم ! أنْ يَمُنَّ عليَّ ربي بالتوبةِ عن كلِ ما يَكرَهُ قبلَ موتي .

وقد قال العلماءُ ما مِثالُ المُسَوّفِ بالتوبةِ إلاَّ مِثالُ مَنْ احتاج الى قلْعَ شجرةٍ فرآها قَويةً لا تنقلعُ إلا بمشقةٍ شديدةٍ فقال : أؤخِرُها سنة ثُم أعودُ إليها وهو يعلمُ أنّ الشجرة كُلما بَقِيتْ ازدادتْ قوةً لرُسُوخِها وكلما طال عُمُرُهُ ازْدَادَ ضَعْفُه فلا حَماقةَ في الدنيا أعظمُ مِن حَماقتِهِ إذْ عَجَزَ معَ قُوَّتِهِ عن مُقاومةِ ضعيفٍ فأخَذَ يَنْتَظِرُ الغَلَبَةَ عليه إذا ضعُفَ هو في نفسِهِ وقوِيَ الضعيفُ .

قال ابنُ القيمِ رحمه اللّه : إذا أراد اللّهُ بعبدِهِ خيراً فَتَحَ لهُ أبوابَ

التوبةِ والندَمِ والانكِسارِ والذُلِ والافتقارِ والاستِعانَةِ بِهِ وصِدْقَ اللجأ اليهِ ودوامَ التضرُّعِ والدعاءِ والتقربِ اليهِ بما أمكنَ مِنَ الحسناتِ ما تكونُ تلكَ السيئةُ به سببَ رحمتِهِ حتى يقولَ عدُوُّ اللّهِ يا ليتَنِي تركتُهُ ولمْ أُوقِعْهُ وهذا معنى قولِ بعض السلفِ إنّ العبدَ لَيَعْمَلُ الذنبَ يَدْخُلُ بِهِ الجنةَ ويَعملَ الحسنةَ يدخلُ بها النارَ قالوا : كيفَ ؟ قال : يعملُ الذنبَ فلا يزالُ نُصْبَ عينيهِ خائفاً منهُ مُشْفِقاً وَجلاً باكياً نادِماً مُسْتَحْيِاً مِنْ رَبّهِ تعالى ناكِسَ الرأسِ بَينَ يدَيهِ مُنْكَسرَ القَلْبِ له فيكونُ ذلك الذنبُ أنفعَ له مِنْ طاعاتٍ كثيرةٍ بما ترتَّبَ عليه مِنْ هذه الأمورِ التي بها سعادةُ العبدِ وفلاحُهُ حتى يكونَ ذلك الذنبُ سببَ دخولِ الجنةِ .

ويَفْعَلُ الحَسَنةَ فلا يَزَالُ يَمُنُّ بها على ربهِ ويَتَكَبَّرُ بها وَيَرَى نَفْسَهُ شيئاً ويُعجَبُ بها ويَسْتَطِيْلُ بها ويقولُ فَعَلْتُ وفَعَلْتُ ، فيُورِثُهُ مِنَ العُجْبِ والكِبْرِ والفَخْرِ والاسْتِطالَةِ ما يكونُ سببَ هلاكِهِ .

فاذا أرادَ اللّهُ تعالى بهذا المسكينِ خيْراً ابْتَلاهُ بأمرٍ يَكْسِرُهُ به ويُذِلُ به عُنقَهُ ويُصَغِّرُ بِهِ نَفْسَهُ عندَه ، وإذا أراد بِهِ غيرَ ذلك خَلاَّهُ وعُجْبَهُ وكِبْرَهُ وهذا هو الخِذْلانُ المُوْجِبُ لِهَلاكِهِ فإنَّ العارفينَ كلَّهمْ مُجْمعون على أن التوفيقَ هو أنْ لا يَكِلَكَ اللّهُ تعالى إلى نفسِكَ ، والذلَّ أنْ يَكِلَكَ اللّهُ إلى نفسِكَ . انتهى .

يا مَنْ يُغِيْثُ الوَرَى مِنْ بَعْدِ ما قَنَطُوا
إرْحَمْ عِبادَاً أَكُفَّ الفَقْرِ قَدْ بَسَطُوا
عَوَّدْتَهُمْ بَسْطَ أرْزَاقٍ بلا سَبَبٍ
سِوَى جَمِيلِ رَجَاءٍ نحوَهُ انْبَسَطُوا

وَعَدْتَ بالفَضْلِ في وِرْدٍ وفي صَدَرٍ
بالجُودِ إنْ أَقْسَطُوا والحِلْمِ إنْ قَسَطُوا
عَوارِفُ ارْتَبَطَتْ ثُمَّ الأُنوفِ بها
وكُلُّ صَعْبٍ بقَيْدِ الجُوْدِ يَرْتَبِطُ
يا مَنْ تَعَرَّفَ بالمَعروفِ فاعْتَرَفَتْ
بِجَمِّ إنْعامِهِ الأطرافُ والوَسَطُ
وعالِماً بخَفِيَّاتِ الأُمُورِ فلا
وَهْمٌ يَجُوزُ عليهِ لا ولا غَلَطُ
عَبْدٌ فَقِيرٌ بِبَابِ الجُوْدِ مُنْكَسِراً
مِنْ شأنِهِ أنْ يُوافي حِيْنَ يَنْضَغِطُ
مَهْمَا أَتَى لِيَمُدَّ الكفَّ أخجَلهُ
قَبَائحُ وخَطايَا أَمْرُها فَرَطُ
يا واسعاً ضاقَ خَطْوُ الخَلْقِ عنْ نِعَمٍ
منه إذا خَطَبُوا في شكرِها خَبَطُوا
وناشراً بِيَدِ الإجْمالِ رَحْمَتَهُ
فلَيْسَ يَلْحَقُ منه مُسْرِفاً قَنَطُ
إرْحَمْ عِباداً بضَنْكِ العَيشِ مالَهُمُ
غَيرُ الدُجْنّةِ لُحْفٌ والثَّرى بُسُطُ
لَكنَّهم مِنْ ذُرَى عَلْياكَ في نَمَطٍ
سَامٍ رفِيْعِ الذُرَى ما فَوقَه نَمَطُ
وَمَنْ يَكُنْ بالذي يَهواهُ مُجْتَمِعاً
فما يُبالي أقَامَ الحَيُّ أَمْ شَحَطُوا

نَحْنُ العَبِيْـدُ وأَنْتَ المَلْكُ لَـيْسَ سِـوَى
وكـلُ شَـيءٍ يُـرَجَّـى بَـعْـدَ ذا شَـطَطُ

اللهم ألْهِمْنا القيامَ بحقِك ، وباركْ لنا في الحلالِ مِنْ رِزقِك ، ولا تفضحنا بين خلقك ، يا خيرَ مَنْ دعاه داعٍ وأفضلَ مَنْ رجاه راج يا قاضِيَ الحاجاتِ ويا مجيبَ الدعواتِ هَبْ لنا ما سألناه وحَقّقْ رجاءَنا فيما تمنيناه وأمّلْناه يا مَنْ يملكُ حوائجَ السائلينَ ويعلمُ ما في ضَمائِرِ الصامِتين ، أذقْنا بَرْدَ عفوِك ، وحلاوة مغْفِرَتِك ، يا أرحمَ الراحمين وصلى اللّه على محمد وآله وصحبه أجمعين .

الفصل الخامس

وقال رحمه الله :

إعلَمْ أن صاحبَ البصيرةِ إذا صدرتْ منه الخطيئةُ فلهُ نَظَرٌ إلى أمور : أحدُها أنْ ينظرَ إلى أمرِ اللّهِ وَنَهْيِهِ فيُحْدِثَ له ذلك الاعترافَ بكونِهَا خطيئةً . والإقْرَارَ على نفسِه بالذَنْب . والثاني أنْ ينظرَ إلى الوعدِ والوعيدِ فيُحْدِثَ له ذِلك خوفاً وخشْيةً تحْمِلُهُ على التوبةِ . والثالثُ أَنْ يَنْظُرَ إلى تَمْكِينِ اللهِ لَهُ مِنها وتَخْلِيَتِهِ بَيْنَه وَبَيْنَها وَتَقْدِيرِها عليه وأنه لو شاء لِعَصَمَهُ منها فَيُحْدِثَ له ذلك أنواعاً مِنَ المعرفةِ باللهِ وأسمائِهِ وصِفاتِهِ وحِكْمَتِهِ ورَحْمَتِهِ وعَفوِهِ وحِلمِهِ وكرمِهِ وتوجبُ له هذه المعرفةُ عُبوديةً بهذه الأسماءِ لا تحصُلُ بدُونِ لَوَازِمِها البَتَّةَ وَيَعْلَمُ ارتباطَ الخلق والأمرِ والجزاءِ والوعْدِ والوعيدِ بأسمائِهِ وصفاتِهِ وأنَّ ذلك بموجبِ الأسماءِ والصفاتِ وأثرها في الوجودِ وأنَّ كلَ اسمٍ وصِفةٍ مُقْتَضٍ لأثَرِهِ وَمُوْجِبُهُ مُتَعَلِّقٌ بِهِ لا بُدَّ منه .

وَهَذا المَشْهَدُ يُطْلِعُهُ على رِياضٍ مُوْنِقَةً مِن المَعَارِفِ والإيمانِ وأسْرَارِ القَدَرِ والحِكمَةِ يَضِيْقُ عن التعبيرِ عنها نِطاقُ الكَلِمِ فَمِنْ بعضِها ما ذكره الشيخُ « يُريدُ صاحِبَ المنازلِ » : أنْ يَعْرِفَ العبدُ عِزَّتَهُ في قَضَائِهِ

وَهُوَ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ العَزِيْزُ الذي يَقْضِي بما يشاءُ وأنه لِكمالِ عزتِهِ حَكَمَ على العبدِ وقضى عليهِ بأنْ قلبَ قَلْبَهُ وصرَّفَ إرَادَتَه على ما يَشَاءُ وحالَ بينَ العَبْدِ وقلبِهِ وَجَعَلَهُ مُـرِيْـدَاً شائِياً لِمَا شَاءَ مِنْه العَزيزُ الحَكِيمُ وهذا مِنْ كَمالِ العِزَّةِ ، إِذْ لا يَقْدِرُ على ذَلِكَ إِلَّا اللهُ وغايةُ المَخْلُوقِ أَنْ يَتَصَرَّفَ في بَدَنِكَ وظاهِرِكَ ، وأمَّا جَعْلُك مُرِيداً شائياً لِمَا يَشَاؤُهُ مِنْكَ وَيُرِيْدُه فلا يَقدَرُ عليهِ إلا ذُوْ العِزَّةِ البَاهِرَةِ .

فإذا عرف العبدُ عِزَّ سيدِهِ ولاحظَ بقلبِهِ وتمكَّنَ شهودُهُ مِنهُ كان الاشتغالُ بهِ عن ذُلِّ المَعصيةِ أولى بهِ وأنفعَ له لِأَنَّهُ يَصْيرُ مَعَ اللهِ لا مَعَ نَفْسِهِ ، ومِنْ مَعْرِفةِ عِزتِهِ في قَضَائِهِ أَنْ يَعْرِفَ أنه مُدَبَّر مَقْهُورٌ ناصيتُهُ بِيدِ غيرِهِ لا عِصْمَةَ لَه إلَّا بِعِصْمَتِهِ ولا تَوفيقَ له إلَّا بِمَعُوْنَتِهِ فَهُوَ ذَليلٌ حقيرٌ في قبضةِ عَزيزٍ حميدٍ .

وَمِنْ شُهودِ عزَّتِهِ في قَضَائِهِ أَنْ يَشْهَدَ أَنَّ الكَمَالَ والحَمْدَ والغِنَى التامَّ والعزةَ كلَهَا لِلهِ وأَنَّ العَبْدَ نَفْسَهُ أَوْلى بالتقصيرِ والذمِّ والعَيبِ والظُلمِ والحَاجةِ وكُلَّمَا ازدادَ شُهودُهُ لِذلِّهِ وَنَقْصِهِ وَعَيْبِهِ وَفَقْرِهِ ازدادَ شهودُهُ لِعِزَّةِ اللهِ وَكَمالِهِ وَحَمْدِهِ وَغِنَاهُ وكذلك بالعكسِ فنقصُ الذنْبِ وذِلتُهُ يُطْلعُهُ على مَشْهَدِ العِزّةِ .

ومنها أن العبدَ لا يُريدُ مَعْصِيَةَ مَوْلَاهُ مِنْ حَيثُ هِيَ مَعْصِيَةٌ فاذا شَهِدَ جَرَيَانَ الحُكْمِ وَجَعْلَهُ فَاعلاً لِمَا هُوَ مُختارٌ ، له مُرِيداً بإرَادتِهِ وَمَشيئتِهِ واختيارِهِ فكأنَهُ مُخْتَارٌ غَيْرُ مُخْتَارٍ مُرِيْدٌ شَاءٍ غيرُ شَاءٍ فهذا يَشْهَدُ عِزةَ اللهِ وعَظَمَتَهُ وكَمالَ قُدْرَتِهِ .

ومِنْ ذلك أن يَعرفَ بِرَّهُ سبحانَه في سَتْرِهِ عليهِ حالَ ارتكابِ المعصيةِ معَ كمالِ رؤيتِهِ لهُ ولو شاء لَفَضَحَهُ بينَ خَلْقِهِ فَحَذِرُوه وهذا مِن كمالِ بِرِهِ ومِنْ أسمائِه البَرُّ ،وهذا البرُ مِنْ سيدِهِ كانعن كمالِ غِنَاهُ وَكمالِ فقْرِ العبدِ إليهِ فيشتغلُ بمطالعَةِ هذه المِنةَ وَمُشَاهَدَةِ هَذا البِّرِ والاحسانِ والكرم فيَذهَلُ عن ذِكرِ الخَطِيْئَةِ فَيَبْقَى مَعَ اللهِ سبحانه وذلك أَنْفَعُ لهُ مِن الاشتغالِ بجنايَتِهِ وَشُهُوْدِ ذُلِ الْمَعْصِيَةِ فإنَّ الاشْتِغَالَ باللهِ والغَفْلَةَ عَمَّا سِوَاهُ هُوَ المَطْلَبُ الأعلى والمقصَد الأسْنَى .

ومنها شُهودُ حِلْمِ اللهِ سبحانه وتعالى في إمْهَالِ رَاكِبِ الخَطِيْئَةِ مُطْلقاً ولو شاءَ لَعاجَلَه بالعُقُوبَةِ ولكِنَهُ الحَلِيْمُ الذي لا يَعْجَلُ فَيُحْدِثُ له ذلك مَعْرِفَةَ رَبِهِ سبحانه بأسْمِهِ الحليمِ ومُشَاهَدَة صفةِ الحِلْمِ والتَّعَبُدِ بهذا الاسمِ . والحكمةُ والمصلحةُ الحاصلةُ من ذلك بتوسّطِ الذَنْبِ أحبُّ الى اللهِ وأصلحُ للعبدِ وأنفعُ من فَوْتِها ، ووجودُ الملزومِ بدونِ لازمِهِ مُمْتَنِعٌ ومنها مَعْرِفَةُ العَبْدِ كَرَمَ رَبِهِ في قُبولِ العذرِ منه إذا اعتذرَ إليهِ بنحْوِ ما تقدم مِن الاعتذارِ لا بالقَدَرِ فإنه مخاصَمَتُه وَمُحَاجّة .

ومنها أنْ يَشهدَ فضلَهُ في مَغفرتِهِ فإن المَغْفِرَةَ فضْلٌ مِن اللهِ وإلا فَلَو أَخذَ بمحْض حَقِّهِ كان عادِلاً مَحْمُوْداً .

وإنَّمَا عَفْوُهُ بِفَضْلِهِ لا باسْتِحْقاقِكَ فَيُوجبُ ذَلِكَ شُكراً لهُ وَمحبةً وإنابَةً إليه وفرحاً وابتهاجاً بهِ ومعرِفَةً له باسمِهِ الغفارِ وَمُشَاهَدَةً لِهَذِهِ الصِّفَةِ وَتَعَبُّداً بِمُقتَضاها وذلكَ أَكْمَلُ في العُبودِيةِ والمَحَبَّةِ والمَعْرِفَةِ .

ومنها أنْ يُكْمِلَ لِعَبدِهِ مَرْتَبَةَ الذُلِ والخُضوعِ والانكِسارِ بَينَ يَديهِ والافتقارِ اليه .

ومنها أنَّ أَسْمَاءَ الربِ تَقْتَضِي آثارَها اقْتضاءَ الأَسْبَابِ التَّامَّةِ لِمُسبَّباتِها فاسمُ السميعِ البصيرِ يَقْتَضِي مَسْمُوعاً وَمُبْصَراً ، واسْمُ الرَّزَّاقِ يَقْتَضِي مَرْزُوْقاً واسْمُ الرحِيمِ يَقْتَضِي مَرْحُوْماً وكذلك أسماء « الغَفورِ والعَفُوِّ والتوابِ والحَليم » يَقْتَضِي مَنْ يَغْفِرُ له وَيَتُوْبُ عليه وَيَعْفو ويَحْلمُ وَيَسْتَحِيْلُ تَعْطِيْلُ هَذِهِ الأسْماءِ والصفاتِ إذْ هِيَ أَسْمَاءُ حُسْنَى وَصِفَاتُ كَمَالٍ وَنُعوتُ جَلالٍ وأَفعالُ حِكمةٍ وإحسانٍ وَجُودٍ فلا بدّ مِن ظهورِ آثارِها في العالَم .

وإلى هذا أشار أعلمُ الخلقِ باللهِ صلواتُ اللهِ وسلامُه عليهِ حيثُ يَقولُ لو « لم تُذْنبوا لذهب الله بكمْ وَلَجَاءَ بقومٍ يُذنِبُونَ ثم يَسْتَغْفِرُوْنَ فَيَغْفِرُ لهم » وأَنْتَ إذا فرضْتَ الحيوانَ بجُمْلَتِهِ مَعْدُوْماً فَمَنْ يَرْزُقُ الرزاقُ سبحانهُ وإذا فَرَضْتَ المَعْصِيَةَ والخَطِيْئَةَ مُنْتَفِيَةً عن العالَم فلِمَنْ يغفرُ ؟ وعمَّنْ يَعْفُو ؟ وعلى مَن يتوبُ وَيَحْلَم ؟ وإذا فرضْتَ الفاقات كُلَها قد سُدَّتْ والعبيدَ أغنياءَ مُعافَيْنَ فأَيْنَ السُؤآلُ والتَّضَرُّعُ والابْتِهَالُ والإجَابةُ وَشُهودُ المنةِ والتخصيصُ بالانعام والاكرامِ فسُبْحانَ مَنْ تَعرَّف إلى خَلقِهِ بجميعِ أنواعِ التعرّفاتِ وَدَلّهم عليه بأنواعِ الدلالاتِ انتهى .

شعراً :

حَتَّى مَتَى تُسْقَى النُفوسُ بكأسِها
رَيْبَ المَنونِ وأَنْتَ لاهٍ تَلْعَبُ
عَجَباً لأَمْنِكَ والحَيَاةُ قصيرةٌ
وَبِفَقْدِ إلْفٍ لا تَزَالُ تُرَوَّعُ

أَفَقَدْ رَضِيْتَ بِأَنْ تُعلّلَ بِالمُنَى
وإلى الْمَنْيَّةِ كُلَّ يَومٍ تُدْفَعُ
لا تَخْدعَنَّكَ بَعْدَ طولِ تَجارُبٍ
دُنيا تَغُرُّ بوصْلِهَا وسَتُقْطَعُ
أَحْلامُ نَوْمٍ أو كَظِلٍّ زَايِلٍ
إنّ اللبيبَ بِمِثْلِها لا يُخْدَعُ
وَتَزَوَّدَنَّ لِيَومِ فَقْرِكَ دائماً
أَلِغَيْرِ نَفْسِكَ لا أَبَالَكَ تَجْمَعُ

اللهم أحْينا في الدنيا مؤمنينَ طائعينَ وتوفَّنا مسلمينَ تائبينَ واغفْر لنا ولوالِدِيْنا ولجميعِ المسلمينَ برحمتِكَ يا أرحمَ الراحمينَ وصلى اللهُ على محمدٍ وآلِهِ وصحبِهِ أجمعين .

الفصل السادس

وقالَ رَحِمَهُ اللهُ لِلتَوْبةِ المقُبولةِ علاماتٌ :

مِنْهَا أنْ يكونَ بعدَ التوبةِ خيراً مِمّا قبلَها ومنها أنَّه لا يزالُ الخوفُ مُصَاحِباً لهُ لا يأمنُ مكرَ اللهِ طرْفةَ عيْنٍ فخوفُهُ مُسْتَمِرٌّ إلى أنْ يَسْمَعَ قولَ الرُسُلِ لِقَبْضِ رُوْحِهِ (٤١) : ٣٠ ﴿ أَنْ لا تخافُوا ولا تَحْزَنُوا وأبْشِروا بالجنةِ التي كُنتُمْ توعَدون ﴾ فهُنا يَزُوْلُ الخوفُ .

ومنها انْخِلاَعُ القَلْبِ وَتَقطُّعُهُ نَدَماً وَخَوْفاً وهذا على قَدْرِ عِظَمِ الجِنَايةِ وَصِغَرِهَا . وهذا تأويلُ ابنُ عُيَيْنَةَ لقولِهِ تعالى (٩ : ١١٠) ﴿ لا يزآلُ بُنْيَانُهُم الذي بَنَوْا رَيبَةً في قُلُوبهم إلَّا أنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهم ﴾ . قال : تَقْطُعُها بالتَّوْبَةِ . وَلاَ رَيْبَ أنَّ الخَوفَ الشدِيْدَ مِنَ العُقوبةِ العَظيمَةِ يُوْجِبُ انْصِداعَ القَلْبِ وانْخِلاعَهُ .

وهذا هُوَ تَقَطُّعُهُ وهذا حَقِيْقَةُ التَّوْبَةِ لأَنَهُ يَنْقَطِعُ قَلْبُهُ حَسْرَةً على ما فَرَطَ منهُ وَخَوْفاً مِنْ سُوءِ عاقبَتِهِ فمَنْ لم يَنْقَطِعْ قَلْبُهُ في الدنيا على مَا فَرَّطَ حَسْرةً وَخَوْفاً تَقَطَّعَ في الآخِرَةِ إذا حُقَّتِ الحَقَائِقُ وعايَنَ ثَوابَ المُطِيْعينَ وَعِقابَ العاصِينَ فلا بُدَّ مِنْ تَقَطّعِ القَلْبِ إما في الدُنيا وإما في الآخرة .

ومِنْ مُوْجِباتِ التوبةِ الصحيحةِ أَيْضاً كَسْرَةٌ خاصَّةٌ تَحْصُلُ لِلْقَلْبِ لاَ يَشْبِهُهَا شَيءٌ ، ولا تكونُ لِغَيْرِ المُذْنِبِ لا تَحْصُلُ بجُوعٍ ولا رِياضَةٍ ولا حُبٍ مُجرَّدٍ وإنَّما هِيَ أمْرٌ ، وَرَاءَ هذا كُلِهِ ، تُكَسِّرُ القَلْبَ بَيْنَ يَدَي الرَّبِ كَسْرَةً تامةً قد أَحاطَتْ بِهِ مِنْ جَمِيْعِ جِهَاتِهِ وألقَتْهُ بين يَدَي رَبِهِ طَرِيْحاً ذَلِيْلاً خَاشِعاً كَحَالِ عَبْدٍ جَانٍ أَبَقَ مِنْ سَيِّدِهِ فأُخِذَ فأُحضِرَ بينَ يَدَيْهِ ولم يَجِدْ مَنْ يُنجِيْهِ مِن سَطْوتِهِ وَلَم يَجِدْ منه بُداً ولا عنه غَناءً ولا مِنهُ مَهْرَباً وَعَلِمَ أنّ حَيَاتَهُ وَسعادَتَه وفلاحَه ونجاحَه في رِضَاهُ عنهُ ، وقدْ عَلِمَ إحاطةَ سَيِّدِهِ بِتَفَاصِيْلِ جِنَايَاتِهِ ، هذا مَعَ حُبِهِ لِسَيِّدِهِ وشِدَّةِ حاجتِهِ إليهِ وعِلْمِهِ بِضَعْفِهِ وَعَجْزِهِ وَذُلِهِ وَقُوَّةِ سيدِهِ وَعِزَّتِهِ . فَيَجْتَمِعُ في هَذِه الأَحْوَالِ كَسْرَةٌ وذُلٌ وَخُضُوعٌ ما أنفعَهَا لِلْعَبدِ وما أَجْدَى عائِدَتُهَا عليهِ وما أعظمَ جبْرُهُ بها وما أَقْرَبَهُ بها مِن سَيِّدِهِ فليْسَ شَيءٌ أَحَبَّ إلى سَيِّدِهِ مِن هذِهِ الكسْرةِ والخُضوعِ والتذللِ والإِخْباتِ والانطِراحِ بَيْنَ يَدَيْهِ والاسْتِسْلامِ لَهُ .

فلِلهِ مَا أَحْلَى قَوْلَهُ في هذِهِ الحَالِ أَسْأَلُكَ بعِزِّكَ وَذُلِي إلاَّ رَحِمْتَنِي . أسألك بقُوتِكَ وَضعْفِي ، وبِغِنَاكَ عَنِّيْ وَفَقْرِي إليكَ هذِهِ ناصِيَتِي الكاذبةُ الخاطئةُ بينَ يَدَيْكَ ، عَبِيْدُكَ سِوَايَ كثيرٌ وَليسَ لي سَيِّدٌ سِوَاكَ لا مَلجأَ ولا مَنْجَى مِنْكَ إلا إليكَ ، أَسْأَلُكَ مَسْأَلةَ المِسكينِ ، وأَبْتَهِلُ إليكَ ابْتِهَالَ الخَاضِعِ الذليل ، وأدعُوكَ دُعاءَ الخائِفِ الضَّرِيْرِ ، سُؤالَ مَنْ خَضَعَتْ لَكَ رَقَبَتُهُ ، وَرَغِمَ لَكَ أنفُه ، وفاضَتْ لَكَ عَيْنَاهُ ، وذَلَّ لَكَ قَلْبُهُ .

فَهَذَا وأمثالُه مِنْ آثَارِ التَوبةِ المَقْبُوْلَةِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ ذَلِكَ في قَلْبِهِ فَلْيَتَّهِمْ تَوْبَتَهِ وَلْيَرْجِعْ إلى تَصْحِيْحِها فَمَا أصْعَبَ التَوبةَ الصَّحِيْحَةَ بالحَقِيْقَةِ

وَمَا أَسْهَلَها باللسانِ والدَّعْوَى ، وَمَا عَالجَ الصَّادِقُ بِشيءٍ أَشَدَّ عَلَيهِ مِنَ التَّوْبَةِ الخالِصةِ الصَّادِقةِ ولا حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلاَ باللهِ .

وَحَقائِقُ التَّوْبَةِ ثَلاَثَةٌ : وَعَدَّ منها اتْهامَ التوبةِ قال : لِأنها حقٌ عليهِ لا يَتَيَقَّنُ أنه أدَّى هذا الحقَ على الوجهِ المطلوبِ مِنْهُ الذي يَنْبَغِي لهُ أَنْ يُؤَدِّيَهُ عليه ، فيَخافُ أنه ما وفَّاها حَقَها وأنها لم تُقبلْ منه وأنه لَمْ يبذلْ جُهدَه في صِحَّتِها ، وأنها تَوْبَةُ عِلّةٍ وهو لا يَشْعُرُ بها كَتَوْبةِ أَرْبَابِ الحَوائِجِ والإفلاسِ والمُحَافِظِينَ على حَاجَاتِهِم وَمَنازِلِهِمْ بينَ الناسِ .

أَوْ أَنَّهُ تابَ مُحَافَظَةً على حَالِهِ فَتَابَ لِلْحَالِ لاَ خَوْفاً مِنْ ذِي الجَلالِ ، أو أنه تَابَ طَلَباً لِلرَّاحَةِ مِنَ الكدِّ في تَحْصِيْلِ الذنْبِ أو اتِّقاءَ ما يَخافُهُ على عِرْضِهِ وَمَالِهِ وَمَنْصِبِهِ أو لِضَعْفِ داعِي المعصيةِ في قلبِهِ وَخُمُودِ نارِ شَهْوتِهِ أو لِمُنافاةِ المعصِيَةِ لِمَا يَطْلُبُهُ من العلمِ والرزقِ وَنَحْوِ ذلك مِنَ العِلَلِ التي تَقْدَحُ في كونِ التَّوْبةِ خَوْفاً مِنَ اللهِ وتعظيماً لَهُ ولِحُرُمَاتِهِ وإجْلالاً لَهُ وَخَشْيَةً مِنْ سُقُوطِ المنْزِلةِ عندَهُ وعن البُعْدِ والطردِ عَنْهُ والحِجابِ عن رُؤْيةِ وَجْهِهِ في الدَارِ الآخِرَةِ فَهَذِهِ التَوْبَةُ لَوْنٌ وَتَوْبَةُ أَصحابِ العِللِ لَوْن قال :

ومِنَ اتِّهامِ التَوْبةِ ضَعْفُ العَزِيْمَةِ وَالْتِفاتُ القَلْب إلى الذَنْبِ الفَيْنَةَ بعدَ الفينةِ وتذكُّرُ حَلاَوَةِ مُوَاقَعَتِهِ . ومِنَ اتِّهامِ التَوْبَةِ طُمَأْنينتُهُ وَوُثوقُهُ مِنْ نفْسِهِ بأنَهُ قدْ تابَ حتى كأَنهُ قد أُعْطِيَ مَنْشُوراً بالأمانِ فهَذِهِ مِن عَلاماتِ التُهْمَةِ .

ومِنْ عَلاماتِها جُمُودُ العَيْنِ واسْتِمْرَارُ الغَفْلَةِ وأنْ لاَ يَسْتَحْدَثَ بَعْدَ التوبةِ أَعْمَالاً صَالِحةً لَمْ تَكُنْ له قَبْلَ الخَطِيئةِ .

« مـــوعظـــة »

كَتَبَ عليُّ بنُ أبي طالبٍ رَضِيَ اللهُ عنهُ إلى وَلَدِهِ الحُسَيْنِ مِنْ عبدِ اللهِ عَلِيٍّ أَمِيرِ المؤمنينَ الوَالِدِ الفَانِي الذَّامِّ للدُّنْيَا السَّاكِنِ مَسَاكِنَ المَوْتَى ، إلى الوَلَدِ المُؤَمِّلِ مَا لَا يُدْرِكُ السالِكِ سَبِيْلَ مَنْ قَدْ هَلَكَ ، عُرْضَةُ الأسْقامِ وَرَهينةُ الأيامِ وأَسِيْرُ المنايا وقرينُ الرَّزَايَا وَصَرِيْعُ الشَّهَوَاتِ وَنُصُبَ الآفاتِ وَخَلِيْفَةُ الأمْواتِ . يا بُنيَّ إنْ بَقِيْتُ أو فَنِيْتُ فإني أُوصِيْكَ بِتَقْوَى اللهِ عَزَّ وَجَلّ وَعِمارَةِ قَلْبِكَ بِذِكرِهِ والْاعْتِصَامِ بِحَبْلِهِ فإنّ اللهَ يَقُولُ واعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَميعاً ولا تَفَرَّقُوا واذكُرُوا نِعْمةَ اللهِ عليكم الآية وأيُّ سَبَبٍ يا بُنَيّ أَوْثَقُ مِنْ سَبَبٍ بَيْنَك وَبَيْنَ اللهِ عزَّ وجلّ أَحْيِ قلبَكَ بالموْعِظَةِ وَنَوِّرْهُ بالحِكْمَةِ وَقَوِّهِ بالزُهْدِ وَذَلِّلْهُ بالمَوْتِ وَقَرِّرْهُ بالفَنَاءِ وَحَذِّرْهُ صَوْلَةَ الدَهْرِ وَتَقَلُّبَ اللَيَالي وآعْرِضْ عليهِ أَخْبَارَ الماضِينَ وَسِرْ في دِيارِهِمْ وآثارِهِمْ فانظُرْ مَا فَعَلُوا وأَيْنَ حَلُّوا فإنَكَ تَجِدُهُمْ قَدِ آنْتَقَلُوا مِنْ دارِ الغُرورِ وَنَزَلُوا دارَ الغُرْبَةِ وكأنكَ عنْ قَليلٍ يا بُنَي قد صِرْتَ كأَحَدِهِمْ فَبِعْ دُنْيَاكَ بِآخِرَتِكَ وَلَا تَبِعْ آخِرَتك بدُنياكَ وَدَعِ القَوْلَ فِيْمَا لا تَعْرِفُ والأَمْرَ فِيْمَا لا تُكَلَّفُ وَمُرْ بالمعروفِ بِيَدِكَ وَلِسَانِكَ وَكُنْ مِن أَهْلِهِ وأَنْكِرِ المُنْكَرَ بِيَدِكَ وَلِسَانِكَ وَبَايِنْ مَنْ فَعَلَهُ وَخُضِ الغَمَرَاتِ إلى الحَقِّ وَلَا تَأْخُذْكَ في اللهِ لَوْمَةُ لائِمٍ واحْفَظْ وَصِيَّتي فلا خَيْرَ في عِلْمٍ لا ينفَعُ وَاعْلَمْ أنه لا غِنَى بك عن حُسْنِ الارتِيَادِ مَعَ بَلاغِكَ مِنَ الزادِ فإنْ أَصبْتَ مِنْ أهلِ الفَاقَةِ مَنْ يَحْتَمِلُ عنْكَ زَادَكَ فَيُوَافِيكَ بِهِ في مَعَادِكَ فاغْتَنِمْهُ فانَّ أمامَكَ عقبةً كَؤُوداً لا يُجاوزُها إلا أَخَفُّ الناسِ حِمْلاً وأَجْمِلْ في الطَلَبِ وأَحْسِنْ في المَكْسَبِ فَرُبَّ طَلَبٍ قدْ جَرَّ إلى حَرْبٍ وإنَّمَا المَحْروبُ مَنْ حُرِبَ دِينَهُ

والمَسلوبُ مَنْ سُلِبَ يَقينَه وآعْلَمْ أنهُ لا غِنَى يَعْدلُ الجَنةَ وَلَا فقرَ يَعْدِلُ النارَ والسلامُ عليكَ ورحمةُ اللهِ .

قال الناظم رحمه الله :

وكُنْ بينَ خَـوفٍ والـرَّجَـا عـامـلاً لِمَـا
تَـخَـافُ وَلَا تَـقْـنطْ وُثُـوقـاً بِـمَـوْعِـدِ
تَـذَكَّـرْ ذُنـوبـاً قَـدْ مَضَيْن وَتُبْ لَهَـا
وَتُبْ مُـطْلقـاً مَـعْ فَقْـدِ عِلْمِ التَّعَمُّـدِ
وبـادِرْ مَـتَـابـاً قَـبْـلَ يُـغْـلَقُ بـابُـه
وَتُـطوَى على الأعمالِ صُحْفُ التـزَوُّدِ
فـحِـيْـنَئِـذٍ لا يَـنْـفَـعُ الـمَـرْءَ تَـوْبَـةٌ
إذا عـايَنَ الأَمْـلاكَ أو غَـرْغَـرَ الصّـدِي
ولا تَـجْعَـلِ الآمَـالَ حِـصْنـاً فَـإنَّـهـا
سَـرَابٌ يَغُـرُّ الغـافـلَ الجـاهـلَ الصَّـدِي
فَـبَيْنَـا هُـوْ مُغْتَـراً يُـفَـاجِئُـهُ الـرَّدَى
فَـيُصْبـحُ نَـدمـانـاً يَعَضُّ عـلى اليَـدِ
وَتَـوْبَـةُ حـقِّ اللهِ يَـسْـتَـغْـفـرُ الـفَـتى
وَيَـنـدمُ يَنـوي لا يَـعـودُ إلـى الـرَّدِي
وإنْ كـانَ مِمَّـا يُـوجِبُ الحـدَّ ظـاهِـراً
فَـسِـتْـرُكَ أَوْلَـى مِـنْ مُـقِـرٍّ لِـيُـحْـدَدِ
وإن تـابَ مِـنْ غَـصْـبٍ فـيُـشـرَطُ رَدُّهُ
وَمَـعْ عَـجْـزِهِ يَنْـوِي مَـتَى وَاتَ يَـرْدُدِ

وَمِنْ حَـدِّ قَـذْفٍ أو قِصـاصٍ مَتَـابُـهُ
بتَمْكِيْنِـهِ مِنْ نَفْسِـهِ مَـعَ مَـا آبتُـدِي
وَتَـحْـلِيْـلُ مَـظْلُومٍ مَـتَـابٌ لِـنَـادِمٍ
تَـدَارُكُ عُـدوانِ الـلِسَـانِ أوِ الـيَـدِ

اللهم يا مَنْ لا تَضُرُّهُ المعصيةُ ولا تنفعُهُ الطاعَةُ أيقظْنَا مِنْ نَومِ الغفلةِ وَنَبِّهْنا لاغتِنَامِ أوقاتِ المُهْلَةِ وَوَفِّقْنَا لِمَصَالِحِنَا واعْصِمْنا من قبائِحِنَا ولا تؤاخِذْنا بما انْطَوَتْ عليهِ ضَمائِرُنا وأكَنَّتْهُ سَرائِرُنا مِنْ أنواعِ القَبَائِحِ والمعائِبِ التي تَعْلَمُها مِنا ، وامنُنْ علينا يا مولانا بتوبةٍ تمحو بها عنا كُلَ ذَنْبٍ واغفِرْ لنا ولـوالدِيْنـا ولجميعِ المسلمين الأحيـاءِ منهم والميتينَ بـرحمَتِك يـا أرحمَ الراحمين وصلى اللهُ على محمـدٍ وآلِهِ وصحْبِـهِ أجمعين .

الفصل السابع

فيما يَنْبَغِي التَّنبيهُ عليه والتحذيرُ مِن آرْتِكابِهِ .

قال ابنُ الجوزي رحمه الله : المسلمون المُغترّون طبقاتٌ :

الطبقةُ الأولى (طبقة العلماء) : وهُمْ قومٌ أحْكَمُوا العِلْمَ وَتَرَكُوا العملَ بِهِ ظناً منهُم أنَّهُمْ قد حَفِظوا الشريْعَةَ فَلَهُم عندَ اللهِ قَدْرٌ ، ولو حَقَّقُوْا النَّظَرَ ، لعَلِمُوا أنّ العِلْمَ لا يُرادُ إلا لِلْعَمَلِ وكأنّهم يَزِيْدُوْنَ مِنَ الحُجّةِ عليهِم ومنهم قومٌ أحْكموا العِلْمَ والعَمَلَ إلاَ أنَهُمْ لم يُصْلِحُوا الصِّفاتِ البَاطِنةَ المَذمُوْمَةَ مِنَ الكِبْرِ والحَسَدِ والرِّياءِ ولَمْ يَدْرُوا أنَّ هَذِهِ شُعَلٌ تَعْمَلُ في بَيْتِ القَلبِ فَتُحْرِقُ بَوَاطِنَ المَعْرِفةِ .

قُلْتُ وَهَؤلآءِ كَمَريضٍ ظَهَرَ بِهِ جُرُوْحٌ أَصْلُها في البَاطِنِ فـأَمَرَ الطبيبُ مَنْ بِهِ ذلكَ أنْ يَغْسِلَ الظَاهرَ بِدَوَاءٍ وأمَرَهُ بشُرْبِ دَوَاءٍ آخرَ لِمَا نَشَأَ عنه الظاهرُ فاسْتَعْمَلَ ما لِلظَّاهِرِ وَتَرَكَ ما لِلْبَاطِنِ فأزال مؤقّتاً ما بظاهِرِه وأمَّا مَا في باطِنِهِ فَعَلَى حَالِهِ ، فَلَوْ شَرِبَ ما لِلْبَاطنِ مِنَ الدَّوَاءِ بَرِىءَ الظاهرُ إذا أَرَادَ اللهُ واسْتراحَ ظاهرُهُ وبَاطنُه فكذلك الذنوبُ والمعاصِي إذا اخْتَفَتْ في القلبِ ظهرَ أثرُها على جَوَارِحِ الانسانِ .

ومِن العُلَماءِ قومٌ سَلِمُوا مِنْ هذِهِ الآفاتِ ، لَكِنَّهم في خِدْمةِ الهَوَى مِنْ حيثُ لا يعلمون فهم يُصَنِّفون وَيَتَكَلَّمُون ومُرادُهم ذِكْرُهم بذلكَ وَمَدْحُهم وَكِثْرَةُ اتباعِهِم وهذهِ الآفَةُ مِن خَبَايَا النفوسِ لا يَفْطِنُ لها إلا الأكياسُ مِن الناسِ .

الطبقة الثانية (طبقةُ العُبَّاد) : فمنهم مَن حَققوا التَّعبُّدَ إلا أنه يَرى نفسَهُ فهو مَغرورٌ بذلكَ ومنهم مَن ترَكَ كثيراً مِنَ الفَرائضِ شُغْلاً بالنَّوافِلِ فَمِنْهُمْ مَنْ يُدْرِكُهُ الوَسْواسُ في نِيَّةِ الصلاةِ ثم يَتْرُكُ قَلْبَه في باقِيها يُسْرَحُ في الغَفَلاتِ،ومنهم مَن يُكْثِرُ التِلاَوَةَ ولا يعملُ بما يَتْلو، ومنهم مَنْ يصومُ ولا يتحفَّظُ مِنْ غَيْبَتِهِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يخرجُ الى الحجِّ ولا يخرجُ من المظالِمِ ، ولا يَنْظُرُ في نَفَقَتِهِ ، ومنهم مَنْ يجاورُ بمكةَ وَيَنْسَى الحُرمَة ومنهم مَنْ يأمرُ بالمعروفِ وَينْسَى نفسَه .

ومنهم مَنْ يَزْهَدُ في المالِ وهو راغبٌ في الرياسةِ بالزُهْدِ . ومنهم مَنْ يتخلقُ بأخلاقِ الفقراءِ في صُوَرِ ثيابِهِمْ وَمُرَقَّعَاتِهِمْ وَيَتْرُكُ أخلاقَهُم الباطِنَة ، فيشبعُ من الشهواتِ ، وينامُ الليلَ ولا يعرفُ واجباتِ الشرْعِ ، قلتُ وهؤلاءِ غرورُهم عظيمٌ كما قال بعضُ العلماءِ ، لأنهمْ يظنون أنهم يُحِبون في اللهِ ورسولِه وما قَدِروا على تحقيق دقائق الإخلاصِ إلا وهم مخلصون ، ولا وَقَفوا على خبايا النفسِ الا وهم مُنَزَهون ، وهم أَحَبُّ في الدنيا مِنْ كل أحد وَيُظهرون الزهدَ في الدنيا لشدةِ حِرْصِهِم عليها وَقوةِ رغبتِهِمْ فيها .

يَحُثُّون على الاخلاصِ وهم غيرُ مخلصينَ وَيُظْهرونَ الدُعاءَ إلى اللهِ وهمْ منه فارُّونَ وَيُخَوِّفون باللهِ وهُمْ منه آمِنون . ويُذكِّرون باللهِ وهم

له ناسُون ، ويحُثُون على التمسكِ بالسنةِ بالدقيقِ والجَليلِ وهم لها نابِذُون وَيَذمّون الصفاتِ المذمومةَ وهم بها مُتَّصِفونَ ، وكأنه لمْ يَطرُقْ أسْماعَهُمْ قولُهُ تعالى ﴿ أتأمرون الناسَ بالبِرِّ وَتَنسَوْن أنفسَكُم وأنتم تَتْلون الكتابَ أفلا تعقلون ﴾ .

وقولُه : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لِمَ تقولون ما لا تفعلون ، كَبُرَ مقْتاً عندَ اللهِ أن تقولوا ما لا تفعلون ﴾ . وقولُهُ تعالى حكايةً عمَّا قال شُعيبُ ﴿ وما أُريدُ أنْ أُخالِفَكُم إلى ما أنْهاكُم عنه ﴾ وَوَرَدَ عن ابنِ عباسٍ أنه جاءه رجلٌ فقال : إني أُريد أن آمُرَ بالمعروفِ وأنهَى عن المُنْكَر . قال أَبَلَغْتَ ذلك ؟ قال : أرجو . قال : إنْ لَمْ تخشَ أن تَفْتَضِحَ بثلاثِ آياتٍ من كتابِ اللهِ فافْعَلْ يشيرُ ابنُ عباسٍ الى الآياتِ المتقدمةِ .

الطبقةُ الثالِثةُ : « أَرْبابُ الأموالِ » فَمِنْهم قومٌ يَحْرِصونَ على بناءِ المساجدِ والمْدَارسِ وَيَكْتُبونَ أَسْمَاءَهُم عليها لِتَخْلِيْدِ ذِكْرِهِمْ وَمَنْ أرادَ وجهَ اللهِ لَمْ يُبالِ بِذكْرِ الخَلْقِ وهؤلاء قَال بعضُ العلماءِ : إنهم اغْتَرُّوا مِن وَجْهَيْن : أحَدُهُما أنّهم اكْتَسَبوها مِنَ الظُلْمِ والشُبُهاتِ والرُشَاءِ والجِهَاتِ المَحْظُورةِ فهؤلاءِ تَعَرَّضُوا لِسَخَطِ اللهِ في كَسْبِها فإذا عَصَوُا اللهَ في كَسْبِها فالواجِبُ عليهمْ التَوْبةُ وَرَدُّ الأموالِ إلى أربابها إنْ كَانُوا أحْيَاءً وإلى وَرَثَتِهِمْ إنْ كانُوا أَمْوَاتاً ، وإنْ لَمْ يَبْقَ لَهُمْ وَرَثَةٌ فالواجِبُ عليهمْ أَنْ يَصْرِفُوها في أهمِّ المَصَالِحِ وَرُبما يكُونُ الأهَمُّ تَفْرِقَتَها على المساكينِ .

والوجهُ الثاني : أَنَّهمُ يَظُنُونَ بأنفُسِهِمْ الإخْلاصَ وَقَصْدَ الخَيرِ في الانفاقِ وعُلوِّ الأبْنِيَة . ولو كُلِّفَ واحدٌ منهم أَنْ يُنْفِقَ دِينارَاً على مِسكينٍ لَم تَسْمَحْ نَفْسُهُ بذلك ، لأَنَّ حُبَّ المدْحِ والثناءِ مُسْتَكِنٌّ في باطِنِه .

ومنهُمْ قَومٌ يَتَصَدَّقُونَ ولكنْ في المَحَافِلِ وَيُعطُونَ مَنْ عادتُهُ الشُكرُ وافشاءُ المعروفِ .

ومنهم مَنْ يُكْثِرُ الحَجَّ وَرُبما ترك جِيرانَهُ جياعاً .

ومنهم قومٌ يَجْمَعُونَ المالَ وَيَبخَلونَ بإخراجِهِ ، ثم يَشْتَغِلُونَ بالعِباداتِ البَدَنِيَّةِ التي لا تحتاجُ إلى نفقةٍ كالصيامِ والصلاةِ ، ولا يَدْرونَ أنَّ جِهادَ النفسِ في البخلِ المُهلِكِ أوْلى .

شعراً :

لَقَدْ خَابَ مَنْ غَرَّتْهُ دُنْيَاً دَنِيَّةٌ
وما هِيَ أنْ غرَّتْ قُرُوناً بطَائِلِ
أَتَتْنَا عَلى زِيِّ العَزيزِ بُشَيْنَةٍ
وَزِيْنَتِها فِي مِثْلِ تِلْكَ الشَّمَائِلِ
فَقُلْتُ لَهَا غُرِي سِوَايَ فإنَّني
عَزوفٌ عن الدنيا وَلَسْتُ بجاهِلِ
وَهَبْها أَتَتْنا بالكُنوزِ وَدُرِّها
وأَمْوَالِ قَارُوْنٍ وَمُلْكِ القَبائِلِ
أَلَيْسَ جَمِيْعاً لِلفَناءِ مَصِيرُها
وَيُطْلبُ مِنْ خُزّانِها بالطَّوائِلِ
فَغُرِّيْ سِوايَ إنَّنِيْ غَيْرُ رَاغِبٍ
لِمَا فِيكِ مِنْ عِزٍ وَمُلْكٍ ونائِلِ
وَقَدْ قَنِعَتْ نَفْسِي بِمَا قد رُزِقْتُهُ
فَشأنَكِ يا دُنْيَا وأَهْلَ الغَوائِلِ

فـإنّـي أَخَـافُ الـلهَ يَـوْمَ لِـقَـائِـهِ
وأَخْـشَى عِـقَـابـاً دائِمـاً غَـيْـرَ زائِـلِ

اللهمَّ نَجّنا برحمتِكَ مِن النارِ وعافِنا مِن دارِ الخِزْيِ والبَوَارِ وأَدْخِلنا بِفَضْلِكَ الجنةَ دارَ القَرارِ وعامِلْنَا بكَرَمِكَ وَجُودِكَ يا كريمُ يا غَفارُواغْفِرْ لنا ولوالِدِيْنا ولجميعِ المسلمينَ الأحياءِ منهُم والميتينَ برحْمَتِكَ يا أرحمَ الراحمينَ وصَلّى اللهُ على محمدٍ وعلى آلِهِ وصَحْبِهِ أجمعين .

الفصل الثامن

الطبقةُ الرابعةُ طبقةُ العَوامّ وغُرورُهُمْ مِنْ وُجوهٍ : فمنهم مَنْ يُصَلّي كَيْفَمَا اتَّفَقَ ولا يَسْأَلُ عمَّا يُصْلِحُ الصلاةَ وما يُفسِدُها . ومنهم مَنْ يَواظِبَ على النوافِلِ كالتراويحِ ، ولا تكادُ تَجِدُهُ في صلاةِ الجَماعةِ ومنهم مَنْ يلازِمُ مَجالِسَ الوَعْظِ ولا يعملُ بما يَسْمَعُ ولا يَنْتَهي عنْ قَبيحِ ما يَأتي ، كأنَّ المقصودَ الحُضُورُ فقطْ قُلْتُ : لأنّ مَجالسَ الذِكْرِ والإرْشادِ إنّما تُفِيدُ لِكوْنِهَا مُرَغِّبَةً في الخَيْرِ وباعِثةً في الغالِبِ عليه فإنْ لَمْ يَنْشَأْ عنها ذلكَ فلا خيرَ فيها وصِفةُ هؤلآءِ كما قال بعضُ العُلماءِ : كمِثْلِ مريضٍ يحضُرُ مجالِسَ الأطباءِ وَيَسْمَعُ منهم ما يَصِفونَهُ مِن الأدويةِ ولا يَفْعَلُها وَلاَ يَشْتَغِلُ بها فأيُّ فائِدةٍ يَحْصَلُ عليها .

فكُل وَعْظٍ لا يُغيّرُ مِنكَ صِفةً تَتَغَيَّرُ بها أفعالُك حتى تُقْبِلَ على اللهِ عزَّ وجَلَّ وَتُعْرِضُ عن الدنيا وَتُقْبلُ إقْبالاً قويّاً ، فإنْ لَمْ تَفْعلْ فذلكَ كان زيادَةَ حُجةٍ عليكَ ، وهذا غُرورٌ عظيمٌ .

ومنهم مَنْ يَتَنَفَّلُ بالعباداتِ وَيُهْمِلُ الفرائضَ .

ومنهم مَنْ يَتَطَوَّعُ بالخيرِ وَيُكثرُ التسبيحَ معَ معامَلَتِهِ بالرِّبا واسْتِعْمَالِ

الغِشِّ ، وَرُبَما صاحَ على وَالِدَيهِ وَأخذَ أعْراضَ الناسِ ، وَجُمهورُ الناسِ قد اتَّكَلوا على العفْو والحلمِ فهُمْ مُصِرّون على ذُنوبٍ وخطايا فإذا ذَكَرْتَ لهمُ العُقوبَةَ قالُوا : هو كريمٌ ويَنْسَوْنَ أنه شَدِيْدُ العِقابِ ، ومنهم أقوامٌ يَسْتَعْجِلُونَ المعصيةَ مُوافقةً لِلْهَوَى وَيُضْمِرون أننا سَنَتُوبُ وَيُسَوِّفُونَ بالتوبةِ ، ومِنَ العُصاةِ مَنْ يَغْتَرُّ بِفِعْلِ خيرٍ فربما تصَدّق أوْ سبَّحَ وَظَنّ أنّ هذا يُقاوِمُ ذُنوبَهُ .

وَيَنْسَىْ ما حَصِلَ منه مِنَ الغِيْبةِ والكَذِبِ والرِّياءِ وغيرِ ذلكَ مِن المعاصِي التي تَقْضِي على الحَسَناتِ التي أمثالُ الجبالِ .

ومِنَ المغترّين مَنْ يغرُّهُ صلاحُ آبائِهِ وربما قال : أبِيْ يَشْفَعُ لي ولا يَدْري أنَّ أباه فُضِّلَ بالتقوَى وكان مَعَ التَقْوَى خائفاً ؟ ومِنْ أينَ له أن يَشْفَعَ لَهُ ، أوْ مَا سَمِعَ قوله تعالى : ﴿ ولا يَشْفعونَ إلا لِمَن ارتضى ﴾ .

وَلَمْ يعلمْ أنَّ نُوحاً عليهِ السلامُ أرادَ أنْ يَحْمِلَ ابْنَهُ مَعَهُ في السفينةِ فَمُنِعَ منْ ذلكَ وأغرَقَ اللهُ ابنَهُ مَعَ المُغرَقِينَ .

وفي الحديث الصحيحِ أنّ رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « يا فاطمَةُ لا أُغْنِي عنكِ مِنَ اللهِ شيئاً » فالعاقلُ منْ عَمِلَ على الحِرْصِ وأخذَ بالأحوَطِ فَمَنْ تأمَّلَ العلمَ وَتَصَفَّحَهُ وشاوَرَ العقلَ دَلَّهُ على الحزْمِ فَسَلِمَ مِنَ الاغْتِرارِ ، واللهُ الموفِّقُ .

وطبقةٌ أخرى أكَبُّوا على تِلاوةِ كتابِ اللهِ وتركوا تَدَبُّرَهُ والعملَ بهِ ، وَرُبما خَتَموه في يومٍ وليلةٍ بألْسِنَتِهِمْ ، أما قلوبُهُمْ فهي في أوديةِ الدنيا تردَّدُ ، ولا تتفكرُ في معاني القرآنِ لِتَنْزجرَ بزواجِرِهِ وَتتعظَ بمواعِظِهِ وتقِفَ عندَ أوامِرِه ونواهِيه وَتعْتبِرَ بمواضع الاعْتبارِ . فَمَنْ قَرأَ كتاباً عدةَ مرّاتٍ

وترك العَمَلَ بهِ يُخْشَى عَليهِ من العُقُوبَةِ .

وَطَبَقَةٌ اغْتَرُّوْا وَأَكْثَرُوا الصِّيامَ وَهُمْ مَعَ ذَلكَ لا يَحْفَظُونَ ألْسِنَتَهُمْ عن الغِيْبَةِ والنميمةِ والكذِبِ والتمَلُّقِ عندَ الفُسَّاقِ وأعْدَاءِ الدِّينِ وَلَا يَعْرِفُونَ الْوَلاءَ والبَراءَ ولا يَحْفَظُونَ بُطُونَهُمْ عن الْحَرامِ وَلا أَعْيُنَهم عن النَّظَرِ المُحَرَّمِ وَلا أسْمَاعَهُم عنِ الملاهِي والمُنكَراتِ وَلَا يَقُومُونَ عَلى أَولادِهِمْ وَيَأْمُرُونهم .

وطبقةٌ أخْرَى أكثرتْ مِن نَوافِلِ الحَجّ مِنْ غيرِ خُرُوْجٍ مِنَ الْمَظَالِمِ وَقَضَاءِ الدُّيُونِ واسْتِرْضَاءِ الوَالِدَيْن وَلَا طَلَبُوْا لِذلِكَ الزَّادَ الحَلَالَ وَرُبَّمَا ضَيَّعُوا صَلاةَ الجَمَاعَةِ أو الصَّلَاةَ المكتُوبَةَ ، وَرُبَّمَا كانُوا لا يُبالُونَ بالنَّجَاسَاتِ ، وَرُبَّمَا كان نَفَقَةُ أَحَدِهِمْ حَرَاماً كُلَّهُ هَوَ وَرُفَقَاؤُهُ ، وَرُبَّمَا كانَ مُرَائِياً في إنْفَاقِهِ فَيَعْصِي اللهَ في كَسْبِ الحِرَامِ أولاً وفي إنفاقِهِ لِلرِّياءِ ثانياً نَعُوذُ باللهِ مِن الغُرورِ . وفِرقةٌ أخذَتْ في طَرِيْقِ الأَمرِ بالمَعْرُوفِ وارْشادِ الخَلْقِ وأنكَرُوْا على الناسِ وتَركُوْا أَنْفُسَهُم وَأَوْلادَهُم وَمَنْ يَخْشَوْنَهم أو يَرجُونهم . وَفِرْقَةٌ أُخرى غَلَبَ عليها البُخلُ فلا تَسْمَحُ نُفوسُهم بأداءِ الزكاةِ كامِلةً مُكَمّلةً يُخْرِجُ مقدارَ رُبْعِهَا فقط وَيَتأولُ الباقِي وَيَعِدُ أنه إذا وجدَ فقيراً أعطاهُ وَيَرى أنَّ ما يدفعُهُ إذا تقدَّم فقيرٌ في بعضِ الأيامِ وأعطاهُ كافياً وربما كانتْ زكاتُهُ عدَدَ أيامِ السنةِ مئاتٍ مِنَ الريالات نعوذُ بالله من الغُرورِ .

شعراً :

الموتُ في كلِ حينٍ ينشُرُ الكَفَنَا
ونحنُ في غَفلةٍ عما يُرادُ بِنا

لا تَـطْمِئِنَّ إلى الـدُنيـا وَبَـهْـجَتِـهـا
وإنْ تَـوَشَّحْتَ مِـنْ أَثْـوَابِهَـا الـحَسَنَـا
أَيْـنَ الأحِـبَّـةُ والـجيـرانُ مـا فَـعَـلُوا
أيـنَ الـذين هُـمُ كـانُـوا لَنـا سَكَنَـا
سَقَـاهُمُ المـوتُ كـأساً غيـرَ صَـافِيَـةٍ
فَـصَـيَّـرَتْـهُـمْ لِأَطْـبـاقِ الـثَّـرَى رُهُـنَـا
تَـبْكِـيْ المَـنَـازِلُ مِنْـهُمْ كـلُ مُـنْسَجِمٍ
بـالمكـرُمَـاتِ وتَـرْثـي الـبِـرَّ والمِـنَنَـا
حَسْبُ الحِمَـامِ لَـوَ ٱبْقـاهُمْ وأَمْـهَلَهُـمْ
ألاَ يَـظُنّ عـلى مَـعْـلومِـهِ حَـسَـنَـا

مـوعظـة

خطب عمرُ بنُ عبدِ العزيز آخرَ خطبةٍ خَطَبَهَا فَقَالَ فيهَا : أمَا بَعدُ « إنكمْ لمْ تُخلقوا عَبَثاً ، ولَنْ تُتْرَكُوا سُدَى ، وإنَّ لَكُمْ مَعَاداً ينزلُ اللهُ فيهِ للفَصْلِ بينَ عبادِهِ ، فقدْ خابَ وخسِرَ مَنْ خَرجَ مِنْ رحمةِ اللهِ التي وَسِعَتْ كلَّ شيءٍ وَحُرِمَ جَنةً عرضُها السمواتُ والأرضُ ، ألا تَرَوْنَ أنكُمْ في أسلابِ الهالكين ، وَسَيَرِثُها بعدَكُمْ الباقون كذلكَ حتى تُرَدَّ الى خيرِ الوَارِثين ، وفي كلِ يومٍ تُشَيِّعُون غادِياً ورائحاً إلى اللهِ قَضَى نَحْبَه وانقَضى أجلُه فَتَدَعُونَه في صَدْعٍ من الأرضِ غيرَ مُوَسَّدٍ ولا مُمَهَّدٍ ، قَدْ خَلَعَ الأسبابَ ، وفارقَ الأحْبابَ ، وَسَكَنَ الترابَ ، وَوَاجَهَ الحِسابَ ، غَنِيَّاً عَمَّا خَلَّفَ ، فقيراً إلى مَا أسْلَفَ ، فاتقوا اللهَ قَبْلَ نُزولِ الموتِ وانقضاءِ مَوَاقِيْتِهِ ، وإنّي لأقولُ لكُمْ هذهِ المقالةَ وما أعلمُ عندَ أحدٍ مِنَ

الذنوبِ أكثرَ مِمَّا أعلمُ عندي ، ولكنْ استغفرُ اللهَ وأتوبُ اليهِ ، ثمَّ رفعَ طرْفَ رِدائِهِ وبكىَ حتى شهَقَ ثم نزلَ ، فما عادَ إلى المنبَرِ بعدَها حتى ماتَ رحْمهُ اللهِ عليه .

أتَبكِيْ لِهَـذَا الـمـوتِ أمْ أنتَ عـارِفُ
بِـمَنْـزِلَـةٍ تَبْقَى وَفيـهـا الـمَتَـالِفُ
كَـأنَّـكَ قـدْ غُيِّبْتَ في اللَحْدِ والثَـرَى
فَتَلْقَى كمـا لاقَى القُـرونُ الـسَّـوالِفُ
أرَى المَوْتَ قَدْ أفْنَى القُرونَ التي مَضَتْ
فـلم يَبْـقَ ذو إلْـفٍ ولـم يَبْـقَ آلِـفُ
كـأنَّ الفَتَى لم يَغْنَ في النـاسِ سَـاعَـةً
إذا عُـصِبَتْ يـومـاً عـليـه الـلَّفَـائِـفُ
وقـامـتْ عـليـهِ عُـصْبـةٌ يـنـدُبُـونـه
فَـمُـسْـتعبِـرٌ يَبْـكِي وآخَـرُ هـاتِـفُ
وَغُـوْدِرَ فـي لَـحْـدٍ كَـرِيْـهٍ حُـلُولُـهُ
وتُـعقـدْ مِـنْ لِـبْـنٍ عـليـه الـسَّـقَـائـفُ
يَقِـلُّ الغِنَى عنْ صاحِبِ اللَّحدِ والثَـرَى
بـمـا ذَرَفَتْ فـيـهِ الـعُـيُـونُ الـذَّوَارِفُ
ومـا مَـنْ يَخَـافُ البَعْـثَ والنـارَ آمِـنٌ
وَلَكنْ حـزيـنٌ مـوجَـعُ القلبِ خـائفُ
إذا عَـنَّ ذِكْـرُ الـمـوتِ أوْجَـعَ قَـلبَـهُ
وَهـيَّـجَ أحْـزانـاً ذُنُـوبٌ سَـوالـفُ

اللهمَّ آنظِمْنا في سِلكِ حِزبِكَ المُفلِحين ، واجْعلنا مِنْ عبادِكَ المُخْلِصين وآمِنَّا يومَ الفَزَعِ الأكبَرِ يومَ الدِين ، واحشُرْنا معَ الذين أنعمْتَ عليهم مِنَ النَبيين والصِّدِّيقينَ والشُهداء والصالحينِ واغفِرْ لنا ولوالدِينا ولجميعِ المسلمينَ الأحياءِ منهمْ والميتينَ برحمتِكَ يا أرْحمَ الراحمينَ ، وصلى اللهُ على محمدٍ وعلى آلِهِ وصحبِهِ أجمعِين .

فصلٌ في العلمِ وفضْلِه

العلمُ صفةٌ يُمَيَّزُ المُتَّصِفُ بها تميزاً جازِمَاً مطابقاً ، وقيلَ هو إدراكُ الشيءِ بِحَقيقتِهِ ، والعلمُ فضلُهُ أَشْهَرُ مِنْ أنْ يُذْكَرَ وهو أفضلُ مِنْ كلِ ما اكتَسَبَهُ الانسانُ وأَشْرفُ مُنْتَسَبٍ وأنْفسُ ذَخيرةٍ تُقْتَنى وأطيب ثَمرةٍ تُجْتَنَىْ ، بهِ يُتَوَصَّلُ إلى الحقائِقِ وإذا عَمِلَ بِهِ الإنسانُ على وَفْقِ الشريعةِ أدْرَكَ رِضَا الخالِقِ .

والعلمُ لا يُوصَلُ الى معرفَةِ فَضْلِهِ وجلالَةِ قدْرِهِ إلاّ بالعِلْمِ وَلَا يَضِيعُ صاحبُ العلمِ الدينيّ الصحيحِ الذي جاء عن النبيّ صلى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وَلَا يَفْتقرُ كاسِبُ العلمِ ولا يَخيبُ طالبُهُ وَلا تنْحَطُّ مَراتبُهُ ما دامَ مُطَبِّقاً لِعِلْمِهِ بالعَمَلِ وَلا يَجْهَلُ شَرفَ العِلْمِ إلاّ الجاهلُ لِقُصُورِ فَهْمِهِ عن عظيمِ مَنافِعِهِ وَكَرِيمِ مَواقِفِهِ ، وَحامله الصائنُ له عن الأدْناسِ عزيزٌ عندَ الناسِ إنْ قَالَ فكلامُهُ مَرْموقٌ بعينِ التقدير وَإنْ أَمَرَ فأمْرُهُ مَسْمُوعٌ .

وَهُوَ وَسِيلةٌ لِلْفضائِلِ وهو نُورٌ زاهِرٌ لِمَنْ اسْتضاءَ بِهِ وَقُوّتٌ هَنِيءٌ لِمنْ تَقوَّتَ بِهِ تَرْتاحُ بِهِ الأنفُسُ إذْ هُوَ غِذَاءُها وَتفرَحُ بِهِ الأفئِدةُ إذْ هُوَ قُواها

وهو يدُلُّ على الخيرِ ، وعوْنٌ على المُروْءةِ وهوَ الصاحبُ في الغُرْبَةِ والمُؤْنِسُ في الخَلْوَةِ ، والشرفُ في النَسَبِ وللعلم آثارٌ جليلةُ القدْرِ كمْ جلَّ بهِ مِنْ حقيرٍ .

وكُلَّما كان الرجلُ أعْلمَ كان جَليلاً عندنا . مضَى سلفُنَا الصالحُ العامِلون بعلمِهِمْ الوَرِعُونَ الذين لا تأخُذُهُم في اللهِ لومةُ لاَئِمٍ الذين إذا ذُكِرُوا ، وَمَا قَامُوا بِهِ مِنْ نَصْرِ دِينِ اللهِ والدعوةِ اليهِ اسّتنارتْ المجالسُ وأسْفرتْ الوُجُوهُ وارتاحَتْ الأنفُسُ وَقَويَتْ القلوبُ وَنَشِطَتْ الأبدانُ على الطاعاتِ والعباداتِ وَوَدَّ المسْتمعون المحِبون لِلدّينِ وأهلِهِ أن يزدادُوا مِنْ أخبارِهِمْ وَسِيَرِهِم وذلك بما وَهَبَهُمُ اللهُ مِنَ العلمِ الديني والتمَّسكِ بهِ وآثارِهِ الجَليلةِ ، وكانوا خيرَ الناسِ بعدَ النبيينَ وكانوا أشجَعَ الناسِ لأنَّهمْ عَلِمُوا أنَّ الأجَلَ لا يُطِيْلُه الجُبْنُ وكانوا أغْنَى العالَمِ نُفوساً وأقْواهم تَوَكُّلاً على اللطيفِ الخبيرِ لأنَّهمْ رَضُوا بِقِسْمةِ مَوْلانا العليمِ الحكيمِ ، وكانُوا مَحَطَّ رِحالِ الكَرَمِ والجُودِ لأنهم يعلمونَ أنَّ البُخلَ لا يُرضِي اللهَ ، وكانُوا في الحِلْمِ كالجبالِ الراسِياتِ لأنهُم عَرَفوا ما لِلحِلْمِ مِن مَزايا دُنيا وأُخرى .

وكانُوا يَسْتَقْبلونَ البَلاَيَا بالصبْرِ الجميلِ لِعِلْمِهِمْ أَنَّها بِتَقْدِيرٍ وتَصْرِيْفِ الحكيمِ الخبيرِ وكانُوا دائِماً يَسْتَقْبِلون النِعَمَ بالشكرِ والحَمدِ والثناءِ على اللهِ لِجزْمِهِمْ أنها ليسَتْ منهُم ولا مِنْ سائِرِ المخلوقينَ بلْ مِنَ الكريمِ الدَائمِ الإحْسانِ الذي عَمَّ إحسانُه الخلايقَ كلَّهُمْ ، وكانُوا يُحبون الخيرَ لِبَعْضِهِمْ كَمَحَبَّتِهِمْ لِأَنْفُسِهِمْ عملاً بقولِ الرسولِ الكريمِ « لا يؤمنُ أحدُكُمْ حتى يُحِبَّ لِاخيهِ ما يُحبُ لنفسِهِ » ولِعِلْمِهِمْ أن كرَاهَتَهُم لا

تُحْدثُ أيَّ تَغَيّرُ وَقَدْ عَرَفُوا قولَ النبيّ صَلّى اللهُ عليهِ وسلمَ لِابنِ عباسٍ يا غُلامُ احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ الحَديث رواه الترمذي .

وكانوا لا يُحِبون الشرَّ وأهْلَهُ وَيَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ . وكانوا يُرَاقِبونَ مَولاهُمْ دَائِماً وَيَعلمونَ أنهُ يَعْلمُ سِرَّهُمْ وَنَجْواهُم وأنه أحاط بكلِ شيءٍ علماً فلِهذا كانُوا إذا قالُوا أوْ فَعَلُوا تَحَرَّوْا ما يُرْضِيه جَلَّ وَعَلا فيما يَقُولونَه وَيَفعَلُونَه وَهَكَذا كانوا إذا أرادُوا أنْ يَتَحَرَكُوا أو يَسْكنوا باسْتِشَارةِ ما وَهَبَهُمُ اللهُ مِنَ العلمِ الديني يَتَحَرَّكُون وَيَسْكنون لِهذا كانوا لليومِ مَوْضِعَ اعجابٍ وَنَالوا فوقَ هذا رِضَى رَبِّ العالمينَ هكذا كانوا بِبَرَكاتِ ما وَهَبَهُمْ مولاهُم مِنَ العلمِ الدِيني والتمسُّكِ بهِ تماماً .

وكانوا أزهَدَ الناسِ في الدُنيا لأَنَّهم يعلمون حقارَتَها وَسُرْعةَ زَوالِها وَكثْرةَ هُمُومِها وَغُمومِها وإشْغالِها عَنْ طاعةِ اللهِ ولِذالكَ كانَ النـاسُ يُقَدِّرُونهم وَيَضْرِبُونَ بِهِمُ الأمثالَ وأنتَ تَرَى أنه على قَدْرِ قَناعَةِ العُلَمَاءِ في الدُنْيَا تَكُوْنُ مَكَانتُهُم في نُفُوسِ الناسِ والتَفافُهُم حَوْلَهم والاسْتِمَاعُ لِنَصائِحِهمْ والانقيادُ لإرْشاداتِهِمْ والرُجوعُ إليهمْ فِيْمَا يُشْكِلُ عليهِمْ وعَلَى قدْرِ تَعَلّقِ العُلَمَاءِ بِالدُنْيَا وَتَوَجُّههِمْ إليها تكونُ زَهَادَةُ الناسِ في العُلماءِ وَعَدمُ الثِّقَةِ بِهِمْ واتِّهَامُهُم والنفرةُ مِنهُم وأكلُ لُحومِهِمْ وَعَدمُ قَبولِ كَلامِهِمْ وإرشادِهِمْ وَنَصائِحِهم فلا يَسْمعونَ لهمْ قَولاً ولا يُعَوِّلُون عَليهِمْ في ما يَجْهَلُونَهُ وَيَحْرِصُونَ على البُعْدِ عنهُمْ وَيَستثْقِلُونهم والسببُ الوحيدُ كما عَلمتَ أولاً هو التعلقُ بالدنيا ضِدَّ ما عليه السلفُ الصالحُ .

قال ابنُ القَيّمِ رحمهُ اللهُ :

كلُّ مَنْ آثَرَ الدنيا مِنْ أهلِ العلمِ واسْتَحَبَّهَا فلا بُدَّ أنْ يَقُوْلَ على

اللهِ غيرَ الحقّ في فَتْواهُ وَحُكْمِهِ ، في خَبَرِهِ وإلزامِهِ لأنَّ أحكامَ الربّ سبحانَه كثيراً ما تأتِي على خلافِ أغْراضِ الناسِ ، وَلاَ سِيَّما أهلُ الرِّيَاسَةِ والذين يَتَّبعون الشُبُهاتِ فإنَّهُمْ لاَ تَتِمُّ لَهُمْ أَغْرَاضُهُم إلاّ بِمُخالَفَةِ الحقّ وَدَفْعِهِ كَثِيْراً فإذا كان العالِمُ والحاكمُ مُحبّينَ للرّياسةِ مُتَّبِعِينَ للشَهَوَاتِ لَمْ يَتِمَّ لَهُمَا ذَلكَ إلا بِدَفْعِ ما يُضادُّه مِنَ الحقِ ولاَ سِيَّما إذا قامَتْ لَهُ شُبْهَةٌ فَتَتَّفِقُ الشُبْهَةُ والشَّهْوَةُ وَيَثُورُ الهَوَى فَيَخْفَى الصَّوابُ وَيَنْطَمِسُ وَجْهُ الْحَقّ ، وإذا كان ظاهراً لا خَفاءَ بِهِ وَلا شُبْهَةَ فيهِ أقدم على مُخالفَتِهِ وقال لِي مَخْرَجٌ بالتوبةِ وفي هؤلآءِ وأشباهِهِمْ قال تعالى : ﴿ فَخَلَفَ مِنْ بعدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الكِتابَ يأخذون عَرَضَ هذا الأدنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لنَا وإنْ يأتِهِمْ عَرَضٌ مثلُهُ يأخذوه أَلَمْ يُؤخَذْ عليهِمْ مِيثاقُ الكتاب أنْ لا يقولوا على اللّه إلا الحَقّ وَدَرَسُوا ما فيهِ والدارُ الآخرةُ خيرٌ للذين يَتقُون أفلا تعقلون ﴾ .

فأَخْبَرَ سُبحانَهُ أَنَّهُمْ أَخَذُوْا العَرَضَ الأدْنَى معَ عِلْمِهِمْ بِتَحْرِيمِهِ عليهِمْ وقالوا سَيُغْفَرُ لَنا وإنْ عَرَضَ لهم عَرَضٌ آخَرُ أخَذُوهُ فَهُمْ مُصِرُّونَ على ذلك وهو الحامِلُ لهمْ على أنْ يقولوا على اللهِ غيرَ الحقّ فَيقولُونَ هذا حُكْمُهُ وَشَرْعُهُ ودِينُهُ وهُمْ يَعْلَمُونَ أنَّ دينَهُ وَشَرْعَهُ وَحُكْمَهُ يُخالِفُ ذلك أَوْ لاَ يَعلَمُوا أنَّ ذلك دِينُه وشرعُه وحُكْمُه فَتارةً يقولون على اللهِ مالا يَعْلَمُونَ وتارةً يقولون عليهِ ما يَعْلَمُون بُطْلانَهُ : قال وهؤلآءِ لا بُدَّ أنْ يَبْتَدِعُوا في الدينِ مَعَ الفُجورِ في العَمَلِ فَيَجْتَمِعُ لهمْ الأمْرَانِ فإنَّ اتباعَ الهَوَى يُعْمِي عينَ القلبِ فلا يُمِيزِ بينَ السُنَّةِ والبِدْعَةِ أو يُنَكِّسُهُ فيرَى البِدْعةَ سُنَّةً والسُّنَّةَ بِدْعَةً فهذِهِ آفةُ العُلَمآءِ إذا آثرُوا الدُنيا وَآتبَعُوا الرِيَّاسَاتِ والشَهَواتِ وهَذهِ الآياتُ فيهِمْ إلى قولِهِ تعالى : ﴿ وآتْلُ عليهِمْ نَبَأَ الذِي

آتيناهُ آياتِنَا فانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشيطانُ فكان مِنَ الغاوينَ وَلوْ شِئْنا لَرَفَعْنَاهُ بها وَلكنَّهُ أَخْلَدَ إلى الأرضِ واتَّبَعَ هواهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الكلبِ إنْ تَحْمِلْ عليهِ يَلْهَثْ أو تَتْرُكْه يلهثْ ﴾ . فهذا مَثَلُ عالِمِ السوءِ الذي يعملُ بِخِلافِ عِلْمِهِ .

وخِتاماً فإنَّ العَاقِلَ اللَّبِيْبَ يَتَأَسَّفُ على إهْمالِ كِتابِ اللهِ وَسُنةِ رَسولِهِ صلى اللهُ عَليهِ وسلمَ وَكُتُبِ أَهْلِ العِلْمِ والإيمانِ يَبْنَى عليهما الغُبارُ ويُسْتبدلُ بِهِما قَتْلُ الوَقْتِ في أَلْوَوَ كَمْ باع فلانٌ وكم شَرَى فلانٌ وأيْنَ قَضَّيْتَ العُطْلَةَ فيهِ وأيْنَ تقضِي المُسْتَقْبَلَةَ وارْفَعْ الجَريدةَ وأعْطِنِي الأخرَى وأينَ المَجَلَّةُ الفُلانِيَّةُ وما الذِي ظَهَر في التلفزيونِ وماذا بالإذاعةِ الفلانيةِ هذا وأمثالهُ كثيرٌ مِنْ نَواحِي معلوماتِنا مَعْشَرَ هذا الجيل يَشِبُّ الواحدُ مِنَّا وَيَشِيْبُ وهو جاهلٌ بِسيرِ سَلَفِنَا وتطبيقِها والاقتِداء بِمَنْ أَمرَنَا سيدُنا ومولانا باتِباعِهِمْ مِن رُسُلِهِ الكِرامِ وَمَن اقتدَى بِهِمْ وَحذا حَذْوَهُمْ وَنَهَجَ مَنْهَجَهُم مِمَّنْ تَتَجَافَى جُنُوبُهُم عن المضاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُم خَوْفاً وطَمَعاً ومِمَّا رَزَقَهُم مَوْلاهم ينفقون ﴿ وعبادُ الرحمنِ الذين يمشون على الأرضِ هَوْناً وإذا خاطبهم الجاهلونَ قالوا سَلاماً ﴾ إلى آخر السورة .

اللهم إليكَ بدُعائِنا تَوَجَّهْنا وَبِفِنَائِكَ أَنَخْنَا واياكَ أَمَّلْنا وَلِما عندَكَ مِنَ الجُودِ والإحسانِ طَلَبْنا وَلِرَحْمتِكَ رَجَوْنا وَمِنْ عَذَابِكَ أَشْفَقْنا وَلِغُفْرانِكَ تَعَرَّضْنا فاغفِرْ لنا ولوالدِيْنا وجميعِ المسلمينَ برحمَتِكَ يا أرحمَ الراحمينَ وصلى اللهُ على محمدٍ وعلَى آلِهِ وصحْبِهِ أجمعين .

هذه قصيدةٌ تَحْتَوِي على الحَثِّ على طَلَبِ العِلْمِ والزُهْدِ في الدُنيا والإقبالِ على الآخرةِ :

تَـفُـتُّ فُـؤادَكَ الأيَّـامُ فَـتّـاً
وتَـنْحَـتُ جِسْـمَـكَ السـاعـاتُ نَـحْتـاً
وَتْـدعُـوكَ الـمَـنُـونُ دُعَـاءَ صِـدْقٍ
أَلَا يَـا صَـاحِ أنـتَ أُريـدَ أَنْـتَـا
أَرَاكَ تُـحِـبُّ عِـرْسَـاً ذاتَ غَـدْرٍ
أَبَـتَّ طـلاقَـهـا الأكْـيَـاسُ بَـتّـاً
تَـنَـامُ الـدَّهـرَ ، وَيحَـكَ ، فـي غَطِيْطٍ
بِـهَـا حَـتَّـى إذا مِـتَّ آنـتَـبَـهْـتَـا
فَـكَـمْ ذَا أَنْـتَ مَـخْـدُوْعٌ فَـحَـتَّـى
مَـتَـى لَا تَـرْعَـوِي عـنـهـا وَحَـتَّـى ؟!
أَبَـا بَـكْـرٍ دَعَـوْتُـك لَـوْ أَجـبـتَ
إلـى مـا فِـيـهِ حَـظُّكَ لـو عَـقِـلْـتَـا
إلـى عِـلْمٍ تـكـونُ بـهِ إمـامـاً
مُـطاعـاً ، إنْ نَـهَـيْـتَ وإنْ أَمَـرْتَـا
وَيَـجْـلو مـا بِـعَـيْـنِـكَ مِـنْ غِـشَـاءٍ
وَيَـهْـدِيْـكَ الـصِـراطَ إذا ضَـلَلْـتَـا
وَتَـحْـمِـلُ مـنـهُ فـي نـادِيـكَ تَـاجـاً
وَيَـكْـسُـوكَ الـجَـمَـالَ إذا آغْـتَـرَبْـتَـا
يَـنَـالُـكَ نَـفـعُـهُ مـا دُمْـتَ حَـيّـاً
وَيَـبْـقَـى ذِكْـرُهُ لَـكَ إنْ ذَهَـبْـتَـا
هُـوَ الـعَـضْـبُ الـمُـهـنَّـدُ لَـيْسَ يَـكْـبُـو
تَـنَـالُ بِـهِ مَـقَـاتِـلَ مَـنْ ضَـرَبْـتَـا

وكنزٌ لا تخافُ عليهِ لِصّاً
خفيفُ الحَمْلِ يُوجَدُ حيثُ كُنْتَا
يَزِيدُ بِكَثْرةِ الإنفاقِ مِنْهُ
وَيَنْقُصُ إنْ بِهِ كفّاً شَدَدْتَا
فلو قَدْ ذُقْتَ مِنْ حَلْواهُ طَعْمَاً
لآثَرْتَ التَعَلُّمَ واجتهدْتَا
ولم يَشْغَلْكَ عنهُ هَوَىً مُطاعٌ
ولا دُنْيَا بِزُخْرُفِهَا فُتِنْتَا
وَلا يُلْهيكَ عَنْهُ أنيقُ رَوْضٍ
ولا خَوْدٌ بزينَتِهَا كُلِفْتَا
فَقُوْتُ الرُّوحِ أرْواحُ المَعَالي
وَلَيس بأنْ طَعِمْتَ وأنْ شَرِبْتَا
فَوَاظِبْهُ ، وَخُذْ بالجِدِّ فيهِ
فإنْ أعطاكَهُ البارِي أخَذْتَا
وإنْ أُوتِيْتَ فِيهِ بِطُولِ بَاعٍ
وقال الناسُ : إنكَ قَدْ سَبَقْتَا
فلا تأمَنْ سُؤالَ اللهِ فيهِ
بتَوْبِيْخٍ ، عَلِمْتَ فهلْ عَمِلْتَا ؟!
فرأسُ العِلْمِ تَقْوَى اللهِ حَقّاً
وَلَيْسَ بأن تَعَالَى أوْ رَئِسْتَا
وَضَافِي ثَوْبِكَ الإحسانُ لَا أنْ
تُرَى ثوبَ الإساءةِ قد لَبِسْتَا
وإنْ أَلْقَاكَ فَهْمُكَ في مَهَاوٍ
فَلَيْتَكَ ثم لَيْتَكَ ما فَهِمْتَا

إذا مـا لـمْ يُـفِـدْكَ الـعـلمُ خَـيْـراً
فَـخـيـرٌ مِـنْـهُ أنْ لَـوْ قَـدْ جَـهِـلْتَـا
سَـتَـجْـنِـي مِـنْ ثِـمـارِ الـلَّهْـوِ جَـهْـلاً
وَتَـصْـغُـرُ فـي الـعُـيُـونِ إذا كَـبِـرْتَـا
وَتُـفْـقَـدُ إنْ جَـهِـلْتَ ، وأنـتَ بـاقٍ
وَتُـوجَـدُ إنْ عَـلِمْـتَ إذا فُـقِـدْتَـا
سَـتَـذْكُـرُ لِـلنَّـصِـيْـحَـةِ بَـعْـدَ حِـيـنٍ
وَتَـطْـلُـبُـهـا إذا عَـنْـهَـا شُـغِـلْتَـا
وَسَـوْفَ تَـعَـضُّ مِـنْ نَـدَمٍ عـلـيـهـا
وَمَـا تُـغْـنِـي الـنَّـدَامَـةُ إنْ نَـدِمْـتَـا
إذا أَبْـصَـرْتَ صَـحْـبَـكَ فـي سَـمـاءٍ
وقَـدْ رُفِـعُـوا عليـكَ ، وَقَـدْ سُـفِـلْتَـا
فـراجـعـهـا وَدَعْ عـنـكَ الـهُـوَيْـنـا
فَـمَـا بـالـبُـطْءِ تُـدْرِكُ مـا طَـلَـبْـتَـا
وَلَا تَـحْـفِـلْ بِـمَـالِـكَ ، وَالْـهُ عـنـهُ
فَـلـيسَ الـمَـالُ إلا مَـا عَـلِمْـتَـا
ولـيسَ لِجَـاهِـلٍ فـي الـنـاسِ مَـغْـنَـىً
وَلَـوْ مُـلْكُ الأنَـامِ لَـهُ تَـأَتَّـى
سَـيَـنْـطِـقُ عـنْـكَ مـالُـكَ فـي نَـدِيٍّ
وَيَـكْـتُـبُ عـنـكَ يَـومـاً إنْ كَـتَـبْـتَـا
ومـا يُـغْـنِـيْـكَ تَـشْـيـيـدُ الْـمَـبَـانِـي
إذا بـالـجَـهْـل دِيـنَـك قـد هَـدَمْـتَـا

جَعَلْتَ المالَ فوقَ العِلْمِ جَهْلاً
لَعَمْرُكَ في القَضِيَّةِ مَا عَدَلْتَا
وَبَيْنَهُمَا بِنَصِّ الوَحْيِ فَرْقٌ
سَتَعْلَمُهُ إذا «طَهَ» قَرَأْتَا
لَئِنْ رَفَعَ الغَنِيُّ لِوَاءَ مَالٍ
فَأَنْتَ لِوَاءَ عِلمِكَ قَدْ رَفَعْتَا
وإنْ جَلَسَ الغَنِيُّ على الحَشَايَا
فأنتَ على الكواكِبِ قَدْ جَلَسْتَا
وإنْ رَكِبَ الجِيادَ مُسَوَّماتٍ
فأنتَ مَنَاهِجَ التقْوَى رَكِبْتَا
وَمَهْمَا افتَضَّ أَبكَارَ الغَوَانِي
فكَمْ بِكْرٍ مِنَ الحُكْمِ افْتَضَضْتَا
وَلَيْسَ يَضُرُّكَ الإقْتِارُ شَيْئاً
إذا مَا أَنْتَ رَبَّكَ قَدْ عَرَفْتَا
فيامَا عِنْدَهُ لكَ مِنْ جَزِيْلٍ
إذا بِفِنَاءِ طاعتِهِ أَنَخْتَا
فَقَابِلْ بالقَبُولِ صَحيْحَ نُصْحِي
وإنْ أَعْرَضْتَ عنهُ فقَدْ خَسِرْتَا
وإنْ راعَيْتَهُ قَوْلاً وَفِعْلاً
وَعامَلْتَ الإلهَ بِهِ رَبِحْتَا
فَلَيْسَتْ هذه الدنيا بشيءٍ
تَسُوْؤكَ حِقْبَةً ، وَتَسُرُّ وَقْتَا

وَغَـايَـتُـهَـا إذا فَـكّـرْتَ فِـيـهـا
كَـفَـيْـئِـكَ ، أوْ كَـحُـلْـمِـكَ إنْ رَقَـدْتَـا
سُـجِـنْـتَ بِـهَـا وأنـتَ لَـهَـا مُـحِـبٌ ،
فـكيـفَ تُـحـبُّ مَـنْ فِـيـهـا سُـجِـنْـتَـا ؟!
وَتُـطْـعِـمُـكَ الـطَّـعَـامَ وَعَـنْ قَـلِـيْـلٍ
سَـتُـطْـعَـمُ مِـنْـكَ مـا مِـنْـهَـا طَـعِـمْـتَـا
وَتَـعْـرَى إنْ لِـبـسْـتَ بِـهَـا ثِـيـابـاً
وَتُـكْـسَـى إنْ مَـلاَبِـسَـهَـا خَـلَـعْـتَـا
وَتَـشْـهَـدُ كُـلَ يـومٍ دَفْـنَ خِـلٍّ
كـأنـك لا تُـرادُ بِـمَـا شَـهِـدْتَـا
ولـمْ تُـخْـلَـقْ لِـتَـعْـمُـرَهَـا ، وَلَـكِـنْ
لِـتَـعْـبُـرَهـا ، فَـجِـدَّ لِـمَـا خُـلِـقْـتَـا
وإنْ هُـدِمَـتْ فَـزِدْهَـا أنْـتَ هَـدْمـاً
وَحَـصِّـنْ أمـرَ دِيـنِـكَ مَـا اسْـتَـطَـعْـتَـا
ولا تَـحْـزَنْ لِـمَـا قَـدْ فـاتَ مِـنْـهـا
إذا مَـا أنْـتَ فـي أُخْـرَاكَ فُـزْتَـا
فَـلَيسَ بِـنَـافِـعٍ مـا نِـلْتَ مـنـهـا
مـن الـفـانـي اذا الـبـاقـي حُـرِمْـتَـا
وَلاَ تَـضْـحَـكْ مَـعَ الـسُـفـهـاءِ جَـهْـلاً
فـإنَّـكَ سَـوف تَـبْـكِـيْ إنْ ضَـحِـكْـتـا
وَكَـيـفَ بِـكَ الـسُـرورُ وأنـتَ رَهْـنٌ
ولا تَـدْرِي غَـداً أنْ لَـوْ غُـلِـبْـتَـا ؟!

وسَلْ مِنْ رَبِّكَ التوفيقَ فيها
وأَخْلِصْ في الدُعاءِ إذا سَأَلْتَا
ونادِ إذ سُجِنْتَ بِهِ اعْتِرافاً
كَمَا نَادَاهُ ذُو النُّونِ بنُ مَتَّى
ولازِمْ بابَهُ قَرْعاً عَسَاهُ
سَيَفْتَحُ بابَهُ لَكَ إنْ قَرَعْتَا
وأكْثِرْ ذِكْرَهُ في الأرضِ دَابَاً
لِتُذْكَرَ في السماءِ إذَا ذَكَرْتَا
وَلاَ تَقُلِ الصِّبَا فيه امْتِهالٌ
وَفَكِّرْ، كَمْ صَغِيْرٍ قدْ دَفَنْتَا
وَقُلْ لِيْ : يَا نَصِيْحِيْ لأَنْتَ أوْلَى
بِنُصْحِكَ، إذْ بِعَقْلِكَ قَدْ عُرِفْتَا
فَتَعْذِلُني عن التَّفْرِيطِ يَوْماً
وبالتفرِيْطِ دَهْرَك قد قَطَعْتَا
وفي صِغَرِيْ تُخَوِّفُني المَنَايَا
وَمَا تَجْرِيْ بِبَالِكَ حِيْنَ شِخْتَا
وَكُنْتَ مَعَ الصِّبَا أهْدَى سَبيلا
فَمَا لَكَ بَعْدَ شَيْبِكَ قَدْ نُكِسْتَا
وَهَا أَنَا لَمْ أَخُضْ بَحْرَ الخَطايا
كما قد خُضْتَهُ حَتَّى غَرِقْتَا
وَلَمْ أَشْرَبْ حُمَيَّا أمِّ دَفْرٍ
وأَنْتَ شَرِبْتَها حَتَّى سَكِرْتَا

ولـم أحْـلِلْ بِـوَادٍ فـيـهِ ظُـلْمٌ
وأنْـتَ حَـللتَ فـيـهِ ، وانْـتَـهَـكْـتـا
ولـمْ أَنْـشَـأْ بـعَـصْـرٍ فـيـهِ نَـفْـعٌ
وأنـتَ نشَـأْتَ فـيـه ، فـمـا انْـتَفـعْـتَـا
ونـاداكَ الـكِـتـابُ فـلمْ تُـجِـبْـهُ
وَنَـبَّـهَـكَ الـمشـيـبُ فـمـا انـتَـبـهْـتَـا
وقـد صـاحـبْـتَ أعْـلاَمـاً كـثـيـراً
فـلم أَرَكَ انْـتَـفَـعْـتَ بِـمَـنْ صَـحِـبْـتَـا
ويَـقْـبُـحُ بـالـفَـتَى فِـعْـلُ الـتَّـصَـابِي
وأقْـبَـحُ مـنـه شـيـخٌ قـدْ تَـفَـتَّـى
فـأَنْـتَ أحَـقُّ بـالـتَـفـنِـيـدِ مِـنّـي
ولـو سَـكَتَ الـمُـسـيءُ لَـمَـا نَـطَـقْـتَـا
فَـنَـفْـسَـكَ ذُمَّ ، لا تَـذْمُـمْ سِـوَاهـا
بِـعَـيْـبٍ ، فـهـي أجْـدرُ إنْ ذَمَـمْـتَـا
ولـو بَـكَتِ الـدِّمَـا عَـيْـنَـاكِ خَـوْفـاً
لِـذَنْـبِـكَ لمْ أَقُـلْ لـكَ قـدْ أَمِـنْـتَـا
فَـمَـنْ لـكَ بـالأَمـانِ وأَنْـتَ عـبـدٌ
أُمِـرْتَ ، فـمـا ائـتَـمَـرْتَ ، ولا أَطَـعْـتَـا
فسِـرْتَ القَـهْـقَـرَى ، وَخَـبَـطْـتَ عَـشْـواً
لَـعَـمْـرُكَ لَـوْ وَصِـلْـتَ لَـمَـا رَجَـعْـتَـا
ثَقُلْتَ مِنَ الـذُّنُـوبِ ، وَلَسْـتَ تَخْشَى
لِـجَـهْـلِكَ أَنْ تَـخِـفَّ إذا وُزِنْـتَـا

وَلَـوْ وَافَـيْـتَ رَبَّـكَ دُونَ ذَنْـبٍ
ونـاقَـشَـكَ الـحـسـابَ إذاً هَـلَكْـتَـا
ولـم يـظْلمْـكَ فـي عَـمَـل ، ولـكـنْ
عَـسِـيـرٌ أنْ تـقُـومَ بـمـا حَـمَـلْتَـا
تَـوَجَّـعُ لِـلْمُـصِـرِّ عـلى الـخَـطَايَـا
وَتَـرْحَـمُـهُ ، وَنَـفْـسَـكَ مَـا رَحِـمْـتَـا
ولـو قـد جِئْتَ يـومَ الفصْـلِ فَـرْداً
وأَبْـصَـرْتَ الـمَـنـازِلَ فـيـهِ شَـتَّـى
لأَعَـظَمْـتَ الـنَـدَامَـةَ فـيـهِ لَـهْـفـاً
عـلى مـا في حَـيَـاتِـكَ قَـدْ أَضَعْتَـا
تَـفِـرُّ مِـنَ الـهَـجِـيْـرِ وَتَـتَـقِـيْـهِ
فَهَلاّ مِن جَهَنَّمَ قدْ فَرَرْتا !!
وَلَسْتَ تُـطيـقُ أَهْـوَانَـهـا عَـذابـاً
ولـو كُنْتَ الحَدِيْـدَ بِهـا لَـذُبْتَـا
ولا تـكْـذِبْ ، فـإنَّ الأَمْـرَ جِـدٌّ
وَلَـيسَ كَمَـا حَسِبْتَ ، وَمَـا ظَـنَنْتَـا
أَبَـا بَـكْـرٍ ، كَـشَـفْتَ أقَـلَّ عَـيْـبـي
ومـا اسْتَـعْـظَمْتَـهُ مـنـهَـا سَـتَـرْتَـا
فَـقُـلْ مَـا شِئْتَ فِـيَّ مِـن الـمَـخـازِي
وضـاعِـفْهَـا ، فـإنَّـكَ قَـدْ صَـدَقْـتَـا
وَمَـهْـمَـا عِـبْـتَـنِـي فَـلِفَـرْطِ عِـلْمـي
بـبـاطِـنَـتِـي كـأنـك قـد مَـدَحْـتَـا

ولا تَـرْضَى الـمـعـائـبَ فـهـي عـارٌ
عـظـيـمٌ ، يُـورِثُ الإنْـسَـانَ مَـقْـتَـا
وَتَـهْـوَى بـالـوَجِـيْـهِ مِـنَ الـثُـرَيَـا
وَتُـبـدِلُـهُ مَـكـانَ الـفَـوْقِ تَـحْـتَـا
كَـذَا الـطَّاعَـاتُ تُـبـلِغُـكَ الـدَّرَارِي
وَتَـجْـعَـلُكَ الـقَـرِيْـبَ ، وإنْ بَـعُـدْتَـا
وَتَـنْشُـرُ عَـنْـكَ في الـدُنْـيَـا جَمِيْـلاً
فَـتَـلْقَى الـبِـرَّ فـيـهـا حَـيْـثُ شِـئْـتَـا
وتُـمـسِـي في مَـسَـاكِـنِـهَـا عَـزِيْـزاً
وَتَـجْنِي الحَـمْـدَ مِمَّـا قـد غَـرَسْـتَـا
وأنْـتَ الـيـومَ لـمْ تُـعْـرِفْ بِـعَـيْـبٍ
وَلَا دَنَّـسْـتَ ثـوبَـكَ مُـذْ نَـشَـأْتَـا
ولا سـابَـقْـتَ فـي مَـيْـدانِ زُورٍ
ولا أوْضَـعْـتَ فـيـه ، ولا خَـبَـبْـتَـا
فـإنْ لـمْ تَـنْـأ عـنـهُ نَـشَـبْـتَ فـيـهِ
فَـمَـنْ لـكَ بـالـخَـلاصِ إذا نَـشَـبْـتَـا ؟!
وَدُنِّسَ مِـنْـكَ مـا طَـهَّـرْتَ حَـتَّـى
كـأنـك قَـبْـلَ ذلـك مـا طَهُرْتَـا
وصِـرْتَ أَسِـيـرَ ذنْـبِـكَ فـي وِثـاقٍ
وكَيْفَ لَـكَ الفِكَـاكُ وَقَـد أُسِـرْتَـا ؟!
فَـخَفْ أَبْـنَـاءَ جِنْسِـكَ ، وآخْشَ مِنْهُمْ
كـمـا تَخْشَى الـضَّـراغِـمَ والـسَّـبَـنْـتَـا

فَخَالِطْهُم ، وَزَايِلْهُمْ حِذاراً
وكُنْ كالسّامِرِيّ إذَا لُمْستَا
وان جَهِلُوا عليكَ فقُلْ : سلامٌ
لَعَلَّكَ سَوْفَ تَسْلَمُ إنْ سَلِمْتَا
وَمَنْ لَكَ بالسَّلامَةِ في زَمَانٍ
يُزِلُّ العُصْمَ إلَّا إنْ عُصِمْتَا
ولا تَلْبَثْ بِحَيّ فيهِ ضَيْمٌ
يُميتُ القَلْبَ إلَّا إنْ كُبِلْتَا
فَغَرِّبْ ، فالتَّغَرُّبُ فيه خَيْرٌ
وَشَرِّقْ إنْ بِرِيْقِكَ قدْ شَرِقْتَا
فَلَيسَ الزُّهْدُ في الدنيا خُمُولاً
فأنْتَ بها الأميرُ إذا زَهِدْتَا
فَلَو فَوقَ الأَمِيرِ يكُونُ عَالٍ
عُلُوّاً وارْتِفَاعاً كُنْتَ أنْتَا
فإنْ فارَقْتَهَا ، وَخَرجْتَ منها
إلى دارِ السَّلامِ ، فقد سَلِمْتَا
وإنْ أكرمْتَها ، وَنَظَرْتَ فيها
بإجْلالٍ ، فنفسَكَ قدْ أَهَنْتَا
جَمَعْتُ لكَ النَّصائحَ فامتَثِلْها
حَيَاتَكَ ، فَهْيَ أفضَلُ ما امتَثَلْتَا
وَطَوَّلْتُ العِتابَ ، وَزِدْتُ فيهِ
لأنكَ في البَطالةِ قدْ أَطَلْتَا

فـلا تـأخُـذْ بـتَقْـصِيـرِي ، وَسَـهْـوي
وَخُـذْ بِـوَصِـيَّـتِـي لَـكَ إنْ رُشِـدْتَـا
وقـد أرْدفْـتُـهَـا سِـتّـاً جِـسَـانـا
فـكـانـا قَـبْـلَ ذا مِـائـةً وَسِـتَّـا
وصـلى الـلهُ مـا أوْرَقْ نِـضَـارٌ
عـلى الـمـخـتـارِ فـي شَـجَـرٍ وَحَـتَّـا

اللهمَّ علمْنَا ما ينفعُنَا وآنفَعْنَا بما علَّمْتَنَا وبارِكْ لنا في علومِنَا وأعمالِنا وأعمارِنا وأَصْلِحْ نياتِنا وذُرِّياتِنا واغفِرْ لنا ولـوالدِينـا ولجميع المسلمين برحْمَتِك يا أرحمَ الراحمينَ وصلى اللهُ على محمدٍ وعلى آلِهِ وصحْبِهِ أجمعين .

(فصـــل)

ومما ورد في فضلِ العلمِ والحَثِّ على تَعلُّمِهِ وتعليمِهِ ما يلي مِنَ الأحاديث :

١ ـ فعن مُعاوِيةَ رضِيَ اللهُ عنهُ قالَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « مَنْ يُرِدِ اللهُ بهِ خيْراً يُفَقِّهْهُ في الدِّين » . رواهُ البخاريُّ ومسلمُ .

٢ ـ وعَنْ عبدِ اللهِ يَعْني ابنَ مَسْعودٍ رَضِيَ اللهُ عنْهُ قالَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إذَا أرادَ اللهُ بِعَبدٍ خَيْراً فَقَّهَهُ في الدينِ وألْهَمَهُ رُشْدَهُ » . رواهُ البَزَّارُ والطَّبَرَاني في الكبيرِ بإسْنادٍ لا بأسَ بِهِ .

وعن أبي هُرَيْرَةَ رضِيَ اللهُ عنهُ قالَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسَلَّم : « مَنْ نفّسَ عن مُؤْمنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدنيا نَفَّسَ اللهُ عنهُ كُرْبةً مِنْ كُرَبِ يومِ القيامَةِ ومَنْ سَتَرَ مُسْلِماً سَتَرَهُ اللهُ في الدنيا والآخِرةِ ، وَمَنْ يَسَّرَ على مُعْسِرٍ يَسَّرَ اللهُ عليهِ في الدنيا والآخرةِ ، واللهُ في عوْنِ العبدِ ما كانَ العبدُ في عَوْنِ أخيهِ ، ومن سَلَكَ طريقاً يَلْتَمِسُ فيه عِلْماً سهَّلَ اللهُ لهُ بِهِ طريقاً إلى الجنةِ ، وما اجتمعَ قومٌ في بيتٍ من بُيوتِ اللهِ يتْلونَ كتابَ اللهِ ويتدارسُونَهُ بينهمْ إلا حفَّتْهم الملائكةُ ونزلتْ عليهم السكِينةُ وَغشيَتْهُمُ الرحمةُ وذكَرَهُمُ اللهُ فيمَنْ عندَهُ ، وَمَنْ أَبْطَأَ بهِ عملُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ » . رواهُ مسْلِمٌ وأبو داوودَ والتُرْمُذِي والنَّسائي وابنُ ماجَه وابنُ حِبَّان في صحيحِهِ والحاكِمُ وقال صحيحٌ على شَرْطِهِمَا .

٤ ـ وعن أبي الدرْداءِ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ : سمعتُ رسولَ اللهِ صلى

اللهُ عليهِ وسلمَ يقولُ : « مَنْ سَلَكَ طَريقاً يلتمِسُ فيهِ عِلْماً سَهَّلَ اللهُ لهُ بهِ طريقاً إلى الجَنَّةِ وإنَّ الملائكة لتَضَعُ أجْنِحَتَها لِطَالِبِ العِلْمِ رِضاً بما يَصْنَعُ وإنَّ العَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لهُ مَن في السموات وَمَن في الأرض حتى الحِيْتانِ في الماءِ . وفَضْلُ العالِمِ على العابِدِ كفضْلِ القَمَرِ على سائرِ الكواكِبِ . وإنَّ العُلَمَاءُ وَرَثَةُ الأنبياءِ ، إنَّ الأنبياءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِيناراً ولا دِرْهَماً ، إنَّما وَرَّثُوا العِلْمَ فمَنْ أخَذَهُ أخَذَ بحظٍّ وافِرٍ » . رواهُ أبو داوودَ والتِرْمِذِي وابنُ ماجَه وابنُ حِبَّانَ في صحيحِهِ والبَيْهَقِي .

٥ ـ وعن صَفوانَ بنِ عَسَّالٍ المُرادِي رضي اللهُ عنهُ قالَ : أتيتُ النَبيَّ صلى اللهُ عليهِ وسلّمَ وهو في المسجدِ مُتَّكِىءٌ على بُرْدٍ لَهُ أَحْمَرَ ، فَقُلْتُ لَهُ يا رَسُولَ اللهِ إنّي جئتُ أَطْلُبُ العِلمَ ، فقال : « مرْحَباً بطالِبِ العِلْمِ إنَّ طالبَ العلمِ تَحُفُّه الملائكةُ بأجْنِحَتِها ، ثم يَرْكَبُ بعضُهم بعضاً حتى يَبْلُغُوا السَّمَاءَ الدُنيا مِنْ مَحَبّتِهِم لِمَا يَطْلُبُ » . رواه أحمدُ والطبراني بإسنادٍ جيّدٍ واللفظ لَهُ وابنُ حِبانَ في صحيحِهِ والحاكمُ وقال صحيحُ الاسنادِ . وَرَوَى ابنُ ماجَه نحوَه باختِصارٍ ويأتي لفظُهُ إنْ شاءَ اللهُ تعالى .

وَرُوِي عن أنسِ بنِ مالِكٍ رضي اللهُ عنه قالَ : قَالَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلم : « طَلَبُ العِلْمِ فَرِيْضَةٌ على كلِّ مسلمٍ وواضعُ العِلْمِ عندَ غيرِ أهلِهِ كمُقَلِّدِ الخَنَازِيرِ الجَوْهَرَ واللؤلؤَ والذهب » . رواه ابن ماجه وغيره .

ورُوِيَ عن ابن عباس رضي اللهُ عنهما قال : قال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلم : « مَنْ جاءهُ أجَلُهُ وهو يَطْلُبُ العِلْمَ لَقِيَ اللهَ ولَمْ يكُنْ بَينَهُ وبينَ النبيينَ إلَّا دَرَجَةُ النُبُوَّةِ » . رواهُ الطبَراني في الأوسط .

٦ ـ وَرُوِي عنْ سخبرةَ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ : مَرَّ رجلانِ على رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ وهو يذْكُرُ ، فقالَ اجْلِسَا فإنكما على خيرٍ ، فلمَّا قامَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وَتفَرَّقَ عنه أصحابُهُ قاما فقالا يا رسولَ اللهِ : إنكَ قُلْتَ لَنَا إجْلِسا فإنَكُما عَلَى خيرٍ أَلَنَا خاصَّةً أَمْ لِلنَّاسِ عامَّةً . فقالَ : « ما مِنْ عَبْدٍ يَطْلُبُ العِلْمِ إلا كان كَفَّارَةَ ما تقدَّمَ » . رواه التُرمُذِي مختصراً والطَبَراني في الكبيرِ واللفظُ لَهُ .

٧ ـ وَعَنْ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهُ قالَ.: قالَ رَسولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما آكْتَسَبَ مُكْتَسِبٌ مِثْلَ فَضْلِ عِلْمٍ يَهْدِي صاحِبَهُ إلى هُدَى ، أَوْ يَرُدَّهُ عنْ رَدَى وَمَا استقامَ دِيْنُهُ حتى يَسْتَقِيْمَ عَمَلُه » . رواه الطبراني في الكبير واللفظُ والصغيرِ إلا أنه قَالَ فيهِ : حتى يَسْتَقِيْمَ عَقلُهُ . واسنادُهُما متقارِبٌ .

٨ ـ وَرُوِي عن أبي ذَرّ ، وأبي هُريرةَ رضي اللهُ عنهُما أَنهُما قالا : لبابٌ يتعلمُهُ الرجلُ أحَبُّ إلى الله مِنْ ألفِ رَكْعةٍ تَطَوُّعاً وقالا : قالَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلَّم : « إذا جاءَ الموتُ لِطَالِبِ العِلْمِ وَهُوَ على هَذِهِ الحالةِ ماتَ وهو شهيدٌ » . رواه البزارُ والطبرانيُ في الأوسطِ إلا أنه قالَ : خيرٌ له مِنْ ألفِ رَكْعة .

٩ ـ وعنْ أبي ذَرٍّ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ : قال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ : « يا أبا ذرٍّ لأنْ تَغْدُو فَتَعلَّمَ آيةً مِنْ كِتَابِ اللهِ خيرٌ لك مِنْ أنْ تُصَلِّيَ مائةَ ركعةٍ وَلأَنْ تَغْدُوَ فَتعلَّمَ باباً مِن العِلمِ عُمِلَ بهِ أوْ لَمْ يُعْمَلْ بِهِ خيرٌ لكَ مِنْ أَنْ تُصَلِّيَ ألفَ رَكْعَةٍ » . رواه ابنُ ماجَه بإسْنادٍ حَسَنٍ .

١٠ ـ وعن أبي هُريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ : سمعْتُ رسولَ اللهِ صلى

اللهُ عليهِ وسلمَ يقولُ : « الدنيا مَلْعونةٌ ملعونٌ ما فِيها إلا ذِكرَ اللهِ وما والاهُ وعالِماً وَمُتَعَلِّماً » . رواهُ التِّرمُذِي وابنُ ماجَه والبَيْهَقِي وقالَ الترمذيُّ حديثٌ حَسَن .

١١ ـ وعن ابنِ مسعودٍ قالَ : قالَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ : « لا حَسَدَ إلا في اثنين : رجلٌ آتاهُ اللهُ مالاً فَسَلَّطَهُ على هَلَكَتِهِ في الحقِّ ورجلٌ آتاهُ اللهُ الحِكْمةَ فهو يَقْضِي بِها وَيُعَلِّمُهَا » . رواهُ البخارِي ومسلم .

١٢ ـ وعن أبي موسى رضي اللهُ عنهُ قال : قالَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلم : « مَثَلُ ما بَعَثَنِي اللهُ بهِ مِنَ الهُدَى والعِلْمِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أصابَ أرضاً فكانتْ منها طائفةٌ طيبةٌ قَبِلَتْ الماءَ وأنْبتَتْ الكلأَ والعُشْبَ الكثيرَ وكانَ منها أجادِبُ أمْسَكتْ الماءَ فنفعَ اللهُ بها الناسَ فشَرِبُوا منها وَسَقَوْا وزرعُوا ، وأصابَ طائفةً أُخرَى منها إنّما هي قيعانٌ لا تُمْسِكُ ماءً ولا تُنْبِتُ كَلأً فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ في دينِ اللهِ تعالى ونفعَهُ ما بَعَثَنِي اللهُ بهِ فَعَلِمَ وَعَلَّمَ ، وَمَثَلُ منْ لَمْ يَرْفَعْ بِذلك رأساً ولَمْ يقبلْ هُدَى اللهِ الذي أُرسلتُ بِهِ » . رواهُ البخارِي ومسلم .

شعراً :

وَاعْلَمْ بأنَّ العِلمَ أرفعُ رُتْبَةً
وأَجَلُّ مكتسباً وأسْنَى مَفْخَرِ
فَاسْلُكْ سبيلَ المُقْتفينَ لهُ تَسُدْ
إنَّ السيادَةَ تُقْتَنَى بالدَّفْتَرِ

والـعـالِمُ المـدعُـوُّ حَـبْـراً إنَّمـا
سَمَّـاه بـاسمِ الحَبْـرِ حَمْـلُ المَحْبَـرِ
تَسْمُـوا إلى ذِي العِلْمِ أبْصَـارُ الـوَرَى
وَتَغُضُّ عن ذِي الجَهْـلِ لاَ بَـلْ تَـزْدَرِي
وَمُـضَـمَّـرُ الأقـلامِ يَـبْـلـغُ أهـلُهـا
مـا لـيسَ يُبْلغُ بـالـعِتَـاقِ الـضُّمَّـرِ
والـعـلمُ لـيس بـنـافـعٍ أربـابَـهُ
مـا لَمْ يُـفِـدْ عَـمَـلاً وَحُـسْـنَ تَـبَـصُّـرِ
فـاعْمَـلْ بعلْمِـكَ تُـوفِ نَفسَـكَ وَزنها
لاَ تَـرْضَى بـالتَّضْيِـيْـعِ وَزْنَ المَخْسَـرِ

اللهمَّ وفقْنا لمعرِفَتِكَ بأسمائِكَ وصِفاتِكَ وأفعالِكَ وآرزقْنا الرِّضَا بِقضَائِكَ وَقَدَرِكَ والتوكُّلَ عليكَ في كُلِّ ضيقٍ وَسَعةٍ وشدةٍ وَرَخَاءٍ وكلِّ ما تيسَّرَ واغفِرْ لنا ولوالدِينا ولجميعِ المسلمينَ بِرَحْمَتِكَ يا أرحمَ الراحمينَ وصلى اللهُ على محمدٍ وعَلى آله وصحبه أجمعين .

(فصـــل ١١)

١٣ ـ عن أبي هُريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ : قالَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ : « إنَّ مِمّا يلحَقُ المؤمنَ مِنْ عَمَلِهِ وَحَسَناتِهِ بعدَ موتِهِ عِلْماً علَّمَهُ وَنَشَرَهُ وَوَلَداً صالِحاً تركَهُ ، أوْ مصْحَفاً وَرَّثَهُ ، أو مسجداً بناه أو بيتاً لابنِ السبيلِ بناهُ أو نهراً أجْرَاهُ أو صَدَقةً أخرجَها مِنْ مالِهِ في صِحّتِهِ وحَياتِهِ تلحقُهُ مِنْ بعدِ موتِهِ » . رواهُ ابنُ ماجَه باسنادٍ حسنٍ والبَيهَقيُّ .

١٤ ـ وعن أبي هُريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ : قَالَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ : « إذا ماتَ ابنُ آدمَ انقطعَ عملُهُ إلاّ مِنْ ثَلاثٍ : صدقةٌ جاريةٌ أو عِلمٌ ينتَفِعُ الناسُ بهِ ، أوْ ولدٌ صالحٌ يدعُو لَهُ » . رواهُ مسلمٌ وغيرُهُ .

١٥ ـ وعن أبي أُمامَةَ قالَ : ذُكِرَ لِرسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلمَ رجلانِ : أحدُهُما عابِدٌ ، والآخرُ عالِمٌ ، فقالَ عليهِ أفضلُ الصلاةِ والسلامِ : « فضْلُ العالِمِ على العابِدِ كفَضْلي على أدْناكُمْ » ، ثمَّ قالَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ : « إنّ اللهَ وملائكتَهُ وأهلَ السمواتِ والأرضِ حتى النملة في جُحْرِهَا ، وحتى الحوتَ ليُصَلّونَ على مُعَلِّمِ الناسِ الخيرَ » . رواه الترمذي وقالَ حديثٌ حسَنٌ صحيحٌ . وَرَواهُ البَزّارُ مِنْ حديثِ عائشة مختصَراً قال :معلمُ الخيرِ يستغفرُ لهُ كلُّ شيءٍ حتى الحيتانُ في البحر .

١٦ ـ وَرُوِيَ عن أبي هُريرةَ عن النبيّ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ قالَ : « ما عُبِدَ اللهُ بشيءٍ أفضلَ من فقهٍ في دينٍ وفقيهٌ واحدٌ أشدُّ على الشيطانِ

من ألفِ عابدٍ ولِكُلِ شيءٍ عِمادٌ ، وعِمادُ هذا الدين الفقهُ ، وقالَ : أبو هريرةَ لأنْ أجلسَ ساعةً فأفقهَ أحبُّ إليّ مِنْ أنْ أُحْيِيَ ليلةَ القدْر . رواهُ الدارَ قُطني والبيهقيُّ إلا أنَّـهُ قال : أحبُّ إلي مِنْ أنْ أحيِيَ ليلةً إلى الصَّباح ، وقال . المحفوظُ هذا اللفظُ منْ قولِ الزُهْرِي .

١٧ ـ وعنْ أبي هُريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ أنَّهُ مرَّ بسوقِ المدينةِ فوقَفَ عليها ، فقالَ يا أهلَ السُوقِ ما أَعْجَزَكُمْ ؟ قالوا : وما ذاكَ يا أبا هريرةَ ؟ قالَ ذاكَ مِيْرَاثُ رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، يُقْسَمُ وأنتُم هَاهُنا ، ألا تذْهَبُونَ فتأخُذُون نَصِيْبَكُم مِنهُ . قالُوا وأينَ هُوَ؟ قال في المَسْجدِ فَخَرَجُوا سِرَاعاً وَوَقفَ أَبُو هُريرةَ لهُمْ حَتَّى رَجَعُوا فقالَ لهُمْ : مالكُمْ ؟ فقالوا يا أبا هُريرةَ قد أتَيْنَا المسجدَ فدخَلْنا فيهِ فلمْ نَرَ فيه شيئاً يُقسَمُ فقال لهم أبو هريرة : وما رأيْتُمْ في المسجدِ أحداً قالوا بلى رَأينا قوماً يُصَلُون ، وَقوماً يَقرءون القُرْآنَ وقوماً يَتَذاكَرُون الحَلالَ والحرامَ ، فقال أبو هريرةَ : ويحكُمْ فذاكَ مِيراثُ محمدٍ صلى اللهُ عليهِ وسلَّمَ . رواهُ الطبرانيُّ في الأوسَطِ باسنادٍ حَسَنٍ .

١٨ ـ وعن جابرٍ قال : قال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلَم العِلْمُ عِلْمانِ : عِلْمُ في القَلْبِ فذاكَ العِلْمُ النافِعُ وعِلْمٌ على اللسانِ فذاك حُجَّةُ اللهِ على ابنِ آدمَ . رواه أبو بكرٍ الخطيبُ باسنادٍ حَسَن . ورواهُ ابنُ عبدِ البَرِّ النَمِرِي في كتابِ العلمِ عن الحَسَن مُرْسَلاً باسنادٍ صحيحٍ .

١٩ ـ وعن زِرِّ بن حُبَيْشٍ قالَ أَتَيْتُ صَفْوَانَ بنَ عَسَّالٍ المُرَادِيّ رضي اللهُ عَنْهُ قالَ : ما جاء بِكَ ؟ قُلْتُ : العِلْمُ . قال فإنّي سَمِعْتُ رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ : ما مِنْ خارجٍ خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ في طَلَبِ العِلْمِ

إلاّ وَضَعَتْ لهُ الملائكةُ أجْنحَتَهَا رِضاً بِمَا يَصْنَعُ . رَواهُ التِرْمذيَّ وصَحَّحه وابنُ ماجَه واللفظُ لهُ ، وابنُ حِبّانَ في صحيحِهِ والحاكِمُ وقالَ صحيحُ الإسنادِ .

وَرَوَى عبدُ اللهِ بنُ عُمَرَ أنَّ رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلَّمَ دخلَ المسجِدَ فإذا هُوَ بِمَجْلِسَيْنِ أحدُهُما يذْكرون اللهَ تعالى والآخرون يَتفَقَّهُون ، فقالَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ كِلا مَجْلسَين على خَيْر وأَحَدُهما أحَبُّ إليّ مِنْ صاحِبِهِ أمَّا هؤلآءِ فَيَسْألُونَ اللهَ تعالى وَيَذْكُرُوْنَه فإنْ شَاءَ أَعْطَاهُمْ وإنْ شَاءَ مَنَعَهُمْ وأما المَجْلِسُ الآخَرُ فَيَتَعَلَّمُون الفِقْهَ وَيُعَلِّمُونَ الجاهِلَ وإنما بُعِثْتُ مُعَلِّماً وَجَلسَ إلى الفقهِ ورُوِي عن النبيِ صلى اللهُ عليه وسلمَ أنهُ قَالَ خِيَارُ أمَّتِي عُلَماؤُها وَخِيارُ عُلمَائِها فُقَهَاؤُهَا .

شعراً :

تَعَلَّمْ فإنَّ العِلْمَ زينٌ لأهْلِهِ
وَفَضْلٌ وَعنوانٌ لِكُلِّ المَحَامِدِ
وكُنْ مُستَفِيْداً كُلَّ يومٍ زِيَادَةً
من العِلْمِ واسْبحْ في بُحُورِ الفَوَائِدِ
تَفَقَّهْ فإنَّ الفِقْهَ أَفْضَلُ قَائِدٍ
إلى البِرِّ والتقوَى وأَعْدَلُ قَاصِدِ
هُوَ العَلَمُ الهَادِي إلى سُنَنِ الهُدَى
هُوَ الحِصْنُ يُنْجِي مِنْ جَمِيْعِ الشَّدائِدِ
فإنَّ فَقِيْهاً وَاحِداً مُتَورِّعاً
أَشَدُّ على الشَّيْطانِ مِن أَلْفِ عَابِدِ

آخر : ذَوو العِلْمِ في الدنيا نُجومُ هِدَايةٍ
إذا غـابَ نَـجْـمٌ لاحَ بـعـدُ جَـدِيـدُ
بِهِـمْ عَـزَّ دِيـنُ الـلهِ طُـرّاً وهُـمْ لـهُ
مَـعَـاقِـلُ مِـنْ أَعْـدَائِـهِ وَجُـنُـودُ

اللهمَّ طهِّر قُلوبَنا بالتَّوبةِ النَّصُوحِ منَ الفَسادِ واجْمَعْ قُلُوبَنا على محبتِكَ وخِشْيَتِكَ واهدِنا إلى أَقْرَبِ الطُرقِ إليكَ وهَبْ لنا من مواهِبِكَ الجِسامِ ما يكونُ وسيلةً إلى حُلولِ دارِ السلامِ وآغفِرْ لنا ولوالدِيْنَا ولِجميعِ المسلمينَ بِرَحْمَتِكَ يا أَرحمَ الراحمينَ وصلى اللهُ على محمدٍ وعلى آلِهِ وصحبِهِ أجمعين .

(فصـــل ١٢)

قال ابنُ القَيّمِ رَحِمَهُ اللهُ :

الأصلُ الأولُ في العِلْمِ وَفَضْلِهِ وشرَفِهِ وَبَيانِ عُمُومِ الحاجَةِ إليهِ وَتَوقُّفِ كَمالِ العبدِ ونجاتِهِ في معاشِهِ وَمَعادِهِ عليهِ .

قال اللهُ تعالى : ﴿ شهد اللهُ أنه لا إلهَ إلا هُوَ والملآئكةُ وَأُولوا العلمِ قائماً بالقسطِ لا إلهَ إلا هُوَ العزيزُ الحكيمُ ﴾ استشْهدَ سبحانه بأولي العِلمِ على أَجَلِّ مشهودٍ عليهِ وهُوَ توحيدُهُ فقالَ ﴿ شهدَ اللهُ أنهُ لا إلهَ إلا هو والملآئكةُ وأولوا العِلْمِ قائماً بالقِسْطِ ﴾ وهذا يدلُّ على فضْلِ العِلْمِ وأهلِهِ مِنْ وُجوهٍ . أَحدُها استشهادُهُمْ دونَ غيرِهِمْ من البَشَر ، والثاني اقترانُ شهادَتِهِمْ بِشَهَادِتِهِ ، والثالثُ اقترَانُها بشهادَةِ ملائِكتِهِ ، والرابعُ أنّ في ضِمْنِ هذا تزْكِيَتَهُم وَتَعْدِيلَهُمْ فإنّ اللهَ لا يستشْهِدُ من خلقِهِ إلا العُدولَ ومنْهُ الأثَرُ المَعْروفُ عن النَّبيّ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ يحْمِلُ هذا العلمَ مِنْ كلِّ خَلَفِهِ عُدُوله ينفُونَ عَنْهُ تحريفَ الغالين وانتحالَ المبْطِلِينَ وَتَأويلَ الجاهلين .

والخامسُ : أنـهُ وَصَفَهُمْ بكـونِهِمْ أُولى العِلْمِ وهـذا يـدُلُّ عـلَى اختِصاصِهِمْ بهِ وأنهُمْ أهلُه وأصحابُهُ ليس بمستعارٍ لهُمْ .

السادسُ : أنه سبحانه استشهد بنفسِهِ وهو أجلُّ شاهدٍ ثم بخيارِ خلقِهِ وهم ملائكتُهُ والعلماءُ مِنْ عبادِهِ ويكفيهِمْ بهذا فضلاً وَشَرَفاً .

السابعُ : أنهُ آستشهدَ بهِمْ على أجَلِّ مشهودٍ بِهِ وأعظمِهِ وأكبَرِهِ وهو شهادةُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ والعَظِيمُ القَدْرِ إنَّما يَسْتَشْهِدُ على الأمرِ العظيمِ أكابِرَ الخَلْقِ وساداتِهِمْ .

الثامنِ : أنه سُبحانَهُ جَعَلَ شَهَادَتَهُمْ حُجَّةً عَلى المنكِرِينَ فَهُمْ بِمَنْزِلَةِ أدِلَّتِهِ وآياتِهِ وَبَرَاهِينِهِ الدالة على توحيدِهِ .

التاسع أنه سبحانه أفردَ الفعلَ المتضمنَ لِهذِهِ الشهادَةِ الصادرةِ منهُ ومِنْ ملائكتِهِ ومِنْهُمْ ولَمْ يعطِفْ شهادَتَهُمْ بِفِعْلٍ آخَرَ غيرَ شهادتِهِ .

وهذا يدلُ على شدةِ ارتباطِ شهادتِهِمْ بشهادتِهِ فكأنَّهُ سبحانَه شهِدَ لِنفْسِهِ بالتوحيدِ على ألسِنَتِهِم وأنْطَقَهُم بهذِهِ الشهادةِ فكانَ هو الشاهدَ بها لنفسِهِ إقامَةً وإنْطاقاً وَتَعْلِيماً وهُمْ الشاهِدونَ بِها لَهُ إقْراراً واعتِرَافاً وَتَصْديقاً وإيماناً .

العاشرُ : أنه سبحانَهُ جَعَلَهُمْ مؤدّينَ لحقِّهِ عندَ عبادِهِ بهذِهِ الشهادةِ فاذا أدَّوْهَا فقدْ أدَّوا الحقَّ المشهودَ بِهِ فثبتَ الحقُّ المشهودُ بِهِ فَوَجَبَ على الخَلْقِ الاقرارُ بِهِ وكانَ ذلك غايةَ سَعَادَتِهِمْ في مَعَاشِهِمْ وَمَعَادِهِمْ وكلُّ مَنْ نالهُ الهُدَى بشهادتِهِم وأقرَّ بهذا الحقِّ بسببِ شهادتِهِم فلهُمْ مِنَ الأجْرِ مثلُ أجْرِهِ أيضاً فهذِهِ عشرة أوجُهٍ في هذه الآيةِ .

الحادي عشر : في تفضيلِ العِلْمِ وأَهْلِهِ أنهُ سبحانه نَفَى التسْويَةَ بينَ أهْلِهِ وبينَ غَيرِهِمْ كما نفى التسويةَ بين أصحاب الجنة وأصحاب النار . فقال تعالى ﴿ قُلْ هل يستوي الذينَ يعلمونَ والذينَ لا يعلمونَ ﴾ كما قالَ تعالى ﴿ لا يسْتوي أصحابُ النارِ وأصحابُ الجَنّةِ ﴾ وهذا يَدُلُّ على غايةِ

فضْلِهِمْ وَشَرَفِهِمْ .

الوجهُ الثاني عَشَرَ: أنَّهُ سبحانَهُ جعَلَ أهلَ الجهلِ بمنزلةِ العُمْيانِ الذينَ لا يُبْصِرونَ فقالَ ﴿ أَفَمَنْ يعلمُ أنَّما أُنزِلَ إليكَ مِنْ رَبِّكَ الحقُّ كمَنْ هو أعْمَى ﴾ فما ثَمَّ إلا عالِمٌ أو أعْمَى وَقَدْ وَصَفَ سُبْحانَهُ أهلَ الجَهْلِ بأنَّهُمْ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ في غيرِ مَوْضِعٍ مِنْ كتابِهِ .

الوجهِ الثالثَ عَشَرَ : أنَّهُ سُبْحانَهُ أخبَرَ عن أُولي العِلْمِ بأنَّهُمْ يَرَوْن أنَّ مَا أُنزِلَ إليهِ مِنْ رَبِّهِ حَقٌ وجعل هذا ثَنَاءً عليهِمْ واستِشْهاداً بهِمْ . فقالَ تعالَى ﴿ وَيَرَى الذينَ أوتوا العلمَ الذي أُنزِلَ إليكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الحَقَّ ﴾ .

الوجهُ الرابعَ عَشَرَ : أنهُ سبحانَه أمَرَ بسُؤالِهِمْ والرجوعِ إلى أقوالِهِمْ وجعَلَ ذلكَ كالشهادةِ مِنْهُمْ . فقال ﴿ وما أرْسلْنا قَبْلَكَ إلَّا رِجالاً نُوحِي إليهم فاسْئلوا أَهْلَ الذِّكْرِ إنْ كُنتُمْ لا تَعْلَمُون ﴾ وأهلُ الذِكْرِ هُمْ أهلُ العِلْمِ بِما أُنزِلَ على الأنبياءِ .

الوجهُ الخامسَ عَشَرَ : أنه سبحانه شَهِدَ لِأَهْلِ العلمِ شَهَادةً في ضِمْنِها الاستِشْهادُ بهِمْ على صِحَّةِ ما أَنزَلَ اللهُ على رَسولِهِ فقالَ تعالى ﴿ أَفَغَيْرَ اللهِ أبتغِي حَكَماً وهو الذي أَنزَلَ إليكمُ الكتابَ مُفَصَّلاً والذين آتيناهُمُ الكِتابَ يَعْلَمونَ أنهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بالحقِّ فلا تكُونَنَّ مِنَ المُمْتَرِين ﴾ ،

الوجهُ السادسَ عَشَرَ: أنهُ سبحانه سَلَّى نَبيَّهُ بإيمانِ أهلِ العِلْمِ به. وأمَرَهُ أنْ لا يَعْبَأَ بالجاهلين شيئاً . فقال تعالى : ﴿ وقُرآناً فَرَقْنَاهُ لِتقْرَأَهُ على الناس على مُكْثٍ وَنَزَّلْناهُ تنزيلاً قُلْ آمنوا بهِ أو لا تؤمنوا إنَّ الذينَ أُوتوا

العلمَ مِنْ قَبْلِهِ إذا يُتْلَى عليهِمْ يَخِرُّونَ للأذقانِ سُجَّداً ويقولونَ سُبْحانَ رَبّنا إنْ كانِ وعدُ رَبِّنا لمفعولاً ﴾ وهذا شَرَفٌ عظيمٌ لأهْلِ العلمِ وتحته أنَّ أهلَهُ العالمونَ قد عَرَفوهُ وآمَنُوا بهِ وَصَدَّقُوا فَسواءٌ آمنَ به غيرُهُم أوْ لا .

الوجْهُ السابعَ عَشَرَ : أنهُ سُبحانَهُ مَدَحَ أهلَ العِلْمِ وأثنَى عَليهِمْ وَشَرَّفَهُمْ بأنْ جَعَلَ كِتابَهُ آياتٍ بيناتٍ في صُدورِهِمْ وهذهِ خاصةٌ وَمَنْقَبَةٌ لَهُمْ دونَ غيرِهِمْ . فقال تعالى ﴿ وكذلك أنزلنا الكتابَ فالذين آتيناهُمُ الكتابَ يؤمِنُونَ بهِ ومِنْ هَؤلاءِ مَنْ يؤمِنُ بهِ وَمَا يَجْحَدُ بآياتِنَا إلا الكافِرون ﴾ .

وما كُنتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ ولا تَخُطُّهُ بِيَمِيْنِكَ إذاً لَارتابَ المُبْطِلونَ بَلْ هُوَ آياتٌ بيْناتٌ في صُدورِ الذين أوتوا العِلْمَ وما يجحدُ بآياتِنا إلا الظالمونَ ﴾ وَسواءٌ كانَ المعنَى أنَّ القرآنَ مُسْتَقِرٌ في صُدورِ الذين أوتوا العِلْمَ ثابتٌ فِيهَا محفوظٌ وهو في نفسِهِ آياتٌ بَيناتٌ فيكونُ أخبَرَ عنهُ بِخَبَرَيْنِ . أحدُهُما أنه آياتٌ بيناتٌ . الثاني أنهُ محفوظٌ مُسْتقرٌ ثابتٌ في صدورِ الذين أوتوا العلمَ . أو كان المعنى أنه آيات بينات في صدورهم أي كونُه آياتٍ بيناتٍ معلومٌ لهُمْ ثابتٌ في صدورِهِمْ والقَوْلانِ مُتلازِمانِ لَيْسَا بمُخْتَلِفَيْنِ . وعلى التَّقْديرَيْنِ فهوَ مدْحٌ لَهُم وثَنَاءٌ عليهم في ضِمْنِهِ الاستشهادُ بهِمْ فتأمَّلْهُ .

الوجهُ الثامنَ عَشَرَ : أنه سبحانه أمرَ نَبيَّهُ أنْ يَسْأَلَهُ مَزِيْدَ العِلْمِ فقال تعالى ﴿ فتعالَى اللهُ الملكُ الحقُّ ولا تعْجَلْ بالقرآنِ مِنْ قَبْلِ أنْ يُقْضَى إليكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِي زِدْنِي عِلْماً ﴾ وكفَى بهذَا شَرَفاً لِلْعِلْمِ أنْ أَمَرَ نبيَّهُ أنْ يَسْأَلَهُ المزيدَ مِنْهُ .

الوجهُ التاسِعَ عَشَرَ أنَّهُ سُبْحانَه أخبرَ عنْ رَفْعِهِ دَرَجاتِ أهلِ العلمِ والإيمانِ خاصَّةً . فقال تعالى ﴿ يا أيُها الذين آمنوا إذا قيلَ لكُمْ تفسَّحُوا في المجالِسِ فآفسَحُوا يَفْسَحِ اللهُ لكمْ وإذا قِيلَ انشُزُوا فآنشُزُوا يَرْفَعِ اللهُ الذين آمَنوا منكم والذين أُوتوا العِلْمَ درَجَاتٍ واللهُ بما تَعمَلونَ خبير ﴾ .

قَصِيْدةٌ في الحَثِّ على طَلَبِ العِلْمِ :

يـا تـارِكـاً لِـمَـرَاضِـي الـلهِ أوطَـانـاً
وسـالِكـاً في طَـرِيقِ العِـلمِ أحْـزَانَـا
كُنْ بـاذِلَ الجِدِّ في علمِ الحـديثِ تَنَلْ
كُـلَّ العُلومِ وَكُنْ بـالأصْـلِ مُشْتَـانَـا
فـالـعِـلْمُ أفْـضَـلُ مَـطْلُوبٍ وطـالـبُـهُ
مِن أكمـلِ النـاسِ مِيـزاناً وَرُجْحـانَـا
والعِلمُ نـورٌ فكُنْ بـالـعلمِ مُعْتَـصِمـاً
إنْ رُمْتَ فَـوْزاً لَـدَى الـرحمنِ مَـولانَـا
وهـو الـنجـاةُ وفيـهِ الخيـرُ أجمـعُـهُ
والـجـاهلُون أخـفُّ الـنـاسِ مِيـزانَـا
والعِلمُ يَـرفَـعُ بَيتـاً كـان مُـنْخَـفِضـاً
والجهـلُ يَخْفِضُـهُ لـو كـان مـا كـانَـا
وأرفـعُ الـنـاسِ أهـلُ العـلمِ مَنْـزِلـةً
وأوضـعُ النَـاسِ مَنْ قـد كـان حَيْـرانَـا
لا يَـهْتـدي لِـطَريـقِ الحـقِ مِنْ عَـمَـهٍ
بـل كـانَ بـالجهـلِ مِـمَّن نـال خُسرانَـا

تلقـاهُ بينَ الـوَرَى بـالجَهـلِ مُنْكسِـراً
لا يَـدْرِ مَـازانَـهُ في النـاسِ أوشَـانَـا
والـعِلمُ يَـرْفَـعُـهُ فـوقَ الـوَرَى دَرَجَـاً
والنـاسُ تَعْـرِفُـهُ بـالـفَضْـلِ إذْعـانَـا
وطـالـبُ الـعِلمِ إنْ يَـظْفَـرْ بِـبُـغْـيَـتِـهِ
يَـنـالُ بـالـعلمِ غُـفْـرانـاً وَرِضْـوانَـا
فـاطلبْـهُ مُجْتَهِـداً مـا عِشْتَ مُحْتَسِبـاً
لا تَـبْـتـغِي بَـدَلاً إنْ كُـنْـتَ يَـقْـظَانَـا
مَنْ نَـالَـهُ نـالَ في الـدَّارينِ مَنْـزِلـةً
أو فـاتَـهُ نَـالَ خُـسـرانـاً وَنُقْـصـانَـا
وبـاذلُ الـجِـدِّ في تـحـصـيـلِهِ زَمَـنـاً
ولَمْ يكنْ نـالَ بعـدَ الجِـدِّ عِـرْفـانَـا
فـلنْ يَـضِـيـعَ لـهُ سَـعْـيٌ ولا عَـمَـلٌ
عـنْـدَ الإلَـهِ ولا يُـولِـيـهِ خُـسْـرانَـا
فـطالبُ العِلمِ إنْ أصْفَى سَـريـرَتَـهُ
يَـنـالُ مِـنْ رَبّـنـا عَـفْـوَاً وَرِضْـوانَـا
فـالـعِلمُ يَـرْفَـعُـهُ في الـخُلْدِ مَـنْـزِلَـةً
والجَهَـلُ يُصْليـهِ يـومَ الحَشْـرِ نِيـرانَـا
والجَهَـلُ في هـذهِ الـدُنيـا يُـنَقِّصُـهُ
والـعلمُ يكْسُـوْهُ تـاجَ الـعِـزِ إعْـلانَـا
وإنْ تُـرِدْ نَهْـجَ هـذا العِلْمِ تَسْلُكُـهُ
أو رُمْتَ يـومـاً لمـا قـد قُلْت بُـرْهـانَـا

فَـأَلْقِ سَمْعـاً لمـا أُبْـدِي وكُـنْ يَقِـظاً
ولا تـكنْ غـافِـلاً عـن ذاكَ كَسْـلانَـا
قـد أَلَّفَ الشيـخُ في التـوحيـدِ مُخْتصَـراً
يَكْفِي أَخَـا اللُبِّ إيـضَـاحـاً وَتِبْـيـانَـا
فيـهِ البيـانُ لِتَـوْحِيـدِ الإلـهِ بمـا
قـد يَفعـلُ العبـدُ للطاعـاتِ إيمـانَـا
حُبّـاً وَخَـوفـاً وَتَعْظِيمـاً لـهُ وَرَجَـا
وَخَـشْيـةً مـنـهُ لِلرَّحْمـنِ إذْعـانَـا
كـذاكَ نَـذْراً وَذَبْـحـاً واسْتِغـاثَتُـنـا
والاستـعـانـةُ بـالـمـعـبـودِ مَـوْلانَـا
وغـيـرُ ذلـكَ مـمَّـا كـان يَـفْـعَـلُهُ
لِـلهِ مِـنْ طـاعـةٍ سِـرّاً وإعْـلانَـا
وفيـهِ تَـوْحيـدُنَـا رَبَّ العِبـادِ بمـا
قـد يَفعـلُ اللهُ أحْكـامـاً وإتْـقـانَـا
خَـلْقـاً وَرِزْقـاً وإحْـيـاءً وَمَـقْـدُرةً
بـالاخْتِـرَاعِ لِمَـا قـد شـاءَ أو كـانَـا
وَيَخْـرُجُ الأمـرُ عنْ طَـوْقِ العَبـادِ لـهُ
وذاك مِـنْ شـأنِـهِ أَعْـظِمْ بـهِ شـانَـا
وفيـهِ تـوحيـدُنـا الـرحـمـنَ أنَّ لَـهُ
صِـفـاتِ مَـجْـدٍ وأسْـمـاءً لِـمَـوْلانَـا
تِسْـعٌ وَتِسعُونَ إسْمـاً غَيرَ مـا خَفِيَتْ
لا يَسْتَـطِيْـعُ لهـا الانسـانُ حُسْبـانَـا

مِمَّا بِهِ آسْتَأثَرَ الرحمنُ خالقُنا
أو كانَ علَّمَهُ الرحْمنُ إنسانَا
نُمِرُّها كَيْفَ جَاءت لا نُكَيِّفها
بَلْ لا نُؤَوِّلها تأوِيْلَ مَنْ مَانَا
وَفِيهِ تِبْيانُ إشْراكٍ يُناقُضُهُ
بل مَا يُنَافِيهِ مِن كُفْرانِ مَنْ خانَا
أَوْ كَانَ يَقْدَحُ في التَّوحْيْدِ مِنْ بِدَعٍ
شَنْعَاءَ أحْدثها مَنْ كان فَتَّانَا
أوِ المَعَاصِي الَّتِي تُزْرِي بِفَاعِلِها
مِمَّا يُنَقِّصُ تَوْحِيْداً وإيمانَا
فَسَاقَ أَنْواعَ تَوْحيْدِ الإلهِ كَمَا
قد كانَ يَعْرِفُهُ مَنْ كانَ يَقْظَانَا
وَسَاقَ فيهِ الذي قد كان يَنْقُضُهُ
لِتَعْرِفَ الحقَّ بالأضْدَادِ إمْعَانَا
مُضَمِّناً كُلَّ بابٍ مِنْ تَرَاجُمِهِ
مِنَ النُّصوصِ آحَادِيثاً وَقُرآنَا
فالشيخُ ضَمَّنَهُ ما يَطْمَئِنَّ لهُ
قَلْبُ الموحِّدِ إيْضَاحاً وَتِبْيانَا
فاشْدُدْ يَدَيْكَ بِهِ في الأصْلِ مُعْتَصِماً
يُورِثْكَ فِيْمَا سِوَاهُ اللهُ عِرْفانَا
وانْظُرْ بِقَلْبِكَ في مَبْنَى تَرَاجُمِهِ
تَلقَى هُنالِكَ لِلتَّحْقِيْقِ عُنْوانَا

ولِلْمَسَائِلِ فَانْظُرْ تَلْقَهَا حِكَماً
يَزْدَادُ مِنهنَّ أَهْلُ العِلْمِ إِتْقَانَا
وَقُلْ جَزَى اللهُ شِيخُ المسلمينَ كَما
قَدْ شَادَ لِلمِلَّةِ السَّمْحَاءِ أَرْكَانَا
فقامَ لِلهِ يَدْعُو النَاسَ مُجْتهداً
حتى استجابُوا لَهُ مَثْنَى وَوُحْدانَا
وَوَحَّدُوْا اللهَ حَقّاً لا شَرِيْكَ لهُ
مِنْ بَعْدِ مَا انْهَمَكُوا في الكُفْرِ أَزْمَانَا
وأَصْبحَ الناسُ بعدَ الجهلِ قدْ عَلِمُوا
وطَالَ مَا هَدَمُوا لِلدِّين بُنْيَانَا
وأَظْهَرَ اللهُ هَذا الدِينَ وانْتَشَرَتْ
أَحْكَامُهُ في الوَرَى مِنْ بَعْدِ أَنْ كَانَا
بِالْجَهْلِ والكُفْرِ قَدْ أَرْسَتْ مَعَالِمُهُ
لا يَعْرِفُ النَاسُ إِلَّا الكُفْرَ أَزْمَانَا
يَدْعُونَ غيرَ الإِلٰهِ الحقِّ مِنْ سَفَهٍ
وَيَطْلُبُوْن مِنَ الأمواتِ غُفْرانَا
وَيَنْسِكُونَ لِغَيْرِ اللهِ ما ذَبَحُوا
وَيَنْذِرونَ لغيرِ اللهِ قُرْبَانَا
وَيَسْتَغِيْثُونَ بِالأَمْواتِ إِنْ عَظُمَتْ
وأَعْضَلَتْ شِدَّةٌ مِنْ حادِثٍ كَانَا
وَيَنْدِبُونَ لَهَا زيداً لِيَكْشِفَها
بَلْ يَنْدِبُونَ لَهَا تَاجَاً وَشُمْسَانَا

فَـزَالَ ثَـمَّ بِهَـذَا الـشيـخِ حِينَ دَعَـا
مَنْ صَـدَّ أَوْ نَـدَّ عَنْ تَـوْحِيْـدِ مَـوْلانـا
فَـلَيْسَ مِـنْ أَحَـدٍ يَـدْعُـو وَلـيـجَـتَـهُ
يـومـاً بـنـجْـدٍ ولا يَـدْعُـونَ أَوْثـانـا
بَـلِ الـدُّعـا كـلُّهُ والـدِّيـنُ أجْـمـعُـهُ
لِـلِهِ لا لِـسِـوَى الـرَّحْـمـنِ إيْـمَـانـاً
فـاللهُ يُعْـلِيـهِ في الـفِـرْدَوسِ مَنْـزِلـةً
فَـضْـلاً وَجُـوداً وَتَكْـريـمـاً وإحْسَـانـا
والـلهُ يُـوْلِـيـهِ أَلْـطَافـاً وَمَـغْـفِـرَةً
ورحْـمـةً مِـنْـهُ إحـسَـانـا وَرِضْـوَانَـا
ثم الصـلاةُ على المَعْصُـومِ سيِّـدِنـا
أَزْكَى الـبـرِيـةِ إيـمـانـاً وعِـرْفـانـا
مـا نَـاضَ بَـرْقٌ وما هبَّ النّسِيْمُ وَمَـا
مسَّ الـحَـجـيْـجُ لِـبَـيْـتِ الـلَّهِ أرْكـانـا
أَوْ قَهْقَـهَ الـرَّعْـدُ في هَـدْبـاءَ مُـدْجِنَـةٍ
أَوْ نـاحَ طيـرٌ عَلى الأغصـانِ أَزْمـانـا
والآلِ والـصَّحْـبِ ثُمَّ الـتـابعـيـنَ لـهُـمْ
عـلى المَـحَـجَّـةِ إيْـمـانـاً وإحْـسَـانـا

اللهمَّ هبْ لَنَا ما وَهَبْتَهُ لِأَولِيائِكَ وَتَوَفَّنا وأنت راضٍ عَنَّا وقد قَبِلْتَ اليسيرَ مِنّا واجعلْنا يا مولانا من عبادِكَ الذين لا خوفٌ عليهم ولا هُمْ يحزَنونَ واغْفِرْ لنا ولوالدِينا ولجميعِ المسلمين برحْمَتِكَ يا أَرْحمَ الراحِمينَ وصلى اللهُ على محمّدٍ وعلى آلِهِ وصحبِهِ أجْمعين .

(فصـــل ١٣)

وقدْ أخْبَرَ سبحانَهُ في كتابِهِ برَفْعِ الدرجاتِ في أربعةِ مواضِعَ ، أحدُها هذا . والثاني قَولُهُ ﴿ إنّما المؤمنون الذين إذا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قلوبُهم واذا تُلِيَتْ عَلَيهم آياتُه زادتْهُم إيماناً وعلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُون ، الذينَ يُقيمونَ الصَّلاةَ ومِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ أولئك هُمُ المؤمنـون حَقاً لهمْ درجاتٌ عندَ رَبِّهِمْ ومَغْفِرَةٌ ورزقٌ كريمٌ ﴾ . (والثالثُ) قولُه تعالى ﴿ ومَنْ يأْتِهِ مؤمناً قد عَمِلَ الصالحاتِ فأولئكَ لهُمُ الدرجاتُ العُلَى ﴾ (والرابعُ قولُه تعالى ﴿ وفَضَّلَ اللهُ المجاهدينَ على القاعدينَ أجْراً عظيماً درجاتٍ منهُ ومغفِرةً وَرَحْمَة ﴾ فهذهِ أربعةُ مواضِعَ في ثلاثةٍ مِنْها الرِّفعةُ بالدرجاتِ لِأهْلِ الرِّفْعةِ بالجِهاتِ فعادَتْ رِفْعَةُ الدرجاتِ كلِّهَا إلى العِلْم والجهادِ اللذَيْنِ بهما قِوامُ الدِّيْنِ .

الوجهُ العشرون : أنه سُبْحانَه آسْتَشْهَدَ بأهْلِ العِلْمِ والإيْمانِ يومَ القِيامَةِ على بُطْلانِ قَوْلِ الكُفَّارِ فقالَ تعالى ﴿ ويَوْمَ تقومُ الساعةُ يُقْسِمُ المُجْرمونَ مَا لبِثُوا غيرَ ساعةٍ كذلك كانوا يُؤْفَكونَ وقال الذين أُوتوا العِلْمَ والإيْمانَ لقدْ لَبِثْتُمْ في كِتَابِ اللهِ إلى يَوْمِ البَعْثِ فهذا يومُ البَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كنتمْ لا تعلمونَ ﴾ .

الوجهُ الحادِي والعشرونَ أنَّهُ سُبْحانَه أخْبَرَ أنهُمْ أهْلُ خَشْيَتِهِ بلْ خَصَّهمْ مِنْ بينِ الناسِ بذلك . فقال تعالى ﴿ إنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبادِهِ العلماءُ إنَّ اللهَ عزيزٌ غفورٌ ﴾ .

وهذا حَصْرٌ لِخَشْيَتِهِ في أُولي العِلْم . وقال تعالى ﴿ جزاؤهُم عندَ رَبِّهِمْ جنات عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأنهارُ خالدِينَ فِيها أَبَدَاً رضِيَ اللهَ عنهُمْ وَرَضَوا عنه ذلك لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴾ وَقَدْ أَخْبَرَ أَنَّ أَهلَ خَشْيَتِهِ هُمُ العُلَماءُ . فَدَلَّ على أَنَّ هذا الجزاءَ المذكورَ للعلماءِ بمجموعِ النَّصَّيْنِ . وقالَ ابنُ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ كَفَى بخشيةِ اللهِ عِلْماً وَكَفَى بالاغْتِرَارِ باللهِ جَهْلاً .

الوجهُ الثاني والعشرونُ : أَنَّهُ سبحانَه أَخْبَرَ عنْ أَمْثَالِهِ التي يضرِبُها لِعبادِهِ يَدُلُّهم على صِحَّةِ ما أخبرَ بِهِ أَنَّ أهلَ العلمِ هم المُنْتَفِعُونَ بِها المختصُّونَ بعِلْمِهَا فقالَ تعالَى ﴿ وتلكَ الأمثالُ نضرِبُهَا للنّاسِ وما يَعْقِلُها إلا العَالِمونَ ﴾ وفي القرآنِ بِضْعةٌ وأربعونَ مَثَلاً وكان بعضُ السَّلَفِ إذا مَرَّ بِمَثَلٍ لا يفهَمُهُ يَبْكي ويقولُ لَسْتَ مِنَ العالمِين .

الوجهُ الثالثُ والعشرون : أَنَّهُ سُبْحانَهُ ذَكَرَ مُنَاظَرةَ إبراهيمَ لأبيهِ وَقَوْمِهِ وَغَلَبَتِهِ لَهُمْ بالحُجةِ وأخبَرَ عن تفضيلِهِ بذلكَ وَرْفعِهِ دَرجَتَهُ بعلمِ الحُجَّةِ فقالَ تعالىَ عُقَيْبَ مُنَاظَرَتِهِ لأَبيهِ وَقَومِهِ في سُورةِ الأنعام ﴿ وتلكَ حُجَّتُنَا آتَيْناها إبراهيمَ على قَومِهِ نَرفعُ درجاتٍ مَنْ نَشاءُ إنَّ رَبَّكَ حكيمٌ عليمٌ ﴾ قال زيدُ بنُ أَسْلَمَ رَضِيَ اللهُ عنهُ نرفعُ درجاتٍ مَنْ نشاءُ بعلمِ الحُجَّةِ .

الوجهُ الرابعُ والعشرونَ : أنَّه سُبْحانَهُ أخبَرَ أَنَّهُ خَلَقَ الخَلْقَ ووضَعَ بيتَهُ الحرامَ والشهرَ الحرامَ والهَدْيَ والقَلائدَ لِيُعْلِمَ عِبادَهُ أنهُ بكلِ شيءٍ عليمٌ وعلى كلِ شيءٍ قديرٌ فقالَ تعالىَ ﴿ اللّهُ الذي خَلَقَ سَبْعَ سَمواتٍ وَمِن الأرضِ مثلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأمرُ بينَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللّهَ عَلَى كلِّ شيءٍ قَدِير

وَأَنَّ اللّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكلِّ شَيءٍ علمَاً ﴾ فَدَلّ على أنّ علمَ العِبادِ بربِّهِمْ وَصِفاتِهِ وعبادَتِهِ وَحْدَهُ هو الغايةُ المطلوبةُ مِنْ الخَلْقِ والأمْرِ .

العِلْمُ يَغْرِسُ كُلَّ فَضْلٍ فاجْتَهِدْ
أنْ لا يفوتَكَ فَضلُ ذاكَ المَغْرِسُ
وآعلمْ بأنَّ العِلْمَ ليس ينالُهُ
مَنْ هَمُّهُ في مَطْعَمٍ أو مَلْبَسِ
إلاَّ أَخُو العِلْمِ الذي يزهو بهِ
في حالَتَيْهِ عارِياً أوْ مُكْتَسِي
فاجْعلْ لنفسِكَ مِنْهُ حَظّاً وافِراً
واهجُرْ لَهُ طِيْبَ الرُّقادِ وَعَبِّسِ
فَلَعلَّ يوماً إن حَضَرْتَ بِمَجْلِسٍ
كُنْتَ الرَّئِيسَ وَفخرَ ذاكَ المجْلِسِ

آخر :

عَوِّدْ بَنِيْكَ على الآدابِ في الصِّغَرِ
كَيْمَا تَقَرَّ بِهِمْ عَيْنَاكَ في الكِبَرِ
فإنَّما مَثَلُ الآدابِ تَجْمَعُها
في عُنْفُوَانِ الصِّبا كالنَّقْشِ في الحَجَرِ
هِيَ الكُنوزُ التي تَنْمُو ذخائِرُهَا
وَلاَ يُخافُ عليها حادِثُ الغِيَرِ
إنّ الأديبَ إذا زَلَّتْ به قَدَمٌ
يَهْوِي على فُرُشِ الدِّيباجِ والسُّرُرِ

اللهمَّ يا خالقَ الخَلْقِ يا قَيُّومُ نسألُكَ بأسْمائِكَ الحُسْنَى أنْ تنصُرَ الإسْلاَمَ والمسلمينَ وأنْ تُعْلِيَ بفضْلِكَ كَلِمَة الحقِّ والدِّينِ وأنْ تَشْمَلَ بعنايَتِكَ وَتَوْفِيقِكَ كلَّ مَنْ نَصَرَ الدِّينَ وأنْ تَمْلأَ قلوبَنا بِمَحبَّتِكَ وَمَحَبَّةِ مَنْ يُحِبُّكَ وأنْ تأخُذَ بِنَوَاصِيْنَا إلَى ما تَرْضَاهُ وأنْ تَرْزُقَنا الاسْتعدادَ لِمَا أَمَامَنَا وأنْ تُهَوِّنَ أمْرَ الدُّنْيا علينا وأن تَغْفِرَ لَنا ولوالدِيْنَا وَلِجميعِ المسلمين برحْمَتِكَ يا أرحَمَ الراحمينَ وصلى اللهُ على محمدٍ وعلى أهْلِهِ وصحْبِهِ أجمعين .

(فصـــل)

الوجهُ الخامِسُ والعشرونَ : أنه سُبْحانَهُ أَمَرَ أَهْلَ العِلْمِ بالفَرَحِ ، بما آتاهُمْ وأخبَرَ أنهُ خيرٌ مِمَّا يَجْمعونَه الناسُ فقالَ ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فبذلك فَلْيَفْرَحُوا هو خيرٌ مِمَّا يَجْمَعُون ﴾ وَفَسَّرَ اللهُ الفضْلَ بالإيمانِ وَرَحْمَتَهُ بالقرآنِ والإيمانُ والقرآنُ هما العلمُ النافعُ والعملُ الصالحُ والهُدَى ودينُ الحقِّ وهما أفضلُ عِلْمٍ وأفضلُ عَمَلٍ .

الوجهُ السادسُ والعشرون : أنَّهُ سُبْحانَهُ شَهِدَ لِمَنْ آتاهُ العِلْمَ بأنهُ قد آتاهُ خيراً كثيراً فقال تعالى ﴿ يُؤْتِي الحِكْمَةَ من يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الحِكْمَةَ فقد أُوْتِيَ خيراً كثيراً ﴾ قال ابنُ قُتَيْبَةَ والجُمهورُ الحكمةُ إصابةُ الحقِّ والعملُ بِهِ وهِيَ العِلْمُ النافعُ والعَمَلُ الصالحُ .

الوجهُ السابعُ والعشرونَ : أنه سُبحانَهُ عدَّدَ نِعَمَهُ وَفَضْلَهُ على رسولِهِ صلى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وجعلَ مِنْ أجَلِّهَا أنْ آتاهُ الكِتابَ والحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مَا لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ فقال تعالى ﴿ وأنزلَ اللهُ عَليكَ الكتابَ والحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا

لَمْ تَكُنْ تعلمُ وكَان فضْلُ اللهِ عَليكَ عظيماً ﴾ .

الوجه الثامِنُ والعشْرونَ : أَنَّهُ سُبْحانَهُ ذَكَرَ عِبادَهُ المؤمنينَ بِهَذِهِ النِّعْمةِ وأَمَرَهُمْ بِشُكْرِهَا وأنْ يَذْكُرُوهُ على إسْدائِها إليْهِمْ فَقَالَ تعَالَى ﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فيكُمْ رسولاً منكُمْ يَتْلُو عليكُم آياتِنا وَيُزَكّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الكِتابَ والحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تكونوا تَعْلمون . فاذْكُروني أذكُرْكُم واشْكُروا لي ولا تَكْفُرُون ﴾ .

الوجهُ التاسعُ والعِشْرونَ : أَنَّهُ سُبْحانه لمَّا أنْ عَرَّفَهُمْ فَضْلَ آدمَ بالعِلْمِ وَعَجْزَهُم عن مَعْرِفَةِ ما عَلَّمَهُ قال لَهُمْ ﴿ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ أَنّي أَعْلَمُ غَيْبَ السمواتِ والأَرْضِ وأَعْلَمُ ما تُبْدُونَ وما كنتُمْ تَكْتُمون ﴾ فعرَّفَهُمْ سبحانه نَفْسَه بالعِلمِ وأنه أحاطَ عِلمُهُ بظاهِرِهِمْ وباطِنِهِمْ وَبِغيبِ السمواتِ والأرضِ فَتَعَرَّفَ إليْهِمْ بِصِفَةِ العِلْمِ وَعَرَّفَهُمْ فَضْلَ نَبِيِّهِ وَكليمِهِ بالعِلْمِ وَعَجْزَهُمْ عَمَّا آتاهُ آدمَ مِنَ العِلْمِ وَكَفَى بهذا شَرَفاً للعِلْمِ .

وَبَيانُ فَضْلِ العِلْمِ مِنْ هذه القصةِ مِنْ وُجُوهٍ . أحَدُها أنه سُبْحانَهُ جَعَلَ في آدَمَ مِنْ صِفاتِ الكَمالِ مَا كَانَ بِهِ أَفْضَلَ مِنْ غَيْرِهِ مِنَ المَخْلوقاتِ وأرادَ سُبحانَهُ أنْ يُظْهِرَ لِمَلائِكَتِهِ فَضْلَهُ وَشَرَفَهُ فَظَهَرَ لَهُمْ أَحْسَنُ ما فيهِ وَهُوَ عِلْمُهُ فَدَلَّ على أنَّ العِلْمَ أشْرَفُ مَا في الإنْسانِ وأنَّ فضْلَهُ وَشَرَفَهُ إنَّما هو بالعِلْمِ وَنَظِيرُ هذا ما فَعَلَهُ بِنَبِيِّهِ يُوسُفَ عليهِ السلامُ لَمّا أرادَ إظْهارَ فَضْلِهِ وَشَرَفِهِ على أهلِ زَمانِهِ كُلِّهِمْ أظهرَ للمَلِكِ وأَهلِ مِصرَ مِنْ عِلْمِهِ بتأْويلِ رؤياهُ مَا عَجَزَ عنهُ علماءُ التعبيرِ فحينئذٍ قَدَّمَهُ وَمَكَّنَهُ وَسَلَّم إليهِ خزائنَ الأَرْضِ وكانَ قَبلَ ذلك قدْ حَبَسَهُ على ما رآهُ مِنْ حُسْنِ وجهِهِ وَجَمالِ صُورتِهِ ولَما ظَهَرَ لَهُ حُسْنُ صُورةِ علمِهِ وجمالُ مَعْرِفَتِهِ أطلقهُ مِنَ

الحَبْسِ وَمَكَّنَهُ في الأرْضِ فَدَلَّ على أنَّ صُورةَ العِلْمِ عنْدَ بَني آدمَ أبْهَى وأحْسَنُ من الصورةِ الحِسِّيَّةِ ولو كانتْ أجملَ صُورَةٍ . وهذا وجهٌ مستقلٌّ في تفضيلِ العِلْمِ مضافٌ إلى ما تقدَّمَ فَتمَّ بهِ ثلاثين وَجْهاً .

الوجهُ الحادي والثلاثون : أنه سُبْحانَهُ ذمَّ أهلَ الجَهْلِ في مواضعَ كثيرةٍ من كِتابِهِ .

الوجه الثاني والثلاثون أنّ العلمَ حَياةٌ وَنُورٌ ، والخيرُ كله سَبَبُهُ النورُ والحياةُ فإنّ النورَ يكشِفُ عن حقائِقِ الأشياءِ وَيُبَيِّنُ مَراتِبَها والحياةُ هي المُصَحِّحَةُ لصفاتِ الكمالِ الموجِبَةُ لِتَسْدِيدِ الأقوالِ والأعمالِ فَكُلّما تَصَرَّفَ مِنَ الحياةِ فَهُوَ خيرٌ كلُّهُ كالحَياءِ الذي سببُهُ كمالُ حياةِ القلبِ وَتَصَوُّرُهُ حقيقةَ القُبْحِ وَنُفرتُهُ منهُ وَضِدُّهُ الوَقاحةُ والفُحْشُ وَسَبَبُهُ موتُ القلبِ وعدمُ نُفْرتِهِ مِنَ القبيحِ وكالحَيا الذي هو المطرُ الذي بهِ حياةُ كلِّ شيءٍ قال تعالى ﴿ أو مَنْ كانَ مَيْتاً فأحْيَيْناهُ وجعلنا لَهُ نُوراً يَمْشِي بهِ في الناسِ كَمَنْ مَثَلُهُ في الظُّلُماتِ ليس بخارجٍ منها ﴾ كان مَيْتاً بالجهلِ قَلبُهُ فأحياهُ بالعِلْمِ وَجَعَلَ لَهُ مِنَ الإيمانِ نُوراً يَمْشِي بِهِ في الناسِ .

الوجهُ الثالثُ والثلاثون : أن اللهَ سبحانَهُ جَعَلَ صَيْدَ الكلبِ الجاهِلِ مَيْتَةً يحرُمُ أكلُها وأباحَ صَيْدَ الكلبِ المُعَلَّمْ وهذا أيضاً مِنْ شَرَفِ العلمِ أنهُ لا يُباحُ إلا صَيْدُ الكلبِ العالِمِ وَأمَّا الكلبُ الجاهلُ فلا يَحِلُّ أكلُ صَيْدِهِ فدلَّ على شَرَفِ العِلمِ وَفَضْلِهِ .

انتهى كلامُهُ رَحِمَهُ اللهُ .

(فصـــل ١٥)

ومِمَّا قالَهُ العُلماءُ والأُدَباءُ والحُكَماءُ في فَضْلِ العِلمِ والْحَثِّ عليهِ تَعَلُّماً وتعليماً قال عليُّ بنُ أبي طالبٍ رَضِيَ اللهُ عنهُ ، الناسُ أَبناءُ ما يُحْسِنُونَ وقالَ مُصْعَبُ بنُ الزُبَيْر تَعَلَّمْ العِلْمَ فإنْ لَمْ يكُنْ لكَ مالٌ كان العلمُ لك جَمالاً وإنْ لَمْ يَكُنْ لَكَ مالٌ كان لكَ مَالاً وقال عبدُ الملكِ بنُ مَرْوانَ لِبَنيهِ يا بَنِيَّ تعلَّموا العلمَ فإنْ كنْتُمْ سادةً فُقْتُمْ وإنْ كنتُمْ وَسَطاً سُدْتُمْ وإنْ كنتُمْ سُوقَةً عِشْتُمْ .

وقال بعضُ الحُكماءِ العلمُ شَرَفٌ لا قَدْرَ لَهُ والأَدَبُ مالٌ لا خَوْفَ عليهِ وقال بعضُ الأُدَباءِ العلمُ أفضَلُ خَلَفٍ والعملُ بِهِ أملُ شَرَفٍ وقال بعضُ البُلغاءِ تَعَلَّمْ العلمَ فإنَّهُ يُقَوِّمُك وَيُسَدِّدُكَ صغيراً وَيُقَدِمُكَ وَيُسوِّدُكَ كبيراً وَيُصْلِحُ زَيْفَك وفاسِدَكَ وَيُرْغِمُ عَدُوَّكَ وحاسِدَكَ وَيُقوِّمُ عِوَجَكَ وَمَيْلَكَ وَيُصَحِّحُ هِمَّتَكَ وأَمَلَكَ .

قلتُ وهذا صحيحٌ في حَقِّ العاقِلِ اللبيبِ القابِلِ لِذَلِكَ دُونَ الأَحْمَقِ المُتَكَبِّرِ الجاهِلِ جَهْلاً مُرَكَّباً قَالَ بعضُهُمْ :

العِلْمُ لِلرَّجُلِ اللَّبِيْبِ زِيادَةٌ
وَنَقِيصَةٌ لِلأَحمقِ الطَّيَّاشِ
مِثْلُ النَّهارِ يَزِيْدُ أَبْصارَ الوَرَى
نُوراً وَيُعْشِي أَعْيُنَ الخُفَّاشِ

شعراً :

ما الفَخْرُ إلّا لأَهْلِ العِلْمِ أنهُمُ
عَلَى الهُدَى لِمَنِ آسْتَهْدَى أدِلاَّءُ
وَقَدْرُ كلِّ آمرِىءٍ ما كان يُحْسِنُهُ
والجاهلون لأهْلِ العلمِ أعْداءُ
فَفُزْ بعِلمٍ تَعِشْ حيّاً بهِ أبَدَاً
الناسُ مَوْتَى وأهلُ العِلْمِ أحْياءُ

آخر :

تعلَّمْ فليسَ المرءُ يُولَدُ عالِماً
وليس أخو علمٍ كَمَنْ هُوَ جاهِلُ
وإنَّ كَبيرَ القَوْمِ لا عِلْمَ عِنْدَهُ
صغيرٌ إذا الْتَفَّتْ عليهِ المَحَافِلُ
وإنَّ صَغيرَ القومِ إنْ كانَ عالِمَاً
كبيرٌ إذا رُدَّتْ إليْهِ المسائِلُ

وقال بَعْضُهُمْ العالِمُ يَعْرِفُ الجاهِلَ لِأنّهُ كان جاهِلاً بالأولِ والجاهِلُ لَا يَعرفُ العالِمَ لِأنَهُ لَمْ يَكُنْ عَالِماً وَرُبَّما ذَمَّ العالِمَ وَعِلْمَهُ ، قال بعضُهُمْ :

أتانَا أنَّ سَهْلاً ذَمَّ جَهْلاً
عُلومَاً لَيْسَ يَعرفُهُنَّ سَهْلُ
عُلومَاً لَوْ قَرَاهَا مَا تَلاهَا
وَلكنَّ الرِضَا بالجهلِ سَهْلُ

وَدَخَلَ على الخَلِيلِ ابنٌ لَهُ مُتَجَلِّفٌ وهو يُقَطِّعُ بَيْتَ شِعْرٍ فَخَرَجَ وقال إنّ أبي قد جُنَّ فقالَ أبوهُ :

لَـوْ كُـنتَ تـعلمُ مـا أقـولُ عَـذَرْتَـني
أوْ كُـنتَ تَـفْهـمُ مـا أقـولُ عَـذَلْـتُـكَـا
لـكـنْ جَـهِـلْتَ مَـقَـالَـتي فَـعَـذلْـتَـنِي
وَعَـلِمْـتُ أنـك جـاهِـلٌ فَـعَـذَرْتُـكـا

وَكُلُّ ما وَرَدَ في ذَمِّ الجَهْلِ فَهُوَ مَدْحٌ للْعِلْمِ قَالَ اللهُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ صلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ ﴿ وأَعْرِضْ عنِ الجَاهِلين ﴾ وقالَ لِرَسُولِهِ نوحٍ عليهِ السلامُ ﴿ إنّي أعظُكَ أنْ تكونَ مِنَ الجاهِلِيْن ﴾ وقال مُوسَى عليهِ السلامُ ﴿ أعوذُ باللهِ أَنْ أكونَ مِنَ الجَاهِلين ﴾ وقالَ جَلَّ وَعَلا لِنَبِيِّهِ ﴿ فلا تكونَنَّ مِنَ الجاهِلِين ﴾ وقال تَعَالى ﴿ وإذا سَمِعُوا اللغْوَ أعْرَضُوا عَنْهُ وقالُوا لَنا أعْمَالُنا ولكُمْ أعمالُكُمْ سلامٌ عليكُمْ لا نَبْتَغِي الجَاهِلِيْن ﴾ وقالَ تَعَالَى ﴿ وإذا خَاطَبَهُمُ الجاهِلُونَ قالُوا سَلاماً ﴾ وقال صلى اللهُ عليهِ وسلمَ لِعُوَيْمِرٍ كيفَ أنتَ يا عُوَيْمرُ إذا قِيلَ لكَ يومَ القِيامةِ أَعَلِمْتَ أمْ جَهِلْتَ فإنْ قُلْتَ عَلِمْتُ قيلَ لكَ فما عَمِلْتَ فيما عَلِمْتَ وَإنْ قُلْتَ جَهِلْتُ قيلَ لكَ فما كانَ عُذْرُكَ فيما جَهِلْتَ ألا تَعَلَّمْتَ رَوَاهُ ابنُ عَسَاكِرَ في تاريخِهِ عَنْ أبي الدَّرداء وَهَذا مِمَّا يَدُلُّ على شَنَاعَةِ الجَهْلِ وَقُبْحِهِ وَمَهَانَتِهِ وَرَذالَتِهِ عِنْدَ اللهِ وَعِنْدَ خَلْقِهِ .

شـعراً :

وفي الجهـلِ قَبْـلَ المـوتِ مـوتٌ لِأَهْلِهِ
فـأجْسَـامُـهُـمْ قَـبـلَ الـقُـبـورِ قُـبُـورُ

وَإنَّ آمـرءاً لـم يَحْيَى بـالـعلم مَيِّتٌ
فـليس لـهُ حتـى النُـشـورِ نُـشـورُ
آخـر : مـعَ الـعِـلْمِ فـاسْـلُكْ حيثُ مَا سَلَكَ العِلْمُ
وَعَنْـهُ فكـاشِفْ كُـلَّ مَنْ عِـنْـدَهُ فَهْـمُ
فَـفِيـهِ جَـلاءٌ لِـلْقُلوبِ مِنَ الـعَـمَى
وَعَـوْنٌ على الـدِّينِ الـذي أَمْـرُهُ حَتْمُ
فـإنـي رأيتُ الْـجَـهْـلَ يُـزْرِي بـأَهْـلِهِ
وذو العِلْمِ في الأَقْـوامِ يَـرْفَعُـهُ العِلْمُ
يُعَـدّ كَبيـرَ القَـوْمِ وهـو صغيـرُهُـمْ
ويَـنْفُـذُ منـهُ فيهِمُ الـقـولُ والحُكْـمُ
وأيُّ رَجـاءٍ فـي امـرىءٍ شـابَ رأسُـهُ
وَأَفْـنَى سِنِيـهِ وَهُـوَ مُـسْتَـعْجِمٌ فَـدْمُ
يَـرُوْحُ وَيَغْـدُو الـدَّهْـرَ صـاحِبُ بِـطْنَـةٍ
تَـرَكَّبَ في أَحْضـانِهَـا اللَّحْمُ والشَّحْـمُ
إذا سُئِـلَ الـمِسْـكِيـنُ عَـنْ أَمْـرِ دِيْـنِـهِ
بَـدَتْ رُحَضَـاءُ العِيِّ في وَجْهِـهِ تَسْمُـو
وَهَـلْ أبصَـرَتْ عَيْنَـاكَ أَقْبَـحَ مَـنْـظَراً
مِـنْ أَشْيَـبٍ لا عِلْمٌ لَـدَيْـهِ وَلاَ حُـكْـمُ
هِيَ السَّـوْأَةُ السَّوْءَاءُ فـاحـذرْ شَمَـاتَهـا
فـأَوَّلُـهَـا خِـزْيٌ وآخِـرُهَـا ذَمُّ
فَخَـالِطْ رُوَاةَ العِلْمِ وآصْحَبْ خِيـارَهُـمْ
فَـصُـحْـبَـتُـهُـمْ زَيْـنٌ وَخِـلْطَتُـهُـمْ غُـنْـمُ

وَلَا تَعْدُوَنَ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ فَإِنَّهُمْ
نُجُومٌ إذا مَا غَابَ نَجْمٌ بَدَا نَجْمُ
فَواللّهِ لَوْلَا العِلْمُ مَا اتضَحَ الْهُدَى
وَلَا لَاحَ مِنْ غَيْبِ الأُمُوْرِ لَنَا رَسْمُ

قالَ في مِنْهَاجِ اليَقِيْنِ وآعْلَمْ أنَّ كلَّ العُلومِ شريفَةٌ وَلِكُلِّ عِلْمٍ مِنْهَا فَضِيْلَةٌ والاحاطةُ بجميعِها مَحَالٌ لِعَجْزِ عُقُولِ الْبشرِ عنْ إحاطتِهَا أوْ لِعَدَمِ تناهِي الأعمارِ وإحَاطَةِ الغيرِ المُتَناهِي بالمُتَنَاهِي مُحَالٌ وقيلَ لِبَعْضِ الحُكَمَاءِ مَنْ يَعْرِفُ كلَّ العُلوم ؟ فقال كلُ النَّاسِ وَرُوِي عنِ النبيِّ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ أنهُ قالَ مَنْ ظَنَّ أن لِلْعلمِ غايةً فقد بَخَسَهُ حقَّهُ وَوَضَعَهُ في غيرِ مَنْزِلَتِهِ التي وَصَفَهُ اللهُ بها حيثُ يقولُ ﴿ ويسألونَكَ عنِ الروحِ قُلِ الروحُ مِنْ أمْرِ رَبِي وَمَا أُوتِيْتُمْ مِنَ العِلْمِ إلاّ قَلِيْلاً ﴾ انتهى .

قالَ المُفَسِّرُوْنَ سألَ أهْلُ الكتابِ رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلّمَ عن الروحِ فأنزل الله ﴿ ويسألونك عن الرُوحِ ﴾ الآيةِ فقالوا تزعُمُ أنّا لَمْ نُؤْتَ مِنَ العِلْمِ إلا قليلاً وَقَدْ أُوتينا التَوْراةَ وهي الحِكْمَةُ ﴿ وَمَنْ يُؤْتَ الحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً ﴾ قالَ فَنَزَلَتْ ﴿ وَلَوْ أنَّ ما في الأرضِ مِنْ شَجَرةٍ أقلامٌ ، والبحرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أبحُرٍ ﴾ .

قالَ ما أوتيتُمْ مِنْ عِلمٍ فَنَجَّاكُمُ اللهُ بهِ مِنَ النارِ فهوَ كَثيرٌ طَيِّبٌ وهو في عِلْمِ اللهِ قليلٌ وقالَ بعضُ العُلَمَاءِ لوْ كُنَّا نَطْلبُ العِلمَ لِنَبْلُغَ غايَتَهُ كُنا قَدْ بَدَأْنا بالنَقيصةِ ولكِننا نطلبُهُ لِنَنْقُصَ في كلِّ يوْمٍ مِنَ الجَهْلِ وَنَزْدادَ في كُلِّ يَوْمٍ مِنَ العِلْمِ .

وقال آخر :

ما حَوَى العِلْمَ جميعاً أحَدٌ
لا ولو حاوَلَهُ ألفَ سَنَه
إنَّما العِلْمُ كبحرٍ زاخِرٍ
فاتّخِذْ مِنْ كلِ شيءٍ أحْسَنَه

واذا لمْ يكُنْ إلى مَعرفةِ جميعِ العُلُومِ سبيلٌ وَجَبَ صَرْفُ الاهتمامِ إلى مَعْرِفَةِ أَهَمِّها والعنايةُ بأَوْلاها وأفضلِها وأوْلَى العُلومِ وأفْضَلُها علمُ الدِّيْن المُبَيَّنِ بالكتابِ والسُنةِ والمُسْتَنْبَطِ منهُما لأنَّ الناسَ بمعرفَةِ علومِ الشرْعِ يَرْشُدُون وَيَهْتَدُونَ وَبِجَهْلِهِ يَضِلّونَ ولا تَصِحُّ العبادةُ مِمَّنْ لا يَعْرِفُ صِفَتَهَا ولا شروطَها ولا أرْكانَهَا والذي يجبُ على المكلَّفِ تَعلُّمُهُ مِنَ العلومِ الدينيةِ كلُّ ما يحتاجُهُ في عِبادَاتِهِ وَمُعَامَلاتِهِ وَمَا عَدَا ذلك مِنَ العُلومِ الشَّرْعِيَّةِ أوْ ما هُو وَسيلةٌ إليهَا فمُسْتحَبٌّ قال اللهُ تعالى ﴿ فلو لَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ منهم طائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا في الدينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إذا رَجَعُوا إليهِمْ لعلَّهُمْ يَحْذَرُون ﴾ .

قال بعضُ العُلَمَاءِ المُحَققينَ على قولِ اللهِ تَعالى ﴿ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُم ﴾ وَلِيَجْعَلُوا غَرَضَهُمْ وَمَرْمَى هِمَّتِهِمْ في التَّفَقُّهِ إنْذَارَ قومِهِمْ وإرْشادَهُمْ والنصيحَةَ لهُمْ لا ما يُنْتِجُهُ بعضُ العلماءِ مِن الأغْرَاضِ الخَسِيسةِ وَيَؤُمُّونَهُ مِنَ المَقاصِدِ الرَّكِيْكَةِ مِن التَّصدُّرِ والتَّرَؤُسِ والتَّبَسُّطِ في البلادِ والتشبُّهِ بالظَلَمَةِ في مَلابِسِهِم وَمَساكِنِهِمْ وَمَرَاكِبِهِمْ وَعَادَاتِهِمْ وَمُنَافَسَةِ بعضِهِم بعضاً وَفُشُوّ داءِ الضرائرِ بينهم وانقلابِ حَماليقِ أحَدِهِمْ إذا لَمَحَ بِبَصَرِهِ مدَرّسَةً لآخر أو شرْذِمَةً جَثَوْا بين يَدَيْهِ وتهالُكِهِ على أنْ

يكونَ مُوَطَّأَ العَقِبِ دونَ الناسِ كلِهِمْ فما أبعدَ هؤلاءِ مِنْ قولِهِ عزَّ وجَلّ ﴿ لا يُريدون عُلُوّا في الأرْضِ ولا فَساداً ﴾ .

شعراً :

يَقُولُونَ لِيّ فِيكَ انْقِباضٌ وإنَّمَا
رَأَوْا رجُلاً عن مَوْقِفِ الذُّلِّ أَحْجما
وما زِلْتُ مُنْحَازاً بِعِرْضِيَ جانِباً
عَنِ الذَمِّ أعْتَدُّ الصِّيانَةَ مَغْنَمَا
أَرَى الناسَ مَنْ دَانَاهُمُ هَانَ عندَهُمْ
وَمَنْ أكْرَمَتْهُ عِزَّةُ النَّفْسِ أُكْرِمَا
إذا قِيلَ هذا مَوْردٌ قُلْتُ قَدْ أَرَى
ولكنَّ نفسَ الحُرِّ تَحْتَمِلُ الظَّمَا
أُنَهْنِهُهَا عنْ بَعْضِ ما قد يَشِينُهَا
مَخافةَ أقوَالِ العِدا فِيمَ أو لِمَا
فإنْ قُلْتَ زَنْدُ العِلْمِ كابٍ فانَّمَا
كَبَا حَيثُ لم تُحْمَى حِمَاهُ وأَظْلَمَا
وَلَوْ أنَّ أهل العِلمِ صَانُوهُ صانَهُمْ
وَلَوْ عَظَّمُوهُ في النُّفُوسِ لَعُظِّما
وَلَكِن أَهَانُوهُ فَهَانُوا وَدَنَّسُوا
مُحَيَّاهُ بالأطماعِ حَتَّى تَجَهَّمَا
وَلَمْ أَقضِي حَقَّ العِلْمِ إنْ كانَ كُلَّمَا
بَدَا طَمَعٌ صَيَّرْتُهُ لِيَ سُلَّمَا

وَلَمْ أَبْتَـذِلْ فِي خِـدْمَـةِ العلمِ مُهْجتِي
لِأُخْـدِمَ مَـنْ لاَقَيْتُ لَـكِـنْ لأُخْـدَمَـا
أأَشْـقَـى بِـهِ غَـرْسَـاً وأَجْـنِيـهِ ذِلَّـةً
إذاً فـاتّبـاعُ الجهـلِ قَـدْ كـان أحْزَمَـا

ثم آعلمْ أنَّ مَنْ لَمْ يصُنْ نَفسَهُ بوِقايَتِهَا عنِ المُحَرَّماتِ وَمُخِلِّ المُرُوءاتِ لَمْ يَنْفَعْهُ علمُهُ لأنَّ العِلْمَ للعَملِ فكما لا ينفعُ السلاحُ للمجاهِدِ ما لَمْ يَسْتَعْمِلْهُ ولا الكتُبُ النافِعَةُ المُستَمَدَّةُ من الكِتابِ ما لَمْ يُطَالِعْها وَيتَعَلّمْ مِنها ولا الاطْعمَةُ النَفِيسَةُ المُدَّخَرَةُ لِلْجائِعِ ما لَمْ يأكلْ مِنْها . فكذلكُ العِلْمُ وقديماً قيلَ :

إذا كـنْـتَ تَـهْـوَى أَنْ تَـعِـيْشَ بِـذِلَّـةٍ
فـلا تَـسْتَـعِـدَّنَّ الحُـسـامَ اليَـمَـانِـيَـا
وَلا تَـسْـتَـطِـيـلَنَّ الـرِّمـاحَ لِـغَـارةٍ
وَلا تَـسْتَـجِيْـدَنَّ الـعِـتـاقَ الـمَـذَاكِـيـا

فصِيانةُ النفسِ أصْلُ الفضائِلِ لأنَّ مَنْ أَهْمَلَ نَفْسَهُ ثِقَةً بِما مَنَحَهُ اللهُ مِنْ فَضيلةِ عِلْمِهِ وَتَوَكّلاً على ما يلزَمُ الناسَ مِنْ صِيانَتِهِ سَلَبُوهُ فضيلةَ عِلمِهِ وَوَسَمُوهُ بقبيحِ تَبَذُّلِهِ فلم يَفِ ما أُعْطِي مِنَ العِلْمِ بما سَلَبَهُ منهُ التبذّلُ لأنّ القبيحَ أَشْيَعُ مَنَ الْجَمِيلِ والرذيلةُ مَشْهُوْرَةٌ تُنقَلُ وتُذَاعُ بسُرْعَةٍ لِمَا في طِباعِ الناس مِن الحسدِ والبُغْضِ والحِقدِ ونِزاعِ المنافَسَةِ فَتَنْصَرِفُ عُيونُهُمْ عن المحاسِنِ إلى المَسَاوِي فلا يُنْصِفُونَ مُحْسِناً ولا يجاملون ولا يُسامحونَ مُسيئاً يَذكُرون المَسَاوِيَ كُلَّها غالِباً لا سِيَّما إذا كان

المَرْموقُ عالماً فإنّ زَلّتَهُ عِندَهُم لا تُقالُ وَهَفْوَتَهُ لا تُعْذَرُ لأنَّ العيْبَ الصغيرَ يَعْظُمُ في حَقِّ أَهْلِ المُرُوآتِ والعَيْبَ في الجاهلِ المغمورِ مَغْمورٌ ولهذا يَنْبَغِي للعالِمِ أنْ يُحَسِّنَ أخلاقَهُ وَخَلْقَهُ لِيُقْتَدَى بِهِ وَيَسْلَمَ عرضُهُ مِن الطعنِ والاعتراضاتِ .

شعراً :

أرى العِلْم كالمِرْآةِ يَصْدَأُ وَجْهُهُ
وَلَيْسَ سِوَى حُسْنِ الخَلاَئِقِ مِنْ جَالِي
أَخُو العِلْمِ لا يَغْلُو على سُوءِ خُلْقِهِ
وذُو الجَهْلِ إنْ أخْلاقُهُ حَسُنَتْ غالِ
ولو وازَنَ العلمُ الجبالَ ولم يكُنْ
لَهُ حُسْنُ خُلْقٍ لمْ يزِنْ وزْنَ مِثْقالِ
وإنَّ المَسَاوِي وهي في خُلقِ عالِمٍ
لاقبحُ مِنْهَا وهِيَ في خُلْقِ جُهَّالِ

ورُوِي عنْ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهُ أنهُ قالَ تعلَّمُوا العلمَ وَعَلِّمُوهُ ولا تكونوا جَبَابِرَةَ العُلماءِ فلا يَقُومَ جهلُكم بعلْمِكُم وقال في مِنهاجِ اليَقِينِ وينبغي لِمَنْ اسْتَدَلَّ بِفِطْرَتِهِ على اسْتِحْسَانِ الفضائِلِ واستِقْباحِ الرذائِلِ أنْ يَنْفِيَ عَنْ نَفْسِهِ رَذائِلَ الجَهْلِ بفضائِلِ العِلْمِ وينفي غفلة الاهْمالِ باستيقاظِ المعاناةِ ويرغب في العلم رغبةَ مُتَحَقِّقٍ لِفَضائِلِهِ واثقٍ بِمَنَافِعِهِ وَلاَ يُلْهيهِ عنْ طَلَبِهِ كثْرةُ مالٍ وُجِد ولا نفوذُ أمرٍ وَعُلُوُّ مَنْزِلَةٍ فإنَّ مَنْ نفذَ أمرُهُ فَهُوَ إلى العِلْمِ أحوجُ ليكونَ أمرُهُ وَنَهيُه على البَراهينِ الشَّرْعِيةِ وَمَنْ عَلَتْ مَنزلَتُهُ فهو بالعلم أحَقُّ لِيُعْرَفَ فَضْلَهُ ونهيُه على البراهينِ الشرْعِيَّةِ .

شعراً :

تفنَّنْ وَخُذْ منْ كُلِّ عِلْمٍ فإنَّما
يفوقُ امرُؤٌ في كلِ فَنٍّ لهُ علْمُ
فأَنْتَ عدُوٌ للذي أَنْتَ جاهلٌ
بِهِ ولِعلْمٍ أَنْتَ تُتْقِنُهُ سِلْمُ

آخر :

العِلم زَيْنٌ وَتَشْريفٌ لِصَاحِبِهِ
فِاطْلُبْ هُديتَ فُنونَ العلمِ والأَدَبا
كَمْ سَيِّدٍ بَطَلٍ آباؤُهُ نُجُبٌ
كَانوا الرؤوسَ فأمْسَى بعدَهُمْ ذَنَبا
وَمُقْرِفٍ خامِلِ الآباءِ ذِي أَدَبٍ
نال المَعَالِيَ بالآدابِ والرُّتَبا
العِلم زَيْنٌ وذُخْرٌ لا فَنَاءَ لَهُ
نِعمَ القَرِينُ إذا ما صاحِبٌ صَحِبَا
قدْ يَجْمَعُ المَالَ شَخْصٌ ثُمَّ يُحْرَمُهُ
عمَّا قَلِيْلٍ فَيَلْقَى الذُّلَّ والحَرَبَا
وجامعُ العِلمِ مَغْبُوطٌ بِهِ أبداً
ولا يُحاذرُ منه الفَوْتَ والسَّلَبَا
يا جامِعَ العلمِ نِعْمَ الذخرُ تَجْمَعُهُ
لا تَعْدِلَنَّ بِهِ دُرّاً ولا ذَهَبَا

وقال في منهاجِ اليَقينِ « وآعلمْ أنَّ لكلِّ مَطْلُوبٍ باعِثاً والباعثُ

على المطلوبِ شيئانِ رغبةٌ أو رَهْبةٌ فليكنْ طالبُ العلمِ راغباً راهباً أما الرَغبةُ ففي ثوابِ اللهِ تعالى لطالِبي مَرْضاتِهِ وحافِظِي مُفْتَرَضاتِهِ بإقامَتِها وتعليمِها مَنْ لا يَعْلَمُها والأمْرُ بالمَعْروفِ ، وأما الرَهْبَةُ فمِنْ عِقابِ اللهِ تعالى لِتاركِي أوامِرِهِ وَمُهْمِلي زواجِرِهِ فإذا آجْتَمَعَتْ الرغبةُ والرهبةُ أدَّتا إلى كُنْهِ العلمِ وحقيقةِ الزُهدِ بإذنِ اللهِ لأنَّ الرغبةَ في الثوابِ أقوى الباعِثَيْنِ على العلمِ والباعثُ الآخرُ حُبُّ النَباهَةِ ونَحوِها والرَهبةُ منَ العِقابِ أقوى السَّبَبَيْنِ في الزُهْدِ وَقَدْ قالتِ الحُكماءُ « أصْلُ العِلْمِ الرَغبةُ وَثَمَرَتُهُ السعادةُ وأصلُ الزُهْدِ الرَّهْبةُ وثَمَرتُهُ العِبَادةُ » فإذا اقترَنَ العِلمُ والزُهدُ فقدْ تمَّتْ السعادةُ الدِيْنِيةُ والدُنْيَوِيَّةُ وعمَّتْ الفَضِيْلةُ وقد رُوِيَ عن النبيِّ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ أنهُ قالَ مَنِ ازْدادَ في العِلْمِ رُشَداً ولمْ يزدَدْ في الدنيا زُهْداً لم يزدَدْ مِن اللهِ إلا بُعْداً وقال مالكُ بنُ دينارٍ مَنْ لم يُؤْتَ مِنَ العلمِ ما يَقْمَعُهُ فما أوتِي منهُ لا يَنفعُهُ وقال بعضُ الحُكماءِ الفقيهُ بغيرِ وَرَعٍ كالسِّراجِ يُضِيءُ البيتَ وَيَحْرِقُ نَفْسَهُ . وبالتالي فالعِلمُ فَضْلُهُ يَعْرِفُهُ كلُّ مُنْصِفٍ والناسُ يَحتاجُونَ إليهِ في كُلِّ وقتٍ قالَ حَرْبٌ سمعتُ أحمدَ بنَ حَنبلٍ يقولُ الناسُ مُحتَاجُونَ إلى العِلْمِ قبلَ الخُبْزِ والماءِ لأنَّ العلمَ يَحْتاجُ إليهِ الانسانُ في كلِّ ساعةٍ والخبزُ والماءُ في اليومِ مرةً أو مرَّتيْنِ .

وقال شيخُ الاسلامِ بنُ تيميةَ في قصيدةٍ له حلَّ بها لُغْزاً لَفْظَةَ عِلْم :

والعلمُ بالرحمنِ أولُ صاحِبٍ
وأهمُّ فَرْضِ اللهِ في مَشْرُوْعِهِ

وأَخُـو الـدِّيَـانَـةِ طَـالِـبٌ لِـمَـزِيـدِهِ
أَبَـداً ولـمَّـا يُـنْـهِـهِ بِـقُـطُوْعِـهِ
والـمَـرْءُ حَـاجَتُـهُ إلـيـهِ أَشَـدُّ مِـنْ
فَـقْـرِ الغِـذَاءِ لِـعِلْمِ حُـكْمِ صَـنِـيْـعِـهِ
فـي كُـلِّ وَقْـتٍ والـطَّـعَـامُ فـإنَّـمـا
يَـحْـتَـاجُـهُ فـي وَقْـتِ شِـدَّةِ جُـوعِـهِ
وهـو السَبِـيْـلُ إلى الـمَحَـاسِـنِ كلِّهَـا
والـصَـالِـحَـاتِ فَـسَـوْأَةً لِـمُـضِـيـعِـهِ

وَيُرْوَى عنْ مُعاذٍ رضِيَ اللهُ عنهُ تَعَلَّمُوا العِلْمَ فإنَّ تعلُّمَهُ للّهِ خَشْيَةٌ وطلبَهُ عِبادةٌ وَمُدارسَتَهُ تَسْبِيْحٌ والبَحْثَ عنهُ جِهادٌ وَتَعْلِيْمَهُ مَنْ لاَ يَعْلَمُ صَدَقَةٌ وَبَذْلَهُ لِأَهْلِهِ قُرْبَةٌ وَهُوَ الأنيْسُ في الوَحْدةِ والصاحِبُ في الخَلْوَةِ والدليلُ على الدِّيْنِ والمُصَبِّرُ على السرَّاءِ والضرَّاءِ والوَزِيرُ عِندَ الأخِلاّء والقَرِيْبُ عندَ الغُرَباءِ وَمَنارُ سَبِيلِ الجَنّةِ يَرْفَعُ اللهُ بِهِ أقْوَاماً فيجعلُهُمْ في الخَيْرِ قادةً سادةً هُدَاةً يُقْتَدَى بهم أدِلَّةً لِلْخَيرِ تُقْتَفَى آثارُهُمْ وَتُرْمَقُ أَفْعالُهُمْ وَتَرْغَبُ الملائكةُ في خُلَّتِهِمْ وبأَجنِحَتِهَا تَمْسَحُهُمْ وَكُلُ رَطْبٍ ويابسٍ لهُمْ يَستَغْفِرُ حتى حِيْتانُ البحرِ وَهَوَامُّهُ وَسِبَاعُ البَرِّ وأنْعامُهُ والسماءُ وَنُجُومُها لأنَّ العِلْمَ حَيَاةُ القُلُوبِ مِنَ العَمَى وَنُورُ الأبْصَارِ مِنَ الظُلَمِ وَقُوَّةُ الأبْدانِ مِنَ الضَّعْفِ يَبْلُغُ بِهِ العَبْدُ مَنَازلَ الأبْرارِ والدَّرَجَاتِ العُلَى وَمُدَارَسَتُهُ بالقيامِ . بِهِ يُطاعُ اللهُ عزَّ وجلَّ وَبِهِ يُعْبَدُ وبِهِ يُوَحَّدُ وَبِهِ يُمَجَّدُ وبِهِ يُتَوَرَّعُ وَبِهِ تُوْصَلُ الأرْحامُ وَبِهِ يُعرفُ الحلالُ والحرامُ وهو إمامٌ والعَمَلُ تابعُهُ يُلْهَمُهُ السُعداءُ وَيُحْرَمُهُ الأَشْقِيَاءُ .

وورد عنْ خالدِ بنِ عبدِ الرحمنِ بنِ أبي بَكْرَةَ عن أبيهِ عن النبيِّ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ قال : « أُغدُ عالِماً أو متعلماً أو مُسْتمِعاً أو مُحِباً ولا تكنْ الخامسةَ فَتَهْلِكَ » .

وعن أبي هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ قَالَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ « الدُنيا ملعونةٌ ملعونٌ ما فيها إلا ذكرُ اللهِ وما والاه أو معِلمٌ أو متعلِّمٌ » .

وعن عطاءِ بنِ السائبِ عن الحَسنِ قال : أُغْدُ عالِماً أو متعلِّماً أو مستمِعاً ولا تكُنْ رابعاً فَتَهْلِكَ .

وعن الحسن أنّ أبا الدرداءِ قالَ : كُنْ عالِماً أوْ مُتَعلِّماً أو مُحِباً أو مُتَّبِعاً ولا تكنْ الخامسَ فتهْلِكَ قال قلتُ للحسنِ وما الخامسُ قال : المُبْتَدِعُ .

شعراً :

على العِلمِ نبكي إذْ قَدِ آنْدرَسَ العِلْمُ
ولم يَبْقَ فينا منهُ روحٌ ولا جِسْمُ
ولكنْ بَقِيْ رَسْمٌ من العلمِ دارِسٌ
وعمَّا قليلٍ سوف يَنْطَمِسُ الرَسْمُ
فآنَ لِعَيْنٍ أنْ تسِيْلَ دُموعُها
وآن لِقَلْبٍ أنْ يُصَدِّعَهُ الهَمُّ
فإنَّ بِفَقْدِ العِلْمِ شَراً وَفِتنةً
وَتَضْيِيْعَ دِينٍ أمرُهُ واجبٌ حَتْمُ

وما سَائِرُ الأعْمالِ إلا ضَلالةٌ
إذا لَمْ يكنْ للعَامِلينَ بها عِلْمُ
وما النَاسُ دُونَ العلمِ إلّا بِظُلْمَةٍ
مِن الجَهلِ لا مِصباحَ فيها ولا نَجْمُ
فَهل يُهْتَدَى إلَّا بنجْمِ سَمَائِهِ
إذا ما بَدَا مِنْ أُفْقِهِ ذَلِكَ النَّجْمُ
فَهَذَا أَوَانُ القبْضِ لِلْعِلْمِ فَلْينُحْ
عليه الذي في الحُبِّ كَانَ لَهُ سَهْمُ
فَلَيْسَ بِمُبْقِي العِلْمِ كثرةُ كُتْبِهِ
فماذا تفيدُ الكتْبُ إنْ فُقِدَ الفَهْمُ ؟
وما قَبْضُهُ إلا بِمَوْتِ وُعَاتِهِ
فقبضُهُمُ قبضٌ لهُ وَبِهِمْ يَنْمُو
فَجِدَّ وأدِّ الجَهْدَ فيهِ فإنّه
لِصَاحِبِهِ فَخْرٌ وَذُخْرٌ به الغُنْمُ
فعارٌ على المَرْءِ الذي تَمَّ عَقْلُهُ
وقد أمَّلَتْ فيهِ المُرُوْءةُ والحَزْمُ
إذا قِيْلَ : ماذا أوْجَبَ اللهُ يا فَتى ؟
أجابَ بلا أدْرِي وأنَّى لِيَ العِلْمُ
وأقْبَحُ مِنْ ذَا لَوْ أَجَابَ سُؤالَه
بِجَهْلٍ فإنّ الجَهْلَ مَوْدِدٌ وخْمُ
أيَرْضَى بأنَّ الجَهْلَ مِنْ بَعْضِ وَصْفِهِ
ولو قِيلَ ياذا الجَهْلِ فارَقَهُ الحِلْمُ

فَكَيفَ إذا مَا الْبَحْثُ مِنْ بَيْنِ أهلِهِ
جَرَى وهو بينَ القومِ لَيْسَ لهُ سَهْمُ
تَدُورُ بِهِمْ عَيْنَاهُ لَيْسَ بناطِقٍ
فغيرُ حَرِيٍّ أنْ يُرَى فاضِلاً فَدْمُ
وما العِلمُ إلا كالحَيَاةِ إذا سَرَتْ
بِجِسْمٍ حَيي والمَيْتُ مَنْ فاتَهُ العِلْمُ
وكَمْ في كِتَابِ اللهِ مِنْ مِدْحةٍ لهُ
يكادُ بها ذُو العِلْمِ فوقَ السُّهَى يَسْمُو
وكَمْ خَبَرٍ في فَضْلِهِ صَحَّ مُسْتَنَداً
عن المصطَفَى فاسْألْ بِهِ مَنْ لَهُ عِلْمُ
كَفَى شَرَفاً لِلعِلْمِ دَعْوَى الوَرَى لهُ
جَمِيعاً وَيَنْفِي الجَهْلَ من قُبْحِهِ الفَدْمُ
فَلَسْتُ بِمُحْصٍ فَضْلَهُ إنْ ذكرْتُهُ
فقدْ كَلَّ عنْ إحصائِهِ النثْرُ والنَّظْمُ
فيا رافِعَ الدُّنْيا على العِلْمِ غَفْلَةً
حَكَمْتَ فلم تُنْصِفْ وَلَمْ يُصِبِ الحُكْمُ
أترْفَعُ دُنيا لا تُسَاوي بأسْرِهَا
جَنَاحَ بَعُوْضٍ عندَ ذِي العَرْشِ يا فَدْمُ
وَتُؤْثِرُ أصْنَافَ الحُطَامِ على الذي
بِهِ العِزُّ في الدارَيْن والمُلْكُ والحُكْمُ
وَتَرغَبُ عن إرْثِ النَّبِيِّيْنَ كُلِّهِمْ
وَتَرغَبُ في مِيْرَاثِ مَنْ شَأْنُهُ الظُّلْمُ

وَتَـزْعُـمُ جَـهْـلاً : أنَّ بَـيْـعَـكَ رابـحٌ
فَهيْهـاتَ لم تَـرْبَـحْ ولم يَصْـدُقِ الـزَّعْمُ
أَلَـمْ تَعْتَبِـرْ بـالـسـابقـينَ ؟ فـحـالُهُـمْ
دَلـيـلٌ عـلى أنَّ الأجَـلَّ هُـوَ الـعِـلْمُ
فَكَمْ قَـدْ مَضَى مِنْ مُتْـرَفٍ مُتَكَبِّـرٍ
وَمِـنْ مَلِكٍ دَانَتْ لَـهُ العُـرْبُ والـعَجْـمُ
فـبـادُوا فلمْ تَسمَـعْ لَـهُـمْ قَطُّ ذاكِـراً
وإنْ ذُكِـرُوا يَـوْمـاً فَـذِكْـرُهُـمُ الـذَّمُّ
وكـمْ عـالِـمٍ ذِي فـاقَـةٍ وَرَثـاثَـةٍ
ولـكـنَّـهُ قـدْ زَانَـهُ الـزُهْـدُ والـعِـلْمُ
حَيـا ما حَيَـا في طِيْبِ عَيْشٍ وَمُذْ قَضَى
بَقِيْ ذكـرُهُ في النـاسِ إذْ فُقِـدَ الجِسْمُ
فكُـنْ طـالِبـاً لِـلْعِلْمِ حَقَّ طِـلابِـهِ
مَدَى العُمْرِ لاَ يُـوْهِنْكَ عنْ ذلكَ السَّأْمُ
وهـاجِـرْ لَـهُ في أيِّ أرضٍ وَلَـوْ نـأتْ
عَـلَيْـكَ فـإعْمَـالُ المَـطِيِّ لَـهُ حَتْـمُ
وأنْفِقْ جَمِيـعَ العُمْـرِ فيـهِ فَمَـنْ يَمُـتْ
لَـه طـالـبـاً نـالَ الـشـهَّـادَةَ لاهَـظْـمُ
فـإنْ نِـلْتَـهُ فَلْيَـهْـنِـكَ الـعِـلْمُ إنَّـهُ
هـو الغَـايـةُ العُـلْيَـاءُ واللَّـذَةُ الجِسْمُ
فـلِلّهِ كَمْ تَـفْـتَضُّ مِـنْ بِـكْـرِ حِـكْـمَـةٍ
وَكَمْ دُرَّةٍ تُحْـظَى بِـهَـا وَصْفُـهـا اليُـتْمُ

وَكَمْ كـاعِبٍ حَسْنـاءَ تكشِفُ خِـدْرَهَـا
فَـيُسْفِـرُ عَنْ وَجْـهٍ بـهِ يَـبْـرأُ السُّـقْـمُ
فتِلْكَ التي تَـهْـوَى ظَفِـرْتَ بِـوَصْـلِهَـا
لقـد طـالَ مـا في حُبِّهـا نَحَـلَ الجِسْمُ
فعـانِقْ وَقَبِّـلْ وارْتَشِـفْ مِنْ رُضَـابِـهـا
فعَـدْلُك عن وَصْـلِ الحَبيْبِ هـو الـظُلْمُ
فجـالِسْ رُواةَ العِلْم واسْمَـعْ كـلامَـهُمْ
فـكمْ كَـلِمٍ مِـنْـهُـمْ بـهِ يَـبْـرأُ الـكَـلْمُ
وإنْ أَمَـرُوا فـاسْمَـعْ لهُمْ وأَطِـعْ فهُـمْ
أُولـوا الأمْرِ لامَنْ شـأْنُـهُ الفَتْـكُ والـظُلْمُ
مَـجَـالِسُـهُمْ مِثْـلُ الـرِّيـاضِ أَنِيـقَـةٌ
لقـد طَابَ مِنهـا اللَّونُ والـرِّيُـح والـطَّعْمُ
أَتعتَـاضُ عن تِلْكَ الـرِّيَـاضِ وَطِيْبَهـا
مَجـالِسَ دُنيـا حَشْـوُهَـا الـزُّورُ والإِثْمُ
فمـا هِيَ إلَّا كَـالـمَـزَابـلِ مَـوْضِعـاً
لِـكُـلِّ أذىً لا يُـسـتـطاعُ لـه شَـمٌّ
فَـدُرْحَـوْلَ قـالَ الـلهُ قـالَ رسـولُـهُ
وأصحـابُـه أيضـاً فـهَـذا هـو العِـلْمُ
ومـا الـعِـلْمُ آراءُ الـرِّجـالِ وظـنُّـهُـمْ
ألَمْ تَـدرِ أنَّ الـظنَّ مِنْ بَـعْضِـهِ الإِثْـمُ
وَكُنْ تـابِعَـاً خَـيْـرَ القُـرُونِ مُـمَسِّكـاً
بـآثـارِهِمْ في الـدِّينِ هـذا هُـوَ الحَزْمُ

وَصَلِّ إلهَ العالَمينَ مُسَلِّماً
على مَنْ بِهِ للأنْبِيَاءِ جَرَى الخَتْمُ
كذا الآلِ والأَصْحَابِ ما قالَ قائلٌ
على العِلْمِ نَبْكِيْ إذْ قدِ انْدَرَسَ العِلْمُ

والله أعلمُ وصلى اللهُ على محمدٍ وعلى آلِهِ وصحبِهِ أجْمعين .

الفصلُ التاسعُ
في الاخلاصِ والنِيَّةِ

اعْلمْ رَحِمَكَ اللهُ أنَّ كُلَّ شَيْءٍ يُتَصَوَّرُ أنْ يَشُوبَهُ غيرُه فإذَا صُفِّيَ عَنْ شَوْبِهِ وَخَلَصَ عنهُ سُمِّيَ خالِصاً ، ويُسَمَّى الفِعلُ المُصَفَّى المُخْلَصَ إخْلاصاً قال الله تعالى : ﴿ مِنْ بينِ فَرْثٍ وَدَمٍ لبَناً خالِصاً سَائِغاً للشَّارِبِيْن ﴾فَإنّما خُلُوصُ اللبَنِ أنْ لا يكونَ فيه شَوْبٌ من الدَّمِ والفَرْثِ ومِنْ كُلِّ ما يُمْكنُ أن يَمْتَزِجَ به. والإخْلاَصُ يُضَادُّهُ الإشْرَاكُ ، والمخلصُ الصادقُ هو الذِي لا يُبَالي لو خَرَجَ كلُّ قَدْرٍ له في قلوبِ الخَلْقِ مِنْ أجْلِ إصْلاحِ قَلْبِهِ ولا يُحِبُّ إطْلاعَ الناسِ على أعْمالِهِ.

وقال حُذَيفَةُ المَرْعَشِي رَحِمَهُ اللهُ : الإخْلاصُ أنْ تَسْتَوِيَ أفْعَالُ العبدِ في الظهرِ والباطِنِ وقالَ غيرُهُ : الإخْلاصُ إفْرَادُ الحقِّ سُبْحانَهُ وتعالى بالطَّاعةِ بالقَصْدِ وهو أن يُريدَ بطاعتِهِ التقرُّبَ إلى اللهِ تَعَالَى دونَ شَيْءٍ آخَرَ مِنْ تَصَنُّعٍ لمخلوقٍ أو اكْتِسَابِ مَحْمَدَةٍ عندَ الناسِ أو محبةِ مَدْحٍ مِنَ الخَلْقِ أو مَعْنىً مِن المعاني سِوَى التقرُّبِ إلى اللهِ .

وقال آخر : نَظَرَ الاكياسُ في تفسيرِ الإخْلاصِ فَلَمْ يَجِدُوا غَيْرَ هذا أَنْ تكونَ حَرَكَتُهُ وسكونُهُ في سِرِّهِ وَعَلانِيَتِهِ للهِ تَعَالَى لا يُمازِجُهُ نفسٌ ولا هَوَىً وَلاَ دُنْيا . وقالَ بعضُهُمْ : الإخْلاصُ التَّوَقِّي عنْ مَلاحَظَةِ الخَلْقِ ، والصِّدْقُ التَنَقِّي مِنْ مُطَاوَعَةِ النفْسِ فالمخلصُ لا رِياءَ لَهُ ، والصادِقُ لا إعْجابَ لَهُ .

وقال آخرُ : ثلاثٌ مِنْ علاماتِ الإخْلاص : إسْتِواءُ المَدْحِ والذَّمِّ مِنَ العامّة ، ونِسْيانُ رؤيةِ الأعمالِ في الأعمالِ ، واقتِضَاءُ ثوابِ العملِ في الآخرةِ . وقد وَرَدَ في فَضْلِ الاخلاصِ آياتٌ وأحاديثُ ، قال اللهُ تعالى : ﴿ وما أُمِرُوا إلا لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِيْنَ لهُ الدينَ ﴾ وقال : ﴿ ألا لِلهِ الدِّينُ الخالصُ ﴾ وقال تعالى : ﴿ إلاّ الذينَ تابُوا وأصْلَحُوا واعتصموا باللهِ وأخلصوا دِيْنَهم للهِ ﴾ ، وقال : ﴿ فَمَنْ كانَ يَرْجُو لقاءَ رَبِّهِ فليعمَلْ عملاً صالِحاً وَلاَ يُشْرِكْ بعبادَةِ رَبِّهِ أحَداً ﴾ وقال : ﴿ لنْ ينالَ اللهَ لحومُها ولا دِماؤُهَا ولكنْ يَنالُهُ التقوى مِنْكُم ﴾ .

وأخبَرَ تعالَى عمَّا قالَهُ المُخْلِصونَ مِنْ عبادِهِ ﴿ إنَّما نُطْعِمُكُمْ لوجهِ اللهِ لا نُريدُ مِنكم جزاءً ولا شُكورا ﴾ وقال : ﴿ وما لِأحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى إلا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأعلى ولسوف يرضى ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ ومَنْ يخرجْ مِنْ بيتِهِ مُهاجِراً إلى اللهِ ورسولِهِ ثُم يدرِكْهُ الموتُ فقد وَقَعَ أجرُهُ على اللهِ ﴾ .

وعن أبي هُريرة رضيَ اللهَ عنهُ قال : قالَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ « مَنْ خرجَ حاجّاً فماتَ كُتِبَ لهُ أجرُ الحاجِّ إلى يومِ القيامةِ .

وَمَنْ خرجَ مُعْتمِراً فماتَ كُتِبَ لَهُ أجرُ المُعْتَمِرِ إلى يومِ القيامةِ . وَمَنْ خرجَ غازِياً في سبيلِ اللهِ فماتَ كُتِبَ لَهُ أجْرُ الغازِي إلى يومِ القِيامةِ » .

وعنْ أنَسِ بْنِ مالكٍ رَضيَ اللهُ عنهُ عنْ رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلّمَ قال : « مَنْ فارقَ الدنيا على الإخلاصِ للهِ وحدَهُ لا شريكَ لهُ وأقامَ الصلاةَ وآتَى الزكاةَ فارقَهَا واللهُ عنهُ راضٍ » رواهُ ابنُ ماجه والحاكمُ وقال على شَرْطِ الشيخين .

وعن أبي سعيدٍ الخُدْرِيّ عنْ النبيِ صلى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، أنه قال : في حَجّةِ الوَدَاع : نضَّرَ اللهُ امرءاً سَمِعَ مقالتي فَوَعَاها فرُبَّ حامِلِ فِقْهٍ ليس بفقيهٍ ، ثلاثٌ لا يُغَلُّ عليهنَّ قلبُ امرىءٍ مؤمن : إخلاصُ العملِ للهِ والمناصَحَةُ للأئمَّةِ المسلمينَ ولُزومُ جَمَاعَتِهِمْ فإنَّ دعاءَهُمْ محيطٌ مِنْ وَرَائِهِمْ . رواه البزّارُ بإسنادٍ حَسَنٍ ورواهُ ابنُ حِبَّانٍ في صحيحِهِ منْ حديثِ زَيدِ بنِ ثابتٍ .

وعن مُصْعَبِ بنِ سعدٍ عن أبيهِ رضيَ اللهُ عنهُ أنهُ ظنَّ أنّ لهُ فضلاً على مَنْ دونَهُ مِنْ أصحابِ رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلم فقال النبيُّ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ إنما يَنْصُرُ اللهُ هذه الأمةَ بضَعِيفِها بدعْوَتِهِمْ وصلاتِهِمْ واخلاصِهِمْ . رواه النسائي وغيرُه .

وما وردَ عن عُمَرَ بْنِ الخطابِ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ : سمعْتُ رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ يقولُ : إنَّما الأعْمالُ بالنِّيّاتِ ، وإنَّما لِكُلِّ آمرِىءٍ ما نَوَى فمنْ كانتْ هجرتُهُ إلى اللهِ ورسولِهِ فهجرتُهُ إلى اللهِ ورسولِهِ ، ومنْ كانتْ هجرتُهُ لدنيا يُصيبُها أو امرأةٍ ينكِحُها فهجرتُهُ إلى ما هاجَرَ اليهِ ، متَّفَقٌ عليه .

وعن جابرِ بنِ عبدِ اللهِ قالَ كُنا معَ النّبيِّ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ في غزاةٍ فقال : إنّ بالمدينةِ لَرِجالاً ما سِرْتُمْ مَسيراً ولا قَطَعْتُمْ وادياً إلا كانوا معكم حَبَسَهم المرضُ وفي روايةٍ إلا شَرَكوكُمْ في الأجْر . رواهُ مسلمٌ وفي رِوايةٍ حَبَسَهُمْ العذرُ .

وعن عائشةَ رضيَ اللهُ عنها قالتْ : قالَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ « يغزو جيشٌ الكعبةَ فإذا كانوا ببيداءَ مِن الأرضِ خُسِفَ بأولِهِمْ وآخرهم قالتْ : قلتُ يا رسولَ اللهِ كيف يُخسَفُ بأولِهِمْ وآخِرِهِمْ وفيهِمْ أسْواقُهُم وَمَنْ ليس منهُمْ ، قال : يُخْسَفُ بأولِهِمْ وآخِرِهِمْ ثم يُبعثونَ على نِيَّاتِهِمْ . متفقٌ عليه .

وعن معنِ بنِ يزيدَ قالَ : كان أبي يزيدُ أخرَجَ دنانيرَ يتصدَّقُ بها فوضعها عندَ رجلٍ في المسجِدِ فجئتُ فأخذتها فأتيتُهُ بها فقال : واللهِ ما إياكَ أردتُ . فخاصَمتُهُ إلى رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ فقال : لكَ ما نَوَيْتَ يا يَـزيدُ ولكَ ما أخذْتَ يا مَعْنُ رواهُ البخاري .

وفي حديثِ سعدِ بنِ أبي وَقَّاصٍ ، أنَّ النبيَّ صلى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قال له : إنّك لن تُخلف فتعملَ عملاً تَبْتَغِي بِهِ وجهَ اللهَ إلا ازْدَدْتَ بِهِ دَرَجَةً ورِفعةً الحديث . وعن أبي هُريرةَ قال : قال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ : إنّ اللهَ لا يَنْظُرُ إلى أجْسامِكُم ولا إلى صُوَرِكُمْ ولكنْ يَنظُرُ إلى قُلوبِكُم . رواهُ مسلم .

وعن أبي موسى الأشعَرِي قال سُئِلَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ عن الرجلِ يُقَاتِلُ شَجَاعَةً وَيُقَاتِلُ حَمِيّةً وَيُقَاتِلُ رِيَـاءً أيُّ ذَلِكَ في

سبيلِ اللهِ فقال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ : مَن قَاتَلَ لِتكونَ كلمةُ اللهِ هِيَ العُلْيَا فَهُوَ في سبيلِ اللهِ . متفق عليه ، وقال صلى اللهُ عليهِ وسلمَ إنَّ أولَ الناسِ يُقْضَى يومَ القيامةِ عليهِ رجلٌ اسْتُشْهِدَ فأُتِيَ بِهِ فعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَها قال : فَما عَمِلْتَ فيها ، قال : قاتلتُ فيكَ حتى اسْتُشْهِدْتُ ، قال : كَذَبْتَ ولكنّك قاتلْتَ لِأَنْ يقالَ : فلانٌ جَرِيء فقد قِيلَ ثم أَمَرَ بِهِ فَسُحِبَ على وجهِهِ حتى أُلقِيَ في النار .

ورجلٌ تعَّلمَ العلمَ وعَلَّمَهُ وقرأ القُرآنَ فأُتِيَ بِهِ فعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَها قال فما عَمِلْتَ فِيها قال تعلمتُ العلمَ وعمِلْتُ بِهِ وقرأتُ فِيكَ القرآنَ . قال : كذبْتَ ولكنّكَ تعلّمْتَ لِيُقالَ عالمٌ وقرأتَ القرآنَ لِيُقالَ هو قارِىءٌ ، فقدْ قِيل ، ثم أَمَرَ بِهِ فَسُحِبَ على وجهِهِ حتى أُلقِيَ في النار . ورجلٌ وَسَّعَ اللهُ عليهِ وأعطاهُ مِنْ أصنافِ المال ، فأتَى بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فعَرَفَها فقال : ما عَمِلتَ فيها قال : ما تَرَكْتُ منْ سَبيلٍ تُحِبّ أنْ يُنفَقَ فِيْهَا إلاَّ أنفقتُ فِيها لَكَ ، قال : كَذَبْتَ وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ هو جَوادٌ فقدْ قِيلَ ثم أَمَرَ بِهِ فَسُحِبَ على وَجْهِهِ حَتى أُلقِيَ في النار .

وفي الصحيحينِ مِنْ حديثِ ابنِ عَبَّاسٍ عن النبّيِ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ قال : مَنْ هَمَّ بحَسَنةٍ فلمْ يعملْها كُتبتْ له حَسَنة . وعن أبي كَبْشَةَ الأنصارِي قال : قال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلم مَثلُ هذِهِ الأُمَةِ مَثَلُ أَرْبَعَةِ نَفَرٍ رَجُل أتاهُ اللهُ مالاً وعِلْماً فهو يَعْمَلُ بِهِ في مَالِهِ يُنْفِقُهُ في حَقِّهِ ، وَرَجُلٍ أتاهُ اللهُ عِلماً ولم يُؤْتِهِ مالاً وَهو يَقُولُ : لَو كَانَ لِي مِثْلُ هَذا عَمِلْتُ فيهِ مِثْلَ الذي يَعْمَلُ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فَهُمَا في الأَجْرِ سَوَاء ، وَرَجُلٍ آتاهُ اللهُ مالاً ولم يُؤْتِهِ عِلْماً فَهُوَ يَخْبِطُ فيهِ يُنْفِقُهُ

في غيرِ حَقِّهِ ، وَرَجُلٍ لم يُؤْتِهِ مَالاً ولم يُؤْتِهِ عِلْماً فيقولُ : لَو كانَ لِي مِثْلُ هَذَا عَمِلْتُ فيه مِثْلَ الذي يَعْمَلُ ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فَهُمَا في الوِزْرِ سَوَاء .

وقال عُمَرُ : رَضِيَ اللهُ عنه ، أَفْضَلُ الأَعْمَالِ أَدَاءُ مَا افْتَرَضَ اللهُ تَعالَى والوَرَعُ عَمَّا حَرَّمَ اللهُ تَعالَى وَصِدْقُ النِّيَةِ ، وقال بعضُهم : دُلُونِي على عَمَلٍ لا أَزَالُ بِهِ عَامِلاً لِلهِ تَعالَى فَقِيْلَ لَهُ : أنو الخيرَ فإنكَ لا تَزَالُ عاملاً وإنْ لم تَعْمَلْ ، فالنيةُ الصالِحَةُ بِعَمَلٍ وان عُدِمَ العَمَلُ لِعُذْرٍ شَرْعِي ، فإنَّ مَن نَوَى أن يُصَلِيَ مِن الليلِ فنامَ كُتِبَ لَهُ ثوابُ مَا نَوى أن يَفْعَلَهُ وقد جاء في الحديث ، ما مِنْ رجلٍ يكونُ لهُ ساعةٌ من اللَّيلِ يَقُومُهَا فَيَنَامُ عنها إلا كُتِبَ له أَجْرُ صَلاتِهِ وكان نَومُهُ صَدَقَةً تُصُدِقَ بِهِ عَليهِ فالمَرْءُ ما دَامَ قد أَسْلم وَجْهَهُ للهِ وأخلصَ نِيَّتَهُ لِلهِ فإنَّ حَرَكاتِهِ وَسَكَنَاتِهِ وَنَوْمَاتِهِ وَيَقْظَاتِه تُحْسَبُ خَطَواتٍ إلى مَرْضَاةِ اللهِ .

قال بعضُ السلفِ : إنِّي لأَسْتَحِبُ أن يَكونَ لِي في كُلِّ شيءٍ نيةٌ حَتَّى في أكلي وَشُرْبِي وَنَومِيْ وَدُخُولِ الخَلاءِ وفي كلِ ذَلِكَ مِمَّا يُمْكنُ أن يُقْصَد بِهِ التقربَ إلى اللهِ تَعالى لأَنَّ كلِّ ما هُوَ سَبَبٌ لِبَقَاء البَدَنِ وَفَراغِ القلبِ مِنَ مُهِمَّاتِ الدِيْنِ فَمَنْ قَصَدَ مِن الأكِلِ التَّقَوِي على العبَادَة ومن النكاح العَفَافَ وَتَحْصِيْنَ الدِيْن وَتَطْيِيْبِ قَلْبِ أهلِهِ وَالتوصُلِ إلى وَلَدٍ يَعْبُدُ اللهَ بَعْدَهُ أُثِيْبَ على ذلك .

ولا تَحْتَقِرْ شيئاً مِن حَرَكاتِكَ وَسَكَنَاتِكَ فَصَلاحُ النيةِ واخلاصُ القلبِ لِرَبِ العالمينَ يَرْفعانِ مَنْزِلَةَ العَمَلِ الدُنْيَوي البَحْتِ فَيَجْعَلانه عِبادَةً مُتَقَبَّلَةً كما أنَ فَسَادَ النيةِ يَنزلُ بالطاعَاتِ وَتَنْقَلِبُ مَعَه مَعَاصِي فلا يَنَالُ المرء

بَعْدَ التعبِ في أدائها إلا الفَشَلُ والخَسَارَةُ .

قال ابن القيم : رحمه اللهُ لا يَجْتَمِعُ الاخلاصُ في القلبِ وَمَحَبَّةُ المدحِ والثَنَاءِ والطَّمَعِ فيما عِندَ الناسِ إلا كَمَا يَجْتَمِع الماءُ والنارُ والضبُ والحوتُ ، فاذا حَدَّثَتْكَ نَفْسُكَ بطلَبِ الاخلاصِ فأَقْبِلْ على الطَّمَعِ أولاً فأذبَحْهُ بسِكِيْنِ اليَأسِ ، واقبلْ على المدَحِ والثناءِ فازْهَدْ فِيْهِمَا زُهْدَ عُشَاقِ الدُّنْيا في الآخرةِ ، فاذا استقامَ لكَ ذَبحُ الطَّمعِ والزهدُ في الثناءِ والمدحِ سَهُلَ عليكَ الاخلاصُ فان قلتَ : وما الذي يُسَهلُ عَلَيَّ ذَبْحَ الطَّمَعِ والزُّهْدَ في الثناءِ والمدحِ قلتُ : أما ذَبْحَ الطَمعِ فَيُسَهِّلُهُ عَلَيْكَ يَقِيْناً أنه ليسَ شيءٌ يُطْمَعُ فيه إلا وَبيدِ اللهِ وَحَدَهُ خِزَانَتُهُ لا يَمْلكُهَا غَيْرُهُ وَلَا يُؤْتَى العَبْدُ منها شَيْئاً سِوَاهُ وأما الزُهْدُ في الثناءِ والمدحِ فَيُسَهِّلهُ عليكَ عِلْمُكَ أَنَّهُ ليسَ أَحَدٌ يَنْفَعُ مَدْحُهُ وَيَزِيْنُ ، وَيَضُرُّ ذمُهُ وَيَشِيْنُ إلا اللهُ وَحْدَهُ ، قال ذلكَ الاعرابيُ للنَبي صلى الله عليهِ وَسَلَّمَ : ان مَدْحِيْ زَيْنٌ وَذَمِي شَيْنٌ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : ذلكَ اللَهُ عَزَّ وَجَلَّ .

فازهَدْ في مَدْحِ مَن لَا يَزِيْنُك مَدْحُهُ وفي ذَمِ مَن لا يَشِيْنُكَ ذَمُّهُ ، وارْغَبْ في مَدْحِ مَن كُل الزَّيْنِ في مَدْحِهِ وَكلُ الشَيْنِ في ذَمِّهِ ، ولن يَقْدرْ عَلى ذَلكَ إلا بالصَّبر واليَقينِ فَمَتَى فَقَدْتَ الصَّبْرَ واليقينَ كُنْتَ كَمَنْ أَرادَ سَفراً في البَحْرِ في غَيْرِ مَرْكَبٍ قال الله تعالى : ﴿ فَاصْبرْ إنَّ وَعْدَ اللهِ حَق ولَا يَسْتَخفنك الذينَ لا يُوقِنون ﴾ . وقال : ﴿ وجَعَلناهُمْ أئمة يهدونَ بِأَمرِنَا لما صَبروا وكَانوا بِآياتِنا يُوقِنون ﴾ .

وقد يَعْجَزُ عن عمل الخيرِ الذي يَتَمَنَّى فِعْلَهُ لِضَعْفِ بَدَنِه أو قِلَّةَ مَالِهِ

ولكن اللهُ المطلعُ على السَّرَائِرِ اللطيفُ الخبيرُ يُثِيْبُ الحَرِيْصَ على فِعْلِ الخَيْرِ كما في الحَدِيْثِ اذا مَرِضَ العَبْدُ أو سَافَرَ كُتِبَ له ما كانَ يَعْمَلُ صَحِيْحاً مُقِيْماً .

وفي غزوةِ العُسْرَةِ تَقَدَّمَ إلى رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم رجالٌ يُرِيْدُون أنْ يُقَاتِلوا الكفارَ وأن يَجُودُوا بِأنفُسِهم في سبيلِ اللهِ فقالَ لهم النبيُ صلى الله عليه وسلم : لا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عليه فعادُوْا وفي حُلُوقِهِمْ غُصَّةٌ لِتَخَلُفِهم عن مَيْدَانِ القِتَالِ في سبيلِ اللهِ وفيهم نَزَلَ ﴿ ولا على الذين اذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ألا يجدوا ما ينفقون ﴾ فَنَوَّهَ النبيُ صلى اللهُ عليهِ وسلم بإيمانِهِمْ واخلاصِهِم وقال لِلْجَيْشِ السَّائِرِ مَعَه : (ان بالمدينةِ لَرِجَالاً مَا سِرْتُم مَسِيْراً ولا قَطَعْتُمْ وادِياً إلّا كانُوْا مَعَكُم) الحديث وَتقدم قريباً .

اللهمَّ اعْطنا مِن الخيرِ فوقَ مَا نَرْجوهُ وآصْرف عَنا مِن السوءِ فوقَ مَا نَحْذر فإنكَ تَمحُو مَا تَشَاء وَتُثْبت وعندك أُم الكِتاب .

اللهمَّ وآجعلنَا ممَّن يأخُذ الكِتاب باليمين ، وآجعلنَا يَوم الفزعِ الأكبرِ آمنين ، وأَوصلنَا بِرَحْمَتِكَ وَكَرَمِكَ إلى جَناتِ النعيم ، واغْفِر لَنَا وَلوَالِدينَا ولِجَميع المسلمين ، بِرَحْمَتِكَ يا أَرْحَم الراحِمين ، وصلى الله على محمدٍ وعلى آلِهِ وصَحبِهِ أجْمعين .

الفصـــل العـــاشر

وقال ابن القيم رحمه الله : يَعْرِضُ لِلْعَامِلِ في عَمَلِهِ ثلاثُ آفاتٍ رؤيتُهُ وملاحظتُه وطلبُ العَوَضِ عليه ورضاهُ بِهِ وَسكونُهُ إليه . ففي هذه

الدرجةِ يَتَخَلَّصُ مِن هَذِهِ البَلِيَّةِ . فالذي يُخَلِّصُه مِن رُؤْيَةِ عَمَلِهِ مُشَاهَدَتُهُ لِمنَّةَ الله لا مشيئته هو ، كما قال تَعالى ﴿ وما تشاؤونَ إلا أن يشاء اللَّهِ ربِّ العالمين ﴾ وأنَّهُ آلةٌ مَحْضَة وأنه لَو خُلي وَنَفْسَهُ لم يكنْ مِن فِعْلِهِ الصَّالِحِ شَيءٌ ، فانَّ النَّفْسَ جَاهِلةٌ ظَالِمةٌ طَبْعُهَا الكَسَلُ وايثارُ الشهواتِ والبطالةُ ، وهي مَنْبَعُ كُلِّ شَرٍ ومأوَى كُلِّ سُوْءٍ ، وما كانَ هَكَذَا لم يَصْدُرْ مِنهُ خَيْرٌ وَلاَ هُو مِن شَأْنِهِ فَالخَيرُ الذي يَصْدُرُ مِنها إنَّمَا هُوَ مِن اللهِ وبِهِ ، لا مِن العبد ولاَ بِهِ ، كما قال تعالى :

﴿ ولو لا فضلِ اللهِ عليكم وَرَحمته ما زكى مِنكم مِن أحدٍ أَبَدَا ولكن الله يُزَكِّيْ مَنْ يَشَاء ﴾ وقال أهلُ الجنة : ﴿ الحمدُ لله الذي هدانا لِهَذا ﴾ وقال تبارك وتعالى لرسوله : ﴿ ولولاَ أن ثبتنَاك لقد كِدْتَ تركنُ إليهم شيئاً قليلا ﴾ وقال تعالى : ﴿ ولكن الله حبَب اليكمْ الإيمان وزَينه في قُلوبكم ﴾ الآية .

فكلُ خيرٍ في العبدِ فهو مُجَرَّدُ فضلِ اللهِ وَمِنَّتِهِ وإحسانِهِ وَهُوَ المَحْمُودُ عليهِ فرؤيةُ العبدِ لأَعْمَالِهِ في الحقيقةِ كَرُؤْيتِهِ لِصفاتِهِ الخَلْقِيَّةِ مِن سَمْعِهِ وَبَصَرِهِ وإدْرَاكِهِ وَقُوَّتِهِ ، بَلْ مِن صِحّتِهِ وَسَلاَمَةِ أعضائِهِ ونحو ذلكَ ، فالكلُ مُجَرَّدُ عَطَاءِ اللهِ وَنعمتِهِ وَفَضْلِهِ فالذي يُخَلِّصُ العَبْدَ مِن هذِهِ الآفةِ مَعْرِفَةُ رَبِّهِ وَمَعْرِفَةُ نَفْسِهِ .

والذي يُخَلِّصُهُ مِن طلبِ العِوَضِ على العملِ عِلْمُهُ بأنه عَبْدٌ مَحْضٌ ، والعَبْدُ لا يَسْتَحقُ على خِدْمَتِهِ لِسَيِّدِهِ عِوَضاً ولا أجْرَةَ ، اذْ هُو يَخْدِمُهُ بِمُقْتَضي عُبُودِيَتِهِ ، فَمَا يَنَالَه مِن سَيِّدِهِ مِن الأجر ، والثَوابِ تَفَضُّلٌ منه واحسانٌ إليهِ وانْعَامٌ عليهِ لاَ مُعَاوَضَةَ ، إذِ الأُجْرَةُ إنَما يَسْتَحِقُّهَا الحُرُّ أو

عَبْدُ الغَيْرِ فأمَّا عَبْدُ نَفْسَهُ فلا . والذي يُخلِصُه مِنَ رِضَاهُ بِعَمَلِهِ وَسُكُونِهِ إليهِ أَمْرَانِ : أَحدُهُمَا مطالعةُ عُيُوبِهِ وآفاتِهِ وَتقصيرِهِ فيه وما فيهِ مِن حَظِ النَّفْسِ والشيطانِ ، فَقَلَّ عَمَلٌ مِن الأَعْمَالِ إلا وللشَّيْطَانِ فيه نَصِيْب وإنْ قَلَّ وَلِلنَّفْسِ فيه حظ .

الثاني : عِلْمُهُ بما يَسْتَحِقُّهُ الربُ جَلَ جَلاَلُه مِن حُقُوقِ العُبودِيةِ وآدابِهَا الظاهرةِ وَالباطنةِ وشروطِهَا وأَن العَبْدَ أضعفُ وأعجزُ مِن أنْ يُوَفِيها حَقاً وأن يَرْضَى بِهِ لِرَبِّهِ فالعَارِفُ لا يَرْضَى بِشَيءٍ مِن عَمَلِهِ لِرَبِّهِ ولا يَرْضَى نَفْسَهُ لِلهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ وَيَسْتَحِي مِن مُقابَلَةِ اللهِ بِعَمَلِهِ . وَكَان بَعْضُ السَلَفِ يُصَلِي في اليومِ واللَّيْلَةِ أَرْبَعْمائَةِ رَكْعَةٍ ، ثُمَّ يَقْبِضُ على لِحْيَتِهِ وَيَهُزُهَا وَيقولُ لِنَفْسِهِ : يَا مَأْوَى كُلِّ سُوْءٍ وهل رَضِيْتُكَ لِلهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ . وقال بَعْضُهُم : آفةُ العَبْدِ رِضَاهُ عن نَفْسِهِ وَمَن نَظَر إلى نَفْسِهِ باستحسان شيءٍ منها فَقَدْ أَهْلَكَهَا وَمَن لَمْ يَتَّهِمْ نَفْسَهُ على دَوَامِ الأوقاتِ فهو مَغْرُوْرٌ . انتهى .

وختاماً فَعَلَى المُسْلِمِ المخلصِ أن يَحْذَرَ كُلَّ الحَذَرِ أن يَمْتَزِجَ باخلاصِ عَمَلِهِ شيءٌ آخرُ مِن رِياءٍ أو غيرِهِ كَمَنْ يَصُومُ لِيَنْتَفِعَ بالحُمِيْةِ الحَاصِلةِ بالصومِ وَمَعَ قَصدِ التقربِ أو يُعْتِقَ رَقِيْقَهُ لِيَتَخَلَّصَ مِن مَؤُنَتِهِ وَسُوْءِ خُلُقِهِ أو يَحُجَّ لِيَصِحَّ بَدَنُه بِحَرَكَةِ السَّفَرِ أو لِيَتَخَلَّصَ مِن شَرٍّ يَعْرُضُ له بِبَلَدِهِ أو يَغْزُو لِيَتَمَرَنَ عَلَى الحَرْبِ وَيُمَارِسَها أو يَتَعلم العِلْمَ لِيَسْهُلَ عليهِ طَلَبُ مَا يَكْفِيْهِ مِن المال أو لِيَكونَ عزيزاً بينَ أَبناءِ جِنْسِهِ وَعَشِيْرَتِهِ ، أو لِيَكونَ مَالُهُ مَحْرُوْسَا بعزِ العِلْمِ عَن الاطمَاع ، أو عادَ مَرِيْضاً لِيُعَادَ إنْ مَرِضَ أو شَيَّعَ جَنَازةً لِيُشَيَّعَ جَنَائِزَ أهلِهِ ، أَوْ فَعَلَ شَيْئاً مِن ذلكَ لِيُعْرَفَ بالخيرِ وَيُذْكَرَ بهِ وَيُنْظَرَ إليه بِعَيْنِ الصَّلاحِ والوَقَارِ أو تصدقَ لِيُثْنِي عليهِ

وَيُقَالَ أنه كَرِيْمٌ يَبْذُلُ المَالَ أو قَامَ بِمَشَارِيْعَ خَيْرِيَّةٍ لِيُثْنَى عَلَيهِ فكلُ هَذِهِ وَنَحْوَها مِن مُكَدِّرَاتِ صَفْوِ الاخلاصِ نَسأل اللهُ العصمةَ لَنَا وَلاخواننا منها .

وكم مِن أَعْمَالٍ يَتْعَبُ الشخصُ فيها وَيَظُنُّ أَنَّهَا خَالصةً لِوَجْهِ اللهِ ، ويكونُ فيها مَغْرُوْراً لأنه لا يَرَى وَجْهَ الآفةِ فيها ، فَدقائقُ الآفاتِ قَلَّمَا تَسْلَمُ الاعمالُ منها .

قال بعضُ السلفِ لَا يَزَالُ العَبْدُ بِخَيرٍ ما عَلِمَ ما الذي يُفْسِدُ عليهِ عَمَلَهُ فلا غِنَى بالعَبدِ عن مَعْرفَةِ ما أُمِرْنَا باتّقَائِهِ مِن الرياءِ وَغيرِهِ وَلا سِيَّما الرّياءُ إِذْ وُصِفَ بالخَفاءِ في الحديثِ أنه أَخفَى مِن دَبِيبِ النَملِ فما خفيَ لا يُعْرَفُ إلا بشِدَّةِ التَّفَقُدِ وَنَفَاذِ البصيرةِ بِمَعرِفَةٍ لَهُ حِيْنَ يَعْرُضُ وإلا لَم يَنْفَعِ التفقدُ لِمَا لَا يُعْرَفُ .

فبالخوفِ والحذرِ يَتَفَقَّدُ العَبْدُ الرِّيَاءَ، وَبِمَعْرِفتِهِ بِبَصَرِهِ حينَ يَعْرِضُ لَهُ .

ومَنِ فوائِد الاخلاصِ أنه يَمُدُ جَأْشَ صَاحِبه بِقُوَّةٍ فلا يَتَبَاطأُ أَنْ يَنْهَضَ لِلدّفاعِ عَن الحَق .

ومن فوائِدِهِ أنه يَشْرَحُ صَدْرَ صَاحِبِهِ للانْفاقِ في وُجُوهِ البِرِ فَتَجِدُهُ يَؤْثِرُهَا بِجَانِبٍ مِن مَالِهِ وان كانَ به خَصَاصَةٌ . وَمِنَ فوَائِدِهِ أنه يُعْلِّم صَاحِبَه الزُّهْدَ في عَرَضِ الدُنْيَا ، فلا يُخْشَى مِنْهُ أَنْ يُنَاوِىءَ الحَقَّ أو يُلْبِسَه بِشَيءٍ مِن البَاطِلِ ، ولو أُعْطِيَ الشَّيءَ الكثيرَ مِن المَال . وَمِنَ فوائِدِهِ أنه يَحْمِلُ القاضِي على تَحْقِيْقِ النَّظَرِ في القَضَايَا فَلا يَتَسَرَّعْ في القَضِيَّة وَيْفصِلُ فيها إلا بَعْدَ أَنْ يَتَثَبَّتَ وَيَتَبَيَّنَ لَهُ الحقُ . وَمِن فوائِدِهِ أنه يَحْمِلُ المُعَلِّمَ أنْ يَبْذِلَ جُهْدَهُ في ايضاحِ ما خَفِيَ على التّلْمِيْذِ وأن لا

يَبْخَلَ عَلى الطلاَبِ بما تَسَعُه أَفهامُهُم مِن المَبَاحِثَ المِفيدَةِ . ومِن فَوَائِدِهِ أن الاسْتَاذَ يَحْرِصُ عَلَى أن يَسْلُك في طَرِيْقَةِ التَدرِيْسِ الأَسَالِيْبَ التي تُجَدِّدُ نَشَاطَهُم وَتَحْفِزُهُم إلى التَعَمُقِ في المَسَائِل .

وَمِن فَوَائِدِ الاخلاصِ أنه يَمْنَعُ التاجِرَ مِنَ الخِيَانَةِ فلا يَخُوْنُ الذي يأتمنُه في صِنْفٍ مِن أَصْنَافِ البِضَاعَةِ ، أَوْ قِيْمَتِها . وَمِن فَوائِدِ الاخلاصِ أنه يَحْمِلُ صَاحِبَهُ عَلى إجَادَةِ العَمَلِ وأَنْ يكونَ مُحْسناً فِيه ومِن فوائِدِهِ أنه يَمْنَعُ الكاتبَ أن يَقْلِبَ بَعضَ الحقائِقِ أو يَكسُوْهَا لوناً غَيْرَ لَوْنِهَا . وَمِن فوائدِ الاخلاصِ أنه يَحْمِلُ صَاحِبَه عَلى تَجَنُّبِ الغِشِ فَكُلُ غَشاشٍ فهو ليسَ بِمُخْلِصٍ ، وَتَقَدَمَ حديثُ مَن غَشَّنَا فَليسَ مِنَّا ومِن فوائدِ الاخلاصِ أَنه يَحْمِلُ صَاحِبَهُ على الوَفَاءِ بالعهدِ والوعدِ ، وَمِن فوائدِ الاخلاصِ أنه يَحْمِلُ صَاحِبَه على أنْ يكوُنَ عَمَلُه لِلْقَرِيْبِ والبعيدِ سَوَاء .

ومِن فوائدِهِ أنه يَحْمِلُ صَاحِبَه على تَنظيمِ أعمَالِهِ . ومِن فوائِدِهِ أَن المُتَّصِفَ به يكونُ مُقَدَّراً مَرْمُوقاً بعَينِ الاحْتِرَامِ والاجلالِ ، ومِن فوائدِهِ أنه يَحْمِلُ صَاحِبَه على الابتعادِ عن الرِشوةِ ، وَمِن فوائِدِهِ أنه يحملُ صَاحِبَه إذا كانَ مِن أهلِ الحَلّ والعَقْدْ وَزيراً أو رَئِيساً أو مِديراً أنْ يَتَحَرَّى لِلأَعْمَالِ الأَتقَى وَالأَرضى ، الذي تُوْجَدَ فيهِ المؤهلاتُ حقيقةً ، وهيَ القوةُ والأمانةُ والحفظُ والعلمُ . عاملاً بقوله صلى اللهُ عليه وسلم : مَن اسْتَعْمَلَ رَجُلاً على عِصَابَةٍ وفيهم مَن هُوَ أَرْضَى للهِ منه فَقَدْ خَانَ اللهَ ورسولَهُ والمؤمنينَ ، ومِن فوائِدِهِ أن العَمَل الخَالِصَ القَلِيْلَ منه يُجْزِي كما في حَدِيثِ معاذٍ أن النبي صلى الله عليه وسلَم قالَ لَهُ : أَخلِصْ العَمَلَ يُجْزِكَ مِنه القَلِيْلُ ، قال ابن القيم رحمه الله تعالى :

واللهُ لا يَرْضَى بِكَثْرةِ فِعْلِنَا
لكن بأحْسَنِهِ مَعَ الأيْمَانِ
فالعَارِفُونَ مُرَادُهُم احسانَهُ
والجاهلونَ عَمُوا عَن الاحْسَانِ

ومِن فوائدِ الاخلاصِ أن العبدَ لا يَتَخَلَّصُ مِن الشيطانِ إلا بالاخلاصِ ، قال الله اخباراً عَمَّا قاله ابليسُ لعنه اللهُ : ﴿ الا عبادَكَ منهم المُخْلَصِين ﴾ ، وَمِن فوائدِ الاخلاصِ أنه يُمَيِزُ العَمَلَ مِن العُيُوْبِ كَتَمْيِيْزِ اللَّبَنِ مِن الفَرْثِ (والدمِ) ، ومِن فوائدِهِ أنَّ المُخْلِصَ إذَا نَامَ حَتَّى يُرِيْحَ نَفْسَهُ وَيُجِمُّهَا لِلْعَمَلِ لِيَتَقَوَّى عَلَى العِبادةِ يكونُ نومُهُ عِبَادةً .

مـوعظـة

عبادَ اللهِ أَخْلِصُوا في أَعْمَالِكُم كُلِّها لَا فَرْقَ بَيْنَ عَمَلٍ وَعَمَلٍ سَواءٌ أَكُنْتُم تَعْمَلُونَ لِلهِ عَزَّ وَجَلَّ أمْ كُنْتُم تعملونَ لِخَلْقِ اللهِ وَسواءٌ أَكُنْتُم بَيْنَ الخَلْقِ وأنتم تَعْمَلونَ أمْ كُنْتُمْ في مَحَلٍ خَفِيٍ لَا يَرَاكُم إلا اللهُ والكرامُ الكاتبونَ وسواءٌ أكنتُم في سَرَّاءَ وَقْتِ العملِ أم في ضَرَّاءَ .

ذَلكَ الاخْلاصُ هو أَنْ تَعْمَلَ العَمَلَ الصالحَ لا تُرِيْدُ جَزَاءً عليهِ إلا مِن اللهِ يكونُ ذلكَ قصدُكَ قبلَ العملِ وحينَ مُبَاشَرَتِهِ وَبَعدَ الفَرَاغِ مِنهُ لَا تَذْكُرْهُ بِلسَانكَ إلا مِن بَابِ التحدثِ بنعمِ اللهِ أو لِيَقْتَدِي بِكَ غَافِلٌ مُتَّبِعٌ لِهَوَاهُ ، بِهَذا يَكُونُ العَمَلُ عبادةً حقاً وتكونُ أنتَ مِن العابِدِينَ وبِهذا يَثمرُ عَمَلُكَ القَبُولَ عندَ رَبِكَ وعندَ الناسِ ، وبهذا تكونُ أَقْوَى الناسِ لأنَّ وَلِيَّكَ حِيْنَئِذٍ يكونُ مَوْلَاكَ القَوِيُ المَتِيْنُ وبهذا تكونُ مِن أَهْلِ الكَرَامَةِ في

هذهِ الدارِ وفي دارِ الجزاءِ .

أَمَّا إذا عَمِلْتَ العَمَلَ الصَّالِحَ لِيُقْبلَ عَلَيْكَ الناسُ وَيَقُوْلُوا إنكَ مِن الصَّالِحينَ فأنتَ إذاً تكونُ مُرَائِياً لا تُخْلِص العَمَلَ بَلْ تَشْرِكُ مَعَه الناظرينُ فتكونُ في دَعْوَى تَمْحِيْصِ العملِ للهِ تعالى لَسْتَ بصَادِقٍ بَلْ مِن الكاذبين .

وانْظُرْ كَيفَ تكونُ حَالُ مَن يَكْذِبُ على مَن لا تَخْفَى عليهِ خافيةٌ ، لا في الأرضِ ولا في السماءِ ، إن المُرَائِيَ مَهْمَا أخْفَى رِياءَهُ يُظْهِرُ اللهُ تعالى ما فِي قَلْبِهِ لِلْعَالَمين ، رَوَى الامامُ أحمدُ عن أبي سعيدٍ مَرفوعا « لو أَنَّ أَحَدَكُم يَعْمَلُ في صَخْرَةٍ ليسَ لَهَا بابٌ ولا مَنْفَذٌ لأَخْرَجَ اللهُ عَمَلَهُ لِلنَّاسِ كائناً مَا كان » .

ولذلكَ يكونُ لِأعمالِ المُرائِي مِن السَّمَاجَةِ في نُفُوسِ الناسِ مالا يَحْكِيْهِ اللِّسَانُ ولِهذا يكونُ مَرْذُوْلاً ثَقِيْلاً عندَ الناسِ ، ومِن هذا تَرَاه يَتَوَدَّدُ إلى الناسِ وَيَضْحَكُ إليهِمْ وَنُفُورُهُم عنه عِبْرَةٌ عند العقلاء ثم هو عندَ اللهِ أسوأُ حالاً خصوصاً في اليومِ الذي يَشِيْبُ فيه الاطفالُ فقد يُؤْمَرُ بهِ إلى النارِ وله مِن الأعمالِ أمثالُ الجبالِ لكنَّهَا لَمَّا لَم يُرْد بِهَا وَجْهَ اللهِ خَالِصةً صَارَتْ وبالاً عليه نعوذُ باللهِ مِن الرِّياءِ .

والله أعلم وصلى الله على محمد وعلى آله وسلم .

الفصل الحادي عشر
في محاسبة النفس

اعلم وفقنا الله وإياك وجميع المسلمين أنه يَجِبُ على الانسان أولاً أن يَعلمَ أنه عبدٌ مَرْبُوبٌ لاَ نَجَاةَ لَهُ إلاَ بِتقوى اللهِ ولا هلاكَ عليه بَعْدَهَا ثم يُفَكِّرُ (لأي شيءٍ خَلَقَهُ اللهُ ولِمَا خَرَجَ في هذِهِ الدارِ الفانيةِ فَيَعْلَمَ أنه لم يُخْلَقْ عَبَثاً كما قال الله أفحسبتم أنمَا خَلَقْنَا كَم عبثا) وقال ﴿ أيحسب الانسان أن يترك سدى ﴾ وانما وُضِعَ في هذِهِ الدارِ لِلْبَلْوَى والاختِبَارِ هَلْ يَطِيْعُ رَبَّهُ فَيَنْتَقِلْ إلى دَارِ نَعِيْمٍ أَبَدِيْ سَرمَدِي أَو يَعصِي رَبَّهُ فَينتقل إلى عذابِ الأبدِ إلى جَهَنَّمَ وَبئسَ المِهَاد .

اذا فَهِمَ ذَلكَ عَلمَ أنهُ لا نَجَاةَ لهُ إلا بطَاعَةِ رَبِهِ وأن الدليلَ على طاعَةِ اللهِ العلمُ ثم العملُ بأمرِهِ وَنهيِهِ في مَوَاضِعه وعِلَلِهِ وأسبابِهِ ولن يجدَ ذلكَ إلا في كتابِ اللهِ وسنةِ رَسُولِهِ صلى الله عليه وسلم لأنَّ الطَاعَةَ سَبِيْل النجاةِ والعِلْمُ هُوَ الدليلُ على السبيلِ . قال الله تعالى : ﴿ فأعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك ﴾ .

ثم يَتَأَمَّلُ مَا أَمَامَهُ مِن الشَّدَائِدِ والْكُرَبَ والعَقَبَاتِ والأَهْوالِ التي أَوْضَحَها اللهُ في كِتابِهِ وَبَيَّنَهَا رسولُه صلى الله عليهِ وسلَم قال تعالى ﴿ واتقوا يوما ترجعون فيه الى الله ثم توفي كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون ﴾ وقوله ﴿ ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ﴾ وقال ﴿ يوم يَبعثُهُم اللّه جَميعاً فَيُنَبِؤُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاه اللَّهُ وَنَسوهُ واللّه

على كلِّ شيءٍ شَهيدٍ ﴾ وَقال ﴿ يَومئذٍ يصْدُرُ النّاسُ أشْتَاتاً لِيُرَوا أعمَالهُم فمنْ يَعْمَلْ مِثقَالَ ذرّةٍ خيراً يَرهُ ومنْ يَعملْ مِثْقَالَ ذَرّةٍ شراً يَرَه ﴾ وقال ﴿ يومَ تَجدُ كلُّ نفْسٍ مَا عملتْ من خَيرٍ محْضراً وَمَا عَملتْ من سُوءٍ تودُّ لوْ أنّ بينهَا وبينهُ أمداً بعيدَةً ﴾ وقال ﴿ واعْلمُوا أنّ اللّهَ يعْلمُ ما في أنْفُسكمْ فاحْذرُوه ﴾ .

ـ فاذا عَلِمَ أنّه مُنَاقَشٌ في الحِسَابِ عنْ مثاقِيلِ الذَّرِّ في يَومٍ كان مقْدارُه خَمسينَ ألْفَ سَنةٍ أحوجِ ما يَكونُ الى الحَسَناتِ وغُفْرانِ السّيئَاتِ تَحقّقَ أنّه لا يُنجِيْهِ مِنْ هذهِ الأخْطارِ إلاَ اعتمَادُه على اللّه وَمَعونَتِهِ على مُحَاسَبَةِ نَفْسِهِ وَمُرَاقَبَتِهَا وَمُطَالَبَتِهَا في الأنْفَاسِ والْحَرَكَاتِ وَمُحَاسَبَتِها في الخَطَرَاتِ واللّحَظَاتِ فَمَنْ حَاسَب قَبْل أنْ يُحَاسَبَ خَفَّ في القيامةِ حِسَابُه وَحَضَرَ عندَ السّؤال جوابُه وحَسُن مُنقَلبه وَمآبُه .

قال ابنُ القيِّم : رَحمهُ اللّهُ هَلاكُ القَلْبِ من إهْمالِ محَاسبتِهَا ومنْ موَافَقتِهَا واتّباع هَواهَا وفي الحديثِ قال رَسولُ اللّه صلّىٰ اللّه عَليهِ وسلّم : الكيِّسُ منْ دَانَ نَفْسَه وَعَمِلَ لما بعْدَ الموْتِ والعَاجِزُ منْ أتْبَعَ نَفْسه هَواهَا وَتَمنّى على اللهِ الأماني » دانَ نفسه أي حاسبها .

وذَكر الامامُ أحمدُ عنْ عُمَرَ بنِ الخَطّاب رَضِيَ اللّه عَنهُ أنّهُ قَال : حَاسبُوا أنفسَكمْ قبلَ أنْ تُحَاسبُوا وزنُوهَا قبل أنْ تُوزَنوا فإنّه أهونُ عَليكُم في الحِسَابِ غداً أنْ تُحاسبوا أنْفسَكمْ اليومَ وَتَزَيَّنُوْا لِلْعَرضِ الأكبَرَ يومئذٍ تُعرضونَ لاَ تَخْفى مِنكُم خافية » على اللهِ . وَذَكَرَ أيضاً عن الحَسَن لا تَلْقَى المُؤمِنَ إلا يُحَاسبُ نَفْسه ماذا أردْتُ بكَلمتيْ ماذا أردْت بِشرْبَتِي ؟ والفَاجرُ يَمْضِي قُدُماً لا يُحاسبُ نَفسهُ . وقال قَتادةُ في قَوله تعالى :

﴿ وكان أمْرُه فُرُطا ﴾ ، أَضَاعَ نَفْسَهُ وَغُبِنَ مَعَ ذلك تَراهُ حَافظاً لِما له مُضيّعاً لِدِيْنِهِ .

وَقَال الحَسنُ : إنّ العبْدَ لا يَزالُ بِخير مَا كَانَ لَهُ وَاعظٌ مِنْ نَفسِه وكانَتِ المُحاسبةُ مِن هِمّتِهِ وقال مَيمُونُ بنُ مُهرانِ : لا يَكونُ العَبْدُ تَقيّاً حتّى يَكونُ لنفْسهِ أشَدَّ مُحَاسَبةٍ مِنَ الشّرِيْكِ ، ولهذَا قِيْلَ النّفْسُ كالشّريكِ الخَوّانِ إنْ لَمْ تُحَاسبُه ذَهَبَ بِمالِكَ وقال مَيمُونُ أيضاً : إنّ التَقيَّ أَشَدُّ مُحاسبةً لِنَفْسِهِ مِنْ سُلطانٍ قَاضٍ وَمِنْ شَرِيْكٍ شَحِيْحٍ .

وَذَكَرَ الامَامُ أَحْمدُ عنْ وَهْبٍ قَال مكْتُوبٌ في حِكْمَةِ دَاوُودِ ، حَقٌّ عَلى العَاقِلِ أنْ لاَ يَغْفلَ عنْ أَرْبَعِ سَاعَاتٍ سَاعةٍ يُناجِي فِيهَا رَبّه وَسَاعةٍ يُحَاسِبُ فيهَا نَفْسُهُ وَسَاعَةٍ يَخْلُو فِيْهَا مَعَ إخْوانِه الّذينَ يُخْبِرُونَه بِعُيوبِهِ وَيصَدّوُنَه عَنْ نَفْسه ، وَسَاعةٍ يُخَليَّ فيهَا بَيْنَ نَفسه وَبَينَ لذّتِهَا فِيمَا يَحُلّ وَيَجْمُلُ ، فإنَّ في هَذِهِ السّاعةِ عَوناً عَلى تِلكَ السّاعَاتِ وإجْمَاماً للقُلوبِ .

وَقَال الحَسَنُ : المؤمِنُ قوَّامٌ عَلى نَفْسه للّهِ وإنّما يَخُفَّ الحِسَابُ يَومَ القِيَامَةِ على قَومٍ حَاسَبُوا أنْفَسَهم في الدّنيا وإنَّما شَقّ الحسَابُ يَومَ القِيَامَةِ على قَومٍ أَخَذُوا هَذا الأَمْرَ منْ غَيرِ مُحاسبةٍ .

إنّ المُؤمنَ يَفْجَؤهُ الشّيْءَ يُعْجبُه فيقولُ : واللّهِ إنّي لأَشْتَهيْكَ وإنّكَ لِمَنْ حَاجتِي ولَكنْ واللّهِ مَا مِنْ صِلَةٍ إلَيْكَ هَيْهَاتَ حِيْلَ بَينِيْ وَبَيْنِكَ ، وَيَفْرطُ مِنْهُ الشّيءُ فَيرجعُ إلى نَفْسِه فَيقوُلُ : مَا أردْتُ إلَى هَذَا مَا لِي وَلِهَذَا واللّهِ لاَ أعودُ إلَى هَذَا أبداً إنّ المؤمِنينَ قَوْمٌ وَقّفَهُم القُرآنُ وَحَالَ بَيْنَهم وَبَيْنَ هَلَكتِهِمْ إنّ المؤمنَ أَسِيرٌ في الدّنْيَا يَسعِيَ في فَكَاكِ رَقَبتِهِ لاَ

يَأمَنُ شَيئاً حَتّى يَلقَى اللّهَ لِيعْلَم أنّهُ مَـأْخُـوْذٌ عَليهِ في سَمْعهِ وفي بَصَرِه وفي لِسَانِهِ وفي جَوارِحِهِ .

قالَ ابنُ القيّمِ : رَحِمَهُ اللّهُ عَلى قَوْلِ صَاحِبِ المَنازِل : المحَاسَبةُ لَها ثَلاثةُ أرْكانٍ ، أحدُهَا أنْ تُقايِسَ بَيْنَ نِعمتهِ وجِنَايَتكَ يَعْني تُقايسَ بَيْنَ ما مِن اللهِ وَمَا مِنْكَ فَحينَئذٍ يَظهرُ لَكَ التَفاوُتُ وَتعلمُ أنّه ليسَ إلا عَفوهُ وَرَحمتُه أوْ الهَلاكُ والعَطَبُ وبِهَذِهِ المقَايسةِ تَعلمُ أنّ الربَّ رَبٌّ والعَبْدَ عَبْدٌ وَيَتبيّنَ لكَ حَقيقَةُ النّفسِ وصِفَاتُهَا وَعَظمةُ جَلالِ الرُّبُوبيّةِ وَتُفرَدُ الرّبَّ بالكمَالِ والأفْضَالِ وأنّ كلَّ نِعمةٍ فَضْلٌ وكُلَّ نِقْمةٍ مِنهُ عَدلٌ وأنتَ قَبْلَ هذه المقَايَسةِ جَاهلٌ بِحقيقةِ وَبِرُبُوبيّةِ فَاطِرِهَا وَخَالِقِهَا .

فإذَا قَايَستَ ظَهرَ لكَ أنّها مَنبعُ كلِّ شَرٍ وأسَاسُ كلِّ نَقصٍ وأنّ حَدَّهَا الجَاهلَةُ الظّالِمَةُ وأنّه لو لا فضلُ الله ورَحْمَتُه بِتَزْكِيَتِهِ لها مَا زَكَتْ أبداً وَلَوْلا هُداهُ ما اهْتَدتْ ولولا إرشَادهُ وَتَوفِيقُهُ لما كانَ لها وُصُولٌ إلى خيرِ البتَّةَ وانّ حُصول ذَلك لها مِنْ بَارِئها وَفَاطِرِهَا ، ثُمَّ تُقايس بينَ الحَسناتِ والسّيئاتِ فَتعلمُ بِهذهِ المُقَايسة أيُّهما أكثرُ وأرجَحُ قَدْراً وَصِفَة .

قال : وهذه المُقايسةُ تَشُقّ عَلى مَنْ لَيْسَ لهُ ثَلاثةُ أشْياءٍ ، نُورُ الحِكْمةِ وَسُوءُ الظّنِّ بالنَّفسِ ، وَتَمييزُ النِّعمةِ مِنْ الفِتْنةِ يَعني أنّ هَذِهِ المُقايسة والمُحَاسَبة تَتوقّفُ على نُورِ الحكْمةِ وهو النور الذي نَوَّرَ اللهُ بهِ قلوبَ أتْبَاعِ الرُسُلِ فبقدْرِهِ تَرَى التّفاوتَ وَتَتَمكّنَ مِن المُحاسبةِ نُورُ الحِكْمةِ هَهنا هُوَ العِلمُ الذي يُميّزُ بهِ العْبدُ بينَ الحَقِّ والباطِلِ والهُدىٰ والضّلالِ والضّارِّ والنّافعِ والكاملِ والنّاقِص والخَيرِ والشّرِ وَيُبْصِرُ بهِ مَرَاتِبَ الأعْمالِ رَاجِحِهَا وَمَرْجُوحِهَا وَمَقْبُولَهَا وَمَرْدُودِهَا كلّما كان حَظهُ مِن

هذا النّورِ أقوىٰ كانَ حَظّهُ مِن المحاسبةِ أكملَ وَأتمَّ .

أما سُوءُ الظَّنِّ بالنّفس فإنّما احتَاجَ اليْه لأنّ حُسنَ الظّنِ بالنّفسِ يَمنعُ منْ كَمالِ التّفتيشِ وَيُلَبّسُ عليه فيرى المُسَاوىء محاسنَ والعُيوبَ كَمالاً ولا يُسيءُ الظَّنَ بِنَفْسِهِ إلّا مَنْ عَرفهَا وَمَنْ أحْسنَ ظَنّه بِنَفْسِهِ فَهُو مِنْ أجْهَلِ النَّاسِ بِنَفْسِهِ . وأمّا تَمْييزُ النِّعمَةِ مِنَ الفتْنةِ فَلْيفْرِقْ بين النّعمةِ الّتي يَرى بهَا الاحْسَانَ واللُّطفَ وَيُعانَ بهَا على تَحْصِيل سَعادتهِ الأبديّةِ وبين النّعمةِ الّتي يَرى بِها الاسْتدراجَ فكْم مِن مُستَدرَجٍ بالنِّعم وهو لا يَدْري مفْتونٌ بِثناءِ الجُهّالِ عَليْهِ مغْرورٌ بِقَضاءِ اللّهِ حَوائِجَه وَسَترِهِ عَليْهِ وأكْثرُ النّاسِ عنْدهُم أنّ هذِهِ الثّلاثةَ عَلامةُ السّعادَةِ والنّجاحِ ، ذلك مَبلغُهم مِنْ العلمِ وَقَدْ مُثلتِ النّفسُ معَ صَاحِبهَا في المَالِ ، وكَمَا أنّه لا يَتِمُّ مقْصُودُ الشّرِكَةِ من الرّبْحِ إلا بالمشَارَطَةِ علَى مَا يَفْعلُ الشّريكُ أولاً ثمّ بِمطالعَةِ مَا يَعمَلُ والإشرَافُ عَليْهِ وَمُراقَبتِهِ ثانياً ، ثُمّ بمحَاسَبتهِ ثَالثاً ، ثمّ بِمنْعِهِ مِنَ الخِيَانَةِ أنْ اطّلعَ عَليْهَا رَابعاً ، فَكذلكَ النّفسُ يُشارِطُها أوّلاً على حِفظِ الجَوارِحِ السّبعَةِ الّتي حِفظُهَا هوَ رَأسُ المَال والرّبْحُ بَعدَ ذَلِكَ فَمَنْ لَيْسَ لهُ رأسُ مَالٍ كَيفَ يَطْمَعُ في الرّبحِ ؟ .

وَهَذِهِ الجَوارِحُ السّبْعةُ هِيَ : العَينُ والأُذُنُ والفَمُ واللّسَانُ والفَرْجُ واليَدُ والرِّجْلُ هِيَ مَرْكَبُ العَطَبِ والنّجَاةِ فَمِنهَا عَطِبَ مَنْ عَطِبَ باهْمالِهَا وَعَدَمِ حِفْظِهَا وَنَجَا مَنْ نَجَا بِحِفْظِهَا وَمُراعَاتِها فَحِفظُهَا أسَاسُ كلِّ خَيرٍ وَإهمَالُها أَسَاسُ كلِّ شَرٍ قال الله تعالى : ﴿ قُل للمُؤمنينَ يغضُّوا مِن أبصَارِهِم ويَحفظوا فُروجَهم ذَلكَ أزْكَى لَهُم ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ إنَّ السّمْعَ والبَصَر والفُؤادَ كلُّ أولئكَ كانَ عنْهُ

مسئُولا ﴾ فإذا شارطَهَا على حِفظِ هذِهِ الجَوارِحِ وانتَقل مِنْها إلى مُطَالَعتها والإشْرافِ عَلَيْهَا وَمُراقبَتِها فلا يُهْملها فإنّه إنْ أهمَلهَا لَحْظَةً وَقَعتْ في الخِيَانةُ ولا بُدّ فإنْ تَمادَى على الإهْمَالِ تَمادَتْ في الخِيانَةِ حَتّى يَذهَبَ رَأسُ المَالِ كُلِّهِ فمتى أَحَسَّ بالخُسْرانِ وَتَيَقّنهُ اسْتدْرَكَ منهَا ما يَستَدْرُكُه الشَّريكُ منْ شَرْيكِهِ مِن الرُّجُوع عَلَيْهِ بِمَا مَضَى والقِيَام بالحِفْظ والمرَاقَبةِ في المُستقْبَلِ ولا مَطْمَع لهُ في فَسْخِ هذِهِ الشرِكَةِ مَعَ هذا الخَائِنِ فَليَجْتهدْ في مُراقَبتهِ وَمُحَاسَبَتهِ وَلِيَحْذَرْ مِنْ اهْمَالِهِ ، وَيُعِيْنُهُ عَلى هَذه المرَاقَبةِ والمحَاسَبةِ مَعرفتُهُ أنّه كُلّما اجْتهَدَ فيها اليَومَ استَراحَ منْهَا غَداً اذا صَارَ الحِسَابُ إلىٰ غَيْرِهِ وَكُلّما أَهمَلهَا اليَوْمَ اشْتَدّ عليهِ الحِسَابُ غداً ، وَيُعِيْنُهُ عَليهَا أيضاً مَعْرفتُهُ أَنَّ ربْحَ هذه التِّجَارَةِ سُكْنَىٰ الفِرْدَوسِ والنّظَر إلى وَجْهِ الرّبِّ وَخَسَارتها دَخولُ النّار والحِجَابِ عنْ الرّبِّ فإذا تَيَقنَ هذا هَانَ عَلَيْهِ الحِسَابُ اليَومَ .

فَحَقٌّ على الحازِمِ المُؤمِنِ باللهِ واليَومِ الآخِرِ أَنْ لَا يَغْفُلَ عنْ مُحَاسَبةِ نفسِهِ والتّضييقِ عليهَا في حَركَاتهَا وسَكناتِهَا وَخَطواتِهَا فَكلُّ نَفسٍ من أنْفَاس العُمْرِ جوهَرةٌ نَفْيسةٌ لا خَطَر لَهَا يُمكنُ أن يَشتَرِي بهَا كُنْزاً مِن الكنوز لا يَتَنَاهَى نَعيمُهُ أبدُ الآبادِ .

فإضاعةُ هذه الآنفاسُ أو مُشترَى صَاحِبهَا بِهَا ما يَجلبُ هَلاكَهُ خُسرانٌ عَظيْمٌ لا يَسْمَحُ بِمْثِلِهِ إلا أجْهلُ النّاسِ وأحمَقهُم وأقلُّهم عَقْلاً وانمَا يَظْهَرُ لَهمْ حَقيقةَ هَذَا الخُسرانِ يومَ التغابُنِ ﴿ يومَ تجدُ كلُّ نَفْسٍ ما عَملَتْ من خيرٍ مُحْضراً وما عملتْ مِنْ سُوءٍ تَودُّ لو أنّ بينَها وبينهُ أمداً بَعْيداً ﴾ .

اللهُمّ احفظنَا بالاسلَامِ قائمينَ واحفظْنَا بالإسلامِ قَاعِدِينَ واحفظنَا بالإسلامِ رَاقدينَ ولا تُشمِتْ بنا الاعداءَ ولا الحاسِدينَ اللهمّ وعافِنا من محن الزّمانِ وعوارضِ الفِتنِ فإنَا ضعَفاء ، عن حَمْلها وإن كنّا مِن أهْلها فَعافيتُكَ أَوْسَعُ يا واسعُ يا عليمُ واغفر لَنا ولوالِدينَا ولجميعِ المُسلمينَ يا أرحمَ الرَّاحِمينَ وصلى الله على محمدٍ وعلى آلهِ وصحبهِ أجمعينَ .

« موعظــة »

أيُّهاَ المسْلمونَ لقد تَراكَمَتْ عليكُم الذَنوبُ وأنتمْ في غَيِّكمْ ولهوَكِمْ في دُنياكمْ مُشْتَغِلونَ أحاطَتْ بكم البَلايَا مِنْ كلّ جَانِبٍ ولَسْتمُ لإِصْلاحِ أنفسِكمْ تَجنحوُنَ ، كُلمّا أوضَحَ لكمْ الواعظُ طَريقَ الهدَايةِ تعامَيْتمُ فلاَ أنتُم بالكُرْوبِ مُعتَبِرونَ ولا مِن البَلايَا مُنْزجِرونَ أمَا سَمعْتمْ قولَ الِله جلّ وعَلاَ ﴿ سَنستدْرجُهمْ من حَيثُ لا يَعلمْونَ وأُمليْ لَهُمْ أنّ كَيدِيْ مَتينٌ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ ذَرْهمُ يَأكلوُا وَيتمَتعوا وَيُلْهِهمُ الأَملُ فسَوفَ يَعلمُونَ ﴾ .

وقال : ﴿ أيحْسبوُنَ انّما نَمدِهُم بهِ منِ مَالٍ وبَنينَ نُسارِعُ لَهمُ في الخيْراتِ بلْ لا يَشعروُن ﴾ وقوله ﴿ فَلِمّا نسَوُا ما ذُكّرُوا بِهِ فَتحْنَا عَليْهم أَبوابَ كلِّ شَيءٍ حَتّى اذَا فرحوُا بِمَا أُوتُوا أخَذْنَاهمْ بَغْتَةً فإذَا هُمْ مُبْلسِونَ ﴾ أيُّها المُسلمُ أنظرْ في نَفْسِكَ هَلْ تجِدُها عَامِلةً بمقْتضَى الدّينِ هل أتيْتَ بِالصّلاة على الوَجْهِ الأكْملِ واجْتَنبْتَ المعَاصِيَ المَنَافِيةَ لِلدّينِ هل أَدَّيتْ الزّكَاةَ كامِلةً مُكَمَّلةً بيَقِيْنٍ فَتّشْ هَلْ تَجِدُ فِيْها حياءً مِن اللهِ بيَقِيْنٍ هَلْ أَنتَ سالمٌ مِن الكذبِ والخِيانَةِ والاحْتيالِ هَلْ سَالمٌ مِنَ الرِّياءِ في أَقْوَالِكَ وأَعْمَالِكَ هَلْ أَنْتَ سَالِمٌ مِن الرِّبَا في مُعَامَلاَتِكَ هَلْ أنْتَ سَالمٌ مِن

المُدَاهَنَةِ والنِّفَاقِ هَلْ أَنْتَ سَالِمٌ مِن الغِيْبَةِ والنَّمِيْمَةِ والبَهْتِ واللَّعْنِ وسَيِءِ المَقالاتِ هَلْ أَنْتَ سَالِمٌ مِن الغِشِ في بَيْعِكَ وشِرَائِكَ وسَائِرِ تَصَرُّفَاتِكَ هَلْ أنتَ صَائِنٌ لِسَانَكَ عن مَا يَضُرُّكَ مِن الأقوال والأعمالَ هَلْ أَنْتَ سَالِمٌ مِن الكِبْرِ والإِعْجَابِ وقَطِيْعَةِ الرَّحمِ والعُقُوقِ هَلْ أَنْتَ سَالِمٌ مِن أَذِيَّةِ الجَارِ هَلْ قَلبُكَ لَيِّنٌ رَحُومَ تَرْحَمُ المِسْكِينَ وتُكْرِمُ اليَتِيْمَ هَلْ أَنتَ تَقْضِي حُقُوقَ الناسِ بدُوْنِ مِطالٍ ولِجَاجٍ هَلْ أَنْتَ تُحِبُّ في اللَّهِ وتُبْغِضُ في اللهِ هَلْ أنتَ سَالِمٌ مِن حَلْقِ اللِّحْيَةِ أَوْ صَبْغِهَا أوِ الدُخانِ هَلْ أَنْتَ سَالِمٌ مِن الخَنَافِسِ والتَّواليتِ ونحوِ ذَلِكَ مِن الأَخْلاقِ السَّافِلاتِ هَلْ بَيْتُكَ خَالٍ عن صُوَرِ ذَواتِ الأَرواحِ وهَلْ هُوَ خَالٍ مِن المِذياعِ والتِّلفِزْيُونِ والسِّيْنَماتِ وهَلْ أنتَ سَالِمٌ مِن بَيْعِ هَذِهِ المُحَرَّمَاتِ هَلْ قُمْتَ عَلَى أَوْلادِكَ لِلصَّلاةِ والتَّوجِيْهِ إلى الأعمالِ الصالحةِ والأَخلاقِ الحَمْيدةِ فَعَلَيْكَ أنْ تَتفقَدَ لِنفْسِكَ بِدِقَّةٍ كُلَّ يَومٍ وتُعَالِجْ مَا بِكَ مِن هذهِ الأَمْراضِ المُهْلِكَاتَ فَإِنَّهَا أَشَدُ ضَرَراً وفتكاً مِن أمراضِ البَدَنِ التي لا نَصْبِرُ عليها إنْ لم نَجِدْ لَهَا عِلاجاً ذَهَبْنَا إلى الخَارِجِ رَجَاءَ بُرْئِهَا والله أعلم .

(فصل)

قَالَ وَمُحَاسَبَةُ النَّفْسِ نَوْعَانِ أَمَّا الأَولُ فَيَقِفُ عندَ أَوَّلِ هِمَّتِهِ وَإِرَادَتِهِ ولا يُبَادِرُ بالعملِ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُ رُجْحَانُهُ على تركِهِ قال الحسنُ : رَحِمَ اللهُ عبداً وَقفَ عندَ هَمِّهِ فانْ كانَ لِلهِ مَضَى وَانْ كَانَ لِغَيرِهِ تأَخَّرَ ، النَّوعِ الثاني مُحَاسَبَةٌ بَعْدَ العَمَلِ وهو ثَلاثَةُ أنواعٍ : أحدُهَا مُحَاسَبَتُهَا على طَاعةٍ قَصَّرَتْ فِيهَا مِن حَقِّ اللهِ فلم تُوْقِعْهَا عَلَى الوَجْهِ الذي يَنْبَغِي .

وَحَقُّ اللهِ في الطاعاتِ بِمُرَاعاتِ سِتَّةِ أُمُورٍ وهيَ الاخلاصُ في

العمل والنصيحةُ للهِ فيه وَمُتَابَعَةُ الرسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلم فيه وشُهُودُهُ مَشْهَدَ الاحسانِ فيهِ وَشُهُوْدُ مِنّةِ اللهِ عليهِ فيه وَشُهُودُ تَقْصِيْرِهِ فيهِ بَعْدَ ذلكَ كُلِّهِ فَيُحَاسِبُ نَفْسَهُ هَلْ وَفّي هَذِهِ المَقَامَاتِ حَقَّهَا وَهَلْ أَتَى بِهَا في هَذِهِ الطَاعَاتِ ، الثاني أَنْ يُحَاسِبَ نَفْسَهُ على عملٍ كَان تَركَهُ خيراً له مِن فعله ، الثالث أَنْ يُحَاسِبَ نَفْسَهُ عَلَى أَمْرٍ مباحٍ أو مُعتادٍ لِمَ فَعَلَهُ وَهَلْ أَرَادَ بِهِ اللهَ والدَارَ الآخِرةَ فيكونُ رَابِحاً فيهِ أَوْ أَرَادَ بِهِ الدُنْيَا وَعَاجِلَتَهَا فَيَخْسَرُ ذَلِكَ الرِّبْحَ وَيَفُوتُهُ الظَفَرُ بِهِ قال : وَجِمَاعُ ذَلِكَ أن يُحَاسِبَ نَفْسَه أولاً على الفَرائِضِ فإذا تَذَكَّرَ فِيْهَا نَقْصاً تَدَارَكَهُ إما بِقَضَاءٍ أَوْ إصلاحٍ ثم يُحَاسِبُ عَلَى المَنَاهِيْ فانْ عَرَفَ أنه ارْتَكَبَ منها شيئاً تَدَارَكَهُ بالتوبةِ والاستغفارِ والحسناتِ الماحِيةِ ثُمَّ يُحَاسِبُ نفسَه على الغَفْلَةِ فإن كَانَ قَدْ غَفَلَ عَمَّا خُلِقَ لَهُ تَدَارَكَهُ بالذِكْرِ والاقبالِ على الله

ثم يُحَاسِبُهَا بما تَكَلَّمَ به لِسَانُهُ أَوْ مَشَتْ به رِجْلاَهُ أو بَطَشَتْهُ يَدَاهُ أَوْ سَمِعَتْهُ أُذُنَاهُ ماذَا أَرَدْتُ بهذَا ولِمَ فَعَلْتُ وعَلى أيْ وَجْهٍ فَعَلْتُهُ ، ويَعْلَمُ أَنّه لا بُدّ أنْ يُنْشَرَ لِكلِّ حَرَكةٍ وكَلِمَةٍ مِنْه دِيوانٌ لِمَ فَعَلْتَهُ وَكَيْفَ فَعَلْتَهُ فالأَوّلُ سُؤالٌ عَنْ الإِخْلاصِ .

والثَّاني سُؤالٌ عَنْ المُتَابَعَةِ : فَوَربِّك لَنَسْأَلَنَّهمْ أَجْمعِينَ عَمَّا كانوا يَعْمَلونَ وقَالَ : فَلَنَسْأَلَنَّ الّذِيْنَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ ولنسْألنَّ المُرْسَلينَ فَلنقُصَّنَّ عليهِم بِعِلْمٍ ومَا كُنّا غَائِبينَ وقَالَ : ﴿ لِيَسْأَلَ الصَّادِقينَ عن صِدْقِهِمْ ﴾ فَاذِا سُئِلَ الصَّادِقونَ وحُوسِبُوا عَلَى صِدْقِهِمْ فَمَا الظَّنُ بالكاذِبينَ وقالَ : قَتَادُة كَلِمَتَانِ يُسئلُ عَنْهمَا الأَوَّلونَ والآخِرونَ ماذا كُنتمُ تعبِدُونَ وماذا أجبْتُمُ المُرسَلينَ فَيُسألونَ عن المعْبُودِ وعنِ العِبادَةِ وقال تَعالىٰ : ثُمّ لَتُسألنَّ يومئِذٍ

عن النَّعيمْ .

قال مُحمّدُ بنُ جَريرٍ : يَقُولُ اللَّه تَعالىٰ : ﴿ لَيَسْأَلَنَّكُم اللَّهُ عزَّ وجلَّ عن النَّعيمِ الّذي كُنتمْ فيهِ في الدُّنيَا ماذا عَمِلتمُ فيهِ ومِنْ أيْنَ وصَلتُم إليهِ وفِيمَ أصَبْتُمُوهُ وَمَاذَا عملتم بِهِ وقَال قتادةُ : انَّ اللَّهَ سَائِلٌ كُلّ عَبدٍ عَمّا اسْتودَعهُ مِنْ نِعمَتهِ وَحَقّهِ، والنَّعيمُ المَسْؤُولُ عَنه نَوعانِ نوعٌ أُخذ مِنْ حِلِّهِ وصُرِفَ في حَقِّهِ فُيسَألُ عن شُكْرِهِ وَنَوْعٌ أُخَذَبِغيرِ حِلِّه وَصُرِف في غَيْرَ حَقّه فُيسأَلُ عن مُستَخرَجه وعن مَصرَفهِ وقد دلَّ على وُجوبِ المحَاسَبةِ قَولهُ تَعالىٰ : ﴿ يَا أَيُّها الّذينَ آمَنوا اتّقوا اللَّهَ ولْتنظُر نَفْسٌ ما قَدَّمتْ لِغدٍ الآية انتهى باختصار .

اللّهُم هَبْ لَنا ما وهَبتهُ لأوْلِيائِكَ وتَوفّنَا وأنتَ رَاضٍ عنّا وقَد قَبِلْتَ اليَسيرَ منّا واجْعلنَا يا مْولانا مِنْ عِبادِكَ الذينَ لا خَوفٌ عَليهِمْ ولا هِمُ يَحزنُونَ واغْفرْ لنَا ولوالِدِيْنَا ولجَميعِ المسلمينَ برحمتكَ يا أرحمَ الرَّاحِمِيْنَ وصلَّى اللهُ على محمّدٍ وعلى آلهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

(فَصْلٌ)

و في مُحاسَبةِ النّفس عِدَّةُ مَصالحٍ ، أوّلاً الإطّلاعُ عَلى عُيوبها ومَنْ لَمْ يطّلعْ على عَيبِ نَفْسِهِ لَمْ يُمْكنهُ إزَالتهُ ومِنْ ذلك أنّه لولا أنّ اللّهَ وفّقَ العَبدَ لمحاسبتِهَا لشقِيَ في القِيامَةِ ومِنْ ذَلكَ أنّ المُحَاسَبةَ للنْفسِ مِنْ الكَياسَةِ ومِنْ ذلكَ استِراحَةُ المحاسِبِ مِن التَّعَبِ الطَّوْيلِ يومَ القيَامةِ ومنْ ذلكَ أنّهُ لا يتَحسّرُ المحاسِبُ في القيامةِ كالذينَ لَمْ يُحاسِبُوا أنفسَهم ومِن ذلكَ تَمْرِينُ النّفسِ على العبادةِ .

ومِنْ ذلكَ أنّ المُحاسبة تُضْعفُ الأعمالَ السّيئةَ وتُوقّفُهَا ومِن ذلك أنّها تَحُضُّ الانسانَ على الأعمالِ الصَّالحةِ ومِن ذلك أنها تُخلِّصُ النّفسَ مِن العُجْب ورُؤْيَةِ العَملِ ومن ذلك أنَّ المُحاسبةَ تَفتحُ للإنسانِ بَابَ الذُّلِ والانكسَارِ والخُضُوعِ للّهِ ومِن ذلكَ أنّها تَدْعُو الانسانَ إلى أنْ يَنظُرَ في حَقِّ الله عليه .

ومِنْ ذَلك أنّها تُوجبُ للانسانِ أنْ يمقُتَ نفْسَهُ ويَعلَمَ أنَّ النَجْاةَ لا تَحْصُلُ إلاَّ بِعَفوِ اللهِ ورحْمَتِه .

وإذَا تَأملْتَ حَال أكْثَر النّاسِ وَجَدتَهمُ بضِدْ ذَلكَ يَنظُرونَ في حَقِّهم على اللّه ولا يَنظرُونَ في حَقِّ اللّهِ عَليْهم ومنْ هُنَا انقَطعوُا عن اللّهِ وحُجبَتْ قلوُبهُم عن معْرفِتهِ ومحَبّتِهِ والشّوقِ الى لِقائِه والتّنّعيمِ بذكْرهْ وهذا غَايةُ جَهْلِ الإنسانِ بربّهِ وبنفسه فُمُحَاسَبْةُ النّفسِ هِيَ نَظَرُ العَبْدِ في حقّ اللّه عَليهِ أوّلاً ثُمّ نَظَرُهُ هَلْ قامَ به كما يَنبغِي ثَانياً .

ويَنْبغي للإنسان أنّه إذَا حاسَبَ نَفْسه فرَآهَا قَدْ قَارفَتْ مَعْصيةً أنْ يتوبَ تَوبَةً نَصوُحاً ويُتْبعُ السّيئةَ بالحسناتِ التي تَمحوُهَا فقدْ ورَدَ عن النّبي صلَّى اللَّهُ عليه وسلم أنّهِ قَال : (وأَتْبعْ السّيئَةَ الحَسَنةَ تَمْحُها) وإنْ تَوانىٰ عن بَعْضِ الفَضَائِل أو فَاتَتهُ نِسْياناً فَيَنْبَغِي أَنْ يَسْتَدْرِكَ جَبْرَ ما نَقَصَ بالنوافِل فقد ورَدَ عن عُمَرَ بنِ الخَطّابِ رضَي الله عنه حِيْنَ فاتَتْهُ صَلاةَ العصْرِ في جَماعةٍ أنّه تَصَدّق بأرْض كانتَ لهُ قِيمتُهَا مِائتا أَلفِ دِرْهَمٍ .

ورَوىَ عنه أنّه شَغَلَهُ أمرٌ عن المغْرب حتّى طَلعَ نَجمَانِ فَلمّا صَلاّها أعْتقَ رَقبتينِ وفَاتَتْ ابنُ أبي رَبيْعةَ ركْعتَا الـفَجر فاعتَقَ رقَبةً ووَرَدَ أنَّ ابنَ عُمرَ كانَ اذا فاتَتهُ صَلاةٌ في جَماعةٍ أحيَا تِلكَ اللّيْلَةِ وكانَ بَعْضُهُمْ يَجعِلُ

على نَفسْهِ صَومُ سنَةٍ أوَ الحَجُّ ماشِياً أو التَّصدّقُ بالشِيءِ الكثيرِ كلُّ ذَلك مؤاخَذَةٌ لهَا بما فيهِ نَجاتُها .

موعظـة

رُوِيَ عن عَليّ بن أبي طَالب أنّه قَالَ : لا تَكُنْ مِمَّنْ يَرجوُ الآخرةَ بغيرِ عَمَلٍ ويَؤخرُ التّوبةَ لِطوُلِ الأَملِ ويقولُ في الدّنيا بِقوْلِ الزّاهدِينَ ويعَملُ فيها عَمَلَ الراغِبينَ إنْ أُعْطِيَ مِنَ الدّنيا لم يَشْبَعْ وإن مُنْعَ منهَا لمْ يَقْنَعْ ويَأْمرُ النّاسَ بمَا لا يَأتِيْهِ يُحِبُّ الصَّالِحِينَ ولا يَعملُ أعمَالهمُ ويُبغِضُ المُسيئِينَ وهوَ مِنْهمْ يَكرهُ الموْتَ لِكَثْرةِ ذُنوبه ويُقيْمُ علىَ ما يَكرهُ لَهُ المَوْتَ إنْ سَقِمُ ظَلَّ نَادماً وانْ صَحّ أمِنَ لاهِياً يَعجبُ مِن نْفسِه إذَا عُوفيَ ويَقنَطُ إذَا تَغلِبهُ نفْسُهُ على ما يَظُنُّ ولا يَغلِبُهَا على ما يَسْتقِينُ ولا يَثقُ مِن الرَّزقِ بما ضُمِنَ لهُ ولا يَعْملُ مِن العَمَلِ بمَا فُرِضَ عَلَيْهِ إنْ اسْتغنَى بَطِرَوانْ افتْقرِ قَنِطَ وحَزنَ فهو منَ الذّنبِ في حَال النِّعمة والمِحْنة مُوقرٌ ، يَطلبُ الزيادة ولا يشكرُ ويتكلّفُ مِن الناس مالا يُؤمرُ ويضيّعُ الموتَ ولا يُبادرُ الفَوْتَ يَستكبرُ مِن مَعصيةِ غيرِهِ ما يَسهُلُ أكثرُه مِن نفْسه . مَزاهرُ اللهّوِ مع الأغْنياءِ أحبُّ إليهِ مِن الذِّكرِ مع الفُقراءِ يَحكمُ على غيرِهِ لِنفسِهِ ولا يَحكمُ عليها لِغَيرِهِ .

شعراً :

تَجهَّزِي بجَهازٍ تَبلُغينَ بـه
يا نفسُ قَبلَ الرّدَى لم تُخْلقي عَبثَا
وسَابِقِي بَغْتَةَ الآجال وانْكمشِي
قَبْلَ اللّزامِ فلا مَلْجَا ولا غَوثَا

ولا تَكُـدِّي لِمَنْ يَبْقَى وتَـفتَـقـرِي
إنّ الـرّدَى وارِثُ البَـاقِي ومَـا وَرَثَـا
وأخْشَـيْ حَـوادِثَ صَـرْفِ الدّهرفي مَهَلٍ
واسْتَيَقِـظِي لا تكوُنِي كـالّذي بَحَثـا
عنْ مُـدْيَـةٍ كـانَ فيهَـا قَـطْعُ مُـدَّتِـهِ
فَـوافَتْ الحرْثَ محـرُوثاً كَمَـا حُرِثَـا
مَنْ كانَ حينَ تُصِيْبُ الشّمسُ جَبهتَهُ
أو الغُبـارُ يَخَـافُ الشَّيْنَ والشَّعَثَـا
ويَـأْلَفُ الـظِّلَّ كَيْ تَبْقَى بَشـاشَتُـهْ
فَسـوفَ يَسكُنُ يَـوْمـاً رَاغمـاً جَـدثَـا
في قَعْـرِ مُـوحِشَـةٍ غَبْـرَاءَ مُقْفِـرَةٍ
يُطِيلُ تَحْتَ الثـرا في جَوْفِهَـا اللَّبَثَا

اللهم أَمنُنْ علينَا باصْلاحِ عُيوبِنَا واجعلْ التقّوى زادَنا وفي دِيْنِكَ اجتهادَنا وعليك توكّلنا واعتَمادُنا واغفرْ لنا ولوالِدِيْنَا ولجميعِ المسلمينَ الاحياءِ منهم والميتينَ برحمتك يا أرحمَ الراحمينَ وصلى الله على محمدٍ وعلى آله وصحبهِ أجمعين .

الفصل الثالث عشر

في موعظة جليلة

قال بعضُ العلماءِ على قوله تعالى : ﴿ولاتَكونوا كالذين نَسوُا الله فأنساهُمْ أنفسَهم أولئكَ همُ الفاسقونَ﴾ .

كَشفتْ لنا هذه الآيةُ الشريفةُ عن سُنةٍ من سُنن الله تعالى : وهي أنّ مَن غَفلَ عن تَذكرُّ الله فَنَسِيَهُ والْهتهُ دُنياهُ عن العملِ للدّارِ الآخرةِ أنساهُ الله نفسَه التي بينَ جنبيهِ فلا يَسعىَ لما فيه نَفعُها ولا يأخِذُ في أسْبابِ سعادتِها وإصلاحِها وما يكمّلُها ولا السّعيُ في ازالةِ عِللها وأمراضِها التي تَؤولُ بها الى الفساد والدّمارِ والهلاكِ وهذا مِنْ أعظمِ العُقوُبةِ لِلْعامّةِ والخاصّةِ فأيُّ عُقُوبةٍ أعظمُ مِن عقُوبةِ مَن أهْملَ نفسَه وضيّعَها ونَسِيَ مَصَالِحَها ودَاءَها ودَوَاءَها وأسبابَ سَعادتِها وصَلاحِها وحَياتِها الأَبَدِيَّة في النَّعِيْمِ المقِيْم .

ومَن تأملَ هذا المَوضِعَ تَبيْنَ لَهُ أنّ أَكْثَر هَذَا الخَلْق قَدْ نَسُوا أنْفُسَهُمَ وضَيَّعُوْهَا وأَضَاعُوُا حَظَّها مِن اللهِ وباعُوها رَخيْصَةً بثَمَن بَخْس بَيعَ المغْبُوْنِ ويَظْهَرُ ذلكَ عندَ الموتِ ويَتَجلَّى ذلكَ يَومَ التغابُن يَومَ لا يَنْفَعُ نفساً إِيْمَانُها لمَ تَكُنْ آمنَتْ مِن قبلُ أو كَسَبَتْ في إيمَانِها خَيْراً ، إنهَا لِحَسَرْةٌ على كلّ ذي غَفلةٍ دُونَها كلّ حَسْرَةٍ هؤلاء هِمُ الذينَ اشتروا الضلالةَ بالهدى فما رَبِحتْ تجارتُهم وما كانوا مُهتدينَ .

وأما الرَّابِحُون فهمُ الذينَ أنارَ اللَّهُ قُلُوبَهم للْحَقِ فَعَرَفُوا الدُنْيا وقِيْمَتها وقالُوا مَا مِقْدَارُ هَذِهِ الدُّنيا من أوّلِهَا إلى آخِرِها حَتَّى نَبْيعَ حَظّنا مِن اللهِ تَعالى والدّارِ الآخرة بها فكيفَ بِمَا يَنال العَبْدَ منها في هذا الزّمن القَصِيْرِ الذَي هُوَ في الحَقِيْقَةِ كَغَفْوَةِ حُلْمٍ لا نِسْبة له إلى دَارِ القَرارِ البتّةَ .

فال الله تعالى ﴿ ويَومَ يحشرُهُم كأنْ لم يَلْبَثُوا الا سَاعةً مِن النَهارِ يتعارفُون بينهم ﴾ وقال ﴿ كأنّهم يَومَ يَرَوْنَها لَمْ يَلْبَثُوا إلّا عشيّةٍ أو ضُحاهَا ﴾ هَؤُلاءِ هُمُ الكَيِّسونَ الذين عَلموْا حقيقَةَ الدّنيا كما عَلِمُوا قِلّةَ

لُبثِهم فيها وأنّ لهم داراً غيرَ هذه الدارِ دَارِ الحَيوان وَدَارِ البقاءِ اتّجَرُوا تِجَارَة الأكْياسِ ولم يَغْتَرّوا بتجَارة السُّفهاءِ مِن الناس فَظَهَر لهم يومَ التّغابنِ رَبْح تِجَارَتِهم وَمِقْدَار ما اشْتَرُوْا قال الله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا هل أدُلكم على تجارةٍ تُنجيكمْ مِن عَذَابٍ أَلِيْم تُؤْمِنونَ باللهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدون في سبيل اللهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُم خَيْرٌ لَكُمْ إنْ كُنتُمْ تَعْلَمُون ﴾ .

وفي هذا المَعْنَى يَقُول عُمرُ : رضيَ الله عنه إنمَا الدنيا أَملٌ مُخْترمٌ أي مُنْتَقَض وبَلاغٌ الى دارٍ غيرها وسَيرٌ إلى المَوْتِ لَيْسَ فيه تَعْرِيْجٌ فَرحِمَ اللهُ امْرءاً أفكَرَ في أمرِهِ ونَصَحَ لِنَفْسِهِ وراقبَ رَبّه واستقالَ ذَنْبَه وتابَ إلى رَبِّه إلى أن قال إيّاكم والبِطْنةَ فانها مَكْسَلةٌ عن الصَّلاةِ ومَفْسَدَةٌ لِلْجِسْمِ ومُؤَدّيَةٌ لِلسُّقمِ وعَلِيكمُ بالقَصْدِ في قُوتِكمْ فهو أبعدُ عن السَّرفِ وأَصَحُّ لِلْبَدَنَ وأقْوى على العِبَادَةِ إنَّ العَبْدَ لَنْ يَهْلَكَ حَتَّى يُؤْثرَ شَهْوَتَهُ على دِيْنِهِ .

ومِن العَجَبِ العُجَاب أنَّ العَبْدَ يَسْعَى بِنَفْسِهِ في هَوانِ نفسِهِ وهو يَزعُمُ أنها لَها مُكْرِمٌ ويَجْتَهِدُ في حِرْمَانِهَا مِن حُظوظِها وشرفِها وهو يَزعمُ أنّه يَسْعَى في حِفظِهَا ويَبْذِلُ جُهدَهُ في تَحقيْرِهَا وتَصْغِيرِهَا وتَدْنِيْسِهَا وهو يَزعِمُ أنّه يَسْعَى في صَلاحِها وكان بَعْضُ السَّلفِ يَقول في خُطبَتِهِ ألاَ رُبَّ مُهِيْنٌ لِنَفْسِهِ وهو يَزْعمُ أنَّهُ مُكْرِمٌ لَهَا ومُذَلٌ لِنَفْسِهِ وهو يَزْعُمُ أنه مُراعٍ لحقِّها وكفىَ بالمَرءِ جَهْلاً أن يَكُونَ مَعَ عَدوهِ لِنَفْسِهِ يَبلغُ منها بِفِعلِهِ ما لا يَبْلغُهُ مِنها عَدوُّه .

مـا يَـبْـلُغُ الأَعْـدَاءُ مِـن جَـاهِـلٍ
مـا يَـبْـلُغُ الـجَـاهِـلُ مِن نَـفْـسِـهِ

فالعاقلُ هو الذي يعملُ مُجِداً لِآخِرَتِهِ ولا يُنسِيْهُ نَصْيبَه مِن الدنيا

حَظِّه مِن الآخِرة عَاملاً بقوله تعالى : ﴿ وابْتغِ فِيْمَا أَتاكَ الله الدارَ الآخرةَ ولا تَنْسَ نَصِيْبَكَ مِن الدُنيا ﴾ ولَو أنّه تَأَمَّلَ قَليلاً لَوجدَ أنّ لَذائِذَ الدُّنيا مُتولّدةٌ مِنْ آلامِهَا فَمثلاً لَذةُ الطّعامِ لا تَتحقّقُ إلا بألمِ الجوَع ولذةُ الشّرابِ لا بدَّ أنْ يَسبِقَها حُرقَةُ العَطش ولذّةِ النَوْم لا يَجَدُ الانْسانُ لها شَوقاً إلّا بَعْدَ أنَ يُضنِيهِ التّعبُ الشّديدُ وَهُنَاكَ نَوعٌ آخرُ مِنْ الحِكمةِ غَفلَ عنْهُ الكَثيرونَ مِنَ النّاسِ وهوَ أنّها بمثابةِ بَرَاطِيلَ تَحمْلُ الإنْسانَ على قَوامِه وبَقاءِ حَيَاتِهِ فَلذّةُ الطعّامِ تَدفعُه إلى ألاّ يُهمِلَ جسْمهُ مِن الغِذَاء ولوَلا ما جَعلَ اللّهِ مِن لَذّةِ النّكاح لا نقرضَ النّوعُ الإنْسانيُّ مِنَ الوُجُودِ ولما وَجدنَا دَابةً تَدُبُّ علَى وَجْه الأَرْضِ ولا طَائِراً يَطيرُ في السّماءِ وكذلكَ فَرْحَةُ الأُمِ بِطِفْلِهَا تُنْسِيْهَا آلامَ الحَمْلِ والوَحْم والوِلادةِ والتّعبِ والنَصَب والرَّضَاع والسّهرِ الطَويل في التّمريضَ ممَا يَقُضّ مَضْجعِهَا ويُنسيَها نَفسَها فَسُبحانَ الحكيمِ العلَيمِ الذّي خَلَق كلَّ شَيءٍ فقدّرهُ تقْديراً ، انتهى بتصرف يسير .

مــوعظــة

كتَب الحسنُ الى عُمر بنِ عبدِ العزيز في ذَمِّ الدُّنْيا كِتاباً طَويلاً قال فيه : أمّا بعدُ فإنّ الدُّنيا دَارُ ظَعَنٍ لَيْسَتْ بدارِ مُقَامٍ وانّما أُنزلَ اليهَا آدمُ عُقوبةً فاحْذرْهَا يا أَميرَ المؤمنين فانَّ الزّادَ منهَا تَركُها والغِنَى فيها فَقرُهَا تُذلّ من أَعزّها وَتُفقرُ منْ جمعها كالسُّمِ يأكلهُ مَن لا يَعْرفُهُ وَهُوَ حَتْفهُ فاحْذرْ هَذِهِ الدّارَ الغرّارةَ الخَتّالةَ الخدّاعةَ وكُن أَسَرَّ ما تَكونُ فِيْهَا أحذَرْ ما تكونُ لهَا ، سُرورُهَا مشُوبٌ بالحُزنِ وَصفوُها مشُوبٌ بالكَدِر فلوْ كان الخَالقُ لم يُخبْره عنْها خَبَرا وَلم يَضْرِبْ لَهَا مَثَلاً لَكُنْتُ قدْ أَيقظْتُ النّائمَ ونبّهتُ الغَافلَ فكيفَ وَقَــدْ جَاء مِن اللّهِ عزّ وجلّ عنها زاجرٌ وفيها واعِظٌ

فما لَها عندَ اللّه سبحانه قَدْرٌ ولا وَزْنٌ ، ما نَظَرَ إليها مُنذُ خَلقهَا وَلَقَدْ عُرِضَتْ على نبيّنا صلى الله عليه وسلم مَفاتِيحُها وَخَزائنُها لا يَنقصُ عند اللّه جَناحَ بَعُوضةٍ فأَبى أنْ يَقبَلَهَا وَكَرِهَ أن يُحبَّ ما أبغَضَهُ خَالقهُ أو يَرفَعَ ما وَضَعهُ مليكُه زَواها اللهُ عن الصّالحين اختياراً وَبَسَطَهَا لِأعْدَائِه اغْتِرَاراً أَفَيَظُنُّ المغْرورُ بها أنّه أُكْرِمَ بِهَا وَنَسِيَ ما صَنَعَ اللهُ بمحمدٍ صلّى اللهُ عليه وسلّمَ حينَ شدَّ على بَطْنِهِ الحَجَرَ ، واللّهِ ما أحدٌ مِن الناسِ بُسِطَ له في الدُّنيا فَلمْ يَخَفْ أن يكونَ مَكراً إلا كانَ قَدْ نقص عقْلُه وَعَجَزَ رأيهُ وما أَمْسَكَ عن عَبدٍ فلم يَظُنّهُ خيراً لهُ فيهَا إلاَّ نَقَصَ عقْلُهُ وَعَجزَ رأيهُ .

اللّهُمَّ الهمْنا ذكركَ وَشُكرِكَ وأرزقْنا الاستقامةَ طوعَ أمركَ وَتفضّلْ علينا بعافِيتكَ وجزيلِ عَفوِكَ واغفْر لنا ولوالدِينَا ولجميع المسلمينَ الأحياءِ منهم والميتينَ برحمتكَ يا أرحمَ الراحمين وصلى اللهُ على محمّدٍ وعلى آلِهِ وصحْبهِ أجْمعين .

مــوعظــة

وقال الشّيخُ الواسِطيُّ في بعض رَسائِلِهِ : اذا أرادَ اللّهُ بعبدٍ خيراً أقامَ في قلبِهِ شَاهِداً منْ ذكر الآخرة يُريدُ فَناءَ الدّنيا وَزَوَالَها وبقاءَ الآخرةِ ودوامها فَيزهّدهُ في الفَانِي وَيُرَغّبُهُ في الباقي فَيبدأُ في السّير والسُلوكِ في طريقِ الآخرة وأوّلُ السيرِ فيهَا تَصحيحُ التّوبةِ ، والتّوبةُ لا تتمُّ إلا بالمُحاسبةِ ورعَايةِ الجَوارح السّبعةِ ، العينُ والأُذنُ واللّسانُ والبَطْنُ والفَرْجُ واليَدُ والرِّجلُ وكفّها عن جميع المحَارم والمكَارِهِ والفضُول هذا أحدُ شَطْرَي الدّين وَيَبْقَى الشّطرُ الآخرُ وهو القيامُ بالأوامِرِ فَتَحْقِيْقُ الشّطرِ الأوّلِ وهو تَركُ المناهِي مِنْ قلبهِ وَقَالبِهِ .

أما القَالَب فلا يَعصِي اللّهَ بجَارحةٍ مِن جَوارحهِ ومتَى زلَّ أو أخْطأَ تابَ وأما القلبُ فَتَنقّي منه المُوبقاتُ المُهلِكاتُ مثلُ الرّياءِ والعجْب والكِبْر والحَسَد والبُغْضِ لِغَيرِ اللّهِ وَحُبِّ الدّنيا وردِّ الحقّ واستثقالِهِ والازْدِرَاءِ بالخَلْقِ وَمَقْتُهم وَغَيرُ ذلك مِن الكَبائِر القَلبيّةِ التي هِي في مُقَابَلَةِ الكَبائرِ القَالَبيَةِ مِن شُرْبِ الخَمْرِ والزّنَا والقَذْفِ وغيرِ ذلك فهذِهِ كَبَائِرٌ ظاهِرَةٌ وَتِلْكَ كَبَائرٌ بَاطِنةٌ . وكلاهما ضرر .

قال : فَمَنْ انْطَوى على شَيءٍ مِن الكبائرِ البَاطنيّة ولم يَتُبْ حَبِطَ عَمَلُه بدليل لا يدخل الجَنّةَ مَن كان في قلبهِ مثالُ ذرةٍ مِن كِبَر وجاء إنّ الحسدَ يأكلُ الحسناتِ كما تأكلُ النارُ الحطبَ وجاء بقول الله تعالى : ﴿ أنا أغْنىٰ الشُّرَكاءِ عن الشركِ مَنْ عمِلَ عملاً فأشركَ مَعِيَ فيه غَيري تَركْتُه وشركَه ﴾ وقال تعالى : ﴿ فَمن كانَ يرجو لقاءَ ربه فليعملْ عملاً صالحَاً ولا يشركْ بعبادةِ رَبِّـه أحداً ﴾ .

فمتَى تَنقَّى القلبُ مِن مثْلِ هذهِ الخبائثِ والرذَائِل طَهُرَ وَسَكَنتْ فيه الرّحمةُ في مكان البُغضِ والتواضُع في مَقَابلةِ الكِبْر والنّصيحةُ في مُقابلَةِ الغِشِّ والاخلاصُ في مقابلةِ الرِّياءِ ورؤ ية المنّةِ في مُقَابَلةِ العُجْب ورؤ يةُ النفس فعندَ ذلكَ تَزْكوا الأعمالُ وَتَصْعَدُ إلى اللهِ تعالى وَيَطْهُرُ القلبُ وَيَبْقَى مَحَلاً لِنَظَرِ الحَقِّ بِمَشيْئَةِ الله وَمَعُوْنَتِهِ فهذا أحَدُ شَطْرِيْ الدِين وهو رِعَايَةُ الجَوارحِ السّبعةِ عن المآثم والمحَارم وانما تَصْلُح وَتَطْهُرُ بِرِعَايَةِ القلبِ وَطَهَارَتِهِ مِن المُوبِقَاتِ والجَرائِمِ وَمَعْنَى المُوبقاتِ المهلكات أهـ .

وقال ابنُ القيم رحمه اللهُ : والقلوبُ ثلاثةٌ ، قَلبٌ خـالٍ مِن الإيمانِ وجَمِيْعِ الخَيرِ فذلِكَ قَلبٌ مُظلمٌ قد اسْتَراحَ الشيطانُ مِن إلقاءِ

الوَسَاوسَ إليه لأنه قد اتّخذهُ بيّتاً وَوطناًوَتحكّمفيهِ بما يُريْدُ وَتمكّنَ منه غايةَ التّمكُنِ ، القلبُ الثاني : قلبٌ قد استَنَارَ بِنُوْرِ الايمان وأُوقد فيه مِصبَاحُه لكن عليه ظُلْمَةُ الشَّهَواتِ وَعَوَاصِفُ الأَهْوِيَةِ فِلِلشَّيْطَانِ هُنَاكَ اقْبَالٌ وإِدْبارٌ وَمَجَالاتٌ وَمَطَالِعُ فالحَرْبُ دُوَلٌ وَسِجَال وَتَخْتَلِفُ أَحْوَالُ هذا الصِّنفِ بالْقِلَّةِ والكَثْرَةِ فَمِنْهُم مَنْ أوقاتُ غَلَبَتِهِ لِعَدُوّهِ أَكْثرُ وَمِنْهُم مَنْ أوقاتُ غَلَبَةِ عَدوّهِ أكْثرُ ومِنهم مَنْ هو تَارةً وَتَارة .

القلبُ الثّالثُ : قلبٌ محْشوٌ بالايمانِ قَـد اسْتَنَارَ بِنُـوْرِ الإِيمانِ وانْقَشَعَتْ عَنه حُجُبُ الشّهواتِ وأقْلَعَتْ عنه الظُّلُمَاتُ فَلِنُورِهِ في صَدْرِهِ إِشْرَاقٌ ولِذَلِكَ الإِشراقُ إيقَادٌ لَوْدَنَا منه الوَسْوَاسُ احْترقَ بِهِ فَهُوَ كالسّماءِ الّتي حُرسَتْ بالنّجوم فَلوْ دَنَا مِنْهَا الشّيطانُ يَتخطّاها رُجِمَ فَاحْترق .

وَلَيْستِ السّماءُ بأَعظَمَ حُرْمةٍ من المؤْمن وحِراسَةُ اللّه تعالى لَهُ أَتمُّ منْ حراسَةِ السّماء والسّماءُ مُتَعبّدُ الملائكةِ وَمُستَقَرُّ الوحي وفيها أَنوارُ الطّاعَاتِ وَقَلبُ المؤْمنِ مُستقر التّوحِيْدِ والمحبّةِ والمعْرِفةِ والإِيمَان وَفيهِ أَنْوارُها فهوَ حَقيقٌ أَنْ يُحرَسَ وَيُحفَظَ مِن كَيْدِ العدوِّ فَلا يَنالُ منهُ إِلا خَطْفةً تَحْصلُ له على غِرّةٍ وَغَفْلةٍ مِن العَبْدِ إِذْ هُو بَشَرٌ وأَحكَامُ البَشَريّةِ جَارِيَةٌ عَلَيْهِ مِن الغَفلةِ والسّهو والذّهُول وَغَلبةِ الطّبع انتهى .

اللهمّ اجْعلَنا مِن حِزْبِكَ المفْلِحينَ وَعِبادِكَ الصّالحينَ الذين أَهّلتهم لِخدمَتِكَ وَجَعلتهُم مِمَن قَبِلتَ أَعمَالَه يا ربَّ العَالمينَ وصلّى اللّه على مُحمّدٍ وآله وَصَحْبه أَجْمعين .

كتـاب الصــلاة

كتاب الصلاة :

الصّلاةُ لغةً الدّعاءُ قال الله تعالى : ﴿ وصَلّ عَليهِم أنّ صَلاتَك سَكَنٌ لهم ﴾ والصّلاةُ في الشّرعِ أقْوالٌ وأعْمالٌ مخْصُوصَةٌ مُفْتَتَحةٌ بالتّكبير مُخْتتمةٌ بالتّسليم وسُمّيتْ صَلاةً لاشْتِمالِها على الدّعاءِ وقِيلَ لأنها ثانيةُ الشّهادتينَ .

وقيل لما تَتَضَمّنُ من الدّعاءِ والخُشُوع والخَشْيَةِ ، وقيل لأنَّ المُصَلِّي يَتْبعُ مَن تَقَدَمَهُ ، والصّلاةُ عِمَادُ الدّين قَال في مَراصِد الصّلاة للقَسطلاني الحِكْمةُ في فَرْضِ الصّلاة وَتَخْصِيْصِهَا بالخَمْس ، أحَدُهَا أنّ الأنْفُسَ البَشَريّةَ المقْتَضيَةَ للشّهوةِ والغفلةِ والسّهو والنسّيانِ والشّره في العَمَلِ والفَتْرةِ عَنْه فاقْتضتْ الحِكْمةُ أن تُذكّر نِسيَانَها وَتُوقظَ غَفلَتَها وَتُقْمَعَ شَهْوتَها بقَطعِهَا عن عاداتِها وَمُناجَاتِها الذي كَفَلها بنعَمِهِ وغذّاها بجُوده وَكرمِهِ ولَعلْمِهِ بِضَعفِ قُواها لم يَجْعل هَذهِ العِبَادَةَ إلّا في أوْقَاتٍ يَكْثُرُ الفَرَاغُ فِيْهَا مِن اشْغَالِ العَادَاتِ وهذا هُوَ الحكمةُ في تَنْقِيْصِهَا مِن الخَمْسِينِ إلى الخمس .

والوجه الثاني : أن العبدَ في هذِه الدارِ يَعْمَلُ لِنَجَاتِهِ في الدارِ الأخْرَى وهِيَ مُشْتَمِلةٌ على أهْوَالٍ وَمَشَاقٍ وَمَتَاعِبَ وأمَامَ العبدِ دُوْنَهَا خَمْسُ عَقَبَاتٍ الأُوْلَى الدنيا وَشُرُوْرُهَا وآفَاتُهَاوَمَحْذُورَاتُها وَشَوَاغلُها وَعَلائِقُهَا القَاطِعَةُ عن مَزِيْدِ السَّعَادَةِ ، الثانيةُ الموتُ وما يُخْشَى مِن فِتْنَتِهِ وشِدَّةِ سَكَرَاتِهِ وما يُشَاهَدُ عندَهُ مِن الأُمُورِ العِظَامِ والآلامِ الجِسَامِ ، الثالثةُ القَبْرُ وَضيْقَتُهُ وَوَحْشَتُهُ وَسُؤَالُ مُنْكَرٍ وَنَكِيْرٍ وَذلك صَعْبٌ خَطِيْرٌ ،

الرابعةُ المَحْشِرُ وَهو لَهُ وَما فِيه مِن الخَوفِ الشَّدِيْدِ والْفَـزَعِ الأكِيْدِ ، الخامسةُ الحِسَابُ وما يُخْشَى فيه بَعْدَ العِتابِ مِن وُقُوعِ العقابِ فكان فِعْلُ الصَّلوَاتِ الخَمْسِ مُسَهِّلاً لِهَذِهِ العَقباتِ مُحَصِّلاً لِنَيْلِ المَسَرَّاتِ في دَارِ الكَرَامَاتِ وهِيَ أَجلُ مَبَانِيْ الاسْلامِ بَعْدَ الشَّهَادتَيْنِ وَمَحَلُّهَا مِن الدِيْنِ مَحَلُ الرأسِ مِن الجَسَدِ فَكَمَا أَنَّهُ لا حَيَاةَ لِمنْ لا رَأْسَ لَهُ فَكَذَلِكَ لا دِيْنَ لِمنْ لا صَلاةَ لَهُ .

وَهِيَ خَاتِمَةُ وَصِيَّةِ رَسُوْلِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عِنْدَ آخِرِ عَهْدِهِ مِن الدُنيا فَعَن أنسٍ رضيَ اللهُ عنه قال : كانَتْ عَامَّةُ وَصِيَّةِ رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلمَ حِيْنَ حَضَرَتْهُ الوَفَاةُ وَهُوَ يُغَرْغِرُ بِنَفْسِهِ ﴿ الصلاةَ وما مَلَكَتْ أيمانُكُم ﴾ رواه أحمد وأبو داود .

وهيَ أوَّلُ مَا يُحَاسَبُ بِهِ العَبْدُ يَوْمَ القِيَامَةِ كَمَا وَرَدَ بِذَلِكَ الحديثُ عن أبي هريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه قال : سَمعتُ رَسُولَ الله صلى اللهُ عليه وسلم يَقولُ : « إنَّ أَوَّلَ ما يُحاسِبُ بِهِ العَبْدُ يومَ القِيَامَةِ مِن عَمَلِهِ صَلاتَهُ فإن صَلَحَتْ فَقَد أَفْلَحَ وأَنْجَحَ وان فَسَدَتْ فَقَدْ خَابَ وخَسِرَ » الحديث أخرجه الترمذي .

وهِيَ أكْبَرُ عَوْنٍ لِلْعَبْدِ على مَصَالِحِ دِيْنِهِ وَدُنْيَـاهُ قال تعـالى : ﴿ واسْتَعِينُوا بالصبرِ والصلاةِ وإنها لَكَبِيْرةٌ إلا عَلى الخَاشِعِيْنَ ﴾ وقال : ﴿ يا أيُّها الذينَ آمَنوا اسْتَعِينوا بالصبرِ والصلاةِ إنَ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ فَبِمُدَاوَمَةِ العَبْدِ عَلى الصَّلاةِ تَقْوَى رَغْبَتُهُ في الخَيْرِ وَتَسهُلُ عليهِ الطاعاتُ وَتَهُونُ عَليهِ المشَاقُ وتَسْهُلُ عليهِ المصائِبُ وَيُيَسِرُ اللهُ لَهُ أُمُوْرَهُ وَيُبَارِكُ لَهُ في مَالِهِ وأَعْمَالِهِ وَتَنْهَاهُ عن الفَحْشَاءِ والمُنْكَرِ كَمَا قال تَعَالَى : ﴿ ان

الصَّلاةَ تَنْهىَ عن الفَحشَاءِ والمُنْكَرِ ﴾ الآية وفي الصحيح المتفق عليهِ مِن رواية أبي هريرة رضيَ اللهُ عنه قال سمعتُ رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم يَقولُ : « أَرَأَيْتُم لَوْ أَنَّ نَهْراً بِبَابِ أَحَدِكُمْ يَغْتَسِلُ فيهِ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ هَلْ يَبْقَى مِن دَرَنِهِ شَيءٌ قالُوا لا يَبْقَى مِن دَرَنِهِ شيءٌ قال فذلكَ مَثَلُ الصَّلواتِ الخَمْسِ يَمْحُوْ اللهُ بِهِنَّ الخطايا » وَوَرَدَ مِن حَديثِ ثوبانَ رضيَ اللهُ عنه قالَ : قَال رسولُ اللهِ صلى اللهُ علية وسلم : « اسْتَقِيْمُوا ولَنْ تُحْصُوْا واعْلَمُوا أنَّ خَيْرَ أعْمَالِكُم الصَّلاةُ » ولا يُحَافِظُ على الوضوءِ إلَّا مُؤْمِنُ ، وعن عثمانَ بن عَفَّان رَضِيَ اللهُ عنه قال : سَمِعْتُ رَسولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم يَقُولُ : « مَا من أمْرءٍ مُسْلِمٍ تَحْضُرُهُ صَلاَةَ مَكْتُوبَةٌ فيُحْسِنُ وُضُوءَهَا وخُشُوْعَهَا ورُكُوْعَهَا إلا كانَتْ كَفَارَةً لِما قَبْلَهَا مِنَ الذُنوبِ مَا لَم تَؤْتَ كَبِيْرَةٌ وذلكَ الدّهْرَ كُلَّهُ »

وفي البخاري ومسلم عن ابن مَسْعُودٍ رضيَ اللهُ عنه قال : سَأَلْتُ رَسُوْلَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم أيُّ العَمَلِ أَحَبُ إلى اللهِ تعالى ؟ فقال : الصلاةُ على وَقْتِهَا قُلْتُ ثُمَّ أيٌّ ؟ قال : بِرُ الوَالِدَيْنِ قُلْتُ ثُمَّ أيٌّ ؟ قال الجهادُ في سبيلِ الله ، قال : حَدَثِنِيْ بِهِنَّ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ ولو اَسْتَزَدْتُهُ لَزَادَنِي وأخْرَجَ الامامُ أحمدُ عن رجلٍ من أَصْحَابِ رَسُوْلِ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلم قال : سُئِلَ رَسُولُ اللهِ صَلَى اللهُ عليه وسلم أيُّ العَمَل أفْضَلُ ؟ قال : سَمِعْتُهُ قال أَفْضَلَ العَمَلِ الصلاةُ لِوَقْتِهَا وبِرُ الوَالِدَيْن والجهَاد) ورواته محتج بهم في الصحيح .

اللهم جَنِبْنَا البِدَعَ والمُنْكَراتِ واغفر لَنَا جميعَ الزَّلاتِ وَوَفِّقْنَا لِلأعْمَالِ الصالحاتِ واَسكِنّا فَسِيْحَ الجناتِ وجميعَ المسلمين الأحياءِ

مِنهم والأَمْوَاتِ برحمتكَ يا أرحم الراحيمن وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه أَجْمَعِيْنَ .

(فصـــل)

قال ابنُ القَيمِ رَحِمَهُ اللهُ : إذَا وَقَفَ في الصَّلاةِ صَاحِبُ القَلْبِ العَامِرِ بِمَحَبَّةِ اللهِ وَخَشْيَتِهِ والرَّغْبَةِ فِيه واجْلاَلِهِ وَتَعْظِيْمِهِ وَقَفَ بِقَلْبٍ مُخْبِتٍ خَاشِعٍ لَه قَرِيْب مِنهُ سَلِيْمٍ مِن مُعَارَضَاتِ السُوءِ قَدْ امتلأَتْ أَرْجَاؤهُ بالهَيْبَةِ وَسَطَعَ فَيهِ نُورُ الإيمانِ وَكُشِفَ عَنهُ حِجَابُ النَّفْسِ وَدُخَانُ الشَّهواتِ فَيَرْتَعُ في رِياضِ مَعَانِي القُرآنِ وخَالَطَ قَلْبُهُ بَشَاشَةُ الإيمانِ بِحَقَائِقِ الأسماءِ والصِّفاتِ وَعُلُوِهَا وَجَلاَلِهَا الأَعْظَمِ وَتَفَرَدِ الربِ سُبحَانَهُ بنُعُوتِ جَلالِهِ وصفاتِ كَمَالِهِ .

فاجْتَمَعَ هَمُّهُ على اللهِ وَقِرَّتْ عَيْنُهُ بِهِ وأَحَسَّ بقُرْبِهِ مِن اللهِ قُرْباً لاَ نَظِيْرَ لَهُ فَفَرَّغَ قَلْبُهُ لَهُ وأَقْبَلَ عَليهِ بِكُلِيّتِهِ وَهَذا الاقبالُ مِنه بَيْنَ اقْبَالَيْنِ مِن رَبِّهِ فانه سبحانَهُ أقبلَ عليهِ أَوَّلاً فانْجَذَبَ قَلْبُهُ باقْبَالِهِ فلمّا أَقْبَلَ على رَبِّهِ حُظِيَ مِنْهُ إقْبَالاً آخَرَ أَتَمَّ مِن الأَوَّلِ .

وهَا هُنَا عَجِيْبَةٌ مِن عَجَائِبِ الأسماءِ والصفاتِ تَحْصُلُ لِمَنْ تَفَقَّهَ قَلْبُه في مَعَانِي القُرآنِ وَخَالَطَ بَشَاشَةَ الايمانِ بها قَلْبُهُ بحَيْثُ يَرَ لِكَمْ اسْمٍ وصفةٍ مَوْضِعاً مِن صَلاتِهِ وَمَحَلاً مِنها فاذَا انْتَصَبَ قائماً بَيْنَ يَدَيْ الربِ تَبَارَكَ وتعالَى شاهَدَ بِقَلْبِهِ قَيُوْمِيَّتَهُ واذا قال الله أَكْبَرُ شاهَدَ كِبْرِياءَهُ .

واذا قال : سبحانَكَ اللَّهُم وبِحَمْدِكَ وَتَبَارَكَ اسْمُكَ وتَعَالَى جَدُّكَ ولا إلهَ غَيْرَكَ شَاهد بِقَلْبِهِ رَباً مُنَزَّهاً عَن كُلِّ عَيْبٍ سَالِماً مِن كُلِّ نَقْصٍ

مَحْمُوْداً بِكُلِ حَمْدٍ فَحَمْدُهُ يَتَضَمَّنُ وَصْفَهُ بِكلِ كَمَالٍ وَذلك يَسْتَلزِمُ بَرَاءَتَهُ مِن كُلِّ نَقْصٍ تَبَارَكَ اسْمُهُ فلا يُذكْرُ على قَلِيْلٍ إلا كَثَّرَهُ ولا عَلى خَيْرٍ إلا أنْمَاهُ وَبارَكَ فيهِ ولا على آفةٍ إلا أذْهَبَهَا ولا على الشيطانِ إلَّا طَرَدَهُ خاسِئاً دَاحِراً وكمالُ الإسمِ مِن كَمَال مُسَمَّاهُ فاذا كانَ هذا شأنُ اسْمِهِ الذي لا يَضُرُّ مَعَهُ شيءٌ في الأَرضِ ولا في السماءِ فَشَأْنُ المُسَمَّي أعْلاَ وأجَلُ وتعالى جَدُّهُ أيْ ارْتَفَعَتْ عَظَمَتُه وَجَلَّتْ فَوقَ كُلِّ عَظَمَةٍ وَعَلا شأنُهُ على كُل شأنٍ وَقَهَرَ سُلْطَانُه على كُلِّ سُلْطَانٍ فَتَعَالَى جَدُّهُ أنْ يَكُونَ مَعَهُ شَرِيْكٌ في مُلْكِهِ وَرُبُوْبِيَّتِهِ أو في الهَيَّتِهِ أو في صِفَاتِهِ كَمَا قَالَ مؤمِنُوا الجِن وأَنَّهُ تعالى جدر بنا ما اتخذَ صَاحِبَةً ولا ولداً فكَمْ في هَذِهِ الكلماتِ مِن تَجلّ لِحَقَائِقِ الأَسْمَاءِ والصِّفَاتِ على قَلْبِ العارِفِ بِها غَيْرِ المُعَطِّلِ لِحَقَائِقِها وإذَا قَالَ أعُوْذُ باللهِ مِن الشيطانِ الرجيمِ فقد آوَى إلَى رُكْنِهِ الشَّدِيْدِ واعتصَمَ بحَوْلِهِ وَقُوَّتِهِ من عَدُوّه الذي يُرِيْدُ أن يَقْطَعَهُ عن رَبِهِ وَيُبَاعِدَهُ عن قرْبِهِ لِيَكُونَ أسْوَأَ حَالاً .

فإذَا قَالَ الحَمْدُ لِلهِ رَبِّ العالَمِينَ وَقَفَ هُنَيْهَةً يَسِيْرَةً يَنْتَظِرُ جَوَابَ رَبِهِ لَهُ بِقولِهِ حَمِدَنِي عَبْدِي فاذا قال الرَّحْمٰنِ الرحِيْمِ انتظرَ الجَوابَ بِقولِهِ : اثْنَى عَليَّ عَبْدِيْ فاذا قال : ﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدين ﴾ انتظرَ جَوَابَهُ بقولِهِ مَجَّدَنِيْ عَبْدِي .

فَيَا لَذَّةَ قَلْبِهِ وَقُرَّةَ عَيْنِهِ وَسُرُوْرِ نَفْسِهِ بِقول رَبِّهِ : عَبْدِيْ ثلاثَ مَرَّاتٍ فَوَاللهِ لَولاَ مَا عَلَى القُلُوبِ مِنْ دُخَانِ الشَّهَواتِ وغَيْمِ النُفُوسِ لاسْتُطِيْرتْ فَرَحاً وَسُرُوْراً بقول رَبِها وَفَاطِرِهَا وَمَعْبُودِهَا حَمِدَنِي عَبْدِيْ وأثْنَى عَليَّ عَبْدِيْ وَمَجَّدَنِي عَبْدِيْ ثُمَّ يَكُونُ لِقَلْبِهِ مَجَالٌ مِن شُهُودِ هَذِهِ الأسماءِ الثلاثةِ

التي هِيَ أُصُوْلُ الأَسْماءِ الحُسْنَى وهي اللهُ والربُّ والرحمنُ فَشاهَدَ قَلْبُهُ من ذِكْرِ اسْمِ اللَّهِ تَبارَكَ وَتَعالَى إلـهاً مَعْبُوْداً مَوْجُوداً مَخْوْفاً لَا يَسْتَحِقُّ العِبادَةَ غَيْرُهُ وَلَا تَنْبَغِيْ إلاَ لَهُ قَدْ عَنَتْ له الوُجُوْهُ وَخَضَعَتْ لَهُ المَوْجُودَاتُ وَخَشَعَتْ لَهُ الأَصْوَاتِ تُسَبِحُ لَهُ السمواتُ السبعُ والأَرضُ وَمَنْ فِيْهِنَّ وأنَّ مَن شَيءٍ إلا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴿ ولَهُ مَن في السمواتِ والأَرضِ كلٌ له قانِتُونَ ﴾ .

وكذالكَ خَلْقُ السَّمواتِ والأَرضَ وَمَا بَيْنَهُمَا وَخَلقَ الجِنَّ والانسَ والطيرَ والوحشَ والجنةَ والنارَ وكذلك أرسلَ وأَنْزَلَ الكتبَ وشَرَعَ الشرائعَ والْزَمَ العِبَادَ الأمرَ والنَّهْيَ .

• وَشَاهَدَ مِن ذِكْرِ اسْمِهِ رَبَّ العالمين قَيُوْماً قَامَ بِنَفْسِهِ وقَامَ بِهِ كُلُ شَيءٍ فَهُوَ قائِمٌ عَلى كُلِ نَفْسٍ بِخَيْرِهَا وَشَرِّهَا قَدْ اسْتَوَى على عَرْشِهِ وَتَفَرَدَ بِتَدْبِيْرِ مُلْكِهِ فالتدْبِيْرُ كُلُّهُ بِيَدِهِ مَصيْرُ الأُمُوْرِ كُلِّهَا إليهِ فَمَراسِـيْمُ التَدْبِيرَاتِ نَازِلَةٌ مِن عِنْدِهِ عَلىَ أَيْدِيْ مَلاَئِكتِهِ بالعَطَاءِ والمَنْعِ والخفْضِ والرَّفْعِ والإِحْيَاءِ والامَانَةِ والتَّوْبَةِ والعَزْلِ والقَبْضِ والبَسْطِ وكَشْفِ الكُرُوْب وإغاثَةِ المُلْهُوْفِ واجابةِ المُضْطَرِّيْنَ ﴿ يسألهُ مَن في السمواتِ والأرضِ كُلَّ يومٍ هو في شأن ﴾ لا مَانِعَ لِمَا أَعْطِى ولا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعَ ولا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ ولا رَادَّ لِأَمْرِهِ ولا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ تَعْرُجُ الملائِكةُ والرُوْحُ إلَيْهِ وَتُعْرَضُ الأَعْمَالِ أَوَّلَ النهارِ وآخِرَهُ عليهِ فَيُقَدِّرُ المقادِيْرِ وَيُوَقِّتُ المَوَاقِيْتَ ثُمَّ يَسُوقُ المقادِيْرَ إلى مَوَاقِيْتِهَا قَائِماً بِتَدْبِيْرِ ذَلِكَ كُلِّهِ وَحِفْظِهِ وَمَصالِحِهِ .

ثم يَشْهَدُ عندَ ذِكْرِ اسْمِهِ الرَّحْمنِ جَلَّ جَلاَلُهُ رباً مُحْسِناً إِلَى خَلْقِهِ بأَنواعِ الاحْسَانِ مُتَحَبِّباً إليهم بصُنُوفِ النِّعَمِ وَسَعَ كُلَّ شَيءٍ رَحْمَةً وعِلْماً

وأَوْسَعَ كُلَّ مَخْلُوقٍ نِعْمَةً وَفَضْلاً فَوَسِعَتْ رَحْمَتُهُ كُلَّ شَيءٍ وَوَسِعَتْ نِعْمَتُهُ كُلَّ حَيٍ فَبَلَغَتْ رَحْمَتُهُ حَيْثُ بَلَغَ عِلْمُهُ فاسْتَوَى على عَرْشِهِ بِرَحْمَتِهِ وَخَلَقَ خَلْقَهُ بِرَحْمَتِهِ وأَنْزَلَ كُتُبَهُ بِرَحْمَتِهِ وأَرْسَلَ رُسُلَهُ بِرَحْمَتِهِ وَشَرَعَ شَرَائِعَهُ بِرَحْمَتِهِ وَخَلَقَ الجَنَّةَ بِرَحْمَتِهِ والنارَ أيضاً بِرَحْمَتِهِ فإنها سَوْطُهُ الذي يَسُوْقُ بِهِ عِبَادَهُ المؤمنينَ إلى جَنَّتِهِ وَيُطَهِّرُ بِهَا أَدْرَانَ المُوَحِّدِينَ مِنْ أهلِ مَعْصِيَتِهِ وَسِجْنُهُ الذي يَسْجِنُ فيهِ أَعدَاءَهُ مِن خَلِيْقَتِهِ .

فَتَأَمَّلْ مَا في أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ وَوَصَايَاهُ وَمَوَاعِظِهِ مِن الرَّحْمَةِ البَالِغَةِ والنِّعْمَةِ السَّابِغَةِ وَمَا في حَشْوِهَا مِن الرَحمةِ والنِّعْمَةِ فالرَّحْمَةُ هِيَ السَّبَبُ المُتَصِلُ مِنه بِعِبَادِهِ كَمَا أَنَّ العُبُوْدِيَّةَ هِيَ السَّبَبُ المُتَصِلُ مِنهم بِهِ فَمِنْهُم إليهِ العُبُوبِيَّةُ وَمِنْهُ إليهِم الرحمة .

ومِن أَخَصِّ مَشَاهَدِ الاسْمِ شُهُودُ المُصَلِيْ نَصِيْبُهُ مِن الرحمةِ الذي أقامَهُ بِهَا بَيْنَ يَدَيْ رَبِهِ وَأَهَّلَهُ لِعُبُودِيَتِهِ وَمُناجَاتِهِ وَأَعْطَاهُ وَمَنَعَ غَيْرَهُ وَذَلِكَ مِن رَحْمَتِهِ بِهِ .

فاذا قال ﴿ مَالِكِ يَومِ الدِين ﴾ فَهُنَا شَهِدَ المَجْدَ الذي لا يَلِيْقُ بِسوَى المَلكِ الحَقِ المبين فَشَهِدَ مَلِكاً قَاهراً قَدْ دَانَتْ له الخَلِيْقَةُ وَعَنَتْ لَهُ الوُجُوْهُ وَذَلَّتْ لِعَظَمَتِهِ الجَبَابِرَةُ وَخَضَع لِعِزَّتِهِ كُلُّ عَزِيْزٍ فَيَشْهَدُ بِقَلْبِهِ مَلِكاً عَلى عَرْشِ السَّمَاءِ مُهَيْمِناً لِعِزَّتِهِ تَعْنُوْ الوُجُوهُ وَتَسْجُدُ وإذا لَمْ تُعَطِّلْ صِفَةً حَقِيْقَيَةً صِفَةَ المُلْكِ أَطْلَعَتْهُ على شُهُودِ حَقَائِقِ الأَسْمَاءِ والصِّفَاتِ التي تَعْطِيْلُهَا تَعْطِيْلٌ لِمُلْكِهِ وَجَحْدٌ لَهُ فَإِنَّ المَلِكَ الحَقَّ التَّامَّ الحَقَّ لا يَكونُ إلا حَياً قَيُوْماً سَمِيْعاً بَصِيْراً مُدَبِّراً قَادِراً مُتَكَلِّماً آمِراً نَاهِيَاً مُسْتَوِياً على سَرِيْرِ مَمْلَكَتِهِ يُرْسِلُ إلى أقاصِيْ مَمْلَكَتِهِ بأوامِرِهِ فَيَرْضَى على مَنْ يَسْتَحِقَ الرِّضَا

وَيُثِيْبُهُ وَيُكْرِمُهُ وَيُدْنِيْهِ وَيَغْضَبُ على مَنْ يَسْتَحِقُ الغَضَبَ وَيُعَاقِبُهُ وَيُهِيْنُهُ وَيُقْصِيْهِ وَيَقْصِيْ مَن يَشَاءُ ، لَهُ دَارُ عَذابٍ وَهِيَ النارُ وَلَهُ دَارُ سَعَادَةٍ وَهِيَ الجَنَّةُ . فَيُعَذِبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ وَيُعْطِيْ مَن يَشَاءُ وَيُقَرِّبُ مَن يَشَاء .

فَمَنْ أَبْطَلَ شَيْئاً مِن ذَلكَ أَوْ جَحَدَهُ وأَنْكَرَ حَقِيْقَتَهُ فَقَدْ قَدَحَ في مُلْكِهِ سُبْحَانَهُ وتعالى وَنَفى عَنْهُ كَمَا لَهُ وَتَمامَهُ .

وكذلكَ مَنْ أَنْكَرَ عُمُومَ قَضائِه وَقَدَرِهِ فَقَدْ أَنْكَرَ عُمُوْمَ مُلْكِهِ وَكَمَالِهِ فَيَشْهَدُ المُصَلِيْ مَجْدَ الربِ تَعَالَى في قَولِهِ ﴿ مَالِكِ يَومِ الدِين ﴾ فاذا قال : ﴿ اِيَّاكَ نَعْبُدُ واِيَّاكَ نَسْتَعِيْن ﴾ فَفِيْهَا سِرُّ الخَلْقِ والأَمْرِ والدُنْيَا والآخِرَةِ وهِيَ مُتَضَمِّنَةٌ لِأَجَلِّ الغَايَاتِ وأفضلِ الوَسَائِلِ .

فأَجَلُّ الغَايَاتِ عُبُودِيَتُهُ وأَفْضَلُ الوَسَائِلِ إِعَانَتُهُ فلا مَعْبُودَ يَسْتَحِقُ العِبَادَةَ إلا هُوَ ولا مُعِيْنَ على عِبَادَتِهِ غَيرُهُ فَعِبَادَتُهُ أَعْلَى الغَايَاتِ واعانَتُهُ أَجَلُّ الوَسَائِلِ وَقَدْ أَنْزَلَ سُبْحَانَهُ وتعالى مائةَ كِتَابٍ وأَرْبَعَةَ كُتُبٍ جَمَعَ مَعَانِيْهَا في أَرْبَعَةٍ وهِيَ التَّوْرَاةُ والانجيلُ والقرآنُ والزَّبُورُ وجَمَعَ مَعَانِيْهَا في القُرآنِ وَجَمَعَ معانيْهِ في المُفَصَّلِ وَجَمَعَ مَعَانِيْهِ في الفاتحةِ وجَمَعَ مَعَانِيْهَا في إِيَّاكَ نَعْبُدُ واِيَّاكَ نَسْتَعِيْن .

وقد اشْتَمَلَتْ هذِهِ الكلمةُ على نَوْعَيْ التَّوْحِيد وَهُمَا تَوْحِيْدُ الرُبُوبِيَّةِ وَتَوْحِيْدُ الأُلُوهِيَّةِ وَتَضَمَّنَتْ التّعَبُدَ باسْمِ الربِ واسمِ اللهِ فَهوَ يُعْبَدُ بالأُلُوهِيَّةِ وَيُسْتَعَانُ بِرُبُوْبِيَتِهِ وَيَهْدِي إِلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيْمٍ بِرَحْمَتِهِ فكانَ أَوَّلُ السُوْرَةِ ذِكْرُ اسْمِ اللهِ والربِ والرحمنِ تَطَابَقا لِأَجْلِ المَطالِبِ مِن عِبَادَتِهِ

واعانَتِهِ وهِدَايَتِهِ وهو المُنْفرِدُ باعْطَاءِ ذَلِكَ كلِهِ لا يُعِيْنُ على عِبَادَتِهِ سِوَاهُ وَلَا يَهْدِيْ سِوَاهُ ثُمَّ يَشْهَدُ الدَّاعِيْ بِقَولِهِ اهْدِنَا الصِّرَاطَ المُسْتَقِيم شِدّةَ فَاقتِهِ وَضَرُوْرَتِهِ إلى هَذِهِ المسألةِ التي لَيْسَ هو إلى شـــيءٍ أَشَدَّ فاقةً وَحَاجَةً مِنه إليهَا البَتَةَ فانَّه مُحْتَاجٌ إليه في كُلِ نَفسٍ وَطَرفَةِ عَيْنٍ وَهَذا المَطْلُوبُ مِن الدُعَاءِ لا يَتِمُ إلا بالهِدايَةِ إلى الطَّرِيْقِ المُوْصِلُ إلَيْهِ سُبْحانَهُ والهِدَايَةِ فيهِ أيْ هِدَايَةِ التَفْصِيْلِ وَخَلْقِ القُدْرَةِ على الفِعْلِ وارَادَتِهِ وَتَكوِيْنِهِ وَتَوفِيْقِهِ لِايْقَاعِهِ عَلى الوَجْهِ المَرْضِي المَحْبُوْبِ لِلرَّبِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالى وَحِفْظِهِ عليهِ مِن مُفْسِدَاتِهِ حَالَ فِعْلِهِ وَبَعْدَ فِعْلِهِ .

وَلَمَّا كَانَ العَبْدُ مُفْتَقِراً في كُلّ حَالٍ إلى هَذِهِ الهِدَايَةِ في جَمِيْعِ ما يأتِيْهِ وَيَذَرُهُ مِن أُمُورٍ قَدْ أَتَاهَا عَلى غَيرِ الهِدَايَةِ فهو يَحْتَاجُ إلى التَّوبَةِ منها .

وأُمورٍ هُدى إلى أَصْلِهَا دُوْنَ تَفْصِيْلِهَا أَوْ هُدِيَ إليهَا مِن وَجْهِ دُوْنَ وَجْهٍ فَهُوَ يَحْتَاجُ إلى تَمَامِ الهِدَايَةِ فِيْهَا لِيَزْدَادَ هُدَى .

وأُمُورٍ يَحْتَاجُ إلى أنْ يَحْصُلَ لَهُ مِن الهِدَايَةِ فِيهَا بالمُسْتَقْبَلِ مِثلَ مَا حَصَلَ لَهُ في الماضِيْ .

وأُمُوْرٍ هُوَ خَالٍ عَن اعْتِقَادٍ فِيهَا فَهُوَ يَحْتَاجُ إلى الهِدَايَةِ فِيْهَا .

وأُمُورٍ لم يَفْعَلْهَا فَهُوَ يَحْتَاجُ إلى فِعْلِهَا على وَجْهِ الهِدَايَةِ .

وأُمُورٍ قَدْ هُدِيْ إلى الإعْتِقَادِ الحَقِّ والعَمَلِ والصوابِ فِيها فهو مُحْتَاجُ إلى الثَّبَاتِ عَلَيْهَا إلى غَيْرِ ذَلكَ مِن أنواعِ الهِدايَةِ .

فَرَضَ اللهُ سبحانَهُ عليه أنْ يَسْأَلَ هَذِهِ الهِدَايَةِ في أَفْضَلِ أَحْوَالِهِ مَرَّاتٍ مُتَعَدِّدَةٍ في اليَومِ واللَّيْلَةِ ثم بَيَّنَ أَنَّ أَهْلَ هَـذِهِ الهِدَايَـةِ هم المُخْتَصُونَ بِنِعْمَتِهِ دُوْنَ المَغْضُوبِ عَلَيهم وهم الذين عَرَفُوا الحقَّ وَلَم يَتَّبِعُوْهُ وَدُوْنَ الظَّالِينَ وهم الذينَ عَبَدُوْا اللهَ بِغَيرِ عِلْمٍ فالطائفتانِ اشْتَرَكَتَا في القَوْلِ في خَلْقِهِ وأمْرِهِ وأسْمَائِهِ وَصِفاتِهِ بغيرِ عِلْمٍ فَسَبِيْلُ المُنْعَم عَلَيهِم مُغَايِرَةٌ لِسَبِيْلِ أَهْلِ الباطلِ كُلِّها عِلْماً وَعَمَلاً فَلَمَّا فَرَغَ مِن هَذا الثّناءِ والدُّعاءِ والتوحِيدِ شُرِعَ لَهُ أنْ يَطْبَعَ عَلى ذَلكَ بِطَابع مِن التأمِيْنِ يَكُونُ كالخاتِمِ لَهُ وَافقَ فيه مَلائِكَةَ السماءِ وهذا التأمِيْنُ مِن زِيْنَةِ الصلاةِ كَرَفْعِ اليَدِيْن الذي هُوَ زِيْنَةُ الصلاةِ واتِّباعاً لِلسُّنَّةِ وَتَعْظِيْمَ أمْرِ اللهِ وَعُبُوْدِيَةُ اليَدَيْنِ وَشِعَارُ الانتقالِ مِن رُكْنٍ إلى رُكْنٍ ثُمَّ يأْخُذُ في مُنَاجَاةِ رَبِّهِ بكلامِهِ واسْتِماعِهِ مِن الامامِ بالانصاتِ وَحُضُورِ القَلْبِ وَشُهُودِهِ .

اللَّهم يَا مَنْ خَلَقَ الإنسانَ في أَحْسَنِ تَقْوِيْم وَبِقُدْرَتِهِ التي لَا يُعْجِزُها شيءٌ يُحْيي العِـظَامَ وهي رَمِيْمٌ ، نسألـك أَنْ تَهْدِينَـا إلى صِراطِـك المستقيم ، صِراط الذيْنَ أَنْعَمْتَ عَليهم مِن النَّبيينَ والصِّدِيْقِيْنَ والشُّهَداءِ والصَّالِحَينَ وأن تَغفرَ لنا وَلِوَالِدينَا وَلِجَمِيـع المسلمين الأحياءِ منهم والميتين برحمتكَ يا أرحمَ الراحمين وصلى الله على محمدٍ وعلى آلِهِ وصحبهِ أجْمعين .

(فصـــل)

عِبَادَ اللهِ إن الصلاةَ عِمَادُ الدِيْنِ وأَعْـظَمُ أَرْكَانِ الإسـلامِ بَعْدَ الشهادَتَيْن مَنْ حَافَظَ عَلَيهَا فَهُوَ السَّعِيْدُ وَمَن أَضَاعَهَا وأَهْمَلَهَا فهو الشَّقِيُّ العَنِيْدُ ، وقد أَمَرَ اللهُ بالمحافظةِ عَلَيْهَا وأَمَرَ باقامَتِها في آياتٍ كَثِيْرَةٍ قال

تعالى : ﴿ حافِظُوا على الصلواتِ والصَلواةِ الوُسْطَى ﴾ وَقَالَ : ﴿ والذينَ هُمْ عَلَى صَلاَتهم يُحَافِظُوْنَ ﴾ وقالَ : ﴿ رِجَالٌ لا تُلْهِيْهِمْ تِجَارَةٌ ولا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ ﴾ .

وَقَالَ ﴿ وأقِيْمُوا الصَّلاَةَ وآتُوا الزَّكَاةَ ﴾ وَقَالَ : ﴿ أَقِمِ الصَّلاةَ لدُلُوكِ الشَّمْسِ ﴾ الآية وَقَال : ﴿ والمقيمينَ الصَّلاةِ ﴾ وقالَ : ﴿ وأَقِمْ الصَّلاةَ طَرَفي النَّهَار ﴾ الآية ، وقالَ : ﴿ الذينَ يُقيمُونَ الصَّلاةَ ﴾ وقالَ ﴿ الذينَ يُؤْمِنُونَ بالغَيْبِ وَيُقِيْمُونَ الصَّلاةَ ﴾ قال : ابنُ عَبَّاسٍ يُقيمونَ الصَّلاةَ بِفُروضِهَا وقال : الضَّحاكُ عَن ابنِ عباسٍ اقامةُ الصَّلاةِ اتمامُ الرُّكُوعِ والسُّجود والتِّلاوةِ والخُشوعِ والاقبالِ عليهِ فيهَا وقال قَتَادَةُ : اقامَةُ الصَّلاةِ المُحَافَظَةُ عَلى مَوَاقِيْتِهَا وَوُضُوئِهَا ورُكُوعِهَا وَسُجُودِهَا .

وَقَالَ مُقَاتِلٌ : اقامَتُها المُحَافَظَةُ عَلَى مَوَاقِيْتِهَا واسْبَاغُ الطَّهُورِ فيْهَا واتْمَامُ رُكُوعِهَا وَسُجُودِهَا وَتِلاَوَةِ القُرْآنِ فِيْهَا والتشَهّدُ والصّلاةُ على النبي صَلى اللهُ عليهِ وسَلّمَ وَحَثَّ صَلّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عَلى المُحَافَظَةِ عَلَيْهَا في أَحَاديْثَ كثيرةٍ مِنْهَا مَا وَرَدَ عَنْ أَبي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسلَّمَ : « خَمْسٌ مَنْ جَاءَ بِهِنَّ مَعَ إِيْمَانٍ دَخَلَ الجَنَّةَ مَنْ حَافَظَ على الصَّلواتِ الخَمْسِ عَلى وُضُوئِهِنَ وَرُكُوعِهِنَّ وَمَواقِيْتِهِنَ وَصَامَ رَمَضَانَ وَحَجَّ البَيْتَ إنْ اسْتَطَاعَ إليهِ سَبِيْلاً وآتَى الزَّكَاة طَيِّبَةً بِهَا نَفْسُهُ وأدّى الأمانة قيل يَا رَسُولَ اللهِ وَما أَدَاءُ الأمانَةِ قَالَ الغُسْلُ مِنَ الجَنَابَةِ انَّ اللهَ لَمْ يأْمَنْ ابنَ آدَمَ على شَيْءٍ مِنْ دِيْنِهِ غَيْرَها » رواه الطبراني .

وعن عَائِشَةَ رَضِي اللهُ عَنْهَا أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلَّى اللهُ عَليهِ وسلَّمَ

قَالَ : ثلاثٌ أَحْلِفُ عَليهن لا يَجْعَلُ اللهُ مَنْ لَهُ سَهْمٌ في الإسلام كَمَنْ لا سَهْمَ لَهُ وأَسْهُمُ الإِسْلامِ ثلاثةٌ الصَّلاةُ والصَّومُ والزَّكاةُ ولا يَتولَّى اللهُ عَبْداً في الدُّنيا فيُوَليه غيرَهُ يومَ القِيَامَةِ ولا يُحِبُّ رجلٌ قوماً إلا جُعِلَ مَعَهُمْ ، الحديثَ رواهُ أحمدُ باسنادٍ جيدٍ ورواهُ الطَبَراني في الكَبِيرِ من حديثِ ابنِ مَسْعُودٍ .

وَعَنْ عمر بنِ مُرَّة الجُهَنِي قَالَ : جَاءَ رجلٌ الى النبيّ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ فقالَ : يَا رَسُولَ اللهِ أَرأَيْتَ إِنْ شَهدتُ أَنْ لا إلهَ إلا اللهَ وأنكَ رَسُولُ اللهِ وَصَليتُ الصَّلواتِ الخَمْسِ وأَدَّيْتُ الزَّكاةَ وَصُمْتُ رَمَضَانَ وَقُمْتُهُ فَمِنْ مَنْ أَنَا ؟ قَالَ : من الصِّدِّيقينَ والشُّهَداءِ رواهُ البَزَّارُ وابنُ خزيمةَ وابنُ حِبَّانَ في صَحِيْحَهمَا واللفظُ لابنِ حِبَّانَ ومن الأَدِلَةِ الدّالةِ عَلى وُجُوبِهَا مَعَ مَا تَقَدَّمَ مِن الكتَابِ والسُّنَّةِ قَولُه تَعالى ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِيْنَ لَهُ الدِّيْنَ حُنَفَاءَ وَيُقِيْمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ ﴾ وأَمَّا السُّنَّةُ فَعَنْ ابنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا عَنْ النَبِّي صَلّى اللهُ عليهِ وسلَّم أَنَّهُ قَالَ : « بُنِيَ الإِسْلَامُ عَلى خَمسٍ شهادةِ أَنْ لا إلهَ إلا اللهُ وأَنَّ محمداً رَسُولُ اللهِ واقامِ الصَّلاةِ وايْتاءِ الزكاةِ وصِيامِ رَمَضَانَ وَحجِّ البَيتِ مَنْ اسْتَطَاعَ اليْهِ سَبِيلاً » .

وأَجْمَعَتْ الأمةُ عَلى وُجُوبِ خَمْسِ صَلَواتٍ في اليَوْمِ واللَّيْلَةِ وَفُرِضَتْ الصَّلاةُ لَيلةَ الإِسْراءِ قَبْلَ هِجْرَتِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ بنحْوِ خَمْسِ سِنينَ وَقِيْل قَبْلَ الهِجْرَةِ بِسَنَةٍ .

اللَّهُم وَفِقْنَا للاسْتِعْدَادِ ، واهْدِنَا الى سَبِيْلِ الرَّشَادِ ، وَوَفِقْنَا للعَمَلِ الصَّالِحِ ليومِ المَعَادِ ، واغفرْ لنَا وَلِوالِدَيْنَا وَلِجَمِيْعِ المُسْلِمِينَ ، الأحياءِ

مِنْهُمْ والميتِيْنَ ، بِرَحْمَتِك يا أَرْحَمَ الراحِمينَ وَصَلّى اللهُ على مُحمدٍ وَعَلى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

وَيحْرمُ تَأْخِيرُ الصَّلاةِ عَنْ وَقْتِهَا عَلَى القَادِرِ عَلى فِعْلِهَا الذَّاكِرِ لَهَا إلاَّ لِـنـا والجَمْعِ لِنَحْوِ سَفَرٍ أوْ مَرَضٍ لأنه يَجبُ ايقاعُهَا في الوقتِ فإذا خَرَجَ وَقْتُهَا ولم يأتِ بِهَا كانَ تَارِكاً للواجِبِ مُخَالِفاً للأمْرِ وَلئلا تَفُوتَ فائدةُ التأقِيْتِ .

وأمَا الدَّليلُ على جَوازِه للعُذْرِ وَتَحْريمه لغيرِ العذْر فَحديثُ أبي قتادَةَ مرفوعاً لَيْس في النَّوْم تفريط إنمَا التفريط في اليَقَظَةِ أَنْ تُؤَخِر الصَّلاةَ إلى أَنْ يَدْخَلَ وَقْتَ أخْرَى وَقَدْ وَرَدَ في تَفسِيرِ قولهِ تعالى : ﴿ فَوَيْلٌ للمصَلّين الذينَ هُمْ عَنْ صَلاتِهِمْ سَاهُوْنَ ﴾ عن بَعْضِ الصَّحَابَةِ أَنَّهُ تأخِيرُها عَنْ وَقْتِهَا وَسَمَّاهُمْ مُصَلّينَ لكنَّهم لما تَهَاوَنُوا بِهَا وأَخروهَا عَنْ وَقْتِهَا وَعَدَهُم بويل وَهُو شِدّةُ العَذَابِ وقِيلَ هو وادٍ في جَهنَمَ لو سُيّرتْ فِيه جِبَالُ الدّنيا لذابَتْ مِنْ حَرّه وهو مَسْكن من يَتَهَاوَنُ بالصَّلاةِ وَيُؤخِرُهَا عَنْ وَقْتِها إلا أَنْ يَتُوبَ وَيَندَمَ وَيَعْزِمَ أَنْ لا يَعُودَ وَيَتُوبَ اللهُ عَليهِ وقال تَعالَى : ﴿ يَا أَيُّهَا الّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فأولَئِكَ هُمْ الخَاسِرُونَ ﴾ قَالَ المفسرونَ المُرادُ بِذِكْرِ اللهِ في هَذِه الآيةِ الصَّلواتُ الخَمْسُ فَمَنْ اشْتَغَلَ بِمَالِه في بَيْعِهِ وَشِرَائِهِ وَمَعِيْشَتِهِ وَضيْعَتِهِ وَأَوْلَادِهِ عَنْ الصَّلاةِ في وَقْتِهَا كَانَ مِنَ الخَاسِرينَ . وفي حَدِيثِ أَبي ذَرٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ : « كَيْفَ أَنْتَ إذَا كَانَتْ عَليكَ أُمَراءُ يُمِيْتُونَ الصَّلَاةَ أَوْ قَال : يُؤَخِّرونَهَا عَنْ وَقْتِهَا » .

وَقَالَ تَعالى : ﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوْا الصَّلاةَ ﴾ قال ابنُ

مَسْعودٍ وابراهيمُ أَخَّرُوْهَا عَنْ وَقْتِها وَقَالَ سَعِيْدُ بنُ المسيبِ : هُوَ أنْ لاَ يُصَلِّي الظُّهرَ حَتى يَأْتِيَ العَصْرُ وَلاَ العَصْرَ حَتى تَغْرُبَ الشَّمسُ وَجَاحِدُ الصَّلاةِ مَا يَخْلو امَّا أَنْ يَكونَ مِمَّنْ لاَ يَجْهَلُ وُجُوْبَهَا كَمَنْ نَشَأَ بِدَارِ الإِسْلام فَهَذَا يَكْفُرُ بِجَحْدِهِ لأَنَهُ مكذبٌ لِلهِ وَلِرَسُولِهِ واجماعِ الأمَّةِ وَيَصيْرُ مُرْتَداً وأمّا أَنْ يَكُونَ مِمَنْ يَجْهَلُ وُجوبَهَا كَمَنْ نَشَأَ بِبَادِيَةٍ وَكَحَدِيثِ عَهْدٍ باسْلامٍ فَهَذا يُعَرَّفُ وُجُوبَهَا فانْ أَصرَّ عَلى الجَحْدِ كَفَرَ .

فانْ تَرَكَهَا تَهَاوُناً وَكَسَـلاً دَعَاهُ امامٌ أَوْ نَائِبُهُ الى فِعْلِهَا فإنْ أَبَى حَتى تَضَايَقَ وَقْتُ الّتي بَعْدَها وَجَبَ قَتْلُه وَمُدَّةُ اسْتِتَابةِ الجَاحِدِ لوُجُوبِهَا وَتَارِكِهَا تَهَاوُناً وَكَسَلاً ثَلاَثَةُ أَيَّامٍ بِلَيَالِيها كَسَائِرِ المُرْتَدِيْنَ ، وَيُضَيَّقُ عَلَيْهِمَا وَيُدْعَيَانِ كُلَّ وَقْتِ صلاةٍ اليْهَا فانْ تَابا بِفِعْلِهَا مَع إِقْرَارِ الجَاحِدِ لوُجُوبِهَا خُلِّيَ سَبِيْلُهُمَا وإلا ضُرِبَتْ عُنُقُهُمَا .

وحيثُ كَفَر فانَّه يُقْتَلُ بَعدَ الاسْتِتَابَةِ ولا يُغَسَّلُ وَلاَ يُصَلَّى عَلَيهِ وَلاَ يُدْفَنُ في مَقَابِرِ المُسلِمينَ وَلاَ يُرِقُّ ولا يُسْبَى لَهُ وَلَدٌ وَلاَ أَهْلٌ كَسَائِرِ المُرْتَدِين .

اللهمّ اعْصِمْنَا عَن المَعَاصِي والزَّلاّت ووفّقْنَا للعَمَلِ بالبَـاقِيَاتِ الصَالِحَاتِ واغفرْ لَنَا وَلِوَالدَينا ولِجَمِيْعِ المُسْلِمين الأحياءِ مِنْهُم والميّتينَ بِرَحْمَتِكَ يا أَرْحَمَ الرَّاحِمينَ وَصَلىٰ اللهُ على محمدٍ وَعَلى آله وَصَحْبِه أَجْمَعِين .

(فصـــل)

في الأَدِلَةِ عَلى كفْر تَارِكِ الصَّلاةِ

والدَّلِيْلُ عَلَى كُفْر تَارِكِ الصَّلاةِ قولُه تعالى : ﴿ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوْا

الصَّلاةَ وآتَوْا الزَّكَاةَ فإخْوانُكم في الدِّين ﴾ وقَالَ : ﴿ فانْ تَابُوا وأَقَامُوا الصَّلاةَ وآتوا الزَّكاةَ فَخَلُّوا سَبِيْلَهُمْ ﴾ ، وقال تَعَالى مُخْبِراً عَنْ أَصْحَابِ الجَحِيْمِ : ﴿ ما سَلَكَكُمْ في سَقَرَ قَالوا لَمْ نَكُ مِنَ المُصَلّين ﴾ . . الآية .

وعَن جَابِر بنِ عَبْدِ اللّهِ قَالَ : قَالَ رسولُ اللهِ صَلى اللهُ عليهِ وَسَلمَ : « بَينَ الرَّجُل وَبَيْنَ الكُفْرِ تَرْكُ الصَّلاةِ » . رواه الجماعة الا البُخاريُ والنَسَّائي .

وعن بُرَيْدَةَ قَالَ سَمِعتُ رسولَ اللهِ صَلّى اللهُ عَليهِ وَسَلَّمَ يقول (العَهْدُ الذي بَيْنَنا وَبَيْنَهم الصَّلاةُ فَمَنْ تَرَكَهَا فَقَدْ كَفَرَ ﴾ . رواه الخَمْسَةُ وفي الحديث الآخر « مَنْ تَرَكَ الصَّلاةَ مُتَعمّداً فَقدْ بَرِئَتْ مِنْهُ ذِمَّةُ اللهِ وَرَسُولِهِ » رواه أَحْمَدُ باسْنَادٍ عَنْ مَكْحَوُلٍ وَهو مرسَلٌ جيدٌ .

وعن عَبدِ اللهِ بنِ شَقِيْقٍ قَالَ كَانَ أَصْحَابُ رَسُولِ الله صَلَّى اللهُ عَليهِ وَسَلَّمَ لا يَرَوْنَ شَيئاً مِنَ الأعمالِ تَـرْكُهُ كُفْـرٌ غيرَالصَّـلاةِ رواهُ التَرمِذِي .

وعنْ عَبدِ اللهِ بنِ عَمْرو بنِ العَاصِ أَنَّه ذَكَر الصَّلاةَ يَوْماً فقالَ : من حَافَظَ عَلَيهَا كَانَتْ لَه نُوراً وَبُرْهاناً ونجاةً وَمَنْ لَمْ يُحافظ عَلَيْهَا لَمْ تَكُنْ لَه نُوراً ولا بُرهاناً ولا نجاةً وكانَ يومَ القِيَامَةِ مَعَ قَارُونَ وَفِرْعَونَ وهَامَانَوأُبي بن خَلَفٍ . رَواهُ أَحْمَدُ وقالَ عُمَرُ لاحظَّ في الاسْلامِ لمنْ تَرَكَ الصَّلاةَ وقَالَ عَليٌ مَنْ لَمْ يُصَلّ فَهُو كَافِرٌ .

وقالَ ابنُ حَزْمٍ وقدْ جَاءَ عنْ عُمَرَ وَعَبدِ الرحمَن بن عَوْفٍ ومعاذِ بنِ

جَبَل وأَبي هُريرةَ وغيرهم مِنَ الصحابةِ أن مَن تَرَكَ صَلاةَ فَرْضٍ واحدةٍ متعمّداً حَتى يَخرجَ وَقتُها فَهُوَ كافِرٌ مُرْتَدٌ .

وَقَالَ الحافظُ عَبْـدُ الحق الإشْبيلي في كِتابـهِ ذَهَبَ جُمْلَةٌ مِن الصَّحَابةِ وَمَنْ بَعْدَهُمْ الى تَكْفِيرِ تَارِكِ الصَّلاةِ مُتَعَمِداً لِتَرْكِهَا حَتَّى يخرجَ وَقْتُها مِنْهُم عُمَرُ بنُ الخَطاب ومعاذُ بنُ جَبَلٍ وعبدُ اللهِ بنِ مَسْعودٍ وابنُ عَبّاسٍ وَجَابِرٌ وأبو الدرداءِ وَكَذَلِكَ رويَ عَنْ عَلي ، وَمِنْ بَعْدِهِمْ أحمدُ بنُ حنبلٍ واسْحَاق وعبدُ اللهِ ابنُ المبارَكِ وابراهيمُ النَّخعي والحَكَمُ بنُ عيينةَ وأيُوبُ السِّختيانيُ ، كل هؤلاء ذَهَبوا إلى تكْفيرِ تاركِ الصّلاةِ حتى يخرجَ وقتُها .

وحُكيَ عَنْه أَنَّهُ قَالَ مَن تَرَكَ الصَّلاةَ متعمداً مِنْ غيرِ عِلَّةٍ حَتى أَدْخَل وَقْتاً في وقتٍ فهُو كافرٌ .

نسألُ اللهَ العفوَ والعَافِيةَ في الدّنيَا والآخِرَةِ . .

مــوعظــة

أيُهَا النَّاس إنَّ سُبُلَ العَافِيَةِ مُندَرِسَةٌ لقلةِ سُلاَّكِهَا وإنَّ علَلَ القُلوبِ القَاسِيةِ مؤذنةٌ بِهَلاكِهَا وإنَّ رُسُلَ المَنُونِ قانِصَةُ لا تُفْلِتُ أَحَداً من شِبَاكِهَا فمَا للعيونِ ناظرةٌ ولا تُبْصِرُ وَمَا للقلوبِ قاسيةٌ ولا تُفْكِّرُ وَمَا للعقولِ طَائِشَةٌ لاهِيَةٌ بِجَمْعِ الدُّنْيَا ولا تَشْعُرُ ، وَمَا لِلنفُوسِ قَاسِيَةٌ وَلاَ تَذكرُ أَغَرَّهَا إِنْظارُها وإمْهَالُهَا أَمْ بَشّر بالنجَاةِ صالحُ أَعْمَالِهَا أَمْ لَمْ يَتَحقَقْ عِندَهَا مِنَ الدّنيَا زوالها .

شـــعراً :

هَـوِّنْ عليـكَ فَمـا الـدُّنْيـا بِـدَائِمَـةٍ
وانَّمَـا أَنْـتَ مِـثْـلُ النَّـاسِ مَـغْـرُورُ
ولـو تَصَـوَّرَ أَهْـلُ الـدَّهْـرِ صُـوْرَتَـهُ
لَـمْ يُمْسِ مِنْهُـمْ لَبِـيْبٌ وَهُـوَ مَـسْـرُورُ

تاللهِ لَقَدْ شَمِلَتْ القُلُوبُ الغِفلةُ فاسْتَحْكَم عَلى القُلُوبِ أَقْفَالُها ، فَكأنَ قَدْ كَشَفَ الموتُ لأَهْلِ الغَفْلَةِ قِنَاعَهُ وأَطْلَقَ عَلَى صِحَاحِ الأَجسَام أَوْجَاعَهُ وَحَقَّقَ بِكلِ الأَنَامِ إِيقَاعَهُ وَلَمْ يَمْلِكْ أَحَدٌ من الخَلْق دِفَاعَهُ فَخَفَقَ من المنزولِ به فُؤادُهُ وَرَحِمَهُ أَعداؤُهُ وَحُسَّادُه وَقَرُبَ عَنْ أَهْلِهِ وَوَطَنِهِ بِعَادُهُ والتَحَقَ بِذُلّ اليُتْم أَوْلادُه فيالَهُ من وَاقِعٍ في كُرَبِ الحَشَارِجِ الى أَنْ أُدْرِجَ في تِلْكَ المَدَارِجِ وَقَدِمَ عَلى اللهِ ذِي المَعَارِجِ في مَنْزِلَ لا يَبْرَحُ مِنه مَنْ نَزَلَهُ حَتّى يَلْحَقَ آخِرُ الخلقِ أَوَّلَهُ فانتبِهُوا رَحِمَكُم اللهُ قَبلَ أَنْ يَصلَكُمْ الدَّوْرُ واستدْركوا مَا فَاتَكمْ ومَا قَصَّرْتمْ بِهِ مِن الأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ عَلى الفَوْرِ . أَفَيَظُنُّ ظَانٌّ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ الخَلْقَ لِيُهْمِلَهُ .

كَلاّ وَاللَّهِ لَيَبْعَثَنَّ الخَلْقَ بَعْدَ مَا أَمَاتَه وَلَيَسْأَلَنَّ عَنِ الرَّسُولِ وَمْن أَرْسَلَه وَلَيُوَفِيَنَّ كلَّ عَامِلٍ مَا عَمِلهُ .

شـــعراً :

تَـبَيَّـنَ ثَغْـرُ الـفَجْـرِ لِـمَـا تَبَسَّـمَـا
فَسُبْحانَ مَن في الذِكْـرِ بالفَجْـرِ أَقْسَمَا

فَصَلِ عَلَى المَبْعُوْثِ لِلْخلْقِ رَحْمَةً
عَسَى شَمُلتنا أَوْ لَعَلَّ وَرُبَّمَا
كما شَمَلَتْ آلَ الرسُولِ وَصَحْبِهِ
فأكرمْ بِهِمْ آلا وَصَحْباً وأَعظِمَا
أَتَى بالهُدَى نوراً إلينَا وَنِعْمَةً
وقَدْ كَانَ وَجهُ الكَوْنِ بالشِّرْكِ مُظْلِمَا
فَجَلَّى بأنوارِ الهُدَى كُلَّ ظُلْمَةٍ
وأَطْلَعَ في الآفَاقِ للدِّيْنِ أَنْجُمَا
أَتَى بِكِتَابٍ أَعْجَزَ الخلقَ لَفْظُهُ
فكلُ بَلِيْغ عُذْرُهُ صَارَ أَبْكَمَا
تَحَدَّى بِه أَهَلَ البلاغَةِ كلَّهم
فلمْ يَفْتَحوا فيمَا يُعَارِضُهُ فَمَا
حَوَى كلَّ بُرهَانٍ عَلى كُل مَطْلَب
وَيَعْرِفُ هَذا كُلُّ مَنْ كَان أَفْهَمَا
وأَخْبَرَ فِيهِ عَن عَواقِبَ مَن عَصَى
بِأَنَّ لَه بَعْدَ المَمَاتِ جَهَنَّمَا
وَعَمَّنْ أَطَاعَ اللَّهَ أَنَّ لَهُ غَداً
نَعِيْماً بِهِ مَا تَشْتَهي النَّفْسُ كُلَّمَا
مُحَمَّدٌ المَبْعُوْثُ لِلْخَلْقِ رَحْمَةً
فَصَلِّ عليهِ مَا حَيِيْتَ مُسَلِّمَا
وأَسْرَى بِه نَحْوَ السَّمَواتِ رَبُّه
وأَرْكَبَهُ ظَهْرَ البُرَاقِ وأَكْرَمَا

وَقَـدْ فـتِحَـتْ أَبْـوابُـهـا لِـصُـعُـودِه
فَمَـا زَالَ يَـرْقَى مِن سَمَـاءٍ إلى سَمَـا
وَلاَقَى بِهَـا قَـوْمـاً مِن الـرُّسْـلِ كلِّهِمْ
يقـولُ لـه يَـا مَـرْحَبـاً حِيْنَ سَلَّمَـا
وكَـانَ بِـهِ فَـرْضُ الصَّـلاةِ وَحَبَّـذَا
تَـرَدُّدُهُ بَـيْـنَ الـكَـلِيْـمِ مُـكَـلِّمَـا
وَصَيَّـرَهَـا مِنْ بَعْـدِ خَمْسِينَ خَمْسَـةً
فُـرُوْضـاً وأَمْـرُ اللهِ قَـدْ كَـانَ مُبْـرَمَـا
وعَـادَ إلى بَيْتِ أُمِّ هَـانِىء مُـخْبِـراً
لَهَـا بـالـذي قَـدْ كَـانَ مِنْـهُ وَمُعْلِمَـا
فَخَـافَتْ عَلَيْـهِ أَنْ يُكَـذِّبَـهُ الـمَـلاَ
وَيَـزْدَادُ مَنْ في قَلْبِـهِ مَـرَضٌ عَمَى
فَجَـاءَ إلى البَيتِ العَتيقِ فَـأَخْبَـرَ الْـ
ـعِبـادَ فَمِـنْهُـمْ مَنْ بِتَكْـذِيْبِـهِ رَمَى
وَكَـان بـهِ الصِّـدِّيقُ خَيـرَ مُصـدِّقٍ
فَصَـدَّقَ خيرَ الـرُّسْلِ في خَبَرِ السَّمَـا
مُحَمَّـداً الـمَبْـعُـوثَ لِلْخَـلْقِ رَحْمَـةً
فَصَـلِّ عليـهِ مـا حَـيِّيتَ مُسَـلِّمَـا
وَقُمْ حَـامِـداً لِلّهِ في كُـلِّ حَـالَـةٍ
تَجِـدْ حَمْدَهُ في يَـوْمِ حَشْـرِكَ مَغْنَمَـا
وَصَـلِّ على المَبْعـوثِ للخَلقِ رَحْمَـةً
مَـحَـمَّـدٍ الـمـخْـتَـارِ والآلِ كُـلَّمَـا

سَرى البَرْقُ مِنْ أَرْجَاءِ مَكةَ أو سَرَى
نَسِيْمٌ على زَهْرِ الرُّبَى مُتَبَسِّمَا
وَرَضِّيْ عَلى الأَصْحَابِ أَصْحَابِ أَحْمَدٍ
وكُنَ لَهُمُ في كُلِّ حِيْنٍ مُعَظِّمَا

اللَّهُمّ انظِمْنَا في سِلْكِ عِبَادِكَ المخلصينَ ووفّقْنَا للقِيَامِ بأَرْكَانِ دينكَ القَويمِ وَنَجنَا مِن لَفَحَاتِ الجَحِيْمِ وأَسْكِنَّا في جَناتِ النَّعيم واغفرْ لَنا ولِوالدِيْنَا ولِجَميع المُسْلمين الأَحْيَاءِ منهم والميتين بِرَحْمَتِك يا أَرْحَمَ الراحِمِينَ وَصَلَّى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وعلى آله وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ .

(فَصْلٌ)

إذا فَهِمْتَ ما تَقَدَّمَ مِنْ مَحَاسِن الصَّلاةِ وحِكَمِهَا وَحُكْمُ تأْخِيرِهَا وَتَرْكِهَا فاعْلَمْ أَنَّ النَاسَ في الصَّلاةِ على مَراتِبَ خَمْسٍ ذكرها الامام المحقق ابن القيم رحمه الله فقال :

أَحَدُهَا مَرْتبةُ الظَّالِمِ لِنَفْسِهِ المفرِّطِ وهُوَ الذي انْتَقَصَ مِنْ وُضوئِها وَمواقِيْتِهَا وَحُدُودِها وأَرْكَانِها .

الثاني : مَنْ يُحَافِظُ على مَواقِيْتِها وَحُدودِهَا وأَرْكَانِهَا الظاهرةِ وَوُضوئِهالَكِنْ قَدْ ضَيَّعَ مُجاهَدَةَ نَفْسِهِ في الوَسْوَسَةِ فَذَهَبَ مَعَ الوَسَاوِسِ والأَفْكارِ .

الثالثُ : مَنْ حَافَظَ عَلى حُدُودِهَا وأَرْكَانِهَا وَجَاهَدَ نَفْسَهُ في دَفْعِ الوَسَاوسِ والأَفْكار فَهُوَ مَشغولٌ بِمُجَاهَدَةِ عَدُوِّهِ لَئِلاَّ يَسْرِقَ صَلاَتَه فَهُوَ في

صَلاَةٍ وَجِهَادٍ .

والرَّابعُ : مَنْ اذَا قَامَ إلى الصَّلاةِ أَكْمَلَ حُقُوقَهَا وأَرْكانَهَا وَحُدُوْدَها واسْتَغرقَ قَلْبُه مُراعاةَ حُدُوْدِهَا وَحُقوقِهَا لِئلاّ يَضِيْعَ شَيءٌ مِنْهَا بَلْ هَمُّهُ كلّه مَصْرُوْفٌ إلى إقامَتِهَا كما يَنْبَغِي إكْمَالُها وإتْمَامُها قَدْ اسْتغْرقَ قلبُه شَأْنَ الصلاةِ عُبُودِيَّةُ ربِهِ تَبارَكَ وَتعالى فِيهَا .

الخامِسُ : مَنْ اذَا قَامَ إلى الصَّلاةِ قَامَ الَيْهَا كَذَلِكَ ولَكِنْ مَعَ هَذَا قَدْ أَخذَ قَلْبَه وَوَضَعَهُ بَيْنَ يَدَيْ رَبِهِ عَزَّ وَجَلَّ نَاظِراً بِقَلْبِهِ إلَيْهِ مُرَاقباً لَهُ مُمْتَلِئاً مِن مَحبَّتِه وَعَظَمَتِهِ كأَنَّهُ يَرَاهُ وَيُشَاهِدَهُ ، وَقَدْ اضْمَحلَّتْ تِلكَ الوَسَاوِسُ والخَطَرَاتُ وارْتَفَعَتْ حُجُبُهَا بَيْنَهُ وَبَينَ رَبِّهِ فَهَذا بَيْنَهُ وَبَيْنَ غَيْرِهِ في الصّلاةِ أَفْضَلُ وأَعْظَمُ مِمَّا بَيْنَ السَّمَاءِ والأَرْضِ وَهَذا في صَلاتِه مشغولٌ بِرَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ قَرِيرُ العين .

فَالقِسْمُ الأَوَّلُ مُعَاقَبٌ والثاني مُحَاسَبٌ والثَّالثُ مُكَفَّرٌ عَنْهُ والرابعُ مُثَابٌ والخَامِسُ مُقَرَّبٌ مِن رَبِّهِ لأَنَّ لهُ نَصِيْباً مِمَّنْ جُعلَتْ قُرَّةُ عينِهِ في الصَّلاةِ فَمَنْ قَرَّتْ عَيْنِهِ بِصَلاَتِهِ في الدُّنْيَا قَرَّتْ عَيْنُهُ بِقُرْبِهِ منْ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ في الآخِرَةِ وَقَرَّتْ عَيْنُه بِهِ في الدُّنْيَا وَمَنْ قَرَّتْ عيْنُه باللهِ قَرَّتْ بهِكلُّ عَيْنٍ وَمَنْ لَمْ تَقَرَّ عينُه باللهِ تَعالَى تَقَطَّعَتْ نَفْسُهُ عَلى الدُّنْيَا حَسَرَات .

وَقَدْ رُوِيَ أَنَّ العَبْدَ اذا قَامَ يُصَلِّي قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ : « ارْفَعُوْا الحُجُبَ فإذا الْتَفَتَ قَالَ أَرْخُوهَا وَقَدْ فُسِّرَ هَذا الالْتِفَاتُ بالْتِفَاتِ القَلْبِ عَن اللّهِ عَزَّ وَجَلَّ إلى غَيْرِهِ فَإذَا الْتَفَتَ إلى غَيْرِهِ أُرْخِيَ الحِجَابُ بَيْنَه وَبَيْنَ العَبدِ فَدَخَلَ الشيطانُ وَعَرَضَ عَلَيْهِ أُمور الدُّنْيَا وأَرَاهُ إيَّاهَا في صُوْرَةِ المرْآةِ

واذَا أَقْبَل عَلى اللَّهِ وَلَمْ يَلْتَفِتْ لَمْ يَقْدِرْ الشَّيْطَان عَلى أَنْ يَتَوَسَّطَ بَيْنَ اللّهِ تَعَالى وَبَيْنَ ذَلك القَلْبِ وانَّمَا يَدْخلُ الشَّيْطَانُ اذا وَقَعَ الحِجَابُ فإن فَرَّ إلى اللهِ تَعَالى وأَحْضَرَ قَلْبَه فَرَّ الشَّيْطانُ فإنْ التَفَت حَضَرَ الشَّيْطَانُ فَهُوَ هكذا شَأْنُه وَشَأْنُ عَدُوّهِ في الصَّلاةِ .

اللّهُمَّ اجْعَلْ في قُلوبِنَا نُوْرفا نَهْتَدي بِهِ إلَيْكَ وَتولَّنَا بِحُسْنِ رِعَايَتِكَ حَتّى نَتَوكلَ عَلَيكَ وارْزُقْنَا حَلاَوَةَ التَّذلِل بَينَ يَدَيكَ فَالعزِيزُ مَنْ لاَذَ بِعزّكَ والسَّعيدُ مَن الْتَجَأَ إلى حِمَاكَ وَجُوْدِكَ والذليلُ مَنْ لَمْ تَؤَيّدْهُ بعنايَتِكَ والشَّقِيُ مَن رَضِيَ بالإعْرَاضِ عنْ طَاعَتِكَ اللهم نَزّهْ قُلوْبَنَا عنْ التَّعلق بِمَنْ دُونَك واجْعَلْنَا مِنْ قوم تحبُّهُمْ ويُحِبُونَكَ واغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَلِجَمِيْعِ المُسْلِمِينَ بِرَحْمَتِكَ يا أَرْحَمَ الراحِمِينَ وصلى اللهُ علَى مُحَمَّدٍ وَعَلى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

(فَصْـــلٌ)

وَقَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالى عَلى قَوْلِ النَّبِي صَلَّى اللهُ عَليهِ وَسَلَّمَ في الحَدِيثِ وآمُرُكُمْ بالصَّلاةِ فَلاَ تَلْتَفِتُوا فإنَّ اللَّهَ يَنْصِبُ وَجْهَهُ لِوَجْهِ عَبْدِهِ في صَلاتِهِ مَا لَمْ يَلْتَفِتْ .

الالْتِفَاتُ المَنْهِيُّ عَنْهُ في الصَّلاة قِسْمَان :

أَحَدُهُمَا التِفَاتُ القَلْبِ عن اللّه عَزَّ وَجَلَّ إلى غَيْرِ اللّهِ تَعَالَى .

والثَّانِي : التفاتُ البَصَرِ وكِلاَهُمَا مَنْهيٌ عَنْهُ ولا يَزَالُ اللَّهُ مُقْبِلاً عَلَى عَبْدِهِ مَا دَامَ العَبْدُ مُقبِلاً عَلى صَلاتِهِ فَاذَا التَفَتَ بِقَلْبِهِ أَوْ بَصَرِهِ أَعْرَضَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ وَقَدْ سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ التِفَاتِ الرَّجُلِ

في صَلاَتِهِ فَقَالَ اخْتِلاَسٌ يَخْتَلِسُهُ الشَّيْطَانُ مِنْ صَلاةِ العَبْدِ .

وفي أَثَرٍ يَقُولُ اللهُ تَعَالَى إلى خَيْرٍ مِنِّي ومِثَالُ مَنْ يَلْتَفتُ في صَلاتِهِ بِبَصَرِهِ أَوْ بِقَلْبِهِ مَثَلُ رَجُلٍ قَدْ اسْتَدْعَاهُ السُّلْطَانُ فأَوقَفَهُ بَيْنَ يَدَيهِ وأَقْبَلَ يُنَادِيْهِ وَيُخَاطِبُهُ وَهُوَ في خِلالَ ذَلكَ يَلْتَفِتُ عَنْ السُّلطَانِ يَمِيْنًا وَشِمَالاً وَقَدْ انصَرَفَ قَلبُهُ عن السُّلطانِ فَلاَ يَفْهَمُ مَا يُخَاطِبُهُ بِهِ لأَنَ قَلْبَهُ لَيْسَ حاضِراً مَعَهُ فَمَا ظَنُّ هَذَا الرَّجلِ أَنْ يَفْعَلَ بِهِ السُّلْطَانُ أَفَلَيْسَ أَقَلُّ المَرَاتِبِ في حَقِهِ أَنْ يَنْصَرِفَ مِنْ بَينَ يَدَيْهِ مَمْقوتاً مُبْعداً قَدْ سَقَطَ مِنْ عَيْنَيْهِ .

فَهَذا المُصَلِّي لاَ يَسْتَوي والحَاضِرُ القَلْبِ المُقْبِلُ عَلَى اللَّهِ تَعَالى في صَلاَتِهِ الذي قَدْ أَشْعَرَ قَلْبَهُ عَظَمَةَ اللهِ الذي هُوَ واقِفٌ بَيْنَ يَدَيْهِ فامْتَلأَ قَلْبُهُ مِنْ هَيْبَتِهِ وَذَلَّتْ عُنُقُهُ لَهُ واسْتَحَى مِنْ رَبِّهِ تَعَالى أَنْ يُقْبلَ على غَيرِهِ أَوْ يَلْتَفِتَ عَنْهُ .

وَبَيْنَ صَلاتَيْهِمَا كَمَا قَالَ حَسَّانُ بنُ عَطِيَّةَ : إِنَّ الرَّجُلَيْنِ لَيَكُوْنَانِ في الصَّلاَةِ الوَاحِدَةِ وإِنَّ مَا بَيْنَهُمَا في الفَضْلِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ والأَرْضِ وَذَلِكَ أَنَّ أَحَدَهُمَا مُقْبِلٌ بِقَلْبِهِ عَلى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ والآخَرُ سَاهٍ غَافِلٌ فإذا أَقْبَلَ العَبْدُ عَلَى مَخْلُوقٍ مِثْلِهِ وَبَيْنَهُ وَبَيْنَهُ حِجَابٌ لَمْ يَكُنْ إِقْبَالاً ولا تَقْرِيْباً فَمَا الظنُّ بالخَالِقِ عَزَّ وَجَلَّ وإذا أَقْبَلَ عَلى الخَالِقِ عَزَّ وَجَلَّ وَبَيْنَهُ وَبينهُ حِجَابُ الشَّهَوَاتِ والوَسَاوِسِ ، والنَّفْسُ مَشْغُوفَةٌ بِهَا مَلأَى مِنْهَا فَكَيْفَ يَكُوْنُ ذلكَ إِقْبَالاً ، وَقَدْ أَلْهَتْهُ الوَسَاوِسُ والأَفْكارُ وَذَهَبَتْ بِهِ كلَّ مَذْهَبٍ بِهَا .

اللهمَّ اغْمُرْ قُلُوبَنَا بِذِكْرِكَ وشُكْرِكَ . وَوَفِّقْنَا لِامتِثَال أَمْرِكَ وأَمِّنَا مِنْ سَطْوَتِكَ وَمَكْرِكَ واجْعَلْنَا مِن أَوْلِيَائِكَ المُتَّقِيْنَ وَحِزْبِكَ المفلحِيْنَ واغْفِرْ لَنَا ولوالِدَيْنَا وَلِجَمِيْعِ المُسْلِمينَ بِرَحْمَتِكَ يا أَرْحَمَ الراحِمِينَ وَصَلّى اللهُ عَلَى

محمَّدٍ وَعلى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

(فَصْـــلٌ)

وَقَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ : والعَبْدُ اذَا قَامَ في الصَّلاَةِ غَارَ الشَّيْطَانُ مِنْه فانهُ قَدْ قَـامَ في أَعْظَمِ مقَامٍ وأَقْرَبِهِ وأَغْيَظِهِ للشَّيْطَانِ وأَشَدِّهِ عَلَيْهِ . فَهُوَ يَحْرَصُ وَيَجتَهِدُ كُلَّ الاجْتِهَادَاتِ أَنْ لا يُقِيْمَه فيه ، بَلْ لاَ يَزَالُ بِهِ يَعِدُهُ وَيُمَنِّيهِ وَيُنْسِيْهِ وَيَجلِبُ عَلَيْهِ بِخَيْلِهِ وَرَجِلِهِ حَتَّى يُهَوِّنَ عَلَيْهِ شَأْنَ الصَّلاَةِ فَيَتَهَاوَنُ بِهَا فَيَتْرُكُها . فانْ عَجِزَ عَنْ ذَلِكَ مِنْهُ وَعَصَاهُ العَبْدُ وَقَامَ في ذَلكَ المَقَامِ أَقْبَل عَدُوُّ اللهِ حَتَّى يَخْطُر بَيْنَه وَبَيْنَ نَفْسِهِ وَيَحُولَ بَيْنَه وَبَيْنَ قَلْبِهِ فَيُذَكِّرَه في الصَّلاةِ مَا لَمْ يَذكُرْ قَبْلَ دُخُولِهِ فِيْهَا حَتَّى رُبَّمَا كانَ قَدْ نَسِيَ الشَّيْءَ والحَاجَةَ وأَيِسَ مِنْهَا ، فَيُذْكِرَهُ إِيَّاهَا في الصَّلاَةِ لِيَشْغَلَ قَلْبَهُ بِهَا ، وَيَأْخُذَه عَن اللهِ عَزَّ وَجَلَّ ، فَيَقُومُ فِيْهَا بلا قَلْب فَلا يَنَالُ مِنَ إقبالِ اللهِ تعالَى عَلَيْهِ وكَرَامَتِهِ وقُربِهِ مَا يَنَالُه المقبلُ عَلَى رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ الحاضِرُ القَلْب في صَلاَتِهِ فَيَنْصَرِفُ مِنْ صَلاَتِهِ مِثلَ مَا دَخَلَ فِيْهَا بِخَطَايَاهُ وَذُنُوبِهِ وأَثْقَالِهِ لَم تَخُفَّ عَنْهُ بالصَّلاةِ .

فالصَّلاةُ انَّمَا تُكَفِّرُ سَيئاتِ مَنْ أَدَّى حَقَّهَا وأَكْمَلَ خُشوعَهَا ، وَوَقَفَ بينَ يَدي اللهِ تَعالَى بِقَلْبِهِ وَقَالَبِهِ ، فَهَذَا اذَا انْصَرَفَ منْهَا وَجَدَ خِفَّةً في نَفْسِهِ ، وأَحسَّ باثقَالٍ وُضِعَتْ عَنْهُ ، فَوَجَدَ نَشَاطاً وَرَاحَةً وَرَوحاً حَتَّى أَنَّهُ يَتَمَنَّى أَنَّهُ لَمْ يَخْرُجْ مِنْهَا لأَنَّها قُرَّةُ عَينِهِ وَنَعِيْمُ رُوحِهِ وَجَنَّةُ قَلْبِهِ وَمُسْتَرَاحُه في الدُّنْيَا فَلاَ يَزَالُ كَأَنَّه في سِجْنٍ وَضِيْقٍ حَتَّى يَدْخلَ فِيْهَا فَيَسْتَرِيْحُ بِها لا مِنْهَا .

اَلمُحِبُّونَ يَقولُونَ : نُصَلِّي فَنَسْتَرِيحُ بِصَلاتِنَا كَمَا قَالَ إِمَامُهم

وَقُدْوَتُهم وَنَبِيُّهُمْ صَلى اللهُ علَيهِ وسلمَ يَا بِلالُ أَرِحْنَا بالصَّلاةِ وَلَمْ يَقُلْ أَرِحْنَا مِنْهَا .

وَقَالَ صَلّى اللهُ عَليهِ وَسَلَّمَ جُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي في الصَّلاةِ فَمَن جُعَلْت قُرةُ عَيْنِهِ في الصَّلاةِ كَيْفَ تَقَرُّ عَيْنُه بِدونِهَا وَكَيْفَ يُطِيْقُ الصَّبْرَ عَنْهَا فَصَلاةُ هَذا الحاضِرِ بِقَلْبِهِ الذي قُرَّةُ عَيْنِهِ في الصلاةِ هِيَ الّتِي تَصْعَدُ وَلَها نُوْرٌ وَبُرْهَانٌ حَتَّى يُسْتَقْبَلَ بِهَا الرَّحْمَنُ فَتَقُولُ حَفِظَكَ اللهُ تَعَالى كَمَا حَفِظْتَنِي وأَمَّا صَلاَةُ المُفَرّطِ المُضَيّعِ لِحُقُوقِهَا وَحُدُودِهَا وَخُشُوعِهَا فإنَّهَا تُلَفُّ كَمَا يُلَفُّ الثَّوْبُ الخَلِقُ وَيُضْرَبُ بِهَا وَجْهُ صَاحِبِها وَتَقُوْلُ ضَيَّعَكَ اللّهُ كَمَا ضَيَّعْتَنِي .

وَقَدْ رُوِيَ في حَدِيْثٍ مَرْفُوعٍ عَنْ ابن عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا يَرْفَعُهُ أَنَّهُ قَال : مَا مِنْ مُؤْمِنٍ يُتِمُّ الوُضُوْءَ إلى أَمَاكِنِهِ ثُمَّ يَقُوْمُ إلى الصَّلاَةِ في وَقْتِهَا فَيُؤَدّيْهَا لِلّهِ عَزَّ وَجَلَّ لَمْ يَنْقُصْ مِنْ وَقْتِهَا وَرُكُوعِهَا وَسُجُودِهَاوَمَعالِمِهَا شَيْئاً إلا رُفِعَتْ لَهُ إلى اللّهِ عَزْ وَجَلَّ بَيْضَاءَ مُسْفِرةً يسْتَضِيءُ بِنُوْرِهَا مَا بَيْنَ الخَافِقَيْنِ حَتّى يَنْتَهِي بها إلى الرَّحْمن عزوَجَلَّ .

وَمَنْ قَامَ إلى الصَّلاةِ فَلَمْ يُكْمِلْ وُضُوْءَهَا وأَخَّرَهَا عَنْ وَقتِهَا وَاسْتَرَقَ رُكُوْعَهَا وَسُجُوْدَهَا وَمَعَالِمِهَا رُفِعَتْ عَنْهُ سَوْدَاءَ مُظْلِمَةً ثُمَّ لا تُجَاوِزُ شَعَرَ رَأْسِهِ تَقُولُ ضَيَّعَكَ اللهُ كَمَا ضَيَّعْتَنِي ولِلّهِ دَرُّ اسْماعِيْلَ المُقْرِي رَحِمَهُ اللّهُ حَيْثُ قَالَ :

تُصَلِّي بِلاَ قَلْبٍ صَلاَةً بِمِثْلِهَا
يَكُونُ الفَتَى مُسْتَوجِباً لِلْعُقُوبَةِ

تَـظَلُّ وَقَـدْ أَتْمَمْتَهَـا غَيْـرَ عَـالِمٍ
تَـزِيْـدُ إِحْتِيَـاطاً رَكعَـةً بَعْـدَ رَكْعَـةِ
فَـوَيْلَكَ تَـدْرِي مَنْ تُنَاجِيْـهِ مُعْـرِضاً
وَبَيْنَ يَـدَيْ مَنْ تَنْحَى غَيْـرَ مُخْبِتِ
تَـخَـاطِبُـهُ إِيَّـاكَ نَـعْـبُـدُ مُـقْـبِـلاً
عَـلَى غَيْـرِهِ فِـيْهَـا لِـغَيْـرِ ضَـرُورَةِ
وَلَـوْ رَدَّ مَنْ نَـاجَـاكَ للغَيْـرِ طَـرْفُـهُ
تَـمَـيَّـزْتَ مِـنْ غَـيظٍ عَـلَيْـهِ وَغَـيـرةِ
أَمَا تَسْتَحِي مِنْ مَالِكِ الملكِ أَنْ يَرَى
صُـدُودَكَ عَنْـهِ يَـا قَلِيـلَ الـمُـرُؤَةِ
إِلَهِيْ اهْـدِنا فِيْمَنْ هَـدَيْتَ وَخُـذْ بِنـا
إِلى الحَقِّ نَهْجـاً في طَـرِيقِ السَّـوِيَّـةِ

اللهم انْـظُمْنَا في سِلْكِ عِبَـادِكَ المُفْلِحِينَ واجْعَلْنَا من عِبَـادِكَ المُخْلِصِينَ الذينَ لا خَوْفٌ عليهِمْ ولا هُمْ يَحْزَنُونَ واغْفِرْ لَنَا ولوالِدَيْنَا ولِجَمِيْع المُسْلِمِينَ الاحْيَاء مِنْهُم والمَيّتِينَ بِرَحْمَتِكَ يا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ وَصَلّى اللهُ عَلى نَبِيّهِ مُحَمّدٍ وَعَلى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ .

(فصـــل)
فـــائدةٌ جَليـــلةٌ

قَالَ ابْنُ القَيّم رَحِمَهُ اللَّهُ في حَادِي الأَرْواحِ وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ سبحانَهُ لكلّ مَطْلوبٍ مِفْتَاحاً يُفْتَحُ بِهِ فَجَعَلَ مِفْتَاحَ الصَّلاةِ الطُّهورِ وَمِفْتَاحَ الحَجِّ

الإحْرامُ ومفتاحَ البِرِ الصدقةُ وَمِفْتَاحَ الجَنةِ التَّوحِيدُ ومِفتاحَ العِلم حُسْنُ السؤَالِ وَحُسْنَ الاصْغَاءِ وَمفتاحَ النَّصْرِ والظَفَرِ الصَّبْرُ وَمفتاحَ المزيدِ الشُّكْرُ وَمِفْتَاحَ الوِلاَيَةِ المَحَبَّةُ وَمِفْتَاحَ الرغْبةِ في الآخِرةِ الزُّهْدَ في الدُّنيا .

ومفتاحَ الإيمانِ التفكرُ فيمَا دَعا اللَّهُ عِبَادَهُ الى التَّفكُر فيهِ وَمفْتَاحَ الدُّخُولِ عَلى اللهِ اسلامَ القَلْبِ وَسَلاَمَتَهُ لَهُ والاخْلاَصَ لَهُ في الحُبّ والبُغْضِ لَهُ والفعلَ والتَّرْكَ ومفتاحَ حياةِ القَلْبِ تدبّرَ القُرْآنِ والتَضرُّعَ بالأسْحَارِ وَتَرْكَ الذنوبِ وَمفتاحَ حُصُولِ الرحْمَةِ الاحسانُ في عِبادَةِ الخَالِقِ والسَّعْىَ في نَفْعِ عَبِيْدِهِ وَمفْتَاحَ الرِّزْقِ السَّعيُ مَعَ الاسْتغفارِ والتَّقْوَى وَمِفْتَاحَ العِزّ طَاعَةُ اللهِ وَمِفْتَاحَ الاسْتعدَادِ للآخِرَةِ قَصْرُ الأمَلِ وَمِفْتَاحَ كُلَّ خَيْرٍ الرَّغْبَةُ في اللّهِ والدّارَ الآخِرَةَ وَمِفْتَاحُ كُلِّ شَرٍ حُبُّ الدُّنْيَا وَطُولُ الأمَلِ .

وَهَذَا بابٌ عظيمٌ مِن أَنْفَعِ أَبْوابِ العِلْمِ وَهُوَ مَعْرِفَةُ مَفَاتِيْحِ الخَيرِ والشَّرِ ولا يُوَفَّقُ لِمَعْرِفَتِهِ وَمُرَاعَاتِهِ إلا مَنْ عَظَمَ حَظُّهُ وَتَوفيقه فإنَّ اللهَ سبحانَه وتَعَالى جَعَلَ لِكُلِّ خَيْرٍ وَشَرٍ مِفْتاحاً وَبَاباً يُدْخَلُ مِنْه إليهِ كَمَا جَعَلَ الشِّرْكَ والكِبْرَ والإعْرَاضَ عَمَّا بَعَثَ اللهُ بِهِ رَسُولَهُ والغَفْلَةُ عن ذِكْرِهِ والقِيَامِ بِحَقِهِ مِفْتَاحاً لِلنَّارِ وَكَما جَعَلَ الخَمْرَ مِفْتَاحَ كُلِّ إثْمٍ وَجَعَلَ الغِنَاءَ مُفْتَاحَ الزِّنَا وَجَعَل اطلاقَ النَّظَر في الصُّوَرِ مِفْتَاحَ الخَيْبَةِ والحِرْمَانِ وَجَعَلَ المَعَاصِيَ مِفْتَاحَ الكُفْرِ وَجَعَلَ الكَذِبَ مِفْتَاحَ النِّفَاقِ وَجَعَل الشُّحَ والحِرْصَ مِفْتَاحَ البُخْلِ وَقَطِيْعَةَ الرَّحِم وأَخذَ المَالِ مِنْ غَيْرِ حِلِّهِ وَجَعَلَ الاعْراضَ عَما جَاءَ بِهِ الرسولُ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ مِفْتَاحَ كُلِّ بِدْعَةٍ وَضَلاَلٍ وَهَذِهِ أُمورٌ لا يُصَدِّقُ بِهَا إلاَّ كلُّ مَن لَهُ بَصِيْرَةٌ صَحيحةٌ وَعَقْلٌ يَعْرِفُ بِهِ مَا في

نَفْسِهِ انتهى .

وَقَالَ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالى : عَلاَمَةُ تَعْظِيْمِ الأَوَامِرِ والنَّواهِي رِعَايَةُ أَوْقَاتِها وَحُدُودِها والتَّفْتِيشُ على أَرْكانِهَا وَوَاجِبَاتِهَا وَكَمَالُهاوالحِرْصُ على تَحَيُّنِها في أَوْقَاتِهَا والمُسَارَعَةُ إِلَيْهَا عِنْدَ وُجُوبِهَا والحُزْنُ والكآبَةُ والأَسَفُ عِنْدَ فَوَاتِ حَقٍّ مِنْ حُقوقِهَا كَمَنْ يَحْزَنُ على فَوَاتِ الجَمَاعَةِ وَيَعْلَمُ أَنَّهَا لَوْ تُقُبِلَتْ منهُ صلاتُهُ مُنْفَرِداً فإِنَّهُ قَدْ فَاتَهُ سَبْعَةٌ وَعِشْرُوْنَ ضِعْفاً .

وَلَوْ أَنَّ رَجُلاً يُعَانِي البَيْعَ والشِّرَاءَ يَفُوتُهُ في صَفْقَةٍ وَاحِدَةٍ في بَلَدِهِ مِنْ غيرِ سَفَرٍ وَلاَ مَشَقةٍ سَبْعَةٌ وَعِشْرُوْنَ دِينَاراً لأَكلَ يَديهِ نَدَماً وأَسَفاً فكيفَ وَكُلُّ ضِعْفٍ مِمَّا تُضَاعَفُ بِهِ صَلاةُ الجماعَةِ خَيرٌ مِن أَلْفٍ وأَلفِ أَلفٍ وما شَاءَ اللهُ تَعَالَى .

فإذا فَوَّتَ العَبْدُ على نَفْسِهِ هَذا الربْحَ ، وَكَثيرٌ مِن العُلَماءِ يَقُولُ لا صَلاةَ لَهُ . وَهُوَ بارِدُ القَلْبِ فارِغٌ مِن هَذِهِ المُصِيْبةِ غيرُ مُرْتاعٍ لَهَا فَهَذا مِنْ عَدَم تَعْظِيْمِ أَمْرِ اللهِ تَعَالى في قَلْبِهِ وَكَذلكَ إذا فَاته أَوَّلُ الوَقْتِ الذي هو رضوانُ اللهِ تَعَالى ، أَوْ فَاتَه الصَّفُ الذي يُصَلي اللهُ وَمَلائِكَتُه عَلى مَيَامِنِهِ ولَوْ يَعلمُ العَبْدُ فَضِيْلَتَهُ لَجَالَدَ عَليهِ وَلَكانَتْ قُرْعَةً .

وكذلكَ لَو فَوَّتَ الجَمْعَ الكثيرَ الَّذي تُضَاعَفُ الصَّلاةُ بِكَثْرَتِهِ وكُلَّمَا كَثُرَ الجَمْعُ كانَ أَحَبَّ إلى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَكُلَّمَا بَعُدَتْ الخُطَا كَانَ كُلَ خُطْوَةٍ تَحُطُّ خَطِيئَةً وأُخْرَى تَرْفَعُ دَرَجَةً وَكَذلِكَ لو فَوَّتَ الخُشُوْعَ في الصَّلاةِ وَحُضورَ القلبِ فيْمَا بَيْنَ يَدَيِ الرَّبِ وَتَعالى الذي هُوَ رُوحُ الصَّلاةِ وَلُبُّهَا فَصَلاةٌ بِلا خُشُوعٍ ولا خُضوعٍ كَبَدَنٍ مَيِّتٍ لاَ رُوْحَ فِيهِ أَفَلاَ يَسْتَحِي العبد أَنْ يُهْدِيَ إلى مَخْلُوقٍ مِثْلِهِ عَبْداً مَيْتاً أَوْ جَارِيَةً مَيِّتَةً ، فما ظَنُ هَذا

العَبْدِ أَنْ تَقَعَ الهدِيَّةُ مِمَّنْ قَصَدَهُ بِهَا مِن مَلِكٍ أو أَمِيْرٍ أَوْ غَيرِهِ ، فَهَكَذَا سُوْءُ الصَّلاةِ الخَالِيَةِ مِن الخُشُـوعِ والحُضُورِ وَجَمْعِ الهِمَّةِ عَلى اللهِ تَعَالى فِيها بِمَنْزِلةِ هَذِهِ الأَمَةِ أو العَبْدِ المَيِّتِ الذي يُرِيْدُ إهْدَاءَهُ إلى بَعْضِ المُلُوكِ .

وَلِهَذا لا يَقْبَلُهَا اللهُ تَعَالى مِنه وإنْ اسقَطتْ الفُرض في احكام الدنيا ولا يُثِيْبُه عَلَيْهَا فَإِنَّهُ لَيْسَ لِلْعَبدِ مِن صَلاَتِهِ إلاَّ مَا عَقَلَ مِنْهَا ، كَمَا في السُنَنِ وَمَسندِ الامامِ أحمدَ وَغَيْرِهِ عن النبي صلَّى اللهُ عليهِ وسلم أَنَّهُ قالَ : إن العَبْدَ لَيُصَلِّي الصَلاَةَ وما كتبَ لَهُ إلا نِصْفِها إلا ثُلُثَهَا إلا رُبُعَهَا إلا خُمُسَهَا حَتَّى بَلَغَ عُشْرَهَا . وَيَنْبَغِي أنْ يُعْلَمَ أَنَّ سَائِرَ الأَعْمَالِ تَجْرِيْ هَذا المَجْرَى فَتَفَاضُلُ الأعمالِ عندَ اللهِ تعالى بِتَفاضُلِ ما في القُلُوبِ مِن الإيمانِ والإخلاصِ والمَحَبَّةِ وتوابِعِهَا .

وتَفَـاضُـلِ الأَعْمَـالِ يَتْبَـعُ مَـا يَقُـوْ
مُ بِقَـلْبِ صَـاحِـبِهَـا مِـن الإِيْـمَـانِ
حَتَّى يَكُـونَ العَـامِـلاَنِ كِـلاَهُـمَـا
فـي رُتْـبَـةٍ تَـبْـدُوْ لَـنَـا بِـعِـيَـانِ
هَـذَا وَبَـيْنَهُـمَـا كَـمَـا بَـيْـنَ السَّـمَـا
وَالأَرْضِ في فَضْـلٍ وفـي رُجْـحَـانِ
وَيَـكُـوْنُ بَـيْـنَ ثَـوَابِ ذَا وَثَـوابِ ذَا
رُتَـب مُـضَـاعَـفَـةٌ بِـلاَ حُـسْـبَـانِ
هَـذَا عَـطَاءُ الـرَّبِ جَـلَّ جَـلاَلُـهُ
وَبِـذاكَ تُـعْـرَفُ حِـكْـمَـةُ الـرَّحْـمـنِ

فالمَدَارُ عَلى أَعْمَالِ القُلُوبِ فإذا كانَ القَلْبُ حَاضِراً وَمُلْقٍ سَمْعَهُ لِما يَسْمَعْ وَلِمَا يَنْطِقُ هُوَ بِهِ مِن قِرَاءَةٍ وَتَكْبِيرٍ وَتَسْبِيحٍ وَقَوْلِ ربي اغفرْ لِيْ وَقول سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ وَمَعانِي الفاتِحَةِ والتحياتِ ونحو ذلكَ مِن صَلاتِهِ وأَمَّا الغافِلُ الذي لا يَتَدَبَّرُ ولا يَتَفَهَّمُ وَيَعْبَثُ ولاَ يَهْتَمُ لَهَا فَهَذا مَحْصُوْلُهُ ضَئِيلٌ جِدّاً أو معدوم .

شـــعراً :

لَكَ الحَمْدُ يَا ذَا الجُوْدِ والمَجْدِ والعُلَا
تَبَـارَكْتَ تُعْـطِيْ مَنْ تَشَـاءُ وَتَمْنَـعُ
إِلـهِيْ وَخَـلاَّقِـيْ وَسُـؤْلِـيْ وَمَـوْئِـلِيْ
إِلَيْـكَ لَـدَى الاعْسَـارِ واليُسْـرِ أَفْـزَعُ
إِلـهِـيْ لَئِـنْ خَـيَّبْتَـنِـي وَطَـرَدْتَـنِـيْ
فَمَنْ ذَا الـذيْ عَمَّـا أُحَـاذِرُ يَنْـفَـعُ
إِلـهِيْ لَئِـنْ جَلَّتْ وَجَـمَّتْ خَـطِيْئَتِـيْ
فَـعَفْـوُكَ عَـن ذَنْـبِـيْ أَجَـلُّ وَأَوْسَـعُ
إِلهِي لَئِـنْ أَعْـطَيْتُ نَـفْسِـي سُؤْلَـهَـا
فَهَـا أنـا في رَوْضِ النَّـدَامَـةِ أَرْتَـعُ
إِلهِيْ تَـرَى حَـالِيْ وَفَقْـرِيْ وَفَـاقَتِيْ
وأَنْـتَ مُنَـاجَـاتِـيْ الخَـفِيَّـةَ تَـسْمَـعُ
إِلهِيْ فـلا تَقْـطَعْ رَجَـائِي وَلاَ تُـزِغْ
فُؤَادِيْ فَلِي في سَيْبِ جُوْدِكَ مَطْمَعُ

إلـهِـيْ أَجِرْنِـيْ مِـنْ عَذَابِـكَ إِنَّـنِـي
أَسِيْـرٌ ذلـيلٌ خائِـفٌ لَـكَ أخضـعُ
إلـهِيْ فَـآنِسْـنِـيْ بِـتَـلْقِيْـنِ حُـجَّـتِـيْ
إذا كَـانَ لِيْ فِي القَبْـرِ مَثْوىً وَمَضْجَـعُ
إلـهِيْ لَئِـنْ عَـذَّبْـتَـنِـيْ أَلْـفَ حَـجَّـةً
فَـحَبْـلُ رَجَـائِـيْ مِنْـكَ لا يَـتَقَـطَّعُ
إلـهِي أَذِقْـنِيْ طَـعْمَ عَـفْـوِكَ يَـوْمَ لَا
بَـنُـوْنَ وَلا مَـالٌ هُـنَـالِـكَ يَـنْـفَـعُ
إلهِيْ لَئِنْ لَم تَـرْعَنِيْ كُنْتُ ضَـائِعـاً
وإنْ كُنْتَ تَـرْعَـانِي فَلَسْتُ أُضَيَّـعُ
إلهِيْ إذَا لَمْ تَعْفُ عَن غَيْـرِ مُحْسنٍ
فَـمَنْ لِـمُسِيءٍ بـالْـهَـوَى يَـتَـمتَّـعُ
إلهِيْ لَئِنْ قَصَّـرْتُ فـي طَلَبِ الـتُّقَى
فَلَسْتُ سِـوَى أَبْـوَابِ فَضْلِكَ أَقْـرَعُ
إلـهِيْ اقِـلْنِيْ عَـثْـرَتِيْ وَامْـحُ زَلَّـتِيْ
فَـإِنِـيْ مُـقِـرٌ خَـائِـفٌ مُـتَـضَـرِّعُ
إلـهِـيْ لَئِـنْ خَـيَّـبْـتَـنِـي وَطَـرَدتَـنِـيْ
فَمَـا حِيْلَتِيْ يَـا رَبُ أَمْ كَيْفَ أَصنَعُ
إلهِيْ حِلِيْفُ الحُبِّ بـاللَّيْـلِ سَـاهِـرٌ
يُـنَـاجِيْ وَيَـبْكِـيْ والغَـفُـولُ يُهَـجِّـعُ
إلهِيْ لَئِـنْ تَعْفُـوْ فَعَـفْـوُكَ مُنْقِـذِيْ
وإنِيْ يَـا رَبَّ الـوَرَى لَـكَ أَخْضَـعُ

اللهم ارْحَمْ عِبَاداً غَرَّهُمْ طُوْلُ إمْهَالِكَ وأَطْمَعَهُمْ دَوَامُ إفْضَالِكَ وَمَدُّوْا أَيْدِيَهُمْ إلى كَرَمِ نَوَالِكَ وَتَيَقَنُوا أنَّ لا غِنَى لَهُم عَن سُؤآلِكَ وَجُدْ عَلَيْنَا وَعَليهِمْ بِرَحْمَتِكَ الوَاسِعَةِ واغفر لنا وَلَهُم وَلِجَمِيْعِ المسلمينَ يا ربَّ العالمِينَ وصلى الله على محمدٍ وعلى آلهِ وصحبهِ أجْمعين .

مــوعظــة

عِبَادَ اللهِ تَغَيَّرَ الناسُ في أَحْوَالِهم الدِّيْنِيَّةِ تَغَيُّراً يُدْهِشُ الناظِرِيْنَ في زَمَنٍ قَلِيْلٍ ، هَذِهِ الصَّلاةِ التي هِي آكَدُ أركَانِ الإسلَامِ بَعْدَ الشهادَتَينِ وهِيَ عَمُودُ الإسلامِ قَدْ أَعْرَضَ عنها الكثيرُ مِن الناسِ غَيْرَ مُبَالِينَ بِذَلِكَ جَهِلُوا مَا هِيَ الصَّلاةَ وأيُ قِيْمَةٍ قِيْمَتُهَا وَمَا مَنْزِلَتُهَا بَيْنَ الطَاعاتِ ، وما علموا أنَّها الصِلةُ بَيْنَ العَبْدِ وَبَيْنَ رَبِّهِ وَلِذَلِكَ هِيَ تُطَهِّرُ المُصَلِيْ مِن جَمِيْعِ ذُنُوْبِهِ إذا اجْتُنِبَتِ الكَبَائِرُ كَالزِّنَا واللِّواطِ وأَكْلِ الرِّبَا .

وَيَزِيْدُكَ مَعْرِفَةً بِهَا أنْ تَعْرِفَ مَالَهَا مِنْ مُتَعَلِّقَاتِ . ذَلِكَ أَنَّهُ إذَا تَوَضَأَ لَهَا ذَهَبَتْ ذُنُوبُ أَعْضَاءِ وُضُوئِهِ مَعَ ذَهَابِ الماءِ فإذا تَشَهَّدَ بَعد الوُضُوءِ فُتِّحَتْ لَهُ أَبْوَابُ الجَنَّةِ يَدْخلُ مِن أَيِّهَا شَاءَ فإذا مَشَى إلى المَسْجِدِ كَانَ لَهُ بِكُلِ خَطْوَةٍ يَخْطُوهَا تَحُطُّ عنه خَطِيئَةٌ وَرُفِعَ لَهُ دَرَجةٌ فإذا انْتَظَر الصلاةَ فإنهُ لا يَزَالُ في صلاةٍ .

وأما المُؤَذِّنُونَ فَهُمْ أَطْوَلُ الناسِ أَعْنَاقاً يَوْمَ القِيَامَةِ وَيَشْهَدُ لَهُمْ كلُ مَا يَسْمَعُهُم حتَّى الأَشْجَارَ والأَحْجَارَ .

وَمَنْ قَالَ مِثْلَ مَا يَقُوْلُ المُؤَذِّنُ ثُمَّ دَعَا عَقِبَهُ وَجَبَتْ لَهُ شَفَاعَةُ النبي صلَّى اللهُ عليهِ وسلم وأَمَا قَمُّ المسجدِ وَتَنْظِيْفُهُ فَهُوَ مَهْرُ الحُورِ العَيْنِ في الجَنَاتِ

وَمَن بَنى لِهِ مَسْجِداً وَلَو كَمَفْحَصِ قَطَاةٍ بنى اللهُ له بَيْتاً في الجنةِ .

والخُلَاصَةُ أنَّ المُؤْمِنَ بِصَلاتِهِ أَبعَدَ الناسِ مِن المُحَرَّمَاتِ والفَوَاحِشِ والزِّنَا واللِّواطِ وَشُرْبِ الخَمْرِ والدخانِ والمَيْسِرِ وَقَوْلِ الزُّوْرِ والسَّرِقَةِ والقَتْلِ والقَذْفِ وحَضُورِ آلاتِ اللَّهْوِ المذياعِ والتلفزيونِ والسِّيْنَمَاءِ والبَكَمَاتِ وأبْعَدَ الناسِ عن الغِشِّ والرِّبَا والبَخْسِ والمَكْرِ والخِدَاعِ وَغيرِهِمَا مِمَّا يُخِلُ بالدِّيْنِ أو يُنَقِّصُ المُرؤَةَ والشَّرَفَ ، إذْ مِن غَيْرِ المَعْقُولِ أنَّ مَنْ بَلَغَ بِهِ حُبُهُ في الاستقامَةِ أنْ يَقِفَ أَمَامَ سَيِّدِه وَمَوْلَاهُ الذي رَبَّاهُ وَرَبَّى جَمِيْعَ العَالمين بِنِعَمِهِ وَيَسْتَهْدِيْهِ طَرِيْقَ الهِدَايَةِ وَقَدْ قَدَّرَ رَبُّهُ وَرَكَعَ لَهُ وَسَجَدَ وَحَمِدَهُ وَأَثْنَى عَليهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ وَشَكَرَ لَهُ أن يُرَى بَعْدَ ذَلِكَ جَوَّالاً في طُرُقِ الغوَايَةِ والمآثِمِ الَّتِي يَنْتَابُهَا الفُسَاقُ الذِيْن مَرَدُوْا على الفُجُورِ وَتَفَنَّنُوا فِيهِ . . صَدَقَ اللهُ العظيم .

إن الصَّلاةَ تَنْهَى عَن الفَحْشَاءِ والمُنْكَرِ : هَذِهِ مِن ثَمَراتِ الصَّلاةِ .

اللهم انْظِمْنَا في سِلْكِ عِبَادِكَ المُفْلِحِينَ وَنَجِّنَا مِن لَفَحَاتِ الْجَحِيْم واغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَلِجَمِيْعِ المُسلمينَ الأَحْيَاءِ مِنهم والميتين برحمتكَ يا أرحمَ الرَّاحمين وصلى اللهُ على محمدٍ وعلى آلهِ وصحبهِ أجْمعين .

(فصـل)

في ذِكْرِ بَعْضِ فَوَائِدِ صَلاةِ الجَمَاعَةِ وبَيانِ حُكْمِهَا وأَدلةِ وجُوبِهَا وذِكْرِ طَرَفٍ مِن فَوَائِدِ صَلاةِ الرَّوَاتِبِ والنَّوافِل

إعلمْ وَفَّقَنَا اللهُ وإيَّاكَ وَجَمِيْعَ المُسلِمِيْنَ لِمَا يُحِبُّهُ ويَرْضَاهُ أَنَّهُ شُرِعَ

لِهذِهِ الأُمَّةِ الاجْتِمَاعُ لِلْعِبَادَةِ في اوقاتٍ مَعْلُومَةٍ ، فمِنْهَا ما هُوَ في اليَومِ واللَّيْلَةِ لِلْمَكْتُوبَاتِ ومِنْهَا مَا هُوَ في الأُسْبُوعِ وهُوَ صَلاةُ الجُمُعَةِ ومنها ما هُوَ في السَّنَةِ مُتَكَرِّرٌ وهُوَ صَلاةُ العِيْدَيْنِ لِجَمَاعَةِ كُلِ بَلَدٍ ومنها ما هُوَ عَامٌ في السَّنَةِ وهُوَ الوُقُوفُ بعَرفَةَ ، وذلكَ لأَجْلِ التَّوَاصُلِ والتَّوَادُد والتَّعَاوُنِ والتَّآخِيْ والتَّآلُفِ والتَّعَارُفِ والتَّعَاطُفِ والتَّرَاحُمِ ، وقُوَّةً لِلرَّابِطَةِ بَيْنَ المسلِمِينَ ، ومُضَاعَفَةَ الأَجْرِ بالاجْتِمَاعِ ، وَكَثْرَةِ الخُطَىٰ ، ولِتَعْلِيْمِ الجَاهِلِ لِأَحْكَامِ الصَّلاةِ .

فَصَلاةُ الجَمَاعَةِ هِيَ المتَكَرِّرُ يَوْمياً الاجْتِمَاعُ لَهَا في المسَاجِدِ وهِيَ وَاجِبَةٌ وُجُوْبَ عَينٍ على الرجالِ القادِرِيْنَ حَضَراً وسَفراً حتى في شِدَّةِ الخَوْفِ لِقَولِهِ تعالى : ﴿ وإِذَا كُنْتَ فِيهِم فأَقَمْتَ لَهُمُ الصلاةَ فلتقمْ طائفة منهم معكَ ﴾ . وقال تعالى : ﴿ فإن خِفْتُمْ فَرِجَالاً أو رُكْباناً ﴾ .

وعن أبي هُرَيْرَةَ قال : قال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : « اثقلُ الصلاةِ على المُنَافِقِينَ صَلاةُ العِشَاءِ وصَلاةُ الفَجْرِ ولو يَعْلَمُونَ ما فِيْهِمَا لأَتوهُمَا ولَوَ حَبْوَا . ولقد هَمَمْتُ أَنْ آمُرَ بالصلاةِ فَتُقَامَ ثمَّ آمُرَ رَجُلاً فَيُصَلِيْ بالنَّاسِ ثُمَّ انْطَلِقَ مَعيَ بِرِجَالٍ مَعَهُم حِزَمٌ مِن حَطَبٍ إلى قَوْمٍ لا يَشْهَدُوْنَ الصلاةَ فأحَرِّقَ عليهِم بُيُوتَهمُ في النارِ » متفق عليه .

وعن أبي هريرة أَنَّ رَجُلاً أَعْمَى قال يا رسولَ اللهِ ليسَ لِيْ قَائِدٌ يَقُودُنِي إلى المسجدِ فسألَ رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم أنْ يُرَخِصَ لَهُ فَيُصَلِيَ في بَيْتِهِ فَرَخَصَ لَهُ فَلَمَّا وَلَّى دَعَاهُ فقال هَلْ تَسْمَعُ النِّدَاءَ قالَ : نَعَمْ قال : فَأَجِبْ . رواه مسلم والنسائي .

وروى أبو داود عن عَمْرِو ابن أُمِّ مَكْتُومٍ أَنَّهُ أَتَى النَّبِيَّ صلى اللهُ

عليه وسلم فقال : يا رَسولَ اللهِ إنَّ المدينةَ كَثِيْرةُ الهوَّامِ والسِّبَاعِ وأنا ضَرِيرُ البَصَرِ شَاسِعُ الدَّارِ وَلِيْ قَائِدٌ لا يُلَائِمُنِيْ فَهَلْ تَجد لي رخصةً أن أصلي في بيتي فقال النبي صلَّى الله عليهِ وسلم : هل تَسْمَعُ النِّداءَ قال نَعَمْ قال فَأجِبْ فإنِيْ لا أَجِدُ لَكَ رُخْصَةً فَهَذَا رَجُلٌ ضَرِيْرٌ شَكَا مَا يَجِدُ مِن المَشَقَّةِ في مَجِيْئِهِ إلى المسجدِ وليسَ له قائِدٌ يَقُوْدُهُ إليهِ وَمَع هذا لَمَ يُرَخِصْ لَهُ النبيُ صلى اللهُ عليه وسلم في الصلاةِ في بَيْتِهِ فكَيْفَ بِمَنْ يَكُونُ صَحِيْحُ البَصَرِ مُتَوَفِّرةُ الأَنْوَارُ في طرِيْقِهِ وهُوَ آمِنٌ على نَفْسِهِ وأهلِهِ ومالِهِ .

ومَعَ ذلكَ لا يُجِيْبُ دَاعِيَ اللهِ الذي خَلَقَهُ وَرَزَقَهُ وأَعْطَاهُ وأَقْنَاهُ وَوَعَدَهُ إنْ أَطَاعَهُ بِجَمِيْعِ مَا تَطْلُبُهُ نَفْسُهُ وتَمَنَّاهُ ، وَهَدَّدَ وتَوَعَدَ مَن عَصَاهُ واتَّبَعَ هَوَاه .

وعن ابن عباسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما قال : قال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : « مَن سَمِعَ النِّداءَ فلم يَأتِ فلا صَلاةَ لَهُ إلا مِن عُذْرٍ » . وأخرجَ الحاكمُ في مُسْتَدْرَكِهِ عَن ابنِ عباسٍ رَضيَ اللهُ عنهما قَالَ : قَالَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : « ثلاثةٌ لَعَنَهُم اللهُ ، مَن تَقَدَّمَ قَوْماً وهُمْ لَه كارِهُونَ وامرأةٌ باتَتْ وَزَوْجُهَا عَلَيْهَا سَاخِطٌ ورَجُلٌ سَمِعَ حَيَّ على الصَّلاةِ حَيَّ على الفَلَاحِ ثُمَّ لَمْ يُجِبْ » وحَدِيْثِ لا صَلاةَ لِجَارِ المَسْجِدِ إلا بالمسجدِ رُوِيَ مَرْفُوعاً وَمَوْقُوفاً .

عن ابن عباسٍ قال : قال رسولُ الله صلى اللهُ عليه وسلم : « مَنْ سَمَّعَ النداء فلمْ يَمْنَعْهُ مِن اتِبَاعِهِ عُذْرٌ قالوُا ومَا العُذْرُ قال خوْفٌ أو مَرَضٌ لم تُقْبَلْ منه الصلاةُ التِّي صَلَّى » .

وعن معاذِ بن أنس عن رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم أَنَّهُ قَالَ : « الجَفاءُ كلُ الجَفاءِ والكُفْرُ والنِّفَاقُ مَن سَمِعَ مُنَادِيَ اللهِ يُنَادِي إِلَىَ الصلاةِ فلا يُجِيْبُهُ » رواه أحمد والطبراني .

وعن أبِي الدرداءِ قال : قال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : « ما مِن ثَلاثَةٍ في قَرْيَةٍ ولا بَدْوٍ لا تُقَامُ فِيهم الصَّلاةُ إلا قد اسْتَحْوَذَ عليهم الشيطانُ فَعَلَيْكَ بالجَمَاعَةِ فإنمَّا يَأْكُلُ الذِئْبُ القاصِيَةَ » . رواه أحم د وأبو داود والنسائي .

وعن أمير المؤمنينَ عُمَرَ بنِ الخطابِ رضيَ اللهُ عنه قال : « ما بالُ أقْوَامٍ يَتَخَلَّفُونَ عن الصلاةِ فَيَتَخَلَّفُ لِتَخَلُّفِهِم آخَرُوْنَ لأَنْ يَحْضُروا الصلاةَ أَوْ لأَبْعَثَنَّ عليهم مَن يُجَافِي رِقَابِهم . وقال ابنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عنه : « مَن سَرَّهُ أنْ يَلْقَى اللهَ غداً مُسْلِماً فلْيُحَافِظْ على هؤلاءِ الصلواتِ الخَمْسِ حَيْثُ يُنَادَي بِهِنَّ فانَّ اللهَ تعالى شَرَعَ لِنَبِيكمُ سُنَنَ الهُدَى وإنهنَّ مِن سُنَنِ الهُدَى ولوَ أنَّكُم صَلَيْتُم في بُيُوتِكم كَمَا يُصَلِي هذا المُتَخَلِّفُ في بَيْهِ لَتَرَكْتُمْ سُنَّةَ نَبِيكمُ وَلوَ تَرَكْتُمْ سُنَّةَ نَبِيِكُم لَظَلْلتُمْ ولَقَدْ رَأيْتُنَا وما يَتَخَلَّفُ عَنها الا مُنَافِقٌ مَعْلُومُ النِّفَاقِ » .

وقال أبو هريرةَ رضي اللهُ عنه : « لأَنْ تَمْتَلِىءَ أُذُنُ ابنِ آدَمَ رَصَاصاً مُذاباً خَيْرٌ لَهُ مِن أنْ يَسْمَعَ حَيَّ علىَ الصلاةِ حَيَّ على الفلاحِ ثُمَّ لَمْ يُجِبْ » وسُئِل ابنُ عَبَاسٍ رضيَ اللهُ عَنهُمَا عن رَجُلٍ يَقوُمُ اللَّيْلَ ويَصُومُ النَّهَارَ وهُوَ لا يَشْهَدُ الجُمُعَةَ والجَمَاعَةَ فقال هُو في النارِ ولَمَّا كانَ عَتَّابُ بنُ أسَيدٍ رَضِيَ اللهُ عنه وَالِياً للنَّبِي صلى الله عليه وسلم عَلَى أَهْلِ مَكَّةَ فَسَمِعَ بِرِجَالٍ يَتَخَلَّفُونَ عن الصلاةِ في المَسَاجِدِ جَمَاعةً فقال يا أهلَ مَكَّة واللهِ

لا أَسْمَعُ بِرِجَالٍ يَتَخَلَّفُونَ عن الصلاةِ في الجَمَاعَةِ في المَسَاجِد إلا ضَرَبْتُ أَعْنَاقهم فَعَلَم الصحابةُ رَضِيَ اللهُ عنهم بِذَلِكَ فَزَادَهُ رِفْعَةً عِنْدَهُم وارْتَفَعَ قَدْرُهُ .

وصلاةُ العِشَاءِ والفَجْرِ في جَمَاعَةٍ أَشَدُّ تَأْكِيْداً لِمَا وَرَدَ عن عثمانَ بنِ عفانَ رَضِيَ اللهُ عنهُ قال سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم يقولُ مَن صَلىَّ العِشَاءَ في جَمَاعةٍ فكأنَّمَا قَامَ نِصْفَ اللَّيلِ وَمن صَلَى الصُبْحَ في جَمَاعَةٍ فكأنَّمَا صَلَّى الليلَ كُلَّهُ رواه مسلمَ .

وفي روايةِ الترمذي عن عثمانَ بنِ عَفَّانَ رَضِيَ اللهُ عنه قال قال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم مَن شَهِدَ العِشَاءَ في جَمَاعَةٍ كان لَهُ قِيَامُ نِصْفِ لَيْلَةٍ ومَن شَهِدَ العِشَاءَ والفَجْرَ في جَمَاعَةٍ كان لَهُ كَقِيَامِ لَيْلةٍ قال الترمذي حديث حسن صحيح .

وعن أبي هريرة رضيَ اللهُ عنه أَنَّ رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم قالَ ولو يَعْلَمُونَ مَا في العَتَمَةِ والصُبْحِ لأَتَوْهُمَا ولَوْ حَبْوَا متفق عليه . وعنه قال قال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم ليسَ صَلاةٌ أَثْقَلُ على المُنَافِقِينَ مِن صَلاةِ الفَجْرِ والعِشَاءِ ولو يَعْلَمُونَ ما فِيْهِمَا لأَتَوْهُمَا ولَو حَبْوَا متفق عليه .

وروى عن أَبِي أمامةَ رَضَي اللهُ عنه قال قال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم مَن صَلَّى العِشَاءَ في جَمَاعَةٍ فَقَدْ أَخَذَ بحَظِّهِ مِن لَيْلَةِ القَدْرِ . رواه الطبراني في الكبير .

وعن جُنْدُبِ القَسْرِي قال قال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم مَنْ

صَلى صَلاَةَ الصُبْحِ فَهُوَ في ذِمَّةِ اللهِ فلا يَطْلُبَنَّكم اللهُ مِن ذَمَّتِهِ بشيءٍ فإنَّهُ مَن يَطْلُبهُ مِن ذِمَّتِهِ بِشَيءٍ يُدْرِكْهُ ثُمَّ يَكُبهُ على وَجْهِهِ في نارِ جَهَنَّمَ رواه مسلم .

فهذا نَهْيٌ مِنهُ صلى اللهُ عليه وسلم عن التَّعَرُضِ لِمَنْ هُوَ في ذِمَّةِ اللهِ بشيءٍ مِن السُوْءِ وقَدْ قِيْلَ إنَّ الحَجاجَ مَعَ جَوْرِهِ وظُلْمِهِ وتَعَدِيْهِ لِحُدُوْدِ اللهِ كانَ يَسْأَلُ كُلَّ مَنْ يُؤتَى بِهِ نَهاراً صَلَيْتَ الصُبحَ في جَمَاعَةٍ فانْ قَالَ نَعم خَلَى سبيلَهُ مَخَافَةَ أَنْ يطلبَهُ اللهُ بشيءٍ مِن ذِمتهِ .

وعَن ابن عُمرَ رضيَ اللهُ عَنهُما قَال كُنا إذا فَقَدْنَا الرجلَ في الفَجْرِ والعِشَاءِ أساءنا بِهِ الظنَّ رواهُ الطبراني وابنُ خُزَيْمَةَ في صَحِيحِهِ .

اللهُمَّ أَنْظِمْنَا في سِلْكِ عِبادِكَ المُفلِحينَ واحْشُرنَا مَعَ الذينَ أنعمتَ عليهم مِن النبيينَ والصديقينَ والشهَداءِ والصَّالِحينَ واغفرْ لنا ولوَالِدَيْنَا ولجميعِ المسلمينَ الاحياءِ منهم والميتينَ برحمتِكَ يا أرحمَ الراحِمِينَ وصلَّى اللهُ على مُحمدٍ وعَلى آلِهِ وَصحبِه أجمَعِينَ .

(فَصْـلٌ)

وَصَلاةُ الجماعَةِ تفضلُ على صلاةِ الفذِّ بسبعٍ وعشرينَ درجةً كمَا وردَ عَن ابنِ عـمرَ عن النبي صَلى اللهُ عليهِ وسلمَ قال : صَلاةُ الجماعةِ تفضلُ صلاةَ الفذِ بسبعٍ وعشرينَ درجةً متفقٌ عليهِ .

وَعن أبي هُريرةَ رضْى اللهُ عنهُ قالَ : قال رسولُ اللهِ صَلى اللهُ

عليهِ وسلمَ صَلاةُ الرجلِ في جَماعَةٍ تَضْعُفُ على صَلاتِه في بيتِهِ وفي سوقِ خَمساً وعشرينَ ضِعفاً وذلكَ أنهُ اذا تَوضَّأ فَأَحْسَنَ الوُضوءَ ثم خرجَ إلى المسجِدِ لا يُخرجُه إلا الصلاةَ لِم يَخْطُ خطوةً إلا رُفعَتْ له بها دَرجةٌ وحُطتْ عنه بها خَطيئَةٌ فاذا صَلى لم تَزلْ الملائكةُ تُصلِّي عَليهِ ما دَامَ في مُصَلاَّهُ مَا لم يُحْدِثْ ، تَقولُ اللهم صَلِّ عَليهِ اللهم ارحَمْهُ ، ولا يزالُ في صلاةٍ ما انتظرَ الصلاةَ » متفقٌ عليهِ .

وَوَردَ عنه صَلى اللهُ عليهِ وَسلمَ أنهُ قالَ من صَلى أربعينَ يوماً في جَماعَةٍ يُدرك التكبيرةَ الأُولَى كُتِبَتْ له بَرَاءتَانِ مِن النَّارِ وَبَراءَةٌ من النِّفاقِ رَواهُ الترمِذي وَغيرُه من حديث أنسٍ وَهُوَ حديث حَسنٌ صَحَحَهُ الحاكمُ وغيرهُ .

وَقَدْ وَرَدَ في فَضْلِ الصَّفِ الأولِ واتْمَامِ الصُّفوف ما يَلي فعن جَابرِ بن سَمُرَةَ رَضْيَ اللهُ عَنهُمَا قالَ : خَرجَ عَلينَا رَسُولُ اللهِ صَلى الله عليه وسلم فقَالَ : « ألا تَصُفونَ كمَا تَصُفُّ الملائكةُ عِندَ رَبِّها فقُلنَا يا رسولَ اللهِ وكيفَ تصفُّ الملائكةُ عندَ رَبِّهَا قَال يُتمُّونَ الصُّفُوفَ الأوَل وَيتَرَاصُّون في الصّفِّ » رواهُ مُسْلمٌ .

وَعن أَبي هُريرَةَ رَضْي اللهُ عنهُ أنَّ رسولَ اللهِ صَلى اللهُ عَليهِ وَسَلمَ قالَ : « لَو يَعْلَمُ النَّاسُ مَا في النداءِ والصَّفِّ الأولِ ثُم لَمْ يَجِدُوا إلاَّ أَنْ يَسْتهِمُوا عليهِ لاسْتَهمُوا » مُتفقٌ عَليهِ .

وَعَن أبي مَسْعُودٍ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ : كانَ رسولُ اللهِ صَلى اللهُ عليهِ وسَلمَ يَمْسَحُ مُناكِبنَا في الصَّلاةِ ويقولُ : « اسْتَـووُا ولا تَخْتَلِفُوا فَتَخْتَلِفَ قُلوبُكم لِيَلِنِيْ مِنْكُم أولوُا الاحْلاَمِ والنُّهَى ثُمّ الذين يَلُونهـم ثَم

الذين يَلونهُم » رواهُ مُسْلِمٌ .

وَعَنَ أنسٍ رَضيَ اللهُ عنهُ قَالَ : قَالَ رسولُ اللهِ صَلى اللهُ عَليهِ وَسَلمَ : « سَووا صُفوفَكُم فانَّ تَسْوِيَةَ الصَّفِ من تَمامِ الصَّلاةِ » مُتفقٌ عَليهِ .

وَعن البَراءِ بن عَازِبٍ رَضْي اللهُ عَنْهُما قَالَ : كَانَ رَسُوْلُ اللهِ صَلى اللهُ عليهِ وَسَلَم يتخَللُ الصَّفَّ من نَاحِيَةٍ إلى ناحِيَةٍ يَمْسَحُ صُدُوْرَنَا وَمَناكِبنَا ويقولُ لا تختلفُوا فتختَلِفُ قُلوبُكُمْ . وَكانَ يقولُ ان اللهَ وملائِكَته يُصلونَ على الصَّفِّ الأولِ . رواهُ أبو داودَ باسنادٍ حَسَنٍ .

وَعن ابن عُمَر رضي اللهُ عَنهُما أنَّ رسولَ اللهِ صَلى اللهُ عَليهِ وسلمَ قال أقيمُوا الصُّفوفَ وحاذُوا بينَ المناكبِ وسُدُّوا الخللَ ولينُوا بأيدِي اخوانِكُم ولا تذُروا فُرُجَات للشيطانِ ومن وَصَل صَفاً وصَلهُ اللهُ ومَن قَطعَ صَفاً قطَعهُ اللهُ . رواهُ أبو دَاودَ .

(فَصْـلٌ)

وَكَانَ صَلى اللهُ عليهِ وسلمَ إذا كَبَّرَ للصلاةِ يَسْتَفْتِحُ . فَعنْ أبي هُريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ كانَ رسولُ اللهِ صَلى اللهُ عَليهِ وسَلمَ إذا كَبَّرَ في الصلاةِ سَكَتَ هُنَيْهَةً قبلَ القِرَاءَةِ فقلتُ يا رسولَ اللهِ بأَبِيْ أنتَ وأُمي أَرَأَيْتَ سُكُوتَكَ بينَ التكبيرِ والقِرَاءَةِ ما تَقُولُ ، قالَ أقولُ اللهمُ باعِدْ بَيْنِيْ وبينَ خطايَايَ كمَاباعدْتَ بينَ المشرقِ والمغربِ اللهمَّ نَقِّنِيْ مِن خَطايَايَ كما يُنَقَّى الثوبُ الأبيضُ من الدَّنَسِ اللهم اغْسِلنِي مِن خَطَايَايَ بالماءِ والثلجِ والبردِ رواهُ الجَمَاعَةُ إلا الترمِذي .

وَعنْ عَائِشَةَ قالَتْ كَانَ النبيّ صَلى اللهُ عليهِ وسلمَ إذَا اسْتَفتحَ الصلاةَ قال سبحانكَ اللهمّ وبحمدِكَ وتبارَكَ اسْمُكَ وتَعالى جدُّك ولا إلهَ غيرُكَ ، رواهُ أبو دَاودَ والدَّارَقُطْنِيّ .

وَكَانَ يَتَعَوَّذُ قبلَ القراءةِ في الرَّكعةِ الأُوْلَى بعدَ الاستفتاحِ فعَنْ أبِيْ سعيدٍ الخُدريّ عَنْ النبيّ صَلى اللهُ عليهِ وسَلمَ أنهُ كانَ إذا قامَ الى الصلاةِ استفتحَ ثم يَقوُل أعوذُ باللهِ السميعِ العَليمِ مِن الشيطانِ الرجيمِ مِن هَمْزِه وَنفْخِهِ ونَفْثِه رَواهُ أحمدُ والتِّرمِذيّ .

وقالَ ابنُ المُنْذِرِ جَاءَ عن النبيّ صَلى اللهُ عليهِ وسلمَ أنهُ كانَ يَقُولُ قَبْلَ القراءةِ أعوذُ باللهِ مِنْ الشيطانِ الرَّجِيمِ .

وعَنْ أبي سَعيدٍ الخُدريّ أنَّ النبيّ صَلى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ كانَ يَقْرَأُ في صَلاةِ الظهر في الركعتينِ الأُوْلَيْيْنِ في كُل رَكْعَةٍ قَدْرَ ثلاثينَ آيةً وفي الْاخرَيْيْنِ قَدْرَ خَمْسَةَ عَشَر آيةً ، أو قَالَ نِصْفَ ذَلِكَ ، وفي العَصْرِ في الركعتَينِ الأُوْليينِ في كل رَكعةٍ قَدْرُ خمسَ عَشْرَة آيةً ، وفي الأُخْرَيْيْنِ قدرَ نِصْفِ ذلكَ رواهُ أحْمَدُ ومُسْلِمٌ .

وَعَنْ جُبير بن مُطْعِمٍ قالَ سمعتُ رسولَ اللهِ صَلى اللهُ عَليهِ وَسَلمَ يقرأُ في المغربِ بالطُوْرِ رواهُ الجماعةُ الا الترمِذيّ .

وَعَنْ ابنِ عباسٍ أنَّ أُمَّ الفَضْلِ بِنْتَ الحَارِثِ سَمِعَتْهُ وهُوَ يقرَأ والمرسلاَتِ عُرفاً فقالَتْ يا بُنيَّ لقد ذَكَّرْتَنِي بقرائَتِكَ هذِهِ السُّورَةَ إنَّها لأَخِرُ ما سَمِعْتُ مِن رسُولِ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسَلمَ يقرأُ بهَا في المَغْرِبِ رواهُ الجَمَاعةُ الا ابنُ مَاجَه .

وَقالَ أبُو بَرْزَةَ الأَسْلَمِيّ كانَ النبيُّ صَلى اللهُ عليهِ وسَلمَ يُصَلي الصُبْحَ فيَنْصَرِفُ الرجلُ فَيَعْرِفُ جَليسَهُ ، وكان يَقرأُ في الركعتينِ أو أحَدِهِمَا ما بَين الستينَ إلى المائةِ متفقٌ على صِحَّتِهِ .

وَفي صَحيح مُسْلِمٍ عن عبدِ اللهِ بن السائِبِ قالَ صَلى بنا رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسَلمَ الصبحَ بمكةَ فاستفتح سُورَةَ المؤمنينَ حَتى إذا جَاءَ ذِكرُ موُسَى وهارونَ أوَ ذِكرُ عِيْسَى أخذَتْ النبيَ صَلى اللهُ عليهِ وسَلمَ سَعْلةٌ فَركَعَ .

وَرَوى النِسائِيّ من حَديثِ ابنِ مسعودٍ أنَّ النبيّ صَلى اللهُ عَليهِ وسَلمَ قرأَ في المغربِ بالدُّخانِ .

وفي صَحيحِ مسلمٍ من حديثِ أبي سعيدٍ الخُدري قالَ كانَتْ صلاةُ الظهرِ تقامُ فينطلقُ أحدُنا إلى البقيعِ فيقضي حاجَتَهُ ثم يأتي أهلَهُ فيتوضَّأُ ثم يَرْجعُ إلى المسجدِ ورسولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ في الرَّكعةِ الأولى .

وقَالَ أبُوْ سَعيدٍ الخُدري كُنَّا نَحْزِرُ قِيَامَ رسولِ اللهِ صَلى اللهُ عليهِ وسَلمَ في الظهرِ والعصرِ فَحَزَرْنا قيامَه فَي الركعتَيْنِ الأُوْلَيَيْنِ مِن الظُهْرِ قدرَ « ألَمِ تنزيلُ السَّجْدِةِ » .

وَحرزنَا قيامَه في الأخريينِ قدرَ النصفِ من ذلكَ وحزرنَا قيامَه في الركعتينِ الاوْلَيَينِ من العَصْرِ على النصفِ مِنْ ذلك .

وفي روايةٍ بَدَلَ قولِه تنزيلُ السجدةِ قدرَ ثلاثينَ آيةً ، وفي الأُخْرَيَيْنِ

قدرَ خمْسَةَ عَشَرَ آيةً وفي العَصْرِ في الركعتينِ الأُوْلَيَيْنِ في كُلِّ رَكْعةٍ قَدَر خَمسةَ عَشرةَ وفي الأُخْرِيَينِ قَدَر نِصفِ ذَلكَ .

وَفي سُنن النَسائي عَن البَراءِ قَالَ كَانَ رسولُ اللهِ صَلى اللهُ عليهِ وَسَلم يُصَلي بنا الظهرَ فنَسْمَعُ مِنهُ الآيةَ مِن سُورَةِ لُقمَانَ وَالذاريَاتِ وَقالَ صَلى اللهُ عَليهِ وَسَلم أنَّ طُولَ صَلاةِ الرَّجُلِ وَقِصرَ خُطبتِهِ مَئِنَّة مِن فِقْهِهِ فأطِيلُوا الصَّلاةَ واقْصرُوا الخطبة . وَعَنَ ابنِ مَسْعودٍ رَضيَ اللهُ عنهُ أنهُ قَالَ انكم في زَمَانٍ الصَّلاةُ فيهِ طَويْلَةٌ والخطبة فِيْهِ قَصِيرَةٌ وعُلمَاؤُه كثيرٌ وَخُطباؤُه قليلٌ وسَيأتِي عَلى النَّاسِ زَمَانٌ الصلاةُ فيهِ قصيرةٌ والخُطبةُ فيه طويلةٌ .

وَأخرَجَ البُخاري وَأبوُ دَاودَ والترمِذي مِن حَديثِ زَيدِ بنِ ثابتٍ أن النبي صَلى اللهُ عليهِ وَسلمَ قرأ في المغربِ بُطُوْلَى الطُوليَيْن .

زادَ أبو داودَ قلتُ ومَا طُوْلَى الطُوليين قَالَ الأَعْرَافُ قالَ الحَافظُ في الفتحِ إنهُ حَصلَ الاتفاقُ على تفسيرِ الطُّولَى بالاعرافِ .

وَعن سَعيدِ بن جُبيرٍ عن أنسٍ قالَ ما صَلَيتُ وَراءَ أحدٍ بعدَ رسولِ اللهِ صَلى اللهُ عليهِ وَسَلمَ أشْبَهَ صَلاةً برسولِ اللهِ صَلى اللهُ عَليهِ وَسَلم مِن هَذا الفَتى يَعني عُمَرَ بن عَبْدِ العزيزِ ، قالَ فَحَزرنَا في رُكوعِهِ عَشْرَ تَسْبيحاتٍ ، وفي سُجُودِهِ عَشْرَ تسبيحَاتٍ رَوَاهُ أَحْمَدُ وأبو داودَ والنَسائِي .

وَعَن ابنِ عَباسٍ عَن النبي صَلى اللهُ عَليهِ وَسَلم كَانَ إذَا رَفَعَ رأسَه من الركوعِ قالَ اللهمَّ رَبنا لكَ الحُمدُ ملءَ السمواتِ وَملءَ الارضِ ، وَملءَ ما بينَهُما وملءَ ما شئتَ من شيءٍ بعدُ أهلَ الثناءِ والمجدِ ، لا مانعَ

لما أعْطَيتَ ولا مُعْطيَ لِما مَنَعْتَ ولا يَنْفَعُ ذَا الجدِ منكَ الجَدُّ ، رواهُ مُسلمٌ والنسَائِي .

وَرواهُ من حَديثِ ابنِ أبي أوفيَ وزادَ فيهِ بعدَ قولِهِ منْ شَيءٍ بَعْدُ اللهمَ طَهرنِي بالثلجِ والبردِ والماءِ اللهمَ طهرنِي مِنْ الذنوبِ وَالخَطايا كمَا يُنَقَى الثَّوْبُ الأبيضُ مِن الدَّنسِ .

اللهمَّ انا نسألكَ العافية في الدُّنيا والآخرَةِ اللهُمَّ انَّا نَسْأَلُكَ العَفو والعَافيةَ في دِينِنَا ودُنيانَا وآخِرَتنا وَأَهلِنَا وَمَالِنَا اللهمَّ اسْتُر عَوراتِنا وَأمنِ روعاتِنا واحْفَظنا مِن بين أيدينا ومنِ خَلفنا وَعن أيمانِنَا وعن شَمائِلنا ومن فَوقِنا ونَعُوذ بعَظمتِكَ أن نُغتَالَ من تَحتِنا واغفِرْ لنا وَلِوَالِـدَيْنَا ولجميعِ المسلمينَ برحمتِك يا أرحمَ الراحمينَ وصلى اللهُ على مُحمدٍ وعلى آلهِ وصحبهِ أجْمَعينَ .

(فَصْـلٌ)

وَفي المسندِ من حديثِ أبي قَتادةَ قالَ قَالَ رسولُ الله صَلى اللهُ عليهِ وسَلم أسْوَأُ الناسِ سَرقةً الذي يَسْرِقُ مِن صَلاتِهِ قالوا يَا رسولَ اللهِ كيفَ يَسرِقُ صَلاتَه قال لا يُتمُّ رُكوعَها ولا سُجُودَها ، أو قَالَ لا يُقيمُ صُلْبَهُ في الركوعِ والسجودِ فصَرَّحَ بأنهُ أسْوَأُ حَالاً مِن سَارِقِ الأمْوَالِ .

وَفي المُسْنَدِ من حَديثِ سالمٍ عـن أبي الجَعْدِ عن سَلمَانَ هُو الفَارسِي قَال قالَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسَلم الصَّلاةُ مكيالٌ فمَن وَفىَّ وُفيِّ له وَمن طَفَّفَ فقدْ علمتُم مَا قالَ اللهُ في المُطَفِّفِينَ .

وقالَ ابنُ القيمِ رحمهُ اللهُ : والايجازُ هو الذي كانَ يَفعَلُهُ صَلى

اللهُ عليهِ وَسَلمَ لاَ الْإيجازُ الذي كان يَظَنهُ مَنْ لَم يَقِفْ عَلى مِقْدارِ صَلاتِهِ فإنَّ الايجَازَ أَمرٌ نِسبِيّ إضَافِي راجِعٌ إلى السُّنَّةِ لا إلى شَهوةِ الامَامِ وَمَنْ خلفَهُ .

فَلمَّا كانَ يقرأُ في الفَجْرِ بالسِّتينَ إلى الْمَائِةَ كَان هَذا الايجَازُ بِالنِّسْبَةِ إلى سِتِّمائةٍ إلى ألفٍ ولَمَّا قرأ في المغربِ بالأعْرَافِ كان هَذا الايجازُ بالنسبةِ إلى البَقرةِ .

وَيَدُلُّ عَلى هَذا أنَّ أنساً نَفسَه قالَ في الحديثِ الذي رَواهُ أبو داودَ والنسائِي مِن حديثِ عَبدِ اللهِ بن ابراهيمَ بن كَيْسَانَ حَدثني أبِيْ عَن وَهَبِ بن مَأْنُوسٍ سَمعتُ سَعيدَ بِن جُبيرٍ يَقُولُ سَمِعتُ أنسَ بن مالكٍ يقولُ ما صَليتُ وراءَ أحدٍ بَعدَ رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسَلمَّ أشبهَ صلاةً برسولِ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيهِ وَسَلمَ من هَذَا الفتى يِعنِي عُمرَ بنَ عَبدِ العَزيزِ فَحَزَرْنَا في رُكوعِه عشرَ تسبيحاتٍ وفي سُجودِهِ عَشرَ تَسبِيحَاتٍ .

وأنسٌ أيضاً هوَ القائلُ في الحَديثِ المتفقِ عليهِ اني لا آلُو أَن أُصَلى بكمُ كمَا كانَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عَليهِ وسلمَ يُصَلِّي بِنَا .

قالَ ثابتٌ : كانَ أَنسٌ يصنعُ شيئاً لا أراكُم تَصْنَعُونَهُ كَانَ إذَا رفعَ رأسَه مِن الركوعِ انتصبَ قائماً حَتى يقولَ القائلُ قد نَسِيَ .

وإذَا رفَع رأسَه مِن السجدةِ مَكَثَ حتى يقولَ القائلُ قد نَسِيَ .

وَانسٌ هُوَ القائلُ هذَا وهُوَ القائلُ ما صليتُ وراءَ امامٍ أَخفَّ صلاةً ولا أتمَّ صلاةً مِن النبي صَلى اللهُ عليهِ وسلمَ وحديثُه لا يَكَذِّبُ بعضُه بَعْضاً .

وَمِمَّا يُبينُ ما ذكَرنَاهُ ما رَواهُ أبو دَاودَ في سُننهِ من حَديثِ حَمادِ بن سَلمةَ أخبرَنا ثابتٌ وحُميدٌ عن أنسِ بن مالكٍ قال ما صَليتُ خلفَ رجلٍ أوجَز صَلاةً مِن رسولِ اللهِ صَلى اللهُ عَليهِ وَسَلمَ في تَمامٍ .

وَكَانَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسَلمَ إذا قَالَ سَمِعَ اللهُ لمن حَمِدَهُ ، قامَ حتى نقولَ قدْ أَوْهِمَ فجمعَ أنَسٌ رضْيَ اللهُ عنهُ في هَذا الحَديثِ الصَّحيح بين الاخبارِ بايجازِه صَلى اللهُ عليهِ وَسَلمَ الصلاةَ واتْمَامِها وَبَيَّنَ فِيهِ أن من اتمَامِهَا الذي أخبرَ به اطَالةُ الاعتدَالينِ حَتى يَظنُّ الظانُّ أنهُ قد أَوْهَمَ أو نَسِيَ مِن شِدَّةِ الطُّولِ .

وَفي الصَّحِيْحَينِ عَن البراءِ بن عازبٍ قالَ رَمَقْتُ الصَّلاةَ معَ مُحمدٍ صَلى اللهُ عليهِ وسَلمَ فوَجَدْتُ قِيامَه فرَكْعَتَه فاعْتِدَالَه بعدَ الركوعِ فسجدَتَه فجلسَتَه بين السَّجدتينِ ، فَسَجدَتَهُ ، فجَلْسَتَهُ مَا بينَ التَسليمِ والانْصِرَافِ قريباً مِن السَّواءِ .

الَّهُمَّ ارْحَمْنَا اذا عَرِقَ الجَبينُ وكَثُرَ الانينُ وأَيِسَ مِنَّا القَريبُ والطبيبُ وَبكى عَلينَا الصديقُ والحبيبُ وَارحمنَا يا مَولانَا اذا وَارانَا الترابُ وَوَدَّعَنا الاحْبابُ وفارَقْنَا النعيمَ وانقطَع عنا النَّسْيِمُ واغفِرْ لنا ولوالدَيْنَا ولجميعِ المسلمينَ برحَمتِكَ الواسِعَةِ يا أرحمَ الراحِمْينَ وصَلى اللهُ على محمدٍ وَعلى آلهِ وَصَحْبِهِ أجْمَعينَ .

(فَصْـلٌ)

وَقَـالَ رحمهُ اللهُ بَعْدَ أن ذَكرَ المُسْرِعينَ فيها الذِيْنَ يَمُرُّونَ فِيْهَا مَرَّ

السهمِ : وَهَذا كُله تلاعُبٌ بالصَّلاةِ ، وتَعْطِيْلٌ لها وخِدَاعٌ مِن الشيطانِ وخلافٌ لأمرِ اللهِ ورسولِه صلى اللهُ عليهِ وسَلم حَيثُ قالَ تعالىَ ﴿ أقِيْمُوا الصلاةَ ﴾ فأمَرَنَا باقامَتِهَا وهُوَ الاتيانُ بها قائِمَةً تامةَ القيامِ والركـوعِ والسُّجودِ والاذكَارِ .

وَقدْ عَلَّقَ سُبحانَهُ الفَلاحَ بخُشُوعِ المصَلِّي في صَلاتِه فَمَنْ فَاتَهُ خُشُوعُ الصلاةِ لَمْ يَكُنْ من أهلِ الفلاحِ ويَسْتَحيلُ حُصُوْلُ الخُشوعِ مَعَ العَجَلَةِ والنَّقْرِ قَطْعاً بل لا يَحْصُلُ الخُشُوْعُ إلا مَعَ الطُّمَأنينةِ وَكُلَّما زادَتْ الطمأنينةُ ازدَاد خُشُوعاً وكُلمَا قلَّ خُشوعُه اشتدَتْ عَجَلَتُه حَتى تَصيْرَ حَركةُ يديهِ بمَنْزِلَةِ العَبَث الذي لا يَصْحَبُه خُشوعٌ ولا إقبالٌ على العُبُوديةِ ولا معرفةٌ حَقيقةِ العبوديةِ .

وَاللهُ سُبحانَه قد قالَ ﴿ أقيمُوا الصلاةَ ﴾ وقَالَ ﴿ الذِيْنَ يُقيمونَ الصلاةَ ﴾ وقالَ ﴿ والمقيمِ الصلاةِ ﴾ وقالَ ابراهيمُ عليهِ السلامُ « ربِّ اجعلنِي مقيمَ الصلاةِ » ، وقالَ لِمُوسَى ﴿ فاعْبُدْنِي وأقِمْ الصلاةَ لِذكْرِي ﴾ فلنَ تْكادُ تَجدُ ذِكْرَ الصلاةِ في مَوْضُوعٍ مِنْ التنزيلِ الا مقروناً باقامَتِهَا .

فَالمُصَلُونَ في الناسِ قَليلٌ ومُقيمُ الصلاةِ منهُمْ أقَلُّ القليلِ ، كَمَا قالَ عُمَرُ رضيَ اللهُ عنهُ الحاجُّ قليلٌ والرَّاكِبُ كَثْيرٌ ، فالعَاملونَ يَعملونَ الأعمـــال المأمُورِ بهَا على التّرويْجِ تَحِلّهَ القَسَمِ ويَقولونَ يكْفينا أدنَى ما يقعُ عليهِ الأسمُ ولَيْتَنَا نأتيْ به .

ولو عَلِمَ هَؤلاءِ أنّ الملائكةَ تَصْعدُ بصلاتهمْ فتَعرضُها على الرّبِّ جلّ وعلاَ بمنْزِلةِ الهَدايَا التّي يتقرّبُ بها النّاسُ إلى مُلوكِهمْ وكُبرائِهم ، فليسَ مَنْ عَمِدَ إلى أفْضلِ ما يَقْدرُ عليهِ فَيُزَيّنه ، ويُحسّنهُ ، ما استطاعَ ثم

يَتَقَرَّبُ به إلى مَن يَرجُوْهُ ، ويَخافُه ، كَمَنْ يَعْمِدُ إلى أَسْقَطِ مَا عِنْدَهُ ، وَأهونِهِ عليهِ فَلْيَسْتَرِيح مِنه ، وَيَبْعَثِه إلى مَن لا يَقَعُ عندَهُ بمَوْقِع .

وليسَ مَن كانَتْ صلاَتُه رَبيْعاً لِقَلْبِهِ ، وَحَيَاةً لَهُ ، وَرَاحَةً وقُرَّةً لِعَيْنِهِ وجَلاَءً لِحُزْنِهِ وذَهاباً لِهَمِّه ، وغَمِّهِ ومَفْزَعاً لَهُ في نوائِبِهِ ، ونوازِلِه ، كَمَن هِيَ سِجْنٌ لِقَلْبِهِ ، وَقَيْدٌ لِجَوَارِحِهِ ، وتكْلِيْفٌ لَهُ ، وثقلٌ عَلَيه ، فهِيَ كَبِيْرَةٌ علىَ هَذَا وقُرَّةُ عَينٍ وراَحَةٌ لِذلِكَ .

وقال تعالى ﴿ واستَعِينُوا بالصبرِ والصلاةِ وإنها لكبيرةٌ إلاَّ على الخاشعين الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم وأنهم اليه راجعون ﴾ فإنَّما كَبُرَتْ على غيرِ هؤلاءِ لِخُلُّو قُلُوبِهِم مِن مَحَبَّةِ اللهِ تعالى وتَكْبِيْرِهِ وتَعْظيمِهِ والخُشُوعِ لَهُ وقِلةِ رَغْبَتِهِمْ فيه فانَّ حُضُوْرَ العَبْدِ في الصَلاَةِ وخُشُوْعَهُ فِيهَا وتَكْمِيْلُهُ لَهَا واستِفْرَاغُهُ وُسْعَهُ في إقَامَتِهَا واتْمَامِهَا عَلَى قَدْرِ رَغْبَتِهِ في اللَّهِ .

قال الامامُ أحمدُ في رواية مُهَنَّا بنِ يَحْيَى ، إنَّمَا حَظُّهُمْ مِن الاسلامِ على قدرِ حظهمِ مِن الصلاةِ ورغبتهم في الاسلامِ على قدرِ رغبتِهم في الصلاةِ فاعْرَفْ نَفْسَكَ يا عَبدَ اللهِ واحْذَرْ أنْ تَلْقَى اللهَ عزَّ وجلَّ ولا قَدْرَ لِلإِسْلامِ عندَكَ فإن قَدْرَ الاسلامِ في قَلْبِكَ كَقَدْرِ الصلاةِ في قَلْبِكَ .

اللهم ارحمنا إذا نُسِيَ اسْمُنَا وانْدَرَسَ ذِكْرُنَا ولَمَ يَزُرْنَا زَائِرٌ ، اللهم ارحمنا يومَ تُبْلَى السَّرائِر وتَفْنَى الضمائِر وتُنْشَرُ الدَواوينُ وتُنصبُ الموازينُ واغفر لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين برحمتك يا أرحم الراحمين وصلى

الله على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

(فصلٌ)

يُسَنُّ ذِكْرُ اللهِ والدُّعاء والاسْتغْفارُ عَقبَ الصلاةِ المكتوبةِ كما وَرَدَ في الاخبار فيقولُ استغفرُ اللهَ ثلاثَ مراتٍ ويقول اللهم أَنْتَ السلامُ ومنكَ السلامُ تَبارَكْتَ ياذَا الجلالِ والاكرامِ كما وَرَدَ عن ثوبانَ قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلَم اذا انصرفَ مِن صَلاتِهِ اسْتَغْفَر ثلاثاً وقال اللهم أَنْتَ السلامُ ومنكَ السلامُ تباركْتَ ياذَا الجلالِ والاكرامِ . رواه الجماعة الا البخاري .

ومِمَّا وَرَدَ مِن الذِّكْرِ : ما رُوِيَ عن عبدِ اللهِ بن الزُّبَيْرِ أنه كان يقول في دُبُرِ كلِ صلاةٍ حينَ يُسَلِّمُ لا إلهَ إلا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيْكَ لَهُ . له المَلكُ وله الحَمدُ وهو على كل شيء قدير ولا حولَ ولا قوةَ إلا باللهِ العلي العظيمِ ولا نَعبُدُ إلا ايَّاهُ له النِعْمَةُ ولَهُ الفضلُ ولَهُ الثناءُ الحَسَنُ لا الهَ الا اللهُ مخلصينَ لَهُ الدينَ ولو كره الكافرون : قال وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يُهَلِّلُ بِهِنَّ دُبُرَ كلِ صلاةٍ . رواه أحمد ومسلم .

ومِمَّا وَرَدَ مَا رَوَى المغيرةُ بنُ شُعْبَةَ أن النبي صلى الله عليه وسلم كَان يقولُ في دُبُرِ كُلِ صلاةٍ مَكْتُوب لا إله إلا اللهُ وحدَهُ لا شريكَ لَه لَهُ الملكُ وله الحمدُ وهو على كلِ شيءٍ قَدِير :اللهم لا مانعَ لما أعطيتَ ولا مُعْطِيَ لما مَنَعْتَ ولا يَنْفَعُ ذا الجدِ منكَ الجَدُ مُتَّفَقٌ عليه .

ويُسَبِّحُ ثلاثاً وثَلَاثِيْنَ ، ويَحْمَدُ ثلاثاً وثلاثينَ ، ويُكَبِرُ ثلاثاً وثلاثينَ لما في الصحَيحينِ من رواية أبي صالح السَّمَّان عَن ابي هريرة مرفوعاً

تَسبِحُونَ وتَحْمَدُوْنَ وتكبِرُوْنَ دُبُرَ كلِ صلاةٍ ثلاثاً وثلاثينَ وتمامُ المائةِ ـ لا إلهَ إلا اللهُ وحدَهُ لا شريكَ لَهُ . له الملكُ وَلَهُ الحَمْدُ وهو على كلِ شيءٍ قَدِيْر ، وَيَعْقِدُهُ بيدِهِ وَيَعْقِدُ الاستغفارَ بيدِه » أيَ يَضْبِطُ عَدَدهُ بأصَابِعِهِ .

وعن عبدِ الله بن عمرَ قال : قال رسول اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم خَصْلَتانِ لا يُحْصِيْهِمَا رَجُلٌ مُسْلِمٌ إلا دَخَلَ الجنةَ وهما يَسِيْرٌ وَمَنْ يَعْمَلُ بِهِمَا قَليلٌ يُسَبِحُ اللهَ في دُبُرِ كلِ صَلاةٍ عَشْراً ويُكَبِرُهُ عَشْراً ويَحْمَدُهُ عَشْراً قال فَرَأَيْتُ رَسُوَلَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلم يَعْقِدُها بِيَدِهِ فَتِلْكَ خَمْسُوْنَ ومائَةٌ باللِّسَانِ وألفٌ وخَمْسُمائَةٍ في المِيْزانِ واذا آوَى إلى فِراشِهِ سَبَّحَ وحَمِدَ وَكَبَّرَ مائةَ مَرَّةٍ فَتِلْكَ مِائةٌ باللِّسَانِ وألفٌ بالمِيْزَانِ رواه الخمسة وصححه الترمذي .

وعن سعد بن أبي وقَّاصٍ أنه كان يُعَلِّمُ بَنِيْه هَؤلاء الكَلِمَاتِ ويقولُ إنَّ رَسولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلَمِ كان يَتَعَوَّذُ بِهِنَّ دُبُرَ الصلاةِ اللهم إنِّي أَعُوذُ بِكَ مِن البُخْلِ وأعُوذُ بِكَ مِن الجُبْنِ وأعَوُذُ بِكَ مِن عذاب القَبْرِ . روَاه البخاري والترمذِي وصححه .

وعن أمِّ سَلمَةِ أن النبيَّ صَلَى اللهَ عَلَيْهِ وسلم كَانَ يقولُ إذا صَلَّى الصَبحَ حِينَ يُسَلِّمُ اللَّهُم إنِّي أسْألُكَ عِلْماً نَافِعاً ورزقاً طَيباً وعَملاً مُتَقَبّلا رواه أحمد وابنَ ماجه .

وعن أبي أُمَامَةَ قال قِيْلَ يا رسولَ اللهِ أيُّ الدُعاء أسْمَعْ قال جَوفُ الليلِ الآخرِ ودُبُر الصلواتِ المكتوباتِ .

وعن عائشة قالَتْ كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا سلم لم يَقْعُدْ إلا مِقْدار مَا يقولُ اللهم أنتَ السلامُ ومنكَ السلامُ تباركتَ يا ذَا

الجَلالِ والاكرامِ رواه أحمد ومسلم والترمذي وابن ماجه .

وعن أبي هريرة عن رسول اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم قال مَن سَبَّح دُبُرَ كلِ صَلاةٍ ثلاثا وثلاثينٍ وحَمِدَ اللهَ ثلاثاً وثلاثينَ وكَبَّرَ اللهَ ثلاثاً وثلاثينَ فتلْكَ تَسْعةً وتِسْعُون وقال تَمام المائةِ لا إله إلا اللهُ وحَدَهُ لا شريكَ لَهُ لَهُ المِلكُ وله الحمدُ وهو على كلِ شيءٍ قدير غُفِرَتْ خطاياهُ ولو كانَتْ مِثلَ زبدِ البحرِ رواه مسلم .

وفي رواية أخرى أن التكبيرَ أربعةٌ وثلاثون . .

وعن معاذِ بن جبلٍ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له أوْصيْكَ يا معَاذُ لا تدعَنَّ دُبُرَ كُلِ صَلاةٍ أن تقولَ اللهم أَعِنِّيْ على ذِكْرِكَ

وشُكْرِكَ وحُسْنِ عبادَتِكَ رواه أحمد وأبو داود والنسائي بسند قوى .

وعن أبي أمامةَ قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم مَن قَرأ آيةَ الكُرْسي دُبُرَ كُلِ صلاةٍ مَكْتُوبةٍ لم يَمْنَعْهُ مِن دخولِ الجنةِ الا الموتُ . رواه النسائي وصححه ابن حبان وزاد فيه الطبراني وقل هو الله أحد .

وعنه قال ما دَنُوتُ من رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم في دُبُرِ مكتوبةٍ ولا تَطُوعٍ إلا سَمِعْتُهُ يقولُ اللهم اغْفِرْ لِي ذُنُوبِي وخَطايَايَ كُلَّها اللَّهم انْعشْنِي وَأَجْبُرْنِي واهدنِي لصالحِ الأعمال والاخلاقِ إنَّه لا يَهْدِي لِصَالِحَها ولا يصرفُ سيئَيهَا إلا أنْتَ .

وعن أبي سعيدٍ الخُدْرِي أنَّ النبيَ صلى اللهُ عليه وسلم كان اذا فَرَغَ مِن صَلاتِهِ لا أدْرِي قَبْلَ أن يُسَلِّمَ أَوْ بَعْدَ أَنْ يُسَلِم يقولُ سُبحانَ ربِكَ رَبَّ العِزَّةِ عَما يَصِفُونَ وَسَلامٌ على المرسلين والحمدُ للهِ ربِ العالمين .

وعن أنس قَال كان النبي صلى الله عليه وسلم يقولُ إذَا انْصَرَفَ مِن الصلاةِ اللهم اجْعَلْ خَيْرَ عُمُرِي آخِرَهُ وخَيْرَ عَمَلِي خَوَاتِمَهُ واجْعَلْ خَيْرَ أَيَّامِي يَومَ ألقَاك .

وعن أبي بكرٍ رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقولُ في دُبُرِ الصلاةِ اللهم إني أعوذُ بِكَ مِن الكفرِ والفقرِ وعَذَابِ القَبْرِ ، وعن أنسِ بن مالكٍ قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلمَ مَن صَلَّى الغداةَ في جَمَاعةٍ ثم قَعَدَ يَذكُرُ اللهَ حتَّى تَطْلعُ الشمسُ ثم صَلَّى رَكْعَتَيْن كانَتْ له كأجْرِ حَجَّةٍ وعَمْرَة ، قالَ قَال رَسولُ اللَّه صلّى الله عليه وسلّم تَامّةً تَامّةً تامّةً .

وعن أبي ذرّ رضْيَ الله عنهُ أنّ رَسولَ الله صلّى الله عليه وسلمَ قال مَنْ قال في دُبُرِ صَلاةِ الصُّبحِ وهوَ ثانٍ رْجليهِ قَبل أنْ يتكلّمُ لا إله إلا اللهُ وحدَهُ لا شريكَ لهَ لهُ الملكُ ولهُ الحمْدُ يُحيِيْ ويمُيتَ وهوَ على كلِّ شيءٍ قَدير عَشْرَ مرّاتٍ كُتِبَ له عَشرُ حسناتٍ ومُحِيَ عنهُ عَشرُ سَيئاتٍ ورُفِعَ لهُ عَشْرُ دَرَجَاتٍ وكانَ يَومه ذَلِـكَ في حِرْزٍ مِنْ كُلِّ مَكْرُوْهٍ وحُرِسَ مِنَ الشَّركَ بالله تَعالَى قالَ التّرمذيُّ هذا حديثٌ حَسَنٌ وفي بَعْضِ النُّسخ صَحيْحٌ .

وعن الحَارثِ بنِ مسلم التَّميميِّ رضِيَ اللهُ عنهُ قالَ قالَ لي النّبيُّ صلّى الله عليهِ وسلمَ اذا صَلّيتَ الصُّبحَ فَقُلْ قَبْلَ أنْ تَتكلّمَ الّهُمَ أجرْني مِن النّارِ سَبْعَ مرّاتٍ فإنّكَ إنْ مُتَّ مِنْ يَوْمِكَ كَتَبَ اللهُ لكَ جِوَاراً مِن النَّارِ وإذا صَلّيتَ المغربَ فقُلْ قَبْلَ أنْ تَتكلّمَ اللهُمّ أَجِرْنِي مِن النارِ سَبْعَ مرّاتٍ فانّكَ ان مُتّ منْ ليلتكَ كَتَبَ الله لكَ جِوَاراً مِن النَّارِ رواه النسائيُّ وهذا

لفظهُ وأبو دَاودَ .

وعن أبي أيّوبَ رَضِيَ اللهُ عنهُ أنّ رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلّم قالَ من قَالَ اذا أصبْحَ لا إله إلا اللهُ وحدهُ لا شريك لهُ لهُ الملكُ وله الحَمْدُ وهُوَ على كلِّ شيءٍ قدير عَشْرَ مرّاتٍ كَتَبَ اللهَ لهُ بِهنَّ عَشْرَ حَسَناتٍ وَمَحَا بِهنَّ عَشَرَ سيئآتٍ وَرَفَعَ لَهُ بِهِنَّ عَشْرَ دَرَجَاتٍ وَكُنَّ لَهُ عِدْلَ عِتَاقَةِ أربَعِ رِقَابٍ وَكُنَّ له حَرَساً حتى يُمْسيْ وَمَن قالهُنَّ إذا صلّى المغربَ دُبْرَ صَلاتِهِ فَمِثْلُ ذلكَ حتّى يُصبحَ . رواه أحمدُ والنّسَائيُ وابنُ حِبّانَ في صَحيحِهِ وهذا لفْظهُ .

وعن أبي أُمَامَة رضيَ اللهُ عنه قَال قَال رسولُ اللّه صلّى اللّه عليه وسلمَ مَن قال دُبُرَ صَلاةِ الغَداةِ لا إله إلا اللهُ وحدهُ لا شَريكَ لهُ لَهُ الملكُ وَلَهُ الحمدُ يُحيي وَيُميتُ بيدهِ الخيرُ وهوَ على كلِّ شيءٍ قديرِ مائة مرّةٍ قَبْلَ أن يَثْنَى رِجْليهِ كانَ يومئذٍ مِن أفْضلِ أهْلِ الأرضِ عَملاً إلا مَنْ قَالَ مِثْلَ ما قَال أو زَادَ عَلَى مَا قَالَ رواه الطّبَرانيُ في الأوسطِ باسنادٍ جيّدٍ .

وَرُوِيَ عن معاذِ بنِ جَبلٍ رَضِيَ الله عنهُ قال سمعتُ رسولَ الله صلّى الله عليهِ وسلمَ يقولُ مَن قال بعدَ صَلاةِ الفَجْرِ ثَلاثَ مرّاتٍ وبعدَ العَصْرِ ثلاثَ مرّاتٍ استغفر اللّهَ الّذِي لَا إلَهَ إلا هُوَ الحيُّ القيُّومُ وأتوبُ إليهِ كُفّرتْ عنه ذُنوبُه وإنْ كانتْ مِثْلَ زَبدِ البحْرِ . رواه ابنُ السّنِي في كتابِهِ وفي مُسندِ الامامِ أحمد وَسُنَنِ بنِ ماجة وكِتابِ ابن السّنِيّ عن أمِّ سَلمةَ رَضِيَ اللهُ عنها قَالتْ كانَ رَسولُ اللهِ صلى اللّه عليهِ وسلّم إذا صَلّى الصُّبحَ قال اللهمَّ إني أسْألكَ عِلْماً نَافِعاً وَعَملاً مُتَقبّلاً وَرِزْقاً طَيّباً .

وعن صهيْبٍ رضيَ الله عنه أنَّ رسولَ اللّه صلّى اللّهَ عليْهِ وسلم

كانَ يُحركُ شَفَتيهِ بعد صلاةِ الفَجْرِ بِشَيءٍ فقلتُ يا رَسولَ الله ما هَذا الذي تَقولُ قالَ اللهُمَّ بِكَ أُحَاوِلُ وَبِكَ أُصَاوِلُ وَبِكَ أُقاتِلُ وَيُسْتَحَبُّ الجهرُ بالتسْبيحِ والتَّهْلِيْلِ والتّحْمِيْدِ والتّكبيرِ لِقَول ابنِ عبّاسٍ كُنْتُ أعْلَمُ إذا انصَرفُوا بذلكَ إذا سَمعْتُهُ وفي رِوَايةٍ كُنْتُ أعْرِفُ انْقِضَاءَ صلاةِ النّبي صلّى اللهُ عليهِ وسلمَ بالتّكبير متفق عليه .

اللهمّ قَوِي إيْمانَنَا بكَ وبملائِكتكَ وبرسُلكَ وباليومِ الآخرِ وبالقَدَر خيرِه وشرّهِ اللهمّ الهمْنَا ذِكركَ وشُكرِك ووفقنَا لِطَاعَتِكَ وامتثالِ أمرِكَ واجعلنَا مِن عِبادكَ المفلحينَ الّذين لا خوفٌ عليهم ولا هُمْ يَحْزنونَ واغفْر لنا ولوالِدينَا ولجميعِ المسلمينَ برحْمتك يا أرحمَ الراحمين وصلى اللهُ على محمدٍ وعلى آله وصحبهِ أجمعينَ .

(فصـــل)

ومِنْ تَمامِ المُحافَظَةِ على الصّلاةِ حُسْنُ المُحافظةِ على الرَّواتِبِ والنّوافِلِ وَهَذه المُطْلقةُ فيها فَوائدُ كَثِيرةٌ منها تكفيرُ السّيئات وتكثيرُ الحَسَناتِ ورَفْعُ الدرجاتِ وَجَعلُ القُلوبِ مُتّصلةً باللّهِ مُعَظّمَةً لَه وأنها سَبَبٌ لِتَقْوِيَةِ الحَيَاءِ مِن اللهِ ومنها التَلَذُذُ بالمنَاجاةِ . . ومنها الحصولُ في منزلةِ المُبَاهَاةِ فِيْمَنْ أقيْمَ مِن الملائكةِ في تلكَ الحالاتِ . ومنها الشكرُ والنعمُ المتجددةُ والمَواهبُ المُتَعَدّدَةُ وَعِمَارَة لِلْقُلُوبِ التي خُلقَتْ لِذكرِ الله تعالى . ومنها حِفْظُ الزَّمَنِ عن ضَيَاعِهِ في غَيرِ طَاعةِ اللهِ .

ومنها تكميلُ ما نقصَ مِن الفرائضِ ، كما وَرَدَ في الحديث مِن رواية أبي هريرة رضي الله عنه قال : سَمِعْتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقولُ : « ان أَوَّلَ ما يُحَاسَبُ به العبدُ يومَ القيامةِ مِن عملِهِ صَلاتُهُ

فان صَلَحَتْ فقدْ أَفْلَحَ وأَنْجَحَ وان فَسَدَتْ فقد خَابَ وَخَسِرَ فانْ انْتَقَصَ مِن فَرِيضَتِهِ شَيْئاً فإن الربَّ عَزَ وَجَل يقول : ﴿ أنظُروا هَلَ لِعَبْدِي مِن تَطَوُّعٍ فَيُكَمِلُ بها ما نَقَصَ مِن الفَرِيْضَةِ ﴾ ثم يكون سَائرُ عَمَلِهِ على ذلكَ أخرجه الترمذي : وَمَنها مَحَبَّةُ اللهِ لَهُ ، كما وَرَدَ في الحديث ولا يَزالُ عبدي يَتَقَرَّبُ إليَّ بالنوافلِ حَتَّى أُحِبَّهُ فاذا أَحْبَبْتُهُ كُنتُ سَمْعَهُ الذي يَسْمَعَ بِهِ وَبَصَرَهُ الذي يُبْصِرُ بِهِ وَيَدَهُ التي يَبْطِشُ بِهَا وَرِجْلَهُ التي يَمْشِي بها ولئن سَألني لاعطِيتَّهُ ولئِنْ استعاذَنِي لأُعْيذَنَّهُ رواه البخاري .

ومنها أنها سَبَبٌ لِتَسْهِيْل عُسْرِ المَوْقِفِ في الحَشْرِ وَتَخْفِيْفِ الحِسَابِ في دَارِ المآبِ لأَنَّهُ يَكْثِرُ ثَوَابُهُ إذا وَفَقَهُ اللهُ لِلتَّقَرُّبِ بالنوافِلِ ومنها نَضَارَةُ الوَجْهِ وَتَنْشِيْطِ الجَوَارِحِ ومنها أَنَّهَا تُوْقِظُ الضَّمِيْرَ ومنها الاقْتِداءُ بالصالحينَ ومنهَا غَرْسُ الصِدْقِ والأمانَةِ في النُفُوسِ ومنهَا أنَّ النَّوافِلَ تُقَوِّي شَجَرَةَ الإيمانِ وَتُنَمِّي الإيمانَ ومنها السُّمُوُّ إلى دَرَجَةِ الكَمَالِ ومنها أنَّهُ إذا قَطَعه عنها مَرَضٌ أو سَفَرٌ كُتِبَتْ لَهُ كامِلَةً كما في حديث أبي مُوسَى الأَشْعري رَضِيَ اللهُ عَنهُ اذا مَرِضَ العَبْدُ أو سَافَرَ كُتِبَ له ما كان يَعْمَلُ صَحِيْحاً مُقِيْمَاً رواه البخاري .

ومنها مَحَبَّةُ أَهْلِ السَّمَاء لِمَنْ أَحَبَّهُ الله كما في حديث أبي هريرة أن الله تعالى : إذا أَحَبَّ عَبْداً دعا جِبْرِيْلَ فقال : إني أُحِبُ فلاناً فأَحِبَّه فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ ثُمَّ يُنَادِي في السَّمَاءِ فَيقولُ إنَّ اللهَ يُحِبُ فلاناً فأحِبُّوهُ فَيُحِبُّهُ أهلُ السماءِ ثُمَّ يُوْضَعُ لهُ القَبُولُ في الأَرضِ ومنها اسْتِعْمَالُ نِعْمَةِ المُنْعِم في طاعتِهِ وهذا في غَايَةِ الحُسْنِ ولا يَخْفَى على عاقلٍ أَنْصَفَ مِن عَقْلِهِ ومنها مُخَالَفَةُ المنافقين الذينَ إذا قاموا إلى صلاةِ الفريضةِ قاموا كسالى

يُراؤون الناسَ ولا يذكرون اللهَ إلا قليلاً . ومنها القُرْبُ مِن اللهِ للحديث المتقدم ولِحَدِيثِ أَقْرَبُ ما يكون العَبْدُ مِن رَبِّهِ وهو سَاجِد . ومنها مُخَالَفَةُ المُشْرِكِينَ العَابِدِيْنَ لِمَنْ لا يَسْمَعُ ولا يُبْصِرُ وَلَا يُغْني شيئاً وأَنْتَ تعبدُ مَن يَسْمَعُ وَيُبْصِرُ وَيَعْلَمُ وَيُحْيِي وَيُمِيْتُ وهو حَيٌّ لا يَمُوْتُ ومنها قِيامُ العبدِ بينَ يَدَيْ سَيِّدِه مَقَامَ المُتَصَرِعِ المتذَلِّلِ المسْكِين الضَّعِيْفِ واضعاً يَدَهُ اليُمْنَى على اليُسْرَى مُظْهِراً العَجْزَ والضَّعْفَ وأنه لا حَوْلَ ولا قوةَ إلا باللهِ العلي العظيمِ .

اللهم إنَّك تَعْلَمُ صِدْقَنَا في رَجَاءِ رِفْدِكَ وَخَالِص وِدِّكَ يا مَنْ عَمَّ الخلائقَ كرمُه وجودُهُ يا أَوَّلُ بلا بِدَايَةٍ ويا آخِرُ بلا نِهَايَةٍ يا وَاحدٌ لا شريكَ له نَسألكَ أن ترحمَ ضَعْفَنَا وَتَغْفِرَ ذَنْبَنَا وَتَرْأفَ بِنَا يَا رَؤُوْفُ يا رَحِيْم ولا تَحْرِمْنا لذَّةَ النظِر إلى وَجْهِكَ الكريمِ في جناتِ النعيمِ وصلى الله على محمد وعلى آلِهِ وصحبِهِ أجْمعين .

(فصـــل)

وقال ابنُ القيمِ رحمه اللهُ وأما فوائدُ الصلاةِ فكثيرةٌ أَوَّلاً إمتثالُ أَوَامِرِ اللهِ وَمُوَافَقَةُ اللهِ وَمُوَافَقَةُ مَلائِكَتِهِ وتكفيرُ السيئاتِ وزيادةُ الحسناتِ ورفعةُ الدرجاتِ .

ومنها أنها سَبَبٌ لإِجَابةِ الدُّعَاء وَلِشَفَاعَةِ النبي صلى الله عليه وسلم والقُربِ منهُ ولِكِفَايَةِ الهَمِّ والغَمِّ وَقَضَاءِ الحَوَائِجِ وَسَبَبٌ لِصَلاةِ اللهِ على المُصَلِي وَصَلاةُ مَلَائِكَتِهِ وَهِيَ زَكَاةٌ لِلْمُصَلِي وَطُهْرَةٌ لَهُ وَسَبَبٌ لِلْتَبْشِيْرِ بالجَنَّةِ والنَجَاةِ مِن النارِ وَسَبَبٌ لِرَدِّ النَّبي صلى اللهُ عليه وسلم السلام

وَلِتَذْكِيرِ العَبْدِ ما نَسِيَهُ وَلِطِيْبِ المَجْلِسِ وأَنْ لَا يَعُودَ عَلى أَهْلِهِ حَسْرَةً وَلِنَفْيِ الفَقْرِ والبُخْلِ وَلِلنَّجَاةِ مِن نَتَنِ المَجْلِسِ الذي لا يُذْكَرُ اللهُ فيهِ وَلَا رَسولُه ولِتَمَامِ الكلامِ وَبَرَكَتِهِ وَلِوُفُورِ نُورِ العَبْدِ على الصِراطِ وَلِلْخُرُوْجِ مِن الجَفَاء ولإِبْقَاءِ الثناءِ الحَسَن لِلْمُصَلى عليه بين السماء والأرض وِلِلْبَرَكَةِ في ذات المُصَلِي عُمَرِهِ وَعَمَلِهِ وأسبابِ مَصَالحه وَلِنَيلِ رَحْمَةِ اللهِ وَلِدَوَامِ مَحبتِهِ صلَى الله عليه وسلمَ وَزِيادَتِهَا وَتَضَاعُفِهَا وَلِمَحبَّةِ الرسولِ صلى الله عليه وسلم وسَبَبٌ لِحَيَاةِ القَلْبِ وَهِدَايَتِهِ وَسَبَبُ عَرْضِ اسم المُصَلِي على النبي صلى الله عليه وسلم وسببُ لِتَثْبِيْتِ القَدَمَ على الصِرَاطِ والجَوَاز عليه وَمُتَضَمِّنَةٌ لِذِكْرِ اللهِ وَشكرِهِ وَمَعْرِفَةِ إِنْعَامِ اللهِ على عَبِيْدِهِ بإرسالِهِ ولأَداءِ قَليلٍ مِن حَقِّهِ . وهي دعاءٌ مِن العبدِ وسؤالُـهُ نَوعَان :

أحدُهُما سؤال مَطَالِبِهِ وَمَا يَنْوِيْهْ .

والثاني : سؤالهُ أنْ يَثنِيَ على حبيبِهِ وخليلِهِ وَيَزيدَ في تَشْرِيفِهِ وتكريمِهِ ورفْعِه ذكرَهُ ولا رَيبَ أنّ اللهَ يُحِبُ ذلكَ وَرَسُوْلُهُ يُحِبُّهُ فالمُصَلِّي قَدْ صَرَفَ سُؤآله لِما يُحِبُّهُ اللهُ ورَسُوْلُهُ وآثَر ذلكَ على طَلبِ حَوائِجِهِ وَمَحابِّهِ هُو ، بَلْ كانَ هَذَا المَطْلُوبُ مِن أَحَبِّ الأُمُورِ إِلَيْهِ والجَزَاءُ مِن جِنْسِ العَمَلِ فَمَنْ آثَرَ اللهَ على غَيرِه آثَرَهُ اللهُ عَلى غيرِهِ .

وَهَهُنَا نُكْتَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ عَلَّمَ أُمَّتَهُ دِيْنَهُ وَمَا جَاءَ بِهِ وَدَعَاهُمْ إِليهِ وَصَبر على ذلِكَ وَهِيَ : أن النبيَّ صَلى الله عليه وسلم له مِن الأَجْرِ الزَّائِدِ على أَجْرِ أُمّتِهِ مِثْلُ أُجُورِ مَن تَبِعَهُ فالداعِي إلى سُنَّتِهِ وَدِيْنِهِ والمُعَلِّمُ الخَيْرِ لِلأُمّةِ إذا قَصَدَ تَوْفِيرَ هذا الحَظ لِرَسولِ الله صلى الله عليه وسلم وَصَرفَهُ إِليهِ

وَكانَ مَقْصُوْدَهُ بدُعَاءِ الخلقِ إلى اللهِ التقرُّبَ إليهِ بارشادِ عبادِهِ وَتَوْفِير أُجُوْرِ المُطيْعِينَ لَهُ على رسولِهِ مَعَ تَوْفِيَتِهِم أجُوْرَهُم كامِلة كان له مِن الأَجْرِ بدعوته وتعليمٍ بحَسَبِ هذِه النيةِ وذلكَ فضلُ اللهِ يؤتيه مَن يشاء .

شـــعراً :

إلَـى كَمْ تَـمَـادَى في غُـرُوْرٍ وَغَـفْلَةٍ
وَكَمْ هَكـذا نـومٌ إلَـى غَيـرِ يَـقْـظَةِ
لَقَـدْ ضَاعَ عُمْـرٌ سَـاعَـةٌ منه تُشْتـرى
بمِـلءِ السَـمـا والأرضِ أيَّـةَ ضَيْعَـةِ
أَتَرْضَى مِن العَيْشِ الـرَّغِيْـدِ وَعِيْشَـةٍ
مَـعْ المـلأ الأَعْلَى بِعَيْشِ البَهِـيْمَـةِ
فَـيَـادُرَّةً بَـيْـنَ الـمَـزَابِـلِ أُلْقِيَـتْ
وَجَـوْهَـرَةً بيْعَـتْ بـأَبْخَسِ قِيْـمَـةِ
أَفَـانٍ بِبَـاقٍ تَشْتَـرِيْـهِ سَـفَـاهَـةً
وَسُـخْـطاً بِـرِضْـوَانٍ ونـاراً بـجنـةِ
أأَنْـتَ صَـدِيـقٌ أَمْ عَـدوٌ لِـنَـفْـسِـهِ
فـإنَّـكَ تَـرْمِيْهَـا بِكُـلِّ مُصِيْبَـةِ
ولـو فَعَـلَ الأَعْـدَا بِنَفْسِـكَ بَعْضَ مَـا
فَعَلْتَ لَـمَسَّتْهُـم لَهَـا بَـعْضُ رَحْمَـةِ
لَقَـد بِعْتَهـا هَـوْنـاً عَلَيْـكَ رَخِيْصَـةً
وكـانَتْ بِهَـذا مِنْـكَ غَيْـرَ حَقِيْقَـةِ

كَلِفْتَ بـهـا دُنْيـا كَـثِيْـرٍ غُـرُوْرُهَـا
تُقَـابِلُنَـا فِي نُصْحِهَـا فِي الخَـدِيْعَـةِ
عَلَيْـكَ بِمـا يُجْـدِي عَلَيْـكَ مِن التُقَى
فـإنَّـكَ فـي سَهْـوٍ عَـظِيـمٍ وَغَفْـلَةِ
تُـصَلِيْ بـلا قَـلْبٍ صَـلاةً بِـمِثْـلِهَـا
يكـونُ الفَتَى مُسْتَـوْجِبـاً لِلْعُـقُـوْبَـةِ
تُـخَـاطِبُـهُ إِيَّـاكَ نَـعْـبُـدُ مُـقْـبِـلاً
عَـلَى غَيـرِهِ فَـيهَـا لِـغَـيـرِ ضَـرُوْرَةِ
ولـو ردَّ مَن نَـاجَـاكَ لِلغَيْـرِ طَـرْفَـهُ
تَـمَـيَّـزْتَ مِـن غـيظٍ عـليـهِ وَغَـيْـرَةِ
فـوَيلَكَ تَـدْرِي مَن تُـنـاجِيْـهِ مَعْـرضـاً
وبَيْنَ يَـدَي مَن تَنْحَنِي غَيْـرَ مُخْبَـتِ
أَيَّـا عَـامِـلاً لِـلنَّـارِ جِسْـمُـكَ لَيِّـنٌ
فَجَـرَّبْـهُ تَمْـرِيْنَـاً بحَـرِّ الـظَّهِيْـرَةِ
وَدَرِّبْـهُ في لَسْـعِ الـزَّنَـابِيـرِ تَجْتَـرِي
عَـلَى نَهْشِ حَيَّـاتٍ هُنَـاكَ عَـظِيْـمَـةِ
فـإنْ كُنْتَ لاَ تَقْـوَى فَـوَيْلَكَ مـا الـذي
دَعَـاكَ إِلـى اسْـخـاطِ رَبِّ الـبَـرِيَّـةِ
تُـبَـارِزُهُ بـالـمُـنْـكَـراتِ عَـشِـيَّـةً
وَتُصْبِـحُ في أَثْـوَابِ نُسْـكٍ وَعِـفَـةِ
تُسِيءُ بـه ظـنـاً وَتُحِـسِنُ تـارةً
على حَسْبِ ما يَقْضِي الهوَى بالقَضِيَّةِ

فـأَنْتَ عليهِ أَجْـرَى منكَ عَلى الـوَرَى
بِمَـا فِيْـكَ مِن جَهْـلٍ وَخُبْثٍ طَـوِيَّـةِ
تَقُـولُ مَـعَ العِصْيـانِ رَبـيَ غَـافـر
صَـدَقْتَ وَلَكِـنْ غَـافـرٌ بـالمَشِيْئَـةِ
وَرَبُّـكَ رَزَّاقٌ كَـمَـا هُـوَ غَـافِـرٌ
فَلِمَ لَا تُصَـدِّقْ فِيْهِـمَـا بـالسَّـوِيَّـةِ
فَكَيْفَ تُـرَجِّيْ العَفْـوِ مِن غَيْـرِ تَـوْبَـةٍ
وَلَـسْتَ تُـرجِّي الـرِّزْقَ إلَّا بـحِيْـلَةِ
عـلى أَنَّـه بـالـرِّزْقِ كُفِّـلَ نَـفْسَـهُ
وَلَـمْ يَـتَكَـفَّـلْ لِـلأَنَـامِ بـجنَّـتِـيْ
ومـا زِلْتَ تَسْعَى بـالـذي قَـدْ كُفِيَتَـهُ
وَتُـهمِـلَ مـا كُـلِفتَـهُ مِـن وَظِـيْـفَـةِ
إلهي أجِـرْنَـا مِنْ عَـظِيْمِ ذُنُـوبِنَـا
ولا تُخْـزِنَـا وَانْـظُرْ إلينـا بِـرَحْمَـةِ
وَخُـذْ بِنَـواصِيْنَـا إلِيـكَ وَهَـبْ لَنَـا
يَـقِينـاً يَقِيْـنَـا كُـلَّ شَـكٍ وَرِيْبَـةِ
إلهي اهْـدِنَـا فِيْمَنْ هَـدَيْتَ وَخُـذْ بِنَـا
إلى الحَقِّ نَهْجاً في سَـواءِ الـطَّرِيْقَـةِ
وكُنْ شُغْلَنا عَن كُـلِ شُغْـلٍ وَهَمَّنا
وَبُـغْيتَنَـا عـن كُـلِّ هَـمٍّ وَبُـغْيَـةِ
وَصَـلِّ صَـلاةً لا تَنَـاهىٰ عَلى الـذي
جَـعَلْتَ بـهِ مِسْكـاً خِتَـامَ النُّبُـوَّةِ

اللهمّ توفنَا مُسلمين وأَلحقنَا بالصالحِينْ غَير خَزايا ولا مَفتونينَ واغفرْ لنَا وَلِوالدَيْنَا ولِجميعِ المسلمينَ برحْمَتِكَ يا أرحمَ الراحمينْ وصلّى الله على محمدٍ وعلى آلِهِ وصحبِهِ أجمعينْ .

٣١ كتاب الزكاة

ويبحث في :

١ ـ الأموالِ التي تجب فيها الزكاة .
٢ ـ نِصابِ الزكاة .
٣ ـ مَصارفِ الزكاة .
٤ ـ تعريفِ أهلِ الزكاةِ وبيانِ مِقدارِ ما يعطاهُ كلُّ صِنْف .

١ ـ الأموال التي تجب فيها الزكاة :

إعْلَمْ ـ رَحِمَك الله ـ أن اللهَ سبحانَهُ وتَعَالَى أَوْجَبَ على المؤمنين أصحابِ الأموالِ الزَّكوِيَّةِ زكاةً لِمن ذَكَرَهُمْ اللهُ في كتابِهِ ، وقَسَّمها بَيْنَهُم وَرَتَّبَ الثوابَ عَلَى أدائِها ، والعِقابَ على مَنْعِها ، وَقَرَنَها بالصلاةِ فِي مَوَاضِعَ كَثِيْرَةٍ من كِتَابِهِ ، تَعْظِيْماً لِشَانِهَا ، وتَنْبِيْهَاً بِذِكْرِها ، وحَثًّا على أدائِها لِتَطْهِيْرِ النفسِ مِن دَرَنِ الشُّحِ وَالبُخْلِ ، ودَفعِ النَّفْسِ إلى الجُودِ ، والتَصَدُّقِ والانفاقِ في مَراضِي اللهِ تعالى : لِتَحْصِيلِ النَماءِ والزيادةِ والبَركةِ والفَلاحِ والطَّهارَةِ ، قال تعالى : ﴿ خُذْ مِن أموالِهِم صدقةً تُطَهِّرُهُم وتزكِيهم بها ﴾ .

فالزكاةُ تُطَهِّرُ المُزَكِّي مِن أنجَاسِ الذُنُوبِ ، وَتُنَقِيْهِ مِن أَوْسَاخِها وتُزَكِيْ أَخْلاَقَه بالتَّحَلِّيْ بالجُودِ والسَّخاءِ وتُمَرِّنُهُ على السَّخاءِ الذي يُحِبُه

كلُّ بَرٍ وفاجرٍ وتُبْعِدُه عن الشُّحِّ الذي هو مَذمُومٌ عندَ كلِّ أحدٍ وتُطَهِّرُ القَلْبَ عن حُبِّ الدنيا ببذلِ اليَسيرِ. فاليَسِيْرُ هُوَ الواجِبُ وهوَ بذلُ القليل مِن الكثيرِ قال تعالى : ﴿ وَلاَ يَسْأَلْكُم أَمْوَالَكم . إِنْ يَسْأَلْكُمُوها فيُحْفِكم تَبْخَلوا ويُخْرِجْ أضغانكم ﴾ وقال تعالى ﴿ وتُحِبونَ المالَ حُباً جَمّا ﴾ وقال ﴿ إنه لِحُبِّ الخيرِ لَشَدِيْد ﴾ .

فالشارِعُ الحكيمُ اللطيفُ بعبادِهِ أَوْجَبَ شَيئاً يَسيْراً بعدَ مُدَّةٍ طَويْلَةٍ اذا اعتادَ الإنسانُ إخراجَهُ مِن المالِ المحبوبِ طَبْعاً امتثالاً لِأَمْرِ اللهِ ورَسُولِهِ اسْتَفَادَ حُبَّ خالِقِهِ الذي رَزَقَهُ اياهُ وَوَعَدَهُ أن يَخْلِفَ عليهِ مَا أَنْفَقَهُ . قال تعالى : ﴿ وما أنفقتُم مِن شيءٍ فهو يُخْلِفُهُ وهو خيرُ الرازقين ﴾ وقال : ﴿ وانْفِقُوا مِمَّا رَزَقناكُم مِن قبلِ أن يَأتيَ أحدَكم الموتُ فيقولَ ربِّ لَولا أخرتني إلى أجَلٍ قَرِيْبٍ فَأَصَّدَقَ وأكُنْ مِنَ الصالحين ﴾ .

وعن أَبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (مَا مِنْ يَومٍ يُصْبِحُ العِبادُ فيه إلاّ وَمَلَكانِ يَنْزِلانِ فيقُولُ أحدُهُما اللَّهم أعطِ مُنْفِقاً خَلَفَا وَيَقُولُ الآخرُ اللهمَ أَعْطِ مُمْسِكاً تَلَفَاً) وعنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : قال الله تعالى : ﴿ أَنْفِقْ يا بنَ آدَمَ يُنْفَقْ عليكَ ﴾ متفقٌ عليه .

إذا فَهِمْتَ ذلكَ فاعلَمْ أنَّ الزكاةَ هِيَ أحدُ أركانِ الإسلامِ ومَبانِيْهِ العِظَامِ المُشَارُ إليها بقوله صلى الله عليه وسلم « بُنِيَ الإسلامُ على خَمْسٍ » ذَكَر منها إيتاءَ الزكاةِ . وَتَجِبُ الزكاة في خمسةِ أشياءَ :

١ ـ بهيمةِ الأنعامِ وهي الابلُ والبقرُ والغنمُ .

٢ ـ الخارجِ مِنْ الأرضِ وما في مَعْنَاهُ كالعَسَلِ الخَارِجِ مِن النحلِ .

٣ ـ عُرُوْضِ التجارةِ .

٤ ـ الأثْمان .

٥ ـ الثِّمَارِ

ولا زكاةَ في شيءٍ مِن ذلكَ حَتَّى يَبْلَغَ نِصَاباً ، ولا زَكاةَ في مالٍ حَتَّى يَحُولَ عليهِ الحولُ ، إلَّا في الخارج مِنَ الأرضِ لِقولِهِ تعالى : ﴿ وآتوا حقَّه يومَ حَصَادِه ﴾ وإلَّا نِتَاجَ السَّائِمَةِ ، وَرِبْحَ التجارةِ فانَّ حَوْلَهُما حَوْلُ أَصْلِهِما إنْ كانَ نِصَاباً ، والا فابتدَاء الحولِ مِن حينِ كَمُلَ نِصَاباً .

وَمَنْ كَانَ عندَه مالٌ وعليه دَيْنٌ فإن كان بمقدار ما عنده فلا زكاةَ فيه ، فإن كان عندَه عشرةُ آلافٍ وعليه دينٌ عَشَرَةُ آلافٍ فأصْبَحَ مَا يَمْلِكُ شَيئاً وإنْ كَانَ عندَه عِشْرُوْنَ أَلفاً وعليه عَشَرَةُ زَكَّى عَشَرَةً وَانْ كَانَ عليهِ عشْرُوْنَ وعندَه عَشَرةٌ فَلَيْسَ عليهِ شَيءٌ ولَه الأَخذُ مِن الزكاةِ لأَنَّه مِن الفُقَراءِ ولأنه غارِمٌ .

وَيُضَمَّ المُسْتَفَادُ إلى نِصَابٍ بيدِهِ مِن جِنسِهِ ، أو في حُكْمِهِ في وُجُوبِ الزكاةِ لا في الحَوْلِ ، فَيُزَكِّيْ كلَّ واحدٍ إذا تَمَّ حَوْلُهُ .

وتجبُ الزكاةُ فيما زادَ على النصابِ بحسَابِهِ إلَّا في السائِمةِ فلا زكاةَ في وَقْصِهَا لما رَوَى أبُو عُبَيْدَةَ في غَرِيْبِهِ : (وليسَ في الأوقاصِ صدقةَ) ، وقال : « الوَقْصُ ما بَيْنَ الفَرْضَيْن » .

أَمَّا عُرُوْضُ التِّجَارَةِ ، فهو كُلُ ما أُعِدَّ لِلْبَيْعِ والشرَاءِ لأَجْلِ الرِّبْحِ

والتَّكَسُّبِ مِن جَمِيْعِ السِّلَعِ التِّجارِيَّةِ : كالمُجَوْهَرَاتِ وَالأَطْعِمَةِ والأَقْمِشَةِ والسَّيَارَاتِ والمَكَائِنِ ، والثَّابِتَاتِ : كالعَقَاراتِ مِن أَرَاضٍ وبُيُوتٍ ونحوهَا ، إذا تَمَلَّكَهَا بِفِعْلِهِ بِنِيَّةِ التِّجارةِ وَبَلَغَتْ قِيْمَتُها نِصَاباً ، لِمَا وَرَدَ عن سَمُرَةَ بن جُنْدَبٍ ـ رضي الله عنه ـ قال : إنَّ رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم « أَمَرَنَا نْ نُخْرِجَ الصَدَقَةَ مِمَّا نُعِدُّه لِلْبَيْعِ » رواه أبو داود .

فَتُقَوَّمُ العُرُوْضُ إذا حَالَ عَلَيها الحَوْلُ ، وَأَوَّلُهُ مِن حِيْنِ بُلُوغِ القِيْمَةِ نِصَاباً بالأَحَضِ لِلْفُقَراءِ مِن ذَهَبٍ أو فِضَّةٍ ، ولاَ يُعْتَبَرُ مَا اشْتُرِيَتْ بِهِ ، ويُخْرَجُ رُبُعُ عُشْرِ قِيْمَتِهَا . وَمَنْ استفادَ مالاً خارجاً عن ربحِ التجارَةِ كالأُجرةِ والرَاتبِ ونحوهما ، فانه يَبْتَدِي حَوْلاً مِن حينِ الاسْتِفَادَةِ ان كان نِصاباً ، والا فَمِنْ كَمَالِهِ وَيُزَكِّيْهِ إذا تَمَّ حَوْلُه .

وأما الأثمانُ ، وهِيَ النُقُودُ مِن ذَهَبٍ أو فِضَّةٍ ، أو مَا يَقُومُ مَقَامَها مِن فُلُوسٍ أو أَوْراقٍ نَقْدِيَّةٍ ، وكذلكَ حُلِيُّ الذَّهَبِ والفضةِ إذا بَلَغَ نِصَاباً بِنَفْسِهِ ، أو بما يَضُم إليهِ من جِنْسِهِ أَوْ فِي حُكْمِهِ ولم يكن مُعَداً لِلاستعمالِ أو للإعَارَةِ ، فإن أُعِدَّ للإستِعمالِ أو للإعَارَةِ فلا زَكَاةَ فيه .

وأقلُ نِصَابِ الذَّهَبِ عِشْرُوْنَ مِثْقَالاً ، وفيها نِصْفُ مِثْقَالٍ وهو رُبعَ العُشْرِ ، لِحديثِ عائشةَ وابن عُمرَ ـ رضيَ اللهُ تعالى عنهما ـ مرفوعا : « أنه كانَ يَأْخذُ مِنْ كُلِ عِشْرِينَ مِثْقالاً نِصفَ مِثْقَال » رواه ابنُ ماجه .

٢ ـ نِصَابُ الزكاة :

والنِّصَاب مِنَ الذّهب بِالجنيهِ السُعُودِيّ أَحَدَ عَشَرَ جُنَيْهَاً وَنِصفُ جُنَيهٍ تَقْرِيباً ، وكذلكَ بالجُنيهِ الإفرَنْجِي أَحَدَ عَشَرَ جُنَيْهَاً وَنِصفُ جُنَيْهٍ

تَقْرِيباً وَأَقلُّ نِصابُ الفِضّةِ مَائَتَا دِرْهَمٍ ، وبالرِّيَالِ العَرَبِي سِتةٌ وَخَمْسُونَ رِيالاً تَقْرِيْباً ، وبالرِيالِ الفَرَنْسِي ثلاثةٌ وَعِشْرُوْنَ رِيَالاً تَقْرِيْباً .

وأما الأَوْرَاقُ المَوجُوْدَةُ فإذا مَلَكَ منها ما يُقَابِلُ نِصَاباً مِن الفِضةِ وَحَالَ عليهِ الحولُ فإنّه يُخْرِجُ منها رُبُعَ العُشْرِ .

وَمَنْ كان عِندَهُ فِضَّةَ وأَرَادَ أن يُخْرِجَ زكاتها مِن الأَوْرَاقِ المَوْجُوْدَةِ المُتَعَامَلِ فِيها نَظَرَ إلى قِيْمَةِ الفِضَةِ مِنَ الأَوْرَاقِ وأَخْرَجَ رُبُعَ عُشْرِ المُقَابِلِ لها فَمَثَلاً إذا كان عِنْدَهُ ألفُ ريالٍ مِن الفِضَّةِ يُسَاوِي ثَلاَثة آلافٍ مِن الأَوْرَاقِ أَخْرَجَ عَن الفِضَّةِ خَمْسَةً وسَبْعِيْنَ رِيالاً هي مُقابِلُ زَكاةِ الأَلْفِ مِن الفضةِ وهي خَمْسٌ وعِشرُون .

وإن كانَ عِنْدَهُ ذَهَبٌ ، وَأَرَادَ أن يُخْرِجَ زكاتَهُ مِن الأَوْرَاقِ المُتَعَامَلِ فِيها نَظَرَ إلى قيمةِ الذهَبِ مِن الأَوْرَاقِ وأَخْرَجَ رُبُعَ عُشْرِ المُقَابِلِ لَهَا فَمَثَلاً إذا كان عندَهُ مائةُ جُنَيْهٍ وكَانَ الجُنَيْهُ يُساوِي خَمْسِيْنَ رِيَالاً (٥٠) فتكون المائَة في خمسةِ آلآفِ رِيَالٍ فزكَاتُها مِن الأَوْرَاقِ مائَة وخَمْسٌ وعِشرُونَ رِيالاً هُوَ مُقَابِلُ زَكَاةِ مِائة الجُنَيْهِ وهو جُنَيْهَانِ ونِصْفُ جُنَيْهٍ مِن زَكاةِ المائةِ وهو جُنَيْهَانِ ونِصْفٌ .

وتَجِبُ الزكاةُ في مالِ الصَّبِيِّ والمَجْنُوْنِ لِعُمُومِ حَدِيثِ مُعَاذٍ لَمَّا بَعَثَهُ صلى اللهُ عليه وسلم إلَى اليَمَنِ ، ويُخْرِجُ عَنهما وَلِيُّهُما في مالِهِما مِن مالِهِما .

اللهم الهمنا ذكرَك ووفقنا لِلقيام بحقكَ ، وخلّصنا مِن حقوقِ خلقكَ ، وبارِكْ لنا في الحلالِ مِن رِزْقكَ ، ولا تَفْضَحْنا بينَ خَلقكَ ،

يا خَيْرَ مَنْ دَعاهُ دَاعٍ وأَفْضَلَ مَن رجاهُ راجٍ يا قَاضِيَ الحَاجَاتِ ، ومُجِيْبَ الدعواتِ ، هَبْ لنا ما سَألناهُ ، وحقق رَجَاءَنَا فيما تَمَنَّيْنَاهُ ، يا مَنْ يَملِكُ حَوَائِجَ السائِلينَ ويَعلمُ ما في صُدُورِ الصَّامِتينَ أذقنا بَرْدَ عَفْوِكَ وَحَلاَوَةَ مَغْفِرَتِكَ واغفر لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين الأَحْيَاءِ منهم والمَيتين برحمتك يا أرحم الراحمين وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

(فصل)

٣ ـ وأَمَّا زَكاةُ الخَارِجِ مِن الأَرضِ فَتَجِبُ في كُلِّ مَكِيْلٍ مُدَّخَرٍ مِن الحَبِّ كالقَمْحِ والشَّعِيْرِ والذُرَةِ ومَن الثمرِ كالتَمْرِ والزَّبيبِ قال الله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مِن طَيباتِ ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض ﴾ وقولُهُ صلى الله عليه وسلم (فِيْمَا سَقَتِ السَمَاءُ والعُيُونُ أو كان عَثرياً العُشْرُ وفيما سُقِيَ بالنَّضْحِ نِصفُ العُشْرِ) رواه البخاري .

وإنما تَجِبُ فيه بِشَرْطَينِ الأولُ : أن يَبلُغَ نِصاباً وقَدْرُهُ بَعْدَ تَصْفِيَةِ الحبِ وجَفَافِ الثمرِ خَمْسَةُ أوسُقٍ والوَسَقُ سِتُوْنَ صاعاً نَبوياً فتكونُ خَمْسَةُ الأَوسُقِ (٣٠٠) ثَلاَثمائةِ صَاعٍ بالصَّاعِ النَبوِي وبالصَّاعِ الحَالِي مائَتَيْنِ وثَمَانِيَةٍ وعِشْرِيْنَ صاعاً وَوَزْنُ الصَّاعِ النبوي بالرِّيالِ الفَرَنْسِي ثَمانُونَ رِيَالاً (٨٠) وَوَزْنُ الصَّاعِ الحَالِي بالرِّيالِ الفَرَنْسِي مائَةٌ وَأَرْبَعَةٌ (١٠٤) فيكونُ زَائِداً على الصَّاعِ النَّبَوِي بخُمُسٍ وَخُمُسِ الخُمُسِ تَقْرِيْباً .

والشرط الثاني : أن يكون مالكاً لِلنِّصَابِ وَقْتَ وُجُوبِها فـوَقْتُ الوُجُوبِ في الحَبِّ اذا اشْتَدَّ وفي الثَّمَرِ إذا بَدَا صَلاحُها لأنه حِيْنَئِذٍ يُقْصَدُ

لِلأَكْلِ والإِقتِيَاتِ به فأَشْبَهَ اليَابِسَ وعن عائشَةَ أَنَّ النبيَ صلى اللهُ عليه وسلمَ كان يَبْعَثُ عَبْدَ اللهِ بنَ رَوَاحَةَ إلى يَهُودَ فَيَخْرِصُ عليهم النَّخْلَ حِينَ يَطِيْبُ قَبْلَ أن يُؤكَلَ منه . رَواه أبو داود .

ويَجبُ فيما سُقِيَ بلا مَؤنَةٍ العُشْرُ وفيما سُقِيَ بكُلْفَة نِصفُ العُشُر لِحَديثِ ابنِ عمرَ مَرفوعاً فيما سَقَت السَّماءُ العُشْرُ وفيما سُقِيَ بالنَّضْحِ نصفُ العُشْرِ رواه أحمد والبخاري وللنسائي وأبي داود وأبن ماجه فيما سَقَتِ السماءُ والأنهارُ والعيونُ أو كان بَعْلاً العُشرُ وفيما سُقِيَ بالسَّوانِي والنُّضْحِ نصفُ العُشْرِ .

ويَجِبُ اخْرَاجُ زَكَاةِ الحَبِّ مُصَفًّى مِنْ قِشْرِهِ وَالثَّمرِ يَابِساً لِمَا وَرَدَ عَن عَتَّابِ بنِ أُسَيْدٍ أَن النبي صلَّى اللهُ عليه وَسَلم أَمَرَ أن يُخرِصَ العنبُ زبيباً كما يُخْرَصُ التَّمْرُ ولا يُسَمَّى زَبِيْباً ولا تمراً حَقِيقَةً إلا اليابسُ وقِيْسَ الباقِي عليهما . ولا يَستَقِرُ وُجُوبُها إلَّا بجَعْلِهَا في الجَرِيْنِ أو في البَيْدَرِ أو في المِسْطَاحِ ونَحوِهِ .

فإن تَلِفَتِ الحُبُوبُ والثِمارُ التي تَجِبُ فِيها الزكاةُ قبلَ الوضعِ بالجَرين ونحوِهِ بِغَيْرِ تَعَدٍّ منه سَقَطَتْ خُرصَتْ أو لم تُخْرَصْ وإنْ تَلِفَ البَعضُ مِنَ الزرعِ والثَّمَرَ قَبْلَ الاسْتِقْرَارِ زَكّى الباقيَ ان كان نِصَاباً والا فلا زكاةَ فيه لقوله صَلى اللهُ عليه وسلم (لَيْسَ فيما دُوْنَ خَمسةِ أَوْسُقٍ صَدَقةٌ) .

ولا تَتَكَرَّرُ زَكَاةُ المُعَشَّر إذَا لَم يَقْصُدْ بِهِ التِّجَارَةَ فإن كَانَتْ مُعَدَّةً للتِّجارَةِ كالذي يَشْتَرِي البُرَّ أو الأُرُزَّ أو الزَّيْتَ يَتَرَبَّصُ بِهِ أو يُقَطِّعُهُ فَهَذِهِ

تُعْتَبَرُ عُرُوْضَاً إذا كانَتْ تَبْلُغُ نِصَابَاً كُلَّمَا دَارَ عَلَيْهَا الحَوْلُ قَوَّمَهَا بالأنْفَعِ لِلْفُقَراءِ مِن عَيْنٍ أَوْ وَرَقٍ ولا يُعْتَبَرُ ما اشْتُرِيَتْ بِهِ .

ويُسْتَحَبُّ لِلإمَامِ بَعْثُ خَارِصٍ لِثَمَرِ النَّخْلِ والكَرْمِ إذا بَدَا صَلاَحُها . وشُرِطَ كَونُهُ مُسْلِمَاً أمِيْنَاً خَبِيْراً لِحَدِيثِ عائشة قالَتْ كان عليه الصلاةُ والسلامُ يَبْعَثُ عَبدَ اللهِ بنَ رَوَاحَةَ إلَى اليهودِ يَخْرِصُ عليهم النَّخِيْلَ قَبْلَ أنْ يُؤْكَلَ متفق عليه .

وفي حديثِ عَتَّابِ بن أُسَيْدٍ أن النبيَ صلى اللهُ عليه وسلم كان يَبعثُ على الناسِ مَنْ يَخْرِصُ عليهم كُرُوْمَهُم وثِمَارَهُم رواه الترمذيُ وابنُ ماجةَ وصَحَّ عنه صلى اللهُ عليه وسلم أنَّهُ خَرَصَ على امرأةٍ بِوَادِي القُرَى حَدِيْقَةً لَهَا وَحَدِيْثُها في مُسْنَدِ أحمدَ .

وَيَجِبُ أنْ يَترُكَ الخَارِصُ لِرَبِّ المال الثُّلثَ أو الرُبعَ فَيَجْتَهِدُ السَّاعِي بحَسَبِ المَصْلَحَةِ لِحَدِيْثِ سَهلِ بنِ أبي حَثْمةُ قال قَال رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أخرَصتم فَخُذُوْا وَدَعُوا الثُلُثَ فإن لم تَدَعُوا الثُلثَ فَدَعُوا الربعَ رواه الخمسة .

موعظة

أَيُهَا الغَافِلُ رَاقِبْ مَن يَرَاكَ في كُلِّ حَالٍ ، وَطَهِّرْ سِرَّكَ فَهُوَ عَلِيْمٌ بما يَخْطُرُ بالبَالِ ، إلى مَتَى تَمِيْلُ مَعَ الزَخَارِفَ وإلى كَمْ تَرغَبْ لِسَمَاعِ المَلاَهِيْ والمعازِفِ والمُحَرَّمَاتِ أمَا آنَ لكَ أن تُجَالِسَ صَاحِبَ الدِّين والصلاحِ العاكِفِ على عَمَلِهِ يَقْطَعُ لَيْلَهُ بالقيام حَتَّى الصَّبَاحِ وَنَهَارَهُ بالصِّيامِ لا يَمِلُّ ولا يَتَوَانَى رَجَاءَ الفَوْزِ بالأَرْباحِ وأنتَ في غَمْرَةِ هَوَاكَ

مَفْتُوناً في الانْهِماكِ بِدُنْياكَ وكأني بكَ وقد هَجَمَ عَليكَ مَا بَدَّدَ شَمْلَكَ وَأَوْهَنَ قُوَاكَ وَافْتَرَسَكَ مِن بَيْنِ أَهْلِكَ وعَشِيرَتِكَ وأخِلاَّئِكَ وَتَخَلَّى عَنْكَ خَلِيْلُكَ وأصْدِقَاؤُكَ لا يَسْتَطِيْعُونَ رَدَّ ما نَزَلَ بكَ ولا تَجِدُ له كاشِفاً فانتَبِهْ ما دَامَ جِسْمُكَ صَحِيحاً والعَمَلُ منكَ في إمكان .

اللهم وَفِّقْنَا لِصَالِحِ الأَعْمالِ وَنَجِّنا مِن جميعِ الأهوالِ وأَمِّنَا مِن الفزعِ والرجفِ والزِلزال ، واغفر لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين الأحياء منهم والميتين برحمتك يا أرحم الراحمين ، وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

٣٣ ـ فصلٌ في بيانِ مصارف الزكاة :

ويُشْتَرَطُ لاخراجِهَا نِيَّةٌ مِن مُكَلَّفٍ ، لِحَديثِ : « إنَّمَا الأَعمالُ بالنياتِ وإنما لِكل امرِىءٍ ما نوَى » ، فَيَنْوِيْ الزكاةَ ، أو الصدقةَ الواجبةَ ، أَوْ صَدَقَةَ المالِ .

ويُسنُ أَنْ يُفرِقَ زَكَاتَهُ عَلى أقاربهِ الذين لا تَلزَمُهُ مَؤُونَتُهُم لما وَرَدَ عن سلمانَ بنِ عامرٍ ـ رضي الله عنه ـ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الصدقةُ على المسكين صَدَقَةٌ ، وهي على ذِي الرحِمِ اثنتانِ : صدقةٌ وصلةٌ » رواه أحمد ، والترمذي ، والنسائي ، وابن ماجه والدارمي .

وَيُسْتَحَبُّ أَنْ يَقُولَ المُخْرِجُ : اللهم اجْعَلْهَا مَغْنَماً ، ولا تَجْعَلْهَا مَغْرَماً . ويَحْمَدُ اللهَ على تَوْفِيْقِهِ لِأَدَائِهَا ، لما رَوَى أَبُو هُرَيْرَةَ ـ رضي الله عنه ـ قال : قَالَ رَسولُ الله صلى الله عليه وسلم : « إذا أَعْطَيْتُمْ الزَكَاةَ

فلا تَنْسَوْا ثَوابَها أنْ تَقُولُوا اللهم اجعلها مَغْنَماً ولا تَجْعَلْهَا مَغْرَماً . رواهُ ابن ماجه .

ويَقُولُ الآخِذُ وهو الفَقِيرُ أو المِسْكِيْنُ أو أحَدُ الأَصْنَافِ آجَرَكَ اللهُ فيما أعْطَيْتَ وبارك لَكَ فِيْمَا أَبْقَيْتَ وَجَعَلَهُ لَكَ طَهُوراً .

قال الله تعالى : ﴿ خُذْ مِن أَمْوَالِهِم صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وتُزَكِّيْهِم بها ، وصَلِّ عليهم ، ان صلاتك سكن لهم ﴾ أَيْ ادْعُ لَهُمْ ، كمَا روى مسلم في صحيحه عن عبد الله بن أبي أوفي ـ رضيَ اللهُ عنه ـ قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم اذا أُتِيَ بصَدَقَةِ قومٍ صَلَّى عليهِم . فأتاه أبِيْ بصَدَقَتِهِ ، فَقَالَ : « اللهم صَلِي عَلَى آلِ أبِي أوفَى » .

وللمُزَكِّي دفعُها الى الإمامِ وَإلَى السَّاعِي ، ويَبْرَأُ بذَلِكَ ، ولا يُجْزِي دَفْعَها إلى كافِرٍ غيرِ مؤلَّف ، ولا حَظَ فِيها لِغَنِيٍّ وَلَا لِقَوِيٍ مُكتَسِبٍ لما وَرَدَ عن عبدِ الله بن عَدِي رضي الله عنه أَنَّ رَجلَين أخْبَرَاهُ أنهما أَتَيَا النبيَّ صَلَّى الله عليه وسلم يَسْأَلانِهِ مِن الصَّدَقَةِ فَقَلَّبَ فِيهما البَصَرَ وَرَآهما جَلْدَيْن فقال لهمَا إن شِئتُمَا أعْطَيتُكُمَا ولا حَظَّ لِغَنِي ولا لِقَوي مُكْتَسِب فالواجبُ تأمُلُ حالِ السائلِ والتَّفَرُسُ فِيهِ كما فَعَل النبيُّ صلى الله عليه وسلم فكم مِن انسانٍ يَدّعي الفقرَ وَهو غَنِي .

وكَمْ مِن مُتَعارِجٍ وما بِهِ عَرَجٌ ولكِنْ لأَمْرٍ مَّا تَعارُجُهُ .

وكَمْ مِن حَامِلِ وَرَقَةٍ يَأكُلُ بها لا يَدْرِي مَا فِيْهَا ولَوْ بَرَّقْتَ وسَبَرْتَ بِدقةٍ لَوَجَدْتَ العجَائِبَ ، لأنّ الوازعَ الدِيْنِيَ قدِ ضَعُفَ جِدّا واخْتَلطَ الحَابِلُ بالنَابِلِ فلا يُمَيِّزُ الفقيرُ والمُستَحِقَ لِلزَّكاةِ إلا إنْسَانٌ مُتَبصِّرٌ بَعْدَ

التَّأَمُّلِ والبَحْثِ التامِ والحَرِيْصُ على ابْرَاءِ ذِمَّتِهِ وايْصَالِ زَكاتِهِ إلى المُسْتَحِقِ لَها يَعْرِفُ كَيفَ يَجِدُ مَوْضعَها تَماماً مِمَن لا يَسْأَلُوْنَ الناسَ إلحَافاً المحتاجِين المخْتَفِيْنَ الحَيِّيْنَ الأَرَامِلَ ذَوِيْ العَوَائِلِ ورُوِيَ أَنَّ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنه سَمِعَ سَائِلاً يَسْأَلُ بَعْدَ المغربِ فَقَالَ لِرَجُلٍ مِن قَوْمِهِ عَشِّ السَّائلَ فَعَشّاهُ ثُم سَمِعَهُ ثَانِياً يَسأَلُ فَقَالَ أَلَمْ أقلْ لَكَ عَشِّ السَّائلَ قَال قَدْ عَشيتُهُ فَنَظَر عُمَرُ لَه فاذا تَحْتَ يَدِهِ مِخْلاةٌ مَمْلُؤةٌ خُبْزاً فَقَالَ لَسْتَ سَائِلاً لكنَّكَ تَاجرٌ ثم أَخَذَ المِخْلاَةَ وَنَثرَها بَينَ يَدَيْ إِبِلِ الصَّدَقَةِ وضَرَبَهُ بالدُرةِ وقال لاَ تَعُدْ .

وقال صلى الله عليه وسلم : « لا تَحِلُّ الصَّدَقَةُ لِغَنِيٍ وَلا لِذِي مِرَّةٍ سَوِيٍ » . رواه أحمدُ وأبو داود .

ولا يَدْفَعُ بالزكاةِ مَذَمَّةً ، ولا يَقِيْ بِها مَالَهُ ، ولا يَسْتَخْدِمُ بها ، ويَلْزَمُ الانسانُ الذي يُرِيْدُ إِبْرَاءَ ذِمَّتِهِ صَحيحاً أنْ يُفَتِّشَ على أهلِ العوائدِ ويَسْأَلْ عنهم بدِقّةٍ مِن يَعْرِفُ حَالَهُم مِن جِيرانٍ وَأَقَارِبَ حَتَّى يَتَأَكَّدَ هَلْ هُمْ أَغْنِيَاءُ فلا يَدْفَعُهَا إليهِم لأَنَّ دَفْعَهَا لهَم مَع الغنى وجُوْدُهُ كَعَدَمِه فلاَ تَبْرَأُ ذِمْتُهُ وتَبْقَى الزَّكاةُ في ذِمَّتِهِ وَلا يَحْمِلُه الحَيَاءُ فَيُعْطِي صَاحِبَ الغِنَى قَبْلَ أَنْ يَبْحَثَ عنه هَلْ هو على فَقْرِه .

لأَنَّ كثيراً مِن الفُقَراء في وَقْتِنَا انْفَتَحَ لهَم أبوابُ الرِزْقِ مِن أَوْلاَدٍ أو بَنَاتٍ أو عَقَارٍ أو شُؤُوْنٍ ولا يُبَالِي بغَضَبِ مَن مَنَعَهُ عَادَتَهُ مَعَ اسْتِغْنَائِهِ وَيَلْتَمِسُ رَضا اللهِ جلَّ وعَلاَ وَسَواء كانُوا أَقْرِبَاءَ أو غَيْرَ أَقربَاء .

ولا يَجُوزُ صَرْفُ الزَّكَاةِ لِغَيْرِ الأَصْنَافِ الثمانِيَةِ المَذْكُوْرِيْنَ في

الآية ، قال الله تعالى : ﴿انما الصدقات للفقراء والمساكينِ ، والعاملينَ عليها والمؤلفةِ قلوبُهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم﴾ .

فلا يَجُوزُ صَرْفُها في بِنَاءِ المَدَارِسِ أو المَسَاجِدِ ، ولا وَقْفِ مَصَاحِفَ ، ولا كُتُبِ عِلمٍ . ولا تكفينِ مَوْتَى ، وَلا تَوقِيْفِ مَقَابِرَ ولا غيرِهَا مِن جِهَاتِ الخيرِ ، لأَنَّ اللهَ تعالى تَوَلَّى الحُكمَ فيها بنَفْسِهِ ، فقدْ وَرَدَ عن زِيادِ ابنِ الحارثِ الصُدّائِي ـ رضي الله عنه ـ قال : أتيتُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم فَبايَعْتُهُ ، فذكرَ حديثاً طويلاً ، فأَتاهُ رجلَ فقال : اعْطِنِي مِن الصَّدقَةِ ، فَقَال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« إن اللهَ لم يَرْضَ بحُكْمِ نَبِي ولا غَيْرِهِ في الصَّدَقاتِ ، حَتَّى حَكَم فيها فَجَزَأهَا ثمانيةَ أجزاءِ ، فَان كُنتَ مِن تلكَ الأجزاءِ أعطيتُكَ » .

فيأخُذُ الفَقِيرُ وهو مَن لا يَجِدُ شَيئاً أو يَجِدُ بَعْضَ الكَفايَةِ من الزكاة تَمَامَ كِفَايَتِهِ مَعَ عَائِلَتِهِ سَنَةً لأنَّ وُجُوبَ الزكاةِ يَتَكَرَّرَ يَتَكَرَّرُ الحَوْلِ .

ويأخذُ المِسْكِينُ وهو مَن يَجدُ الكِفَايَةَ أَوْ نِصْفَهَا تَمَامَ كِفَايَتِهِ مَعَ عَائِلتِهِ سَنةً لأنَّ وُجُوبَ الزكاةِ يَتكررُ بِتكرُرِ الحَولِ .

وَيُعْطَى مِن الزكاةِ العَامِلُ وَهُوَ كَجَابٍ وَحَافِظٍ . وَكَاتِبٍ وَقَاسِمٍ وَجَامِعِ المواشِي وَعَدَّدِها وَكَيَّالٍ ووزانٍ وَسَاعٍ وراعٍ وَحَمَّالٍ وَجمالٍ قَدْرَ أجرتِهِ وانْ تَلَفَتْ في يَدِهِ بلا تَفريْطٍ منه فَيُعْطَى أَجْرَتَهُ مِن بَيْتِ المالِ لأنَّ لِلإمَامِ رَزْقُهُ على عَمَلِهِ مِن بَيْتِ المالِ .

ويُعْطَى مِن الزَّكَاةِ المُؤَلَّفُ وهوَ السَّيِدُ المُطَاعُ في عَشِيْرتِهِ ما يَحْصُلُ به التأليفُ لأنه المَقْصُودُ .

٥ ـ ويُعْطَى مِن الزكاةِ الرِّقابُ وهُم المكاتَبُونَ وفَاءَ دَينِ الكتابةِ وَيَجُوزُ أنْ يُفدِي مِن الزكاةِ أسيراً مُسْلِمَا في أيدِي الكفار .

٦ ـ ويُعْطَى الغَارِمُ مِن الزَّكَاةِ وهو مَنْ تَدَيَّنَ لإصْلاحِ ذاتِ بَيْنٍ أو تَحَمَّلَ بَسَبَبِ اتلافِ نَفْسٍ أو مَالٍ أَوْ نَهْباً أو مَالاً لِتَسْكِيْنِ فِتنةٍ وقَعَتْ بَيْنَ طائفَتَيْنِ ويَتوَقَفُ صُلُحُهُمَا على مَن يَتحَمَّلُ ذَلكَ أو تَدَيّنَ لِشَرَاءِ نَفْسِهِ مِن كُفَارٍ أو لِنَفْسِهِ في مُبَاحٍ وأعْسَرَ وَفَاءَ دَيْنِهِ كمُكاتَبٍ ، وَدَينُ اللهِ كَدَينِ الآدَمِي .

٧ ـ ويُعْطَى الغَازِي في سَبِيلِ اللهِ ما يَحْتَاجُ لِغَزْوِهِ ذَهَاباً وإيابَا وإقامةً في أرضِ العَدُوِ ونحوِ ثَمَنِ سِلاحٍ ودِرْعٍ وفَرَسٍ لِفَارِسٍ ويُعْطَى مِن الزَّكاةِ إبنُ السبِيل وهو المُسَافِرُ المُنقَطَعُ بهِ بِغيرِ بلدِهِ ما يُبَلِغُه بَلَدَهُ أو مُنْتَهَى قَصْدِهِ وعَوْدِهِ إليهَا إن لم يَكُنْ سَفَرُهُ مُحرماً أو مَكْرُوْهَا .

موعظة

عبادَ الله إن وُجُودَ الموتِ بينَ الناسِ مَوْعِظَةٌ كُبْرَى لوَ كَانُوا يعقلون فانه بلِسَانِ الحَالِ يقولُ لِكُلِ واحدٍ مِنا : سَأنْزلُ بكَ يوماً أو لَيلةً كما تَرَى الناسَ بعَيْنِكَ يَمُوتُونَ وقد يَكُونُ لأَحَدِهِم مِن المالِ والجاهِ والقوَّةِ والجَمَالِ والعِلمِ والفَصاحَةِ والمَرْكَزِ الدُّنيوِي ما يُدهشُ الناظرينَ لَهُ ، وقد يكونُ قَدْ طَالَ عُمُرُهُ وطالَ أمَلُهُ حتى مَلّ ومُلَّ مِنْهُ . وبَيْنَ ما هو في حالٍ مِن النَّشَاطِ قويٍّ مشْدُودٌ أسْرُهُ ، ذُو هِمَّةٍ تَضِيْقُ بها الدنيا ، قدْ أَقْبَلَتْ

عليهِ الدُنيا مِن كُلّ جِهَةٍ ، وزَهَتْ لَهُ ، إذا تَرَاهُ جُثَّةً هَامِدَةً أشْبَهَ بِأعْجَازِ النَّخْلِ الخَاوِية لا حِسَّ لَهُ ولا حَرَكَةَ ولا أقوالٌ وَلا أفعالٌ قَدْ ضَيَّقَ على مَن حَوْلَهُ وإذا لم يُسْرِعُوا بِهِ إلى الدَّفْنِ يَكُونُ جيْفَةَ مِن الجِيَفِ تُؤْذِي رَائِحتُهَا الكرَيهةُ كلَ مَن قَرُبَ منها ، هَذا كُلُّهُ يكونُ بعدَ ذلكَ النَّشَاطِ والقُوَى لِأنَّ هَادِمَ اللَّذاتِ نَزَلَ بِهِ .

وبَعْدَ نُزُولِه لا تَسْألُ كان لَهُ ما كَانَ ، وفي الحالِ تُصْبحُ زَوْجَتُه أرْمَلَةً ويُصبحُ أوْلاَدُهُ أيْتَامَاً . وفي الحالِ تُقَسّم أمْوَالُهُ التي جَمَعَهَا وقَاسَى على جَمْعِهَا الشَّدَائِدَ . لِأنَّ المَوْتَ يُزِيْلُ مُلْكَهُ وينْقُلُهُ إلى مُلْكِ وَرَثَتِهِ نَقْلاً تَعْجَزُ عن نَقْضِهِ الأيامُ ، نَعَمْ إنَّهُ بالموت يزولُ مَالُه كُلُّهُ وهِيَ أكْبَرُ مُصِيْبَةٍ مَالِيَّةٍ .

وأكْبَرُ مِنها أنَّهُ يُسْألُ عنه كُلِّهِ دَاخِلاً وخَارجاً مِن حَلاَلٍ أَمْ مِن حَرَامٍ وبَعْدَ مُدَّةٍ يَسيْرةٍ يُنْسَى هُو وَيُنْسَى مالُه وَيُنسَى جَاهُهُ ويُنْسَى مَرْكَزُهُ ومَكَانَتُهُ ولو كان مَلِكاً أوْ وَزِيْراً ومَا كأنهُ رَأتْهُ العُيُونُ ولا سَمِعَتْ كَلامَهَ الآذانُ ، كما قِيْلَ :

كـأنَّـهـم قَطْ مـا كـانُـوا ولا وُجِـدُوا
ومـاتَ ذِكْـرُهُـمُـوْا بَـيْـنَ الـوَرى وَنُـسُـوْا

إن الناسَ يَرَوْنَ المَوْتَ كلَ يَومٍ بأعْيُنِهم في بُيُوتِهم أوْ في المُسْتَشْفَيَاتِ ، ويَرَوْنَ مَاله من آثارٍ ومَعَ ذلكَ فانهم بمُجَرَّدِ أن يَمُوْتَ بَيْنَهم مَيّتٌ يكونُ منهم مَعَ مَوْتِهِ هَذا مَا يُدْهِشُ الأفكارَ فترى مِن أقاربِهِ مَن يَتَسَابَقُونَ إلى البَحْثِ عَمَّا خَلَّفَ وانْتِهَابِ ما اتّصَلَتْ إليه أيْدِيهِم مِن

مالِهِ ، وربَّمَا شَبَّتْ بَينَ وَرَثَتِهِ الحُرُوْبُ مِن أجلِ أن يَتَمَيَّزَ كُلُ واحدٍ منهم في التَّرِكَةِ عَمَّن سِوَاهُ وقد تَشْتَدُّ بِهِم تِلكَ العَدَاوَةُ تَعْمَلُ عَملَهَا ما بَقِيْتْ تِلكَ .

يَفْعَلُوْنَ هَذَا كُلَّهُ عَقِبَ مَنْ يَمُوْتُ بَدَلَ أنْ يَعْتَبِرُوْا ويَتَّعِظُوْا بِهِ فَيُزَهِّدُهُمْ هَذَا التَّفْكِيْرُ والإعتِبَارُ فِيْ ذَلِكَ الْمالِ الفَانِيْ الذَّاهِبُ عَنْ أَيْدِيْهِمْ عَنْ قَرِيْبٍ كَمَا ذَهَبَ عَنْهُ مَنْ وَصَلَ إِلَيْهِمْ مِنْ طَرِيْقِهِ لَقَدْ سَبَقَ أَقْوَامٌ كَانُوْا يُؤْمِنُوْنَ بِالْمَوْتِ حَقَّ الْإِيْمَانِ فَكَانُوا يُقَدِّرُوْنَ الدُّنْيَا حَقَّ التَّقْدِيْرِ كَانُوا يَعْرِفُوْنَ أَنَّهَا فَانِيَةٌ وَأَنَّهَا غَرَّارَةٌ خَدَّاعَةٌ وَأَنَّهُمْ تَارِكُوهَا يَوْماً رَغْمَ أَنُوْفِهِمْ لَا رُجُوْعَ بَعْدَهُ لِقَلِيْلٍ مِنْهَا وَلا كَثِيْرٍ قَرَؤُوا قَوْلَهُ تَعَالَى : كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ فَاسْتَعِدّوا واقْرؤُوْ قولَهُ تَعالى : مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَذُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ فَكَانُوْا إذَا حَصَلَ لَهُمْ شَيءٌ مِنَ الدُّنْيَا صَرَفُوْا ذَلِكَ لِمَا يَنْفَعُهُمْ فِي الدَّارِ الآخِرَةِ . وَإِذَا سَمِعْتَ أَنَّهُمْ كَانُوْا يَطْلُبُونَ الدُّنْيَا فَلِمَا ذَكَرْنَا .

قَالَ ابْنُ مَسْعُوْدٍ لَمَّا نَزَلَتْ آيَةُ الصَّدَقَةَ كُنَّا نُحَامِلُ عَلَى ظُهُوْرِنا فَجَاءَ رَجُلٌ فَتَصَدَّقَ بِشَيْءٍ كَثِيْرٍ فَقَالُوا مُرَائِي وَجَاءَ رَجُلٌ فَتَصَدَّقَ بِصَاعٍ فَقَالُوْا إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنْ صَاعِ هَذَا فَنَزَلَتْ الآيةُ : ﴿الَّذِيْنَ يَلْمِزُوْنَ الْمُطَّوِّعِيْنَ مِنَ الْمُؤْمِنِيْنَ فِيْ الصَّدَقَاتِ وَالَّذِيْنَ لَا يَجِدُوْنَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ ، سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيْمٌ .﴾

ومِنْ طَرِيْقٍ آخَرَ حَثَّ الرَّسُوْلُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى الصَّدَقَةِ يَعْنِي فِي غَزْوَةِ تَبُوْكَ فَجَاءَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ بِأَرْبَعَةِ آلافٍ فَقَالَ يَا رَسُوْلَ اللَّهِ مَالِي ثَمانِيَةُ آلافٍ جِئْتُكَ بِنِصْفِهَا وَأَمْسَكْتُ بِنِصْفِهَا فَقَالَ رَسُوْلُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَارَكَ اللَّهُ لَكَ فِيْمَا أَمْسَكْتَ وَفِيْمَا أَعْطَيْتَ وَجَاءَ

أَبُوْ عَقِيْل بِصَاعٍ مِنْ تَمْرٍ فَقَالَ يَا رَسُوْلَ اللَّهِ أَصَبْتُ صَاعَيْن مِنْ تَمْرٍ صَاعٍ أَقْرَضْتُهُ لِرَبِيٍّ وَصَاعٍ لِعَيالِيْ قَالَ فَلَمَزَهُ الْمُنَافِقُونَ وَقَالُوا : مَا أَعْطَى ابْنُ عَوْفٍ إِلَّا رِيَاءً وَقَالُوا أَلَمْ يَكُنْ اللَّهُ وَرَسُوْلُهُ غَنِيَّيْنِ عَنْ صَاعِ هَذَا وَهَكَذَا كَانَ الصَّحَابَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يَجْعَلُوْنَ مَا نَالُوْا مِنَ الدُّنْيَا وَسِيْلَةً إِلَى الآخِرَةِ :

شعرا :

إذا اكْتَسَبَ المالَ الفَتَى مِن وُجُوْهِهِ
وأَحْسَنَ تَدبْيراً لَهُ حِيْنَ يَجْمَعُ
ومَيَّزَ في إنْفَاقِهِ بَينَ مُصلِحٍ
مَعِيْشَتَهُ فِيْمَا يَضُرُ وَيَنْفَعُ
وأَرْضَى بِهِ أَهْلَ الحُقُوقِ ولم يُضِعْ
بِهِ الذُخْرَ زَاداً لِلَّتي هِيَ أَنْفَعُ
فَذَاكَ الفَتَى لا جَامِعَ المالِ ذاخِراً
لِأولادِ سُوءٍ حَيْثُ حَلّوُا وأَوْضَعُوْا

اللهم تَقَبَّلْ منَّا يَسيرَ الأَعْمَالْ ، وهَبْ لَنا إِسَاءَتنا في الأَقوالِ والأفعالِ وَسَامِحْنا عَنِ الغفلةِ والإهمَالِ واغفرْ لنا ولوالدينا ولجميعِ المسلمينَ برحمَتِكَ يا أرحم الراحمين . وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

(فصل)

٣٤ ـ فِيْمَا وَرَدَ مِن الوَعِيْدِ الشَّدِيْدِ على تَرْكِ الزَّكَاةْ :

إذا فَهِمْتَ ما تَقَدَّمَ مِمَّا تَجِبُ فيهِ الزكاةُ وبيانِ نِصَابِ الزكاةِ ومَصْرفها وما يَنْبَغِيْ أنْ يَقولَ الدافِعُ والمدفوعُ إليهِ . فاعلَمْ أنَّها مَا خَالَطَتْ مَالاً إلا أفسدَتْهُ ومحقتْ بَرَكَتَهُ وأيَّ خَيرٍ ونَفْعٍ في مالٍ مَمْحُوقِ البَرَكةِ بَاقٍ شَرُّهُ وفِتْنَتُهُ وشُغْلُ البدنِ والقلبِ وإتْعَابُهُما ؟

والمَحْقُ : مِنْه ما هُوَ ظَاهِرٌ ، وهُوَ ذَهَابُ صُوْرَةِ المالِ ورُجُوْعُ الانسانِ بعدَ الاستغناءِ فَقِيْراً ، وقَدْ وَقَعَ ذلكَ لِخَلْقٍ كثيرٍ مِن المتساهِلِينَ بأَمْرِ الزَّكاة .

ومِن المَحْق : مَحْقٌ بَاطِنٌ وهُوَ أَنْ يَكُوْنَ المالُ في الصُوْرَةِ مَوْجُوْداً وكَثِيْراً ولكنْ لا يَنْتَفِعُ فيه صاحبُهُ لا في دِينهِ في وجُوْهِ البِرِّ والمَشارِيْعِ الخَيْريَّةِ وبَذْلِ المعرُوْفِ ، ولاَ يَنْتَفَعُ فيه في نَفْسِهِ ومروءَتِهِ بالسَّتْرِ والصِيانةِ ، ومَعَ ذلكَ يَتَضَرَرُ بهِ تضَرُرًا كثيراً بامْسَاكِهِ عن حَقِّهِ وَوَضْعِهِ في غَير جِهَتِهِ إمّا بانْفَاقِهِ بالمَعَاصِيْ والعِيَاذُ باللهِ . وإمَّا في الشَّهَواتِ البَهِيْمِيَّةِ التي لا نَفْعَ فيها ولا حَاصِل .

وقد وَرَدَ في مَنْعِ الزِكاةِ عن اللهِ ورسُوْلِهِ تَشْدِيْدَاتٌ هَائِلةٌ وتَهْدِيْدَاتٌ عظيمة ويُخْشَى على مَانِعِ الزكاةِ مِن سُوْءِ الخَاتِمةِ والتَعرُّضِ لوَعِيْدِ اللهِ وغَضَبِهِ والخُروجِ مِن الدنيا على غَيرِ مِلّةِ الاسلامِ ومِمَّا جَاء مِن الوَعِيْدِ في حَقِّ مَنْ بخِلَ بِهَا أوَ قَصَّرَ في إخراجِهَا قولُه تعالى : ﴿ولاَ يَحْسَبنَّ الذين يَبْخَلُونَ بما آتاهم اللهُ مِن فضله هو خيراً لهم بل هو شرٌ لهم سَيُطَوَّقُونَ ما بَخِلوُا به يومَ القيامة ، ولِلهِ ميراثُ السمواتِ والارض والله بما تعملون خبير﴾ .

وقال تعالى : ﴿والذين يَكْنِزُوْنَ الذَّهَبَ والفِضَّـةَ ولا يُنْفِقُونَهَا في سَبِيْلِ اللهِ ، فَبَشِّرْهُمْ بعَذَابٍ أَلِيمْ ، يومَ يُحْمَى عليها في نارِ جَهنم فَتُكْوَى بها جباهُهُم وجُنوبُهم وظُهُورهُم ، هذا ما كَنَزْتُم لأَنْفُسِكمُ فَذُوْقُوا ما كُنْتُم تَكْنِزُون﴾ .

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه عنه ـ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما مِن صاحبِ ذهبٍ ولا فِضَّةٍ لا يُؤَدِيْ منها حَقَّهَا إلا إذا كانَ يَوْمُ القيامةِ صُفِّحَتْ لَهُ صَفَائِحَ مِن نارٍ فأُحْمِيَ عليها في نارِ جَهَنَّمَ، فَيُكْوَى بها جَنْبُهُ وجَبْينُهُ وظَهْرُهُ ، كلما بَرَدَت أعيدتْ له في يومٍ كان مقدارُه خمسينَ ألفَ سنة حتى يُقضَى بَينَ العِبادِ فيَرى سَبِيْلَهُ : إمَّا إلى الجَنةِ ، وإمَّا إلى النارِ .

قِيلَ : يا رسولَ الله فالابِلُ ؟ قال : « ولا صاحبُ إبلٍ لا يُؤْدِيْ حَقَّها ـ ومِن حَقِّهَا حَلْبُهَا يَوْمَ وِرْدِها ـ إلا إذا كان يومُ الْقِيَامَةِ بُطِحَ لَهَا بِقَاعٍ قَرْقَرٍ أَوْفَرَ مَا كَانَتْ لَا يَفْقِدُ مِنْهَا فَصِيْلاً وَاحِدا : تَطَؤُهُ بِأَخْفَافِهَا وَتَعَضُّهُ بأفْواهِهَا ، كُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ أَوْلَاها رَدَّ عَلَيْهِ أخْرَاهَا في يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِيْنَ أَلفَ سَنَةٍ حَتَّى يُقْضَى بَيْنَ العِبَادِ فَيرَى سَبِيْلَهُ : إمَّا إلى الجَنَّةِ ، وإمّا إلىٰ النَّارِ .

قِيْلَ : يَا رَسُوْلَ اللَّهِ ، فَالْبَقَرُ وَالْغَنَمُ ؟ قَالَ : « وَلَا صَاحِبُ بَقَرٍ وَلَا غَنَمٍ لا يُؤَدِّيْ مِنْهَا حَقَّهَا إلَّا إذَا كانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ بُطِحَ لَهَا بَقَاعٍ قَرْقَرٍ لَا يَفْقِدُ مِنْهَا شَيْئاً لَيْسَ فِيْهَا عَقْصَاءُ وَلَا خَلْجَاءُ وَلَا عَضْبَاءُ ، تَنْطَحُهُ بِقُرُوْنِهَا وَتَطَؤُهُ بأظْلافِهَا كُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ أَوَّلُهَا رُدَّ عَلَيْهِ آخِرَهَا فِيْ يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِيْنَ أَلْفَ سَنَةٍ حَتَّى يُقْضَى بَيْنَ الْعِبادِ فيرَى سَبِيْلَهُ : إمَّا إلى الْجَنَّةِ ،

وإمَّا إلىٰ النّارِ .

وَعَنْ جَابِرٍ ـ رضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ قال : سَمِعْتُ رَسُوْلَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُوْلُ : « مَا مِنْ صَاحِبِ إبلٍ لا يَفْعَلُ فِيْهَا حَقَّهَا إلاّ جَاءَتْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أكْثَرَ مَا كَانَتْ ، وَقَعَدَ لَها بِقَاعٍ قَرْقَرٍ تَسْتَنُّ عَلَيْهِ بِقَوَائِمِهَا وَأَخْفَافِهَا ، وَلاَ صَاحِبَ بَقَرٍ لاَ يَفْعَلُ فِيْهَا حَقَّهَا إلاَّ جَاءَتَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَوْفَرَ مَا كَانَتْ وَقَعَدَ لَهَا بِقاعٍ قَرْقَر فَتَنْطَحُهُ بِقُرُوْنِهَا ، وَتَطَؤُهُ بِأَظْلاَفِهَا ، لَيْسَ فِيْهَا جَمَّاءُ وَلا مُنْكَسِرٌ قَرْنُهَا وَلاَ صَاحِبِ كَنْزٍ لا يَفْعَلُ فِيْهِ حَقَّهُ إلاَّ جَاءَ كَنْزُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ شُجَاعاً ، أَقْرَعَ يَتْبَعُهُ فَاتِحاً فَاهُ ، فإذَا أَتَاهُ فَرَّ مِنْهُ ، فَيُنَادِيْهِ خُذْ كَنْزَكَ الَّذِي خَبَّأْتَهُ فَأَنَا عَنْهُ غَنِيٌّ ، فَإذا رَأَى أَنْ لاَ بُدّ مِنْهُ سَلَكَ يَدَهُ في فِيْهِ فَيَقْضِمُهَا قَضْمَ الفَحْلَ » .

وَفي رِوَايَةٍ لِلنَّسَائي قال : قالَ رَسُوْلُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ : « مَا مِنْ رَجُلٍ لاَ يُؤَدِيْ زَكاةَ مَالِه إلاَّ جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ شُجَاع مِنْ نَار فَتُكْوَى بِهَا جَبْهَتُهُ وَجَنْبُهُ وَظَهْرُهُ في يَوْمٍ كانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِيْنَ ألفَ سَنَةٍ ، حَتَّى يُقْضَى بَيْنَ النَّاسِ » . وَاللَّهُ أَعْلَمُ وَصَلَّى اللهُ عَلى مُحَمَّدٍ وَعَلى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

(فصل)

وَعَنْ جَابِرٍ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ قَالَ : قَالَ رَجُلٌ يَا رَسُوْلَ اللَّهِ ، أَرَأَيْتَ أَنْ أدَّى الرَّجُلُ زَكاةَ مَالِهِ ، فقالَ رَسُوْلُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « مَنْ أدىّ زَكَاةَ مَالِهِ فَقَدْ ذَهَبَ عَنْهُ شَرُّهُ » .

وَعَنْ الأَحْنفَ بْنِ قَيْس ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ قَالَ : جَلَسْتُ إلَى مَلأٍ

مِنْ قُرَيْشٍ فَجَاءَ رَجُلٌ خَشْنُ الشَّعْرِ وَالثِّيَابِ والْهَيْئَةِ حَتَّى قَامَ عَلَيْهِمْ فَسَلَّمَ ثُمَّ قَالَ : بشِّرْ الْكَانِزِيْنَ بِرَضْفٍ يُحْمَى عَلَيْهِ فِيْ نَارِ جَهَنَّمَ ، ثُمَّ يُوْضَعُ عَلَى حَلَمَةِ ثَدْيِ أَحَدِهِمْ حَتّى يَخْرُجَ مِنْ نَغض كَتِفِهِ وَيُوْضَعُ عَلَى نَغضِ كَتِفِهِ حَتَّى يَخْرُجَ مِنْ حَلَمَةِ ثَدْيِهِ فَيَتَزَلْزَلُ .

ثُمَّ وَلَّى ، فَجَلَسَ إِلَى سَارِيَةٍ ، وَتَبِعْتُهُ وَجَلَسْتُ إِلَيْهِ ، وَأَنَا لاَ أَدْرِي مَنْ هُوَ ، فَقُلْتُ : لاَ أَرَىْ الْقَوْمَ إِلاَّ قَدْ كَرِهُوا الذِي قُلْتَ ، قَالَ إِنَّهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً ، قَالَ لِي خَلِيْلِي ، قُلْتُ مَنْ خَلِيْلُكَ ؟ قالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَمِ : أَتُبصِرُ أَحداً ؟ قال : فَنَظَرْتُ إِلَىْ الشَّمْسِ مَا بَقِي مِنْ النَّهَارِ وَأَنَا أَرَى أَنَّ رَسُوْلَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُرْسِلُنِيْ فِيْ حَاجَةٍ لَهُ قُلْتُ : نَعَمْ ، قالَ : مَا أُحِبُّ أَنَّ لِي مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَباً أَنْفِقُهُ كُلَّهُ إِلاَّ ثَلاَثَةِ دَنَانِيْر ، وَإِنَّ هَؤُلاَءِ لاَ يَعْقِلُوْنَ ، إِنَّمَا يَجْمَعُوْنَ ، لاَ وَاللهِ لاَ أَسْأَلُهُمْ دُنْيَاً وَلاَ اسْتَفْتِيْهِمْ عَنْ دِيْنٍ حَتَّى أَلْقَى اللهُ عَزَّ وَجَلَّ .

وَفِيْ رِوَايَةٍ لِمسُلْمٍ ، أَنَّهُ قَالَ : « بَشِّرْ الْكَانِزِيْنَ بِكَيٍّ فِي ظُهُوْرِهِمْ فَيَخْرُجُ مِنْ جُنُوْبِهِمْ ، وَبِكَيٍّ مِنْ قِبَلِ أَقْفَائِهِمْ حَتّى يَخْرُجَ مِنْ جَبَاهِهِمْ قَالَ : ثُمَّ تَنَحَّى فَقَعَدَ ، قَالَ : قُلْتُ : مَنْ هَذَا قَالُوْا : هَذَا أَبُوْ ذَرٍّ ، قالَ : فَقُمْتُ إِلَيْهِ فَقُلْتُ : مَا شَيْءٌ سَمِعْتُكَ تَقُولُ قُبَيْلُ ؟ قَالَ : مَا قُلْتُ إِلاَّ شَيْئاً قَدْ سَمِعْتُهُ مِنْ نَبِيِّهِمْ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال قُلْتُ ما تقول في هذا العطاء قال خُذْهُ . فإنَّ فِيْهِ اليومَ مَعُوْنَةٌ فإذا كان ثمناً لِدِيْنِكَ فَدَعْهُ » .

وَروي عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال : سَمِعْتُ مِن عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ ـ رَضْيَ اللهُ عنه ـ حَدِيْثاً عن رسولِ اللهَ صلى الله عليه وسلم ، ما سَمِعْتُهُ مِنه ، وكُنْتُ أَكْثَرَهُم لُزُوْماً لِرَسُوْلِ الله صلى الله عليه وسلم ،

قال عُمَرُ : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما تَلِفَ مَالٌ في بَرٍ ولا بَحْرٍ الا بحبسِ الزكاة » .

وعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالتْ : قال رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم : « ما خَالَطَتِ الصَّدَقَةُ ـ أو قال الزكاةُ ـ مالاً إلا أفْسَدَتْهُ » .

وعن الحَسَنِ : أنَّ رَسُوْلَ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلم قال : « حَصِنُوا أَمْوَالَكُم بالزَّكاةِ ، ودَاوُوْا مَرْضَاكُم بالصَّدَقَةِ ، واسْتَقْبِلُوا أمْوَاجَ البَلاءِ بالدُعَاءِ والتَّضَرُعِ » .

فَتَأَمَّلْ يَا أَخِيْ الآياتِ الكَرِيْمَاتِ والأَحَادِيْثِ الشَّرِيْفَاتِ . .

وانْظُر كَيْفَ يُؤْتَى بالمالِ الذِي كان يُحِبُه مَانِعُ الزكاةِ حُباً شَدِيداً ويُعزُّهُ العِزَّ الذِي يَصِلُ بِهِ إلى أنَ يُمْسِكُهُ ويَجْمَعَهُ ويُوَعِيْهِ ولاَ يُفَرِّطُ في شَيءٍ مِنه ، حَتَّى ما كَانَ مِنه حَقاً لِلْفُقَرَاءِ البُؤْسَاءِ المَسَاكِيْنِ يُؤتَى بِه بِعَيْنِهِ ويُجْعَلُ صَفَائِحَ وَمَعَ أن هَذِهِ الصَّفَائِحَ مِنَ نَارٍ يُحْمَى عَلَيْهَا في نَارِ جَهَنَّمَ لِتَشْتَدَّ حَرَارَاتُهَا وتَزْدَادَ لِيَكُونَ المُهَا الوَاقِعُ عَلَى بَدَن مَانِع الزكاةِ بالغاً النِّهَايَةَ في الشِّدَّةِ حِيْنَ يُكْوَى بها جَنْبُهُ وجَبِيْنُهُ وَظَهْرُهُ .

وَتَخْصِيْصُ هَذِهِ الأَعْضَاءِ الثَّلاَثَةِ قال بعضُ العُلَمَاءِ لأنَّ المُعَذَّبَ وَهو مانِعُ الزكاةِ اذا جَاءَهُ الفَقِيْرُ يَسْأَلُهُ شَيْئاً مِن حَقِّهِ عَبَّسَ وَجْهَهُ وَعَقَدَ جَبِيْنَهُ عُبُوْساً وَتَعْقِيْداً يَدُلُ على كَرَاهَتِهِ لِهذا السؤال .

فإذا ألَحّ الفقيرُ عليه زادَ في عُبُوسِهِ أنْ يَضُنَّ بمُوَاجَهَةِ ذَلِكَ الفَقِيرِ فَيَنْتَقِلُ مِن المُواجَهَةِ إلى الانْحِرَافِ عَنْهُ ويَجْعَلُ جَنْبَهُ في وجْهِ المِسكينِ السَائِلِ مُبَالَغَةً في إظهارِ الكَرَاهِيَةِ لِسُؤَالِهِ .

فإذا ازْدَادَ الفَقِيْرُ واشْتَدَّ في الطَّلَبِ والإلْحَاحِ بَالَغَ المَسْؤُوْلُ في الغَضَبِ فانْصَرَفَ عنهُ وَوَلاَهُ ظَهْرَهُ ماشياً مِن مَكَانِهِ وتَارِكاً له يَهْوِي في هُوَّاتِ احْتِيَاجِهِ بدُوْنِ أي اكْتِرَاثٍ فلَمَّا كَانَ هَذَا حَالُ تِلْكَ الأَعْضَاءِ الثلاثَةِ في الدُنْيَا خُصَّتْ في الآخِرةِ بالكَيِّ بتِلْكَ الصَّفَائِحِ التي هِيَ مَالُه وبذلك يَعْرِفُ أَنهُ يُهانُ بالمالِ الذي كان يُعزِهُ في دُنياه .

ولو كان يُهِيْنُهُ بالدُنيا بِمُفَارِقَةِ مَا كَانَ يَجِبُ عليه منه لَكَانَ سَبباً لإكْرَامِهِ في ذلك اليَومِ الرَّهِيْبِ المُفْزِعِ .

وانْظُرْ كَيفَ تَأتِي نِعَمُهُ إبلُهُ وَبقَرُهُ وغَنَمُهُ التي لم يُؤَدِّ حَقَّ اللهِ فيها أَقْوَى ما كَانَتْ وَأَوْفَرَهْ فَتَطَؤُهُ الإبلُ بأخْفَافِهَا وتَعَضُّهُ بأنْيَابِهَا الحَادَّةِ وتَطَؤُهُ البَقَرُ والغَنَمُ باظلافِهَا وتَنْطَحُهُ بقُرُوْنِهَا السَّلِيْمَةِ لِيَكُونَ النَّطْحُ بهَا أَوْجَعَ وآلَمَ ولا تَجِيءُ بَقَرَةٌ ولا نَعْجَةٌ إلا وَلَها قَرْناها لَيْسَ بِهِمَا أيُّ مَانِعٍ يَمْنَعُ مِن تَوْجِيْهِهِمَا إليهِ وَطَعْنِ المانِعِ بِهِمَا الطَّعْنَ الأليمَ . وإنما كانَتْ أَقْوَى مَا كَانَتْ لِيَكُوْنَ وطؤُها ونَطْحُهَا وعَضُّهَا بمُنْتَهى القُوَّةِ . وإذَا كَانَ مَبطُوحاً لَهَا

وهِيَ تَتَرَدَّدُ عَلَيهِ بالوَطْءِ كَانَ أَمْكَنَ لَهَا في فِعْلِ ما تُعَذِّبُهُ بهِ وهَذا العَذابُ لا يكونُ زَمَنُه قَلِيْلاً ولكنَّهُ يَدُوْمُ ما دَامَ المَوقِفُ .

ومِقْدَارُ المَوْقِفِ خَمْسونَ ألفَ سَنَةٍ ونَوعٌ آخَرَ مِن الْعَذَابِ خَاصٌ بمانِعِ الزكاةِ وهو أنْ يُوْضَعَ حَجَرٌ مُحْمَى عليهِ وقَدْ زِيْدَ في حَرَارَتِهِ فأُحْمِيَ عليهِ كذلك في نار جَهَنَّمَ فلا يَتَحَمَّلُ اللَّحْمُ شِدَّةَ حَرَارَتِهِ فَيَذُوْبُ ذَوَباناً فَيَدْخُلُ الحَجَرُ الجِسْمَ واللَّحْمُ يَذُوْبُ أمامَهُ حَتى يَخْرُجَ مِن القِطْعَةِ الرَّقِيْقَةِ التي في طَرَفِ الكتِفِ .

ثُمَّ يُوضَعُ عَلَى هَذِهِ الْقِطْعَةِ الرَّقِيْقَةِ وَقَدْ عَادَ الْجِسْمُ إِلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ فَيُفْعَلُ بِهِ كَمَا تَقَدَّمَ يَخْرُجُ مِنْ حَلَمَةِ ثَدْيِهِ وَيَزِيْدُ فِي الأَلَمِ حَالَ التَّعْذِيْبِ أَنَّ الحَجَرَ يَتَزَلْزَلُ لاَ يَمُرُّ فِيْ الْبَدَنِ مُسْتَقِيْماً وَقْتَ نُفُوْذِهِ .

نَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يُعَامِلَنَا بِعَفْوِهِ وَجَمِيْعَ الْمُسْلِمِيْنَ وَقَدْ لاَ يَكُوْنُ هَذَا الْعَذَابُ كَافِياً فَيَكُونُ سَبِيْلَهُ إِلَى النَّارِ التِّيْ فِيْهَا أَلْوَانُ الْعَذَابِ الأَلِيْم مِنْ زَقُّوْم وَحَمِيْمٍ وَغَسَّاقٍ وَضَرِيْعٍ وَوَيْلٍ وَغِسْلِيْنٍ .

وَلَمَنْعِ الزَّكَاةِ شَكْلٌ آخَرٌ من الشُّؤْمِ الدُّنْيوي غَيْرُ مَا تَقَدَّمَ كَمَا فِيْ حَدِيْثِ مَا تَلِفَ مَالٌ فِيْ بَرٍّ وَلاَ بَحْرٍ إلاّ بَحَبْس الزَّكاةِ فَالْحَدِيْثُ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ أيُّ مَالٍ يَضِيْعُ فِيَ أيِّ مَكَانٍ فِي بَرٍّ أوْ بَحْرٍ سَبَبُ تلفِهِ تَرْكُ الزَّكاةِ . وَهِيَ عُقُوبَةٌ تَعْكِسُ على الْمَانِعِ قَصْدَهَ ، إذْ هَوَ يَقْصِدُ بِمَنْعِهِ لَهَا تَكْثِيرُ الْمَالِ وَالْهُرُوْبِ من نَقْصِهِ باخْراجِ القَدْرِ الواجِبِ مِنهُ . ولوَ أَخْرَجَ القَدْرَ الواجَبَ وهُوَ قَلِيْلٌ مِن كَثِيْرٍ ، لَحُفِظَ مَالُه بإذْنِ اللهِ ولكانَ لهَ ثَوابٌ عظيمٌ هوَ ثوابُ رُكْن مِنْ أَرْكَانِ الإِسلامَ ، ولكانَ لَهُ مِن الفضْلِ على المُعْطَى مَا لا يَنْسَاهُ مُدَّةَ حَيَاتِهِ .

أَمَّا العُقُوبةُ الأُخرْوِيَّةُ فَالنارُ الَّتِيْ قال الله تعالى عنها : ﴿كَلاَّ إِنها لظَى نَزَاعةً لِلشَّوَى تَدْعُو مَن أدْبرَ وَتولىّ وَجَمَعَ فأَوْعَى ﴾ .

فَعَلَيْكَ أيُّها العَاقِلُ ، أنْ تُحَاسِبَ نَفْسَكَ بِدِقَّةٍ وَتُقَوِّمَ ما أَعْدَدْتَه لِلبَيْعِ والشِراءِ وأن تُبرِىءَ ذِمَتَكَ بِيَقِيْنٍ ، بإخراجِ الزكاةِ كُلِّهَا إذَا تَمَّ الحَولُ ، وأَنْ لاَ تَدْفَعَهَا إلا لِمَن تَعْلَمُ أَنَّهُ مِمَّنْ يَسْتَحِقها يَقِيْناً أَوْ يَغْلِبُ عَلَى الظنّ أَنَّهُ مِن أهلِها .

واحْذَر كُلَّ الحَذَرِ مِنَ التَّهَاوُنِ بِتَرْكِ شَيءٍ مِنها أو التَّسْوِيْفِ بِها أوْ سُلُوكِ الطُرقِ المُلْتوِيةِ لِلتَّخَلُّصِ مِن أدَائِهَا أوِ التَّحَايُلِ على تَركِ شَيءٍ منها فَكُلُّ حِيلةٍ تُستَعْمَلُ لِتضْيِيْعِ حَقٍ مِن حُقُوقَ اللهِ أو حُقُوقِ عبادِهِ أوْ تُبِيحُ ما حَرَّمَ اللهُ أو تَحرِّمُ ما أحَلَّ اللهُ فَهِيَ مِن الحِيلِ المُحَرَّمَةِ التي سَيُجَازَى عليها أشَدَّ الجَزَاءِ وما رَبُّكَ بظلامٍ لِلْعَبيد .

ويَجُوزُ تَعْجِيْلُ الزكاةِ لِحولَين فَأَقَلَّ إذا كَمُلَ النِصابُ لِمَا وَرَدَ عن علي علَيه السلامُ أنَّ العَبَاسَ بنَ عبدِ المُطَّلِب سَأل النبيَّ صلى اللهُ عليه وسلم في تَعْجِيلِ صَدَقَتِهِ قَبْلَ أن تَحِلَّ فَرَخَّصَ له في ذلك رواه الخمسة الا النسائي .

وعن أبي هريرةَ قال بَعَثَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلم عُمَرَ على الصدقةِ فَقِيْلَ مَنَعَ ابنُ جَميلٍ وخالدُ بنُ الوليدِ والعَبَاسُ فقال رسول اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ ما يَنْقِمُ ابنُ جَمِيْلٍ إلَّا أَنَّهُ كان فقيراً فأغناهُ اللهُ ورسولهُ وَأَما خالدٌ فإنكم تظلمون خالداً وقد حَبَسَ أَدْراعَهُ وَأَعْتَادَهُ في سبيلِ اللهِ وأَمَا العَبَاسُ فَهِيَ حَقُّ عَلَيَّ وَمثلُها مَعَهَا ثُمَّ قَال يَا عُمَرُ أَمَا شَعِرْتَ أَنَّ عَمَّ الرجلِ صِنْوُ أبيهِ متفقٌ عليهِ .

اللهم اغفر لنا ما قَطَعَ قُلُوبَنا عن ذِكرك واعفُ عن تَقْصِيرنا في طاعَتِكَ وشُكْرِكْ وأدمْ لَنَا لزُومَ الطريق إليكَ وهَبْ لنا نوراً نَهْتَدِي به إليكَ واسْلُكْ بنا سَبيْلَ أَهْلِ مَرْضَاتِكَ واقْطعْ عَنَّا كُلَّ ما يُبعدُنا عَن سَبيْلِكَ ويَسِّرْ لَنَا ما يَسَّرْتَهُ لأَهْلِ مَحَبَّتِكَ وأَيْقِظْنَا مِن غَفَلاتِنَا وألهِمْنَا رُشْدَنا وحَقِّقْ بِكَرمِكَ قَصْدَنَا واسْتُرْنَا في دُنيانا وآخِرَتِنَا واحْشُرْنَا في زُمْرَةِ المتقين وألحِقْنَا بِعِبَادِكَ الصالِحين واغفر لنا ولِوالدينا ولِجميع المسلمين الأَحْيَاءِ

منهم والميتين برَحْمَتِك يا أرحَمَ الراحمين وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

(فصل)

* في بعض آداب الزكاة :

قال في مِنهاجِ القاصِدين إعلم أن على مُرِيد الزكاةِ وظائفا :

الوَظِيفَةُ الأُوْلَى : أن يَفْهَمَ المرادَ مِنَ الزكاةِ ، وهو ثَلاَثَةُ أَشْيَاءَ : إبْتِلاَءُ مُدَّعِي مَحَبةِ اللهِ تعالى ، باخراجِ مَحْبُوبِهِ والتنزُهُ عن صفةِ البُخْلِ المُهْلِكِ ،وشُكرُ نعمةِ المال .

الوَظِيْفَةُ الثانيةُ : الأسْرَارُ باخْرَاجِهَا لقوله تعالى :﴿ إن تُبْدُوْا الصَّدَقاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وإن تُخْفُوها ، وتُؤتُوها الفُقَراء فهو خيرٌ لكم ﴾ وحديثِ السبعةِ وَعَدَّ مِنهم رَجُلاً تَصَدَّقَ بِصَدَقةٍ فأخْفَاهَا حتى لا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِيْنُهُ لِكَوْنِهِ أَبْعَدَ عن الرِّياءِ والسُّمْعَةِ ، وفي الإظْهَارِ إذْلالٌ لِلْفَقِيْرِ أَيْضاً ، فإنْ خَافَ أنْ يُتَّهَمَ بِعَدَمِ الإخْرَاجِ أعْطَى مَن لاَ يُبَالِي مِنَ الفُقَراءِ بالأخْذِ بَيْنَ الجَمَاعَةِ عَلانِيَةً وأَعْطَى غَيْرَهُ سِراً .

الوظيفةُ الثالثةُ : أَنْ لا يُفْسِدَها بالمَنِّ والأذى . وذلك أنَّ الإنسانَ اذا رَأَى نَفْسَهُ مُحْسِناً إلى الفَقِيرِ مُنْعِماً عليه بالاعطاءِ ، رُبَّمَا حَصَلَ منه ذلكَ ، ولو حَقَّقَ النظرَ لَرَأَى الفقيرَ مُحْسِناً إليه ، بقَبُولِ حَقِ اللهِ الذي هُوَ طُهْرٌ له ، واذا اسْتَحْضَرَ مَعَ ذلكَ أنَّ إخراجَهُ لِلزَكاةِ شُكْرٌ لِنِعْمَةِ المالِ ، فلا يَبْقَى بَيْنَهُ وبينَ الفقيرِ مُعَامَلَةٌ ، ولا يَنْبَغِي أنْ يَحْتَقِرَ الفقيرَ بِفَقْرِهِ لأَنَّ الفَضْلَ لَيْسَ بالمالِ ولا النقصَ بعدَمِهِ .

الوظيفةُ الرابعةُ : أنْ يَسْتَصْغِرَ العَطيَّة ، فإنَّ المُسْتَعْظِمَ لِلْفعْل مُعْجَبٌ بِهِ ، وقَدْ قِيْلَ : لاَ يَتِمُّ المَعرُوْفُ إلا بثلاثٍ : بِتَصغيرِهِ وتعجيلِهِ وسَتْرِهِ .

الوظيفةُ الخامسةُ : أن يَتَقِي مِن مَالِهِ أحلَّهُ وأَجْوَدَهُ وأحَبَّهُ إليهِ ، أما الحِلُ فإنَّ اللهَ تعالى طَيِّبٌ لا يَقْبَلُ إلا طَيِّباً . وأمَّا الأجْوَدُ فقد قال الله تعالى : ﴿ ولا تَيَمَّمُوا الخبيثَ منه تُنفقون ﴾ .

وعن عبد اللهِ بن عمر رضي الله عنهما قال : أصَابَ عُمَرُ أَرْضًا بِخَيْبَرَ ، فأتَى النبيَّ صلى الله عليه وسلم يَسْتَأْمِرُه فيها ، فقال : يا رسول الله إني أصَبْتُ أرضاً لم أُصِبْ مالاً قطُّ هُوَ أَنْفَسُ عِندي منه ، فما تأمرُني ؟ قال : ان شِئْتَ حَبَّسْتَ أصْلَها وتصَدَّقْتَ بها . قال : فتصدَّقَ بها عُمَرُ ، غيرَ أنَّهُ لا يُبَاعُ أَصْلُها ولا يُورَثُ ولا يُوهَبُ . قال : فَتَصَدقَ بها عُمَرُ في الفُقَراءِ وذَوِي القُربَى وفي الرِقابِ وفي سبيل اللهِ وابنِ السبيلِ والضَّيفِ ، لا جُنَاحَ على مَن وَلِيَها أنْ يَأْكُلَ مِنها بالمَعْرُوفِ أو يُطْعِمَ صَديقا غيرَ مُتمَوِلٍ فيه ، وفي لفظ غَيْرَ مُتَأثِلٍ رواه الجماعة .

وعن أنس ـ رضي اللهُ عنه ـ قال : كان أبو طَلحةَ ـ رضي الله عنه ـ أكثرَ الأنصارِ بالمدينةِ مالاً مِن نَخلٍ ، وكان أحبَّ أَمْوَالِهِ اليهِ بَيْرُحاء ، وكانَتْ مُسْتَقْبِلةَ المَسجدِ ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يَشْرَبُ مِن ماءٍ فِيها طيِّبٌ . قال أنسُ : فَلَمَّا نَزَلَتْ هذه الآيةُ ﴿ لن تنالوا البِرَّ حتى تُنفقوا مِمَّا تُحبون ﴾ جَاء أبُو طلحةَ إلى رسولِ الله صلى الله عليه وسلم فقالَ : يَـا رسـولَ اللهِ ، إن الله تعالى أنزَلَ عليك ﴿ لن تَنَالُوا البِرَّ حتى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّون ﴾ وإن أَحَبَّ مَالي إليَّ بَيْرُحَاء وأنها صَدقَةٌ للهِ تعالى

أَرْجُو بِرَّهَا وذُخرَهَا عِنْدَ اللهُ تعالى فَضَعْهَـا يا رَسولَ اللهِ حَيْثُ أمَرَكَ اللهُ ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : بَخٍ بَخٍ ذلك مالٌ رابحٌ ، وقد سَمِعْتُ ما قُلْتَ ، وإنِّي أَرَى أن تَجْعَلها في الأَقْرَبِينَ ، فقال أبُو طَلْحَةَ : أَفْعَلُ يا رَسُولَ اللهِ ، فَقَسَّمَهَا أبُو طَلْحَةَ في أَقارِبِهِ وَبَني عَمِّهِ متفق عليه .

وَيَنْبَغِي أنْ يُلاَحِظَ في ذلك أَمْرَيْن :

أَحَدُهُمَا : حَقُّ اللهِ سبحانه وتعالى بالتَّعْظِيمِ لَهُ ، فَإِنَّهُ أَحَقُّ مَن إخْتيرَ لَهُ ، ولو أن الإنسانَ قَدَّمَ إلى ضَيفِهِ طعاماً رَدِيئاً لأوغَرَ صَدْرَهُ .

والثاني : حَقُّ نفسِهِ فإن الذي يُقَدِّمُهُ هو الذي يَلْقَاهُ غَداً في القيامَةِ فَيَنْبَغِي أنْ يَخْتَارَ الأَجْوَدَ لِنَفْسِهِ ، وأَمَّا أَحَبَّهُ إليهِ ، فَلقوله تعالى : ﴿ لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون ﴾ .

وكان ابن عُمَرَ ـ رضي الله عنهما ـ اذا اشتدَّ حبُه لِشَيءٍ مِن مَالِهِ قَرَّبَهُ للَّهِ عزَّ وجلَّ . وَرُوِيَ أنه نَزَلَ الجُحفَةَ وهُوَ شَاكٍ ، فقال : إنِّي لأَشْتَهِي حِيْتَاناً فالتَمَسُوا لَهُ فلَم يَجِدُوْا لَهُ إلا حُوْتاً فأخَذَتْهُ امرأتُهُ فَصَنَعَتْهُ ، ثم قَرَّبَتْهُ إليهِ فأتى مسكينٌ ، فقال ابنُ عُمَر ـ رضي اللهُ عنهما ـ خُذْهُ ، فَقالَ لَهُ أَهْلُهُ : سُبْحَانَ اللهِ قد عَنَّيتَنا ومَعَنَا زَادٌ نُعْطِيهِ ، فقال : إن عبدَ الله يُحبُه .

وَرُوِيَ أن سَائلاً وَقَفَ بِبَابِ الربيعِ بنِ خَيْثَمَ رحمَه اللهُ تعالى ، فقال : أَطْعِمُوهُ سُكَّراً ، فإن الربيعَ يُحِبُّ السُّكر .

الوظيفةَ السادِسَةُ : أن يَطْلُب لِصَدَقَتِهِ مَن تَزكُو بِهِ ، وهُم خُصُوصٌ مِن عُمُومِ الأصْنَافِ الثَّمَانِيَةِ ، ولهم صِفاتٌ :

الأُولى : التَّقْوَى ، فَلْيَخُصَّ بصَدَقَتِهِ المتّقِينَ فإنه يَرُدُّ بها هَمَهَم إلى اللهِ تعالى ، وفي الحديث الذي رواه ابنَ حبانَ في صحيحِهِ عن أبي سعيدِ الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم أطعِمُوا الأَتْقِيَاءَ وأَوْلُوا مَعْرُوفَكُم المؤمنين ، وقد كانَ عَامِرُ بنُ عبدِ اللهِ بنَ الزبير يَتَخَيَّرُ العُبَّادَ وهم سُجُودٌ فيأتيهم بالصُرَّةِ فيها الدنانيرُ والدراهِمُ فَيَضَعُهَا عندَ نِعَالِهِم بحَيْثُ يُحِسونَ بها ولا يَشْعُرونَ بمَكَانِهِ ، فقيلَ لَهُ : ما يَمْنَعُكَ أن تُرْسِلَ بها إليهِم ؟ فيقُولُ أكرَهُ أن يَتَمَعَرَ وَجْهُ أحَدِهِم إذا نَظَرَ إلى رَسُولِيَ .

الصفةُ الثانيةُ : العِلمُ فإنَ إعطَاءَ العالِم إعانَةٌ على العِلْمِ ونَشْرِ الدينِ ، وذلك تَقْوِيَةٌ لِلشريعةِ .

الصِّفَةُ الثَّالِثَةُ : أَنْ يَكُوْنَ مِمَّنْ يَرَى الإنْعَام مِنَ اللهِ وحدَه ولا يَلْتَفِتُ إلَى الأَسْبَابِ إلا بقَدْرِ ما نُدِبَ إليهِ مِن شُكْرِها ، فأمَّا الذي عَادتُهُ المَدْحُ عندَ العَطَاءِ فانَّهُ سَيَذُمُّ عندَ المنع .

الصفةُ الرابعةُ : أَنْ يكونَ صائناً لِفَقْرِهِ ، سَاتِرَاً لِحَاجَتِهِ ، كاتِماً لِلشَّكْوَى ، كما قال تعالى : ﴿ يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف﴾ .

ومِن آدابِ المُـزَكِّي التي تَتَأَكَّـدُ عليه أَنْ يكُـونَ طَيِّبَ النَّفْسِ بإخْرَاجِهَا فَرِحـاً مَسْرُورَاً مُسْتَبْشِـرَاً بقَبُولِ الفقيـرِ المُسْتَحِقِ لِزَكَـاتِـهِ ، وَلْيَحْـذَرْ مِن أَنْ يَكُونَ كارِهاً لإخْرَاجِهَا فإنّهُ مِن صِفَاتِ المنافِقِين ، قال الله تعالى : ﴿ ولا يُنفِقونَ الا وهم كارهون ﴾ وأَخْبَرَ سُبحَانَهُ أن المنافِقَ يُصَلِي ولكن لا يَأْتِيْهَا الا وَهُوَ كَسْلان وقَدْ يُزَكِي ولكن مَعَ الكَرَاهَةِ ، وقوله صلى الله عليه وسلم : « مَن تشبَّهَ بقَومٍ فهو مِنْهُم » وفي لفظ : « ليسَ منا مَن تَشَبَّهَ بِغيْرِنا » وهو حديث جيد .

موعظة

عبادَ اللهِ أنْ كُنْتُم في سَعةٍ مِن العَيْشِ فاحْمَدُوْا اللهَ تَعَالَى أن جَعَلَكُمْ مِن أهْلِ الإيسَارِ وأديْمُوا شُكْرَهُ يُدِمْ عَليكُم النِّعْمَةَ ويَزِدْها ، وهو الكريمُ الجوادُ . ومِن تَمَامِ النِعمَةِ أن تَنَسَّخُوْا مِنَ الزكاة بإخراجِها كاملةً إلى ذَوي الحَاجاتِ لعلكم أنْ تَفُوزُوا بالخَلَفِ والثَّوَابِ الجَزِيْلِ مِن فاطِرِ الأرضِ والسَّمواتِ ، أَحْسِنُوا إلى عِبَادِ الله كَمَا أحْسَنَ اللهُ إليكُمُ وَرَاعُوا عندَ الإحسانِ الأدَبَ فلا تَمُنُوا على الفَقِيْرِ ولا تُؤْذُوْهُ فإن ذلك مُحْبِطٌ لِلأعمَالِ واسْتُرُوْا عَطَاءَكُم مُخْلِصِينَ مُتَيَقِنِيْنَ أنَّ حَاجَتَكُمْ إلى الثَّوابِ وتكفيرِ الذُنُوبِ أَشَدُّ مِن حَاجَةِ الفقير إلى ما تُخْرِجُونَ . واعْلَمُوا أن إحْسَانَكُمْ إنَّما هو لِأنْفُسِكُم وَاعْصُوا الشيطانَ فإنَّهُ يأمُرُ بالبُخْلِ ويَنْهَى عن العَطْفِ على المَسَاكِين ، يُخِيفُكُمْ إن تَصَدَقْتُم أنْ يَذهَبَ مَالكُم وأَنْتُم تَعْلَمُون أنَّ نَصِيْحَةَ العَدُوِّ مَهْلَكَةٌ ، وقد أخبرَ اللهُ جَلَّ وعَلَا أن الشيطَانَ للإنسانِ عَدُوٌّ مُبِيْن ، وأَخْبَرَ صلى الله عليه وسلم أنهُ مَا مِن يَومٍ يَصبحُ العِبَادُ إلا مَلَكَانِ ينزِلانِ فَيَقُوْلُ أَحَدُهُما اللَّهم أَعْطِ مُنْفِقاً خَلفاً وَيقول الآخرُ اللَّهم أَعْطِ مُمْسِكاً تَلَفَا . رواه البخاري ومسلم .

اللهمَّ اعصِمْنَا عَنِ المخالفةِ والعصيانِ وألْهِمْنَا ذِكْرَكَ وشُكْرَكَ يا كريمُ يا مَنّان واغفر لنا ولوالدَينا ولجميعِ المسلمينَ الأحياءِ منهم والميتينَ برحمتكَ يا أرحمَ الراحمين وصلَى الله على محمد وعلى آله وصحبه أَجْمَعِيْنَ .

*** فَصْلٌ فِيْمَنْ تَحِلُّ لَهُ الصَّدَقَة :**

إعلم وفَّقَنَا اللهُ وإياكَ وجمِيْعَ المُسْلِمينَ لِمَا يُحبُّهُ ويَرْضَاهُ ، أَنَّ مِمَّا

يَتَعَيَّنُ على كُل مُؤْمِنٍ أن يَصُوْنَ نَفْسَهُ عنه ، مَسألةَ الناسِ إلا عندَ الضَرُورةِ أوِ الحاجَةِ الشَّدِيدةِ الَّتِي لا بُدَّ لَهُ منها ولا غنى له عَنها ، وذلِكَ لِما وَرَدَ عَن قَبِيْصَةَ بنِ مُخَارِقٍ الهِلاَلِي قال : تَحَمَّلْتُ حَمالَةً ، فأتَيْتُ رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم أسْأَلُه فيها ، فقال : أَقِمْ حتى تَأتينا الصَّدَقة فَآمُرَ لكَ بها ثم قال يا قَبِيصَةُ إن المسألَةُ لا تَحِلُ إلا لأَحَدِ ثلاثةٍ رَجُلٍ تحمَّلَ حَمالَةً فَحَلَّتْ لَهُ المسألَةُ حَتَّى يُصيبَهَا ثم يُمْسِكُ . أو رَجُلٌ أَصابَتْهُ جَائحَةٌ اجْتَاحَتْ مَالَهُ فَحَلَّتْ لهَ المَسألَةُ حتى يُصيبَ قِوَاماً مِن عَيْشٍ ، أو قال سَدَاداً مِن عَيْشٍ وَرَجُلٌ أَصَابَتهُ فَاقَةٌ حتى يَقُوْمَ ثلاثَة ، مِن ذَوِي الحِجَا مِن قومِهِ يقولُونَ لَقَدْ أَصَابَتْ فلاناً فاقَةٌ ، فَحَلَّتْ له المسألَةُ حتى يُصِيْبَ قِواماً مِن عَيْشٍ أو قال : سَداداً مِن عَيْشٍ ـ فَمَا سِوَاهُنَّ مِن المسألةِ يا قَبيصةُ سحتٌ يأكُلُها صَاحِبُها سُحتَا

*** التحذيرُ مِن أخذِ الصدقةِ لِمن لا تَحِلّ لَهْ :**

عن أبي هريرةَ ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَنْ سأَلَ الناسَ أموالَهُم تَكَثُراً فإنَّما يَسألُ جَمْرَاً ، فَلْيَسْتَقِلِل أو لِيَسْتَكثِرَ » .

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال ، قَال رسـول الله صلى الله عليه وسلم : « ما يزالُ الرجلُ يَسْأَلُ حتى يأتيَ يومَ القيامةِ ليس في وجهِهِ مُزْعَةُ لَحْمٍ » .

وعن معاويةَ ـ رضي الله عنه ـ قالَ : قالَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : « لا تُلْحِفُوا في المسألة . فَوَاللهِ لا يَسْأَلُنِي أحدٌ منكم شيئاً

فَتخرِجُ لَه مَسْألتُهُ مِنّي شَيئاً أنا كارِهُ له ، فيُبَارَكُ لهُ فيما أَعْطَيْتُه » .

وعن الزبير بن العوام ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لأنْ يأخُذَ أحدُكم حَبْلَه فيأتِي بحُزْمَةِ حَطَبٍ على ظهرِهِ فَيَبِيْعَها ـ يَكُفَ اللهُ بِها وَجْهَهُ ـ خيرٌ له مِن أنْ يَسألَ الناسَ : أَعْطَوْهُ أو مَنَعُوْه » .

وعن سَمُرَةَ بنِ جُنْدَبٍ ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنَّما المَسَائلُ كدُوْحُ يَكْدَحُ بِها الرجلُ وجهَه ، فمَنْ شَاءَ أبقَى على وجْهِهِ ، ومَن شَاءَ تَركَ ، إلا أن يَسألَ الرجلُ ذا سُلطانٍ أو في أَمْرٍ لَا يَجِدُ منهُ بُد » .

وعن عبدِ الله بن مسعودٍ ـ رَضِيَ اللهَ عنه ـ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَن سَألَ الناسَ وله ما يُغْنِيهِ : جَاءَ يومَ القيامةِ ومَسألتَه خُموشٌ أوْ خُدوشٌ أو كُدُوحٌ » ، قيلَ يا رسولَ اللهِ ، وما يُغْنِيْه ؟ قال : « خَمْسُونَ دِرهما أو قَيمَتُها مِنَ الذَّهبِ » .

ولأبي داودَ عن سهلِ بن الحَنْظَلِيَّةِ ، قيلَ : وما الغِنَى الذي لا يَنْبَغِي معه المسألة ؟ قالَ صلى الله عليه وسلم : « قَدْرُ ما يُغَدِّيْهِ أو يُعَشِّيْهِ » .

وعن أنس ـ رضي الله عنه ـ أن رجلاً مِن الأنصارِ أَتَى النبيَّ صلى الله عليه وسلم يَسْأَلُهُ ، فقال : « ما في بَيْتِكَ شَيءٌ . قال : بَلَى ، حِلْسٌ نَلْبَسُ بعضَه ونَبْسُط بَعْضَه وقَعْب نَشْرَبُ فيه الماءَ ، قال : ائْتِنِي بهما ، فأتاه بهِما ، فأخذَهما رَسولُ الله صلى الله عليه وسلَم بيدِه وقال : مَن

يَشْتَرِي هذين ؟ قال رجلٌ :

أَنَا أَخُذُهُما بِدِرْهمٍ ، قال صلى الله عليه وسلم مَن يَزيدُ على دِرْهَم ، مَرَّتَيْنِ أو ثَلاثاً ؟ قال رجلٌ : أنا أخذُهُمَا بِدِرهَمين ! فأعطاهُما إيَّاه ، فأخَذَ الدِرْهَمَين وأَعْطَاهُما الأَنصارِي وقال : اشْتَرْ بأحدِهِما طَعَاماً فانْبِذهُ إلى أهْلِكِ ، واشْتَرْ بالآخر قَدُوْماً فأْتِني به ، فَأتَى به فَشَدَّ فيه صلى الله عليه وسلم عوداً بيدَهِ ، ثم قَال : اذْهَبْ فاحتَطِبْ ، وبِعْ ولاَ أَرَينَّكَ خَمْسَةَ عَشَر يوماً ، فَذَهَبَ الرجلُ يَحْتَطِبُ ويَبِيْعُ ، فجَاءَ وقدْ أَصَابَ عَشَرَةَ دَرَاهِم فاشْتَرى بِبعْضِها ثَوْباً وببَعْضِها طعاماً ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « هذا خَيْرٌ لَكَ مِن أن تَجِيءَ المسألةُ نُكَتَةً في وَجْهِكَ يومَ القيامةِ ، ان المسألةَ لا تَصْلُحُ الا لِثَلاثَةٍ : لِذي فَقرٍ مُدْقِعٍ ، أوْ لِذِي غُرْمٍ مُقْطِع ، أو لِذِي دَمٍ مَوْجِع » .

وللتّرمذي نَحْوُه عن حَبَشي بن جُنَادَة ، وفيه : « ومَن سَأَلَ الناسَ لِيُثْرِيَ به مالَهُ كَانَ خُمُوشاً في وجْهِهِ يومَ القيامةِ ، وَرَضْفاً يأكله في جَهَنَّمَ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُقْلِلْ ، ومَن شَاءَ فَلْيُكْثِرْ » .

وعن ابن مَسعودٍ ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَن نَزَلَتْ فاقةٌ بِهِ فأنْزَلَهَا بالناسِ لم تُسَدَّ فَاقَتُهُ ، ومَن نَزَلَتْ به فاقة فأَنْزَلَها باللهِ فَيُوشِكُ اللهُ لهُ برِزْقٍ عَاجِلٍ أو آجِلٍ » .

وعن أَبي كَبْشَةَ عَمْروٍ بن سَعْدٍ الأَنْمَارِي ـ رضي اللهُ عنه ـ أنه سَمِعَ رَسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم يقولُ : ثلاثةٌ أُقْسِمُ عَلَيْهِنَّ وأُحَدِثُكُم حَديثاً فاحْفَظُوه : ما نَقَصَ مَالُ عَبْدٍ مِن صَدَقَةٍ ، ولاَ ظُلِمَ عَبْدٌ مَظْلَمَةً صَبَرَ عَلَيها إلا زَادَهُ اللهُ عِزَا ، ولا فَتَحَ عَبدٌ بابَ مسألةٍ إلا فَتَحَ اللهُ عليه بابَ

فَقْرٍ ـ أو كَلِمَةً نَحْوَهَا ـ

وَعَنْ ثَوْبَانَ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ قَالَ : قالَ رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيْه وسَلَّمَ : « مَنْ يَتَكَّفل لِيْ أَنْ لاَ يَسْأَل النَّاسَ شَيْئاً أَتَكَفَّلُ لَهُ الجَنَّةَ ؟ فَقُلْتُ : أَنَا ! فَكَانَ لا يَسْأَلُ أَحداً شَيْئاً » .

وعَنْ حَكِيْم بْنِ حِزَامٍ ـ رَضْيَ اللهُ عَنْهُ ـ قَالَ : سَأَلْتُ رَسُوْلَ اللهِ صَلى الله عَليه وسَلم فَأَعْطَانِي ، ثُمَّ قَالَ « يَا حَكِيْمُ ، إِنَّ هَذَا المالَ خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ فَمَن أَخَذَهُ بِسَخَاوَةِ نَفْسٍ بُوْرِكَ لَهُ فِيْهِ ، وَمَنْ أَخَذَهُ بِاشْرَافِ نَفْسٍ لَمْ يُبَارَكْ لَهُ فِيْهِ ، وَكَانَ كَالذِي يَأْكُلُ وَلاَ يَشْبَعُ ، وَاليَدُ العُلْيَا خَيْرٌ مِنْ اليَدِ السُّفْلَى ، قَالَ حَكِيْمُ : فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللهِ ، وَالذِيْ بَعَثَكَ بِالحَقِّ لاَ أَرزْأُ أَحداً بَعْدَكَ شَيْئاً حَتَّى أُفارِقَ الدُّنْيَا » .

مَوْعِظَةٌ

عِبَادَ اللهِ مَا أَحْسَنَ أَنْ يَعِيْشَ المَرْءُ قَانِعاً بِمَا رَزَقَهُ اللهُ في هَذِهِ الحَيَاةِ فَلا يَمُدُّ بَصَرَهُ إلى مَا فِي أَيْدِي النَّاسِ وَلا تَتَطَلَّعُ نَفْسُهُ إلى سَلْبِ حُقُوقِ النَّاسِ أَوْ ظُلْمِهِمْ وَالاعْتِدَاءِ عَلَى مَا وَهَبَ اللهُ لَهُمْ مِنْ نِعَمٍ جِسَامٍ فَانَّ القَانِعَ يَشْعُرُ وَيُحِسُّ بِسَكِيْنَةٍ وَطُمَأْنِيْنَةٍ كَمَا يَشْعُرُ بِأَنَّهُ غَنِيٌّ عَن كُلِّ الخَلْقِ قَالَ الشَّاعِرُ :

إِذَا كُنْتَ فِي الدُّنْيَا قَنُوعاً
فَأَنْتَ وَمَالِكُ الدُّنْيَا سَوَاءُ

وَذَلِكَ أَنَّ لَهُ نَفْساً رَاضِيَةً بِمَا قَسَم اللهُ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً لَمْ يَتَسَرَّبْ اليَهَا الجَشَعُ وَالطَّمَعُ اللذَان هُمَا مِنْ أَقْبَح القَبَائِحِ وَأَسْوَأِ الشَّمَائِلِ وَلاَ يَزَالُ

صَاحِبُ هَذَيْنِ أَوْ أَحَدُهُمَا إِلاَّ وَهُوَ مَذْمُومٌ وَبِأَقْبَحِ الصِّفَاتِ مَوْسُومٌ لاَ تَعْرُضُ لَهُ القَنَاعَةُ وَلَوْ كَانَتَ الدُّنْيَا بِأَسْرِهَا لَهُ . قَدْ مَلأَ حُبُّهَا قَلْبَهُ وَغَمَرَ مَحَبَّتُهَا وَالتَّفَانِيْ فِيْ طَلَبِهَا قَلَبَهُ وَصَارَ لاَ يَرْضَى مِنْهَا بِاليَسِيْرِ وَلاَ يَقْنَعُ بِالكَثِيْرِ وَقلَّمَا تَجِدُ مُتَّصِفاً بِهَذَا الوَصْفِ إِلاَّ وَهُوَ مُتَشَتِّتُ الفِكْرِ قَلِيْلُ الرَّاحَةِ عِنْدَهُ مِنَ الحَسَدِ والهَلَعِ وَضَعْفِ التَّوَكُّلِ عَلى اللهِ الشَّيْءَ الكَثِيْرَ الذِيْ يُخْشَى عَلَيْهِ مَعَ اسْتِدَامَتِهِ مَعَهُ مِنْ سُوْءِ الخَاتِمَةِ .

أَمَّا القَانِعُ ذُوْ النَّفْسِ الأَبِيَّةِ الرَّاضِيَةِ المُطْمَئِنَّةِ المُتَوَكِّلَةِ عَلَى اللهِ فَيُرجَى لهَا أَنْ تَنَالَها الآيَة الكَرِيْمَةُ : ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ المُطْمَئِنَّة ارْجِعِيْ الى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً ﴾ الآيةِ .

قَالَ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلمَ مَنْ أَصْبَحَ آمِناً في سِرْبِهِ مُعَافى فِيْ بَدَنِهِ مَعَهُ قُوْتُ يَوْمِهِ فكأَنَّمَا حِيْزَتْ لَهُ الدُّنْيَا بِحَذَافِيْرِهَا .

وقَالَ ابْنُ مَسْعُوْدٍ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ مَا مِنْ يَوْمٍ الاَّ يُنَادِي فِيْهِ مَلَكٌ مِنْ تَحْتِ العَرْشِ يَا ابْنَ آدَمَ قَلِيْلٌ يَكْفِيْكَ خَيْرٌ مِنْ كَثِيْرٍ يُطْغِيْكَ .

وقَالَ بَعْضُ العُلَمَاءِ : أَطْيَبُ العَيْشِ القَنَاعَةُ وَأَنْكَدُ العَيْشِ الجَشَعُ وَمِنْ الاخْلاَقِ الذَّمِيْمَةِ التِيْ تَجْعَلُ الانْسَانَ بَخِيْلاً بِمَا فِيْ يَدِهِ مُتَطَلِّعاً لِمَا في أَيْدِيْ النَّاسِ الحِرْصُ والافْرَاطُ في حُبِّ الدُّنْيَا وَجَمْعِهَا وَلَوْ أَدَّى ذَلِكَ إلى اهْدَارِ الكَرَامَةِ وَارَاقَةِ مَاءِ الوَجْهِ فَالحَذرَ عِبَادَ اللهِ مِنْ الحِرْصِ عَلى الدُّنْيَا فَإِنَّ حُبَّهَا رَأْسُ كُلِّ خَطِيْئَةٍ .

شِعْراً :

وَانِّيْ امْـرُؤٌ بِالـطَّبْـعِ أُلْغِيْ مَـطَامِعِيْ
وَأَزْجُـرُ نَفْسِيْ طَـابِعـاً لَا تَـطَبُّعَـا
وَعِنْـدِيْ غِنَى نَفْسٍ وَفَضْـلُ قَنَـاعَـةٍ
وَلَسْتُ كَمَنْ إنْ ضَاقَ ذَرْعاً تَضَـرَّعَا
وَإنْ مَـدَّ نَحْـوَ الـزَّادِ قَـوْمٌ أَكُفَّهَـا
تَـأَخَّرْتُ بَـاعاً إنْ دَنَـا القَوْمُ أَصْبُعَـا
وَمُـذْ كَـانَتْ الـدُّنْيَـا لَـدَىَّ دَنِيْئَـةً
تَعَـرَّضْتُ لِلْإِعْـرَاضِ عَنْهَـا تَـرَفُّعَـا
وَذَاكَ لِـعِـلْمِـيْ إِنَّمَـا الـلَّهُ رَازِقٌ
فَمَنْ غَيْـرُهُ أَرْجُـو وَأَخْشَى وَأُجْـزَعَـا
فَلَا الضَّعْفُ يُقْصِي الرِّزْقَ انْ كَانَ دَانِياً
وَلَا الحَـوْلُ يُـدْنِيْـهِ إِذَا مَـا تَجَـزَّعَـا
فَلَا تَبْطِرَنْ إنْ نِلْتَ مِنْ دَهْرِكَ الغِنَى
وَكُنْ شَامِخاً بِالأَنْفِ إنْ كُنْتَ مُدْقِعاً
فَـقَـدْرُ الفَـتَـى مَـا حَـازَهُ وَأَفَـادَهُ
مِنْ العِلْمِ لَا مَـالٌ حَـوَاهُ وَجَمَّعَـا
فَكُنْ عَـالِماً فِي النَّـاسِ أَوْ مُتَعَلِّمـاً
وَإِنْ فَـاتَكَ القِسْمَـانِ أَصْغِ لِتَسْمَعَـا
وَلَا تَكُ لِلأَقْسَامِ مَا اسْتَطَعْتَ رَابِعَا
فَتُـدْرَأَ عَنْ وُرْدِ النَّجَـاةِ وَتُـدْفَعَـا

اللَّهُمَّ يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ يَا بَدِيْعَ السَّمواتِ وَالأَرْضِ نَسْأَلُكَ أَنْ تُوفِّقَنا لِمَا فِيهِ صَلاَحُ دِيْنِنَا وَدُنْيَانَا وَأَحْسِنْ عَاقِبَتَنَا وَأَكْرِمْ مَثْوَانَا وَاغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَلِجَمِيْعِ الْمُسْلِمِيْنَ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وَصَلَّى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

(فَصْلٌ)

عَنْ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ الأَشْجَعِيُّ قَالَ : كُنَّا عِنْدَ النَّبي صَلَّىَ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلم تِسْعَة أو ثَمَانِية أَو سَبْعَةً ، فَقالَ : « ألا تُبايعُونَ رَسُولَ اللهِ ؟ وَكُنَّا حَدِيْثِيْ عَهْدِ بِبَيْعَةٍ ، فَقُلْنَا : قَدْ بَايَعْنَاكَ يَا رسُولَ اللهِ ! ثُمَّ قَالَ : ألاَ تُبَايعُونَ رَسُولَ اللهِ ؟ قَالَ : فَبَسَطْنَا أَيْدِيْنَا وَقُلْنَا : قَدْ بَايَعْنَاكَ يَا رَسُوْلَ اللهِ ، فعَلاَمَ نُبَايعُكَ ؟ قَالَ : أَنْ تَعْبُدُوا اللهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً ، والصَّلَوَاتُ الخَمْسُ ، وَتُطِيْعُوا اللهَ وَأَسَرَّ كَلِمَةً خَفيَّةً ، وَلاَ تَسْأَلُونَ النَّاسَ شَيْئاً ، فَلَقَدْ رَأَيْتُ بَعْضَ أُوْلَئِكَ النَّفَرِ يَسْقُطُ سَوْطُ أَحَدِهِمْ فَما يَسْأَلُ أَحداً يُنَاولُهُ إِيَّاهُ .

وَعَنْ زَيْدِ بنِ أَسْلَمَ قَالَ : شَرِبَ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ لَبَناً فَأَعْجَبَهُ ، فَسَأَلَ الذي سَقَاهُ : مِنْ أَيْنَ هَذَا اللَّبَنُ ؟ فَأَخْبَرَهُ أَنَّهُ وَرَدَ على مَاءٍ ـ قَدْ سَمَّاهُ ـ فإذَا نَعَمُ مِنْ نَعَم الصَّدَقَةِ وَهُمْ يَسْقُوْنَ ، فَحَلَبُوا مِنْ أَلْبَانها فَجَعَلْتُهُ فِي سِقَائِي فهو هذا فَأَدْخَلَ عُمَرُ يَدَهُ في فَمِهِ فَاسْتَقَاءَ . أي أَخْرَجَهُ مِن جَوْفِهِ .

وَعَنْ عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ ـ رَضْيَ اللهُ عَنْهُ ـ قَـالَ : كَانَ النَّبِي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُعْطِيْنِي العَطَاءَ ، فَأَقُولُ أَعْطِهِ أَفْقَرَ مِنِّيْ ، فَقَالَ : خُذْهُ

فَتَمَوَّلْهُ وَتَصَدَّقْ بِهِ ، فَمَا جَاءَكَ مِنْ هَذَا المَالِ وَأنتَ غَيْرَ مُشْرِفٍ وَلاَ سَائِلٍ ، فَخُذْهُ ، وَمَالاَ فَلا تُتْبِعْهُ نَفسَكَ ، مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ .

وَعَنْ ابْنِ السَّاعِدي قَالَ : اسْتَعْمَلَنِي عُمَرُ عَلى الصَّدَقَةِ ، فَلَمَّا فَرَغْتُ مِنْهَا وَأَدَّيْتُها الَيْهِ أَمَرَ لِي بِعَمَالَةٍ . فَقُلْتُ انَّما عَمِلْتُ لِلهِ ، قَالَ : خُذْ مَا أُعْطِيْتَ فانِّي قَدْ عَمِلْتُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ فَعَمَّلَنِي ، فَقُلْتُ : مِثْلَ قَوْلِكَ . فَقَالَ لِيْ رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عَليهِ وَسَلم : « إذَا أُعْطِيْتَ شَيْئاً مِنْ غَيْرِ أَنْ تَسْأَلَهُ فَكُلْ وَتَصدَّقْ » رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ .

وَعَنْ أَبِي سَعِيْدٍ : أَنَّ أُنَاساً مِنْ الأَنْصَارِ سَأَلُوا رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَليهِ وَسَلم فَأَعْطَاهُم ، ثُمَّ سَأَلُوهُ فَأَعْطَاهُم حَتَّى نَفِدَ مَا عِنْدَهُ ، فَقَالَ : « مَا يَكُونُ عِنْدِي مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ أَدَّخِرَهُ عَنْكُمْ ، وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفُّهُ اللهُ ، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغنِهِ اللَّهُ ، وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللهُ ، وَمَا أُعْطِي أَحَدٌ عَطَاءً خَيراً وَأَوْسَعَ مِنْ الصَّبْرِ » رَوَاهُ الخَمْسَةُ .

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ـ رَضْيَ اللهُ عَنْهُ ـ عَنْ النَّبِي صَلى اللهُ عَليه وسَلم قَالَ : « لَيْسَ الغِنَى عَنْ كَثْرَةِ العَرَضَ وَلَكِنَّ الغِنَى غِنَى النَّفْسِ » رَوَاهُ البُخَارِي وَمُسْلِمٌ وَغَيْرُهُمَا .

وَقَدْ اشْتَمَل الحَدِيْثَانِ الأَخِيْرَانِ عَلى جُمَلٍ جَامِعَةٍ نَافِعَةٍ :

الأُوْلَى : قَوْلُهُ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفُّهُ اللَّهُ » فَفِيْهَا الحَثُّ عَلى مُجَاهَدَةِ النَّفْسِ عَلى انْصِرَافِهَا عَنْ التَّعَلُّقِ بِالمَخْلُوقِيْنَ ، وَذَلِكَ بِالاسْتِعْفَافِ عَمَّا فِي أَيْدِيْهِمْ ، فَلا يَطْلُبُ مِنْهُم شَيْئاً لاَ

بِلَسَانِ الحَالِ وَلاَ بِلِسَانِ المَقَالِ ، بَلْ يَكُوْنُ مُعْتَمِداً عَلى اللهِ وَحْدَهُ .

وَفي الجُمْلَةِ الثَّانِيَةِ : وَهِيَ قَوْلُه صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللهُ » الحَثُّ عَلى الاسْتِغْنَاءِ بِاللَّهِ وَالثِّقَةِ بِهِ والاعْتِمَادِ عَلَيْهِ في الدَّقِيْقِ وَالجَلِيْلِ .

والثَّالِثَةُ : قَوْلُهُ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ : « وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللهُ » فَفِيْهَا أَيْضاً الحَثُّ عَلى مُجَاهَدَةِ النَّفْسِ عَلَى الصَّبْرِ الذِي هُوَ حَبْسُ النَّفْسِ عَلَى مَا تَكْرَهُ تَقَرُّباً إلى اللّهِ لأَنَّهُ يَحْتَاجُ إلى الصَّبْرِ عَلى طَاعَةِ اللهِ حَتَّى يُؤَدِّيْهَا وَعَنْ مَعْصِيَةِ اللَّهِ حَتّى يَتْرُكَهَا لِلهِ ، وَإلى الصَّبْرِ عَلى أَقْدَارِ اللهِ المُؤْلِمةِ فَلا يَتَسَخَّطْ .

وَفي الحَدِيْثِ الآخَرِ ، وَهُوَ قَوْلُهُ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم : « لَيْسَ الغِنَى عَنْ كَثْرَةِ العَرَضِ . . . الخ » بَيَانٌ أَنَّ الغِنَي لَيْسَ بِسَعَةِ الثَّرْوَةِ وَوَفْرَةِ المالِ وَكثْرَةِ المَتَاعِ ، وَلَكِنْ الغِنَى غِنَى النَّفْسِ ، فَمَنِ اسْتَغْنَى بِمَا فِي يَدِه عَمَّا في أَيْدِي النَّاسِ ، وَلَمْ تَشْرُفْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ وَلَمْ تَتَطَلَّعْ إلَيْهِ فَهُوَ الغَنيُّ الجَدِيرُ بِلَقَبِ الغَنِيّ ، وانْ كَانَ في المَالِ مُقِلاً ، إذْ رِضَاهُ بِمَا قَسَمَ اللهُ ، وَعِفَّتُهُ وَزُهْدُهُ وَقَنَاعَتُهُ جَعَلَتْهُ في دَرَجَةٍ مِنْ الغِنَى دُوْنَهَا بِطَبَقَاتٍ أَهْلُ الثَّرَاءِ الذِيْنَ حُرِمُوْا الزَّهَادَةَ وَالقَنَاعَةَ وَالرِّضَا بِمَا كَتَبَ اللهُ لَهُمْ ، الذِيْنَ تَذْهَبُ أَنْفُسُهُمْ حَسْرَةً إذَا فَاتَتْهُم صَفْقَةٌ أَوْ ضَاعَتْ عَلَيْهِمْ فُرْصَةٌ . بَلْ مَا جَاءَهُ رَضِيَ بِهِ وَقَنِعَ بِخِلَافِ مَنْ كَثُرَ مَالُهُ وَتَشَعَّبَتْ أَمْلاَكُهُ وَصَارَ قَلْبُهُ مُوَزَّعاً بَيْنَ ضَيْعَتِهِ وَعِمَارَاتِهِ وَذَهَبِهِ وَفِضَّتِه وَأَوْرَاقِهِ وَسَائِرِ أَمْوَالِهِ وَلَيْسَ لَهُ هَمٌّ إلا جَمْعُ المَالِ فَهُو مَعْشُوْقُهُ يَحْرِصُ عَلَيْهِ أَشدَّ الحِرْصِ ، وَيَتَمَيَّزُ غَيْظاً إذَا فَاتَهُ مِنْهُ القَلِيْلُ وَبُوُدِّه لَوْ ضَمَّ مَا فِي أَيْدِيْ النَّاسِ إلى مَا فِي يَدِهِ فَصَارَ لاَ

يَتَلَذذُ بِمأْكَلٍ وَلاَ بِمَشْرَبٍ وَلاَ يَرْتَاحُ لِمنَادمَةِ جَلِيْسٍ لاشْتِغَالِ قَلْبِهِ بِهِ فَهَذَا هُوَ الفَقِيْرُ حَقّاً المحْرُوْمُ صِدْقاً وَصَدَقَ مَنْ قَالَ :

وَمَنْ يُنْفِقْ السَّاعَاتِ فِي جَمْعِ مَالِهِ
مَخَافَةَ فَقْرٍ فَالذي فَعَلَ الفَقْرُ

اللَّهُمَّ يسِّرْ لَنَا أَمْرَ الرِّزْقِ وَاعْصِمْنَا مِنْ الحِرْصِ وَالتَّعَبِ في طَلَبِه وَمِنْ شَغْلِ القَلْبِ وَتَعَلُّقِ الهَمِّ بِهِ ، وَمِنْ الذُّلِّ لِلخَلْقِ بِسَبَبِهِ وَمِنْ التَّفكِيْرِ وَالتَّدْبِيْرِ في تَحْصِيْلِهِ ، وَمِنْ الشُّحِّ وَالحِرْصِ عَلَيْهِ بَعْدَ حُصُولِهِ ، وَاغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَلِجَمِيْعِ المُسْلِمِيْنَ الاحْيَاءِ مِنْهُمْ وَالميِّتِيْنَ ، بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وَصَلَّى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

مَوْعِظَةٌ

عِبَادَ اللهِ أُوْصِيْكُمْ وَنَفْسِي بِتَقْوَى اللهِ العَزِيزِ العَلاَّمِ الحَيِّ القَيُّوْمِ الذِي لاَ يَنَامُ وَأُوْصِيْكُم في مُعَامَلَتِهِ بِمَا يُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ في الاقْدَامِ وَالاحْجَامِ وَالفَزَعِ الَيْهِ عِنْدَ تَفَاقُمِ الشَّدَائِدِ وَاشْتِبَاهِ الاحْكَامِ ، والاعْتِمَادِ عَلَيْهِ في الدَّقِيْقِ وَالجَلِيْلِ ، والتَّسْلِيْمِ لَهُ في النَّقْضِ وَالابْرَامِ ، وَالرَّغْبَةِ فِيْمَا لَدَيْهِ فَبِيَدَيْهِ الخَيْرُ وَهُو الكَرِيْمُ الجَوَادُ ، وَمُقَابَلَةِ قَضَائِه بِحَقِيْقَةِ الرِّضى والاسْتِسْلاَمِ ، أَمَا خَلَقكُم وَأَسْبَغَ عَلَيْكُم نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَة وَهُو جَزِيْلُ الانْعَامِ ، أَمَا شَرَّفكمُ وَفَضَّلكمُ بِجَزِيْلِ العُقُولِ وَالافْهَامِ ، أَمَا أوضَحَ لَكُمْ الطَّرِيْقَ المُوصِلَ إلى دَارِ السَّلاَمِ ، أَمَا بَعَثَ إلَيْكُم مُحَمَّداً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِتَبْلِيْغِ الشَّرَائِعِ وَالاَحْكَامِ ، أَمَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرَ لِيُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا أَوْدَعَهُ فِيْهِ مِنَ الأَحْكَامِ ، أَمَا دَعَاكُمْ إلى

التَّوَكُّلِ عَلَيْهِ وَالاعْتِصَامِ ، أَمَا حَثُّكُم إلى العَمَلِ فِيْمَا يُقَرِّبُ إلى دَارِ السَّلَامِ ، أَمَا حَذَّرَكُمْ عَوَاقِبَ مَعَاصِيْهِ وَنَهَاكُمْ عَنْ الآثامِ ، أَمَا أَنْذَرَكُم هَوْلَ يَوْمٍ أَطْوَلَ الأَيَّامِ ، اليَوْمُ الذي يَشِيْبُ فِيْهِ الوِلْدَانْ ، وَتَنْفَطِرُ فِيْهِ السَّمَاءُ ، وَتَنْكَدِرُ فِيْهِ النُّجُومِ ، وَتَظْهَرُ فِيْهِ أُمُورٌ عِظَامٌ ، أَمَا خَوَّفَكمُ مَوَارِدَ الحِمَامِ ، أَمَا ذَكَّرَكُم مَصَارِعَ مَن قَبْلَكُمْ مِنْ الأَنَامِ ، أَمَا أَمَدَّكُم بالأبْصَارِ وَالاسْمَاعِ وَصِحَّةِ الاجْسَامِ ، أَمَا وَعَدَكَمُ بقَبُولِ تَوْبَةِ التائِبِيْنَ رَحْمَةً مِنْهُ جَرَتْ بِهِ الاقْلَامُ ، فَوَاللهِ لَحُقَّ لِهَذا الرَّبِ العَظِيْمِ أَنْ يُطَاعَ فَلَا يُعْصَى عَلى الدَّوَامِ ، فَيَا أَيُّهَا الشُّيُوخُ بَادِرُوا فَمَا لِلزَّرْعِ اذَا أَحْصَدَ الَّا الصِّرَامُ ، وَيَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ جُدُّوا في العَمَلِ فَرُبَّ امْرِىءٍ مَا بَلَغَ التَّمَامَ ، وَاحْذَرُوا عِقَابَ رَبِّكُم يَوْمَ يُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالاقْدَامِ ، يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمواتِ وَبَرَزُوا لِلهِ الوَاحِدِ القَهَّارِ ، يَوْمٌ مَا أَطْوَلَ الوُقُوْفَ فِيْهِ وَأَثْقَلَهُ عَلى كُلِّ مُجْرِمٍ جَبَّارٍ يَوْمٌ المُنَاقَشَةُ فِيْهِ عَنْ الفَتِيْلِ وَالنَّقِيْرِ وَالقِطمِيْرِ وَصَغَائِرَ الاعْمَالِ وَالكَبَائِرْ ، فَتَأَهَّبُوا لِذَلِكَ اليَوْمِ العَظِيْمِ وَاسْتَعِدُّوا لهُ أَتَمَّ اسْتِعْدَادٍ .

شِعْراً :

لَـكَ الحَمْدُ وَالنَّعْمَـاءُ وَالمُلْكُ رَبَّنَـا
وَلَا شَيْءَ أَعْـلَا مِنْكَ مَجْـداً وَأَمْجَدُ
مَلِيْـكٌ عَلى عَـرْشِ السَّمَـاءِ مُهَيْمِنٌ
لِعِـزَّتِـهِ تَعْنُـوا الـوُجُـوْهُ وَتَسْجُـدُ
فَسُبْحَـانَ مَنْ لَا يَقْـدُرُ الخَلْقُ قَـدْرَهُ
وَمَنْ هُـوَ فَوْقَ العَـرْشِ فَرْدٌ مُـوَحَّدٌ

وَمَنْ لَمْ تُنَازِعْهُ الخَلائِقُ مُلْكَهُ
وَإِنْ لَمْ تُفَرِّدْهُ العِبَادُ فَمُفْرَدُ
مَلِيْكُ السَّمَوَاتِ الشِّدَادِ وَأَرْضِهَا
وَلَيْسَ بِشَيءٍ عَنْ قَضَاهُ تَأَوُّدُ
هَوَ اللّهُ بَارِي الخَلْقِ ، وَالخَلْقُ كُلُّهُمْ
إِمَاءٌ لَهُ طَوْعاً جَمِيْعاً وَأَعْبُدُ
وَأَنَّى يَكُوْنُ الخَلْقُ كَالخَالِقِ الذِيْ
يُمِيْتُ وَيُحْيِي دَائِباً لَيْسَ يَهْمِدُ
تُسَبِّحُهُ الطَّيْرُ الجَوانِحُ في الخَفَا
وَإِذْ هِيَ فِي جَوِّ السَّمَاءِ تُصَعِّدُ
وَمِنْ خَوْفِ رَبِّي سَبَّحَ الرَّعْدُ فَوْقَنَا
وَسَبَّحَهُ الأَشْجَارُ وَالوَحْشُ أَبَّدُ
وَسَبَّحَهُ النِّيْنَانُ وَالبَحْرُ زَاخِراً
وَمَاطَمَّ مِنْ شَيءٍ وَمَا هُوَ مُقْلَدُ
أَلَا أَيُّهَا القَلْبُ المُقِيْمُ عَلى الهَوَى
إلى أيِّ حِيْنٍ مِنْكَ هَذا التَّصَدُّدُ
عَنْ الحَقِّ كَالأَعْمَى المُمِيْطِ عَنْ الهُدَىٰ
وَلَيْسَ يَرُدُّ الحَقَّ الاَّ مُفَنَّدُ
وَحَالَاتُ دُنْيَاً لَا تَدُوْمُ لِأَهْلِهَا
فَبَيْنَ الفَتَى فِيْهَا مَهِيْبٌ مُسَوَّدُ
إِذْ انْقَلَبَتْ عَنْهُ وَزَالَ نَعِيْمُهَا
وَأَصْبَحَ مِنْ تُرْبِ القُبُوْرِ يُوَسَّدُ

وَفَـارَقَ رُوْحـاً كَـانَ بَيْنَ جنَـانِـهِ
وَجَـاوَرَ مَـوْتَى مَـا لَهُـمْ مُتَـرَدَّدُ
فَـأَيُّ فَـتًى قَـبْلِيْ رَأَيْـتَ مُـخَـلَّداً
لَـهُ فِي قَـدِيمِ الـدَّهْـرِ مَـا يَتَـوَدَّدُ
فَلَمْ تَسْلَمْ الـدُّنْيَـا وَانْ ظَنَّ أَهْلُهَـا
بِصِحَّتِهَـا وَالـدَّهْـرُ قَـدْ يَتَجَـرَّدُ
أَلَسْتَ تَـرَى فِيْمَـا مَضَى لَـكَ عِبْـرَةً
فَمَـهْ لاَ تَكُنْ يَـا قَلْبُ أَعْمَى يُلَدَّدُ
فَكُنْ خَـائِفـاً لِلْمَـوْتِ وَالـبَعْـثِ بَعْـدَهُ
وَلاَ تَـكُ مِـمَّـنْ غَـرَّهُ الـيَـوْمُ أَوْ غَـدُ
فَـإِنَّـكَ فِـي دُنْـيَـاً غَـرُورٍ لِأَهْـلِهَـا
وَفِيْهَـا عَـدُوٌّ كَـاشِـحُ الصَّـدْرِ يُـوْقِـدُ

اللَّهُمَّ أَرْحَمْ غُرْبَتَنَا فِي القُبُورِ وَآمِنَّا يَوْمَ البَعْثِ وَالنُّشُوْرِ واغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَجَمِيْعِ المُسْلِمِيْنَ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وَصَلى اللهُ عَلى مُحَمَّدٍ وَعَلى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

فَصْلٌ فِي صَدَقَةِ التَّطَوُّعِ

يَبْحَثُ فِي :

١ ـ مَا وَرَدَ مِنْ الآثَارِ الشَّرْعِيَّةِ فِي فَضْلِهَا .
٢ ـ أَفْضَلُ الصَّدَقَةِ جُهْدٌ مِنْ مُقِلٍّ .

٣ ـ بَيَانُ عِظَمِ ثَوَابِ الصَّدَقَةِ في شَهْرِ رَمَضَانَ ، وَفي الحَرَمَيْنِ .
٤ ـ الأَوْلَوِيَّةُ في الصَّدَقَةِ لِلأَقرِبَاءِ وَطُلاَبِ العِلْمِ .

١ ـ مَا وَرَدَ مِنْ الآثَارِ الشَّرْعِيَّةِ في فَضْلِهَا :

تُسَنُّ صَدَقَةُ التَّطَوُّعِ في كُلِّ وَقْتٍ ، قَالَ تَعَالَى : ﴿ مَنْ ذَا الذي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيْرَةً . . . الآية ﴾ ، وَعَنِ أبي هُرَيْرَةَ ـ رَضِي اللهُ عَنْهُ ـ قَالَ : قَالَ رَسُوْلُ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَم : « مَنْ تَصَدَّقَ بِعَدْلِ تَمْرَةٍ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ ، وَلاَ يَقْبَلُ اللهُ إلاَّ الطَّيِّبَ ، فَإنَّ اللهَ يَتَقَبَّلُهَا بِيَمِيْنِهِ ، ثُمَّ يُرَبِّيها لِصَاحِبِهَا كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ فُلُوَّهُ حَتَّى تَكُونَ مِثْلَ الجَبَلِ » مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ .

وَعَنْ جَابِرٍ قَالَ : كُنَّا في صَدْرِ النَّهَارِ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَجَاءَ قَوْمٌ عُرَاةٌ مُجْتَابِي النِّمَارِ أَوْ العَبَاءِ ، مُتَقَلِّدِيْ السُّيُوفِ ، عَامَّتُهم مِنْ مُضَر بَلْ كُلُّهُمْ مِنْ مُضَر . فَتَمَعَّرَ وَجْهُ رَسُوْلِ اللهِ صَلى اللهُ عليهِ وَسَلَم لِمَا رَأى بِهِمْ مِنْ الفَاقَةِ فَدَخَلَ ثُمَّ خَرَجَ فَأَمَرَ بِلاَلاً فَأَذَّنَ وَأَقَامَ فَصَلَّى ، ثُمَّ خَطَبَ فَقَالَ : ﴿يَا أَيُّها النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ الذِي خَلَقَكُم مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ـ إلى آخِرِ الآيةِ ـ إنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيْبا﴾ والآيةُ التي في الحَشْرِ ﴿ اتَّقُوا اللهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ ما قَدَّمَتْ لِغَدٍ ﴾ تَصَدَّقَ رَجُلٌ مِنْ دِيْنَارِهِ مِنْ دِرْهَمِهِ مِنْ ثَوْبِهِ مِنْ صَاعِ بُرِّهِ مِنْ صَاعِ تَمْرِهِ حَتَّى قَالَ : وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ قَالَ : فَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ الأَنْصَارِ بِصُرَّةٍ كَادَتْ كَتِفُهُ تَعْجَزُ عَنْهَا ، بَلْ قَدْ عَجَزَتْ .

ثُمَّ تَتَابَعَ النَّاسُ حَتَّى رَأَيْتُ كَوْمَيْنِ مِنْ طَعَامٍ وَثِيَابٍ حَتَّى رَأَيْتُ وَجْهَ

رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَتَهَلَّلُ كَأَنَّهُ مِذْهَبَةٌ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ « مَنْ سَنَّ في الإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا ، وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُنْقَصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيءٌ ، وَمَنْ سَنَّ في الإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يُنْقَصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيءٌ » . رَوَاهُ مُسْلِمٌ .

وَهَذَا الكَلَامُ البَلِيْغُ دَعْوَةٌ إلى التَّنَافُسِ في الخَيْرِ والتَّسَابُقِ في افْتِتَاحِ مَشْرُوْعَاتِهِ .

وَعَنْ أَبِي مَسْعُوْدٍ الأَنْصَارِيْ رَضِي اللهُ عَنْهُ ، قَالَ : جَاءَ رَجُلٌ إلى رَسُوْلِ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمَ بِنَاقَةٍ مَخْطُوْمَةٍ . فَقَالَ : هَذِهِ في سَبِيْلِ اللهِ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « لَكَ بِهَا يَوْمَ القِيَامَةِ سَبْعُمَائَةِ نَاقَةٍ كُلُّها مَخْطُوْمَةٌ » .

وَعَنْ أَنَسٍ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ مَرْفُوعًا : « إِنَّ الصَّدَقَةَ لَتُطْفِىءُ غَضَبَ الرَّبِّ ، وَتَدْفَعُ مِيْتَةَ السُّوْءِ » رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَحَسَّنَهُ .

وَكَمَا أَنَّهَا تُطْفِىءُ غَضَبَ الرَّبِّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فَهِيَ تُطْفِىءُ الذُّنُوبَ وَالخَطَايَا كَمَا يُطْفِىءُ المَاءُ النَّارَ .

وَعَنْ مِرْثَد بنْ عَبْدِ اللهِ قَالَ : حَدَّثَنِيْ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ صَلى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ يَقُولُ : « إِنَّ ظِلَّ المُؤمِنِ يَوْمَ القِيَامَةِ صَدَقَتُهُ » رَوَاهُ أَحْمَدُ .

وَصَدَقَةُ السِّرِّ أَفْضَلُ مِنْ صَدَقَةِ العَلانِيَةِ لِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ إِنْ تُبْدُوْا

الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ ، وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ .

وَرَوَى أَبُو هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِي صَلى اللهُ عليه وسلمَ أَنَّهُ قَالَ : « سَبْعَةٌ يُظِلُّهُم اللهُ في ظِلِّهِ يَوْمَ لا ظِلَّ الا ظِلُّهُ » وَذَكَرَ مِنْهُم رَجُلاً تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لاَ تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِيْنُهُ ، مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ .

وَفي التِّرْمِذِي عَنْ مُعَاذِ بنِ جَبَل قَالَ : كُنْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلى اللهُ عليه وَسَلَّمَ فِي سَفَرٍ فَأَصْبَحْتُ يَوْمَاً قَرِيْبَاً مِنْهُ وَنَحْنُ نَسِيْرُ فَقَالَ : أَلا أَدُلُّكَ عَلَى أَبوابِ الخَيْرِ ؟ الصَّوْمُ جُنَّةٌ ، والصَّدَقَةُ تُطْفِىءُ الخَطِيْئَةَ كَمَا يُطْفِىءُ الماءُ النَّارَ ، وَصَلاةُ الرَّجُلِ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ شِعَارُ الصَّالِحِينَ . ثُمَّ تَلاَ ﴿تَتَجَافَى جُنُوْبُهُمْ عَنْ المَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهم خَوْفَاً وَطَمَعَاً وَمِمَّا رَزَقْنَاهُم يُنْفِقُونَ﴾ وَفِي بَعْضِ الآثَارِ بَاكِرُوا بِالصَّدَقَةِ فَإِنَّ البَلاَءَ لاَ يَتَخَطَّاها .

وَفي حَدِيْثِ سَعِيْدِ بنِ المُسَيِّبِ عَنْ عَبدِ الرَّحْمنِ بنِ سَمُرَةَ بْنِ جُنْدَبٍ قَالَ خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ يَوْمَاً وَكُنَّا فِي صُفَّةٍ بِالمَدِيْنَةِ فَقَامَ عَلَيْنَا فَقَالَ إِنِّي رَأَيْتُ البَارِحَةَ عَجَبَاً رَأَيْتُ رَجُلاً مِنْ أُمَّتِي أَتَاهُ مَلَكُ المَوْتِ لِيَقْبِضَ رُوْحَهُ فَجَاءَ بِرُّهُ بِوَالِدَيْهِ فَرَدَّ مَلَكَ المَوْتِ عَنْهُ ، وَرَأَيْتُ رَجُلاً مِنْ أُمَّتِي قَدْ بُسِطَ عَلَيْهِ عَذَابُ القَبْرِ فَجَاءَهُ وُضوؤُهُ فَاسْتَنْقَذَهُ مِنْ ذَلِكَ ، وَرَأَيْتُ رَجُلاً مِنْ أُمَّتِي قَدْ احْتَوَشَتْهُ الشَّيَاطِيْنُ فَجَاءَهُ ذِكْرُ اللهِ عزَّ وجلَّ وَطَرَدَ الشَّيَاطِيْنَ عَنْهُ وَرَأَيْتُ رَجُلاً مِنْ أُمَّتِي قَدْ احْتَوَشَتْهُ مَلاَئِكَةُ العَذَابِ فَجَاءَتْهُ صَلاَتُهُ فَاسْتَنْقَذَتْهُ مِنْ أَيْدِيْهِمْ وَرَأَيْتُ رَجُلاً مِنْ أُمَّتِي يَلْتَهِبُ وَفِي رِوَايَةٍ يَلْهَثُ عَطَشاً كُلَّمَا دَنَا مِنْ حَوْضٍ مُنِعَ وَطُرِدَ فَجَاءَهُ صِيَامُ رَمَضَانَ فَسَقَاهُ وَأَرْوَاهُ وَرَأَيْتُ رَجُلاً مِنْ أُمَّتِي وَرَأَيْتُ النَّبِيِّيْنَ جُلُوْسَاً حِلَقاً

حِلَقاً كُلَّمَا دَنَا إِلَى حَلْقَةٍ طُرِدَ فَجَاءَهُ غُسْلُهُ مِنْ الجَنَابَةِ فَأَخَذَ بِيَدِهِ فَأَقْعَدَهُ إِلَى جَنْبِيْ ، وَرَأَيْتُ رَجُلاً مِنْ أُمَّتِيْ بَيْنَ يَدَيْهِ ظُلْمَةٌ وَمِنْ خَلْفِهِ ظُلْمَةٌ وَعَنْ يَمِيْنِهِ ظُلْمَةٌ وَعَنْ يَسَارِهِ ظُلْمَةٌ وَمِنْ فَوْقِهِ ظُلْمَةٌ وَهُوَ مُتَحَيِّرٌ فِيْهَا فَجَاءَهُ حَجُّهُ وَعُمْرَتُهُ فَاسْتَخْرَجَاهُ مِنْ الظُّلْمَةِ وَأَدْخَلاَهُ فِيْ النُّوْرِ وَرَأَيْتُ رَجُلاً مِنْ أُمَّتِيْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ وَهَجَ النَّارِ وَشَرَرَه فَجَاءَتْهُ صَدَقَتُهُ فَصَارَتْ سُتْرَةً بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّارِ وَظَلَّلَتْ عَلَى رَأْسِهِ وَرَأَيْتُ رَجُلاً مِنْ أُمَّتِيْ يُكَلِّمُ المُؤمِنِيـنَ . وَلاَ يُكَلِّمُونَهُ فَجَاءَتْهُ صِلَتُهُ لِرَحِمِهِ فَقَالَتْ يَا مَعْشَرَ المُسْلِمِيْنَ انهُ كَانَ وَصُولاً لِرَحِمِهِ فَكَلَّمُوهُ فَكَلَّمَهُ المُؤْمِنُونَ وَصَافَحُوهُ وَصَافَحَهُمْ وَرَأَيْتُ رَجُلاً مِنْ أُمَّتِيْ قَدْ احْتَوَشَتْهُ الشَّيَاطِيْنُ فَجَاءَهُ أَمْرُهُ بِالمَعْرُوفِ وَنَهْيُه عَنْ المُنْكَرِ فَاسْتَنْقَذَهُ مِنْ أَيْدِيْهِمْ وَأَدْخَلَهُ فِي مَلاَئِكَةِ الرَّحْمَةِ وَرَأَيْتُ رَجُلاً مِنْ أُمَّتِيْ جَاثِياً عَلَى رُكْبَتَيْهِ وَبَيْنَهُ وَبَيْنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ حِجَابٌ فَجَاءَهُ حُسْنُ خُلُقِهِ فَأَخَذَ بِيَدِهِ وَأَدْخَلَهُ عَلَى اللهِ .

وَرَأَيْتُ رَجُلاً مِنْ أُمَّتِيْ قَدْ ذَهَبَتْ صَحِيْفَتُهُ مِنْ قِبَلِ شِمَالِهِ فَجَاءَهُ خَوْفُهُ مِنْ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فَأَخَذَ صَحِيْفَتَهُ فَوَضَعَهَا فِي يَمِيْنِهِ وَرَأَيْتُ رَجُلاً مِنْ أُمَّتِيْ خَفَّ مِيْزَانُهُ فَجَاءَهُ أَفْرَاطُهُ فَثَقَّلُوا مِيْزَانَهُ وَرَأَيْتُ رَجُلاً مِنْ أُمَّتِي قَائِمَاً عَلى شَفِيْرِ جَهَنَّمَ فَجَاءَهُ رَجَاؤُهُ فِي اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فَاسْتَنْقَذَهُ مِنْ ذَلِكَ وَمَضَى .

وَرَأَيْتُ رَجُلاً مِنْ أُمَّتِيْ قَدْ أَهْوَى فِي النَّارِ فَجَاءَتْهُ دَمْعَتُهُ التِي بَكَى مِنْ خَشْيَةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فَاسْتَنْقَذَتْهُ مِنْ ذَلِكَ .

وَرَأَيْتُ رَجُلاً مِنْ أُمَّتِي قَائِماً عَلى الصِّرَاطِ يَرْعُدُ كَمَا تَرْعُدُ السَّعْفَةُ فِي رِيْحٍ عَاصِفٍ فَجَاءَه حُسْنُ ظَنِّهِ بِاللهِ عَزَّ وَجَلَّ فَسَكَنَ رِعْدَتَهُ وَمَضَى ،

وَرَأَيْتُ رَجُلاً مِن أُمَّتِي يَزْحَفُ عَلى الصِّرَاطِ وَيَحْبُوْ أَحْيَاناً وَيَتَعَلَّقُ أَحْيَاناً فَجَاءَتْهُ صَلاَتُهُ فَأَقَامَتْهُ عَلَى قَدَمَيْهِ وَأَنْقَذَتْهُ وَرَأَيْتُ رَجُلاً مِنْ أُمَّتِي انْتَهَى إلى أَبْوَابِ الجَنَّةِ فَغُلِّقَتْ الأَبْوَابُ دُوْنَهُ فَجَاءَتْهُ شَهَادَةُ أَنْ لاَ الهَ إلا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّداً رَسُوْلُ اللهِ فَفُتِحَتْ لَهُ الأَبْوَابُ وأَدْخَلَتْهُ الجَنَّةُ رَوَاهُ الحَافِظُ أَبُو مُوْسَى المَدِيْنِي قَالَ ابنُ القيمِ رَحِمَهُ اللهُ وَكَانَ شَيْخُ الإِسْلاَمِ ابنْ تَيمِيَّةَ قَدَّسَ اللهُ رُوْحَهُ يُعَظِّمُ شَأْنَ هَذا الحَدِيثِ وَبَلَغَنِي عَنْهُ أنهُ كَانَ يَقُولُ شَوَاهِدُ الصِّحَّةِ عَلَيْهِ انْتَهَى .

وَبِمُنَاسَبَةِ سِيَاقِهِ هُنَا قَوْلُهُ فَجَاءَتْهُ صَدَقَتُهُ فَصَارَتْ سِتْرَاً بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّارِ وَظَلَّلَتْ عَلى رَأْسِهِ : قَالَ: رَحِمَهُ اللهُ وَفِي تَمْثِيْلِ النَّبِيِّ صَلى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ لِلصَّدَقَةِ بِمَنْ قُدِّمَ لِيُضْرَبَ عُنُقُهُ فَافْتَدَى نَفْسَهُ منْهُمْ بِمَالِهِ كِفَايَةَ فَإِنَّ الصَّدَقَةَ تَفْدِي العَبْدَ مِنْ عَذَابِ اللهِ تَعَالَى فَإِنَّ ذُنُوبَهُ وَخَطَايَاهُ تَقْتَضِي هَلاَكَهُ فَتَجِيءُ الصَّدَقَةُ تَفْدِيْهِ مِنْ العَذَابِ وَتَفُكُّهُ مِنْهُ وَلِهَذَا قَالَ النَّبي صَلى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ في الحَدِيْثِ الصَّحِيْحِ لَمَّا خَطَبَ النِّسَاءَ يَوْمَ العِيْدِ : « يَا مَعْشَرَ النِّسَاءِ تَصَدَّقْنَ وَلَوْ مِنْ حُلِيِّكُنَّ فإِنِّي رَأَيْتُكُنَّ أَكْثَرَ أَهْلِ النَّارِ » وَكأَنَّهُ حَضَّهُنَّ وَرَغَّبَهُنَّ عَلَى مَا يَفْدِيْنَ بِهِ أَنْفُسَهُنَّ مِنْ النَّارِ » .

اللَّهُمَّ قَوِّ إِيْمَانَنَا بِكَ وَبِمَلاَئِكَتِكَ وَبِكُتُبِكَ وَبِرُسُلِكَ وَ باليَوْمِ الآخِرِ وَبِالقَدَرِ خَيْرِه وَشَرِهِ واغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَجَمِيْعِ المُسْلِمِيْنَ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وَصَلى اللهُ عَلى مُحَمَّدٍ وَعَلى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

(فَصْلٌ)

وَصَدَقَةُ التَّطَوُّعِ بِطِيْبِ نَفْسٍ أَفْضَلُ مِنْهَا بِدُونِهِ ، لِمَا في حَدِيْثِ

مُعَاوِيَةَ الغَاضِرِي قالَ : قالَ رَسُوْلُ اللهِ صَلى اللهُ عَليهِ وَسَلم : « ثَلاثٌ مَنْ فَعَلهُنَ فَقَد ذَاقَ طَعْمَ الايْمَانِ : مَنْ عَبَدَ اللهَ وَحْدَهُ ، وَعَلِمَ أَنْ لا إله إلاَّ الله وَأَعْطَى زَكَاةَ مَالِهِ طَيِّبَةً بِهَا نَفْسُه » رَوَاهُ أَبُودَاوُدَ .

وَالصَّدَقَةُ في الصِّحَّةِ أَفْضَلُ مِنْهَا في غَيْرِهَا ، لِمَا وَرَدَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَة ـ رَضِي اللهُ عَنهُ ـ قال : جَاءَ رَجُلٌ إلى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ ، أَيُّ الصَّدَقَةِ أَعْظَمُ أَجْراً ؟ قَالَ : « أَنْ تصَدَّقَ وَأَنْتَ صَحِيْحٌ شَحِيْحٌ تَخْشَى الفَقْرَ وَتَأْمَلُ الغِنَى ، وَلاَ تُهْمِلْ حَتَّى إِذَا بَلَغَتِ الحُلْقُومُ قُلتَ : لِفُلاَنٍ كَذَا وَقَدْ كَانَ لِفُلانٍ » مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ .

فَالعَاقِلُ مَنْ يُسَابِقُ في مَيْدَانِ الخَيْرَاتِ بِمَا يُقَدِّمُهُ مِنْ الصِّلَةِ والاحْسَانِ لإِخْوَانِهِ الفقَرَاءِ الذِيْنَ أَنَاخَ الفَقْرُ عَلَيْهِمْ وَعَضَّهُمْ البُؤْسُ بِنَابِهِ وَأَوْجَعَهُمْ بِكِلاَبِهِ الذينَ لاَ مَوَارِدَ لَهُمْ لاَ قَلِيلٌ وَلاَ كَثِيْرٌ الذينَ لَوْ رَأَيْتَهُمْ لظَنَنْتَهُمْ مِنْ الأَغْنِيَاءِ وَأَهْلِ الثَّرْوَةِ وَالمَالِ وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا يُقَاسُوْنَهُ مِنَ الدُّيُونِ لِمَا تَحْتَ أَيْدِيهِمْ مِنْ الصِّغَارِ وَالكِبَارِ وَمَا يُقاسُوْنَ مِنْ أَلَمِ الجُوْعِ وَالفَقْرِ وَالشِّدَةِ وَالعُسْرِ لَكِنْ يَمْنَعُهُمْ الحَيَاءُ وَعِزَّةُ النَفْسِ أَنْ يَمُدُّوْا أَيْدِيهِمْ لِلسُّؤَالِ وَأَنْ يَطْلُبُوْا الرِّزْقَ الا مِنْ اللهِ الكَبِيْرِالمُتَعَالِى الرَّزَّاقِ وَهَؤُلاءِ هُمْ الذِيْنَ يَنْبَغِي الاعْتِنَاءُ بِهِمْ وَالبَحْثُ عَنْ أَحْوالِهِمْ وَذَلِكَ عَنْ طَرِيْقِ جِيْرَانِهِمْ وَأَقْرِبَائِهِمْ حَتَى تَقَعَ الصَّدَقَةُ مَوْقِعَهَا وَقَدْ وَرَدَ في القُرآنِ وَصْفُهُمْ قَالَ تَعَالى : ﴿ يَحْسَبُهُمْ الجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنْ التَّعَفُّفِ ﴾ .

وَأَوْصَى بِهِمْ النَّبِي صَلى اللهُ عَليهِ وَسَلَمَ فَفِي الحَدِيْثِ الذيْ رَوَاهُ البُخَارِي أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلى اللهُ عَليهِ وَسَلَمَ قَالَ: « لَيْسَ المِسْكِيْنُ الذي يَطُوفُ عَلى النَّاسِ تَرُدُّهُ اللُّقْمَةُ وَاللُّقْمَتَانِ وَالتَّمْرَةُ والتَّمْرَتَانِ وَلَكِنْ

المِسْكِيْنُ الذي لا يَجِدُ غِنىً يُغْنِيهِ وَلا يُفْطَنُ لَهُ فَيُتَصَدَّقُ عَلَيْهِ وَلَا يَقُوْمُ فَيَسْأَلُ النَّاسُ » .

وَلَمَّا كَانَ الصَّحَابَةُ رِضْوَانُ اللهِ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِيْنَ حَرِيْصِيْنَ جِدًّا عَلَى مَا يُقَرِّبُ إلى اللهِ مِنْ أَنْوَاعِ الطَّاعَاتِ سَأَلَ أَحَدُهُم النَّبي صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمَ أَيُّ الصَّدَقَةِ أَفْضَلُ فَأَجَابَهُ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِقَوْلِهِ «أَنْ تَصَدَّقَ وَأَنْتَ صَحِيْحٌ » أَيْ الجِسْمُ مُعَافاً في البَدَنِ تَتَمَتَّعُ بِقوَاكَ العَقْلِيَّةِ وَالجِسْمِيَّةِ شَحِيْحٌ تَأْمَلُ الغِنَى أَيْ تَطْمَعُ فِيْهِ لِقُدْرَتِكَ عَلَيْهِ عَنْ طَرِيْقِ المَكَاسِبِ وَالأَرْبَاحِ وَتَخْشَى الفَقْرَ « وإنَّما كَانَتْ الصَّدَقَةُ في هَذِهِ الحَالِ أَفْضَلُ لِما تَسْتَدْعِيْهِ مِنْ شِدَّةِ مُجَاهَدَةِ النَّفْسِ عَلى إخْرَاجِ المَالِ مَعَ قِيَامِ المَانِعِ وَهُوَ الشُّحُّ فَإِخْرَاجُهُ حِيْنَئِذٍ دَلِيْلٌ وَاضِحٌ عَلَى قُوَّةِ الايمَانِ وَحُسْنِ النِّيَّةِ وَصِحَّةِ القَصْدِ وَشِدَّةِ الرَّغْبَةِ فِيْمَا يُقَرِّبُ إلى اللهِ وَلَا تُهْمِلْ حَتَّى إذَا بَلَغَتِ الحُلْقُومُ » أي بَلَغَتِ الرُّوْحُ مَجْرَى النَّفَسِ وَذَلِكَ عِنْدَ الغَرْغَرَةِ « قُلْتَ لِفُلانٍ كَذَا وَلِفُلانٍ كَذَا » وَهَذَا كِنَايَةٌ عَنْ المُوصِي وَالمُوصَى لَهُ فَالحَدِيثُ يُرْشِدُنَا إلى أَنَّهُ لا يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نُؤَخِّرَ الصَّدَقَةَ إلى وَقْتِ مُعَايَنَةِ المَوْتِ وَالايْذَانِ بِالانْصِرَافِ عَنْ الدُّنْيَا وَمُفَارَقَةِ نَعِيْمِهَا وَقَدْ نَبَّهَنَا اللهُ جَلَّ وَعَلَا عَلَى هَذَا حَيْثُ يَقُولُ : ﴿ وَأَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ المَوْتُ فَيَقُولُ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إلى أَجَلٍ قَرِيْبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنْ الصَّالِحِيْنَ وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللهُ نَفْساً إذا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللهُ خَبِيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ .

اللهُم اخْتِمْ بِالأَعْمَالِ الصَّالِحَاتِ أَعْمَارَنَا وَحَقِّقْ بِفَضْلِكَ آمَالَنَا وَسَهِّلْ لِبُلُوغِ رِضَاكَ سُبُلَنَا وَحَسِّنْ في جَمِيْعِ الأَحْوَالِ أَعْمَالَنَا يَا مُنْقِذَ الغَرْقَى وَيَا مُنْجِيَ الهَلْكَى وَيَا دَائِمَ الإِحْسَانِ أَذِقْنَا بَرْدَ عَفْوِكَ وَأَنِلْنَا مِنْ

كَرَمِكَ وَجُودِكَ مَا تَقَرُّ به عُيُونُنَا مِنْ رُؤْيَتِكَ في جَنَّاتِ النَّعِيمِ وَاغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَلِجَمِيْعِ المُسْلِمِيْنَ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وَصَلى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ.

(فَصْلٌ)

رَوَى البُخَارِيْ من حَدِيْثِ ابْنِ مَسْعُودٍ ـ رَضْيَ اللهُ عَنْهُ ـ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « أَيُّكُمْ مَالُ وَارِثِهِ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ مَالِهِ»؟ قَالوا يَا رَسُوْلَ اللهِ ، مَا مِنَّا أَحَدٌ الا وَمَالُهُ أَحَبُّ إِلَيْهِ . قَالَ : « فَإِنَّ مَالَهُ مَا قَدَّمَ وَمَالَ وَارِثِهِ مَا أَخَّرَ » .

وَعَنْ أَبِيْ هُرَيْرَةَ ـ رَضْيَ اللهُ عَنْهُ ـ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ : « يَقُولُ العَبْدُ : مَالِي مَالِي ، وَإِنَّما مَالَهُ مِنْ مَالِهِ ثَلاثٌ : مَا أَكَلَ فَأَفْنَى ، أَوْ لَبِسَ فَأَبْلَى ، أَوْ أَعْطَى فَأَقْنَى ، وَمَا سِوَى ذَلِكَ ذَاهِبٌ وَتَارِكُهُ لِنَّاسِ » رَوَاهُ مُسْلِمٌ .

٢ ـ وَأَفْضَلُ الصَّدَقَةِ جُهْدٌ مِنْ مُقِل :

وَكَانَ السَّلَفُ يُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ فَيُقَدِّمُونَ المَحَاوِيْجَ عَلَى حَاجَةِ أَنْفُسِهِمْ وَيَبْدَؤُنَ بِالنَّاسِ قَبْلَهُمْ في حَالِ احْتِيَاجِهِمْ، كَمَا قَالَ تَعَالى: ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ .

وَثَبَتَ في الصَّحِيْحِ عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلى اللهُ عليْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : « أَفْضَلُ الصَّدَقَةِ جُهْدُ المُقِلِّ » وَهَذَا المَقَامُ أَعْلَى مِنْ حَالِ الذِيْنَ وَصَفَهُمْ اللهُ بِقَوْلِهِ ﴿ وَيُطْعِمُوْنَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيْناً ﴾ وَقَوْلِهِ :

﴿ وَآتَى المَالَ عَلَى حُبِّهِ ﴾ فَإِنَّ هَؤُلَاءِ تَصَدَّقُوا وَهُمْ يُحِبُّونَ مَا تَصَدَّقُوا بِهِ وَقَدْ لَا يَكُونَ لَهُمْ حَاجَةٌ إِلَيْهِ وَلَا ضَرُورَة وَهَؤلاء آثَرُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ مَعَ خَصَاصَتِهِمْ وَحَاجَتِهِمْ إلى مَا أَنْفَقُوْهُ ، وَمَنْ هَذَا المَقَامِ تَصَدَّقَ الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللهُ عَنهُ بِجَمِيْعِ مَالِهِ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ مَا أَبْقَيْتَ لِأَهْلِكَ ؟ فَقَالَ : أَبْقَيْتُ لَهُم اللهَ وَرَسُولَهُ ، وَهَكَذَا المَاءُ الذي عُرِضَ عَلى عِكْرِمَةَ وَأَصْحَابِهِ يَوْمَ اليَرْمُوكِ فَكُلٌّ مِنْهُمْ يَأْمُرُ بِدَفْعِهِ إلى صَاحِبِهِ وَهُوَ جَرِيْحٌ مُثْقَلٌ أَحْوَجَ مَا يَكُونُ الى الماءِ فَرَدَّ الآخَرُ إلى الثَّالِثِ فَمَا وَصَلَ إلى الثَّالِثِ حَتَّى مَاتُوا عَنْ آخِرِهِمْ وَلَمْ يَشْرَبْهُ أَحَدٌ مِنْهُمْ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَأَرْضَاهُمْ .

٣ ـ بَيَانُ عِظَمْ ثَوَابِ الصَّدَقَةِ في شَهْرِ رَمَضَانَ وَفي الحَرَمَيْنِ :

وَالصَّدَقَةُ فِي رَمَضَانَ أَفْضَلُ مِنْهَا في غَيْرِهِ لِحَدِيْثِ ابْنِ عَبَّاسَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ : « كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَجْوَدَ النَّاسِ ـ وَكَانَ أَجْوَدَ مَا يَكُوْنُ في رَمَضَانَ حِيْنَ يَلْقَاهُ جِبْرِيْلُ يَلْقَاهُ في كُلِّ لَيْلَةٍ مِنْ رَمَضَانَ فَيُدَارِسُهُ القُرْآنَ فَلَرَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِيْنَ يَلْقَاهُ جِبْرِيْلُ أَجْوَدُ بِالخَيْرِ مِنَ الرِّيْحِ المُرْسَلَةِ » .

وَلِأَنَّ الصَّدَقَةَ في رَمَضَانَ إعَانَةٌ عَلى أَدَاءِ فَرِيْضَةِ الصَّوْمِ ، وَفي أَوْقَاتِ الحَاجَاتِ أَفْضَلُ مِنْها في غَيْرِها لِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ أَو إِطْعَام في يَوْمٍ ذِيْ مَسْغَبَةٍ يَتِيْمَاً ذَا مَقْرَبَةٍ ، أَوْ مِسْكِيْنَاً ذا مَتْرَبَةٍ ﴾ .

وَالصَّدَقَةُ في كُلِّ زَمَانٍ فَاضِلٍ كَالعَشْرِ ، أَفْضَلُ مِنْهَا في غَيْرِها لِحَدِيْثِ ابنِ عَبَّاسٍ ـ رضي اللهُ عنهُ ـ : « مَا مِنْ أَيَّامٍ العَمَلُ فِيْهِنَّ أَحَبُّ

إلى اللهِ مِن هَذِهِ الأَيامِ ، يَعْنِي أَيَّامَ العَشْرِ ، قَالُوا يَا رَسُوْلَ اللهِ وَلاَ الجِهَادُ في سَبِيْلِ اللهِ ؟ قَالَ : وَلاَ الجِهَادُ في سَبِيْلِ اللهِ ، الاَّ رَجُلٌ خَرَجَ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ فَلَمْ يَرْجِعْ مِنْ ذَلِكَ بِشَيْءٍ » .

وَالصَّدَقَةُ في الحَرَمَيْنِ أَفْضَلُ مِنْهَا فِي غَيْرِهِمَا لِتَضَاعُفِ الحَسَنَاتِ بالأَمْكِنَةِ الفَاضِلَةِ .

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ عَنْ النَّبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالَ : « صَلاةٌ في مَسْجِدِيْ هَذَا أَفْضَلُ مِنْ أَلفِ صَلاَةٍ فِيْمَا سِوَاهُ الا المَسْجِدَ الحَرامَ » . وَزَادَ في رِوَايَةٍ : « فَإِنِّيْ خَيْرُ الأَنْبِيَاءِ وانَّ مَسْجِدِيْ خَيْرُ المَسَاجِدِ » .

وَزَادَ « صَلاَةٌ في المَسْجِدِ الحَرَامِ أَفْضَلُ مِنْ مِائَةِ أَلْفِ صَلاَةٍ فِيْمَا سِوَاهُ » .

اللَّهُمَّ ثَبِّتْ مَحَبَّتَكَ في قُلُوبِنَا وَقَوِّهَا وَأَلْهِمْنَا ذِكْرَكَ وَشُكْرَكَ وَيَسِّرْنَا لِلْيُسْرَى وَجَنِّبْنَا العُسْرَى وَاغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَلِجَمِيْعِ المُسْلِمِيْنَ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وَصَلَّى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

(فَصْلٌ)

٤ ـ الأَوْلَوِيَّةُ في الصَّدَقَةِ لِلأَقْرِبَاءِ وَالجَارِ وَطُلاَّبِ العِلْمِ :

وَالصَّدَقَةُ عَلى ذِي الرَّحِمِ أَفْضَلُ مِنْهَا عَلَى غَيْرِهِ لاَ سِيَّمَا مَعَ عَدَاوَةٍ ، أَمَّا الدَّلِيْلُ عَلى أَفْضَلِيَّتِهَا في القَرَابَةِ فَلِحَدِيْثِ سَلْمَانَ المُتَقَدِّمَ « الصَّدَقَةُ عَلَى المِسْكِيْنِ صَدَقَةٌ ، وَعَلَى ذِيْ الرَّحِمِ ثِنْتَانِ : صَدَقَةٌ ، وَصِلَةٌ » .

وَلِقَوْلِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِأَبِيْ طَلْحَةَ :

« وَإِنِّي أَرَى أَنْ تَجْعَلَهَا فِي الأَقْرَبِيْنَ » فَقَالَ أَبُو طَلْحَةَ : أَفْعَلُ يَا رَسُولَ اللهِ فَقَسَّمَهَا أَبُوْ طَلْحَةٍ فِي أَقَارِبِهِ وَبَنِي عَمِّهِ .

وَأَمَّا الدَّلِيْلُ عَلَى التَّأَكُّدِ مَعَ العَدَاوَةِ فِلِمَا وَرَدَ عَنْ أُمِّ كُلْثُوْمٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أَنَّ النَّبِي صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ أَفْضَلُ الصَّدَقَةِ عَلَى ذِي الرَّحِمِ الكَاشِحْ رَوَاهُ الطَّبَرَانِي وَرِجَالُهُ رِجَالُ الصَّحِيْحِ .

وَعَنْ حَكِيْمِ بْنِ حِزَامٍ ـ رضي اللهُ عنه ـ قَالَ : إِنَّ رَجُلاً سَأَلَ رَسُولَ اللهِ صَلى اللهُ عليه وَسَلَّمَ ، عَن الصَّدَقَاتِ أَيُّها أَفْضَلُ ؟ قَالَ : « عَلَى ذِي الرَّحِمِ الكاشِحِ » .

ثُمَّ الصَّدَقَةُ عَلَى الجَارِ أَفْضَلُ لِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَالجَارِ ذِيْ القُرْبَى وَالجَارِ الجُنُبِ ﴾ .

وَعَنْ ابْنِ عُمَرَ وَعَائِشَةَ ـ رَضْيَ اللهُ عَنْهُمَا ـ قَالاَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « مَا زَالَ جِبْرِيْلُ يُوْصِيْنِيْ بِالجَارِ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُوَرِّثُهُ » .

وَعَنْ أَبِيْ شُرَيْحٍ الخُزَاعِيْ : أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عليْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : « وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ باللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ فَلْيُحْسِنْ إِلى جَارِهِ » .

وَيُسْتَحَبُّ أَنْ يَخُصَّ بِالصَّدَقَةِ مَنْ اشْتَدَّتْ حَاجَتُهُ لِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ أَوْ مِسْكِيْناً ذَا مَتْرَبَةٍ ﴾ ، وَكَوْنُهَا عَلى عَالِمٍ أَفْضَلُ ، لِأَنَّ فِي إِعْطَائِهِ اعَانَةً عَلى العِلْمِ وَنَشْرِ الدِّيْنِ وَذَلِكَ لِتَقْوِيَةِ الشَّرِيْعَةِ ، وَكَوْنُهَا عَلى صَاحِبِ

دَيْنٍ أفضَلُ ، وَكَذَا عَلَى ذِيْ عَائِلَةٍ أَفْضَلُ مِمَّنْ لَيْسَ كَذَلِكَ .

وَالمَنُّ بالصَّدَقَةِ كَبِيْرَةٌ ، وَيُبْطِلُ الثَّوابُ بِهِ ، قَالَ تَعَالَى : ﴿ يَا أَيُّهَا الذِيْنَ آمَنُوا لاَ تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بالمَنِّ والأذى ﴾ .

وَمَنْ أَخْرَجَ شَيْئاً يَتَصَدَّقُ بِهِ ، أَوْ وَكَّل في ذَلِكَ ، ثُمَّ بَدَا لَهُ أَنْ لاَ يَتَصَدَّقَ بِهِ اسْتُحِبَّ أَنْ يُمْضِيَهُ ، وَلاَ يَجِبُ ، وَقَدْ صَحَّ عَنْ عَبْدِ اللهِ بنِ عَمْرو بْنِ العَاصِ رَضْيَ اللهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ كَانَ اذَا أَخْرَجَ طَعَاماً لِسَائِلٍ فَلَمْ يَجِدْهُ عَزَلَهُ حَتَّى يَجِيءَ آخَرُ . وَقَالَهُ الحَسَنُ : وَيَتَصَدَّقُ بِالجَيِّدِ وَلاَ يَقْصِدُ الخَبِيْثَ فَيَتَصَدَّقَ بِهِ لِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَلاَ تَيَمَّمُوا الخَبِيْثَ مِنْهُ تُنْفِقُوْنَ ﴾ وَأَفْضَلُ الصَّدَقَةِ جُهْدُ المُقِلِّ لِمَا وَرَدَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ـ رَضْيَ اللهُ عَنْهُ ـ مَرْفُوعاً « قِيْلَ يا رَسُولَ اللهِ : أَيُّ الصَّدَقَةِ أَفْضَلُ ؟ قَالَ : أَفْضَلُ الصَّدِقَةِ جُهْدُ المِقِلِّ » .

مَوْعِظَةٌ

اخْوَانِي إِنَّكُمْ في دَارٍ هِيَ مَحَلُّ العِبَرِ وَالآفَاتِ ، وَأَنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَالطَّرِيْقُ كَثِيْرَةُ المَخَافَاتِ ، فَتَزَوَّدُوا مِنْ دُنْيَاكُمْ قَبْلَ المَمَاتِ ، وَتَدَارَكُوا هَفَوَاتِكُمْ قَبْلَ الفَوَاتِ ، وَحَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ وَرَاقِبُوا اللهَ في الخَلَوَاتِ ، وَتَفَكَّرُوا فِيْمَا أَرَاكُمْ مِنْ الآيَاتِ ، وَبَادِرُوْا بِالأَعْمَالِ الصَّالِحَاتِ ، وَاسْتَكْثِرُوا في أَعْمَارِكُمْ القَصِيْرَةِ مِنْ الحَسَنَاتِ ، قَبْلَ أَنْ يُنَادِيْ بِكُمْ مُنَادِ الشَّتَاتِ ، قَبْلَ أَنْ يُفَاجِئَكُمْ هَادِمُ اللَّذَاتِ ، قَبْلَ أَنْ يَتَصَاعَدَ مِنْكُمْ الأَنِيْنُ وَالزَّفَرَاتُ قَبْلَ أَنْ تَنْقَطِعَ قُلُوبُكُمْ عِنْدَ فِرَاقِكُمْ حَسَرَاتٍ ، قَبْلَ أَنْ يَغْشَاكُمْ مِنْ غَمِّ المَوْتِ الغَمَرَاتُ ، قَبْلَ أَنْ تُزْعَجُوا مِنْ القُصُوْرِ إلى بُطُوْنِ

الفَلَوَاتِ ، قَبْلَ أَنْ يُحَالَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ما تَشْتَهُونَ مِنْ هَذِهِ الحَيَاةِ قَبْلَ أَنْ تَتَمَنَّوا رُجُوعَكُمْ الى الدُّنْيَا وَهَيْهَاتَ .

شِعْرا :

أَيَا لاَهِياً في غَمْرَةِ الجَهْلِ وَالهَوَىٰ
صَرِيْعاً عَلىٰ فُرُشِ الرَّدَى يَتَقَلَّبُ
تَأَمَّلْ هَدَاكَ اللّهُ مَا ثَمَّ وَانْتَبِهْ
فَهَذَا شَرَابُ القَوْمِ حَقًّا يُرَكَّبُ
وَتَرْكِيْبُهُ في هَذِهِ الدَّارِ انْ تَفُتْ
فَلَيْسَ لَهُ بَعْدَ المَنِيَّةِ مَطْلَبُ
فَيَا عَجَباً مِنْ مُعْرِضٍ عَنْ حَيَاتِهِ
وَعَن حَظِهِ العَالي وَيَلْهُو وَيَلْعَبُ
ولَو عَلِمَ المَحْرُوْمُ أَيَّ بِضَاعَةٍ
أَضَاعَ لأَمْسَى قَلْبُهُ يَتَلَهَّبُ
فَإِنْ كَانَ لاَ يَدْرِي فَتِلْكَ مُصِيْبَةٌ
وَانْ كَانَ يَدْرِي فَالمُصِيْبَةُ أَصْعَبُ
بَلى سَوْفَ يَدْرِي حِيْنَ يَنْكَشِفُ الغِطَا
وَيُصْبِحُ مَسْلُوباً يَنُوْحُ وَيَنْدِبُ
وَتَعْجَبُ مِمَّنْ بَاعَ شَيْئاً بِدُوْنِ مَا
يُسَاوِي بِلاَ عِلْمٍ وَأَمْرُكَ أَعْجَبُ
لأَنَّكَ قَدْ بِعْتَ الحَيَاةَ وَطِيْبَهَا
بِلَذَّةِ حُلْمٍ عَنْ قَلِيْلٍ سَيَذْهَبُ

فَهَلَّا عَكَسْتَ الأَمْرَا إِنْ كُنْتَ حَازِماً
وَلكِنْ أَضَعْتَ الحَزْمَ وَالحُكْمُ يَغْلِبُ
تَصُدُّ وَتَنْأَى عَنْ حَبِيْبِكَ دَائِماً
فَأَيْنَ عَنْ الأَحْبَابِ وَيْحَكَ تَذْهَبُ
سَتَعْلَمُ يَوْمَ الحَشْرِ أَيَّ تِجَارَةٍ
أَضَعْتَ إِذا تِلْكَ المَوَازِينُ تُنْصَبُ

اللَّهُمَّ اسْلُكْ بِنَا سَبِيْلَ الأَبْرَارِ، واجْعَلْنَا مِنْ عِبَادِكَ المُصْطَفَيْنَ الأَخْيَارِ، وَامْنُنْ عَلَيْنَا بِالعَفْوِ وَالعِتْقِ مِنْ النَّارِ، وَاغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَلِجَمِيْعِ المُسْلِمِيْنَ الأَحْيَاءِ مِنْهُمْ وَالمَيِّتِيْنَ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وَصَلى اللهُ عَلى مُحَمَّدٍ وَعَلى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ.

(فَصْلٌ)

فِي ذِكْرِ طَرَفٍ مِنْ الفَوَائِدِ المُتَرَتِّبَةِ عَلى أَدَاءِ الزَّكَاةِ

وَبَذْلِ صَدَقَةِ التَّطَوُّعِ وَالمَضَارِّ المُتَرَتِّبَةِ عَلَى مَنْعِ الزَّكَاةِ: ـ

١ ـ امْتِثَالُ أَمْرِ اللهِ وَرَسُوْلِهِ.

٢ ـ تَقْدِيْمُ مَا يُحِبُّهُ اللهُ عَلى مَحَبَّةِ المَالِ.

٣ ـ أَنَّ الصَّدَقَةَ بُرْهَانٌ عَلى إِيْمَانِ صَاحِبِهَا كَمَا في الحَدِيْثِ وَالصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ.

٤ ـ شُكْرُ نِعْمَةِ اللهِ المُتَفَضِّلِ عَلى المُخْرِجِ بِمَا أَعْطَاهُ مِنْ

المَالِ .

٥ ـ السَّلاَمَةُ مِنْ وَبَالِ المَالِ في الآخِرَةِ .

٦ ـ تَنْمِيَةُ الأَخْلاَقِ الحَسَنَةِ والأَعْمَالِ الفَاضِلَةِ الصَّالِحَةِ .

٧ ـ التَّطْهِيْرُ مِنْ دَنَسِ الذُّنُوْبِ وَالأَخْلاَقِ الرَّذِيْلَةِ قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيْهِمْ بِهَا ﴾ .

٨ ـ اضْعَافُ مَادَّةِ الحَسَدِ وَالحِقْدِ وَالبُغْضِ أَوْ قَطْعِهَا كُلِّياً .

٩ ـ تَحْصِيْنُ المَالِ وَحِفْظِهِ لِحَدِيْثِ حَصِّنُوا أَمْوَالَكُمْ بالزَّكَاةِ .

١٠ ـ انَّ الصَّدَقَةَ دَوَاءٌ مِنْ الأَمْرَاضِ لِحَدِيْثِ « دَاوُو مَـرْضَاكُمْ بِالصَّدَقَةِ » .

١١ ـ الاتِّصَافِ بِأَوْصَافِ الكُرَمَاءِ .

١٢ ـ إِنَّهَا سَبَبٌ لِدَفْعِ البَلاَءَ .

١٣ ـ التَّمَرُّنِ عَلى البَذْلِ وَالعَطَاءِ .

١٤ ـ أَنَّهَا سَبَبٌ لِدَفْعِ جَمِيْعِ الأَسْقَامِ لِحَدِيْثِ « بَاكِرُوا بِالصَّدَقَةِ فَإِنَّ البَلاَءَ لا يَتَخَطَّاهَـا » .

١٥ ـ انَّهَا سَبَبٌ لِجَلْبِ المَوَدَّةِ لأَنَّهَا احْسَانٌ ، وَالنُّفُوسُ مَجْبُوْلَةٌ عَلى حُبِّ مَنْ أَحْسَنَ إِلَيْهَا .

١٦ ـ أَنَّهَا سَبَبٌ لِلدُّعَاءِ مِنْ القَابِضِ لِلدَّافِعِ وَتَقَدَّمَتْ الأَدِلَّةُ .

١١٧ ـ أَنَّ مَنْعَ الزَّكَاةِ سَبَبٌ لِمَنْعِ القَطْرِ لِحَدِيْثِ « وَلَا مَنَعُوْا الزَّكَاةَ الا حُبِسَ عَنْهُمْ القَطْرُ » .

١٩ ـ الفَوْزُ بالمَطْلُوْبِ وَالنَّجَاةِ مِنْ المَرْهُوْبِ قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ يُوْقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمْ المُفْلِحُوْنَ ﴾ وَقَدْ فُسِّرَ الفَلَاحَ بِأَنَّهُ الفَوْزُ بالمَطْلُوبِ وَالنَّجَاةُ مِنْ المَرهُوبِ وَهَذَا مِنْ جَوَامِعِ الكَلِمْ .

٢٠ ـ أَنَّهَا تَدْفَعُ مِيْتَةَ السُّوءِ كَمَا في الحَدِيْثِ « انَّ الصَّدَقَةَ تُطْفِيءُ غَضَبَ الرَّبِّ وَتَدْفَعُ مِيْتَةَ السُّوْءِ » .

٢١ ـ أَنَّ المُتَصَدِّقَ يَكُونُ في ظِلِّ اللهِ يَوْمَ القِيَامَةِ كَمَا في الحَدِيْثِ « سَبْعَةٌ يُظِلُّهُم اللهُ في ظِلِّهِ وَذَكَرَ مِنْهُمْ رَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخفَاهَا حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِيْنُهُ » الحَدِيْثِ وَتَقَدَّمَ وفي الحَدِيْثِ الآخرِ « وَانَّمَا يَسْتَظِلُّ المُؤْمِنُ يَوْمَ القِيَامَةِ في ظِلِّ صَدَقَتِهِ » .

٢٢ ـ الفَوْزُ بِالثَّنَاءِ مِنْ اللهِ لأَنَّ اللهَ مَدَحَ المُنْفِقِيْنَ وَالمُتَصَدِّقِيْنَ .

٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ ـ الفَوْزُ بِالأَجْرِ مِنْ اللهِ وَالأَمْنِ مِمَّا يُخَافُ مِنْهُ وَنَفْي الحَزَنَ عَنْهُم قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ وَالذِيْنَ يُنْفِقُوْنَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ .

٢٦ ـ أَنَّ أَدَاءَ الزَّكَاةِ سَبَبٌ لِنُزُوْلِ القَطْرِ كَمَّا أَنَّ مَنْعَهَا سَبَبٌ لِحَبْسِهِ .

٢٧ ـ أَنَّهَا سَبَبٌ لِمَحَبَّةِ اللهِ لأَنَّ المُتَصَدِّقَ مُحْسِنٌ عَلَى المُتَصَدَّقِ عَلَيْهِ واللَّهُ يُحِبُّ المُحْسِنِيْنَ .

٢٨ ـ السَّلَامَةُ مِنْ كُفْرِ نِعْمَةِ اللهِ .

٢٩ ـ الخُرُوْجُ مِنْ حُقُوقِ اللهِ وَحُقُوقِ الضُّعَفَاءِ .

٣٠، ٣١، ٣٢ ـ أَنَّهَا سَبَبٌ لِلرِّزْقِ وَالنَّصْرِ كَمَا في الحَدِيْثِ « وَكَثْرَةُ الصَّدَقَةِ في السِّرِّ وَالعَلاَنِيَةِ تُرْزَقُوا وَتُنْصَرُوا وَتُجْبَرُوا » .

٣٣ ـ أَنَّها تُطْفِيءُ عَنْ أَهْلِهَا حَرَّ القُبُورِ كَما في الحَدِيْثِ « إِنَّ الصَّدَقَةَ لَتُطْفِيءُ عَنْ أَهْلِهَا حَرَّ القبُورِ » .

٣٤ ـ أَنَّها تَزِيْدُ في العُمْرِ كَمَا في الحَدِيْثِ « أَنَّ صَدَقَةَ المُسْلِمِ تَزِيْدُ في العُمْرِ » .

٣٥ ـ السَّلاَمَةُ مِنْ اللَّعْنِ الوَارِدِ في مَانِعِ الزَّكَاةِ لِمَا رَوَى الأَصْبِهَانِي عَنْ عَلي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ لَعَنَ رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ آكِلَ الرِّبَا وَمُوْكِلَهُ وَشَاهِدَهُ وَكَاتِبَهُ وَالوَاشِمَةَ والمُسْتَوْشِمَةَ وَمَانِعَ الصَّدَقَةِ وَالمُحَلِّلَ وَالمُحَلَّلَ لَهُ .

٣٦ ـ الفَوزُ بالقُرْبِ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ قَالَ تَعَالَى : ﴿ انَّ رَحْمَةَ اللهِ قَرِيْبٌ مِنْ المُحْسِنِيْنَ ﴾ . وَقَالَ : ﴿ وَرَحْمَتِيْ وَسِعَتْ كُلَّ شَيءٍ فَسَأَكْتُبها لِلذِيْنَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكاةَ ﴾ الآيَةِ .

٣٧ ـ الوَعْدُ بِالخَلَفِ لِلْمُنْفِقِ لِحَدِيْثِ « اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقاً خَلَفاً » .

٣٨ ـ الظَّفَرُ بِدُعَاءِ المَلاَئِكَةِ لِلْمُنْفِقِ .

٣٩ ـ أَنَّ في اخْرَاجِ الزَّكَاةِ حَلٌّ لِلأَزَمَاتِ الاقْتِصَادِيَّةِ وَسُوْءِ الحَالَةِ الاجْتِمَاعِيَّةِ فَلو أَنَّ أَهْلَ الأَمْوَالِ الزَّكَوِيَّةِ تَنَسَّخُوا مِنْهَا وَوَضَعُوهَا في مَوَاضِعِهَا لَقَامَتْ المَصَالِحُ الدِّيْنِيَّةِ وَالدُّنْيَوِيَّةِ وَزَالَتْ الضَّرورَاتِ وَانْدَفَعَتْ

شُرُوْرُ الفُقَرَاءِ وَكَانَ ذَلِكَ أَعْظَمَ حَاجِزٍ وَسَدٍّ يَمْنَعُ عَبَثَ المُفْسِدِيْنَ، وَفِي الحَدِيْثِ « وَاتَّقُوا الشُّحَّ فَإِنَّهُ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُم حَمَلَهُم عَلى أَنْ سَفَكُوا دِمَاءَهُم وَاسْتَحَلُّوا مَحَارِمَهُم .

٤٠ ـ أَنَّ اللهَ يُعِيْنُ المُتَصَدِّقَ عَلى الطَّاعَةِ وَيُهَيِّءُ لَهُ طَرِيْقَ السَّدَادِ وَالرَّشَادِ وَيُذَلِّلُ لَهُ سُبُلَ السَّعَادَةِ قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى ﴾ .

٤١ ـ أَنَّ مَنْعَ الزَّكَاةِ يُخَبِّثُ المَالَ الطَّيِّبَ لِحَدِيْثِ « مَنْ كَسَبَ طَيِّباً خَبَّثَهُ مَنْعُ الزَّكَاةِ ، وَمَنْ كَسَبَ خَبِيْثاً لَمْ تُطَيِّبْهُ الزَّكَاةُ » رَوَاهُ الطَّبَرَانِي فِي الكَبِيْرِ مَوْقُوْفاً بِاسْنَادٍ مُنْقَطِعٍ .

٤٢ ـ أَنَّ مَنْعَ الزَّكَاةِ سَبَبٌ لِتَلَفِ المَالِ لِحَدِيْثِ « مَا تَلِفَ مَالٌ فِي بَرٍّ وَلَا بَحْرٍ إلا بِحَبْسِ الزَّكَاةِ » رَوَاهُ الطَّبَرَانِي فِي الأَوْسَطِ وَهُوَ حَدِيْثٌ غَرِيْبٌ .

٤٣ ـ أَنَّ مَنْعَ الزَّكَاةِ سَبَبٌ لِلْابْتِلَاءِ بِالسِّنِيْنَ لِمَا فِي الحَدِيْثِ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا مَنَعَ قَوْمٌ الزَّكَاةَ إِلَّا ابْتَلاهُم اللهُ بِالسِّنِيْنَ رَوَاهُ الطَّبَرَانِي فِي الأَوْسَطِ وَرُوَاتُهُ ثِقَاتٌ .

٤٤ ـ أَنَّ مَنْ لَمْ يُؤَدِّي حَقَّ اللهِ فِي مَالِهِ أَنَّهُ أَحَدُ الثَّلَاثَةِ الذِيْنَ هُمْ أَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ النَّارَ لِحَدِيْثِ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عُرِضَ عَلَيَّ أَوَّلُ ثَلَاثَةٍ يَدْخُلُوْنَ الجَنَّةَ فَالشَّهِيْدُ وَعَبْدٌ مَمْلُوْكٌ أَحْسَنَ عِبَادَةَ رَبِّهِ وَنَصَحَ لِسَيِّدِهِ وَعَفِيْفٌ مُتَعَفِّفٌ ذُوْ عِيَالٍ وَأَمَّا أَوَّلُ ثَلَاثَةٍ يَدْخُلُوْنَ النَّارَ فَأَمِيْرٌ مُسَلَّطٌ وَذُوْ ثَرْوَةٍ مِنْ مَالٍ لَا يُؤَدِّي حَقَّ اللهِ فِي مَالِهِ

وَفَقِيْرٌ فَخُورٌ رَوَاهُ ابْنُ خُزَيْمَةَ في صَحِيْحِهِ وَابْنُ حِبَّانَ مُفَرَّقاً في مَوْضِعَيْنِ .

٤٥، ٤٦ ـ أَنَّ الصَّدَقَةَ يُذْهِبُ اللهُ بِهَا الكِبْرَ وَالفَخْرَ لِحَدِيْثِ « إِنَّ صَدَقَةَ المُسْلِمِ تَزِيْدُ في العُمْرِ وَتَمْنَعُ مَيْتَةَ السُّوْءِ وَيَذْهَبُ بِهَا الكِبْرُ وَالفَخْرُ » رَوَاهُ الطَبرَانِيّ .

٤٧ ـ السَّلامَةُ مِن التَّطْوِيقِ بالشُّجَاعِ الأَقْرَعِ كَمَا في الحَدِيْثِ : « مَا مِنْ أَحَدٍ لَا يُؤَدِّيْ زَكَاةَ مَالِهِ إلا مُثِّلَ لَهُ يَوْمَ القِيَامَةِ شُجَاعاً أَقْرَعَ يَطَوَّقُ بِهِ عُنُقَهُ » .

٤٨ ـ السَّلَامَةُ مِنْ صِفَةِ المُنَافِقِيْنَ لمَا فِيْ الحَدِيْثِ « ظَهَرَتْ لَهُمْ الصَّلَاةُ فَقَبِلُوْهَا ، وَخَفِيَتْ لَهُم الزَّكَاةُ فَأَكَلُوْهَا أُوْلَئِكَ هُمْ المُنَافِقُونَ» رَوَاهُ البَزارُ .

٤٩، ٥٠ ـ إِنَّ البَلَاءَ لَا يَتَخَطَّى الصَّدَقَةَ وَأَنَّهَا تَسُدُّ سَبْعِيْنَ بَاباً مِنْ السُّوْءِ . رَوَاهُ الطبراني في الكَبِيْرِ ، وَعَنْ أَنَسِ بن مَالِكٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عَليهِ وَسَلَمَ بَاكِرُوا بالصَّدَقَةِ فإنَّ البَلَاءَ لَا يَتَخَطَّاهَا رَوَاهُ البَيْهَقِي مَرْفُوعاً وَمَوْقُوفاً عَلى أَنَسٍ وَلَعَلَّهُ أَشْبَهُ .

٥١ ـ أَنَّ الصَّدَقَةَ حِجَابٌ مِنْ النَّارِ لِمَنْ احْتَسَبَهَا لِمَا رُوِيَ عَنْ مَيْمُونَةَ بِنْتِ سَعْدٍ أَنَّها قَالَتْ يَا رَسولَ اللهِ أَفْتِنَا عَنْ الصَّدَقَةِ فَقَالَ إِنَّها حِجَابٌ مِنْ النَارِ لِمَنْ احْتَسَبَها يَبْتَغِيْ بِهَا وَجْهَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ . رَوَاهُ الطَّبَرَانِي .

٥٢ ـ أَنَّ اخْرَاجَ الصَّدَقَةِ يُؤْلِمُ سَبْعِيْنَ شَيْطَاناً لِمَا وَرَدَ عَنْ بُرَيْدَةَ

رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عَليهِ وَسَلمَ لَا يُخْرِجُ شَيْئاً مِنْ الصَّدَقَةِ حَتَّى يَفُكَّ عَنْهَا لِحْيَيْ سَبْعِيْنَ شَيْطَاناً رَوَاهُ أَحْمَدُ وَالبَزَّارُ وَالطَّبَرانِي وَابْنُ خُزَيْمَةَ في صَحِيْحِهِ .

٥٣ ـ انَّ اللهَ يُسَخِّرُ لِلْمُتَصَدِّقِ مَا يَكُونُ سَبَباً لِنُمُوِّ مَالِهِ كَبَرَكَةٍ في ظماءِ نَهْرٍ وَسَقْيِ أَرْضٍ كَمَا رُوِيَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنَا رَجُلٌ في فَلاةٍ منْ الأَرْضِ فَسَمِعَ صَوْتاً في سَحَابَةٍ : اسْقِ حَدِيْقَةَ فُلانٍ فَتَنَحَّى ذَلِكَ السَّحَابُ فأفْرَغَ مَاءَهُ في حَرَّةٍ فَاذَا شَرْجَةٌ مِنْ تِلْكَ الشِّرَاجِ قَدْ اسْتَوْعَبَتْ ذَلِكَ الماءَ كُلَّهُ فَتَتَبَّعَ الماءَ فإذَا رَجُلٌ قَائِمٌ في حَدِيْقَةٍ يُحَوِّلُ المَاءَ بِمِسْحَاتِهِ فَقَال لَهُ يَا عَبْدَ اللهِ مَا اسْمُكَ قال فلانٌ للإِسْمِ الذي سَمِعَ في السَّحَابَةِ فقال لَهُ يَا عَبْدَاللهِ لِمَ سَأَلْتَنِيْ عَنْ اسْمِيْ قَال سَمِعْتُ في السَّحَابِ الذِي هَذَا مَاؤُهُ يَقُولُ : اسْقِ حَدِيْقَةَ فُلانٍ لاسْمِكَ فَمَا تَصْنَعُ فِيْهَا قَالَ أَمَّا اذْ قُلْتَ هَذَا فَإِنِّي أَنْظُرُ إلى مَا يَخْرُجُ مِنْهَا فَأَتَصَدَّقُ بِثُلُثِهِ وَآكُلُ أَنَا وَعِيَالِي ثلثه وَأَرُدُّ فِيْهَا ثَلثَهُ رَوَاهُ مُسْلِمٌ .

٥٤ ـ أَنَّ الصَّدَقَةَ لا تُنْقِصُ المَالَ خِلافاً لما يَظُنُّهُ بَعْضُ الجُهَّالِ لِحَدِيْثِ أبي هُرَيرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنه أن رسُولَ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلمَ قَالَ مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ الحَدِيْثُ رَوَاهُ مُسْلِمٌ .

٥٥ ـ أَنَّ الصدقة اذا كانت من كسب طَيِّبٍ فإنَّ اللهَ يَقْبَلُهَا بيمينِهِ ثُمَّ يَرُبُّها لِصَاحِبِهَا كَمَا وَرَدَ في حَدِيْثِ أَبي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عَليهِ وَسَلَّمَ مَنْ تَصَدَّقَ بِعَدْلِ تَمْرَةٍ من كَسْبٍ طَيِّبٍ وَلاَ يَقْبَلُ اللهُ الا الطَّيبَ فَانَّ اللهَ يَقْبَلها بِيَمِيْنِهِ ثم يُرَبِّيها لِصَاحِبها كَما يُرَبِّي أَحَدُكم فُلُوَّه حَتَّى تكونَ مِثْلَ الجَبَلِ مُتفقٌ عَلَيْهِ .

٥٦ ـ أَنَّ الصَّدَقَةَ سَبَبٌ مِنْ أَسْبَابِ المَعِيَّةِ الخَاصَّةِ لأَنَّ المُتَصَدِّقَ مُحْسِنٌ وَقَدْ قَالَ اللهُ تعالى : ﴿ انَّ اللهَ مَعَ الذِيْنَ اتَّقَوْا والذِيْنَ هُم مُحْسِنُونَ ﴾ .

٥٧ ـ أَنَّ المصَّدِقِيْنَ يُضَاعِفُ اللهُ لَهم ثَوابَ أَعْمَالِهم الحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا إلى سَبْعِمائةِ ضِعْفٍ إلى حَيْثُ شَاءَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ قَالَ تَعالى : ﴿ إنَّ المُصَّدِّقِيْنَ والمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوْا اللهَ قَرْضاً حَسَناً يُضَاعَفُ لَهُ وَلَهُم أَجْرٌ كَرِيْمٌ ﴾ .

٥٨ ـ أَنَّ الصَّدَقَةَ لِتُطْفِيءُ غَضَبَ الربِّ وَتَدْفَعُ مِيْتَةَ السُّوْءِ » رَوَاهُ الترمذي وابنُ حِبَّانَ في صَحِيْحِهِ ، وَقَالَ التِّرمِذِي حَسَنٌ غَرِيْبٌ .

٥٩ ـ أَنَّ بِاخْرَاجِ الزَّكَاةِ كُلَّ سَنَةٍ يَرَى الفُقَرَاءُ أَنَّ الأَغْنِيَاء لَهُمْ فَضْلٌ عَلَيْهِمْ فَيُدَافِعُوْنَ عَنْهُمْ مَا اسْتَطَاعُوا أَمَّا كَفُّ اليَدِ عَنْهُمْ وَمَنْعُ مَعْرُوْفِهِمْ أَنْ يَصِلَ الَيْهِمْ فَإِنَّهُ يُوْغِرُ صُدُوْرَهُمْ وَيَمْلَؤُهَا حِقْدَاً عَلَيْهِمْ وَيَجْتَهِدُونَ في سَلْبِ حَيَاتِهِمْ لِلْوُصُولِ إلى أَمْوَالِهِمْ المَخْزُوْنَةِ فَتَكُوْنُ الحَيَاةُ مُهَدَّدَةٌ وَالأَمْنُ مَفْقُوداً .

٦٠ ـ أَنَّ مَنْعَ الصَّدَقَاتِ يُزِيْلُ النِّعَمَ وَيُخَرِّبُ الدِّيَارَ العَامِرَةَ وَتَأَمَّلْ قِصَّةَ أَصْحَابِ الجَنَّةِ المَذْكُوْرَةِ في سُوْرَةِ نُ وَالقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُوْنَ قَالَ تَعَالَى ﴿ فَتَنَادَوا مُصْبِحِيْنَ أَنْ اغْدُوا عَلى حَرْثِكُمْ انْ كُنْتُم صَارِمِيْنَ فَإِنْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ أَنْ لاَ يَدْخُلَنَّهَا اليَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِيْنٌ ﴾ الى قَوْلِهِ تَعَالى : ﴿ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيْمِ ﴾ . وَتَأَمَّلْ قِصَّةَ ثَعْلَبَةَ في سُوْرَةِ التَّوْبَةِ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمِنْهُم مَنْ عَاهَدَ اللهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُوْنَنَّ مِنْ الصَّالِحِيْنَ فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا

بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ فَأَعْقَبَهُم نِفَاقاً في قُلُوبِهِمْ إلى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا اخْلَفُوا اللهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾ .

مَـوْعِظَـةٌ

عِبَادَ اللهِ انَّ المُؤْمِنَ باللهِ حَقّاً يَبْتَعِدُ عَنْ المَعَاصِي كَمَا يَبْتَعِدُ عَنْ النَّارِ فَإِذَا زَلَّ مَرَّةً مِنْ المَرَّاتِ اضْطَرَبَتْ أَعْصَابُهُ وَجَعَلَ قَلْبُهُ يَخْفِقُ وَأَصَابَهُ نَدَمٌ عَظِيْمٌ وَكُلَّمَا تَذَكَّرَ تِلْكَ الهَفْوَةِ احْمَرَّ وَجْهُهُ خَجَلاً وَهَاجَتْ عَلَيْهِ أَحْزَانُهُ وَتَذَكَّرَ عِصْيَانَهُ لِسَيِّدِه وَمَوْلاَهُ وَلاَ يَزَالُ مُوْجَعَ القَلْبِ مِنْكَسِرُهُ حَتَّى يُفَارِقَ الدُّنْيَا وَيُوَارَى في التُّرَابِ .

هَذَا هُوَ المَعْرُوفُ عَنْ المُؤْمِنِ ، وَلاَ يُعْرَفُ سِوَاهُ في أَهْلِ الإِيْمَانِ لِأَنَّهم يُدْرِكُونَ تَمَاماً أَنَّهُم إنْ عَصَوا خَالِقَهُم وَرَازِقَهُم أَنهُم سَيَنْدَمُونَ وَيُعَاقَبُونَ إنْ لَمْ يَتُوبُوا إلى مَوْلاَهُم ، هَذَا مَا كَانَ عَلَيْهِ السَّلَفُ الصَّالِحُ وَمَنْ تَبِعَهُم ، وَانْظُرْ مَا عَلَيْهِ أَكْثَرُ النَّاسِ اليَوْمَ في هَذَا العَصْرِ المُظْلِمِ مِنْ الجُرْأَةِ عَلى انْتِهَاكِ مَحَارِمِ اللهِ تَتَمَثَّلُ أَمَامَكَ حَالُهُم بِحَالَةِ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُوْنَ بِثَوَابٍ وَلاَ عِقَابٍ تَرَاهُمْ قَدْ أَضَاعُوا الصَّلاةَ وَأَصَرُّوا عَلى مَنْعِ الزَّكَاةِ إلا النَّوَادِرَ مِنْهُم تَرَاهُم يُطَارِدُونَ النِّسَاءَ في الأَسْوَاقِ وَيَشْرَبُونَ الدُّخَانَ عَلناً وَيَحْلِقُونَ اللحَا كَذَلِكَ وَيَغُشُّوْنَ في مُعَامَلاَتِهم تَرَاهُم أَمَامَ المَلاهِي وَالمُنْكَرَاتِ لَيْلاً وَنَهَارَا ، تَرَاهُم يُوَالُوْنَ أَعْدَاءَ اللهِ وَيُعَظِّمُونَهُم تَرَاهُمْ لَمْ يَكْتَفُوا بالمَعَاصِي في بِلاَدِهِم بل يَذْهَبُونَ إلى البِلاَدِ الأُخْرَى ، بِلاَدِ الفِسْقِ والفُجُورِ وَالحُرِّيَةِ وَيُنْفِقُوْنَ فِيْهَا الأَمْوَالَ الطَّائِلَةَ في مَا يُغْضِبُ اللهَ الذي أَغْنَى وَأَقْنَى وَلَكِنْ لِيَعْلَمْ هَؤُلاَءِ الفَسَقَةُ أَنَّ اللهَ لاَ يَغْفَلُ عَنْ أَعْمَالِهم السَّيِّئَةِ وَسَوْفَ تَشْهَدُ عَلَيْهِم بِهَا الأَرْضُ وَالسَّمَاوَاتُ ، وَلاَ تَبْكِي عَلَيْهِم لاَ

هَذِهِ وَلَا هَذِهِ يَوْمَ يَتَجَرَّعُوْنَ كأسَ المَمَاتِ ، وَيَشْهَدُ بِهَا عَلَيْهِم المَلَكَانِ كَاتِبُ الحَسَنَاتِ ، وَكَاتِبُ السَّيِّئَاتِ ، وَيَشْهَدُ بِهَا عَلَيْهِمْ الحَفَظَةُ الذِيْنَ يَتعَاقَبُونَ عَلى حِفْظِهِمْ تَعَاقُبَ الحُرَّاسِ وَيَشْهَدُ بِهَا عَلَيْهِمْ جَوَارِحُهُمْ التِي بَاشَرَتْ فِعْلَ المَعَاصِيْ وَيَشْهَدُ بِهَا خَيْرُ شَاهِدٍ وَهُوَ مَوْلاَهُمْ جَلَّ وَعَلا الذي تَسْتَوِي الشَّهَادَةُ عِنْدَهُ وَالغُيُوْبُ ، وَيَشْهَدُ بِذَلِكَ عَلَيْهِم كُتُبُ أَعْمَالِهِم التي كُلُّ مَا فَعَلُوا بِهَا مَكْتُوبٌ حَتَّى إِذَا رَأَوْهَا يَوْمَ القِيَامَةِ وَبَدَا لَهُمْ مَا لَمْ يَكُنْ لَهُم فِي حِسَابٍ فَزِعُوْا وَقَالُوْا يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيْرَةً وَلَا كَبِيْرَةً إلا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوْا مَا عَمِلُوا حَاضِراً وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدا ، كُلُّ هَؤُلَاءِ يَشْهَدُوْنَ عَلى العَاصِيْنَ بالمَعَاصِيْ فَيُسَجِّلُونَ عَلَيْهِمْ مَا قَدَّمَتْهُ أَيْدِيْهِمْ وَلَيْسَ لِذَلِكَ نَتِيْجَةٌ انْ لَمْ يَتُوْبُوا إلا غَضَبُ الرَّبِّ عَلَيْهِمْ ، وَالقَاؤُهُمْ في دَارِ المُجْرِمِيْنَ الجَانِيْنَ جَهَنَّمَ ، وَإِذَا كَانَ الأَمْرُ هَكَذَا فَلِمَاذَا يَفْرَحُ العُصَاةُ ، وَمِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ التِيْ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ . التِي تَرْمِيْ بِشَرَرٍ كَالقَصْرِ كأنهُ جِمَالةٌ صُفْرٌ .

شِعْراً :

وَكَيْفَ قَرَّتْ لِأَهْلِ العِلْمِ أَعْيُنُهُمْ
أَوْ اسْتَلَذوا لَذِيْذَ النَّوْمِ أَوْ هَجَعُوْا
وَالمَوْتُ يُنْذِرُهُمْ جَهْراً عَلَانِيَةً
لَوْ كَانَ لِلْقَوْمِ أَسْمَاعٌ لَقَدْ سَمِعُوا
والنَّارُ ضَاحِيَةٌ لَا بُدَّ مَوْرِدُهُمْ
وَلَيْسَ يَدْرُونَ مَنْ يَنْجُوْ وَمَنْ يَقَعُ

آخَرُ :

وَكَيْفَ يَلَذُّ العَيْشَ مَنْ كَانَ مُوْقِناً
بِأَنَّ المَنَايَا بَغْتَةً سَتُعَاجِلُهْ
وَكَيْفَ يَلَذُّ العَيْشَ مَنْ كَانَ مُوْقِناً
بِأَنَّ إِلَهَ الخَلْقِ لَا بُدَّ سَائِلُهْ

نَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى النَّجَاةَ مِنْهَا وَأَنْ يُوَفِّقَنَا لِلأَعْمَالِ المؤَهِّلَةِ لِدَارِ الخُلْدِ وَأَنْ يُوَفقَ وُلَاتَنَا لِلِقِيَامِ عَلى هَؤلَاءِ المجْرِمِينَ ، وَرَدْعِهِمْ والزَامِهِمْ سُلُوْكَ طُرِقِ الحَقِّ إِنهُ القَادِرُ عَلى ذَلِكَ .

اللهُمَّ اجْعَلْ في قُلُوْبِنَا نُوْراً نَهْتَدِي بِهِ اليْكَ وَتَوَلَّنَا بِحُسْنِ رَعَايَتِكَ حَتَّى نَتوكَلَ عَليْكَ وَارْزُقْنَا حَلَاوَةَ التَّذَلُّلَ بَيْنَ يَدَيْكَ وَاغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَلِجَمِيْعِ المُسْلِمِيْنَ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وَصَلّى اللهُ عَلى مُحَمَّدٍ وَعَلى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

الفَصْلُ الأَوَّلُ
شَهْرُ رَمَضَانَ

١ ـ دَرْسُ اليَوْمِ الأَوَّلِ :

يَقُولُ اللهُ تَعَالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الذِيْنَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمْ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلى الَّذِيْنَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلكُمْ تَتقُونَ ﴾ .

قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ عَنْ هَذِهِ الآيَةِ :

يَقُوْلُ اللهُ تَعَالَى مُخَاطِباً المؤْمِنِيْنَ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ ، وَآمِراً لَهُمْ بِالصِّيَامِ وَهُوَ الإِمْسَاكُ عَنْ الطَّعَامِ ، وَالشَّرَابِ ، والوِقَاعِ ، بِنِيَّةٍ خَالِصَةٍ للهِ عَزَّ وَجَلَّ ، لما فِيْهِ مِنْ زَكَاةِ النُّفُوسِ ، وَطَهَارَتِهَا وَتَنقِيَتِهَا مِنْ الأَخْلاَطِ الـرَّدِيْئَةِ ، وَالأَخْلاَقِ الرَّذِيْلَةِ ، وَذَكَرَ أَنَّهُ كَمَا أَوْجَبَهُ عَلَيْهِمْ فَقَدْ أَوْجَبَهُ عَلى مَنْ كَانَ قَبْلِهِمْ ، فَلَهُم فِيْهِمْ أُسْوَةٌ ، وَلِيَجْتَهِدَ هَؤُلاءِ في أَدَاءِ هَذَا الفَرْضِ أَكْمَلَ مِمَّا فَعَلَهُ أُولئِكَ « انْتَهَى كَلاَمُهُ رَحِمَهُ اللهِ » .

وَقَدْ وَرَدَتْ في فَضْلِهِ ، وَمُضَاعَفَةِ أَجْرِهِ أَحَادِيْثُ كَثِيْرَةٌ :

رَوَى الامَامُ أَحْمَدُ وَالنَّسَائِيْ عَنْ أَبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنه ، قَالَ : كَانَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عَليهِ وَسَلم ، يُبَشِّرُ أَصْحَابَهُ بِقُدومِ شَهْرِ رَمَضَانَ فَيَقولُ :

« جَاءَكُمْ شَهْرُ رَمَضَانَ ، شَهْرٌ مُبَارَكٌ ، كَتَبَ اللهُ عَلَيْكُمْ صِيَامَهُ فِيْهِ تُفْتَحُ أَبْوَابُ الجَنَّةِ ، وَتُغْلَقُ فِيْهِ أَبْوَابُ الجَحِيْمِ ، وَتُغَلُّ فِيْهِ الشَّيَاطِيْنُ ، وَفِيْهِ لَيْلَةٌ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ، مَنْ حُرِمَ خَيْرَهَا فَقَدْ حُرِمَ » .

وَقَالَ بَعْضُ العُلَمَاءِ : « هَذَا الحَدِيْثُ أَصْلٌ في تَهْنِئَةِ النَّاسِ بَعْضَهُمْ بَعْضاً بِشَهْرِ رَمَضَانَ » .

وَفي الحَدِيْثِ الآخَرِ :

« لو يَعْلَمُ النَّاسُ مَا فِي رَمَضَانَ لَتَمَنَّتْ أُمَّتِيْ أَنْ يَكُوْنَ رَمَضَانُ السَّنَةَ كُلَّهَا » .

وَعَن عُبَادَةَ مَرْفُوْعاً :

« أَتَاكُمْ رَمَضَانُ شَهْرُ بَرَكَةٍ ، يَغْشَاكُمْ اللهُ فِيْهِ ، فَيُنْزِلُ الرَّحْمَةُ، وَيَحُطُّ الخَطَايَا ، وَيَسْتَجِيْبُ فِيْهِ الدُّعاءَ ، يَنْظُرُ اللهُ إلى تَنَافُسِكُمْ فِيْهِ ، وَيُبَاهِيْ بِكُمْ مَلاَئِكَتَهُ ، فَأَرُوا اللهَ مِنْ أَنْفُسِكُمْ خَيراً ، فَإِنَّ الشَّقِي مَنْ حُرِمَ فِيْهِ رَحْمَةَ اللَّهِ » .

وَفي الصَّحِيْحَيْنِ ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، عَنْ النَّبِي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمَ قَالَ : اذَا دَخَلَ شَهْرُ رَمَضَانَ فُتِحَتْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَغُلِّقَتْ أَبْوَابُ جَهَنَّمَ وَسُلْسِلَتْ الشَّيَاطِيْنُ .

وَلِمُسْلِمٍ فُتِحَتْ أَبْوَابُ الرَّحْمَةِ وَفي الصَّحِيْحَيْنِ عَنْ النَّبِي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمَ قَالَ : إنَّ في الجَنَّةِ بَاباً يُقَالُ لَهُ الرَّيَّانُ يَدْخلُ مِنْهُ الصَّائِمُونَ لاَ يَدْخُلُ مِنْهُ غَيْرُهُمْ وَفي رِوَايَةٍ فَاذَا دَخَلُوا أُغْلِقَ البَابُ وَفي رِوَايَةٍ مَنْ دَخَلَ مِنْهُ شَرِبَ وَمَنْ شَرِبَ لَمْ يَظْمَأْ أَبَداً .

وَلِمُسْلِمٍ أَيْضاً ، عَنْ أَبي هُرَيرَةَ ـ رَضِيَ اللهُ عَنهُ ـ مَرْفُوعاً : « إِذَا جَاءَ رَمضانُ فُتِحَتْ أَبْوَابُ الجَنةِ ، وَأُغْلِقَتْ أَبْوَابُ النَّارِ ، وَصُفِّدَتْ الشَّيَاطِيْنُ ».

وَعَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عَليهِ وَسَلم : « اذَا كَانَ أَوَّلُ لَيْلةٍ منْ رَمضَانَ صُفِّدَتْ الشَّيَاطِينُ وَمَرَدَةُ الجنِّ ، وَغُلِّقَتْ أَبْوَابُ النِّيْرَانِ ، فَلَمْ يُفْتَحْ مِنْهَا بَابٌ ، وَفُتِحَتْ أَبْوَابُ الجَنَّةِ فَلَمْ يُغْلَقْ مِنْهَا بَابٌ ، وَيُنَادِيْ مُنَادٍ : يَا بَاغِيَ الخَيْرِ أَقْبِلْ ، وَيَا بَاغِيَ الشَّرِّ أَقْصِرْ ، وَلِلَّهِ عُتَقَاءُ مِنْ النَّارِ ، وَذَلِكَ كُلَّ لَيْلَةٍ » .

وَعَنْ أَبي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

« الصَّلَوَاتُ الخَمْسُ ، والجُمُعَةُ الى الجُمُعَةِ ، وَرَمَضَانُ إلى رَمَضَانَ مُكَفِّراتٌ مَا بَيْنَهُنَّ اذَا اجْتُنِبَتْ الكَبَائِرُ » .

وَعَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « ثَلاَثَةٌ لاَ تُرَدُّ دَعْوَتُهُمْ : الصَّائِمُ حَتَّى يُفْطِرَ ، وَالامَامُ العَادِلُ ، وَدَعْوَةُ المَظْلُومُ يَرْفَعُهَا اللهُ فَوْقَ الغَمَامِ ، وَتُفْتَحُ لَهَا أَبْوَابُ السَّمَاءِ ، وَيَقُولُ : «وَعِزَّتِي وَجَلالِي لأَنْصُرَنَّكِ وَلَوْ بَعْدَ حِيْنٍ » . رَوَاهُ التِّرْمِذِي وَحَسَّنَهُ وابْنُ حِبَّانَ في صَحِيْحِهِ .

وَعَنْ أَبي هُرَيْرَةَ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَال : « أُعْطِيَتْ أُمَّتِي خَمْسَ خِصَالٍ في رَمَضَانَ لَمْ تُعْطَهَا أُمَّةٌ قَبْلَهُمْ . خُلُوفُ فَمِ الصَّائِم أَطْيَبُ عِنْدَ اللهِ مِنْ رِيْحِ المِسْكِ ، وَتَسْتَغْفِرُ لَهُمْ الحِيْتَانُ حَتَّى يُفْطِرُوْا ، وَيُزَيِّنُ اللهُ عَزّ وَجَلَّ كُلَّ يَوْمٍ جَنَّتَهُ ، ثُمَ يَقُولُ : يُوْشِكُ عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ أَنْ يُلْقُوا عَنْهُم المئُونَةَ ، وَيَصِيْرُوا إِلَيْكِ ، وَتُصَفدُ فِيْهِ مَرَدَةُ الشَّيَاطِيْنِ فَلاَ يَخْلُصُوا فِيْهِ إلى مَا كَانُوا يَخْلصُونَ إِلَيْهِ في غَيْرِهِ ، وَيُغْفِرُ لَهُم في آخِرِ لَيْلَةٍ » .

قِيْلَ : يَا رَسُوْلَ اللهِ أَهِيَ لَيْلَةُ القَدْرِ ؟ .

قَالَ : « لاَ ، وَلَكِنَّ العَامِلَ إِنَّمَا يُوَفيَّ أَجْرُهُ إِذَا قَضَى عَمَلَهُ » .

وَعَنْ أَبِيْ هُرَيْرَةَ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ أَنَّ النَّبِي صَلى اللَّهُ عليهِ وَسَلَم صَعِدَ المَنْبَرَ ، فَقَالَ : « آمِيْنَ ، آمِيْنَ ، آمِيْنَ ، قِيْلَ يَا رَسُولَ اللهِ : إِنَّكَ صَعَدْتَ المِنْبَرَ فَقُلتَ : آمِين ، آمين » فَقَالَ : « جِبْرِيْلُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ ، أَتَانِيْ فَقَالَ : مَنْ أَدْرَكَ شَهْرَ رَمَضَانَ فَلَمْ يُغْفَرْ لَهُ ، فَدَخَلَ النَّارَ فَأَبْعَدَهُ قُلْ

آمِيْن ، فَقُلْتُ آمِيْن الحَدِيْثِ » .

وَعَنْ أَبِيْ هُرَيْرَةَ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : « أَظلكُم شَهْرُكُم هَذا ، بِمَحْلُوفِ رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيهِ وَسَلم مَا مَرَّ بِالمُسْلِمِيْنَ شَهْرٌ خَيْرٌ لَهُمْ مِنْهُ ، وَلَا مَرَّ بِالمُنَافِقِيْنَ شَهْرٌ شَرٌّ لَهُمْ مِنْهُ ، بِمَحْلُوْفِ رَسُولِ اللهِ صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّ اللهَ لَيَكْتُبُ أَجْرَهُ وَنَوافِلَهُ قَبْلَ أَنْ يُدْخِلَهُ ، وَيَكْتُبُ اصْرَهُ وَشَقَاءَهُ قَبْلَ أَنْ يُدْخِلَهُ ، وَذَلِكَ أَنَّ المُؤْمِنَ يُعِدُّ فِيْهِ القُوْتَ وَالنَّفَقَةَ لِلْعِبَادَةِ ، وَيَعُدُّ فِيْهِ المُنَافِقُ اتبَاعَ غَفَلاتِ المؤْمِنِيْنَ واتبَاعَ عَوْرَاتِهِمْ ، فَغُنْمٌ يَغْنَمُهُ المُؤْمِنُ » .

وَقَالَ بنْدَارُ في حَدِيْثِهِ : « فَهُوَ غُنْمٌ لِلْمُؤْمِنِيْنَ يَغْتَنِمُهُ الفَاجِرُ » رَوَاهُ ابْنُ خَزَيْمَةَ في صَحِيْحِهِ وَغَيْرِهِ .

وَعَنْ أَنَسٍ ، رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ أَنَّ النَّبِيّ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَدْعُو بِبُلُوغِ رَمَضَانَ ، فَكَانَ إِذا دَخَلَ شَهْرُ رَجَبٍ قَالَ : « اللهُمَّ بَارِكْ لَنَا في رَجَبٍ وَشَعْبَانَ وَبَلِّغْنَا رَمَضَانَ » رَوَاهُ الطَّبَرَانِيْ وَغَيْرُهُ .

وَقَالَ عَبْدُ العَزِيْزِ بْنِ مَرْوَانَ : « كَانَ المُسْلِمُوْنَ يَقُوْلُوْنَ عِنْدَ حُضُوْرِ شَهْرِ رَمَضَانَ اللهُمَّ قَدْ أَظَلَّنَا شَهْرُ رَمَضَانَ وَحَضرَ فَسَلِّمْهُ لَنَا وَسَلِّمْنَا لَهُ ، وَأَرْزُقْنَا صِيَامَهُ وَقِيَامَهُ ، وَأَرْزُقْنَا فِيْهِ الجِدَّ وَالاجْتِهَادَ وَالنَّشَاطَ ، وَأَعِذْنَا فِيْهِ مِن الفِتَنِ » .

وَقَالَ مُعَلَّى بْنِ الفَضْلِ : كَانُوا يَدْعُونَ اللهَ سِتَّةَ أَشْهُرٍ أَنْ يُبَلِّغَهُم رَمَضَانُ ثُمَّ يَدْعُونَهُ سِتَّةَ أَشْهُرٍ أَنْ يَتَقَبَّلَهُ مِنْهُمْ . وَقَالَ يَحْيَى بْنُ أَبِي كَثِيْرٍ كَانَ مِنْ دُعَائِهِمْ : « اللهُمَّ سَلِّمْنِيْ إِلى رَمَضَان وَسَلِّمْ لِيْ رَمَضَانُ وَتَسَلَّمْهُ

مِنِّيْ مُتَقَبَّلاً » .

قَال النَّاظِمُ :

وَخُذْ في بَيَانِ الصَّوْمِ غَيْرَ مُقَصِّرٍ
عِبَادَةِ سِرٍّ ضِدَّ طِبْعٍ مُعَوَّدِ
وَصَبْرٌ لِفَقْدِ الإِلْفِ مِنْ حَالَةِ الصِّبَا
وَفَطْمٌ عَنْ المَحْبُوبِ والمُتَعَوَّدِ
فَثِقْ فِيْهِ بِالوَعْدِ القَدِيْمِ مِنْ الذي
لَهُ الصَّوْمُ يُجْزِيْ غَيْرَ مُخْلِفِ مَوْعِدِ
وَحَافِظْ عَلى شَهْرِ الصِّيَامِ فَإِنَّهُ
لَخَامِسُ أَرْكَانٍ لِدِيْنِ مُحَمَّدِ
تُغَلَّقُ أَبْوَابُ الجَحِيْمِ إِذَا أَتَى
وَتُفْتَحُ أَبْوَابُ الجِنَانِ لِعُبَّدِ
تُزَخْرَفُ جَنَّاتُ النَّعِيْمِ وَحُوْرُهَا
لِأَهْلِ الرِّضَا فِيْهِ وَأَهْلِ التَّعَبُّدِ
وَقَدْ خَصَّهُ اللهُ العَظِيْمُ بِلَيْلَةٍ
عَلى أَلْفِ شَهْرٍ فُضِّلَتْ فَلْتُرَصَّدِ
فَارْغِمْ بِأَنْفِ القَاطِعِ الشَّهْرِ غَافِلاً
وَأَعْظِمْ بِأَجْرِ المُخْلِصِ المُتَعَبِّدِ
فَقُمْ لَيْلَهُ وَاطْوِ نَهَارَكَ صَائِماً
وَصُنْ صَوْمَهُ عَنْ كُلِّ مُوْهٍ وَمُفْسِدِ

اللَّهُمَّ أَهِلَّ شَهْرَنَا عَلَيْنَا بِالسَّلَامَةِ وَالإِسْلَامِ وَالأَمْنِ وَالإِيْمَانِ ، وَاغْفِرْ

لَنَا كُلَّ قَبِيْحٍ سَلَفَ وَكَانَ ، وَأَعْتِقْنَا فِيْهِ مِنْ لَفَحَاتِ النِّيْرَان وَأَعِنَّا عَلَى الخَيْرِ يَا كَرِيْمُ يَا مَنَّانُ ، وَاغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا ، وَجَمِيْعِ المُسْلِمِيْنَ الأَحْيَاءِ مِنْهُمْ وَالمَيِّتِيْنَ ، بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وَصَلَّى اللهُ عَلى مُحَمَّدٍ وَعَلى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

مَـوْعِظَـةٌ

عِبَادَ اللهِ أَخْرَجَ البُخَارِيْ في صَحِيْحِهِ عَنْ سَهْلِ بنِ سَعْدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَنْ يَضْمَنْ لِيْ مَا بَيْنَ لَحْيَيْهِ وَمَا بَيْنَ رِجْلَيْه أَضْمَنْ لَهُ الجَنَّةَ ، عِبَادَ اللهِ انَّ هَذَا الحَدِيْثُ عَلى ايْجَازِهِ لَيَحْتَوِي عَلى وَصِيَّةٍ ثَمِيْنَةٍ مِنْ أَبْلَغِ الوَصَايَا وَأَقْيَمِهَا وَأَجَلِّهَا وَأَنْفَعِهَا فَقَدْ اشْتَمَلَ عَلى الأَمْرِ بِحِفْظِ عُضْوَيْنِ عَلَيْهِمَا مَدَارُ عَظِيْمٌ حَقِيْقَيْنِ بِتَعَاهُدِهِمَا بالرِّعَايَةِ وَالاسْتِقَامَةِ وَالرَّقَابَةِ وَالصِّيَانَةِ أَلَا وُهُمَا اللسَانُ وَالفَرْجُ وَلَا شَكَّ أَنَّهُمَا إِنْ أُطْلِقَ سَرَاحُهُمَا في الشَّهَوَاتِ وَاللَّذَاتِ وَطُرُقِ الغَيِّ وَالفَسَادِ كَانا أَصْلاً لِلْبَلاءِ وَالفِتْنَةِ وَالشَرِّ وَالهَلاَكِ .

وَقَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَن وُقِيَ شَرَّ قَبْقَبِهِ وَذَبْذَبِهِ وَلَقْلَقِهِ فَقَدْ وَجَبَتْ لَهُ الجَنَّةُ الحَدِيْثِ أَخْرَجَهُ مَنْصُورُ الدَّيْلَمِي مِنْ حَدِيْثِ أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَالقَبْقَبُ البَطْنُ وَالذَّبْذَبُ الفَرْجُ وَاللقْلَقُ اللسَانُ .

فَهَذِهِ الشَّهَوَاتُ بِهَا يَهْلَكُ أَكْثَرُ الخَلْقِ وَسُئِلَ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ أَكْثَرِ مَايُدْخِلُ النَّارَ فَقَالَ الأَجْوَفَانِ الفَمُ والفَرْجُ .

فَالعَاقِلُ مَنْ يُبْصِرُ مَـوَاقِعَ الكَـلاَمِ وَيَحْفَظُ لِسَانَـهُ مِنْ الفُضُوْلِ والهَذَيَانِ وَلاَ يَتَعدَّى بِفَرْجِهِ زَوْجَتَهُ وَمَا مَلَكَتْ يَمِيْنَهُ .

وَقَالَ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم « مَنْ كَانَ يُؤمِنُ باللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْراً أَوْ لِيَصْمُتْ » إِذَا فَهِمْتَ ذَلِكَ فَاعْلَمْ أَنَّ زَلَّاتِ اللسَانِ عَظِيْمَةٌ فَزَلَّةٌ مِنْ زَلَّاتِهِ قَدْ تُؤَدِيْ بِالإِنْسَانِ إلى الهَلَاكِ والعَطَبِ وَمُفَارَقَةِ أَهْلِهِ وَوَلَدِهِ وَأَصْدِقَائِهِ وَجِيْرَانِهِ فَلْيَحْذَرْ الإِنْسَانُ مِمَّا يَجْرِي بِهِ لِسَانُهُ .

قَالَ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا يَسْتَقِيْمُ إِيْمَانُ عَبْدٍ حَتَّى يَسْتَقِيْمَ قَلْبُهُ وَلَا يَسْتَقِيْمَ قَلْبُه حَتَّى يَسْتَقِيْمَ لِسَانُهُ الحَدِيْثِ .

وَعَنْ سَعِيْدِ بنِ جُبَيْرٍ مَرْفُوْعاً إلى رَسُولِ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ « إِذَا أَصْبَحَ ابْنُ آدَمَ أَصْبَحَتْ الأَعْضَاءُ كُلُّهَا تُذَكِّرُ اللسَانَ أَيْ تَقُولُ اتَّقِ اللهِ فِيْنَا فَإِنَّكَ انْ اسْتَقَمْتَ اسْتَقَمْنَا وَانْ اعْوَجَجْتَ اعْوَجَجْنَا وَرُوِيَ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ رَأَى أَبَا بَكْرٍ الصِّدِيقُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَهُوَ يَمُدُّ لِسَانَهُ بِيَدِهِ فَقَالَ لَهُ مَا تَصْنَعُ يَا خَلِيْفَةَ رَسُولِ اللهِ صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمَ قالَ : هَذَا أَوْرَدَنِي المَوَارِدَ إِنَّ رَسُولَ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمَ قَالَ : لَيْسَ شَيءٌ مِنْ الجَسَدِ إلا يَشْكُو إلى اللهِ اللسَانَ عَلَى حِدَّتِهِ .

وَعَنْ ابنِ مَسْعُودٍ أَنَّه كَانَ عَلى الصَّفَا يُلَبِّي وَيَقُولُ يَا لِسَانُ قُلْ خَيْراً تَغْنَمْ وَاسْكُتْ عَنْ شَرٍّ تَسْلَمُ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَنْدَمَ فَقِيْلَ يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ أَهَذَا شَيءٌ تَقُولُه أو شَيءٌ سَمِعْتَهُ فَقَالَ لا بَلْ شَيءٌ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلى اللهُ عَليهِ وَسَلَمَ يَقُوْلُ إِنَّ أَكْثَرَ خَطَايَا ابْنِ آدَم في لِسَانِهِ .

وَقَالَ ابْنُ عُمَرَ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عَليهِ وَسَلَّمَ مَنْ كَفَّ لِسَانَهُ سَتَرَ اللهُ عَوْرَتَهُ وَمَنْ مَلَكَ غَضَبَهُ وَقَاهُ اللهُ عَذَابَهُ وَمَنْ اعْتَذَر إلى اللهِ قَبِلَ اللهُ عُذْرَهُ .

وَقَالَ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِخْزِنْ لِسَانَكَ إِلَّا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّكَ بِذَلِكَ تَغْلِبُ الشَّيْطَانَ . وَقَالَ صَلى الله عليه وسلم إِذاً رَأَيْتُم المُؤْمِنَ صَمُوتاً وَقُوراً فادْنُوا مِنْهُ فَإِنَّهُ يُلَقَّنُ الحِكْمَةَ .

وَأَخْرَجَهُ ابنُ مَاجَه مِن حَدِيثِ خَلَّادٍ بِلَفْظ إِذَا رَأَيْتُم الرَّجُلَ قَدْ أُعْطِى زُهْداً في الدُّنْيَا وَقِلَّةَ مَنْطِقٍ فَاقْتَرِبُوا مِنْهُ فإِنَّهُ يُلقَّى الحِكْمَةَ » .

وَلَا تَحْسَبَنَّ حِفْظَ اللِّسَانِ قَاصِراً عَلى الصَّمْتِ في مَوْضِعِهِ أو الكَلَامَ بل يَتَعَدَّى إلى حِفْظِهِ مِنْ طَعَامٍ مَشْبُوهٍ أَوْ حَرَامٍ وَانَّ مِنْ المَعْلُومِ أَنَّ اللِّسَانَ هُو الوَسِيْلَةُ لِمَضْغِ مَا يَأْكُلُهُ المَرْءُ وَقَذْفِهِ في المَعِدَةِ بَيْتِ الطَّعَامِ وَمُسْتَقَرُّهُ وَلِيَصُنْهُ مِنْ الزَّلَلِ وَالحَرَامِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ في عَاقِبَةِ أَمْرِهِ .

وَأَمَّاحِفْظُ الفَرْجِ فَبِتَرْكِ التَّعَدِّي عَلى أَعْرَاضِ النَّاسِ وَحُرُمَاتِهم وَوَضْعِهِ في الحَلَالِ في الطُّرُقِ المَشْرُوعَةِ وَكَفِّهِ عن الزِّنَا وَالحَرَامِ والزِّنَا آفَةٌ وَبَلِيَّةٌ على المُجْتَمَعِ الإِنْسَانِي وَقَدْ بَيَّنَا مَضَارَّهُ في الجُزْءِ الثَّانِيْ وَاللهُ أَعْلَمُ .

(فَصْـلٌ)

وَيَبْحَثُ في

١ ـ حُكْمِ صَوْمِ رَمَضَانَ .

٢ ـ بَيَانِ مَنْ يَجِبُ عَلَيْهِ الصَّوْمُ .

٣ ـ مَا يَثْبُتُ بِهِ الشَّهْرُ .

٤ ـ مَا يَتَرَتَّبُ عَلى ثُبُوتِ رُؤْيَةِ الهِلَالِ .

٥ ـ لَا يَصِحُّ صَوْمُ رَمَضَانَ وَلَا غَيْرُه مِنْ الصِّيَامِ الوَاجِبِ إلا بِنِيَّةٍ مِنْ اللَّيْلِ لِكُلِّ يَوْمٍ .

١ ـ حُكْمُ صَوْمِ رَمَضَانَ :

صَوْمُ رَمَضَانَ فَرِيْضَةٌ : وَالأَصْلُ في فَرِيْضَتِهِ : الكِتَابُ وَالسُّنَّةُ ، وَالإِجْمَاعِ .

أَمَّا الدَّلِيْلُ مِنْ الكِتَابِ فَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ يَا أَيُّهَا الذِيْنَ آمَنُوْا كُتِبَ عَلَيْكُمْ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلى الذِيْنَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُوْنَ ﴾ .

وَأَمَّا السُّنَّةُ ، فَعَنْ ابْنِ عُمَرَ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « بُنِيَ الإِسْلَامُ عَلى خَمْسٍ : شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلهَ إلا الله وَأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللهِ ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيْتَاءِ الزَّكَاةِ ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ ، وَحَجِّ البَيْتِ » .

وَأَمَّا الإِجْمَاعُ ، فَأَجْمَعَ المُسْلِمُوْنَ عَلى فَرِيْضَةِ صَوْمِ شَهْرِ رَمَضَانَ .

٢ ـ بَيَانُ مَنْ يَجِبُ عَلَيْهِ الصَّوْمُ :

وَيُفْتَرضُ عَلى كُلِّ مُسْلِم عَاقِلٍ بَالِغٍ قَادِرٍ أَدَاءً وَقَضَاءً ، وَلَا يَجِبُ عَلى كافِرٍ ـ سَوَاءً كَانَ أَصْلِيًّا أَوْ مُرْتَداً ـ لِإِنَّ الصَّوْمَ عِبَادَةٌ لا تَصِحُّ مِنْهُ في حَالِ كُفْرِهِ ، وَلَا يَجِبُ عَلَيْهِ قَضَاءُهَا لِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿قُلْ لِلذِيْنَ كَفَروا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَا قَدْ سَلَفَ ﴾ .

وَلِأَنَّ في ايْجَابِ قَضَاءِ مَا فَاتَ في حَالِ كُفْرِهِ تَنْفِيْراً عَنْ الإِسْلَامِ وَلَوْ أَسْلَمَ في أَثْنَائِهِ لَمْ يَلْزَمْهُ مَا مَضَى مِنْ الأَيَّامِ وَيَصُوْمُ مَا بَقِيَ مِن

الشَّهْرِ .

وَلِحَدِيْثِ ابن مَاجه في وَفْدِ ثَقِيْفٍ : قَدِمُوا عَلَيْهِ في رَمَضَانَ ، فَضَرَبَ عَلَيْهِمْ قُبَّةً بالمَسْجِدِ فَلَمَّا أَسْلَمُوا ، صَامُوا مَا بَقِيَ عَلَيْهِم مِنْ الشَّهْرِ ، اذْ أَنَّ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ عِبَادَةٌ مُفْرَدَةٌ .

وَلَا يَجِبُ الصَّوْمُ عَلَى مَجْنُونٍ ، وَلَا صَبِيّ حَتَّى يَبْلُغَ ، لِقَوْلِهِ صَلى اللهُ عَليهِ وَسَلم : « رُفِعَ القَلمُ عَنْ ثَلَاثَةٌ : عَنِ الصَّبِيْ حَتَّى يَبْلُغَ ، وَعَنْ المَجْنُونِ حَتَّى يَفِيْقَ ، وَعَنْ النَّائِم حَتَّى يَسْتَيْقِظَ » .

وَأَمَّا اشْتِرَاطُ القُدْرَةِ عَلى الصَّوْمِ فَلأَنَّ مَنْ لا يَقْدِرُ عَلَيْهِ بِحَالٍ وَهُوَ الكَبِيْرُ وَالعَجُوْزُ ـ اذَا كَانَ الصَّوْمُ يُجْهِدُهُمَا وَيَشُقُّ عَلَيْهِمَا مَشَقَّةً شَدِيْدَةً ـ فَلَهُمَا أَنْ يُفْطِرَا وَيُطْعِمَا لِكُلِّ يَوْمٍ مِسْكِيْناً ، لِقَوْلِ ابْنِ عَبَّاسٍ ـ رَضِيَ اللهُ عَنهُمَا ـ في قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَعَلى الـذِيْنَ يُطِيْقـونَهُ فِـديَةٌ ﴾ : لَيْسَتْ بِمَنْسُوخَةٍ في الشَّيْخِ الكَبِيْرِ ، وَالمَرْأَةِ الكَبِيْرَةِ اللذَيْنِ لَا يَسْتَطِيْعَانِ الصَّوْمَ فَيُطْعِمَانِ مَكَانَ كلِّ يَوْمٍ مِسْكِيْناً .

وَرُوِيَ أَنَّ أَنَس بْن مَالِكٍ ـ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ ـ ضَعُفَ عَنْ الصَّوْمِ فَصَنَعَ جَفْنَةً مِنْ ثرِيْدٍ ، فَدَعَا ثَلاثِيْنَ مِسْكِيْناً فَأَطْعَمَهُم .

وَالمَرِيْضُ الذِي لَا يُرْجَى بُرْؤُهُ ، حُكْمُهُ حُكْمُ الشَّيْخِ الكَبِيْرِ ، يُطْعِمُ لِكلِّ يَوْمٍ مِسْكِيْناً .

٣ ـ مَا يَثْبُتُ بِهِ الشَّهْرُ :

وَيَجِبُ صَوْمُ رَمَضَانَ بِرُؤْيَةِ هِلَالِهِ ، أَوْ اكْمَـالِ شَعْبَانَ ثَـلَاثِيْنَ

يَوْماً وَتَثْبُتُ رُؤْيَةُ هِلالِ رَمَضَانَ بِخَبرِ مُسْلِمٍ مُكَلَّفٍ عَدْلٍ وَلَوْ عَبْدَا أَوْ أُنْثَى .

قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمْ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ﴾ .

وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا ـ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلى اللهُ عليه وسلم يَقُولُ : « اذَا رَأَيْتُمُوهُ فَصُوْمُوا ، وإِذَا رَأَيْتُمُوهُ فأَفْطِرُوا ، فَإِنْ غُمَّ عَلَيْكُم فاقدُرُوا له » .

وَعَنْ ابنِ عُمَرَ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُما ـ قَالَ : « تَرَآى النَّاسُ الهِلاَلَ فَأَخْبَرْتُ النَّبي صَلى اللهُ عَليهِ وَسَلَّمَ أَنِّي رَأَيْتُهُ ، فَصَامَ وَأَمَرَ بِصِيَامِهِ » .

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ قَالَ : إِنَّ اعْرَابِيًّا جَاءَ الى النَّبِي صَلى الله عليه وسلم ، فَقَال : إِني رَأَيْتُ الهِلاَلَ ، فَقَالَ : « أَتَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إلا اللهُ » قَالَ : نَعَم ، قالَ : « أَتشهَدُ أَنَّ مُحمداً رسُولُ اللهِ ؟ » قَالَ : نَعَم ، قَالَ : « فَأَذِّنِ في النَّاسِ يَا بِلاَلُ أَنْ يَصُومُوا غَداً » .

وَيُسْتَحَبُّ إِذَا رَأَى الهِلاَلَ أَنْ يَقُولَ مَا وَرَدَ ، وَمِنْهُ حَدِيثُ ابنِ عُمَرَ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا ـ قَالَ : « كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلى الله عليه وسَلم إِذَا رَأَى الهِلاَلَ قَالَ : اللهُ أَكْبَرُ ، اللَّهُم أَهِلَّهُ عَلَيْنَا بالأَمْنِ والإِيْمَانِ والسَّلاَمَةِ والإِسْلاَمِ والتَّوْفِيْقِ لِمَا تُحِبُّ وَتَرْضَى » .

وَمِنْهُ حَدِيثُ طَلْحَةَ بن عَبدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، أَنَّ النبي صَلى اللهُ عليهِ وَسَلم كَانَ إِذَا رَأَى الهِلاَلَ قَالَ : « اللهُمَّ أَهِلَّهُ عَلَيْنَا بِالأَمْنِ وَالإِيْمَانِ وَالسَّلاَمَةِ والإِسْلاَمِ ، رَبِّي وَرَبُّكَ اللهُ ، هِلاَلُ رُشْدٍ وَخَيْرٍ » .

وانْ حَالَ دُوْنَ مَطْلَعِ الهِلاَلِ لَيْلَةَ الثَّلاثِيْنَ مِنْ شَعْبَانَ غَيْمٌ أَوْ قَتَرٌ أَوْ غَيْرُهُمَا ، فَإِنَّهُ لا يَجِبُ صَوْمُه وَلاَ يُسْتَحَبُّ ، بَلْ المَشْرُوْعُ فِطْرُه لِمَا وَرَدَ عَنْ أَبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنهُ قَالَ ، قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عَليهِ وَسَلَم : « صُوْمُوا لِرُؤْيَتِهِ . وَأَفْطِرُوا لِرُؤيتِهِ ، فَإِنْ غُمَّ عَلَيْكُم فَأَكْمِلُوا عِدَّةَ شَعْبَانَ ثَلاثِيْنَ » .

وَعَنْ عَمَّارِ بْنِ يَاسِرٍ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا ـ قَالَ : « مَنْ صَامَ اليَوْمَ الذي يَشكُّ فِيْهِ فَقَدْ عَصَى أَبَا القَاسِمِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ » .

وَعَنْ ابن عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُما قَال : قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلى الله عليه وَسَلم : « صُومُوا لِرُؤْيَتِهِ ، فَإِنْ حَالَ بَيْنَكُم وَبَيْنَهُ سَحَابٌ فَكَمِّلُوا العِدَّةَ ثَلاثِيْنَ وَلا تَسْتَقْبِلُوا الشَّهْرَ اسْتِقْبَالاً » .

وَيُسْتَثْنَى القَضَاءُ ، والنَّذْرُ وَالعَادَةُ ، فَيَجُوْزُ صَوْمُهَا فِيْهِ .

وَعَنْ أَبي هُرَيْرَةَ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ قَال : قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « لاَ تَقَدَّمُوا رَمَضَانَ بِصَوْمِ يَوْمٍ وَلا يَوْمَيْنِ إلا رَجُلٌ كانَ يَصُومُ صَوْماً فَلْيَصُمْهُ » .

٤ ـ فِيْمَا يَترتَّبُ عَلى ثُبُوتِ رُؤْيَةِ الهِلاَلِ :

وإِذَا ثَبَتَ رُؤْيَةُ هِلاَلِ رَمَضَانَ بِبَلَدٍ لَزِمَ النَّاسَ كُلَّهُم الصَّوْمُ إِذَا اتَّفَقَتْ المَطالِعُ لِمَا رَوَى « كُرَيْبٌ » قالَ : قَدِمْتُ الشَّامَ ، وَاسْتَهَلَّ عَليّ رَمَضَانَ وَأَنا بِالشَّامِ ، فَرَأَيْتُ الهِلاَلَ لَيْلَةَ الجُمُعَةَ ، ثُم قَدِمْتُ المَدِيْنَةَ في آخِرِ الشَّهْرِ فَسَأَلَنِي عَبْدُ اللهِ بْنُ عَبَّاسٍ . ثُمَّ ذَكَرَ الهِلاَلَ فَقَالَ : مَتى رَأَيْتُم الهِلاَلَ ؟ قُلْتُ : رَأَيْنَاهُ لَيْلَةَ الجُمُعَةَ فَقَالَ : أَنْتَ رَأَيْتَهُ ؟ قُلْتُ نَعَمْ وَرَآهُ النَّاسُ ، وَصَامُوا ، وَصَامَ مُعَاوِيَةُ ، فَقَالَ : لَكِنَّا رَأَيْنَاهُ لَيْلَةَ السَّبْتِ فَلاَ نَزَالُ

نَصُوْمُ حَتَّى نُكْمِلَ ثلاثِيْنَ أَوْ نَرَاهُ . فَقُلْتُ : أَفلا تَكْتَفِيْ بِرُؤْيَةِ مُعَاوِيَةَ وَصِيَامِهِ ؟ فَقَالَ لاَ ، هَكَذَا أَمَرَنَا بَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

وَمَنْ رَأَى وَحْدَهُ هِلاَلَ رَمَضَانَ وَرُدَّ قَوْلُهُ لَزِمَهُالصَّوْمُ وَجَمِيْعُ أَحْكَامِ الشَّهْرِ مِنْ طَلاَقٍ وَعِتْقٍ ، وَغَيْرِهِمَا مُعَلَّقَيْنِ بِهِ ، لِعُمُوْمِ قَوْلِهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « صُوْمُوا لِرُؤْيَتِهِ وَأَفْطِرُوا لِرُؤْيَتِهِ ، وَلِأَنَّهُ تَيَقَّنَ أَنَّهُ مِنْ رَمَضَانَ فَلَزِمَهُ صَوْمُه وَأَحْكَامُهُ بِخِلاَفِ غَيْرِهِ مِنْ النَّاسِ ، وَمَنْ رَأَى وَحْدَهُ هِلاَلَ شَوَّالَ لَمْ يُفْطِرْ لِحَدِيْثِ « الفِطْرُ يَوْمَ يُفْطِرُ النَّاسُ ، وَالأَضْحَى يَوْمَ يُضَحِّي النَّاسُ » .

وَحَدِيْثِ : « الفِطْرُ يَوْمَ يُفْطِرُونَ ، والأَضْحَى يَوْمَ يُضَحُّونَ » .

وَرَوَى أَبُو رَجَاءٍ عَنْ أَبِي قَلاَبَةَ :

أَنَّ رَجُلَيْنِ قَدِمَا المَدِيْنَةِ وَقَدْ رَأَيَا الهِلاَلَ ، وَقَدْ أَصْبَحَ النَّاسُ صِيَاماً فَأَتَيَا عُمَرَ ، فَذَكَرَا ذَلِكَ لَهُ ، فَقَالَ لِأَحَدِهِمَا : أَصَائِمٌ أَنْتَ ؟ قَالَ : بَلْ مُفْطِرٌ . قَالَ : مَا حَمَلَكَ عَلى هَذا ؟ قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَصُوْمَ وَقَدْ رَأَيْتُ الهِلاَلَ وَقَالَ لِلآخَرِ ، قَالَ : انِّي صَائِمٌ ، قَالَ : مَا حَمَلَكَ عَلى هَذَا ؟ قَالَ : لَمْ أَكُنْ لِأُفْطِرَ وَالنَّاسُ صِيَامٌ . فَقَالَ لِلذِيْ أَفْطَرَ : لَوْلاَ مَكَانُ هَذَا لأَوْجَعْتُ رَأْسَكَ ، ثُمَّ نُودِيَ في النَّاسِ أَنْ أَخْرُجُوا .

وإِنَّمَا أَرَادَ ضَرْبَهُ لِإِفْطَارِهِ بِرُؤْيَتِهِ وَحْدَهُ ، وَدَفَعَ عَنْهُ الضَّرْبَ لِكَمَالِ الشَّهَادَةِ بِهِ ، وَلَوْ جَازَ لَهُ الفِطْرُ لَمَا أَنْكَرَ عَلَيْهِ وَلاَ تَوَعَّدَهُ ، وَانْ صَامَ النَّاسُ بِشَهَادَةِ اثْنَيْنِ : ثَلاثِيْنَ يَوْماً فَلَمْ يَرَوْا الهِلاَلَ أَفْطَرُوا لِقَوْلِ النَّبي صَلى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَمَ : « فَانْ غُمَّ عَلَيْكُمْ فَصُوْمُوا ثَلاَثِيْنَ ثُمَّ أَفْطِرُوا » .

وَإِذَا قَامَتْ البَيِّنَةُ أَثْنَاءَ النَّهَارِ لَزِمَ أَهْلَ وُجُوْبِ الصَّوْمِ الإِمْسَاكُ وَلَو بَعْدَ أَكْلِهِمْ لِتَعَذُّرِ امْسَاكِ الجَمِيْعِ فَوَجَبَ أَنْ يَأْتُوا بِمَا يَقْدِرُوْنَ عَلَيْهِ لِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فَاتَّقوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾ وَحَدِيْثِ : « إِذَا أَمَرْتُكُم بِأَمْرٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ » .

٥ ـ لَا يَصِحُّ صِيَامُ رَمَضَانَ إلا بِنِيَّةٍ مِنْ اللَّيْلِ :

وَلَا يَصِحُّ صَوْمَ رَمَضَانَ ، وَلَا غَيْرُهُ مِنْ الصِّيَامِ الوَاجِبِ إِلَّا بِنِيَّةٍ مِن اللَّيْلِ لِكُلِّ يَوْمٍ ، رَوَتْ حَفْصَةُ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا ـ عَنْ النَّبِيْ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : « مَنْ لَمْ يُبَيِّتْ الصِّيَامَ قَبْلَ الفَجْرِ فَلَا صِيَامَ لَهُ » .

وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا مَرْفُوْعاً : « مَنْ لَمْ يُبَيِّتْ الصِّيَامَ قَبْلَ طُلُوْعِ الفَجْرِ فَلا صِيَامَ لَهُ » .

وَمَنْ نَوَى الصَّوْمَ مِنْ اللَّيْلِ ثُمَّ أَتَى بَعْدَ النِّيَّةِ فِي اللَّيْلِ بِمَا يُبْطِلُ الصِّيَامَ كَالأَكْلِ لَمْ تَبْطُلْ النِّيَّةُ لِظَاهِرِ الخَبَرِ وَلأَنَّ اللهَ أَبَاحَ الأَكْلَ إلى آخِرِ اللَّيْـلِ فَلَوْ بَطَلَتْ بِهِ فَاتَ مَحَلُّهَا وَمَنْ خَطَرَ بِبَالِهِ أَنَّهُ صَائِمٌ غداً فَقَدْ نَوَى ، لأَنَّ النِّيَةَ مَحَلُّهَا القَلْبُ ، وَالأَكْلُ وَالشُّرْبُ بِنِيَّةِ الصَّوْمِ نِيَّةٌ قَالَ الشَّيْخُ تَقِيُّ الدِّيْنِ هُوَ حِيْنَ يَتَعَشَّى عَشَاءَ مَنْ يُرِيْدُ الصَّوْمَ ، وَلَوْ نَوَتْ حَائِضٌ أَوْ نُفَسَاءُ صَوْمَ غَدٍ وَقَدْ عَرَفَتْ أَنَّهَا تَطْهُرُ لَيْلاً صَحَّ لِمَشَقَّةِ المُقَارَنَةِ وَاللهُ أَعْلَمُ .

اللَّهُمَّ انْظُمْنَا في سِلْكِ الفَائِزِيْنَ بِرِضْوَانِكَ ، وَاجْعَلْنَا مِنْ المُتَّقِيْنَ الذِيْنَ أَعْدَدْتَ لَهُمْ فَسِيْحَ جِنَانِكَ ، وَأَدْخِلْنَا بِرَحْمَتِكَ في دَارِ أَمَانِكَ ، وَعَافِنَا يَا مَوْلَانَا في الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ مِنْ جَمِيْعِ البَلَايَا وَأَجْزِلْ لَنَا مِنْ مَوَاهِب

فَضْلِكَ وَهِبَاتِكَ وَمَتِّعْنَا بالنَّظَر إلى وَجْهِكَ الكَرِيْمِ مَعَ الذِيْنَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ مِنْ النَّبِيِّيْنَ وَالصِّدِّيْقِيْنَ وَالشُّهَدَاءِ والصَّالِحِيْنَ ، وَاغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَلِجَمِيْعِ المُسْلِمِيْنَ الأَحْيَاءِ مِنْهُمْ وَالمَيِّتِينَ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَم الرَّاحِمِيْنَ ، وَصَلى اللهُ عَلى مُحَمدٍ وَعَلى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

(فَصْـلٌ)

وَيَبْحَثُ في :

١ ـ حُكْمِ صَوْمِ التَّطَوّعِ بِنِيَّةٍ مِنْ النَّهَارِ .

٢ ـ فِيْمَنْ يُبَاحُ لَهُ الفِطْرُ وَمَنْ يَجِبُ عَلَيْهِ .

٣ ـ مَنْ عَرَضَ لَهُ جُنُوْنٌ أَوْ اغْمَاءٌ .

١ ـ حُكْمُ صَوْمِ التَّطَوّعِ بِنِيَّةٍ مِنْ النَّهَارِ :

وَيَصِحُّ صَوْمُ التَّطَوّعِ بِنِيَّةٍ مِنْ النَّهَارِ قَبْلَ الزَّوَالِ وَبَعْدَهُ لِمَا وَرَدَ عَنْ عَائِشَةَ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا ـ قَالَتْ : دَخَلَ عَلَيَّ رَسُوْلُ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَمَ ذَاتَ يَوْم فَقَالَ : « هَلْ عِنْدَكُمْ شَيءٌ فَقُلْنَا لاَ ، فَقَالَ : فَإِنِّي إِذَنْ صَائِمٌ » ، ثُمَّ أَتَانَا يَوْماً آخَرَ ، فَقُلْنَا يَا رَسُولَ اللهِ أُهْدِيَ لَنَا حَيْسٌ ، فَقَالَ : « أَرِنِيْهُ ، فَلَقَدْ أَصْبَحْتُ صَائِماً فَأَكَلَ » .

وَزَادَ النَّسَائِيْ ، ثُمَّ قَال : « إِنَّمَا مَثَلُ صَوْمِ التَّطَوّعِ ، مَثَلُ الرَّجُلِ يُخْرِجُ مِنْ مَالِهِ الصَّدَقَةَ ، فَإِنْ شَاءَ أَمْضَاهَا وَإِنْ شَاءَ حَبَسَها » ، وَمِنْ لَفْظٍ لَهُ أَيْضاً قَالَ : « يَا عَائِشَةُ ، إِنَّمَا مَنْزِلَةُ مَنْ صَامَ في غَيْرِ رَمَضَانَ أَوْ في التَّطَوّعِ بِمَنْزِلَةِ رَجُل أَخْرَجَ صَدَقَةَ مَالِهِ فَجَادَ مِنْهَا بِمَا شَاءَ فَأَمْضَاهُ ، وَبَخِلَ مِنْهَا بِمَا شَاءَ فَأَمْسَكَه » .

قَالَ البُخَارِيّ ، وَقَالَتْ أُمُّ الدَّرْدَاءِ : كَانَ أَبُو الدَّرْدَاءِ يَقُوْلُ : عِنْدَكُمْ طَعَامٌ ؟ فإنْ قُلْنَا : لَا ، قَالَ : فَإِنِّيْ صَائِمٌ يَوْمِيْ . قَالَ وَفَعَلَهُ أَبُو طَلْحَةَ وَأَبُو هُرَيْرَةَ ، وَابْنُ عَبَّاسٍ ، وَحُذَيْفَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ .

وَيُحْكَمُ بِالصَّوْمِ المُثَابُ عَلَيْهِ ، مِنْ وَقْتِ النِّيَّةِ ، لِحَدِيْثِ : « إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِىءٍ مَا نَوَى » ، وَمَا قَبْلَهُ لَمْ يُوْجَدْ فِيْهِ قَصْدُ القُرْبَةِ ، لَكِنْ يُشْتَرَطُ أَنْ لَا يُوْجَدَ مُنَافٍ غَيْرَ نِيَّةِ الافْطَارِ ، اقْتِصَاراً عَلى مُقْتَضَى الدَّلِيْلِ ، وَنَظَراً إلى أَنَّ الإِمْسَاكَ هُوَ المَقْصُودُ الأَعْظَمُ ، فَلَا يُعْفَى عَنْهُ أَصْلاً ، فإنْ فَعَلَ قَبْلَ النِّيةِ مَا يُفَطِّرُهُ لَمْ يَجُزْ الصِّيَامُ ، فَلَا يَصِحُّ صَوْمُ مَنْ أَكَلَ ثُمَّ نَوَى بَقِيَّةَ يَوْمِهِ لِعَدَمِ حُصُولِ حِكْمَةِ الصَّوْمِ ، وَيَصِحُّ تَطَوُّعُ حَائِضٍ وَنُفَسَاءَ طَهُرَتْ في يَوْمٍ بِصَوْمِ بَقِيَّتِهِ وَتَطَوُّعُ كَافِرٍ أَسْلَمَ في يَوْمٍ لَمْ يَأْتِيَا فِيْهِ بِمُفْسِدٍ مِنْ أَكْلٍ أَوْ شُرْبٍ وَنَحْوِهِمَا وإِنْ بَلَغَ صَبِيٌّ ، أَوْ أَسْلَمَ كَافِرٌ ، أَوْ أَفَاقَ مَجْنُونٌ في أَثْنَاءِ النَّهَارِ ، وَهُمْ مُفْطِرُوْنَ ، لَزِمَهُمْ الإِمْسَاكُ عَنْ مُفْسِدَاتِ الصَّوْمِ ، لِحُرْمَةِ الوَقْتِ وَلِزَوَالِ المُبِيْحِ ، وَانْ طَهُرَتْ حَائِضٌ أَوْ نُفَسَاءُ ، أَوْ قَدِمَ مُسَافِرٌ مُفْطِرٌ .

فَعَلَيْهِمْ الإِمْسَاكُ وَالقَضَاءُ وَلَا خِلَافَ في وُجُوْبِ القَضَاءِ عَلَيْهِمْ لِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ . . . فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيْضاً ، أَوْ عَلى سَفَرٍ ، فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرُ ﴾ .

وَلِقَوْلِ عَائِشَةَ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا ـ كُنَّا نَحِيْضُ عَلى عَهْدِ رَسُولِ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ فَنُؤْمَرُ بِقَضَاءِ الصَّوْمِ ، وَكَذَا الحُكْمُ في المَرِيْضِ إِذَا صَحَّ في أَثْنَاءِ النَّهَارِ ، وَكَانَ مُفْطِرَا .

وَيُسَنُّ الفِطْرُ لِمُسَافِرٍ يُبَاحُ لَهُ القَصْرُ ، وَلِمَرِيْضٍ ، لِقَوْلِهِ تَعَالَى :

﴿ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيْضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَر ﴾ وَلِحَدِيْثِ « لَيْسَ مِنَ البِرِّ الصِّيَامُ في السَّفَرِ » .

وَفي رِوَايَةٍ أُخْرَى ، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « . . . عَلَيْكُمْ بِرُخْصَةِ اللهِ التِيْ رَخَّصَ لَكُمْ فَاقْبَلُوْهَا » وَإِنْ صَامَ أَجْزَأَهُ .

وَلِحَدِيْثِ : « هِي رُخْصَةٌ مِنَ اللهِ فَمَنْ أَخَذَ بِهَا فَحَسَنٌ ، وَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يَصُوْمَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ » .

وَعَنْ حَمْزَةَ بْنِ عَمْرٍو الأَسْلَمِيْ أَنَّهُ قَالَ لِلنَّبِيِّ صَلّى اللّهُعَلَيْهِ وَسَلَّمَ : أَصُوْمُ في السَّفَرِ ؟ قَالَ : « انْ شِئْتَ فَصُمْ ، وَانْ شِئْتَ فَأَفْطِرْ » .

٢ ـ فِيْمَنْ يُبَاحُ لَهُ الفِطْرُ وَمَنْ يَجِبُ عَلَيْهِ :

وَيُبَاحُ الفِطْرُ ، لحاضِرٍ سافر في أَثْنَاءِ النَّهار . لِحَدِيْثِ أَبِي بَصْرَةَ الغِفَارِيْ : أَنَّهُ رَكِبَ في سَفِيْنَةٍ مِنَ الفِسْطَاطِ في شَهْرِ رَمَضَانَ ، فَدَفَعَ ، ثُمَّ قَرَّبَ غَدَاءَهُ ، فَلَمْ يُجَاوِزْ البُيُوتَ حَتَّى دَعَا بالسُّفْرَةِ ، ثُمَّ قَالَ : اقْتَرِبْ ! قِيْلَ : أَلَسْتَ تَرَى البُيُوتَ ؟ قَالَ أَتَرْغَبُ عَنْ سُنَّةِ مُحَمَّدٍ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؟ فَأَكَلَ .

وَانْ صَامَ أَجْزَأَهُ ، لِحَدِيْثِ : « هِيَ رُخْصَةٌ مِنَ اللهِ فَمَنْ أَخَذَ بِهَا فَحَسَنٌ وَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يَصُوْمَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ » .

وَيُبَاحُ الفِطْرُ لِحَامِلٍ ، وَمُرْضِعٍ ، إِذَا خَافَتَا على أَنْفُسِهِمَا ، فَيُفْطِرَانُ وَيَقْضِيَانِ كَالمَرِيْضِ الخَائِفْ عَلَى نَفْسِهِ ، وانْ خَافَتَا عَلَى وَلَدَيْهِمَا أَفْطَرَتَا وَقَضَتَا ، وَلَزِمَ وَلِيَّ الوَلَدِ اطْعَامُ مِسْكِيْنٍ لِكُلِّ يَوْمٍ لِقَوْلِهِ

تَعَالَى : ﴿ وَعَلى الذِيْنَ يُطِيْقُوْنَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِيْنٍ ﴾ .

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا : « كَانَتْ رُخْصَةً لِلشَّيْخِ الكَبِيْرِ وَالمَرْأَةِ وَهُمَا يُطِيْقَانِ الصِّيَامَ أَنْ يُفْطِرَا وَيُطْعِمَا مَكَانَ كُلِّ يَوْمٍ مِسْكِيْناً وَالحُبْلَى وَالمُرْضِعُ إِذَا خَافَتَا عَلى أَوْلَادِهِمَا أَفْطَرَتَا وَأَطْعَمَتَا » . رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ .

وَرُوِيَ ذَلِكَ عَنْ ابنُ عُمَرَ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا ـ وَلَا مُخَالِفَ لَهُمْ مِنْ الصَّحَابَةِ وَلَيْسَ لِمَنْ جَازَ لَهُ الفِطْرُ بِرَمَضَانَ أَنْ يَصُوْمَ غَيْرَهُ فِيْهِ لأَنَّهُ لَا يَسَعُ غَيْرَ مَا فُرِضَ فِيْهِ وَلَا يَصْلُحُ لِسِوَاهُ، وَيَجِبُ الفِطْرُ عَلى مَنْ احْتَاجَهُ لإِنْقَاذِ مَعْصُوْمٍ مِنْ مَهْلَكَةٍ. كَغَرَقٍ لأَنَّهُ يُمْكِنُهُ تَدَارُكَ الصَّوْمِ بِالقَضَاءِ بِخِلَافِ الغَرِيْقِ وَنَحْوِهِ ، وَيَجِبُ الفِطْرُ عَلى الحَائِضِ وَالنُّفَسَاءِ لِمَا وَرَدَ عَنْ أَبي سَعِيْدٍ الخُدْرِيْ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « أَلَيْسَ إِذَا حَاضَتْ لَمْ تُصَلِّ وَلَمْ تَصُمْ » مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ .

٣ ـ مَنْ عَرَضَ لَهُ جُنُوْنٌ أَوْ اغْمَاءٌ :

وَمَنْ نَوَى الصَّوْمَ ثُمَّ جُنَّ أَوْ أُغْمِيَ عَلَيْهِ جَمِيْعَ النَّهَارِ ، وَلَمْ يُفِقْ جُزْءاً مِنْهُ لَمْ يَصِحَّ صَوْمُهُ لأَنَّ الصَّوْمَ : الإِمْسَاكُ مَعَ النِّيَّةِ لِحَدِيْثِ أَبي هُرَيْرَةَ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ قَالَ : قَالَ رَسُوْلُ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ ، كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ لَهُ إِلَّا الصَّوْمَ فَإِنَّهُ لِيْ ، وَأَنَا أَجْزِي بِهِ يَدَعُ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ مِنْ أَجْلِيْ . . . » ، فَأَضَافَ التَّرْكَ إِلَيْهِ ، وَهُوَ لَا يُضَافُ إِلى المَجْنُونِ وَالمغْمَى عَلَيْهِ ، فَلَمْ يَجُزْ وَالنِّيَّةُ وَحْدَهَا لَا تُجْزِي ، وَيَصِحُّ الصَّوْمُ مِمَّنْ أَفَاقَ جُزْءاً مِنْهُ حَيْثُ نَوَى لَيْلاً لِصِحَّةِ إِضَافَةِ التَّرْكِ إِلَيْهِ إِذاً ، وَيُفَارِقُ الجُنُوْنُ الحَيْضَ بِأَنَّهُ لَا يَمْنَعُ الوُجُوْبَ بَلْ يَمْنَعُ

الصِّحَّةَ وَيَحْرُمُ فِعْلُهُ ، وَيَصِحُّ صَوْمُ مَنْ نَامَ جَمِيْعَ النَّهَارِ لأَنَّ النَّوْمَ عَادَةً لاَ يَزُولُ الإِحْسَاسُ بِهِ بالكُلِّيةِ لأَنَّه مَتَى نُبِّهَ انْتَبَهَ . وَيَقْضِيْ مُغْمَى عَلَيْهِ زَمَنَ إِغْمَائِهِ لأَنَّهُ مُكَلَّفٌ ، وَلأَنَّ مُدَّةَ الإِغْمَاءِ لاَ تَطُوْلُ غَالِباً ، وَلاَ تَثْبُتُ الوِلاَيَةُ عَلَيْهِ ، وَلاَ يَقْضِي مَجْنُونٌ زَمَنَ جُنُونِهِ لِعَدَمِ تَكْلِيْفِهِ .

مَـوْعِظَـةٌ

أَخْوَانِيْ إِنَّ الغَفْلَةَ عَنْ اللهِ مُصِيْبَةٌ عَظِيْمَةٌ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلاَ تَكُوْنُوْا كَالذِيْنَ نَسُوا اللهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ ﴾ فَمَنْ غَفَلَ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَأَلْهَتْهُ الدُّنْيَا عَنْ العَمَلِ لِلدَّارِ الآخِرَةِ أَنْسَاهُ العَمَلَ لِمَصَالِحِ نَفْسِهِ فَلاَ يَسْعَى لَهَا بِمَا فِيْهِ نَفْعُهَا وَلاَ يَأْخُذُ في أَسْبَابِ سَعَادَتِهَا وَاصْلاَحِهَا وَمَا يُكَمِّلُهَا وَيُنْسَى كَذَلِكَ أَمْرَاضَ نَفْسِهِ وَقَلْبِهِ وَآلاَمَهُ فَلاَ يَخْطُرُ بِبَالِهِ مُعَالَجَتُهَا وَلاَ السَّعْيُ في إِزَالَةِ عِلَلِهَا وَأَمْرَاضِهَا التي تَؤُلُ إلى الهَلاَكِ وَالدَّمَارِ وَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ العُقُوْبَاتِ فَأَيُّ عُقُوْبَةٍ أَعْظَمُ مِنْ عُقُوْبَةِ مَنْ أَهْمَلَ نَفْسَهُ وَضَيَّعَهَا وَنَسِيَ مَصَالِحَهَا وَدَاءَهَا وَدَوَاءَهَا وَأَسْبَابَ سَعَادَتِهَا وَفَلاَحِهَا وَحَيَاتِهَا الأَبَدِيَّةِ في النَّعِيْمِ المُقِيْمِ وَمَنْ تَأَمَّلَ هَذَا المَوْضِعَ تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّ كَثِيْراً مِنْ الخَلْقِ قَدْ نَسُوْا أَنْفُسَهُم وَضَيَّعُوهَا وَأَضَاعُوا حَظَّهَا وَبَاعُوْهَا بِثَمَنٍ بَخْسٍ بَيْعَ المَغْبُونِ وَيَظْهَرُ ذَلِكَ عِنْدَ المَوْتِ وَيَتَجَلَّى ذَلِكَ كُلُّهُ يَوْمَ التَّغَابُنِ « يَوْمَ لاَ يَنْفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُوْنَ » الآيةُ .

﴿ يَوْمَ لاَ يَنْفَعُ نَفْساً إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ في ايْمَانِهَا خَيْراً﴾ انَّهَا لَحَسْرَةٌ عَلى كُلِّ ذِي غَفْلَةٍ دُوْنَهَا كُلُّ حَسْرَةٍ ، هَؤُلاَءِ هُمْ الذِيْنَ اشْتَرَوا الضَّلاَلَةَ بِالهُدى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِيْنَ نَسْأَلُ اللهَ العَفْوَ وَالعَافِيَةَ في الدُّنْيَا وَالآخِرَةُ .

اللَّهُمَّ اعْطِنَا مِنْ الخَيْرِ فَوْقَ مَا نَرْجُوْ وَاصْرِفْ عَنَّا مِنْ السُّوْءِ فَوْقَ مَا نَحْذَرُ . اللَّهُمَّ عَلِّقْ قُلُوْبَنَا بِرَجَائِكَ وَاقْطَعْ رَجَاءَنَا عَمَّنْ سِوَاكَ . اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ عُيُوْبَنَا فَاسْتُرْهَا وَتَعْلَمَ حَاجَاتِنَا فَاقْضِهَا كَفَى بِكَ وَلِيًّا وَكَفَى بِكَ نَصِيْرًا يَا رَبَّ العَالَمِيْنَ اللَّهُمَّ وَفِّقْنَا لِسُلُوْكِ سَبِيْلِ عِبَادِكَ الأَخْيَارِ وَاغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَلِجَمِيْعِ المُسْلِمِيْنَ الأَحْيَاءِ مِنْهُم وَالمَيِّتِيْنَ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وَصَلَّى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

(فَصْــلٌ)

وَيَبْحَثُ في :

١ ـ ذِكْرِ أَشْيَاءَ تَحْرُمُ عَلى الصَّائِمِ وَيُفْطِرُ بِهَا .

٢ ـ حُكْمُ مَا إِذَا أَكَلَ أَوْ شَرِبَ نَاسِياً .

٣ ـ بَعْضُ فَوَائِدِ الصَّوْمِ .

١ ـ ذِكْرُ أَشْيَاءَ تَحْرُمُ عَلَى الصَّائِمِ وَيُفْطِرُ بِهَا :

يَحْرُمُ عَلى كُلِّ مُسْلِمٍ عَاقِلٍ تَنَاوُلُ مُفَطِّرٍ مِنْ غَيْرِ عُذْرٍ ، لِمَا وَرَدَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ : أَنَّ رَسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : « مَنْ أَفْطَرَ يَوْماً مِنْ رَمَضَانَ مِنْ غَيْرِ رُخْصَةٍ وَلاَ مَرَضٍ ، لَمْ يَقْضِهِ صَوْمُ الدَّهْرِ كُلِّهِ وَانْ صَامَهُ » .

وَعَنْ أَبِي أُمَامَةَ البَاهِلي ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ « بَيْنَمَا أَنَا نَائِمٌ أَتَانِيْ رَجُلاَنِ فَأَخَذَا بِضَبْعَيَّ فَأَتَيَا بِيْ جَبَلاً وَعْراً فَقَالاَ اصْعَدْ فَقُلْتُ إِنِّي لاَ أُطِيْقُهُ فَقَالاَ إِنَّا سَنُسَهِّلُهُ لَكَ فَصَعَدْتُ حَتَّى إِذَا كُنْتُ في سَرَاةِ الجَبَلِ اذا بِأَصْوَاتٍ شَدِيْدَةٍ قُلْتُ مَا هَذِهِ

الأَصْوَاتُ قَالاَ هَذَا عُوَاءُ أهل النَّارِ ثُمَّ انْطُلِقَ بي فَإِذَا أَنَا بِقَوْمٍ مُعَلَّقِيْنَ بِعَرَاقِيْبِهِمْ مُشَقَّقَةً أَشْدَاقُهُم تَسِيْلُ أَشْدَاقُهُم دَماً قالَ قلتُ مَنْ هَؤُلاءِ قَالَ الذِيْنَ يُفْطِرُونَ قَبْلَ تَحِلَّةِ صَوْمِهِمْ » الحَدِيْثِ رَوَاهُ ابنُ خُزَيْمَةَ وابْنُ حِبَّانَ في صَحِيْحِهِمَا .

وَمِمَّا يَحْرُمَ عَلى الصَّائِمِ الأَكْلُ وَالشُّرْبُ بَعَدَ تَبَيُّنِ الفَجْرِ الثَّانِي لِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ . . . حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمْ الخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنْ الخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنْ الفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إلى اللَّيْلِ ﴾ .

فَمَنْ أَكَلَ أَوْ شَرِبَ مُخْتَاراً ذَاكِراً لِصَوْمِهِ أَبْطَلَهُ ، لِأَنَّهُ فَعَلَ مَا يُنَافي الصَّوْمَ لِغَيْرِ عُذْرٍ .

٢ ـ حُكْمُ مَا إِذَا أَكَلَ أَوْ شَرِبَ نَاسِياً :

وَلاَ يُفْطِرُ مَنْ أَكَلَ أَوْ شَرِبَ نَاسِياً ، لِمَا وَرَدَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عَليهِ وَسَلَّمَ : « مَنْ نَسِيَ وَهُوَ صَائِمٌ فَأَكَلَ أَوْ شَرِبَ ، فَلْيُتِمَّ صَوْمَهُ ، فَانَّمَا أَطْعَمَهُ اللهُ وَسَقَاهُ » .

وَرَوَى الحَاكِمُ قَوْلَهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « مَنْ أَفْطَرَ في رَمَضَانَ نَاسِياً فَلاَ قَضَاءَ عَلَيْهِ وَلاَ كَفَّارَةَ ، وَمَنْ اسْتَقَاءَ فَسَدَ صَوْمُهُ ، وَعَلَيْهِ قَضَاءٌ » .

وَمَنْ ذَرَعَهُ القَيْءُ فَلاَ شَيْءَ عَلَيْهِ ، لِمَا وَرَدَ عَنْ أَبِيْ هُرَيْرَةَ ـرَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « مَنْ ذَرَعَهُ القَيْءُ فَلاَ قَضَاءَ عَلَيْهِ ، وَمَنْ اسْتَقَاءَ فَعَلَيْهِ القَضَاءُ » .

وَمِمَّا يُفَطِّرُ : الحِجَامَةُ ، لِمَا وَرَدَ عَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ ـ رَضِيَ اللهُ

عنْهُ ـ أَنَّ النَّبِي صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، أَتى عَلى رَجُلٍ بِالبَقِيْعِ وَهُوَ يَحْتَجِمُ في رَمَضَانَ ، فَقَالَ : أَفْطَرَ الحَاجِمُ والمَحْجُوْمُ » .

وَعَنْ رَافِعِ بْنِ خَدِيْجٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « أَفْطَرَ الحَاجِمُ وَالمَحْجُوْمُ » .

وَمِمَّا يَحْرُمُ عَلَى الصَّائِمِ ، وَيُبْطِلُ صِيَامَهُ الجِمَاعُ في نَهَارِ رَمَضَانَ ، وَعَلَيْهِ القَضَاءُ وَالكفَّارَةُ ، وَهِيَ عِتْقُ رَقَبَةٍ فإِنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَاطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِيْناً ، لِمَا وَرَدَ عَنْ أَبي هُرَيْرَةَ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ قَالَ : بَيْنَمَا نَحْنُ جُلُوْسٌ عِنْدَ النَّبي صَلى اللهُ عَليهِ وَسَلَمَ إِذْ جَاءَ رَجُلٌ فَقَالَ : « هَلَكْتُ يَا رَسُوْلَ اللهِ ، قَالَ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : وَمَا أَهْلَكَكَ ؟ قَالَ : وَقَعْتُ على امْرَأَتِيْ في رَمَضَانَ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هَلْ تَجِدُ مَا تُعْتِقُ رَقَبَةً ؟ قَالَ : لَا ، قَالَ : اجْلِسْ . وَمَكَثَ النَّبِي صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَبَيْنَمَا نَحْنُ عَلَى ذَلِكَ أَتى النَّبي صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِعَرَقٍ فِيْهِ تَمْرٌ ، والعِرَقُ المِكْتَلُ الضَّخْمُ ، قَالَ : أَيْنَ السَّائِلَ ؟ قَالَ أَنا قَالَ : خُذْ هَذَا فَتَصَدَّقْ بِهِ ، فَقَالَ الرَّجُلُ : أَعَلَى أَفقَرَ مِنِّي يَا رَسُولَ اللهِ ، فَوَاللهِ مَا بَيْنَ لَا بَتَيْهَا ـ يُرِيْدُ الحَرَّتَيْنِ ـ أَهْلُ بَيْتٍ أَفْقَرُ مِنْ أَهْلِ بَيْتِيْ ؟ فَضَحِكَ النَّبِي صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهْ ، ثُمَ قَالَ « أَطعِمْهُ أَهْلَكَ » مُتفقٌ عَلَيْهِ .

وَتَحْرُمُ المبَاشَرَةُ فِيْمَا دُوْنَ الفَرْجِ إِنْ ظَنَّ إِنْزَالَا ، فَإِنْ بَاشَرَ فِيْمَا دُوْنَ الفَرْجِ ، فَأَنْزَلَ مَنِيًّا فَسَدَ صَوْمُهُ ، لِأَنَّهُ إِنْزَالٌ عن مُبَاشَرَةٍ ، فَأَشْبَهَ الجِمَاعَ .

وَمِمَّا يُفَطِّرُ : (الرِّدَّةُ عَنْ الإِسْلَامِ ـ أَعَاذَنَا اللهُ مِنْهَا) قَالَ اللهُ

تَعَالَى : ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ، وَلَتَكُوْنَنَّ مِنْ الخَاسِرِيْنَ ﴾ الزُّمَر ٦٥ .

وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالإِيْمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنْ الخَاسِرِيْنَ ﴾ المائِدَة ٥ .

وَمِمَّا يُفَطِّرُ : إِيْصَالُ الأَغْذِيَةِ بالابْرَةِ إلى الجَوْفِ مِنْ طَعَامٍ أَوْ شَرَابٍ لأَنَّهُ في مَعْنَى الأَكْلِ وَالشُّرْبِ مِنْ غَيْرِ فَرْقٍ وَأَمَّا الحُبُوبُ الغِذَائِيَّةِ وَالدَّوَائِيَّةِ وَالمُشْتَرَكَةِ فَيُفْطِرُ مَنْ أَكَلَهَا .

مَـوْعِظَـةٌ

عِبَادَ اللهِ إِنَّ قَوَارِعَ الأَيَّامِ خَاطِبَةٌ ، فَهَلْ أُذُنٌ لِعِظَاتِهَا وَاعِيَةٌ ، وَإِنَّ فَجَائِعَ المَوْتِ صَائِبَةٌ فَهَلْ نَفْسٌ لأَمْرِ الآخِرَةِ مُرَاعِيَةٌ ، إِنَّ مَطَالِعَ الآمَالِ إلى المُسَارَعَةِ إلى الخَيْرَاتِ سَاعِيَةٌ أَلاَ فَانْظُرُوا بِثَوَاقِبِ الأَبْصَارِ وَالبَصَائِرِ في نَوَاحِيْ الجِهَاتِ وَالاقْطَارِ فَمَا تَرَوْنَ في حُشُوْدِكُمْ وَجُمُوعِكُمْ إلا الشَّتَاتَ وَلاَ تَسْمَعُوا في رُبُوْعِكُم إِلاَّ فُلاَنٌ مَرِيْضٌ وَفُلاَنٌ مَاتَ أَيْنَ الآبَاءُ الأَكَابِرُ أَيْنَ العُلَمَاءُ العَامِلُونَ بِعِلْمِهِمْ الَذِيْنَ لا تَأْخُذُهُمْ في اللهِ لَوْمَةُ لاَئِمٍ المُنَاصِحُوْنَ لِوُلاَتِهِمْ وَأَمَّتِهِم الزَّاهِدُونَ في حُطَامِ الدُّنْيَا الفَانِيَةِ أَيْنَ الكُرَمَاءُ الأَفَاضِلُ الذِيْنَ يَغَارُونَ إِذَا انْتُهِكَتْ المَحَارِمُ أَيْنَ الهَاجِرُونَ المُصَارِمُونَ لِلفَاسِقِ وَالفَاجِرِ أَيْنَ المُنَاصِرُونَ لِلْقَائِمِ عَلى أَهْلِ المَعَاصِيْ وَالكَبَائِرِ أَيْنَ أَهْلُ الوَلاَءِ وَالبَرَاءِ المُحِبُّونَ في اللَّهِ المُبْغِضُونَ لأَعْدَائِهِ .

أَيْنَ المُنَقُّوْنَ لِمآكِلِهِمْ وَمَلاَبِسِهِمْ وَمَسَاكِنِهِمْ عَنْ الحَرَامِ وَالمُشْتَبِهِ وَهُوَ مَا كَانَ القَلْبُ في الاقْدَامِ عَلَيْهِ وَالكَفِّ عَنْهُ حَائِرٌ .

أَيْنَ الذِيْنَ لاَ يَسْكُنُونَ إلا بِرِضَا صَاحِبِ المُلْكِ خَوْفاً مِن المُخَاطَرَةِ

في صَلاَتِهِمْ وَصِيَامِهِمْ وَنِكَاحِهِمْ وَمُكْثِهِمْ في الاَمْلاَكِ المَسْكُوْنَةِ قَهْراً وَغَصْباً .

أَيْنَ المُتَفَقِّدُونَ لِلْفُقَرَاءِ وَالمَسَاكِيْنِ الذِينَ لَيْسَ لَهُم مَوَارِدٌ .

عَثَرَتْ وَاللهِ بِهِمْ العَوَائِرُ وَأَبَادَتْهم السِّنِيْنُ الغَوَابِرُ وَبَتَرَتْ أَعْمَارُهُم الحَادِثَاتُ البَوَاتِرُ وَاخْتَطَفَهَمُ عَقَبَاتٌ كَوَاسِر . وَخَلَتْ مِنْهُمْ المشَاهِدُ وَالمَحَاضِرُ وَعُدِمَتْ مِنْ أَجَسَادِهِمْ تِلْكَ الجَوَاهِرُ وَطَفِئَتْ مِنْ وُجُوهِهِمْ الأَنْوَارُ الزَّوَاهِرُ وَابْتَلَعَتْهُمْ الحُفَرُ والمَقَابِرُ إلى يَومِ تُبْلى السَّرَائِرُ فَلَوْ كُشِفَتْ عَنْهُمْ أَغْطِيَةُ القُبُوْرِ بَعْدَ لَيْلَتَيْنِ أَوْ ثَلاَثِ لَيَالٍ لَرَأَيْتَ الأَحْدَاقَ عَلى الخُدُوْدِ سَائِلَةً وَالأَوْصَال بَعْضُهَا عَنْ بَعْضٍ مَائِلَةً وَدِيْدَانَ الأَرْضِ في نَوَاعِمِ تِلْكَ الأَبْدَانِ جَائِلَةً والرُّؤُسَ المُوَسَّدَةُ عَلَى الايْمَانِ زَائِلَةً يُنْكِرُهَا مَنْ كَانَ عَارِفاً بِهَا وَيَنْفُرُ عَنْهَا مَنْ لَمْ يَزَلْ آلِفاً بِهَا .

فَلاَ يُعْرَفُ السَّيدُ مِنْ المَسُوْدِ وَلاَ المَلِكُ مِنْ المَمْلُوكِ وَلاَ الذَّكِيُّ مِنْ البَلِيْدِ وَلاَ الغَنيُّ مِنْ الفَقِيْرِ فَرَحِمَ اللهُ عَبْداً بَادَرَ بالاقْلاَعِ عَنْ السَّيِّئَاتِ وَوَاصَلَ الإِسْرَاعَ وَالمبَادَرَةَ في الأَعْمَالِ الصَّالِحَاتِ قَبْلَ انْقِطَاعِ مُدَدِ الأَوْقَاتِ وَطَيِّ صَحَائِفِ المُسْتَوْدَعَاتِ وَنَشْرِ فَضَائِحِ الاقْتِرَافَاتِ وَالجِنَايَاتِ فَلاَ تَغْتَرُّوا بِحَيَاةٍ تَقُوْدُ إلى المَمَاتِ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّمَا تُوْعَدُوْنَ لآتٍ فَالبِدَارَ البِدَارَ قَبْلَ أَنْ تَتَمَنَّوا المُهْلَةَ وَهَيْهَاتَ .

شِـعْراً :

نَمْضِيْ عَلى سُبُلٍ كَانُوا لَهَا سَلَكُوا
أَسْلاَفُنَا وَهُمْ لِلدِّيْنِ قَدْ شَادُوْا

لَنا بِهِمْ أُسْوَةٌ إِذْ هُم أَئِمَّتُنَا
وَنَحْنُ لِلْقَوْمِ أَبْنَاءٌ وَأَحْفَادُ
وَالصَّبْرُ يَا نَفْسُ خَيْرٌ كُلُّهُ وَلَهُ
عَوَاقِبٌ كُلُّهَا نُجْحٌ وَإِمْدَادُ
فَاصْبِرْ هُدِيْتَ فَانَّ المَوْتَ مُشْتَرَكٌ
بَيْنَ الأَنَامِ وانْ طَاوَلْنَ آمَادُ
والنَّاسُ في غَفَلَاتٍ عَنْ مَصَارِعِهِمْ
كَأَنَّهُمْ وَهُمْ الأَيْقَاظُ رُقَّادُ
دُنْيَاً تَغُرُّ وَعَيْشٌ كُلُّهُ كَدَرٌ
لَوْلَا النُّفُوسُ الَّتِي لِلْوَهْمِ تَنْقَادُ
كُنَّا عَدَدْنَا لِهَذَا المَوْتِ عُدَّتَهُ
قَبْلَ الوَفَاةِ وَأَنْ تُحْفَرْنَ أَلْحَادُ
فَالدَّارُ مِنْ بَعْدِ هَذِي الدَّارِ آخِرَةٌ
تَبْقَى دَوَاماً بِهَا حَشْرٌ وَمِيْعَادُ
وَجَنَّةٌ أُزْلِفَتْ لِلْمُتَّقِيْنَ وَأَهْـ
ـلُ الحَقِّ وَالصَّبْرِ أَبْدَالٌ وَأَوْتَادُ
فَاعْمَلْ لِنَفْسِكَ مِنْ قَبْلِ المَمَاتِ وَلَا
تَعْجَلْ وَتَكْسَلْ فَإِنَّ المَرْءَ جَهَّادُ
لَا يَنْفَعُ العَبْدَ إلا مَا يُقَدِّمُهُ
فَبَادِرِ الفَوْتَ وَاصْطَدْ قَبْلَ تُصْطَادُ
وَالمَوْتُ لِلْمُؤْمِنِ الأَوَّابِ تُحْفَتُهُ
وَفِيْهِ كُلُّ الذِيْ يَبْغِيْ وَيَرْتَادُ

لِقَا الكَرِيْمِ تَعَالَى مَجْدُهُ وَسَمَا
مَعَ النَّعِيْمِ الذِيْ مَا فِيْهِ أَنْكَادُ
فَضْلٌ مِنَ اللهِ إِحْسَانٌ وَمَرْحَمَةٌ
فَالفَضْلُ لِلَّهِ كَالآزَالِ آبَادُ
فَالظَّنُ بِاللهِ مَوْلاَنَا وَسَيِّدِنَا
ظَنٌ جَمِيْلٌ مَعَ الأَنْفَاسِ يَزْدَادُ
نَرْجُوْهُ يَرْحَمُنَا نَرْجُوْهُ يَسْتُرُنَا
فَمِنْهُ لِلْكُلِّ إِمْدَادٌ وَإِيْجَادُ
نَدْعُوْهُ نَسْأَلُهُ عَفْواً وَمَغْفِرَةً
مَعْ حُسْنِ خَاتِمَةٍ فَالعُمْرُ نَفَّادُ
وَقَدْ رَضِيْنَا قَضَاءَ اللهِ كيفَ قَضَا
وَاللُّطْفَ نَرْجُو وَحُسْنُ الصَّبْرِ إِرْشَادُ

اللَّهُمَّ وَفِّقْنَا لِسُلُوْكِ مَنَاهِجِ المُتَّقِيْنَ ، وَخُصَّنَا بِالتَّوْفِيْقِ المُبِيْنِ ، وَاجْعَلْنَا بِفَضْلِكَ مِنْ المقَرَّبِيْنَ الذِيْنَ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُوْنَ ، وَاغفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَلِجَمِيْعِ المُسْلِمِيْنَ الأَحْيَاءِ مِنْهُمْ وَالمَيِّتِيْنَ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وَصَلَّى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

٣ ـ بَعْضُ فَوَائِدِ الصِّيَامِ :

عِبَادَ اللهِ إِنَّ لِشَهْرِ رَمَضَانَ شَرَّفَهُ اللهُ فَوَائِدُ عَظِيْمَةٌ وَمَنَافِعُ جَمَّةٌ وَآثَارٌ حَسَنَةٌ فَهُوَ يَضْبِطُ النَّفْسَ وَيُطْفِيءُ شَهْوَتَهَا فَانَّهَا إِذَا شَبِعَتْ تَمَرَّدَتْ فِي الغَالِبِ وَسَعَتْ فِي شَهَوَاتِهَا ، وإِذَا جَاعَتْ سَكَنَتْ وَخَضَعَتْ وَامْتَنَعَتْ عَنْ مَا تَهْوَى ، فَفِي حَدِيْثِ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُوْدٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ

صَلى اللهُ عَليهِ وَسَلمَ : « يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ مَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ البَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ فَانَّهُ لَهُ وِجَاءٌ » مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ .

ذَلِكَ أنه يكسر مِنْ شَهْوَةِ الشَّبَابِ حَتَّى لَا تَطْغَى عَلَيْهِ الشَّهْوَةُ ، فَكَانَ الصَّوْمُ وَسِيْلَةً إلى كَفِّ النَّفْسِ عَنْ المَعَاصِيْ ، فَسُبْحَانَهُ مِنْ إلَهٍ حَكِيْمٍ عَلِيْمٍ ، فَالصِّيَامُ يُرَبِّي في الإِنْسَانِ الفَضَائِلَ وَالإِخْلَاصَ والأَمَانَةَ وَالصَّبْرَ عِنْدَ الشَّدَائِدَ ، لِأَنَّهَا إِذَا انْقَادَتْ لِلامْتِنَاعِ عَنْ الحَلَالِ مِنْ الغِذَاءِ الذِي لَا غِنَى لَهَا عَنْهُ طَلَباً لِمَرْضَاةِ اللهِ تَعَالَى وَخَوْفاً مِنْ أَلِيْمِ عِقَابِهِ .

فَالأَحْرَى بِهَا أَنْ تَتَمَرَّنَ عَلى الامْتِنَاعِ عَنْ الحَرَامِ الذي هِيَ غَنِيَّةٌ عَنْهُ وَتُبْعِدَ عَنْهُ كُلَّ البُعْدِ فَلَا يَغْدُرُ وَلَا يَخُوْنُ وَلَا يُخْلِفُ وَعْداً وَلَا يَكْذِبَ وَلَا يُرَائِي .

فَاذَا وَفَّقَهُ اللهُ لِصَوْنِ صِيَامِهِ عَنْ المُفْسِدَاتِ وَالمُنَقِّصَاتِ فَالصَّوْمُ لِمَنْ وَفَّقَهُ اللهُ سَبَبٌ في اتِّقَاءِ المَحَارِمِ وَقُوَّةِ العَزِيْمَةِ وَالتَّحلي بالفَضَائِلِ وَالتَّخَلِّيْ عَنْ الرَّذَائِلِ ، وَالى هَذا أَشَارَ جَلَّ وَعَلَا بِقَوْلِهِ : ﴿ لَعَلَكُم تَتَّقُونَ ﴾ فَالصَّوْمُ يَدْعُو إلى شُكْرِ نِعَمَةِ اللهِ ، إِذْ هُوَ كَفُّ النَّفْسِ عَنْ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ ومُبَاشَرَةِ النِّسَاءِ ، وَكُلَّ هَذا مِنْ جَلَائِلِ نِعَمِ اللهِ عَلى خَلْقِهِ .

وَالامْتِنَاعِ عَنْ هَذِهِ النِّعَمِ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ إِلَى آخِرِهِ يُعَرِّفُ الإِنْسَانَ قَدْرَهَا ، إِذْ لَا يُعْرَفُ فَضْلُ النِّعْمَةِ إِلَّا بَعْدَ فَقْدِهَا فَيَبْعَثُه ذَلِكَ عَلى القِيَامِ بِشُكْرِهَا وَشُكْرُ النِّعْمَةِ وَاجِبٌ عَلى العِبَادِ ، والى هَذا أَشَارَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَلِتُكْمِلُوا العِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللهَ عَلى مَا هَدَاكُم

وَلَعَلَّكُم تَشْكُرُونَ ﴾ .

وَأَيْضاً فَالصِّيَامُ يَبْعَثُ في الإِنْسَانِ فَضِيْلَةَ الرَّحْمَةِ بالفُقَرَاءِ وَالعَطْفِ عَلى البَائِسِيْنَ ، فَإِنَّ الإِنْسَانَ إِذا ذاقَ أَلَمَ الجُوْعِ في بَعْضِ الأَوْقَاتِ تَذَكَّرَ الفَقِيْرَ الجَائِعَ في جَمِيْعِ الأَوْقَاتِ فَيُسَارِعُ إِلى رَحْمَتِهِ وَالإِحْسَانِ إِلَيْهِ . قِيْلَ لِيُوْسُفَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ ، وَكَانَ كَثِيرَ الجُوْعِ : لِمَ تَجُوعُ وَأَنْتَ عَلى خَزَائِنِ الأَرْضِ ؟ فَقَالَ : انِّيْ أَخَافُ أَنْ أَشْبَعَ فَأَنْسَى الجَائِعَ .

وَمِنْ فَوَائِدِ الصِّيَامِ مَا ذُكِرَ مِنْ أَنَّهُ يُنَقِّي الجِسْمَ مِنَ الفَضَلاتِ الرَّدِيْئَةِ وَرُطُوْبَاتِ الأَمْعَاءِ ، وَيَشْفِي كَثِيْراً مِنَ الأَمْرَاضِ بإِذْنِ اللهِ تَعَالَى ، وَفِيْهِ مِنَ المَزَايَا الصِّحِيَّةِ مَا شَهِدَ بِهِ العَدُوُّ قَبْلَ الصَّدِيْقِ ، فَسُبْحَانَهُ مِنْ إِلَهٍ عَلِيْمٍ حَكِيْمٍ .

وَمِنْ فَوَائِدِ الصِّيَامِ أَنَّهُ يُقَوِّي النَّفْسَ عَلى البِرِ وَالحِلْمِ وَهُمَا تَجَنُّبُ كُلِّ مَا مِنْ شَأْنِهِ اثَارَةُ الغَضَبِ لأَنَّ الصَّوْمَ نِصْفُ الصَّبْرِ ، وَالصَّبْرُ نِصْفُ الإِيْمَانِ كَمَا قَالَ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَلِمَا رَوَى النَّسَائِيْ عَنْ مُعَاذِ ابْنِ جَبَلَ في حَدِيْثِهِ الطَّوِيْلِ : أَنَّ النبي صَلى اللهُ عليهِ وَسَلم قَالَ لَهُ : (أَلاَ أَدلُكَ عَلى أَبْوَابِ الخَيْرِ ؟ قُلتُ : بَلى يَا رَسُولَ اللهِ ، قَالَ : الصَّوْمُ جُنَّةٌ فالصَّوْمُ جُنَّةٌ مِنَ العَذَابِ وَمِنَ الاخْلاَقِ السَّيِّئَةِ) .

وَمَنْ يُلاَحِظْ حَالَ الصَّائِمِيْنَ المُوَفَّقِيْنَ لِمَا هُمْ عَلَيْهِ مِنْ تَحَرِّيْ الطَّاعَةِ وَتَحرِّي سُبُلَ الخَيْرَاتِ وَالابْتِعَادِ عَنِ المَعَاصِيْ وَالرَّغْبَةِ في الاحْسَانِ يُدْرِكُ أَنَّ الصَّوْمَ مِنْ أَعْظَمِ أَسْبَابِ الهِدَايَةِ ، وَيُدْرِكُ مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُم تَعْلَمُوْنَ ﴾ وَيُدْرِكُ مَعْنَى قَوْلِهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « الصَّوْمُ جُنَّةٌ » وَيُدْرِكُ مَا فِيْهِ مِنْ تَهْذِيْبِ النَّفْسِ

وَتَطْهِيرِهَا مِنْ الأَخْلاَقِ المَوْبُوْءَةِ وَتَـرْوِيْضِهَا عَلى الـطَّاعَاتِ وإِعْـدَادِهَا لِلسَّعَادَتَيْنِ الدُّنْيَوِيَّةِ وَالأُخْرَوِيَّةِ ، وَحَسْبُكَ » في فَضْلِ الصِّيَامِ قَوْلُهُ صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « وَالذِيْ نَفْسِيْ بِيَدِهِ لَخَلوْفُ فَمِ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللهِ مِنْ رِيْحِ المِسْكِ » .

يَقُوْلُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ يَذَرُ شَهوَتَهُ وَطَعَامَهُ وَشَرَابَهُ لِأَجْلِيْ فَالصَّوْمُ لِيْ وَأَنَا أَجْزِيْ بِهِ ، قَالَ ابْنُ القَيمِّ رَحِمَهُ اللهُ وَقَدْ اخْتُلِفَ في وُجُوْدِ هَذِهِ الرَّائِحَةِ مِنْ الصَّائِمِ هَلْ هِيَ في الدُّنْيَا أَو في الآخِرَةِ عَلَى قَوْلَيْنِ وَفَصْلُ النِّزَاعِ في المَسْأَلَةِ أَنْ يُقَالَ حَيْثُ أَخْبَرَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِأَنَّ ذَلِكَ الطِّيْبَ يَكُوْنُ يَوْمَ القِيَامَةِ فلأَنَّهُ الوَقْتُ الذي يَظْهَرُ فِيْهِ ثَوَابُ الأَعْمَالِ وَمُوْجِبَاتُهَا مِنْ الخَيْرِ وَالشَّرِّ فَيَظْهَرُ لِلْخَلْقِ طِيْبُ ذَلِكَ الخُلُوفُ عَلى المِسْكِ كَمَا يَظْهَرُ فِيهِ دَمُ المَكْلُومِ في سَبِيْلِهِ كَرَائِحَةِ المِسْكِ وَكَمَا تَظْهَرُ في السَّرَائِرِ وَتَبْدُو عَلَى الوُجُوهِ وَتَصِيْرُ عَلاَنِيَةً وَيَظْهَرُ فِيْهِ قُبْحُ رَائِحَةِ الكفَّارِ وَسَوَادُ وُجُوْهِهِمْ وَحَيْثُ أَخْبَرَ بِأَنَّ ذَلِكَ حِيْنَ يَخْلُفُ وَحِيْنَ يُمْسُونَ فَلأَنَّهُ وَقْتُ ظُهُورِ أَثَرِ العِبَادَةِ وَيَكُوْنَ حِيْنَئِذٍ طِيْبُهَا عَلى رِيْحِ المِسْكِ عِنْدَ اللهِ تَعَالَى وَعِنْدَ مَلاَئِكَتِهِ وَانْ كَانَتْ تِلْكَ الرَّائِحَةُ كَرِيْهَةً لِلْعِبَادِ .

فَرُبَّ مَكْرُوْهٍ عِنْدَ النَّاسِ مَحْبُوبٌ عِنْدَ اللهِ تَعَالَى وَبِالعَكْسِ فَإِنَّ النَّاسَ يَكْرَهُوْنَهُ لِمُنَافَرَتِهِ لِطِبَاعِهِمْ واللَّهُ تَعَالَى يَسْتَطِيْبُهُ وَيُحِبُّهُ لِمُوَافَقَتِهِ لِأَمْرِهِ وَرِضَاهُ وَمَحَبَّتِهِ فَيَكُوْنُ عِنْدَهُ أَطْيَبُ مِنْ رِيْحِ المِسْكِ عِنْدَنَا فَإِذَا كَانَ يَوْمُ القِيَامَةِ ظَهَرَ هَذا الطِّيْبُ لِلْعِبَادِ وَصَارَ عَلاَنِيَةً .

وَهَكَذَا سَائِرُ آثَارِ الأَعْمَالِ مِنْ الخَيْرِ وَالشَّرِّ وإِنَّمَا يَكْمُلُ ظُهُوْرُهَا وَيَصِيْرُ عَلاَنِيَةً في الآخِرَةِ .

اللَّهُمَّ يَا مَنْ خَلَقَ الإِنْسَان في أَحْسَنِ تَقْوِيْمٍ وَبِقُدْرَتِهِ التيْ لاَ يُعْجِزُهَا شَيءٌ يُحْيِي العِظَامَ وَهِيَ رَمِيْمٌ . نَسْأَلُكَ أَنْ تَهْدِيْنَا إِلى صِرَاطِكَ المُسْتَقِيْم صِرَاطَ الذِيْنَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّيْنَ وَالصِّدِيْقِيْنَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِيْنَ وَأَنْ تَغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَلِجَمِيْعِ المُسْلِمِيْنَ الأَحْيَاءِ مِنْهُمْ وَالمَيِّتِيْنَ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وَصَلَّى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

(فَصْلٌ)

وَيَبْحَثُ فِيْ

١ ـ ذِكْرِ أَشْيَاءَ تَخْفَى عَلى بَعْضِ النَّاسِ .

٢ ـ ذِكْرِ أَشْيَاءَ تَحْرُمُ وَيَتَأَكَّدُ تَحْرِيْمُهَا فِي حَقِّ الصَّائِمِ .

٣ ـ الحَثُّ عَلى صِيَانَةِ الوَقْتِ وَصَرْفِهِ فِيْمَا فِيْهِ النَّفْعُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ .

٤ ـ فِيْمَا يُسْتَحَبُّ لِلصَّائِمِ أَنْ يَقُوْلَهُ أَوْ يَفْعَلَهُ .

٥ ـ أَحْكَامُ القَضَاءِ .

١ ـ ذِكْرُ أَشْيَاءَ تَخْفَى عَلَى بَعْضِ النَّاسِ :

يَجُوزُ لِمَنْ جَامَعَ بِاللَّيْلِ أَنْ لاَ يَغْتَسِلَ حَتَّى يَطْلَعَ الفَجْرِ ، وَصَوْمُهُ صَحِيْحٌ ، لِمَا وَرَدَ عَنْ عَائِشَةَ ـ رَضِيَ اللهُ عَنها ـ أَنَّ رَجُلاً قَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ ، تُدْرِكُنِيْ الصَّلاَةِ وَأَنَا جُنُبٌ أَفَأَصُوْمُ ؟ فَقَالَ رَسولُ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « وَأَنَا تُدْرِكُنِي الصَّلاَةُ وَأَنَا جُنُبٌ فَأَصُوْمُ » فقالَ : لَسْتَ مِثْلَنَا يَا رَسُولَ اللهِ ، قَدْ غَفَرَ اللهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ، فَقَالَ : « وَاللهِ ، إِنِّي لأَرْجُوْ أَنْ أَكُوْنَ أَخْشَاكُمْ لِلهِ وَأَعْلَمَكُمْ بِمَا أَتَّقِي » .

وَعَنْ عَائِشَةَ ، وَأُمِّ سَلَمَةَ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا ـ أَنَّ النَّبِيَ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ « كَانَ يُصْبِحُ جُنُباً مِنْ جِمَاعٍ غَيْرَ احْتِلَامٍ ، ثُمَّ يَصُوْمُ في رَمَضَانَ » .

وَعَنْ أُمِّ سَلَمَةَ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا ـ قَالَتَ : كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عَليهِ وَسَلم يُصْبِحُ جُنُبًا مِنْ جِمَاعٍ لَا حُلُمٍ ، ثُمَّ لَا يُفْطِرُ وَلَا يَقْضِي .

لَكِنْ يُسْتَحَبُّ لِمَنْ لَزِمَهُ الغُسْلُ لَيْلًا مِنْ جُنُبٍ وَحَائِضٍ ونُفَسَاءَ انْقَطَعَ دَمُهَا ، وَكَافِرٍ أَسْلَمَ ، أَنْ يَغْتَسِلَ قَبْلَ طُلُوعِ الفَجْرِ الثَّانِيْ .

وَلَوْ أَرَادَ أَنْ يَأْكُلَ أَوْ يَشْرَبَ مَنْ وَجَبَ عَلَيْهِ الصَّوْمُ في نَهَارِ رَمَضَانَ نَاسِياً أَوْ جَاهِلًا وَجَبَ عَلى مَن رَآهُ اعْلَامُهُ . لِأَنَّه مِنْ بَابِ الأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنْ المُنْكَرِ وَمِنْ بَابِ النَّصِيْحَةِ لِلْمُسْلِمِ .

وَمَنْ أَكَلَ شَاكًّا في طُلُوعِ الفَجْرِ ، وَدَامَ شَكُّهُ ، فَلَا قَضَاءَ عَلَيْهِ لِظَاهِرِ الآيَةِ ، وَانْ أَفْطَرَ يَظُنُّ أَنَّ الشَّمْسَ قَدْ غَابَتْ ، وَلَمْ تَغِبْ فَعَلَيْهِ القَضَاءُ ، لِمَا رَوَى هِشَام عَنْ عُرْوَةَ عَن فَاطِمَةَ امْرَأَتُهُ عَنْ أَسْمَاءَ ـ رَضِى اللهُ عَنهَا ـ قَالَتْ : « أَفْطَرْنَا على عَهْدِ رَسُولِ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيهِ وَسَلم في يَوْمِ غَيْمٍ ، ثُمَّ طَلَعَتْ الشَّمْسُ » قِيْلَ لِهِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ ـ وَهُوَ رَاوِي الحَدِيْثِ ـ أُمِرُوا بِالقَضَاءِ ؟ قَالَ : لَا بُدَّ مِن قَضَاءٍ .

وَلَا يَفْسُدُ صَوْمُ مَنْ طَارَ الى حَلْقِهِ ذُبَابٌ ، أَوْ غُبَارٌ مِنْ طَرِيْقٍ ، أَوْ دَقِيْقٍ أَوْ دُخَانٍ ، لِعَدَمِ إِمْكَانِ التَّحَرُّزِ مِنْهُ وَأَمَّا الدُّخَانُ الذي بُلِيَ بِهِ كَثِيْرٌ مِنْ النَّاسِ فَمُحَرَّمٌ وَيُفْطِرُ مَنْ شَرِبَهُ .

وَلاَ يُفْطِرُ انْ فَكَّرَ فَأَنْزَلَ ، لِقَوْلِهِ صَلى اللهُ عَلِيه وَسَلم : « عُفِى لِأُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا مَا لَمْ تَعْمَلْ بِهِ أَوْ تَتَكَلَّمْ » .

وَلاَ يُفْطِرُ إِنْ احْتَلَمَ ، لِإِنَّ ذَلِكَ لَيْسَ بِسَبَبٍ مِنْ جِهَتِهِ .

وَمَنْ اغْتَسَلَ ، أَوْ تَمَضْمَضَ ، أَوْ اسْتَنْشَقَ فَدَخَلَ المَاءُ إِلى حَلْقِهِ بِلاَ قَصْدٍ ، لَمْ يفْسُدْ صَوْمِهِ ، لِمَا وَرَدَ مِنْ أَنَّ عَائِشَةَ ، وَأُمِّ سَلَمَةٍ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا ـ قَالَتَا : « نَشْهَدُ عَلَى رَسُولِ اللهِ صَلى اللهُ عَليهِ وَسَلَّمَ إِنْ كَانَ لَيُصْبِحُ جُنُباً مِنْ غَيْرِ احْتِلاَمٍ ، ثُمَّ يَغْتَسِلُ » .

وَتُكْرَهُ المُبَالَغَةُ فِي المَضْمَضَةِ وَالاسْتِنْشَاقِ لِلصَّائِمِ ، لِمَا وَرَدَ عَنْ لَقِيْطِ بْنِ صَبُرَةَ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ قَالَ : قَالَ رَسُولَ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلم : « أَسْبِغْ الوُضُوءَ ، وَخَلِّلْ بَيْنَ الأَصَابِعْ ، وَبَالِغْ في الاسْتِنْشَاقِ إلا أَنْ تَكُونَ صَائِماً » .

٢ ـ ذِكْرُ أَشْيَاءَ تَحْرُمُ وَيَتَأَكَّدُ تَحْرِيْمُهَا فِي حَقِّ الصَّائِمِ :

يَجِبُ اجْتِنَابُ كُلِّ كَذِبٍ مُحَرَّمٍ ، أَمَّا الكَذِبُ لِتَخْلِيْصِ مَعْصُوْمٍ مِنْ قَتْلٍ فَوَاجِبٌ ، قُلْتُ وَيَتَرَجَّحُ عِنْدِي مِثْلُهُ أَيْضاً تَخْلِيْصُ مَالِهِ مِنْ ظَالِمٍ أَوْ قَاطِعِ طَرِيْقٍ أَوْ غَاصِبٍ أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ ، وَالمالُ مُثْمَنٌ والأَحْسَنُ يَتَأَوَّلُ ، وَلا صْلاَحٍ بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ فَمُبَاحٌ لِمَا وَرَدَ عَنْ أُمِّ كُلْثُوْمٍ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالتْ : قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عليه وسَلم : لَيْسَ الكَذَّابُ الذِي يُصْلِحُ بَيْنَ النَّاسِ وَيَقُولُ خَيْراً أَوْ يَنْمِى خَيْرا مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ .

ثُمْ اعْلَمْ أَنَّ الدَّاعِي الى الكَذِبِ مَحَبَّةُ النَّفْعِ الدُّنْيَوِيْ وَحُبُّ التُّرَاثِ

وَذَلِكَ أَنَّ المُخْبِرَ يَرَى أَنَّ لهُ فَضْلاً عَلى المُخْبَرِ بِمَا عَلَّمَهُ فَهُوَ يَتَشَبَّهُ بِالعَالِمِ الفَاضِلِ فَيَظُنُّ أَنَّه يَجْلِبُ بِمَا يَقُوْلُهُ فَضْلاً وَمَسَرَّةً وَهُوَ يَجلِبُ به نَقْصاً وَفَضِيْحَةً فَالكذِبُ رَذِيْلَةٌ مَحْضَةٌ مِنْ أَرْذَلِ الرَّذَائِلِ يُنْبِىءُ عَنْ تَغَلْغُلِ الفَسَادِ في نَفْسِ صَاحِبَها وَعَنْ سُلُوكٍ يُنْشِىءُ الشَرَّ انْشَاءً فَالكَذِبُ يَتَصَدَّعُ بِهِ بُنْيَانُ المَجْتَمَعِ وَبِهِ يَخْتَلُّ سَيْرُ الأُمُوْرِ ، وَيُسْقِطُ صَاحِبَهُ مِنْ العُيُوْنِ وَلاَ يُوْثَقُ في قَولِهِ ، وَلاَ يُوْثَقُ بِهِ في عَمَلٍ ، وَلاَ يُرْغَبُ لَهُ مَجْلِسٌ ، وَأَحَادِيْثُهُ عِنْدَ النَّاسِ مَتْرُوْكَةٌ ، وَشَهَادَتُهُ مَرْدُوْدَةٌ وَعَنْ أَبِي أُمَامَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عَليه وسَلم يُطْبَعُ المؤمِنُ عَلى الخِلاَلِ كُلِّهَا إلاَّ الخِيَانَةَ وَالكذِبَ رَوَاهُ أَحْمَدُ .

وَعَنْ بَهْزِ بْنُ حَكِيْمٍ عَنْ أَبِيْهِ عَنْ جَدِّهِ مَرْفُوْعاً وَيْلٌ لِلْذِي يُحَدِّثُ لِيُضْحِكَ بِهِ القَوْمَ وَيْلٌ لَهُ وَيْلٌ لَهُ .

وَعَنْ عَائِشَةَ ـ رَضْيَ اللهُ عَنْهَا ـ قَالَتْ مَا كَانَ خُلُقٌ أَبْغَضَ إلى أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ مِنْ الكَذِبْ وَلَقَد كَانَ الرَّجُلُ يَكْذِبُ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ صَلى اللهُ عَليهِ وَسَلم الكَذْبَةَ فَمَا يَزَالُ في نَفْسِهِ عَلَيْهِ حَتَّى يَعْلَمَ أَنَّهُ أَحْدَثَ مِنْهَا تَوْبَةً رَوَاهُ أَحْمَدُ .

وَفي الحَدِيْثِ الآخَرِ أَنهُ قِيْلَ لِرَسُولِ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَم أَيَكُوْنُ المؤْمِنُ كذَّاباً قَالَ لاَ الحَدِيْثِ رَوَاهُ مَالِكُ وَالبَيْهَقِي في شُعَبْ الايْمَانِ .

وَقَالَ ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ : إيَّاكَ وَالكَذِبَ فَانَّهُ يُفْسِدُ عَلَيْكَ تَصَوُّرَ المَعْلُومَاتِ عَلى مَا هِيَ عَلَيْهِ وَيُفْسِدُ عَلَيْكَ تَصوِيْرَهَا وَتَعْلِيْمَهَا لِلنَّاسِ فَانَّ

الكَاذِبَ يُصَوِّرُ المَعْدُومَ مَوْجُوْداً وَالمَوْجُوْدَ مَعْدُومَا وَالحَقَّ بَاطِلاً وَالبَاطِلَ حَقًّا وَالخَيْرَ شَرًّا فَيُفْسِدُ عَلَيْهِ تَصَوُّرَهُ وَعِلْمَهُ عُقُوبَةً لَه ثُمَّ يُصَوِّرُ ذَلِكَ في نَفْسِ المُخَاطَبِ المُغْتَرِ بِهِ الرَّاكِنُ اَلَيْهِ فَيُفسِدُ عَلَيْهِ تَصَوُّرَهُ وَعِلْمَه وَنَفْسُ الكَاذِبِ مُعْرِضَة عَنْ الحَقِيْقَةِ المَوجُودَةِ تَرَّاعَةٌ إلى العَدَمِ مُؤْثِرَةٌ لِلْبَاطِلِ وَلِهَذَا كَانَ الكَذِبُ أَسَاسُ الفُجُوْرِ .

كَمَا قَالَ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : إنَّ الكَذبَ يَهْدِي إلى الفُجُوْرِ وإنَّ الفُجُورَ يَهْدِي إلى النَّارِ ، وَأَولُ مَا يَسْرِي الكذِبُ من النَّفْسِ إلى اللِّسَانِ فَيُفْسِدُهُ ثُمَّ يَسْرِي إلى الجَوَارِحِ فيُفْسِدُ عَلَيْهَا أَعْمَالَهَا كَمَا أَفْسَدَ على اللسَانِ أَقْوَالَهُ فيَعُمُّ الكَذِبَ أَقْوَالَهُ وَأَعْمَالَهُ وَأَحْوَالَهُ فَيَسْتَحْكِمُ عَلَيْهِ الفَسَادُ وَيَترامَى دَاؤهُ إلى الهُلَكَةِ انْ لَم يَتَدَارَكْهُ اللهُ بِدَوَاءِ الصِّدْقِ بِقَلْعِ تِلْكَ المَادَّةِ مِنْ أَصْلِهَا .

وَلِهَذا كَانَ أَصْلُ أَعْمَالِ القُلُوبِ كُلِّهَا الصِّدْقَ وَأَضْدَادُهَا مِنْ الرِّيَاءِ وَالعُجْبِ وَالكِبْرِ وَالفَخْرِ وَالخُيَلاَءِ وَالبَطَرِ والأَشَر والعَجْزِ وَالكَسَلِ وَالجُبْنِ وَالمَهَانَةِ وَغَيْرِهَا أَصْلُهَا الكَذِبُ فَكُلُّ عَمَلٍ صَالِحٍ ظَاهِرٌ أَوْ بَاطِنٌ فَمَنْشَؤُهُ الصِّدْقُ وَكُلُّ عَمَلٍ فَاسِدٍ ظَاهِرٍ أَوْ بَاطِنٍ فَمَنْشَؤُوهُ الكَذِبُ ، واللَّهُ تَعَالى يُعَاقِبُ الكَذَّابَ بِأَنْ يُقْعِدَهُ وَيُثَبِّطَهُ عَنْ مَصَالِحِهِ وَمَنافِعِهِ وَيُثِيْبُ الصَّادِقَ بِأَنْ يُوَفِّقَهُ لِلْقِيَامِ بِمَصَالِحِ دُنْيَاهُ وَآخِرَتِهِ .

فَمَا اسْتُجْلِبَتْ مَصَالِحُ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ بِمِثْلِ الصِّدْقِ وَلاَ مَفَاسِدُهُمَا وَمَضَارُّهُمَا بِمِثْلِ الكَذِبْ قَالَ تَعَالى : ﴿يَا أَيُّهَا الذِيْنَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَكُوْنُوْا مَعَ الصَّادِقِيْنِ﴾وَقَالَ﴿هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِيْنَ صِدْقُهُمْ﴾ وَقَالَ ﴿فاذَا عَزَمَ الأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ﴾ .

شِعْراً :

عَوِّدْ لِسَانَكَ قَوْلَ الصِّدْقِ تَحْظَ بِهِ
إنَّ اللِّسَانَ لِمَا عَوَّدْتَ يَعْتَادُ
مُوَكَّلٌ بِتَقَاضِيْ مَا سَنَنْتَ لَهُ
في الصِّدْقِ وَالكِذْبِ فَانْظُرْ كَيْفَ يَرْتَادُ

اللَّهُمَّ نَوِّرْ قُلُوبَنَا بِنُورِ الايْمَانِ وَثَبِّتْهَا عَلى قَوْلِكَ الثَّابِتْ في الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَاجْعَلْنَا هُدَاةً مُهْتَدِيْنَ وَتَوفَّنَا مُسْلِمِيْنَ وَالْحِقْنَا بِعِبَادِكَ الصَّالِحِيْنَ يَا أَكْرَمَ الأكْرَمِيْنَ وَيَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وَصَلَّى اللهُ عَلى مُحَمَّدٍ وَعَلى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

(فَصْلٌ)
في بَيَانِ أَنْوَاعِ الْكَذِبِ

وَيَتَنَوَّعُ الكَذِبُ الى أَنْوَاعٍ ، فَمَا كَانَ مُتَعَلِّقاً بِأَمْوَالِ النَّاسِ وَأَعْرَاضِهِم وَأَنْفُسِهِم هُوَ مِنْ أَشَدِّ الكَبَائِرِ وَأَقْبَحِ الجَرَائِمِ التِي تُضِرُّ بالمُجْتَمعِ الانسَانِي ، وَتَقْضِي عَلى العَدْلِ ، فانَّ الذِي يَقُولُ الزُّوْرَ لِيَقْتَطِعَ حُقُوْقَ عِبَادِ اللهِ أَوْ يَثْلِمَهُمْ في أَعْرَاضِهِمْ مِن كلِّ مَا يَضُرُّ الانْسَانِيَّةَ وَيُؤْلِمُهَا .

وَقَدْ عَرَّضَ نَفْسَهُ لِغَضَبِ اللهِ وَكَانَ سَبَباً في بَثِّ الفَوْضَى وإِغْرَاءِ المُجْرِمِيْنَ عَلى اقْتِرَافِ الجَرَائِمْ فَيَنَالُوْنَ مِنْ أَعْرَاضِ النَّاسِ وَأَمْوَالِهِمْ مَا يَشْتَهُوْنَ وَهُمْ آمِنُوْنَ مِنْ العُقُوْبَةِ لأنَّهُمْ يَجِدُوْنَ شَاهِدَ الزُّوْرِ يُسَاعِدُهُمْ عَلى الافْلاَتِ مِنْهَا ، وَقَدْ أَكْبَرَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَطَرَ قَوْلِ الزُّوْرِ وَأَعْظَمَ

جُرْمَهُ كَمَا فِي الحَدِيْثِ قَالَ : « الاشْرَاكُ باللَّهِ وَعُقُوقُ الوَالِدَيْنِ ، وَكَانَ مُتَّكِئاً فَجَلَسَ ، فَقَالَ : أَلاَ وَقَوْلَ الزُّوْرِ ، فَمَا زَالَ يُكرِّرُهَا حَتَّى قُلْنَا : لَيْتَهُ سَكَتَ » ، فَجُلُوسُهُ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلمَ بَعْدَ اتِّكَائِهِ إِهْتِمَاماً بِشَأْنِهِ ، وَصَدّرَ قَوْلَه بِأَدَاةِ التَّنْبِيْهِ وَكَرَّرَ كَلِمَتَهُ حَتَّى شَقَّ عَلَى نَفْسِهِ وَبَدَا الغَضَبُ في وَجْهِهِ ، وَتَمَنَّى أَصْحَابُهُ لَوْ سَكَتَ .

وَقَوْلُ الزُّوْرِ يَشْمَلُ الشَّهَادَةَ بِالبَاطِلِ وَالحُكْمَ الجَائِرَ وَرَمْيَ الأَبْرِيَاءِ وَالقَوْلَ عَلَى اللهِ بِلاَ عِلْمٍ .

وَعَنْ خُرَيْمِ بْنِ فَاتِكٍ قَالَ صَلى رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عليهِ وسَلم صَلاَةَ الصُّبْحِ فَلمَّا انْصَرَفَ قَامَ قَائِماً فَقَالَ عَدِلَتْ شَهَادَةُ الزُّوْرِ بِالإِشْرَاكِ باللهِ ثَلاثَ مَرَّاتٍ ثُمَّ قَرَأَ : « فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنْ الأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّوْرِ حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِيْنَ بِهِ » رَوَاهُ أَبُو دَاوُد وَابْنُ مَاجَهْ .

وَشَاهِدُ الزُّوْرِ يُسِيءُ الى نَفْسِهِ اذْ يَبِيْعُ آخِرَتَهُ بِدُنْيَا غَيْرِهِ ، وَيُسِيءُ إِلى مَنْ شَهِدَ لَهُ بِاعَانَتِهِ عَلى ظُلْمِهِ ، وَيُسِيءُ إِلى مَنْ يَشْهَدُ عَلَيْهِ في إِضَاعَةِ حَقِّهِ وَيُسِيءُ إِلى القَاضِيْ الذي جَلَسَ يَتَحَرَّى العَدْلَ لِيَحْكُمَ بِهِ وَيُنْصِفَ الضُّعَفَاءِ مِنْ الأَقْوِيَاءِ وَيَنْتَزِعَ حَقَّ المَظْلُومِ مِنْ الظَالِمِ بِأَنَّهُ بِشَهَادَتِهِ بِالزُّوْرِ يُظَلِّلُه وَيَسُدُّ أَمَامَهُ طَرِيْقَ الحَقِّ وَيَفْتَحْ بَابَ البَاطِلِ .

وَبِهَذَا يَشُلُّ يَدَ العَدَالَةِ أَنْ تَقْتَصَّ لِلْمَظْلُوْمِ مِنْ الظَّالِمِ وَيُسِيءُ شَاهِدُ الزُّوْرِ إِلى أَوْلاَدِهِ وَأُسْرَتِهِ لانّه يُلَوِّثها بِهَذِهِ السُّمْعَةِ السَّيِّئَةِ وَالفَائِهَةِ القَبِيْحَةِ وَيَحْمِلُ النَّاسَ عَلى أَنْ يَقُوْلُوا لَهُمْ عَائِلَةُ المُزَوِّرِ ، وَأَعْظِمْ بِهَا مِنْ أَذِيَّةٍ لِلْمُسْتَقِيْمِيْنَ .

وَعَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَم : « انَّ الصِّدْقَ يَهْدِيْ إِلىٰ البِرِّ ، وَالبِرُّ يَهْدِي إِلى الجَنَّةِ ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَصْدُقُ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ صِدِّيْقا ، وَإِنَّ الكَذِبَ يَهْدِي إِلى الفُجُوْرِ ، وَإِنَّ الفُجُوْرَ ، يَهْدِيْ إِلىٰ النَّارِ ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَكذِبُ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ كَذَّابَا » مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ .

وَفي الحَدِيْثِ أَنَّ الكَذِبَ مِنْ صِفَاتِ النِّفَاقِ .

اللَّهمَّ أَتْمِمْ عَلَيْنَا نِعْمَتَكَ الوَافِيَةَ وَأَرْزُقْنَا الاخْلَاصَ فِيْ أَعْمَالِنَا وَالصِّدْقَ في أَقْوَالِنَا وَعُدْ عَلَيْنَا بِاصْلَاحِ قُلُوْبِنَا وَاغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَلِجَمِيْعِ المُسْلِمِيْنَ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وَصَلى اللهُ عَلى مُحَمَّدٍ وَعلى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

(فَصْلٌ)

في التَّحْذِيْرِ مِنْ الغِيْبَةِ

وَيَجِبُ اجْتِنَابُ الغَيْبَةِ قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضَا ﴾ أَيْ لَا يَتَنَاوَلْ بَعْضُكُمْ بَعْضَا بِظَهْرِ الغَيْبِ بِمَا يَسُوؤُهُ ثُمَّ ضَرَبَ تَعَالَى لِلْغِيْبَةِ مَثَلًا فَقَالَ : « أَيُحِبُّ أَحَدَكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيْهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوْهُ » ، وَعَنْ البَرَاءِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَن النبي صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنهُ قَالَ ان أَرْبَى الرِّبَى اسْتِطَالَةُ الرَّجُلِ في عِرْضِ أَخِيْهِ وَفي الحَدِيْثِ الآخَرِ فَإِنَّ دِمَاءَكُم وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ .

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ مَرْفُوْعاً انَّ مِنَ الكَبَائِرِ اسْتِطَالَةُ المَرْءِ في عِرْضِ رَجُلٍ مُسْلِمٍ بِغَيْرِ حَقٍّ .

وَعَنْ سَعِيْدِ بْنِ زَيْدٍ عَنْ النَّبي صَلى اللهُ عليهِ وَسَلم قَالَ انَّ مِنْ أَرْبَى الرِّبا الأسْتِطَالة في عِرْضِ المُسْلِمِ بِغَيْرِ حَقٍّ رَوَاهُ أَحْمَدُ وَأَبُو دَاوُدَ .

فَإِنْ قِيْلَ مَا الغِيْبَةُ ؟ قِيْلَ قَدْ حَدَّهَا النَّبِي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَقَدْ رَوَى أَبُو هُرَيْرَةَ رَضْيَ اللهُ عَنْهُ عَنْ رَسُوْلِ اللّهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : « أَتَدْرُونَ مَا الغِيْبَةُ ؟ قَالُوا : اللَّهُ وَرَسُوْلُهُ أَعْلَمُ ، قَالَ : ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ ، قَالَ (أحدهم) : أَفَرَأَيْتَ انْ كَانَ في أَخِي مَا أَقُولُ ؟

قَالَ : إنْ كَانَ فِيْهِ مَا تَقُولُ فَقَدْ اغْتَبْتَهُ ، وانْ لَمْ يَكُنْ فِيْهِ فَقَدْ بَهَتَّهُ » أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ .

وَمِنْ الغِيْبَةِ التَّمْثِيْلِيَّاتِ لِلأشخاصِ وَالهَيْئَاتِ وَمُحَاكَاتِهِمْ فِي اللِّبَاسِ عَلى وَجْهِ التَّنَقُصِ وَالأسْتِهْتَارِ كَمَا يَفْعَلُهُ المُنْهَمِكُوْنَ في أَكْلِ لُحُوْمِ الغَوَافِلِ . فَتَكُوْنُ الغِيْبَةُ بِالتَّعْرِيْضِ وَبِالكِنَايَةِ وَبِالحَرَكَةِ وَبِالرَّمْزِ وَالإِشَارَةِ بِاليَدِ وَكُلُّ مَا يُفْهَمُ مِنْهُ المَقْصُودُ فَهُوَ دَاخِلٌ في الغِيْبَةِ وَهُوَ حَرَامٌ .

فَقَدْ وَرَدَ عَنْ عَائِشَةَ رَضْيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ دَخَلَتْ عَلَيْنَا امْرَأَةٌ فَلَمَّا وَلَّتْ أَوْمَأْتُ بِيَدِي أَيْ قَصِيْرَةُ فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ اغْتَبْتِهَا وَقَدْ رَوَى أَبُو دَاوُدَ وَالترْمِذِي وَصَحَّحَهُ قَوْلُ عَائِشَةُ عَنْ صَفِيَّةَ أَنَّها قَصِيْرَةٌ وَأَنَّ النَّبي صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لَقَدْ قُلْتِ كَلِمَةً لَوْ مُزِجَتْ بِمَاءِ البَحْرِ لَمَزَجَتْهُ .

وَأَخْرَجَ أَحْمَدُ عَن ابْنِ عَبَّاسٍ ـ رَضْيَ اللهُ عَنْهُ ـ قَالَ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بالنبي صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : « وَنَظَرَ في البَابِ فَإِذَا قَوْمٌ يَأْكُلُونَ الجِيَفْ ، قَالَ : « مَنْ هَؤُلاَءِ يَا أَخِي يَا جِبْرِيْلُ » ؟ قَالَ : « الذِيْنَ يَأْكُلُونَ لُحُوْمَ النَّاسِ » .

وَقَالَ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (مَنْ أَكَلَ بِرَجُلٍ مُسْلِمٍ أَكْلَةً فَإِنَّ اللهَ يُطْعِمُهُ مِثْلَهَا في جَهَنَّمَ ، وَمَنْ كُسِيَ ثَوْباً بِرَجُلٍ مسلم فَإِنَّهُ يَكْسُوهُ مِثْلَهُ في جَهَنَّمَ وَمَنْ قَامَ بِرَجُلٍ مَقَامَ سُمْعَةٍ وَرِيَاءٍ فَإِنَّ اللهَ يَقُوْمُ بِهِ مَقَامَ سُمْعَةٍ وَرِيَاءٍ يَوْمَ القِيَامَةِ . رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ .

فَالغِيْبَةُ عَادَةٌ مَرْذُوْلَةٌ ، كَثِيْراً مَا تَقْطَعُ الصِّلَةَ بَيْنَ النَّاسِ ، وَتُثِيْرُ الأَحْقَادَ ، وَتُشَتِّتُ الشَّمْلَ ، ثُمَّ هِيَ مَعَ ذَلِكَ مَضْيَعَةٌ لِلْوَقْتِ بالأشْتِغَالِ بِمَا يَضُرُّ الأنْسَانَ ، وَلاَ يَنْفَعُهُ . وَمِمَّا تَقَدَّمَ يَتَبَيَّنُ تَحْرِيْمُ الغِيْبَةِ وَخَطَرُهَا وَشَرُّهَا فَإِذَاً يَجِبُ الأنْكَارُ عَلَى المُغْتَابِ وَرَدْعُهُ .

وَقَدْ رَوَى جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللهِ رَضْيَ اللّهُ عَنْهُ عَنْ النَّبي صَلى اللهُ عليه وسلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : مَا مِنْ امْرِىءٍ يَخْذُلُ امْرَءاً مُسْلِماً في مَوْطِنٍ تُنْتَهَكُ فِيْهِ حُرْمَتُهُ إلا خَذَلَهُ اللهُ في مَوْطِنٍ يُحِبُّ فِيْهِ نُصْرَتَهُ وَمَا مِنْ امْرِىءٍ مُسْلِمٍ يَنْصُرُ امْرَءاً مُسْلِماً في مَوْضِعٍ يُنْتَقَصُ فِيْهِ مِنْ عِرْضِهِ وَيُنْتَهَكُ فِيْهِ مِنْ حُرْمَتِهِ إلا نَصَرَهُ اللهُ في مَوْطِنٍ يُحِبُّ فِيْهِ نُصْرَتَهُ .

وَفي حَدِيْثٍ آخَرَ عَنْ النَّبِي صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ مَنْ أُذِلَّ عِنْدَهُ مُؤْمِنُ وَهُوَ يَقْدِرُ عَلَى نَصْرِهِ فَلَمْ يَنْصُرْهُ أَذَلَّهُ اللهُ عَلَى رُؤُوْسِ الخَلاَئِقِ .

وَقَالَ عُمَرُ بْن الخَطَّابِ رَضْيَ اللهُ عَنْهُ في خُطْبَتِهِ : لاَ يُعْجِبَنَّكُمْ مِنْ الرَّجُلِ طَفْطَفَتُهُ وَلَكِنْ مَنْ أَدَّى الأَمَانَةَ وَكَفَّ عَنْ أَعْرَاضِ النَّاسِ فَهُوَ الرَّجُلُ وَقَالَ أَيْضاً كَفَى بِالمَرْءِ عَيْباً أَنْ يَسْتَبِيْنَ لَهُ مِنْ النَّاسِ مَا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْ نَفْسِهِ وَيَمْقُتُ النَّاسَ عَلَى مَا يَأْتِيْ .

وَقَالَ الحَسَنُ يَا ابْنَ آدَمَ لَنْ تَنَالَ حَقِيْقَةَ الأيْمَانِ حَتَّى لاَ تَعِيْبَ النَّاسَ بِعَيْبٍ هُوَ فِيْكَ وَتَبْدَأَ بِذَلِكَ العَيْبِ مِنْ نَفْسِكَ فَتُصْلِحَهُ فَمَا تُصْلِحُ عَيْباً إلاَّ تَرَى عَيْباً آخَرَ فَيَكُونُ شُغْلُكَ في خَاصَّةِ نَفْسِكَ وَقِيْلَ لِرَّبِيْعِ بْنِ خَيْثَمْ مَا نَرَاكَ تَعِيْبُ أَحَداً وَلاَ تَذُمُّهُ فَقَالَ مَا أَنَا عَلَى نَفْسِي بِرَاضٍ فَأَتَفَرَّغَ مِنْ عَيْبِهَا الى غَيْرِهَا وَلَقَدْ أَحْسَنَ القَائِلُ :

شَرُّ الوَرَى مَنْ بِعَيْبِ النَّاسِ مُشْتَغِلاً
مِثْلُ الذُّبَابِ يُرَاعِي مَوْضِعَ العِلَلِ .

آخر :

إذَا مَا ذَكَرْتَ النَّاسَ فَاتْرُكْ عُيُوبَهُمْ
فَلاَ عَيْبَ إلا دُوْنَ مَا مِنْكَ يُذْكَرُ
فَإنْ عِبْتَ قَوْماً بِالذِي فِيْكَ مِثْلُهُ
فَكَيْفَ يَعِيْبُ العَوْرَ مَنْ هُوَ أَعْوَرُ
وإنْ عِبْتَ قَوْماً بِالذي هُوَ فِيْهِمُ
فَذَلِكَ عِنْدَ اللهِ وَالنَّاسِ مُنْكَرُ

وَبِالتَّالِي فَخَطَرُ اللِّسَانِ عَظِيْمٌ لَيْسَ كَغَيْرِهِ مِنْ الأَعْضَاءِ فَإنَّ العَيْنَ لاَ تَصِلُ إلى غَيْرِ الأَلْوَانِ والصُّوَرِ وَالأُذُنُ لاَ تَصِلُ الى غَيْرِ الأَصْوَاتِ وَاليَدُ لاَ تَصِلُ الى غَيْرِ الأَجْسَامِ واللِّسَانُ يَجُولُ في كُلِّ شَيْءٍ وَبِهِ يَبِيْنُ الأيْمَانُ مِنْ الكُفْرِ .

وَقَدْ رَوَى أَنَسُ بنُ مَالِكٍ ـ رَضْيَ اللهُ عَنْهُ ـ عَن النَّبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنهُ قَالَ لاَ يَسْتَقِيْمُ ايْمَانُ عَبْدٍ حَتَّى يَسْتَقِيْمَ قَلبُه وَلاَ يَسْتَقِيْمَ قَلْبُه

حَتَّى يَسْتَقِيْمَ لِسَانُهُ .

وَفي الصَّحِيْحَيْنِ عَنْ أَبي هُرَيْرَةَ ـ رَضْيَ اللهُ عَنْهُ ـ عَنْ النبي صلى اللهُ عليه وسلَّم قَالَ انَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بالكَلِمَةِ مَا يَتَبَيَّنُ مَا فِيْهَا يَزِلُّ بِهَا في النَّارِ أَبْعَدَ مِمَّا بَيْنَ المَشْرِقِ وَالمَغْرِبِ وَأَخْرَجَ الترمذِي وَلَفْظُهُ إنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالكَلِمَةِ مِنْ الشَّرِّ مَا يَعْلَمُ مَبْلَغَهَا يَكْتُبُ اللهُ لَهُ بِهَا عَلَيْهِ سَخَطَهُ إلى يَوْمِ القِيَامَةِ رَوَاهُ في شَرْحِ السُّنَّةِ وَرَوَاهُ مَالِكُ وَالتِّرْمِذِي وَابْنُ مَاجه نَحْوَهُ .

فَالغِيْبَةُ مِن آفَاتِ اللسَانِ وَمِنْ الذُّنُوبِ التِي قَلَّ مَنْ يَسْلَمُ مِنْهَا كَالكَذِبِ وَالرِّيَاءِ وَالرِّبَا وَالمدَاهَنَةِ .

وإذَا فَهِمْتَ مَا سَبَقَ فَاعْلَمْ أَنَّ الذُّنُوبَ المُتَعَلِّقَةَ بِحُقُوقِ العِبَادِ لا تُمْحَى إلا أَنْ عَفَوْا عَنْهَا أَو رُدَّتْ لَهُمْ مَظَالِمَهُمْ، فَقَدْ وَرَدَ عَنْ النَّبِي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : « الدَّوَاوِيْنُ عِنْدَ اللهِ ثَلاَثَةٌ : دِيْوَانٌ لاَ يَعْبَأُ اللهُ بِهِ شَيْئاً ، وَدِيْوَانٌ لاَ يَتْرُكُ اللهُ مِنْهُ شَيْئاً ، وَدِيْوَانٌ لاَ يَغْفِرُهُ اللهُ ، فَأَمَّا الدِّيْوَانُ الذِي لاَ يَغْفِرُهُ اللهُ فَالشِّرْكُ بِاللهِ » .

قَالَ تَعَالَى : ﴿ إنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرِكَ بِهِ ﴾ الآيَةِ ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ انَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الجَنَّةُ ﴾ .

وَأَمَّا الذِي لاَ يَعْبَأُ اللهُ بِهِ شَيْئاً فَظُلْمُ العَبْدِ نَفْسَهُ فِيْمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللهِ مِنْ صَوْمِ يَوْمٍ تَرَكَهُ أَوْ صَلاَةٍ ، فَإِنَّهُ يَغْفِرُ ذَلِكَ وَيَتَجَاوَزَ انْ شَاءَ وَأَمَّا الدِّيْوَانُ الذِي لاَ يَتْرُكُ مِنْهُ شَيْئاً فَظُلْمُ العِبَادِ بَعْضَهُمْ بَعْضاً القِصَاصُ لاَ مَحَالَةَ رَوَاهُ أَحْمَدَ في مُسْنَدِهِ وَالحَاكِمْ في مُسْتَدْرَكِهِ فَظُلْمُ العَبْدِ نَفْسَهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ رَبِّهِ هُوَ أَخَفُّ الدَّوَاوِيْنِ وَأَسْرَعُهَا مَحْواً فانَّهُ يُمْحَى بِالتَّوْبَةِ وَالأَسْتِغْفَارِ

والحَسَنَاتِ المَاحِيَةِ وَالمَصَائِبِ المُكَفِّرَةِ وَنَحْوِ ذَلِكَ .

وَلَا رَيْبَ أَنَّ الغِيْبَةَ جنَابَـةٌ عَلَى أَعْرَاضِ النَّـاسِ وَهُمْ غَافِلُوْنَ فَكَفَّارَتُهَا أَنْ يَتحلَّـلَ مِمَّنْ اغْتَابَهُ وَيَطْلُبَ مِنْهُ العَفْوَ انْ كَانَ لَمْ يَعْلَمْ بِذَلِكَ وَيَتُوْبُ وَيَتَنَدَّمُ وَيَسْتغْفِرُ لِمَنْ اغْتَابَهُ وَيَذْكُرُهُ بِمَا فِيْهِ مِنْ الخِصَالِ الحَسَنَةِ عِنْدَ مَنْ اغْتَابَهُ عِنْدَهُمْ لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يَرْحَمَهُ وَيَغْفِرَ لَهُ إِنَّهُ غَفُورٌ رَحِيْمٌ .

وَتَقَدَّمَ حَدِيْثُ أَنَسٍ وَقَوْلُهُ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « إِنَّ مِنْ كَفَّارَةِ الغِيْبَةِ أَنْ تَسْتَغفِرَ لِمَنْ اغْتَبْتَهُ تَقُوْلُ : « اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَنَا وَلَهُ » .

واعْلَمْ أَنَّهُ إِذَا تَرَتَّبَ عَلَى الغِيْبَةِ مَصْلَحَةٌ أَوْ دَرْءُ مَفْسَدَةٍ كَانَتْ لَازِمَةً وَإِذَا تَرَتَّبَ عَلَيْهَا أَمْرٌ جَائِزٌ فَجَائِزَةٌ ، وَيُمْكِنْ ضَبْطُ الأَوَّلُ في خَمْسَةِ أُمُورٍ أَوْ سِتَّةِ أُمُوْرٍ .

الأَوَّلُ : المَظْلُومُ الذِي يُرِيْدُ أَنْ يَشْكُوَ لِمَنْ يَرْفَعُ مَظْلَمَتَهُ ، فَلَهُ أَنْ يَذْكُرَ عَيْبَ ظَالِمِهِ الذِي يَحْتَاجُ إِلَيْهِ في بَيَانِ حَقِّهِ .

الثَّاني : الأَسْتِعَانَةُ عَلَى تَغْيِيْرِ المُنْكَرِ لِمَنْ يَظُنُّ أَنَّ لَهُ قُدْرَةً عَلَى إِزَالَتِهِ ، فَإِنَّ لَهُ أَنْ يَقُوْلَ : إِنَّ فُلاناً ارْتَكَبَ كَذَا وَفَعَلَ كَذَا .

الثَّالِثُ : الأَسْتِفْتَاءُ فَإِنَّهُ يَجُوْزُ لِلْمُسْتَفْتِي أَنْ يَقُوْلَ لِلْمُفْتَى : إِنَّ فُلَاناً ظَلَمَنِي في كَذَا وَكَذَا ، فَهَلْ يَجُوْزُ لَهُ ذَلِكَ مَثَلاً ؟

الرَّابِعُ : التَّحْذِيْرُ فَيُحَذِّرُ المُسْلِمِيْنَ مِنْ شَرِّ مَنْ يَتَصَدَّى لِلزَّعَامَةِ فِي أُمُوْرِهِمْ العَامَّةُ ، أَوْ مَنْ يَتَوَقَّفُ عَلَيْهِ القَضَاءُ في مَصَالِحِهِمْ ؛ أَوْ مَنْ

يَتَصَدَّى لِإِفْتَائِهِمْ وَتَعْلِيمِهِمْ ، كَالزُّعَمَاءِ فِي الشُّؤون الدِّينيَّةِ وَالدُّنْيَوِيَّةِ وَالشُّهُودِ وَالمُدَرِّسِينَ وَنَحْوِ ذَلِكَ مِمَّنْ يُشْتَرَطُ فِيهِمْ الأَمَانَةُ والإِتِّصَافِ بِمَكَارِمِ الأَخْلاَقِ ، فَيَصِحُّ أَنْ يُبَيِّنَ مَا فِيهِمْ مِنْ النَّقَائِصْ وَالعُيُوْبِ وَيَرْفَعَ بِأَمْرِهِمْ لِيُبْعَدُوا .

الخَامِسُ : أَنْ يَتَجَاهَرَ بِفِسْقِهِ ، وَقَدْ قَالَ صَلى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : كُلُّ أُمَّتِي مُعَافَى إِلاَّ المُجَاهِرُونَ .

اللَّهُمَّ ثَبِّتْ مَحَبَّتَكَ فِي قُلُوبِنَا وَقَوِّهَا وَارْزُقْنَا القِيَامَ بِطَاعَتِكَ وَجَنِّبْنَا مَا يُسْخِطُكَ وَأَصْلِحْ نِيَّاتِنَا وَذُرِّيَاتِنَا وَأَعِذْنَا مِنْ شَرِّ نُفُوسِنَا وَسَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا وَأَعِذْنَا مِنْ عَدُوِّكَ وَاجْعَلْ هَوَانَا تَبعاً لِمَا جَاءَ بِهِ رَسُولُكَ صَلى اللهُ عليه وسلَّم وَاغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَلِجَمِيْعِ المُسْلِمِيْنَ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وَصَلى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

(فَصْلٌ)

وَأَسْبَابُ الغِيْبَةِ أَحَدَ عَشَرَ :

١ ـ تَشَفِّي الغَيْظِ بِذِكْرِ مَسَاوِي المَوْقُوْعِ فِي عِرْضِهِ بالغِيْبَةِ قَوْلاً أَوْ فِعْلاً .

٢ ـ مُوَافَقَةُ الأَقْرَانِ وَالزُّمَلاءِ وَمُسَاعَدَتُهُمْ وَيَرَى ذَلِكَ فِي حُسْنِ المُعَاشَرَةِ .

٣ ـ أَنْ يَسْتَشْعِرَ مِنْ انْسَانٍ سَيَقْصِدُهُ وَيُطَوِّلُ لِسَانَهُ عَلَيْهِ أَو يُقَبِّحَ حَالَهُ عِنْدَ مُحْتَشِمٍ فَيُبَادِرَهُ فَيَطْعَنُ فِيْهِ لِيُسْقِطَ شَهَادَتَهُ .

٤ ـ أَنْ يُنْسَبَ إِلَيْهِ شَيءٌ فَيَذْكُرَ أَنَّ الذِي فَعَلَهُ فُلاَنٌ وَيَتَبَرَّأَ مِنْهُ مَعَ أَنَّ التَّبَرُّأَ يَحْصَلُ بِدُونِ أَنْ يَذْكُرَ الغَيْرَ بِشَخْصِهِ .

٥ ـ أَنْ يَنْطَوِي عَلَى عَدَاوَةِ شَخْصٍ وَيَحْسِدَهُ فَيَرْمِيَهِ بِمَسَاوِىءَ وَمَعائِبَ يَنْسِبُهَا إِلَيْهِ لِيَصْرِفَ وُجُوهَ النَّاسِ عَنْهُ وَيُسْقِطَ مَهَابَتَهُ وَمَكَانَتَهُ مِنْ النُّفُوسِ وَيَقْصِدُ بِذَلِكَ اثْبَاتُ فَضْلِ نَفْسِهِ وَلَكِنَّ العَاقِلَ اللَّبِيْبَ يَعْرِفُ أَنَّهُ ما أَضَرُّ عَلَى الأَعْدَاءِ وَلاَ أَشَدُّ مِنْ التَّمَسُّكِ بِالأَخْلاَقِ الفَاضِلَةِ وَالإِعْتِرَافِ بِالفَضْلِ لِأَهْلِهِ كَمَا قِيْلَ :

وَمَا عَبَّرَ الأَنْسَانُ عَنْ فَضْلِ نَفْسِهِ
بِمِثْلِ اعْتِقَادِ الفَضْلِ في كُلُّ فَاضِلِ
وَلَيْسَ مِنْ الأَنْصَافِ أَنْ يَدْفَعَ الفَتَى
يَدَ النَّقْصِ عَنْهُ بِانْتِقَاصِ الأَفَاضِلِ

٦ ـ أَنْ يَقْدَحَ عِنْدَ من يُحِبُّ ذَلِكَ الشَّخْصَ حَسَدَاً لِأَكْرَامِهِمْ وَمَحَبَّتِهِمْ لَهُ .

٧ ـ أَنْ يَقْصِدَ اللَّعِبَ وَالهَزَلَ وَالمُزَاحَ وَالمُطَايَبَةِ وَيُضْحِكَ النَّاسِ .

٨ ـ السُّخْرِيَةُ وَالأَسْتِهْزَاءُ بِالشَّخْصِ اسْتِحْقَاراً لَهُ وَهُوَ يَجْرِي في الحُضُورِ والغَيْبَةِ وَمَنْشَؤُهُ التَّكَبُّرُ وَاسْتِصْغَارُ المسْتَهْزَأ بِهِ وَتَنَقُّصُهُ وَازْدِرَاءُهُ .

٩ ـ أَنْ يَتَعَجَّبَ مِنْ فِعْلِ الغَائِبِ لِلْمُنْكَرِ وَهَذَا مِنْ الدِّيْنِ لَكِنْ أَدَّى إِلَى الغِيْبَةِ بِذِكْرِ اسْمِهِ فَصَارَ مُغْتَاباً مِنْ حَيْثُ لاَ يَدْرِيْ .

١٠ ـ أَنْ يَغْتَمَّ لِسَبَبْ مَا يُبْتَلَى بِهِ فَيَقُوْلُ مِسْكِيْنٌ فِلاَنٌ قَدْ غَمَّنِي أَمْرُهُ

وَمَا أَبْتُلِي بِهِ مِنْ المَعْصِيَةِ وَغَمّهُ وَرَحْمَتهُ خَيْرٌ لَكِنْ سَاقَهُ إلى شَرٍّ وَهُوَ الغِيْبَةُ مِنْ حَيْثُ لا يَدْرِي أَنَّهُ صَاغَهَا بِصِيْغَةِ التَّرَحُّمِ والتَّوَجُّعِ .

١١ ـ أَظْهَارُ الغَضَبِ لِلّهِ عَلَى مُنْكَرٍ قَارَفَه إنْسَانٌ فَيَذْكُرُ الأَنْسَانَ بِاسْمِهِ وَكَانَ الوَاجِبُ أَنْ يُظْهِرَ غَضَبَهُ عَلَى فَاعِلِهِ وَلاَ يُظْهِرَ عَلَيْهِ غَيْرَهُ بَلْ يَسْتُرُ اسْمَهُ وَهَذِهِ الثَّلاَثَةُ رُبَّمَا تَخْفَى عَلَى العُلَمَاءِ وَطَلَبَةِ العِلْمِ فَضْلاً عَن العَوَامّ وَلِذَلِكَ تَسْمَعُ مِنْهُم كَثِيْراً مَا يَقُوْلُونَ فُلانٌ وَنِعْمَ لَوْلا أَنَّه يَفْعَلُ كَذَا وَكَذَا يُعَامِلُ بِالرِّبَا مَثَلا وَكَانَ الوَاجِبُ نُصْحُهُ بَدَلَ الغِيْبَةِ .

شعراً :

يُشَارِكُكَ المُغْتَابُ في حَسَنَاتِهِ
وَيُعْطِيْكَ أَجْرَيْ صَوْمِهِ وَصَلاتِهِ
وَيَحْمِلُ وِزْراً عَنْكَ ظَنَّ بِحَمْلِهِ
عَنْ النُّجْبِ مِنْ أَبْنَائِهِ وَبَنَاتِهِ
فَكَافِيْهِ بِالحُسْنَى وَقُلْ رَبِّ جَازِهِ
بِخَيْرٍ وَكَفِّرْ عَنْهُ مِنْ سَيِّئَاتِهِ
فَيَا أَيُّهَا المُغْتَابُ زِدْنِي فَإِنْ بَقِيْ
ثَوَابُ صَلاةٍ أَوْ زَكَاةٍ فَهَاتِهِ
فَغَيْرُ شَقِيٍّ مَنْ يَبِيْتُ عَدُوُّهُ
يُعَامِلُ عَنْهُ اللهَ في غَفَلاَتِهِ
فَلاَ تَعْجَبُوا مِنْ جَاهِلٍ ضَرَّ نَفْسَهُ
بِامْعَانِهِ في نَفْعِ بَعْضِ عُدَاتِهِ

وَأَعْجَبُ مِنْهُ عَاقِلٌ بَاتَ سَاخِطاً
عَلى رَجُلٍ يُهْدِى لَهُ حَسَنَاتِهِ
وَيَحْمِلُ مِنْ أَوْزَارِهِ وَذُنُوبِهِ
وَيَهْلَكُ فِي تَخْلِيْصِهِ وَنَجَاتِهِ
فَمَنْ يَحْتَمِلْ يَسْتَوْجِبِ الأَجْرَ وَالثَّنَا
وَيُحْمَدُ فِي الدُّنْيَا وَبَعْدَ وَفَاتِهِ
وَمَنْ يَنْتَصِفْ يَنْفَخْ ضِرَاماً قَدْ انْطَفَى
وَيَجْمَعُ أَسْبَابَ المَسَاوِيْ لِذَاتِهِ
فَلاَ صَالِحٌ يُجْزَي بِهِ بَعْدَ مَوْتِهِ
وَلا حَسَنٌ يُثْنَى بِهِ فِي حَيَاتِهِ
يَظَلَّ أَخُو الانْسَانِ يَأْكُلُ لَحْمَهُ
كَمَا فِي كِتَابِ اللهِ حَالَ مَمَاتِهِ
وَلاَ يَسْتَحِيْ مِمَّنْ يَرَاهُ وَيَدَّعِي
بِأَنَّ صِفَاتِ الكَلبِ دُوْنَ صِفَاتِهِ
وَقَدْ أَكَلاَ مِنْ لَحْمِ مَيْتٍ كِلاَهُمَا
وَلَكِنْ دَعَى الكَلْبَ اضْطِرَارُ اقْتِيَاتِهِ
تَسَاوَيْتُمَا أَكْلاً فَأَشْقَاكُمَا بِهِ
غَداً مَنْ عَلَيْهِ الخَوْفُ مِنْ تَبِعَاتِهِ
وَمَا لِكَلامٍ مَرَّ كَالرِّيْحِ مَوْقِعٌ
فَيَبْقَى على الانْسَانُ بَعْضُ سِمَاتِهِ

اللّهُمَّ أَرْزُقْنَا حِفْظَ جَوَارِحِنَا عَنْ المعَاصِي مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنْ وَنَقِّ

قُلُوبَنَا مِنْ الحَقْدِ وَالحَسَدْ وَالإِجَنْ . اللهُمَّ انا نَعُوْذُ بِكَ مِنْ شَمَاتَهِ الأَعْدَاءِ وَعُضَالِ الدَّاءِ وَخَيْبَةُ الرَّجَاءِ وَزَوَال النِّعْمَةِ اللّهُمَّ توَفَّنَا مُسْلِمْينَ وَأَلْحِقْنَا بالصَّالِحِيْنَ غَيْرَ خَزَايَا وَلاَ مَفْتُوْنِيْنَ وَاغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَلِجَمِيْعِ المُسْلِمِيْنَ الأَحْيَاءِ مِنْهُمْ وَالمَيِّتِيْنَ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وَصَلى اللهُ عَلى مُحَمَّدٍ وَعَلى آلِهِ وَصحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

(فَصْـلٌ)

وَمِمَّا يَتَأَكَّدُ اجْتِنَابُهُ وَلاَ يَتِمُّ الصِّيَامُ لِمَنْ لَمْ يَجْتَنِبْهُ ، النَّظَرُ إلى المَرْأَةِ الأَجْنَبِيَّةِ وَالرَّجُلِ الأَمْرَدِ لِغَيْرِ ضَرُوْرَةٍ أَوْ حَاجَةٍ شَرْعِيَّةٍ لِأَنَّ المَرْأَةَ كُلُّهَا عَوْرَةٌ لاَ يَصِحُّ أَنْ يَرَى مَنْ لَيْسَ مِنْ مَحَارِمِهَا شَيْئاً مِنْ جَسَدِهَا وَلاَ شَعْرِهَا المُتَّصِلِ بِهَا وَمَا تَفْعَلُهُ بَعْضُ نِسَاءِ هَذَا الزَّمَانِ مِنْ التَّبَرُّجِ وَالتَّجَمُّلُ في الأَسْوَاقِ مَا هُوَ إِلاَّ مُجَاهَرَةٌ بِالمَعَاصِيْ وَتَشَبُّهُ بِنِسَاءِ الإِفرَنْجِ .

فَمِنْ أَعْظَمِ المُنْكَرَاتِ وَأَفْظَعِهَا خُرُوجُ المَرْأَةِ كَاشِفَةً رَأْسِهَا أَوْ عُنُقَهَا أَوْ نَحرَهَا أَوْ ذِرَاعَيْهَا أَوْ سَاقَيْهَا أَوْ وَجْهِهَا أَوِ الجَمِيْعَ أَوْ الثِّيَابِ المُظْهِرَةِ لِلْمَفَاتِنِ أَوْ اللِّبَاسِ الشَّفافِ الذِي وُجُودُهُ كَعَدَمِهِ لاَ يَسْتُرُ مَا تَحْتَهُ فَهَذَا دَاخِلٌ في التَّبَرجُّ فَيَجِبُ عَلَى المُسْلِمِ أَنْ يَمْنَعَ نِسَاءَهُ وَمَنْ لَهُ عَلَيْهِنَّ وِلاَيَة وَيَقْبَلْنَ مِنْهُ جَمِيْعَ مَا تَقَدَّمَ وَيُلِزْمُهُنَّ السِّتَر وَالتَّحَفُّظَ وَيَنْصَحَ إِخْوَانَهُ المُهْمِلِيْنَ لِلْمُتَّصِفَاتِ بِذَلِكَ .

وَمِنْ الآدَابِ التِي أَمَرَ اللهُ تَعَالَى بِهَا نِسَاءَ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلمَ مَعَ أَنهُنَّ القُدْوَةُ الحَسَنَة في العَفَافِ والتُقى وَالتَّسَتُّرِ والحَيَاءِ وَالايْمَانِ وَمَعَ حَياءِ النَّاسِ مِنْهُنَّ وَاحْتِرَامِهِمْ لَهُنَّ مَا ذَكَرَهُ تَعَالَى في سُوْرَةِ الأَحْزَابِ

بِقَوْلِهِ : ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوْتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الجَاهِلِيَّةِ الأُوْلَى ﴾ .

قَالَ مُقَاتِلُ : التَّبَرُّجُ أَنَّهَا تُلْقِيْ الخِمَارَ عَلَى رَأْسِهَا وَلَا تَشُدُّهُ فَيُوَارِيْ قَلَائِدَهَا وَقُرْطَهَا وَعُنُقَهَا وَيَبْدُوْ ذَلِكَ كُلُّهُ مِنْهَا وَذَلِكَ التَّبَرُّجُ .

وَقَالَ تَعَالَى آمِراً لِعِبَادِهِ المُؤْمِنِيْنَ أَنْ يَغُضُّوْا مِنْ أَبْصَارِهِمْ عَمَّا حَرَّمَ عَلَيْهِمْ فَلا يَنْظُرُوا إِلَّا لِمَا أَبَاحَ لَهُمْ النَّظَرُ إِلَيْهِ : « قُلْ لِلْمُؤْمِنِيْنَ يَغُضُّوْا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوْجَهُمْ » .

قَالَ أَبُو حَيَّانٍ فِي تَفْسِيرِهِ : قُدِّمَ غَضُّ البَصَرِ عَلَى حِفْظِ الفُرُوْجِ لأَنَّ النَّظَرَ بَرِيْدُ الزِنَا وَرَائِدُ الفُجُوْرِ وَالبَلْوَى فِيه أَشَدُّ وَاكْثَرُ لا يَكَادُ يَقْدُرُ على الاحْتِرَازِ مِنْهُ ، وَهُوَ البَابُ الأَكْبَرُ إِلَى القَلْبِ وَأَعْمَرُ طُرُقِ الحَوَاسِّ إِلَيْهِ وَيَكْثُرُ السُّقُوْطُ مِنْ جِهَتِهِ .

وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ السَّمْعَ وَالبَصَرَ والفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُلَا ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ ﴾ قَالَ البَغَوِي : أَيْ خِيَانَتُهَا ، وَهِيَ اسْتِرَاقُ النَّظَرِ إِلَى مَالَا يَحِلُّ .

قَالَ مُجَاهِدُ: هُوَ نَظَرُ الأَعْيُنِ إِلَى مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ .

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ـ رَضْيَ اللهُ عَنهُ ـ أَنَّ النَّبِي صَلى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلمَ قَالَ : « كُتِبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ نَصِيْبُهُ مِنْ الزِّنَا ، مُدْرِكٌ ذَلِكَ لَا مَحَالَةَ ، العَيْنَانِ زِنَاهُمَا النَّظَرُ ، وَالأُذُنَانِ زِنَاهُمَا الاسْتِمَاعِ ، وَاللِّسانُ زِنَاهُ الكَلَامُ » مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ .

وَأَخْرَجَ الطَّبَرَانِيْ عَنْ ابْنِ مَسْعُوْدٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلمَ يَعْنِي عَنْ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ النَّظْرَةُ سَهْمٌ مَسْمُوْمٌ مِنْ سِهَامِ إِبْلِيْسَ

مَنْ تَرَكَهَا مِنْ مَخَافَتِيْ أَبْدَلْتُهُ إِيْمَاناً يَجِدُ حَلاَوَتُهُ فِيْ قَلبِهِ .

وَرَوَى الاصْبَهانيْ عَنْ أَبِيْ هُرَيرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُوْلُ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلمَ كُلُّ عَيْنٍ بَاكِيَةٌ ، يَوْمَ القِيَامَةِ إلاَّ عَيْناً غَضَّتْ عَنْ مَحارِمِ اللهِ وَعَيْناً سَهِرَتْ في سَبْيلِ اللهِ وَعَيْناً خَرَجَ مِنْهَا مِثْلُ رَأْسِ الذُّبَابِ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ . وَأَخْرَجَه الامَامُ أَحْمَدُ وَابْنُ حِبَّانَ في حَيْحِهِ وَقَالَ صَحِيْحُ الإِسْنَادِ وَاعْتَرَضَهُ المُنْذِرِي .

عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ أَنَّ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ اضْمَنُوْا لي سِتًّا مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَضْمَنْ لكمُ الجَنةُ اصْدُقُوا إِذَا حَدَّثْتُم وَأَوْفُوا اذَا وَعَدْتُم وَأَدُّوا إِذَا ائْتُمِنْتُم واحْفَظُوْا فُرُوْجَكُم وغُضُّوْا أَبْصَارَكُم وَكُفُّوا أَيْدِيَكُم . وَقَالَ ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ والنَّظَرُ أَصْلُ عَامَّةِ الحَوَادِثِ التي تُصِيْبُ الانْسَانَ فانَّ النَّظْرَةَ تُوَلِّدُ خَطْرَةً ثُمَّ تُوَلِّدُ الخَطْرَةُ فِكْرَةً ثُم تُوَلِّدُ الفِكْرَةُ شَهْوَةً ثم تُولدُ الشَّهْوَةُ إِرَادَةً ثم تَقْوَى فَتَصِيْرُ عَزِيْمَةً جَازِمَةً فَيَقَعُ الفِعْلُ وَلاَ بُدَّ مَا لَمْ يَمْنَعْ مَانِعٌ .

وَفي هَذَا قِيْلَ : الصَّبْرُ عَلى غَضِّ النَّظَرِ أَيْسَرُ مِنْ الصَّبْرِ عَلى أَلَمٍ بَعْدَهُ . قَالَ الشَّاعِرُ :

كُلُّ الحَوَادِثِ مَبْدَاهَا مِنَ النَّظَرِ
وَمُعْظَمُ النَّارِ مِنْ مُسْتَصْغَرِ الشَّرَرِ
كَمْ نَظْرَةٍ فَتَكَتْ فِي قَلْبِ صَاحِبِهَا
فَتْكَ السِّهَامِ بِلاَ قَوْسٍ وَلاَ وَتَرِ

وَالعَبْـدُ مَـا دَامَ ذَا عَيْنٍ يُـقَلِّبُـهَـا
فِيْ أَعْيُنِ الغِيْـدِ مَوْقُـوفٌ عَلَى خَطَرِ
يَسُـرُّ نَـاظِـرَهُ مَـا ضَـرَّ خَـاطِـرَهُ
لَا مَـرْحَبـاً بِسُـرُوْرٍ عَـادَ بِـالضَّـرَرِ

وَعَنْ بُرَيْدَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلمَ لِعَلِيْ « يا عَلَي لا تُتْبِعْ النَّظْرَةَ النَّظْرَةَ ، فَانَّ لَكَ الأوْلَى وَلَيْسَتْ لَكَ الآخِرَةُ » رَوَاهُ أَحْمَدُ والتِّرْمِذِيُّ وَأَبُوْ دَاوُدَ وَالدَّارِمِيْ .

وَفي حَدِيْثِ جَرِيْرٍ ـ رَضْيَ اللهُ عَنْهُ ـ قَالَ : سَأَلْتُ رَسُوْلَ اللهِ صَلى اللهُ عليه وَسَلَّمَ عَنْ نَظْرَةِ الفُجَاءَةِ فَقَالَ : اصْرِفْ بَصَرَكَ وَرَوَى مُسْلِمٌ عَنْ أَبِي هُرَيرَةِ ـ رَضْيَ اللهُ عَنْهُ ـ أَنَّ النَّبِيَ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ انَّ المَرْأَةَ تُقْبِلُ في صُوْرَةِ شَيْطَانٍ وَتُدْبِرُ في صُوْرَةِ شَيْطَانٍ فَاذَا رَأى أَحَدَكُمْ مِنْ امْرَأَةٍ مَا يُعْجِبُهُ فَلْيَأْتِ أَهْلَهُ فَانَّ ذَلِكَ يَرُدُّ مَا في نَفْسِهِ .

وَعَنْ ابنِ مَسْعُودٍ عَنْ النَّبِي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ المَرْأَةُ عَوْرَةٌ فَاذَا خرَجَتْ اسْتَشْرَفَهَا الشَّيْطَانُ رَوَاهُ التِّرْمِذِيّ .

وَعَنْ أَبِيْ سَعِيْدٍ الخُدْرِيْ ـ رَضْيَ اللهُ عَنْهُ ـ عَنْ النَّبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلمَ أنه قالَ : » إنَّ الدُّنيَا حُلوَةٌ خَضرةٌ وإنَّ اللهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيْهَا فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلوُنَ فَاتَّقُوا الدُّنْيا وَاتَّقُوْا النِّسَاءَ فَإن أَوَّل فِتْنَةِ بَنِيْ اسْرَائِيلَ في النِّسَاءِ رَوَاهُ مُسْلِمٌ .

وَعَنْ أَبِيْ أُمَامَةَ عَنْ النَّبِي صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، قَالَ : « مَا مِن مُسْلِمٍ يَنْظُرُ إلى مَحَاسِنِ امْرَأَةٍ أَوَّل مَرَّةٍ ثُمَّ يَغُضُّ بَصَرَهُ إلَّا أَحْدَثَ اللهُ لَهُ

عِبَادَةً يَجِدُ حَلاوَتَهَا » رَوَاهُ أَحْمَدُ .

شِعْراً :

لَا تَخْلُ بِامْرَأَةٍ لَدَيْكَ بِرِيْبَةٍ
لَوْ كُنْتَ فِيَ النُّسَّاكِ مِثْلَ بَنَانِ

وَاغْضُضْ جُفُونَكَ عَنْ مُلَاحَظَةِ النِّسَاء
وَمَحَاسِنِ الأَحْدَاثِ وَالصِّبْيَانِ

إِنَّ الرِّجَالَ النَّاظِرِيْنَ الى النِّسَاء
مِثْلُ الكِلَابِ تَطُوْفُ بِاللُّحْمَانِ

إِنْ لَمْ تَصُنْ تِلْكَ اللُّحُوْمُ أُسُوْدُهَا
أُكِلَتْ بِلَا عَوضٍ وَلَا أَثْمَانِ

اللَّهُمَّ انَّ نَوَاصِيْنَا بِيَدَيْكَ وَأُمُوْرُنَا تَرْجِعُ الَيْكَ وَأَحْوَالُنَا لَا تَخْفَي عَلَيْكَ ، وأَنْتَ مَلْجَؤُنَا وَمَلاذُنَا ، وَالَيْكَ نَرْفَعُ بَثَّنَا وَحُزْنَنَا وَشِكَايَتَنَا ، يَا مَنْ يَعْلَمُ سِرَّنَا وَعَلَانِيَتَنَا نَسْأَلُكَ أَنْ تَجْعَلَنَا مِمَّنْ تَوَكَّلَ عَلَيْكَ فَكَفَيْتَهُ واسْتَهْدَاكَ فَهَدَيْتَهُ وَهَبْ لَنَا مِنْ فَضْلِكَ العَظِيْمِ وَجُدْ عَلَيْنَا بِاحْسَانِكَ العَمِيْمِ ، وَاغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَلِجَمِيْعِ المُسْلِمِيْنَ الأَحْيَاءِ مِنْهُمْ وَالميِّتِيْنَ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ ، وَصَلى اللهُ عَلَى مُحمد وعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

(فَصْلٌ)

قَالَ شَيْخُ الاسْلَامِ رَحِمَهُ اللهُ : يُقَالُ انَّ غَضَّ البَصَرِ عَنْ الصُّوْرَةِ التِي يُنْهَى عَنْ النَّظَرِ إِلَيْهَا كَالمَرْأَةِ والأمرَدِ الحَسَنِ يُوْرِثُ ثَلاثَ فَوائِدَ :

احْدَاهَا : حَلاَوَةُ الايْمَانِ ، وَلَذَّتُهُ التيْ هِيَ أَحْلَى وأَطْيَبُ مِمَّا تَرَكَهُ لِلهِ ، فَانَّ مَنْ تَرَكَ شَيْئاً لِله عَوَّضَهُ اللهُ خَيْراً مِنْهُ .

الفَائِدَةُ الثانِيَةُ : أَنَّ غَضَّ البَصَرِ يُوْرِثُ نُوْرَ القَلْبِ والفِراسَةِ .

الفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ : قُوَّةُ القَلْبِ وَثباتُهُ وَشَجاعَتُهُ فَيَجْعَلُ اللهُ لَهُ سُلْطَانَ البَصِيْرَةِ مَعَ سُلْطَانِ الحُجَّةِ ، فَإِنَّ في الأَثَرِ « الذِيْ يُخَالِفُ هَوَاهُ يَفْرَقُ الشَّيْطَانُ مِنْ ظِلِّهِ » .

وَإِذَا كَانَ النَّظَرُ إلى مَنْ لاَ يَحِلُّ النَّظَرُ اليْهِ مُحَرَّماً فَالخَلْوَةُ بِمَنْ لاَ تَحِلُّ مُحَرَّمَةٌ مِنْ بَابٍ أَوْلَى وَأَحْرَى لِأَنَّ الوَسَاوِسَ الشَّيْطَانِيَّةَ تَجِدُ لَهَا مَجالاً في هَذِهِ الحَالَةِ وَثَوَرَانِ الشَّهْوَةِ يَجِدُ لَهُ مُبَرِّراً فَيَضْعُفُ العَقْلُ عِنْدَ هَذَا ، وَلاَ يَكُوْنُ لَهُ تَأْثِيْرٌ عَلى زَجْرِ الشَّهْوَةِ فَتَسُوْقُهُ نَفْسُهُ الأَمَّارَةُ بالسُّوْءِ إلى الفَاحِشَةِ ، لِهَذا نَهى المُصْطَفى صَلى اللهُ عَليهِ وَسَلم عَنْ الخَلْوَةِ فَقَدْ رُوى عَنْ ابن عَبَّاسٍ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلم قَالَ : « لاَ يَخْلُوَنَّ أَحَدُكُم بامْرَأَةٍ الا مَعَ ذِيْ مَحْرَمٍ » مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ .

وَعَنْ عُقْبَة بْنِ عَامِرٍ أَنَّ رَسُوْلَ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : « إِيَّاكُمْ وَالدخُولَ عَلى النِّسَاءِ ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ الأَنْصَارِ أَفَرَأَيْتَ الحَمْوَ ؟ قَالَ : الحَمْوُ المَوْتُ » مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ .

وَالحَمْوُ : قَرِيْبُ الزَّوْجِ كَأَخِيْهِ وَابْنِ أَخِيْهِ وَابْنِ عَمِّهِ .

وَعَنْ أَمِيْرِ المُؤْمِنِيْنَ عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلمَ قَالَ ألا لا يَخْلُو رَجُلٌ بامْرَأَةٍ إلاَّ كَانَ ثَالِثُهُمَا الشَّيْطَانُ رَوَاهُ امَامُ

أَحْمَدُ في مُسْنَدِهِ وَالتِّرْمِذِيّ في جَامِعِهِ .

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ عَنْ النَّبِي صَلى اللهُ عَليهِ وسَلمِ أَنَّهُ قَالَ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ باللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ فَلا يَخْلُوَنَّ بامْرَأَةٍ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا مَحْرَمٌ رَوَاهُ الطَّبرَانِيْ في الكَبيرْ .

وَرَوَى الطَّبَرانِيْ أَيْضاً عَنْ أَبِيْ أُمَامَةَ عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنهُ قالَ اِيَّاكَ وَالخَلوَةُ بالنِّسَاءِ والذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا خَلاَ رَجُلٌ بامْرَأَةٍ الاَّ وَدَخَلَ الشَّيْطَانُ بَيْنَهُمَا اولأَنْ يَزْحَمَ الرَّجُلُ خِنْزِيْراً مُتَلِطِّخاً بِطِيْنٍ أَوْ حَمَأَةٍ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أن يَزَحَمَ مَنْكِبُهُ مَنْكِبَ امْرَأَةٍ لا تَحِلُّ لَهُ .

وَمِنْ أَخْطَرِ مَا يَكُوْنُ عَلَى النِّسَاءِ خِدْمَةُ الرِّجَالِ في البُيُوتِ إذَا كَانَ هُنَاكَ اخْتِلاطٌ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُنَّ خُصُوصاً إذَا كَانَ الرَّجُلُ المُسْتَخدَمُ مِنَ الشُّبَّانِ وَانْ كَانَ لَهُ وَسْمَةُ جَمَالٍ فَأَقْرَبُ الى الخَطَر وَقَدْ يَكونُ أشَبُّ مِن صَاحِبِ البَيْتِ وَأَجْمَل وَهُوَ مَلازِمٌ لِلبَيْتِ لَيْلَهُ وَنَهَارَهُ وَهُوَ تَحْتَ أَمْرِ الزَّوْجَةِ أَوْ نَحْوِهَا وَفي إمْكَانِهَا إبْقَاؤُهُ أو طَرْدُهُ فَالخَطَرُ عَظِيْمٌ ، وَانْ كَانَتِ المَرْأَةُ ذَا شَرَفٍ وَمَكَانَةٍ وَتَأَمَّلْ قِصَّة امْرَأَةِ العَزِيْزِ مَعَ يُوْسُفَ عَلَيْهِ السَّلامِ حِيْنَ رَاوَدَتْهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعَاذَ باللهِ مِنْ شَرِّهِنَّ وَكَيْدِهِنَّ فَعَصَمَهُ اللهُ عِصْمَةً عَظِيْمَةً وَحَمَاهُ فَامْتَنَع أَشَدَّ الإمتِنَاعِ عَنْهَا وَاخْتَار السِّجْنَ عَلَى ذَلِكَ وَهَذَا في غَايَةِ مَقَامَاتِ الكَمَالِ أَنَّهُ مَعَ شَبَابِهِ وَجَمَالِهِ وَكَمالِهِ تَدْعُوْهُ سَيِّدَتُهُ وَهِيَ امْرَأَةُ عَزِيْزِ مِصْرَ وَهِيَ مَعَ هَذا في غَايَةِ الجَمَال وَالمَالِ وَالرِّيَاسَةِ وَيَمْتَنِعُ مِنْ ذَلِكَ وَيَخْتَارُ السِّجْنَ عَلى ذَلِكَ خَوْفاً مِنْ اللَّهِ وَرَجَاءَ ثَوَابِهِ وَلِهَذَا ثَبَتَ في الصَّحِيْحَيْنِ أَنَّ مِنْ السَّبْعَةِ الذِيْنَ يُظِلُّهُمْ اللهُ في ظِلِّهِ رَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ فَقَالَ إنِّيْ أَخَافُ اللَّهَ .

مَوْعِظَةٌ

عِبَادَ اللهِ نَحْنُ فِي زَمَنٍ كُلُّهُ عَجَائِبُ يُعْجِبُ العَاقِلُ اللَّبِيْبُ وَمِنْ أَعْجَبِ مَا فِيْهِ أَنَّ الرِّجَالَ أَصْبَحُوْا لَا سُلْطَانَ لَهُمْ عَلى النِّسَاءِ إلا النَّادِرَ القَلِيْلَ ، نَعَمْ أَصْبَحْنَا في زَمَنٍ لِلنِّسَاءِ فِيْهِ جَبَرُوْتٌ أَمَامَهُ الرِّجَالُ في حَالٍ ضَئِيْلٍ انْعَكَسَ الأَمْرُ فَصَارَ القَوِيُّ ضَعِيْفاً وَالضَّعِيْفُ قَوِيًّا فَانْ كُنْتَ في شَكٍّ مِنْ ذَلِكَ فَاخْرُجْ وانْظُر في الشَّوَارِعِ تَرَى النِّسَاءَ تَجُوْلُ في الشَّوَارِعِ ذَاهِبَاتٍ أَيَابَاتٍ وَيَتَثَنَّيْنَ في تَبَخْتُرِهِنَّ عَلَيْهِنَّ مِنْ الزِّيْنَةِ مَا يُرْغِمُ عَلى النَّظَرِ إِلَيْهِنَّ كُلُّ مَنْ لهُ عَيْنَانِ .

وَلَا تَسْأَلْ عَمَّا يُحْدِثُهُ ذَلِكَ النَّظَرِ في نُفُوْسِ الشُّبَّانِ وَأَشْبَاهِ الشُّبَّانِ تَرَاهُ إِذَا لَمَحَها أَتْبَعَهَا نَظَرَهُ ثُمَّ جَرَى وَرَاءَهَا لأَنَّهُ يَفْهَمُ مِنْ هَيْئَتِهَا وَتَثَنِّيهَا وَتَلَفُّتِهَا فَهْمَاً لَا يُقَالُ لَهُ إِنَّهُ فِيْهِ غَلْطَانٌ ، إِنَّه يَفْهَمُ أَنَّهَا إِذَا لَمْ تَكُنْ تُرِيْدُ مِنْهُ مَا تُرِيْدُ مَا عَرَضَتْ نَفْسَهَا فِيْ الشَّارِعِ بِذَلِكَ التَّهَتُّكِ وَذَلِكَ الازْدِيَانُ وَهِيَ فِي بَيْتِهَا أَمَامَ زَوْجِهَا الذي يَنبَغِي أَنْ تَتَجَمَّلَ لَهُ تَكُوْنُ بِحَالةٍ تَشْمَئِزُّ مِنْ رُؤْيَتِهَا نَفْسُ الانْسَانِ ، تَلْبَسُ لَهُ أَرْدَى المَلابِسَ وَلَا تَمَسُّ طِيْباً وَلَا تَعْتَنِيْ لَهُ ، فَاذَا أَرَادَتْ الخُرُوْجَ بَذَلَتْ مِنْ العِنَايَةِ في تَجْمِيْلِ نَفْسِهَا مَا يُلْهِبُ نَارَ الشَّوْقِ إِلَيْهَا في نُفُوسِ النَّاظِرِيْنَ .

وَهَذِهِ حَالَةٌ تَجْعَلُ العُيُونَ وَقْفاً عَلى النَّظَرِ إلى تِلْكَ الاَجْسَامِ وَتَشْغَلُ القُلُوْبَ شُغْلاً بِهِ تَنْسَى كُلَّ شَيءٍ حَتَّى نَفْسَهَا وَرَبَّهَا وَمَا لَهُ عَلَيْهَا مِنْ وَاجِبَاتٍ ، وَتُوَجِّهُ الأَفْكَارَ إلى أُمُورٍ دَنِيْئَةٍ يَقْصِدُهَا مِنْ أُوْلئِكَ النِّسَاءِ أَرْبَابُ النُّفُوسِ الدَّنِيْئَاتِ ، بَلْ وَتَدْفَعُ النُّفُوسَ دَفْعاً تَسْتَغِيْثُ مِنْهُ الفَضِيْلَةُ وَيَغْضَبُ لَهُ الوَاحِدُ القَهَّارُ .

إنَّ أُوْلَئِكَ النِّسَاءُ زَوْجَاتُ وَبَنَاتُ وَأَخَوَاتُ رِجَالٍ يَرَوْنَهُنَّ بِأَعْيُنِهِمْ فِي الشَّوَارِعِ بِتِلْكَ الحَالِ يَرَوْنَهُنَّ وَلَيْسَ لَهُمْ مِنَ الغَيْرَةِ مَا يُفهِمُ أنهُم مِنْ صِنْفِ الرِّجَالِ ، وَأَمَامَهُمْ يُجْرِيْنَ الزِّيْنَةَ التِي يَخْرُجْنَ بِهَا إلى تِلْكَ المَيَادِيْنَ المَلأَى بِالأَنْذَالِ ، وَبَعْضُهُمْ يَسْتَصْحِبُ زَوْجَتَهُ مَعَهُ سَافِرَةً فِي الشَّوَارِعِ وَرُبَّمَا فَهِمَ بَعْضُ الفُسَّاقِ أَنَّهُ يَتَصَيَّدُ لَهَا وَذَلِكَ يَجْرِي عَلى ألسِنَةِ كَثِيْرٍ مِنْهُمْ .

أَيُّهَا الأَخُ عَصَمَنَا اللهُ وَإِيَّاكَ وَجَمِيْعَ المُسْلِمِيْنَ أَنْتَ أَقْوَى عَقْلاً وَأَقْوَى دِيْناً مِنَ المَرْأَةِ لاَ خِلافَ فِي ذَلِكَ إنْ لَم يَعْصِمْكَ اللهُ تَتَمَنَّى أَنْ يَكُوْنَ مِنْكَ مَعَ المَرْأَةِ مَا يَكُوْنَ إذَا وَقَعَ نَظَرُكَ عَلَى مَا لَهَا مِنْ بَهَاءٍ وَجَمَالٍ فَتَأَكَّدْ كُلَّ التَّأَكُّدِ أَنَّ تَمَنِّيْ المَرْأَةِ أَقْوَى مِنْ تَمَنِّي الرَّجُلِ إذَا وَقَعَ نَظَرُهَا عَلى جَمِيْلٍ مِنَ الرِّجَالِ وَلاَ تَشُكُّ أَنها بَعْدَ رُؤيَتِهَا الجَمِيْلَ تَتَمَنَّى فِرَاقَكَ إلَيْهِ وَرُبَّمَا دَعَتْ عَلَيْكَ ، نَحْنُ فِي جَوٍّ مَوْبُوءٍ بِفَسَادِ الأَخْلاَقِ ، مَنْ تَعَرَّضَ لَهُ أَصَابَهُ مِن ذلك الوَبَاء مَا يُضَيِّعُهُ فِي دُنْيَاهُ وَفِي الدِّيْنِ .

فَصُنْ نِسَاءَكَ عَنِ الخُرُوْجِ إلَيْهِ انْ أَرَدْتَ العَافِيَةَ وَالاَّ فَلاَ تَلُمْ الا نَفْسَكَ اذَا أَصْبَحْتَ فِي عِدَادِ الضَّائِعِيْنَ وَالضَّائِعَاتِ أَنْتَ تَرَى كُلَّ يَوْمٍ مَا يَكُونُ فِي الطُّرُقِ لِنِسَاءِ غَيْرِكَ فَلاَ تَشُكُّ أَنَّ نِسَاءَكَ يُلاقِيْنَ مِثْلَهُ وَأَشَدَّ مِنْهُ وَأَيُّ رَجُلٍ يَرْضَى أَنْ تَخْرُجَ نِسَاؤُهُ لِيَلْعَبَ بِعَفَافِهِنَّ وَشَرَفِهِنَّ مَنْ لاَ دِيْنَ لَهُ وَلاَ شَرَفَ وَلاَ أَخْلاَقَ ، إنَّ البَهِيْمَ يَغَارُ وَمَعَارِكُ ذُكُوْرِ البَهَائِمِ عَلى إنَاثِهَا مَعْرُوفَةٌ ، فَلاَ تَكُنْ أَقَلَّ غَيْرَةً مِنَ البَهِيْمِ ، وَلَوْلاَ أَنَّنَا نَرى بِأَعْيُنِنَا مَبْلَغَ ضَعْفِ رِجَالِنَا أَمَامَ النِّسَاءِ مَا صَدَّقْنَا أَنْ يَسْتَصْحِبَ الرَّجُلُ زَوْجَتَهُ سَافِرَةً رَاكِبَةً أَوْ غَيْرَ رَاكِبَةٍ تَقْدُمُهُ .

أَيُّهَا الأَخُ أَنْتَ الذِي تَلْقَى المَشَاقَّ مِنْ حَرٍّ وَبَرْدٍ وَأَنْتَ مَشْغُولٌ بِالكَدِّ لأَجْلِ جَلْبِ الرِّزْقِ ، يَكُوْنُ مِنْكَ ذَلِكَ لِتُطْعِمَ المَرْأَةَ وَتَكْسُوْهَا وَتُنْعِمَ عَلَيْهَا فَفَضْلُكَ عَلَيْهَا كَبِيْرٌ كَمَا قَالَ تَعَالى : ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ على النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللهُ بَعْضَهُمْ على بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ ﴾ وَأَنْتَ أَرْجَحُ مِنْهَا عَقْلاً وَأَكْمَلُ دِيْناً ، فَمِنْ الغَلَطِ أَنْ تَكُونَ مَعَها كَالعَبْدِ المَمْلُوكِ يُصَرِّفُهُ مَوْلاَهُ كَيْفَ شَاءَ . وَإِذَا كُنْتَ كَمَا ذَكَرَ اللهُ قَوَّاماً عَلَيْهَا فَأَنْتَ مَسْئُولٌ عَنْهَا لأَنَّكَ رَاعِيْهَا والرَّاعِيْ مَسْئُولٌ عنْ رَعِيَّتِهِ ، فَأَنْتَ مُثَابٌ إِنْ وَجَّهْتَهَا إِلَى عَمَلِ الخَيْرِ وَآثِمٌ انْ سَكَتَّ عَنْهَا وَهِي تَعْمَلُ أَعْمَالاً لَيْسَتْ مَرْضِيَّةً ، فَانْظُرْ مَاذا عَلَيْكَ مِنْ الإِثْمِ في خُرُوجِ زَوْجَتِكَ وَمَا يَتَرَتَّبُ عليْهِ مِنَ بَلاَيَا مَرْئِيَّةٍ وَغَيْرَ مَرْئِيَّةٍ ، فَحُلْ بَيْنَهَا وَبَيْنَ مَا تَعْلَمُ أَنَّ فِيْهِ ضَرَرٌ عَلَيْهَا وَكُلُّ عَمَلٍ يُغْضِبُ رَبَّكَ ، وَالا فَأَنْتَ شَرِيْكٌ لَهَا في كُلِّ مَا لَها مِنْ أَوْزَارٍ . أ هـ .

كُلُّ هَذَا سَبَبُهُ مُخَالَطَةُ رَبَائِبِ الاسْتِعْمَارِ الذِيْنَ تَشَبَّهُوا بِهِ وَقَلَّدُوْهُ في الأَقْوَالِ وَالأَفْعَالِ ، وَقَلَّدَهُمْ كَثِيْرٌ مِنْ نِسَائِنَا ، وَصَدَقَ المُصْطَفَى صَلى اللهُ عليهِ وَسَلم حَيْثُ يَقُوْلُ : لَتَرْكَبُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ شِبْراً بِشِبْرٍ وَذِرَاعاً بِذِرَاعٍ حَتَّى لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ دَخَلَ حُجْرَ ضَبٍّ لَدَخَلْتُمُوْهُ وَحَتَّى لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ جَامَعَ امْرَأَتَهُ بِالطَّرِيْقِ لَفَعَلْتُمُوْهُ ، فَلاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إلا بِاللَّهِ العَلِيِّ العَظِيْمِ وَهُوَ حَسْبُنَا وَنِعْمَ الوَكِيْلِ أ هـ .

اللهُمَّ احْفَظْنَا مِن المُخَالَفَةِ وَالعِصْيَانِ وَلا تُؤَاخِذْنَا بِجَرائِمَنَا وَمَا وَقَعَ مِنَّا مِن الخَطأَ وَالنِّسْيَانِ وَاغْفِر لنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَلِجَمِيْعِ المُسْلِمين الأَحْياءِ مِنْهُم وَالمَيِّتِيْنَ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وَصَلَى اللّهُ عَلى مُحَمَّدٍ وَعَلى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

(فَصْلٌ)

فِيْمَا يُسْتَحَبُّ أَنْ يَقُوْلَهُ أَوْ يَفْعَلَهُ

يُسْتَحَبُّ أَنْ يَتَسَحَّرَ لِلصَّوْمِ لِمَا وَرَدَ عَنْ أَنَسٍ أَنَّ النَّبي صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَال : « تَسَحَّروا فَإنَّ في السَّحُورِ بَرَكَةً » .

وعَنْ عَمْرو بن العَاصِ قَال : قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ : « إنَّ فَصْلَ مَا بَيْنَ صِيَامِنَا وَصِيَامِ أَهْلِ الكِتَابِ أَكْلَةُ السَّحَرِ » .

وعَنْ ابن عُمَرَ ـ رَضِي اللهُ عنهُمَا ـ أَنَّ النبيَّ صَلى اللهُ عَليهِ وَسَلمَ قَال : « انَّ اللهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ على المُتَسَحِّرِيْنَ » .

وَعَنْ العِرْبَاضِ بن سَارِيَةَ قَالَ دَعَانِيْ رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عَليهِ وسَلمَ الى السَّحُورِ في رَمَضانَ فَقَالَ : « هَلُمَّ إلى الغَدَاءِ المُبَارَكِ » .

وَعَنْ أَبي هُرَيْرَةَ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ قَالَ: قَالَ رَسُوْلُ اللهِ صَلى اللهُ عَليهِ وَسَلَم : « نِعْمَ سَحُورُ المُؤْمِنِ التَّمْرُ » .

وَيَنْبَغِيْ أَنْ يُخَفِّفَ عَشَاءَهُ في لَيَالِي رَمَضَانَ لِيَهْضِمَ طَعَامَهُ قَبْلَ السَّحُورِ وَلِأَنَّ الامْتِلاءَ مِنَ الطعَامِ رُبَّما يَكُونُ سَبَباً لِلتُّخَمْ .

وَعَنْ المِقْدَادِ بن مَعْدِ يكْرِبَ ـ رَضَيَ اللهُ عَنْهُ ـ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلى اللهُ عَليهِ وَسَلمَ يَقُولُ : « مَا مَلأَ ابنُ آدمَ وَعاءاً شَرّاً مِنْ بَطْنِهِ بِحَسَبِ ابنِ آدَمَ أَكَلاتٍ يُقِمنَ صُلْبَهُ فَإنْ كَانَ لَا مَحَالَةَ فَثُلثٌ طَعَامٌ وَثُلثٌ شَرَابٌ وثُلثٌ نَفَسٌ » .

والشِّبَعُ مَذْمُومٌ لأنَّهُ يُوجِبُ تَكَاسُلَ البَدَنِ وَكَثْرَةُ النَّوْمِ وَبَلاَدَةِ الذِّهْنِ وَذَلِكَ يُكْثِرُ البُخَارُ في الرَّأسِ حَتَّى يُغَطِي مَوْضِعَ الذِّكْرِ والفِكْرِ ، والبِطْنَةُ تَذْهبُ الفِطْنَةَ وَتَجْلِبُ أمرَاضاً عَسِرةً ، وَمَقَامُ العَدْلِ أنْ لاَ يَأكُلَ حَتَّى تَصْدُقَ شَهْوَتُهُ وَأنْ يَرْفَعَ يَدَهُ وَهُوَ يَشْتَهِي وَنِهَايَةُ مَقَامِ الحُسْنِ قَوْلُهُ تَعَالى : ﴿كُلُوا وَاشرَبُوا وَلاَ تُسْرِفوا﴾ وَقَوْلُهُ صَلى اللهُ عليهِ وَسَلَم : « ثُلُثٌ طَعَامٌ وَثُلُثٌ شَرَابٌ وَثُلُثٌ نَفَسٌ » .

والأكْلُ عَلَى مَقَامِ العَدْلِ يُصِحُّ البَدَنَ وَيُبْعِدُ المَرَضَ بإذْنِ اللهِ وَيُقَلِّلُ النَّوْمَ وَيُخَففُ المَؤُنَةَ وَيُرِقُّ القَلْبَ وَيُصَفِّيهِ فَتَحْسُنُ فِكْرَتُهُ وَتُسَهِّلُ الحَرَكَاتِ وَالتَّعْبِيْرَاتِ ، والشِّبَعُ يُمِيْتُ القَلْبَ وَمِنْهُ يَكُونُ الفَرَحُ وَالمَرَحُ وَالضَّحِكُ .

وَيُسْتَحَبُّ تَأْخِيْرُ السَّحُورِ لِمَا وَرَدَ عَنْ أَنَسِ بن مَالِكٍ عَنْ زَيْدِ ابنْ ثَابِتٍ ـ رَضْى اللهُ عَنْهُ ـ قَالَ : تَسَحَّرْنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلى اللهُ عليهِ وَسَلمَ ثُمَّ قَامَ الى الصَّلاَةِ قَالَ أَنَسٌ : قُلتُ لِزَيدٍ : كَمْ كَانَ بَيْنَ الأذَانِ وَالسَّحُورِ ؟ قَالَ : قَدْرُ خَمْسِينَ آيَةٍ مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ . وَلَما وَرَدَ في البُخَارِي عَنْ سَهْلِ بنْ سَعْدٍ ـ رَضْيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ : كُنْتُ أَتَسَحَّرُ في أَهْلي ثُمَّ تَكُونُ سُرْعَتِي أنْ أُدْرِكَ السُّجُودَ مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلى اللهُ عليهِ وَسَلم .

وَعَنْ سَهْل بن سَعْد السَّاعِدي ـ رَضي اللهُ عَنْهُ ـ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلى اللهُ عليهِ وَسَلم قَال : « لا يَزَالُ النَّاسُ بِخَيرٍ مَا عَجَّلُوا الفِطْرَ وَأَخَّرُوا السَّحُور » .

وعَن ابنِ عَطِيَّةَ قَالَ : دَخَلْتُ أَنا وَمَسْرُوقٌ عَلى عَائِشَةَ ، فَقُلنَا : يَا

أمّ المؤمنين ، رَجُلانِ مِنْ أَصْحَابِ مُحَمد أحدُهُما يُعَجِّلُ الافْطَارَ وَيُعَجِّلُ الصَّلاةَ وَالآخرُ يُؤخِرُ الافْطَارَ وَيُؤَخِّرُ الصَّلاةَ ، قَالَتْ : أَيُّهُمَا يُعَجِّل الافْطَارَ وَيُعَجِّلَ الصَّلاةَ ؟ قُلْنَا: عَبْدُ اللهِ بن مَسْعُودٍ ، قَالَتْ: هَكَذَا صَنَعَ رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عَليهِ وَسَلم والآخرُ أبُو مُوْسَى .

وَلأَنَّ السَّحُورَ يُرَادُ بِهِ التَّقَوِّى عَلى الصَّوم . فَكَانَ التَّأْخِيْرُ أَبْلَغَ فِي ذَلِكَ وَأَوْلَى ، وَيُسَنُّ تَعْجِيْلُ فِطْرٍ إِذَا تَحَقَّقَ الغُرُوبَ لِمَا وَرَدَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ قَال : قَال رسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ انَّ أَحَبَّ عِبَادِي إِلَيَّ أَعْجَلُهُمْ فِطْرا » .

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ـ رَضْيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « لاَ يَزَالُ الدِّيْنُ ظَاهِراً مَا عَجَّلَ النَّاسُ الفِطْرَ ، لِأَنَّ اليَهُودَ وَالنَّصَارَى يُؤَخِّرُونَ » . وَلِحَدِيْثِ سَهْلٍ وَحَدِيْثِ أبي عَطِيَّةَ وَقَدْ تَقَدَّمَا قَرِيْبًا .

وَيُسَنُّ أَنْ يَكُوْنَ فِطْرُهُ عَلَى رُطَبٍ ، فَانْ عَدِمَ فَتَمْرٌ فَانْ عَدِمَ فَمَاءٌ لما وَرَدَ عَن أنَسٍ ـ رَضي اللهُ عَنْهُ ـ قَالَ : كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلم يُفْطِرُ عَلى رُطَبَاتٍ قَبْلَ أَنْ يُصَلِّي فَانْ لَمْ تَكُنْ رُطَبَاتٍ فَتَمَراتٍ ، فَانْ لَمْ تَكُن تَمَرَاتٍ حَسَا حَسَواتٍ مِنْ مَاءٍ ، وَعَنْ سَلْمَانَ بن عَامِرٍ الضَّبِّيْ قَال : قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « اذَا أفطَرَ أَحَدُكُمْ فَلْيُفْطِرْ عَلى تَمْرٍ ، فَانَّهُ بَرَكَةٌ فَانْ لَمْ يَجِدْ تَمْراً فَالمَاءُ فانَّهُ طَهُورٌ » .

والفِطْرُ قَبْلَ صَلاَةِ المَغْرِبِ أَفْضَلُ ، لِحَدِيْثِ أَنَسٍ ـ رَضْيَ اللهُ عَنْهُ ـ قَالَ : « مَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ صَلى اللهُ عَليه وَسَلم يُصَلِّي حَتَّى يُفْطِرَ ، وَلَوْ شَرْبَةَ مَاءٍ » .

وَيُسْتَحَبُّ قَوْلُ الصَّائِمِ عِنْدَ فِطْرِهِ :

اللَّهُمَّ لَكَ صُمْتُ ، وَعَلى رِزْقِكَ أَفْطَرْتُ ، سُبْحَانَكَ وَبِحَمْدِكَ اللهُمَّ تَقَبَّلْ مِنِّيْ ، انَّكَ أَنْتَ السَّمِيْعُ العَلِيْمُ . لِمَا وَرَدَ عَنْ مُعَاذِ بنِ زَهْرَةَ : أَنَّهُ بَلغَهُ أَنَّ النَّبي صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ اذَا أَفْطَرَ قَالَ : « ذَهَب الظَّمَأُ وَابْتَلَّتْ العُرُوقُ ، وَثَبَتَ الأجْرُ إنْ شَاءَ اللهُ » وَثَبَتَ عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : « لِلصَّائِمِ عِنْدَ فِطْرِهِ دَعْوَةٌ لَا تَرَدُّ » وَلِحَدِيْثِي ابنْ عَبَّاسٍ وَأَنَسٍ ـ رَضْيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ قَالَا : كَان النبي صَلى اللهُ عَليه وَسَلم اذَا أَفْطَرَ قَالَ : « اللهُمَّ لَكَ صُمْنَا ، وَعَلى رِزْقِكَ أَفطَرْنَا ، اللهُمَّ تَقَبَّلْ مِنَّا إنكَ أَنْتَ السَّمِيْعُ العَلِيْمُ » .

وَعَنْ عَبدِ اللهِ بنِ الزُّبَيْرِ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا ـ قَالَ : أَفْطَرَ رَسُولُ الله صَلى اللهُ عَليهِ وَسَلم عِنْدَ سَعْدِ بن مُعَاذٍ ، فَقَالَ : « أَفْطَرَ عِنْدَكُم الصَّائِمُونَ وَأَكَلَ طَعَامَكُم الأَبْرَارُ وَصَلتْ عَلَيْكُمْ المَلائِكَةُ » .

وَعَلى الانْسَانِ أَنْ يَجْتَهِدَ أَنْ يَكُونَ فِطْرُهُ عَلى حَلَالٍ ، وَأَنْ يَحْذَرَ أَنْ يَكُونَ على حَرَامٍ ، فَإنَّ أَكْلَ الحَرَامِ مِنْ جُمْلَةِ مَوَانِعِ قَبُولِ الدُّعَاءِ ، فَقَدْ وَرَدَ عن أبي هُرَيْرَةَ ـ رَضْي اللهُ عَنْهُ ـ قَالَ : قَالَ رسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عَليهِ وَسَلَّمَ : « إنَّ اللهَ طَيِّبٌ وَلَا يَقْبَلُ الَّا طَيِّباً ، وَان اللهَ أَمَرَ المُؤمِنِينَ بِمَا أَمَرَ به المُرْسَلِيْنَ ، فَقَالَ : ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِن الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً﴾ وَقَالَ : ﴿يَا أَيُّهَا الذين آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُم﴾ ، ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيْلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ يَمُدُّ يَدَيْهِ إلى السَّمَاء وَيَقُوْلُ : يَا رَبُّ يَا رَبُّ ! وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ ، وَغُذِيَ بِالحَرَامِ فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لَهُ » .

وفي الحَدِيثِ ألاَ إنَّ أَوَّلَ مَا يُنْتِنُ مِنْ الانْسَانِ بَطْنُهُ فَمَنْ اسْتَطَاعَ أَلا يَأكُلَ الا طَيِّباً فَلْيَفْعَلْ الحَدِيْثِ .

وَمِنْ آدَابِ الدُّعَاءِ أَنْ يَكُونَ مِنْ صَمِيْمِ القَلْبِ فَعَنْ أَبِيْ هُرَيْرَةَ ـ رَضِي اللهُ عَنه ـ قَالَ : قَال رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلم : أُدْعُوا اللهَ وَأَنْتُمْ مُوْقِنُونَ بالاجَابَةِ واعْلَمُوا أَنَّهُ لاَ يَسْتَجِيْبُ دُعَاءً مِنْ قَلْبٍ غَافِلٍ لاَهٍ وَأَنَ يَكُونَ دُعَائُهُ في السَّرَّاءِ والضَّرَّاءِ .

فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَم مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَسْتَجِيْبَ اللهُ لَهُ عِنْدَ الشَّدَائِدِ وَالكُرَبِ فَلْيُكْثِرْ الدُّعَاء في الرَّخَاءِ وَأَنْ يَكُونَ بِالتَّضَرُّعِ بالرَّغْبَةِ وَالرَّهْبَةِ ، قَالَ اللهُ تَعَالى : ﴿ادْعُوا رَبكُم تَضَرُّعاً وَخُفيْةً﴾ وَقَالَ : ﴿إنهُم كَانُوا يُسَارِعُونَ في الخَيْراتِ وَيَدْعُونَنا رَغَباً وَرَهَباً وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِيْنَ﴾ وَقَالَ في حَقِّ يُونُسَ عَلَيْهِ السَّلامُ : ﴿فَلَوْلاَ أَنَّهُ كَانَ مِنَ المُسَبحِينَ لَلَبِثَ في بَطْنِهِ الى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ وَأَنْ يَفْتَتِحَ الدُّعَاءَ بِالثَّنَاءِ عَلى اللهِ وَالصَّلاَةِ عَلى نَبِيِّهِ رَسُولِ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

رَوَى التِّرْمِذي وَغَيْرُهُ عَنْ فَضَالَةَ بنْ عُبَيْدٍ قَالَ بَيْنَمَا رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عليهِ وَسَلمَّ قَاعِدٌ إذْ دَخَلَ رَجُلٌ فَصلَّى فقَالَ اللهُمَّ اْغفِرْ لي وارْحَمْنِيْ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلمَ عَجِلْتَ أَيُّها المُصَلي إذا صَلَّيْتَ فَقَعَدْتَ فَاحْمَدِ اللهِ بمَا هُوَ أَهْلُه وَصَلِّ عَليَّ ثُمَّ ادعُهُ قالَ ثُم صَلى رَجُلٌ آخَرُ بَعْدَ ذلكَ فحَمِدَ اللهَ وصَلى عَلَى النبي صَلى اللهُ عليهِ وسَلم فقَال لَهُ النبي صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلمَ أَيُّهاَ المُصَلي أُدْعُ تُجَبْ .

وَعَنْ عُمَرَ قَال إنَّ الدُّعَاءَ مَوقُوفٌ بينَ السَّماءِ والأَرضِ لاَ يَصْعَدُ منهُ

شَيءٌ حَتى تُصَلي عَلَى نَبِّيكَ صَلى اللهُ عليهِ وسَلمَ وأَنْ يُخْفِي الدُّعَاءَ ، قَالَ الحَسَنُ بَين دَعوةِ السِّرِ وَدَعْوَةِ العَلانِيَةِ سَبْعُونَ ضِعْفاً وَانْ كَانَ الرَّجُلُ لَقَدْ جَمَعَ القُرآنَ وَمَا يَشْعُرُ بِهِ النَّاسُ وَان كَان الرَّجُلُ لقد فَقِهَ الفِقْهَ الكثيرَ وَمَا يَشْعُرُ بِهِ النَّاسُ وإنْ كانَ الرجُلُ لِيُصَلي الصَّلاةَ الطويلَةَ في بَيتِهِ وَعندَهُ الزُّوَّارُ مَا يَشْعُرونَ به وَلَقدْ أَدرَكْنَا أَقْواماً ما كَان عَلى الأَرضِ مِن عَمَلٍ يَقْدُرُونَ أَنْ يَعْمَلُوهُ في السرِ فَيكُونُ عَلانيةً أَبداً وَلقَدْ كَانَ المُسْلِمُونَ يَجْتهِدُونَ في الدعاءِ ومَا يُسْمَعُ صَوتٌ إنْ كَانَ الاَّ هَمْسَاً بينَهُم وبينَ رَبِّهِم وذَلِكَ أَنَّ اللهَ يَقُولُ : ﴿ ادعُو ربَّكمُ تَضَرُّعاً وخُفيةً ﴾ وَذلكَ أَنَّ اللهَ ذَكرَ عَبْداً صَالِحاً رَضِيَ فِعْلَهُ فَقالَ اذ نَادَى ربَّه نِداءً خَفِيّاً ﴾ .

شِعْرَاً :

الى مَتَى يَـا عَيْـنُ هَـذَا الـرُّقَـادُ
أَمَـا آنَ أنْ تَـكْتَـحِلِيْ بِـالسُّـهَـادِ
تَـنَـبَّـهِـيْ مِـنْ رَقْـدَةٍ وَانْـظُرِيْ
مَـا فَاتَ مِنْ خَيرٍ عَلَى ذِي الرُّقَـادِ
يَـا أَيُّـهَـا الـغَـافِـلُ فـي نَـوْمِـهِ
قُمْ لِتَـرى لُـطْفَ الكَـرِيمِ الجَـوَادِ
مَـوْلاكَ يَـدْعُـوكَ إلـى بَـابِـهِ
وَأنتَ في النَّـومِ شَبِيـهُ الجَمَـادِ
وَيَـبْـسُطُ الـكَـفَّـيـنَ هَـلْ تَـائِـبٌ
مِنْ ذَنْبِـهِ هَـلْ مَنْ لَـهُ مِنْ مُـرَادِ

وَأَنْتَ مِنْ جَنْبٍ إلى جَانِب
تَدُورُ فِي الفُرْشِ وَلِيْنِ المِهَادِ
يَدْعُوْكَ مَوْلاكَ إلى قُرْبِهِ
وَأنتَ تَختَارُ الجَفَا والبِعَادِ
كَمْ هَكَذا التَّسْوِيْفُ في غَفْلَةٍ
لَيْسَ عَلى العُمْرِ العَزِيْزِ اعْتِمَادِ
لَقَدْ مَضَى لَيْلُ الصِّبَا مُسْرِعاً
وَنَيْرُ صُبحِ الشَّيْبِ فَوْقَ الفُؤَادِ
أَفِقْ فَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ
رَحْمَتُهُ عَمَّتْ جَمِيْعَ العِبَادِ

اللهمُ تَوَفَّنَا مُسْلِمينَ وَأَلْحِقْنَا بِعِبَادِكَ الصَّالِحِينَ وَاغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَلِجَمِيْعِ المُسْلِمِيْنَ الأَحْيَاءِ مِنْهُم وَالمَيِّتِيْنَ بِرَحْمَتِكَ يَا ارْحَمَ الرَّاحِمِينَ وَصَلى اللهُ عَلى مُحَمد وَعلى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

(فَصْلٌ)

في أَحْكَامِ القَضَاءِ

وَيُسْتَحَبُّ قَضَاءُ رَمَضَانَ فَوْراً مَعَ سَعَةِ وَقْتٍ مُسَارَعَةً لِبَرَاءَةِ الذِّمَةِ وَيُسَنُّ التَّتَابُعُ في قَضَائِهِ لأَنَّهُ أَشْبَهُ بالأَدَاءِ وَأَبْعَدُ عَن الخِلَافِ . وَيَجُوزُ تَفْرِيْقُهُ لِمَا وَرَدَ عَنْ ابْنِ عُمَرَ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ أَنَّ النَبي صَلى اللهُ عَليهِ وَسَلمَ قَالَ : « قَضَاءُ رَمَضَانَ إنْ شَاءَ فرَّقَ وَإنْ شَاءَ تَابَعَ » .

وَرَوى الأَثْرَمُ بِاسْنَادِهِ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ المُنْكَدِرِ أَنَّهُ قَالَ : بَلَغَنِي أَنَّ

النَبي صَلى اللهُ عليهِ وَسلم سُئِلَ عَنْ تَقْطِيعِ قَضاءِ رَمَضانَ ، فَقالَ : « لَوْ كَانَ عَلىٰ أَحَدِكُمْ دَيْنٌ فَقَضَاهُ مِن الدِّرْهَمِ وَالدِّرْهَمَيْنِ حَتَّى يَقْضِيَ مَا عَلَيْهِ مِنَ الدَّيْنِ ، هَلْ كَانَ قَاضِياً دَيْنَهُ ؟ قَالُوا نَعَمْ يَا رَسُولَ اللهِ ، قَالَ فَاللهُ أَحَقُّ بِالعَفْوِ وَالتَّجَاوُزِ مِنْكُمْ » .

قَالَ البُخَارِي : قَالَ ابْنُ عَبَّاس ـ رَضِي اللهُ عَنْهُمَا ـ لَا بَأْسَ أَنْ يُفَرِّقَ لِقَوْلِهِ تَعَالى : ﴿فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ مُتَتَابِعَاتٍ ، فَسَقَطَتْ مُتَتَابِعَاتٍ .

وَلَا يَجُوزُ تَأْخِيرَ قَضَاءَ رَمَضَانَ إِلَى رَمَضَانَ آخَرَ مِنْ غَيْرِ عُذْرٍ ، لِمَا أَخْرَجَهُ الشَّيْخَانِ عَنْ عَائِشَةَ ـ رَضِي اللهُ عَنْهَا ـ قَالَتْ : كَانَ يَكُونُ عَلَيَّ الصَّوْمُ مِنْ رَمَضَانَ فَمَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَقْضِيَ إِلَّا فِيْ شَعْبَانَ .

وَفي رِوَايَةٍ لِمُسْلِمٍ : إِنْ كَانَتْ اِحْدَانَا لَتُفْطِرُ في زَمَانِ رَسُولِ اللهِ صَلى اللهُ عَليهِ وَسلم فَمَا تَقْدِرُ أَنْ تَقْضِيَهُ مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلا فِي شَعْبَانَ . وَفِي رِوَايَةٍ لِلتِّرْمِذِيُّ : قَالَتْ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا ـ مَا كُنْتُ أَقْضِيَ مَا يَكُونُ عَلَّى مِنْ قَضَاءِ رَمَضَانَ إِلَّا في شَعْبَانَ حَتَّى تُوفِّيَ رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

وَاذَا لَمْ يَبْقَ مِنْ شَعْبَانَ لا قَدْرُ مَا عَلَيْهِ ، وَجَبَ القَضَاءُ فَوْرَاً مُتَابِعاً لِضِيْقِ الوَقْتِ ، كَأَدَاءِ رَمَضَانَ في حَقَّ مَنْ لَا عُذْرَ لَهُ .

وَلَا يُكْرَهُ القَضَاء في عَشْرِ ذِي الحِجَّةِ ، فَإِنْ أَخَّرَ القَضَاءَ لِغَيْرِ عُذْرٍ حَتَّى أَدْرَكَهُ رَمَضَانُ آخَرَ فَعَلَيْهِ مَعَ القَضَاءِ إِطْعَامُ مِسْكِيْنٍ لِكُلِّ يَوْمٍ : وَيُرْوَى ذَلِكَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ـ رَضِي اللهُ عَنْهُمَا ـ وَابْنِ عُمَرَ رَضِيَ

اللهُ عَنْهُمَا ـ وَأَبِي هُرَيْرَةَ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ وَلَمْ يُرَوَ عَنْ غَيْرِهِمْ خِلاَفُهُ . قَالَهُ فِي الشَّرْحِ .

وَمَنْ فَاتَهُ رَمَضَانُ قَضَا عَدَدَ أَيَّامِهِ تَامًّا كَانَ أَوْ نَاقِصاً لأَنَّ القَضَاءَ يَجِبُ أَنْ يَكُوْنَ بِعَدَدِ مَا فَاتَهُ كالمَرِيْضِ وَالمُسَافِرِ لِمَا تَقَدَّمَ مِنْ قَولِهِ تَعَالَى : ﴿فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ وَيَجُوزُ أَنْ يَقضِيَ يَوْمَ صَيْفٍ عَنْ يَوْمٍ شِتَاءٍ وَأَنْ يَقْضِيَ يَوْمَ شِتَاءٍ عَنْ يَومِ صَيْفٍ .

ثُم اعْلَمْ وَفقنا وَإِيَّاكَ اللهُ لِطَاعَتِهِ أَنَّ لِلصِّيَامِ مَحَاسِنَ كَثِيْرَةً وَهِيَ قَلِيلٌ مِنْ كَثِيْرٍ مِنْ مَحَاسِنِ الدِّيْنِ الاسْلاَمِي ثَبَّتَنَا اللهُ وَايَّاكَ وَجَمِيْعَ المُسْلِمِيْنَ عَلَيْهِ فَمِنْهَا أَنَّ الانْسَانَ إِذَا جَاعَ بَطْنُهُ انْدَفَعَ جُوْعُ كَثِيْرٍ مِنْ حَوَاسِهِ فَاذَا شَبِعَ بَطْنُهُ جَاعَ عَينُه وَلِسَانُهُ وَيَدُهُ وَفرْجُهُ فكان تَشْبِيْعُ النَّفْسِ تَجْوِيْعاً لِهَذِهِ المذْكُورَاتِ وَفي تَجْوِيْعِ النَّفْسِ تَشْبِيْعُهَا فَكانَ هَذَا التَّجْوِيعُ أَوْلَى وَمِنْ ذَلكَ أنهُ إِذَا جَاعَ عَلِمَ حَالَ الفُقَراءِ في جُوْعِهِمْ فَيَرْحَمُهُم وَيُعْطِيْهِمْ مَا يَسُدُّ بِهِ جُوْعَهُمْ إذ لَيْسَ الخَبَرُ كالمُعَايَنَةِ لاَ يَعْلَمُ الرَّاكِبُ مَشقَّةَ الرَّاجِلَ إلا إذا تَرَجَّلَ .

وَمِنْ مَحَاسِنِ الصِّيَامِ في فَرْضِهِ وَشَرْعِهِ أَنَّهُ لَمْ يُفْرَضْ فِي كُلِّ العُمْرِ مَعَ مَا فِيْهِ مِنَ الحُسْنِ بَل فُرِضَ شَهْراً مِن كُلِّ سَنَةٍ شَهْرَ رَمَضَانَ. وَرُخِصَّ في الافْطَارِ عِنْدَمَا يَحْصُلُ لِمَنْ وَجَبَ عَلَيْهِ عُذْرٌ وَأَيْضاً أَمِرَ بِالصَّوْمِ فِيْ النَّهَارِ وَأُبِيْحَ فِيْ اللَّيْلِ الإِفْطَارُ وَهَذَا مِنْ لُطْفِ اللهِ أَمَرَ عِبَادَهُ عَلى وَجْهٍ يُمْكِنُ لَهُمْ فِيْهِ احْرَازُ الفَضِيْلَةِ واكْتِسَابُ الوَسِيْلَةِ ومِنْ ذَلكِ إِنَّهُ خَصَّ الصِّيَامَ بِالنَّهَارِ لأَنَّ الأَكلَ فِيْهِ مُعْتَادٌ ، وَالنَّوْمُ في اللَّيْلِ مُعْتَادٌ وَمِنْ مَحَاسِن

الصَّوْمِ اكْتِسَابِ مَكَارِمِ الأَخْلاَقِ لِأَنَّ قِلةَ الأَكْلِ مِنْ مَحَاسِنِ الاخْلاَقِ .

وَلِذلِكَ لَمْ يُحْمَدْ أَحَدٌ بِكَثْرَةِ الأَكْلِ وَيُحْمَدُ عَلى قِلَّةِ الأَكْلِ يَحْمَدُهُ كلُّ ذِي دِيْنٍ في كُلِّ حِيْنٍ وَلَمْ يُرَوَ عَنْ أَحَدٍ مِن الأَنْبِيَاءِ كَثْرَةُ الأَكْلِ وَمِنْ جُمْلَةِ المحَاسِنِ فِي الصِّيَامِ أَنَّ اللهَ مِنْ لُطْفِهِ بِعَبَادِهِ لَمْ يَشْتَرِطْ فِي القَضَاءِ مَا فِي الأداءِ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ فَلَمْ يَشْتَرِطْ فِي القَضَاء طُوْلَ اليَوْمِ بِاليَوْمِ وَلاَ حَرَارَتَهُ وَلاَ بُرُوْدَتَهُ فَإِذَا أَفْطَرَ فِي أَطْوَلِ يَوْمٍ ثُمَّ قَضَاهُ فِي أَقْصَرِ يَوْمٍ أَجْزَاهُ وَكَفَاهُ .

وَمِنْ جُمْلَةِ المَحَاسِنِ فِي الصَّوْمِ أَنَّهُ لَمْ يُشْتَرَطْ فِيْهِ قِرَانُ النِّيَةِ عِنْدَ الشُّرُوعِ كَمَا فِي سَائِرِ العِبَادَاتِ لأَنَّ هَذَا الوَقْتِ وَقْتُ نَوْمٍ وَغَفْلَةٍ قَلَّمَا يَقِفُ العَبْدُ عَلَيْهِ فَلَوَ شُرِطَ لَضَاقَ الأَمْرُ عَلَى النَّاسِ فَيَسَّرَ الأَمْرَ عَلى عِبَادِهِ حَتّى أَجَازَ الصَّوْمَ بِنِيَّةٍ مُتَقَدِّمَةٍ تَقَعُ بِجُزْءٍ مِن اللَّيْلِ وَإِنْ طَرَأَ عَلَيْهِ الأَكْلُ وَالشُّرْبُ وَالرَّفُثُ لِأَنَّ اللهَ أَبَاحَ الأَكْلَ وَالشُّرْبَ إلى آخِرِ اللَّيْلِ فَلَوْ بَطَلَتْ بِهِ فَاتَ مَحَلُّهَا .

مَوْعِظَةٌ

كَتَبَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ العَزِيْزِ إلى القُرَضِي أَمَّا بَعْدُ فَقَدْ بَلَغَنِيْ كِتَابُكَ تَعِظُنِي وَتَذْكُرُ مَا هُوَ لِيْ حَظٌّ وَعَلَيْكَ حَقٌّ وَقَدْ أَصَبْتَ بِذَلِكَ أَفْضَلَ الأَجْرِ انَّ المَوْعِظَةَ كالصَّدَقَةِ بَلْ هِيَ أَعْظَمُ أَجْراً وَأَبْقَىٰ نَفْعاً وَأَحْسَنُ ذُخْراً وَأَوْجَبُ عَلى المُؤْمِنِ حَقاً ، لكَلِمَةٌ يَعِظُ بِهَا الرَّجُلُ أَخَاهُ لِيَزْدَادَ بِهَا فِي هُدًى رَغْبَةً خَيْرٌ مِنْ مَالٍ يَتَصَدَّقُ بِهِ عَلَيْهِ وَانْ كَانَ بِهِ إلَيْهِ حَاجَةٌ وَلَما يُدْرِكُ

أَخُوْكَ بِمَوْعِظَتِكَ مِنْ الهُدَى خَيْرٌ مِمَّا يَنَالُ بِصَدَقَتِكَ مِنْ الدُّنْيَا وَلأَنْ يَنْجُوَ رَجُلٌ بِمَوْعِظَتِكَ مِنْ هَلَكَةٍ خَيْر مِنْ أَنْ يَنْجُوَ بصَدَقَتِكَ مِنْ فَقْرٍ .

فَعِظْ مَنْ تَعِظْ لِقَضَاءِ حَقٍّ عَلَيْكَ وَاسْتَعْمِلْ كَذَلِكَ نَفْسَكَ حِيْنَ تَعِظْ وَكُنْ كَالطَّبِيْبِ المُجَرِّبِ العَالِمِ الذِيْ قَدْ عَلِمَ أَنَّهُ إِذَا وَضَعَ الدَّوَاءَ حَيْثُ لاَ يَنْبَغِي أَعْنَتَ نَفْسَهُ وَإِذَا أَمْسَكَ مِنْ حَيْثُ يَنْبَغِيْ جَهِلَ وَأَثِمَ وَإِذَا أَرَادَ أَنْ يُدَاوِيَ مَجْنُوناً لَمْ يُدَاوِهِ وَهْوَ مُرْسَلٌ حَتَّى يَسْتَوثِقَ مِنْهُ وَيُوَثِّقَ لَهُ خَشْيَةَ أَنْ لاَ يَبْلُغَ مِنْهُ مِنَ الخَيْرِ مَا يَتَّقِي مِنْهُ مِنْ الشَّرِ وَكَانَ طِبُّهُ وَتَجْرِبَتُهُ مِفْتَاحُ عَمَلِه وَاعْلَمْ أَنَّهُ لَمْ يُجْعَلْ المِفْتَاحُ عَلى البَابِ لِكَيْمَا يُغْلَقُ فَلا يُفْتَحُ أَوْ لِيُفْتَحَ فَلاَ يُغْلَقُ وَلَكِنْ لِيُغْلَقَ فِي حِيْنِهِ وَيُفْتَحَ فِي حِيْنِهِ .

وَكُنْ نَـاصِحـاً لِلْمُسْلِمِيْنَ جَمِيْعِـهِمْ
بِـارْشَـادِهِمْ لِلْحَقِّ عِنْـدَ خَفَـائِـهِ

وَمُـرْهُمْ بِمَعْـرُوفِ الشَّـرِيْعَـةِ وَانْهَهُمْ
عَنْ السُّوْءِ وَازْجُرْ ذَا الخَنَا عَنْ خَنَائِهِ

وَعِـظْهُمْ بِـآيَـاتِ الكِتَـابِ بِحِكْمَـةٍ
لَـعَـلَّكَ تُـبْـرِيْ دَاءَهُـمْ بِـدَوَائِـهِ

فَـإِنْ يَهْـدِ مَـوْلاَنَـا بِـوَعْـظِكَ وَاحِـداً
تَنَـلْ مِنْهُ يَـوْمَ الحَشْرِ خَيْـرَ عَـطَائِـهِ

وإِلاَّ فَقَـدْ أَدَّيْتَ مَـا كَـانَ وَاجِبـاً
عَلَيْـكَ وَمَـا مُلِّكْتَ أَمْـرَ اهْتِـدَائِـهِ

اللَّهُمَّ يَا مَنْ خَلَقَ الانْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيْمٍ وَبِقُدْرَتِهِ

التِيْ لَا يُعْجِزُهَا شَيءٌ يُحْيِي العِظَامَ وَهْيَ رَمِيْمٌ نَسْأَلُكَ أنْ تَهْدِيْنَا إِلَىٰ صِرَاطِكَ المُسْتَقِيْمِ صِرَاطِ الذيْنَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّيْنَ وَالصِّدِّيْقِيْنَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِيْنَ وَأَنْ تَغْفِرَ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَلِجَمِيْعِ المُسْلِمِيْنَ الأَحْيَاءِ مِنْهُمْ وَالمَيِّتِيْنَ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وَصَلَى اللهُ على مُحَمَّدٍ وَعَلى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

(فَصْلٌ)

في صَلَاةِ التَّرَاوِيْحِ

وَيَبْحَثُ في :

١ ـ مَشْرُوعِيَّةِ صَلَاةِ التَّرَاوِيْحِ .
٢ ـ صِفَةِ أو كَيْفِيَّةِ التَرَاوِيْحِ .
٣ ـ مَذاهِبِ العُلَمَاءِ رَحِمَهُم الله في عَدَدِ رَكَعَاتِهَا .
٤ ـ مَا يُسْتَحَبُّ فِيْهَا .

١ ـ مَشْرُوْعِيَّةُ صَلَاةِ التَّرَاوِيْحِ :

التَّرَاوِيْحُ سُنةٌ مُؤَكَّدةٌ سَنَّها رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : فَعَن عَائِشَةَ ـ رَضْيَ اللهُ عَنْهَا ـ أَن النَّبي صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَلَّى في المَسْجِدِ فَصَلَّى بِصَلَاتِهِ نَاسٌ ثم صَلى الثانيةَ فَكَثُرَ الناسُ ثم اجْتَمَعُوا مِن اللَّيْلَةِ الثَّالِثَةِ أو الرَّابعَةِ فَلَمْ يَخْرُجْ إِلَيْهِمْ رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : فَلَمَّا أَصْبَحَ قَالَ رَأَيْتُ الذِي صَنَعْتُم فَلَمْ يَمْنَعنِي مِنْ الخُرُوجِ إِلَيْكُمْ الا أَنِّي خَشِيْتُ أَنْ تُفْرَضَ عَلَيْكُم وَذَلِكَ في رَمَضَانَ مُتفقٌ عَلَيهِ .

وَفي رِوَايَةٍ : قَالَتْ : « كَانَ النَّاسُ يُصَلُّونَ في المَسْجِدِ في رَمَضَانَ بالليْلِ أَوْزَاعاً مَعَ الرَّجُلِ الشَّيْءَ مِن القُرْآنِ ، فَيَكُونُ مَعَهُ النَّفَرُ الخَمْسَةُ ، أو السَّبْعَةُ ، أو أقَلَّ من ذَلِكَ أَوْ أكثَرَ ، يُصَلُّونَ بِصَلاَتِهِ ، قَالَتْ : فَأَمَرَنِي رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمَ أَنْ أَنْصِبَ لَهُ حَصِيْرَاً عَلَى بَابِ حُجْرَتِيْ ، فَفَعَلْتُ ، فَخَرَجَ إليْهِ بَعْدَ أَنْ صَلَّى العِشَاءَ الآخِرَةِ فاجْتَمَعَ إلَيْهِ مَنْ في المَسْجِد فَصَلَّى بِهِمْ . وَذَكَرَتْ القِصَّةَ بِمَعْنَى مَا تَقَدَّمَ ، غَيْرَ أَنَّ فِيْهَا أَنَّهُ لَمْ يَخْرُجْ إلَيْهِمْ في اللَّيْلَةِ الثَّانِيَةِ » .

وَعَنْ جُبَيْرِ بْنِ نُفَيْرٍ عَنْ أَبِي ذَر ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ قَالَ : صُمْنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَلَمْ يُصَلِّ بِنَا حَتَّى بَقِيَ سَبْعٌ مِن الشَّهْرِ فَقَامَ بِنَا حَتَّى ذَهَبَ شَطْرُ اللَّيْلِ ، فَقُلْنَا : يَا رَسُولَ اللهِ ، لَوْ نَفَّلْتَنَا بَقِيَّةَ لَيْلَتِنَا هَذِهِ : فَقَالَ « مَنْ قَامَ مَعَ الإِمَامِ حَتَّى يَنْصَرِفَ كَتَبَ اللهُ لهُ قِيَامَ لَيْلَةٍ » ، ثُمَّ لَمْ يَقُمْ بِنَا حَتَّى بَقِيَ ثَلاَثٌ مِنَ الشَّهْرِ فَصَلَّى بِنَا في الثَّالِثَةِ ، وَدَعَا أَهْلَهُ وَنِسَاءَهُ حَتَّى تَخَوَّفنَا الفَلاَحَ ، قُلْتُ لَهُ : وَمَا الفَلاَحُ ؟ قَالَ السُّحُوْرُ » .

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ـ رَضي اللهُ عَنْهُ ـ قَالَ : « كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُرَغِّبُ في قِيَامِ رَمَضَانَ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَأْمُرَهُمْ بِعَزِيْمَةٍ » ، فَيَقُوْلُ : « مَنْ قَامَ رَمَضَانَ إِيْمَاناً وَاحْتِسَاباً غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ » .

وَعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بن عَوْفٍ : أَنَّ النَّبِي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : « انَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ فَرَضَ صِيَامَ رَمَضَانِ ، وَسَنَنْتُ قِيَامَهُ فَمَنْ صَامَهُ إِيْمَاناً وَاحْتِسَاباً خَرَجَ مِنْ ذُنُوبِهِ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ » .

وَعَنْ زَيْدِ بن ثابِتٍ : « أَنَّ النبي صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اتَّخَذَ حُجْرَةً في حَصِيرٍ ، فَصَلَّى فِيْهَا لَيَالٍ اجْتَمَعَ عَلَيهِ نَاسٌ ، ثُمَّ فَقَدُوا صَوْتَهُ لَيْلَةً فَظَنُّوا أَنَّهُ نَامَ ، فَجَعَلَ بَعْضُهُمْ يَتَنَحْنَحُ لِيَخْرُجَ إِلَيْهِمْ فَقَالَ : مَا زَالَ بِكُمْ الذي رَأَيْتُ مِن صَنِيْعِكُمْ حَتَّى خَشِيْتُ أن يُكْتَبَ عَلَيْكُم ، وَلَو كُتِبَ عَلَيْكُم ما قُمْتُمْ به ، فَصَلُّوا أَيُّهَا النَّاسُ في بُيُوتِكُمْفَانَ أَفْضَلَ صَلاةِ المرء في بَيْتِهِ إلاَّ الصَّلاَةَ المَكْتُوْبَةَ » .

٢ ـ صِفَةُ أو كَيْفِيَّةُ صَلاَةِ التَّراوِيْحِ :

صَلاةِ التَّراوِيْحِ بِجَمَاعَةٍ أَفْضَلُ ، قَالَ الإِمَامُ أَحْمَدُ : « كَانَ عَلي وَجَابِرُ وَعَبْدُ اللهِ ـ رَضِي اللهُ عَنْهُم ـ يُصَلُّونَهَا جَمَاعَةً » ، وَرُوي عَنْ عَلي ـ رَضْي اللهُ عَنْهُ ـ أَنَّهُ كَانَ يَجْعَل لِلرِّجالِ امَاماً وللنِّسَاءِ إِمَاماً » .

وَفي حَدِيْثِ أَبِي ذَرٍّ ـ رَضْيَ اللهُ عَنْهُ ـ قَالَ : « إِنَّ النَّبي صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَمَعَ أَهْلَهُ وَأَصْحَابَهُ وَقَالَ : انَّهُ مَنْ قَامَ مَعَ الإِمَامِ حَتَّى يَنْصَرِفَ كُتِبَ لَهُ قِيَامُ لَيْلِهِ » .

وَيَجْهَرُ الإِمَامُ بِالقِرَاءَةِ لِنَقْلِ الخَلَفِ عَن السَّلَفِ . وَيُسَلِّمُ مِنْ كُلِّ رَكْعَتَيْنِ ، وَوَقْتِهَا بَعْدَ صَلاَةِ العِشَاءِ ، قَبْلَ الوِتْرِ إِلَى طُلُوعِ الفَجْرِ ، وَفِعْلُهَا فِي المَسْجِدِ أَفْضَلُ ، لأَنَّ النَّبي صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَلاَّهَا ثَلاَثَ لَيَالٍ مُتَوَالِيَةً ، كَمَا رَوَتْ عَائِشَةُ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا ـ وَمَرَّةً ثَلاَثَ لَيَالٍ مُتَفَرِّقَةٍ كَمَا رَوَى أَبُو ذَرٍّ ، قَالَ : « مَنْ قَامَ مَعَ الإِمَامِ حُسِبَ لَهُ قِيَامُ لَيْلَةٍ ، وَكَانَ أَصْحَابُهُ يَفْعَلُونَهَا فِي المَسْجِدِ أَوْزَاعاً في جَمَاعَاتٍ مُتَفَرِّقَةٍ في عَهْدِهِ .

وَعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ القَارِيءْ قَالَ : « خَرَجْتُ مَعَ عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ في رَمَضَانَ إلى المَسْجِدِ فَإذَا النَّاسُ أَوْزَاعٌ مُتَفَرِّقُونَ يُصَلِّي الرَّجُلُ لِنَفْسِهِ ، وَيُصَلِّي الرَّجُلُ فَيُصَلِّي بِصَلاَتِهِ الرَّهْطُ ، فَقَالَ عُمَرُ : إنِّي أَرَى لَوْ جَمَعْتُ هَؤُلاَءِ عَلَى قَارِيءٍ وَاحِدٍ لَكَانَ أَمثَلَ . ثُمَّ عَزَمَ فَجَمَعَهُمْ عَلَى أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ ثم خَرَجْتُ مَعَهُ لَيْلَةً أُخْرَى وَالنَّاسُ يُصَلُّونَ بِصَلاَةِ قَارِئِهِمْ ، فَقَالَ عُمَرُ : « نِعْمَتْ البِدْعَةُ هَذِهِ ، وَالتِيْ يَنَامُونَ عَنْهَا أَفْضَلُ مِن التِي يَقُومُوْنَ » يَعْنِي آخِرَ الليلِ ، وَكَانَ النَّاسُ يَقُومُونَ أولهُ . فَدَلَّتْ هَذِهِ الأَخْبَارُ وَغَيْرِهَا عَلَى أَنَّ فِعْلَ التَّراوِيْحِ جَمَاعَةً أَفْضَلُ مِن الإنْفِرَادِ وَكَذَا اجْمَاعُ الصَّحَابَةِ وَأَهْلِ الأَمْصَارِ عَلَى ذَلِكَ .

وَهُوَ قَوْلُ جُمْهُوْرِ العُلَمَاءِ ، وَتَجُوزُ فُرادَى واخْتُلِفَ أَيَّتُهما أَفْضَلُ لِلقَارِيء ، قَالَ البَغَوِيّ وَغَيْرُهُ : الخِلاَفُ بِمَنْ يَحْفَظُ القُرآنَ ، وَلاَ يَخَافُ الكَسَلَ عَنْهَا لَوْ انْفَرَدَ ، وَلاَ تَخْتَلُّ الجَمَاعةُ بِتَخَلُّفِهِ ، فَإنْ فُقِدَ أَحَدُ هَذِهِ الأُمُورِ فَالجَمَاعَةُ أفضلُ بِلا خِلاَفٍ وَأَمَّا عَدَدُ صَلاَةِ التَّراوِيْحِ ، فَقَالَ القَاضِي : لاَ خِلاَفَ أَنَّهُ لَيْسَ فِيْ ذَلِكَ حدٌّ لاَ يُزَادُ عَلَيْهِ وَلاَ يَنْقَصُ مِنْهُ .

فَاخْتَارَ الإمَامُ أَحْمَدُ وَجُمْهُورُ العُلَمَاءِ عِشْرِيْنَ رَكْعَةً : لِمَا رَوَى مَالِكُ في « المُوَطَّأِ » عَنْ يَزِيْدِ بْنِ رُوْمَانَ قَالَ : كَانَ النَّاسُ فِيْ زَمَنِ عُمَرَ يَقُومُونَ في رَمَضَانَ بِثَلاثٍ وَعِشْرِينَ رَكْعَةً » .

وَقَال السَّائِبُ بن يَزِيدَ : لَمَّا جَمَعَ عُمَرَ النَّاسَ عَلَى أُبيِّ بْنِ كَعْبٍ ، وَكَانَ يُصَلِّي بِهِمْ عِشْرِيْنَ رَكْعَةً : وَرَوَى أَبُو بَكْرِ بْنِ عَبْدِ العَزِيْزِ في كِتَابِهِ « الشَّافِي » عَنْ ابنِ عَبَّاسٍ : أَنَّ النبي صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يُصَلي

في شَهْرِ رَمَضَانَ عِشْرِيْنَ رَكْعَةً .

وَقَالَ شَيْخُ الإِسْلَامِ : لَهُ أَنْ يُصَلِّيَهَا عِشْرِيْنَ كَمَا هُوَ المَشْهُورُ في مَذْهَبِ أَحْمَدَ والشَّافِعِي ، وَلَهُ أَنْ يُصَلِّيَهَا سِتًّا وَثَلاثِيْنَ كَمَا هُوَ مَذْهَبُ مَالِكٍ ، وَلَهُ أَنْ يُصَلي إِحْدَى عَشْرَةَ وَثَلاثَ عَشْرَةَ وَكُلُّهُ حَسَنٌ ، فَيكونُ تَكْثِيْرُ الرَّكَعَاتِ أو تَقْلِيْلُهَا بِحَسَبِ طُوْلِ القِيَامِ وَقِصَرِهِ : وَقَالَ : الأَفْضَلُ ، يَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ المُصَلِّيْنَ فَإِنْ كَانَ فِيْهِمْ احْتِمَالٌ بِعَشْرِ رَكَعَاتٍ وَثَلاثٍ بَعْدَهَا ، كَمَا كَانَ النبي صَلى الله عَليه وسَلَّمَ يُصَلِّي لِنَفْسِهِ فِي رَمَضَانَ وَغَيْرِهِ فَهُوَ الأَفْضَلُ ، وانْ كَانُوا لَا يَحْتَمِلُونَه ، فَالقِيَامِ بِعِشْرِيْنَ هُوَ الأَفْضَلُ وَهُوَ الذي يَعْمَلُ بِهِ أَكْثَرُ المُسْلِمِيْنَ ، فَإِنَّهُ وَسَطٌ بَيْنَ العَشْرِ والأَرْبَعِيْنَ . وَانْ قَامَ بِأَرْبَعِيْنَ وَغَيْرِهَا جَازَ ، وَلا يُكْرَهُ شَيءٌ مِنْ ذَلِكَ . وَمَنْ ظَنَّ أَنَّ قِيَامَ رَمَضَانَ فِيهِ عَدَدٌ مُؤَقَّتٌ لَا يُزَادُ فِيْهِ وَلَا يُنْقَصُ مِنْهُ فَقَدْ أَخْطَأَ ، وَقَدْ يَنْشَطُ العَبْدُ فَيكُونُ الأَفْضَلُ فِي حَقِّهِ تَخْفِيْفَهَا .

وَقَالَ : قِرَاءَةُ القُرْآنِ فِي التَّرَاوِيحِ سُنَّةٌ بِاتِّفَاقِ المُسْلِمِيْنَ ، بَلْ مِنْ أَجلِ مَقْصُودِ التَّرَاوِيْحِ قِرَاءةُ القرآنِ فِيْهَا لِيَسْمَعُوا كَلَامَ اللهِ ، فَإِنَّ شَهْرَ رَمَضَانَ فِيهِ نَزَلَ القُرْآنُ ـ فِيْهِ كَانَ جِبْرِيْلُ يُدَارِسُ النَّبيَّ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمَ ـ انْتَهَى كَلَامَهُ رَحِمَهُ اللهُ .

٤ ـ مَا يُسْتَحَبُّ فِيْهَا :

وَعَلَى الإِمَامِ أَنْ يَتَّقِي اللهَ ، فَلَا يُسْرِعُ سُرْعَةً تَمْنَعُ المَأْمُومَ مِنْ الأَتْيَانِ بِرُكْنٍ كالطُمَأْنِيْنَةِ ، أَو وَاجِبٍ كَتَسْبِيْحِ رُكُوْعٍ وَتَسْبِيْحُ سُجُودٍ ، أو قَوْلِ : « رَبِّ اغْفِرْ لِيَ » وَمَنَ المُؤْسِفِ أَنَّ كَثِيْراً مِن النَّاسِ ، أَثْقَلُ الأَئِمَةِ

عِنْدَهُ مَنْ يُصَلِّي التَّرَاوِيْحَ بِخُشُوعٍ وَخُضُوعٍ وَاطْمِئْنَانٍ ، وَلِذَا يَفِرُّونَ مِنْهُ وَيَذْهَبُونَ إلى مَنْ يُسْرِعُ بِهَا وَلاَ يُتِمُّها عَلَى الوَجْهِ المَشْرُوعِ ، وَلاَ يَطْمَئِنُّ بِهَا ، وَالطُّمَأْنِيْنَةُ رُكْنٌ مِنْ أَرْكَانِ الصَّلاَةِ ، وَقَدْ قَالَ صَلى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ لِلمُسِيءِ في صَلاَتِهِ لَمَا أَخَلَّ بِالطُّمَأْنِيْنَةِ : ارْجِعْ فَصَلِّ ، فَإِنَّكَ تُصَلِّ » .

وَقَالَ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « صَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِيْ أُصَلِّي » وَكَانَ السَّلَفُ يَعْتَمِدُونَ عَلَى العُصِيِّ مِنْ طُولِ القِيَامِ .

وَعَنْ الأَعْرَجِ قَالَ : مَا أَدْرَكْنَا النَّاسَ الا وَهُمْ يَلْعَنُونَ الكَفَرَةَ في رَمَضَانَ وَقَالَ : وَكَانَ القَارِىءُ يَقْرَأُ سُورَةَ البَقَرَةِ في ثَمانِ رَكَعَاتٍ ، وَاذَا قَامَ بِهَا في اثْنَتَى عَشْرَةَ رَكْعَةً رَأَى النَّاسُ أَنَّهُ قَدْ خَفَّفَ » .

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ بَكْرٍ قَالَ : سَمِعْتُ أَبِي يَقُولُ : كُنَّا نَنْصَرِفُ في رَمَضَانَ مِنْ القِيَامِ فَنَسْتَعْجِلُ الخَدَمَ بالطَعَامِ مَخَافَةَ فَوْتِ السَّحُوْرِ ، وَفي أُخرى : « مَخَافَةَ الفَجْرِ » .

وَعَنْ السَّائِبِ بن يَزِيدَ قَالَ : أَمَرَ عُمَرُ أُبيَّ بنَ كَعْبٍ ، وَتَمِيْمَاً الدَّارِي ـ رَضْيَ اللهُ عَنْهُم ـ أَنْ يَقُومَا للنَّاسِ في رَمَضَانَ بِإِحْدَى عَشْرَةَ رَكْعَةٍ ، فَكَانَ القَارىءُ يَقْرَأُ بِالمِئِيْنَ حَتَّى كُنَّا نَعْتَمِدُ عَلَى العُصيِّ مِنْ طُولِ القِيَامِ ، فَمَا كُنَّا نَنْصرِفُ إلا في فُرُوعِ الفَجْرِ .

وَيُسْتَحَبُّ أَنْ يَقْرَأَ بِسُورَةِ القَلَمِ في عِشَاءِ الآخِرَةِ مِن الليلةِ الأُولَى مِن رَمَضَانَ بَعْدَ الفَاتِحَةِ لأَنَّها أولُ مَا نَزَلَ مِن القُرْآنِ . وَيُسْتَحَبُّ أَنْ لاَ يَنْقُصَ عَنْ خَتْمَةٍ في التَّرَاوِيْحِ لِيَسْمَعَ النَّاسُ جَمِيْعَ القُرآنِ . وَيَتَحَرَّى أَنْ يَخْتِمَ آخِرَ التَّرَاوِيْحِ قَبْلَ رُكُوْعِهِ وَيَدْعُوْ .

وَلِشَيْخِ الإِسْلَامِ فِي ذَلِكَ دُعَاءٌ جَامِعٌ شَامِلٌ . وَقَالَ : رُوِيَ أَنَّ عِنْدَ كُلِّ خَتْمَةٍ دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ :

تَمَسَّكَ بِحَبْلِ اللهِ وَاتَّبِعِ الهُدَىٰ
وَلَا تَكُ بِدْعِيًّا لَعَلَّكَ تُفْلِحُ

وَدِنْ بِكِتَابِ اللهِ وَالسُّنَنِ الَّتِيْ
أَتَتْ عَنْ رَسُولِ اللهِ تَنْجُو وَتَرْبَحُ

وَقُلْ غَيْرُ مَخْلُوقٍ كَلَامُ مَلِيْكِنَا
بِذَلِكَ دَانَ الاتْقِيَاءُ وَأَفْصَحُوْا

وَقُلْ يَتَجَلَّى اللهُ لِلْخَلْقِ جَهْرَةٍ
كَمَا البَدْوُ لَا يَخْفَى وَرَبُّكَ أَوْضَحُ

وَلَيْسَ بِمَوْلُوْدٍ وَلَيْسَ بِوَالِدٍ
وَلَيْسَ لَهُ شِبْهٌ تَعَالَى المُسَبَّحُ

وَقَدْ يُنْكِرُ الجَهْمِيُّ هَذَا وَعِنْدَنَا
بِمِصْدَاقِ مَا قُلْنَا حَدِيثٌ مُصَحَّحُ

رَوَاهُ جَرِيْرٌ عَنْ مَقَالِ مُحَمَّدٍ
فَقُلْ مِثْلَ مَا قَدْ قَالَ فِي ذَاكَ تَنْجَحُ

وَقَدْ يُنْكِرُ الجَهْمِيُّ أَيْضاً يَمِيْنَهُ
وَكِلْتَا يَدَيْهِ بِالفَوَاضِلِ تُفْتَحُ

وَقُلْ يَنْزِلُ الجَبَّارُ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ
بِلَا كَيْفٍ جَلَّ الوَاحِدُ المُتَمَدِّحُ

إِلَى طَبَقِ الدُّنْيَا يَمُنُّ بِفَضْلِهِ
فَتُفْرَجُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَتُفْتَحُ

يَقُـولُ أَلا مُسْتَغْفِـراً يَلْقَ غَـافِـراً
وَمُسْتَمْنِحَـاً خَيْـرَاً وَرِزْقَـاً فَيُمْنَـحُ

رَوَى ذَاكَ قَـومٌ لَا يُـرَدُّ حَـدِيثُهُم
أَلَا خَـابَ قَـوْمٌ كَـذَّبُوهُم وَقُبِّحُـوا

وَقُـلْ إِنَّ خَيْرَ النَّاسِ بَعْـدَ مُحَمدٍ
وَزِيْـرَاهُ قِـدْمَـاً ثُمَّ عُثْمَـانَ الأَرْجَـحُ

وَرَابِعُهُـمْ خَيْـرُ البَـرِيَّـةِ بَعْـدَهُـمْ
عَلِيٌّ حَلِيْفُ الخَيْرِ بِـالخَيْـرِ مُمْنَحُ

وإِنَّـهُمُـوا لَـلرَّهَطُ لَا شَـكَّ فِيْـهِـمْ
عَلَى نُجُبِ الفِرْدَوْسِ بِالخُلْدِ تَسْرَحَ

سَعِيْـدٌ وَسَعْـدٌ وابنُ عَـوفٍ وطَلْحَـةٌ
وَعَـامِـرُ فِهْـرٍ وَالـزُّبَيْـرُ المُمَـدَّحُ

وَقُلْ خَيْرَ قَـوْلٍ في الصَّحَابَـةِ كُلِّهِمْ
وَلَا تَـكُ طَعَّـانَـاً تَعِيْبُ وَتَـجْـرَحُ

فَقَـدْ نَـطَقَ الـوَحْيُ المُبِيْنُ بِفَضْلِهِمْ
وَفي الفَتْـحِ آيٌ لِلصَّحَـابَـةِ تَمْـدَحُ

وَبِالْقَـدَرِ المَقْـدُورِ أَيْـقِـنْ فَـإِنَّـهُ
دِعَـامَـةِ عَقْـدِ الـدِّيْنِ وَالـدَّيْنُ أَفْيَحُ

وَلَا تُنْكِـرُوْنَ جَهْـلاً نَكِيْـراً وَمُنْكَـرَاً
وَلَا الحَـوْضَ والمِيْزَانَ أَنَّـكَ تُنْصَـحُ

وَقُـلْ يُخْـرِجُ اللهُ العَـظِيْمُ بِفَضْلِهِ
مِنَ النَّارِ أَجْسَاداً مِنَ الفَحْمِ تُـطْرَحُ

عَلَى النَّهْرِ في الفِرْدَوْسِ تَحْيَا بِمَائِهِ
كَحَبِّ حَمِيْلِ السَّيْلِ إِذْ جَاءَ يَطْفَحُ
وَأَنَّ رَسُولَ اللهِ لِلْخَلْقِ شَافِعٌ
وَأَنَّ عَذَابَ القَبْرِ بِالحَقِّ مُوْضَحُ
وَلَا تُكْفِرَنْ أَهْلَ الصَّلَاةِ وَانْ عَصَوا
فَكُلُّهُمُ يَعْصِي وَذُو العَرْشِ يَصْفَحُ
وَلَا تَعْتَقِدْ رَأْيَ الخَوَارِجْ انَّهُ
مَقَالٌ لِمَنْ يَهْوَاهُ يُرْدِيْ وَيَفْضَحُ
وَلَا تَكُ مُرْجِيًّا لَعُوْباً بِدِيْنِهِ
أَلَا إِنَّمَا المُرْجِيْ بِالدِّينِ يَمْزَحُ
وَقُلْ إِنَّمَا الأَيْمَانُ قَوْلٌ وَنِيَّةٌ
وَفِعْلٌ عَلَى قَوْلِ النَّبِي مُصَرَّحُ
وَيَنْقُصُ طَوْرَاً بِالمَعَاصِيْ وَتَارَةً
بِطَاعَتِهِ يَنْمَى وَفي الوَزْنِ يَرْجَحُ
وَدَعْ عَنْكَ آرَاءَ الرِّجَالِ وَقَوْلَهُمْ
فَقَوْلُ رَسُولِ اللهِ أَزْكَى وَأَرْجَحُ
وَلَا تَكُ مِنْ قَوْمٍ تَلَهَّوا بِدِيْنِهِمْ
فَتَطْعَنَ في أَهْلِ الحَدِيْثِ وَتَقْدَحُ
إِذَا مَا اعْتَقَدْتَ الدَّهْرَ يَا صَاحِ هَذِهِ
فَأَنْتَ عَلَى خَيْرٍ تَبِيْتُ وَتُصْبِحُ

اللَّهُمَّ يَا مَنْ عَمَّ البَرِيَّةَ جُوْدُهُ وَإِنْعَامُه نَسْأَلُكَ أَنْ تَتَفَضَّلَ عَلَيْنَا بِعَفْوِكَ

وَغُفْرَانِكَ ، وَجَمِيْعِ الْمُسْلِمِيْنَ الأَحْيَاءِ مِنْهُمْ وَالمَيِّتِيْنَ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ ، وَصَلَى اللهُ عَلَى مُحمدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

(فَصْلٌ)

في صَلاةِ الوِتْرِ

وَيَبْحَثُ في :

١ ـ مَشْرُوعِ صَلاةِ الوِتْرِ ، وَحُكْمُهَا .
٢ ـ وَقْتِ صَلاةِ الوِتْرْ .
٣ ـ القِرَاءَةِ المُسْتَحَبَّةُ فِيْهَا .
٤ ـ عَدَدِ رَكَعَاتِهَا .
٥ ـ دُعَاءِ القُنُوتِ في الوِتْرِ .

١ ـ مَشْرُوعِيَّةُ صَلاةِالوِتْرِ ، وَحُكْمُهَا :

الوِتْرُ سُنَّةٌ مُؤَكَّدَةٌ لِمُدَاوَمَتِهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم عَلَيْهِ في حَضَرِهِ وَفي سَفَرِهِ ، وَلِمَا وَرَدَ عَن عَلي ـ رَضْي اللهُ عَنهُ ـ قَالَ : لَيْسَ الوِتْرُ بِحَتْمٍ كَهَيْئَةِ المَكْتُوبَةِ ، وَلَكِنْ سُنَّةٌ سَنَّهَا رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عَليهِ وَسَلم (رَوَاهُ التِّرْمِذِيّ وَالنَّسَائِي وَحَسَّنَهُ ، والحَاكِمُ وَصَحَّحَهُ ، وَرَوَاهُ ابْنُ مَاجَهْ) وَلَفْظُهُ : انَّ الوِتْرَ لَيْسَ بِحَتْمٍ وَلَا كَصَلاتِكُمْ ، وَلَكِنَّ رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَوْتَرَ ، فَقَالَ : « يَا أَهْلَ القُرْآنِ أَوْتِرُوا فانَّ اللهَ وِتْرٌ يُحِبُّ الوِتْرَ » .

وَعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ ـ رَضْيَ اللهُ عَنْهُ ـ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلمَ قَامَ شَهْرَ رَمَضَان ، ثُمَّ انْتَظَرُوهُ مِن القَابِلَةِ فَلَمْ يَخْرُجْ ، وَقَالَ :

« خَشِيْتُ أَنْ يُكْتَبَ عَلَيْكُم الوِتْرُ » . رَوَاهُ ابْنُ حِبَّانَ .

وَعَنْ ابن عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلم أَوْتَرَ عَلى بَعِيرِهِ . رَوَاهُ الجَمَاعَةُ .

٢ ـ وَقْتُ صَلاةِ الوِتْرِ :

وَوَقْتُ الوِتْرِ بَعْدَ صَلاةِ العِشَاءِ وَسُنَّتِهَا لِمَا رَوَى خَارِجَةُ بنُ حُذَافَةُ قَالَ : خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلمَ ذَاتَ غَدَاةٍ ، فَقَالَ : « لَقَدْ أَكْرَمَكُمْ اللهُ بِصَلاةٍ هي خَيْرٌ لكُم مِنْ حُمُرِ النَّعَم ، قُلْنَا : وَمَا هِيَ يَا رَسُولَ اللهِ ؟ قَالَ : الوِتْرُ فِيْمَا بَيْنَ صَلاَةِ العِشَاءِ الى طُلُوعِ الفَجْرِ » . رَوَاهُ الخَمْسَةُ الا النَّسَائِيْ .

وَرَوَى أَبُو بَصْرَةَ : أَنَّ النبي صَلى اللهُ عَليهِ وَسَلم قَال : « انَّ اللهَ زَادَكُم صَلاةً فَصَلُّوهَا مَا بَينَ صَلاَةِ العِشَاءِ الى صَلاَةِ الصُّبْحِ ، الوِتْرُ » . رَوَاهُ الامَامُ أَحْمَدُ . وَلِحَدِيْثِ أَبِي سَعِيْدٍ مَرْفُوعا : « أَوْتِرُوا قَبْلَ أَنْ تُصْبِحُوا » . رَوَاهُ مُسْلِمٌ .

وَقَالَ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « فَاذَا خَشِيْتَ الصُّبْحَ فَأَوْتِرْ بِوَاحِدةٍ » . مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ .

والأَفْضَلُ فِعْلُهُ سَحَراً ، لِقَوْلِ عَائِشَةَ : مِنْ كُلِّ الليلِ قَدْ أَوْتَرَ رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عَليه وَسلم فَانْتَهَى وِتْرُهُ الى السَّحَرِ مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ .

وَمَنْ كَانَ لَهُ تَهَجُّدٌ جَعَلَ الوِتْرَ بَعْدَهُ ، وَمَنْ خَشِي أَنْ لاَ يَقُومَ ، أَوْتَرَ قَبْلَ أَنْ يَنَامَ ، لِمَا وَرَدَ عنْ جَابِرٍ ـ رَضْي اللهُ عَنْهُ ـ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ

صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلم : « مَنْ خَافَ أَنْ لَا يَقُومَ مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ فَلْيُوتِرْ أَوَّلَهُ ، وَمَنْ طَمِعَ أَنْ يَقُوْمَ آخِرَهُ ، فَلْيُوتِرْ آخِرَهُ ، فَانَّ صَلاَةَ آخِرِ اللَّيْلِ مَشْهُودَةٌ » ، وَذَلِكَ أَفْضَلُ . رَوَاهُ مُسْلِمٌ .

وَعَنْ ابْنِ عُمَرَ ـ رَضْيِ اللهُ عَنْهُمَا ـ أَنَّ النَّبِيَّ صَلى اللَّـهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : « اجْعَلُوا آخِرَ صَلاَتِكُمْ بِاللَّيْلِ وِتْرَا » مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ .

وانْ أَحَبَّ مَنْ لَهُ تَهَجُّدٌ مُتَابَعَةَ الإِمَامِ في وُتْرِهِ قَامَ إِذَا سَلَّمَ الاَمَامُ وَأَتَى بِرَكْعَةٍ بَعْدَ الوِتْرِ شَفَعَ بِهَا رَكْعَـةَ الوِتْرِ . ثُمَّ إِذَا تَهَجَّدَ أَوْتَرَ فَيَنَالُ فَضِيْلَةَ مُتَابَعَةِ الامَامِ حَتَّى يَنْصَرِفَ ، لِقَوْلِهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلمَ : « مَن قامَ مَعَ الامَامِ حَتَّى يَنْصَرِفَ كُتِبَ لَهُ قِيَامُ لَيْلَةٍ » . صَحَّحَهُ التِّرْمِذِي .

وَيَنَالُ فَضِيْلَةَ جَعْلِ وِتْرِهِ آخِرَ صَلاتِهِ لِحَـدِيْثِ : « اجْعَلُوا آخِرَ صَلاتِكُمْ باللَّيْلِ وِتْرا » . مُتفَّقٌ عَلَيْهِ ، وَيَقْضِيْهِ مَعَ شَفْعِهِ اذَا فَاتَ وَقْتُهُ لِحَدِيْثِ أبي سَعِيْدٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ : « مَن نَامَ عَنِ الوِتْرِ أَوْ نَسِيَه فَلْيُصَلِّ اذَا أَصْبَحَ أَو ذَكَرَهُ » رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ .

وَلَا يَصِحُّ الوِتْرُ قَبْلَ صَلاَةِ العِشَاءِ لِعَدَمِ دُخُولِ وَقْتِهِ ، وَأَقَلُّ الوِتْرِ رَكَعَةٌ ، وَلَا يُكْرَهُ الاتْيَانُ بِهَا مُفْرَدَة وَلو بِلَا عُذْرٍ مِنْ سَفَرٍ أَوْ مَرَضٍ وَنَحْوِهِمَا لِما وَرَدَ عَن ابن عُمَرَ وَابْنِ عَبَّاسٍ ـ رَضيَ اللهُ عَنْهُمَا ـ أَنَّهُمَا سَمِعَا النَّبي صَلى اللهُ عَليه وسَلمَ يَقولُ : « الوِتْرُ رَكْعَةٌ مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ » . رَوَاهُ أحمَدُ وَمُسْلِمُ .

وَعَنْ أَبِي أَيُّوبَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عَليه وَسَلم : « الوِتْرُ حَقٌّ ، فَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يُوْتِرَ بِخَمْسٍ فَلْيَفعلْ ، وَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يُوْتِرَ

بِثَلاثٍ فَلْيَفْعَلْ » . رَوَاهُ الخَمْسَةُ الا التِّرْمِذِي .

وَثَبَتَ عَنْ عَشَرَةٍ مِنَ الصَّحَابَةِ أَنَّ الْوِتْرَ رَكْعَةٌ مِنْهُمْ : أَبُوْ بَكْرٍ ، وَعُمَرُ وَعَائِشَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُم ـ وَهُوَ مَذْهَبُ جُمْهُورِ أَهْلِ العِلْمِ مَالِكٍ والشَّافِعِي وَغَيْرِطهمْ ـ رَحِمَهُم اللهُ تَعَالى .

وَعَنْ عَائِشَةَ ـ رَضْيَ اللهُ عَنْهَا ـ قَالَتَ : « كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عَليهِ وَسَلم يُصَلِّي مَا بَيْنَ صَلاَةِ العِشَاءِ إلَى الفَجْرِ إحْدَى عَشْرَةَ رَكْعَةً يُسَلِّمُ مِنْ كُلِّ رَكْعَتَيْنِ ، ويُوْتِرُ بِوَاحِدَةٍ » .

وَفِي لَفْظٍ كَانَ صَلى اللهُ عَلَيهِ وَسَلم : يُصَلي بِاللَّيْلِ إحْدَى عَشْرَةَ رَكْعَةٍ وَيُوتِرُ بِوَاحِدَةٍ . وَأَدْنَى الكَمَالِ في الوِتْرِ ثَلاَثُ رَكَعَاتٍ بِسَلامَيْنِ ، لِما رَوَى عَبْدُ اللهِ بنُ عُمَر ـ رَضَي اللهُ عَنْهُمَا ـ أَنَّ رَجُلاً سَأَلَ النَّبي صَلى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ عَنْ الوِتْرِ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « افْصِلْ بَيْنَ الوَاحِدَةِ والثِّنْتَيْنِ بِالتَّسْلِيْمِ » . رَوَاهُ الأَثْرَمُ .

وَعَنْ ابنِ عُمَرَ ـ رَضِـــيَ اللهُ عَنْهُمَا ـ أَنَّهُ كَانَ يُسَلِّمُ بَيْنَ الرَّكْعَتَيْنِ وَالرَّكْعَةِ بالتَّسْلِيْمِ في الوِتْرِ ، حَتَّى أَنَّهُ كَانَ يَأْمُرُ بِبَعْضِ حَاجَتِهِ . رَوَاهُ البُخَارِيْ .

وَيَجُوزُ سَرْدُ الثَّلاثِ بِسَلامٍ وَاحِدٍ ، فَلا يَجْلِسْ إلاَّ في آخِرِهِنَّ ، وَتَجُوْز كَمَغْرِبٍ . وَمَن أَدْرَكَ مَعَ الامَامِ رَكْعَةً مِن الثَّلاثِ فَإنْ كَانَ الامَامُ يَسَلِّمُ من كُلِّ اثْنَتَيْنِ أَجْزَأَ لأَنَّ أَقَلَّ الوِتْرِ رَكْعَةٌ ، وانْ لَمْ يَكُنْ الامَامُ يُسَلِّم مِنْ كُلِّ اثْنَتيْنِ قَضَى ، لِحَدِيْثِ : « ما أَدْرَكْتُمُوْهُ فَصَلُّوا ، وَمَا فَاتَكم فَاقضُوا » وَلأَنَ القَضَاءَ يَحْكِي الأَدَاءَ .

وَيُسْتَحَبُّ أَنْ يَقْرَأَ في الرَّكْعَةِ الأُولَى : ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى﴾، وَفي الثَّانِيَةِ : ﴿قُلْ يا أَيُّهَا الكافِرُونَ﴾ وفي الثَّالِثَةِ : ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾ لِحَديثِ عَائِشَةَ : « كَانَ النبي صَلى اللهُ عَليه وَسلم يُوْتِرُ بِثَلاثٍ لاَ يَفْصِلُ فِيْهِنَّ » . رَوَاهُ أحمَدُ والنَّسَائي .

وَعَنْ أُبَيِّ بن كَعْبٍ ـ رَضْيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ ؟قَالَ : « كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلى اللهِ عليه وسَلم يُوْتِرُ بـ « سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ، وَقُلْ يَا أَيُّهَا الكَافِرُونَ ، وَقُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ . رَواهُ أَبُو دَاوُدَ ، وَالنَّسَائِي ، وَزَادَ : وَلاَ يُسَلِّمُ الاَّ في آخِرِهِنَّ ، وَلاَبِي دَاوُدَ والتِّرْمِذي عَنْ عَائِشَةَ نَحْوُهُ ، وَفِيْهِ كُلُّ سُوْرَةٍ في رَكْعَةٍ ، وفي الأَخِيْرَةِ : ﴿ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ ﴾ وَالمعَوِّذَتَينِ .

والسُّنَةُ لِمَنْ أَوْتَر بِمَا زَادَ على رَكْعَةٍ أَنْ يُسَلِّمَ مِنْ كُلِّ رَكْعَتَيْنِ لِمَا رَوَى ابْنُ عُمَرَ ـ رَضْيَ اللهُ عَنْهُمَا ـ أَنَّ النَّبي صَلى اللهُ عَليه وَسَلم كَانَ يَفْصِلُ بَيْنَ الشَّفْعِ وَالوِتْرِ ، ويُسِنُّ فِعْلُ الرَّكْعَةِ عَقِبَ الشَّفْعِ بِلاَ تَأخِيْرٍ لَهَا عَنْهُ ، وَإِنْ صَلَّى الاحْدَى عَشْرَةَ كُلَّها بِسَلامٍ وَاحِدٍ بِأَنْ سَرَدَ عَشْراً وَتَشَهَّدَ التَّشَهُّدَ الأَوَّلَ ، ثُمَّ قَامَ فَأَتَى بِالرَّكعَةِ جَـازَ ، أَوْ سَرَدَ الجَمِيْعَ وَلَمْ يَجْلِسْ إِلاَّ في الأَخِيْرَةِ جَازَ لكِنْ الصِّفَةُ الأُوْلَى أَوْلَى لِأَنَّها فِعْلُهُ صَلى اللهُ عَليهِ وَسَلمَ .

٤ ـ عَدَدُ رَكَعَاتِهَا :

يَجُوزُ الوِتْرُ بِخَمْسٍ وَبِسَبْعٍ وبِتِسْعٍ ، فانْ أَوْتَرَ بِتِسعٍ سَرَدَ تَمَاماً وَجَلَسَ وَتَشَهَّدَ التَّشَهُّدَ الأَوَّلَ وَلَمْ يُسَلِّم ، ثُمَّ اذَا صَلَّى التَّاسِعَةَ وَتَشَهَّدَ سَلَّمَ ، لما وَرَدَ عَنْ سَعِيْدِ بن هِشَامٍ قَال انْطَلَقْتُ إلـى عَائِشَةَ فَقُلتُ : يَا

أمَّ المؤمنين ، أَنْبِئِيْنِي عَن خُلُقِ رَسُولِ اللهِ صَلى اللهُ عَليهِ وَسَلم ، فَقَالَتْ : أَلَسْتَ تَقْرأُ القُرآنَ ؟ قُلتُ : يَا أُمَّ المؤمنين ، أَنْبِئِنِي عَنْ وِتْرِ رَسُولِ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلم فَقَالَتْ : كُنَّا نُعِدُّ لَهُ سِوَاكَهُ وَطَهُورَهُ فَيَبْعَثُهُ اللهُ مَا شَاءَ أَنْ يَبْعَثَهُ مِن الليلِ ، فَيَبُولُ وَيَتوضَّأُ وَيُصَلِّي تِسْعَ رَكَعَاتٍ ، لاَ يَجْلِسُ فِيْهَا إلا في الثَّامِنَةِ فَيَذْكُرُ اللهَ وَيَحْمَدُهُ ، وَيَدْعُوهُ ، ثُمَّ يَنْهَضُ وَلاَ يُسَلِّمَ ، فَيُصَلِّي التَّاسِعَةَ ، ثُمَّ يَقْعُدُ فَيَذْكُرُ اللَّهَ ، وَيَحْمَدُهُ وَيَدْعُوهُ ، ثُمَّ يُسَلِّمُ تَسْلِيْماً فَيُسْمِعُنَا ، ثُمَّ يُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ بَعْدَ مَا يُسَلِّمُ وَهُوَ قَاعِدٌ ، فَتِلْكَ إحْدَى عَشْرَةَ رَكْعَةً يَا بُنَيَّ . رَوَاهُ مُسْلِمٌ .

وَانْ أَوْتَرَ بِسَبْعٍ إوْ بِخَمْسٍ لَمْ يَجْلِسْ الاَّ فِي آخِرِهَا لِمَا وَرَدَ عن أُمِّ سَلَمَةَ قَالَتْ : كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُوْتِرُ بِسَبْعٍ وَبِخَمْسٍ لاَ يَفْصِلُ بَيْنَهُنَّ سَلامٌ ولاَ كَلامٌ . رَوَاهُ أَحْمَدُ والنِّسَائِيْ وَابنُ مَاجَهْ .

وَعَنْ عَائِشَةَ ، قَالَتْ : كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم يُصَلى مِنْ الليلِ ثَلاثَ عَشْرَةَ رَكْعَةٍ ، يُؤْتِرُ مِنْ ذَلِك بِخَمْسٍ وَلاَ يُجْلِسُ فِيْ شَيْءٍ إلاَّ فِيْ آخِرِهِنَّ . مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ .

٥ ـ دُعَاءُ القُنُوتِ في الوِتْرِ :

وَيُستَحَبُّ أَنْ يَقْنُتَ في الرَّكْعَةِ الأَخِيْرَةِ بَعْدَ الرُّكُوعِ لأَنَّهُ صَحَّ عَنْهُ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم . مِن رَوَايَةِ أَبِي هُرَيْرَةَ وَأَنَسٍ وابنِ عَبَّاسٍ وَعَنْ عَمْرو وَعَلي أَنَّهُمَا كَانَا يَقْنُتَانِ بَعْدَ الرُّكُوْعِ . رَوَاهُ أَحْمَدُ وَالأَثْرَمُ ، وَلَوْ كَبَّر وَرَفَعَ يَدَيْهِ ، ثُمَّ قَنَتَ قَبْلَ الرُّكُوْعِ جَازَ لحديث أَبِي بنِ كَعْبٍ : أَنَّ النَّبِي صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَم كَانَ يَقْنُتُ قَبْلَ الرُّكُوْعِ . رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ .

وَرَوَى الأَثْرَمُ عَنْ ابْنِ مَسْعُوْدٍ أَنَّهُ كَانَ يَقْنُتُ في الوِتْرِ ، وَكَانَ اذَا فَرَغَ مِنْ القِرَاءَةِ كَبَّرَ وَرَفَعَ يَدَيْهِ ، ثُمَّ قَنَتَ . وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ ابْنِ الخَطِيْبِ : وَالقُنُوتُ : الدُّعَاءُ وَهُوَ مَا رُوِيَ عَنْ عُمَرَ ـ رَضْيَ اللهُ عَنْهُ ـ أَنَّهُ قَنَتَ فَقَالَ : بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنُ الرَّحِيم : اللَّهُمَّ انَّا نَسْتَعِيْنُكَ وَنَسْتَهْدِيْكَ وَنَسْتَغْفِرُكَ وَنَتُوبُ إِلَيْكَ ، وَنُؤْمِنُ بِكَ وَنَتَوَكَّلُ عَلَيْكَ ، وَنُثْنِي عَلَيْكَ الخَيْرَ كُلَّهُ وَنَشْكُرُكَ ، وَلَا نَكْفُرُكَ وَنَخْلَعُ وَنَتْرُكُ مَنْ يَفْجُرُكَ . اللهُمَّ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَلَكَ نُصَلِّي وَنَسْجُدُ وَاَلَيْكَ نَسْعَى وَنَحْفِدُ ، نَرْجُو رَحْمَتَكَ وَنَخْشَى عَذَابَكَ ، إِنَّ عَذَابَكَ الجِدَّ بِالْكُفَّارِ مُلْحَقٌ .

وَرَوَى الحَسَنُ بْنُ عَلِي ـ رَضْيَ اللهُ عَنْهُمَا ـ قَالَ عَلَّمَنِي رَسُولَ الله صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَم كَلِمَاتٍ أَقُوْلُهُنَّ في قُنُوْتِ الوِتْرِ وَهُنَّ : « اللَّهُمَّ اهْدِنِي فِيْمَنْ هَدَيْتَ ، وعَافِنِيْ فِيْمَنْ عَافَيْتَ وَتَوَلَّنِي فِيْمَنْ تَوَلَّيْتَ ، وَبَارِكْ لِيْ فِيْمَا أَعْطَيْتَ ، وَقِنِيْ شَرَّ مَا قَضَيْتَ ، فَإِنَّكَ تَقْضِي وَلَا يُقْضَى عَلَيْكَ ، انَّهُ لَا تَـذِلُّ مَنْ وَالَيْتَ ، وَلَا يَعِزُّ مَنْ عَادَيْتَ ، تَبَارَكْتَ رَبَّنَا وَتَعالَيْتَ » .

وَعَنْ عَلي بنِ أَبِيْ طَالِبٍ ـ رَضْيَ اللهُ عَنْهُ ـ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلى اللهُ عَليهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَقولُ في وِتْرِهِ : « اللَّهُمَّ إِنِّيْ أَعُوْذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ ، وَبِعَفْوِكَ مِنْ عُقُوْبَتِكَ ، وَبِكَ مِنْكَ ، لَا نُحْصِيْ ثَنَاءً عَلَيْكَ ، أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ » . رَوَاهُ الخَمْسَةُ ثُمَّ يُصَلي عَلَى النَّبي صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، لِحَدِيْثِ الحَسَنِ بنِ عَلِي ـ رَضْيَ اللهُ عَنْهُ ـ وَفي آخِرِهِ « وَصَلَّى اللهُ عَلَى مُحَمَّدَ » . رَوَاهُ النَّسَائِي .

وَعَنْ عُمَرَ : « الدُّعَاءُ مَوْقُوفٌ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ ، لَا يَصْعَدُ مِنْهُ شَيْءٌ حَتَّى تُصَلِّي عَلَى نَبِيِّكَ»رَوَاهُ التِّرمِذِي.ثُمَّ يَمْسَحُ وَجْهَـهُ بِيَدَيْـهِ،هُنَا

وَخَارِجَ الصَّلَاةِ إِذَا دَعَا . لِعُمُومِ حَدِيثِ ابنِ عُمَرَ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا ـ كَانَ النبي صَلى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ إِذَا رَفَعَ يَدَيْهِ في الدُّعَاءِ ، لَا يَحُطُّهُمَا حَتَّى يَمْسَحَ بِهِمَا وَجْهَهُ » . رَوَاهُ التِّرمِذِي .

وَلِقَولِهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حَدِيثِ ابنْ عَبَّاس « فَإِذَا فَرَغْتَ فامْسَحْ بِهِمَا وَجْهَكَ » . رَوَاهُ أبـو دَاوُدَ وابْنُ مَاجَـه . وَيُؤَمِّنُ المُنْفَرِدُ الضَّمِيرَ ، وإِذَا سَلَّمَ مِن الوَتْرِ سُنَّ قَوْلُهُ : « سُبْحَانَ المَلِكِ القُدُّوسِ » ـ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ـ يَرْفَعُ صَوْتَهُ في الثَّالِثَةِ ، لِمَا رَوَى أُبَيُّ بنُ كَعْبٍ قَالَ : كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ إِذَا سَلَّمَ في الوِتْرِ قَالَ : « سُبْحَانَ المَلِكِ القُدُوسِ » . وَزَادَ ثَلَاثَ مَراتٍ يُطِيلُ في آخِرِهِنَّ .

وَفي رِوَايةٍ للنَّسَائِي عَن عَبْدِ الرَّحْمَنِ بنِ أَبْزَى عَنْ أَبِيْهِ قَالَ : كَانَ يَقُولُ إِذَا سَلَّم : « سُبْحَانَ الملكِ القُدُوسِ » ثَلَاثَـاً ، وَيَرْفَـعُ صَوْتَـهُ بالثَّالِثَةِ .

وَصَـلَّ بِشَهْرِ الصَّـوْمِ عِشْرِيْنَ رَكْعَـةً
تَـرَاوِحَ في جَمْـعٍ وَبِـالـوِتْـرِ شَيِّـدِ
وَقُمْ بَعْـدَهَا واشْفَـعْ هُـدِيْتَ بِـرَكْعَـةٍ
لِتُـوتِـرَ إِمَّـا شِئْتَ بَعْـدَ التَّجَهُّـدِ
وَأَفْضَـلُ نَفْـلِ المَـرْءِ لَيْـلاً بِبَيْتِـهِ
فَقُمْ تِلْوَ نِصْفِ مِثْـلِ دَاوِدَ فَـاسْجُـدِ
وَانْ شِئْتَ اجْهَرْ فِيْهِ مَا لَم تَخَفْ أَذَىً
لِإبـعَـادِ شَـيْـطَانٍ وَإِيْـقَـاظِ رُقَّـدِ

وَخُذْ قَدْرَ طَوْقِ النَّفْسِ لَا تَسْأَمَنَّهُ
وَقِلْ تَسْتَعِنْ بِالنَّوْمِ عِنْدَ التَّجَهُّدِ
فَإِنْ لَمْ تُصَلِّ فَاذْكُرِ اللهَ جَاهِدَاً
وَتُبْ وَاسْتَقِلْ مِمَّا جَنَيْتَ وَسَدِّدِ
فَلَا خَيْرَ فِي عَبْدٍ نَؤُومٍ إلى الضُّحَى
أَمَا يَسْتَحِي مَوْلاً رَقِيباً بِمَرْصَدِ
يُنَادِيهِ هَلْ مِنْ سَائِلٍ يُعْطَ سُؤْلَهُ
وَمُسْتَغْفِرٍ يُغْفَرْ لَهُ وَيُؤَيَّدِ

اللَّهُمَّ وَفِّقْنَا تَوفيقاً يَقِيْنَا عَنْ مَعَاصِيْكَ وَأَرْشِدْنَا إلى السَّعْيِ فِيْمَا يُرْضِيْكَ وأَجِرْنَا يَا مَوْلَانَا مِنْ خِزْيِكَ وَعَذَابِكَ وَهَبْ لَنَا مَا وَهَبْتَهُ لِأَوْلِيَائِكَ وأَحْبَابِكَ واغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَلِجَمِيْعِ الْمُسْلِمِيْنَ الأَحْيَاءِ مِنْهُمْ وَالمَيِّتِيْنَ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ ، وَصَلى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

كِتَابُ الفَضَائِلِ

وَيَبْحَثُ في :

١ ـ مَا وَرَدَ مِن الحَثِّ عَلَى الأَجْتِهَادِ في العَشْرِ الأَخِيرِ مِنْ رَمَضَان . وَالحَثِّ عَلَى القِيَامِ عُمُوماً .

٢ ـ ما وَرَدَ في فضل هذا العَشْرِ الأَخِيْرِ ، والحَثِّ على القيامِ عموماً .

٣ ـ مَا وَرَدَ في لَيْلَةِ القَدرِ مِنَ الفَضْلِ وَذِكْرِ عَلَامَتِهَا .

١ ـ مَا وَرَدَ مِن الحَثِّ عَلى الاجْتِهَادِ في العَشْرِ الأَخيرَةِ مِنْ رَمَضَانَ :

يُسْتَحَبُّ الاجْتِهَادُ والحِرْصُ عَلى مُدَاوَمَةِ القِيَامِ في العَشْرِ الأَوَاخِرِ مِن رَمَضَان وَإِحْيَاؤُهَا بِالعِبَادَةِ وَاعْتِزَالُ النِسَاءِ وَأَمْرُ الأَهْلِ بالاسْتِكْثَارِ مِنَ الطَّاعَةِ فِيْهَا ، لِمَا وَرَدَ عَنْ عَائِشَةَ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا ـ « أَن النبيَّ صَلى اللهُ عليهِ وَسَلَمَ ، كَانَ اذَا دَخَلَ العَشْرُ الأَواخِرُ أَحْيَا الليلَ ، وَأَيقَظَ أَهْلَهُ ، وَشَدَّ المِئْزَرَ » . مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ .

وَعَنْهَا قَالَتْ : « كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَجْتَهِدُ في العَشْرِ الأَواخِرِ مِنْهُ مَالا يَجْتَهِدُ في غَيْرِهِ » رَوَاهُ مُسْلِمٌ .

وَأَخْرَجَ الطَّبَرانِيُّ مِنْ حَدِيثِ عَلي ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ « أَنَّ النبيَ صَلى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ كَانَ يُوقِظُ أَهْلَهُ في العَشْرِ الأَواخِرِ مِنْ رَمَضَانَ وَكُلَّ صَغِيرٍ وَكَبيرٍ يُطِيْقُ الصَّلاَةَ » .

وَفِي التِّرمِذِيّ عَنْ ام سَلَمَةَ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا ـ قَالَتْ : « لَمْ يَكُن النبيْ صَلَى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ . إذا بَقِيَ مِنْ رَمَضَانَ عَشَرَةُ أَيَّامٍ يَدَعُ أَحَداً مِنْ أَهْلِهِ يُطِيْقُ القِيَامَ إلا أَقامَهُ » .

٢ ـ مَا وَرَدَ في فَضلِ هَذَا العَشْرِ الأخيرِ :

عَنْ أَبي هُرَيرَةَ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ أَنَّ النَّبِيَ صَلَّى اللهُ عَليهِ وَسَلَّمَ قَالَ : « مَن قَامَ ليلةَ القدرِ ايمَاناً واحتِسَاباً غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ » . رَوَاهُ الجَمَاعَةُ إلا ابْن مَاجَه .

وَعَنْ عَائِشَةَ ـ رَضِيَ اللهُ عَنهَا ـ قَالَتْ ، قُلتُ : يَا رَسُولَ اللهِ ، أَرأيتَ ان عَلِمْتُ أيَّ لَيْلَةٍ لَيلةُ القَدْرِ مَا أَقُولُ فِيْهَا ؟ قَالَ : « قُوْلِيْ اللهُمَّ إنكَ عَفوٌ تُحِبُّ العَفْوَ فَاعْفُ عَنِّي » رَوَاهُ التِّرْمِذِيّ .

قَالَ ابنُ جَرِيرٍ : كَانُوا يَسْتَحِبُّونَ أَنْ يَغْتَسِلُ ، وَيَتَطَيَّبُ في اللَّيَالِيْ التي تَكُونُ أَرْجَى لِلَيْلَةِ القَدْرِ .

وَرُوِيَ عَنْ أَنَسٍ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ أَنَّهُ إِذَا كَانَ لَيْلَةَ أَرْبَعٍ وَعِشْرِين اغْتَسَلَ وَتَطَيَّبَ وَلَبِسَ حُلَّةً وَازَاراً وَرِدَاءً ، فَإِذَا أَصْبَحَ طَوَاهُمَا فَلَمْ يَلْبَسْهُمَا إلى مِثْلِهَا مِنْ قَابِلَ .

وَقَالَ حَمَّادُ بنُ سَلَمَةَ : كَانَ ثَابِتٌ وَحُمَيْدٌ يَلْبَسَانِ أَحْسَن ثِيَابِهِمَا وَيَتَطَيَّبَانِ وَيُطَيِّبَانِ المَسْجِدَ بالنُّضوحِ وَالدُّخْنَةِ في اللَّيْلَةِ التي تُرْجَى فِيْهَا لَيْلَةُ القَدْرِ فَيُسْتَحَبُّ في اللَيَالِي التِي تُرْجَىٰ فِيْهَا لَيْلَة القَـدْرِ التَّنَظُّفُ وَالتَّطَيُّبُ والتَّزَيُّنُ بِالغُسْلِ والطيِّبِ واللبَاسِ الحَسَن كَمَا شُرِعَ ذَلِكَ في الجُمَعِ والأَعْيَادِ ، وَكَذَلِكَ يُشْرَعُ أخذُ الزِّينَةِ مِن الثِّيَابِ في سَائِرِ الصَّلَواتِ ، قَال اللهُ تَعَالَىٰ : ﴿ يَـا بَنِيْ آدَمَ خُذُوا زِيْنَتَكُم عِنْـدَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ .

وَقَالَ ابْنُ عُمَرَ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا ـ : « اللهُ أَحَقُّ أَنْ يُتَزَيَّنَ لَهُ » .

وَرُوِيَ عَنْهُ مَرْفُوعًا عَنْ النَّبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَلَا يَكْمُلُ التَزَينُ الظَّاهِرُ إلا بِتَزْيِيْنِ البَاطِنِ بالتَّوْبَةِ والانَابَةِ الى اللهِ تَعَالى ، وَتَطْهِيْرِهِ مِن أَدْنَاسِ الذُنوبِ ، وَاللهُ سُبْحَانَهُ لَا يَنْظُرُ إلى صُوَرِكُم وَأَجْسَامِكُم ، وَإِنَّمَا يَنْظُرُ إلى قُلُوبِكُمْ وأَعْمَالِكُم .

فَمَنْ وَقَفَ بَينَ يَدَيْهِ فَلْيُزَيِّنْ ظَاهِرَهُ باللِّبَاسِ ، وَبَاطِنَهُ بِلِبَاسِ التَّقْوَى ، وَقال الله تعالى : ﴿ يا بَنِيْ آدَمَ قد أنزلْنَا عليكُم لباساً يُوَارِيْ سَوْآتِكم وَرِيْشاً وَلِبَاسُ التقوَى ذلكَ خَير ﴾ .

عِبَادَ اللهِ : إِنَّ عَشْرَكُمْ هَذَا هُوَ العَشْرُ الأَخِيرُ ، وَفِيهِ الخَيراتُ والأُجُورُ الكَثِيرَةُ تَكْمُلُ فِيْهِ الفَضائلُ ، وَتَتمُّ فيهِ المَفاخِرُ ، وَيَطَّلِعُ عَلى عِبَادِهِ الرَّبُ العَظِيمُ الغَافِرُ وَيُنيلُهُم الثَّوابَ الجَزيلَ الوَافِرَ ، فِيهِ تَزكُو الأَعمالُ ، وَتُنَالُ الآمَالُ ، وَقَدذَكَرَ جَلَّ وَعَلا مِنْ مَحاسِنِ أَهْلِ الإِيمَانِ ، أَنَّهم تَتَجَافي جُنُوبُهم عَن المَضَاجِعِ ، عَنْ مُعَاذِ بنِ جَبَل عَن النبي صَلى الله عليه وسلم في قَولِهِ تَعَالَى : ﴿ تتجَافي جُنوبُهم عَنِ المضَاجِعِ ﴾ قَالَ : هِيَ قيامُ العَبْدِ أولَّ الليلِ .

وَرَوى الامامُ أَحْمَدُ عَن ابن مَسْعودٍ أَنَّ النبيَّ صَلى اللهُ عليه وسلم قالَ : « عجِبَ رَبُّنا مِن رَجُلَين : رَجُلٌ ثَارَ مِن وِطَائِهِ وَلِحَافِهِ مِن بَيْنِ حِبِّهِ وَأَهْلِهِ إلى صَلاَتِهِ رَغبَةً فِيمَا عِنْدِي وَشَفَقَةً مِمَّا عِنْدِي » الحَدِيْث .

وَقَالَ الحَسَنُ وَمُجَاهِدُ وَمَالِكُ وَالأَوْزَاعِيُّ وَغَيرُهُم : « إِنَّ المرَادَ بِالتَّجَافي القيَامُ لِصَلاَةِ النَّوافِلِ باللَّيلِ » ، وَفي آيَةِ سُورَةِ الذَّارِيَاتِ . أَخْبَرَ جَلَّ وَعَلاَ أَنَّهُم كَانُوا يَنَامُونَ القَلِيْلَ مِنَ اللَّيل ، وَيَتَهَجَّدونَ مُعْظَمَهُ قالَ تَعَالَى : ﴿ كَانُوا قَليلاً مِن الليلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴾ .

قَالَ ابنُ عَبَّاس مَا تَأْتِي عَلَيْهِمْ لَيْلَةٌ يَنَامُوا حَتَّى يُصْبِحُوا إِلاَّ يُصَلُّونَ فِيْهَا شَيْئاً ، إِمّا مِن أَوَّلِهَا أَوْ مِنْ أَوْسَطِهَا . وَقَالَ الحَسَنُ : كابَدُوا قِيَامَ الليلِ فَلا يَنَامُوا مِنَ اللَّيلِ إلا قَلِيْلَهُ .

وَعَنْ أَبِي أُمَامَةَ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ عَنْ النَّبِي صَلى اللهُ عَليهِ وَسَلَمِ أنهُ قَالَ : « عَلَيْكُمْ بِقِيَامِ اللَّيلِ ، فَانَّهُ دَأْبُ الصَّالِحِينَ قَبْلَكُم ، وَهُوَ قُرْبُكُم مِنْ رَبِّكم وَمَغْفِرَةٌ لِلسَّيئَاتِ وَمَنْهَاةٌ عَنِ الإِثْمِ .

وَقَالَ الحَسَنُ البَصْرِيُّ : كَانَ الأَحْنَفُ بِنُ قَيسٍ يَقُولُ : عَرَضْتُ عَمَلِي عَلَى عَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ ، فَإِذَا قَوْمٌ قَدْ بَايَنُونَا بَوْناً بَعِيْدَا ، وَإِذَا قَوْمٌ لاَ تُبْلَغُ أَعْمَالُهُمْ ، كَانُوا قَلِيْلاً مِنَ اللَّيلِ مَا يَهْجَعُونَ ، وَعَرضْتُ عَمَلي عَلى عَمِلِ أَهْلِ النَّارِ ، فاذا قَوْمٌ لاَ خَيرَ فِيْهِم مُكَذِّبُونَ بِكِتَابِ اللهِ وَلرُسُلِ اللهِ مُكَذبُون بِالبَعْثِ بَعْدَ المَوتِ ، فَقَدْ وَجَدْتُ مِن خَيرِنَا مَنْزِلَةً قَومَاً خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحاً وَآخَر سَيِّئاً .

وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بِن زَيْدٍ بن أَسْلَمَ قَالَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ لِأَبِي : يَا أَبَا أُسَامَةَ صِفَة لاَ أَجِدُهَا فِيْنَا ، ذَكَرَ الله تَعالى قَوْماً فَقَالَ : ﴿ كَانُوا قَلِيلاً مِنَ الليلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴾ وَنَحْنُ واللهِ قليلاً مَا نَقُومُ ، فَقَال لَهُ أَبِي ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ : طُوبَي لِمَنْ رَقَدَ إِذَا نَعَسَ ، وَاتَّقَى اللهَ إِذا اسْتَيْقَظَ .

وَقَالَ عَبْدُ اللهِ بْنِ سَلامٍ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ : لَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم المدينَةَ انجَفَلَ النَّاسُ عَنْهُ ، فَكُنْتُ فِيْمَن انْجَفَلَ ، فَلَمَّا رَأَيتُ وَجْهَهُ صَلى اللهُ عليهِ وَسَلمَ عَرَفْتُ أَنَّ وَجْهَهُ لَيْسَ بِوَجْهِ كَذّاب ، فَكَانَ أَوَّلَ مَا سَمِعْتُ مِنْه صَلَّى اللهُ عَلِيهِ وَسَلَّم يَقُولُ : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَطْعِمُوا الطَّعَامَ وَصِلُوا الأَرحَامَ وَأَفْشُوا السَّلاَمَ وَصَلُّوا بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ تَدْخُلُوا الجَنَّةَ بِسَلاَمٍ » .

مَـوْعِظَةٌ

اخْوَانِي : إِنَّ قِيامَ الليلِ كَمَا عَلِمْتُمْ فِيهِ فَضْلٌ عَظِيمٌ وَثَوَابٌ جَزِيْلٌ لِمَن وَفَّقَهُ اللهُ جَلَّ وَعَلَا ، وَهُوَ مِنْ أَثقَلِ شَيءٍ عَلى النَّفْسِ وَلاَ سِيَّمَا بَعْدَ أَنْ يَرْقُدَ الانسَانُ ، وانَّمَا يَكُونُ خَفِيفاً بالاعْتِيَادِ ، وَتَوطِينِ النَّفْسِ وَتَمْرِينِهَا عَلَيْهِ والمَدَاوَمَةِ والصَّبرِ عَلى المَشَقَّةِ والمُجَاهَدَةُ في الابْتِدَاءِ ، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ يَنْشَرِحُ وَيَنْفَتِحُ بَابُ الأُنْسِ بِاللهِ وَتَلَذُّ لَهُ المَنَاجَاةُ وَالخَلْوَةُ ، وَعِنْدَ ذَلِكَ لاَ يَشْبَع الانسَان مِنْ قِيَامِ اللَّيْلِ ، فَضْلاً عَنْ أَنْ يَسْتَثقِلَهُ أَو يَكْسَلَ عَنْهُ كَمَا وَقَعَ لِكَثِيرٍ مِنَ السَّلَفِ . قَالَ بَعْضُهُم : أَهْلُ الليلِ في لَيْلِهم أَلَذُّ مِن أَهلِ اللهو في لَهْوِهِم وَيَا بُعْدَمَا بَيْنَ الحَالَتَينِ ، فَسُبْحَانَ مَنْ وَفَقَ أَقْوَاماً فَتَقَرَّبُوا إِلَيْهِ بِالنَّوافِلِ ، وَأَبْعَدَ بِحِكْمَتِهِ وَعَدْلِهِ آخَرِين فَهُمْ عَنْ مَا يَنْفَعهم في حَاضِرِهم وَمَآلِهِم غَافِلُونَ .

شِـعْرَاً :

ذُنُـوبُـكَ يَـا مَغْـرُورُ تُحْصَى وَتُحْسَبُ
وَتُـجْمَـعُ فـي لَـوْحٍ حَفِيْظٍ وَتُكْـتَبُ
وَقَـلْبُـكَ في سَـهْـوٍ وَلَهْـوٍ وَغَـفْلَةٍ
وَأَنتَ عَلى الـدُّنْيَـا حَـرِيصٌ مُعَـذَّبُ
تُبَـاهِيْ بِجَمْـعِ المَـالِ مِنْ غَيْـرِ حِلِّهِ
وَتَسْعَى حَثِيْثَاً في المَعَـاصِيْ وَتُـذْنِبُ
أَمَا تَذْكُـرُ المَوْتَ المُفَـاجِيْكَ في غَـدٍ
أَمَـا أَنْتَ مِن بَعْـدِ السَّلامَـةِ تَعْـطَبُ

أَمَـا تَـذْكُـرُ القَبْـرَ الـوَحِيْشَ وَلَحْـدَهُ
بِـهِ الجِسْمُ مِن بَعْـدِ العَمَـارَةِ يَخْـرُبُ
أَمَـا تَـذْكُـرُ اليَـوْمَ الـطَّوِيْـلَ وَهُـو لَـهُ
وَمِيْـزانَ قِـسْطٍ لِلْـوَفَاءِ سَـيُنْـصَـبُ
تَـرُوْحُ وَتَغْـدُو فِي مَـرَاحِـكَ لَاهِيـاً
وَسَـوْفَ بِـأَشْـرَاكِ الـمَنِيَّـةِ تَنْشَـبُ
تُعَـالِجُ نَـزْعَ الرُّوحِ مِنْ كُـلِّ مَفْصِـلٍ
فَـلَا رَاحِـمٍ يُنْجِي وَلَا ثَـمَّ مَهْـرَبُ
وَغُمضَتِ العَيْنَـانِ بَـعْـدَ خُـرُوجِهَـا
وَبُسِّـطَتْ الـرِّجْـلَانِ وَالـرَّأْسُ يُعْصَبُ
وَقَـامُوا سِـرَاعـاً فِي جَهَـازِكَ أَحْضَـرُوا
حَنُـوطـاً وَأَكْفَـانـاً وَلِلْمَـاءِ قَـرَّبُـوا
وَغَـاسِلُكَ المَحْـزُونُ تَبْكِيْ عُيُـونُـهُ
بِـدَمْـعٍ غَـزِيْـرٍ وَاكِـفٍ يَتَصَبَّـبُ
وَكُـلُّ حَـبِـيْـبٍ لُـبُّـهُ مُـتَـحَـرِّقٌ
يُحَـرِّكُ كَـفَّـيْـهِ عَلَيْـكَ وَيَـنْـدُبُ
وَقَـدْ نَشَـرُوا الأَكْفَـانَ مِنْ بَعْـدِ طَيِّهَـا
وَقَـدْ بَـخَـرُّوا مَنْشُـورَهُنَّ وَطَيَّبُـوا
وَأَلْـقَـوْكَ فِـيْـمَـا بَـيْـنَـهُـنَّ وَأَدْرَجُـوا
عَـلَيْـكَ مَثَـانِي طَـيِّـهُـنَّ وَعَـصَّبُـوا
وَفِي حُفْـرَةٍ أَلْقَـوكَ حَيْـرانَ مُـفْـرَداً
تَضُمُّـكَ بَيْـدَاءُ مِن الأَرْضِ سَبْسَـبُ

إِذَا كَـانَ هَـذَا حَـالُنَا بَعْـدَ مَوْتِنَـا
فَكَيْفَ يَـطِيْبُ اليَومَ أَكْـلٌ وَمَشْـرَبُ ؟!
وَكَيْفَ يَـطِيْبُ العَيْشُ وَالقَبْـرُ مَسْكَنٌ
بِـهِ ظُـلُمَـاتٌ غَيْـهَبٌ ثُـمَّ غَـيْـهَـبُ
وَهَـوْلٌ وَدِيْـدَانٌ وَرَوْعٌ وَوَحْـشَـةٌ
وَكُـلُ جَـدِيـدٍ سَوْفَ يَبْلى وَيَـذْهَبُ
فَيَـا نَفْسُ خَـافِي اللهَ وَارْجِي ثَـوابَـهُ
فَهَـادِمُ لَـذَاتِ الفَتى سَـوْفَ يَقْـرُبُ
وَقُـولِي إِلَـهِي أَوْلِنِي مِنْـكَ رَحْمَـةً
وَعَـفْـواً فَـانَّ اللهَ لِـلذَّنْـبِ يُـذْهِـبُ
وَلَا تُحْـرِقَنْ جِسْمِي بِنَـارِكَ سَيِّـدِيْ
فَجِسْمِيْ ضَعِيفٌ وَالـرَّجَا مِنْكَ أَقْـرَبُ
فَمَـا لِيَ إِلَّا أَنْتَ يَـا خَـالِقَ الـوَرَىٰ
عَلَيْـكَ إِتِّكَـالِيْ أَنْتَ لِلْخَلْقِ مَهْـرَبُ
وَصَلِّي إِلَـهِـيْ كُـلَّمَـا ذَرَّ شَـارِقٌ
عَلَى أَحْمَـدَ المُخْتَـارِ مَـا لَاحَ كَـوْكَبُ

اللهم انا نَعُوذُ بِكَ مِن الشَّكِ بَعْدَ اليَقِيْنِ ، وَمِن الشَّيْطَانِ الرجيم ، ومِن شَدَائِدِ يَوْم الدِيْن ، وَنَسْألكَ رِضَاكَ والجَنَّةَ ، وَنَعُوذُ بِكَ مِن سَخطِكَ وَالنَّارِ ، اللهم ارْحَمْنَا إذا عَرِقَ الجَبِيْنُ واشْتَدَّ الكَرْبُ والأنِيْنُ ، واغفر لنا ولوالدينَا ولِجَمِيْعِ المُسْلِمِين الأحياء منهم والمَيتين بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْن وصلى الله على محمدٍ وعلى آلِه أجمعين .

لَيْلَةُ القَدْرِ
فَضَائِلُهَا وَعَلاَمَاتُهَا

عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَنْ كَانَ مُتَحَرِّيَاً فَلْيَتَحَرَّهَا لَيْلَةَ سَبْعٍ وَعِشْرِين ـ أو قال ـ : تَحَرُّوْهَا لَيلةَ سَبْعٍ وَعِشرِين ، يَعني لَيْلَةَ القَدْرِ . رواه أحمد باسناد صحيح .

وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أَنَّ رَجُلاً أَتَى نَبِيَّ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلم فقال : « يا نَبِيَ اللهِ ، إني شَيْخٌ كَبِيرٌ عَلِيْلٌ يَشُقُّ عليّ القيامُ فَأَمُرْنِي بِلَيلةٍ لَعَلَّ اللهَ يُوَفِقُنِي فِيهَا لِلَيْلةِ القَدْرِ ، فقال : « عَلَيْكَ بالسابِعَةِ » رواه أحمد .

وعن زِرِّ بن حُبَيْشٍ قال : سَمِعْتُ أُبَيَّ بْنَ كَعْبٍ يَقُولُ : وقِيلَ لَه انَ عَبد اللهِ بنَ مَسْعُودٍ ـ رَضِي الله عنه ـ يقولُ : مَن قَامَ السَّنَةَ أَصابَ ليلةَ القَدر ، فقال أُبَيٌّ : واللهِ الذي لا إلهَ إلا هُو إنَّهَا لَفِيْ رَمَضَانَ يَحْلِفُ مَا يَسْتَثْنِي ، والله إني لأَعْلَمُ أَيَّ لَيْلَةٍ هِيَ ، هِيَ اللَّيْلَةُ التي أَمَرَنَا رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم بِقِيَامِها هِيَ لَيْلَةُ سَبْعٍ وَعِشرِينَ ، وأمارَتُهَا أَنْ تَطْلُعَ الشَّمْسُ في صَبِيْحَةِ يَوْمِهَا لا شُعَاعَ لها . رواه أحمد ، ومسلم ، وأبو داود ، والترمذي وصححه .

وَرَوَى البُخَارِيُ عن أَبِي سَعِيْدٍ ـ رَضِيَ اللهُ عنه ـ قال : اعتَكَفْنَا مَعَ النبيِ صلى اللهُ عليه وسلم العَشْرَ الأَوْسَطَ مِن رَمضانَ ، فَخَرَجَ صَبِيْحَةَ عِشْرِيْنَ فَخَطَبَنَا وَقَال : « إني رَأَيْتُ لَيْلَةَ القَدْرِ ثم أنسِيْتُهَا أَوْ نَسَيْتُهَا ، فالتَمِسُوْهَا في العَشْرِ الأَوَاخِرِ في الوِتْرِ ، إني رَأَيْتُ أَنِّيْ أَسْجُدُ في مَاءٍ

وَطِيْنٍ فَمَنْ كَانَ اعْتَكَفَ مَعَ رَسُولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم فَلْيَرْجِعْ » فَرَجَعْنَا وما نَرَى في السَّماءِ قَزَعَةً ، فَجَاءَتْ سَحَابَةٌ فَمَطَرَتْ حتى سَالَ سَقْفُ المَسْجِدِ ـ وكانَ مِن جَرِيْدِ النَّخْلِ ـ وأُقِيْمَتِ الصَّلاةُ فَرَأَيْتُ رَسولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم يَسْجُدُ في المَاءِ والطِّيْنِ ، حَتَى رَأيتُ أَثَرَ الطِيْنِ في جَبْهَتِهِ .

وعن عَبدِ اللهِ بن أُنَيْس : أَنَّ رَسُوْلَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم قال : « رَأَيْتُ لَيْلَةَ القدرِ ثُم أُنْسِيْتُهَا وإذا بِيْ أَسْجُدُ صَبِيْحَتَهَا في مَاءٍ وطِيْنٍ » . قال : فَمُطِرْنا في لَيْلَةِ ثلاثٍ وَعِشْرِيْنَ فَصلَى بنا رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم وانصرفَ ، وانَّ أَثَرَ الماءِ والطِّيْنِ عَلَى جَبْهَتِهِ وأَنْفِهِ . رواه أحمد ومسلم وزاد .

وعن أبي بكرةَ : أنه سَمِعَ رَسولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم يَقُول : « التَمِسُوْهَا في تِسْعٍ بَقِيْنَ ، أو سَبْعٍ بَقِيْنَ ، أو خَمْسٍ بَقِيْنَ ، أو ثلاثٍ بَقِيْنَ أَوْ آخرَ ليلةٍ » . قال : وكان أَبُو بَكْرَةَ يُصَلِي في العِشْرِيْنَ مِن رَمَضَانَ صَلاَتَهُ في سائِرِ السَّنَةِ فاذا دَخَلَ العَشْرُ اجْتَهد . رواه أحمد ، والترمذي وصححه .

وعن أبي نَضْرَةَ عن أبي سعيدٍ في حديث لَهُ : أَنَّ النبي صلى اللهُ عليه وسلم خَرَجَ على الناس فقال : « يا أَيُّهَا الناسُ . إنها كانَتْ أُبِيْنَت لي ليلةُ القَدْرِ ، وَإِني خَرَجْتُ لِأُخْبِرَكُم بِهَا فَجاءَ رَجُلاَنِ يَحْتَقَّانِ مَعَهُمَا الشَّيْطَانُ فَنَسِيْتُهَا ، فالتَمِسُوْهَا في العشرِ الأواخِرِ مِن رَمَضَانَ ، التَمِسُوْهَا في التَّاسِعَةِ والخَامِسَةِ والسَابِعَةِ » . قال : قُلْتُ يَا أَبَا سَعِيْدٍ : إنكم أَعْلَمُ بِالعَدَدِ مِنَّا ، فقال : أَجَل ! نَحْنُ أَحَقُ بِذَلِكَ مِنكم ، قالَ : قُلتُ : ما

التاسعةُ والسابعةُ والخامسةُ ؟ قال : إذا مَضَتْ وَاحِدَةٌ وَعِشْرُوْنَ فالتي تَلِيْهَا اثْنَانِ وَعِشْرُوْنَ فَهِيَ التَّاسِعَةُ ، فإذا مَضَتْ ثَلاَثٌ وَعِشْرُوْنَ فالتي تَلِيْهَا السابعةُ ، فاذا مَضَتْ خَمْسٌ وَعِشْرُوْنَ فالَّتِي تَلِيْهَا الخامسةُ . رواه أحمد ، ومسلم .

وعن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ أَنَّ النبيَ صلى اللهُ عليهِ وسلم قال : « التَمِسُوْهَا في العَشْرِ الأَواخِرِ مِن رَمَضَانَ لَيْلَةَ القَدْرِ في تاسِعَةٍ تَبْقَى ، في سَابِعَةٍ تَبْقَى ، في خَامِسَةٍ تَبْقَى » . رواه أحمد ، والبخاري ، وأبو داود .

وفي رواية : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « هِي في العَشْرِ الأَخِيرِ سَبْعٌ يَمْضِيْنَ أو تِسْعٌ يَبْقِيْنَ ، يَعْنِي لَيْلَةَ القَدرِ رواه البخاري .

وعن ابن عُمَرَ ـ رضي اللهُ عنهما ـ أَنَّ رِجَالاً مِن أَصْحَابِ النبي صلى اللهُ عليه وسلم أُرُوْا لَيْلَةَ القَدْرِ في المنامِ في السَّبْعِ الأَواخِرِ ، فقال رسول اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : « أَرَى رُؤْيَاكمْ قَدْ تَواطَأَتْ في السَّبْعِ الأَوَاخِرِ ، فَمَنْ كانَ مُتَحَرِّياً فَلْيَتَحَرَّهَا في السَّبْعِ الأَوَاخِرِ » .

وَلِمُسْلِمٍ قال : أُرِيَ رَجُلٌ أَنَّ لَيْلَةَ القَدْرِ لَيْلَةَ سَبْعٍ وَعِشْرِيْنَ ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « أَرَى رُؤْيَاكُم قد تَوَاطأَتْ في العَشْرِ الأَواخِرِ فاطْلُبُوهَا في الوِتْرِ مِنها » .

وعن عائشة ـ رضي اللهُ عنها ـ أَنَّ رَسُوْلَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلم قال : « تَحَرَّوْا لَيْلَةَ القَدْرِ في العَشْرِ الأَواخِرِ مِن رمضان » رواه مسلم والبخاري .

وعن عُبَادَةَ بْن الصَّامِتِ ـ رَضي اللهُ عنه ـ قال : خَرَجَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلم لِيُخْبِرَنَا بِلَيْلَةِ القَدْرِ فَتَلاَحَى رَجُلاَنِ مِن المُسْلِمِيْنَ ، فقال : « خَرَجْتُ لِأُخْبِرَكُمْ بِلَيْلَةِ القَدْرِ فَتَلاَحَى فلانٌ وَفلانٌ فَرُفِعَتْ وَعَسَى أَن يَكونَ خَيْراً لَكُم فالتَمِسُوْهَا في التَّاسِعَةِ والسَّابِعَةِ والخامِسَةِ » رواه البخاري .

وَعن عبدِ الله بن أُنَيْسٍ ـ رضي اللهُ عنه ـ قال : قُلْتُ يا رسولَ اللهِ ، إنَّ لِيْ بَادِيةً أَكُونُ فيها وأنا أُصَلِي فيها بِحَمْدِ اللهِ ، فَمُرْنِي بِليلةٍ أَنْزِلُها إلى هَذَا المَسْجِدِ فقال : « انْزِلْ ثَلاَثٍ وَعشرِين » رواه أبو داود .

قِيْلَ لابْنِهِ : كَيْفَ كَانَ أَبُوكَ يَصْنَعُ ؟ قال : كَانَ يَدْخُلُ المَسْجِدَ إذا صَلَّى العَصْرَ فلا يَخْرُجُ مِنْهُ إلَّا لِحَاجَةٍ حَتَّى يُصَلِّي الصُبْحَ ، فإذا صَلَّى الصُّبْحَ ، وَجَدَ دَابَتَهُ على بابِ المَسْجِدِ ، فَجَلَسَ عَليها وَلَحِقَ بِبَادِيَتِهِ .

قال البَغَويُ : وفي الجُمْلَةِ أَبْهَمَ اللهُ هذِهِ اللَّيْلَةَ على هذِهِ الأُمَّةِ لِيَجْتَهِدُوا بِالعِبَادَةِ في لَيَالِي رَمَضَانَ طَمَعاً في إدْرَاكِهَا ، كَمَا أَخْفَى سَاعَةَ الإِجَابَةِ في يَومِ الجُمُعَةِ ، وأَخْفَى الصَّلاةَ الوُسْطَى في الصلواتِ الخَمْسِ ، واسْمَهُ الأَعْظَمَ في الأَسْمَاءِ ، وَرِضَاهُ في الطاعاتِ لِيَرْغَبُوا في جَمِيْعِهَا وَسَخَطَهُ في المَعَاصِي لِيَنْتَهُوْا عن جَمِيْعِهَا ، وأَخْفَى قِيَامَ الساعةِ لِيَجْتَهِدُوا في الطاعاتِ حَذَراً مِن قِيامِهَا .

إذا تَقَرَّرَ هَذَا وَعَلِمْتَ مَا وَرَدَ مِن الحَثِ عَلَيْهَا ، فاعْلَمْ أَنَّهُ يَنْبَغِيْ لِكُلِّ مُوَفَّقٍ مُرِيْدٍ لِلْكَمَالِ والسَّعَادَةِ الأَبَدِيَّةِ أَنْ يَبْذِلَ وُسْعَهُ وَيَسْتَفْرِغَ جُهْدَهُ في إحْيَاءِ لَيَالِيْ العَشْرِ الأَخِيْرِ وَقِيَامِهَا لَعَلَّهُ أَنْ يُصَادِفَ تِلْكَ اللَّيْلَةَ الجَلِيْلَةَ

التي اخْتَصَّ اللهُ تعالى بِهَا هَذِه الأُمَّةَ ، وآتاهُمْ فِيها مِن الفَضْلِ ما لا يَحْصُرُهُ العَدَدُ .

فيا عِبَادَ اللهِ إنَّ هَذَا عَشْرٌ . شَهْرٍ . مُبَارَكِ اللَّيالِي والأَيَّامِ وَهُوَ سَبَبٌ لِمَحْوِ الذُّنُوبِ والآثامِ ، وفيه يَتوفَّرُ جَزِيْلُ الشُكْرِ والانْعَامِ ، فاعْتَذِرُوْا فيه إلى المَوْلَى الكَرِيْمِ ، وأَقْبَلُوا بِقُلُوْبِكُمْ إليهِ وَقِفُوا بالخُضُوعِ لَـدَيْهِ ، وانْكَسِرُوا بَينَ يَدَيْهِ فإنه رَحِيْم كريم .

عِبَادَ اللهِ : إنَّكُمْ الآنَ في رَمَضَانَ ، وَهُوَ وَحْدَهُ عُمُرٌ طَوِيْلٌ لِمَنْ رَامَ الثوابَ الجَزيلَ ، فإن في لَيَالِيْهِ لَيْلَةً واحدةً خيراً من ألفِ شَهْرٍ ، قال الله تعالى : ﴿ لَيلةُ القَدْرِ خَيْرٌ مِن ألفِ شَهْرٍ ﴾ فـاجْتَهِدُوا رَحِمَكُم اللهُ باخلاصِ الاعمالِ لِلّهِ جَلَّ وَعَلاَ وَبَادِرُوْا بالتوبَةِ والاستغفارِ والابتهالِ إلى ذِي الجلالِ والإكرامِ .

واعْلَمُوْا رَحِمَكُم اللهُ أَنَّ المَوْتَى في قُبُورِهِم يَتَحَسَّرُوْنَ على زِيَادَةٍ في أَعْمَالِهِم بِتَسْبِيْحَةٍ أو تَحْمِيْدَةٍ أَوْ رَكْعَةٍ ، رُئِيَ بَعْضُهُمْ في المنامِ فقال : ما عِنْدَنا أَكْثَرَ مِن الندامةِ ، وما عندكُم أَكْثَرَ مِن الغَفْلَةِ ، وَرُئِيَ بَعْضُهُم فقال : قَدِمْنَا على أَمْرٍ عَظِيْمٍ نَعْلَمْ وَلاَ نَعْمَل ، وأنتم تَعْلَمُونَ ولا تَعْمَلُون واللهِ لَتَسْبِيْحَةٌ أو تَسْبِيْحَتَانِ ، أَوْ رَكْعَةٌ أو رَكْعَتَانِ في صَحِيْفَةِ أَحَدِنا خَيْرٌ مِنَ الدنيا وما فِيها .

وفي الترمذي : مَا مِن مَيِّتٍ يَمُوْتُ إلَّا نَدِمَ ، إنْ كانَ مُحْسِناً نَدِمَ أن لا يكونَ ازْدَادَ ، وان كان مُسِيْئاً نَدِمَ أن لا يَكونَ اسْتَعْتَبَ .

قال الشاعر :

تَـذَكَّـرْ ولا تَنْسَ المَعَـادَ وَلَا تَكُـنْ
كـأَنَّـكَ مُـخْلىً لِـلْمَـلاعِبِ مُـمْـرَجُ
ولا تَنْسَ إِذْ أَنْتَ المُـوَلْـوَلُ حَـوْلَـهُ
وَنَفْسُـكَ مِن بَيْنِ الجَوَانِـحِ تَخْـرُجُ
وَلَا تَنْسَ إذ أَنْتَ الـمُسَجَّى بِثَـوْبِـهِ
وإِذْ أَنْتَ في كَـرْبِ السِّيَاقِ تُحَشْـرِجُ
ولا تَنْسَ إِذْ أَنْتَ الـمُعَـزَّى قَـرِيْبُـهُ
وإِذْ أَنْتَ في بِيْضٍ مِن الـرَّيْطِ مُدْرَجُ
ولا تَنْسَ إذ يَهْـدِيكَ قَـوْمٌ إلى الثَّـرَى
إذا مَـا هَدَوْكَـاهُ انْثَنَـوْا لم يُعَـرِّجُـوْا
ولا تَـنْسَ إِذْ قَـبْـرٌ وإِذْ مِـن تُـرَابِـهِ
عَـلَيْـكَ بِـهِ رَدْمٌ وَلِـبْـنٌ مُـشَـرَّجُ
ولا تَنْسَ إِذْ تُكْسَى غَـداً مِنْـهُ وَحْشَـةً
مَـجَـالِسُ فِيْـهِنَّ الـعَنَـاكِبُ تَنْسِـجُ
ولا بُـدَّ مِن بَيْـتِ انقـطاعٍ وَوَحْـدَةٍ
وانْ سَـرَّكَ البَيْتُ العَـتِيْقُ المُـدَبَّـجُ
أَلا رُبَّ ذِيْ طِمْـرٍ غَـداً في كَـرَامَـةٍ
وَمَـلْكٍ بِتِـيْجَـانِ الـهَـوَانِ مُتَـوَّجُ
لَعَمْـرُكَ مَـا الـدُّنْيَـا بِـدَارِ إِقَـامَـةٍ
وإِنْ زَخْـرَفَ الغَـاوُوْنَ فِيْهَـا وَزَبْـرَجُـوا

* * *

اللهم يا مَن خلق الانسانَ وَبَنَاه واللّسَانَ وأَجْرَاهُ ، يا مَنْ لا يُخَيبُ مَن دَعَاهُ ، هَبْ لِكُلٍّ مِنَّا مَا رَجَاهُ ، وَبَلِّغْهُ مِن الدَّارَيْنِ مُنَاهُ ، اللهم اغفر لنا جميعَ الزلات ، واستر علينا كلَّ الخطيئاتِ وسامِحْنَا يَوْمَ السُؤآلِ والمُنَاقَشَات ، وانفعْنَا وَجَمِيْعَ المُسْلِمِينَ بما أَنْزَلْتَهُ مِن الكلمات يا أَرْحَمَ الراحمين ، وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

★ ★ ★

فصل في ذِكْرِ بَعْضِ الأَدْعِيَةِ الوَارِدَةِ :

عِبَادَ اللهِ ، اغْتَنِمُوا هَذِهِ الأَوْقَاتِ وَأَكْثِرُوْا مِن الدُعَاءِ والتَّضَرُعِ إلى عَالِمِ السِّرِ والخَفِيَّاتِ، قال تعالى : ﴿ ادْعُونِي أستجبْ لكم ﴾ وقال سبحانه :﴿ واذا سَأَلكَ عِبَادِي عَنِيْ فإني قريبٌ أجيبُ دَعوةَ الداعِ إذا دَعَانِ ﴾ فأخبرَ جلَّ وَعَلا أنه سَميعٌ لِلأَقوالِ خبيرٌ بأَحْوالِ العِبَادِ ، فيجيبُ دَعوةَ الداعِيْنَ وَيُجَازِيْهم بأعمالِهم ، فَفِي هَذَا حَثٌ لهُم على الدُعَاءِ ، فَمَنْ دَعا رَبَّهُ بِقَلْبٍ حاضِرٍ وَدُعَاءٍ مُشْرُوْعٍ ، ولم يَمْنَعْ مِن الإِجَابَةِ لِلدُّعَاءِ مَانِعٌ كَأَكْلِ الحَرَامِ وَنَحْوِهِ ، فإنَّ اللهَ قَدْ وَعَدَ بالاجابةِ ، وَخُصُوْصاً إذا أَتَى بأَسْبَابِ الإِجابَةِ لِلدُعَاءِ ، وهِيَ الاستجابةُ للهِ تعالى : بـالانقيادِ لِأَوامِرِهِ ، والإِنتهاءِ عن ما نَهَى عنه .

فعليكُم عِبَادَ اللهِ بالاجتهادِ بالدعاءِ ، وعليكُم بِجَوامِعِ الدُّعَاءِ التي تَجْمَعُ خيرَ الدنيا والآخرةِ ، وفي الصحيحين : « كان أَكْثَرُ دُعَاءِ النبي صلى اللهُ عليه وسلم : اللهم آتِنَا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة ، وقنا عذاب النار » .

ومِن دعائهِ صلى الله عليه وسلم إذا سَافَرَ : « أنه كانَ يَتَعَوَّذُ مِن وَعْثَاءِ السَّفرِ وكآبةِ المَنْظَرِ ، والحَوْرِ بَعْدَ الكَوْرِ ، وَدَعْوَةِ المَظْلُومِ ، وَسوءِ المَنْظَرِ في الأَهْلِ والمال » رواه مسلم .

ومِن مَا وَرَدَ عن أبي بكرةَ ـ رضي اللهُ عنه ـ قال : قال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم دَعَواتُ المَكْرُوْبِ « اللهم رَحْمَتَكَ أَرْجُو فلا تَكِلْنِيْ إلى نَفْسِي طرفةَ عَيْنٍ وأصلِحْ لِيْ شَأنِيْ كلَّهُ لا إلهَ إلاَّ أَنْتَ . رواه أبو داود وعن أبي سَعِيد الخُدْري قال : قال رَجُلٌ لَزِمَتْنِيْ هُمُوْمٌ وَدُيُوْنٌ يا رسولَ اللهِ ، قال : أفلا أعَلِّمُكَ كَلاماً إذا قُلْتَهُ أذهَبَ اللهُ هَمَّكَ وَقَضى عَنْكَ دَيْنَكَ قال : قُلْتُ : بَلَى ، قَال : « قُلْ إذا أَصْبَحْتَ وإذا أَمْسَيْتَ اللَّهُم إني أَعُوْذُ بِكَ مِن الهَمِّ والحَزَنِ ، وَأَعُوْذُ بِكَ مِن العَجْزِ والكَسَلِ ، وَأَعُوْذُ بِكَ مِن البُخْلِ والجُبْنِ وأَعُوْذُ بِكَ مِن غَلَبَةِ الدَّيْنِ وَقَهْرِ الرِّجَالِ » قال : فَفَعَلْتُ ذَلِكَ فأذهبَ هَمِّي وَقَضى عَنِّيْ دَيْنِيْ ، رواه أبو داود .

وَمِن دُعَائِهِ صلى اللهُ عليه وسلم : « اللهم إني أَسْأَلُكَ الهُدَى والتُّقَى والعَفَافَ والغِنَى ، اللهم اغفر لِي وارحمني واهدني وعافني وارزقني ، اللهم إني أعوذُ بِكَ مِن زَوَالِ نِعْمَتِكَ وَتَحَوُّلِ عافِيَتِكَ وَفَجْاءَةِ نِقْمَتِكَ وَجَمِيعِ سَخَطِكَ ، اللهم إنِي أَعُوْذُ بِكَ مِن عِلْمٍ لا يَنْفَعُ ومِن قَلْبٍ لَا يَخْشَعُ وَمِن نَفْسٍ لَا تَشْبَعُ وَمِن دَعْوَةٍ لا يُسْتَجَابُ لَها » .

وقالت أُمُّ سَلَمَةَ ـ رضي اللهُ عنها ـ : « كَانَ أَكْثَرُ دُعَاءِ النبي صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمْ يا مُقَلِّبَ القُلوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِيْنِكْ » .

وَمِنْ دُعَائِه صلى اللهُ عليه وسلمْ : « اللَّهُمَّ إنِّي أَسْأَلُكَ الجَنَّةَ وَمَا

قَرَّبَ اليْهَا مِنْ قولٍ وَعَملْ ، وأعوذُ بكَ من النّارِ وَمَا قَرَّبَ اليْهَا من قولٍ وَعَملْ ، وأَسْأَلُكَ من الخَيْرَ كُلَّه عاجِلِهِ وآجِلِهِ ما عَلِمْتُ مِنْهُ وَمَا لَم أَعْلَمْ ، وأعوذُ بِكَ مِن الشّرِّ كُلِّهِ عاجِلِهِ وآجِلِهِ مَا عَلِمْتُ مِنْهُ وَمَا لَم أَعْلَمْ » .

وَقَالَ صَلّى اللهُ عليهِ وسلمْ : « تَعَوّذُوا بِاللّهِ مِنْ جَهْدِ الْبَلاءِ وَدَرَكِ الشّقَاءِ وَسُوءِ القَضَاءِ وَشَمَاتَةِ الأعداءِ » .

وَمِن دُعَائِهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلمْ : « اللّهُمّ آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا وَزَكِّها أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكّاهَا أَنْتَ وَلِيُّها وَمَوْلاَهَا » .

وَمِنْ ذَلِكَ مَا وَرَدَ عَنْ ابْنُ عَبّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أنّ رَسُولَ اللّهِ صَلّى اللهُ عليهِ وَسَلّم . كَانَ يَقُولْ : « اللّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ وَبِكَ آمَنْتُ وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ وإِلَيْكَ أَنَبْتُ وَبِكَ خَاصَمْتُ ، اللّهُمْ إِنّي أَعُوذُ بِعزّتِكَ لاَ إِلهَ إِلاّ أَنْت أَنْ تُضِلّنِي أَنْتَ الْحيّ الّذي لا يَمُوتْ والْجِنُّ والإِنْسُ يَمُوتُونْ » .

وَمِنْ دُعَائِهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلمْ : « اللّهُمْ إِنّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْفَقْرِ وَالقِلّةِ والذِّلّةِ ، وأَعُوذُ بِكَ مِن أَنْ أَظْلِمَ أَوْ أُظْلَمْ » .

وَعَنْ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ : « كانَ رَسولُ اللّهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلمْ يَتعوّذُ مِنْ خَمْس : مِن الْجُبْن ، والْبُخْلِ ، وَسُوءِ العُمُرْ ، وَفِتْنَةِ الصّدْرِ وَعَذابِ الْقَبْرِ » رواهُ أبو داودَ والنّسَائِي .

وَعَنْ أبِي هُرَيْرَةَ ـ رَضِي اللهُ عَنْهُ ـ أَنَّ رسولَ الله صلى اللّه عليهِ وسَلّم كانَ يقولُ : « اللّهُمّ إِنّي أَعوذُ بِكَ مِن الشّقاقِ والنِّفاقِ وَسُوْءِ الأَخْلاَقِ » رواهُ أبو دَاودْ .

وَعَنْهُ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ أَنَّ رسولَ اللّه صلى اللّه عليهِ وَسَلّمَ كانَ يقولُ : « اللّهم إنِيْ أَعُوذُ بِكَ مِنْ الجُوعِ فإنّهُ بِئْسَ الضّجِيْع وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْخِيَانَةِ فإنَّهَا بِئْسَتِ الْبِطَانَةْ » رَواهُ أَبُو داودَ ، والنّسائِي وابْن مَاجَهَ .

وَعَن أنسٍ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ أنّ رَسولَ الله صلى اللّه عليهِ وسّلَمَ كان يقولُ : « اللّهمّ إنّي أَعُوْذُ بِكَ مِن الْبَـرَصِ والْجُذَامِ والْجُنونِ ومِنَ سَيّءِ الأَسْقَامِ » رواهُ أَبُو داودَ والنّسَائِي .

وَعَنْ قُطْبَةَ بْنُ مَالِكٍ ـ رَضِيَ اللّهُ تَعَالَى عَنْهُ ـ قَالْ : كَانَ النّبِيُّ صلى اللهُ عليهِ وَسلمَ يَقُولْ : « اللّهمّ إنّي أعوذُ بِكَ مِن مُنْكَرَاتِ الأَخْلاَقِ والأَعْمَالِ والأَهواءِ والأدواء » رواه التّرمذي .

وَعَنْ شُتَيْرِ بْنِ شكل بن حُمَيْدٍ عَن أبيهِ قالْ : قُلْتُ : يا نَبِيّ اللّهْ ، عَلّمْنِي تَعْوِيذَاً أتّعَوّذُ بِهِ قَالْ : « قُلْ اللّهُمّ انّي أعوذُ بِكَ مِن شَرّ سَمْعِي وَشَـرّ بَصَرِي وَشَـرّ لِسَانِي وَشَـرّ قَلْبِي وَشَـرّ عَيْني » رواهُ أبـو داودَ ، والترمذي ، والنّسائِي .

وَعَنْ أَبِي اليُسْرِ أنّ رَسولَ اللّهِ صَلّى اللهُ عليهِ وسلّمَ كَانَ يَدْعُو : « اللهمّ إنّي أعوذُ بِكَ مِن الْهَدْم ، وأعوذُ بِكَ مِن التّردّيْ وَمِنَ الْغَرَقِ والْحَرَقِ والْهَرَمْ ، وَأَعُوذُ بِكَ مِن أنْ يَتَخَبّطَنِي الشّيْطانُ عِنْدَ الموتِ ، وأعُوذُ بِكَ مِنْ أَنْ أموتَ في سَبِيْلَك مُدْبِراً وأعوذُ بِكَ مِنْ أَنْ أَمُوتَ لِدِيْغا » رواهُ أبو داودَ والنِّسائِيْ .

وَمِنْ دُعائِهِ صَلّى اللهُ عليهِ وَسَلّمْ : « اللّهُمّ اغْفِرْ لي خَطِيْئَتِي وَجهْلِي واسْرَافِي في أمْرِي وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنّيْ ، اللهمّ اغْفِرْ لِي جِدّي

وَهَزْلِي وَخَطَئِي وَعَمْدِي وَكُلُّ ذَلِكَ عِنْدِي اللّهمَّ اغْفِرْ لِي مَا قَدّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ وما أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنّي ، أَنْتَ المُقَدِّمُ وأَنْتَ المُؤَخِّرُ وأَنْتَ على كُلّ شيءٍ قديرٌ » مُتّفَقٌ عليهِ .

وَمِنْ ذَلِكَ مَا عَلّمَهُ صَلى اللّهُ عليهِ وَسَلّمَ الصّدِيْقَ قَالَ لَهْ : « قُلْ اللّهمّ إِنّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمَاً كثيراً وَلاَ يَغْفِرُ الذُنُوبَ إِلاَ أَنْتَ فاغفِرْ لِي مغفرةً منْ عِنْدِكَ وارْحَمني إِنَّكَ أنتَ الغفورُ الرحيمْ » متفق عليه .

وَعَنْ أنسٍ ـ رضي الله عَنْهُ ـ أنَّ رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلم قَالْ : « إِلْظوا بِيَاذَا الجلالِ والاكرامْ » أيْ الزَمُوا هذِهِ وَأَلِحُّوا بِها وَدَاوِمُوا عَلَيْهَا .

وَعَنْ عائشةَ قالتْ : كَانَ النبيُّ صلى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ يقولُ : « اللَّهُمَّ إِنِّي أعوذُ بِكَ مِن الكسلِ والهَرَمِ والمغْرَمِ والمأْثَمِ اللهمَّ إِني أعوذُ بِكَ من عَذَابِ النارِ وَفِتْنَةِ النارِ وَفِتْنَةِ القَبْرِ وَعَذابِ القَبْرِ وَمِنْ شَرِّ فِتْنَةِ الغِنَى وَمِنْ شَرِّ فِتنةِ الفقْرِ وَمِنْ شَرِّ فِتْنَةِ المسيحِ الدَّجّالِ اللهمَّ أغْسِلْ خَطَايَايَ بِمَاءِ الثلْجِ والْبَرَدِ وَنَقِّ قَلْبِي كَمَا يُنَقَّى الثوبُ الأَبيضُ مِن الدّنَسْ وباعدْ بيْني وَبَينَ خَطَايَايَ كَمَا باعدتَّ بينَ المشرقِ والمغربْ متفق عليهْ .

وَعَنْ عبدِ اللهِ بْن يَزِيدِ الخَطْمِي عَنْ رَسُولِ الله صلى اللهُ عليهِ وسلم أَنَهُ كان يَقولُ في دُعَائِه اللهمَّ ارْزُقْنِي حُبَّكَ وَحُبَّ مَنْ يَنْفَعُنِي حُبُّه عِنْدَكَ اللهمَّ ما رَزَقْتَنِي مِمَّا أُحِبُّ فاجْعَلْهُ قُوةً لِيَ فِيما تُحِبّ اللهمَّ ما زَوَيْتَ عَنِّي مِمَّا أُحِبُّ فاجْعَلْهُ فَرَاغاً فِيْمَا تُحِبُّ رَواهُ التِّرمِذِي .

وَعَنْ أبِي الدَّرْدَاءِ قالْ : قَالَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلمْ كانَ مِنْ دُعَاءِ داودَ يَقولْ اللهمَّ إنِّي أسْأَلُكَ حُبَّكْ وَحُبَّ مَنْ يُحبُّكْ والعَمَلُ الذي يُبَلِّغْنِي حُبَّكَ اللهَّم اجْعَلْ حُبَّكَ أحَبَّ إلَيَّ مِنْ نَفْسِي وَمَالِي وأَهْلِي وَمِنَ الماءِ البارِدِ الحديثْ رواهُ الترمذي وعنْ أُمِّ مَعْبَدٍ قالتْ سَمِعْتُ رسولَ اللّهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقول : اللّهم طَهِّرْ قَلْبِي مِنَ النِّفاقِ وَعَملِي مِن الرِّيَاءِ وَلِسَانِي مِنَ الكَذِبِ وَعَيْنِي مِن الخِيَانَةِ فَإنَّكَ تَعْلَمُ خَائِنَةَ الأعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدورْ﴾ رواه البَيْهَقِي في الدَّعواتِ الكبير .

وَعَنْ عبدِ اللهِ بْنِ عَمْرو قالْ : كانَ رسولُ اللهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلم يقولْ : (اللهمَّ إنِّي أَسْأَلُك الصِّحَةَ والْعِفَّةَ والأَمانَةَ وَحُسْنَ الخُلقْ والرِّضَى بالقَدَرْ) رواهُ البيهقِي في الدَّعَواتِ الكبيرْ .

اللهمَّ ظَلَمْنَا أنفُسَنَا فأغفرْ لنا ذنوبَنَا وَهَبْ لَنا تقْواكْ واهْدِنا بِهُدَاكْ ولا تَكِلَنَا إلى أحدٍ سِوَاكْ واجعلْ لَنَا مِن كُلِّ همٍّ فرجَا ، وَمِن كُلِّ ضِيْقٍ مَخْرَجَا اللهم اعذْنَا بِمَعافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ وَبِرِضَاكَ مِنْ سَخْطِكَ واحْفَظ جَوارِحَنَا مِن مُخَالَفَة أمْرِك واغْفِرْ لنَا وَلِوالِدَيْنا وَلِجميع المسلمينَ الأحياءِ منهم والمَيتين بِرَحْمَتِكَ يا أَرْحَمَ الرَّاحِمين وَصَلَّى اللهُ على محمدٍ وآلِهِ وصَحبِهِ أجمعين .

مَـوْعِظَـة

عِبادَ اللّه إن النّاسَ في هَذا الزَّمَنْ لَمْ يَعْرِفُوا رَبَّهُمْ المَعْرِفَةَ التي تَلِيْقُ بِجلاَلِهِ وَعَظَمَتِه وَلَو عَرَفُوه حَقَّ المَعْرِفَةَ لَمْ يَكُونُوا بِهَذِهِ الحَال لأنّهُ من كَانْ باللّهِ أَعْرَفْ كَانَ مِنْهُ أَخْوَفْ إنَّ العارِفَ باللهِ يَخْشَاهُ فَتَعْقِلُهُ هَذه

الخَشْيَةَ بإذْن اللهِ عَمَّا لا يَنْبَغِي مِن الأقوالِ والأفْعالِ قالَ اللَّهُ تَعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ العُلَمَاءُ ﴾ .

العارِفُ بِاللّهِ لَا يَجْرَؤُ أنْ يُحَرّكَ لِسَانَهُ بِكَلِمَةٍ مِنَ المُنْكَرَاتِ أَفْعَالٍ أوْ أقوالٍ كالغيبةِ والنّمِيْمَةِ والكذبِ والقَذفِ والْفِسْقِ والسُّخْرِيَةِ والاسْتِهْزاءِ وَنَحْوِ ذَلِكَ وَلا يَسْتَعْمِلُ عُضْواً مِنْ أعْضائِهِ في عَمَلٍ لَيْسَ بِحَلالٍ بَلْ يَكُفُّ بَصَرَهُ وَسَمْعَهُ وَيَدَهُ وَرِجْلَهُ عَن المُحَرمَّاتْ لأَنَّهُ يؤمِنُ حَقَّ الايمانِ بأنّ اللّهَ جَلّ وَعَلا مَهْمَا تَخَفّى وَتَستَّرَ العَبْدُ عَنْهُ فإنّهُ يَرَاهْ .

والعارِفُ باللّهِ لا يَنْطَوي عَلى رَذِيْلَةٍ كالْكِبْرِ والْحِقْدِ والْحَسَدِ وَسُوءِ الظّنِّ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الرّذَائِلِ الممْقُوتاتِ لأَنَّهُ يُصَدِّقُ أنّ اللهَ لَا يَخْفَى عَلَيهِ شيء في الأَرْضِ وَلَا في السّمَاءُ وأَنّهُ يَعْلَمُ مَا تُكِنّهُ الصّدورُ ، كَمَا يَعْلَمُ العلاَنِيَة ، فَلَا يَسْتريْحُ العارِفُ حَتّى يَكُونَ باطِنُهُ كَظَاهِرِهِ مُطَهّراً مِنْ كُلِّ فَحْشَاءٍ وكذلك لا تَسْمَعُ مِنْ فَمِ العارِفِ عِنْدَ نُزُولِ المصَائِبِ والْبَلَايَا وَالشّدَائِدِ إلّا الْحَسَنَ الجميلَ فَلَا يَغْضَبُ لِمَوْتِ عزيزٍ أَوْ فَقْدِ مَالٍ أَو مَرَضٍ شَدِيْدٍ طَوِيْلٍ لِأَنّهُ يَعْلَمُ أَنْ غَضَبَهُ وَتَسَخُّطَهُ يُفَوّتُ عَلَيهِ أَجْرَهُ وَلَا يَرُدَّ مَا فَاتَ كَمَا قِيْلَ :

لا تَـلْقَ دَهْـرَكَ إلّا غَـيْـرَ مُـكْـتَـرِثٍ
مَـا دَامَ يَصْحَبُ فيـهِ رُوْحَـكَ الْـبَـدَنُ
فَـمَـا يَـدُومُ سُـرورٌ مَـا سُـرِرْتَ بِـهِ
وَلَا يَـرُدُّ عَـلَيْـكَ الـفَـائِـتَ الْـحَـزَنُ

وَلَا يَيْأَسُ العَارِفُ مِنْ زَوالِ شِدّةٍ مَهْمَا اسْتَحْكَمَتْ فَإنَّ الْفَرَجَ بِيَدِ

اللّهِ الّذِي قَالَ وَقَوْلُهُ الحَقّ إنّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً إنّ مَعَ العُسْرِ يُسْرا وَلاَ يَيْأَسُ مِن حُصُولِ خيرٍ مَهْمَا سَمَا وابْتَعَدَ لأَنَهُ يُؤْمِنُ أَنَّ الأَمْرَ بِيَدِ مَنْ إذا أَرادَ شَيْئاً قالَ لَهُ كُنْ فَكَانْ وإن بَدَا مُحالاً في نَظَرِ الجُهَلاَءِ وَلا يَقْنَطُ الْعَارِفُ وَلاَ يُقَنِّطُ مُؤْمِناً مِنْ رَحْمَةِ اللهِ الّتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيءٍ وانْ كَانَتْ ذُنُوبُهُ أَمْثَالَ الْجِبَالِ والرِّمالِ وَلاَ يُؤَمِّنُ الْعارِفُ مُسْتَقِيْماً مِنَ الْعَذَابِ مَهْمَا كَانَ العَمَلُ مِنَ الصّالحاتْ لأَنّهُ يُصَدّق أنّهُ يَغْفِرُ الذّنُوب جَميعاً وأنّهُ لَهُ الْحُجّةُ الْبَالِغَةُ وأَنَّ القُلوبَ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِن أصَابِعهِ جَلّ وَعَلاَ فَلاَ تَغْفل عَنْ ذَلِكَ وإنْ أَهْمَلَهُ الكثيرُ مِنَ النَاسِ .

★ ★ ★

اللّهُمّ ظَلَمْنَا أَنْفُسَنا فاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَهَبْ لَنَا تَقْوَاكَ وَاهْدِنَا بِهُدَاكْ وَلاَ تَكِلْنَا إلى أَحدٍ سِواكَ واجْعَلْ لَنَا مِن كُلِّ هَمٍ فَرَجَا ، وَمِنْ كُلِّ ضِيْقٍ مَخْرَجا اللّهُمّ اعِذْنَا بِمُعَافَاتِك مِنْ عُقُوبَتِكَ وَبِرِضَاكَ مِنْ سَخطِكَ واحْفَظْ جَوارِحَنَا مِنَ مُخَالَفَةِ أمرِكْ واغفرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَلِجَميعِ المسلمينَ الأَحْيَاءِ مِنْهُم والميتينَ بِرَحْمَتِكَ يا أَرْحَمَ الرّاحِمينَ وصلى اللهُ على محمدٍ وآلِهِ وصحبهِ أجمعينْ .

(فصل)

ويبحث في :

١ ـ زكاة الفطر وما وَرَدَ مِن الآثارِ في شَرْعِيَّتِهَا .

٢ ـ وَقْتُ وجُوبِهَا والأفْضَلِ مِنه .

٣ ـ الواجبُ في الفِطْرَةِ .

١ ـ زكاةُ الفِطرِ ومَا وَرَدَ مِن الآثارِ في شَرْعِيَّتِهَا :

زكاةُ الفطرِ واجبةٌ بالفِطْرِ مِن رَمَضَانَ ، لِمَا رَوَى ابنُ عُمَرَ ـ رضي الله عنهما ـ « أن رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم فرضَ زكاةَ الفِطْرِ في رَمَضَانَ على الناسِ صاعاً مِن تَمْرٍ ، أو صاعاً مِن أَقِطٍ ، أو صَاعاً مِنْ شَعِيْرٍ عَلى كلِ حُرٍ وعَبْدٍ ذكَرٍ وأنثَى مِن المسلمين » متفق عليه .

وعنهُ : « أنَّ رسولَ اللَّه صلى اللهُ عليه وسلم أمَرَ بِزَكاةِ الفطرِ أنْ تُؤَدَّي قَبْلَ خُروجِ الناسِ إلى الصلاة » .

وعنْ أبي سعيدِ الخُدْريْ : كُنّا نُخْرِّجُ زَكَاةَ الفِطْرِ صَاعاً مِنْ طَعام ، أو صَاعاً مِن تَمْرٍ ، أو صاعاً مِن أقِطٍ ، أو صاعاً مِن زَبِيبْ . متفق عليه .

قالَ سعيدُ بنُ المُسَيَّبْ ، وَعُمرُ بنُ عبدِ العزيز ـ رَحِمَهُمَا الله ـ في قولِه تعالى : ﴿ قد أفلَحَ مَنْ تَزَكَّى ﴾ هُوَ زكاةُ الْفِطْر .

وأُضِيفَتْ هذِه الزكاةُ إلى الفطرِ لأَنَّها تَجِبُ بالفِطْرِ مِنْ رَمَضَان ، وهذهِ يُرادُ بها الصدقةُ عن البدنِ والنفسِ ومَصْرَفُهَا كزكاةِ المالِ لِعُمُومْ : ﴿إنما الصدقاتُ للفقراء . . .﴾ الآية .

ولا يَمْنَعُ وُجُوبَهَا دَيْنٌ إلاَّ مَعَ طَلَبْ ، وهِيَ واجبةٌ على كُلِّ حُرٍّ وعبدٍ ذكرٍ وأنْثى مِن المسلمين ، فَضُلَ لَهُ عَنْ قوتِهِ ، وَمَنْ تَلْزَمُهُ مَؤُونَتُهُ يومَ العيدِ وَلَيْلَتِهِ صاعٌ لانَّ النفقةَ أَهَمُّ فَيَجِبُ البَدَاءَةُ بِها ، لقولِه صلى اللهُ عليه وسلم : « إبْدأ بِنَفْسِكْ » رَواهُ مُسلمْ .

وفي رِوَايةٍ : (. . . . وابْدأ بِمَنْ تَعُولْ) رواه الترمذي .

ويُعْتَبَرُ كونُ ذلكَ الصاعُ فاضلاً عمَّا يَحْتَاجُهُ لِنَفْسِهْ ، وَمَنْ تَلْزَمُهُ مؤُونَتُهُ مِنْ مَسْكَنٍ وخَادِمٍ ودَابةٍ وثيابٍ بذلَة ونحوِهِ ، وكُتُبٍ يَحْتَاجُهَا لِنظْرٍ لأن هَذِهِ حَوائجُ أصليةٌ يَحْتَاجُ إليها كالنفقةِ ، وتَلْزَمُهُ عن نفسِهِ وعنْ من يَمُونُهُ مِن المسلمينْ كزوجةٍ وعبدٍ وولدٍ ، لِعُمُومِ حديثِ ابنِ عُمرَ ـ رضي الله عَنْهُمَا ـ « أمرَ رسول الله صلى الله عليه وسلم بصدقةِ الفطرِ عن الصغيرِ والكبيرِ مِمَّنْ تَمُونُون » رواه الدّرَاقُطْنِي .

فانَ لَمْ يَجْدهُ لِجميعِهِمْ بدأ بِنَفْسِهْ ، فَزَوَجَتِهِ ، فَرَقِيقِهِ ، فأمِّهِ ، فأبِيْهِ . فَوَلَدِهِ ، فأقْرَبَ في مِيْراثٍ ، وَيُقْرعُ مَعَ الاسْتواءِ .

أمَّا دَليلُ البدّاءة بالنفسِ فلِحَدِيثْ « ابدأ بنفسكَ ، ثمَّ بِمنْ تَعُولُ » .

وأمَّا الزوجةُ فلوُجُوْبِ نَفَقَتِهَا في حَالَةِ اليُسْرِ والعُسْرِ لأنَّها على سَبِيْلِ المُعَاوَضَةِ .

وأما الرقيقُ فلوجُوْبِ نَفَقَتِهِ مَعَ الاعْسَارِ بخلافِ الأقارِبِ لأنَّها صِلةٌ تَجبُ مَعَ اليَسَارِ دُوْنَ الإعسَارِ .

وأما الأُمُّ فلقولِه صلى اللهُ عليهِ وسلم لِلأعرابِّي حِيَنَ قالَ لَهْ : « مَنْ أَبَرُ ؟ قالَ أمَّكَ ، قَالَ ثُمَّ مَن آقالَ أمَّكَ ، قال ثمَّ مَنْ ؟ قال : أمكَ ، قالَ ثمَّ مَنْ ؟ قالَ : أبوكَ » ولأنَّهَا ضَعيفَةٌ عن الكَسْبِ .

وأمَا الأَبْ فلمَا سَبقْ وَحديثْ : « أَنْتَ ومالُكَ لأبِيْكَ » .

وأما الوَلدُ فَلِقُرْبِهِ وَوُجُوبِ نَفَقَتِهِ في الجُمْلَةِ .

وأما الأقربُ في المِيْرَاثِ فلأنهُ أوْلَىٰ مِن غَيرهِ كالمِيراث .

وَتُسْتَحَبُّ عن الجَنين لِفِعْلِ عُثْمَانَ ـ رضِيَ اللهُ عنهْ ـ وَعَنْ أَبي قِلَابَةَ قالْ : « يُعْجِبُهُمْ أنْ يُعْطُوا زكاةَ الفطرِ عن الصغيرِ وَالكبيرِ حَتَّى عنْ الحَملِ فـي بَطْنِ أمِهِ » رواهُ أبو بَكْرَ .

وَلَا تَجِبْ ، قالَ ابنُ المُنْذِر : « كل من نَحْفَظُ عنهُ لا يُوْجِبُها عن الجنينْ ، وتَجِبُ عَلَى اليتِيم ، وَيُخْرِجَ عنهُ وليهُ مِنْ مَالِهَ » .

ولَا يَلْزَمُ الزَوجَ فِطرةُ زَوْجَةٍ نَاشِزٍ وَقْتَ الوُجُوبِ ، وَلَا تَلْزمُ الزوجَ فِطرةَ مَنْ لا تَلْزمهُ نفقتُها ، كَغيرِ المدْخُولِ بِهـا إذا لَمْ تُسَلِّمْ اليهِ ، والصغيرةِ التي لا يُمْكِنُ الاسْتِمْتَاعُ بِهَا .

وَمَنْ لَزِمَ غَيْرَهُ فِطْرتُهُ كالزَّوجَةِ ، فأخرجَ عن نَفسِهِ بغيرِ إذنِ مَنْ وَجَبتْ عليه أجْزأَ .

٢ ـ فصلُ في وقتِ وجوبِ صَدَقَةِ الفطرِ ، والأفضلُ مِنْه :

وَتَجِبُ زكاةُ الفِطرِ بغُرُوْبِ شَمْسِ لَيْلَةِ الفِطْرِ ، لِقَولِ ابنِ عباسٍ ـ رضي اللهُ عنهُمَا ـ « فرَض رَسولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلَّمَ صَدَقَةَ الفِطْرِ طُهْرةً لِلصَّائمِ من اللَّغْوِ والرَّفَثِ ، وَطُعْمَةً لِلْمسَاكِين » . رواه أبو داود ، والحاكم وقالَ على شرطِ البخاريِ فأضافَ الصدقةَ إلى الفطرِ فكَانَتْ وَاجِبَةً بِهِ لانّ الإِضَافَةَ تَقْتَضِيْ الاخْتِصَاصَ .

وأَوَّلُ فِطْرٍ يَقَعُ مِنْ جَمِيْعِ رَمَضانَ بِمَغِيب الشمْسِ مِن لَيْلَةِ الفِطْرِ ،

فَمْن أسْلَمَ بَعد الغَرُوْبْ ، أو تَزوَجَ بعدَ الغُروبِ ، فلا فِطرةَ وانْ وُجِدَ ذَلكَ ، بأنْ أسلمَ أو تَزَوَّجَ ، أو وُلِدَ له ولد ، أوْ مَلَكَ عبداً ، أوْ أيْسَر قَبْلَ الغُروبِ وَجَبَتِ الفِطْرَةُ لوُجُودِ السَّبَبِ فالاْعتِبَارُ بحَالِ الوُجُوْبِ .

وانْ مَاتَ قَبْلَ الغُروبِ هُوَ ، أوْ زَوْجَتَهِ ، أوْ رَقِيقُهُ ، أو قريبُه ونَحوُه ، أوْ أعْسَرَ ، أوْ أبانَ الزوجةَ ، أو أعتقَ العبدَ ، أوْ باعهُ أو وَهَبَهُ لم تَجِبِ الفِطْرَةُ لِمَا تَقَدَّمْ .

وَلاَ تَسْقُطُ الْفِطْرَةُ بَعْد وُجُوبِها بموتٍ وَلاَ غَيْرِه ، والأفضلُ إخْرَاجُهَا يومَ العيدِ قبْلَ الصلاةْ ، لِمَا في المتَّفَقِ عليهِ مِن حديث ابنِ عُمر ـ رضي اللهُ عنهما ـ مرفوعا ، وفي آخرِهْ : « وأَمَرَ بِهَا أنْ تُؤَدَّى قَبْلَ خُرُوْجِ الناسِ إلى الصَّلاةِ » .

وفي حديثِ ابن عباسٍ ـ رَضِيَ اللهُ عنهما ـ « مَنْ أَدَّاهَا قَبْلَ الصلاةِ فَهِيَ زَكاةٌ مَقْبُوْلَةٌ ، ومَن أدَّاها بَعْدَ الصلاةِ فَهِيَ صَدقةٌ مِن الصَدَقاتِ » .

وتُكْرَهُ بَعْدَهَا خُرُوْجَا مِن الخِلافِ ، ولِقَولِهِ صلى اللهُ عليه وسلم : « أَغْنُوْهُم عَنِ الطلبِ في هذا اليومِ » . رواه سعيدُ بنُ منصور .

فإذا أَخَّرَهَا بَعَدَ الصلاةِ لم يَحْصُلِ الاغْنَاءِ لَهُم في هَذَا اليومِ كُلِّهِ .

ويَحْرُمُ تَأْخِيْرُهَا عَن يَومِ العِيْدِ مَعَ القُدْرَةِ ، لأَنَّهُ تَأْخِيْرٌ لِلْحَقِّ الوَاجبِ عن وقْتِهِ ، وكان عليه الصَلاةُ والسَلاَمَ يَقْسِمُهَا بَيْنَ مُسْتَحِقِيْهَا بَعدَ الصَّلاةِ . فَدَلَّ على أَنَّ الأَمْرَ بتَقْدِيْمِهَا على الصلاةِ لِلاسْتِحْبَابِ .

وَيقْضِيْهَا مَن أَخَّرَهَا لِأَنَّه حَقٌ مَالِيٌ وَجَبَ ، فلا يَسْقُطُ بفَواتِ وَقْتِهِ كالدَّيْنِ ، وتُجْزِي قَبْلَ العِيْدِ بيَوْمٍ أوْ بِيَوْمَيْنِ ، لِقَولِ ابنِ عُمَرَ ـ رضي اللهُ عنهما ـ : « كَانوا يُعْطُونَ قَبْلَ الفِطْرِ بِيَوْمٍ أو يَوْمَينِ » رواه البخاري .

وهذا إشَارَةٌ إلى جَمِيْعِهم فَيَكُونُ إجْمَاعاً ، ولأَنَّ ذَلِكَ لا يُخِلُّ بالمَقْصُوْدِ ، إذْ الظَاهِرُ بَقَاؤُهَا أوْ بَعْضُهَا ، إلى يوْمِ العِيْدِ .

وَمَنْ وَجَبَتْ عَلَيْه فِطْرَةُ غَيْره أخْرَجَهَا مَعَ فِطْرَتِهِ مَكانَ نَفْسِه ، لِأَنَّهَا طُهْرَةٌ لَهُ ، وفِطْرَةُ مَنْ بَعْضُهُ حَرٌ وبَعْضُهُ رَقِيْقٌ ، وفِطْرَةُ قِنٍّ مُشْتَرَكٍ . وفِطْرَةُ مَنْ لَهُ أَكْثَرُ مِن وَارِثٍ أَوْ مُلْحَقٌ بأَكْثَرَ مِن واحدٍ تُقَسَّطُ ، ومَن عَجَز مِنهم لَمْ يَلْزَمِ الآخرَ سِوَى قِسْطِهِ .

٣ ـ الوَاجِبُ في الفِطْرَةِ :

الواجِبُ عَلى كُلِّ شَخْصٍ صَاعُ بُرٍ ، أَوْ مِثْلُ مَكِيْلِه مِن تَمْرٍ ، أَوْ زَبِيْبٍ ، أَوْ أقطٍ ، لِحَديثِ أَبِي سَعِيدٍ ـ رضي اللهُ عنه ـ « كُنَّا نُخْرِجُ زَكَاةَ الْفِطْرِ ، إذْ كَانَ فِينَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَاعاً مِنْ طَعَامٍ ، أَوْ صَاعاً مِنْ شَعِيرٍ ، أَوْ صَاعاً مِنْ تَمْرٍ ، أَوْ صَاعاً مِنْ زَبِيبٍ ، أَوْ صَاعاً مِنْ أقط » مُتَفَقٌ عَلَيْهِ .

ويُجزي دَقِيقُ البُرِّ وَالشَّعِيرِ إذَا كَانَ بِوَزْنِ الْحَبِّ ، نَصَّ عليْهِ ، وَاحْتَجَّ بِزِيَادَةٍ تَفَرَّدَ بِهَا ابْنُ عُيَيْنَةَ : ان أَحَداً لَمْ يَذْكُرْهُ فِيهِ ، قَالَ : بَلْ هُوَ فِيهِ . رَوَاهُ الدَّرَاقُطْنِي .

قَالَ الْمَجْدُ : بَلْ هُوَ أَوْلَى بِالإِجْزَاءِ لِأَنَّهُ كُفِيَ مُؤُونَتَهُ كَتمرٍ مَنْزُوعٍ

نَوَاهُ وَيُخْرِجُ مَعَ عَدَمِ ذَلِكَ مَا يَقُومُ مَقَامَهُ مِنْ حَبٍّ يُقْتَاتٍ كذُرَّةٍ وَدُخنٍ وَبَاقِلاءَ لِأَنَّه أَشْبَهُ بِالْمنصُوْصِ عَلَيْه ، فَكَانَ أَوْلَى .

وَيَجُوزُ أَنْ يُعْطِيَ الْجَمَاعَةُ فِطْرَهُمْ لِوَاحِدٍ ، وَأَنْ يُعْطِيَ ألْوَاحِدُ فِطْرَتَهُ لِجَمَاعَةٍ .

وَلَا يجْزِي إِخْرَاجُ الْقِيمَةِ لِأَنَّ ذَلِكَ غَيْرُ الْمَنْصُوصِ عَلَيْهِ .

وَيَحْرُمُ عَلى الشَّخْصِ شَرَاءُ زَكَاتِهِ وَصَدَقَتِهِ مِمَّنْ صَارَتْ إِلَيْهِ ، لِحَدِيثِ عُمَرَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - « لَا تَشْتِره ، وَلَا تَعُدْ فِي صَدَقَتِكَ ، وَإِنْ أَعْطَاكَهُ بِدِرْهَمٍ ، فَإِنَّ الْعَائِدَ في صَدَقَتِهِ كَالْعَائِدِ في قَيْئِهِ » مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ .

وَحَسْماً لِمادّة اسْتِرْجَاعِ شَيءٍ مِنْهَا حَيَاءً ، أَوْ طَعَماً فِي مِثْلِهَا ، أَوْ خَوْفاً أَنْ لَا يُعْطِيَهُ بَعْدُ ، فَإِنْ عَادَتْ إِلَيْهِ بِارْثٍ أَوْ وَصِيَّةٍ أَوْ هِبَةٍ أَوْ أَخَذَهَا مِنْ دَيْنِهِ مِنْ غَيْرِ شَرْطٍ وَلَا مُوَاطَأَةٍ طَابَتْ بِلَا كَرَاهَةٍ لِعَدَمِ الْمَانِعِ . وَلِحَدِيثِ بريْرَةَ - رَضِي اللَّهُ عَنْهَا - أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ أَتَتْهُ امْرَأَةٌ ، فَقَالَتْ : إِنِّي تَصَدَّقْتُ عَلَى أُمِّي بِجَارِيَةٍ وَإِنَّهَا مَاتَتْ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم : « وَجَبَ أَجْرُكَ وردَّهَا عَلَيْكِ الْمِيرَاثُ » مُتَّفَقٌ عَلَيْه . رَوَاهُ الْجَمَاعَةُ إِلَّا الْبُخَارِي وَالنَّسَائِي .

ويُجْزِي إِخْرَاجُ صَاعٍ مَجْموعٍ مِنْ تَمْرٍ وَزَبِيبٍ وَبُرٍّ وَشَعِيرٍ وأقط كَمَا لَوْ كَانَ خالِصاً مِنْ أَحَدِهَا .

وَلا يُجْزي مُخْتَلِطٌ بأكْثَرِ مِمّا لَا يُجْزِي .

وَلَا يُجْزِي اخْرَاجُ مَعِيبٍ كَمُسَوِّسٍ ، وَمَبْلُولٍ ، وَقَدِيمٍ تَغَيَّرَ طَعْمُهُ .

والأفْضَلُ تَمْرٌ ، لِفِعْلِ ابْنِ عُمَرْ ، قَالَ نَافِعُ : وَكَان ابْنُ عُمَرَ ـ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُمَا ـ يُعْطِي التَّمْرَ إلاَّ عاماً واحداً أَعْوَزَ التّمْرُ فَأَعْطى شَعِيْراً رواهُ أحْمَدُ وَالبُخارِي .

وقَالَ لَهُ أبُو مَجْلَز : انّ اللّهَ قَدْ أوْسَعْ . والْبُرُّ أَفْضَلْ ، فَقَالَ إنَّ أصْحَابي سَلَكُوا طَرِيْقاً ، فأنَا أُحِبُّ أنْ أسْلُكَهُ رواهُ أحْمَدُ واحْتَجَّ بِهْ .

وظَاهِرُهُ أنّ جَمَاعَةَ الصّحَابَةِ كَانُوا يُخْرِجُونَ التّمْر ، وَلأَنَّهُ قُوْتُ ، وَأقْرَبُ تَنَاوُلا وأقلُّ كُلْفَةٍ ، وَيَلِيهِ في الأفْضَلِيَّةِ الزّبِيبُ لِانّ فيه قُوتاً وَحَلاَوَةً وقِلّةَ كُلْفَةٍ ، ثُمَّ البُرُ ، لِانّ الْقِيَاسَ تَقْدِيمُهُ عَلى الْكُلْ ، لكِنْ تُرِكَ اقْتداءً بالصّحَابَةِ فِي التّمرِ وَمَا شَارَكَهُ في الْمَعنى وَهْوَ الزّبِيْبُ ، ثُمَّ الأنْفَعُ في الاقتِيـاتِ وَدَفْعِ حَـاجَةِ الْفَقِيْـر ، ثُمَّ شَعِيـره ، ثُمّ دَقِيْقُ شَعيـرْ ، ثُمّ سَوِيْقُهُمَا ، ثُمَّ أقِطْ والأفضَلُ أن لا يُنْقَصَ مُعْطَىً مِنْ فِطرةٍ عَنْ مُدُّبُرٍ أوْ نِصْفِ صَاعٍ مِن غَيْرِهِ لِيُغْنِيَهُ عَنِ السُّؤالِ في ذلِكَ الْيَوْمِ لِقوْلِ النّبِيِّ صلّى اللهُ عَليهِ وسَلَّم :

« أَغْنُوهُمْ عَن السُّوآلِ في ذَلِكَ اليومِ ، وَيُسَنُّ التّكْبِيرُ المُطْلَقُ وَهْوَ الذي لم يُقَيَّدُ بِأَدْبَارِ الصّلَواتْ والجَهْرُ بِهِ في لَيْلَتَيْ الْعِيْدَيْنِ إلى فَراغِ الخُطْبَةِ لِقَولِه تعالى : ﴿وَلِتُكْمِلُوا العُدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللّهَ على مَا هَدَاكُمْ﴾ وعَنْ عَليٍّ رضْي اللهُ عَنْهُ أنّهُ كانَ يُكَبِّرُ حَتّى يُسْمِعَ أهْلَ الطَّرِيْق وَصِفةُ التّكْبِيرِ ، اللّهُ أكْبَرُ ، اللّهُ أكْبَرُ ، لاَ إلهَ إلا اللّهُ ، اللهُ أكْبَرُ ، اللّهُ أكْبَرْ وَلِلّهِ الحَمْدُ ، وفِي كُلِّ عَشْرِ ذِي الْحِجّةِ » .

قال البُخارِيْ كَانَ ابْنُ عُمَرَ وأبُو هُرَيْرَةَ يَخْرُجَانِ إلى السُّوقِ في أيّامِ

العَشرِ يُكَبِّرانِ ويُكَبِّرُ النّاسُ بِتَكْبِيرِهمَا والتّكْبِيرُ المُقَيّدُ في الأضْحَى عَقِبَ كُلِّ فَرِيْضَةٍ . صلاَّهَا في جَمَاعَةٍ مِن صَلاةِ الفَجْرِ يَوم عَرَفَة إلى عَصْرِ آخِرِ أيَّامِ التَّشْرِيق لِحديثِ جَابِر أنَّ النبيَّ صلَى اللهُ عليه وسلم صَلَّى الصُّبْحَ يومَ عَرَفَة ثم أقْبَلَ علينَا فقالَ اللَّهُ أكْبَرُ ومَدَّ التَّكْبيرَ الى آخِرِ أيامِ التَّشْرِيق رواهُ الدَّارَقُطْنِي بِمَعْنَاهُ إلاَّ المُحْرِم فَيُكَبِّرُ مِن صَلاةِ ظُهْرِ يومِ النّحرِ إلى آخرِ أيامِ التشريق .

اللهمَّ أعفُ عنْ تَقْصِيرنَا في طَاعَتِكَ وشُكْرِكَ وأَدِمْ لَنَا لُزومَ الطَّرِيقِ إلى مَا يُقَرِّبُنَا إليكْ وَهبْ لَنا نوراً نَهْتَدِيَ بِهِ اليكَ ويَسّرْ لَنا ما يسَّرْتَهُ لاهْلِ مَحَبّتِكَ وأَيْقِظنا مِن غَفْلاتِنا وألهِمْنَا رُشْدَنا واسْتُرْنا في دُنْيَانَا وآخِرَتِنا واحْشُرْنَا في زُمْرَةِ المتقين وألْحِقْنَا بعبَادِكِ الصالِحينْ واغفرْ لنا ولوالِدينا ولجميع المسلمين الأحياءِ مَنهم والميتينَ برَحمَتكِ يا أرحم الراحمينَ وصلى اللهُ على محمدٍ وآلِهِ وصحبِهِ أجمعينَ .

(فَصْلٌ)

الحَمْدُ لِلَّهِ غَافِرِ الذُّنُوْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ ، شَدِيدِ العِقَابِ ذِي الطَّولِ لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ اليهِ المصير ، وأشْهَدُ أنّ محمداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ البشِيْرُ النَّذِيْرُ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وعلى آلِهِ وصَحْبِهِ وَسَلَّمَ أولي الجِدِّ في العبادَةِ والتشْمِيْرِ.

عِبَادَ اللهِ ، إنَّ شَهْرَ رَمَضَانَ قَدْ عَزَمَ عَلَى الرَّحِيْلِ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ أَحْسَنَ فَعَلَيْهِ بالتَّمامِ ، وَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ فَرَّطَ فيه فَلْيَخْتِمْهُ بالْحُسْنَى ، فالعمَلُ بِالْخِتَامِ ، وَبَادِرُوا رَحِمَكُمْ اللهُ أوقاتَ شهْرِكُم الباقِيَةَ ، وَاسْتَدْرِكُوا

ما مَضَى منه بالحَسْرَةِ والنَّدَمِ ، واختِمُوهُ بالتَّوْبَةِ النَّصُوْحِ والرُّجُوعِ إلى صالِحِ العملْ .

عِبَادَاللهْ ، كَمْ أناسٍ صَلُّوا في هذا الشَّهْرِ صلاةَ التراويحِ وأوقَدُوا في المساجِدِ طلباً للأجْرِ المَصَابِيْحِ ، ونَسَخُوا بِإحْسَانِهِمْ كُلَّ فِعْلٍ قَبِيْحٍ ، وَقبلَ التَّمَامِ سَكَنُوا الضَّرِيْحَ ، ولَمْ يَنْفَعُهُمْ المالُ والآمَالُ لَمَّا نُقِلُوا ، رَحَلُوا عن الدُّنْيَا قِدْماً قِدْمَاً ونُقِصَ مَا بَنَوْهُ هَدْماً هَدْمَا ، أَدَارَتْ عَلَيْهِمُ المنُونُ رَحَاهَا وَأَحَلَّتْ وُجُوهَهُمْ في الثَّرَى فَمَحَاهَا .

وَهَذَا حَالُكَ عَنْ قَرِيْبٍ فَتَيَقَّظْ يَا قَلِيْلَ الزَّادِ ، وَحَادِي رَحِيْلِهِ قَدْ حَدَى تَأَهَّبْ لِلَّتلفِ وَتَهَيَّأْ للرَّدَى ، ذَهَبَ عَنْكَ شَهْرُ الصيامِ وَوَدَّعَكَ ، وَسَارَتْ فِيهِ قَوَافِلُ الصَّالِحِيْنَ ، وَجَهْلُكَ مَنَعَكَ والتَّوْبِيْخُ مُتَوَفِّرٌ ، فَمَا أَرْجَعَكَ وَلاَ أَزْعَجَكَ وَأَنْتَ تُؤَمِّلُ مَنَازِلَ العامِلِيْنَ بأفعالِ الغَافِلِيْنَ فما أَطْمَعَكَ .

يَا مَنْ أَصْبَحَ ساعياً إلى مَا يَضُرُّهُ سَتَعْلَمُ مَنْ يأتِي غَدَاً حَزِيْناً مُتَنَدِّمَاً ، كَمْ مِنْ صَائِمٍ يَفْضَحُهُ الحِسَابُ والعَرْضِ ، وَكَمْ مِنْ عاصٍ في هذا الشهْرِ تَسْتَغِيْثُ مِنْهُ الأَرْضُ ، فيا ليت شِعْرِي من المقبولُ مِنَّا فَنُهَنِّيْهِ على توفيقِ اللهِ لهُ بِحُسْنِ عَمَلِهِ وَيَا لَيْتَ شِعْرِي مَنِ المَطْرُودُ فَنُعَزِّيْهِ بسوءِ عَمَلِهِ ، فَيَا أيُّها المقبولُ هَنِيْئاً لَكَ بثَوَابِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ ورِضْوَانِهِ وَرَحْمَتِهِ وَغُفْرَانِهِ وَقَبُولِهِ واحْسَانِهِ وَعَفْوِهِ وامْتِنَانِهِ .

وَيَا أيُّهَا المطْرُودُ بإصْرَارِهِ ، وطُغْيَانِهِ وظُلْمِهِ وَغَفْلَتِهِ وخُسْرَانِهِ وَتَمَادِيْهِ في عِصْيَانِهِ ، لَقَدْ عَظُمَتْ مُصِيْبَتُكَ وخَسِرْتَ تِجَارَتُكَ ، وَطَالَتْ نَدَامَتُكَ ، فَيَا لَهَا مِنْ خُسَارَةٍ لاَ تُشْبِهُهَا خَسَارَةٌ ، لِلّهِ دَرُّ أَقْوَامٍ حَرَسُوا

بالتُّقَى أَوْقَاتَهُمْ ، وَتَدَرَّعُوا دُرُوْعَ المُرَاقَبَةِ في صَبْرِهِمْ وَجَمَعُوا بَيْنَ الصِّدقِ والاخلاص في ذِكْرِهِمْ ، صَبَرُوا باليَقِيْنِ على ظَمَإِ الهَوَاجِرِ ، وَبَسَطُوا أَقْدَامَهُمْ عَلَى بِسَاطِ الدّيَاجِرِ وَعَمِلُوا لِيَوْمٍ فيهِ القُلُوْبُ لَـدَى الحَنَاجِرِ .

أَقْبَلُوا على خِدْمَةِ رَبِّهِمْ إِقْبَالَ عَالِمْ ، وَمَا سَلَكُوا إِلاّ الطريقَ السَّالِمْ تَذَكَّرُوْا ذُنُوبَهُمْ القَدَائِمَ ، فَجَدَّدُوا التَّوْبَةَ بِصِدْقِ العَزَائِمْ ، وَعَدُّوْا التَّقْصِيرَ مِن العَظَائِمِ ، وبَذَلُوا المهْجَ الكِرَائِمَ ، فإذا جَنَّ اللَّيْلُ فَسَاجِدُ وَقَائِمُ ، وَلاَ يَخَافُونَ في اللهِ لَوْمَةَ لاَئِم ،أينَ أَنْتَ وَهُمْ ؟ فَهَلْ تَرَى السَّاهِرَ كالنَّائِمْ ؟ كَلاَّ ، وَلاَ المُفْطِرَ كالصَّائِمْ .

قَالَ ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ مَنْ أَرَادَ اللهُ بِهِ خَيراً فَتَحَ لَهُ بَابَ الذُّلِّ والانْكِسَارِ وَدَوامِ اللجُوءِ إلى اللهِ تعالى والافْتِقَارِ إليه وَرُؤْيَةِ عُيُوبِ نَفْسِهِ وَجَهْلِهَا وَعُدْوَانِهَا وَمُشَاهَدَةِ فَضْلِ رَبِّهِ واحْسَانِهِ وَرَحْمَتِهِ وَجُوْدِهِ وَبِرِّهِ وَغِنَاهُ وَحَمْدِهْ . فالعارِفْ : سَائِرُ إلى اللهِ تَعالى بَيْنَ هَذَيْنِ الجَنَاحَيْنِ لا يُمْكِنُهُ أَنْ يَسِيرَ إلاَّ بِهِمَا فَمَتَى فَاتَهُ وَاحِدٌ مِنْهُمَا فَهُوَ كالطيرِ الذي فُقِدَ أحدُ جَنَاحَيْهِ .

وقَالَ شَيخُ الإسلامِ ابنُ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ اللهُ الْعَارِفُ يَسِيرُ إلى اللهِ بينَ مُشَاهَدَةِ المِنَّةِ ومُطَالَعَةِ عَيْبِ النَّفْسِ والْعَمَلِ وَهَذَا مَعْنَى قَوْلُهُ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وسلم في الحديثِ الصَّحِيْحِ مِنْ حَدِيثِ بُرَيْدَةَ رَضي الله عَنْهُ سَيِّدُ الاسْتِغْفَارِ أَنْ يقولَ العبدُ اللهمَّ أَنْتَ رَبّي لاَ إِلَهَ إلاَّ أَنْتَ خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ وأنا على عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ ما اسْتَطَعْتُ أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ ما صَنَعْتُ أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ وَأَبُوءُ لَكَ بِذَنْبِي فَاغْفِرْ لي إِنَّهُ لا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إلا أَنْتَ فَجَمَعَ

في قَولِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم أبوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ وَأَبُوءُ بِذَنْبِي بَيْنَ مُشَاهَدَةِ المِنَّةِ وَمُطَالَعَةِ عَيْبِ النفسِ والعَمَلْ .

فَمُشَاهَدَةُ المِنَّةِ تُوجِبُ المَحَبَّةَ والحَمْدَ والشُّكْرَ لِوَلِيِّ النِّعَمِ والإِحْسَانِ ومُطَالَعَة عَيْبِ النَّفْسِ والْعَمَلِ تُوجِبُ لَهُ الذُّلَّ والانْكِسَارَ والافْتِقَارَ والتَّوْبَةَ في كُلِّ وقت وأن لاَّ يَرَى نَفْسَهُ إلاَّ مُفْلِساً وأَقْرَبُ بَابٍ يَدْخُلُ منهُ العبْدُ على اللهِ تعالى هُوَ بَابُ الإِفْلاَسِ فَلاَ يَرَى لِنَفْسِهِ حالاً وَلاَ مَقَاماً وَلا سَبَباً يَتَعَلَّقُ بِهِ وَلاَ وَسِيْلَة مِنْهُ يَمَنُ بِها .

بَلْ يَدْخُلُ على اللهِ من بَابِ الافْتِقَارِ الصَّرْفِ والافلاَسِ المحضِ دُخُوْلَ مَنْ كَسَرَ الفَقْرُ والمَسْكَنَةُ قَلْبَهُ حَتَّى وَصَلَتْ تِلْكَ الكَسْرَةُ إلى سُوَيْدَائِهِ فانْصَدَعَ وَشَمَلَتْهُ الكَسْرَةُ مِنْ كُلِّ جِهَاتِهِ وَشَهِدَ ضَرُورَتَهُ إلى رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ وكَمَالَ فَاقَتِهِ وَفَقْرِهِ إِلَيْهِ وأَنَّ فِي كُلِّ ذَرَةٍ من ذَرَّاتِهِ الظَّاهِرَةِ فاقةً تَامةً وضَرُورَةً الى رَبِّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وأَنَّهُ إن تَخَلَّى عَنهُ طَرْفَةَ عينٍ هَلَكَ وخَسِرَ خسارَةً لاَ تُجْبَرُ إلاَّ أنْ يَعُودَ إلى اللهِ تعالى ويَتَدَارَكَهُ بِرَحْمَتِهِ انْتَهَى .

شِعْرًا :

دَعِ البكاءَ على الأَطْلاَلِ والدَّار
واذْكُرْ لِمَنْ بَانَ مِنْ خِلٍّ وَمِنْ جَارِ
وَأَذرِ الدُّمُوعَ نَحِيباً وابْكِ مِن أَسَفٍ
على فِرَاقِ لَيَالٍ ذَاتِ أَنْوَارِ

عَلَى لَيَالٍ لِشَهْرِ الصَّوْمِ مَا جُعِلَتْ
إِلَّا لِتَمْحِيْصِ آثَامٍ وَأَوْزَارِ
يَا لَائِمِي فِي البُكَاءِ زِدْنِي بِهِ كَلَفاً
وَاسْمَعْ غَرِيْبَ أَحَادِيثِي وَأَخْبَارِي
مَا كَانَ أَحْسَنَنَا والشَّمْلُ مُجْتَمِعٌ
مِنَّا المُصَلِّي وَمِنَّا القَانِتُ القَارِي
وَفِي التَّرَاوِيْحِ لِلرَّاحَاتِ جَامِعَةٌ
فِيْهَا المَصَابِيْحُ تَزْهُوْ مِثْلَ أَزْهَارِي
فِي لَيْلِهِ لَيْلَةُ القَدْرِ الَّتِي شَرُفَتْ
حَقّاً عَلَى كُلِّ شَهْرٍ ذَاتِ أَسْرَارِ
تَنَزَّلُ الرُوحُ والأَمْلَاكُ قَاطِبَةً
بِإِذْنِ رَبٍّ غَفُوْرٍ خَالِقٍ بَارِي
شَهْرٌ بِهِ يُعْتِقُ اللهُ العُصَاةَ وَقَدْ
أَشْفُوا على جُرُفٍ مِن خُطَّةِ النَّارِ
نَرْجُوا الإِلَهَ مُحِبَ العِفْوِ يُعْتِقُنَا
وَيَحْفَظُ الكُلَّ مِن شَرٍّ وَأَكْدَارِ
وَيَشْمَلُ العَفْوُ والرِّضْوَانُ أَجْمَعَنَا
بِفَضْلِكَ الْجَمِّ لا تَهْتِكْ لأَسْتَارِ
فَابْكُوا عَلى مَا مَضَى في الشَّهْرِ واغْتَنِمُوا
مَا قَدْ بَقِيَ فَهُوَ حَقٌّ عَنْكُمُ جَارِي

* * *

اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا من حِزْبِكَ وَعِبَادِكَ الصَّالِحِيْنَ الذينَ أَهَّلْتَهُمْ لِخِدْمَتِكَ وَجَعَلْتَهُمْ مِمَّنْ قَبِلْتَ صِيَامَهُ وَقِيَامَهُ واغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا ولِجميع المسلمينَ الأحياءِ منهم والميتينَ بِرَحْمَتِكَ يا أرحَمَ الراحمين وصَلى اللهُ على محمدٍ وصَحْبِهِ أجمعين .

(فَصْلٌ)

في تِلاَوَةِ القُرآنِ الْكَرِيْمِ

وَيَبْحَثُ فِي :

١ ـ ما وَرَدَ مِنَ الحَثِّ على قِرَاءَةِ القرآنِ الكريمْ .
٢ ـ مَا جَاءَ في فَضْلِ حَمْلِ القرآنِ وتِلاَوَتِهْ .
٣ ـ ما وَرَدَ في فَضْلِ تَدَبُّرِ القرآن وَتَفَهُّمِهِ .
٤ ـ ما وَرَدَ في اسْتِحْبَابِ تَرْتِيْلِ القرآنِ الكريمْ .
٥ ـ ما وردَ في بيانِ عِظَمِ بَعْضِ السُّوَرْ .
٦ ـ اسْتِحْبَابُ تَحْسِيْنِ الصَّوتِ في التِّلاَوَةْ .
٧ ـ يَنْبَغِي الخُشُوعُ والخَشْيَةُ والبُكَاءُ عِنْدَ تِلاَوَةِ كِتَابِ الله تعالى .
٨ ـ ما وَرَدَ في تَعَاهُدِ القرآنِ والتَّرْهِيْبِ من نِسْيَانِهِ .

١ ـ ما وَرَدَ مِن الحَثِّ على القُرآنِ الكَرِيمْ :

يُسْتَحَبُّ حِفْظُ القرآنِ عَنْ ظَهْرِ قَلْب ، والإِكْثَارُ مِن تِلاَوَتِهِ كُلَّ وقْتْ لِأَنَّ تِلاَوَتَهُ مِن أَفْضَلِ العِبَادَاتِ وأَعْظَمِ القُرُبَاتِ وأَجَلِّ الطَّاعَاتِ وفيها أجرٌ عَظِيمٌ وَثَوابٌ جَسِيْمٌ مِنَ المَوْلَى الكرِيمْ ، ولاَ سِيَّمَا في شَهْرِ رَمَضَانْ قال

اللهُ تعالى آمِرَاً رسولَهُ صلى اللهُ عليه وسلَّم بِتِلاَوَةِ كِتَابِهِ العزيزِ وابْلاَغِهِ إلى الناسِ : ﴿ وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كَتَابِ رَبِّكْ ﴾ .

وأخبرَ تَعالَى عن عِبَادِهِ المؤمِنِينَ الذين يَتْلُوْنَ كِتَابَهُ ويؤمنونَ به ويعْمَلون بِمَا فيهِ من إقَامِ الصَّلاةِ والانفاقِ مِمَّا رَزَقَهُمُ اللهُ تعالى في الأوقاتِ المشروعةِ لَيلاً وَنَهَاراً سِرَّاً وعَلاَنِيَةً ، فقالْ : ﴿ انَّ الذينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ وأقامُوا الصلاةَ وأنفقُوا مِمّا رَزَقْنَاهُمْ سِرَّاً وعلانيةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبوْر لِيُوفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِن فَضْلِهِ إنَّهُ غفورٌ شَكُور﴾ .

وَعَنْ عُثْمَانَ بنِ عَفَّانٍ ـ رَضْيَ اللهُ عَنْهُ ـ عَن النَّبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وسلم قال : « خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ القُرْآنَ وَعَلَّمَهْ » . رواهُ البخاريُّ ، ومسلم .

٢ ـ ما جاءَ في فَضْلِ حَمْلِ القرآن :

وَعَنْ عائِشَةَ ـ رِضْيَ اللهُ عَنْهَا ـ قَالَتْ : قَالَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : « الذي يَقْرأُ القُرْآنَ وَهْوَ مَاهِرٌ بِهِ مَعَ السَّفَرَةِ الكِرَامِ الْبَرَرَةْ ، والذي يَقْرَأُ القرآنَ وَهْوَ يَتَتَعْتَعُ فِيه وَهْوَ عَلَيْهِ شاقٌ لهُ أجْرانِ » رواهُ البخاري .

وَعَنْ أبي أُمامَةَ الْبَاهِليُ ـ رَضْيَ اللهُ تعالى عَنْهُ ـ قَالْ : سَمِعْتُ رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم يقولْ : « إقْرَؤُوا القرآنَ فإنَّهُ يأتِي يَوْمَ القيامَةِ شَفِيعَاً لِأَصْحَابِهِ » رواهُ مُسْلِمْ .

وَعَنْ أبي هُرَيْرَةَ ـ رَضْيَ اللهُ عَنْهُ ـ قالْ : قالَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ

عليه وسلمْ : « تَعَلَّمُوا القرآنَ فاقْرَؤُهْ ، فَإنَّ مَثَلَ القُرْآنَ لِمَن تَعلَّمَهُ فَقَرَأَهُ وَقَامَ بِهِ ، كَمَثَلِ جِرَابٍ مَحْشُوٍ مِسْكاً تَفُوْحُ رِيْحُهُ في كُلِّ مكانٍ ، وَمَثَلَ مَنْ تَعلَّمَهُ فَرَقَدَ وَهْوَ في جَوْفِهِ كَمَثَلِ جِرَابٍ أُوْكِيَ على مِسْكٍ » رواهُ الترمذي والنِّسائي وابنُ مَاجَهْ .

وَعَنْ أَبِي مُوسى الأشعَرِي ـ رضي اللهُ عَنْهُ ـ قَالْ : قَالَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم : « مَثَلُ المؤمن الذي يقرأُ القرآنَ مَثَلُ الأُتْرُجَّةِ رِيْحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا طَيِّبٌ ، وَمَثَلُ المُؤْمِنِ الذِي لا يَقْرَأُ القُرْآنَ مَثَلُ التَّمْرَةِ لَا رِيْحَ لها وَطَعْمُهَا طَيِّبٌ حُلْوٌ ، وَمَثَلُ المُنَافِقِ الذِيْ يقرأ القرآن مَثَلُ الرَّيْحَانَةِ رِيْحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ ، وَمَثَلُ المُنَافِقِ الذي لا يقرأ القُرْآنَ كَمَثَلِ الحَنْظَلَةِ لَيْسَ لَهَا رِيْحٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ » . رواهُ البخاري ومسلم .

وَعَنْ ابن عُمْر ـ رضْيَ اللهُ عَنْهُما ـ عن النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالْ : « لَا حَسَدَ إلا في اثْنَتينِ : رجلٍ آتَاهُ اللهُ القرآنْ ، فَهْوَ بِهِ آنَاءَ الليل وآناءَ النهارِ ، وَرَجُلٍ تَعَلَّمَ عِلْمَاً فَهْوَ يُعَلِّمُ الناسَ مِنْهُ». رواهُ البخاريُ ومسلم .

وَعَن ابن عباس ـ رضي اللهُ عنْهما ـ قالْ : قالَ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم : « انَّ الذي لَيْسَ في جَوْفِهِ شَيءٌ مِن القرآنِ كالبَيْتِ الْخَرِبِ » رواهُ الترمذي وقالَ : حديثٌ حَسَنْ .

وَعن أبي هريرةَ ـ رضي اللهُ عنه ـ أنَّ رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم قالْ : « ما اجْتَمَعَ قومٌ في بَيْتٍ مِن بُيُوتِ اللهِ يَتْلُوْنَ كتابَ اللهِ وَيَتَدَارَسُونَهُ فِيْمَا بَيْنَهُمْ إلا نَزَلَتْ عليهمُ السَّكِيْنَةُ ، وَغَشِيَتْهُمُ الرحمةُ ، وَحَفَّتْهُمُ الملائِكَةُ ، وَذَكَرَهُمُ اللهُ فِيْمَنْ عِنْدِهِ . أخرجَ البخاريُ في صحيحهِ عن أُسَيْدِ بنِ حُضَير رِضي اللهُ عنه قالْ : بَيْنَمَا هُوَ يقرأُ سَورَةِ

البقَرَةِ وَفَرَسُهُ مَرْبُوطَةٌ عِنْدَهُ إِذْ جَالَتِ الفرسُ فَسَكَتَ فَسَكَنَتْ فَقَرَأَ فَجَالَتِ الفَرَسُ ، فَسَكَتَ وَسَكَنَتْ الفَرَسُ ثُمَّ قَرَأَ فَجَالَتِ الفَرَسُ فانْصَرَفَ .

وكان ابنُهُ يَحْيَى قَرِيْبَاً مِنْها فاشْفَقَ أنْ تُصِيْبَهْ ، فَلَمَّا أخَذَهُ رَفَعَ رأسَهُ إلى السَّمَاءِ حَتَّى يَرَاهَا فَلَمَّا أصْبَحَ حَدَّثَ النبيَّ صلى اللهُ عليه وسلم فقال لَهُ : إقرأْ يا ابْنَ حُضَيْرٍ إقْرَأْ يا ابْنَ حُضَيْرٍ قالْ فأشْفَقْتُ يا رسولَ اللهِ أن تَطَأَ يَحْيى وكانَ مِنْهَا قَرِيباً فَرَفَعْتُ رَأْسِي فانْصَرَفْتُ إليهِ فرفعتُ رأْسِي إلى السماء فإذَا مِثْلُ الظُّلَةِ فيها أمثالُ المصَابِيحِ فَخَرَجْتُ حَتَّى لا أرَاهَا قَالَ : « وَتَدرُونَ ما ذاكَ قلتُ لا قَالَ تِلْكَ الملائِكَةُ دَنَتْ لِصَوْتِكَ ولو قَرَأتَ لأصْبَحَتْ يَنْظُرُ الناسُ إلَيْهَا لَا تَتَوَارَى » .

فالْعَاقِلُ مِنْ يُكْثِرُ تِلاوتهُ واسْتِذْكَارِهِ للاهْتِدَاءِ بِهَدْيِهِ والاسْتِرْشَادِ بَمواعِظِهِ والاعتبارِ بِقَصَصِهِ والالتِقَاطِ مِن دُرَرِهِ وَحِكَمِهِ والاسْتِضَاءة بِنُوْرِهِ كَيْفَ لَا وهُوَ أساسُ الفَصَاحَةِ وَيَنْبُوعُ البلاغَةِ والبَراعَةِ فتجِدُ الخَطِيبَ المُصْقِعَ والشَّاعِرَ البَلِيْغَ يَقْتَبِسَانِ مِن آياتِهِ وَيَسْتَمِدَّانِ مِن عُذُوبَةِ ألفاظِه ومَعانِيهِ ما يُزَيْنَانِ بِهِ كَلامَهُما ويُحَسِّنَانِ بِهِ مَقَامَهُمَا .

وَهْوَ أساسُ الشريعةِ الاسْلامَيةِ ومِنهُ تُسْتَمَدَّ الأحكامُ الشَّرْعِيةُ والمسائلُ الفقْهِيةُ والحقُ أنهُ عِمادُنَا في أمْرِ دِيننِا ودُنْيانَا وفَّقَنَا اللهُ وجمِيعَ المسلمِينَ لِلتَّمَسُّكِ بأهْدَابِهِ والمُسَارَعَةِ إلى امْتِثالِ أمْرِهِ واجْتِنَابِ نَهْيه والوُقُوفِ عِنْدَ حَدِّهِ والتَّفكرِ في أمثالِهِ ومُعْجِزهْ والتَّبَصُّرُ في نُورِ حِكمِهِ واغْفرْ لَنَا ولوالِدينَا ولجَميع المُسلمين بِرحمتك يا أرحمَ الراحمينَ وصلَّى اللهُ على محمدٍ وعلى آلِهِ وصحبِهِ أجمعين .

(فصـل)

وعنْ عبدِ اللهِ بن عُمَرْ ـ رضيَ الله عنهُما ـ أنَّ رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ : « إذَا قَرأ ابنُ آدمَ السَّجْدَةَ فَسَجَدَ ، اعْتَزَلَ الشيطانُ يَبْكِي ، ويَقولُ : يا وَيْلَهُ ! » .

وفي رِوَاية : « يا وَيْلي ! أُمِرَ ابنُ آدمَ بالسجودِ فَسَجَدْ فَلَهُ الجَنّةُ ، وأمِرْتُ بالسجودِ فأَبيْتُ فِليَ النارُ » رواه مسلمُ وأبوُ داود .

وعن النَّوْاسِ بن سِمْعَانْ ـ رضي اللهُ عنه ـ قالْ : سَمِعْتُ رسولَ اللهِ صلى الله عليهِ وسلّمَ يقولُ : « يُؤْتَى بالقرآنِ يومَ القِيَامَةِ وأَهْلِهِ الذينَ كَانُوا يَعْمَلُونَ بهِ في الدنيا تَقْدُمُهُ سُوْرَةُ البقرةِ وآلِ عمرانَ » وضَرَبَ لَهُمَا رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم ثلاثةَ أمثالٍ ما نَسِيْتُهُنَّ بَعْدُ قال « كأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ أو ظُلَّتَانِ سَوْدَوَانِ بَيْنَهُمَا شَرَقٌ ، أوْ كَأَنَّهُمَا فُرْقَانٌ مِن طَيرٍ صَوَافٍ يُحَاجَّانِ عن صَاحِبِهما » رواه مسلم .

وعن عبد اللهِ بن مسعودٍ ـ رضي الله عنهما ـ قال : قال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : « مَن قَرَأَ حَرْفاً من كِتابِ اللهِ تعالى ، فَـلَهُ بِهِ حَسَنَةٌ والحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا لا أَقُولُ : ألم حَرْفٌ ولكنْ ألِفٌ حَرْفٌ ولامٌ حَرْف ومْيمٌ حَرْفٌ » رواه أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذي .

وعن أَبِي ذرٍ ـ رضي اللهُ عنه ـ قال قُلْتُ يا رسولَ اللهِ ، أَوْصِنِي ، قال : « عَلَيْكَ بَتقوَى اللهِ فإنَّهُ رَأسُ الأَمْرِ كُلِّهِ » ، قُلْتُ : يا رسولَ الله زِدْنِي ، قال : « عَليكَ بِتلاوَةِ القُرآنِ فإنَّهُ نُوْرٌ لَكَ في الأَرضِ وذُخْرٌ لكَ في السماء » رواه أبِن حبان .

وعن عبد الله بنِ عُمَرَ ـ رضيَ اللهُ عنهما ـ أنَّ رَسولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم قال : « مَنْ قَرَأَ القُرآنَ فَقَدْ اسْتَدْرَجَ النُبوةَ بَيْنَ جَنْبَيْهِ غَيْرَ أنَّهُ لا يُوْحَى إليه ، لا يَنْبَغِيْ لِصَاحِبِ القُرآنِ أنْ يَجِدَ مَعَ مَنْ وَجَدَ ، ولاَ يَجْهَلَ مَعَ مَنْ جَهِلَ وفي جَوْفِهِ كَلامُ اللهِ » رواه الحاكم .

وروى عن علي بن أَبِي طالبٍ ـ رضيَ اللهُ عنهما ـ قال : قال رسُول اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : « مَنْ قَرَأَ القُرْآنَ فاسْتَظْهَرَهُ ، فأَحَلَّ حَلاَلَهُ وحَرَّمَ حَرَامَهُ أدخلَهُ اللهُ الجَنَّةَ وشَفَّعَهُ في عَشْرةٍ مِن أهْلِ بَيْتِهِ كُلُّهمُ قَدْ وَجَبَتْ لَهُم النارُ » رواه ابن ماجه والترمذي .

وعن أَبِي ذَرٍ ـ رَضْيَ اللهُ عنه ـ قال : قال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : « يا أبا ذَرٍ لأَنْ تَغْدُوَ فَتَتَعَلَّمَ آيةً مِن كِتابِ اللهِ خيرٌ لَكَ مِن أن تُصَلِّي مِائَةَ رَكْعَةٍ ، وَلأَنْ تَغْدُوَ فَتَتَعَلَّمَ بَاباً مِن العِلمِ عُمِلَ بِهِ أوْ لَمْ يُعْمَل بِهِ خَيْرٌ مِن أن تُصَلِّيَ ألفَ رَكعةٍ » رواه ابن مَاجه .

اللهم اهْدِنَا إلى سَوَاءِ السَّبِيْلْ، وَوَفِّقْنَا لِلْفِقْهِ في دِيْنِكَ القَوِيْمِ ، واجعلنا مِن العَامِلِينَ بِهِ قولاً ، وفِعْلاً الدّاعِيْنَ إليهِ ، واغفر لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين الأحياءِ منهم والميتين برحمتك يا أرحمَ الراحمين ، وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

(فصل)
مَا وَرَدَ في فَضْلِ القُرآنِ وتَفَهُّمِهِ

يُسْتَحَبُّ التَّعَوُّذَ لِمَنْ أَرَادَ الشُرُوْعَ في القِرَاءَةِ بأَن يَقُوْلَ « أَعُوذُ باللهِ مِن الشيطانِ الرجيمِ » لِقَولِهِ تعالى : ﴿ فإذَا قَرَأْتَ القُرآنَ فاسْتَعِذْ باللهِ مِن

الشيطانِ الرجِيم ﴾ .

وكان جَمَاعَةٌ مِن السَّلفِ يَقُولُونَ : أعوذُ باللهِ السَّمِيْعِ العليمِ مِن الشيطانِ الرجيم ، فان قَطَعَ القِرَاءَة قَطْعَ تَرْكٍ عَلى أنْ لا يَعُودَ قَرِيْباً إلَيْهَا أعَادَ التَّعَوُّذَ الأوَّلَ وَإنْ تَرَكَهُ قَبْلَ القِرَاءَةِ فَيَتَوَجَّهُ أن يَأتِيَ بِهَا ثُمَّ يَقْرَأُ لِأنَّ وَقْتَهَا قَبلَ القِرَاءَةِ لِلاسْتِحْبَابِ فلا يَسْقُطُ تَرْكُها إذاً وَلِأنَّ المَعْنَى يَقتَضِي ذلكَ .

فإذَا شَرَعَ في القِرَاءَةِ فَلْيَكُنْ شَأْنُهُ التَّدَبُرَ واليَحْذَرْ أنْ يَكُوْنَ مِثْلَ بَعضِ الهَمَجِ يَقْرَأُ القُرآنَ وعُيُونُهُ تَجُولُ فِيْمَا حَوْلَـهُ مِن المَخْلُوقاتِ يَتَلاعَبُ بالقُرآنِ ولا يَهْتَمُ لَهُ ، قال تعالى : ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَرُوْا آياتِهِ ﴾ ، وقال تعالى في مَعْرَضِ الانكارِ ﴿ أفَلا يَتَدَبَرُوْنَ القُرآنَ ، أمْ على قُلُوبٍ أقْفَالُهَا ﴾ .

٤ ـ مَا وَرَدَ في اسْتِحبَابِ تَرْتِيْلِ القُرْآنِ الكَرِيْم :

ويُسْتَحَبُّ لِقَارِىءِ القُرْآنِ أنْ يُرَتِّلَ قِرَاءَتَهُ لِقَولِهِ تَعالى : ﴿ وَرَتِلِ القُرْآنَ تَرْتِيْلاً ﴾ .

وثَبَتَ عَن أُمِّ سَلَمَةَ ـ رَضيَ اللهُ عَنها ـ أنَّها تَنْعَتُ قِرَاءَةَ مُفَسَّرةً حَرْفاً حَرْفاً . رواه أبو داود ، والنسائي ، والترمذي .

وعن عبدِ الله بنِ عُمَرَ ـ رضي الله عنهما ـ قال : قال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : « يُقَالُ لِصَاحِبِ القُرآنِ اقْرَأْ ورَتِّلْ كَمَا كُنْتَ تُرَتِّلُ في الدُنْيَا فإن مَنْزِلَكَ عندَ آخِرِ آيةٍ تَقْرَؤُهَا . رواه أحمد ، والترمذي وأبو داود والنسائي .

وعن قَتَادَةَ قال : سُئِلَ أَنَسٌ، كَيْفَ كَانَتْ قِرَاءَةُ النبي صلى اللهُ عليه وسلم ؟ فقال : كانَتْ مَداً مَداً ، ثم قَرَأَ ﴿ بِسْمِ اللهِ الرحمنِ الرحيمِ ﴾ يَمُدُّ بـ ﴿ بسمِ اللهِ ﴾ وَيَمُدُّ بِـ ﴿ الرحمنِ ﴾ وَيَمُدُ بـ ﴿ الرحيمِ ﴾ رواه البخاري .

وعن مُعَاوِيَةَ بنِ قُرَّةَ عن عبدِ اللهِ بنِ مُغَفَّلٍ ، قال : رَأَيْتُ رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلمَ يَقْرأُ سُوْرَةَ الفَتْحِ يُرَجِّعُ في قِرَاءتِهِ ، رواه البخاري ومسلم .

وقد رَوَى أَبُوْ ذَرٍ عن النبي صلى الله عليه وسلم أَنَّهُ قَامَ لَيْلَةً بآيةٍ يُرَدِّدُهَا : ﴿ إِنْ تُعَذِبْهُمْ فإنهُمْ عِبَادُكَ ﴾ وقَامَ تَمِيْمٌ الدَارِي بآيةِ ﴿ أَمْ حَسِبَ الذِينَ اجْتَرَحُوا السيئاتِ ﴾ وقال أبوُ سُلَيْمانَ إنِيْ لأُقِيْمُ في الآيةِ أَرْبعَ لَيَالٍ أو خَمْسَ وقال ابنُ مَسْعُودٍ مَنْ خَتَم القُرآنَ نهاراً غُفِرَ لهَ ذلكَ اليَومِ ومَن خَتَمَه لَيْلاً غُفِرَ لهُ تِلكَ اللَّيلِ وعن طَلْحَةَ بنِ مُصَرِّفٍ قال : مَن خَتَم القُرآنَ فِي أيِّ سَاعةٍ مِنَ النَّهَارِ كانَتَ صَلَّتْ عليه الملائكةُ حَتَّى يُمْسِي أَوْ أي سَاعةٍ مِن لَيلٍ كانَتْ صَلَّتْ عليه الملائكةُ حَتَّى يُصْبحُ .

(مَوْعِظـة »

قال ابنُ القَيِّم رَحمهُ الله : عَشَرَةُ أَشْيَاء ضَائعةٌ لا يُنْتَفَعُ بها عِلْمٌ لا يُعْمَلُ بهِ وعَمَلٌ لا إِخْلاَصَ فِيه ولا اقْتِدَاءَ فيهِ بكتابِ اللهِ وسنةِ رسولِهِ صلى اللهُ عليه وسلم فإنَّه لا يُوَفَّقُ لَهُمَا إذا لم يُخْلِصِ العَمَلَ ومَالٌ لا يُنْفَقُ مِنه فلا يَسْتَمْتِعُ بِه جَامِعُهُ في الدُنيا وَلاَ يُقَدِّمُهُ أَمَامَهُ لآخِرَتِهِ وَقَلْبٌ فارِغٌ مِن مَحَبَّةِ اللهِ والشَّوْقِ إلى لِقَائِهِ والأُنْسِ بهِ وبَدَنٌ مُعَطَّلٌ مِن طَاعَةِ

اللهِ وخِدْمَتِهِ ومَحَبَّةٌ لا تَتَقَيَّدُ بِرِضَا المَحْبُوْبِ وامتثالِ أوامِرِهِ .

وَوَقْتٌ مُعَطَّلٌ مِن اسْتِدْرَاكِ فَارِطٍ واغْتِنَامُ بِرٍ وقُرْبَةٍ ، وفِكْرٌ يَجُولُ فِيمَا لا يَنْفَعُ وخِدْمَةُ مَن لا تُقَرِّبُكَ خِدْمَتُهُ إلى اللهِ ولا تَعُوْدُ عليكَ بصَلاحِ دُنْيَاكَ وخَوْفُكَ وَرَجَاؤَكَ مِمَّنْ نَاصِيَتُهُ بيدِ اللهِ وهو أَسيرٌ في قبضتِهِ ولا يَمْلِكُ لِنَفسِهِ نَفْعاً ولا ضَرراً ولا مَوْتاً ولا حَياةً ولا نُشُوْراً .

وأعظمُ هذِهِ الإضَاعَاتِ إضَاعَةُ القَلْبِ وإضَاعَةُ الوَقْتِ فإضَاعَةُ القَلْبِ عن اللهِ مِن إيثَارِ الدُنْيا عَلى الآخرةِ وإضَاعَةُ الوَقْتِ مِن طُوْلِ الأَمِلِ فاجْتَمَعَ الفَسَادُ كلُّهُ في اتِّبَاعِ الهَوى وطُولِ الأملِ والصلاحُ كُلُّهُ في اتِّبَاعِ الهُدَى والاسْتِعْدادِ لِلِّقَاءِ اللهِ .

إلى أنْ قالَ ولِلهِ على عَبْدِهِ أَمْرٌ أَمَرَهُ بِهِ وقَضَاءٌ يَقْضِيْهِ عليهِ ونِعَمٌ يُنْعَمُ بِهَا عليهِ فلا يَنْفَكُ مِن هذه الثلاثةِ والقَضَاء نوعانِ إمَّا مَصَائِبُ وإما مَعَائِبُ ولَهُ عَليهِ عُبُودِيَّةٌ في هَذه المَراتِبِ كُلِّهَا فأَحَبُّ الخَلْقِ إليهِ مَن عَرَفَ عُبُودِيَتَهُ في هَذِهِ المَرَاتِبَ كُلِّهَا وَوَفَّاهَا حَقَّهَا فَهَذَا أقربُ الخَلْقِ إليهِ وأَبْعَدُهُم مِنه مَن جَهِلَ عُبُودِيَتَهُ فَعَطَلَهَا عِلْماً وَعَمَلاً . والله أعلم وصلى الله على محمد وآله وسلم .

(فصل)

٥ ـ ما وَرَدَ في عِظَمِ فَضْلِ بَعْضِ السُوَرِ :

وعن أَبي الدَّرْدَاءِ ـ رضي اللهُ عنه ـ قال : قال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : « أَيَعْجَزُ أَحَدُكم أنْ يَقْرَأَ في لَيْلةٍ ثُلُثَ القُرآنِ قالُوا وكَيْفَ

يَقْرأُ ثُلُثَ القُرآنِ قال ﴿ قل هُوَ اللهُ أَحد ﴾ تَعْدِلُ ثُلُثَ القُرآن » رواه مسلم .

وعن عبد الله بنِ عُمَر ـ رضي الله عنه ـ أن رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم قال : « لم يَفْقَهْ مَن قَرَأَ القُرآنَ في أَقَلَّ مِنْ ثلاثٍ » رواه الترمذي وأبو داود والدارمي .

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْن عُمَرَ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ قَالْ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلىَّ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم : « أَلاَ يَسْتَطِيعَ أَحَدُكُمْ أَنْ يَقْرَأَ أَلْفَ آيَةٍ في كُلّ يَوْمٍ » قَالُوا وَمَنْ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَقْرَأَ أَلْفَ آيَةٍ في كُلّ يَوْمٍ ؟ قَالَ : « أَمَا يَسْتَطِيعُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَقْرَأَ الْهَاكُمُ التَكَاثُرْ » رَوَاهُ الْبَيْهَقِي .

وَقَالَتْ عَائِشَةَ ـ رَضِي اللَّهُ عَنْهَا ـ : « ولا أَعْلَمُ نَبِيَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلمَّ قَرَأَ القُرْآنَ فِي لَيْلَةٍ . . . » الْحَدِيثَ رَوَاهُ مُسْلِمْ .

وَعَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالْ « لا تَنْثِرُوهُ نَثْرَ الرَّمْلِ ولا تَهُذّوهُ هَذّا الشّعْر قِفُوا عِنْدَ عَجَائِبِهِ وَحَرّكُوا بِهِ الْقُلُوبَ وَلاَ يَكُنْ هُمْ أَحَدُكُمْ آخَرَ السُّورَةِ » رَوَاهُ الْبَغْوِي .

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاس ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ قَالْ : « لانْ أَقْرَأَ سُورَةً أُرَتّلهَا أَحبُّ إليَّ مِنْ أَنَّ القُرْآنَ كُلَّه » وَقَدْ نِهُيْ عَنِ الْإِفْرَاطِ فِيْ الاسْرَاعِ وَيُسَمَّى « الْهَذْرَمَةَ » ، فَثَبَتَ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ أَنَ رَجُلاً قَالَ لَهُ : اقْرَأُ المُفَصّلَ في رَكْعَةٍ واحِدَةٍ ، فَقَالَ ابْنُ مَسْعُودْ : كَهَذَا الشّعْر ، إِنَّ قَوْماً يَقْرَؤُونَ القُرْآنَ لا يُجَاوِزُ تَرَاقِيْهِمْ ، وَلَكِنْ إِذَا وَقَعَ في الْقَلْبِ فَرَسَخ نَفَعْ » رواهُ البخارِيُ وَمُسْلِمْ .

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمْ رَحِمَهُ اللَّه : إِذَا أَرَدتَ الْإِنْتِفَاعَ بِالْقُرْآنِ فَاجْمَعْ قَلْبَكَ عِنْدَ تِلَاوَتِهِ وَسَمَاعِهِ وَأَلْقِ سَمْعَكَ وَاحْضَرْ حُضُورَ مَنْ يُخَاطِبُهُ بِهِ مَنْ يَتَكَلَّم بِهِ مِنْهُ إِلَيْهِ ، فَإِنَّهُ خِطَابٌ مِنْهُ لَكَ عَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ قال تعالى :

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لِذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ وَذَلِكَ أَنَّ تَمَامَ التأْثِيرَ لَمَّا كَانَ مَوْقوفاً على مُؤَثِرٍ مُقْتضي ومحلٍ قابلٍ وَشُرِطَ لِحُصُولِ الأثرِ انْتِفَاءُ المانِع الَذي يَمْنَعُ مِنْه : تَضَمَّنَتِ الآيَةُ بَيَانَ ذِلك كُلِّهِ بأوْجَزِ لَفْظٍ وأبْيَنِهِ على المَرادْ .

وَقالَ شَيْخُ الإِسْلَامْ : وَمِمّا يَنْبغي أنْ يُعْلَمَ أَنّ أَفْضَلَ الْقَراءَةِ والذِّكْرِ والدّعَاءِ والصّلاةِ وغيرِ ذلِكَ يختَلِفُ باختلافِ حَال الرجل فالقراءةُ بِتَدَبُّر أَفْضَلُ مِنَ القِرَاءَةِ بِلَا تَدَبّرٍ والصّلَاةُ بِخُشُوعٍ وحُضُورِ قَلْبٍ أفْضَلُ مِنَ الصّلاةِ بِدُونِ ذلِكْ .

٦ ـ اسْتِحْبَابُ تَحْسِينِ الصَّوْتِ في التِّلاوَةْ :

يُسْتَحَبّ لِقَارِىءِ القُرْآنِ أنْ يُحْسِّنَ صَوْتَهُ بالْقِراءَةِ، لِأَنَّ تَحْسِينَ الصّوتِ بالْقِرَاءةِ مُعِيْنٌ عَلى حُضورِ الْقَلْبِ وَخُشُوعِهِ وبَاعِثٌ عَلَى حُسْنِ الاسْتِمَاعِ والاصْغاءِ إلى القُرْآنِ .

وَعَنْ أبي هُرَيْرَةَ ـ رضْيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ قَالْ : قالَ رسولُ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسَلّمُ : « لَيْسَ مِنّا مَنْ لَمْ يَتَغنَّ بالْقُرْآنِ » رَوَاهُ البخاري . وعنْهُ قالْ : قالَ رسولُ الله صلّى اللهُ عليهِ وسلّمْ : « ما أَذِنَ اللهُ لِشَيءٍ كما أَذِنَ لِنَبِي حَسَنِ الصَّوْتِ يَتَغَنَّى بالقُرآنِ ويَجْهَرُ به » متفق عليه .

قالَ جمُهْورُ العُلماءِ : مَعْنَى (لَمْ يَتَغَنَّ) ، أَيْ لَمْ يُحَسِّنْ صَوْتَهُ .

وَعَنِ البَراءِ بْنِ عَازِب ـ رَضْيَ اللهُ عَنْه ـ أنَّ النّبيَ صلّى اللهُ عليهِ وسَلّمْ قال : « زَيِّنُوا القُرْآن بأصْواتِكُمْ » رواهُ أحمدُ وأبُو دَاودَ وابْنُ ماجه والدّرامي .

وعَنْه أيْضاً قَالْ : سَمِعْتُ رَسولَ اللَّهِ صَلّى اللهُ عليهِ وسَلّمْ يقولْ : « حَسِّنُوا الْقُرْآن بِأَصْواتِكم ، فإنّ الصَّوْتَ الْحَسَنَ يزيْدُ القرآنَ حُسْناً » رواه الدرامي .

وَرَوَى مُسْلِمٌ في صَحْيحِهِ عن أَبِي مُوسَى الأشعري ـ رَضْي اللّه تعَالى عَنْهُ ـ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم لأبِي موسى : « لَوْ رَأَيْتني وَأَنا أَسْتَمِعُ لِقِراءَتِكَ الْبَارِحَةْ ، لَقَدْ أُوْتِيْتَ مِزْمَاراً مِنْ مَزامِيرِ آلِ داودْ » ، قالَ العلماءُ المُرَادُ بالمِزْمَارِ هُنَا الصَّوتُ الحَسَنُ .

اللهمَّ قابلْ سَيْئاتِنَا باحْسَانِك ، واسْتُر خَطيْئَتِنَا بِغُفْرَانِكْ وأَذْهِبْ ظُلَمَةَ ظُلْمِنَا بِنُورِ رِضْوَانِكْ ، واقْهَر عَدُوَّنا بعزِّ سُلْطَانِكْ ، فَمَا تَعَوَّدَنَا مِنْك إلاَّ الْجَمِيلْ ، واغْفِرْ لَنَا وَلِوالِدِينَا ولجميعِ المسلمينَ الاحياءِ منهم والميتينْ ، بِرَحْمَتِكَ يا أَرْحَمَ الراحمينَ ، وصلى الله على محمدٍ وآلِهِ وصحبِهِ أجمعين .

٧ ـ يَنْبَغِي الخُشوعُ والخَشْيةُ والبُكاءُ عِنْدَ تِلاوةِ كِتابِ اللّهِ تعالى :

وَيُسْتَحَبُّ البكاءُ عِنْدَ تَلاوةِ القرآنْ ، وَهُوَ صِفَةُ الْعَارِفِيْنَ وَشِعَارُ عِبادِ الله الصالحين ، قَالَ اللهُ تعالى في وَصفِ الخاشِعِينَ مِنَ عَبادِه عِنْدَ تلاوةِ كِتابه : ﴿إِنَّ الذينَ أوتوا العِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ اذا يُتْلَى عليهِمْ يَخِرُّونَ لِلاذْقانِ سُجَّدَا ، وَيَقُولونَ سُبْحانَ ربّنَا إنْ كانَ وعدُ ربنا لَمَفْعُوْلاً ، وَيَخِرُّونَ

لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ ، وَيَزِيْدَهُمَ خشُوعا﴾ سورةَ الإِسْرَاء .

وَلمَّا ذَكَرَ تَعَالى الأَنْبِيَاءَ الْمُكَرَمِيْنَ وَخَوَاصَّ الْمُرْسَلِين ، وَذَكَرَ فَضَائِلَهُمْ ومَرَاتِبَهُمْ أَخْبَرَ أَنَّهُمْ كانُوا إذا تُتْلَى عليهم آياتُ الرَّحمنِ (خَرُّوْا سُجَّداً وبُكيًّا) وقال اللهُ تعالى : ﴿اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الحديثِ كِتَاباً مُتشابِهاً مَثَانيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جلودُ الذينَ يَخْشَون رَبَّهم ثم تَلِيْنُ جُلودُهُمْ وقُلُوبُهم إلى ذِكْرِ اللهِ ﴾ .

وقَدْ وَرَدَتْ فيهِ أَحَاديثُ كَثيرَةٌ ، وآثارٌ لِلسَّلف ، فَمِنْ ذَلكَ ما وَرَدَ عن النبيّ صلى اللهُ عليهِ وسلم أنهُ قالْ : « اقْرَأُوا القُرْآنَ وابْكُوا ، فإنْ لَمْ تَبْكُوا فَتَباكَوْا » وعنْ عبدِ اللّهِ بنِ مَسْعُودٍ ـ رضيَ اللهُ عنهْ ـ قالْ : قالَ لِي رسولُ اللهِ صلى الله عليهِ وسلم : « اِقْرَأْ عَليَّ » قُلْتُ : أأقْرأ عَلَيْكَ وعَلَيْكَ أنْزِلْ ؟! قالْ : « فَإنِّي أُحِبُّ أنْ أَسْمَعَهُ مِن غَيْري » فَقَرأْتُ مِن سورةِ النِّسَاءِ حتى أتَيْتُ إلى هذِه الآية : ﴿فكيفَ إذَا جِئْنَا مِنْ كلِّ أمةٍ بِشَهيدٍ ، وَجِئْنَا بِكَ على هَؤلاءِ شَهيْدَا﴾ قالْ : « حَسْبُكَ الآنَ » ، فالْتَفَتُّ اليهِ فاذا عَيْنَاهُ تَذْرُفانِ . مُتَّفق عليه .

وعنْ مُطرِفِ بنِ عَبْدُ اللهِ بنُ الشِّخِّيْرِ عَنْ أبيهِ قالْ : رَأَيتُ رسول اللهِ صلى الله عليه وسلم يُصَلي وفي صَدْرِهِ أَزِيزٌ كَأَزِيزِ المُرْجَلِ مِن البُكاءِ ، أخْرجهُ الخمسةُ إلا ابنَ ماجه وصَحَّحَهُ ابنُ حِبّانْ .

وَلمَّا اشْتَدَّ بِرَسُولِ اللَّه صلى الله عليه وسلم وَجَعَهُ قِيْلَ لَهُ الصَّلاةَ ، فَقالَ : « مُرُوا أبا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بالناسِ » ، قالتْ عَائِشَةَ إنَّ أبَا بَكْرٍ رَجُلٌ رَقِيقٌ إذَا قَرأَ غلبهُ البُكَاء ، قَالْ « مُرُوهُ فَلْيُصَلِّ » رواهُ مسلِم .

وَعَنْ عُمَرَ ـ رضي اللهُ عَنْهُ ـ أَنَّهُ صلَّى بالجَمَاعَةِ الصُّبْحَ ، فَقَرأَ سورةَ يُوسُفَ فبَكَى حَتى سَالَتْ دُمُوعُهُ ، وفي رِوايةٍ : أَنَّهُ كانَ في صَلاةِ العِشَاءِ ، وفي رِوَايَةٍ : أَنَّهُ بَكَى حَتَّى سَمِعُوْا بُكَاءَهُ مِنْ وَرَاءِ الصُفُوفِ .

وَقرأ عُمَرَ بنُ عبدِ العزيز بالنَّاسِ ذَاتَ لَيْلَةٍ واللَّيْل اذا يَغْشِى فَلَّما بَلَغَ فـأَنْذَرْتُكمْ نَاراً تَلَظَّى خَنَقَتْهُ العَبْرَةُ فَلَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَنْفُذَهَا فَرجع حَتى إذا بَلَغَهَا خَنَقْتهُ الْعَبْرَةُ فَلَمْ يَسْتَطِع أَنْ يَنْفُذَهَا فَقَرأَ سُوْرَةَ غَيْرَها .

وَيَنْبَغِي أَنْ يَكونَ ذَلِكَ حَالُ العُلَمَاءْ فَقَدْ أَخْرَجَ ابنُ جَرِيرٍ وابنُ المُنذِرِ وَغَيرُهمَا عن عبدِ الأعْلَى التَّيْمِيْ ، أنهُ قالْ : اِنّ مَنْ أُوْتِي مِنَ العلمِ مَالاَ يُبْكِيهِ لَخَلِيْقٌ أَنْ قَدْ أُوتِيَ مِن العلم مَالا يَنْفعة ، لِأَنَّ الله تعالَى نَعَتَ أهلَ العلمِ فَقالْ : « وَيَخِرُّونَ للأذْقَانِ يَبْكُوْنَ » وقال صلى اللهُ عليهِ وسلم لاَ يَلِجُ النَّارَ مَن بَكَى مِنْ خَشْيَةِ اللهِ حَتَّى يَعودَ اللَّبن في الضَّرع الحديث رواهُ الترمذي وقال صلى اللهُ عليه وسلم عَيْنَانِ لاَ تَمَسُّهُمَا النارْ عَينٌ بَكَتْ مِن خَشْيَةِ اللهِ وعْينٌ باتتْ تَحْرِسُ فِي سَبِيلِ اللهِ رواهُ الترمذي .

وَيُسْتَحَبُّ إذَا مَرَّ بِآيةِ رَحْمَةٍ أَنْ يَسْأل اللَّه من فَضْلِهْ ، وإذَا مَرَّ بآيةِ عذابٍ أَنْ يَسْتَعِيذَ باللهِ مِن الشّرّ أو مِنَ العذابِ ، أو يقول : « اللهمَّ انِّي أسألك الْعافِيَة » أوْ يَقُولَ : « أسألُكَ المُعافاةَ مِن كُلّ مَكْرُوهٍ » أو نحوِ ذَلك .

وإذَا مَرَّ بآيةِ تَنْزِيْهٍ نَزَّهَ اللَّه تعالى فَقالْ « سُبحانَهُ وتَعالى » أوْ « تَبَارَكَ وَتعالى » أوْ « جَلّتْ عَظَمَةُ رَبّنَا » ، فَقَدْ صَحَّ عنِ حُذَيفَة بن الْيَمَانِ ـ رضي اللهُ عَنْهُ ـ أنهُ قَالْ : صَلَّيْتُ مَعَ النبيِّ صلى الله عليهِ وسلم ذاتَ لَيْلَةٍ

فافْتَتح البَقَرَة ، فَقلتُ يَرْكَعُ عِنْدَ المائةْ ثُمَّ مَضَى ، فَقُلْتُ يُصَلِّي بِهَا في رَكعَةٍ فَمضى ، ثُمَّ افْتَتَحَ آلِ عِمْرَانِ فَقرأَهَا ثُمَّ افْتَتَح النّساءِ فَقرأَها ، يَقْرأُ مُتَرَسِّلاً إِذَا مَرَّ فيها بِتَسْبِيح سَبِّحْ ، واذَا مَرَّ بسؤآلِ سَأَلْ وإِذَا مَرَّ بِتَعُّوذٍ تَعَوَّذْ ثَمَّ رَكَعْ . رواه مسلم .

موعظة

عَبَادَ اللهِ إِنَّ مِنْ تَعْظِيم رَبِّنَا جَلَّ وَعَلا تِعْظِيمُ كُتُبِه وَرُسُلِه وَذَلكَ مِنْ أصولِ الايمانِ فَمَن اسْتَخَفَّ بكتابِ اللهِ أو آيةٍ مِنْهُ أو اسْتَخَفَّ بِرُسُلِهِ خَسِرَ كُلَّ الْخُسْرَانِ عِبَادَ اللهِ أيْنَ الْغَيْرَةُ الدِّينِيَّةُ كُلَّ يومٍ نَجْدُ الكُتَبَ التي تَحْتَوي على التَّوْحِيدِ وَعَلى الآياتِ مِن كتابِ اللهِ وعلى الأحاديثِ الشريْفةِ مُلْقات مَعَ القَمَائمِ وفي الْحُفَرِ الْقَذِرَةِ تُدَاسُ بالنِّعالِ وَتُلَوَّثُ بالأقْذَارِ تُلَوَّثُ تَلْوِيثاً تَسْتَغِيثُ مِنْهُ العوَاطِفُ الايْمَانِيْةِ أليْسَ هَذَا مِن المُنْكَرَاتِ لِمَاذَا لا تُصَانُ وتُرْفَعُ أوْ تُقْبَرُ في مَحِلٍ طَاهِرٍ .

قُوْلُوا لِمَنْ يُلْقِيْهَا وَلِمَنْ يَقْدِرُ على مَنْعِهِمْ مِن الْقَائِهَا اتَّقُوا اللَّهَ هَذِهِ حالةٌ واللهِ تُؤْلِمُ النفوسَ وتُشْمِتُ بِنَا الأعداءَ قُوْلُوا لَهُمْ كيفَ تسْمَح نُفُوسُكُمْ تُلْقُونَهَا هَذَا الالْقَاءِ الْحَقِيرَ وَكَذلِكَ كُتُبُ فِقْهٍ وانْ لَمْ يَكُنْ فِيْهَا آياتٌ وَلاَ أَحَادِيْثٌ يَنْبَغِي احْتِرامُهَا وَرَفْعُها .

وكذلِكَ يَنْبَغِي التَّنْبِيْهِ على بَعْضَ الكُتُبِ التي جُمِعَ والْعِياذُ باللهِ بِهَا مَعَ الآياتِ الْقُرآنيةِ والأحاديثِ النبويةِ صُوَرُ ذَواتِ الأرواحِ وقد تكونُ فوقَ الآيةِ خُصُوصاً إِذَا أطْبِقَ الكتابُ وَهَذَا واللّه اسْتِهَانَةٌ عَظِيْمَةٌ وَاسْتِخْفَافٌ بالآياتِ والآحاديثِ والكُتُبِ الدِّينيةِ لاَ يَجُوزُ السّكوتُ على هذهِ الحالةِ المُزْرِيَةِ .

وَمِمَّا يَنْبَغِي التَّنْبيهُ عَلَيْهِ هُوَ عَدَمُ وَضْعِ الآياتِ والأحَادِيْثِ في الجَرَائِدِ بَلْ يشارُ إلى مَحلَّاتِها وأَرْقَامِها لِأَنَّ الجَرائدَ صارَتْ قِسْمٌ كبيرٌ مِنْ قُمَامَةِ المَحلَّاتِ وَفِيهَا صُورُ ذواتِ الأرْوَاحِ وهذِهِ حَالةٌ مُخِيْفَة إنْ دَامَتْ مَعَ مَا انْتَشَرَ مِن المُنْكَراتِ والمَعاصِيَ الَّتِي مَلأتِ البرَّ والبَحْرَ يُخْشَى أنْ تُحِيْطَ بِهِمْ عُقُوبَتُهَا .

نسألُ اللَّه أنْ يُنَجِّيْنَا مِنْ عُقوبَتِهَا وأنْ يُوْقِضَ وَلاَتَنَا وَيُنَبِّهَهُمْ لِإزَالَتِهَا وَتَطْهِيرِ الأرضِ مِنْهَا إنَّهُ القَادِرُ عَلى ذَلِكَ وَلاَ أَرَى مَخْلِصاً لِلانْسَانِ الذي قَدْ ابْتُلَى بِشِراءِ الجريدةِ حَمَّالَةِ الْكَذِبِ قتَّالةِ الوَقْتِ إلاّ أنَّهُ يُحْرِقُهَا مِنَ حِينَ يَخْلَصُ مِنْ قِرَاءتِها لِيَسْلَمَ مِن باقِي شُرُورِها وَأُوزَارِها .

وَسَوْفَ يُنَاقَشُ عَنْهَا يومَ القيامةِ عَنِ الوَقْتِ الَّذِي ضَيَّعَهُ فِيها والمالُ الذي أنفقهُ فِيها وَما حَصَل بِسَبَبِهِ على الآياتِ والأحاديثِ التِّي فِيهَا مَنْ الاسْتِهَانَة والامْتِهَانِ واخْرَاجِ الملائِكَةِ عن الْمَحَلِّ التِّي وَضَعَهَا فِيه إذا كانَ فِيهَا صُوَرِ ذَواتِ الأرْوَاحِ حَيثُ أنَّ الملائِكَةَ لا تَدْخُلُ بَيْتاً فِيهِ صُورَةَ .

قَالَ بَعْضُهُمْ :

شِعْرا :

ألاَ اِرْعِـوَاءَ لِمَنْ كَـانَـتْ اِقَـامَتُـهُ
عِنْـدَ الْـمَذابِيْـعِ والتِّلْفَـازِ والـطَّرَبِ
مُضَيِّعَـاً فِيْهَـا عُمُـراً مَـا لَـهُ عِـوَضٌ
اِذا تَـصـرَّمَ وَقْتٌ مِـنْـهُ لَـمْ يَـؤُبِ

أَيَحْسِبُ الْعُمْـرَ مَـرْدُوداً تَصَـرّمُـهُ
هَيْهَاتَ أنْ يَرْجِعَ الماضِي مِنَ الْحُقُبِ
أَمْ يَحْسَبُ العُمْـرَ مَـا وَلَّتْ أوَائِلُهُ
يُنَـالُ بَعْـدَ ذَهَـابِ الْعُمْـرِ بِـالـذَّهَبِ
فَبَـادِرِ الْعُمْـرَ قَبْـلَ الفَـوْتِ مُغْتَنِمـاً
مَا دُمْتَ حَيَّاً فانَّ الموتَ في الطَّلَبِ
وَأحْرِصْ وبَادِرْ إِذَا مَا أمكَنَتْ فُرَصٌ
في كَسْبِ مَا تُحْمَدَنْ عُقْبَاهُ عَنْ رَغَبِ
مِنْ نَفَعِ ذِي فَاقَةٍ أوْ غَوْثِ ذِي لَهَفٍ
أوْ فِعْـلِ بِرٍّ واصْـلَاحٍ لِـذِي شَغَبِ
فَـالْعُمْـرُ مُنْصَـرِمٌ والـوَقتُ مُغْتَنَـمٌ
والـدَّهْرُ ذُو غَيـرٍ فـاجْهَـدْ بِـهِ تُصِبِ
فأعْمَلْ بِقَـوْلِي وَلَا تَجْنَحْ إلى فَـدَمٍ
مُـخَـادِعٍ مُـدَّعٍ لِـلْعِـلْمِ والأدَبِ
يَرَى السَّعادَةَ في كَسْبِ الحُطَامِ وَلَوْ
حَـوَاهُ مَعَ نَصَبٍ مِنْ سُـوءِ مُكْتَسَبِ
فَـالرَّأيُ مـا قُلْتُهُ فـاعْمَل بـهِ عَجِـلاً
وَلَا تُصِخْ نَحْوَ فَدْمٍ غَيْرِ ذِي حَدَبِ
فَغَفْلَةُ الْمَـرءِ مَـعَ عِلْمٍ وَمَعْـرِفَـةٍ
عَنْ واضحٍ بَيِّنٍ مِنْ أَعْجَب العَجَبِ

واللهُ أعلمْ وصلى الله على محمدٍ وعَلى آلهِ وسلمِ .

(فصل)

٨ مَا وَرَدَ في تَعَاهُدِ القرآنِ الكريمْ ، والتَّرْهِيبِ مِنْ نِسْيَانِهِ ، والاعْرَاضِ عِنْه :

يُسَنُّ خَتْمُهُ في كلِّ أسْبُوع لقولِه صلى اللهُ عيهِ وسلمْ لِعبدِ اللَّه بن عَمْرو ـ رضي اللهُ عَنْهُمَا ـ: « واقْرَأْ في كلِّ سَبْعِ لَيالٍ ولا تَزد عَلى ذلك » متفق عليه .

قالَ عَبْدُ اللّهِ بنُ أحْمَدَ بنُ حَنْبلٍ ـ رَحِمَهمَا الله ـ كَانَ أبي يَخْتِمُ القرآنَ في النَّهارِ في كلِ أُسْبُوْع ، يقرأُ كُلَّ يَومٍ سُبْعاً لَا يكادُ يتْرَكُهُ نَظَراً لقولِه صلى الله عليهِ وسلم لِعَبدِ الله بن عَمْرو ـ رضي الله عَنْهُمَا ـ : « واقرَأْ في كِلِّ سَبْع » ، وانْ قَرَأ في ثِلاثٍ فَحَسَنْ ، لِمَا وَرَدَ عن عبدِ اللهِ بن عَمْرو ـ رضي الله عَنْهُمَا ـ قُلْتُ يا رسَولَ اللّهِ ، إنَّ لِي قُوَّةً ، قَالْ : « اقْرَأْ في كُلِّ ثَلاَثٍ » رواهُ أبُو داودْ ، وَلاَ بَأسَ فِيْمَا دُونَها أحْياناً ، وفي الأوْقاتِ الفَاضِلةِ كَرَمَضانَ ، خُصوصاً اللَّيَالِيَ التِّي تُطْلَبُ فِيها لَيْلَةُ القدر .

وَيَنْبَغي لِقَارِىءِ القُرْآنْ أنْ يَتَعَّهدَهُ بالْحِفْظِ والْمُداوَمَةِ عَلى تَلاَوتِهِ ، وليَحْذرْ كُلَّ الْحَذَرِ مِن هِجْرَانِه وترْكِ التَّعَهُّدِ لَهُ ، فَيَتَعَّرضَ بِذلِك لِنِسْيَانِهِ وَتَرْكِ العَمَلِ بِهِ الّذي هُوَ مِن أعْظَمِ الذُّنوبِ .

قالَ ابنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ الله : هَجْرُ القُرْآنِ أَنْوَاعْ :

أَحَدُهُمَا : هَجْرُ سَمَاعِهْ ، والايمانِ بِهِ ، والإصْغاءِ إلَيْهِ .

والثَّاني : هَجْرُ العَمَلِ بِه والوُقوفِ عِندَ حَلالِهِ وحَرَامِهْ ، وإنْ قَرَأهُ وآمنَ بِهِ .

والثالثُ : هَجْرُ تَحْكِيمِهِ والتَّحاكُمِ اليهِ في أُصولِ الدِّينِ وَفُرُوعِهِ واعْتِقادِ أنَّهُ لا يُفِيدُ اليَقينِ وأنَّ أدلّتهُ لَفْظِيةَ لا تُحَصِّلُ العِلمَ .

والرَّابعُ : هَجْرُ الاسْتِشْفاءِ والتَّداوِي بِهِ في جَمِيْعِ أَمْرَاضِ القُلُوبِ وأدْوَائِها ، فَيَطْلُب شِفَاءَ دَائِه مِنْ غيْرِهِ وَيَهجُرُ التَدَّاوي بهِ .

والخامِسُ : هَجْر تَدَبُّرِهِ وَتَفهُّمِهِ وَمَعْرِفَةِ مَا أَرَادَ المُتَكَلِّمِ مِنْهُ .

وَكُلُّ هَذَا دَاخِلُ في قَوْلِهِ تعالى : ﴿ وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتخذوا هذا القرآنَ مهجورا ﴾ .

وَرَوَى الامامُ أحمدْ ـ رضيَ اللهُ عَنْهُ ـ مِنْ حديثِ سَمُرَةْ : أنَّ النبيَّ صلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَأى رَجُلاً مُسْتَلْقِياً عَلَى قَفَاهُ ، وَرَجُلاً قَائِماً بِيَدِهِ فِهْرٌ أوْ صَخْرَةٌ فَيَشْدَخُ بِهَا رَأْسَهُ : فَيَتَدَهْدَهْ ، فَاذَا ذَهَبَ لِيَأْخُذَهُ عَادَ رَأْسَهُ كَمَا كانَ فَيَصْنَعُ بِهِ مِثْلَ ذَلِكَ ، فَسَأَلَ عَنْهُ ، فَقِيْلَ لَهُ : رَجُلٌ أتَاهُ اللهُ القُرْآنَ فَنَامَ عَنه باللَيْلِ وَلَمْ يَعْمَل بِهِ بِالنَّهارْ ، فَهْوَ يَفْعَلُ بِهِ ذلِكَ إلى يومِ القيامَ .

وَفي حدِيثِ عَمْرو بن شُعَيْب مَرْفُوعاً : « يُمَثَّلُ الْقُرآنُ يومَ القِيامَةِ رَجُلاً فَيُؤْتَى بالرَّجُلِ قَدْ حَمَلَهُ فَخَالَفَ أمْرَهُ فَيَتَمَثَّلُ لَهُ خَصْماً ، فَيَقُولُ : يا رَبْ ، حَمَّلْتَهُ إيَّايَ فَبِئْسَ حَامِلٌ تَعَدَّى حُدُودِي ، وَضَيَّع فَرَائِضِي ، وَرَكِبَ مَعْصِيَتِي وَتَرَكَ طَاعَتِي ، فَمَا يَزَالُ يَقْذِفُ عليهِ بالحُجَجِ حَتَّى يقالُ شَأنَكَ بِهِ فَيَأخُذُ بِيَدِهِ فَمَا يُرْسِلَهُ حَتَّى يُكِبَّهُ على مَنْخِرِهِ في النَّارِ » الحديث .

وعَنْ سَعْدِ بنِ عُبادَةَ ـ رِضَى اللهُ عنهُ ـ قالَ : قالَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) « مَا مِنْ إمْرِىءٍ يَقْرَأُ القرآنَ ثُمَّ يَنْسَاهُ إلاَّ لَقِيَ الله يومَ القيامَةِ أجْذَمْ » رواهُ أبو داوُد .

وَعَنْ أبي مُوْسَى الأشْعَرِي ـ رِضْيَ اللهُ عَنْهُ ـ عَنْ النَّبي صلى اللهُ عليه وسلَّمَ أنهُ اَلْ : « تَعَاهَدُوا هَذَا القرآنْ ـ فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهْ ـ لَهْوَ أشَدُّ تَفَلّتاً من الإبِلِ مِنْ عُقُلِهَا » رَواهُ البخاري ومسلمَ ، وعن ابن عُمَر ـ رضِيْ الله عنْهُما ـ أنَّ رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلَّمْ قالْ : إنَّما مَثَلُ صَاحِبِ القُرآنِ كمَثَلِ الأبلِ المُعَلَّقَةْ إن عَاهَدَ عِلْيَها أمْسَكَهَا وإنْ أطْلَقَها ذَهَبَتْ ، متفق عليه .

قال ابنُ عباس ـ رضي اللهُ عَنْهُما ـ تَكَفَّلَ اللهُ لِمَنْ قَرَأَ القرآنَ وَعَمِلَ بِمَا فيه أنْ لاَّ يَضِلَّ في الدُّنْيَا وَلَا يَشْقَى في الآخِرَةِ ، ثُمَّ قَرَأَ قَولَهُ تعالى : ﴿فَإِمَّا يأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدَيً فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى وَمَنْ أعْرَضَ عَن ذِكري فَإنَّ لَهُ مَعِيْشَةً ضَنْكَاً وَنَحْشُرُهُ يومَ القيامَةِ أعمى قالَ رَبِّ لِما حَشَرْتَنِي أعْمَى ، وَقَدْ كُنْتُ بَصِيْرا قال كذلِكَ أتَتْكَ آياتُنَا فَنَسِيتَها وكذلكَ اليومَ تُنْسَى ﴾ أ هـ .

وَرَوَىٰ أنُسٌ ـ رضْيَ اللهُ عَنْه ـ أنَّ النبيَّ صلى اللهُ عَلَيْهِ وسلَّم قالْ : عُرِضَتْ عَلَيَّ أجُورَ أمَّتي حَتَّى الْقِذاةِ يُخْرِجُها الرَّجُلُ مِن المسجدِ وَعُرِضَتْ عَلَيَّ ذُنوبَ أمتي فلمْ أرَ ذَنْبَا أعْظَمَ مِنْ سُوْرَة مِن القرآنِ أوْ آيَةٍ أوْتِيهَا الرَّجُلَ ثُمَّ نَسِيَها ، ويا للأسفِ اسْتَبْدَلُوا الخَبِيْثَ بالطَّيِّبِ أكَبُّوا على الجَرَائِدِ والمجَلاّتِ والكُتُبِ الخَلِيعَاتِ بَدَل تِلاَوَةِ كِتَابِ الله فَلا حَوْلَ ولا قُوةَ الاّ باللهِ العلي العظيم : وهو حَسْبُنَا ونِعْمَ الوكِيْل .

وَفي الحديثِ الذي رَوَاهُ التِّرمِذِيُ وَغَيْرُه عَنْ عَليْ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - قالْ : قَالَ رسولُ اللهِ صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ : « إنَّها سَتَكُونُ فِتَنٌ ، قُلْتُ : فَمَا المُخْرِجُ مِنْهَا يَا رَسُولَ الله ؟ قالَ : كِتَابُ اللهِ فيْهِ نبأ ما قبلكم وَخَبرُ ما بَعْدَكُمْ وَحُكْمُ ما بَيْنَكُمْ ، هُوَ الفَصْلُ لَيْسَ بالهَزْلِ مِنْ تَرَكَهُ مِنْ جَبَّارٍ قَصَمَهُ اللهُ ، وَمَنْ ابْتَغَى الهُدَى في غَيْرِهِ أَضَلَّهُ اللهُ ، وَهُوَ حَبْلُ اللهِ المَتِيْنُ وَهُوَ الذِّكْرُ الحَكِيْم وَهُوَ الصِّرَاطِ المُسْتَقِيْم ، وَهُوَ الذِي لَا تَزِيْغُ بِهِ الأَهْوَاءُ ، وَلَا تَلْتَبِسُ بِهِ الأَلْسُنُ ، ولا تَنْقَضِيْ عَجَائِبُهُ ولا تَشْبَعُ مِنْهُ العُلَمآءُ مَنْ قَالَ بِهِ صَدَقَ وَمَنْ عَمِلَ بِهِ أُجِرَ ، وَمَنْ حَكَمَ بِهِ عَدَلَ وَمَنْ دَعَى إلَيْهِ هُدِيَ إلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيْمٍ » .

إذَا فَهِمْتَ ذلِكَ فاعْلَمْ أنَّ القرآنَ قَدْ بُيِّنَ فِيهِ كُلُّ مَا يَحْتَاجُ إليهِ العِبادَ مِن أُصُوْلِ الدّينِ وفُرُوعِهِ وأحكامِ الدّارَيْنِ حَتَّى أَنَّهُ تَعَالَى يُثَنِّيْ الأُمُورَ الكِبَارَ التي يَحْتَاجُ القَلْبُ لِمُرُورِهَا عليهِ كُلَّ وَقْتٍ وإعَادَتِهَا في كلِّ سَاعَةٍ بألفاظٍ مُخْتَلِفَةٍ وأدلةٍ مُتَنَوِّعَةٍ لِتَسْتَقِرَّ في القلوبْ .

قَالَ تعالى لِرَسُولِهِ صلى اللهُ عَلَيْهِ وسلَّمْ : « وأنْزَلنا اليْكَ الذِّكْر لِتُبَيّن لِلنَّاسِ مَا نُزّلَ إلـيْهُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ » وَقَالَ « وأنزَلنا عليكَ الكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شيءٍ » وقالَ تعالى ﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيْلاً ﴾ فَفِيْهِ بَيَانُ الحلالِ والحرامِ والثَّوابِ والعِقَابِ وَهُدىً مِن الضَّلَالَةِ رَحْمَةً لِمَنْ صَدَّقَ بِهِ وَعَمِلَ فِيهِ وَحَكَّمَهُ في الدَّقِيْقِ والْجَلِيْلِ والوَيْلُ لِمَنْ رَجَعَ إلى القَوانِينِ وَتَرَكَهُ فَكُلُّ حُكْمٍ سِوَى حُكْمِ اللهِ فَهُوَ باطِلٌ مَرْدُود وَكُلُّ حَاكِمٍ بِغَيْرِ حُكْمِهِ وَحُكْمِ رَسُوْلِهِ فَهُوَ طَاغُوْتٌ كَافِرٍ باللّهِ وَمَا أَكْثَرَ في هذا الزَمَنِ . الَمُحَكِّمِيْنَ لِلْقَوانِيْنَ الْوَضْعِيَّةِ والأَنْظِمَةِ الحَالِيَّة .

قال اللهُ تعالى : ﴿ وَمَن لَمْ يَحْكُم بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فأولئِكَ هُمُ

الكافِرون﴾وَهَذَا عامٌ شَامِلٌ فَمَا مِنْ قَضِيَّةٍ الاّ وَلِلَّهِ فِيْهَا حُكْمٌ، قالَ اللهُ تَعالى ﴿ مَا فَرَّطْنَا في الكِتَابِ مِنْ شَيءٍ ﴾ وَقَالَ تَعالَى : ﴿ اليومَ أكْمَلْتُ لكم دينَكُمْ وأتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعمتي ، فَهَذِهِ الآيةُ الجَلِيْلَةُ القَدْرِ عَظِيْمَةُ الموقِعْ كَبِيْرَةُ الفَائِدَةْ حَسَنَةُ المِغْزَى اخْتَارَهَا الرَّبُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لِيَخْتِمَ بِهَا كِتَابَهُ الكَرِيْمَ وَوَحْيَهُ المعْجِزَ وأحكامَ شَرِيْعَتِهِ السَّمْحَةِ وَدِينَهُ الحَنِيْفْ .

وَمِنْ مَزَايَا هَذِهِ الآيةِ الكَرِيْمَةِ التي انْفَرَدَتْ بِهَا عَمَّا بَقِيَ مِنْ السِّورُ والآياتِ أنَّ اللهَ أكْمَلَ بِهَا الدِّينَ بِمَعْرِفَةِ الأَحْكَامِ الشَّرعِيَةِ ، مِن الفرائِضِ والسُّنَنِ والحُدودِ والأحكامِ وَالحلالِ والحرامِ وَلَمْ يَنْزِلُ بَعْدَهَا حلالٌ ولاَ حَرَامٌ ولاَ شَيْءٌ مِنَ الفَرائِض وأتمّ بِهَا النعمَةُ على عِبَادِهِ المؤمنِينَ بِهدايَتِهِم لِأحكامِهِ وتَوْفِيْقِهِم لِمَعْرِفَةِ أمرِهِ ونَهْيِهِ وحلالِهِ وحَرَامِهِ وانجازِهِ سُبْحَانَهُ ما وَعَدَهُمْ بِهِ في قولِهِ ﴿وَلِأُتمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُم ﴾ .

فَكَانَ مِنْ تَمامِ نِعْمَتِهِ أنْ دَخلُوا مَكَّةَ آمِنِيْنَ وَحَجُّوا مُطمئِنِيْنَ لَمْ يُخَالِطُهُمْ أحدٌ مِن المشْرِكِيْنَ وأنَّهُ سُبْحَانَهُ اخْتَارَ لِهَذِهِ الأُمَّةَ دِيْنَ الاسلامِ ومِلَّةَ إبْراهِيْمَ عَلَيْهِ السلامُ عن الأدْيَانِ كُلِّهَا بَياناً لِشَرَفِ هَذَا الدِّيْنِ واعْتِنَاءً بِأمَّةِ مُحَمّد صلى اللهُ عليهِ وسلم وَحَسْبُنا مِن ذلِكِ قولُهُ تَعالَى ﴿ إنَّ الدِّينَ عِند اللهِ الاسلامُ ﴾ وَقَولُهُ تَعالى ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الاسلامِ ديناً فلن يُقْبلِ مِنهُ وهْوَ في الآخِرَةِ من الخاسِرين ﴾ .

وَهَـذَا ما دَعَا كعبُ الأحبارُ وذلك قَبْل أنْ يُسْلِمَ وكانَ مَعَهُ نفرٌ مِن اليهودِ أن يقول لِخلِيفةِ المسلمينَ عَمَرَ بنِ الخطابِ رضي الله عنه يا امير المؤمنينَ آيةٌ في كِتابِكم تقْرؤنَهَا لَوْ عَلَيْنَا مَعْشَر اليهودِ نَزَلَتْ لاَتَّخَذْنَاها عِيْدَا وأقمْنا لَهَا مُحْتَفَلاً في كل عامِ نُجَدِّدُ ذِكراها ونَتَدَارَسُ فَضَائِلَهَا

الكثيرةِ وذِكْرَياتِهَا العَطِرَةْ .

فَيَبْتَدِرُ عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ رضي اللهُ عنه قائلًا : أيُّ آيةٍ هِي قَالَ كَعْبٌ : « اليَومَ أكملتُ لكم دِينَكُم وأتْمَمْتُ عليْكُمْ نِعْمَتِي ورضِيْتُ لكُمُ الاسْلَامَ دينا » فَيُجِيْبُهُ أميرُ المؤمنينَ بِكُلِّ تَؤُدَةٍ وَسَكِيْنَةٍ قائِلًا قَدْ عَرَفْنَا ذلِكَ اليومَ والمكانَ الذي نَزَلَت فيهِ على النبيِّ صلى اللهُ عليه وسلمْ وَهْوَ قائمٌ بِعَرَفَةَ يَوْمَ جُمُعَةٍ وفي روايةِ اسحاقَ بنِ قَبِيْضَةَ نَزَلَتْ يَوْمَ جُمُعَةٍ يَوْمَ عَرَفَةَ وكِلاَهُمَا بحَمْدِ اللهِ لنا عَيْدَاً أ هـ .

وَمِنَ الأدلَةِ على وُجُوبِ الرُّجوعِ إلى الكِتَابِ والسَّنةِ عِنْدَ التَّحَاكُمِ ما يلي :

قال تعالى ﴿ وَنَزَّلنا عَلَيْكَ الكِتَابَ تِبْيَانَاً لِكُلِ شَيْءٍ ﴾ .

وقالْ فإنْ تَنَازَعْتُم في شيءٍ فَرُدُّوهُ الى اللهِ والرسولِ انْ كُنْتُمْ تُؤمِنُونَ بِاللهِ الآية .

وقال تعالى فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فَيْمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ الآية .

وقالَ تعالى اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إليكُمْ مِن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُوْنِهِ أوْلِيَاءَ .

وقَالَ صلى اللهُ عليه وسلم : « تَرَكْتُكُمْ على الْمَحَجَّةِ البَيْضَاءِ لَيْلُها كَنَهارِهَا ، لَا يَزِيْغُ عَنْهَا بَعْدِيْ إلَّا هَالِكٌ » وقالَ فِيْمَا صَحَّ عنه « مَا بُعِثَ مِن نَبيٍّ إلّا كانَ حقاًعَلَيْه أنْ يَدُلَّ أمَّتَهُ على خَيْرِ ما يَعْلَمَهُ لَهُمْ وَيَنْهَاهُمْ عنْ

شَرٌّ مَا يَعْلَمَهُ لَهم » وقالَ أبو ذَرْ : لَقَدْ تُوُفِّي رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ وَمَا طَائِرٌ يُقَلِّبُ جَنَاحَيْهِ في السَّماءِ الا ذَكَرَ لَنَا مِنْهُ عِلْمَا .

ولا شَكَّ أنَّ مَنْ أَعْرَضَ عَنْ كِتَابِ اللهِ وَسَنَّةَ رَسُوْلِهِ وَاعْتَاضَ عَنْهُمَا بالقَوانِيْنِ الوضْعِيَّةِ أنَّهُ كافرٌ كُفْرٌ نَاقلٌ عَنِ المِلَّةِ الإِسْلاَمِيَّةِ وَكَذَا مَنِ اسْتَهْزَأَ بالقُرْآنِ أو طَلَبَ تَنَاقُضَهُ أو دَعْوَى أنَّهُ مُخْتَلِفٌ أوْ مَخْتَلِقٌ أَوْ أثْبَتَ شَيْئاً نَفَاهُ القُرْآنُ أوْ نَفَا ما أثْبَتَهُ القُرْآنُ فَقَدْ كَفَرَ قَالَ تَعَالى ﴿ قُلْ لَئِنْ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ والجِنُّ على أنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هذا القرآنِ لا يأتُون بِمِثْلِهِ ﴾ . وَقَالَ ﴿ وَلَوْ كانَ مِنْ عِنْدِ غير اللهِ لَوَجَدُوا فيهِ إخْتِلاَفاً كَثِيْراً ﴾ . وَلاَ خِلاَفَ بَيْنَ المُسْلِمِيْنَ في أنَّ مَنْ جَحَدَ مِنَ القُرْآنِ سُوْرَةً أَوْ آيَةً أو كَلِمَةً أَوْ حَرْفاً مُتَّفَقاً عَلَيْهِ أَنَّهُ كَافِرٌ وَقَالَ عَلِيٌّ مَنْ كَفَرَ بِحَرْفٍ مِنْهُ فَقَدْ كَفَرَ بِهِ كُلِّهِ .

وَكَذَا مَنْ زَعَمَ أنَّهُ يَسَعُهُ الخُروجُ عَنْ شَرِيْعَةِ مُحَمَّدٍ صلى اللهُ عليهِ وسلمْ ، كَمَا وسِعَ الخَضِرُ الخروجُ عن شَرِيْعَةِ مُوسى . أوْ زَعَمَ أنَّ هَدْيَ غيرِ مُحَمَّدٍ أفْضَلُ مِنْ هَدْيِهِ صلى اللهُ عليهِ وسلم أوْ أَحْسَنْ ؛ أوْ زَعَمَ أنَّهُ لا يَسَعُ النَّاسَ في مِثْلِ هذِهِ العُصُورِ إلاّ الخِروجُ عن الشريعةِ ، وأنَّها كانَتْ كافيةً في الزَّمَانِ الأوَّلِ فَقَطْ وأمَّا في هَذِهِ الأزْمِنَةِ فَالشَّرِيْعَةُ لا تُسَايِرُ الزَّمَنَ ولا بُدَّ مِن تَنْظِيْمِ قوانِينَ بِمَا يُنَاسِبُ الزَّمَنُ ، فَلاَ شَكَّ أنَّ هَذَا الأعْتِقَادَ إذَا صَدَرَ مِنْ انْسَانٍ فإنَّهُ قَدْ اسْتَهَانَ بِكِتَابِ اللهِ وَسُنَّةُ رسولِهِ صلى اللهُ عليه وسَلَّم وتَنَقَّصَهُمَا ، وَلاَ شَكَّ في كُفرِهِ وخُروجِهِ مِن الـدِّينِ الاسلامِي بالْكُلِّيَّةِ .

وكَذلِكَ مَنْ زَعَمَ أنَّهُ مُحْتَاج لِلشَّرِيعَةِ في عِلْمِ الظَّاهِرِ دُوْنَ الْبَاطِنْ ، أَوْ في عِلْمِ البَّاطِنِ فَقَطْ أوْ في عِلْمِ الشَّرِيْعَةِ دُوْنَ عِلْمِ الْحَقِيْقَةِ أوْ أنَّ

هذِهِ الشَّرائِعِ غَيْرَ مَنْسُوخَةٍ بِدِينِ مُحَمَّدٍ ، أَوْ إِسْتَهَانَ بِدِينِ الأَسْلَامْ ، أَوْ تَنَقَّصَهُ أَوْ هَزَلَ بِهِ أَوْ بِشَيْءٍ مِن شَرَائِعِهِ أَوْ بِمَنْ جَاءَ بِهِ وَكَذَلِكَ الْحَقَ بَعْضُ العُلَمَاءِ الأَسْتِهْانَةِ بِحَمَلَتِهِ لِأَجْلِ حَمْلِهِ فَهَذِهِ الأمورُ كُلُّهَا كُفْرْ . قَالَ تَعالَى : ﴿ قُلْ أَبا للَّهِ وآياتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُون ، لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ ايْمَانِكُمْ ﴾ .

اللَّهُمَّ قَوِّي إِيمَانَنَا بِكَ وَنَوِّر قُلُوبَنَا بِنُورِ الأيمانِ واجْعَلْنَا هُدَاةً مُهْتَدِيْنْ اللَّهمَّ يا مُقَلِّبَ القُلُوبِ ثَبِّتْ قُلُوبَنَا على دِينِكَ وَالْهِمْنَا ذِكْرَكَ وشُكْرَكَ وأَمِّنَّا مِنْ سَطْوَتِكَ وَمَكْرِكَ واغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنا وجميع المسلمينَ بِرَحْمَتِكَ يا أَرْحَمَ الرَاحِمين .

وصلى اللهُ عَلَى محمدٍ وعلى آلِهِ وصحبِهِ أجمعين .

(فَصْلٌ)

وَقَالَ في تَحْذِيرِ أَهْلِ الأيمانِ عَنِ الحُكْمِ بِغيرِ مَا أَنْزَلَ الرحْمَنُ بَعْدَ سِيَاقِهِ لِقَولِ اللهِ تَعالى ﴿ ألمْ تَرَ الى الذينَ يَزْعُمُونَ أنهم آمنوا بما أُنْزِلَ إليكَ وَمَا أَنْزَلَ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ الآيتين : ثُمَّ لَوْ لَمْ يَكُنْ في القرآنِ المَجِيدِ في الزَّجْرِ عَنِ اتّباعِ القَوانينِ البَشَرِيَّةِ غَيْرُ هَذِهِ الآيةِ الكَرِيْمَةِ لَكَفَتْ العَاقِلَ اللَّبِيْبَ الذي أُوتِيَ رُشْدَهُ وأَهَمَّهُ صَلاحُ قَلْبِهِ عَنْ تَطَلُّبِ غَيْرِهَا فَكَيْفَ والْقُرْآنِ كُلَّهُ يَدْعُوْ إلى تَحْكِيْمِ مَا أَنْزَلَ اللهُ وَعَدَمِ تَحْكِيْمِ مَا عَدَاهُ إِمَّا تَصْرِيْحاً وإِمَّا تَلْوِيْحاً وَلَهُ جَاهَدَ وَيُجَاهِدُ مَنْ يُجَاهِدُ مِنْ عِبَادِ اللهِ المُتَّقِيْنَ مِنْ لَدُنْ بُعِثَ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ صلى اللهُ عليه وآلِهِ وسَلَّمَ إلى يومِ تَقُومُ السَّاعَةْ .

وَقَدْ صَحَّ عَنْهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قالْ لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ على الحقِّ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ وَلَا خِلَافُ مَن خَالَفَهُمْ حتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ وأَنَّهُ قالَ لَا تَجْتَمِعُ أُمَّتِي عَلَى ضَلَالَةٍ ، فَعَلِمْنَا بِذَلِكَ أَنَّ مِنَ المُمْتَنِعُ بِالسَّمْعِ أَنْ يَتَمَالأَ العَالَمُ كُلُّهُمْ شَرْقاً مِن أُمَّةِ سَيِّدنا مُحَمَّدٍ صلى اللهُ عليهِ وسلَّم عَلى اتِّبَاعِ القَوانينَ البَشَرِيَّةِ وَعَدَمِ الْمُبَالَاةِ بِالْحُكْمِ الشَّرْعِيِّ بَلْ لا بُدَّ أَنْ يَكُونَ فِيهِمْ وَلَو واحدٌ يُنْكِرُ عَلَى هَؤلاءِ الْكُلِّ إِمَّا بِلِسَانِهِ انْ أَمْكَنَهُ ذَلِكَ وَلَمْ يَفْتِكُوا بِهِ وإِمَّا بِقَلْبِهِ وَظَنَّ الفَتْكَ بِهِ كَمَا قَد كَانَ أيامَ الأَسْتِبْدَادْ .

والْغَرَضُ بَيَانُ أَنَّ طَائِفَةً عَلَى الْحَقِّ لَا تَزَالُ تُقَاتِلُ وَتُجَاهِدُ عَلَى تَحْكِيمِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ باللِّسَانِ والْبَيانِ والبَدَنِ والسِّنَانِ والمالِ وَكلِّ مُمْكِنٍ لِنَوْعِ الانسانِ وأَنَّ بِهِ يَتِمُّ نِظامُ العَدْلِ والمُلْكِ والدِيْنِ والدُّنيا وبِهِ يَستَقِيمُ أَمْرُ المَعاشِ والمعَادِ وتَكْمُل لَهُمُ الرَّاحَةُ والأَمْنُ والحُرِّيَةُ التَّامةُ والسِّيَاسَةُ العَامةُ لِجَمِيعِ المِلَلِ والرَّعَايَا المُخْتَلِفَةِ الأَصْنَافِ والالْسِنَةِ والأمزِجَةِ .

وَمَنْ شَكَّ في هَذا فَلْيَنْظُرِ الفَرْقَ بَيْنَ حَالِ الإِسْلامِ في هذه القُرونِ المُتَأَخِّرَةِ الَّتي عُطِّلَتْ فِيْهَا حُدُودُ الشَّرِيْعَةِ وأَحْكامُهَا وحالِهِ في القُرُوْنِ المُتَقَدِّمَةَ التَّي مَا كَانَتْ عَلَى شيءٍ أَحْفَظُ مِنْهَا عَلَى أَحْكامِ الشَّرِيعَةِ وأَرْعَى لها يَجِدِ الْفَرقَ كَمَا بَيْنَ الثَّرى والثُّرَيَّا وَكَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ والأرضِ وَكَما قالَ الشَّاعرُ :

نَـزَلُـوا بِمَكَّـةَ فـي قَبَـائِـلِ هَـاشِـمٍ
وَنَـزَلْـتُ بـالْـبَـيْـدَاءِ أَبْـعَـدَ مَـنْـزِلِ

أَلَا تَرَى أَنَّ الصَّحَابَةَ رَضْيَ اللَّهُ عنهم بَعدَ وفَاةِ نَبِيِّهِمْ صَلَّى اللهُ

عليهِ وسَلم فَتَحوا مَا فَتَحوا مِنْ أقَالِيم البُلْدَانِ ونَشَرُوا الاسْلامَ والايمان والقُرآنِ في مُدَّةِ نَحْوِ مِائةِ سَنَةٍ مَعَ قِلَّةِ عَدَدِ المُسْلِمين وَعُدَدِهِمْ وَضِيْقِ ذَاتِ يَدِهِمْ وَنَحْنُ مَعَ كَثْرَةِ عُدَدِنَا ووَفْرَةِ عَدَدِنَا وَهَائِلِ ثرْوَتِنَا وَطائِلِ قَوَّتِنَا لا نَزْدَادُ إلاَّ ضُعْفَاً وَتَقَهْقُراً إلى الوَرى وَذُلاً وَحَقَارَةً في عيُونِ الأَعداءِ ذلِكَ لِأن مَنْ لا يَنْصُرُ دْينَ اللهِ لا يَنْصُرُهُ اللهْ قالَ اللهُ تعالى ﴿ يا أَيُّها الذينَ آمَنوا إنْ تَنْصُروا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أقْدَامكم ﴾ فَرَتَّبَ نَصْرَهم على نَصْرِه باقِامَةِ طَاعَتِهِ وَطاعَةِ رَسُوْلِهْ .

وَقَالَ شَيْخُ الاسْلامَ رَحِمَه اللهُ على قَولِه تعالى ﴿فَلا وَربِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيما شَجَر بَيْنَهُم ثُمَّ لا يَجِدُوا في أنْفُسِهم حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ ويُسَلِّمُوا تَسْلِيماً ﴾ .

فَمَنْ لَمْ يَلْتَزِمُ تَحْكِيمِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ فَيْمَا شَجَرَ بَيْنَهم فَقَدْ أَقْسَمَ سُبْحانَه بِنَفْسِهِ أنَّ لا يُؤْمِنُوا . وأمَّا مَنْ كَانَ مُلْتَزِماً لِحُكْمِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ظاهراً وباطِناً لِكِنْ عَصَى واتَّبع هَوَاهُ فَهذَا بِمَنْزِلةِ أمْثالِهِ من العُصَاةْ فَمَنْ لَمْ يَلْتَزِمُ حُكْمَ اللهِ ورَسُولِه فَهُوَ كَافرُ وهَذَا واجُبٌ على الأُمةِ في كلِّ مَا تَنازَعَتْ فيهِ مِن الأمورِ الاعْتِقَادِيةِ والعَمَلِيّةِ .

فالأمُورُ المُشْتَرَكَةُ بَيْنَ الأمُةِ لَا يُحْكَمُ فِيْها إلاَّ بالكِتَابِ والسُّنة لَيْسَ لأحَدٍ أنْ يُلْزِمَ النَّاسَ بِقَولِ عالِم ولَا أميرٍ ولا شَيْخٍ ولا مَلِكٍ وَحُكّامُ المسليمنَ في الأمُورِ المُعَيَّنِةِ لا يَحْكُمونَ في الأمورِ الكُلِّيةِ واذَا حَكمَوا في المُعينَاتِ فعليهِمْ إنْ يَحْكمُوا بِمَا في كِتابِ اللهِ فانْ لَمْ يَكُنْ فَبِمَا في سُنَّةَ رسولِ اللهِ فانْ لَمْ يَجدُوا اجْتَهَدَ الحاكمُ برأيةِ انتهى .

لِأَنَّهُ صلى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ لَمَّا بَعَثَ مُعَاذاً إلى اليمنِ قالَ بِمَ تَحْكُمْ قالَ بكتابِ اللهِ قالَ فإنْ لَمْ تَجِدْ قَالَ بسنةِ رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلمْ قَالَ فانْ لَمْ تَجِدْ قَالَ أَجْتَهِدُ رَأْيي قالَ الحمدُ لِلَّهِ الذي وَفَّق رَسُولَ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليهِ وسلم لِمَا يرْضِي رسولَ الله صلى الله عليه وسلم .

وفي كِتَابِ عُمْرَ بنُ عبد العزيزِ إلى عُروَة كَتَبْتَ إليَّ تَسْأَلَنِي عن القضاءِ بين الناسِ وإنَّ رأسَ القْضَاءِ اتِّباعُ ما في كِتاب اللهِ ثم القْضَاءُ بِسُنَّةِ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم ثمَّ بِحُكمِ أَئِمَّة الهُدَى ثم اسْتِشَارَةِ ذَوِي العلمِ والرَّأي وَذُكِرَ عَنْ سُفْيانَ ابنُ عُيَيْنَة قالْ كانَ ابنُ شُبْرُمَةَ يقولَ :

ما في القْضَاءِ شَفَاعَةٌ لِمُخاصِمٍ
عِنْد اللَّبيبِ ولا الفَقْيهِ العالِمِ
هَوِنْ عَلَّي إذا قَضَيْتُ بِسُنَّةٍ
أَوْ بالكِتَابِ بِرَغْمِ أنْفِ الرَّاغِمِ
وَقَضَيْتُ فِيْمَا لَمْ أَجِدْ أثراً بِهِ
بِنَظائِرٍ مَعْرُوْفَةٍ وَمَعالِمِ

وَعَنْ بنُ وَهْبٍ قَالْ : قَالَ مالِكُ الحُكْمُ حُكْمَانْ حُكْمُ جَاءَ بِهِ كِتَابِ اللهِ وحُكْمُ أحْكَمَتْهُ السَّنُة قالَ وَمُجْتِهدٌ رَأْيَهُ فَلَعَلَّهُ يُوفقْ .

وقالَ ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللهْ : على قَولِهِ تَعالى فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ الآية .

فأقْسَمَ سُبْحَانَه بِأَجلِّ مُقْسَم بِهِ وَهْوُ نَفْسُهُ عَزَّ وَجَلْ عَلَى أَنَّه لاَ يَثْبُتُ

لَهمُ إيْمَانَ وَلَا يَكونُونَ مِنْ أهْلِهِ حَتَّى يُحَكِّمِوا الرَّسُولَ صلى اللهُ عليهِ وسلَّم في جميعِ مَوارِدِ النزّاعِ في جميعِ أبْوابِ الدِّين فإنَّ لَفْظَةَ (مَا) مِنْ صِيغِ العموم تَقْتَضي نَفْيَ الإيمَانِ أوْ يُوجَدَ تَحْكَيمُه في جميعِ مَا شَجَر بَيْنَهُمْ .

وَلَمْ يَقْتَصر على هَذا حَتَّى ضَمَّ إليهِ انْشَراحُ صُدورِهم بِحُكْمِه حَيْثُ لا يَجِدُونَ في أنْفسِهم حَرَجاً وَهْو الضِّيْقُ والحَصْرُ مِنَ حُكْمِهْ بَلْ يْقبلُوا حُكْمَهُ بالانْشِرَاحِ وَيُقَابِلُوهُ بالتَّسْلِيمِ لا أنَّهُمْ يأخُذُونَهُ على إغْمَاضِ وَيَشْرَبُونَ على قَذَىً فَانَّ هذا مُنَافٍ للإيْمَان بَلْ لَا بدُ أنْ يكونَ أَخْذُهُ بِقُبولٍ ورِضَا وانْشِرَاحِ صُدُورٍ .

ومَتَى أرادَ العَبْدُ أن يَعْلَم هَذا فَلْيَنْظُر في حالِهِ وَيُطَالِعَهُ في قَلْبِهِ عِند وُرُودِ حُكْمِهِ عَلى خِلافِ هَواهُ وغَرَضِهِ فَسُبْحَان اللهِ كَمْ مِنَ حَزَازَةٍ في نفُوسِ كثيرٍ مِن الناسِ مِنْ كِثيرٍ منَ النَّصوصِ وَبِودِّهِمْ أن لَو لَمْ تَرِدْوَكَمْ مِنْ حَرارَةٍ في أكْبَادِهِم مِنْها وَكَمْ مِن شَجَىً في حُلُوقِهِم مِنْهَا ومِنْ مُوْرِدَها سَتَبْدُو لَهَمْ تِلَكَ السَّرائرُ بالذي يَسُوءُ ويَخْزِي يَومَ تُبْلى السَّرائِر .

ثُمَّ لَمْ يَقْتَصرُ سُبْحَانَهُ على ذلِكِ حتَّى ضَمَّ إليهِ قولَه تَعالى ﴿ وَيُسَلِّموا تسليما فذكرَ الفِعْلَ مُؤَكَّداً بِمَصْدرِه القائِم مَقَامَ ذِكرُهِ مَرَّتَين وَهُوَ الخُضُوعُ لَهُ والانقيادُ لِمَا حَكَمَ بِهِ طَوْعاً وَرِضَاً وتسليماً لا قَهْراً ومُصَابَرَةً كَمَا يُسَلِمُ المقهُورُ لِمنْ قَهَرَهُ كُرْهاً بَلْ تَسْلِيمَ عَبْدٍ مُطيعٍ لِمَوْلاَهُ وسَيِّدِهِ الذي هُو أحَبُّ شيء إليهِ يَعلَمُ أنّ سَعادَتَهُ وَفلاحَه في تَسْلِيمهِ إليه وَيْعلمُ بأنَّه أَوْلى بِهِ من نَفْسِهِ وأَبَر بِهِ مِنْهَا وأرْحَمُ بِهِ مِنْها وأنْصَحَ لَهُ مِنها وأَعْلَمَ بِمَصالِحِهِ منها وأقدَرَ على تَخْلِيصِها .

وتأمَّلْ لهذَا المعنى المذكُورِ في الآيةِ بوُجوهٍ عَديدَةٍ مِن التَّأْكِيدِ أولها تصديرُها بالقسم يَتضَّمَنِ المُقْسَمَ عليه وهو قوله لا يؤمنون وثانيها : تأكيده بنفْسْ القسم وثالثَها تأكيده بالمُقْسَمِ بهِ وَهَو إقْسامهُ بنَفسِه لا بشَيءٍ مِن مَخْلُوقَاتِه ورَابعاً تأكِيْدُه بانتِفاءِ الحَرَجِ وَهُوَ وُجُودُ التَّسْلِيْم وخامُسُها تَأكِيْدُ الفِعْل بالمْصْدرِ ومَا هَذا إلا لِشِدَّةِ الحاجةِ إلى هذا الأَمْرِ العَظِيْمِ وأَنَّهُ مِمَّا يُعْتَنَى بهِ وَيُقَرَّرُ في نُفُوسِ العِبَادِ .

وقال رَحِمَهُ اللهْ :

لَمَّا أعْرَضَ النَّاسُ عَن تَحْكيمِ الكِتَابِ والسُّنةِ والمُحَاكَمَةِ إلَيْهُمَا واعْتَقَدُوْا عَدَمَ الاكْتِفاءِ بِهمَا وَعَدلَوا إلى الآراءِ والقياسِ والاسْتِحْسَانِ وأقوَالِ أهلِ الآراءِ عَرَضَ لَهمْ مِن ذلِكَ فَسادٌ في فِطَرِهِمْ وظُلْمَة في قُلُوبِهـم وكَدَرٍ في أفْهامِهِمِ وَمحْقٍ في عُقُولِهِم فَعَـمَّتْهمُ هذهِ الأُمُورُ وغَلَبَتْ عَلَيْهِمْ حَتَّى رَبَى فِيها الصَّغيرُ وَهَرِمَ عَلَيْها الكبيرُ فلمْ يَرَوْهـا مُنْكَراً .

فَجَاءَتهمْ دَوْلَةٌ أُخْرَى أقَامَتْ فِيها الْبِدَعَ مَقَامَ السُّنَنِ والْهَوى مَقَامَ الرُّشْدِ والضَّلاَلَ مَقَامَ الهِدَايَةِ والمُنكرَ مَقَامَ المعْرُوفِ والجَهْلَ مَقَامَ العلْمِ والرِّياءَ مقامَ النَّصِيْحَةِ والظُلمَ مَقامَ العَدْلِ فَصَارَتْ الدَّولَةُ والْغَلَبَةُ لِهذِهِ الأُمور وأهْلُها هُمُ المُشارُ إليهم .

فإذَا رَأَيْتَ هَذهِ الأُمُورَ قَدْ أقْبَلَت ورَاياتها قَدْ نُصِبَتْ وجُيُوشَهَا قَدْ رّكِبَت فَبْطنُ الأَرضِ واللهِ خَيْرٌ مِنْ ظَهْرِها وَقُلل الجبالِ خَيْرٌ مِن السُّهولِ ومُخَالَطَة الوَحْشِ أسْلمُ مِنْ مُخَالَطَةِ النَّاس .

اقْشَعْرَّتِ الارضُ وأظْلَمَتِ السَّماءُ وَظَهر الْفَسَادُ في البرِّ والبَحرِ مِنْ ظُلمِ الفَجَرَةِ وَذَهَبَتْ البَرَكَاتُ وَقلّتِ الخَيْراتَ وَهَزِلَتِ الْوحْشُ وتَكَدَّرَتِ الْحَيَاةُ مِنَ فِسْقِ الظَّلَمةِ وبَكَى ضَوءُ النَّهارِ وظُلْمَةِ الليِّل مِنْ الأعمَالِ الخَبِيْثَةِ والأَفْعَالِ الفِظيْعةِ وشَكَا الكرامُ الكَتابِيُونَ وَالمُعَقَّباتُ إلى رَبِّهِمْ مِنْ كَثْرَةِ الفواحِشِ وَغلبَةِ المُنْكَراتِ والقَبَائِحْ .

وَهَذَا واللهِ مُنْذِرُ بِسَيْلٍ عَذَابٍ قَدْ انْعَقَدَ غَمَامُهُ وَمُؤذِنُ بَلَيْلٍ قَدْ ادْلَهَمَّ ظَلامُهُ فَاعْزِلوا عَنْ طَريقِ هذا السَّيلُ بِتَوْبَةٍ نَصُوحٍ مَا دَامَتِ التَّوبَةُ مُمْكِنَةٌ وبَابُها مَفتُوحاً وكَأَنَّكُمْ بِالْبَابِ وَقَدْ أُغلِقْ وَبالرَّهْنِ وَقَد غَلِقَ وبَالِجَنَاحِ وَقَد عَلِقَ وَسَيَعْلَمُ الذينَ ظَلمُوا أيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونْ .

وَقالْ :

واللهِ مَا خَوْفِي الذُّنُوبَ فانَّها
لَعَلَى سَبِيلِ العَفْوِ والغُفْرَانِ
لَكِنَّمَا أخْشَى انْسِلاخَ القلبِ مِنْ
تحكيم هذا الوحْي والقُرآن
وَرِضاً بِآرَاءِ الرِّجَالِ وخَرْصِهَا
لا كانَ ذاكَ بِمِنَّةِ الْمَنَّانِ
فَبأَيِّ وَجْهٍ ألْتَقِيْ رَبّي إذا
أعْرَضْتُ عَنْ ذا الوَحْي طُولَ زَمَانِ
وَعَزَلْتُهُ عَمَّا أريدُ لأجْلِهِ
عَزْلاً حَقِيْقِياً بِلا كِتْمَانِ

وقَالَ الشَّيخُ مُحَمَّدٌ بنُ ابْرِاهيمَ في رَدّه على مُحَكِّمِي القوانينْ : إنَّ مِنَ الكُفْرِ الأكبَرَ المُسْتَبِينِ تَنْزيلُ القانُونِ اللِّعيْنِ مَنْزِلةَ مَا نزلَ بهِ الروحُ الأمينُ على قلبِ محمدِ صلى الله عليهِ وسلم لِيَكُونَ مِن المنذِرين بلسانٍ عربيٍ مبينٍ في الحُكْمِ بهِ بَيْن العالمينِ والرَّدِ إلَـيْهِ عند تَنَازُعِ المتنازِعِين مَنَاقَضَةً ومُعَانَدَةً لِقَولِ الله عَزَّ وجل « فإنَ تَنازَعُتم في شيء فرُدُوْهُ إلى اللهِ والرسولِ إنْ كُنْتُم تؤمنونَ باللهِ واليومِ الآخر ذلكِ خيرٌ وأحْسن تأويْلاً »

وَقَدْ نَفَى اللهُ سُبْحَانَه وتعالى الايمانَ عَنْ مَنْ لَمْ يُحَكِّمُ النَّبيَ صلى اللهُ عليهِ وسلم فِيمَا شَجَر بَيْنَهم نَفْياً مؤُكَّداً بِتَكَرُّرِ أَدَاةَ النَّفْي وبالقَسَم قالَ تعالى ﴿فلا وَرَبِكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّموكَ فِيما شَجرَ بَيْنَهُمْ ثُم لا يَجدُوا في أنفُسِهم حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ ويُسَلمُّوا تَسْلِيماً ﴾ .

قَالَ وَتَأَمَّل . ما في الآية الأولى وَهَي قَولُه تعالى ﴿فإنْ تَنَازَعتُم في شيءٍ فَردُّوهُ إلى اللهِ والرسولِ ﴾ الآية كَيْفَ ذَكَرَ النَّكِرَةَ وَهِيَ قَوْلُه شَيءٍ في سِياقِ الشَّرطِ وَهْوَ قولُه جَلَّ شَأْنُهُ﴿فانْ تَنازَعْتُم﴾ المفيدُ العمُومِ فِيْمَا يُتَصَوَّرُ التَّنازُعِ فِيه جِنْساً وَقَدْراً .

ثُمَّ تَأَمَّلْ كَيْفَ جَعَلَ ذَلِكَ شَرْطاً في حُصُولِ الايمانِ باللهِ واليومِ الآخرِ بقولهِ ﴿إنْ كَنْتُمْ تؤمنونَ باللهِ واليوم الآخر﴾ ثُمَّ قال جَلَّ شأنه ذلِكَ خيرٌ فَشَيءُ يُطْلِقُ اللهُ عليهِ أنهُ خيرٌ لا يَتَطَرَّقُ إليهِ شرٌ أبداً بَلْ هُو خيرٌ مَحْضٌ عَاجِلاً وَآجِلاً .

ثُمَّ قَالْ ﴿وأَحْسَنُ تأويلاً﴾ أيْ عَاقِبةً في الدُّنيا والآخرةِ فَيُفِيدُ أنَّ الرَّدَ إلى غيرِ الرَّسولِ صلى اللهُ عليه وسلمْ عِنْدَ التَّنازُع شَرٌ مَحْضٌ وأسْوأ

عَاقِبةً في الدّنيا والآخرةِ عَكْسَ مَا يَقُولُهُ المنافِقُونَ « إنْ أرَدْنَا إلاَّ إحْسَاناً وَتَوْفِيقاً » وقَوْلِهم ﴿إنَّما نَحْنُ مُصْلِحون﴾ .

وَلِهَذا رَدَّ اللهُ عليهم قَائِلاً ﴿ألا أنَّهم هُمُ المُفْسِدُون ولَكِنْ لا يَشْعُرون﴾ وعَكْسُ مَا يَقولُهُ القَانُونِيُّونَ مِنْ حُكْمِهِم عَلَى القَانونِ بِحَاجَة العَالَم بَلْ ضَرُورَتِهِم إلى التّحاكُمِ إليهِ وَهَذَا سُوءُ ظَـن صِرْفٌ بمَا جَاء بهِ الرسول صلى الله عليه وسلم ومَحْضُ استنقاصٍ لبيان الله ورَسوله والحكم عليه بعدم الكِفَايَةِ لِلنّاسِ عِنْد التَّنازُعِ وسَوْءِ العَاقِبَةِ في الدَّنيا والآخرةِ إنَ هَذا لازِمٌ لهُمْ .

قالَ وقَدْ نَفَى اللهُ الايمانَ عَن مَنْ أرادَ التحاكُم إلى غيرِ مَا جَاء بهِ الرسولُ صلى اللهُ عليه وسلمَ مِن المنافقينَ كَمَا قالَ تَعالى ﴿أَلَمْ تَرى إلى الذَّينَ يَزْعُمُونَ أنَّهم آمنوا بِمَا أُنْزِلَ إليكَ وَمَا أُنزل من قَبْلِك يُريدُونَ أن يَتحاكَمُوا إلى الطَّاغوتِ وَقَدْ أمِروا أن يَكفُروا بهِ ويريدُ الشَّيطانُ أن يَظِلَّلهُمْ ظَلالاً بَعيداً ﴾ .

فانَّ قَوله « يَزْعُمُونَ تَكْذِيبٌ لَهُمْ فِيْمَا أدَّعوهُ مِنَ الايْمَانِ فانَّه لاَ يَجْتَمعُ التَّحاكُمِ إلى غَيْرِ ما جَاء بِهِ النبيُ صلى اللهُ عليهِ وسَلَّم مَعَ الايمانِ في قَلْبِ عَبْدٍ أصْلاً بَلْ أحَدهُمَا يُنَافِي الآخَرَ والطَّاغُوتُ مُشْتَقٌ مِن الطُّغْيَانِ وَهْوَ مُجَاوَزَةُ الحَدِّ فَكُلُّ مَنْ حَكَمَ بِغَيْرِ مَا جَاءَ بِهِ الرسولُ صلى اللهُ عليهِ وسلّمَ أوْ حَاكَمَ إلى غَيْرِ مَا جاءَ بِهِ النبيُ صلى اللهُ عليهِ وسلّمَ فَقَدْ حَكَمَ بالطَّاغُوتِ وحَاكَمَ إليهِ وذلِكَ أنَّهُ مِنْ حَقِّ كُلِّ أحَدٍ أنْ يَكُونَ حَاكِماً بِمَا جَاءَ بِهِ النَّبيُ صلى اللهُ عليه وسلم فَمَنْ حَكَمَ بِخَلافِهِ أوْ حَاكَمَ

إلى خِلاَفِه فَقَدْ طَغَى وَجَاوَزَ حَدَّهُ حُكْمَاً أوْ تَحْكِيْماً فَصَارَ بِذَلِكَ طَاغوتاً لِتَجَاوُزِهِ حَدّهْ .

قَالْ وَتَأَمَّلْ قَوْلَهُ عَزَّ وجَلَّ ﴿وقَدْ أُمِرُوا أنْ يَكْفُروا بِهِ﴾ تَعْرِفُ مِنْهُ مُعَانِدَةَ الْقَانُونِيّينَ وإرَادَتَهُم خِلاَفَ مُرادِ اللهِ مِنْهُم حَوْلَ هَذا الصَّدَدِ فالمُرَادُ مِنْهُم شَرْعاً والذِي تُعبِّدُوا بِهِ هُوَ الْكُفْرُ بالطَّاغِوتِ لا تَحْكِيْمُهْ « فَبَدَّلَ الذينَ ظَلموا قَوْلاً غيرَ الذي قِيلَ لَهُمْ » .

ثُمَّ تَأمَّلْ قَوْلهُ ﴿وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أنْ يُظِلَّهُمْ ظَلاَلاً بَعْيداً﴾ كَيْفَ دَلَّ على أنَّ ذَلِكَ ضَلالٌ وهَؤلاءِ الْقَانُونِيُون يَرَوْنَه مِن الهُدى كَمَا دَلّتِ الآيةُ على أنَّهُ مِن إرَادَةِ الشَّيطَانِ عَكْسُ ما يَتَصَوَّرَهُ الْقَانُونِيُّونَ فَتَكُونُ عَلى زَعمِهِم مُرَادَاتُ الشَّيْطانِ هِي صَلاحُ الانْسَان وَمُرَادُ الرَّحْمَنِ وَمَا بَعَثَ بِهِ سَيّدَ وَلَدِ عَدْنَانَ مَعْزولاً مِنْ هَذا الوصفِ وَمُنْحَّىً عنَ هذا الشَّأن .

وَقَدْ قَال تَعالى مُنْكِراً على هذا الضَّرْبِ مِنَ النَّاسِ وَمُقَرِّرَاً اِبْتِغَاءَهم أَحْكَامَ الجَاهِلِيةِ ومُوَضِّحاً أنَّهُ لاَ حُكْمَ أحْسَنُ مِنْ حُكمِهِ « أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيةِ يَبْغونَ وَمَنْ أحْسَنُ مِنَ اللّهِ حُكْماً لقومٍ يُوقِنُونْ » .

فَتَأَمَّلْ هذِهِ الآيةُ الكريمةْ وَكَيْفَ دَلَّتْ أن قِسْمَةَ الْحُكْمِ ثُنَائِيَّةْ وأنَّهُ لَيْسَ بَعْدَ حَكْمِ اللهِ تَعالى الاَّ حُكْمَ الجاهِلِيةَ الْمُوضِّحُ أنَّ القانُونِيّينَ في زُمْرَةِ أهلِ الجَاهليةَ شاؤُا أمْ أبَوا بَلْ هُمْ أسْوَأُ حالاً مِنْهُم وأكْذَبُ مِنْهُم مَقالاً ذَلِكَ أنَّ أهْلَ الجاهِلِيةِ لاَ تَنَافُسَ لَدَيْهم حولَ هَذَا الصَّدَدْ .

وأمَّا القَانُونِيُّونَ فَمُتَناقِضُونَ حَيْثُ يَزْعُمُونَ الايْمَانَ بِمَا جَاءَ بِهِ

الرسولُ صلى اللهُ عليهِ وسلمْ وَيُنَاقِضُونَ وَيُرِيْدُونَ أنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلا وَقَدْ قَالَ اللهُ في أمْثَالِ هَؤُلَاءِ (أُولَئِكَ هُمُ الكافرونَ حَقًّا واعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عذاباً مُهينا) .

ثُمَّ انْظُر كَيْفَ رَدَّتْ هذهِ الآيةُ الكريمةُ على الْقَانُونِيِّين مَا زَعَمُوهُ مِنْ حُسْنِ زُبَالةِ أذْهانِهِمْ وَنُحَاتَةِ أفْكَارِهِمْ بِقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلْ ﴿وَمَنْ أحْسَنُ مِن اللهِ حُكماً لقومٍ يُوقِنُونْ﴾ .

قَالْ الحَافِظُ بنُ كَثيرٍ في تَفْسيرِ هذهِ الآيةْ : يُنْكِرُ تعالى عَلى مَن خَرَجَ مِنْ حُكْمِ اللهِ المحْكَمِ المُشْتَمِلُ عَلى كُلِّ خَيْرٍ النّاهِي عَنْ كُلِّ شَرٍ وَعَدَلَ إلى مَا سِوَاهُ في الآرَاءِ وَالأَهْوَاءِ والْاِصْطِلَاحَاتِ التي وَضَعَها الرِّجَالُ بِلا مُسْتَنَدٍ مِنْ شَرِيْعَةِ اللهِ كَمَا كَانَ أهْلُ الجاهِلية يَحْكُمونَ بِهِ مِنَ الضَّلَالَاتِ والْجَهَالَاتِ مِمَّا يَضَعُونَهُ بِآرَائِهِمْ وأهْوَائِهِمْ وَكَمَا يَحْكُمُ بِهِ التَّتَارُ مِنَ السِّيَاسَاتِ الْملكِيّةِ التي يُقَدِّمُونَها عَلى الْحُكْمِ بِكِتَابِ اللهِ وَسُنَّة رَسُولِهِ صَلّى اللهُ عليه وسلم .

فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَهْو كَافِرٌ يَجِبُ قِتَالَهُ حَتَّى يَرْجِعُ إلى حُكْمِ اللهِ ورَسُولِهِ فَلا يُحَكِّمُ سِوَاهُ في قَلِيلٍ وَلا كثيرٍ قَال تَعالى ﴿أفحُكْمَ الجاهلية يَبْغُونَ﴾ وَعَنْ حَكْمِ اللهِ يَعْدِلون ﴿وَمَنْ أحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْماً لقومٍ يُوقِنُونْ﴾ أيْ وَمَنَ أعْدَلُ مِن اللهِ في حُكْمِهِ لِمَنْ عَقَلَ مِنَ اللهِ شَرْعَهُ وآمَنَ بِهِ وأيْقَنَ وَعَلِمَ أنَّ اللهَ أحْكَمُ الحَاكِمينَ وأرْحَمُ مَن الوَالِدَةِ بوَلَدِهَا فإنَّه تَعالى الْعَالِمُ بِكُلِّ شيءٍ القَادِرُ عَلى كُلِّ شَيءٍ العادِلُ في كلِّ شَيْء .

وَقَالَ تَعالى ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أنْزَلَ اللهُ فأوآلِئكَ هُمُ الكافرون﴾ ﴿وَمَنْ لم يَحْكُمْ بِمَا أنْزَلَ اللَّهُ فأولَئِكَ هُمُ الظَّالِمون . ﴾

وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ الله فأولَئِكَ هُمُ الفاسِقُونْ .

فانْظُرْ كَيْفَ سَجَّلَ تَعالى عَلى الْحاكِمِينَ بِغيْرِ مَا أَنْزَلَ اللهُ بالْكُفْرِ والظُّلْمِ والفِسْقِ وَمِنَ المُمْتَنِع أنْ يُسَمَّى اللهُ سُبْحَانهُ الحاكِمَ بِغَيْرِ مَا أَنْزَلَ اللهُ كافراً ولا يكونُ كافراً بَلْ هُوَ كافرٌ مُطْلَقاً إمّا كُفْرُ عَمَلٍ وإمَّا كُفْرُ اعتِقاد .

وَمَا جَاءَ عَن ابْنِ عَبَّاسٍ في تَفْسِير هذِه الآيةِ يَدُلُّ عَلى أَنَّ الْحَاكِمَ بِغَيْرِ ما أَنْزَلَ اللهُ كافِرٌ إمَّا كُفْرُ اعْتِقَادٍ نَاقِلٍ عِنِ المِلَّةِ وامَّا كُفرُ عَمَلٍ لا يَنْقُلِ عَنِ المِلّة .

قَالَ وهَذِهِ الْمَحَاكِمُ الآن في كَثيرٍ من أمْصَارِ الاسْلَام مُهَيَّأةٌ مَفْتُوحَةُ الأبْوابِ والنَّاسُ إليها أسْرابٍ إثْرَ أسْرَابٍ يَحْكُم حُكَّامُهَا بَيْنَهُم فِيْمَا يُخَالِف حُكْمَ الكتابِ والسُّنةِ مِنْ أحْكَام ذلك القانُونِ وَتُلْزِمُهُمْ به وَتُحَتِّمُهُ عليهم فأيُّ كُفْرٍ فَوقَ هَذا الكُفْرِ وأيُّ مُنَاقَضَةٍ لِلشَّهَادَةِ بأنَّ مُحمداً رسولُ اللهِ بعدَ هذِهِ المُناقَضَةِ نسْألُ اللهَ الْعِصْمَةَ عَنْ جَميعِ الْمَعاصِي وأنْ يُثَبِّتَنا عَلى قَولِه الثَّابِتُ في الحياةِ الدُّنيا وفي الآخرة إ هـ.

وَمِمَّا قِيْلَ في الحثِ على التَّمَسُّكِ بالقرآنِ الكريمِ ما قَالَهُ الصَّنْعَاني :

ولَيْسَ اِغْتِرَابُ الدِّينِ الاَّ كَمَا تَرَى
فَهَلْ بَعْدَ هَذَا الاغْتِرَابُ اِيَابُ
وَلَمْ يَبْقَ لِلرَّاجِي سَلاَمَةَ دَيْنِهِ
سِوَى عُزْلَةٍ فيهَا الْجَليسُ كِتَابُ
كِتَابٌ حَوَى كُلَّ العلومِ وكُلَّمَا
حَوَاهُ مِن العلمِ الشريفِ صَوابُ

فَإِنْ رُمْتَ تَارِيْخاً رَأَيْتَ عَجَائِباً
تَرَى آدَماً إِذْ كَانَ وَهْوَ تُرَابُ
وَلاقَيْتَ هَابِيلاً قَتِيْلَ شَقِيْقِهِ
يُوارِيْهِ لَمَّا أَنْ أَرَاهُ غُرَابُ
وَتَنْظُرُ نَوحاً وَهْوَ في الفُلْكِ قَدْ طَغَى
على الأرضِ مِنْ مَاءِ السَّماءِ عُبَابُ
وانْ شِئْتَ كُلَّ الأَنْبِيَاءِ وَقَوْمَهُمْ
وما قَالَ كُلٌّ مِنْهُمُو وَأَجَابُوا
وَجَنَّاتِ عَدْنٍ حُورَهَا وَنعِيْمَهَا
وَنَاراً بِهَا لِلْمُشْرِكِينَ عَذَابُ
فَتِلْكَ لِأَرْبَابِ التُّقَاءِ وَهَذِهِ
لِكُلِّ شَقِيٍّ قَدْ حَوَاهُ عِقَابُ
وإِنْ تُرِدِ الوَعْظَ الَّذِي إِنْ عَقَلْتَهُ
فَانَّ دُمُوعَ العَينِ عَنْهُ جَوَابُ
تَجِدْهُ وَمَا تَهْوَاهُ مِنْ كُلِّ مَشْرَبٍ
وللرُّوحِ مِنْهُ مَطْعَمٌ وَشَرَابُ
وانْ رُمْتَ إِبْرَازَ الأَدِلَّةِ في الذي
تُرِيْدُ فَمَا تَدْعُو إليهِ تُجَابُ
تَدُلُّ على التَّوحِيدِ فيه قَوَاطِعٌ
بِهَا قُطِّعَتْ لِلْمُلْحِدِينَ رِقَابُ
وَمَا مَطْلَبٌ إلاَ وَفِيهِ دَلِيْلُهُ
ولَيْسَ عليهِ لِلذَّكِي حِجَابُ

وَفِيهِ الدَّواء مِنْ كُلِّ دَاءٍ فَثِقْ بِه
فَوَالله مَا عَنْهُ يَنُوبُ كِتَابُ
يُرِيْكَ صِرَاطاً مُسْتَقِيْماً وغَيْرُه
مَفَاوِزُ جَهْلٍ كُلُّها وَشِعَابُ
يَزِيْدُ عَلى مَرِّ الجَدِيْدَيْنِ جِدَّةً
فَأَلْفَاظُه مَهْمَا تَلَوْتَ عِذَابُ
وَآياتُهُ في كُلِّ حِيْنٍ طَرِيَّةٌ
وتَبْلغُ أقْصَى العُمْرِ وَهْيَ كِعَابُ
وَفِيْهِ هُدىً لِلْعَامِلِينَ وَرَحْمَةٌ
وفيهِ عُلومٌ جَمَّةٌ وَثَوابُ

اللهم اِجْعلنَا لِكِتَابِك مِن التَّالينِ ولكَ بهِ مِن العامِلينَ وبِمَا صَرَّفْتَ فيهِ مِن الآياتِ مُنْتَفعين ، وإلى لذِيذِ خِطَابِه مُسْتَمِعينَ ، ولِأَوَامِرِهِ ونَواهِيهِ خاضِعين وبالأعمالِ مُخْلِصِين ، واغْفِرْ لَنَا وَلِوالِدينا ولِجميع المُسْلِمينَ الأحياءَ مِنهُم والميتينَ بِرَحْمَتِك يا أرحمَ الرَّاحِمينَ ، وصلى اللهُ على محمدٍ وعلى آلِهِ وصَحْبِهِ أجمعين .

(فَصْلٌ)

في فَضَائِلِ ذِكْرِ اللّهْ

يُسْتَحَبُّ الاكْثَارُ من ذكْرِ اللهِ تعالى في كُلِّ وقتٍ ، ولاَ سِيَّمَا في رَمَضانْ . قال اللهُ تعالى ﴿ولَذِكْرُ اللهِ أكْبَر﴾ وقال : ﴿فاذْكُروني أذكُرْكُمْ﴾ وقالْ : ﴿واذكُروا الله كَثيرا لعَلَّكُمْ تَفْلِحُون﴾ ، وقالْ : ﴿والذّاكِرينَ اللهَ كَثيراً والذَّاكِرَات أعَدَّ الله لهُمْ مَغْفِرةً وأجراً عَظِيْما﴾ ، وقالْ : ﴿واذْكُرْ

رَبّكَ في نَفْسِك تَضَرُّعاً وخفْيَةً ﴾. الآية ، وقالْ : ﴿يا أيُّها الذينَ آمنوا اذْكُروا اللهَ﴾ ، وعن أبي هريرة ـ رضي اللهُ عنهُ ـ قالْ : قالَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلم : « كلَمتَانِ خَفِيْفَتَانِ عَلى اللِّسَانِ ، ثَقِيْلَتَانِ في الميزانْ ، حَبِيْبَتَانِ إلَى الرَّحَمَنْ : سُبْحَانَ اللهِ وبِحَمْدِهِ ، سُبْحَانَ اللهُ العظَيم » متفق عليه .

وعنهُ ـ رَضْي اللهُ عنْهُ ـ قالْ : قالَ رسُول اللهِ صلى اللَّهُ عليهِ وسلم : « لأَنْ أقُولُ سُبْحَانَ اللهِ والحمدُ للهِ ، وَلا الَهَ إلاَّ اللهْ ، واللهُ أكْبَرْ ، أَحبَّ إلىّ مِمَّا طَلَعْت عليهِ الشَّمْسُ » رواهُ مُسْلم .

وَعَنْهُ : أنَّ رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالْ : « مَنْ قَالَ لاَ الهَ الاَّ اللهُ وحْدَهُ لا شَريكَ لهْ ، لَهُ الملكُ ولَهُ الحمْدُ ، وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيءٍ قديْرٌ في كُلِّ يوم وليْلَةٍ مائةَ مَرَّةٍ كانَتْ لَهُ عَدْلُ عَشْرُ رِقابٍ وَكُتِبَ لهَ مائةُ حَسنةٍ ومُحَيَتْ عَنْهُ مائةُ سَيّئةٍ ، وكانَتْ لَهُ حِرْزاً مِن الشَّيطانِ يَومَهُ ذلكَ حتَّى يُمْسِى ، وَلَمْ يَأْتِ أحَدُ بأفضَلَ مِمّا جَاءَ بهِ إلا رَجُلٍ عَمِلَ أكثرَ مِنْهُ » ، وقالْ « مَنْ قَالَ : سُبْحَانَ اللهِ وبِحَمْدِهِ في يومٍ مائةُ مَرَّةٍ حُطّتْ عنه خَطَايَاهُ ، وإنْ كانَتْ مِثْلَ زَبدِ البَحْر » متفق عليه .

وعَنْ أبي أيوبِ الأنْصَاري ـ رضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ عَنِ النبيَّ صلى الله عليه وسلم أنهُ قالْ : « مَنْ قالَ : « لا إلَه الاَّ اللهُ وَحْدَهُ لا شرِيكَ لَهْ، لَهُ المُلْكُ ، ولَهُ الحَمْد، وَهُوَ على كلِّ شَيءٍ قَدِيْر ، عَشْرَ مَرَّاتٍ ، كانَ كَمَنْ أعْتَقَ أرْبَعة أنْفُسٍ مِنْ ولدِ اسْمَاعِيل » . مُتَّفَقٌ عَلَيْه .

وَعَنْ أبي ذُرٍ ـ رَضْي اللهُ عَنْهُ ـ قالَ قالَ رسولُ اللهَ صلى الله عليه

وسَلمْ : « أَلاَ أُخبِرُكَ بأحَبِّ الكلامِ إلى اللهِ » قُلْتُ : بَلى يَا رَسُولَ اللهِ أخْبِرْنِي بأحَبِّ الْكَلامِ إلى اللهِ ، فَقَالَ : « إنَّ أحَبَّ الكلامِ إلى اللهِ سُبْحَانَ اللهِ وبِحَمْدِهِ » رواه مسلم .

وعَنْ عُمَرُ بنُ شُعِيْبٍ عَنْ أبيهِ عنْ جَدِّهِ قالْ : قَالَ رسولُ اللهِ صلى الله عليهِ وسلم مَنْ سَبَّحَ اللَّهَ مائةَ بالْغَدَاةِ ومائةً بالعَشِيِّ كَانَ كَمَنْ حَجَّ مِائةَ حَجَّةٍ وَمَنْ حَمِدَ اللهَ مِائةً بالغَدَاةِ ومَائةً بالْعَشِيِّ كَانَ كَمَنْ حَملَ عَلى مائةِ فَرَسٍ في سَبيلِ اللهِ أوْ قال غَزَا مائةَ غَزوةٍ ومَنْ هَلَّلَ اللهَ مِائةٍ بالْغَدَاةِ ومِائةً بالْعَشِيِّ كَانَ كَمَن أعْتَقَ مِائةً رَقَبَةٍ مِن وَلَدِ اِسماعِيلَ وَمَنْ كَبَّرَ اللَّهَ مِائةً بالْغَدَاةِ وَمِائةً بالْعَشِيِّ لَمْ يَأتِ في ذِلِكَ اليومِ أحَدٌ بأكْثَرَ مِمَّا أتَى بِه إلاَّ مَن قَالَ مِثْلَ ما قَالَ أو زَادَ عَلى مَا قَالَ رواه الترمذي وقال هذا حديث حسن غريب .

وفي الصحيحين عن علي أَنَّ فاطِمةَ أَتَتِ النبيَّ صلى اللهُ عليه وسلم تشكُو إليه مَا تَلْقَى في يَدِهَا مِن الرَّحَى ، وبَلَغَهَا أنَّهُ جَاءَ رَقِيْقٌ فَلَمْ تُصَادِفْهُ فَذَكَرَتْ ذلكَ لِعَائِشَةَ فَذَهَبْنَا نَقُومُ فقال عَلى مَكَانِكُمَا فَجَاءَ وَقَعَدَ بَيْنِي وبَيْنَهَا حَتَّى وَجَدْتُ بَرْدَ قَدَمِهِ على بَطْنِي فَقال أَلاَ أَدُلُّكُمَا عَلى خَيْرٍ مِمَّا سَأَلْتُمَا ، إذا أَخَذْتُمَا مَضْجِعَكُمَا فَسَبِّحَا ثلاثاً وثلاثينَ واحْمَدَا ثَلاثاً وثلاثِينَ وكَبِرَا أرْبَعاً وثلاثينَ فَهُو خَيْرٌ لكُمَا مِن خَادِمٍ .

وجَاءَ عَنِ مَعْقِلِ بنِ يَسَارٍ عن النبي صلى الله عليه وسلم قال مَن قَالَ حِيْنَ يُصبِحُ ثلاثَ مَرَّاتٍ أعوذُ باللهِ السميعِ العليمِ مِن الشيطانِ الرجيم وقَرَأ ثلاثَ آياتٍ مِن آخِرِ سُوْرَةِ الحَشْرِ وَكَّلَ اللهُ به سَبْعِيْنَ ألفَ مَلَكٍ يُصَلُّونَ عَلَيْه حتَّى يُمْسِيْ وانْ ماتَ في ذَلِكَ اليومِ ماتَ شَهِيْداً ومَن

قَالَها حين يُمْسِي كانَ بتلِكَ المَنْزِلةِ حَسَّنَهُ الترمذيُ وغَرَّبَه .

اللهم اكْتُبْ في قُلُوبِنَا الايمانَ وأَيِّدْنَا بنُوْرٍ مِنْكَ يا نُوْرَ السمواتِ والأَرضِ اللهم وافْتَحْ لِدُعَائِنَا بَابَ القَبُولِ والاجَابَةِ وأغفر لنا وارحمنا برحمتك الواسعة انك انت الغفور الرحيم وصلى الله على محمد وآله وصحبه أجمعين .

(فصل)

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال : كان رسول الله . صلى الله عليه وسلم يَسِيْرُ في طَرِيْقِ مَكَّةَ ، فَمَرَّ على جَبَلٍ يُقَالُ له (جُمْدَانُ) فقال : « سِيْرُوْا هَذَا جُمْدَانُ ، سَبَقَ المفُرَّدُوْنَ » قالوا : وما المُفَرِّدُوْنَ يا رَسولَ اللهِ ؟ قال : « الذَّاكِرُوْنَ اللهَ كَثِيْراً والذاكِرَات » رواه مسلم .

وعن أبي مُوْسَى قال : قال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : « مَثَلُ الذي يَذْكُرُ رَبَّهُ والذي لا يَذْكُرُهُ مَثَلُ الحَيِّ والمَيِّتِ » متفق عليه .

وعن أبي هريرة قال : قال رسولُ الله صلى اللهُ عليه وسلم يقول الله ﴿أنا عِندَ ظَنِّ عَبْدِيْ بِي ، وأنا مَعَهُ اذا ذَكَرَنِي ، فانْ ذَكَرَنِيْ في نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ في نَفْسِيْ وإنْ ذَكَرَنِيْ في مَلأٍ ذَكرتُهُ في مَلأٍ خَيْرٍ منهم » متفق عليه .

وعن أبي موسى الأشعري ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا عَبْدَ اللهِ بنَ قَيْسٍ ، ألا أَدُلُكَ على كَنْزٍ مِنْ كُنُوزِ الجَنَّةِ : لا حَوْلَ ولاَ قُوَّةَ إلا باللهِ » متفق عليه .

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن اللهَ تعالى يَقُولُ : أنا مَعَ عَبْدِي إذا ذكَرَنِي ، وتَحَرَّكَتْ بِي شَفَتَاهُ » رواه البخاري .

وعن عبدِ اللهِ بنِ بُسْرٍ ـ رضي الله عنه ـ أَنَّ رَجُلاً قال يا رسولَ اللهِ إنَّ شَرائعَ الاسلامِ قَدْ كَثُرَتْ عَليَّ فأخْبِرْنِيْ بِشَيءٍ أَتَشَبَّثُ بِهِ ، قَال : « لاَ يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْباً مِن ذِكْرِ اللهِ » . رواه الترمذي وحسنه ، وابن ماجه ، وصححه ابن حبان والحاكم . وَرَوَى عُمَرُ بنُ الخطابِ رضِيَ اللهُ عنه قال قال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : « ذَاكرُ اللهَ في رَمَضَانَ مَغْفُورٌ لَهُ ، وسائلُ اللهَ فِيْهِ لا يَخِيْبُ » رواه الطبراني في (الاوسط) والبيهقي ، والاصبهاني .

وعن أبي سَعِيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « البَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ : لا إلهَ إلاَّ اللهُ ، وسبحانَ اللهِ ، واللهُ أكْبَرُ ، والحَمْدُ لِلهِ ، ولا حَوَل ولاَ قُوَّةَ إلا باللهِ » أخرجه النسائي ، وصححه ابن حبان والحاكم .

وعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ ـ رضي اللهُ عنه ـ قال : قال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليْهِ وسلم « ألا أخبِرُكُمْ بِخَيْرِ أَعْمَالِكُمْ وأزْكَاهَا عِندَ مَلِيْكِكُم وأَرْفَعِهَا في دَرَجَاتِكُمْ وَخَيْرٌ لَكُمْ مِن إنفاقِ الذَّهَبِ والوَرَقِ وخيرٌ لكم مِنْ أنْ تلْقَوا عَدُوَّكُمْ فَتَضْرُبُوا أعْنَاقَهُم وَيَضْرِبُوْا أعْنَاقَكُمْ؟ قَالوا بَلَى ، قال ذِكْرُ اللهِ » .

وعَنْ عبدِ اللهِ بنِ بُسْرٍ قال : « جاءَ أَعْرَابيٌ إلى النبي صلى اللهُ عليهِ وسلم فقالَ : أَيُّ الناسِ خَيرٌ ؟ فقال : طُوبَى لِمَنْ طَالَ عُمُرُهْ وحَسُنَ عَمَلُهُ ، قال : يا رسولَ اللهِ أيُ الأعمالِ أفضَلُ ؟ قال : أَنْ تُفَارِقَ الدُّنْيا

ولِسَانُكَ رطْباً مِن ذِكْرِ اللهِ » .

قال ابنُ الْقَيم رحِمه اللهُ قراءةُ القُرآنِ أفضلُ مِن الذِكْرِ والذِكْرُ أَفْضَلُ مِن الدُعاءِ هَذَا مِن حَيْثُ النَّظرِ لِكُلٍّ مِنْهُمَا مُجَرَّداً وَقد يَعْرُضُ لِلْمَفْضُولِ ما يَجْعَلَهُ أَوْلَى بَلْ يُعَيِّنُهُ فَلَا يَجُوزُ أَنْ يَعْدِلَ عنه إلى الفَاضِلِ وهذَا كَالتَّسْبِيْحِ في الرُّكُوعِ والسُّجُودِ فإنه أفضَلُ مِن قِراءَةِ القُرآنِ فِيْهِمَا بَلْ مَنْهِيٌ عنها نَهْيَ تَحْرِيْمٍ أو كَرَاهَةٍ .

لما وَرَدَ عن ابنِ عباسٍ رضي اللهُ عنهما قال كَشَفَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ السِتَارَةَ وَالناسُ صُفُوفٌ خَلْفَ أبِي بَكْرٍ فقال : (يَا أَيُّها الناسُ إنه لم يَبْقَ مِن مُبَشِّرَاتِ النُبُوَّةِ إلَّا الرُؤْيَا الصَّالِحَة يَرَاهَا المُسْلِمُ أو تُرَى لَهُ ألا وَإنِيْ نُهِيْتُ أنْ أقرأَ القرآنَ رَاكِعَاً أو سَاجِدَاً ، أَمَّا الرُكُوعُ فَعَظِّمُوْا فِيهِ الرَّبَّ ، وأما السُجُودُ فَأجْتَهِدُوا في الدُعاءِ فَقَمِنٌ أنْ يُسْتَجَابَ لَكُمْ) رواه أحمد ومسلم النسائي وأبو داوُد .

وكذا التسبيحُ والتحميدُ في مَحِلِهِمَا أَفْضَلُ مِن القِرَاءَةِ وكَذَا التشهدُ وكذلكَ ربِّ اغْفِرْ لِيْ وارْحَمْنِي واهْدِنِي وَعَافِنِي وأرْزُقْنِي بَيْنَ السَّجْدَتَيْنِ أفضَلُ مِن القراءَةِ وكذلك الذكرُ عقِبَ السلامِ مِن الصلاةِ ـ ذِكْرُ التَّهْلِيلِ والتسبيحِ والتكبيرِ والتحميدِ أفضلُ مِن الاشتغالِ عنه بالقِراءَةِ .

وَكَذَلِكَ إجابَةُ المُؤَذِّنِ والقَولُ كَمَا يَقُولُ أَفْضَلُ مِن القِراءَةِ وإنْ كان فَضْلُ القُرآنِ على كُلِ كلامٍ كَفَضْلِ اللهِ تعالى على خَلْقِهِ لكِن لِكُلِ مَقَامٍ مَقَالٍ مَتَى فاتَ مَقَالَهُ فيه وعَدَلَ عنه إلى غيرِهِ اختَلَّتْ الحِكمةُ وفُقِدَتِ المَصْلَحَةُ مِنه .

وهَكَذَا الأذكارُ المُقَيَّدَةُ بِمَحالٍ مَخْصُوْصَةٍ أَفْضَلُ مِن القِراءةِ المُطْلَقَةِ والقِرَاءَةُ المُطْلَقَةُ أَفْضَلُ مِن الأذكارِ المُقَيَّدَةِ بِمَحَالٍ مَخْصُوصَةٍ ، والقِراءةُ المُطْلَقَةُ أَفْضَلُ مِن الأَذْكَارِ المُطْلَقَةِ اللهُمَّ إلا أَنْ يَعْرُضَ لِلْعَبْدِ مَا يَجْعَلَ الذِّكْرَى أو الدُّعَاءِ أَنْفَعَ لَهُ مِنَ القُرْآنِ مِثَالُهُ أَنْ يَتَفَكَّرَ في ذُنُوبِهِ فَيُحْدِثُ لَهُ تَوبَةً مِن استِغْفَارٍ أو يَعْرُضُ لَهُ مَا يَخَافُ أذاهُ مِنَ شَيَاطِينِ الإِنْسِ والجِنِ فَيَعْدِلَ إلى الأذكارِ الْمُقَيَّدَةِ بِمَحَالٍ مَخْصُوصَةٍ ، والقِرَاءةُ المُطلقَةُ أَفْضَلُ من الأَذْكَارِ المُطْلَقَةِ اللهُمَّ إلا أنْ يَعْرُضَ لِلْعَبْدِ مَا يَجْعَلُ الذِّكْرَى أَو الدُعاءِ أَنْفَعَ لَهُ مِنَ قِراءَةِ القُرآنِ مِثَالُهُ أَنْ يَتَفَكَّر في ذُنُوبِهِ فَيُحْدِثُ لَهُ تَوْبَةً مِن استِغْفَارٍ أو يَعْرُضُ لَهُ مَا يَخَافُ أذاهُ مِنَ شَيَاطِينِ الإِنْسِ والجِنِ فَيَعْدِلَ إلى الأذكارِ والدَّعَوَاتِ التي تُحَصِّنُهُ وتَحُوْطُه .

وكَذَلِكَ أَيْضاً قَدْ يَعْرِضُ لِلْعَبْدِ حَاجَةٌ ضَرُوْرِيَّةٌ إذا اشْتَغَلَ عن سُؤالِها بِقِرَاءَةٍ وذِكْرٍ لم يَحْضُرْ قَلْبُهُ فِيْهَا وإذا أَقْبَلَ على سُؤالِهَا وَالدُعَاءِ إليها اجتَمَعَ قلبُهُ كُلُّهُ على اللهِ تَعَالى وأَحْدَثَ له تَضَرُّعاً وخُشُوعاً وابْتِهَالاً فهذا قد يَكُونُ اشْتِغَالُهُ بالدُعاءِ والحَالَةُ هَذِهِ أَنْفَعُ وانْ كَانَ كُلٌ مِن القِراءَةِ والذِكْرِ أَفْضَلُ وأَعْظَمُ أَجْراً .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم إن لِلهِ مَلائكةً يَطُوفُونَ في الطُرُقِ يَلْتَمِسُونَ أَهْلَ الذِكْرِ فإذا وَجَدُوْا قَوْمَاً يَذْكُرُوْنَ اللهَ تَنَادَوا هَلِمُوا إلى حَاجَتِكُمْ .

قال فَيَحُفُونَهُم بأَجْنِحَتِهِم إلى السَّماءِ الدُنْيَا قال فَيَسْأَلُهُم رَبُهُمْ وَهُوَ أعلمُ بِهِم ما يَقُولُ عِبَادِي قال يَقُولونَ : يُسَبِّحُونَكَ ويكَبِرُونَكَ ويَحْمَدُونَكَ ويُمَجِّدُونَكَ قال فَيَقُولُ هَلْ رَأَوْنِي قال فَيَقُولُونَ لا واللهِ ما رَأَوكَ قَال فَيَقُولُ

كَيْفَ لَوْ رَأَونِي .

قال فَيَقُولُونَ لَوْ رَأَوْكَ كانُوا أَشَدَّ لَكَ عِبَادَةً وأَشَدَّ لَكَ تَمْجِيْدَاً وأكثَرَ لكَ تَسْبِيْحَاً قال فَيَقُولُ فَمَا يَسْألونَ قالُوا يَسْأَلُونَكَ الجنةَ قال فيقُولُ : وَهَلْ رَأَوْهَا فيقولونَ لاَ وَاللهِ يا ربُّ ما رَأَوْهَا قال يَقُولُ فكيفَ لو رَأَوهَا .

قال يَقُولُونَ لَو أَنَّهُمْ رَأَوْهَا لَكَانُوا أَشَدَّ عَلَيْهَا حِرْصَاً وأَشَدَّ لَهَا طَلَبَاً وأعظَمَ فِيها رَغْبَةً قال فَمِمَّ يَتَعَوَّذُوْنَ قال يَقُولُونَ مِن النارِ قال فَهَلْ رَؤهَا قال يَقولُونَ لا واللهِ يَا رَبِّ ما رَأَوْهَا قال يَقُولَ فَكَيْفَ لو رَأَوْهَا قال يَقولُونَ لَو رَأَوهَا كانُوا أَشَدَّ فِرَاراً وأَشَدَّ لَهَا مَخَافَةً .

قال فَيَقُولُ فأشْهِدُكُم أَنِي غَفَرْتُ لَهُم قَالَ يَقُولُ مَلَكٌ مِن المَلاَئِكَةِ فِيهِمْ فلانٌ لَيْسَ مِنهم إنما جَاءَ لِحَاجَةٍ قال هُمُ الجُلَسَاءُ لا يَشْقى جَلِيْسُهُمْ ﴿ولِذَلِكَ حَثَّ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وسلم على الجُلُوسِ في مَجَالِسِ الذِكْرِ وشَبَّهَهُ بِرَوْضَةِ الجَنَةِ .

وَرَوَى الترمذِيُ عن أنسٍ رَضيَ اللهُ عنه قال قال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلم إذا مَرَرْتُمْ بِرِياضِ الجنةِ فارْتَعُوا قالُوا وما رِيَاضُ الجنةِ قالَ حِلَقُ الذِكْرِ وَرَوَى أَبُو دَاوُدَ عن أبي هريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه قال قال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مَا مِنْ قَوْمٍ يَقُوْمُوْنَ مِنْ مَجْلِسٍ لا يَذْكُرُ اللهُ فيه إلا قَامُوا عَن مِثْلِ جِيْفَةِ حِمَارٍ وكان عَلَيْهِمْ حَسْرَةً .

وروى مسلم عن حَنْظَلَةَ بنِ الرَّبِيْعِ الأَسَدِي قَالَ لَقِيَنِي أَبُو بَكْرٍ فقال كَيْفَ أَنْتَ يا حَنْظَلَةُ قلتُ نَافقَ حَنْظَلَةُ قال سُبْحَانَ اللهِ ما تقولُ قُلْتُ نَكُونُ عندَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلم يُذَكِّرُنَا بالنارِ والجنة كَأَنَّا رَأيَ عَيْنٍ

فإذا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم عَافَسْنَا الأَزْوَاجَ والضَّيْعَاتِ نَسِيْنَا كَثِيراً .

قال أَبُو بَكْرٍ إِنَّا لَنَلْقَى مِثْلَ ذَلِكَ فانْطَلَقْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ حَتَّى دَخَلْنَا على رَسُولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم فَقُلْتُ نَافَقَ حَنْظَلَةُ يا رَسولَ اللهِ نَكُونُ عِنْدَكَ وَتُذَكِّرُنَا بالنارِ والجنةِ كَأَنَّا رَأْيَ عَيْنٍ فاذَا خَرَجْنَا مِن عِنْدِكَ عَافَسْنَا الأَزْوَاجَ والأَوْلَادَ والضَّيْعَاتِ نَسِيْنَا كَثِيْراً .

فقال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم والذي نَفْسِيْ بِيَدِهِ لو تَدُوْمُوْنَ على مَا تَكُونُونَ عِنْدِيْ وفي الذِكْرِ لَصَافَحَتْكُم الملاَئِكَةُ على فُرُشِكُم وفي طُرُقِكُم ولكن يَا حَنْظَلَةُ سَاعَةً وَسَاعَةً ثَلاَثَ مَرَّات .

قال أَحَدُ العُلَمَاءِ اذا حَصَلَ الأُنْسُ بِذِكْرِ اللهِ انْقَطَعَ عَنْ غَيْرِ ذِكْرِ اللهِ ومَا سِوَى اللهِ عَزَّ وجَلَّ هُوَ الذي يُفَارِقُ عندَ الموتِ فَلاَ يَبْقَى مَعَهُ في القَبْرِ أَهْلٌ ولا مَالٌ ولا وَلَدٌ ولا وِلاَيَةٌ ولا يَبْقَى إِلاَّ عَمَلُهُ الصالِحُ ذِكْرُ اللهِ ومَا وَلاَهُ .

فَإِنْ كَانَ قَدْ أَنِسَ بِهِ تَمَتَّعَ بِهِ وَتَلَذَّذَ بِانْقِطَاعِ العَوَائِقِ الصَّارِفَةِ عَنْهُ إِذْ ضَرُوْرَاتُ الحَاجَاتِ في الحَيَاةِ الدنيا تَصُدُّ عَن ذِكْرِ اللهِ وعن الأَعْمَالِ الصالِحَةِ ولا يَبْقَى بَعْدَ المَوتِ عائِقٌ فَكَأَنَّهُ خُلِيَ بَيْنَهُ وبَيْنَ مَحْبُوْبِهِ فَعَظُمَتْ غِبْطَتُهُ وَتَخَلَّصَ مِن السِّجْنِ الذي كانَ مَمْنُوْعاً بِهِ عَمَّا بِهِ أُنْسُهُ .

ولِذَلِكَ قال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلم إِنَّ رُوْحَ القُدُسِ نَفَثَ في رَوْعِي «احْبِبْ ما أَحْبَبْتَ فإِنَّكَ مُفَارِقُهُ أَرَادَ بِهِ كلَّ ما يَتَعَلَّقُ بِالدنيا فإِنَّ ذَلِكَ يَفْنَى بالموتِ في حَقِّهِ فَكُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُوْ

الجَلَالِ والإكْرَامِ أ هـ .

اللَّهُمَّ اجْعَلِ الأيمانَ هادِماً لِلسيئآت ، كَمَا جَعَلْتَ الكُفْرَ هَادِمَاً لِلْحَسَنَاتِ وَوَفقنا لـلأَعْمَالِ الصالِحاتِ ، واجعلنا مِمَّنْ تَوكَّلَ عَليكَ فَكَفيْتَهُ ، واسْتَهْدَاكَ فَهَدَيْتَهُ وَدَعَاكَ فأجَبْتَهُ ، واغفر لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين الأحياءِ منهم والميتين برحمتك يا أرحم الراحمين وصلى الله على محمد وآله وصحبه أجمعين .

« فصل في فوائِدِ ذِكر اللهِ تعالى »

قال ابنُ القيم ـ رحمه اللهُ ـ : وفي ذِكْرِ اللهِ أَكْثَرُ مِن مِائَةِ فائِدَةٍ يرْضِي الرَّحْمٰنَ ويَطْرُدُ الشَّيْطَانَ ويُزِيْلُ الهَمَّ ويَجْلِبُ الـرزقَ ويَكْسِبُ المَهَابَةَ والحَلاَوَةَ ويُوْرِثُ مَحَبَةَ اللهِ التي هِيَ رُوْحُ الأسْلاَمِ .

وَيُوْرِثُ المَعْرِفَةَ والانَابَةَ والقُرْبَ وحَيَاةَ القَلْبِ وذِكْرُ اللهِ لِلْعَبْدِ هُوَ قُوْتُ القَلْبِ ورُوْحُهُ ويَجْلِي صَدَاهُ ويَحُطُّ الخَطَايَا ويَرْفَعُ الدَّرَجَاتِ ويُحْدِثُ الأُنْسَ ويُزِيْلُ الوَحْشَةَ .

ويُذَكِّرُ بِصَاحِبِهِ ويُنْجِيْ مِن عَـذَابِ اللهِ ويُوْجِبُ تَنـزُّلَ السَّكِيْنَةَ وغَشَيَانَ الرحْمَةِ وحُفُوفَ الملائِكَةِ بالِذاكِرِ وَيَشْغَلُ عن الكَلاَمِ الضَّارِ ويُسْعِدُ الذاكِرَ ويُسْعِدُ بِهِ جَلْيْسَهُ وَيُؤَمِّنُ مِنَ الحَسْرَةِ يَوْمَ القِيَامَةِ وهو مَعَ البُكَاءِ سَبَبُ لإظلالِ اللهِ العبدَ يَوْمَ الحَشْرِ الأكْبَرِ في ظِلِ عَرْشِهِ .

وأنه سَبَبٌ لِعَطَاءِ اللهِ لِلذَّاكِرِ أَفْضَلَ ما يُعْطِي السَّائِلِينَ ، وأنَّه أَيْسَرُ العِبَادَاتِ وهُوَ مِن أجلِّهَا ،وأَفْضَلِهَا ؛ وأنه غِرَاسُ الجَنَّةِ ، وأنَّ العَطَاءَ والفضلَ الذي رُتِّبَ عليه لم يُرَتَّبْ على غَيْرِهِ ، وأن دَوامَ الذِكْرِ لِلرَّبِّ

تَبَارَكَ وَتَعَالَى يُوْجِبُ الأمانَ مِن نِسْيَانِهِ الذِيْ هُو سَبَبٌ شَقَاءِ العَبْدِ في مَعَاشِهِ ومَعَادِهِ .

وأن الذِكْرَ يُسَيِّرُ العَبْدَ وهُوَ في فِرَاشِهِ وفي سُوْقِهِ ، وأن الذِكْرَ نُوْرُ الذَّاكِرِ في الدُنْيَا ونُورٌ له في قَبْرِهِ ونورٌ له في مَعَادِهِ وأن في القَلْبِ خَلَّةٌ وفَاقَةٌ لا يَسُدُّها شَيْءٌ البَتَّةَ إلا ذِكْرُ اللهِ عزَّ وجَلَّ .

وأن الذِكْرَ يَجْمَعُ مَا تَفَرَّقَ عَلَى العَبْدِ مِن قَلْبِهِ وإرَادَتِهِ وهُمُوْمِهِ وعَزْمِهِ والذِكْرُ يُفَرِّقُ ما اجْتَمَعَ عليه مِن الهُمُومِ والغُمُوْمِ والأحزانِ والحَسَرَاتِ على مَوْتِ حُظُوظِهِ ومَطَالِبِهِ ويُفَرِّقُ مَا اجْتَمَعَ على حَرْبِهِ مِن جُنْدِ الشَيْطَانِ .

وأن الذِكْرَ يُنَبِّهُ القَلْبَ مِن نَوْمِهِ ويُوقِظُهُ ، والقَلْبُ إذا كَانَ نَائِمَاً فَاتَتْهُ الأرْبَاحُ والمَتَاجِرُ ، وأن الذِكْرَ شَجَرَةٌ تُثْمِرُ المَعَارِفَ والأَحْوالِ التي شَمَّرَ إليها السَّالِكُونَ ، فلا سَبِيْلَ إلى نَيْلِ ثِمَارِهَا إلا مِن شَجَرَةِ الذِكْرِ .

وأنَّ الذَّاكِرَ قَرِيْبٌ مِن مَذْكُورِهِ ومَذْكُوْرُهُ مَعَهُ وَهَذِهِ المَعِيَّةُ مَعِيَّةٌ خَاصَةٌ ، وأنَّ الذكرَ يَعْدِلُ عِتْقَ الرِّقَابِ وَنَفَقَةَ الأموالِ والحَمْلَ على الخَيْلِ في سبيلِ اللهِ عَزَّ وجَلَّ ، وإنَّ الذِّكْرَ رأسُ الشُكْرِ ، وأن أَكْرَمَ الخَلْقِ على اللهِ مِن المُتَّقِيْنَ مَن لَا يَزَالُ لِسَانُهُ رَطْباً مِن ذِكْرِ اللهِ .

وأن في القَلْبِ قَسْوَةً لا يُذِيْبُهَا إلا ذِكْرُ اللهِ تعالى وإنّ الذِكْرَ شِفَاءُ القَلْبِ وَدَوَاؤُهُ والغَفْلَةَ مَرَضُهُ ، وأن الذِكْرَ أصْلُ مُوَالاَةِ اللهِ عزَّ وجَلَّ وأنَّهُ مَا اسْتُجْلِبَتْ نِعَمُ اللهِ واسْتُدْفِعَتْ نِقَمُهُ بِمِثْلِ ذِكرِ اللهِ .

وأن الذِكْرَ يُوْجِبُ صَلاَةَ اللهِ عَزَّ وجَلَّ ومَلائِكَتِهِ على الذَاكِرِ وأَنَّ مَنَ شَاءَ أنْ يَسْكُنَ رِيَاضَ الجنةِ في الدُنْيَا فَلْيَسْتَوْطِنْ مَجَالِسِ الذِكْرِ فإنَها رِيَاضُ الجنةِ ، وأن مَجَالِسَ الذِكْرِ مَجَالِسُ الملائكة .

وأن اللهَ عزَّ وجَلَّ يُبَاهِي بالذَّاكِرِيْنَ مَلاَئِكَتَهُ ، وأَنَّ مُدْمِنَ الذِكْر يَدْخُلُ الجنةَ وهو يَضْحَكُ وأن جَمِيْعَ الأعْمَالِ إنما شُرِعَتْ إقَامَةً لِذِكْرِ اللهِ تعالى ، وأن أَفْضَلَ أهْلِ كلِ عَمَلٍ أكثَرُهُم فيه ذِكراً لِلّـهِ عز وجَلَّ ، فَأَفْضَلُ الصُوَامِ أكثَرُهُمْ ذِكْرَاً لِلَّهِ عز وجل .

وأن ذِكْرَ اللهِ يُسَهِّلُ الصَّعْبَ ويُيَسِرُ العَسِيْرَ ويُخَفِّفَ المَشَاقَ ، وأن ذِكْرَ اللهُ يُذْهَبُ عن القلبِ مَخَاوِفَهُ كُلَّهَا ، ولَهُ تأثيرٌ عجيبٌ في حُصُوْلِ الأمْنِ ، وأن في الأشتغالِ بالذِكْرِ اشْتِغَالاً عن الكلامِ الباطِلِ مِن الغِيْبَةِ والنَّمِيْمَةِ واللَّغْوِ ، وأنَّ عُمَّالَ الآخِرَةِ كُلُهُم فِي مِضْمَارِ السِّبَاقِ والذَاكِرُونَ أَسْبَقُهُم في ذلك المِضْمَارِ ولكِن القَتَرَةُ وَالغُبَارُ يَمْنَعَانِ مِن رُؤْيَةِ سَبْقِهِم .

فَإذَا إنْجَلَى الْغُبَارُ وانْكَشَفَ ، رآهُمْ النَّاسُ ، وقَدْ حازُوا قَصَبَ السَّبْقِ ، وأنّ الذِّكْرَ سببٌ لِتَصْدِيقِ الرّبِّ عزَّ وَجَلَّ عَبْدَهُ . فإنَّهُ أَخْبَرَ عن اللهِ بأَوْصَافِ كَمَالِهِ ونُعُوتِ جَلاَلِهِ فَإذَا أَخْبَرَ بِهَا العَبْدُ صَدَّقَهُ رَبُّهُ وَمَنْ صَدَّقَهُ اللهُ لَمْ يُحْشَرَ مَعَ الكاذِبِيْنَ وَرُجِي لَهُ أَنْ يُحْشَرَ مَعَ الصَّادِقِيْنَ .

اللَّهُمَّ أَلْهِمْنَا ذِكْرَكَ وَوَفِّقْنَا لِلْقِيَامِ بِحَقِّكَ وَبارِكْ لَنَا في الحلال مِن رِزْقِكَ ولاَ تَفْضَحْنَا بين خَلْقِكَ يَا خَيْرَ مَنْ دَعَاهُ داع وأفْضَلَ مَن رجَاهُ راجٍ يا قاضِي الحاجاتِ ومُجِيْبَ الدعواتِ هَبْ لَنَا ما سَأَلْنَاهُ وَحَقِّقْ رَجَاءَنَا فِيْمَا تَمَنَّيْنَاهُ يَا مَنْ يَمْلِكُ حَوائِجَ السَّائِلين ويَعْلَمُ ما فِي ضَمَائِرِ الصَّامِتِينَ أَذِقْنَا

بَرْدَ عَفْوِكَ وحَلاَوَةَ مَغْفِرَتِكَ يا أَرْحَمَ الرَّاحِمينَ وصلى اللهُ على مُحمدٍ وآلِهِ أجمعِين .

* * *

(فَصْلٌ)

وَمِنْ فَوائِد الذِّكْر أَيْضا ما ذَكَرَهُ ابنُ القَيِّم رَحمهُ اللَّهَ :

أَنَّ دُورَ الجنةِ تُبْنَى بالذِّكْرِ ، فاذا أَمْسَكَ الذّاكِرُ عَن الذِّكْرِ أَمْسَكت الملائكةُ عن البناءْ ، وأنّ الذِكْرَ سَدٌّ بَيْنَ الْعَبْدِ وبَين جَهَنَّمَ فإذَا كانَتْ لهُ إلى جَهَنَّمَ طريقُ عَمَلٍ مِن الأَعْمَال ، كان الذِكْرُ سَدًّا في تِلْكَ الطريْقِ ، وأنّ الملائِكة تَسْتَغْفِر لِلذَّاكِر كَمَا تَسْتَغْفِرُ لِلتَّائِب ، وأنَّ الجِبَالَ والقِفَارَ تَتباهَى وتَسْتَبْشَرُ بِمَنْ يَذْكُر اللهَ عزّ وجَلَّ عَلَيْهَا ، وأنَّ كَثْرَةَ ذِكْرَ اللهِ عَزَّ وجَل أمانٌ مِن النِّفاقِ ، فإنّ المنافقينَ قَلِيْلُوا الذِّكْرِ لِلّه عَزَّ وجَلّ .

قال تَبَارَكَ وتعالى في المُنَافِقين : ﴿ولا يَذْكُرونَ اللَّهَ إلاَّ قليلا﴾ وأنّ للذكْرِ مِن بَينِ الأعمَال لَذّةً لا يُشْبِهُهَا شَيءٌ فَلَوْ لَمْ يَكُنْ لِلعَبْدِ مِن ثوَابِهِ إلا اللَذّةَ الحَاصِلَةَ لِلذَّاكِرَ ، وأنه يَكْسُو الوجْه نَضْرَةً في الدُنيا ونُوْراً في الآخرةِ ، وأنْ في دَوَامَ الذّكْرِ في الطرِيقِ والبَيْتِ والحَضَـرِ والسّفَروالبِقَاعِ تَكْثِيْراً لِشُهُوْدِ العَبْدِ يومَ الْقِيَامَةْ ، فانَّ البُقْعَةَ والدَّارَ والْجَبَل والأَرضَ تَشْهَدُ للذَّاكِر يومَ القيامَةْ . وانّ الذِّكْرَ يُعْطِي الذّاكِرَ قُوةً حَتَّى أنّهُ ليفعَلُ مَعْ الذكْرِ مَا لَمْ يَظنَّ فِعْلَهُ بِدونِهِ ، قالَ وقَدْ شَاهَدتُ مِن قُوَّةِ شَيْخ الاسلامِ ابنِ تَيْميَّةَ في سُنَنِه وكلاَمِهِ واقْدَامِهِ وكِتَابَته أمْراً عَجِيْباً ، فكانَ يَكْتُبُ في اليومِ مِن التَّصْنِيفِ ما يَكْتُبُه النّاسِخُ في جُمْعَةٍ وأكْثَرْ .

وقَدْ عَلَّمَ النَّبيُ صلى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ ابْنَتَهُ فاطمةَ وعلياً ـ رضي الله عنهما ـ أن يُسَبِّحا كلّ لَيْلَةٍ إذَا أخذَ مَضَاجِعُهُما ثلاثاً وثلاثين ، ويَحْمَدا ثلاثاً وثلاثين ، ويُكَبِرّا ، أَرْبَعاً وثلاثِين ، لَمَّا سَألَتهُ الخادِمَ ، وشَكَتْ إليهَ ما تُقَاسِيه من الطَّحْنِ والسَّعْي والخِدْمَة ، فعَلَّمَها ذَلِكَ ، وقال : إنّه خَيرٌ لَكُمَا مِنْ خَادَم .

فَقيلَ انَّ مَنْ دَاوَمَ على ذلك وجَد قُوةً في عَمَله مُغْنِيَةً عَنْ خَادِمْ ، قالَ وسَمِعْتُ شَيْخَ الاسْلامِ ابنُ تَيْمِيَّةٍ ـ رَحِمه الله تعالى ـ يَذْكُر أثراً في هَذَا البابِ ، ويَقُول : انّ الملائكة لمَا أُمروا بِحَمْلِ الْعَرْشْ ، قالُوا يا رَبَّنا كَيْفَ نَحْمِلُ عَرْشَكَ وعليهِ عَظَمَتُكَ وَجَلاَلَكْ ، فقالْ : قُولُوا لا حوْلَ ولا قوة الاَّ باللهْ .

فَلَّمَا قالُوا حَمَلُوهُ حَتَّى رَأَيْتُ ابْنَ أبي الدّنْيَا قَدْ ذَكَر هَذَا الأَثر بِعَيْنه عن اللَّيثِ بن سَعْد عَنْ مُعَاويةِ بن صالحٍ قالَ حَدَّثَنَا مَشْيَخَتُنا أنّهُ بَلَغَهُم أنَّ أوَّل مَا خَلَقَ اللهُ عزَّ وجل حِين كانَ عَرْشُه على الماءِ حَمَلةَ العرشِ قالُوا : رَبَّنا لِمَ خَلَقْتَنَا ؟ قَالْ : خَلَقتُكُمْ لِحَمْل عَرْشي . قالوا : رَبّنا وَمَنْ يَقْوَى على حَمْلِ عَرْشِكَ وعليهِ عظمتُكَ وجلالُك وَوَقارُكَ ، قالْ : لذلكَ خَلقْتكم ، فأعادُوا عليهِ ذلكَ مِراراً ، فقالْ : قُولوا لا حَوْلَ ولا قُوَّةَ الا بالله فَحَمَلُوهْ .

قالْ : وهذِهِ الكَلِمَةُ لَهَا تأثيرٌ عَجِيْب في مُعَانَاةِ الأَشْغَالِ الصَّعْبَةِ ، وتَحَمُّلِ المشاقِّ والدُّخولِ على الملُوكِ ومَنْ يُخَافُ ، ورُكُوبِ الأهْوَالِ ، ولَهَا أَيْضَا تأثِير في دَفْعِ الفَقْر قالْ : ومَبْنَى الدِّيْنِ على قَاعِدَتَيْن الذِكْرِ والشُّكْرِ .

وليسَ المرادُ بالذِّكْرِ مُجَرّدَ ذكْرِ اللسانِ بَلْ الذِّكْرُ الْقَلْبِي واللّساني ، وذلِك يَسْتلْزِمُ مَعْرِفَته والايمانَ بهِ وبصفاتِ كَمَالِه ونُعُوتِ جَلالِهِ والثَنَاءِ عليهِ بأنواعِ المدْحِ وذلكَ لاَ يَتمُّ إلاَ بتوحيدِهِ فذِكْرُه الحَقِيْقِي يَسْتَلْزِمُ ذِكْرَ نِعَمِهِ وآلائِهِ وإحْسَانِهِ إلَى خَلْقِهِ .

وأمَّا الشُّكْر فَهْو القيامُ بِطَاعَتِهْ ، فَذِكْرُهُ مُسْتلْزِمٌ لِمَعْرِفَتِهِ وشُكْرُهُ مُتَضِمّنٌ لِطاعَتِهِ وهُمَا الغايةُ التي خُلِقَ لأَجْلِهَا الجِنُّ والانْس .

(فَائِدَةْ) قَالَ الشَّيْخُ تَقِي الدِّيْن : مَن أُبْتُلِيَ بِبَلاءِ قَلْبٍ أَزْعَجَهُ فأعظَمُ دَواءٍ لَهُ قُوّةُ الالْتِجَاءِ إلى اللهِ وَدَوامُ التّضَرُّعِ والدّعاءِ بأَنْ يَتعلمّ الأَدْعِيَةَ المأثُورَةَ وَيَتوخّى الدّعاءِ في مَظَانِّ الإجَابَةِ مِثْلُ آخِرَ اللّيْلِ وَأوقاتِ الآذانِ والإقَـامَـةِ وفي السُّجُـودِ وادبـارِ الصّلَواتْ ، ويَضُمُّ إلى ذلِـك الاسْتِغْفَار .

وَلْيَتّخِذُورْداً مِن الأذكارِ طَرَفَي النَّهارِ وعِنْدَ النَّوم ، وَلْيَصْبِرُ على ما يَعْرِضُ لهُ من الموانِعِ والصّوارِفِ ، فانّهُ لا بُد أنْ يُؤَيّدَهُ اللهُ بِرُوْحٍ مِنْهُ ويَكْتُبَ الايْمَانَ في قَلْبِه ولْيَحْرِصَ عَلى عَمُودُ الدِيْنِ ، ولَيَكُنْ هُجَيْرَاهُ لا حوْلَ ولا قوَةَ الا باللهِ العَلِيِ العظيمْ .

فانّهُ بِها يَحْمِلُ الأثْقَالَ ويُكَابِدُ الأَهْوَالَ ، ويَنَالُ رَفِيْعَ الأَحْوالِ ولا يَسْأَمُ مِن الدُّعاءِ والطّلَبْ ، فانَّ العَبْدَ يُسْتَجابُ له ما لم يَعْجَل ولْيَعْلَمَ أنَّ النّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ ، وأنّ الفَرَج مَعَ الكَرْب وانّ مَعَ العُسْرِ يُسْرَا ، ولَمْ يَنَلْ أحَدٌ شَيْئاً مِن عَمِيْمِ الخَيْرِ إلا بالصَّبْرِ والله الموفق .

شِعْرا :

بِـذِكْـرِكَ يَـا مَـوْلى الْـوَرَى نَتَنَعَّمُ
وقدْ خابَ قومٌ عن سَبِيْلِكَ قَدْ عَمُوا
شَهِـدْنَـا يَقِيْنـاً أَنَّ عِلْمَـكُ واسِـعٌ
فَـأنَتْ تَـرى مـا في القُلوبِ وَتَعْلَمُ
اِلَهِى تَـحَمَّـلْنَـا ذُنُـوبـاً عَـظِيْمَـةً
أَسَـأْنـا وقِصَّـرْنـا وجُـودُكَ أعْـظَمُ
سَتَـرْنَـا مَعَـاصِيْنـا عن الخلقِ غَفْلَةً
وأنتَ تَـرانَـا ثُمَّ تَـعْفُـو وتَـرْحَـمُ
وَحَقِّـكَ مـا فِيْنَـا مُسـيءٌ يَسُـرُّهُ
صُـدُودُكَ عَنْـهُ بَـلْ يَخَـافُ ويَنْـدَمُ
سَكَتْنَـا عَنِ الشَّكْـوَى حَيـاءً وَهَيْبَـةً
وَحَـاجَـاتُنَـا بـالْمُـقْتَـضَى تَـتَكَـلَّمُ
إِذَا كَـانَ ذُلُّ العَبْدِ بـالحـال نَـاطِقـاً
فَهَـلْ يَسْتَـطِيـع الصَّبْـرَ عَنْـهُ وَيَكْتُمُ
اِلَهِي فَجُـدْ واصْفـحَ وأَصْلِحْ قلُوبَنـا
فـأنْتَ الذِيْ تُـولِيْ الجَمِيـلَ وَتُكْـرِمُ
وأَنْتَ الـذِي قَـرَّبْتَ قَـوْمـاً فَـوَافَقُـوْا
وَوَفَّـقْتَـهُم حَـتَّى أَنـابُـوا وسَـلَّمُـوْا
وَقُلْتَ اسْتَقَـامُـوا مِنَّـةً وَتَـكَـرُّمـاً
فـأنْتَ الـذي قَـوَّمْتَهُم فَـتَقَـوَّمُـوا

لَهُمْ في الدُّجَى أُنْسٌ بِذِكْرِكَ دَائِماً
فَهُمْ في اللّيَالِي سَاجِدُونَ وقُوَّمُ
نَظَرْتَ إِلَيْهِمْ نَظْرَةً بِتَعَطُّفٍ
فَعَاشُوا بِهَا والنّاسُ سَكْرَى وَنُوَّمُ
لَكَ الحَمْدُ عَامِلْنَا بِمَا أنتَ أَهْلُهُ
وَسَامِحْ وسَلِّمْنَا فَأَنْتَ الْمُسَلِّمُ

اللَّهُمَّ أَلْهِمْنَا ذِكْرِكَ وشُكْرَكَ وَوَفِّقْنَا لِمَا وَفَّقْتَ لَهُ الصّالحين من خَلْقِكَ واغفرْ لنا ولوالدِينا وجميع المسلمين بِرَحْمتك يا أَرْحَم الرّاحمين وصلى الله على محمدٍ وآلهِ وصحبه أجمعين .

(فصل)

قَالَ في حَادي الارْوَاحْ ولَمَّا عَلِمَ الموفَّقُونَ ما خُلِقُوا لَهُ ومَا إِيْجَادُهُمْ لهُ رَفعُوا رُؤْوْسَهم فإِذَا عَلمُ الجَنَّةِ قَدْ رُفِعَ لَهُمْ شَمَّرُوا إِلَيْهِ وإِذَا صِرَاطُهَا المسْتَقِيم قَدْ وَضَحَ لَهُمْ فأَسْتَقَامُوْا عليهِ ورَأَوْا مِنْ أَعْظم الغَبْنِ بَيْعُ مَالاَ عَينٌ رأتْ ولا أذنٌ سَمِعَتْ ولا خَطَرَ على قَلبِ بشرٍ .

في أَبَدٍ لا يَزُول ولا يَنْفَدْ بِصُبَابةِ عَيْشٍ إِنَّما هُو أَضْغَاثُ أَحْلاَمٍ أو كَطَيْفٍ زارَ في المَنامِ مَشُوبٍ بالنَّغَص مَمْزُوجٍ بالْغُصَصِ إِنْ أَضْحَكَ قَلِيْلاً أَبْكَى كَثيراً وإِنْ سَرَّ يَوْماً أحزَنَ شُهوراً آلامُهُ تزيدُ على لَذّاتِهِ وأَحْزَانُهُ أَضْعافُ مَسَّراتِهِ أَوّلُهُ مَخَاوِفُ وآخِرُهُ متألِفُ .

فَيَا عَجَباً مِنْ سَفِيهٍ في صُورةِ حَكيم ومَعْتُوهٍ في مِسْلاخِ عاقِلٍ آثَرَ الحَضَّ الفانِي الخَسِيْسَ على الحضّ الْبَاقي النّفيس باعَ جَنَّةٍ عَرْضُها

الأَرْضُ والسّمواتُ بِسِجْنٍ ضَيِّقٍ بَيْنَ أَرْبَابَ الْعَاهَاتِ والْبَلِّيات ومَسَاكِنَ طَيِّبَةً في جنّاتِ عَدْنٍ تَجْري مِنْ تَحْتِها الأنْهار بأعْطانٍ ضَيِّقَةٍ آخِرُها الْخَرابُ والبَوارُ .

وأبكاراً عُرْباً أتْراباً كأنّهُنَّ الْياقُوتُ والْمَرْجَانُ بِقَذرَاتٍ دَنِسَاتٍ سَيِّئاتِ الأخْلاقِ مُسَافِحَاتٍ أوْ مُتّخِذَاتِ أخْذانٍ وحُوْراً مقْصُوراتاً في الخِيامِ بِخَبِيْثَاتٍ مُسَيَّباتٍ بَيْنَ الأنام وأنْهَاراً مِنْ خَمْرٍ لَذّةٍ لَلشَّاربينَ بِشَرابٍ نَجَسٍ مُذْهَبٍ لِلْعَقْلِ مِفْسِدٍ لِلدِّنْيَا والدِين ، ولذّةَ النّظَرِ إلى وَجْهِ الْعَزِيْزِ الرّحيمِ بالتّمَتّعِ بِرُؤْيَةِ الْوَجْهِ القبيحْ الذّميم .

وسَمَاعَ الْخِطابِ مِن الرحمن بِسَماعَ الْمَعازِفِ والْغِنَاءِ والألْحَانِ والجُلُوسِ على مَنابِرِ اللُّؤْلِؤِ والياقُوتِ والمُرْجَانِ والزَّبَرْجَدِ ويَوْمَ المزيدِ بالجُلُوسِ في مَجَالِسِ الفُسوقِ مَعَ كُلِّ شيطانٍ مَرْيدٍ .

وإنّما يَظْهَرُ الْغَبْنُ الفاحِشُ في هَذَا البيع يومَ الْقِيَامَةِ ويَتَبيَّنَ سَفهُ بائِعِهِ يَوْمَ الْحَسْرَةِ والنّدامَةِ اذا حُشِرَ المتّقونَ إلى الرَّحْمنِ وفْداً وسِيْقَ المُجْرِمُون إلى جَهَنَّم وِرْداً ونَادى المُنادِي على رؤوسِ الأشْهادِ لِيَعْلَمَنَّ أهْلُ المَوقف مَنْ أولى بالكَرمِ مِن بَيْنِ العِبادْ .

فَلو تَوَهَّمَ المُتَخَلِّفُ عَنْ هذِه الرِّفْقَةُ ومَا أُعِدَّ لَهُم مِنَ الاكْرَامِ وَادُّخِرَ لَهُمْ مِن الفَضْلِ والانْعَامِ ومَا أُخْفِي لَهُم مِنْ قُرَّةِ أعْينٍ لَمْ يَقَعْ على مِثلها بَصَرٌ ولا سَمِعَتْهُ أذنٌ ولا خَطر على قَلْبِ بَشَرٍ عَلِمَ أيَّ بِضَاعَةٍ أضَاعْ وأنّهُ لا خَيْرَ لَهُ في حَياتِهِ وهْوَ مَعْدُودٌ مِن سَقَطِ الْمَتَاعْ .

وأنّ الْقَوْمَ قَدْ تَوَسَّطُوا مُلْكاً كَبيراً لا تَعْتَريه الآفاتُ ولاَ يَلْحَقُه الزَّوالُ

وفَازُوا بالنّعيم المقيم في جِوَارِ الرّبِ الكبيرِ المُتَعَالِ ، فَهُمْ في رُوْضَاتِ الجَنّاتِ يَتَقَلَّبونَ وَعَلى أَسِرّتِها تَحْتَ الحِجَالِ يَجْلِسُونَ وعلى الفُرُشِ التي بَطائِنُها مِنِ اسْتَبْرَقٍ يتّكِئُونَ وبالحُورِ العينِ يَتَمَتَّعُونْ .

وبأنواع الثِّمارِ يَتَفَكَّهونَ ﴿يَطُوفُ عليهم وِلْدَانٌ مُخَلَّدُون بأكْوابٍ وأباريقَ وكأسٍ من مَعينٍ لا يُصَدّعُونَ عَنْها ولا يُنْزِفُون وفاكِهَةً مِمَّا يَتَخَيَّرُوْنَ ولحم طير مِمّا يَشْتهون وحُورٌ عِينٌ كأمْثالِ اللُؤْلِؤُ والمكنونِ جَزَاءاً بمَا كانوا يَعْمَلونْ﴾ يُطَافِ عليهم بِصَحافٍ مِنْ ذَهبٍ وأكْوابٍ وفِيْها ما تَشْتَهِيهِ الأنْفُسُ وتَلَذُّ الأعْينَ وأنْتُم فيها خالدون﴾ تا اللهِ لقدْ نُودِي عليها في سُوقِ الْكَسادِ فَمَا قَلَّبَ ولا اسْتَامَ إلا أفْرَادٌ مِن العِبَادِ وقال رحمه الله في النونية :

بِـاللّهِ مـا عُـذْرُ امْـرِءٍ هُـو مُؤْمِنٌ
حَقّـا بِـهـذا لَـيْسَ بـالْـيَـقْـظَانِ
بَـلْ قَلْبُـهُ في رَقْـدَة فـاذا اسْتَفـا
قَ فَـلُبْسُـهُ هُـو حُـلَّةُ الْـكَسْـلَانِ
تَـا اللّهِ لَـوْ شـاقتْكَ جَنّـاتُ النَّعِيْـ
ـمِ طَـلَبْتَـهـا بِنـفـائِسِ الأثْـمـانِ
وسَعَيْتَ جُهْـدَكَ في وِصَالِ نَـواعِمٍ
وكَـواعِبٍ بِيْضِ الـوُجُـوْهِ حِسَـانِ
جُلِيَتْ عـلـيـكَ عَـرائسٌ واللهَ لَـوْ
تُجْلَى عـلى صَخْـرٍ مِـنَ الصُّـوَّانِ
رَقَّـتْ حَـواشِـيْـهِ وعـادَ لِـوَقْـتِـهِ
يَنْهَـالُ مِـثْـلَ نَقَىً مِن الـكُثْـبَـانِ

لَكِنَّ قَلْبَـك في القَسَـاوَةِ جَـازَ حَـدْ
دَ الصَّخْـرِ والْحَصْبَـاءِ في أَشْجَـانِ
لَـوْ هَـزَّكَ الشَّـوْقُ المُقيمُ وكُنْتَ ذَا
حِسٍّ لَـمَـا اسْتَبْـدَلْـتَ بـالأَدْوَانِ
أَوْ صَادَقَتْ مِنْكَ الصِّفـاتُ حَياةَ قَـلْ
بِ كُـنْتَ ذَا طَـلَبٍ بِهَـذَا الشَّـانِ
حُـورٌ تُـزَفُّ إلى ضَـرِيْـرٍ مُقْعَـدٍ
يـا مِحْنَـةِ الحَسْنَـاءِ بـالْعُـمْيَـانِ
شَـمْسٌ لِـعِنِّـينٍ تَـزَفُ إليـه مَـا
ذَا حِيلَةُ الْـعِنِّيْن فـي الْـغَـشَـيَـانِ
يـا سِلْعَـةَ الـرَّحْمَنِ لَسْتِ رَخِيْصَـةً
بـل أَنْتِ غـاليـة على الْكَسْـلانِ
يـا سِلْعَـةَ الـرحمن ليس يَنَـالُهَـا
بـالأَلْـفِ إلا واحـدٌ لا اثْـنَـانِ
يـا سِلْعَـةَ الـرحمن مـاذا كَفُـوْهَـا
إلا أُولُـوا التَّقْـوَى مَـعَ الإِيْـمَـانِ
يـا سِلْعَةَ الـرَّحمنِ سُـوقُـكِ كـاسِـدٌ
بـيـن الأَرَاذِلِ سَـفْـلَةِ الْـحَـيَـوانِ
يـا سِلْعَـةَ الـرحمن أَيْنَ المَشْتَـرِي
فَلَقَـدْ عُـرِضْتِ بـأَيْسـرِ الأَثْمـانِ
يـا سِلْعَةَ الـرحمنِ هَلْ مِنْ خَـاطِبٍ
فَـالْمَهْـرُ قَبْـلَ المـوتِ ذُوْ إِمْكَـانِ

يـا سِلْعَـةَ الـرحمن كَيْفَ تَصْبُـر الْـ
خُـطّابُ عَنْـكَ وَهُمْ ذَوُوْ إيْـمَـانِ
يـا سِلْعَـةَ الـرحمنِ لَـوْلاَ أنَّهَـا
حُـجِبَـتْ بِكُـلّ مَكَـارِهِ الإنْـسَـانِ
مـا كَـانَ عَنْهَـا قَطُ مِـن مُتَـخلِّفٍ
وتَـعَـطّلتْ دَارُ الـجَـزاءِ الـثَّـانِي
لَـكِنَّـهَـا حُجِبَتْ بِكُـلِّ كَـرِيْهَـةٍ
لِيَصُـدَّ عَنْهَـا الْمُبْـطِلُ المُتَـوانِي
وتَنَـالُهَـا الْهِمَمُ الَتِي تَسْمُـوا إلى
رَبِّ الْـعُلى بِـمَـشِيْئَـةِ الـرّحـمـنِ

اللّهُمَّ اجْعَلْنَا مِن المتقينَ الأبْرارِ وأَسْكِنَّا مَعَهمُ في دارِ القرارَ ، اللهم وفقنا بِحُسْن الاقبالِ عَليك والإصْغَاءِ إليك ووَفّقْنَا لِلتّعاوُنِ في طَاعَتِكَ والمُبَادَرَةِ إلى خِدْمَتكَ وحُسْن الآداب في مُعَامَلَتِكَ والتّسليم لِأمْرك والرّضا بِقَضَائِكَ والصَّبرْ عَلى بَلائِك والشّكْرِ لِنَعْمَائِكَ ، واغفرَ لَنا ولوالدينا ولجميع المسلمين الأحياء منهم والميتين برحمتِكَ يا أرْحَمَ الراحمين وصلى اللهُ على محمدٍ وآلِهِ أجمعين .

(فصلٌ)

في فَضَائِلِ الاسْتِغْفَار

يُسْتَحَبُّ الإكْثَارُ مِن الاسْتِغْفار في كُلِّ وَقْتٍ ، ويَتَأَكَّدُ في الزمَّانِ الفَاضِل ، والمكانِ الفاضِلْ ، قال تعالى : ﴿ والمُسْتَغْفِرين بالأسْحَار ﴾ وقال : ﴿ أفلاَ يَتُوبُون إلى اللهِ ويَستغفرونَهُ واللهُ غفورٌ رَحيم ﴾ ، وقال

تعالى : ﴿ ومَا كان اللهُ مُعذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغفِرون ﴾ ؛ وقالَ تعالى ، مُخْبِراً عن نوح : ﴿ . . فَقُلت استغفروا رَبّكُم إنه كانَ غفّاراً يُرْسِلِ السّماءَ عليكم مِداراً وَيُمْدِدكُمْ بأمْوالٍ وَبَنِيْنَ وَيَجعل لَكُمْ جَنّاتْ ﴾ الآيَـةْ ، وقالَ تَعالَى ﴿ والَّذِيْنَ إذا فَعلوا فاحِشةً أوْ ظَلَمُوا انْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللّهَ فاسْتَغْفرُوا لِذُنُوبِهِمْ ، ومَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ الاّ اللّهْ ﴾. وقالَ تَعالى : ﴿ وَمنْ يَعْمَل سُوءاً وَيَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللّهَ ، يَجِدِ ، اللّه غَفُوراً رَحِيْما ﴾ .

وَعَنْ شَدّادِ بْنُ أوْسٍ ـ رَضْي اللّهُ عَنْهُ ـ عَنِ النّبِيّ صَلّى اللّهُ عليهِ وَسَلّمْ ، قالْ : « سَيِّدُ الاسْتِغفَارُ أنْ يَقُولَ العَبْدُ : اللّهُمّ أنْتَ رَبِّي ، لاَ إلهَ إلاّ أنْتَ ، خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ ، وأَنَا عَلى عَهْدِكَ ووَعدِكَ ما اسْتَطَعْتُ، أعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْت ، أبوءُ لَكَ بِنَعمتِكَ عَلَيْ ، وأبُوء بِذَنْبي ، فاغْفِرْ لِي ، إنّهُ لاَ يَغْفُر الذُّنُوبَ إلا أنْتَ »[1] .

وَعَنِ ابْنِ عُمَرْ ـ رَضْي اللّهُ عَنْهُما ـ قَالْ : إنّا كُنّا لَنَعُدُّ لِرَسُولِ اللّهِ صَلى اللهُ عليهِ وَسَلّمْ في المجْلِس يَقُولْ : « رَبّ إغفِرْ لِي ، وتَبْ عَلَيْ ، إنّكَ أنْتَ التّوابُ الغَفُور » مِائِةَ مَرّةْ[1] .

وَعَنْ عَبْدِ اللّهِ بْنُ بُسْرٍ ـ رَضْي اللّهُ عَنْه ـ قالَ : قَالَ رسُولُ اللّهِ صلّى اللهُ عليهِ وسَلّمْ : « طُوبَى لِمَنْ وُجِدَ في صَحِيْفَتِهِ : اسْتِغفَـارٌ كَثِيرْ »[2] .

وعَنْ أبِي هَرَيرْةَ ـ رَضْي اللّهُ عَنْه ـ قَالْ : قَالَ رسولُ اللّهِ صَلّى اللهُ عليهِ وسَلّمْ : « انّ اللّهَ عَزّ وَجَلْ لَيَرْفَعُ الدّرَجَة لِلْعَبْدِ الصّالِحِ في الجَنّة فَيقُولُ : يَا رَبِّ ، أنّي لِي هَذِه ؟ فَيَقُولُ : باسْتِغْفارِ وَلَدِكَ لَكْ »[4] .

وعَنْ ابْنُ عَبّاسٍ ـ رَضْي اللّهُ عَنْهُما ـ قَالْ : قَالَ رسولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عليهِ وسَلم : « مَنْ لَزِمَ الاسْتِغْفَارَ جَعَلَ اللّهُ لَهُ مِنْ كُلِّ هَمٍّ فَرَجا وَمِنِ كُلِّ ضِيقٍ مَخْرَجا ، وَرَزَقَهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسب »[٣]

وَعَن الأَغَرِ المُزَنِي ـ رَضْي اللّهْ عَنْهِ ـ قَالَ رَسُولُ اللّهِ صلَّى اللّهُ عَلَيهِ وسَلّمْ : « إنَّهُ لَيُغَانُ على قَلْبِي ، وَإنّي لأَسْتَغْفِرُ اللّهَ في اليومِ مِائَةَ مَرَّةْ »[٥] .

وَقَالَ حُذَيْفَةْ : كُنْتُ ذَرِبَ اللّسَانِ عَلَى أهْلِي ، فَقُلْتُ : يا رسولَ اللّهْ ، لَقَدْ خَشِيْتُ أنْ يُدْخِلنِي لِسَاني النَّارْ ، فَقَالَ النّبيُّ صَلّى اللّهُ عليهِ وَسَلّمْ : « فأيْنَ أنْتَ مِنَ الاسْتِغْفَارِ ، فَإنِّي لأَسْتَغْفِرُ اللّهَ في اليومِ مِائَةَ مَرّة » أخرْجَهُ النَّسَائِي .

وَعَنْ زَيْدٍ مَوْلَى رسولَ اللّه صَلّى اللّهُ عليهِ وَسَلَمْ ، أنّهُ سَمِعَ النّبِيَّ صَلّى اللّهُ عليهِ وَسَلّم يَقُولْ : « مَنْ قَالْ : أسْتَغْفِرُ اللّهَ الذي لا إلهَ إلاّ هُو ، الحَيّ الْقَيّومُ ، وأتُوبُ إليهِ غَفَرَ لَهُ ، وإنْ كَانَ قَدْ فَرَّ مِنَ الزّحْفِ » رواهُ أبو دَاوُدْ .

وَعَنْ أبي سَعِيدٍ الخُدْرِي ـ رَضْي اللّهُ عَنْه ـ عَنِ النّبي صَلّى اللّه عليهِ وسَلّم قال : « مَن قالَ حِينَ يأوِي الى فِرَاشِهَ : أسْتَغْفِرُ اللّهَ الذي لا إله الاّ هُو ، الحْيُّ القيومُ ، وأتوبُ اليْه ـ ثلاثَ مَرّاتْ ـ غُفِرَتْ لَهُ ذُنُوبُه ، وانْ كانَت عَدَدَ رَمْلِ عَالِجْ ، وأنْ كانَتْ عَدَدَ أيامِ الدّنْيا » رواهُ الترمذي .

وَعَنْ أنَس ـ رَضي اللّهُ عَنْه ـ سَمعْتُ رَسُولَ اللّهِ صَلّى اللّه عليهِ وَسَلّمْ يقول : « قالَ اللّهُ تَعالى : يَا ابْنَ آدم إنّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَني

غَفَرْتُ لَكَ عَلى مَا كانَ مِنْكَ ولا أُبالِي ، يا ابْنَ آدَم ، لو بَلَغَتْ ذُنوبُكَ عَنانَ السَّماءِ ثُمّ اسْتَغْفَرتَني غَفَرتُ لَكَ ولا أُبالِي ، يا ابْنَ آدَمَ إنّكَ لَوْ أتَيْتَنِي بِقُرابِ الارْضِ خَطايَا ثُمّ لَقِيْتَنِي لا تُشْرِكُ بِي شَيْئا لأَتَيْتُكَ بِقُرابِها مَغفِرةً رواهُ التّرمذي .

وَعَنْ أبِي سَعِيْدٍ الخُدْري ـ رَضْي اللّهُ عَنْهِ ـ عَن النَّبـي صَلّى اللّهُ عليهِ وَسَلّمَ قَالْ : « قَالَ ابلِيْسُ : وعِزّتِكَ لا أبْرَحُ أغْوِيْ عِبَادَكَ ما دَامَتْ أرَواحُهُمْ في أجْسَادِهُم ، فَقالْ : وَعِزّتِي وَجَلاَلِي لا أزَالُ أغْفِرُ لَهُمْ ما اسْتَغْفَرُونِي »[٣] .

وَعَنِ الزُبَيْرِ ـ رَضْي اللّهُ عَنْه ـ أنَّ رَسُولَ اللّه صَلّى اللّهُ عليه وسلم قال : « مَنْ أحَبّ أنْ تَسُرَّهُ صَحِيْفَتُهُ فَلْيُكْثِر فِيها مِنَ الاسْتِغْفَارْ »[٤] .

وعَنْ أبِي هُرَيْرَةَ ـ رَضْي اللّهُ عَنْه ـ عَنِ الرّسُولِ صَلّى اللّهُ عليه وسَلّمْ قالْ : « إنّ العَبْدَ إذَا أخْطَأَ خَطِيئةً نَكَتَتْ في قَلْبِهِ نُكْتَةٌ ، فانْ هُوَ نَزَعَ واسْتَغْفَرَ صُقِلَتْ ، فَانْ عَادْ زِيْدَ فِيْها حَتى تَعْلُو قَلْبَهُ ، فذلِكَ الرّانُ الذِي ذَكَرُ اللّه تَعالى : ﴿ كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلى قُلوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونْ [١] ﴾ .

وَرُوِيَ عَنْ أنَسْ ـ رَضْي اللّهُ عَنْه ـ أنّ رَسولُ اللّهِ صَلّى اللهِ عليهِ وسَلمْ قَـالْ : « إنّ لِلْقُلوبِ صَـدأً كَصَـدأِ النُّحَـاسِ ، وجَـلاَؤُهَـا الاسْتِغْفَارُ »[٢] .

وَرَوِيَ عَنْ أنَس بْنُ مَالِكَ ـ رَضْيَ اللّهُ عَنْه ـ قَالْ : كَانَ رسُولُ الله صلى الله عليهِ وسَلمَ في مَسْيرَةٍ ، فَقَالْ : « اسْتَغْفِرُوا اللّهَ ، فاسْتَغْفَرْنَا ، فَقَالَ : « أتِمُّوْهَا سَبْعِينَ مَرّةْ » فَأتْمَمْنَاهَا ، فَقَالَ رَسولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عليهِ

وَسَلَّمْ : « مَا مِنْ عَبْدٍ وَلَا أَمَةٍ يَسْتَغْفِرُ اللّهَ في يَوْمِ سَبْعِيْنَ مَرَّةٌ إلَّا غَفَرَ اللهُ لَهُ سَبْعُمِائَةَ ذَنْب ، وَقَدْ خَابَ عَبْدُ أو أمَة عَمِلَ في يَومٍ ولَيْلَةٍ أكْثَرُ مِنْ سَبْعِمِائَةِ ذَنْبٍ »[٣] .

وَعَنْ أبِي هُرَيْرَةَ ـ رَضْي اللّهُ عَنْه ـ قَال : قَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللهُ عَليهِ وسَلَّم : « والّذِي نَفْسِي بَيدِهِ لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللّه تَعالى بِكُمْ وَلَجَاء بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ فَيسْتَغْفِرُونَ اللّهَ تَعالى فَيَغْفِرُ لَهُمْ » رواهُ مُسْلَمِ .

وَفِي حَدْيث سَلْمَانْ : « فاسْتَكْثُروا فِيه مَنْ خَصْلَتَيْنِ تُرْضُونَ بِهِمَا رَبَّكَمْ وَخْصلتينِ لا غِنَى لَكُمْ عَنْهُما ، فأمّا الخَصْلَتانِ اللّتانِ تُرْضُونَ بِهِمَا رَبّكمُ فَشهادَةُ أنّ لاّ إله إلاّ اللّهَ ، والاِسْتِغفَارُ وَأَمَّا التِي لا غِنَى بِكُمْ عَنْهُمَا فَتَسْأَلونَهُ الجَنّة وتَعُوذُونَ بِهِ مِنَ النّارْ » .

فَهذِهِ الخِصَالُ الأَرْبَعُ المذكُورَةِ في الْحَدْيثِ كُلّ مِنْهَا سَبَبٌ لِلْمَغْفِرةِ والعْتقِ مِنَ النارِ، فأمّا كَلِمَةُ الإخْلاصِ فإنّها تَهْدِمُ الذّنُوبَ وتَمْحُوها مَحْواً ، وَلاَ تُبْقِى ذَنْباً ، وَلاَ يَسْبِقُها عَمَلٌ ، وَهْيِ تَعْدِلُ عِتْقُ الرِّقَاب الّذِي يُوجِبُ الْعِتْقَ من النّارِ ، وَمَنْ أتى بِهَا حِيْنَ يُصْبِحُ وَحِيْنَ يُمْسِي أعْتَقَهُ اللّهُ مِنَ النّارْ ، وَمَنْ قَالها خَالِصاً مِنْ قَلْبِهِ حَرّمَهُ اللّهُ عَلَى النّارِ .

وَأَمَّا كَلِمَةُ الاسْتِغْفَارُ فَمِنْ أعْظَمِ أسْبَابِ الْمَغْفِرَةْ . فَإنَّ الاسْتِغْفَارَ دُعَاءٌ بالمغْفِرَةْ ، وَدُعَاءُ الصّائِمِ إذَا اجْتَمَعَتْ لَهُ الشّرُوطُ وانْتَفَتْ المَوانِعْ مُسْتَجَابٌ حَالَ صِيَامِهِ وعِنْدَ فِطْرِهْ .

وَفِي حَدْيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ : « وَيَغْفِرُ اللّهُ إلاّ لِمَنْ أبَى ، قالُوا يَا أَبَا هُرَيْرَةَ وَمَنْ يَأبَى؟ قَالْ : يَأْبَى أنْ يَسْتَغْفِرَ اللّهْ » .

وَقَالَ لُقْمَانُ لابْنِهْ : يَا بُنَيَّ عَوِّدْ لِسَانَكَ الاسْتِغْفَارْ ، فَإِنَّ لِلّهِ سَاعَاتٍ لاَ يَرُدُّ فِيْهِ سَائِلاً ، وَقَدْ جَمَعَ اللّهُ بَيْنَ التَّوْحِيْدِ والاسْتِغْفَارِ ، فِي قَوْلِهِ : ﴿ فاعْلَمْ أَنَّهُ لا إلهَ إلاّ اللّهُ واسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكْ ﴾ .

وَفِي بَعْضِ الآثَارْ : أَنّ ابْلِيْسَ قَالَ : أَهْلَكْتُ النَّاسَ بالـذنُوبِ وأَهْلكُونِي بالاسْتِغفارِ وَلاَ إلهَ إلاَّ اللَّهُ .

والاسْتِغْفَارُ خِتامُ الأعْمَالِ الصّالِحَةِ كُلِّهَا فَيُخْتَمُ بِهِ الصّلاَةُ والحَجُّ والْقِيامُ في اللّيْلِ وَيُخْتَمُ بِهِ المجَالِسُ ، فإِنْ كانَتْ ذِكْراً كانَ كالطّابَعِ عَلَيْهَا وإِنِ كانَتْ لَغْواً كَانَ كَفّارَةً لَها ، فَكَذَلِكَ يَنْبغي أنْ يُخْتَتم صِيَامُ رَمَضانَ بالاسْتِغْفَارِ يُرَقِّعُ مَا تَخَرّقَ مِن الصِّيَامُ باللّغْوِ والرّفَثِ « وَيَجتَهِدُ في الاكْثَارِ مِنَ الاعْمَالِ وَالتَّقَلُّلِ مِنْ شَواغِلِ الدُّنْيا والإِقْبالِ على الآخِرَةِ ما دَامَ في قَيْدِ الحياةْ » .

ومِن عِظَةِ الْحَسَنِ الْبَصْرِي لِعُمَرَ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيْزِ أَمّا بَعْدُ فانّ الدُّنْيا دَارُ ظَعَنٍ لَيْسَتْ بِـدارَ إقَامَةْ لَهَا في كُلِّ حِيْنٍ قَتِيْلٌ تُذِلَّ مَنْ أعَزّهَا وَتُفْقِرُ مَن جَمَعَهَا هِيَ كالسُّمِّ يَأْكُله مَنْ لاَ يَعرِفُهُ وفيهِ حَتْفُهُ فَكُنْ فِيْها كا المدَاوي جِرَاحُه يَحْتَمِي قَلِيْلاً مَخافَة مَا يَكْرَهُ طَوِيْلاً ويَصْبرُ على شِدَّةِ الدّواءِ مَخَافَةَ طُولِ الدّاءِ ، فأحْذَرْ هَذهِ الدّنْيا الخَدَّاعةَ الغَدّارَةَ الخَتّالَـةَ الّتي قَدْ تَـزَيَّنَتْ بِخِدَعِهَا وقَتَلَتْ بِغُرُورِهَا وتَحَلَّتْ بآمالِها وسَوّفَتْ بِخُطّابِها .

فأصْبَحَتْ كالْعَرُوْسِ المَجْلِيَّةْ العُيُوْنُ إِلَيْهَا نَاظِرَةٌ والْقَلوبُ عَلَيْها وَإِلَهةٌ وَهْي لأَزْوَاجِها كُلِّهِمْ قَالِيَة ، فَلا الْباقِي بالْماضِي مُعْتَبِرٌ وَلاَ الآخِرُ بالأَوّلِ مُزْدَجِرٌ ، فَعَاشِقٌ لَهَا قَدْ ظَفِرَ مِنْها بِحَاجَتِهِ فاغْتَرَّ وَطَغَى ونَسِيَ

المَعَادَ فَشغَلَ فِيها لُبَّهُ حتّى زَلّتْ بِهِ قَدَمُهُ فَعَظُمَتْ نَدَامَتُهُ وكَثُرَتْ حَسْرَتُهُ واجْتَمَعَتْ عليهِ سَكَراتُ الْموتِ وتألُّمهُ وحَسَرَاتُ الفَوْتِ بِغُصَّتِهِ وَراغِبٌ فِيها لَمْ يُدْرِكْ مِنْهَا مَا طَلَبْ وَلَمْ يُرِحْ نَفْسَهُ مِنَ التّعَبِ فَخرَجَ بِغَيْرِ زَادٍ وقَدَمَ على غَيْرِ مِهادٍ .

فاحْذَرْهَا يا أميرَ المؤمِنِينَ وَكُنْ أَسَرَّ مَا تَكُونُ فِيها أَحْذَرُ لَهَا فإنَّ صَاحِبَ الدَّنْيا كُلّما اطْمأنّ فِيْها إلى سُرورٍ أشْخَصَتْه إلى مَكْرُوهٍ وضَارٍ وَقَدْ وصِلَ الرَّخاءُ مِنْها بالبَلاءِ وجُعِلَ البَقَاء إلى فَناءِ فَسُرُوْرُها مَشُوبٌ بالأحْزَانْ أمَانِيُّهَا كَاذِبَةٌ وآمَالُها باطِلَةٌ وَصَفْوهَا كَدَرٌ وعَيْشُها نَكَدٌ وابْنُ آدَمَ فِيْها عَلى خَطَرٍ إ هـ .

شِعْرَاً :

فَيَا أيُّها النّاسِي لَيومِ رَحِيْلِهِ
أَرَاكَ عنِ الموتِ المُفِرَقِ لاَهِيا
أَلا تَعْتَبِرُ بالرَّاحلِيْنَ إلى الْبلَى
وتركِهُم الدّنْيَا جَمْيعاً كَمَا هِيَا
وَلَمْ يَخْرُجُوا إلاّ بِقُطنٍ وخِرْقَةٍ
وَمَا عَمَّرُوا مِنْ مَنْزِلٍ ظَلَّ خَالِيَا
وَأَنْتَ غَداً أوْ بَعْدَهُ في جِوارِهِمْ .
وَحِيْداً فرِيْداً في المَقابِر ثِاوِيَا

اللّهُمّ يَا مَنْ لاَ تَضُرُّهُ الْمعصِيَةُ ولاَ تَنْفَعُه الطَّاعَةُ أيْقِظْنَا مِنْ نَوْمِ الغَفْلَةِ وَنَبّهْنَا لاغْتِنَام أوْقَاتِ المُهْلَةِ وَوَفّقْنَا لِمصَالِحِنَا واعْصِمْنَا مِنْ قَبَائِحِنا وذُنُوبِنا ولا تؤُاخِذْنَا بمَا انْطَوَتْ عليْهِ ضَمائِرُونا واكَنّتْهُ سَرَائِرُونا مِنْ أنْواعِ

القَبَائِحِ والمَعَائِبِ التي تَعْلَمُها مِنّا واغْفِرْ لَنَا ولِوالِدِيْنَا ولِجميعِ المُسْلِمينَ الاحْياءِ مِنهُمْ والميتِينَ بِرَحْمَتِكَ يا أرْحَمَ الرّاحِمينَ وصَلى اللهُ على مُحَمّدٍ وعَلَى آلِهِ وَصَحْبِه أجْمعين .

(فَصْلٌ)

في أحْكَامِ الأعْتِكَافِ في المسْجِدْ

الإعْتِكَافُ لُغَةً : لُزُوْمِ الشَّيء ، وَحَبْسُ النَّفْسِ عَلَيْهِ بِرّاً كَانَ أو غَيْرِهِ ، وفي الشَّرْعِ : لُزُوْمُ مُسْلِمٍ لا غُسْلَ عَلَيْهِ ، عَاقِلٍ وَلَوْ مُمَيّزاً ، مَسْجِدَاً وَلَوْ سَاعَةً مِن لَيْلٍ أو نَهَارٍ لِطَاعَةِ اللّهِ .

وَهُوَ سُنَّةٌ في كُلِّ وَقْتٍ،وَفي رَمَضَانَ آكَدَهُ،وَأَكَدُهُ عَشْرَهُ الأَخِيْرُ ، لِمَا وَرَدَ عَنْ عائِشَةَ ـ رَضْيَ اللهُ عنْهـا ـ قالَتْ : « كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَعْتَكِفُ العَشْرَ الأَوَاخِرَ مِنْ رَمَضَانْ .

وَعَنْ أَنَسٍ ـ رَضْيَ اللهُ عَنْهُ ـ قَالْ : « كَانَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ يَعْتَكِفُ الْعَشْرَ الأَوَاخِرَ مِنْ رَمَضَانْ ، فَلَمْ يَعْتَكِفْ عاماً فَلَمَّا كَانَ في الْعَامِ المُقْبِلِ إعْتَكَفَ عِشْرِيْنَ » .

أَمَّا كَوْنُهُ لا يَصِحُّ مِنَ الكافِرْ،فَلِأَنَّهُ مِنْ فُرُوعِ الإيمانِ ، وَلَا يَصحّ مِنْهُ كالصَّوْمِ ، وأَمَّا مَنْ زَالَ عَقْلُهُ كالمَجْنُونِ فَلِأَنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِ العِبَادَاتِ فَلَمْ يَصِحْ مِنْه .

أَمَّا كَوْنُهُ لا غُسْلَ عَلَيْهِ ، فَلِقَوْلِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ في حَدِيْثِ عائِشَةَ ـ رَضْيَ اللهُ عنْهـا ـ : « إِنِّي لآ أُحِلُّ الْمَسْجِدَ لِحَائِضٍ وَلَا جُنُبْ » .

وأمّا كَوْنُهُ في مَسْجِدٍ ، فَلِقَوْلِهِ تَعالى : ﴿ وَأَنْتُمْ عَاكِفُوْنَ في المَسَاجِدِ ﴾ وَلاَ يَصِحُّ إلاَّ في مَسْجِدٍ تُقَامُ فِيهِ الْجَمَاعَةْ ، لِأَنَّ الإِعْتِكَافَ في غَيْرِهِ يُفضِي إمّا إلى تَرْكِ الْجَمَاعَةْ ، أو تكَرُّرِ الْخُروجِ إِلَيْهَا كَثِيراً مَعَ إِمْكَانِ التَّحَرُّرِ مِنه ، وَهُوَ مُنَافٍ لِلإِعْتِكَافْ .

وَالإِعْتِكَافُ في مَسْجِدٍ تُقَامُ فِيه الْجُمُعَةَ أَفْضَلُ ، لِئَلاَّ يَحْتَاجَ إلى الخُروجِ إِلَيْهَا ، وَلأَنَّ ثَوَابَ الجَمَاعَةِ في الجَامِعِ أَكْثَرُ ، وَلِأَنَّهُ صلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ أعْتَكَفَ في الْمَسْجِد الْجَامِعِ .

وَيَجِبُ الأَعْتِكَافُ بالنَّذْرِ ، قَالَ إِبْنُ المُنْذِرِ أجْمَعَ أَهْلُ العِلْمِ على أنَّ الأَعْتِكَافَ لا يَجِبُ عَلَى النَّاسِ فَرْضاً إلاّ أنّ يُوجِبَ المرءُ عَلَى نَفْسِهِ الإِعْتِكَافُ نَذْراً ، لِقَوْلِهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ : « مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطِيعَ اللَّهَ فَلْيُطْعِهُ » .

والأَفْضَلُ أنْ يَعْتَكِفَ بِصَوْمٍ ، وَلِأَنَّ النَّبي صَلى اللهُ عليه وسَلَّمَ كَانَ يَعْتَكِفُ في شَهْرِ رَمَضَانَ، فَإن اعْتَكَفَ بِغَيْرِ صَوْمٍ جَازْ ، لِحَدِيْثِ عُمَرَ ـ رَضْي اللهُ عَنْه ـ قال : قُلتُ : يا رَسُولَ اللَّهْ ، إِنِّي نَذَرْتُ في الْجَاهِلِيَّةِ أنْ أعْتَكِفَ لَيْلَةً في الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ قَالْ : « فَأَوْفِ بِنَذْرِكَ » .

وَلَوْ كَانَ الصّوْمُ شَرْطَاً فِيه لَمَا صَحَّ اعْتِكَافُ اللَّيْلِ ، وكَالصَّلاَةِ وسَائِرِ الْعِبَادَاتِ .

وَلاَ يَصِحُّ اعْتِكَافُ الأَبْنِيَةِ ، لِأَنَّهُ عِبَادَةٌ مَحْضَةٌ ، وَلِحَدِيثِ : « إِنّما الأَعْمَالِ بالنِيات » .

وَمَنْ نَذَرَ الأَعْتِكَافَ أو الصَلاَةَ في مَسْجِدٍ غَيْرِ الثّلاَثَةْ ، وَهِيَ . المَسْجِدُ الحَرَامُ ، ومَسْجِدُ الْمَدِينَةِ ، والْمَسْجِدُ الأَقْصَى : جَازَ لَهُ أنْ

يَعْتَكِفَ في غَيْرِهِ لِأَنَّهُ لَا مَزِيَّةَ لِبَعضِها عَلَى بَعْضٍ .

وَإِنْ نَذَرَ أَنْ يَعْتَكِفَ في الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ لَزِمَهُ أَنْ يَعْتَكِفَ فِيه لِمَا رُوِيَ عَنْ عُمَرْ ـ رَضْيَ اللهُ عَنْهُ ـ أَنَّهُ سَأَلَ النَّبي صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ ، قال : كُنْتُ نَذَرْتُ في الْجَاهِلِيَّةِ أَنْ أَعْتَكِفَ لَيْلَةً فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ، قَال : « أَوْفِ بِنَذْرِكَ » .

وَلِأَنَّهُ أَفْضَلُ مِنْ سَائِرِ الْمَسَاجِدُ ، وَلَا يَجُوزُ أَنْ يُسْقِطَ فَرْضَهُ بِمَا دُوْنَهُ .

وَإِنْ نَذَرَ أَنْ يَعْتَكِفَ في مَسْجِدِ الْمَدِيْنَةِ جَازَ لَهُ أَنْ يَعْتَكِفَ في الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ، لِأَنَّهُ أَفْضَلَ مِنْهُ ، وَلَمْ يَجُزْ أَنْ يَعْتَكِفَ في الْمَسْجِدِ الأَقْصَى ، لِأَنَّ مَسْجِدَ النَّبيّ صلَّى اللهُ عليْهِ وَسَلَّمْ أَفْضَلُ مِنْهُ .

وَإِنْ نَذَرَ أَنْ يَعْتَكِفَ في الْمَسْجِدِ الأَقْصَى جَازَ لَهُ أَنْ يَعْتَكِفَ فِي أَيِّ المَسْجِدَيْنِ أَحَبَّ لأَنهما أَفْضَلَ مِنْهُ . بِدَلِيْلِ قَوْلِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ : « صَلَاةٌ في مَسْجِدِي هَذَا أَفْضَلُ مِنْ أَلْفِ صَلَاةٍ فِيْمَا سِوَاهُ إِلَّا الْمَسْجِدَ الْحَرَامْ » .

وَلَا يَجُوزُ لِلْمُعْتَكِفِ أَنْ يَخْرُجَ مِنَ الْمَسْجِدِ لِغَيْرِ عُذْرٍ ، لِمَا رَوَتْ عَائِشَةُ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا ـ قَالَتْ : « إِنَّ رَسُولَ اللّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ لَيُدْخِلُ عَلَيَّ رَأْسَهُ وَهُوَ في الْمَسْجِدِ فَأُرَجِّلُهُ ، وكانَ لَا يَدْخُلَ البَيْتَ إِلَّا لِحَاجَةٍ إِذَا كَانَ مُعْتَكِفًا » .

وَعَنْهَا ـ رَضْيَ اللَّهُ عَنْها ـ قَالَتْ : « السُّنَّةُ عَلَى المُعْتَكِفِ أَنْ لَّا يَعُودَ مَرِيْضاً ، وَلَا يَشْهَدَ جَنَازَةً ، وَلَا يَمَسُّ إِمْرَأَةً وَلَا يُبَاشِرَهَا ، وَلَا يَخْرُجَ

لِحَاجَةِ إِنْسَانِ الاّ مِمَّا لَا بُدَّ مِنْهُ ، وَلَا اعْتِكَافَ إلاّ بِصَوْمٍ ، ولَا اعْتِكَافُ إِلَّا في مَسْجِدٍ جَامِعٍ » .

فَإِنْ خَرَجَ من غَيْرِ عُذْرٍ بَطُلَ إعْتِكَافُهُ، لِإِنَّ الإعْتِكَافَ: اللُّبْثُ في المَسْجِدِ ، فَإِذَا خَرَجَ فَقَد فَعَلَ مَا يُنَافِيْهِ مِن غَيْرِ عُذْرٍ كَمَا لَو أَكَلَ في الصَّوْمِ ذَاكِرَاً .

وَيَجُوْزُ أن يَخْرُجَ لِحَاجَةِ الإِنْسَانِ ولا يَبْطُلُ اعْتِكَافُهُ ، وَكَذَا إِنْ خَرَجَ مِن المسجِدِ نَاسِيَاً لَمْ يَبْطُل إعْتِكَافُهْ ، لِقَوْلِهِ صلى اللهُ عَلَيْهِ وسلَّمْ : « رُفِعَ عن أمّتِي الخَطأُ والنسيانُ وَمَا اسْتُكْرِهُوا عليهْ » .

وَيُسْتَحَبُّ لِلْمُعْتَكِفِ التَّشَاغُلِ بفعلِ القُرَبِ كَقِرَاءَةِ القُرآنِ ، والْأَحَادِيثِ الصَّحِيْحَةِ، والصَّلَاةِ ، وذِكْرُ اللَّهِ ، ونَحْوِ ذَلِكْ .

وَسُنَّ لَهُ اجْتِنَابُ مَا لَا يَعْنِيْهِ مِنْ جَدَلٍ وَمِرَاءٍ وكَثْرَةِ كَلامٍ لِمَا وَرَدَ عنْ أبِي هُرَيْرَة ـ رَضْيَ اللهُ عَنْهُ ـ قال : قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ : « مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ المرءِ تَرْكُهُ مَالَا يَعْنِيْهِ » .

اللَّهُم وَفِّقْنَا لِصَالِحِ الأَعْمَالَ ،ونَجِّنَا من جميعِ الأَهْوَالِ ، وأَمِّنَا مِنَ الفَزَعِ الأكْبَرِ يومَ الرَّجْفِ والزِلْزَالْ ، وَاغْفِرْ لَنَا ولِوَالِدَيْنَا ، وَلِجَمِيْعِ المُسْلِمِيْنَ الأَحْيَاءِ منهم والميتين بِرَحْمَتِكَ يا أرحَمَ الرَّاحِمِيْنَ ، وصَلى اللهُ على محمدٍ وآلِهِ وصحبه أجمعين .

(فَصْلٌ)

في بِنَاءِ المساجِدِ وآدَابِهَا

وَيَبْحَثُ فِي :

١ ـ مَا وَرَدَ فِي الحَثِّ على بِنَاءِ المساجِدِ وَثَوَابِهَا العظيم .

٢ ـ ما وَرَدَ في صِيَانَةِ المَسَاجِدِ عن الأقذَارِ وتَنْظِيْفِهَا .

٣ ـ مَا وَرَدَ في تَجَنُّبِ آكِلِ البَصَلِ والثُّوْمِ الصَّلاَةَ في المساجِدِ ، وإبْعَادِ الصغيرِ والمجنون .

٤ ـ يَنْبَغِي تَجْنِيْبُ المساجِدِ البيعَ والشِّرَاءَ وَرَفْعَ الصَّوْتِ وَنُشْدَانَ الضَّالَةِ فِيْهَا .

٥ ـ حُرْمَةُ المبالَغَةِ في زَخْرَفَةِ المساجِدِ .

٦ ـ كَرَاهَةُ إلْتِزَامُ مَوْضِعٍ مُعَيَنٍ مِن المسجِدِ لِلصَّلاَةِ لِغَيرِ الإمَامْ .

١ ـ مَا وَرَدَ في الحَثِّ على بِنَاءِ المساجِدِ ، وثَوَابِهَا العظيمْ :

بِنَاءُ المساجِدِ في الأمْصَارِ والقُرَى والمَحَالِّ ونَحْوِهَا حَسَبَ الحَاجَةِ فَرْضُ كِفَايَةٍ وَيُسْتَحَبُّ إتَّخَاذُ المساجِدِ في الدُّورِ ، وتَنْظِيفِها وتَطْيِيبِهَا ، قَال تَعالى : ﴿ في بُيُوتٍ أذنَ اللهُ أنْ تُرْفَعَ ويُذْكر فِيْها اسْمُهْ . . ﴾ الآية ، لِما رَوَتْ عَائِشَةَ ـ رَضْيَ اللهُ عنها ـ قَالَتْ : أمَرَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ علَيهِ وَسَلَّمْ بِبِنَاءِ المساجِدِ في الدّوْرِ ، وأنْ تُنَظَّفَ وتُطَيَّبْ .

وَعَنْ عُثْمَانَ بنُ عَفّانٍ ـ رَضْيَ اللهُ عَنْهُ ـ قالْ : سَمِعْتُ رسولَ اللهِ

صلى اللهُ عَلَيْهِ وسلم يقُولُ : « مَنْ بَنَى لِلَّهِ مَسْجِداً بَنَى اللّه لَهُ مِثْلَه في الْجَنّةْ » .

وَعَنْ ابْنُ عَبّاسْ ـ رَضْيَ اللهُ عَنْهُمَا ـ عَن النّبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ قالْ : « مَنْ بَنَى لله مَسْجِداً وَلَوْ كَمَفْحَصِ قَطَاهٍ بَنَى لَهُ بَيْتاً في الجنة » .

وَعَنْ عُمَرَ بْنُ الخَطَّابْ ـ رَضْيَ اللهُ عَنْهُ ـ قالْ : سَمِعْتُ رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلَّمْ يَقُولْ : « مَنْ بَنَى لِلَّهِ مَسْجِداً يُذْكَرُ فِيهِ اللَّهُ ، بَنَى اللَّهُ لَهُ بَيْتاً في الجنة » .

وَرُوِيَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَة ـ رَضْيَ اللهُ عَنْهُ ـ قالَ : قَالَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : « مَنْ بَنَى بَيْتاً يُعْبَدُ اللهُ فِيْهِ ، مِن مَالٍ حَلاَلٍ بَنَى اللهُ لَهُ بَيْتاً في الجنة » .

وَرُوِيَ عَنْ عَائِشَةَ ـ رَضْيَ اللهُ عَنْهَا ـ عَن النَّبي صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمْ قالْ (مَنْ بَنَى مسْجِداً لاّ يُرِيْدُ رِيَاءً ولا سُمْعَةً بَنَى اللهُ لَهُ بَيْتاً في الجنة » .

وَعَنْ أبِي هُرَيْرَة ـ رَضْيَ اللهُ عَنْهُ ـ قَالْ : قَالَ رسولُ اللهِ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ : « إنّ مِمّا يَلْحَقُ المُؤْمِنَ مِنْ عَمَلِهِ وحَسَنَاتِهِ بَعْدَ مَوْتِهِ : عِلْماً عَلّمَهُ وَنَشَرَهُ أوْ وَلداً صَالِحاً تَرَكَهُ ، أوْ مُصْحَفاً وَرّثَهُ ، أوْ مَسْجِداً بَنَاهُ أو بَيْتاً لابْنِ السّبِيلِ بَنَاهُ ؛ أوْ نهْراً أجْرَاهُ ، أو صَدَقَةً أخْرَجَهَا مِن مَالِهِ في صِحَّتِهِ وَحَيَاتِهِ ، تَلْحَقُهُ مِن بَعْدِ مَوْتِهِ » .

وَأَحَبُّ البلادِ إلى اللّهِ مَسَاجِدُها ، وأبغَضُ البلادِ الى اللهِ أسْوَاقُها ، فَعَنْ أبِي هُرَيْرَةَ ـ رَضْيَ اللهُ عَنْهَا ـ عَن النَّبيّ صلى اللهُ عليهِ وسَلَّمْ قَالْ :

« أَحَبُّ البلادِ إلَى اللهِ مَسَاجِدُهَا ، وأَبْغَضُ البلادِ إلى اللهِ أَسْوَاقُها » .

٢ ـ ما وَرَدَ في صِيَانَةِ المساجِدِ وتَنْظِيْفِهَا :

وَيُسَنُّ صِيَانَةُ المَسَاجِدِ عَنْ كُلِّ وَسَخٍ ، وَقَذَرٍ ، وَقَذَاةٍ ، ومُخَاطٍ ، وبُصَاقٍ ، وَتَقْلِيْمِ أَظْفَارٍ ، وقَصِّ شارِبٍ ، وحَلْقِ رأسٍ ، ونَتْفِ إبْطٍ ، لِمَا وَرَدَ عَنْ أَنَسٍ ـ رَضْيَ اللهُ عَنْهُ ـ قال : قَالَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمْ « عُرِضَتْ عَليّ أُجُورُ أَعْمَالِ أُمَّتِي حَتَّى الْقَذَاةَ يُخْرِجُهَا الرَّجُل مِنَ المسجِدِ » .

وَعَنْ أنسٍ ـ رَضْيَ اللهُ عَنْهُ ـ قالْ : قالَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عَلَيْهِ وَسلَّمْ « الْبُصَاقُ في الْمَسْجِدِ خَطِيْئَة ، وَكَفّارَتُها دَفْنُهَا » .

وَعَنْ أبِي هُرَيْرَة ـ رَضْيَ اللهُ عَنْهُ ـ أنّ إمرَأَةً سَوْدَاءَ كَانَتْ تَقُمُّ المَسْجِدَ فَفَقَدَهَا رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلَّمْ فَسَألَ عَنْهَا بَعْدَ أيّامْ ، فَقِيْلَ لَهْ : إنَّهَا مَاتَتْ ، فَقالْ : « فَهَلاّ أَذَنْتُمُونِي » ؟ فأتَى قَبْرَهَا فَصَلَّى عَلَيْهَا .

وعَنْ سَمْرَةَ بنُ جُنْدَبٍ ـ رَضْي اللهُ عنه ـ قالْ : أَمَرَنَا رسولُ اللهِ صلى الله عليهِ وسلم أنّ نتّخِذَ المساجِدَ في دِيَارِنا ، وأَمَرَنَا أنْ نُنَظِّفُهَا .

وعَنِ ابْنِ عُمَر ـ رضْي اللهُ عَنْهُما ـ قَالَ بَيْنَما رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يَخْطُبُ يَوْماً ، إذْ رَأى نُخَامَةً في قِبْلَةِ المسجدِفَتَغَيّظَ على النّاس ، ثُمّ حَكّها ، ـ قال وأحْسِبُه قالْ ـ : فَدَعا بِزَعْفَران فَلَطَخَهُ بِهِ ، وقالَ : « إنّ الله عزَّ وجَلّ قِبَلَ وَجْهِ أحَدِكُمْ إذا صَلَّى ، فلا يُبْصُقُ بِينَ يَدَيه » .

وعَنْ حُذَيفَة ـ رضِيَ اللهُ عنه ـ قالْ: قالَ رسولُ اللهِ صلّى الله عليه وسلم : مَنْ تَفَلَ تِجَاهَ الْقِبْلَةِ جَاءَ يومَ القِيَامَةِ وتَفْلُهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ وعن أبِي سَهْلَةَ السَّائِبِ بنِ خَلاّدٍ مِن أَصْحَابِ النبي صلى الله عليهُ وسلّم أنَّ رَجُلاً أمَّ قَوْماً فَبَصَقَ في القِبلَةِ وَرسُولُ اللهِ يَنْظُرُ فقال رسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسَلَّم حِيْنَ فَرَغَ : « لا يُصَلِيْ لَكُمْ هَذَا ، فأرَادَبَعْدَ ذَلِكَ أن يُصَلِيَ لَهُمْ فَمَنَعُوهُ وأخبَرُوْهُ بَقْولِ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليهُ وسَلّمَ فَذَكَر ذلكَ لِرَسُولِ اللهِ صلى اللهُ علَيه وسَلّمَ فقال : نَعَمْ ، وحَسِبْتُ أنّهُ قَالَ : « انَّكَ آذَيْتَ اللَّهَ ورَسُوْلَه » .

٣ ـ ما وَرَدَ في تَجَنبِ آكِلِ البَصَلِ والثّومِ الصّلاَةَ فيالمَسَاجِدِ وابعادِ الصّغِيرِ والمجنونِ عنهما :

يُسَنُّ صِيَانةُ المِساجِدِ عن رائحةٍ كريهةٍ مِنّ بَصلٍ وثُومٍ وُكُرّاثٍ ونحوها ، لِمَا وَرَدَ عن أنسٍ ـ رضي اللهُ عنه ـ قالْ : قَالَ النّبي صلى اللهُ عليه وسلمْ : « مِنْ أكل مِن هذِه الشّجَرَةِ فلا يَقْرَبَنَا وَلا يُصَلّينّ مَعَنا » .

وعَن ابْنُ عُمَرَ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهما ـ أَنَّ النبيَ صلى اللهُ عليهِ وسلم قَالْ : « مَنْ أكَلَ مِنْ هَذِه الشَّجَرَةِ ـ يَعْنِي الثُّومَ ـ فَلاَ يَقْرَبَنَّ مَسْجِدَنَا » .

وعنْ جَابِرٍ ـ رَضْي اللهُ عنْهُ ـ قال : قالَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلمْ : « مَنْ أَكَلَ ثُوماً أو بَصَلاً ، فَلْيَعْتَزِلْنَا ـ أو ، فَلْيَعْتَزِلْ مَسْجِدَنَا » .

وَفِي رِوَايَةٍ لِمُسْلِمْ : « مَنْ أَكَلَ البَصَلَ والثُّومَ والكُرّاثَ، فَلاَ يَقْرَبَنَّ مَسْجِدَنَا فانَّ الملائِكَةَ تَتَأَذّى مِمّا تَأَذّى مِنْه بَنُو آدم » .

وعَنْ عُمَر بنُ الخَطّاب ـ رضْي اللهُ عَنْهُ ـ أنّهُ خَطَبَ يَوْمَ الجُمُعَةْ ،

فقالَ في خُطْبَتِهِ ، ثُمَّ انّكَمْ أيُّها النّاسُ تَأكُلونَ شَجرتَينِ لاَ أَرَاهُمَا إلاّ خَبِيْثَتَين ، الْبَصَلُ والثّومُ ولقدْ رأيتُ رسولَ اللهَ صلى سالله عليه وسلم إذَا وَجَد ريْحَهُما مِنَ الرّجُل في الْمسجِدِ أمَرَ بِهِ فأخْرِجَ الى البَقِيعِ ، فَمَنْ أكَلَهُما فَلْيُمِتْهُما طَبْخا .

اللّهُمَّ انْظِمْنَا في سِلْكِ أهلِ السّعادَةْ ، واجْعَلْنَا مِن عبادِك المُحْسِنينَ الذَينَ لهُم الحُسْنَى وزِيَادَةٌ ، واغْفِر لَنَا ولوالِدَيْنا ولجميع المُسْلِمينَ الأحياءِ مِنْهُم والميتينَ بِرَحْمَتِك يا أرْحَمَ الراحَمين ، وصلى اللهُ على محمدٍ وعلى آلِهِ وصحبه أجمعين .

(فصلٌ)

يُسَنُّ أنْ يُصَانَ الْمسجدُ عنْ صغيرٍ لا يُمَيّزُ لِغَيْرِ مَصْلحَةٌ ، وأنْ يُصَانَ عن مَجْنُونٍ حَالَ جُنُونِهْ ، وعنْ لَغطٍ ، وخُصُوْمَةٍ وكَثْرةِ حَدِيْثٍ لاَغٍ ، ورفْعِ صَوْتٍ بِمَكْرُوهْ ، وعَنْ رَفْع الصِّبْيانِ أصواتهم باللعبِ وغيرِهِ ، ويُمْنَعُ فيهِ اخْتِلاَطُ الرّجَالِ والنّسَاءِ ، وإيذاءُ المُصَلّينَ وغيرِهِم بقولٍ أو فعلٍ ، ويُمْنَعُ السّكْرانُ من دُخُولِهْ ، وعَنْ واثِلَةَ بنُ الأسْقِع : أنّ النبي صلى اللهُ عليه وسلم قالْ : « جَنِّبُوا مَسَاجِدَكم صِبْيانَكُم ومَجَانِيْنَكم وَسَلَّ سُيُوفِكُمْ ، واتّخِذُوا على أبْوابِها المطاهِرَ وجَمِّرُوهَا في الْجُمَعِ » .

وعَنْ عَبْدِ اللهِ ـ يَعْنِي ابنُ مَسْعودٍ رضْي اللهُ عَنْهُ ـ قَال : قَالَ رسولُ الله صَلّى اللهُ عليهِ وسَلّمْ : « سَيَكُونُ في آخرُ الزّمَانِ قَوْمٌ يكونُ حَدِيْثُهم في مَساجِدِهم لَيْس لِلّه فِيْهم حَاجَةٌ » .

وعَنْ حَكِيمِ بنُ حِزامٍ ـ رضيْ اللهُ عَنْه ـ قالَ : قَال رسولُ الله

صلى الله عليهِ وسّلم : « لا تَقَامُ الحدودُ في الْمَساجِدِ ، ولَا يُسْتَفادُ فِيها » .

وعَنْ الْحَسَنِ ـ رَحِمَهُ اللهْ ـ مُرْسَلاً قَالْ : قَالَ رسولُ اللّهِ صلى الله عليه وسَلمْ : « يَأْتِي على النّاسِ زَمانُ يكونُ حَدِيْثُهُم في مَسَاجِدِهم في أمْرِ دُنْياهُم فلا تُجَالِسُوهم فَلَيْس لِلّهِ فِيْهم حاجَةْ » .

وَعَنِ السائِب بنُ يَزيدِ قالْ : « كُنْتُ نَائِماً في الْمَسْجِدِ فَحَصَبَنِي رَجُلٌ فَنَظَرْتُ فِاذَا هوُ عُمَرُ بنُ الْخَطّابْ ، فقالَ : اِذْهَبْ فأْتِني بِهَذَيْن ، فَجِئْتُهُ بِهمَا ، فقالْ : مِمَّنْ أنْتُما ـ أوْ مَنْ أيْنَ أنْتُما ؟ قالاَ ، مِنْ أهْلِ الطّائِفُ ، قالْ : لَوْ كُنتُما مِنْ أهْلِ المدِيْنةِ لاوْجَعْتُكُما ، تَرْفَعَانِ أصْواتَكُما في مَسْجِدِ رسولِ الله صلى اللهُ عليه وسلم » .

وعَنْ مالِك قَالْ : بَنِي عُمَرُ ـ رَضِي اللهُ عَنْهُ ـ رَحَبَةٍ في نَاحِيَةِ تُسَمَّى « البَطْحَاء » ، وقَالْ مَنْ كَانَ يُرِيدِ أنْ يَلْغَطَ أو يُنْشِدَ شِعْرا ، أوْ يَرْفَعَ صَوْتَهُ فَلْيَخْرُجْ إلى هَذِه الرَّحَبَةِ .

وعَنْ أبي هُرَيْرَةَ ـ رَضْي اللهُ عَنْهُ ـ قالْ : قالَ رسولُ الله صلى الله عليهِ وسَلّم : اِذَا اتَّخَذَ الفَيء دُولاً والأمانةُ مُغْنَمَا والزكاةُ مَغْرما، وتُعلّمَ لِغَيْرِ الدِّيْنِ، وأطاعَ الرَّجُلُ امْرَأتَهُ وعَقَّ أُمَّهْ، وأدْنَى صَدِيقهُ وأقْصَى أبَاهْ، وظَهَرتِ الاصْواتُ في المساجِدِ وسَادَ القبيلةَ فاسِقُهُمْ ، وكانَ زَعِيْمُ القومِ أرْذَلَهُمْ ، وأُكْرَمَ الرّجُلُ مَخَافةِ شَرّه ، وظَهرتِ القَيْنَاتُ والمعازفُ ، وشُرِبَتِ الخمورُ ، ولَعَنَ آخِرُ هذِه الامّةُأوّلَهَا ، فارْتَقِبُوا عِنْدَ ذَلِكَ رِيْحا حَمْرَاءَ وزَلْزَلَةَ وخَسْفَا ومَسْخَا ، وقَذْفَا وآياتٍ تَتَابَع كَنِظَامِ قُطِعَ سِلْكُهُ فَتَتَابَعْ » .

٤ ـ يَنبغي تَجْنِيبُ المساجدِ الْبَيْع والشّراء ، ورَفْع الصّوتِ ونَشْـدَان الضّالةِ فِيْها :

وَيَحْرَمُ في الْمَسْجِد البيعُ والشّرَاءْ ، فانْ فَعَل فالبيعُ باطِلٌ لِحَديثِ عمرو بن شعيب عن ابيه عن جده قال : « نهى رسولُ الله صلى الله عليه وسَلَّم عن البيعِ والابتياعِ وعَنْ تَناشُدِ الأشْعَار في المساجِدِ » رواهُ أحْمَد وأبو داود ، والنّسائي ، والترمذي وحَسّنه .

وَيُسَنُّ أنْ يُقَالَ لِمَنْ بَاعَ أَوِ اشْتَرى في المسجد : لَا أَرْبَحَ الله تِجَارَتَك ، لِمَا وَرَدَ عَنْ أبي هُرَيْرَةَ ـ رضِيَ الله عنه ـ قال : قالَ رَسُولُ اللهِ صلّى اللهُ عليه وسلم : « إذا رَأيْتُم مَنْ يَبِيْعُ أوْ يَبْتَاعُ في المسجد فَقُولوا : لا أَرْبَحَ اللهُ تِجَارَتَكَ وإذا رأيْتُمْ مَنْ يَنْشُدُ ضَالَّةً فقُولُوا : لَا رَدّهَا اللهُ عليكَ » رواهُ الترمذي والدّرامي .

وَمِمَّا يَنْبَغي التَّفَطُّنُ لَهُ ، والتحذيرُ عَنْهُ وابعادُهُ عن المساجدِ الكُتُب التي فِيها صُورُ ذواتِ الأرْواح ، كالْهِجاء لِلسَّنَةِ الأولى الإبْتِدَائِيةِ ، وكالمطالَعَةِ لِسائِر السّنَواتِ ، وكالعلومِ ، فانَّ بَعْضَ التّلامِيذِ يأتُونَ بِهَا إلى المساجدِ لِيُطَالِعوا فِيها واذا تَخَلّقَتْ وَضَعَها في المسجد ، وَقد وَرَدَ عَنْ ابنِ عُمَرَ ـ رَضِيَ الله عَنْهُمَا ـ قالْ : وَعَدَ رَسُولَ اللهِ جِبْرِيلُ أن يأْتِيَهُ فَرَاثَ عليهِ حتّى اشْتَدَّ على رسول الله صلى الله عليهِ وسلم ، فخرَج فَلَقِيَه جِبْرِيلُ ، فَشَكا إليه ، فقالْ : « إنَّا لا نَدْخُلِ بَيْتاً فيهِ كلبٌ وَلَا صُورة » رواهُ البُخاري .

وَيُسَنُّ صَوْنُ المسجد عن انْشَادِ شِعْر قَبِيْحٍ ، وإنْشَادِ ضَالَّة وَنُشْدَانِهَا ، وَيُسَنُّ لِسَامِع نُشْدَانِ الضَّالة أنْ يَقُولْ : لَا رَدّها الله عَلَيْكَ ، لِمَا وَرَدَ عَنْ أبي هريرة ـ رضي اللهُ عنه ـ قالْ : قالَ رَسولُ الله صلى اللهُ

عليه وسَلّم : « مَنْ سَمِعَ رَجُلاً يُنْشِدُ في المسجدِ ضَالّةً فَلْيَقُلْ : لا أدّاهَا الله إليكَ . فإنَّ المساجِدَ لم تُبْنَ لِهَذَا » رواهُ أحْمَدُ وَمُسْلِم وابْنُ مَاجَهْ .

وَعَنْ بُرَيْدَةَ : أَنَّ رَجُلاً نَشَدَ في المسجِدِ فَقَالْ : مَنْ دَعَا إلى الجَمَل الأَحْمَر ؟ فقالْ النّبِيُّ صَلّى اللهُ عليهِ وَسَلَّم : « لا وَجدت ، إنّما بُنِيَتِ المساجِدُ لِمَا بُنِيَتْ لَهُ » رواهُ أحْمَدُ ومسلمُ وابن ماجَهْ .

٥ ـ حُرمَةِ المُبالَغةِ في زَخْرَفَةِ المساجِدْ :

وَتَحْرُمُ زَخْرَفَتُهَا بِنَقْشٍ وَصِبْغٍ وَكِتَابَةٍ وغيرِ ذَلِكَ مِمَّا يُلْهِي المُصَلّي عَنْ صَلاَتِهِ غالِباً ، وإنْ فُعِلَ ذَلِكَ مِن مالِ الوقْفِ حَرُمَ فِعْلُهْ ، وَوَجَبَ ضَمَانُ مالِ المُوْقَفِ الذي صُرِفَ فِيْهِ لا لِمَصْلَحةٍ فيه .

عَنِ ابْن عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا ـ قال : قَالَ رَسولُ اللّهِ صلى الله عَليهِ وسلم : « مَا أُمِرْتُ بِتَشْيِيدِ المساجِدِ » قالَ ابْنُ عَبّاس ـ رَضِيَ الله عَنْهُما ـ لَتُزَخْرِ فُنَّها كَمَا زَخْرَفَتِ اليهودُ والنّصارى » رواهُ أبو داود .

وَعَنْ أَنَسٍ ـ رَضِيَ اللهُ عنه ـ أَنَّ النَّبي صلى اللهُ عليهِ وسلم قالْ : « لا تقومُ السّاعَةُ حتَّى يَتَبَاهَى النّاس في المساجِد » رواهُ الخمسةُ إلا التّرمذي .

وقالَ البخارِي ـ رَحِمَه اللّهْ ـ قالَ أبو سَعيد : كَانَ سَقْفُ المسجدِ مِنْ جَريدِ النّخل ، وأمَرَ عُمَرُ بِبِنَاءِ المسجِدِ ، وقالْ : أَكِنَّ الناسَ مِن المطر وايّاكَ أن تُحَمِّرَ أو تُصَفِّرَ فَتَفْتِنَ الناسَ . وَيَنْبَغِي أن لا يَسْتَعْمِلَ النَّاسُ حُصُرَ المسجدِ وَقَنَادِيلَهُ وَسَجَاجِيدَهُ وَبُسُطَهُ وَسَائِرَ ما وُقِفَ لِمَصَالِحِهِ في مَصَالِحِهِمْ ، كالأعراسِ وَيَجِبُ صَرْفُ الوَقْفِ لِلْجِهَةِ التي عَيَّنَهَا

الواقِفْ .

٦ ـ كَراهةُ الْتِزَامِ مَوْضِعٍ مُعَيَّنٍ مِنَ المسجِدِ لِلَّصلاةِ ، لِغيرِ الامامْ :

وَيكْرَهُ لِغَيْرِ الامامِ مُدَاومَةُ مَوضِعٍ مُعَيَّنٍ مِن المسجد لاَ يُصَلى إلاّ فِيه ، لِمَا وَرَدَ عَنْ عَبْدُ الرَّحمنِ بنِ شبل قالْ : نَهَى رَسولُ الله صلى الله عليهِ وَسَلَّم عَنْ نَقرْةِ الغُرابْ ، وَافْتِرَاشِ السَّبُعْ وأنْ يُوَطّنَ الرَّجلُ المكانَ في المسجد كَمَا يُوَطّنُ البَعْيرُ . رواهُ أبو داود ، والنِّسائي والدّرامي . فَإنْ دَاوَمَ على الصلاة بموضعٍ فليسَ هو أَوْلَى مِنْ غيرِهِ فإذا قَامَ منه فلغيره الجُلُوسُ فِيهِ ، لِحَدِيْثِ (مَنْ سَبَق إلى مباحٍ فَهُوَ لَهْ) قالَ في الاختِيَارَاتِ الفقهيةِ وَإذَا فَرَشَ مُصَّلى وَلَمْ يَجْلِس عليهِ لَيْسَ لَهُ ذَلِكَ وَلِغَيْرِهِ رَفْعُهُ في أَظْهَرِ قَوْلِي العُلماءْ قُلْتُ وَمِثْلُهُ وَضْعُ خِرْقَة أوْ عَصَا أو نَعْل أوْ تَقْدِيم خَادِمٍ أوْ وَلَدٍ ثُمَّ إذَا حَضَرَ قامَ عَنْهُ وَجَلَسَ فيهِ فهذا لاَ يَجوزُ والله أعلم .

وَقَالَ في إغاثَةِ اللَّهفَانْ ولَمْ يُصَلِّ رَسولُ اللهِ صَلّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ على سُجّادَةٍ قَطْ وَلاَ كَانَتْ السُّجّادَةُ تُفْرَشُ بَيْنَ يَدَيْهِ بَلْ كَانَ يُصَلّي على الأَرضْ وَرُبَماسَجَدَ على الطِّينِ وكانَ يُصَلّي على الحَصِيرِ فَيُصَلي على ما اتَّفَقَ بَسْطُهُ فإن لَمْ يَكُنْ شَيءٌ صَلَّى على الأَرض .

قالَ النَّاظِمُ لاخْتِيَارَاتِ شَيْخِ الاسْلاَم بْنِ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ اللّهْ :

وَوَضْـعُ المُصَلّي في المَسَاجِـدِ بِدْعَـةٌ
ولَيْسَ مِنَ الهَـدْيِ الْقَـوِيمِ المُحَمَّـدِ
وَتَقْـدِيْمُـهُ في الصّفِ حَجْـرٌ لِـرَوْضِـةٍ
وَغَـصْبٌ لَـهَـا عَنْ دَاخِـلٍ مُـتَعَبِّـدِ

وَيُشْبِهُـهُ وَضْـعُ العَصَـاءِ وَحُكْمُهـا
كَحُكْم المُصَلَّى في ابْتِـدَاعِ التَّعَبُّـدِ
بَلَى مُسْتَحَبٌّ أنْ يُمَـاطَـا وَيُـرْفَعَـا
عَن الـدّاخِلينَ السرَّاكِعينَ بِـمَسْجِـدِ
لَئِـنْ لَمْ يَكُـنْ هَـذا بِنَص مُقَـرَّرٍ
ولا فِعْـلُ أَصْحَـابِ النّبيِّ مُحَمَّـدِ
فَخَيْـرُ الأُمُورِ السّـالِفَـاتُ عَلى الْهُـدَى
وَشَـرُّ الأمـورِ الـمُحْـدَثَـاتُ فَـبَعّـدِ

اللَّهمّ ألْحِقْنا بِعِبَادِك الصّالِحينَ الأَبْرَارْ ، وَآتِنَا في الدُّنْيا حَسَنةً وفي الآخِرَةِ حَسنةً ، وَقِنَا عذابَ النّارْ ، واغْفِرْ لَنَـا وَلِوَالِـدَيْنا ، وَلِجَمِيْـعِ المُسْلِمينَ الأَحْيَاءِ مِنْهُم والمَيْتين ، بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمين ، وَصَلَّى اللهُ على سَيِّدِنا مُحَمّدٍ وَعلى آلِهِ وَصَحْبِهِ أجمعين .

(فَصْـلٌ)
في الأَيّامِ الّتي يُسَنّ أَوْ يُكْرَهُ صِيَامُها

وَيَبْحَثُ في :

١ ـ مَا وَرَدَ مِنَ الثّوابِ العظيم في صَوْم بَعْضِ الأَيامْ .

٢ ـ بَيَانُ الأَيّامِ التي يُكْرَهُ أَوْ يَحْرُمَ صِيَامُها ، والنَّهي عَنِ التَّشَبُّهِ بالغيرْ .

١ ـ مَا وَرَدَ مِنَ الثّوابِ العظيمِ في صَوْمِ بَعْضِ الأيامْ :

يُسَنُّ صِيَامُ أيّامِ البيضْ ، وَهِيَ الثّالِثُ عَشَرَ والرّابِعُ عَشَرَ والخامِسُ

عشر ، لما ورد عن أبي ذرٍّ ـ رضي اللهُ عنهُ ـ قالْ : قالَ رسولُ اللهِ صلّى الله عليهِ وَسلمْ : « إذا صُمْتَ مِنَ الشّهْرِ ثَلاثاً ، فَصُمْ : ثلاثَ عَشْرَةَ وَأَرْبَع عَشْرَةَ وَخَمْسَ عَشْرَة » رواهُ الترمِذيْ .

وَعَنْ قَتَادَةَ بْنِ مِلْحَانُ ـ رضي اللهُ عنهُ ـ قال : كَانَ رَسولُ اللّهِ صلى اللهُ عليهِ وسلّمَ يأمُرنا بِصِيَامِ أيّامِ البيضِ ثَلاثَ عَشرةِ وأرْبَع عَشْرَةَ وَخَمْسَ عَشْرَة ، رواه أبو داود .

وَعَنْ أبي هُـرَيْـرَةَ ـ رَضِي اللهُ عَنْهُ ـ قالْ : أَوْصَانِي خَلِيْلِي صلى اللهُ عليهِ وسلم بِصِيامِ ثلاثةِ أيّامٍ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ ، وَرَكْعَتا الضّحُى ، وأنْ أوْتَرَ قَبْلَ أن أنام » متفق عليه .

وَعَنْ أبي الدَرْدَاءِ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ قال أوْصَانِيَ خَلِيْلِي صلى اللهُ عليهِ وسلم بِثلاثٍ ، لَنْ أَدَعَهُنّ مَا عِشْتُ : بِصِيامِ ثَلاثَةِ أيّامٍ مِن كُلِّ شَهْرٍ ، وَصَلاةِ الضُّحَى وَبِأَنْ لاَ أَنَامَ حَتَّى أوْتِرَ رواهُ مُسْلِم .

وَيُسَنّ صِيامُ أيّامِ الاثنينِ والْخميسِ ، وَستٍّ مِنْ شَوَّالٍ ، لِمَا وَرَدَ عَنْ أبي قَتَادَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنّ رَسُولَ اللهِ صَلّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ سُئِلَ عَنْ صَوْمِ يومِ الإثْنَيْنِ فَقَالْ : « ذَلِكَ اليَوْمُ يَوْمٌ وُلِدْتُ فِيْهِ ، وَيَوْمٌ بُعِثْتُ فِيْه ، وأنْزِلَ عَليّ فِيْه » رواهُ مُسْلِمْ .

وَعَنْ أبِي هُرَيرَة ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ عَنْ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللهُ عليهِ : « تُعْرَضُ الاعْمَالُ يَوْم الإثْنَيْنِ ، والْخَمِيْس فَأُحُبّ أنْ يُعْرَضَ عَمَلِي وَأَنَا صَائِمٌ» رواهُ التّرْمِذي وَقالْ : حَدِيْثٌ حَسَنٌ وَرَواهُ مُسْلِمٌ بِغَيْرِ صَوْم .

وَعَنْ أَبي أَيُّوبٍ الانْصَارِيّ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ أنّ رَسُولَ اللّهِ صَلّى

اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ قَالْ : « مَنْ صَامَ رَمَضَانْ ، ثُمّ أَتْبَعَهُ سِتّاً مِنْ شَوّالٍ كَانَ كَصِيامِ الدّهْرِ » رواهُ مُسْلِمْ .

واسْتَحَبَّ صِيَامُ سِتّةِ أيّامٍ مِنْ شَوّالِ أكْثَرُ الْعُلَمَاء وَرُوِيَ ذَلِكَ عَنْ ابْنُ عَبّاسٍ وَطَاوُوسٍ والشّعْبِي ، وَمَيْمُونِ بْنِ مَهْرَان ، وَهُوَ قَولُ ابْنُ المُبارَكْ ـ رَحِمَهُمُ اللّهْ ـ وأكْثَرُ الْعُلَمَاء : عَلَى أنّهُ يُسْتَحَبُّ صِيَامُها مُتَتَابِعة أولُ الشّهْرِ ثَانِي الفُطْر ، وَقَدْ رُوِيَ في ذَلِكَ حَدِيثٌ مَرْفُوعْ : « مَنْ صَامَ سِتّةَ أيّامٍ بَعْدَ الْفِطْرُ مُتَتَابِعَة فَكَأنّمَا صَامَ السّنَةْ » أخْرَجَهُ الطّبَرانِي وَغَيْرِه .

وَفِي حَدِيْثِ عِمْرَان بْنُ حُصَيْنٍ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ عَنِ النّبِي صلى اللهُ عليهِ وَسَلّم أنّهُ قالْ لِرَجُل : « إذا أفْطَرْتَ فَصُمْ » وإنّما كَانَ صِيَامُ رَمَضَانَ واتْبَاعُهُ بِستٍّ مِنْ شَوّالَ يَعْدِلُ صِيَامَ الدّهْرِ لأنّ الحَسَنَةَ بِعَشْرِ أمْثَالِهَا .

وَقَدْ جَاءَ ذَلِكَ مُفَسّراً مِنْ حَدِيْثِ ثَوْبَانَ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ عَن النّبي أنّهُ قَالْ: « صِيَامُ رَمَضَان بِعَشْرَةِ أشْهُر ، وَصِيَامُ سِتّةِ أيّامٍ بِشَهْرَيْن ، فَذَلِكَ صِيَامُ السّنَةِ ، يَعْنِي صِيَام رَمَضَانَ وَسِتّةِ أيّامٍ بَعْدَهْ » أخْرَجَه : الامامُ أحْمَدُ وَالنّسَائِي . وهَذَا لَفْظُهْ . وَخَرّجَهُ : ابْنُ حِبّانَ في صَحِيْحِهِ . وَصَحّحَهُ أبُو حَاتِم الرّازِيْ .

وَيُسَنُّ صِيَامُ يومِ عَرَفَةَ لِغَيْرِ حَاجّ بِهَا ، وَشَهْرُ المُحَرّمِ وآكدُهُ العاشِرُ ، ثُمّ التّاسِع ، لِمَا وَرَدَ عن أبي هُرَيْرَةَ ـ رضي الله عَنْه ـ قالْ : قالَ رسولُ اللهِ صلّى اللهُ عليه وسلم : « أفضلُ الصّيَامِ بَعْدَ رَمَضَانِ شَهْرُ اللّهِ المُحَرّمُ ، وأفْضَلُ الصّلاةِ بَعْدَ الفريضَةِ صلاةُ اللّيل. رواهُ مُسْلِم .

وفي حديثِ أبي قَتَادَةَ قَالْ : قالَ عُمَر ـ رضي الله عنه ـ يا رسول الله ، كَيْفَ مَنْ يَصُومُ الدّهْرَ كلّهْ ؟ قالْ : « لا صامَ ولاَ أفطَرْ » وقال : « لم يصم وَلَمْ يُفْطِر » قالَ : كَيْفَ مَنْ يَصُومُ يَوْمَينِ وَيُفْطِرُ يَوْماً ؟ » قال : « ويطيق أحدٌ » قال : « كَيْفَ مَنْ يَصُومُ يوماً ويفطِرُ يوماً » ذَلِكَ صَومُ دَاود » ، قَالْ : كَيْفَ مَنْ يَصُومُ يَوماً وَيَفْطِرُ يَوْمَيْن ؟ قالَ وَدِدتُ أَنّي طُوِّقْتُ ذَلِكَ ثم قالَ رَسولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلم : « ثَلاَثٌ مِن كُلِّ شَهْرٍ ، وَرَمَضَانُ إلى رَمَضَانْ ، فَهَذَا صِيامُ الدّهْرِ كُلِّهِ ، صِيَامُ يَوْمَ عَرَفَةَ احْتَسِبُ على اللهِ أنْ يُكَفّرَ السّنَةَ الّتي قَبْلَهُ والسّنَةَ التي بَعْدَهُ ، وصيامُ يومِ عاشُورَاء أحْتَسِبُ على اللهِ أن يُكَفّرَ السَّنَة التي قَبْله » رواهُ مُسْلمْ .

وَعَن ابْنُ عَبّاسٍ ـ رضي اللهُ عَنْهُما ـ أنّ رسولَ اللهِ صَلى الله عليهِ وَسلم صَامَ يَومَ عَاشُورَاء وأَمَرَ بِصِيَامِهِ . متفق عليه .

وَعَنْهُ ـ رضي اللهُ عَنْهُما ـ : لَئِنْ بَقِيْتُ إلى قَابِلٍ ، لأَصُوْمَنَّ التَّاسِعَ » متفق عليه .

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَة ـ رَضِي اللهُ عنه ـ أنَّ رَسولُ الله صلّى الله عليه وسلم « نَهَى عن صَوْم يومِ عَرَفَة بِعَرَفَةَ » رواهُ أبُو داود والنّسَائِي وابنُ خُزَيْمَةَ في صَحِيْحِهِ .

وَيُسَنُّ صِيامِ تِسْعُ ذي الحِجّةْ ، لِمَا وَرَدَ عَنْ ابْنُ عَبَّاسٍ ـ رضي الله عَنْهُما ـ قالْ : قالَ رَسُولُ الله صلى اللهُ عليه وسلم : « مَا مِنْ أيام العَمَلُ الصّالِحُ فِيها أحَبُّ إلى اللهِ مِن هَذِهِ الأَيّامْ » يَعْنِي أيامَ الْعَشْر ، قَالُوا : يا رسولَ اللّهِ ، وَلاَ الجِهَادُ في سَبيل اللّهِ ، قالَ : « وَلاَ الجِهادُ في سبيلِ اللهِ إلاّ رَجُلٌ خَرَجَ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ فَلَمْ يَرْجِعُ مِن ذَلِكَ بِشَيْءٍ » رواهُ

البخاري .

وَعَنْ أبِي هُرَيْرَة ـ رَضِي الله عَنه ـ قالْ : قالَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : « مَا مِنْ أيّامٍ أَحبُّ إلى اللّهِ أن يُتَعَبّدُ لَهُ فِيها مِن أيامِ العَشْرِ ، وإنّ صِيَامَ يومٍ فِيْها لِيَعْدِلُ صِيامَ سَنَةٍ ، وَلَيلةٍ فِيْها بِلَيْلَةِ القَدْرِ » رواهُ ابن ماجه والتّرْمِذيُ وقالَ حديثٌ غريب .

اللّهُمَّ انَّا نَسْأَلُك التَّوبَةَ وَدَوامَها ، وَنَعُوذُ بِكَ مِن المَعْصِيَةِ وأسْبَابها ، اللّهمّ أفِضِ علينا مِن بَحْرِ كَرَمِكَ وَعَوْنِك حَتَّى نَخْرُجَ مِنَ الدُّنْيَا على السّلاَمَةِ مِن وَبَالِها وَارْأَفْ بِنا رَأْفَةَ الحَبِيْبِ بِحَبِيْبِهِ عِنْدَ الشّدَائِدِ وَنُزُولِها ، وارْحَمْنا مِن هُمُومِ الدّنْيا وَغُمومِها بالرَّوْحِ والرّيْحانِ إلى الجنةِ وَنَعِيْمِها ، وَمَتِّعْنا بالنّظَرِ إلى وَجْهِكَ الكريم في جَنّاتِ النَّعيمْ : مَعَ الذين أَنْعَمْتَ عليهم من النبيينَ والصّدّيقينَ والشُّهَدَاءِ والصّالِحين ، واغْفِرْ لَنَا ولوالِدَيْنَا وَلِجَمِيْعِ المُسلِمينَ ، الأَحياءِ منهم والميتينَ بِرَحْمَتِكَ يا أرْحَمَ الرَّاحِمينَ ، وصلى اللهُ على محمدٍ وعلى آلِه وصحبِهِ أَجْمَعِينْ .

(فَصْلٌ)
في بيانِ الأَيّامِ التي يُكْرَه أَوْ يُحْرَم صِيَامُها والنّهي عن التّشَبُّهِ بالغَيْرِ

وَيُكْرَهُ أفْرَادُ رَجَبَ بِالصّوْمِ ، والجُمُعَةِ والسّبْتِ ، أَمَّا رَجَبُ : فَلما رَوىَ أَحْمَدُ ـ رَحِمَهُ اللّهْ ـ عَنْ خَرْشَةَ بْنِ الحُرِّ قالَ : رَأَيْتُ عُمَرَ يَضْرِبُ أَكُفَّ المُتَرَجِبِيْن حَتَّى يَضعُوها في الطَّعَامِ ، وَيَقُولُ كُلُوا ! فإنَّمَا هُوَ شَهْرٌ كانَتْ تُعَظِمُهُ الجاهِلِيّةُ .

وَبِاسْنَادِهِ عَن ابْنِ عُمَرْ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُما ـ أنّهُ كَانَ إذَا رَأى النّاسَ وَمَا يُعِدّونَهُ لِرَجَبْ كَرِهَه وقالْ : « صُومُوا مِنْه وأَفْطِرُوا » .

وَأَمّا الجُمُعَةْ ، فَلِمَا وَرَدَ عَنْ أبي هريرة ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ عَن النّبِي صلّى اللهُ عليهِ وَسَلّمَ قال : « لَا تَخُصُّوا لَيْلَةَ الجُمُعَةَ بِقِيَامٍ مِن بَيْن اللّيالِيْ ، وَلَا تَخُصُّوا يَوْمَ الجُمُعَةِ بِصِيامٍ مِن بَيْن الأيامِ إلّا أنْ يَكُونَ في صَوْمٍ يَصُومُهُ أَحدُكُمْ » رواهُ مُسْلِمْ .

وَعَنْهُ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ قال : قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلّى اللهُ عليهِ وسلمْ : « لَا يَصُومَنّ أَحَدُكُمْ يَوْمَ الجُمُعَةِ إلّا أنْ يَصُومَ يوماً قَبْلَهُ أوْ يَوْماً بَعْدَه » مُتّفَقٌ عليه .

وَأَمّا السّبْتُ فَلِمَا رُوِيَ عَنْ عَبْدِ اللّهِ بُن بُسْر عَنْ أُخْتِهِ ـ رضي اللهُ عَنْهُما ـ أنّ رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلّمَ قالْ : « لَا تَصُومُوا يَوْمَ السّبْتِ إلّا فِيْمَا أفْتُرِضَ عليْكُمْ ، فإن لَمْ يَجِدْ أحَدُكُمْ إلّا لِحَاءَ عِنَبَةٍ ، أو عودَ شَجَرةٍ فَلْيَمْضَغْهُ » رواهُ الخمسَةُ إلّا النّسائِي .

وَيُكْرَهُ تَقَدُّمِ رَمَضَانَ بِصَومِ يومٍ أو يَوْمِيْن ، لِمَا وَرَدَ عَنْ أبِي هُرَيْرَةَ ـ رَضِيَ اللهُ عنه ـ قالْ : قال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلّمْ : « لا تَقْدِمُوا رَمَضَانَ بِصَوْمِ يومٍ ولَا يَوْمِيْنِ إلّا رَجُلٌ كانَ يصومُ صوماً فَلْيَصُمْهُ » متفق عليه .

وَيُكْرَهُ صَوْمُ الدّهْرِ ، لِحَدِيْثِ عَبْدِ اللّهِ بنُ عُمَرَ ـ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُما ـ قال : قالَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلم : لا صَامَ مَنْ صَامَ الأَبَدْ » مُتفق عليه .

وَلِمُسْلِم مِنْ حديثِ أَبِي قَتَادَةَ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ بِلَفْظِ « لَا صَامَ وَلَا أَفْطَرَ » .

وَيُكْرَهُ صَوْمِ النَّيْرُوزِ والْمَهْرَجَانِ وَكُلِّ عِيدٍ لِلْكُفّارَ ، أَوْ يَوْمٍ يُفْرِدُونَهُ بالتّعظيْمِ ، لِمَا فِيْهِ مِن مُوافقَةِ الكفارِ في تَعْظِيْمِها ، قال عَبْدُ اللّهِ بْنُ عُمَرَ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا ـ : مَنْ تَأَسَّى بِبِلادِ الأَعاجِمِ نَيْرُوزِهِمْ وَمِهْرَجَانِهِمْ وَتَشَبّهَ بِهِم حَتَّى يَمُوتُ حُشرَ مَعَهُمْ .

قَالَ الشّيْخُ وَغَيرِه : مَا لَمْ يُوافِقْ عَادَةً أَوْ يَصُمْهُ عَنْ نَذْرٍ وَنَحْوِهْ ، قال : وَكَذَلِكَ يَوْمُ الْخَمِيْسِ الذي يَكُونُ في آخِرِ صَوْمِهِمْ كَيَومِ (عيدِ المائِدَةِ) وَيَوْمِ الأَحد الذي يُسَمّونَهُ (عِيْدَ الفُصْحِ) وَ(عيد النّورِ) و(العيدِ الكَبِيرِ) وَنَحْو ذَلِكَ ، لَيْسَ لِلْمُسْلِم أنْ يُشَابِهَهُمْ في أَصْلِهِ وَلَا فِي وَصْفِهِ .

وَقَالْ : لَا يَحِلّ لِلْمُسْلِمِينَ أَنْ يَتَشَبَّهُوا في شَيء مِمَّا يَخْتَصُ بِأَعْيَادِهِم ، لَا مِنْ طَعامٍ ، ولا مِنْ لِباسٍ ، وَلَا اغْتِسَالٍ ، وَلَا إِيْقَادِ نِيْرانٍ ، وَلَا تَبْطِيْلِ عادَةٍ مِنْ مَعيْشَةٍ أَوْ عِبَادَةٍ أو غَيْر ذلك ، وَلَا تُمَكَّنُ الصّبْيانِ وَنَحْوِهِمْ مِن اللّعِبَ الّتي في الأَعْيَادِ ، وَلَا إِظْهَارِ زِيْنَةٍ .

وَبِالْجُمْلَةِ لَيْسَ لَهُمْ أَنْ يَخُصُّوا أَعْيَادَهُمْ بِشَيءٍ مِنْ شَعَائِرِهِمْ بَلْ يَكُونُ يَوْمَ عِيْدِهم عِنْدَ المُسْلِمينَ كَسَائِرِ الأَيّامْ ، لَا يَخُصَّهُ المُسْلِمُونَ بِشَيءٍ مِنْ خَصَائِصَهِمْ .

وَتَخْصِيْصُهُ بِمَا تَقَدَّمَ فَلَا نِزَاعَ فِيْهِ بَيْنَ الْعُلَمَاءْ ، بَلْ قَدْ ذَهَبَتْ طَائِفَةٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ إِلى كُفْرِ مَنْ يَفْعَلُ هَذِهِ الأمورَ : لِمَا فِيْهَا مِن تَعْظِيم شَعَائِرِ الْكُفْرِ .

وَقَد اشْتَرَطَ عُمَرُ والصَّحابَةُ وَسائِرُ أَئِمَّةِ المُسْلِمِيْن أَن لا يُظْهِرُوا أَعْيَادَهُم في دِيَارِ المُسْلِمِيْن فَكَيْفَ إذا أَظْهَرَهَا المُسْلِمُون ؟ حَتَّى قالَ عُمَرُ بْنُ الخَطّاب : لَا تَتَعَلَّمُوا رِطَانَةَ الأَعَاجِمِ ، وَلَا تَدْخُلُوا على المشركينَ في كَنَائِسِهِمْ يَوْمَ عِيْدِهِمْ ، فَإِنَّ السُّخْطَةَ تَنْزِلُ عَلَيْهِمْ ، وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ ، فَكَيْفَ بِمَنْ يَفْعَلُ مَا يُسْخِطُ اللّهَ بِهِ عَلَيْهِمْ مِمَّا هُوَ مِنْ شَعَائِرِهِمْ ؟ وَقَالَ عُمَرُ : مَا تَعَلَّمَ رَجُلٌ الفارِسِيَّةَ إلَّا خَبَّ ولا خَبَّ إلا نَقَصَتْ مَرُوءَتُهْ .

وَقَدْ قَالَ غَيْرُ واحد مِن السَّلَفِ في قَوْلِهِ تَعالى : ﴿ والَّذِيْنَ لا يَشْهَدُوْنَ الزّورَ﴾ قال: أَعْيَادُ الكُفّارِ ، فإذَا كَانَ هَذَا في شُهُودِهَا مِنْ غَيْرِ فِعْلٍ ، فَكَيْفَ بالافْعالِ الّتي هِي مِنْ خَصَائِصِهَا ؟!

وَقَدْ رُوِيَ عن النّبي صلى اللهُ عليهِ وسلم في المُسْنَدِ والسُّنَنِ أنّه قالَ : « مَنْ تَشَبَّهَ بقومٍ فَهُوَ مِنْهُمْ » ، وفي لفظ : « لَيْس مِنّا مَنْ تَشَبَّهَ بِغَيْرِنَا » وَهُوَ حَدِيثٌ جَيِّدٌ ، فإذا كانَ هَذَا في التّشَبّـهِ ـ وان كانَ مِن العادَاتِ ـ فَكَيْفَ التّشَبُّهِ بِهِمْ فِيْمَا هُوَ أَبْلَغُ مِن ذَلِكَ ؟ .

وَقَالَ شَيْخُ الإِسْلَامَ رَحِمَهُ اللّهْ اعْتِيَادُ اللّغَةِ يُؤَثِّر في الْعَقْلِ والخُلُقِ والدِّينِ تَأْثِيراً قَوياً بَيِّنَاً بِحَسَبِ تِلْكَ اللُّغَـةِ وَقَالَ في اقْتِضَـاءِ الصّرَاطِ المستقيم عن نافِع عَنْ ابْنُ عُمَرَ قالْ : قَالَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلم : من يُحْسِنُ أنْ يَتَكَلَّمَ بالْعَرَبِيّة فَلَا يَتَكَلَّمُ بالْعُجْمَةِ فإنّهُ يُورّثُ النِفَاق .

قالَ ابْنُ القيم ـ رَحِمَهُ الله ـ عَلى حَدِيْث : « مَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فهو مِنْهُمْ » أي بالانْدِمَاج وَتَلاَشَتْ شَخْصِيَّتُه فِيهِم فَمَا يَكونُ ذَلكَ إلا عَنْ

تَعْظِيم وإكْبَارٍ لَهُمْ ، فَهُوَ لِذَلِك يُلْغِي شَخْصِيّتَهُ وَيَتَلاَشَى في شَخْصِيَّةِ الآخَرين ، فَمَنَ تَشَبَّهَ بالرّسُولِ صلى اللهُ عليه وسلم وأصْحَابِه بالْغَاءِ شَخْصِيَّةِ الجاهليةِ السَّفِيْهَةِ ، وَانْدَمَج في مَعْنَوِيّةِ الرسولِ صلى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ وأَصْحَابِهِ عِلْمَاً وَعَملاً واعْتِقاداً وأدَباً ، فَهُو بِلا شَكٍ مِنْهُمْ .

وَمَنْ تَشَبَّهَ بالإفْرِنْجِ في لِبَاسِهِم وأخْلاَقِهِم وَنُظُمِهِمْ وَمُعَامَلَتِهِمْ فَهُوَ بِلا شَكٍ افْرَنْجِيٌ غَيْرُ مُسْلِمٍ ، وانْ صَلَّى وَصَامَ وَزَعَم أنهُ مُسْلِمْ ، فَلِهَذَا التَّشَبُّهِ وَنَتائِجِهِ الدِّينِيّـةِ والدّنْيَـوِيّةِ نَـرَى الْمُعَظّمِيْنَ لِلنَّصَـارَى والْوَثَنِيّينَ الحَرِيْصِيْنَ على التّشَبُّهِ بِهِم والانْدِمَاج فيهمْ يُعاوِنُونَهُمْ على الضّرَرِ بِدِيْنِهم وَبِلادِهِمْ وأُمَمِهِم عَنْ قَصْد وَعَنْ غَيْرِ قَصْدٍ أ هـ .

وَيُكْرَهُ وصَالٌ إلاَّ مِنَ النّبي صَلَّى اللهُ عليهِ وسلم ، لِمَا وَرَدَ عن أبي هُرَيْرَةَ ـ رَضِيَ اللهُ عنْهُ ـ قالْ نَهَى رَسولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلم عن الوِصالِ ، فقال رَجُلٌ مِن المسلمينَ : فإنّكَ تُواصِلُ يا رسولَ اللهَ فَقَالْ : « وَأَيُّكُمْ مِثْلِي إنّي أَبِيْتُ يُطْعِمُنِي رَبّي وَيَسْقِيْنِي » فَلَمَّا أبوا أنْ يَنْتَهُوا عن الوِصَالِ واصَلَ بِهِم يَوْماً ثُمّ يوماً ، ثُمّ رَأَوُا الْهِلالَ فَقَالْ : « لَوْ تَأَخّرَ الهِلاَلُ لَزِدْتكُمْ » كالمُنَكِّلِ لَهُم حِيْنَ أبوا أنْ يَنْتَهُوا ، مُتّفَقٌ عَلَيْهِ .

وَلاَ يَجُوزُ صَوْمُ الْعِيدَين عَنْ فَرْضٍ أَوْ تَطَوُّعٍ ، وَإِنْ قَصَدَ صِيَامَهَا كَانَ عَاصِياً ، وَلاَ يُجزءُ عَن الْفَرَضِ .

وَلاَ يَجُوزُ صِيَامُ أَيَّام التَّشْرِيقِ إلاَّ عَنْ دَمِ مُتْعَةٍ وَقِرَانٍ ، لِمَا وَرَدَ عَنْ أَبِي سَعِيد الْخُدْرِي ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ عَنْ رَسُولِ اللّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم « أَنَّهُ نَهَى عَنْ صَوْمِ يَوْمَيْنِ : يَوْمِ الْفِطْرِ ، وَيَوْمِ النَّحْرِ » مُتَفَقٌ

عَلَيْهِ .

وَرَوَى أَبُو عُبَيْدٌ مَوْلَى أَزْهَرْ ، قَالَ : شَهِدْتُ الْعِيدَ مَعَ عُمَرَ ابْنِ الْخَطَّابِ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ فَقَالَ : « هَذَانِ يَوْمَانِ نَهَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ صِيَامِهِمَا : يَوْمُ فِطرِكُمْ مِنْ صِيَامِكُمْ ، وَالْيَوْمُ الآخَرُ تَأْكُلُونَ فِيه مِنْ نُسُكِكُمْ » مُتَفَقٌ عَلَيْهِ .

وأما أَيَّامُ التَّشْرِيْق ، فَلِمَا رُوِيَ عَن نُبَيْشَةِ الهُذَلِي ـ رَضِيَ الله عنه ـ قال : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليْهِ وَسَلَّمَ : «أَيَّامُ التَّشْرِيقِ أَيَّامُ أَكْلٍ وَشُرْبٍ وَذِكْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ » رَوَاهُ مُسْلِم .

وَعَنْ عَائِشَةَ وَابْن عُمَرَ ـ رَضِيَ اللهُ عنْهُمْ ـ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ « نَهَى عَنْ صَوْمِ خَمْسَةِ أَيَّامٍ في السَّنَةِ : يَوْمِ الْفِطْرِ ، وَيَوْمِ النَّحْرِ ، وَثَلاَثَةِ أَيَامِ التَّشْرِيقِ » رَوَاهُ الدَّارَ قُطْنِي .

اللَّهُمَّ اسْلكْ بِنَا مَسْلَكَ الصَّادِقِينَ الأَبْرَارْ ، وَالْحِقْنَا بِعبَادِكَ الْمُصْطَفيْنَ الأَخْيَار ، وَأَتِنَا في الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً ، وَقِنَا عَذَابَ النَّارْ .

اللَّهُمَّ أَحْي قُلُوباً أَمَاتَهَا الْبُعْدُ عَنْ بَابِكَ ، وَلاَ تُعَذِّبْنَا بِأَلِيمِ عِقَابِكَ يَا أَكْرَمَ مَنْ سَمَحَ بِالنَّوَالِ وَجَادَ بِالإِفْضَالِ ، اللَّهُمَّ أَيْقِظْنَا مِنْ غَفْلَتِنَا بِلُطْفِكَ وَاحْسَانِكَ ، وَتَجَاوَزْ عَنْ جَرَائِمِنَا بِعَفْوِكَ وَغُفْرَانِكَ ، وَاغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَلِجَمِيعِ الْمُسْلِمِيْنَ الأَحْيَاءِ مِنْهُمْ وَالْمَيِّتِينَ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ .

(فَصْـــلٌ)
في الْحَثِّ عَلَى تَقْوَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ

عِبَادَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ فَإِنَّهَا وَصِيَّةُ اللَّهِ لِلأَوَّلِينَ والآخرينَ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الْذِيْنَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَايَاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ ﴾ فَمَا مِنْ خَيْرٍ عَاجِلٍ وَلَا آجِلٍ ظَاهِرٍ وَلَا بَاطِنٍ إِلَّا وَتَقْوَى اللَّهِ سَبِيلٌ مُوصِلٌ إِلَيْهِ ، وَوَسِيلَةٌ مُبْلِغَةٌ لَهُ ، وَمَا مِنْ شَرٍّ عَاجِلٍ وَلَا آجِلٍ ظَاهِرٍ وَلَا بَاطِنٍ إِلَّا وَتَقْوَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ حِرْزٌ مَتِينٌ وَحِصْنٌ حَصِينٌ لِلسَّلَامَةِ مِنْهُ وَالنَّجَاةِ مِنْ ضَرَرِهِ .

وَكَم عَلَّقَ اللهُ العظيمُ في كِتَابِهِ العَزِيزِ على التَّقْوَى من خَيْرَاتٍ عَظِيْمَةٍ وَسَعَادَاتٍ جَسِيْمَةٍ مِن ذَلِكَ المَعِيَّةُ الخاصَّةُ المُقْتَضِيَةُ للحفظ والعِنَايَةِ والنَّصْرِ والتَّأْيِيْدِ ، قَال تعالى : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ وَمِن ذَلِكَ المَحَبَّةُ لَمِنَ اتَّقَى اللهَ ، قال الله تعالى : ﴿ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ .

وَمِنْ ذَلِكَ التَّوْفِيقُ لِلْعِلْمِ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ ﴾ وَمِنْ ذَلِكَ نَفْيُ الْخَوْفِ وَالْحُزْنِ عَن الْمُتَّقِي الْمُصْلِحِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ فَمَن اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونْ ﴾ وَمِنْ ذَلِكَ الفرقَانُ عِنْدَ الإِشْتِبَاهِ وَوُقُوعِ الاشْكَالِ وَالْكفَّارَةِ لِلسَّيِّئَاتِ وَالْمَغْفِرَةِ لِلذُّنُوبِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ يـا أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوا أَنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَاناً وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الفَضْلِ العَظِيْم ﴾ .

وَمِنْ ذَلِكَ النَّجَاةُ مِنَ النَّارِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَانْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلى رَبِّكَ حَتْماً مَقْضِياً ثُمَّ نُنَجِّي الْذِينَ اتْقَوْا ﴾ وَقَـالَ تَعَالَى :

﴿ وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِيْنَ اتَّقُوا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونْ ﴾ وَمِنْ ذَلِكَ الْمَخْرَجُ مِنَ الشَّدَائِدِ وَالرِّزْقُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ .

وَمِنْ ذَلِكَ الْيُسْرُ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى . ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْراً ﴾ وَمِنْ ذَلِكَ عِظَمُ الأَجْرِ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعَظِّمْ لَهُ أَجْراً ﴾ وَمِنْ ذَلِكَ الْوَعْدُ مِنَ اللَّهِ بِالْجَنَّةِ قَالَ تَعَالَى : ﴿ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ ﴾ الآيَاتْ إِلى قَوْلِهِ مَنْ كَانَ تَقِيّاً .

وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهْرٍ فِي مَقعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرْ ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلَ اللَّهُ مِنَ الْمَتَقِينَ ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ ﴾

ومن ذَلِكَ الْكَرَامَةُ عِنَدَ اللَّهِ بِالتَّقْوَى قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ إِذَا فَهِمْتَ ذَلِكَ فَاعْلَمْ أَنَّ التَّقْوَى هِيَ امْتِثَالُ الأَوَامِرْ وَاجْتِنَابُ النَّوَاهِي ، فَالْمُتَّقُونَ هُمُ الذِينَ يَرَاهُم اللهُ حَيْثُ أَمَرَهُم ولا يُقْدِمُونَ على مَا نَهَاهُمْ عنه .

الْمُتَّقُونَ هُمُ الَّذِيْنَ يَعْتَرِفُونَ بِالْحَقِّ قَبْلَ أَنْ يُشْهَدَ عَلَيْهِمْ وَيَعْرِفُونَهُ وَيُؤَدُّونَهُ ، وَيُنْكِرُونَ الْبَاطِلَ وَيَجْتَنِبُونَهُ وَيَخَافُونَ الرَّبَّ الْجَلِيْلَ الَّذِي لَا تُخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ ، الْمُتَّقُونَ يَعْمَلُونَ بِكِتَابِ اللَّهِ فَيُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَهُ وَيُحِلُّونَ مَا أَحَلَّهُ .

وَلَا يَخُونُونَ فِي أَمَانَةٍ وَلَا يَرْضُونَ بِالذُّلِّ وَالاهَانَةِ وَلَا يَعْقُونَ وَلَا

يَقْطَعُونَ ، وَلَا يُؤْذُونَ جِيرَانَهُمْ وَلَا يَضْرِبُونَ اخْوَانَهُمْ ، يَصِلُونَ مَنْ قَطَعَهُمْ ، وَيُعْطُونَ مَنْ حَرَمَهُمْ ، وَيَعْفُونَ عَمَّنْ ظَلَمَهُمْ الْخَيْرُ عِنْدَهُمْ مَأْمُوْلٌ ، وَالشَّرُّ مِنْ جَانِبِهِمْ مَأْمُوْنٌ لَا يَغْتَابُونَ وَلَا يَكْذِبُونَ وَلَا يُنَافِقُونَ .

وَلَا يَنمُّونَ وَلَا يَحْسِدُونَ وَلَا يُرَاؤُنَ وَلَا يُرَابُونَ وَلَا يَقْذِفُونَ وَلَا يَأْمُرونَ بِمُنْكَرٍ وَلَا يَنْهَوْنَ عَنْ مَعْرُوفْ ، بَلْ يَأْمُرُوْنَ بالمعروفِ وَيَنْهَونَ عَنِ الْمُنْكَرْ ، تِلْكَ صِفَاتُ الْمُتّقِيْنَ حَقّاً الذينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالغَيبِ وَهُمْ مِنَ السّاعَةِ مُشْفِقُوْنْ .

اخْوانِي ، لَوْ تَحَلَّى كُلِّ مِنّا بالتّقْوَى لَحَسُنَ عَمَلُهْ ، وَخَلُصَتْ نِيّتُهْ ، واسْتَقَامَ على الهُدَى ، وابْتَعَد عَنِ المَعَاصِي والرّدَى ، وكانَ يَوْمَ القيامةِ مِن النّاجِين .

وَصْفُ الْمُؤْمِنْ الْمُتَّقِي
لِلإِمَامِ عَلِي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

اَلْمُتَّقُونَ هُمْ أَهْلُ الْفَضَائِلِ مَنْطِقُهُمْ الصَّوَابُ وَمَلْبَسُهُمْ الاقْتِصَادُ وَمَشْيُهُمْ التَّوَاضُعُ غَضُّوا أَبْصَارَهُمْ عَمَّا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَوَقَّفُوْا أَسْمَاعَهُمْ عَلَى الْعِلْمِ النَّافِعِ لَهُمْ نَزَلَتْ أَنْفسهم مِنْهُمْ في الْبَلَاءِ كَمَا نَزَلَتْ في الرَّخَاءِ وَلَوْلَا الأَجَلُ الّذِي كَتَبَ اللَّهَ لَهُمْ لَمْ تَسْتَقِرَّ أَرْوَاحُهُمْ في أَجْسَادِهِمْ طَرْفَةَ عَيْنٍ شَوْقاً إلى الثَّوَابِ وَخَوْفاً مِنَ الْعِقَابِ .

عَظُمَ الْخَالِقَ في أَنْفُسِهِمْ فَصَغُرَ مَا دُونَهُ في أَعْيُنِهِمْ فَهُمْ وَالْجَنَّةُ كَمَنْ قَدْ رَآهَا فَهُمْ فِيهَا مُنْعِمُوْنَ وَهُمْ والنَّارُ كَمَنْ قَدْ رَآهَا فَهُمْ فِيهَا مُعَذَّبُون قُلُوبُهُمْ مَحْزُونَةٌ وَشُرُورُهُمْ مَأْمُونَةٌ وَأَجْسَادُهُمْ نَحِيفَةٌ وَحَاجَاتُهُمْ خَفِيفَةٌ

وَأَنْفُسُهُمْ عَفِيفَةٌ صَبَرُوا أَيَّامًا قَصِيرَةً أَعْقَبَتْهُمْ رَاحَةً طَوِيلَةً وَتِجَارَةً مُرِيحَةً يَسَّرَهَا لَهُمْ رَبُّهُمْ .

أَرَادَتْهُم الدُّنْيَا فَلَمْ يُرِيدُوهَا وَأَسَرَّتْهُمْ فَفَدَوْا أَنْفُسَهُمْ مِنْهَا أَمَّا اللَّيْلُ فَصَافُونَ أَقْدَامَهُمْ تَالِينَ لِأَجْزَاءِ الْقُرْآنِ يُرَتِّلُونَهُ تَرْتِيلًا يُحْزِنُونَ بِهِ أَنْفُسَهُمْ وَيَسْتَثِيرُونَ بِهِ دَوَاءَ دَائِهِمْ .

فَإِذَا مَرُّو بِآيَةٍ فِيهَا تَشْوِيقٌ رَكَنُوا إِلَيْهَا طَمَعًا وَتَطَلَّعَتْ نُفُوسُهُمْ إِلَيْهَا شَوْقًا وَظَنُّوا أَنَّهَا نَصْبَ أَعْيُنِهِمْ وَإِذَا مَرُّوا بِآيَةٍ فِيهَا تَخْوِيفٌ أَصْغَوْا إِلَيْهَا مَسَامِعَ قُلُوبِهِمْ وَظَنُّوا أَنَّ زَئِيرَ جَهَنَّم وَشَهِيقَهَا فِي أُصُولِ آذَانِهِم فَهُم حَانُونَ عَلَى أَوْسَاطِهِم مَفْتَرِشُونَ لِجِبَاهِهِمْ وَأَكُفِّهِم وَرُكَبِهِمْ وَأَطْرَافِ أَقْدَامِهِم يَطْلُبُونَ إِلَى اللهِ تَعَالَى فِي فَكَاكِ رِقَابِهِم وَأَمَّا النَّهَارُ فَحُلَمَاءُ عُلَمَاءُ أَبْرَارُ أَتقِيَاءُ .

قَدْ بَرَاهُم الخَوفُ بَرْيَ القِدَاحِ يَنْظُرُ إِلَيْهِم النَاظِرُ فَيَحْسَبُهُم مَرْضَى وَمَا بِالقَوْمِ مِن مَرَضٍ وَيَقُولُ قَدْ خُولِطُوا وَلَقَدْ خَالَطَهُم أَمْرٌ عَظِيْمٌ ؟ لَا يَرْضَوْنَ مِن أَعْمَالِهِم القَلِيْلَ وَلَا يَسْتَكْثِرُوْنَ الكثيرَ فَهُم لِأَنْفُسِهِم مُتَّهَمُونَ وَمِن أَعْمَالِهِم مُشْفِقُونَ إِذا زُكِيَ أَحَدُهُم خَافَ مِمَّا يُقَالُ فَيقولُ أنا أَعْلَمُ بِنَفْسِيْ مِن غَيْرِيْ وَرَبِي أَعْلَمُ بي مِن نَفْسِي اللهم لا تُؤَآخِذْنِي بِمَا يَقُولُونَ وَاجْعَلْنِي أَفْضَلَ مِمَّا يَظُنونَ ، واغْفِرْ لِي مَا لَا يَعْلَمُوْنَ .

فَمِنْ عَلَامَةِ أَحَدِهِم أَنَّكَ تَرَى لَهُ قُوَّةً فِي دِيْنٍ وَحَزْماً فِي لِيْنٍ وإِيْمَاناً فِي يَقِيْنٍ ، وَحِرْصاً فِي عِلْمٍ ، وعِلْماً فِي حِلْمٍ وَقَصْداً فِي غِنَى وَخُشُوعاً فِي عِبَادَةٍ وَتَحمُّلاً فِي فَاقَةٍ وَصَبْراً فِي شِدَّةٍ وَطَلَباً فِي حَلَالٍ وَنَشاطاً فِي هُدَى وَتَحَرُّجاً عن طَمَعٍ .

يَعْمَلُ الأَعْمَالَ الصَّالِحَة وَهُوَ عَلَى وَجَلٍ ، يُمْسِي وَهَمُّهُ الشُكْرُ ، وَيُصْبِحُ وَهَمُّهُ الذِكْرُ يَبِيْتُ حَذِراً وَيُصْبِحُ فَرِحاً ، حَذِرَاً لِمَا حَذِرَ مِن الغَفْلَةِ ، وَفَرِحاً بِمَا أَصَابَ مِن الفَضْلِ والرَّحْمَةِ ، إِنْ اسْتَصْعَبَتْ عليه نَفْسُهُ فِيْمَا تَكْرَهُ ، لم يُعْطِهَا سُؤْلَهَا فِيْمَا تُحِبُّ .

قُرَّةُ عَيْنِهِ فِيْمَا لا يَزُوْلُ ، وَزَهَادَتُه فِيمَا لا يَبْقَى ، يَمْزِجُ الحِلْم بالعِلْم ، والقَولَ بالعَمَلِ ، تَرَاهُ قَرِيْباً أَمَلُهُ ، قَلِيْلاً زَلَلُهُ ، خَاشِعَاً قَلْبُهُ ، قَانِعَةً نَفْسُه ، مَنْزُوْراً أَكْلُهُ سَهْلاً أَمْرُهُ ، حَرِيْزاً دِيْنُهُ ، مَيِّتَةً شَهْوَتُهُ مَكْظُوماً غَيْظُهُ ، الخَيْرُ مِنْهُ مَأْمُولٌ ، والشَرُ مِنْهُ مأمونٌ .

إِنْ كَانَ في الغَافِلِيْنَ كُتِبَ في الذَّاكِرِيْنَ وانْ كَانَ في الذَّاكِرِيْنَ لَمْ يُكْتَبْ مِن الغَافِلِينَ يَعْفُو عَمَّنْ ظَلَمَهُ وَيُعْطِيْ مَن حَرَمَهُ وَيَصِلُ مَنْ قَطَعَهُ ، بَعِيْداً فُحْشُهُ ، لَيِّنَاً قَوْلُهُ غائِباً مُنْكَرُهُ ، حَاضِراً مَعْرُوْفُهُ ، مُقْبِلاً خَيْرُهُ ، مُدْبِراً شَرُّهُ ، في الزَّلاَزِلِ وَقُوْرٌ ، وفي المَكَـارِهِ صَبُوْرٌ وفي الرَّخَاءِ شَكُورٌ .

لَا يَحِيْفُ على مَن يُبْغِضُ ، وَلَا يَأْثَمُ فِيْمَنْ يُحِبُ ، يَعْتَرِفُ بِالحَقِّ قَبْلَ أَن يُشْهَدَ عَليه ، لا يُضَيِّعُ ما اسْتُحْفِظَ ، وَلَا يَنْسَى مَا ذُكِرَ ، وَلَا يُنَابِزُ بِالأَلْقَابِ ، وَلَا يُضَارُّ بالجَارِ ، وَلَا يَشْمُتُ بالمُصَابِ ، ولَا يَدْخُلُ في البَاطِلِ ، ولا يَخْرُجُ مِن الحَقِّ .

إِن صَمَتَ لَم يَغُمَّه صَمْتُهُ ، وانْ ضَحِكَ لم يَعْلُ صَوْتُهُ ، وإِنْ بُغِيَ عَليهِ صَبَرَ حَتَّى يَكُونَ اللهُ هُو الذي يَنْتَقِمُ لَهُ ، نَفْسُهُ مِنْهُ في عَنَاءٍ والناسُ مِنْهُ في رَاحَةٍ ، أَتْعَبَ نَفْسَهُ لآخِرَتِهِ ، وأَرَاحَ الناسَ مِن نَفْسِهِ .

بُعْدُهُ عَمَّنْ تَبَاعَدَ عَنْهُ زُهْدٌ وَنَزَاهَةٌ ، ودُنُوُّهُ مِمَّنْ دَنَا مِنْهُ لِيْنٌ وَرَحْمَةٌ ، لَيْسَ تَبَاعُدُه بِكِبْرٍ وَعَظَمَةٍ ، وَلَا دُنُوُّهُ بِمَكْرٍ وَخَدِيْعَةٍ .

قالَ فَصَعِقَ هَمَّامُ صَعْقَةً كَانَتْ نَفْسُهُ فِيْهَا . فَقَالَ أَمِيْرُ المُؤْمِنِينَ عليهِ السلامُ أَمَا وَاللهِ لَقَدْ كُنْتُ أَخَافُهَا عَلَيْهِ ، ثُمَّ قَال هَكَذَا تَصْنَعُ المَوَاعِظُ البَالِغَةُ بِأَهْلِهَا فَقَالَ لَهُ قَائِلٌ : فَمَا بَالُكَ يا أَمِيْرَ المُؤْمِنِيْنَ فقالَ وَيْحَكَ ، إن لِكلِ أَجَلٍ وَقْتاً لَا يَعْدُوْهُ وسَبَباً لَا يَتَجَاوَزُه أ هـ .

عَلَيْكُم بِتَقْوَى اللهِ لَا تَتْرُكُوْنَهَا
فَإِنَّ التُّقَى أَقْوَى وأَوْلَى وأَعْدَلُ
لِبَاسُ التُّقَى خَيْرُ المَلابِسِ كُلِّهَا
وأَبْهَى لِبَاساً في الوُجُودِ وَأَجْمَلُ
فَمَا أَحْسَنَ التَّقْوَى وأَهْدَى سَبِيْلَهَا
بِهَا يَنْفَعُ الإِنسَانَ مَا كَانَ يَعْمَلُ
فَيَا أَيُّهَا الإِنسَانُ بَادِرْ إِلى التُّقَى
وَسَارِعْ إِلى الخَيْرَاتِ مَا دُمْتَ مُمْهَلُ
وَأَكْثِرْ مِن التَّقْوَى لِتَحْمِدَ غِبَّهَا
بِدَارِ الجَزَاء دَارٍ بِهَا سَوْفَ تَنْزِلُ
وَقَدِّمْ لِمَا تَقْدَمْ عَلَيهِ فَإِنَّمَا
غَداً سَوْفَ تُجزَى بالّذي سَوْفَ تَفْعَلُ
وأَحْسِنْ ولا تُهْمِلْ إِذا كُنْتَ قَادِراً
فَدَارُ بَنِيْ الدُّنْيَا مَكَانُ التَّرَحُّلِ

وأَدِّ فُـرُوْضَ الـدِّيْـنِ واتْقِـنْ أَدَاءَهَـا
كَـوَامِـلَ فـي أَوْقَـاتِـهَـا والتَّـنَـفـل
وَسَـارِعْ إلى الخَيْـرَاتِ لا تَهْمِلَنَّهَـا
فـإنَّـكَ إنْ أَهْمَلْتَ مَـا أَنْتَ مُهْمَـلُ
وَلَكِنْ سَتُجْـزَى بـالـذي أَنْتَ عَـامِـلُ
وعن ما مَضَى عن كُلِّ شَيْءٍ سَتُسْأَلُ
وَلَا تُلْهِـكَ الـدُّنْيَـا فَـرَبُّـكَ ظَـامِنٌ
لِـرِزْقِ البَـرَايَـا ظَـامِنٌ مُتَكَـفِـلُ
وَدُنْيَـاكَ فـاعْبُـرْهَـا وآخِـرَاكَ زِدْ لَهَـا
عَـمَـاراً وإيْثَـاراً إذا كُـنْتَ تَـعْـقِـلُ
فَمَنْ آثَـرَ الـدُّنْيَـا جَهُـولٌ وَمَنْ يَبِـعْ
لِأُخْـرَاهُ بـالـدُّنْيَـا أَضَـلُّ وأَجْهَـلُ
وَلَـذَّاتُـهَـا والجَـاهُ والـعِـزُّ والغِنَى
بِـأَضْـدَادِهَـا عَـمَّـا قَلِيْـلٍ تَـبَـدَّلُ
فَمَنْ عَاشَ في الدُّنْيَا وإن طَالَ عُمْرُهُ
فـلا بُـدَّ عَنْهَـا رَاغِمـاً سَـوْفَ يُنْقَـلُ
وَيَـنْـزِلُ دَاراً لا أَنِـيْسَ لَـهُ بِـهَـا
لِكُـلِ الـوَرَى مِنهم مَعَـادٌ وَمَـوْئِـلُ
وَيَبْقَى رَهِيْنـاً بـالتـرابِ بِمَـا جَنى
إلى بَعْثِـهِ مِن أَرْضِـهِ حِيْنَ يَـنْسِـلُ
يُـهَـالُ بـأَهْـوَالٍ يَشِيْبُ بِبعْضِهَـا
وَلَا هَـوْلَ إلا بَعْـدَهُ الهَـوْلُ أَهْـوَلُ

وفي البَعْثِ بَعدَ المَوتِ نَشْرُ صَحائِفٍ
وَمِيْـزَانُ قِسْطٍ طَـائِشٍ أَوْ مُـثَـقَّـلُ
وَحَشْـرٌ يَشِيْبُ الـطفْـلُ مِنه لِهَـوْلِـهِ
وَمنـه الجِبَال الـرَّاسِيَـاتُ تَـزَلْـزَلُ
وَنَـارٌ تَلَظَّى في لضَاهَـا سَـلاسِـلٌ
يُـغَـلُّ بِهَـا الـفُجَـارُ ثُـمَّ يُـسَـلْسَـلُ
شَـرَابُ ذَوِيْ الإِجْـرَامِ فِيهَا حَمِيْمُهَا
وَزقُـوْمُهَـا مَـطْعُـومُهُمْ حِيْنَ يُؤْكَـلُ
حَـمِـيْـمٌ وَغَـسَّـاقٌ وآخَـرُ مِـثْـلُهُ
مِن المُهْلِ يَغْلِي في البُطُونِ وَيَشْعَـلُ
يَـزِيْـدُ هَـوَانـاً مِن هَـوَاهَـا ولاَ يَـزَلْ
إلى قَعْـرِهَـا يَهْـوِي دَوَامـاً وَيَنْـزِلُ
وَفـي نَـارِهِ يَـبْقَى دَوَامـاً مُـعَـذَّبَـاً
يَـصِـيْـحُ ثُـبُـوراً وَيْـحَـهُ يَـتَـوَلْـوَلُ
عَـلَيْـهَـا صِـرَاطٌ مَـدْحَضٌ وَمَـزَلَّـةٌ
عَلَيْـهِ البَـرَايَـا في القِيَـامَـةِ تُحْمَـلُ
وفـيـهِ كَـلاَلِـيْـبٌ تَـعَـلَّقُ بـالـوَرَى
فَهَـذَا نَجَـا مِـنهـا وَهَـذا مُـخْـرَدَلُ
فَـلا مُـذْنِبٌ يَفْـدِيْـهِ مَـا يَفْتَـدِيْ بِـهِ
وإِنْ يَعْتَـذِرْ يَـومـاً فـلا العُـذْرُ يُقْبَـلُ
فَهَـذَا جَـزَاءُ المجـرمينَ على الـرَّدَى
وهـذا الـذي يَـومَ القِيَـامَـةِ يَحْصُـلُ

أَعُـوذُ بِـرَبِي مِن لَـظَى وَعَـذَابِـهَـا
وَمِن حَـالِ مَن يَهْـوِيْ بِهَـا يَتَجَلْجَـلُ
وَمِن حَـالِ مَن في زَمْهَـرِيْـرٍ مُعَـذَّبٍ
وَمَن كـانَ في الأَغْـلَالِ فِيْهَـا مُكَبَّـلُ
وَجَنَّـاتُ عَـدْنٍ زُخْـرِفَتْ ثُمَّ أُزْلِفَـتْ
لِقَـوْمٍ على الـتَّقْـوَى دَوَامـاً تَبَتَّـلُ
بِهَـا كُـلُ مَـا تَهْـوَى النُفُـوسُ وَتَشْتَهِيْ
وَقُـرَّةُ عَـيْنٍ لَـيْسَ عَـنـهـا تَـرَحُّـلُ
مَـلَابِسُهُـم فِيْـهَـا حَـرِيْـرٌ وَسُنْـدُسٌ
وَإِسْـتَـبْـرَقٌ لا يَـعْـتَـرِيْـهِ الـتَّـحَـلُّلُ
وَمَـأْكُـوْلُهم مِن كُـلِّ مَـا يَشْتَهُـونَـهُ
وَمِن سَلْسَبِيْـلٍ شُـرْبُـهُم يَـتَسَلْسَـلُ
وأَزْوَاجُـهُم حُـوْرٌ حِسَـانٌ كَـوَاعِـبٌ
على مِثْلِ شَكْلِ الشَّمْسِ بل هُوَ أَشْكَلُ
يُـطَافُ عَلَيْهِـم بـالـذي يَشْتَهُـونَـهُ
إذا أَكَـلُوا نَـوْعـاً بـآخَـرَ بُـدِّلُـوْا
فَـوَاكِهُهَـا تَـدْنُـوا إلى مَنْ يُـرِيْـدُهَـا
وَسُكَّـانُهَـا مَهْمَـا تَـمَنَّـوْهُ يَـحْصُـلُ
وأَنْهَـارُهَـا الأَلْبَـانُ تَجْـري وأَعْسُـلٌ
تَـنَـاوُلُـهَـا عِـنْـدَ الإِرَادَةِ يَـسْـهُـلُ
بِهَـا كُـلُ أَنْـوَاعِ الفَـوَاكِـهِ كُـلِّهَـا
وَخَـمْـرٌ وَمَـاءٌ سَلْسَـبِيْـلٌ مُـعَسَّـلُ

يُقَالُ لَهُمْ طِبْتُمْ سَلِمْتُمْ مِن الأَذَى
سَلامٌ عَلَيْكُم بالسَّلامَةِ فأدْخُلُوا
بأَسْبَابِ تَقْوَى اللهِ والعَمَلِ الذي
يُحِبُّ إلى جَنَّاتِ عَدْنٍ تَوَصَّلُوا
إذا كَانَ هَذَا والذي قَبْلَهُ الجَزَاء
فَحَقٌّ على العَيْنَينِ بالدَّمْعِ تُهْمِلُ
وَحَقٌّ على مَن كَانَ باللهِ مُؤْمِناً
يُقَدِّمْ لَهُ خَيْراً وَلَا يَتَعَلَّلُ
وأَنْ يَأْخُذَ الإنْسَانُ زَاداً مِن التُقَى
ولا يَسْأَمِ التَّقْوَى وَلَا يَتَمَلْمَلُ
وإنَّ أَمَامَ الناسِ حَشْرٌ وَمَوْقِفٌ
وَيَومٌ طَوِيْلٌ ألفُ عَامٍ وَأَطْوَلُ
فَيَالَك مِن يَوْمٍ عَلى كُلِّ مُبْطِلٍ
فَضِيْعٍ وأَهْوَالُ القِيَامَةِ تُعْضِلُ
تَكُونُ به الأَطْوادُ كَالعِهْنِ أَوْ تَكُنْ
كَثِيْباً مَهِيْلاً أَهْيَلاً يَتَهَلْهَلُ
بِهِ مِلَّةُ الإسلامِ تُقْبَلُ وَحْدَهَا
وَلَا غَيْرُهَا مِن أَيِ دِيْنٍ فَيَبْطُلُ
بِهِ يُسْأَلُونَ الناسُ ماذا عبدتموا
وماذا أَجَبْتُم مَن دَعَا وَهُوَ مُرْسَلُ
حِسَابُ الذي يَنْقَادُ عَرْضٌ مُخَفَّفٌ
وَمَن لَيسَ مُنْقَاداً حِسَابٌ مُثَقَّلُ

وَمِنْ قَبْلِ ذَاكَ المـوتُ يـأْتِيكَ بَغْتَـةً
وَهَيْهَـاتَ لا تَدْرِي مَتَى المَـوتُ يَنْزِلُ
كُؤُسُ المَنَـايَا سَـوْفَ يَشْـرَبُهَـا الـوَرَى
عَلى الـرَّغْمِ شُبَّـانٌ وَشِيْبٌ وَأَكْهُـلُ
حَنَـانَيْـكَ بَـادِرْهَـا بِخَيْـرٍ فَـإِنَّمَـا
على الآلـةِ الحَدْبَـا سَـرِيْعاً سَتُحْمَـلُ
إذا كُنْتَ قَـدْ أَيْقَنْتَ بـالمَـوتِ والفَنَـا
وبـالبَعْثِ عَمَّـا بَعْـدَهُ كَيْفَ تَغْفُـلُ
أَيَصْلُحُ إِيْمَـانُ المَعَـادِ لِمُنْصِفٍ
وينسى مَقَـامَ الحَشْـرِ مَن كَـانْ يَعْقِـلُ
إذا أَنْتَ لَم تَـرْحَـلْ بِـزَادٍ مِن التُقَى
ابنْ لِي أَبِنْ يَـومَ الجَـزَا كَيْفَ تَفْعَـلُ
أَتَـرْضَى بـأَنْ تأتي القِيَـامَـةَ مُفْلِساً
على ظَهْـرِكَ الأَوْزَارُ بـالحَشْـرِ تَحْمِـلُ
إلٰهي لَـكَ الفَضْلُ الـذي عَمَّمَ الـوَرَى
وَجُـوْدٌ على كُـلِ الخَلِيْقَـةِ مُسْبَـلُ
وَغَيْـرُكَ لَـو يَمْلِكْ خَـزَائِنَـكَ الْتِي
تَـزِيْـدُ مَـعَ الانْفَـاقِ لَا بُـدَّ يَبْخَـلُ
وإِنّـي بِـكَ الَّـلهُـمَّ رَبـي لَـوَاثِـقٌ
وما لِي بِبَـابٍ غَيـرِ بَـابِـكَ مَـدْخَـلُ
وإِنّي لَـكَ الَّلهُمَّ بـالـدِيْنِ مُخْلِصـاً
وَهَـمِّيْ وَحَـاجَـاتِي بِجُـوْدِكَ أُنْـزِلُ

أَعـوذُ بِـكَ اللَّهُمَّ مِن سُـوْءِ صُنْعِنَـا
وَأَسْـأَلُـكَ التَّـثْـبِـيْـتَ أُخْـرَى وَأَوَّلُ
إِلـهـي فَثَبِّتْنِيْ عَـلى دِيْـنـكَ الـذِي
رَضِـيْـتَ بِـهِ دِيْـنـاً وإِيَّـاهُ تَـقْـبَـلُ
وَهَبْ لِي مِن الفِرْدَوْسِ قَصْرَاً مُشَيَّداً
وَمُـنَّ بِـخَـيْـرَاتٍ بِـهَـا أَتَـعَـجَّـلُ
وَلِـلَّهِ حَـمْـدٌ دَائِـمٌ بِـدَوَامِـهِ
مَدَى الدهْرِ لا يَفْنَى ولا الحَمْدُ يَكْمُلُ
يَـزِيْـدُ عـلى وَزْنِ الخَـلاَئِـقِ كُلِّهَـا
وأَرْجَـحُ مِن وَزْنِ الجَمِيْـعِ وأَثْـقَـلُ
وإِنّي بِحَمْـدِ اللهِ في الحَمْـدِ أَبْتَـدِي
وأُنْهِيْ بِحَمْـدِ الـلهِ قَـوْلِيْ وَأَبْـتَـدِي
صَـلاةً وَتَـسْـلِيْـمـاً وَأَزْكَـى تَـحِـيَّـةً
تَـعُـمُّ جَـمِيْـعَ الـمُـرْسَلِيْـنَ وَتَشْـمَـلُ
وأَزْكَـى صَـلاة الـلهِ ثُـمَّ سَـلاَمُـهُ
عَلَى المُصْطَفَى أَزْكَى البَرِيَّـةِ تَنْـزِلُ

اللهم وَفِّقْنَا لِمَا وَفَّقْتَ إليه القَوْم وأَيْقِظْنَا مِن سِنةِ الغَفْلَةِ والنَّوم وأرزِقْنَا الاستعدادَ لِذَلِكَ اليَوْمِ الذي يَرْبَحُ فيه المُتَّقُونَ اللهم وعامِلنَا بإِحْسَانِكَ وَجُدْ علينا بِفَضْلِكَ وامْتِنَانِكَ واجعلنا مِن عِبادِكَ الذين لا خَوفٌ عليهم ولا هم يحزنون اللهم ارحَمْ ذُلَّنَا بَيْنَ يَدَيْكَ واجعلْ رَغْبَتَنَا فِيما لَدَيْكَ ، ولا تَحرِمنا بِذُنوبنا ، ولا تَطْرُدْنَا بعُيوبِنا ، واغفر لنا وَلِوالدينَا

وَلِجميع المُسْلمين الأَحياء مُنْهُم والمَيتين بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَم الرَّاحِمِيْن وصلّى اللهُ على محمدٍ وآلِهِ وصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنْ .

(فَصْــلٌ)
في الوعظ والارشــاد

إِعْلِمْ وَفَّقَنَا اللهُ وإِيَّاكَ وَجَمِيْعَ المسلمينَ لِمَا يُحِبُّهُ وَيرْضَاهُ أَنَّ الدعوةَ الى اللهِ عَمَلُ الأَنبياءِ والمرسلينَ صَلَواتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيْهِم أجمعين ، وأن العُلَمَاءَ نُوَّابٌ عن الأنبياءِ في هَذَا الأَمْرِ الخَطِيْرِ فَهُم أُمَنَاءُ اللهِ عَلَى شَرْعِهِ والحَافِظُونَ لِدِيْنِهِ القَوِيْم والقائِمُونَ على حُدُوْدِ اللهِ والعَارِفُونَ بِمَا يَجِبُ لِلهِ مِن كَمَالِ وَتَنْزِيْهٍ .

لِذَلِكَ كَانَ أَئِمَّةُ المُسْلِمِيْنَ المُخْلِصُونَ في أَعْمَالِهم الصَّادِقُونَ في أقوالِهم البَعِيْدُونَ عَن الرِيَاءِ وحُبِّ الشُّهْرَةِ والمَدْحِ يَسِيْرُوْنَ بالخَلْقِ نَحوَ سَعَادَتِهم بِمَا يُعَلِّمُونَهُم مِن أُمُوْرِ دِيْنِهم وَبِمَا يُرْشِدُوْنَهُم إِليهِ مِن التَّحَلِيْ بِالفَضِيْلَةِ والتَّخَلِيْ عِن الرَّذِيْلَةِ واعْتَقَدَ الناسُ فيهم ذَلِكَ وأَمّلُوهُم لَهُ فأَحَلُّوهُمْ مِن أَنْفُسِهِم مَحلاً لَم يَبْلُغْهُ سِوَاهم مِن البَشَرِ حَتَّى اكْتَسَبُوا في قُلُوبِهم مَكانَةً يُغْبَطُونَ عَلَيْهَا وَرَبِحُوا مَنْزِلَةً تَصْبُوْا إِلَيْهَا نُفُوسُ ذَوِيْ الهِمَّةِ العَالِيةِ والفَضْلِ .

وَنَاهِيْكَ بِقَومٍ إِذا فَعَلُوا لَحَظَتْهُم العُيُونُ وإِذَا قَالُوا أَصْغَتْ الآذانُ وَوَعَتِ القلوبُ وَحَكَتِ الأَلْسُنُ فَهم مَطْمَحُ الأَنْظَارِ وَمَوْضِعُ الثِّقَةِ والحُجَّةِ البَالِغَةِ والبُرْهَانِ القَاطِعِ والنُوْرِ السَّاطِعِ قال الله تعالى ﴿ وَمَن أَحْسَنُ قولاً مِمَّنْ دَعَا إِلى اللهِ وَعَمِلَ صالحاً وقال إِنَّنِي مِن المُسلمِين ﴾ .

المَعْنَى لَا أَحَدَ أَحْسَنَ كَلَاماً وَطَرِيْقَةً وَحَالَةً مِمَّنْ دَعَا النَاسَ إِلى طَاعَةِ اللهِ وَطَاعَةِ رُسُلِهِ وَذَلِكَ بِتَعْلِيم جَاهِلِهِم وَوَعْظِ غَافِلِهم وَنُصْحِ مُعْرِضِهِم وَمُجَادَلَةِ مُبْطِلِهِم بِالأَمْرِ بِعِبَادَةِ اللهِ بِجَمِيْعِ أَنواعِهَا والحَثِّ علَيها وَتَحْسِيْنِهَا وَتَحْبِيْبِهَا مَهْمَا أَمْكَن والزَجْرِ عمَّا نَهى اللَّهُ وَرَسُولُه عَنْهُ وَتَقْبِيحِهِ والتَّحْذِيْرِ مِنْهُ بِكُلّ وَسِيْلَةٍ وَطَرِيقةٍ تُوجِبُ تَرْكَهُ .

وَكَانَ الْحَسَنْ إِذَا تَلَا هَذِهِ الآيَةَ يَقُولُ هَذَا حَبِيبُ اللَّهِ ، هَذَا وَلِيُّ اللّهِ ، هَذَا صَفْوَةُ اللّهِ ، هَذَا خِيْرَةُ اللّهِ ، هَذَا أَحَبُّ أَهْلِ الأَرْضِ إِلَى اللَّهِ ، أَجَابَ اللَّهُ في دَعْوَتِهِ ، وَدَعَا النَّاسَ إِلَى مَا أَجَابَ فِيهِ مِنْ دَعْوَتِهِ ، وَعَمِلَ صَالِحاً في إِجَابَتِهِ .

وَقَالَ في هِدَايَةِ الْمُرْشِدِينَ إِنَّ أَوَّلَ وَاجِبٍ عَلَى الدَّاعِي الْعِلْمُ بِالْقُرْآنِ وَالْمُرَادُ بِالنَّظرِ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ إِلَى كَوْنِهِ هُدىً وَمَوْعِظَةً وَعِبْرَةً .

وَكَذَلِكَ السُّنَّةُ وَمَا صَحَّ مِنْ أَقْوَالِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَسِيرَتِهِ وَسِيرَةِ خُلَفَائِهِ الرَّاشِدِيْنَ وَالسَّلَفِ الصَّالِحِ وَبِالْقَدْرِ الكَافي مِنْ الأَحْكَامِ وَأَسْرَارِ التَّشْرِيعِ مَعَ الصِّدْقِ في نَشْرِهَا فَإِنَّ مَرْتَبَةَ التَّبْلِيغِ عَنِ اللَّهِ لَمْ تَكُنْ إِلَّا لِمَنْ اتَصِفُ بِالْعِلْمِ مَعَ الصِّدْقِ .

وَالْمُرْشِدُ وَارِثٌ لِهَذِهِ الْمَرْتَبَةِ وَلْيَتَمَكَّنْ مِنْ تَعْلِيم ذَلِكَ عَلَى الْوَجْهِ الصَّحِيحِ فَلَا يَزِيغُ في عَقِيدَتِهِ وَلَا يَعْجَزُ عَنْ اقْنَاعِ النُّفُوسِ الْمُتَطَلِعةِ إِلى مَعْرِفَةِ أَسْرَارِ الأَحْكَامِ الشَّرعِيَّةِ فَيَكُونُ الإِذْعَانُ لَهُ أَتَمَّ والْقَبُولُ مِنْهُ أَكْمَلَ .

فَأَمَّا الْجَاهِلُ فَضَالٌّ مُضِلٌ وَضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ ، وَمَا يُفْسِدُهُ أَكْثَرَ مِمَّا يُصْلِحُهُ إِذْ لَا تَمْيِيزَ لِجَاهِلٍ بَيْنَ الْحَقِ والْبَاطِلِ وَلَا مَعْرِفَةَ عِنْدَهُ تُرْشِدُ

إلى إِصْلَاحِ الْقُلُوبِ وَتَهْذِيبِ النُّفُوسِ .

قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِي رَحِمَهُ اللَّه الْعَامِلُ عَلَى غَيْرِ عِلْمٍ كَالسَّائِرِ عَلَى غَيْرِ طَرِيقٍ ، وَفِي الْحِكَمِ مَنْ سَلَكَ طَرِيقاً بِغَيْرِ دَلِيلٍ ضَلَّ ، وَمَنْ تَمَسَّكَ بِغَيْرِ أَصْلٍ زَلَّ .

وأَمَّا الْكَاذِبُ فَلَا خَيْرَ فِيهِ وَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ، لِهَذَا حَرَّمَ اللَّهُ الْقَوْلَ عَلَيْهِ بِلَا عِلْمٍ ، وَجَعَلَهُ مِنْ أَفْحَشِ الْكَبَائِرِ ، قَالَ تَعَالَى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَواحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ، والإِثْمَ ، والْبَغْيَ بِغَيْرِ الحقِ ، وأَنْ تُشْرِكُوا باللَّهِ ما لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً ، وأَنْ تَقُولُوا على اللَّهِ ما لا تَعْلَمُون ﴾ .

وَهَذَا يَعُمُّ القولَ على اللَّهِ في أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَذَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ وَفي دِيْنِهِ وَشَرْعِه ، وَقَالَ تَعَالَى ﴿ ولا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُم الكَذِبَ هَذا حَلال وهَذَا حَرام لِتَفْتَروا عَلى اللَّهِ الكَذِبَ انَّ الذيْنَ يَفْتَرُون على اللَّهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونْ ﴾ .

وَمِمَّا يَنْبَغِي أَنّ يَتّصِفَ بِهِ الدّاعِيْ الْعَمَلُ بِعِلْمِهِ فَلَا يُكَذِّبُ فِعْلُه قَوْلَهُ ، ولا يُخَالِفُ ظَاهِرُهُ باطِنَه ، فَلا يَأمُرُ بِشَيءٍ إِلَّا وَيَكُونُ أَوّلَ عَامِلٍ بِهْ ، وَلَا يَنْهَى عَنْ شَيءٍ إِلَّا وَيَكُونُ أَوّلَ تَارِكٍ لَهْ ، لِيُفِيْدَ وَعْظُهُ وارشَادُهْ . فأمّا إِنْ كانَ يَأْمُرُ بالْخَيْرِ وَلَا يَفْعَلُهُ وَيَنْهَى عَنْ الشّرِّ وَهُوَ وَاقِع فِيْهِ ، فَهُوَ بِحَالِهِ عَقَبةً في سَبِيلِ الإِصْلَاحْ ، وَهَيْهَاتَ أَنْ يُنتفعَ بِهْ ، فإِنَّهُ فاقِد الرّشْدِ في نَفْسِهِ فَكَيْفَ يُرْشِدَ غَيْرَهُ .

اللّهُمّ اجْعَلْنَا من التَّالِيْنَ لِكِتَابِك الْعَامِلِينَ بِهِ الْمُحَلِّلِيْنَ حَلَالَهُ

المُحرّمِين حَرَامَهُ المُمْتَثِلِينَ لِأَوَامِرِهِ الْمُجْتَنِبِينَ نواهِيَهُ المُتّعِظِينَ بِمَواعِظِهِ الْمُنْزَجِرِينَ بِزَواجِرِهِ الْمُتفَكِّرِيْنَ في مَعَانِيهِ الْمُتَدّبِرِينَ لِأَلْفَاظِهِ الْبَاكِينَ المقْشَعِرّيْنَ عِنْدَ تِلاَوَتِه وَسَمَاعِهِ واغْفِر لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَلِجَمِيْعِ المُسْلِمين الأَحْياءِ مِنْهُمْ والْمَيِتِينَ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمينَ وَصَلَّى اللَّهُ على مُحَمَّدٍ وعلى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينْ .

(فَصْـــلٌ)

قالَ مَالِكُ بْنُ دَيْنَارٍ إِنَّ الْعَالِمَ اذا لَمْ يَعْمَلْ بِعِلْمِهِ زَلَّتْ مَوْعِظَتُه عَن القلوبِ كَمَا يَزِلُّ القَطْرُ عن الصَّفا فانّ مَن حَثَّ على التَّحَلي بِفَضِيْلةٍ ، وهو عَاطِلٌ مِنها ، لا يُقْبَلُ قَوْلُه ، كَمَنْ يَحُثُ النّاسَ على الْحِلمِ والصّبْرِ والكَرَم وَهُوَ بِضِدّ ذلكِ قالَ تَعَالى ﴿ أَتَأْمُرُوَن الناسَ بِالبِرّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وأَنْتُم تَتلُونَ الكِتَابَ أَفَلاَ تَعْقِلُون ﴾ .

وَمِثْلُ ذَلكَ مَن يَنْهى عن الأَخْلاقِ السَّاقِطَةِ والبِدَعِ والمَلاَهِي وَهُو مُتَلَوّثٌ بِهَا كَمَنْ يَنْهَي عن الدُّخانِ أَبي الخبائِثِ والخَمْرِ أُمِّ الخَبَائِثُ وَهُوَ يَشْرَبُهُمَا ، وَكَمْن يَأْمُرُ بـالابتعَادِ عن التّلفـزِيُون والمِـذياعِ والسِّيْنَمَـاءِ والبَكَمَاتِ ، وَهُو يَشْتَرِيْهَا أَوْ يَحْظُرُهَا .

وَكَمَنْ يَنْهَى عن حَلْقِ اللِّحْيَةِ والخَنَافِسِ والتَّشَبُّهِ بالنساءِ والمُردِ والكُفارِ وهو مُتَلَبِسٌ بها وَكَمَنْ يَنْهَى عن الكُورَةِ وهو يَحْظُرُهَا ، أَوْ يَنْهَى عن بَيْعِ هَذِهِ المَلاَهِي وشرائِهاوَتَصْلِيحِهاوهو يَفْعَلُ ذلِكَ ، فهذا يُقابَلَ قَولُهُ بالرَّدِ ، ولا يُعَامَلُ إلا بالإعْرَاضِ ، والإهْمَالِ ، بل مَحَلُّ سُخْرِيَّةٍ ، واسْتِهْزَاءٍ في نَظَرِ العُقَلاَءِ .

فإنَّ مَنْ تَناوَلَ شَيْئاً فَأَكَلَهُ وَقَالَ لِلنَّاسِ لَا تَتَناوَلُوهُ ، فإنَّهُ سُمٌّ مُهْلِكٌ سَخِرَ الناسُ مِنه ، واسْتَهْزَؤُا بِه واتَّهَمُوهُ في دِيْنِهِ وعِلمِهِ وَوَرَعِهِ ، وَكَأَنَّهُ بِزَجْرِهِ وَنَهْيِهِ حَرَّصَهُم عليه ، فيقولُونَ لَوْلا أَنَّهُ لَذِيْذ مَا كَانَ يَسْتَأْثِرُ بِهِ .

كَذَلِكَ الدَّاعِي إذا خَالَفَ فِعْلُه قَوْلَهُ ، أَمَّا الإِئْتِمَارُ بِمَا سَيَأْمُرُهُم بِهِ أَوَّلاً وَالتَّخَلُّقُ بِمَا يَدْعُوهُم إِليهِ فَهُوَ وَاقِعٌ في نُفُوسِ السَّامِعِينَ ، وأَقْرَبُ إِلى اذْعَانِ الرَّاغِبِيْنَ .

فَمَنْ لَمْ يُكَابِدْ قِيَامَ اللَّيْلِ وَسَهرِهِ ، فَكَيْفَ يُسْمَعُ مِنه فَضْلُ قِيَامِ الليل ، وَكَمَنْ يَحُثُّ على الصَدَقَةِ والمُشَارَكَةِ في الأَعْمَالِ الخَيْرِيَّةِ والمَشَارِيْعِ الدِّيْنِيَّةِ ، ولا يُسَاهِمْ فِيهَا أَبَدَا ، فَهَذَا لا يُقْبَلُ قَوْلُهُ ، وَيَكونُ مِمَّنْ يُعِيْنُ على سَبِّهِ ، وَغِيْبَتِهِ ، لما عَرَفْتَ مِن أَنَّ الدَّعْوَة إِلى صَالِحِ الأَعمالِ وَمَكارِمِ الأَخْلاقِ تَرْبِيَة ، والتَّرْبِيَةُ النَّافِعَةُ إِنَّما تَكُونُ بالعَمَلِ ، لأَنَّهَا مَبْنِيَّةٌ على القدوَةِ الصَّالِحَةِ والأُسْوَةِ الحَسَنةِ ، لا بِمُجَرَّدِ القَوْلِ .

يَدُلُّكَ على ذَلِكَ مَا في قِصَّةِ الحُدَيْبِيَةِ عن المِسْوَرِ بن مَخْرَمَةِ قال فَلمَّا فَرَغَ مِن قَضِيَّةِ الكِتَابِ قال رَسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم لِأَصْحَابِهِ قُوْمُوا فانْحَرُوْا ثُمَّ احْلِقُوا ، فَوَاللهِ مَا قَامَ رَجُلٌ منهم حتَّى قال ذلكَ ثَلاثَ مَرَّاتٍ ، فَلَمَّا لَمْ يَقُمْ مِنهُم أَحَدٌ دَخَلَ على أُمِّ سَلَمَةَ فَذَكَرَ لَهَا مَا لَقِيَ مِن الناس .

فَقالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ يا نَبِيَّ اللهِ أَتُحِبُّ ذلكَ ، أُخْرُجُ ثُمَّ لَا تُكَلِّمْ أَحَداً منهم بِكَلِمَةٍ حَتَّى تَنْحَرَ بُدَنَكَ وَتَدْعُوَ حَالِقَكَ فَيَحْلِقَكَ فَخَرَجَ فَلَمْ يُكَلِّمْ أَحداً مِنهم ، حَتَّى فَعَلَ ذَلكَ ، نَحَرَ بُدَنَهُ وَدَعَا حَالِقَهُ فَحَلَقَهُ ، فَلَمَّا رَؤَا

ذلكَ قَامُوا فَنَحَرُوْا ، وَجَعَل بَعْضُهُم يَحْلِقُ بَعْضاً ، حَتَّى كادَ يَقْتُلُ بَعْضُهُم بعضَا أَيْ إِزْدَحاماً وَغَمًّا .

وفي حديث أبي سعيد قال أَتَى رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم على نَهْرٍ مِن مَاءِ السماءِ والناسُ صِيامٌ في يَوْمٍ صَائِفٍ مُشَاةٌ وَنَبِيُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم على بَغْلَةٍ لَهُ فَقال اشْرَبُوا أَيُّها الناسُ ، قال فأَبوْا قال إِنِّي لَسْتُ مِثْلَكُم إِني أَيْسَرُكُمْ إِني رَاكِبٌ فأَبوْا ، فَثَنى رَسُوْلُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَخِذَهُ فَنَزَلَ فَشَرِبَ وَشَرِبَ الناسُ ، وَمَا كانَ يُرِيْدُ أَنْ يَشْرَبَ رواه أحمد .

قال فإِذَا لَمْ يَكُنْ الدَّاعِيْ إِلا ذَا قَوْلٍ مُجَرَّدٍ مِن العَمَلِ لَمْ يَكُنْ نَصِيْبُ المَدْعُو مِنه إِلا القَولَ ، وأَيْضا فَمَثَلُ المُرْشِدِ مِن المُسْتَرْشِدِ مِثْلُ العُوْدِ مِن الظِلِ ، فَكَمَا أَنَّهُ مُحَالٌ أَنْ يَعْوَجَّ العُوْدُ وَيَسْتَقِيْمَ الظِلُ كذلكَ مُحَالٌ أَن يَعْوَجَّ المُرْشِدُ وَيَسْتَقِيْمَ المُسْتَرْشِدِ .

قال الغَزَالِي فِيْمَا كَتَبه إِلى أَبِيْ حَامِدٍ أَحْمَد بن سَلاَمَةَ بالمَوْصِلِ أَمَّا الوَعْظُ فَلَسْتُ أَرَى نَفْسِيْ أَهْلاً لَهُ لِأَنَّ الوَاعِظَ زَكاةُ نصابِهِ الاتِّعَاظُ فَمَنْ لاَ نِصَابَ لَهُ كَيْفَ يُخْرِجُ الزكاةَ وَفَاقِدُ النُوْرِ كَيْفَ يَسْتَنِيْرُ بِهِ غَيْرُهُ وَمَتى يَسْتَقِيْمُ الظِلُّ والعُوْدُ أَعْوَجُ ولهذا قيل :

يـا أَيُّـهَـا الـرَّجُـلُ الـمُـعَـلِّمُ غَـيْـرَهُ
هَـلاَّ لِـنَـفْـسِـكَ كَـانَ ذَا التَّـعْـلِيْـمُ
تَصِفُ الـدَّوَاءَ لِـذِي السَّقَـامِ مِن الضَّنَـا
كَـيْـمَـا يَـصِـحُ بِـهِ وأَنْـتَ سَـقِـيْـمُ

مَـا زِلْتَ تُلْقِـحُ بـالـرَّشَـادِ عُـقُـولَنَـا
عِـظْتَ وأَنْـتَ مِـن الـرَّشَـادِ عَـدِيْـمُ
إِبْـدَأْ بِـنَفْسِـكَ فـانْهَـهَـا عن غَيِّـهـا
فـإذا انْـتَـهَـتْ عَـنْـهُ فـأَنْتَ حَـكِـيْـمُ
فَهُنَـاكَ يُقْبَـلُ مـا تَـقُـولُ وَيُـقْـتَـدَى
بـالـرَّأْيِ مِـنْـكَ وَيَـنْـفَـعُ الـتَّـعْـلِيْـمُ
لا تَـنْـهِ عَـن خُـلُقٍ وَتَـأْتِـيَ مِـثْـلَهُ
عَـارٌ عَـلَيْـكَ إِذَافَـعَـلْتَ عَـظِيْـمُ

قال وقولُ اللهِ تعالى ﴿ أَتَأْمرونَ الناسَ بِالبر وتَنْسَونَ أَنفسَكم وأنتُم تتلونَ الكتابَ أفلا تعقلون ﴾ تَعْجِيْبٌ لِلْعُقَلاءِ مِن هَذَا المَسْلَكِ المَعِيْبِ ، وَلِلتَّعَجُّبِ وُجُوهٌ مِنْهَا أَنَّ المَقْصُوْدَ مِن الأَمْرِ بالمَعْرُوْفِ والنَّهْيَ عن المُنْكَرِ إِرْشَادُ الغَيْرِ إِلى الخَيْرِ وَتَحْذِيْرُهُ مِنَ الشَّرِ وارْشَادُ النَّفْسِ إِلَيْهِ وَتَحْذِيْرُهَا مِنْهُ مُقَدَّمٌ بِشَوَاهِدِ العَقلِ والنقل .

أَمَّا العَقْلُ فَبَدِيْهِيٌ وأَمَّا النَّقْلُ فَكَثِيْرَةٌ مِنها قولُه تعالى حِكَايَةً عن نوح ﴿ ربِّ اغفر لِيْ وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِناً ﴾ وعن خَلِيل اللهِ ابراهيمَ ﴿ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيْمَ الصلاةِ وَمِن ذُرِّيَتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ رَبَّنَا اغْفِرْ لِيْ وَلِوَالِدَيَّ ﴾ ، فَمَنْ وَعَظَ غَيْرَهُ ولم يَتَّعِظْ فكأَنَّه أَتَى بِمَا لا يَقْبَلُه العَقْلُ السَّلِيْم .

شـعراً :

تَمَسَّـكْ بِتَقْـوَى اللهِ فـالمَـرءُ لَا يَبْقَى
وكـلُ امـرِىءٍ مـا قَدَّمَتْ يَـدُهُ يَلْقَـى

ولا تَظْلِمَـنَّ النـاسَ في أَمْـرِ دِيْنِهِـم
ولا تَـذكُـرَنْ إفكـاً ولا تَحْسِـدَنْ خَلْقَـا
ولا تَـقْـرَبَـنْ فِـعْـلَ الحَـرَامِ فـإنَّـهُ
لَـذَاذَتُـه تَـفْـنَـى وأَنْـتَ بِـهِ تَـشْـقَـى
وعَـاشِـرْ إذا عَـاشَـرْتَ ذَا الدِّيْنِ تَنْتَفِـعْ
بِعِشْـرَتِـهِ واحْـذَرْ مُعَـاشَـرَةَ الحَـمْقَى
ودَارِ عَـلى الاطـلَاقِ كُـلاً ولا تَـكُـنْ
أَخَـا عَجَلٍ في الأَمْرِ واسْتَعْمِلِ الـرِّفْقَـا
وَخَـالِفْ حُـظُوظَ النَّفْسِ فِيْمَـا تَـرُوْمُـهُ
إذا رُمْتَ لِلْعَلْيَـا أَخَـا اللُّبِّ أَنْ تَـرْقَى
تَـعَـوَّدْ فِعَـالَ الـخَيْـرِ جَـمْعـاً فَـكُلَّمَـا
تَـعَـوَّدَهُ الانـسـانُ صَـارَ لَـهُ خُـلْقَـا

اللهمّ ثَبتنَا عَلى قَولِكَ الثابِت في الحَيَاة وفي الآخِرَة وآتِنَا في الدُّنْيَا حَسَنة وفي الآخِرَةِ حَسَنة وَقِنَا عَذَاب النَّار واغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَجَمِيْعِ المُسْلِمِيْنِ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينْ وصلَّى اللهُ على محمدٍ وعَلى آلِهِ وصَحْبِهِ أَجْمَعِينْ .

* * *

(فَصْـلٌ)

ومنها أن الواعِظَ الفاعلَ لِلْمُحرماتِ المُحَذِرَ عنها يكونُ سَبَباً لِلْمَعْصِيَةِ لأَنَّ الناسُ يَقُولُونَ لولا أَنَّ هَذا الواعِظَ مُطَلِّعٌ على أنه لا أَصْل لِهَذِهِ التَّخْوِيْفاتِ لَمَا أَقْدَمَ على المَنَاهِي والمُنْكَرَاتِ فَيَكُونُ دَاعِياً إلى التَّهَاوُنِ بالدِّيْنِ والجَراءَةِ

على المَعَاصِي ، وَهَذَا مُنَافٍ لِلْغَرَضِ مِن الوَعْظِ فَلَا يَلِيْقُ بِالعُقَلَاءِ .

وَمنها أَنَّ غَرَضَ الداعِي تَرْوِيْجُ كَلَامِهِ وَتَنْفِيْذُ أَمْرِهِ ، فَلَو خَالَفَ إِلى مَا نَهَى عَنْهُ صَارَ كَلَامُهُ بِمَعْزِلٍ عن القَبُولِ وهَذَا تَنَاقُضٌ لَا يَلِيْقُ بِالعُقَلَاءِ .

وفي مِثْلِ هَذا يَقُولُ ابنُ القيم رحمَه اللهُ عُلَمَاءُ السُوء جَلَسُوا على بابِ الجَنَةِ يَدْعُونَ إِليها الناسَ بأَقْوَالِهم وَيَدْعُونَهُم إِلى النارِ بِأَفعالِهِم ، فَكُلَّما قَالَتْ أَقوَالُهُم لِلنّاسِ هَلمُوا قَالَتْ أَفعَالُهم لا تَسْمَعُوا مِنهُم فَلَو كَانَ مَا دَعَوا إِلَيهِ حَقاً كَانُوا أَوَّلَ المُسْتَجِيْبِيْنَ لَهُ ، فَهُم في الصُوَرِ أَدِلاَّ وفي الحَقِيْقَةِ قُطَّاعُ طَرِيْقٍ ، قلت وما أكثر هؤلآء في زمننا .

وَذَكَرَ بَعضُ العُلماءِ عن ابن مسعودٍ رضي اللهُ عنه أنه قال سَيأْتِي على الناسِ زمانٌ تَمْلُحُ فِيه عُذُوْبَةُ القلوبِ فلا يَنْتَفِعُ بالعِلْمِ يَوْمئذٍ عالِمُهُ ولا مُتَعَلِّمُهُ فتكونُ قُلُوبُ عُلمَائِهم مِثْلَ السِّبَاخِ مِن ذواتِ المِلحِ يَنْزِلُ عَلَيهَا قَطْرُ السَّمَاءِ فلا يُوْجَدُ لَهَا عُذُوْبَة .

وذلكَ إِذا مَالَت قُلُوبُ العُلَمَاءِ إِلى حُبّ الدُنْيَا وإِيثَارِهَا على الآخرةِ فعِندَ ذلكَ يَسْلُبُهَا اللهُ تعالى يَنَابِيْعَ الحِكْمَةِ وَيُطْفِىءُ مَصَابِيحَ الهُدَى مِن قُلُوبِهِم فَيُخْبِرُكَ عَالِمُهم حِيْنَ تَلْقَاهُ أَنَّهُ يَخْشَى اللهَ بِلِسَانِهِ والفُجُورُ ظاهِرٌ في عَمَلِهِ . قلتُ وَمَا أَكْثَرَ هَؤُلآءِ في زَمَنِنَا فَتأمل وَدَقِّق النَّظَرَ تُصَدِّق .

فَمَا أَخْصَبَ الأَلْسُنَ يومَئِذٍ وَمَا أَجْذَبَ القُلُوبَ فَوَاللهِ الذي لا إِلَه إِلاَّ هُوَ ما ذلكَ إِلا لأَنَّ المُعَلِّمِيْنَ عَلَّمُوا لِغَيْرِ اللهِ والمُتَعَلِّمِينَ تَعَلَّمُوا لِغَيْرِ اللهِ .

وبالحَقِيْقَةِ إذا نَظَرتَ إلى الأَكْثَرِيَّةِ السَّاحِقَةِ مِمَّنْ حَوْلَكَ مِن أَسَاتِذَةٍ وَمُدَرِّسِيْ وَطُلاَّبٍ وَجَدْتَ هَيْبَةَ الإِسلامِ والعِلْمِ والعَمَلِ والشَّهَامَةِ والرُّجُولَةِ الاسلاميةِ قَدْ نُزِعَتْ مِنهم يَحْلِقونَ لِحَاهُم كاليَهُودِ والنَّصَارَى والمَجُوسِ .

وَيُوفِّرُوْنَ شَوارِبهم وَيَجْعَلُون تَوالِيْتَاتٍ وَرُبَّمَا خَنْفَسُوا وَتَجِدْهُم يُجَالِسُونَ الفَسَقَةَ وَيَنْدَمُجُونَ مَعَهُم وَبَعْضُهم تَجِدْهُ يَشْرَبُ أبا الخَبَائِثِ الدُّخَانَ وَرُبَّمَا فَعَلَه أَمَامَ الطُّلاَّبِ والعِيَاذُ باللهِ .

ولا تَجدْهُ في الغَالِب يُصَلِي مَعَ الجَمَاعَةِ وَيُعَامِلُ المُعَامَلَة التي لا تَلِيْقُ بِمَنْصِبِه وَتَجِدْهُ يَجْلِس أمامَ التِّلفزيُون وعند المذْيَاعِ وأغانيهِ وعند السِّيْنماءِ والفِدْيُو وَنحو ذلك من المُحَرَّمَات الَّتِي قَتَلَتِ الأَخْلاَق.

وَيُحِبُ الشُّهْرَةَ والظُّهُورَ رِياءً وَسُمْعَةً فَكَيْفَ يَخْطُر بالبالِ أَنَّ مِثْلَ هَؤُلاَءِ يأمُرُوْنَ بِمَعْرُوفٍ أو يَنْهَونَ عن مُنكرٍ كَلاَّ واللهِ إِنَّهُم لا يُزِيْلُونَ المُنْكَرَ عن أَنْفُسِهِم وَلاَ عَن بُيُوتِهم .

فَعْلِمُ هَؤُلاَءِ العِلْمُ الذِي يَضُرَ ولا يَنْفَعُ وهو الذِي اسْتَعَاذَ منه النبي صلى الله عليه وسلم بقولِهِ اللهُمَّ إني أعوذُ بِكَ مِن عِلْمٍ لا يَنْفعْ وقلبٍ لا يَخْشَعْ وَدُعَاءٍ لا يُسْمَعُ (فأبْعِدْ عَنْهُم وكُنْ على حَذَرٍ منهم أيها المُعَافَى).

شعراً :

صَارَ الأَسَافِلُ بَعدَ الذُّلِّ أَسْنِمَةً
وَصَارَتِ الرُّوْسُ بَعدَ العِزِ أَذْنَابَا
لم تَبْقَ مَأثَرَةٌ يَعْتَدُهَا رَجُلٌ
إلا التَكَاثُرُ أوْرَاقاً وَأَذْهَابَا

آخـر :

ولَمْ أَقْضِ حَقَّ العِلْمِ إنْ كَـانَ كُـلَّمَـا
بَـدَا طَـمـعٌ صَيَّـرْتُـهُ لِـيَ سُـلَّمَـا
ولم أَبْتَـذِلْ في خِـدْمَـةِ العِلْمِ مُهْجَتِي
لِأَخْـدِمَ مَـن لاقَـيْـتُ لَكِـنْ لِأُخْـدَمَـا
أَأَشْـقَـى بِـهِ غَـرْسـاً وأَجْـنِـيْـهِ ذِلَّـةً
إذاً فـاتِّبَـاعُ الجَهْـلِ قَـدْ كَـانَ أَحْـزَمَـا
فـإِنْ قُلْتُ زَنْـدَ العِـلْمِ كَـابٍ فـإِنَّمـا
كَبَـا حِيْنَ لم تُحْـمَ حِمَـاهُ وأَظْـلَمَـا
وَلَـوْ أَنَّ أهـلَ العِلمِ صَـانُـوهُ صَـانَهُم
وَلَـوْ عَـظَّمُـوهُ في النُفُـوسِ لَعُـظِّمَـا
« وَلَـكِـنْ أَهَـانُـوهُ فَـهَـانُـوا وَدَنَّسُـوا
مُحيّاهُ بـالأَطْمَـاعِ حَتَّى تَـجَـهَّـمَـا »

وَنَعُودُ إلى كَلامِنَا السَّابِقِ حَوْلَ الآيةِ الكَرِيْمَةِ :

فالآيةُ كَمَا تَرى نَاعِيَةٌ على كُلِّ مَن يَعِظُ غَيْرَهُ ولا يَتَّعِظُ بِسُوءِ صَنِيْعِهِ وَعَدَمِ تَأَثُّرِهِ ، وانَّ فِعْلَهُ فِعْلَ الجَاهِلِ بالشَّرْعِ أو الأَحْمَقِ الذي لا عَقْلَ لَهُ فإنَ الآمرَ بالخَيْرِ مَعَ جِرْمَانِ النفسِ مِنه مِمَّا لا يَتَّفِقُ وَقَضِيَّةَ العَقِلِ والمُرادُ بِهَا حَثُّه على تَزْكِيَةِ النفسِ والإقبالِ عليها بالتكميلِ لِتَقُومَ بالحقِ فَتُكَمِّلَ غَيرَهَا .

وقال تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الذِيْنَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُون كَبُرَ مَقْتاً

عِندَ اللهِ أن تقولوا ما لاَ تَفْعَلون ﴾ فهذا وَعِيدٌ شَدِيدٌ مِن اللهِ لِمَنْ يَأْمُرُ بِالمَعْرُوفِ وَيَنْهَى عن المنكرِ وهو في نَفْسِهِ مُقَصِّرٌ كَمَنْ يَكْذِبُ في قولِهِ أَوْ يُخْلِفُ مَا وَعَدَ .

وَعَن أُسَامَةَ بن زَيدِ بنِ حارِثَةَ رَضِيَ اللهُ تعالى عنهما قال سَمِعْتُ رَسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ « يُؤْتَى بالرجلِ يومَ القِيامةِ فَيُلْقَى في النار فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُ بَطْنِهِ فَيَدُورُ بِهَا كما يَدُورُ الحِمَارُ في الرَّحَى فَيَجْتَمِعُ إليهِ أَهْلُ النار فَيَقُولُونَ يا فُلانُ مالكَ أَلَمْ تَكُنْ تأْمُرُ بالمَعْرُوْفِ وَتَنْهَى عن المُنْكَرِ فَيَقُولُ بَلَى كُنْتُ آمُرُ بالمَعْرُوفِ ولا آتِيْهِ وأَنْهَى عن المنكرِ وآتِيْهِ متفق عليه .

وعن أنسٍ رَضِيَ اللهُ عنه قال : «قالَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم رأيتُ ليلةَ أُسْرِيَ بِي رِجَالاً تُقْرَضُ شِفَاهُهُم بِمَقارِيضَ مِن النارِ فَقُلْتُ مَن هَؤُلاَءِ يا جِبْرِيْلُ فَقَال الخُطَبَاءُ مِن أُمَّتِكَ الذينَ يَأْمُرُونَ الناسَ بِالبِرِ وَيَنْسَونَ أنفسَهُم وهُم يَتْلُونَ الكتابَ أفلا يعقلون » رواه ابن حبان في صحيحه .

وإنما يُضَاعَفُ عَذَابُ العَالِمِ في مَعْصِيَتِهِ لأَنَّهُ عَصَى عَن عِلْمٍ قال اللهُ تعالى ﴿ قل هَلْ يَسْتَوِي الذينَ يَعْلَمُون والذينَ لاَ يَعْلَمُون ﴾ ولأَنَّهُ قُدْوَةٌ فَيَزِلُ بِزَلَّتِهِ خَلْقٌ كَثِيْرُونَ ، وَلِذَلِكَ قِيلَ زِلةُ العَالِمِ زَلَّةُ العَالَمِ وقِيلَ هُوَ كالسَّفِيْنَةِ إذا غَرِقَتْ غَرِقَ مَعَهَا أُمَمٌ ما يُحْصِيْهِم إلا اللهُ .

وفي الخَبَرِ وَمَن سَنَّ سُنَّةً سَيِئَةً فَعَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِن بَعْدِهِ مِن غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِن أَوْزَارِهِم شَيْئًا ، وَذَلِكَ أَنَّ اتْبَاعَهُم اقْتَدَوا بِهِم في السُّوْءِ فَيَنَالُهم مِثْلُ عِقَابِ أَتْبَاعِهِم قَالَ تَعَالَى ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أثقالَهم

وأثقالاً مَعَ أثقَالِهِم وَلَيسْئَلُنَّ يَوْمَ القِيامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُون ﴾ وقال ﴿ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُم كاملةً يومَ القِيَامَةِ وَمِن أَوْزَارِ الذينَ يُضِلُونَهُم بِغَيرِ عِلْم ﴾ قال : وَجُمْلَةُ الأمرِ أَنَّ مَن فَتَحَ بَابَ الشَّرِ لِغَيرِهِ وَسَهَّلَ لَهُ الدُخُولَ فِيه فَقَدْ عَظُمَ عَذَابُهُ وكذلك مَن دَعَا إلى خَيْرٍ وَأَمَرَ بالمَعْرُوفِ وَسَهَّلَ لَهُ طَرِيْقَةُ فَقَدْ عَظُمَ قَدْرُهُ وَحَسَن جَزَاؤُهُ عِندَ اللهِ تَعَالَى أَخْرَجَهُ مُسلم والترمذي وقال صلواتُ اللهِ وَسَلاَمُهُعَلَيْهِ مَثَلُ الَّذِيْ يُعَلِّمُ الخَيْرَ وَلاَ يَعْمَلُ بِهِ مِثْلُ الفَتِيْلَةِ تُضِيْءُ لِلنَّاسِ وَتُحْرِقُ نَفْسَهَا رواه الطبراني في الكبير عن أبي برزةَ بسندٍ حَسَنٍ م .

وقال أَبُو الدَّرْدَاء وَيْلٌ لِلْجَاهِلِ مَرَّةً وَيْلٌ لِلْعَالِمِ سَبْعَ مَرَّاتٍ وقال عليٌ رضي اللهُ عنه قَصَمَ ظَهْرِي رَجُلانَ عَالِمٌ مُتَهَتِّكٌ وَجَاهِلٌ مُتَنَسِّكٌ فالجاهلُ يَغُرُ الناسَ بِنُسُكِهِ والعَالِمُ يَغُرُهُم بِتَهَتُكِهِ وقال حَكِيْمٌ أَفْسَدَ الناسَ جَاهِلٌ نَاسِكٌ وعَالِمٌ فاجِرٌ هَذا يَدْعُو الناسَ إلى جَهْلِهِ بِنُسُكِهِ وهذا يُنَفِرُ الناسَ عن عِلْمِهِ بِفِسْقِهِ .

ومنها التَّواضعُ ومُجَانَبَةُ العُجْبِ فَذَلِكَ بالدُعَاةِ والمُرْشِدِيْنَ أَلْيَقُ وَلَهُم ألزَمُ لِأَنَّ التَّواضُعَ عَطُوفٌ وَالعُجْبَ مُنَفِّرٌ وَهُوَ بِكُلِ أَحَدٍ قَبِيْحٌ وبالمرشِدِيْنَ أَقْبَحُ لِأَنَّ الناسَ بِهِم يَقْتَدُونَ ، وكَثِيْراً ما يُدَاخِلُهم العُجْبُ لِتَوَحُدِهِم بِفَضِيْلَةِ العِلْمِ وَلَوْ أَنَّهُم نَظَرُوْا حَقَّ النَّظَرِ وَعَمِلُوا بِمُوجَبِ العِلْمِ لَكَانَ التَّواضُعُ بِهِم أَوْلَى وَمُجَانَبَةُ العُجْبِ بِهِم أَحْرَى وَأَنْسَبُ ، لِأَنَّ العُجْبَ نَقْصٌ يُنافِي الفَضْلَ ، فلا يَفِيْ ما أَدْرَكُوهُ مِن فَضِيْلَةِ العِلْمِ بِمَا لَحِقَهُم مِن نَقْصِ العُجْبِ .

وقد رَوَى ابنُ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما قال : قال رسولُ اللهِ صلى

الله عليه وسلم قَلِيْلُ الفِقْهِ خَيْرٌ مِن كَثِيْرِ العِبَادَةِ وَكَفَى بالمَرْءِ جَهْلاً إِذَا أُعْجِبَ بِرَأْيِهِ ، وإِنَّمَا الناسُ رَجُلانِ مُؤْمِنٌ وَجَاهِلٌ فَلا تُـؤْذِ المُؤْمِنَ ، ولا تُحَاوِرِ الجَاهِلَ وقال صلى الله عليه وسلم لأَبِي ثَعْلَبَةَ حِيْنَ ذَكَرَ آخِرَ هَذِهِ الأُمَّةَ ما تَؤُلُ إِليهِ مِن الحَوادِثِ ، إِذا رَأَيْتَ شُحاً مُطَاعاً وَهَوىً مُتَّبَعاً ، واعْجَابَ كُلَّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِه ، فَعَلَيْكَ نَفْسَكَ ، رواه أبو داود .

وقال صلى الله عليه وسلم « ثَلاثٌ مُهْلِكَاتٌ ، شُحٌّ مُطَاعٌ ، وَهَوىً مُتَّبَعٌ ، واعْجَابُ المَرْءِ بِنَفْسِهِ » ، رواه الطبراني في الاوسط ويأتي إن شَاءَ اللهُ مَوْضُوعُ التَّواضِعُ ، وَافِياً بأَدِلَتِهِ وعِلَّةُ اعْجَابِ المُعْجَبِ بِعِلْمِهِ ، نَظَرُهُ إِلى كَثْرَةِ مَنْ دُوْنَهُ مِن الجُهَالِ وانْصِرَافِ نَظَرِهِ عن مَن فَوقَهُ مِن العُلَمَاءِ ، فإِنَّهُ مَا حَوَى العِلْمَ كُلَّه أَحَدَ مِن الخَلْقِ ، فَمَا مِن عَالِمٍ إلا وَفَوْقَهُ مَن هُوَ أَعْلَمُ مِنه قال تعالى ﴿ وَفوقَ كُلَّ ذِي عِلْمٍ عَلِيْم ﴾ فاللهُ جَلَّ وَعَلا هُوَ الذي يَعْلَمُ كُلَّ شيءٍ كما قال تعالى ﴿ وانَّ الله قَدْ أَحَاطَ بِكلِّ شَيءٍ عِلْمَـا ﴾ وقـالَ ﴿ واللهِ بِكُـلِّ شَيءٍ عَلِيْم ﴾ وقـال ﴿ عَـالِمُ الغَيْبِ والشَّهَادَةِ ﴾ ، وقال ﴿ وعندهْ مَفَاتِحُ الغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إلا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا في البَرِّ والبَحْرِ وما تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا ولَا حَبَّةٍ في ظُلمَاتِ الأَرضِ ولا رَطْبٍ ولا يَابِسٍ إِلَّا في كِتابٍ مُبِيْن ﴾ .

وَقَلَّمَا تَجِدُ مُعْجَباً بِعِلْمِهِ شَامِخاً بأَنْفِهِ إِلَّا وَهُوَ قَلِيْل العِلْمِ ضَعِيْف العَقْلِ لِأَنَّهُ يَجْهَلُ قَدْرَهُ وَيَحْسِبُ أَنه نَالَ مِنه أَكْثَرَهُ ، والله يَقُولَ ﴿ وَمَا أُوْتِيْتُم مِن العِلْم الَّا قَلِيْلاً ﴾ قال : ومنها أَنْ لَا يَبْخَلَ بِتَعْلِيْم مَا يَحْسُن ولا يَمْتَنِعُ مِن إِفادَةِ مَا يَعْلَمُ فإِن البُخْلَ بِهِ ظُلْمٌ وَلُؤمٌ والمَنْعَ منه إِثْمٌ .

قال تَعالَى ﴿وإذ أَخَذَ اللهُ مِيْثَاقَ الذِيْنَ أُوْتُوا الكِتابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلناسِ ولا تكتمونه﴾ ورُوِيَ عن النبي صلّى الله عليه وسلم أنه قال : لا تَمْنَعُوا العِلْمَ أَهْلَهُ ، فإنَّ في ذلكَ فَسَاد دِيْنِكُم والْتِبَاسُ بَصَائِرِكُم ثُمَّ قَرَأَ : ﴿ إنَّ الذِيْنَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِن البَيِنَاتِ والهُدَى مِن بَعْدِ مَا بيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ في الكِتَابِ أُولئكَ يَلْعَنُهُم اللهُ وَيَلْعَنُهم اللاَّعِنُون إلا الذينَ تَابُوا وأَصْلَحُوا وبَيَّنُوا فأُولَئك أتُوبُ عليهم وأنا التَّوابُ الرحيم ﴾ .

قال ابنُ كَثِيْرٍ على هَذِهِ الآيةِ هَذا وعِيْدٌ شَدِيْدٌ لِمَنْ كَتَم مَا جَاءَتْ بِهِ الرُسُلُ مِن الدَّلالاتِ الْبَيِّنَةِ عَلَى المَقَاصِدِ الصَّحِيْحَةِ والهُدَى النَّافِعُ لِلْقُلُوبِ مِمَّا بَيَّنَهُ اللهُ تعالى لِعِبَادِهِ في كُتُبِهِ الَّتِي أَنْزَلَهَا على رُسُلِهِ أ هـ .

وَقَد وَرَدَ في الحديث عن أَبي هريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه أَنَّ رَسولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم قال مَن سُئِلَ عن عِلْمٍ فَكَتَمَهُ أُلْجِمَ يومَ القِيَامَةِ بِلِجَامٍ مِن نار .

وفي الصحيح عن أبي هريرةَ أَنَّهُ قالَ لَولاَ آيةٌ في كِتَابِ الله ما حَدَّثْتُ أَحداً شَيْئاً ﴿ إنَّ الذين يَكْتمُونَ ما أَنْزَلنا مِن البيناتِ والهُدَى ﴾ الآيـةَ وَمِمَّا يَحْسُنُ بـالدَّاعِي والمُـرْشِدِ ، أَنْ يَتَحَلَّى بـالوَرَعِ بـاتقـاءِ الشُبُهَاتِ ، والبُعْدِ مِن مَوَاضِعِ الرِّيْبَةِ ، وَمَسَالِكِ التُّهْمَةِ .

فإنَّ ذَلِكَ أَبْرَأُ لِدِيْنِهِ ، وأَسْلَمُ لِعِرْضِهِ ، وأَدْعَى إلى الإنْقِيَادِ لَهُ لأَنَّ حَالَ الدَّاعِي يُؤَثِرُ في القُلُوبِ أَكْثَرَ مِن مَقَالِهِ ، فاذا كَانَ وَرِعاً تَقِياً مُتَجَنِّباً مَا فِيهِ شُبهَةٌ اقْتَدَى بِه الناسُ ، وأَحَبُّوهُ وقَبِلُوا وَعْظَهُ ، وإرْشَادَهُ ، وَهَكَذا كانَتْ صِفَةُ النبي صلى اللهُ عليه وسلم ، وأَصحابِهِ ، والتابعينَ لَهُم

والهُدَاةُ المُرشِدِيْن .

ففي صحيح البُخاري مِن حَدِيثِ أَنَسٍ قال مَرَّ النبيُ صلى اللهُ عليه وسلم بِتَمْرَةٍ سَاقِطَةٍ فقالَ « لو لا أنْ تَكُونَ مِنَ الصَّدَقَةِ لأَكَلْتُهَا ، وَقَدِمَ عَلَى عُمَرَ مِسْكٌ وَعَنْبَرٌ مِن البَحْرَيْنِ فقالَ ، واللهِ لَوِدِدْتُ أَنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً حَسْنَةَ الوَزْنِ تَزِنُ لِي هَذَا الطِّيْبَ حَتَّى أَقْسِمَه بَينَ المُسْلِمِينَ فَقَالَتْ امْرَأَتُهُ عَاتِكَةُ أَنَا جَيِّدَةُ الوَزْنِ فأنا أَزِنُ لَكَ قال لَا ، فَقَالَتْ لِمَ ، قَالَ لِأَنِّيْ أَخْشَى أَنْ تَأْخُذِيْهِ ، فَتَجْعَلِيْهِ هَكَذَا ، وأَدْخَلَ أَصَابِعَهُ في صُدْغَيْهِ وَتَمْسَحِي بِهِ في عُنُقِكِ فأَصِيْبُ فَضْلاً مِن المُسْلمين .

وكانَ يُوْزَنُ بَينَ يَدَي عُمَرَ بن عَبْدِ العَزِيْزِ مِسْكٌ لِلْمُسْلِمِينَ فَسَدَّ أَنْفَهُ بِيَدِهِ ، حَتَّى لا تُصِيْبُهُ الرَّائِحةُ ، وقال وَهَلْ يُنْتَفَعُ مِنه إلا بِرَيْحِهِ ، قال ذلكَ لَمَّا اسْتُبْعِدَ ذَلِكَ مِنه ، وهذا مِن وَرَعِ المُتَقِين .

قُلْتُ وَمِمَّا يَنْبَغِي أَنْ يَتصِفَ به أيضا قَطْعُ العَلائِقِ حَتَّى لا يَكْثُرَ خَوفُهُ ، وَيَقْطَعَ الطَمَعَ عن الخلائِقِ فلا يَكُونُ لَهُ عندَهُم حَاجَةٌ تُذِلُّهُ لَهُم ، وَتَدْعُوهُ إلى المُدَاهَنَةِ ، والاغْضَاءِ عن أَعْمَالِهِم القَبِيْحَةِ ، وَهَذِه طَرِيْقَةُ الأَنبياءِ عليهم الصلاةُ والسلامُ ، قال الله تعالى ﴿ قُل لَا أَسأَلُكم عَلَيْهِ أجراً إن أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ العالمين ﴾ .

وَرُوِيَ عن بَعْضِ الحُذَّاقِ أَنَّهُ كَانَ لَهُ كَلْبٌ وَلَهُ صَدِيْقٌ قَصَّاب يَأْخُذُ مِنه لِكَلْبِهِ بَعْضَ السَّواقِطِ ، فَرَأَى على القَصَّابِ مُنْكَراً يَتَعَاطَاهُ ، وقال لَا بُدَّ أَنْ أُبرِيَ ذِمَّتِيْ وَأَنْصَحُهُ ، ولكنْ أَبْدَأُ أَوَّلاً بِقَطْعِ الطَّمَعِ فَدَخَلَ البُسْتَانَ وأَخْرَجَ الكَلْبَ وَطَرَدَهُ ثُمَّ جَاءَ واحْتَسَبَ على القَصَّابِ وَنَصَحَهُ

وأَغْلَظَ عَلَيهِ فَقَال لَهُ القَصَّابُ سَوْفَ لاَ أُعْطِيْكَ لِكَلْبِكَ شَيْئاً أَبَدَا فَقَالَ أَنا حَاسِبٌ لِهَذَا الكَلامِ ما أَتَيْتُكَ إلا بَعْدَ أَنْ طَرَدْتَ الكَلْبَ عن بُسْتَانِي .

فَمَنْ لَم يَقْطَع الطَّمَعَ ، وَيَسُدُ بابَهُ لم يَقْدِرْ عَلَى الحِسْبَةِ ، قُلْتُ وَمِثْلُه عِندي في الغَالِبِ مَن يُوَالِي العَطَاء على انسانٍ فَيَبْعُدُ إذا رآهُ صَدَرَ مِنه مَعْصِيَةٌ أو مَعَاصِيْ أَنَّه يَنْصَحُهُ أَوْ يُنْكِرْ عَلَيهِ لأَنَّهُ يَرْجُوهُ وَيَخَافُهُ يَرْجُو الصِّلَةَ وَيَخَافُ قَطْعَهَا وَلَو فَرَضْنَا أَنَّهُ أَقْدَمَ على ذلكَ وأَنكَرَ عليه فَيَبْعُدُ أَيْضاً قَبُوْلُ صَاحِبِ الفَضْلِ لِلنَّصِيْحَةِ مِن ذلكَ الشَّخْصِ المُنْتَظِرْ لِمَا في يَدِهِ نَسْأَل اللهَ العصمة .

وكَمْ ضلَّ عن الطريقِ السَّوِي أُنَاسٌ مِن أَهل الإِيْمَانِ بِسَبَبِ مُدَاهَنَةِ المُدَاهِنِ وَتَغْرِيْرِهِ لَهُم ، هَذِهِ قِيْمَةُ النَّاصِحِ ، والمُدَاهِنِ عِنْدَ المُؤْمِن الصادقِ الإِيمانِ ولكن نَرَى الناسَ اليومَ عَكَسُوا الأَمرَ في هَذِهِ الأزمانِ ، لا مُنْتَهَى لِحُبِّهِم مَن وَافَقَهُم على مَا هُمْ عليه ، ولو كانَ ذَنْباً عَظِيْماً ، ولا غَايَةَ لِبُغْضِهِم مَن أَرْشَدَهُم إِلى الحَقِّ والصَّوابِ وَرُبَّمَا هَجَرُوْهُ جَزَاءَ نُصْحِهِ وأَما المُدَاهِنُ والمُتَمَلِّقُ المُنَافِقُ ذُو الوَجْهَينِ فَبِكَلِمَةٍ مِن مُدَاهَنَاتِه ، أَوْ وَشَايَاتِهِ أَوْ تَمَلُّقَاتِهِ أَوْ كَذَابَاتِه يَمْلِكُ قُلُوبَ الكَثِيْرِ مِن أَهْلِ هذا الزمانِ وَقَدْ يُرَفَّعُ وَيُقَدَّرْ مَن اتَّصَفَ بالصِّفاتِ الذَمِيْمَةِ كَما قيل :

(مَتَى مَا تُدَاهِنْ أَوْ تَكُنْ ذَا تَمَلُّقٍ
وَنَمٍّ وَبَهْتٍ تَخْطَبْكَ المَرَاتِبُ)
(وانْ تَجْمَعِ الاخلاصَ والصِّدْقَ والوَفَا
وَعِلْماً وَحِلْمَاً تَجْتَنِبْكَ المَنَاصِبُ)

اللهم هَبْ لنا مِن جَزِيل عطائِكَ وَوَفِّقْنَا لِلسَّعَادَةِ بِلِقَائِكْ وَتَفَضَّلْ علينا بالزِيادةِ مِن نعْمَائِكَ وآلائِكَ وَاجْعَلْ لَنا نوراً في حياتِنا وَنُوراً في مَمَاتِنَا ونوراً في قُبُورِنَا ونوراً في حَشْرِنَا واغفر لنا وَلِوَالِدَيْنَا وَلِجميع المسلمين بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْن وصلَّى الله على محمدٍ وعلى آلِهِ وصَحْبِهِ أَجْمَعين .

مـــوعظة

عِبَادَ اللهِ إنَّ مِن أَخصِّ صِفَاةِ المُؤْمِن عَمَلُهُ بِقَولِ النبي صلى اللهُ عليه وسلم الدِّيْنُ النَّصِيْحَةِ ومَحَبَّتُهُ لِلنَّاصِحِيْن ، وُكُلَّمَا اجْتَهَدَ المُسْلِمُ وبَالَغَ في النّصِيحة لإِخْوَانِهِ المسلمين قَوِيتَ مَحَبَّتُهُ في قُلُوب إخوانِهِ المؤْمنين .

وأما المُدَاهِنُ والمُتَمَلِّقُ الذي يُحَسِّنُ لِكُلِّ إنسانٍ حَالَهُ ، ولو كانَتْ حَالَةَ اجْرَامٍ وَفَسَادٍ ، فَهَذا يَنْفُرُ منه المؤمنونَ ، ولا يُحبُّونَهُ وَيَرَوْنَ صَداقَتَهُ مُصِيْبَةً ، وَبَلِيَّةً ، فَلِذَا يَبْتَعِدُونَ عنه كُلَّ البُعْدِ .

لِأَنَّهُ إن صَحِبَ مُسْتَقِيْماً أَدْخَلَ عليه العُجْبَ في عَمَلِهِ ، وَخَيَّلَ إليهِ أَنَّه مِن صَفْوَةِ عِبَادِ اللهِ المتقين ، فَيَغُرُّهُ بِنَفْسِهِ والمَرْءُ إذا اغْتَرَّ هَوِيَ في هُوَّةِ الأَشْقِيَاءِ وإذا صَحِبَ المُدَاهِنُ المُتَمَلِّقُ مُعَوَّجاً زَادَ اعْوِجَاجَهُ حَيْثُ أَنَّهُ يُفْهِمُهُ بِمُدَاهَنَتِهِ أَنَّه مِن خِيَارِ الفُضَلاءِ ومِن الأَجِلاءِ النُبَلاءِ .

وَمَتى فَهِم ذَلِكَ عن نَفْسِهِ اسْتَمَرَّ وتَمَادَى في اعْوِجَاجِهِ ، وَقَوِيَتْ وَتَمَكَنَتْ مِنه الأَخْلاَقُ الفَاسِدَةُ ، وَمَاتَ وَهُوَ على تِلْكَ الحَال الشَّنِيْعَةِ ، وأما المؤمنُ الناصِحُ المُحِبُّ لِأَخِيْهِ ما يُحِبُ لِنَفْسِهِ فَيُفْهِمُ المُهَذَبَ المُتَنَوِّرَ أنه مَهْمَا كَانَ كَمَالُهُ أَنَهُ مُقَصِّرٌ في شُكْرِ مَوْلاَهُ الذي جَعَله مِن بَنِيْ آدَمَ ولم

يَجْعَلْه مِن سَائِرِ الحَيَواناتِ ، وَوَفَّقَهُ لِلإِيْمَانِ ، وَتَفَضّل عَليه بالحَوَاسِ الخَمْسِ وَغَيْرِهَا وَوَهَبَهُ العَقْلَ ، وَسَائِرَ النِّعَم التي لا تُعَدُّ ، ولا تُحْصَى .

وَمَتَى فَهِمَ أَنَّهُ مُقَصّرٌ ، حَمِدَ مَوْلاَهُ وَشَكَرَهُ على مَا أَوْلاَهُ ، وَجَدَّ واجْتَهَدَ فِيْمَا بِه رُقِيُّهُ في دُنْيَاهُ وأُخْرَاهُ وإن رَأى مُعْوَجاً أَفْهَمَهُ مَا هُو عَلَيْهِ مِن نَقْصٍ وَوَضَّحَ لَهُ عُيُوبَهُ ، وَما عِندَهُ مِن تَقْصِيْرٍ في دِيْنِهِ وَدُنْيَاهُ وَحَثَّهُ على الجِدِّ والاجْتِهَادِ والسَّعْي إلى مَعَالِي الاخلاقِ .

وَمَتَى عَرَفَ العَاقِلُ نَقْصَهُ ، وأَنَّ الضَّرَرَ عَائِدٌ إِلَيْهِ ، أَقْلَعَ عنه ، وأَصْبَحَ مِن المُهَذَّبِيْنَ المُتَنَوِّرِيْنَ ، الصَّاعِدِينَ إلى أَوْجِ الكَمَالِ ، فَكَم اهْتَدَى بإِذْنِ اللهِ بِسَبَبِ المُؤْمِن الناصِحِ مِن أُناسٍ قد تَاهُوا وَتَمادَوْا في الضَّلاَلِ .

واسْمَعْ إلى قَوْلِ الإِمَامِ ابنِ القَيِّم رَحِمَهُ اللهُ لَمَّا ذَكَرَ نُفَاةَ الصفاتِ أهلَ البِدَعِ وَحَيْرَتُهُم وَشُبُهَاتِهِم وَشُكُوْكَهُم وأنه جَرَّبَ ذَلِكَ وأَنه وَقَعَ في بَعْضِ تِلكَ الشِّبَاكِ والمصَايِد حَتَّى أَتَاحَ لَهُ المَولَى بِفَضْلِهِ مَن نَشَلَهُ وأَوضَحَ له تِلْكَ الشُّبَهِ وازاحَ عنه تِلْكَ الشُكُوكَ وهُوَ شَيْخُ الإِسْلامِ بنِ تَيْمِيَّةَ رحمهُ اللهُ فقال في النونية :

يـا قَـوْمُ بـالـلهِ العـظيـمِ نَـصِيْحَـةٌ
مِـن مُـشْـفِـقٍ وأَخٍ لَـكُـمْ مِـعْـوانِ
جَـرَّبْـتُ هَـذا كُـلَّهُ وَوَقَـعْـتُ فـي
تِـلكَ الشِـبَـاكِ وكُـنْـتُ ذا طَـيْـرانِ
حَـتَّـى أَتَـاحَ لِـيَ الإِلَـهُ بِـفَـضْـلِهِ
مَـنْ لَـيْسَ تَـجـزِيْـه يَـدِيْ وَلِسَـانِـي

حَبْراً أَتَى مِن أَرْض حَرَّانٍ فَيا
أَهْلاً بِمَن قَدْ جَاءَ مِن حَرَّانِ
فَاللهُ يَجْزِيْهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ
مِن جَنَّةِ المَأْوَى مَعَ الرِّضْوانِ

أَخَذَتْ يَدَاهُ يَدِيْ وَسارَ فَلَمْ يَرِمْ
حَتَّى أَرَانِي مَطْلَعِ الإِيْمَانِ
وَرَأَيْتُ أَعْلاَمَ المَدِيْنَةِ حَوْلَها
نَزَلَ الهُدى وعَسَاكِرَ القُرْآنِ
وَرَأَيْتُ أَثاراً عَظِيْماً شَأْنُهَا
مَحْجُوْبَةً عن زُمْرَةِ العُمْيَانِ
وَوَرِدْتُ رَأْسَ الماءِ أَبْيَضَ اَفِياً
حَصْبَاؤهُ كَلآلِيءِ التِّيْجَانِ

وَرَأَيْتُ أَكْوَاباً هُنَاكَ كَثِيْرَةً
مِثْلَ النُّجُومِ لِوَارِدِ ظَمْآنِ
وَرَأَيْتُ حَوْضَ الكَوثَرِ الصَّافِي الذِي
لاَ زَالَ يَشْخَبُ فيه مِيْزَابانِ
مِيْزَابُ سِنَّتِهِ وَقَوْلُ إِلهِهِ
وَهُمَا مَدَى الأَزْمَانِ لا يَنِيَانِ
والنَاسُ لا يَرِدُوْنَه إلا مِن الْـ
آلافِ أَفْرَادٌ ذَوُوْا إِيْمَانِ

اللهمّ أرْزقنا حُبَّكَ وَحُبَّ مَن يُحِبُّكَ وَحُبَّ العَملِ الذي يُقَرِّبُنَا إلى

حُبّكَ اللهم أَلْهِمْنَا ذِكْرَكَ وَشُكْرَكَ وَوَفِّقْنَا لِامْتِثَالِ أَمْرِكَ واجتنابِ نَهْيِكَ واغفرْ لَنا وَلِوَالِدَيْنَا وَجَمِيْعِ المسلمينَ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْن وصلَّى اللهُ على محمدٍ وآلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْن .

(فَصْـلٌ)
في ذِكْرِ نَمَاذِجَ مِن صَبْرِ النبي صلَّى اللهُ عليهِ وسلَم على الشدائِدِ والأَذَى في الدعوةِ إلى اللهِ

ومِن تَحَمُّلِهِ صلَّى اللهُ عليه وسلم للشَّدَائِدِ والأَذَى في الدعوة إلى الله مَا وَرَدَ عن أنسٍ رَضِيَ اللهُ عنه قال : قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عَليهِ وسلم لَقَدْ أُوْذِيْتُ في اللهِ وما يُؤْذَى أَحَدٌ ، وأخِفْتُ في اللهِ وما يُخَافَ أَحَدٌ ، وَلَقد أَتتْ عَلَيَّ ثَلاَثُونَ مِن بَيْنِ يَومٍ وَلَيلةٍ ، وَمَالِي ولِبِلالٍ ما يَأْكُلُه ذُو كَبِدٍ إلا ما يُوَارِي إِبْطُ بلالٍ خرجه أحمد .

وعند البيهقي أَنَّ أبا طالبٍ قالَ لَهُ صلَّى اللهُ عليه وسلم : يا ابنَ أخِي إِنَّ قَوْمَكَ قَدْ جَاؤُنِي وقالُوا كَذَا وَكَذَا فأبْقِ عَليَّ وَعَلى نَفْسِكَ ، وَلاَ تُحَمِّلْنِي مِن الأَمْرِ ما لا أُطِيْقُ أَنَا وَلاَ أَنْتَ ، فاكْفُفْ عن قَومِكَ مَا يَكْرِهُونَ مِن قَولِكَ ، فَظَنَّ رَسُولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلم أَنْ قَدْ بَدَا لِعَمِّهِ فِيهِ ، وأنهُ خَاذِلُهُ ، وَمُسَلِّمُهُ ، وَضَعُفَ عن القِيَامِ مَعَهُ .

فقال رسولُ الله صلى اللهُ عليه وسلم يا عَمُّ لَو وُضِعَتِ الشمسُ في يَمِيْنِي والقَمَرُ في يَسَارِي ، ما تَرَكْتُ هَذا الأَمْرَ حَتَّى يُظْهِرَهُ اللهُ ، أَوْ أَهْلِكَ في طَلَبِهِ ، ثم اسْتَعْبَرَ رَسُولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلم فَبَكَى ، فَلَمَّا وَلَّى قال لَهُ حِيْنَ رَأَى مَا بَلَغَ الأمرُ برسولِ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلم

يا ابْنَ أَخِيْ فَأقبل عليهِ فقال امْضِ لِأَمْرِكَ وافْعَلْ ما أَحْبَبْتَ فواللهِ لا أَسلِّمُكَ لِشَيءٍ أبَدَا .

وأَخْرَجَ البيهقيُ عن عبدِ الله بن جَعْفَر ، قال لَمَّا مَاتَ أَبُو طالبٍ عَرَضَ لِرَسُولِ الله صلى اللهُ عليه وسلم سَفِيْهٌ مِن سُفَهَاءِ قُريشٍ فألْقَى عَلَيهِ تُراباً ، فَرَجَعَ إلى بَيْتِهِ فأَتَتْهُ امْرَأةٌ مِن بَنَاتِهِ تَمْسَحُ عن وَجْهِهِ التُرابَ وَتَبْكِيْ ، فَجَعَل يَقُولُ أَيْ بُنَيَّةْ لا تَبْكِيْنَ فإن اللهَ مانِعٌ أَبَاكِ ، ويقولُ مَا بَيْنَ ذلكَ مَا نَالتْ قُريشٌ شيئاً أكْرَهُهُ حَتَّى ماتَ أَبُو طَالبٍ ثُمَّ شَرَعُوا .

وأخرج أبُو نعيمٍ في الحِلْيَةِ عن أَبِي هريرة قال لَمَّا مَاتَ أَبُو طالبٍ تَجَهَّمُوا بالنبي صلى الله عليه وسلم ، فقالَ يا عَمُّ مَا أَسْرَعَ ما وَجَدْتُ فَقْدَكَ ، وأخرجَ الطبرانيُ عن الحارث بنِ الحارثِ قُلْتُ لِأَبِي ما هَذِهِ الجَمَاعَةُ قال هَؤُلاءِ قومٌ اجْتَمَعُوا على صَابىءٍ لَهُم فَنَزلْنَا فإذا رَسولُ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلم يَدْعُو الناسَ إلى تَوْحِيْدِ اللهِ عزَّ وَجَلَّ والإيمانِ بِهِ وَهُم يَرُدُّونَ عليهِ وَيُؤْذُوْنَهُ حَتَّى إذا انْتَصَفَ النهارُ ، وانْصَدَعَ الناسُ عنه أَقْبَلَتْ امْرَأةٌ قد بَدَا نَحْرُهَا تَحْمِلُ قَدَحاً وَمِنْدِيْلاً فَتَنَاوَلَه مِنْهَا فَشَرِبَ ، وَتَوَضَأَ ، ثُمَ رَفَعَ رَأْسَه فقال يَا بُنَيَّةَ خَمِّرِيْ عَلَيكِ نَحْرَكِ ولا تَخَافِيْنَ على أَبِيْكِ ، قُلْنَا مَنْ هَذِهِ قالوا هَذِهِ زَيْنَبُ بِنْتُهُ رَضِيَ اللهُ عنها قال الهيثمي رِجاله ثقات .

وأخرج البخاريُ عن عروة بنِ الزبير عن عبد اللهِ بنِ عَمْرو رضي اللهُ عنه قال قلْتُ لَهُ مَا أَكْثَرَ مَا رأيتَ قريشاً أصابَتْ مِن رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم فِيْمَا كانَتْ تُظْهِرُ مِن عَدَواتِهِ قال حَضرْتُهم وقد اجْتَمَعَ أَشْرَافُهم في الحِجْرِ .

فقالُوا ما رَأَيْنَا مِثْلَ مَا صَبَرْنَا عليه مِن هَذَا الرَّجُلِ قَطُّ ، سَفَّهَ أَحْلاَمَنَا ، وَشَتَم آبَائَنَا ، وعَابَ دِيْنَنَا ، وَفَرَّقَ جَمَاعَاتِنا ، وَسَبَّ آلِهَتَنَا ، لَقَدْ صَبَرْنا مِنه على أمرٍ عَظِيْمٍ ، أَوْ كَمَا قالُوا .

قال فَبَيْنَمَا هُم في ذلكَ إذ طَلِعَ عليهم رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلم فأَقْبَلَ يَمْشِيْ حَتَّى اسْتَقْبَلَ الرُكْنَ ثم مَرَّ بِهِم طائفاً بالبَيتِ ، فَلَمَّا مَرَّ بهِم غَمَزُوْهُ : - أي أشَارُوْا إِلَيْهِ - بِبَعْضِ مَا يَقولُ قَالَ فَعَرَفْتُ ذَلِكَ في وَجْهِهِ .

ثم مَضَى فَلَمَّا مَرَّ بِهِم الثَّانِيَةَ بِمِثْلِهَا فَعَرَفْتُ ذَلِكَ في وَجْهِهِ ثم مَضَى فَلَمَّا مَرَّ بِهِم الثالثةَ فَغَمَزُوهُ بِمِثْلِهَا فقالَ أَتَسْمَعُونَ يا مَعْشَرَ قُرَيشٍ ، أَمَا وَالَّذِيْ نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَقَدْ جِئْتُكُم بالذَّبْحِ ، فأخَذَتِ القَوْمَ كَلِمَتُه ، حَتَّى مَا مِنهم رَجُل إلاَّ كَأَنَّ عَلى رَأْسِهِ طَائِرٌ وَاقِعٌ حَتَّى إِنَّ أَشَدَّهُم فِيهِ وَضَاءةً قَبْلَ ذَلِكَ لَيَرْفَؤُهُ بأحْسَن مَا يَجِدُ مِن القَولِ حَتَّى لَيَقُولُ انْصَرِفْ يَا أَبَا القَاسِمِ ، انْصَرِفْ رَاشِدَا فَوَاللهِ مَا كُنْتَ جَهُوْلاً .

فَانْصَرَفَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلم حَتَّى إذا كَانَ الغَدُ اجْتَمَعُوا في الحِجْرِ وأنا مَعَهُم فقال بَعْضُهُم لِبَعْضٍ ذَكَرْتُم ما بَلَغَ منكُم ومَا بَلَغكُم عَنْهُ حَتَّى إذا بَادَاكُم بِمَا تَكْرَهُونَ تَرَكْتُمُوهُ ، فَبَيْنَمَا هُم في ذلك إذا طَلَعَ عَلَيهِم رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم فَوَثَبُوا عَلَيْهِ وَثْبَةَ رَجُلٍ واحدٍ فَأَطافُوا بِهِ يقولُون أَنْتَ الذي تَقُولُ كذا وكَذَا لِمَا كَانَ يَبْلُغُهُم مِن عَيْبِ آلِهَتِهِمْ ودِيْنِهِمْ .

قال فيقولُ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم نَعَمْ أَنَا الذِيْ أَقُولُ

ذلِكَ ، قال فلَقَدْ رَأَيْتُ رَجُلاً مِنهم أَخَذَ بمَجْمَعِ رِدَائِهِ ، وقَامَ أبوُ بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنهُ دَوْنَهُ يَقُولُ وهو يَبكِيْ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أن يقولَ ربي اللّهُ ، ثم انْصَرَفُوا عنه فإنَّ ذلكَ لأشدُّ مَا رَأَيْتُ قُرَيْشاً بَلَغَتْ مِنه قَطُّ .

وأخرجَ أَبُوُ يَعْلَى عن أنسِ ابنِ مالكٍ رضي اللهُ عنه قال لَقَدْ ضَرَبُوا رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم مَرةً حَتَّى غُشِيَ عَلَيهِ ، فقامَ أَبُو بَكْرٍ رَضِي اللهُ عنه فَجَعَلَ يُنَادِي وَيْلَكُم أَتَقتُلونَ رَجُلاً أَنْ يَقُولَ رَبّيَ اللهُ ، فَقَالُوا مَنْ هَذا فقالُوا أبُو بَكْرٍ المَجْنُون .

وفي الحديث الذي أخرجه أَبُو يعلى عن أسماءَ بنتِ أبي بكرٍ أَنَّ المُشرِكِينَ لَهَوا بأَبِي بَكْرٍ عن رَسُوْل اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلم وأَقْبَلُوا عليهِ قَالَتْ فَرَجَعَ إلينا أَبُو بَكْرٍ فَجعَل لا يَمَسُّ شَيْئاً مِن غَدَائِرِهِ ـ أي جَدَائِلِه إلاَّ جَاءَ مَعَهُ ، وهُو يَقولُ تَبَارَكْتَ يا ذا الجلالِ والاكرام .

وأَخْرَجَ البَزَارُ في مسندهِ عن محمد بِن عَقِيْلٍ عنِ علي رضي اللهُ عنه أنه خَطَبَهُم فقال يا أَيُّهَا الناسُ مَنَ أَشَجَعُ الناسِ ، فَقَالُوا أَنْتَ يَا أَمْيرَ المُؤْمِنينَ فقال أَمَّا أَنَا مَا بارَزَنِي أَحَدَ إلاَّ انْتَصَفْتُ منه ، ولكِن هُوَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عنهُ إنا جَعَلْنَا لِرَسُوْلِ اللهِ صَلى اللهُ عليه وسلم عَرِيْشاً فَقُلْنَا مَن يَكُونُ مَعَ رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم لِئلاَ يَهْوِي إليه أَحَدٌ مِن المُشْرِكين فَوَاللهِ مَا دَنَا مِنَّا أَحَدٌ إلاَ أَبُو بَكْرٍ رضِيَ اللهُ عنه شَاهِراً بالسَّيْفِ على رَأْسِ رَسُولَ اللهُ صلى الله عليهِ وسلم لا يَهْوِ إليه أَحَدٌ إلا أَهْوَى إليهِ فَهَذا أَشْجَعُ الناسِ .

قالَ ولَقَدْ رأيتُ رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم وأَخَذَتْهُ قُرَيْشٌ

فهذا يُحادُّهُ وهَذَا يُتَلْتِلُه ويَقُولُونَ أَنْتَ جَعَلْتَ الآلهةَ إلهاً وَاحِداً فَوَاللهِ مَا دَنَا مِنَّا أَحَدٌ إلا أَبُو بَكْرٍ يَضْرِبُ هَذَا ويُجَاهِدُ هَذا ويُتَلْتِلُ هذا ، وهُوَ يقولُ وَيْلَكُمُ أتقتُلونَ رجَلاً يقولُ ربِي الله .

ثم رَفَعَ على بُرْدَةٍ كَانَتْ عَلَيهِ فَبَكَى حَتَّى أَخْضَلَ لِحْيَتَهُ ، ثم قَال أنشُدُكُم اللهَ أَمُؤْمِنُ آلِ فِرعَونَ خَيرٌ أَمْ هُو ، فَسكَتِ القومُ ، فقالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنه ، فَوَاللهِ لَسَاعَةٌ مِن أَبي بَكْرٍ خَيْرٌ مِن مِلْءِ الأَرْضِ مِن مُؤْمِن آلِ فِرْعَونَ ، ذَاكَ رَجُلٌ يَكْتُمُ إيْمَانَهُ ، وهَذا رَجُلٌ أعْلَنَ إيمانَهِ الحديث .

اللهم يسر لَنَا سَبْيلَ الأَعْمَالِ الصالحاتِ وَهَيِّىءْ لَنَا مِن أَمْرِنا رَشَدَا واجْعَلْ مَعُونَتَكَ العُظْمَى لَنَا سَنَدَاَ واحْشُرْنَا إذا تَوَفَيْتَنَا مَعَ عِبَادِكَ الصالحينَ الذينَ لا خوفٌ عَلَيهم ولاَ هم يَحْزَنُونَ ، واغفر لنا ولوالدينا وجميع المسلمين برحمتك يا أرحم الراحمين وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

(فصل)

أَخْرَجَ البُخَارِيُ عن عُرْوَةَ رَضي اللهُ عنه قال سَأَلْتُ ابنَ أَبِي العاصِ رضيَ اللهُ عنه فقُلْتُ أخْبِرْنِي بأشَدِّ شَيءٍ صَنَعَهُ الْمُشْرِكُونَ بِرَسولِ الله صلى اللهُ عليه وسلمْ ، قَالَ بَيْنَما النبيُّ صلى الله عليه وسلم يُصَلِّي في حِجْرِ الكعْبَةِ إذْ أقْبَل عليه عُقْبَةُ ابنُ أبي مُعَيْطٍ فَوَضَع ثَوْبَه على عُنقِهِ فَخَنَقَهُ خَنْقاً شَدِيْداً .

فأقْبَلَ أبو بَكرٍ رَضْيَ اللهُ عنه حَتَّى أَخذَ بِمَنْكبِهِ ، ودَفَعهُ عَن النبي

صلى اللهُ عليهِ وسلمْ ، وَقال أَتَقْتُلُون رَجُلاً أنْ يَقُولَ رَبِّي الله وقدْ جَاءكم بالبيّناتِ مِنْ رَبِكُمْ الآية .

وَعنْد ابْن أبي شَيبة عَنْ عُرْوَةَ بنِ العاصِ رضيَ الله عنه قالْ : ما رأيتُ قُرَيْشاً أرَادُوا قَتْلَ النبيَّ صَلّى الله عليه وسلم إلاَّ يوماً إِئْتَمَرُوا بهِ وَهُمْ جلوسٌ في ظِلِ الكَعبةِ وَرَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم يُصَليَّ عِنْدَ المقامْ ، فَقامَ إليهِ عُقْبَةَ بنُ أَبِي مُعَيطٍ فَجَعَل رِداءَهُ في عنُقِهِ ثُمَّ جَذَبَهُ حَتَّى وَجَبَ لِرُكبَتَّيْهِ سَاقِطاً ، وتَصَايَح الناسُ فَظَنُّوا أنه مَقتُول .

فأقْبَل أبوُ بَكْر رَضْي اللهُ عَنْهُ يَشْتَدْ حَتَّى أَخَذَ بضَبُعَيْ رَسول الله صلى الله عليه وسلم مِن وَرَائِه وَهوَ يقول « أتُقْتُلونَ رجلاً أن يقولَ ربي اللهُ » الحديث .

وأخْرَجَ البَزَّاز والطَّبَرانِي عن عبدِ الله بنَ مَسْعودٍ رَضْيَ اللهُ عنهُ قالْ بَيْنَما رَسُولُ اللهِ صَلى اللهَ عليهِ وسلَّمَ في المسجد وأبوُ جَهْل وشَيْبَةُ وعُتْبَةُ أَبْنَاءُ رَبْيعَةَ وعُقْبَةُ بنُ أبي مُعْيطِ وأمَيَّةُ ابنُ خَلفَ ورَجُلانِ آخرَانِ كانُوا سَبْعةً ، وَهُمْ في الحِجْر ورَسُولُ الله صلى اللهُ عليه وسلم يُصَليِّ فلمَّا سَجَد أطالَ السُّجودَ .

فَقالَ أَبُو جَهْلٍ أيَّكُمْ يَأْتِي جَزورَ بنِي فُلان فَيأتِيْنَا بِفَرْثها فَنَكْفَئَهُ على مُحَمدٍ صلى الله عيه وسلمْ ، فانْطَلَق أشْقَاهُمْ عُقْبَةُ ابنُ أبِي مُعْيطِ فأتى بهِ فألقاهُ على كَتِفَيْهِ صلى الله عليه وسلم وهُوَ ساجد قالَ ابنُ مَسْعودٍ وَأَنَا قَائِمٌ لا أسْتَطِيعُ أنْ أتكلَّمْ ، لَيْسَ عِنْدي مَنَعَةٌ تَمْنَعُنِي ، إذْ سَمِعَتْ فاطمةُ بنتُ رسولِ الله صلى اللهُ عليه وسلمْ فأقبَلتْ حَتى ألقَتْ ذلِكَ عَن

عَاتِقِه .

ثم اسْتَقْبَلتْ قُرَيْشاً تَسُبُّهمْ فَلَمْ يَرْجِعُوا إليها شَيْئا ، ورَفَعَ رسولُ الله صلى اللهُ عليهِ وسلم رَأسَه كما كانَ يَرْفَعُ عِنْدَ تَمامِ السُّجود ، فَلَمَّا قَضى رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلَّمَ صلاَتَهُ ، قالْ اللَّهمَّ عَلَيْكَ بِقُرَيْشٍ ثَلاَثاً ، عَلَيكَ بِعُتْبَةَ ، وعُقْبَةَ ، وأبيَ جَهْلٍ وشَيْبَة .

ثُمَّ خَرَجَ مِن المسجدِ فَلَقِيَهُ أَبُو البَخْتَرِيُ بِسَوط يَتَخَصَّرُ بِهِ ، فَلَمَّا رأىَ النبيَّ صلى الله عليه وسلمْ أنكَرَ وَجْهه فقالَ مَالَكَ ، فقالَ النبيُّ صلى اللهُ عليهِ وسلمْ خَلِّ عَنِّي قالَ عَلِمَ اللهُ لا أُخَلِّى عَنْكَ ، أوْ تُخْبِرْنِي مَا شَأْنُكَ ، فَلَقَدْ أصَابَكَ شَيْءُ فَلَّما عَلِمَ النَّبيُ صلى الله عليه وسلم أنهُ غيرُ حَمْلٍ عَنْهُ أخْبَرَه .

فقالْ انَّ أبا جَهْلٍ أَمَرَ فَطرُحَ عَليَّ الفَرْث، فقَالَ أَبُو البُخْتِرى هَلُمَّ إلى المسْجِد فأتىَ النبيُّ صَلى اللهُ عليهِ وسلم وأَبُوْ البُخْتِرِي فَدَخلا المسجدَ .

ثُمَّ أقْبَل أبوُ البَخْتَرِي إلى أَبي جَهْلٍ فَقَالَ يا أَبا الْحَكَمْ أَنْتَ الذي أمَرْتَ بِمُحمدٍ فَطُرِحَ عليه الفَرْثَ ، قَالَ نَعمْ قَال فَرَفَع السَّوطُ فَضَرَبَ بِه رأسَه قال فَثَارَ الرِّجالُ بَعْضُهم إلى بَعْضٍ قَالَ وصَاحَ أبو جَهْلٍ وَيْحَكُمْ هِيَ لَهْ إنَّما أرادَ مُحمدٌ صلى الله عليه وسلم أن يُلْقِي بَيْنَنا العَدَاوةَ ، ويَنْجُو هَوَ وأصْحَابُه الحديث .

وأخْرَجَ الطَّبَراني عَنْ يَعْقُوبَ بْنْ عُتْبَة بنِ الْمُغيرَة بنِ الأخْنَسِ بن شَريق حليفِ بَنِي زُهْرة مُرْسَلا ، أَنَّ أبَا جَهْلٍ اعْتَرَضَ لِرَسُولِ اللهِ صَلَّى

اللهُ عليهِ وَسَلمْ بالصَّفَا فآذاهُ .

وَكَانَ حَمْزَةُ رَضْي اللهُ عَنْه صَاحِبَ قَنْصٍ ، وَصيْدٍ ، وَكَانَ يَوَمَئِذٍ في قَنْصِهِ ، فَلَّما رَجَعَ قالت لهُ امْرَأَتُهُ وَكَانَتْ قد رأَتْ ما صَنَعَ أَبُو جَهْل بِرَسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم ، يا أَبَا عَمَارَةَ لو رَأَيتَ مَا صَنَعَ تَعْنِي أَبَا جَهْلِ بابنِ أخِيكَ ، فَغضِبَ حَمْزَةُ رَضْيَ اللهُ عنهُ وَمَضى كمَا هُو قَبْلَ أنْ يَدْخُلَ بَيْتَهُ .

وَهو مُعلِّقٌ قَوْسَهُ في عُنُقِه حَتَّى دَخَلَ المسجدَ فَوَجَد أَبا جَهْلٍ في مَجْلسٍ مِن مَجَالِسِ قُريشٍ فَلَمْ يُكَلِّمَهُ حَتَّى عَلاَ رأسَهُ بِقَوْسِهِ ، فَشَجَّهُ فقامَ رِجُال مِنْ قُرَيشٍ إلى حَمْزَةَ يُمْسِكُونَهُ عَنْهُ ، فقالَ حَمْزَةُ دِيني دِينُ مُحمدِ صلى اللهُ عيهِ وسلم أشْهَد أنَّهُ رَسُولَ الله ، فَواللهِ لا أنْثَنِي عَنْ ذَلك ، فامْنَعُوْنِي مِن ذلِك إنْ كُنْتُم صَادِقِينْ .

فَلمَّا أسْلَمَ حَمْزَةُ رضي الله عنهُ ، عَزَّ بِهِ رسَولُ اللَّه صَلى الله عليه وسلمَ والمُسْلِمون ، وثَبَتَ لَهُمْ بَعضُ أمْرِهِمْ ، وهَابَتْ قُرَيْشُ وَعلِمُوا أنَّ حَمْزَةَ رضِيَ اللهُ عنه سَيَمْنَعُهُ ، قال الْهَيْثَمِي وَرِجَاله ثِقَاتْ .

وأخْرَجَ أبو نُعيم في دَلائِل النُّبوةَ عَنْ عُرْوَةَ بنُ الزُّبَيْرِ رَضَي اللهُ عَنْهُمَا قالْ ومَات أَبُو طَالب وازْدادَ مِنْ الْبَلا عَلى رسول اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم بِشِدَّةٍ ، فَعَمِدَ إلى ثِقيْفٍ يَرْجُو أنْ يُؤْوُوهُ ويَنْصُرُوه ، فَوَجَدَ ثلاثةَ نَفَرٍ مِنْهمْ ، سَادَةُ ثِقيْف ، وهَمْ أخْوَةُ عَبْدُ يَالِيلْ بنِ عَمْرو ، وَحَبِيْبُ ابْنُ عَمْرِو ، وَمَسْعُودُ بنُ عَمْرو ، فَعَرضَ عليْهِم نَفْسَـهُ ، وشكا إلَيْهِم البلاءَ ، وَمَا انْتَهَكَ قَوْمُهُ مِنْه .

فَقَال أَحدُهُمْ أنَا أَسْرقُ ثِيابَ الكَعْبَةِ إن كَانَ اللهُ بَعَثَكَ بشَيءٍ قَطْ ، وقالَ آخرُ واللهِ لا أكَلِّمكَ بَعْدَ مَجْلِسِكَ هذا كَلِمَةً واحِدةً أَبَدَا لِأَنْ كُنْتَ رَسُولا لانْتَ أعْظَمُ شَرَفاً وَحَقاً مِن أَنْ أكلِمَكَ . وقالَ الآخَرُ أعجزَ اللهُ أَنْ يُرسِلَ غَيْرَكَ .

وَأَفْشَوا ذَلِكَ في ثَقِيْفٍ الذينَ قَالَ لَهُمْ ، واجْتَمَعُوا يَسْتَهْزِؤُنَ برسول اللهِ صلى اللهُ عليه وسَلمَّ ، وَقَعَدُوا لَهُ صَفَّينَ على طَريقةِ ، فأخَذُوْا بِأيْدِيهم الحِجَارَة فَجَعَلَ لا يَرْفَعُ رِجْلَهُ وَلا يَضَعُهَا إلاَّ رَضَخُوهَا بالحِجَارَةِ ، وَهُمْ في ذِلِكَ يُسْتَهزِؤُنَ وَيسْخَرُونَ .

فَلَمَّا خَلصَ مِن صَفَّيْهم وَقَدَمَاهُ تَسِيْلاَنِ بالدماء ، عَمِدَ إلَى حَائِطٍ مِنْ كُرُومِهِمْ فأتَى حَبلَةً مِن الْكَرْمِ فَجَلَسَ في أصْلِها مَكْرُوباً مُوْجَعاً تَسِيْلُ قَدَماهُ الدِّمَاء فإذَا في الْكَرْمِ عُتْبَةُ بنُ ربيعةَ وشَيْبَةُ ابنُ ربِيْعَةَ فَلمَّا أبْصَرَهُمَا كَرِهَ أنْ يَأْتِيْهُمَا لِمَا عَلِمَ مِن عَدَاوَتِهِمَا لِله ولِرَسُولِهِ وَبِهِ الذي بِه فأرْسَلاَ إليهِ غُلاَمَهُمَا عَدَّاساً بِعِنَبٍ وَهُوَ نَصْرَانِي مِن أهْلِ نِيْنَوى ، فَلَّما أتاهُ وَضَعَ العِنَبَ بَين يَدَيهِ .

فقالَ رسولُ الله صلَّى اللهُ عليهِ وسَلَّم بِسْمِ اللهِ فَعَجِبَ عَدَّاسُ ، فَقَالَ لَهُ رسولُ الله صَلى اللهُ عليهِ وسلم مِنْ أيْ أرْضٍ أَنْتَ يا عَدَّاسُ قَالَ أَنَا مِنْ أهْلِ نَيْنَوى .

فقالَ النبيُّ صلى الله عليهِ وسلمَ مِن أهْلِ مَدِيْنَةِ الرَّجُلِ الصَّالحِ يُونُسُ بنُ مَتَّى ، فَقَالَ لَهُ عدَّاسُ وَمَا يُدْرِيْكَ مَنْ يُونُسُ بنُ مَتَّى ، فأخبرَهُ رسولُ اللهِ صلى اللهَ عليهِ وسلم مِن شأْنِ يُونَسَ ما عَرَفْ .

وَكَانَ رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّم لَا يَحْقِرُ أَحَداً يُبَلِّغهُ رِسَالاتِ اللهِ تَعالى ، قَالَ يَا رَسولَ اللهِ أخْبِرْنِي خَبرَ يُونُسَ بنِ مَتَّى ، فَلمَّا أخبرَهُ رسولُ اللهِ صلى الله علَيه وسلم مِن شأنِ يُونُس بنِ مَتى مَا أُوْحِيَ إليهِ مِن شأنِهِ خَرَّ ساجداً لِرَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وسلم ، ثمَ جَعَل يُقَبِّلُ قَدَمَيْهِ وَهُمَا تَسِيْلَانِ الدِّماءَ . فَلمَّا أبْصَر عُتْبَةُ وأخوهُ شَيْبَةُ ما فَعَلَ غُلاَمُهُمَا سَكَتَا ، فلمَّا أتَاهُما قالاَ لهُ ما شَأْنُكَ سَجَدْتْ لِمُحَمَّدٍ وقَبَّلْتَ قَدَميْهِ ، ولَمْ نَرَكَ فَعَلْتَ هذَا بِأَحَدِنَا .

قالَ هذَا رجلٌ صَالِحٌ حَدَّثَنِي عَنْ أشْيَاءَ عَرَفْتُهَا مِن شَأْنِ رَسُولِ بَعَثَهُ اللهُ تعالى إلَيْنَا يُدْعَى يُونُسُ بنُ مَتى فأَخْبَرنِي أنهُ رسولُ اللهُ فَضَحِكَا وقالاَ لا يَفْتِنُكَ عَنْ نَصْرَانِيَّتِكْ إنّه رَجُلٌ يَخْدَعْ ، ثمَّ رَجَعَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلمَّ إلى مَكَّة انتهى .

اللهم نَوِّرْ قُلُوبَنَا بنُورِ الايمانْ واجْعَلْنَا هُداةً مُهْتَدِيْنَ وألْهِمْنَا ذِكْرَكَ وشُكْرَكَ واغفْرْ لَنَا وَلِوَالِدِيْنا وَجَميعِ المُسلِمِينْ بِرَحْمَتِكَ يا أرحمَ الراحمينَ وصلى اللهُ على محمدٍ وعلَى آلِه وصحبه أجمعين .

(فَصْلٌ)

أخرَجَ ابنُ مَرْدَوَيْهِ عَنْ عَائِشَةَ رضيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ قَالَ أبُو بَكْرٍ لَوْ رَأيْتُنِي وَرَسُول اللهِ صلى اللهُ عليهِ وَسلمْ اذْ صَعَدَ الغَارْ فَأمَّا قَدَمَا رَسولَ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ فَتَقَطَّرَتَا ، وأمَّا قَدَمَاي فَعَادَتْ كأنَّهُمَا صَفْوَانٌ ، قالَتْ عَائِشَةُ رضي اللهُ عَنْهَا إنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ لَمْ يَتَعَوَّدْ الْحُفْيَةْ .

وأخْرَجَ الشَّيْخَانِ عَنْ أنس رَضْيَ اللهُ عَنْهُ أنَّ النَّبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ كُسِرَتْ رَبَاعَيَّتِهِ يَوْمَ أحُدٍ وَشُجَّ فِي رَأْسِهِ فَجعَلَ يَسْلِتُ الدّمِ عنْ وَجْهِهِ ، وَيَقُول كَيْفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ شَجُّوا نَبِيَّهُمْ ، وَهْوَ يَدْعُوهُمْ إلى اللهِ ، فَنَزَلْ ﴿ لَيْسَ لَكَ مِن الأمرِ شيءٌ ﴾ الآية .

وَعِنْدَ الطَّبَرَانِي فِي الْكَبِير عَنْ أَبِي سَعِيْدٍ رَضْيَ اللهُ عَنْهُ قَالْ أُصِيْبَ وَجْهُ النبيّ صلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ يَوْمَ أحُدٍ ، فاسْتَقْبَلَهُ مَالِكُ بنُ سِنَانِ فَمَصَّ جُرْحَهُ ثُمَّ ازْدَرَدَهْ ـ أيْ ابْتَلَعَهُ ! قَالَ صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ مَنْ أحَبَّ أنْ يَنْظُرَ إلَى مَنْ خَالَطَ دَمُهُ دَمِي فَلْيَنْظُرْ إلى مَالِكِ بن سِنَانْ .

وأَخْرَجَ الطَّيالِسِي عَنْ عَائِشَةَ رضيَ اللهُ عَنْهَا قالتْ كانَ أبُو بكر رضْىَ اللهُ عنه إذا ذَكَرَ يَوْمَ أُحُدٍ قالْ ذَاكَ يومُ كُلُّهُ لِطَلْحَةَ ثمَّ أَنْشَأَ يُحَدِّث قَالَ كُنتُ أَوَّلَ مَنْ فَأَ يَوْمَ أحُدٍ فَرَأيْتُ رَجُلاً يُقَاتِلُ في سَبِيْلِ اللهِ دُونَهُ ، وأرَاهُ قال حَمِيَّةً ، قَالَ فَقُلْتُ كُنْ طَلْحَةَ حَيْثُ فَاتَنِي مَا فاتَنِي فقلتُ يكونُ رَجُلاً مِنْ قَوْمِي أحَبُّ إليَّ . وبَيْنِي وبَيْنَ المُشْرِكِيْنَ رَجُلاً لا أعْرِفُهْ وأنَا أقْرَبُ إلى رَسُولِ اللهِ صلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَم مِنْهُ وَهْوَ يَخطِفُ الْمَشيَ خَطْفاً لاَ أَخْطِفُهْ .

فإذَا هُوَ أبُو عُبَيْدَة بنُ الجرَّاحِ رَضْيَ اللهُ عَنهُ فانْتَهَيْنَا إلى رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وَسَلَّمْ ، وَقَدْ كُسِرَتْ رَبَاعِيَّتُهُ ، وَشُجَّ فِي وَجْهِهْ ، وَقَدْ دَخلَ في وَجْنَتِهِ حَلْقَتَا مِنْ حَلقِ الْمِغْفَرْ . قالَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَمْ عَلَيْكُمَا صَاحِبَكُمَا يُرِيدُ طَلْحَة ، وقدْ نَزَفَ فَلَمْ نَلْتَفِتْ إلى قَوْلِهِ ، قَالَ وَذَهَبْتُ لِأَنْزِعَ ذَلِكَ مِنْ وَجْهِهِ فَقَالَ أَبُوْ عُبَيْدَةَ أُقْسِمُ عَلَيْكَ بِحَقِّي لَمَا تَرَكْتِنِي فَتَرَكْتُهُ . فَكَرِهَ تَنَاوُلِهَا بِيَدِهِ فَيُؤذِي رَسولَ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وَسَلَّمْ فَأَزَمَّ عَلَيْهَا

بغيه أي عَضَّ عليها ، فاسْتَخرجَ احدى الحَلْقتين وَوَقعَتْ ثَنِيَّتُه مَعَ الحَلْقَةِ وَذَهَبْتُ لِأَصْنَعَ ما صَنَعَ فَقَالَ أقْسَمْتُ عَلَيْكَ بِحَقِّي لِمَا تَرَكْتَنِي قَالَ فَفَعَلَ مِثْلَ مَا فَعَلَ في المَرَّةِ الأُوْلَى فَوَقَعَتْ ثَنِيَّتُه الأُخْرَى مَعَ الْحَلْقَةِ .

فَكَانَ أَبُو عُبَيْدَةَ رَضِىَ اللهُ عنهُ مِن أحْسَنِ النّاسِ هَتْمَاً فأصْلَحْنَا مِن شَأْنِ رَسُولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وَسلَّمْ ، ثُمَّ أَتَيْنَا طَلْحَةَ في بَعْضِ الجِفَارِ ، فإذَا بِهِ بِضْعُ وَسَبْعُوْنَ طَعْنَةً وَرَمْيَةً وَضَرْبَةً وإذَا قَدْ قُطِعَتْ أُصْبُعِهِ فأصْلَحْنَا مِن شَأْنِهِ .

اللَّهُمَّ ثَبِّتْ مَحَبَّتَكَ في قُلُوبِنَا وَقَوِّهَا ، وارْزُقْنَا مَحَبَّةَ أَوْلِيَائِكَ وأصْفِيَائِكَ واجْمَعْنَا وَإيَّاهُمْ في دَارِ كَرَامَتِكَ ، يَا أكْرَمَ الأكْرَمِيْنَ وأرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وصلى اللهُ علَى محمدٍ وعلى آلِهِ وصَحْبِهِ أجميعنَ .

مَوْعِظَةْ

عِبَادَ الله انَّ اللهَ اخْتَارَ نَبِيَّهُ مُحَمَّداً صلى اللهُ عليهِ وَسَلَّمْ وَخَصَّهُ بِمَزَايَا لَمْ تَكُنْ لأحَدٍ مِنَ الْعَالَمِيْنَ وَاخْتَارَ لَهُ أَصْحَاباً خِيْرَةَ النَاسِ مِنْ خَلْقِه ، وَخَصَّهُمْ بِمَزَايَا لَمْ تَكنْ لِسُوَاهُمْ مِنْ النَّاسِ أَجمَعِين ، حَاشَا الأنبياءَ والمرسَلِيْن ، وأَثْنَى عليهم ، سُبْحَانَهُ في غَيْرِ مَوْضِعٍ مِن القرآنِ الكَرِيْمِ تَنْبِيْهَاً عَلَى جَلاَلَةِ قَدْرِهِمْ ، وَعُلُوِّ مَنْزِلَتِهِم ، وَعِظَمِ فَضْلِهِمْ ، وَشَرَفِهِمْ . قَالَ تَعَالَى ﴿ والسَّابقونَ الأولَونَ مِن المهاجِرين ، والأنْصَارِ والذين اتبعوهم بإحْسَانٍ رضي اللهُ عنهُمْ وَرَضُوا عنه ﴾ .

وقَالَ تَعَالَى يَصِفُهُمْ بِشِدَّةِ الرَّحْمَةِ ولِيْنِ الْجَانِبَ لِبَعْضِهِمْ بَعْضَا وَشِدَّتِهِمْ عَلَى الكُفَّارِ المُعَانِدِيْنَ ، مُحَمَّدُ رسولُ اللهِ والَّذِينَ مَعَهُ أشِدَّاءُ عَلَى الكُفَّارِ وَرُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللهِ

ورِضْوَانَاً سِيْمَاهُمْ في وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ .

وَقَالَ تَعَالَى يَصِفُ الْمُهَاجِرِيْنَ والأنْصَارِ بأفْضَلِ مَا يَصِف بِهِ إنْسَاناً « لِلْفُقَرَاءِ المهَاجِرِيْنَ الذينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وأمْوالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً من اللهِ وَرِضْوَانَا وَيَنْصُرُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ أولئك هُمُ الصَّادِقُون . والَّذِينَ تَبَوَّؤُا الدَّار والإيمانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إلَيْهِمْ ، وَلَا يَجِدُوْنَ في صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا ، وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أنْفُسِهِمْ وَلَوْ كانَ بِهِم خَصَاصَةٌ ومَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فأُولَئِكَ هُمُ المُفْلِحُوْنَ » .

وَقَالَ صلى اللهُ عليهِ وسلَّمَ خَيْرُ القُرُونِ قَرْنِي ثُمَّ الَّذِيْنَ يَلُوْنَهُمْ ، وَلَقَدْ كَانَ الصَّحَابَةُ أصْبَرُ النَّاسِ بعد الرُّسُلِ عَلَى الأذَى في اللهِ فَلَقَدْ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍ إلَّا أنْ يَقُولُوا رَبُّنا اللهُ وَصُبَّ عَلَيْهِمُ الأذَى مِن كُلِّ صَوْب ، فَلَمْ يَزِدْهُمْ ذلِكَ إلا إيْمَانَاً قالَ تَعَالى : ﴿ الذينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُم ايْمَاناً ﴾ .

﴿وَقَالُواحَسْبُنَا اللهُ ونِعْمَ الوكيلِ فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِن اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوء ﴾ ا الآية .

وإذا كانَ الصَّحَابَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُم أرْفَعَ النَّاسِ بَعْدَ النَّبِيِّينَ والمُرْسَلِيْنَ دَرَجَةً وأعْلاهُمْ مَكَانَاً بِشَهَادَةِ اللهِ وَرَسُولِهِ فَلا عَجَبَ أنْ يُعْلِنَ المُصْطَفَى صَلى اللهُ عليهِ وسَلَّمْ بِفَضْلِهِمْ وَيُحَذِّرُ مِنْ سَبِّهِمْ وَمَقْتِهِمْ ، وَيَقُولُ فِيمَا رَوَى التِرْمِذِي « اللَّهَ اللَّهَ في أصْحَابِي لَا تَتَّخِذُوهُمْ غَرَضاً بَعْدِي ، فَمَنْ أحَبَّهُمْ فَبِحُبِّي أَحَبَّهُمْ ، وَمَنْ أبْغَضَهُمْ فَبِبُغْضِي أَبْغَضَهُمْ ، وَمَنْ آذَاهُمْ فَقَدْ آذَانِي وَمَنْ آذَانِي فَقَدْ آذَى اللهُ يُوشِكُ أنْ يَأْخُذَهْ » .

ويقولُ صلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا تَسُبُّوا أصْحَابِي فو الَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ

لَوْ أنَّ أحَدُكُمْ أنْفَقَ مِثْلَ آحدٍ ذهَباً مَا بَلَغَ مُدَّ أحَدِهِمْ وَلَا نَصِيْفَهْ ، فَأَصْحَابُ النَّبيِّ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا يَشُكُّ عاقِلٌ أَنَّهُمْ هُمْ الّذي حَازُوا قَصَبَاتِ السَّبْقِ ، واسْتَوْلَوْا عَلَى مَعَالِي الأمورَ مِنَ الفَضْلِ والمعرُوفِ والصِدقِ والعِفَةِ ، والكرَمِ والإحْسَانِ ، والقناعةِ ، وعُلُوِّ الهِمَّةِ ، والنَّزاهةِ ، والشَجاعَةِ ، والتُّقى والتَّواضُعِ ، ونَحْوِ ذَلِكَ .

فَالسَّعِيْدُ مَنِ اتَّبَعَ طَرِيقَهُمْ ، واقْتَفَى مِنْهَجَهُمْ القويم ، والشَّقِيُ مَنْ عَدَلَ عَنْ طَرِيْقِهِمْ ، وَلَمْ يَتَحَقَّقْ بِتَحْقِيقِهِمْ ، فأيُ خِطَّةِ رُشْدِهِمْ لَمْ يَسْتَوْلُوا عَلَيْهَا ، وأيُ خَصْلَةِ خَيْرٍ لَمْ يَسْبِقُوا إليها ، لَقَدْ وَرَدُوا يَنْبوعَ الحَياةِ عَذْباً صَافِياً زُلَالاً . وَوَطَّدُوا قواعِدَ الدِّيْنِ ، والمَعْرُوْفِ فَلَمْ يَدَعُوا لِأحَدِ بَعْدَهُمْ مَقالاً .

فَتَحُوا القلُوبَ بالقُرْآنْ ، والذِّكْرَ والإيمان، والْقِرَى بالسَّيْفِ والسِّنَانْ . وَبَذَلُوا النُّفُوسَ النَّفِيْسَةِ في مَرْضَاةِ رَبِّهِم ، فَلَا مَعْرُوْفَ إلَّا مَا عُرِفَ عَنْهُم ، وَلَا بُرْهَانَ إلَّا مَا بِعُلُومِهِمْ كُشِفْ ، وَلَا سَبِيْلَ نَجاةٍ إلَّا مَا سَلَكُوهُ وَلَا خَيْرِ سَعَادَةٍ إلَّا مَا حَقَّقُوهُ وحَلَّوهُ فرِضْوَانُ اللهِ عليهم ، مَا تَحَلَّتْ المَجَالِسُ بِنَشْرِ ذِكْرِهِمْ ، وَمَا تَنَمَّقَةِ الطُّرُوسُ بِعَرْفِ مَدحِهِمْ وَشُكْرِهِمْ :

وَلَيْسَ في الأُمَّةِ كالصَّحابَةْ
بِالْفَضْلِ والمَعْرُوفِ والإصَابَةْ
فإنَّهُمُ قَدْ شَاهَدُوا المُخْتَارَ
وَعَايَنُوا الأسْرَارَ والأنْوَارَا
وَجَاهَدُوا في اللهِ حَتَى بَانَا
دينُ الهُدَى وَقَدْ سَمَا الأدْيَانَا

وَقَـدْ تُلِيْ في مُحْكَمِ التَّنْـزِيْـلِ
مِنْ فَضْلِهِمْ مَـا يَشْفِي مِنْ غَلِيْـلِ
وَفـي الأحـاديـثِ وفـي الأخْبَـارِ
وَفـي كـلامِ القَـوْمِ والأشْـعَـارِ
مَـا قَـدْرَ بَي مِنْ أن يُحِيطَ نَـظْمِي
بِبَعْضِـهِ فـاسْمَـعْ وَخُـذْ مِنْ عِلْمِي

(فصل)

ذِكْرُ نَمَاذِجَ مِن صَبْرِ الصحابةِ على الأَذَى والشدائدِ في الدعوةِ إلى اللهِ فأولُ ذلكَ في تَحَمُّلِ أبِي بكرٍ

أخرج الحافظُ أبُو الحَسَنِ الأطرابُلسي عن عائشة رضي اللهُ عنها قالت لما اجْتَمَعَ أصحابُ النبي صلى اللهُ عليه وسلمْ ـ وكانوا ثَمَانِيَةً وَثَلاثِينَ رَجُلاً ألَحَّ أَبُو بكرٍ عَلَى رَسُولِ اللهِ صَلى اللهُ عليهِ وسَلَمَ في الظُهُورِ فقال يا أبا بكرٍ إنَّا قَلِيْلٌ فلَمْ يَزَلْ أبُو بكرٍ يُلِحُ حَتَّى ظَهَرَ رسولُ اللهِ صلى اللهُعليهِ وسلمَ وَتَفَرَّقَ المسلمونَ في نَواحِي المسجدِ كُلُّ رَجُلٍ في عَشِيْرَتِهِ .

وَقَامَ أَبُو بَكْرٍ في الناسِ خَطِيْبَاً ورسولُ اللهِ صلى اللهُ عَلَيْهِ وسلم جالسٌ فكانَ أولَ خَطِيْبٍ دَعَا إلى اللهِ وَإلَى رَسُولِهِ صلى اللهُ عليه وسلم وثارَ المُشْرِكُونَ على أَبِي بَكْرٍ وعلى المسلمين فَضُرِبُوا في نَواحِي المسجِدِ ضَرْباً شَدِيْدَاً ، وَوُطِيءَ أبُو بكرٍ وَضُرِبَ ضَرْبَاً شَدِيْدَاً وَدَنَا مِنْهُ الفَاسِقُ عُتْبَةُ

بنُ رَبِيْعَةَ فَجعَلَ يَضْرِبُهُ بِنَعْلَيْنِ مَخْصُوفَتَيْنِ ، ويُحَرِّفُهُمَا لِوَجهِهِ وَنَزا عَلَى بَطْنِ أبِي بَكْرٍ حَتَّى مَا يُعْرَفُ وَجْهُهُ مِن أَنْفِهِ .

وجَاءَ بَنُو تَمِيْمٍ يَتعادَوْنَ فَأَجْلَتْ المُشْرِكِيْنَ عَن أَبِي بَكْرٍ وَحَمَلَتْ بَنُو تَمِيْمٍ أَبَا بَكْرٍ في ثَوْب حَتَّى أدخَلُوهُ مَنْزِلَهُ ولا يَشُكُونَ في مَوْتِهِ ، ثم رَجَعَتْ بَنُو تَمِيْمٍ فَدَخَلُوا المسجِدِ وَقَالُوا واللهِ لَئِنْ مَاتَ أبُو بَكْرٍ لَنَقْتُلَنَّ عُتْبَةَ بنَ رَبِيْعَةَ فَرَجَعُوا إلى أبِي بكرٍ فَجعَلَ أَبُو قُحَافَةَ وَبَنُوا تَمِيْمٍ يُكَلِمُونَ أبا بَكْرٍ حَتَّى أجَابَ فَتَكَلَّمَ آخِرَ النهارِ فَقَالَ مَا فَعَلَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسَلَم فَمَسُّوا مِنْه بِأَلْسِنَتِهِم وَعَذَلُوهُ ثم قامُوا وقالوا لِأُمِّهِ أُمِّ الخَيْرِ انْظُرِي أنْ تُطْعِمِيْهِ شَيْئاً أو تَسْقِيْهِ إياه .

فَلَمَا خَلَتْ بِهِ أَلَحَتْ عَلَيْهِ ، وَجَعَلَ يَقولُ ما فَعَلَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم فقالت مَالِي عِلْمٌ بِصَاحِبِكِ فقال إذْهَبِي إلى أُمِّ جَمِيْل بِنْتِ الخَطّابِ ، فاسألِيْهَا فخَرَجَتْ حتى جاءتْ أمَّ جَمِيْلٍ فَقَالَتْ إنَّ أبا بَكْرٍ يَسْأَلُكِ عن مُحَمّدِ بنِ عبدِ اللهِ .

فقالَتْ مَا أَعْرِفُ أَبَا بَكْرٍ ولا مُحَمَّدَ بنَ عبدِ اللهِ ، وإنْ كُنْتِ تُحِبينَ أنْ أَذْهَبَ مَعَكِ إلى ابنكِ قالَتْ نَعَمْ فَمَضَتْ مَعَهَا حتى وَجَدَتْ أبا بَكْر صَرِيْعَاً دَنِفَاً ، فَدَنَتِ أُمُّ جَمِيْلٍ وَأَعْلَنَتْ بالصِياحِ ، وقالَتْ واللهِ إنَّ قَوماً نَالُوا هَذَا مِنْكَ لأَهْلُ فِسْقٍ وكُفْرٍ ، وإنِّي لأَرْجُو أنْ يَنْتَقِمَ اللهُ لَكَ مِنهم .

قَالَ فَمَا فَعَلَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلم قالَتْ هذِهِ أُمُّكَ تَسْمَعُ قال فلا شيءَ عليكِ منها قالَتْ سَالِمٌ صالِحٌ .

قال أينَ هُوَ قَالَتْ في دَارِ ابن الأرقمِ قال فإن لِلهِ عَلَيَّ أَنْ لا أَذُوْقَ

طَعَامَاً ولا أشْرَبَ شَراباً أَوْ آتِيَ بِرَسُولِ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلم فأمْهِلَنَا حَتَّى إذا هَدَأَتِ الرِّجْلُ وَسَكَنَ الناسُ خَرَجَتَا بِهِ يَتَكِيءُ عَلَيْهِمَا حَتَّى أَدْخَلَتَاهُ عَلَى رَسُولِ الله صلى اللهُ عليه وسلم قالَ فأكَبَّ عليهِ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلم فَقَبَلَهُ وأكَبَّ عليه المسلمونَ وَرَقَّ لَهُ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم رِقَّةً شَدِيْدَةً .

فقال أبُو بَكْرٍ بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِي يَا رَسولَ اللهِ ، لَيْسَ بِي بَأْسٌ إِنَّ مَا نَالَ الفَاسِقُ مِن وَجْهِي ، وَهَذِهِ أمّي بَرَّةً بِوَالِدِهَا وأَنْتَ مُبَارَكٌ فأدْعُهَا إلى اللهِ ، وَادعُ اللهَ لَهَا عَسَى اللهُ أنْ يَسْتَنْقِذَهَا بِكَ مِن النارِ ، قالَ فَدَعَا لَهَا رسولُ اللهِ صلى اللهُ علَيْهِ وسلم ، وَدَعَاهَا إلى اللهِ فأسْلَمَتْ وأقامُوا مَعَ رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم في الدار شَهْرَاً وهُمْ تِسْعَةٌ وثلاثون رَجُلاً وقَدْ كَانَ حَمْزَةُ رَضْيَ عنه أسْلَمَ يَوْمَ ضُرِبَ أَبُو بَكْرٍ رضي اللهُ عنه .

ودَعَا رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلم لِعُمَرَ بنِ الخَطَّابِ أَو لِأَبي جَهْلِ بنِ هِشامِ فأصبحَ عُمَرُ وكانَتْ الدَّعْوَةُ يَومَ الاربعاءِ فأسْلَمَ عُمَرُ يومَ الخَمِيْسِ فكَبَّرَ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم وأهلُ البيتِ تكبيرةً سُمِعَتْ بِأَعْلاَ مَكَّةَ .

وَخَرَجَ أَبُو الأَرْقم وهُوَ أَعْمَى كَافِرٌ وَهُو يَقُولُ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِبَنِي عُبَيْدِ الأرقمِ فإنه كَفَرَ فَقَامَ عُمَرُ فقال يا رَسولَ الله عَلاَمَ تُخْفِي دِيْنَنَا وَنَحن على الحَقِّ ويُظْهِرُوا دِيْنَهُم وهُم على البَاطِلِ قال يَا عُمَرُ إنَا قَلِيْلٌ قد رَأَيْنَا مَا لَقِيْنَا .

فقال عُمَرُ فَوَالذِي بَعَثَكَ بالحَقِ لا يَبْقَى مَجْلِسٌ جَلَسْتُ فيه بالكُفْرِ

إلاَّ أَظْهَرْتُ فِيه الإيمانَ ثُم خَرَجَ وطافَ بالبَيْتِ .

ثم مَرَّ بِقُرَيْش وهِيَ تَنْتَظِرُهُ فقال أَبُو جَهْلِ بنُ هِشَامٍ يَزْعُمُ فلانٌ أنكَ صَبَوْتَ .

فقال عُمَرَ أشهدُ أَنْ لا إلهَ إلا اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيْكَ لَهُ وأنَّ محمداً عَبدُهُ ورَسُولُهُ فَوَثَبَ المشركُونَ إليهِ وَوَثَبَ عَلَى عُتْبَةَ وبَرَكَ عَلَيهِ وَجَعَلَ يَضْرِبُهُ فَجَعَلَ عُتْبَةُ يَصِيْحُ فَتَنَحى الناسُ ، فقامَ عُمَرُ حَتَّى أعْجَزَ الناسَ واتَّبَعَ المَجَالِسَ التي كان يُجَالِسُ فِيها فيُظْهِرُ الايمان .

ثم انْصَرفَ إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهُوَ ظَاهِرٌ عليهم ، قال مَا عليكَ بأبِي وأمِّي واللهِ ما بَقِي مَجْلِسٌ كُنْتُ أَجْلِسُ فيه بالكفرِ إلا أظهرتُ فيه الايمانَ غيرَ هَيَّابٍ ولا خَائِفٍ .

فَخَرَجَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم وخَرَجَ عُمَرُ أَمَامَهُ وحَمْزَةُ ابْنُ عبدِ المطلبِ حَتَّى طافَ بالبيتِ ، وصَلَّى الظُهْرَ مُؤَمَّناً ، ثم انْصَرفَ إلى دَارِ الأرقمِ ومَعَهُ عُمَرُ ، ثم انْصَرفَ عُمَرُ وَحْدَهُ، ثم انْصَرَفَ النبيُ صلى اللهُ عليه وسلم .

وأَخْرَجَ البُخارِيُ عن عائشةَ رضيَ اللهُ عنها قَالَتَ لَمْ أَعْقِلْ أَبَوَيَّ قَطُ إلاَّ وَهُمَا يَدِيْنَانِ الدِّيْنَ ولمَ يَمُرَّ عَلَيَنا يَوْمٌ إلا يَأْتِيْنَا رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم طَرَفَي النهارِ بكرةً وعَشِيَّةً ، فلما ابْتُلِيَ المسلمونَ خَرَجَ أَبُو بَكرٍ رَضِيَ اللهُ عنه مُهَاجِراً نَحْوَ أَرْضِ الحَبَشَةِ حَتَّى إذا بَلغَ بَرْكَ الغمَادِ لَقِيَهُ ابنُ الدَّغِنَةِ وهُوَ سَيِّدُ القَارَةِ فقالَ أَيْنَ تُرِيْدَ يَا أبا بَكْرٍ فقال أَبُو بَكْرٍ أخرَجَنِي قَوْمِي فأُرِيْدُ أَن أَسِيْحَ في الأَرْضِ وأعبُدَ رَبي قال ابنُ الدَّغِنَةِ

فانَّ مِثْلَكَ يا أبا بَكْرٍ لا يُخْرَجُ ولا يَخْرُجُ إنكَ تَكْسِبُ المَعْدُوْمَ ، وتَصِلُ الرَّحِمَ وتَحْمِلُ الكَلَّ وتَقْرِيْ الضَّيْفِ وتُعْيِنُ عَلَى نَوائِبِ الحَقِ فأنَا لكَ جار ، إرْجِعْ وأعْبُدْ رَبَّكَ في بَلَدِكَ .

فَرَجَعَ وارْتَحَلَ مَعَهُ ابنُ الدَّغِنَةِ فَطَافَ بنُ الدَّغِنَةِ عَشِيَّةً في أشْرَافِ قُرَيْشٍ فَقَال لَهُم إن أبا بَكرٍ لا يُخْرَجُ مِثْلُهُ ، ولا يَخْرُجُ أتَخْرِجُوْنَ رَجُلاً يَكْسِبُ المَعْدُوْمَ ، وَيَصِلُ الرَّحِمَ ، وَيَحمِلُ الكلَّ ، وَيَقْرِيْ الضَّيْفَ ويُعْيِنُ على نَوَائِبِ الحَقِّ ، فَلَم تَكْذِبْ قُرَيْشٌ بِجِوارِ ابنِ الدَّغِنَةِ .

وقالُوا لِابْنِ الدَّغِنَةِ مُرْ أَبَا بَكْرٍ فَلْيَعْبُدْ رَبَّهُ في دَارِهِ فَلْيُصَلِ فِيهَا واليَقْرَأ مَا شَاءَ ولا يُؤْذِيْنَا بِذَلِكَ ، ولا يَسْتَعْلِنْ بِهِ فإنَّا نَخْشَى أنْ يَفْتِنَ نِسَاءَنَا وَأبْنَاءَنَا فقالَ ذَلكَ ابنُ الدَغِنةِ لِأبي بَكْرٍ .

فَلَبِثَ أَبُو بَكْرٍ بِذلِكَ يَعْبُدُ رَبَّهُ في دَارِهِ ولا يَسْتَعْلنُ بِصَلاَتِهِ ولا يَقْرَأُ في غَيرِ دَارِهِ ، ثُمَّ بَدا لأَبِي بَكْرٍ فَابْتَنَا مَسْجِداً بِفِنَاءِ دَارِهِ ، وكان يُصَلِي فِيهِ وَيقْرَأُ القُرآنَ فَيَتَقَذَّفُ عَلَيهِ نِسَاءُ المشركينَ ـ أَيْ يَزدَحِمُونَ عَليه ـ وأَبْنَاؤُهُم وهُم يَعْجَبُونَ مِنْهُ ويَنْظُرونَ إِلَيْهِ .

وكَانَ أَبُو بَكْرٍ رَجُلاً بَكَاءً لا يَمْلِكُ عَيْنَيْهِ إِذَا قَرَأَ القُرآنَ ، وأَفْزَعَ ذلكَ أشرافَ قُرَيشٍ مِن المشركينَ ، فأَرْسَلُوا إلى ابْنِ الدَغِنَةِ ، فَقَدَم عَلَيهِم فقالُوا إنا كُنَّا أَجَرْنَا أَبا بَكْرٍ بِجِوَارِكَ على أَنْ يَعْبُدَ رَبَّهُ في دَارِهِ فَقَدْ جَاوَزَ ذَلِكَ فابْتَنَى مَسْجِداً بِفِنَاءِ دَارِهِ فأعْلَنَ بالصلاةِ والقِراءة فيه ، وإنا قَدْ خَشِيْنَا أَنْ يَفْتِنَ نِسَاءَنا وأَبْنَاءَنَا ، فانهَهُ فإن أحبَّ أنْ يَقتَصِرَ عَلى أن يَعْبُدَ رَبَّهُ في دَارِهِ فَعَل ، وإن أَبيَ إلا أنْ يُعْلِنَ ذَلِكَ فَسَلْهُ أَنْ يَرُدَّ إليكَ ذِمَّتَكَ ، فانا قَدْ

كَرِهْنَا أنْ نَخْفِرَكَ ، ولَسْنَا مُقِرِّيْنَ لِأبي بَكْرٍ الاسْتِعْلانَ .

قالتَ عائِشةُ رضيَ اللهُ عنها فأَتَى ابْنُ الدَّغِنَةِ إلى أبي بَكرٍ فقال قَدْ عَلِمْتَ الذي عاقَدْتُكَ عليه ، فإمَّا أنْ تَقْتَصِرَ على ذلكَ وإما أنْ تُرَجِّعَ إليَّ ذِمّتي .

فإني لا أحِبُّ أنْ تَسْمَعَ العَرَبُ أنّي أُخْفِرْتُ في رَجُلٍ عَقَدْتُ لَهُ فَقَالَ أبوُ بَكْرٍ : فإنِيْ أَرُدُّ إلَيْكَ جِوَارَكَ وأرْضَى بِجِوارِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ ، هذا قليلٌ مِن كَثيرٍ مِن تَحَمُّلُ أبي بَكْرٍ رَضي اللهُ عنه وأَرْضَاه وجَعَلَ جَنَّةَ الفَرْدَوْسِ مَثْوَانا ومَثْوَاهُ فَلَهُ مِن الفَضْلِ والسَّابِقَةِ ما لَيسَ لِغَيرِهِ ولقد قَدَّمَهُ المُصْطَفى صلى اللهُ عليه وسلم على جَمِيْعِ الصَّحَابَةِ قال في النُونِيَّةِ ما قال الرسول صلى الله عليه وسَلم لِأبي بكر :

ويَقُولُ في مَرَضِ الوَفَاةِ يَؤُمُكُمْ
عَنِيْ أبُوُ بَكْرٍ بِلا رَوَغَانِ
ويَظَلُّ يَمْنَعُ مِن إمَامَةِ غَيْرِهِ
حَتَّى يُرَى في صُوْرَةٍ مَيَلانِ
ويَقولُ لَو كُنْتُ الخليلَ لِوَاحِدٍ
في الناسِ كانَ هُوَ الخَلِيْلُ الدَّانِ
لَكِنَّهُ الأَخُ والرَّفِيْقُ وصَاحِبِي
ولَهُ عَلَيْنَا مِنَّهُ الإحْسَانِ
ويَقُولُ لِلصِّدِّيْقِ يَومَ الغَارَ لَا
تَحْزَنْ فَنَحْنُ ثَلاثَةٌ لا اثْنَانِ

أَلَّهُ ثَالِثُنَا وتِلْكَ فَضِيْلَةٌ
مَا حَازَهَا إلا فَتًى عُثْمَانِ

اللهم سلمنا مِن شُرُوْرِ أنْفُسِنَا الَّتي هِي أَقْرَبُ أَعْدَائِنا وأَعِذْنَا مِن عَدُوكَ واعْصِمْنا مِن الهَوى ومِن فِتنةِ الدنيا وَمَكِّنْ مَحَبَّتَكَ في قُلُوبِنَا وقوّهَا وأَلْهِمْنَا ذِكْرَكَ وشُكْرَكَ وفَرِّحْ قُلُوبَنَا بالنَّظَرِ إلى وَجْهِكَ الكَريم في جَنَّاتِ النعيم واغفر لنا ولوالدينا وجميع المسلمين برحمتك يا أرحم الراحمين وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

(فصل)

أَخْرَجَ ابنُ اسحاقَ عن ابنِ عُمْرَ رضي الله عنهما قال لَمَّا أَسْلَمَ عُمَرُ رَضيَ اللهُ عنه ، قال : أَيُّ قُرَيْشٍ أَنْقَلُ لِلْحَدِيْثِ فَقِيلَ لَهُ جَمِيْلُ بنُ مَعْمَرٍ فَغَدا عَلَيهِ قال عبدُ الله وغَدَوْتُ أَتْبَعُ أَثَرَهُ وأَنْظُرُ ما يَفْعَلُ وأنا غُلَامٌ أَعْقِلُ كُلَّمَا رَأَيْتُ حَتَّى جَاءَهُ فقال أَعَلِمْتَ يا جَمِيْلُ أَنِيْ أَسْلَمْتُ وَدَخَلْتُ في دِيْنِ مُحَمدٍ صَلى اللهُ عليه وسلم قال فوَ اللهِ مَا رَاجَعَهُ حتَّى قَامَ يَجُرُّ رِدَاءَهُ واتبعهُ عُمَرُ واتَّبَعْتُهُ أنا حتى قامَ على بابِ المسجدِ وصَرَخَ بأَعْلَى صَوْتِهِ يا مَعْشَرَ قُريشٍ وهمُ أَنْدِيَتُهُم حَوْلَ الكَعبةِ ألا إنَّ ابنَ الخَطَّابَ قَدْ صَبَأَ .

قال يقولُ عُمَرُ مِن خَلْفِهِ : كَذَبَ ولكِنِّيْ قَدْ أَسْلَمْتُ وشَهِدتُ أَنْ لا إلَهَ إلا اللهُ ، وأن مُحَمداً رسولُ اللهِ ، وثَارُوْا إليهِ ، فَمَا بَرِحَ يُقَاتِلُوْنَهُ حَتَّى قامَتِ الشَّمْسُ عَلى رُؤُسِهِم ، قَال وَطَلَحَ : ـ أيْ أَعْيَا ـ فَقَعَد وقَامُوا على رَأْسِهِ ، وهُوَ يَقولُ افْعَلُوا مَا بَدَا لَكُم فأَحْلِفُ باللهِ أنْ لَو قَدْ كنَّا ثَلاثمائةِ

رَجُلٍ لقد تَرَكْنَاهَا لكُم أَوْ تَرَكْتُمُوهَا لَنا .

قال فَبَيْنَما عَلَى ذَلِكَ إذْ أقْبَلَ شَيْخٌ مِن قُرَيْشٍ عَلَيهِ حُلَّةٌ حَبِرَةٌ وَقَمِيصٌ مُوَشًّى حَتَّى وَقفَ عَليهم ، فقال مَا شَأنُكُم فقالوا صَبَأَ عُمَرُ ، قَالَ فَمَهْ ، رَجُلٌ اخْتَارَ لِنَفْسِهِ أمْراً ، فَمَاذا تُرِيْدُوْنَ أَتَروْنَ بَنِي عَدِي يُسْلِمُونَ لكُم صَاحِبَهُم هكذا ، خَلُوا عن الرَّجُلِ .

قال فوَ اللهِ لكأنَّمَا كَانُوا ثَوْباً كُشِطَ ـ أَيْ كُشِفَ عنه ، قال فَقُلْتُ لأبي ـ بَعْدَ أَنْ هَاجَرُوا إلى المدينةِ ، يَا أبتِ مَن الرَّجُلُ الذي زَجَرَ القومَ عَنكَ بمَكَّةَ يَومَ أَسْلَمْتَ وهمُ يُقاتِلُونَكَ ، قال وذَاكَ أَيْ بُنَيَ العَاصُ بنُ وَائِلٍ السَّهْمِي وهَذا اسنادُهُ جَيدٌ قَوِيٌ .

أخرج ابنُ سَعْيدٍ عن محمدِ بنِ ابراهيمَ التَّيْمِي ، قال لَمَّا أَسْلَمَ عُثمانُ بن عَفانٍ رضي اللهُ عنه أخذَهُ عَمُّهُ الحكمُ بنُ أبي العاصِ بنُ أُمَيَّة فأوثَقَهُ رِباطاً ، قال أَتَرْغَبُ عن مِلَّةِ آبائِكَ إلى دِيْنٍ مُحْدَثٍ ، واللهِ لا أُحِلُّكَ أَبَداً حَتى تَدَعَ مَا أنتَ عَليه مِن هذا الدِينِ ، فقال عُثْمَانُ واللهِ لا أَدَعُهُ أبَداً وَلا أُفَارِقُهُ ، فلَمَّا رَآى الحَكَمُ صَلابَتَهُ في دِيْنِهِ تَرَكَهُ .

وأخرج البُخاري في التاريخ عن مَسْعُودِ بنِ خِرَاشٍ رضي اللهُ عنه قال بَيْنَما نَحْنُ نَطُوفُ بينَ الصَّفَا والمروةِ إذا أُناسٌ كَثِيْرٌ يَتْبَعُونَ شَاباً مُوْثِقاً بِيَدِهِ في عُنُقِهِ ، قُلْتُ مَا شَأْنُهُ قالوا هذا طَلْحَةُ بنُ عُبَيْدِ اللهِ ـ رضيَ اللهُ عنه ـ صَبَأَ وَامْرَأَةٌ وَرَاءَهُ تُدَمْدِمُ وتَسُبُّهُ قُلْتُ مَن هَذِهِ قالوا الصَّعْبَةُ بِنْتُ الحَضْرَمِي أُمُّهُ .

وأخرج الحاكم في المستدرك عن ابراهيمَ بنِ محمدٍ بن طلحةَ

قال : قال لِيْ طَلحةُ بنُ عُبيدِ اللهِ رضيَ اللهُ عنه حَضَرْتُ سُوْقَ بُصْرَى فإذا رَاهِبٌ في صَوْمَعَتِهِ يَقولُ سَلُوا أَهْلَ هَذا المَوْسِمِ أفِيهِمِ وَاحِدٌ مِن أَهْلِ الحَرَمِ .

قال طلحةُ رضِيَ اللهُ عنهقُلْتُ نَعَمْ أَنا فَقَال هَلْ ظَهَر أَحْمَدُ بَعْدُ قال قُلْتُ ومَن أَحْمَدُ قال ابنُ عَبدِ اللهِ بنُ عبدِ المُطَّلِب هَذا شَهْرُهُ الذي يَخْرُجُ فيه وهُو آخِرُ الأَنْبياءِ مَخْرَجُهُ مِن الحَرَمِ ، ومُهَاجَرُهُ إلى نَخْلٍ وحَرَّةٍ وسِبَاخٍ ، فإيَّاكَ أنْ تُسْبَقَ إليه .

قال طلحةُ فَوَقَع في قَلْبِي مَا قَالَ ، فَخَرَجْتُ سَرِيْعاً حَتَّى قَدِمْتُ مَكَّةَ فَقُلْتُ هَلْ كَانَ مِن حَدَثٍ قالُوا نَعَمْ ، مُحَمَّدُ بنُ عَبدِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم الأَمْينُ تَنَبَّأَ ، وقَدْ تَبِعَهُ بنُ أبي قُحَافَةَ قال فَخَرِجْتُ حَتى دَخَلْتُ عَلَى أبِي بَكْرٍ رَضيَ الله عنهُ فَقُلْتُ اتَّبَعْتَ هَذَا الرَّجُلَ قال نَعَمْ فانطَلِقْ فادْخُلْ عَليهِ فاتَّبعْهُ فإنَّهُ يَدْعُو إلى الحَقِّ فأخْبَرَهُ طَلْحَةُ بمَا قَال الرَّاهِبُ فَخَرَجَ أَبُو بَكْرٍ بِطَلْحَةَ فَدَخَلَ بِهِ على رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلم فأسْلَمَ طَلْحَةُ وأَخْبَر رَسُول اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم بما قَالَ الرَّاهِبُ فَسُرَّ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم ، فلَمَّا أَسْلَمَ أَبُو بَكْرٍ وطَلْحَةُ أَخَذَهُمَا نَوْفَلُ بنُ خُوَيْلِدِ بنِ العَدَوِّيةِ ، فَشَدَّهُمَا في حَبْلٍ وَاحِدٍ ولم يَمْنَعْهُمَا بَنُو تَمِيْمٍ وكانَ نَوْفَلُ بنُ خُويلدٍ يُدْعَى « أَسَدَ قُرَيْشٍ » فَلِذَلِكَ سُمِيَ أَبُو بَكْرٍ وَطَلْحَةُ القَرِيْنَيْنِ فذَكَرَ الحديثَ وأخرجه البيهقي وفي حديثه ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم اللهم اكْفِنَا شَرَّ بنِ العَدَوِيَّةِ .

وأَخْرَجَ أَبُو نُعَيمٍ في الحِليةِ عن أبي الاسودِ قال أسلم الزُّبَيْرُ بنُ العَوَّامِ رَضِيَ اللهُ عنه وهو ابنُ ثمانِ سِنينِ ، وهاجَرَ وهو ابنُ ثمانِ عشرَةَ

سَنَةً وكانَ عَمُّ الزُبَيْرِ يُعَلِقُ الزُبَيْرَ في حَصيْرٍ ويُدَخِّنُ عَليهِ بالنارِ وهو يَقُولُ ارْجِعْ إلى الكُفْرِ فيقولُ الزُبَيْرِ لا أكْفُرُ أبَدَا .

وأخْرَجَ أبُو نُعَيْمٍ أيضاً عن حَفْصِ بنِ خَالِد قال حدثني شيخٌ قَدِمَ علينَا مِن الموصِلِ قال صَحبْتُ الزُبَيْرَ بنَ العَوامِ رضي اللهُ عنه في بَعْضِ أسْفارِهِ فأصَابتْهُ جَنَابَةٌ بأرَضٍ قَفْرٍ فقالَ اسْتُرْنِي فِستَرْتُهُ فحانَتْ مِني التِفاتَةٌ فَرَأيْتُهُ مُجَدَّعاً بالسُيُوفِ قُلْتُ واللهِ لَقَدْ رَأيتُ بِكَ آثاراً ما رَأيتُهَا بأحَدٍ قَطُّ .

قَالَ وقَدْ رَأَيْتَ ذلكَ قُلْتُ نَعَمْ قال أما واللهِ مَا مِنها جِرَاحَةٌ إلا مَعَ رَسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم وفي سبيلِ اللهِ ، وعِندَ أبي نَعَيْمٍ عن علي بن زيْدٍ قال أخْبَرَنِي مَن رَأى الزُبَيْرَ وإنَّ في صَدْرَهُ لأمْثَالُ العُيُونِ مِن الطَّعْنِ والرَّمْيِ .

أخْرَجَ الإمامُ أحْمَدُ وابنُ ماجَةَ عن ابنِ مَسعودٍ رضيَ اللهُ عنه قال أولُ مَن أظْهَرَ الاسلامَ سَبْعَةٌ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم وأبُو بَكرٍ وعَمَّارٌ وأُمُّهُ سُمَيَّةُ وصُهَيْبٌ وبِلاَلٌ والمِقْدَادُ رضي الله عنهم .

فأما رسولُ الله صلى اللهُ عليه وسلم فَمَنَعَهُ اللهُ بَعمِّه ، وأما أبُو بَكْرٍ فَمَنَعَهُ اللهُ بقَومِهِ ، وأما سَائِرُهُمُ فأخَذَهُم المشرِكُونَ فَأَلْبَسوهُمْ أَدْرُعَ الحديدِ وصَهَرُوْهُمْ في الشَّمسِ فَمَا مِنْهُمْ أحدٌ إلاَّ وَقَدْ أتَاهُمْ على مَا أرَادُوا إلاَّ بِلالٌ فانهُ هَانَتْ عليهِ نَفسُهُ في الله ، وهَانَ على قومِهِ فأخَذُوهُ فَأعْطَوهُ الوِلْدَان فَجعلوا يَطُوفُونَ بِهِ في شِعَابِ مَكة وهو يَقُول أحَدٌ أحَدٌ .

وأخْرَجَ أبُو نُعَيْمُ في الْحِلْيَةَ عَنْ هِشَامُ بنُ عُرْوَةَ عَنْ أبيهِ قَالْ كَانَ

وَرَقَةُ بنُ نَوفَلَ يَمُرُّ بِبِلَالٍ وَهو يُعَذَّبُ وَهْوَ يَقُولُ أَحَدٌ أَحَدٌ فَيَقُولُ أَحَدٌ أَحَدٌ ، اللَّهُ يا بِلالُ ثُمَّ يُقْبِلُ وَرَقَة بنُ نَوْفَلٍ عَلى أُمَيَّةَ ابِنْ خَلَفٍ وَهْوَ يَصْنَعُ ذَلِكَ بِبَلال فيقولُ أَحْلِفُ باللهِ عزَّ وَجلَّ لَئِنْ قَتَلْتُمُوهُ على هذِهِ لاتَّخِذَنَّهُ حَنَاناً .

حَتَّى مَرَّ بِهِ أبوُ بَكْرٍ الصِّديقِ يَوْماً وَهُمْ يَصْنَعُونَ ذَلِكَ فَقالَ لِأُمَيَّة ألا تَتّقِي اللهَ في هَذا الْمِسكينَ حَتَّى مَتَى قالَ أَنْتَ أَفْسَدْتَهُ فأنْقِذْهُ مِمَّا تَرَى فَقَالَ أبو بَكْرٍ أفْعَلْ عِنْدي غُلَامٌ أسود أجْلَدُ مِنْهُ وأقْوَى عَلى دِيْنِكَ أُعْطِيْكِهُ بِهِ قالَ قَدْ قَبِلْتُ قَال هُو لَكَ فأعْطَاهُ أبُو بَكْرٍ غُلَامَهُ ذَلِكَ وأخَذَ بِلَالاً فأَعْتَقَهْ .

ثُمَّ أعْتَقَ مَعَهُ على الاسْلَام قَبْل أن يُهَاجِرَ مِنْ مَّكَةَ سِتَ رَقابْ بِلَالٌ سَابِعُهُم . وَذَكَرَ أبوُ نُعَيْمٍ في الحِلْيَةِ عَنْ ابنِ اسْحَاقٍ كَانَ أُمَيَّةُ يُخرِجُهُ إذا حَمِيَتِ الشَّمْسُ فيَطْرَحُهُ على ظَهْرِهِ في بَطْحَاءِ مَكَّةَ ثُمَّ يَأْمُرُ بالصَّخْرَةِ العظِيمَةِ فَتُوضَعُ عَلى صَدْرِهِ ثُمَّ يَقُولُ لا تَزَالُ هَكَذا حَتَّى تَمُوتَ أو تَكْفُرَ بِمُحَمّدٍ وتَعْبُدَ اللاَّتَ والعُزَّى .

وَهْوَ يَقُولُ في ذَلِكَ الْبَلا أَحَدٌ أَحَدٌ قالَ عَمَّارُ بنُ يَاسِرَ وهُوَ يَذْكُرُ بِلَالاً وأصْحَابَه وَمَا كانُوا فيهِ مِن البلاءِ واعْتَاقِ أبا بَكْرٍ إيَّاهُ وكانَ اسمُ أبِي بَكْرٍ عَتِيْقاً رضْي اللهُ عَنْه .

جَزَى اللَّهُ خَيْراً عَنْ بِلَالٍ وصَحْبِهِ
عَتِيْقاً وأَخْزَى فَاكِهاً وأبَا جَهْلِ
عَشِيَّةَ هَمَّا في بِلالِ بسَوءةٍ
ولم يَحذَرا ما يَحْذرُ المرءُ ذُو عَقْلِ

بِتَوْحِيدِهِ رَبَّ الأَنَامِ وَقَوْلِهِ
وَلَمْ يَحْذَرَا مَا يَحْذُر المرءُ ذُو عَقْلِ
فَإنْ يَقْتُلوني يَقتُلوُنِي فَلَمْ أَكُنْ
لِأُشْرِكَ بالرَّحْمَن مِنْ خِيْفَةِ القَتْلِ
فَيَارَبَّ ابْرَاهِيمَ والعَبْدِ يُونُسٍ
ومُوسَى وعِيْسى نَجِّنِي ثُمَّ لَا تُبْلِ
لِمَنْ ظَلَّ يَهْوَى الغَيَّ مِنْ آلِ غَالِبٍ
على غيرِ بِرٍّكَانَ مِنْهُ وَلَا عَدْلِ

اللهمَّ نَوِّرْ قُلُوبِنَا واجْعَلِ الايمانَ لَنا سِراجاً ولا تَجْعَلَه لَنَا اسْتِدْرَاجاً واجْعَلْهُ لنا سُلَّمَاً إلى جَنَّتِكْ ولا تَجْعلهُ لنا مَكْراً مِنْ مَشيْئَتِكْ إنَّكَ أنْتَ الحليمُ الغفورُ الشَّكُورُ بِرَحْمَتِك يا أرحَمَ الراحمينَ وصلى اللهُ على محمدٍ وعلى آلهِ وصحبهِ أجمعين .

(فَصْلٌ)

أَخْرَجَ الطَّبَرانِي والْحَاكِمُ والبيهقي وابنُ عَسَاكِرُ عَنْ جَابِرٍ رضِي اللهُ عَنْهُ أن رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم مَرَّ بِعَمَّارٍ وأهلِهِ وَهُمْ يُعَذَّبُونَ فَقَالْ : أَبْشِرُوا آلَ عَمَّارٍ وآلَ يَاسِر فإنَّ مَوْعِدَكُمْ الجنة قال الْهَيْثَمي رجالُ الطَّبَراني رِجالُ الصَّحيح غَيْرَ ابراهيم بن عبد العزيزِ المقوم وَهْوَ ثِقَة .

وأخْرَجَ أبو أحْمَدُ الحاكِمُ عَنْ عَبْدِ اللهِ بنُ جَعفرِ رَضْي اللهُ عَنْهُمَا قالْ مَرَّ رسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وسَلمّ بِيَاسِرٍ وَعَمَّارٍ وأُمِّ عَمَّارٍ وَهُمْ يُؤْذَوْنَ في اللهِ تَعالى فَقالَ لَهُمْ صَبْراً آلَ يَاسِر صَبْراً آلَ ياسِرْ فإنَّ مَوْعِدِكُمُ

الجنة رواهُ ابنُ الكَلْبي عَنْ ابنُ عبَّاسٍ رضيَ اللهُ عَنْهُما نَحْوهُ وَزَادَ وَعَبْدُ الله بنُ يَاسِرٍ وزادَ وَطَعَنَ أبو جَهْل سُمَيَّةَ في قَبلِهَا فَمَاتَتْ ومَاتَ ياسِر في العذابِ ورُمِي عبدُ اللهِ فَسَقَط .

وَعِنْدَ أحْمَد عَنْ مُجَاهِدٌ قَالْ أَولُّ شَهِيْدٍ كَانَ في أوَّلِ الاسْلاَمِ اسْتُشْهِد أمُّ عَمَّارٍ سُمَيَّةَ طَعَنَها أبُو جَهْلِ بِحَرْبَةٍ في قَبلِهَا وَعَنْ عَمْرِو بنِ مَيْمُونٍ قالْ : أحْرَقَ المشْركُونَ عَمَّارَ بنَ ياسِرٍ بالنَّارِ قَالْ فَكَانَ رسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلم يَمُرُّ بِهِ وَيُمِرُّ يَدَهُ عَلى رَأْسِهِ فَيَقُولْ : يا نَارُ كُونِي بَرْداً وسَلاَماً على عَمَّارٍ كَما كُنْتِ عَلى ابْرَاهِيم عليهِ السَّلام تَقْتُلُكَ الفِئَةُ البَاغِيَةْ .

وَعِنْدَ الْحَاكِمُ في الْكُنَى وابنِ عَسَاكِرٍ عَنْ عُثْمانَ رَضْي اللهُ عنهُ قَالْ بَيْنَما أنَا أمْشِي مَعَ رَسُولِ الله صلى اللهُ عليهِ وسلم بالبَطْحَاءِ إذْ بِعَمَّارٍ وأبِيهِ وأمِّهِ يُعَذَّبُونَ في الشَّمْسِ لِيَرْتَدّوا عَنِ الاسلامْ،فَقَالَ أبُو عمَّارٍ يا رَسُولَ اللهِ الدَّهْرُ هَكَذا فقالَ صَبْراً يَا آلَ يَاسِرْ ، اللهمَّ اغْفِر لآلِ يَاسِرٍ وَقَدْ فَعَلْتَ .

وأخْرَجَ أبو نُعَيمٍ في الْحِلْيَةِ ج (١) ص (١٤٠) عَنْ أبي عُبَيْدَةَ بنِ مُحَمّدٍ بن عَمّارٍ قال أخَذَ المشْرِكُونَ عَمّاراً رضْيَ اللهُ عَنْهُ فَلَمْ يَتْرُكُوهُ حَتَّى سَبَّ رَسولَ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسَلَّمْ ، وَذكَرَ آلِهَتَهُمْ بِخَيْرٍ ، فلمَّا أتَى رسَولَ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلّمَ قالَ مَا وَرَاءَكَ قَالَ شَرٌّ يا رَسُولَ اللهِ ما تُرِكْتَ حَتَّى نِلْتُ مِنْكَ ، وذَكَرْتُ آلِهَتَهمُ بِخَيْرٍ فَقَالَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم فَكَيْفَ تَجِدُ قَلْبَكَ قال أجِدُ قَلْبي مُطْمَئِنٌ بالايْمانِ ، قالَ فإنْ عَادُوا فَعُدْ ، وأخْرَجَ بنُ سَعْدٍ عن أبي عُبَيْدَة نَحْوَهْ .

أَخْرَجَ بنُ سَعْدٍ عَنْ الشَّعْبِي قَالْ دَخَلَ خَبَّابُ بنُ الآرَتْ رضْيَ اللهُ عنه على عُمَرُ بنُ الخطاب رَضي اللهُ عنه فأجْلَسَه على مُتَّكَئِهِ فَقَالْ : مَا عَلى الارْضِ أحَدٌ أحَقُّ بِهَذَا المجْلِسِ مِنْ هَذَا إلاّ رَجُلٍ وَاحِدٍ قالَ لَه خَبَّابُ مَنْ هُو يا أميرَ المؤمنينَ قالْ : بِلالٌ : فَقَالَ خَبَّابٌ ما هُو أحَقُّ مِنِّي إنَّ بِلالاً كانَ لَهُ في المشْرِكِينَ مَنْ يَمْنَعُه اللهُ بِهْ ، ولَمَ يكُنْ لِي أحَدٌ يَمْنَعُنِي فَلَقَدْ رَأيْتنِي يَوْماً أخَذُوْنِي فأوْقَدُوا لِيْ ناراً ، ثُمَّ سَلْقَوْنِي فِيْها ثُمَّ وَضع رَجُلٌ رِجلَهُ عَلى صَدْرِي فَمَا اتَّقَيْتُ الأرضَ أوْ قَالْ بَرْدَ الأَرْضِ إلا بِظَهْرِي ، ثُمَّ كَشَفَ عن ظهْرِه فاذا هُو قَدْ بَرِصِ ، أيْ مِنْ أثرِ التَّعذِيبِ بِالنَّارْ .

وأَخْرَجَ أحْمَدُ عن خَبَّاب رضْي اللهُ عَنْهُ قَالْ كُنْتُ رَجُلاً قَيْناً وكَانَ لِي على العاص بْنُ وائِلِ دَيْنٌ فَأتَيْتُه أتَقَاضَاهُ فَقالْ لا وَاللهِ لا أقْضِيكَ حَتَّى تَكْفُرَ بِمُحَمدٍ ـ صلى الله عليهِ وسلمْ ـ فَقُلْتُ لاَ واللهِ لا أكْفُرُ بمحمدِ صلى الله عليهِ وسلم حَتَّى تَمُوتُ ثمَّ تُبْعَثُ قال فانيِّ إذَا مِتُّ ثُمَّ جِئْتَنِي وَلِي ثَمَّ مَالٌ وَوَلَدُ فأُعْطِيْكْ .

فأنْزَلَ(اللهُ أفَرَأيْتَ الذي كَفَر بآياتِنَا وقال لا أوتَيَنَّ مالاً وولدَا) إلى قوله ويأتِينا فَرْدا ، وَعِنْدَ أبِي نُعَيْمٍ في الْحِلْيَة عَنْ الشَّعْبِي قالَ سَأَلَ عُمَر رَضْيَ اللهُ عنهُ بلالاً عَمَّا لَقِي مِن المُشْرِكِينَ فقال خَبَّابُ يا أميرَ المؤمنينَ انْظِرْ إلى ظَهْرِي فَقَالَ عُمَرُ ما رأيت كاليومِ قالَ أوْقَدُوا لِي ناراً فَما اطْفَاءَها إلاَّ وَدَكُ ظَهْرِي .

قالَ عِيْسى بنُ مَريمَ عليهِ السَّلام أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بِخَيْرِكُم مُجَالَسَةً قَالَوا بَلى يا رُوح اللهْ قال مَن تُذَكِّرُكُمْ بالله رُؤيَتُهَ وَيَزِيْدُكُمْ في عَمَلِكم مَنْطِقُه

ويُشَوِّقُكُمْ الى الجنةِ عَمَله ، وقالَ عِيْسَى عليهِ السلامُ لِلْحَوارِّيينَ وَيْلَكُمْ ، يا عَبيدَ الدُّنيا كَيْفَ تُخالِفُ فُرُوعِكُمْ أصُولَكُمْ وَأَهْواؤُكُمْ عُقُولَكُمْ قَوْلُكُمْ شِفاءٌ يُبْرِؤُ الدَّاءَ وَفِعْلِكُمْ دَاءٌ لا يَقْبَلُ الدّواءَ لَسْتُمْ كَالْكَرْمَةِ التي حَسُنَ وَرَقُهَا وطَابَ ثَمَرُهَا وسَهُلَ مُرْتَقَاهَا ولكِنّكُمْ كالسّمُرَةَ التي قَلَّ وَرَقُها وكَثُرَ شَوْكُها وَصَعُبَ مُرْتَقَاهَا .

وَيْلَكُمْ يَا عَبِيدَ الدُّنْيا جَعَلْتُم الْعَمَلَ تَحْتَ أقْدَامِكُمْ مَنْ شَاءَ أَخَذَهُ وجَعَلْتُمُ الدّنْيَا فَوْقَ رُؤُسِكُمْ لا يُمْكِنُ تَناوُلِها فَلاَ أَنْتُم عبيْدٌ نُصَحَا ولا أحْرَارٌ كِرامٌ ويْلَكُمْ يا أُجَرَاءَ السوءِ الأجْرُ تَأْخُذونَ والْعَمَلَ تُفْسِدُونَ سَوْفَ تَلْقَوْنَ مَا تَحْذُرُونَ إذَا نَظَر رَبُّ الْعَمَلِ في عَمَلِه الذي أفْسَدتُمْ وأَجْرَهُ الذي أَخَذْتُمْ .

وقَالَ عليهِ السَّلامُ إتَّخِذوا المساجِدَ بُيوتَا والْبُيُوتَ مَنازِلَ وَكُلُوا بَقْلَ الْبَرِّيَّةِ واشْرَبُوا الماءَ الْقُرَاحَ وانْجُوا مِنَ الدُّنْيَا سَالِمين وقالَ عليه السَّلامُ لِلَّحوارِيّينَ لاَ تَنْظُروا في أعْمَالِ النَّاسِ كأنَّكُمْ أرْبَابٌ وانْظُروا في أعْمَالِكمُ كأنَّكُمْ عَبيْدٌ فإنَّمَا النَّاسُ رَجُلانِ مُبْتَلىً وَمُعَافَي فارْحَمُوا أَهْلَ الْبَلا واحْمَدُوا اللَّهَ على الْعَافِيَةِ وقَالْ : عَجَباً لَكُمْ تَعْمَلُونَ لِلدُّنْيا وأنْتُم تُرْزَقونَ فِيها بِلا عَمَلٍ ولاَ تَعْلَمُونَ للآخِرَةِ وأنْتُم لا تُرْزَقُونَ فِيها بِلا عَمَلْ .

اللهم سَلِّمْنَا مَنْ جَمِيع الآفاتْ وعَافِنَا مَنْ أسْبَابِ المِحَنِ والْبَلِيَّاتْ ووفِّقْنَا لِلْعَمَلِ بالبَاقِياتِ الصَّالِحاتْ وارْفَعْ لَنَا في مَرْضَاتِكَ الدّرَجَاتْ وَمتِّعْنَا بالنَّظَرِ إلى وَجْهِكَ الكريمِ في فَسيحِ الجَنَّاتْ واغْفِر لَنَا ولِوَالِدِينا وجَمِيع المُسْلِمين بِرَحْمَتِكَ يا أرْحَمَ الرَّاحِمين وصلى اللهَ على محمدٍ وعلى آلِهِ وصحبِهِ أجمعين .

(فصل)

أَخْرَجَ الْبُخَارِي عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضْيَ اللهُ عَنْهُمَا قالْ لَمَّا بَلَغ أَبَا ذَرٍّ مَبْعَثُ رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قال لِأَخِيهِ ارْكَبْ إلى هذَا الوادِي فأعْلَمْ عِلْمَ هذا الرَّجُل الذي يَزْعُمُ أنّه نَبيٌّ يَأتِيهِ الخَبَرُ مِنَ السّماءِ واسْمَع قَوْلَهُ ، ثُمَّ ائْتِنِي ، فانْطَلَق الأخُ حَتَّى قَدِمَهُ وسَمِعَ من قَوْلِهِ ، ثمَّ رجع إلى أبي ذَرّ فقالَ لَهُ رَأيْتُهُ ، يأمُرُ بِمَكارِمِ الأخلاقِ وكَلاماً ما هو بالشعرِ فقالَ شَفَيْتنِي مِمَّا أرَدْتُ .

فَتَزَوَّدَ حِمْلُ شَنَّةٍ فيْهَا مَاءٌ حَتَّى قَدِمَ مَكَّة فأتَى المَسْجِدِ فالْتَمَسَ النَّبِيَّ صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم ولا يَعْرِفُهُ وَكِرِهَ أنْ يَسْألَ عَنْهُ حَتَّى أدْرَكَهُ بَعْضُ اللّيل اضْطَجَع فَرَآهُ علي رضي اللهُ عنْهُ فَعَرَف أنّهُ غَرِيْبُ فَلمَّا رَآهُ تَبِعَهُ فَلمْ يَسْألُ واحِدٌ مِنْهُمَا صَاحبَهُ عنْ شَيءٍ حَتَّى أصْبَحْ .

ثُمَّ احْتَمَلَ قِرْبَتَهُ وزَادَهُ إلى المَسْجِدِ وَظَلَّ ذَلِكَ اليومُ وَلاَ يَراهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلّم حَتّى أمسيَ ، فَعادَ إلى مَضْجَعِهْ ، فَمَرَّ بِهِ عَلِيْ فقَالْ أمَا آنَ لِلرّجُلِ أنْ يعْلَمَ مَنْزِلَهْ ، فأقَامَهْ ، فَذَهَبَ بِهِ مَعَهُ ، لا يَسْأَلُ واحدُ مِنْهُمَا صَاحِبَه عَن شَيْءٍ ، حَتَّى إذا كَانَ يومُ الثالثْ ، فَعادَ عَليٌّ مِثْلَ ذلِكَ فأقَامَ مَعْهُ .

ثُمَّ قالَ ألاَ تُحَدّثْنِي ما الذي أقدَمَكْ قَالْ إنْ أَعْطيْتَنِي عَهْداً وَمِيثاقاً لَتُرْشِدَنِي فَعَلْتُ ففَعَلَ ، فأخْبَرَهُ قال فإنَّه حقٌّ وهُوَ رَسُولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسَلَّم فَإذَا أصْبَحْتَ فاتْبَعْنِي فَإنِّي إنْ رَأَيْتُ شَيْئا أخافُ عليكَ قُمْتُ كأنّي أُرِيقُ الماءَ فإنْ مَضَيْتُ فاتَّبِعْنِي حَتَّى تَدْخُلَ مَدْخَلِي ففَعَلْ ، فانْطَلَقَ

يَقْفُوهُ ، حتَّى دَخَلَ على النبي صلى الله عليهِ وسلّمَ وَدخَلَ مَعَهُ فَسَمِعَ مِنْ قوْلِهِ وأسْلَمَ مَكانَهُ فقالَ لَهُ النبيُ صلى الله عليهِ وسلمَ إرْجِعْ إلى قومِكْ فأخْبِرْهُمْ حَتَّى يأتِيكَ أمْرِي .

قَال والذي نَفْسِي بِيدِهِ لأصْرَخَنَّ بِها بَيْنَ ظهُرانَيْهِم ، فَخَرَجَ حَتَّى أتَى المسجدَ فنادَى بأعلى صَوْتِه : أشْهَدُ أنَّ لا إلهَ الاّ الله وأنّ محمدِ رسولُ الله ، ثم قامَ القومُ فَضَربُوه حَتَّى أضْجَعُوهْ ، وأتى العَبّاسَ فأكَبَّ عليهِ فقال : وَيْلَكُم ألسْتُم تَعْلَمون أنّه مِنْ غِفَار وأنَّ طَريقَ تِجَارَتِكُم إلى الشَّام فأنقذَهُ مِنْهُم .

ثُمَّ عادَ مِن الغد بِمِثْلِهَا ، فَضَربُوهُ وثارُوا إليه فاكَبَّ العَبّاسُ عليه وعِنْدَ البُخاري أيْضا مِنْ حديثِ ابْنِ عَبَّاس رَضْيَ اللهُ عَنْهُمَا فقالَ يَا مَعْشَر قُرَيْشٍ ، إنّي أشْهَد أن لا إلهَ إلا الله وأشْهَدُ أنَّ مُحَمَّداً عَبْدُه ورسُولُه فقالوا قُومُوا إلى هذا الصَّابِيءِ فَقامُوا فَضُرِبْتُ لِأَمُوتَ .

فَأدْرَكَنِي العَبّاسُ فأكَبَّ عَليَّ ثُمَّ أقْبَل عَليهِمْ فَقَالَ ويْلَكُمْ تَقْتُلونَ رَجُلاً مِنْ غِفَار ومَتْجَرُكم وممرُّكم على غِفَار فأقْلَعُوا عَنّي .

فَلَمَّا أنْ أصْبَحْتُ الْغَدَ رَجَعْتُ فَقُلْتُ مِثْلَ مَا قلْتُ بالأمْسَ ، فَقالُوا قُومُوا إلى هَذَا الصَّابِيء فَصَنَعَ بيَ مِثْلَ ما صَنَعَ بالأمسِ فأدْرَكَنِي العَبَّاسُ فأكَبَّ عَلَيَّ وقالَ مِثلَ مقالتَهُ بالأمس .

وفي الحديثِ الذي أخْرَجَهَ مُسْلِمُ يقُول أبُو ذَرٍّ فَرَمَانِي النَّاسَ حَتَّى كأنّي نَصَبُ أحْمَر فاخْتَبَأْتُ بينَ الكعبةِ واسْتَارِهَا ولَبَثْتُ فيها خَمْسَ عَشْرَةَ مِن يَوْمٍ ولَيْلَةٍ مالي طَعامٌ ولا شَرابٌ إلا مَاءُ زَمْزَمَ .

قالَ ولقَينا رسَولُ الله صلَّى اللهُ عليهِ وسَلَّم ، وأبُو بَكْر رضي اللهُ عَنْهُ ، وقَدْ دَخلا المسجد فَوالله إنِّي لَأَوَّلُ النّاسَ حَيَّاهُ بِتَحِيَّة الاسْلامِ فَقُلْتَ السَّلامُ عَلَيْكَ يا رَسُولَ الله فَقَال وَعَلَيْكَ السَلامُ ورَحْمَةَ اللهِ ، مَنْ أنْتَ فَقُلْتُ رَجُلٌ مِنْ بَنِي غِفَار فَقالْ صَاحِبُه إئْذَنْ لِي يا رَسُولَ الله في ضِيَافةِ الليلة ، فانْطَلَق بِي إلى دَارٍ في أسْفل مكة فَقَبَضِ لِي قَبْضَاتٍ مِنْ زَبِيْبْ ، قَالْ فَقدِمْتُ عَلى أخي فأخْبَرْتَهُ أنّي أسْلَمْتُ قال فانِّي على دِيْنِكْ ، فانْطَلَقْنَا إلى أُمِّنا فَقَالَتْ إنّي عَلى دِيْنِكُمَا ، قَالْ وأتيتُ قومِي فَدَعوتُهم فَتبِعَنِي بَعْضُهمْ .

وأخْرَجَهَ الطَّبرَاني وأبُو نُعْيم في الْحِلْية مِنْ طَرِيقِ ابنِ عَبَّاس رَضْي اللهُ عَنْهما عن أبي ذَرٍ رضْي اللهُ عنه قالْ أقَمْتُ معَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلم بِمَكّة فَعَلَّمَني الاسْلامَ وقَرأْتُ مِنَ القُرآنِ شَيْئا فَقُلْتُ يا رسولَ اللهِ إنّي أرُيدُ أنْ أُظْهَرَ دِيْني فَقَالَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم إنّي أخافُ عليك أنْ تُقْتَل قُلْتُ لا بُدَّ منه وان قُتِلْتُ قال فَسَكَتَ عني فَجِئْتُ وقُرَيشٌ حِلقاً يَتَحَّدثُونَ في المسجدِ فَقُلْتُ : أشْهدُ أن لا إلـهَ الا اللهُ وأن محمداً رسولُ الله .

فانْتَفَضتِ الْحِلَقُ فَقَامُوافَضربـوني حَتَّى تَركُونِي كَأَنّي نُصُبٌ أحْمَرْ ، وكانُوا يَروْنَ أنَّهم قَدْ قَتلُونِي ، فأَفَقْتُ فَجِئْتُ إلى رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلمْ ، فرَأى ما بِي مِنَ الحالْ ، فقالَ ألَمْ أنْهَكْ ، فَقُلتُ يا رسولَ الله كانَتْ حَاجَة في نَفْسِي فَقَضَيْتُها ، فأقَمْتُ مَعَ رسولَ الله صلى اللهُ عليهِ وسلَّم ، فقالَ الْحَقْ بِقَوْمِكَ فَاذِا بَلَغَكَ ظُهُورِي فأْتِني .

وعَنْ أبي ذرٍ رضْيَ اللهُ عَنْهُ قَال أَتَيْتُ مَكَّةَ فَمَالَ عَليَّ أَهْلُ الوادي بكُلِ مَدَرَةٍ ، وعَظْمٍ فَخَرَرْتُ مَغْشياً عَليَّ ، فارْتَفَعْتُ حِينَ ارْتَفَعْتُ كأَنِّي نُصُبٌ أحْمَرُ .

موعظة

عِبَادَ اللهِ تَزَوَّدُوا لِلرَّحِيْلِ فَقَدْ دَنَتْ الآجَالُ واجْتَهِدُوا واسْتَعِدّوا لِلرَّحِيْلِ فَقَدْ قَرُبَ الارْتِحَالُ وَمَهّدُوا لأنْفُسِكُمْ صَالِحَ الأعْمَالِ فإن الدُّنيا قد آذَنَتْ بالفِرَاقِ وإنّ الآخِرَةَ قَدْ أشْرَفَتْ لِلتَّلاَقِ فَتَزَوّدُوا مَنَ دَارِ الانْتِقَالُ إلى دَارِ القَرَار .

واسْتَشْعِرُوا التَّقْوَى في الأَقْوالِ والأَفْعَالِ وأحْذَرُوا التَّفَاخُرَ والتكَاثُرُ في الدنيا بِجَمْعِ الحُطَامِ واكْتِسَابِ الآثامِ وإيّاكُمْ والاغْتِرارَ بالآمَالِ فورَاءَكُمْ المَقَابِرُ ذَاتُ الوَحْشَةِ والهُمُوْمُ والغُمُـومِ والكُرُبَـاتُ وتَضَايُقُ الأنْفَاسِ والأهوالِ المُفْضِعَاتِ .

فَسَوْفَ تَرَوْنَ مَا لَمْ يَكُنْ لَكُمْ في حِسَابٍ إذَا نُودِيْتُمْ مِنْ الأَجْدَاثِ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلاً مُهْطِعِيْنَ إلى الدّاعي وَتَعَلَّقُ المَظْلُومُون بالظَّالِمْينَ ووَقَفْتُمَ بَيْنَ يَدَيْ رَبِّ العالَمِينَ وَحَلَّ بِكُمْ كَرْب المقَامِ واشْتَدَّ بالْخَلْقِ في ذَلِكَ الموقِفُ الزِّحَامُ وأُخِذَ المجرِمُوْن بالنَّواصِي والاقْدامِ وبَرَزَتْ جَهَنَّم تُقَادُ بِسَبْعِيْنَ ألْفِ زِمَام مَعَ كُلِّ زمامٍ سَبْعُونَ ألفَ مَلَكٍ يَجُهرونَها والخَزَنَةُ حَوْلَهَا غِلاَظٌ شِدَادٌ .

وَيُنَادِي عِنْدَ ذَلِكَ العزيزُ الحَمِيدُ الجَبَّارُ فَيَقُولُ هَلْ امْتَلأتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيد هُنالِكَ يَنْخَلِع قَلْبُكَ وَتَتَذَكَّرُ ما فَرَّطتَ فيه مِن الأوقَاتِ وَتَتَنَدَمُ

ولاتَ ساعةَ مَنْدِمِ وَتَتَمَنَّى أنْ لو زِيدَ في الحَسَنَاتِ وخُفِّفَ مِن السَّيِّئَاتِ ولكن أنَّى لَكَ بِهَذَا وَهَيْهَاتَ ﴿هُنالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ ما أسْلَفَتْ وَرُدُّوا إلى اللهِ مَوْلاَهُمْ الحَقُّ وَضَلَّ عَنْهم ما كانُوا يَفْتَرُون﴾ .

اللَّهُم وفِّقْنا للاسْتِعْـدَادِ لِمَا أَمَـامَنَا ، اللَّهُمَّ وَقَـوِّي إِيْمَانَنَـا بِكَ وَبِمَلاَئِكَتِكَ وَبِكُتُبِكَ وبِرُسُلِكَ وباليومِ الآخر وبالقَدر خَيرِهِ وشَرِهْ ، اللَّهُمَّ نوّر قُلُوبَنَا واشْرَحْ صُدُورَنَا وَوَفِّقْنَا لِمَا تُحِبُّهُ وَتَرْضَاهُ وَألْهِمْنَا ذِكْرَكَ وشُكْرَكَ وأَعِذْنَا مِن عَدُوِّكَ واغْفِر لَنَا ولِوَالِدَيْنا ولجميع المسلمين برحمتك يا أرحم الراحمين وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

(فصل)

مَا أصَابَ سَعِيْدَ بنَ زَيدٍ وَزَوْجَتَهُ فَاطِمَةَ أُخْتَ عُمَرَ أَخْرَجَ ابنُ سَعْدٍ عَن أنسٍ رَضيَ اللهُ عنه قالَ خَرَجَ عُمَرُ مُتَقَلِّداً السَّيْفَ فَلَقِيَهُ رَجُلٌ من بَنِي زُهْرَةَ قال أَيْنَ تَعْمِدُ يا عُمَرُ فقالَ إِرِيْدُ أَنْ أَقْتُلَ مُحَمَّداً قالَ وكَيْفَ تَأْمَنُ مِن بَنِي هَاشِمٍ وَبَنِي زُهْرَةَ إذا قَتَلْتَ مُحَمَّداً قالَ فقال لَهُ عُمَرُ ما أراكَ إلا قَدْ صَبَأْتَ وَتَرَكْتَ دِيْنَكَ الذي كُنْتَ عليه فَقَالَ أفلا أَدُلُّكَ عَلَى مَا هُوَ أَعْجَبُ مِن ذَلِكَ قَالَ وَمَا هُو قَالَ أُخْتُكَ وَخَتَنُكَ قَدْ صَبَوا وتَرَكَا دِيْنَكَ الذي أَنْتَ عليه .

قال فَمَشِيَ عُمَرُ ذَامِراً حَتَّى أَتَاهُمَا وعِنْدَهُمَا رَجُلٌ مِن المُهَاجِرِيْنَ يُقَالُ خَبَّابُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال فَسَمِعَ خبابُ حِسَّ عُمَرَفتَوارَى فَدَخَلَ عَلَيْهِمَا فقال ما هَذِهِ الهَيْمَنَةُ التي سَمِعْتُهَا عِنْدَكُم قال وكانُوا يَقْرؤ نَ (طه) فَقَالا مَا عَدَا حَدِيْثاً تَحَدَّثْنَاهُ بَيْنَنَا قَال فَلَعَلَّكُما قَدْ صَبَوتُمَا .

قال فقال لَهُ خَتَنُهُ أَرَأَيْتَ يا عُمَرُ إِنْ كَانَ الحَقُّ في غَيْرِ دِيْنِكَ فَوَثَبَ عُمَرُ على خَتَنِهِ فَوَطِأَهُ وَطأً شَدِيْدَاً فَجاءَتْ أُخْتُهُ فَدَفَعَتْهُ عن زَوْجِهَا فَنَفَحَهَا بِيَدِهِ ـ أَيْ لَطَمَهَا ـ فَدَمَّى وَجْهَهَا فَقَالَتْ وهي غَضْبَى يَا عُمَرُ إِنْ كَانَ الحَقُّ في غَيْرِ دِيْنِكَ أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلا اللهُ وأَشْهَدُ أن مُحَمَّدَاً رَسُولُ اللهِ .

فَلَمَّا يَئِسَ عُمَرُ قال أَعْطُونِي الكِتَابَ هَذَا الذي عِنْدَكُم فاقْرأهُ قال وَكَانَ عُمَرُ يَقْرَأُ الكُتُبَ فقالَتْ أُخْتُهُ: إِنك رِجْسٌ ولا يَمَسُّهُ إلا المُطَهَّرُوْنَ فاغْتَسِلْ وَتَوَضَأْ قالَ فَقَامَ وَتَوَضَّأَ ثُمَّ أَخَذَ الكتابَ فَقرأ طَه حَتَّى انْتَهَىٰ الى قولِهِ «إِنَّنِي أنا اللهُ لا إلهَ إلا أَنا فاعْبُدْنِي وأقمِ الصلاةَ لِذِكْرِي» قال فقال عُمَرُ دُلُّونِي على مُحَمَّدٍ فَلَمَا سَمِعَ خَبَابُ قَوْلَ عُمَرَ خَرَجَ مِن البَيْتِ فَقَالَ أَبْشِرْ يَا عُمَرُ فإِنِّي أَرْجُو أَنْ تَكُونَ دَعْوَةُ رَسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم لَكَ لَيْلَةَ الخميسِ .

اللَّهُم أَعِزَّ الأسلامَ بِعُمَرَ بْنِ الخَطَابِ أَوْ بِعُمَرَ بنِ هِشَامٍ قَالَ ورسولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلم في الدارِ التي في أَصْلِ الصَّفَا فانطَلَقَ عُمَرَ حَتَّى أَتَى الدارَ .

قال وعلى بابِ الدارِ حَمْزَةُ وَطَلْحَةُ رضِي اللهُ عَنْهُمَا وأُنَاسٌ مِن أَصْحَابِ رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلم فَلَمَّا رَأى حَمْزَةُ وَجَلَ القَوْمِ مِن عُمَرَ قال حَمْزَةُ . نَعَمْ فَهَذَا عُمَرُ فإِنْ يُرِدِ اللهُ بِعُمَرَ خيراً يُسْلِمْ وَيَتْبَعْ النبيَّ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وسلم وَإِنْ يُرِدْ اللهُ غَيْرَ ذلكَ يكن قَتْلُهُ علينا هَيِنَا .

قال ورسول الله صلى اللهُ عليه وسلم دَاخِلٌ يُوحيَ إِلَيْهِ قال فَخَرَجَ رسُولُ الله صَلى اللهُ عَليهِ وسلم حتى أَتَى عُمَرُ فَأَخَذَ بِمَجَامِعِ ثَوْبِهِ

وَحَمَائِلِ السَّيْفِ وقال مَا أَنْتَ بِمُنْتَهٍ يَا عُمَرُ حَتَّى يُنَزِلُ اللهُ بِكَ مِن الخِزْيِ والنُكَالِ مَا أَنْزَلَ بالوَلِيْدِ بنِ المُغِيْرَةِ اللهم هَذَا عُمَرُ بنُ الخطابِ اللَّهُم أَعَزَّ الدِيْنَ بِعُمَرَ بنِ الخطابِ قال فقالَ عُمَرُ أَشْهَدُ أنكَ رَسُولُ اللهِ فأسْلَمَ وقَالَ أُخْرُجْ يا رسولَ اللهِ .

أخرج أَبُو نُعَيْمٍ في الحِلْيَةِ عن عُثْمَانَ قال لَمَّا رَأَى ابنُ مُظْعُونٍ رَضِي اللهُ عَنْهُ ما فيهِ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلم مِن البلاء وهُو يَغْدُوْ ويَرُوحُ في أَمَانٍ من الوَلِيدِ بنِ المغيرةِ ، قال واللهِ إنَّ غُدُوِّي وَرَوَاحِي آمِناً بِجِوَارِ رَجُلٍ مِن أَهْلِ الشِرْكِ وأَصْحَابِي وأَهْلُ دِيْنِي يَلْقَوْنَ مِن الأَذَى والبَلاَءِ ما لا يُصيبُنِي لَنَقْصٌ كَبِيْرٌ في نَفْسِي .

فَمَشِىَ إلى الوَلِيدِ بنِ المغِيرَةِ فقال له يَا أَبَا عَبْدِ شَمْسٍ وَفَتْ ذِمَّتُكَ قَدْ رَدَدْتُ إليكَ جِوَارَكَ قالَ لِمَ يَا ابْنَ أَخِي لَعَلَّهُ آذَاكَ أَحَد مِن قَوْمِي قَالَ لاَ ولكِنِّي أَرْضَى بِجِوَارِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ ولا أُرِيْدُ أَنْ أَسْتَجِيْرَ بِغَيْرِهِ قال فانطلقْ إلى المَسجِدِ فارْدُدْ عَلَيَّ جِوَارِي عَلاَنِيَةً كَمَا أَجَرْتُكَ عَلاَنِيَةً .

قال فانْطَلَقَا ثم خَرَجَا حَتى أَتَيَا المسجِدَ فقال لَهُم الوَلِيْدُ هذا عُثْمانُ رَضْيَ اللهُ عَنْهُ قَدْ جَاءَ يَرُدُ عَلَيَّ جِوَارِي قَالَ لهُم قَدْ صَدَقَ قَدْ وَجَدْتُهُ وَفِياً كَرِيْمَ الجِوَارِ ولكِنِّيْ أَحبَبْتُ أَنْ لا أَسْتَجِيْرَ بِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ رَدَدْتُ عليهِ جِوَارَهُ .

ثم انْصَرَفَ عُثْمَانُ وَلَبِيْدُ بنُ رَبِيْعَةَ بنُ مَالِكِ بنُ كِلاَبٍ القَيْسِي في المَجْلِسِ مِن قُرَيْشٍ يُنْشِدُهُم فَجَلَسَ مَعَهُم عُثْمَانُ فَقَالَ لَبِيْدُ وَهُوَ يُنْشِدُهُم : الاَ كُلُّ شَيءٍ ماخَلاَ اللهَ بَاطِلُ .

فقال عُثْمَانُ صَدَقْتَ فَقَالَ : وكُلُ نَعِيْمٍ لاَ مَحَالَةَ زَائِلُ ، فقال عثمانُ كَذَبْتَ نَعِيْمُ الجَنَّةِ لا يَزُوْلُ قال لَبِيْدُ بنُ رَبِيعَةَ يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ وَاللهِ مَا كَانَ يُؤْذِي جَلِيْسُكُم فَمَتَى حَدَثَ فِيْكُم هَذَا فَقَالَ رَجُلٌ مِن القَوْمِ إِنَّ هَذَا سفِيْهٌ في سُفَهَاءٍ مَعَهُ قَدْ فَارَقُوا دِيْنَنَا فَلاَ تَجِدَنَّ في نَفْسِكَ مِن قَوْلِهِ فَرَدَّ عَلَيهِ عُثْمَانُ حَتَّى سَرَى ـ أَيْ عَظُمَ أَمْرُهُمَا فَقَامَ إليه ذَلِكَ الرَّجُلُ فَلَطَمَ عَيْنَهُ فَخَظَّرَهَا والْوَلِيْدُ ابنُ المُغِيْرَة قَرِيْبٌ يَرَى مَا بَلَغَ مِن عُثْمَانَ .

فَقَالَ أَمَا وَاللهِ يَا ابْنَ أَخِي إِنْ كَانَتْ عَيْنُكَ عَمَّا أَصَابَهَا لَغَنِيَّةٌ لَقَدْ كُنْتَ في ذِمَّةٍ مَنِيْعَةٍ فَقَالَ عُثمانُ بَلَى واللهِ إن عَيْنِيْ الصَحِيْحَةُ لَفَقِيْرَةٌ إلى مَا أَصَابَ أُخْتَهَا في اللهِ وإني لَفِيْ جِوَارِ مَنْ هُوَ أَعزُّ مِنْكَ وأَقدَرُ يَا أَبَا عَبْدِ شَمْسٍ وَقَالَ عُثْمانُ بنُ مظعون فِيْمَا أصِيْبَ مِن عَيْنِهِ :

فإنْ تَكُ عَيْنِي في رِضَى اللهِ نَالَهَا
يَدَا مُلْحِدٍ في الدِّيْنِ لَيْسَ بِمُهْتَدِ
فَقَدْ عَوَّضَ الرَّحْمَنُ مِنْهَا ثَوَابَهُ
وَمَن يُرْضِهِ الرحمنُ يا قَوْمُ يَسْعَدِ
فإنّي وَقَدْ قُلْتُمْ غَوِيٌ مُظَلَّلٌ
سَفِيْهٌ على دِيْنِ الرَّسُولِ مُحَمَّدِ
أُرِيْدُ بِذَاكَ الحَقَ والحَقُ دِيْنُنَا
على رَغْمِ مَن يَبْغِي عَلَيْنَا وَيَعْتَدِي

والله أعلم وصلى الله على محمد وآله وسلم .

(فصل)

أَخْرَجَ ابنُ سَعْدٍ عَن مُحَمَّدٍ العَبْدَرِي عن أَبِيْهِ قَالَ كَانَ مُصْعَبُ بنُ عُمَيْرٍ فتى مَكَةَ شَبَابًا وجَمالاً وكانَ أبَواهُ يُحِبَانِهِ وكانَتْ أُمَّهُ مَلِيْئَةً ـ أَيْ غَنِيَةً كَثِيْرَةَ المالِ ـ تَكْسُوهُ أَحْسَنَ مَا يَكُونُ مِن الثِيَابِ ، وأَرَقهُ ، وكَانَ أعْطَرَ أَهْلِ مَكَّةَ ، يَلْبَسُ الحَضْرَمِيَّ مِن النِعَالِ ، فَكَانَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ يَذْكُرُهُ ويَقُولُ ، ما رَأَيْتُ بِمَكَةَ أَحْسَنَ لِمَّةً ، ولاَ أَرَقَّ حُلَّةً ، ولا أنعَمَ نِعْمَةً مِن مُصْعَبِ بنِ عُمَيْرٍ .

فَبَلَغَهُ أن رسولَ اللهِ صلى اللهُ عَلَيْهِ وسلم يَدْعُو إلَى الإسلامِ في دَارِ أَرْقَمَ ، فَدَخَلَ عليه فأَسْلَمَ ، وصَدَّقَ بِهِ ، وَخَرَجَ فكَتَمَ اسْلاَمَهُ ، خَوْفاً مِن أُمِّهِ وَقَوْمِهِ ، فَكَانَ يَخْتَلِفُ إلى رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلم سِراً ، فَبَصَرَ به عُثْمَانُ بنُ طَلْحَةَ يُصَلِّي فأخْبَرَ أُمَّهُ وقَوْمَهُ ، فَأَخَذُوْهُ فَحَبَسُوهُ فَلَمْ يَزَلْ مَحْبُوْسَاً ، حتى خَرَجَ إلى أَرْضِ الحَبَشَةِ في الهِجْرَةِ الأُوْلَى ، ثم رَجَعَ مَعَ المسلمين حِيْنَ رَجَعُوا ، فَرَجَعَ مُتَغَيَّرَ الحالِ قَدْ حَرِجَ فَكَفَتْ أُمُّهُ عَنْهُ مِن العَذْلِ .

وأخرَجَ الطَّبراني والبَيْهَقِي عن عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنه قال نَظَرَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم إلى مُصْعَبِ بنِ عُمَيْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مُقْبِلاً عَلَيْهِ إهابُ كَبْشٍ ـ أَيْ جِلْدِ كَبْشٍ ـ (قد تَنَطَّقَ به)ـ أَيْ شَدَّهُ في وَسَطِهِ، فقال « أَنْظُرُوا إلى هذا الذي نَوَّرَ اللهُ قَلْبَهُ ولَقَدْ رَأَيْتُهُ بَيْنَ أَبَوَيْن يَغْذُوَانِهِ بِأَطْيَبِ الطَّعَامِ والشَّرابِ ، ولَقَدْ رَأَيْتُ عليه حُلَةً شَرَاهَا ـ أَوْ شُرِيَتْ ـ بِمَائَةِ دِرْهَمٍ فَدَعَاهُ حُبُّ اللهِ ورسولِهِ إلى مَا تَرَوْنَ .

وأخرج الترمذيُ وحَسَّنَهُ أَبُو يَعْلى وابنُ رَاهُوَيهْ عن علي رضي الله عنه ، قال خَرَجْتُ في غَداةٍ شاتِيَةٍ مِن بَيْتي جَائِعاً حَرصاً قَدْ أَذْلَقَنِي البَرْدُ ، فأخذْتُ إهَاباً مَعْطُوناً كانَ عِندَنا فَجَبَبْتُهُ .

ثم أَدْخَلْتُهُ في عُنُقِي ثم حَزَمْتُه عَلى صَدْرِي أَسْتَدْفِيء بِهِ ، فَوَاللهِ مَا فِي بَيْتِي شَيء آكلُ منه ، ولوَ كانَ في بَيْتِ النبي صلى الله عليه وسلم لَبَلَغَنِي ، فَخَرجْتُ في بَعْضِ نَواحِيَ المدِيْنةِ ، فاطَّلَعْتُ إلى يَهُوْدِي في حَائِطٍ مِن ثَغْرَةِ جِدَارِهِ ، فقالَ مَالَكَ يا أَعْرَابِي هَلْ لَكَ في كُلِّ دَلْوٍ بِتَمْرَةٍ ، فَقُلْتُ نَعَمْ فافْتَحْ الحَائِطَ فَفَتَحَ لِي فَدَخَلْتُ فَجَعَلْتُ أَنْزِعُ دَلْواً وَيُعْطِيْنِي تَمْرَةً حَتَّى امْتَلاءَتْ كَفِيْ ، قلْتُ حَسْبِي مِنْكَ الآنَ .

ثم جِئْتُ إلى النبي صلى اللهُ عليه وسلم فَجَلَسْتُ إليهِ في المَسْجِدِ ، وهو في عِصَابَةٍ مِن أَصْحَابِه فاطَّلَعَ عَلَينَا مِصْعَبُ ابنُ عُمَيْرٍ رَضِي اللهُ عنه في بُرْدَةٍ لهُ مَرْقُوعَةٍ ، فَلَمَّا رَآهُ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم ذَكَرَ مَا كَانَ فيهِ مِن النَّعِيْمِ ورَأى حَالَهُ الذي هوَ عَليها فَذَرَفَتْ عَيْنَاهُ ، فَبَكَى ثم قالَ كيفَ أَنْتُمْ إذا غَدَا أَحَدُكُمُ في حُلَّةٍ وراحَ في أُخْرَى ، وسُتِرَتْ بُيوتِكم كَمَا تُسْتَرُ الكَعْبَةُ قلنا نَحْنُ يومَئِذٍ خَيْرٌ نُكْفَى المؤنَةَ ، ونَتَفَرَّغُ لِلْعِبَادَةِ ، قال بل أَنْتُمُ اليومَ خَيرٌ مِنكمُ يَوْمَئِذٍ والله أعلم وصلى الله على محمد وآله وسلم .

(فصل)

قِصَّةُ عَبدِ اللهِ بنِ حُذَافَةَ السَّهْمِي قِصَّتُهُ مَعَ مَلِكِ الفُرْسِ مَشْهُورةُ وذَلكَ أنَّهَ في السنةِ السادسةِ مِن الهِجرةِ ، حِيْنَ عَزَمَ النبي صلى

الله عليه وسلم أن يَبْعَثَ بَعْضَ أصحابِهِ بكُتُبٍ إلى مُلُوكِ الأَعَاجِمِ ، يَدْعُوهُم إلى الاسلام .

ولقد كانَ صلى اللهُ عليه وسلمَ يُقَدِّرُ خُطُوْرَةَ هَذِهِ المُهِمَّةَ فَهؤُلآء الرُسُلُ سَيَذهَبُوْنَ إلى بِلادٍ نائِيةٍ لاَ عَهْدَ لَهُمْ بِهَا مِن قَبْلُ ، يَجْهَلونَ لُغَاتِهِم ولا يَعْرِفُونَ شَيْئاً عَن أخْلاَقِ مُلُوكِهِم ، ثم إنَّهُمْ سَيَدْعُوَنَ هَؤُلآءِ إلى تَرْكِ مَا عَلَيه آبَاؤُهُمْ والدُخُولِ في دِينِ الإسلامِ الذي هوضِدُ مَا هُمْ عليه مِن الإلْحَادِ والكُفْرِ .

إنَّها رِحْلَةٌ خَطِيْرَةٌ الذَاهِبُ إلَيْهَا مَفْقُودٌ ، والعَائِدُ مِنْهَا مَوْلُودٌ ، لِذَلِكَ جَمَع المصطفى صلى اللهُ عليه وسَلَّمَ أصْحَابَهُ وقَامَ فِيْهِم خَطِيْباً ، فَحَمَدَ اللهَ وأثْنىَ عليه ، وتَشَهَّدَ ثم قَالَ أمَّا بَعْدُ فإني أُرِيْدُ أَنْ أَبْعَثَ بَعْضَكُم إلى مُلُوكِ الأَعَاجِم ، فلا تَخْتَلِفُوا عَليَّ ، كَما اخْتَلَفَتْ بَنُوا اسْرائِيلَ عَلى عِيْسَى بنِ مَرْيَمَ .

فقالَ أَصْحَابُ رَسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم نَحْنُ يا رَسُولَ اللهِ نُؤَدِيْ عَنْكَ مَا تُرِيْدُ ، فابْعِثْنَا حَيْثُ شِئْتَ ، انْتَدَبَ صلى الله عليه وسلم سِتَّةً مِن الصَّحَابَةِ لِيَحْمِلُوا كُتُبَهُ إلى مُلُوكِ العَرَبِ والعَجَم ، وكان أحَدُ هَؤُلآء السِّتةِ ، عَبدُ اللهِ ابنُ حَذافةَ السَّهْمِي ، اختارَهُ لِحَمْلِ رِسَالَتِه إلى كِسْرَى مَلِكِ الفُرْسِ .

فَجَهَّزَ عَبدُ اللهِ رَاحِلَتَهُ وَوَدَّعَ أَهْلَهُ وَوَلَدَهُ ، ومَضَى إلى غَايَتِهُ تَرْفَعُه النِّجَادُ وتَحُطُهُ الوِهَادِ ، حَتى بَلَغَ دِيَارَ فَارِسَ ، فاسْتَأذَنَ بالدُخُولِ عَلَى مَلِكَهَا ، وأخْطَرَ أَعْوَانَ الملكِ بالرِّسَالَةِ التي يَحْمِلُهَا بانَّهَا ذاتُ اهْتِمَامٍ .

عِندَ ذَلِكَ أَمَرَ كِسْرَى بِإيْوَانِهِ فَزُيِّنَ ، ودَعَا عُظَمَاءَ فَارِسَ لِحُضُورِ مَجْلِسِه ، فَحَضَرُوا ، ثم أذنَ لِعَبْدِ اللهِ بنِ حُذَافَةَ بالدُّخُولِ ، فَدَخَلَ عَبدُ اللهِ بنُ حُذَافَةَ على سَيِّدِ فَارِسَ ، مُشْتَمِلاً شَمْلَتَهُ ، مُرْتَدِياً عَبَاءَتَهُ الصَّفِيْقَةَ ، عَليه بَسَاطَةُ الأَعْرَابِ .

لٰكِنَهَ عَالِي الهَامَةِ ، مَشْدُوْدَ القَامَةِ ، تَأَجَّجُ بَيْنَ جَوَانِحِه عِزَّةُ الإِسلامِ فَلَمَّا رَآهُ كِسْرَى مُقْبِلاً أشَارَ إلى أحدِ رِجَالِه بأنْ يأخُذَ منه الكتابَ .

فقال لَا : إنَّما أَمَرَنِي رَسُولُ الله صلى اللهُ عليه وسلم أَنْ أَدْفَعَهُ لكَ يَداً بِيَدٍ ، لا أخالفُ أَمْرَ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم فَقَالَ كِسْرَى لِرِجَالِهِ أتْرُكُوهُ يَدْنُو مِنِّي ، فَدَنَا مِن كِسْرَى ، فَنَاوَلَهُ كِتَابَ رسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم بِيَدِهِ .

ثم دَعَا كِسْرَى كَاتِباً عَرَبياً مِن أَهْلِ الحِيْرَة وأَمَرَهُ أَنْ يَفُضَّ الكتابَ بَينَ يَدَيْهِ ، وأنْ يَقْرَأ عَلَيه ، فاذا فيه « بِسْمِ اللهِ الرحمنِ الرحيم مِن مِحَمَّدٍ رسولِ الله إلى كِسْرَى عَظِيْمِ فَارِسَ ، سَلَامٌ ، على مَن اتبعَ الهُدَى » .

ولما سَمِعَ كِسْرَى هَذَا المِقْدَارَ مِن الرِّسَالَةِ اشْتَعَلَ غَضَبُهُ في صَدْرِهِ فاحْمَرَّ وَجهُهُ ، وانْتَفَخَتْ أَوْدَاجُهُ ، لِأَنَّ النبيَ صَلَى اللهُ عليه وسلم بَدَأَ بِنَفْسِهِ ، فَجَذَبَ الرِّسالَة من يَدِ كاتِبِهِ ، وجَعَل يُمَزِّقُهَا ، دُوْنَ أَنْ يَعْلَمَ ما فِيها ، ويَقُولُ أَيَكْتُبُ لِي بِهذا وهُوَ عَبْدِي .

ثم أَمَرَ بعَبْدِ اللهِ بنِ حُذَافَةَ أَنْ يُخْرَجَ مِن مَجْلِسِه ، فأُخْرِجَ مِن

المَجْلِس ، وهُوَ لا يَدْرِي مَاذَا يَكُونُ بعدَ ذلكَ ، لكنّهُ مَا لَبِثَ أنْ قَالَ واللهِ مَا أُبَالِي عَلى أيّ حَالٍ أكُون بَعْدَ أنْ أدّيْتُ كِتَابَ رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم ، ورَكِبَ رَاحِلَتَهُ وانْطَلَق .

ولما سَكَتَ غَضَبُ كِسْرَى ، أَمَرَ أَنْ يَرُدُّوْهُ إليه ، فالتَمَسُوْهُ فلم يَجدُوهُ ، فارْسَلوُا في أثرِهِ ، وطَلَبُوهُ في الطَّرِيقِ ، فَلَمْ يَجدُوْهُ ، فلمَّا قَدِمَ عَلى رسول اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم أَخْبَرَهُ بمَا كَانَ مِن أَمْرِ كِسْرَى ، وتَمْزِيْقِهِ الكتابَ ، فمَا زَادَ عليه الصلاةُ والسلامُ على أنْ قال « مَزَّقَ اللهُ مُلْكَهُ » .

أمَّا كِسْرَى فَكَتَبَ إلى باذَانَ نَائِبَهُ على اليمنِ ، أَنْ أبْعَثْ إلَى هَذَا الرجُلِ الذي ظَهَرَ بالحِجَازِ رَجُلَينِ جَلْدَيْنِ مِن عِنْدَكَ . ومُرْهُمَا أَنْ يَأتِيَانِ بِهِ ، فَبَعَثَ باذانُ رَجُلَينِ مِن خِيْرَةِ رِجَالِهِ إلى رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم ، وحَمَّلَهُمَا رِسَالَةً لَهُ يأمُرُهُمَا بأدَائِها لَهُ ، ويأمُرهُ فِيها بأنْ يَنْصَرِفَ مَعَهُمَا إلى لِقَاءِ كِسْرَى دُوْنَ إبْطَاءٍ .

وطَلَبَ إلى الرَّجُلَين أَنْ يَقِفَانِ على خَبَرِ النبي صلى اللهُ عليه وسلم أنْ يَسْتَقْصِيَا أَمْرَهُ ، وأنْ يَأتِيَاهُ بمَا يَقِفانِ عليه مِن أمْرِهِ مِنْ مَعْلُوماتٍ .

فَخَرَجَ الرَّجُلانِ حَتَّى بَلَغَا الطَّائِفَ ، فَوَجَدَا رِجَالاً تُجَّاراً مِن قُرَيْشٍ فَسَألاَهُم عنِ مُحمد عليه السلامُ ، فقالُوا هُوَ في يَثْرِبَ ، ثم مَضىٰ التُجَارُ إلى مَكةَ فَرَحِيْنَ مُسْتَبْشِرِيْنَ ، وجَعلوُا يُهَنُونَ قُرَيْشاً ، ويَقُولُونَ قُرُّوْا عَيْناً فإنَّ كِسْرَى تَصَدَّى لِمُحَمَّدٍ وَكَفَاكُمْ شَرَّهُ .

أَمَّا الرَّجُلانِ فَيَمَّمَا وَجْهَيْهِمَا شَطْرَ المَـدِيْنَةِ ، حَتَّى إذا وَصِلاَ إلَيْهَا ،

لَقِيا النَّبيَ صلى اللهُ عليه وسلم ودَفَعَا إليه رِسَالَةَ بَاذَانَ ، وقالاَ لَهُ إن مَلِكَ المُلُوكِ كِسْرَى كَتَبَ إلى مَلِكِنَا بَاذَانَ أنْ يَبْعَثَ إليكَ مَن يَأْتِيهِ بِكَ .

وقَدْ أَتَيْنَاكَ لِتَنْطَلِقَ مَعَنَا فإنْ أَجَبْتَنَا كَلَّمْنَا كِسْرَى بِمَا يَنْفَعُكَ ، ويَكُفَ أذاهُ عَنكَ ، وإنْ أَبَيْتَ فَهُو مَن قَدْ عَلِمْتَ سَطْوَتَهُ ، وبَطْشَهُ ، وقُدْرَتَهُ عَلى إهلاكِكَ ، واهْلاكِ قَوْمِكَ .

فَتَبَسَّمَ رسولُ اللهِ صَلى اللهُ عليه وسلم ، وقال لَهُمَا إرْجِعَا إلى رِحَالِكُمَا اليَوْمَ ، وأْتِيَا غداً ، فَلَمَّا غَدَوَا عَلَى النبي صلى اللهُ عليه وسلم في اليَوْمِ التَالِي ، أَخْبَرَهُمَا بأنَّ اللهَ قَتَلَ كِسْرَى حَيْثُ سَلَطَ علَيه ابنَهُ « شِيْرويْهِ » في ليلَةِ كَذا مِن شَهرِ كَذَا .

فَحدَّقَا في وَجْهِه وبَدَتْ الدَّهْشَةُ على وَجْهَيْهِمَا ، وقَالاَ أَتَدْرِيْ ما تَقُولُ أنَكْتُبُ بذَلَكَ لِبَاذَانَ ، قال نَعَمْ وقُولاَ لَهُ إنَّ دِيْنِي سَيَبْلُغُ ما وَصِلَ إليه مُلْكُ كِسْرَى ، وإنَّكَ إنْ أسْلَمْتَ ، أَعْطَيْتُكَ ما تَحْتَ يَدَيْكَ ، وَمَلَكْتُكَ عَلى قَوْمِكَ وخَرَجَ الرَّجُلانِ مِن عندِ الرسولِ صَلواتُ اللهِ وسلامه عَليهِ وقَدِمَا عَلى بَاذانَ وأَخْبَرَاهُ الخَبَرَ .

فقال لَئِنْ كَانَ مَا قَالَهُ مُحمدٌ حَقاً فَهُو نَبيٌ وإنْ لَم يَكُنْ كَذلِكَ فَسَنَرَى فِيه رَأياً فلَمْ يَلْبَثْ أنْ قَدِمَ عَلى بَاذانَ كِتَابُ شِيْرويْهِ .

وفيه يَقُولُ أَمَّا بَعْدُ فَقَد قَتَلْتُ كِسْرَى ولَمْ أَقْتُلْهُ إلا انْتِقَاماً لِقَومِنَا فَقَدْ اسْتَحَلَّ قَتْلَ أَشْرَافِهم وسَبي نِسَائِهَمُ وانْتَهَبَ أمْوَالَهمُ فاذَا جَاءَكَ كِتابِي هَذا فخذْ لِيْ الطاعةَ مِمَّنْ عِندَكَ .

فلَمَّا قَرَأَ بَاذَانُ الْكِتَابَ كِتَابَ شَيْرَوِيْهِ طَرَحَهُ جَانِباً وَأَعْلَنَ دُخُوْلَهُ في الاسْلَامِ وَأَسْلَمَ مَنْ كَانَ مَعَهُ مِنْ الفُرْسِ باليَمَنِ انْتَهى .

اللهُمَّ هَبْ لَنَا مَا وَهَبْتَهُ لِعَبَادِكَ الاخْيَارِ وَانْظُمْنَا في سِلْكِ المُقَرَّبِيْنَ والابْرَارِ وآتِنَا في الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفي الآخِرَةِ حَسَنةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ وَاغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا ولِجَمِيعِ المُسْلِمِيْنَ بِرَحْمتِكَ يا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وصَلى اللهُ عَلى مُحمدٍ وعَلَى آلِهِ وَصَحْبِه أَجْمَعِيْنَ .

(فَصْلٌ)

عَبْدُ اللَّهِ بْنُ حُذَافَةَ وَقِصَّتُهُ مَعَ مَلِكِ الرُّوْمِ

أَخْرَجَ الْبَيْهَقِيُّ وَابْنُ عَسَاكِرَ عَنْ أَبِيْ رَافِعٍ قَال وَجَّهَ عُمَرُ ابْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ جَيْشاً إلى الرُّوْمِ وَفِيْهِمْ رَجُلٌ يُقالُ لَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ حُذَافَةَ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم ، فَأَسَرَهُ الرُّوْمُ فَذَهَبُوا بِهِ إلى مَلِكِهِمْ فَقَالُوْا لَهُ إنَّ هَذَا مِنْ أَصْحَابِ مُحَمّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ فَقَالَ لَهُ الطَّاغِيَةُ هَلْ لَكَ أَنْ تَنصَّرَ وأُشْرِكُكَ في مُلْكِيْ وَسُلْطَانِيْ .

فَقَالَ لَهُ عَبْدُ اللَّهِ لَوْ أَعْطَيْتَنِيْ مَا تَمْلِكُ وَجَمِيْعَ مَا مَلَكَتْهُ الْعَرَبُ عَلَى أَنْ أَرْجِعَ عَنْ دِيْنِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمْ طَرْفَةَ عَيْنٍ مَا فَعَلْتُ ، قَالَ إذاً أَقْتُلُكَ قَال أَنْتَ وَذاكَ ، فَأَمَرَ بِهِ فَصُلِبَ ، وَقَالَ لِلرُّمَاةِ أرمُوهُ قَرِيْباً مِنْ بَدَنِهِ قرِيْباً ، مِن رِجْلَيْهِ ، وَهُوَ يَعْرِضُ عَلَيْهِ وَهُوَ يَأْبَى .

ثُمَّ أمَرَ بِهِ فَأُنْزِلَ ثُمَّ دَعَا بِقِدْرٍ فَصُبَّ فِيْهِ حَتَّى احْتَرَقَ ، ثُمَّ دَعَا بأَسِيْرَين مِنْ المُسْلِمِينْ فَأَمَرَ بِأَحَدِهِمَا فَأُلْقِيَ فِيْهَا ،وَهُوَ يَعْرِضُ عَلَيْهِ النَّصْرَانِيَّةَ ، وَهُوَ يَأْبَى ثُمَّ أَمَرَ بِهِ أَنْ يُلْقَي فِيْهَا ، فَلَمَّا ذُهِبَ بِهِ بَكَى ،

فَقِيْلَ لَهُ إنَّهُ قَدْ بَكى فَظَنَّ أَنَّهُ جَزِعَ ، فَقَالَ رُدُّوْهُ فَعَرَضَ عَلَيْهِ النَّصْرَانِيَّةَ فَأَبَى فَقَالَ مَا أَبْكَاكَ إذاً .

قَالَ أَبْكَانِيْ أَنِّيْ قُلْتُ فِي نَفْسِيْ تُلْقَى السَّاعَةَ فِي هَذَا الْقِدْرِ فَتَذْهَبَ فَكُنْتُ أَشْتَهِيَ أَنْ يَكُونَ بِعَدَدِ كُلِّ شَعْرَةٍ فِي جَسدِيْ نَفْسٌ تُلْقَى فِي اللَّهِ قَالَ لَهُ الطَّاغِيَةُ هَلْ لَكَ أَنْ تُقَبِّلَ رَأْسِيْ وَأُخَلِّيَ مِنْكَ ، قَالَ لَهُ عَبْدُ اللَّهِ وَعَنْ جَمِيْعِ أُسَارَى الْمُسْلِمِيْنَ ، قَالَ وعَنْ جَمِيْعِ أُسارَى الْمُسْلِمِيْنَ .

قَالَ عَبْدُ اللَّهِ فَقُلْتُ فِيْ نَفْسِي عَدُوٌّ مِنْ أَعْدَاء اللَّهِ ، أُقَبِّلُ رَأْسَهُ يُخَلِّي عَنّي وَعَنْ أُسَارَى الْمُسْلِمِيْنَ ، لا أُبالِيْ فَدَنَا مِنْهُ فَقَبَّلَ رَأْسَهُ ، فَدَفَعَ إلَيْهِ الأُسَارَى ، فَقَدِمَ بِهِمْ عَلَى عُمَرُ فَأَخْبَرَهُ ، فَقَالَ عُمَرُ حَقٌّ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ أَنْ يُقَبِّلَ رَأْسَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حُذَافَةَ ، وأَنَا أَبْدَأ فَقَامَ عُمَرُ فَقَبَّلَ رَأْسَهُ .

شعرا :

أَسِيْرُ الْخَطَايَا عِنْدَ بَابِكَ يَقْرَعُ
يَخَافُ وَيَرْجُو الفَضْلَ فَالْفَضْلُ أَوْسَعُ
مُقِرٌّ بِأَثْقَالِ الذُّنُوْبِ وَمُكْثِرٌ
وَيَرْجُوكَ فِي غُفْرانِهَا فَهْوَ يَطْمَعُ
فَإنَّكَ ذُوْ الإِحْسَانِ وَالْجُوْدِ وَالْعَطَا
لَكَ الْمَجْدُ وَالإِفْضَالُ وَالْمَنُّ أَجْمَعُ
فَكُمْ مِنْ قَبِيْحٍ قَدْ سَتَرْتَ عَنِ الْوَرَى
وَكَمْ نِعَمٌ تَتْرَى عَلَيْنَا وَتَتْبَعُ

وَمَنْ ذَا الَّذِيْ يُرْجَى سِواكَ وَيُتَّقَى
وَأَنْتَ إِلَـهُ الْخَلْقِ مَا شِئْتَ تَصْنَعُ
فَيَا مَنْ هُوَ الْقُدُّوْسُ لَا رَبَّ غَيْرَهُ
تَبَارَكْتَ أَنْتَ اللَّهُ لِلْخَلْقِ مَرْجِعُ
وَيَا مَنْ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوى فَوْقَ خَلْقِهِ
تَبَارَكْتَ تُعْطِي مَنْ تَشَاءُ وتَمْنَعُ
بِأَسْمَائِكَ الْحُسْنَى وَأَوْصَافِكَ الْعُلَى
تَوَسَّلَ عَبْدٌ بَائِسٌ يَتَضَرَّعُ
أَعِنِّيْ على المَوْتِ الْمَرِيْرَةِ كَأْسُهُ
إِذا الرُّوْحُ مِنْ بَيْنِ الْجَوانِحِ تُنْزَعُ
وَكُنْ مُؤْنِسِي في ظُلْمَةِ الْقَبْرِ عِنْدَمَا
يُرَكَّمُ مَنْ فَوْقِيْ التُّرَابُ وَأُوْدَعُ
وَثَبِّتْ جَنَانِيْ لِلسُّؤَالِ وَحُجَّتِيْ
إِذَا قِيْلَ مَنْ رَبٌّ وَمَنْ كُنْتَ تَتْبَعُ
وَمِنْ هَوْلِ يَوْمِ الحَشْرِ وَالْكَرْبِ نَجِّنِيْ
إِذَا الرُّسْلُ وَالأَمْلَاكُ وَالنَّاسُ خُشَّعُ
وَيَا سَيِّدِيْ لَا تُحزِنِيْ فِي صَحِيْفَتِيْ
إِذَا الصَّحْفُ بَيْنَ الْعَالَمِيْنْ تُوَزَّعُ
وَهَبْ لِيْ كِتَابِي بِالْيَمِيْنِ وَثَقِّلَنْ
لِمِيْزَانِ عَبْدٍ فِي رَجَائِكَ يَطْمَعُ
وَيَارَبِّ خَلِّصْنِيْ مِنَ النَّارِ إِنَّهَا
لَبِئْسَ مَقَرٌّ لِلْغُوَاةِ وَمَرْجِعُ

أَجِرْنِيْ أَجِرْنِيْ يَا إِلَهِيْ فَلَيْسَ لِيْ
سَوَاكَ مَفَرٌّ أَوْ مَلَاذٌ وَمَفْزَعُ
وَهَبْ لِيْ شِفَاءً مِنْكَ رَبِّي وَسَيِّدِيْ
فَمَنْ ذَا الَّذِيْ لِلضُّرِّ غَيْرُكَ يَدْفَعُ
فَأَنْتَ الَّذِيْ تُرْجَى لِكَشْفِ مُلَمَّةٍ
وَتَسْمَعُ مُضْطَرًّا لِبَابِكَ يَقْرَعُ
فَقَدْ أَعْيَتِ الْأَسْبَابُ وَانْقَطَعَ الرَّجَا
سِوَى مِنْكَ يَا مَنْ لِلْخَلَائِقِ مَفْزَعُ
إِلَيْكَ إِلَهِي قَدْ رَفَعْتُ شِكَايَتِيْ
وَأَنْتَ بِمَا أَلْقَاهُ تَدْرِي وَتَسْمَعُ
فَفَرِّجْ لَنَا خَطْباً عَظِيْماً وَمُعْضِلًا
وَكَرْباً يَكَادُ الْقَلْبُ مِنْهُ يُصَدَّعُ
وَمَاذَا عَلَى رَبِّي عَزِيْزٌ وَفَضْلُهُ
عَلَيْنَا مَدَى الْأَنْفَاسِ يَهْمِي وَيَهْمَعُ
فَكَمْ مِنَحٍ أَعْطَى وَكَمْ مِحَنٍ كَفَى
لَهُ الْحَمْدُ وَالشُّكْرَانُ وَالْمَنُّ أَجْمَعُ
وَأَزْكَى صَلَاةِ اللَّهِ ثُمَّ سَلَامُهُ
عَلَى الْمُصْطَفَى مَنْ فِي الْقِيَامَةِ يَشْفَعُ

اللَّهُمَّ وَفِّقْنَا لِصَالِحِ الْأَعْمَالِ وآتِنا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وفِيْ الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ وَاغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدِيْنَا ولِجَمِيْعِ الْمُسْلِمِينَ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلى آلِهِ وصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

(فَصْلٌ)

« سَعِيْدُ بْنُ عَامِرٍ الْجُمَحِيُّ وخُبَيْبٌ »

خُبَيْبٌ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ أَحَدُ الْمُعَذَّبِيْنَ فِي اللَّهِ الثَّابِتِيْنَ عَلَى الْأَيْمَانِ بِاللهِ ثُبُوتَ الْجِبَالِ الرَّاسِيَاتِ وَمِمَّنْ حَضَرَهُ يَوْمَ قَتْلِهِ رَضِيَ اللهُ عَنهُ سَعِيْدُ بنُ عَامِرٍ الجُمَحِيُّ خَرَجَ إِلَى التَّنْعِيْمِ فِيْ ظَاهِرَةِ مَكَّة بِدَعْوَةٍ مِنْ زُعَمَاءِ قُرَيْشٍ لِيَشْهَدَ مَعَهُمْ مَصْرَعَ خُبَيْبِ بْنِ عَدِيٍّ أَحَدِ صَحَابَةِ مُحَمَّدٍ بَعْدَ أَنْ ظَفِرَ بِهِ الأَعْدَاءُ الْمُشْرِكُونَ غَدْراً .

وَقَدْ أَقْدَرَهُ اللَّهُ أَنْ يَتَمَكَّنَ مِنْ رُؤْيَةِ أَسِيْرِ قُرَيْشٍ مُكَبَّلاً بِقُيُودِهِ يُسَاقُ إِلَى الْمَوْتِ ، فَوَقَفَ سَعِيْدُ يُطِلُّ عَلَى خُبَيْبٍ وَهُوَ يُقَدَّمُ إِلَى خَشَبَةِ الصَّلْبِ وَسَمِعَ صَوْتَ خُبَيْبٍ الثَّابِتُ الهَادِئُ يَقُولُ إِنْ شِئْتُمْ أَنْ تَتْرُكُونِي أُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ قَبْلَ مَصْرَعِيْ فَافْعَلُوا .

ثُمَّ نَظَرَ سَعِيْدُ إِلَيْهِ وَهُوَ يَسْتَقْبِلُ الْقِبْلَةَ وَيُصَلِّي رَكْعَتَيْن يَا لِحُسْنِهِمَا وَيَا لِتَمَامِهِمَا وَسَمِعَهُ وَهُوَ يَقُولُ لَوْلاَ أَنْ تَظُنُّوا أَنِّي أَطَلْتُ الصَّلاَةَ جَزَعاً مِنَ الْمَوْتِ لاَ اسْتَكْثَرْتُ مِنَ الصَّلاَةِ .

ثُمَّ رَأَى الْمُشْرِكِيْنَ وَهُمْ يُمَثِّلُوْنَ بِخُبَيْبٍ حَيّاً وَيُقْطَعُوْنَ مِنْهُ الْقِطْعَةُ تِلْوَ الْقِطْعَةِ وَيَقُولُوْنَ لَهُ أَتُحِبّ أَنْ يَكُوْنَ مُحَمَّدٌ مَكَانَكَ وَأَنْتَ نَاجٍ ، فَيَقُوْلُ وَالدِّمَاءُ تَنْزِفُ مِنْهُ والرُّوْحُ تَتَسَلَّلُ مِنْ بَدَنِهِ ، وَاللَّهِ مَا أُحِبُّ أَنْ أَكُوْنَ آمِناً وَادِعاً فِي أَهْلِي وَوَلَدِيْ وَأَنَّ مُحَمَّداً يُوخَزُ بِشَوْكَةٍ .

ثُمَّ أَبْصَرَ سَعِيْدُ بْنُ عَامِرَ خُبَيْباً وَهُوَ يَرْفَعُ بَصَرَهُ إِلَى السَّمَاءِ مِنْ فَوْقِ

خَشَبَةِ الصَّلْبِ وَهُوَ يَقُوْلُ اللَّهُمَّ احْصِهِمْ عَدَدَاً وَاقْتُلْهُمْ بَدَدَاً وَلاَ تُبْقِي مِنْهُمْ أَحَدَاً ثُمَّ خَرَجَ رُوْحُهُ الطَّيِّبَةُ وَبِهِ الشَّيْءُ الْكَثِيْرُ مِنْ ضَرَبَاتِ السُّيُوفِ وَطَعَنَاتِ الرِّمَاحِ .

ثُمَّ إِنَّ سَعِيْدَاً أَخَذَ دَرْسَا ، فَعَلِمَ إِنَّ الْحَيَاةَ الْحَقَّةَ عَقِيْدَةٌ ، وَجِهَادٌ فِيْ سَبِيْلِ اللَّهِ حَتَّى الْمَوْتِ ، وَعَلِمَ أَنَّ الأَيْمَانَ الثَّابِتَ لاَ يُزَلْزِلُهُ شَيْءٌ البتَّةَ .

وَعَلِمَ أَنَّ الرَّجُلَ الَّذِيْ تَبْلُغُ مَحَبَّتُهُ وَالذَّبُّ عَنْهُ إِلَى هَذَا الْحَدِّ إِنَّمَا هُوَ رَسُولٌ مُؤَيَّدٌ مِنَ السَّمَاءِ ، عِنْدَ ذَلِكَ شَرَحَ الله صَدْرَ سَعِيْدِ بْنِ عَامِرٍ لِلإِسْلاَمِ ،فَقَامَ فِي مَجْمَعٍ مِنَ النَّاسِ وَأَعْلَنَ بَرَاءَتَهُ مِمَّا عَلَيْهِ الْمُشْرِكُوْنَ مِنْ عِبَادَةِ الأَصْنَامِ ، وَهَاجَرَ سَعِيْدُ ابْنُ عامِرٍ إِلَى الْمَدِيْنَةِ ، وَلَزِمَ رَسُوْلَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ وَشَهِدَ مَعَهُ خَيْبَرَ ، وَمَا بَعْدَهَا مِنَ الْغَزَوَاتِ .

وَلَمَّا تُوُفِّيَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ظَلَّ سَيْفاً ، مَسْلُوْلاً فِيْ يَدَيْ خَلِيْفَتَيْ رَسُوْلُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَبِيْ بَكْرٍ وَعُمَرَ وَكَانَا يَعْرِفَانِ لَهُ صِدْقَهُ وَتَقْوَاهُ .

وَلَمَّا آلَتِ الْخِلاَفَةُ إِلَى عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَتَاهُ سَعِيْدُ فَقَالَ لَهُ ، يَا عُمَرُ أُوْصِيْكَ أَنْ تَخْشَى اللهَ فِي النَّاسِ ، وَلاَ تَخْشَى النَّاسِ فِيْ اللَّهِ ، وَأَنْ لاَ يُخَالِفَ قَوْلُكَ فِعْلَكَ ، فَإِنَّ خَيْرَ الْقَوْلِ مَا صَدَّقَهُ الْفِعْلُ .

يَا عُمَرُ أَقِمْ وَجْهَكَ لِمَنْ وَلاَّكَ اللَّهُ أَمْرَهُ مِنْ بَعِيْدِ الْمُسْلِمِيْنَ وَقَرِيْبِهِمْ وَأَحَبَّ لَهُمْ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ وَأَهْلِ بَيْتِكَ ، وأَكْرَهْ لَهُمْ مَا تَكْرَهُ لِنَفْسِكَ وَأَهْلِ بَيْتِكَ ، وَخُضْ الْغَمَرَاتِ إِلى الْحَقِّ وَلاَ تَخَفْ فِي اللَّهِ لَوْمَةَ لاَئِمٍ .

فقالَ عمرُ ، وَمَنْ يَسْتَطِيْعُ ذلكَ يا سَعِيْدُ ، فقالَ يَسْتَطِيْعُهُ مِثْلُكَ مِمْنِ وَلَّاهُم اللهُ أمْرَ أمةِ محمّدٍ ، ولَيْسَ بينَهُ وبينَ اللهِ أحَدٌ ، عِندَ ذلِكَ دَعَا عُمَرُ سَعِيداً إلى مُسَاعَدَتِهِ فقالَ له إنا مُوَلُوكَ حِمْصَ .

فقالَ يا عُمَرُ نَشَـدْتُكَ اللهَ أَنْ لَا تَفْتِنِيْ فَغَضِبَ عُمَرُ وقالَ وَيْحَكُمْ وَضَعتُمْ هذا الأَمْرَ في عُنُقِي ثم تَخَلَيْتُمْ عَنِي ، واللهِ لا أدَعُكَ ثم ألزَمَهُ بِحِمْص وقالَ أَلَانَفْرِضُ لَكَ رِزقا قالَ وما أفْعَلُ بهِ يا أميرَ المؤمنينَ فإن عَطائِي مِنْ بَيْتِ المالِ يَزِيْدُ عنْ حَاجَتِي .

ثم مَضَى وَالِياً على حِمْص وما مَضَى إلا زَمَن يَسِيرٌ حَتَى جاءَ بعضُ أهلِ حِمْص إلى عُمَرُ فقال اكتُبُوا أسْماءَ الفُقَراءِ عِنْدَكُم بحِمْص حتى أسُدَّ حاجَتَهم ، فَرَفعوا لهُ كِتَابا فيه بعضُ الفقراءِ الموجودِين بِحِمْص ومن جملةِ الفقراءِ المكتُوبِين ، سَعِيْدٌ بنُ عامِرٍ الجُمَحِي .

فقالَ عُمَرُ مَنْ سَعِيْدُ بنُ عامِرٍ ، فقالُوا أَمِيْرُنَا قالَ أَمِيرُكُم فَقِيرُ ، قالوا نَعَمَ ، واللهِ إنه لَيَمُرُ عَلَيْهِ الأيَّامُ الطِّوَالُ ، ولا يوقد في بيته نارٌ ، فبكى عمر رضي الله عنه بكاءً شديداً ، حتى بَلَّتْ دُمُوْعُهُ لِحْيَتَهُ .

ثمَّ عَمَدَ إلى ألفِ دِينَارٍ فَجعَلَهَا في صُرَّةٍ وقالَ اقرؤُا عليـهِ السَلام وقُولُوا لهُ يَسْتَعِيْنُ بِهَذَا عَلَى قَضَاءِ حَوَائِجِهِ فَجَاؤُهُ بِهَا فلما نَظَرَ إلَيْهَا وأخْبَرُوهُ ، جَعَلَ يُبْعِدُهَا عَنْهُ ، ويَسْتَرْجِعُ .

فَجاءَتِ زَوْجَتُهُ وقالَتْ لَهُ ما شأنَك ، أَمَاتَ أميرُ المُؤمنينَ ، قَالَ بلْ أعظَمَ مِنْ ذَلِكَ ، قالتْ وما ذَاكَ ، قَالَ دَخلَتْ عليَّ الدنيا لِتُفْسِدَ آخِرَتِي وَحَلَّتِ الفِتْنَةُ في بَيْتِي ، قَالَتْ تَخَلَّصْ مِنها ، قال هَلْ تُعَـينِيْنِي على

ذَلِكَ ، قَالَتْ نَعَمْ فَوَزِّعَهَا على فُقَرَاءِ المسلمينَ .

ثم لَمْ يَمْضِ إلا مُدَّةً يَسِيْرَةً حَتَّى أتَى عُمَرُ إلى حِمْص يَتَفَقَّدُهَا ويَسْأَلُ عن أميرِهِمْ وسِيرَتِهِ مَعَهُم ، وهَلْ نَقِمُوْا عليه بَشَيء ، فَذَكَرُوا أَرْبَعُ مَسَائِلَ .

أَحَدُها قالوا إنَّهُ لا يَخْرجُ إلينا حَتَّى يَتَعَالَى النهارُ ، فسأل عُمَرُ سعيداً لِمَاذا فَقَالَ إني أكرَهُ أن أقولَ ذلكَ ، ولكن حَيْثُ أَنَّهُ لا بُدَّ مِن تَوْضِيحِهِ ، فإنَّهُ ليسَ لأَهْلِي خادِمٌ فأَقُومُ الصبحَ فأعْجِنُ لَهُم عَجِيْنَهُم ، ثُمَّ أنتظرُهُ يَخْتَمِرُ ، ثمَّ أَقُومُ فأخْبِزُهُ لهم ، ثم أتَوَضَّأ وأخرُجُ إليهم .

وأما الثانيةُ فقالوا إنه لا يُجِيْبُ أَحداً بالليل ، فَسَأَلَهُ عُمَرُ عن ذلك فقال إني أَكْرَهُ أنْ أذكُرَهُ ، ولكن لِمَا أَنَّهُ لا بُدَّ مِن ذلكَ فإني قد جَعَلْتُ النهارَ لهم ، ولِرَبّي عَزَّ وجَلَّ الليلَ .

قال عمرُ وما هي الثالثةُ قالوا إنه لا يَخْرُجُ يوماً مِن كُلِ شَهْرٍ ، فسأله فقال إنهُ لَيْسَ لِي خادِمٌ ، وليس عِندي ثِيَابٌ غَيْرَ التي عليَّ فأنا أَغْسِلُهَا في الشهر مَرَّةً ، وأنتظِرُهَا حتى تَجِفَّ ، ثم أخرجُ إليهم آخِرَ النهار .

وأما الرابعةُ فقالوا إنه تُصِيْبُهُ غَشْيَةٌ في بَعْضِ الأَوْقَاتِ فَيَغِيْبُ عَمَّنْ في المجلِسِ ، فَسَأَلَهُ عمرُ عَنْهَا فقال إني حَضَرْتُ مَصْرَعَ خُبَيْبِ بن عَدِيَ ، وأنا مُشْرِكٌ وَرَأَيْتُ قُرَيشاً تُقَطِعُ جَسَدَهُ وهيَ تَقُولُ أَتُحِبُ أن يكونَ مكانَكَ مُحَمَّدَاً ، فقال واللهُ ما أُحِبُ أن أكونَ آمِناً وأهلي وَوَلَدِي وأنَّ مُحَمَّدَاً تَشُوْكُهُ شَوْكَةٌ .

فإذا ذَكَرتُ ذلكَ المَشْهَدَ وأني لَم أَنْصُرْهُ ظَنَنْتُ أَنَّ اللهَ لا يَغْفِرُ لِي فَتُصِيْبُنِيْ تِلْكَ الغَشْيَةُ ، ثم بَعَثَ لَهُ عُمُرْ بألفِ دِينارٍ يَسْتَعِينُ بها على حَوَائِجِه ، فَلَمَّا عَلِمَتْ زَوْجَتُهُ قالَتْ الحمدُ لِلهِ الذي أغنانا عَن خِدْمَتِكَ اَشْتَرْ لنا مَؤُنَةً واستأجِرْ لنا خَادِمَاً فقالَ لَهَا وَهَلْ لكَ فِيْمَا هُوَ خَيْرٌ مِن ذَلِكَ قَالَتْ وَمَا ذَاكَ قال نَدْفَعُهَا إلى مَنْ يَأْتِيْنَا بِهَا وَنَحْنُ أحوجَ مَا نَكُونُ إليها قالَتْ وَمَا ذَاكَ قال نُقْرِضُهَا اللهَ قَرْضَاً حَسَنَاً قالَتْ نَعَمْ وَجُزِيْتَ خَيْرَاً فَمَا قَامَ مِن مَجْلِسِهِ حَتَّى وَزَّعَهَا عَلَى الأَيْتَامِ والأَرَامِلِ والمَسَاكِين فَرَضِيَ اللهُ عنه وأرضَاهُ لَقَدْ كَانَ مِن الذِينَ يُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أ هـ باختصار .

شعرا :

وما الناسُ إلَّا رَاحِلُونَ وَبَيْنَهُمْ
رِجَالٌ ثَوَتْ آثارُهُم كالمَعَالِمِ
بِعِزَّةِ بَأْسٍ واطِّلَاعٍ بَصِيْرَةٍ
وَهَزَّةِ نَفْسٍ واتِّساعِ مَرَاحِمِ
حُظُوظُ كَمَالٍ أَظْهَرَتْ مِن عَجَائِبٍ
بِمِرْآتِ شَخْصٍ مَا اخْتَقَى في العَوَالِمِ
وما يَسْتَطِيْعُ المَرءُ يَخْتَصُّ نَفْسَهُ
أَلَا إنَّما التَّخْصِيْصُ قِسْمَةُ رَاحِمِ
وَمَنْ عَرَفَ الدُّنْيَا تَيَقَّنَ أَنَّهَا
مَطِيَّةُ يَقْظَانٍ وَطَيْفَةُ حَالِمِ
فللهِ سَاعٍ في مَنَاهِجِ طَاعَةٍ
لإِيْلَافِ عَدْلٍ أو لإِتْلَافِ ظَالِمِ

اللهم طَهِّرْ قُلُوبَنَا مِن النِّفَاقِ وأخلصْ عَمَلَنَا مِن الرِياءومَكْسَبَنَا مِنَ الرِبَا ونَوِّرْ قلُوبَنَا بِنُورِ الإيمانِ وَثَبِّتْهَا على طَاعَتِكَ واغفر لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين يا أرحم الراحمين وصلى اللهُ على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

* * *

قصة

لِلْبَراءِ بْنِ مَالِكٍ الأَنْصَارِي

للبَرَاءُ بنُ مالك الأنصاري أَخُو أنَسِ بنِ مالكٍ خادِمِ رسولِ الله صلى اللهُ عليه وسلم كان البَراءُ شِجَاعَاً قَتَلَ مَائةً مِنَ المشركينَ مُبَارَزَةً وهو وَحْدَهُ غَيْرَ الذين قَتَلَهُمْ في غِمَارِ المَعَارِكِ مَعَ المحاربين .

وَبَعْدَ أن التَحَقَ النبيُ صلى اللهُ عليه وسلام بالرَّفِيقِ الأَعْلَى إرْتَدّ قَبَائلُ مِن العربِ وخَرَجُوا مِن الاسلامِ ، ولم يَبْقَ الاَّ أهْلُ مكةَ والمدينةَ ، وجماعاتٍ مُتَفَرِّقَة هُنا وهُناكَ ، مِمَّنْ ثَبَّتَ اللهُ قُلُوبَهُم على الإيمان .

وَصَمَدَ الصّدِيْقُ رضيَ اللهُ عنهُ لِهَذِهِ الفِتْنَةِ المُدَمِّرَةِ العَمْيَاءِ صُمُودَ الجِبَالِ الرَّاسِيَاتِ ، وَجَهَّزَ مِنَ المُهَاجِرِيْنَ والأَنْصَارِ أَحَدَ عَشَرَ جَيْشاً .

وَعَقَدَ لِقَادَةِ هذِهِ الجُيُوشِ أحدَ عَشَرَ لِوَاءَ ، وَدَفَعَ بِهِمْ في أَرْجَاءِ جَزِيْرَةِ العَرَبِ لِيُعِيدُوا المُرْتَدِيْنَ إلى سَبِيْلِ الهُدَى والحَقِ .

وكانَ أَقوَى المُرْتَدين بأْساً وأَكْثَرُهُم عَدَداً بَنُوا حَنِيفَةَ ، أَصحابُ مُسَيْلَمَةِ الكذَّابِ فقد اجتَمَعَ مَعَ مُسَيْلَمَةَ مِن قَومِهِ وحُلَفَائِهِ أربَعُونَ ألفاً

وكانَ أكثرُهُم قَدْ اتَّبَعُوا مُسيلمَةَ عَصَبِيَةً لا إيماناً بِهِ .

فَلِذَلِكَ صَرَّحَ بَعْضُهُمْ وقالَ أشْهَدُ أنَّ مُسَيْلَمَةَ كَذَّابٌ وَمُحَمَّدَاً صَادِقٌ لكنْ كَذَّابَ رَبيعَة أحَبُ إلينا مِنَ صَادِقِ مُضَرَ : قَدَّرَ اللهُ أنَّ جَيْشَ مُسَيْلَمَةَ يَهْزِمُ أَوَلَّ جَيْشٍ خَرَجَ إلَيْهِ مِنْ جُيُوشِ المسلمين بِقِيَادَةِ عِكرِمَةَ بنِ أبي جَهْل .

فَأَرْسَلَ الصديقُ رضيَ اللهُ عنهُ جَيْشَاً ثانياً بِقِيَادَةِ خالِدِ ابنِ الوَلِيدِ حَشَدَ فيهِ وُجُوهَ الصَّحَابَةِ مِن المهاجِرينَ والأنصار .

وكانَ في طَلِيْعَةِ هَؤُلَاءِ وهَؤُلاَءِ البَرَاءُ بنِ مَالِكِ الأَنْصَارِي وَنَفَرٌ مِن كُمَاةِ المسلمين ، والتَقَا الجَيْشَانِ في أَرْضِ اليَمَامَةِ ، فما هُوَ إلاّ أَنْ رَجَحَتْ كِفَةُ مُسَيْلَمَةَ وأَصْحَابِهِ وَزُلْزِلَتِ الأَرْضُ تَحْتَ أقْدَامِ المُسْلِمِيْنَ وَطَفِقُوا يَتَرَاجَعُونَ عن مَوَاقِفِهِمْ حَتَّى اقْتَحَمَ قَوْمُ مُسيلَمَةَ وَمَنْ مَعَهُمْ فُسْطَاطَ خالدِ بنِ الوليدِ واقْتَلَعُوهُ مِنْ أُصُولِهِ .

عِندَ ذلِكَ شَعُرَ المُسْلِمُونَ بالخَطَرِ الدَّاهِمِ وأَدْرَكُوا أَنَّهُمْ إنْ يُهْزَمُوْا أَمامَ مُسَيْلَمَةَ فَلَنْ تَقُومَ للإسلامِ قائِمَةٌ ، وهَبَّ خالِدٌ إلى جَيْشِهِ فَأَعَادَ تَنْظِيْمَهُ فَمَيَّزَ المهاجِرِيْنَ عن الأنصارِ ، وَمَيَّزَ أَبْنَاءِ البَوَادِي عَنْ هَؤُلَاءِ وهـؤُلَاءِ ، وَجَمَعَ أَبْنَاءَ كُلِّ أَبٍ تَحْتَ رَايَةٍ وَاحِدَةٍ لِيَعْرِفَ بَلاَءَ كُلِّ فَرِيْقٍ مِنْهُمْ ، وَلْيَعْلَمَ مِنْ أَيْنَ أُتِيَ المُسْلِمُوْنَ .

ثُمَّ دَارَتْ رَحَى الحَرْبِ مَعْرَكَةٌ ضَرُوسٌ لَمْ يُعْرَفْ لَهَا نَظِيْرٌ ، وَثَبَتَ قَوْمُ مُسَيْلَمَةِ في سَاحَاتِ الوَغَى ثُبُوتَ الجِبَالِ الرَّاسِيَاتِ وَلَمْ يُبَالُوا بِكَثْرَةِ مَا قُتِلَ مِنْهُمْ ، وَأَبْدَى المُسْلِمُوْنَ مِنْ الشَّجَاعَةِ وَالبُطُولَةِ مَا لَوْ جُمِعَ لَكَانَ

مَلْحَمَةً مِنْ رَوَائِعِ المَلاَحِمْ .

فَهَذَا ثَابِتُ بنُ قَيْسٍ حَامِلُ لِوَاءِ الأَنْصَارِ يَتَحَنَّطُ وَيَتَكَفَّنُ وَيَحْفِرُ لِنَفْسِهِ حُفْرَةً في الأرضِ فَيَنْزِلُ فِيْهَا إلى نِصْفِ سَاقِهِ وَيَبْقَى ثَابِتاً يُجَالِدُ عَنْ رَايَةِ قَوْمِهِ حَتَّى خَرَّ صَرِيْعَاً شَهِيْدَاً .

وَهَذَا زَيْدُ بنُ الخَطَّابِ أَخُو عُمَر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا يُنَادِي في المُسْلِمِيْنَ أيُّها النَّاسُ عُضُّوا عَلَى أَضْرَاسِكُمْ واضْرِبُوْا في عَدُوِّكُمْ وَامْضُوا قُدُمَاً أيُها النَّاسُ وَاللهِ لاَ أَتكَلَّم بَعْدَ هَذِهِ الكَلِمَةِ أَبَدَاً حَتَّى يُهْزَمَ مُسَيْلَمَةُ أَوْ أَلْقَى اللَّهَ ، فَأُدْلِيَ إِلَيْهِ بِحُجَّتِي ، ثُمَّ كَرَّ عَلَى قَوْمِهِ فَمَا زَالَ يُقَاتِلُ حَتَّى قُتِلَ .

وَهَذَا سَالِمُ مَوْلَى أَبِي حُذَيْفَةُ يَحْمِلُ رايَةَ المُهَاجِرِيْنَ فَيَخْشَى عَلَيْهِ قَوْمُه أَنْ يَضْعُفَ أَوْ يَتَزَعْزَعِ فَقَالُوا لَهُ إِنَّا لَنَخْشَى أَنْ نُؤْتَى مِنْ قِبَلِكَ فَقَالَ إِنْ أُتِيْتُمْ مِنْ قِبلِي فَبِئْسَ حَامِلُ القُرآنِ أَكُوْنُ ، ثُمَّ كَرَّ عَلَى أَعْدَاءِ اللهِ كَرَّةً بَاسِلَةً حَتَّى أُصِيْبَ .

فَلَمَّا رَأَى خَالِدُ أَنَّ الوَطْيْسَ حَمِيَ وَاشْتَدَّ التَفَتَ إلى البَرَاءِ بنِ مَالِكٍ وَقَالَ إِلَيْهِمْ يَا فَتَى الأَنْصَارِ ، فالْتَفَتَ البَرَاءُ إلى قَوْمِهِ وَقَالَ يَا أَهْلَ المدِيْنَةِ لا يُفَكِّرَنَّ أَحَدٌ مِنْكُمْ بِالرُّجُوْعِ إلى يَثْرِبَ ، فَلا مَدِيْنَةَ لَكُم بَعْدَ اليَوْمِ ، وَإِنَّمَا هُوَ اللهُ وَحْدَهُ ، ثُمَّ الجَنَّةُ .

ثُمَّ حَمَلَ عَلَى الأَعْدَاءِ وَحَمَلُوا مَعَهُ وَانْبَرَى يَشُقُّ الصُّفُوْفَ ، وَيُعْمِلُ السَّيْفَ في رِقَابِ أَعْدَاءِ اللهِ حَتَّى زُلْزِلَتْ أَقْدَامُ مُسَيْلَمَةَ وَأَصْحَابِهِ ، فَلَجَؤُوا إلى الحَدِيْقَةِ المَعْرُوْفَةِ بِحَدِيْقَةِ المَوْتِ لِكَثْرَةِ مَنْ قُتِلَ فِيْهَا في ذَلِكَ

الْيَوْمِ فَأَغْلَقَ مُسَيْلَمَةُ وَالآفُ مَعَهُ مِنْ جُنْدِهِ الأَبْوابَ وَتَحَصَّنُوا بِعَالِي جُدْرَانِهَا وَجَعَلُوا يُمْطِرُوْنَ الْمُسْلِمِيْنَ بِنَبَالِهِمْ مِنْ دَاخِلِهَا فَتَتَسَاقَطُ عَلَيْهِمْ تَسَاقُطَ المَطَرِ .

عِنْدَ ذَلِكَ تَقَدَّمَ البَرَاءُ بنُ مَالِكٍ وقَالَ يا قَوْمُ ضَعُونِي عَلَى تُـرْسٍ وارْفعُوا التُرْسَ عَلَى الرِمَاحِ ثمَّ اقْذِفُوْنِي بالحَديقَةِ قريباً مِنْ بَابِهَا فإمَّا أنْ أُسْتَشْهَدَ وإمَّا أَنْ أَفْتَحَ لَكُمْ البابَ وفي زَمَنٍ يَسِيْرٍ جَلَسَ البَرَاءُ عَلَى التُرْسِ وَرَفَعَتْهُ الرِّمَاحُ وألقَتْهُ في حَدِيقَةِ الموتِ قُرْبَ البابِ بينَ الآلافِ المؤلفةِ مِن جُنْدِ مُسَيْلَمَةَ .

فَنَزَلَ عليهِم نُزُوْلَ الصَّاعِقَةِ فجالَدهُمْ أمَامَ بَابِ الحَدِيقَةِ حتّى قَتَلَ عَشْرَةً مِنْهُمْ وَفَتَحَ البابَ لِلْمُسْلِمِيْنَ وبهِ بِضْعٌ وثَمَانُونَ جُرِاحـةً فَتَدَفَّقَ المُسلِمُوْنَ على الحَدِيقَةِ مِن حِيطانِهَا وَأَبْوَابِها وَاعْمَلُوا السُيُوفَ في رِقَابِ المرتدِينَ حتّى قَتَلُوا مِنهم قَرِيْباً مِن عِشْرِيْنَ ألفاً وَوَصَلُوا إلى مُسَيْلَمَةَ الكذابِ فَقَتَلُوه .

ثُـمَّ حَمَلُوا البَرَاءَ بنَ مالِكٍ الى رَحْلِهِ لِيُدَاوى فيهِ وأقامَ عليهِ خالدُ ابنُ الوَلِيْدِ شَهْرَاً يُعَالِجُهُ حَتَّى أذِنَ اللهُ لهُ بالشِفَاءِ وَظَلَّ البَرَاءُ بعدَ ذَلِكَ يَتَمَنّى الشهادَةَ التي فاتَتْهُ يومَ الحَدِيْقَةِ حتَّى كان فَتْحُ تَسْتُرَ مِن بلادِ الفُرْسِ في إحْدَى القِلَاعِ المُمَرّدَةِ .

فَحَاصَرَهُمْ المُسْلِمُوْنَ وأحاطُوا بِهِمْ فَلَمَّا طَالَ الحِصَار واشْتَدَّ البَلاءُ على الفُرْسِ جَعَلُوا يُدْلُوْنَ مِن فَوْقِ أَسْوَارِ الْقَلْعَةِ سَلَاسِلَ مِن حَدِيْدٍ عُلِقَتْ بها كَلَالِيبُ مِن فُولَاذٍ حُمِّيَت بِالنار فَكَانَتْ تَنْشَبُ في أَجْسَادَ المُسْلِمِيْنَ

وَتَعْلَقُ بِهِمْ فَيَرْفَعُونَهُمْ إِلَيْهِمْ إمَّا مَوْتَى وإلا عَلَى وشَك المَوتِ فَعَلِقَ كَلُوْب منها بِأنَسِ بن مِالِكٍ أخِي البَرَاءِ بنِ مالك .

فَوَثَبَ البَرَاءُ على جِدَارِ الحِصْن وأَمْسَكَ السِّلْسِلَةَ التِي مَسَكَتْ أَخَاهُ وَجَعَلْ يُعَالِجُ الكُلَّابَ لِيُخْرِجَه مِن جَسَدِ أَخِيْهِ وأخذَتِ يَدَاهُ تَحْتَرِقُ فَلَمْ يُبالِ إلى أنْ خَلَّصَ أَخَاهُ وَهَبَطَ إلى الأرضِ بَعْدَ أنْ صَارَتْ يَدُه عِظَامَاً لَيْسَ عَلَيْهَا لَحْمٌ ثُمَّ دَعَا البَرَاءُ رَبَّهُ أَنْ يَرْزُقَه الشهادَةَ فأجَابَ اللهُ دعاءَه واسْتَشْهَدَ رضيَ اللهُ عَنْهُ وأرضاهُ أ هـ باختصار مِنْ صُوَر مِنْ حَيَاة الصحابَةِ رضيَ اللهَ عنهم .

شعرا :

لَهَفِيْ عَلَى سُرُجِ الدُنْيَا الَّتِي طَفِئتْ
وَلاَ يَـزَالُ لَهَـا في النـاسِ أنـوَارُ
لَهَفِيْ عليهم رِجـالاً طَـالَمَـا صَبَـرُوْا
وَهَـكَـذَا طَـالِبُ الـعَلْيَـاءِ صَبَّـارُ
لَهَفِيْ عَلَيْهِم رَجَـالاً طـالَمَـا عَـدَلُـوا
بينَ الأَنَـامِ ومـا حَـابَـوْا ولا مَـارُوا
مـالُـوا يَمِيْنَـاً عن الـدنيـا وَزَهْـرَتِهـا
لِأنَّهـا في عُـيُـونِ القَـوْمِ أَقْـذَارُ
وَصَـاحَبُـوْهـا بـأَجْسَـادٍ قَـلُوبُهُـم
طَيْرٌ لَهَا في ظِـلَالِ العَرْشِ أَوْكَـارُ

اللهم قَوِّ مَحَبَّتَكَ في قُلُوبِنَا وثَبِّتْنَا عَلَى قَولِكَ الثابِتِ فِي الحياةِ الدُنْيَا وفي الآخِرَةِ واجعلنا هداةً مُهْتَدِيْن سِلْمَاً لأوليائِكَ حرباً لأعدائِكَ واغفر لنا

ولوالدينا وجميع المسلمين الأحياء منهم والميتين بِرَحْمَتِكَ يا أرحَمَ الراحمين وصَلَى الله على محمد وآله وصحبه أجمعين .

قصة

لِأُم سَلَمَةَ وما حَصَلَ لَهَا مِنْ الأذَى

اسْمُهَا هِنْدُ بِنْتُ أَبِي أُمَيَّة سَيِّدٌ مِن ساداتِ مَخْزُومِ المَرْمُوقِيْنَ وجَواداً يُقَالُ له زَادُ الراكِبِ لأنَّه إذا سَافَرَ لا يَتْرك أحداً يُرَافِقُهُ ومَعَهُ زَادٌ بل يَقُومُ بِرِفْقَتِهِ مِن الزَّادِ ، وَزَوْجُ أمِّ سَلَمَةَ عبدُ اللهِ بنُ عَبْدِ الأسَدِ أَحَدِ العشرةِ السابقينَ إلى الاسلامِ لم يُسْلِمِ قَبْلَهُ إلا أَبُو بَكْرٍ وَنَفَرٌ قليلٌ .

أَسْلَمَتْ أُمُّ سَلَمَةَ مَعَ زَوْجِهَا فَكَانَتْ هيَ الأُخْرَى مِن السابِقاتِ إلى الإسلَامِ ، ولَمَّا شَاعَ خَبَرُ اسْلَامِهَا هَاجَتْ قُرَيْشٌ وَجَعَلَتْ تَصُبُّ عَلَيْهِمَا الأَذَى الشَّدِيْدُ ، فلَمْ يُؤَثِّرْ بِهِمَا ولم يُزَلْزِلْهُمَا ولَمْ يَتَرَدَّدَا .

وَلَما اشْتَدَّ عَلَيْهِمَا الأَذَى وأذنَ النبيُ صلى اللهُ عليه وسلم لِأَصْحَابِهِ بالهِجْرَةِ إلى الحَبَشَةِ كَانَا فِي طَلِيعَةِ المُهَاجِرِيْنَ وَمَضَتْ أُمُ سَلَمَةَ وَزَوْجُهَا إلى دِيَارِ الغُرْبَةِ وَخَلَّفَتْ وَرَاءَهَا في مَكةَ بَيْتَها الفَسِيْحَ العَالي ، وَعِزَّها الشَّامِخَ ، وأَقْرِبَائَهَا وَمالَها ، مُحْتَسِبَةً الأَجْرَ مِن العَلِيِّ العَظِيم مُحْتَقِرَةً ما تَرَكَتَ في جَانِبِ مَرْضَاةِ اللهِ .

وبِالرَّغْمِ مِمَّا حَصَلَ لِأُمِّ سَلَمَةَ وَمَن هَاجَرَ مَعَهَا مِن الحَفَاوَةِ والاكْرَامِ والتَقْدِيْرِ ، فَقَدْ كانَ الشَّوْقُ يَحْدُوْهَا إلى مَهْبَطِ الوَحْيِ وإلى النبِي الكريم .

ثم تَتَابَعَتِ الأَخْبَارُ عَلَى المُهَاجِرِيْنَ إلى أَرْضِ الحَبَشَةِ بِأَنَّ المُسْلِمِيْنَ في مَكَةَ قَدْ كَثُرُوْا وَاقْتَوَوْا وَعَزّوا ، وأنَّ إِسْلاَمَ حَمْزَةَ وعُمَرَ بنَ الخطَابِ قَدْ شَدَّ إِزْرَهُمْ وَكَفْكَفَ شَيئاً مِن أَذَى قُرَيْشٍ عن المسلمين .

فَعَزَمَ فَرِيْقٌ مِن المُهَاجِرِيْنَ عَلَى العَوْدَةِ إلى مَكَّةَ يَحْدُوْهُمْ الشَّوْقُ ويَدْعُوْهُم الحَنِيْنُ ، فَكَانَتْ أمُ سَلَمَةٌ وَزَوْجُهَا مَعَ العَازِمِيْنَ على العودَةِ .

لَكِنْ سَرعَانَ ما تَبَيَّنَ لِلْعَائِدَيْنَ أَنَّ مَا نُقِلَ لَهُمْ مِن الأَخْبَارِ أَنَّهُ كَانَ مُبَالَغاً فِيهِ ، وأنَّ المُشْرِكِيْنَ قَدْ قَابَلُوا زِيَادَةَ القُوَّةِ والعِزَّةِ بِالتَّهَوُرِ والتَّفَنُنِ في التَّعْذِيْبِ وَتَرْوِيْعِهِمْ وَإِزْعَاجِهِمْ وَأَذَاقُوْهُمْ العَذَابَ الأَلِيْمَ .

عِندَ ذَلِكَ أَذِنَ رَسُوْلُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم لِأَصْحَابِهِ بالهِجْرَةِ إلى المَدِيْنَةِ ، فَعَزَمَت أُمُ سَلِمَةَ ، وَزَوْجُهَا على الهِجْرَةِ إِلىٰ المَدِيْنَةِ لَكِنْ هِجْرَتُهُمَا لم تَكُنْ كَمَا ظَنَّا أَنَّهَا سَهْلَةٌ بَلْ كَانَتْ صَعْبَةً عَسْرَةً خَلَّفَتْ وَرَاءَها مأسَاةً تَهُوْنُ دُوْنَهَا كُلُ مَأْسَاةٍ .

قَالَتْ أمُ سَلَمَةُ وَلَمَّا عَزَمَ أَبُو سَلَمَة على الخُرُوجِ إلى المَدينَةِ أَعَدَّ لِي بَعِيراً ، ثم حَمَلَنِي عليهِ وجعلَ طِفْلَنَا سَلمَةَ في حَجْرِي ، وَمَضَى يقودُ بِنَا البعِيرَ ، وهو لا يلْوِيْ على شَيْءٍ ، وقبلَ أن نَفْصِلُ عن مَكَةَ رآنَا رِجَال مِن قَوْمِي مِنْ بَنِي مخْزُوم فَتَصَدُوا لنا .

وقالوا لِأبي سَلَمَة إنْ كنتَ قَدْ غَلَبْتَنَا على نَفْسِكَ فَمَا بالُ امرأَتِكَ وَهِيَ بِنتُنا ، فَعَلَام نَتْرُكُكَ تأخذها مِنّا وتَسِيْرُ بها ثُمَّ وَثَبُوا عليهِ وانْتَزَعُونِي ، ومَا إن رَآهُمْ قَوْمُ زَوْجِي بَنُو عَبْدِ الأَسَدِ يأخذونَنِي أَنَا وطفلي حَتَى غَضِبُوا غَضَباً شَدِيدَا .

وقالُوا لا واللهِ لا نَتْركُ الوَلَدَ عِنْدَ صَاحِبتكُمْ بَعْدَ أَنْ انتَزَعْتُمُوهَا مِن صَاحِبِنَا انْتِزَاعاً فهو اَبْنُنَا ونَحْنُ أَوْلَى بِهِ ، قالَتْ ثم طَفِقُوا يَتَجَاذَبُونَ الطِّفْلَ بَيْنَهُمْ حتَّى ضَرُّوا يَدَهُ وأخَذُوْهُ .

وَبَعْدَ لَحظَاتٍ وَجَدْتُ نَفْسِي مُمَزَّقَةَ الشَّمْلِ وحِيْدَةً فَرِيدةً فَزَوْجِيْ اتَّجَهَ إلى المَدِيْنَةِ فَرَاراً بِدِيْنِهِ وَنفْسِهِ وَوَلَدِيَ اخْتَطَفَهُ بَنُو عَبْدِ الأَسَدِ مِن بَيْنِ يَدَيَّ خَطْفَاً مُحَطَّمَاً مُهَيَّضَا .

أَمَّا أَنَا فَقَدْ اسْتَوْلَى عَلَيَّ بَنُو مَخْزُوْمٍ قَوْمِي وَجَعَلُونِي عِنْدَهُمْ فَفُرِّقَ بَيْنِيْ وَبَيْنَ اِبْنِيْ في ساعةٍ قَالَتْ ، ومِنْ ذَلِكَ جَعَلْتُ أَخْرُجُ كُلَّ غَدَاةٍ إلى الأَبْطَحِ فأَجْلِسُ في المَكَانِ الذي شَهِدَ مَأسَاتِي ، وأَسْتَعِيْدُ فيها صُوْرَةَ اللَّحَظَاتِ الَّتِي حِيْلَ بَيْنِيْ وَبَيْنَ زَوْجِي وَوَلَدَيَ فيها .

وَأَظَلُّ أَبْكِي حَتَّى يُخَيِّمُ عَلَيَّ اللَّيْلُ وَبَقِيْتُ عَلَى ذَلِكَ قَرِيْبَاً مِن سَنَةٍ ، قَالَتْ إلَى أَنْ مَرَّ بِيَ رَجُلٌ مِن بَنِي عَمِّيْ فَرَقَّ لِحَالِي وَرَحِمَنِيْ ، قال لِبَنِيْ قَوْمِي ألاَ تُطْلِقُونَ هَذِهِ المِسْكِيْنَةَ فَرَّقْتُمْ بَيْنَهَا وَبَيْنَ زَوْجِها وَوَلَدِهَا وَمَا زَالَ بِهِم حَتَّى قَالُوا لِيْ الْحَقِيْ بِزَوْجِكِ إنْ شِئْتِ .

قَالَتْ أُمُ سَلَمَةَ ، وَلَكِنْ كَيْفَ لِي أَنْ الْحَقَ بِزَوْجِي في المدِينَةِ وأَتْرُكُ فَلْذَةَ كَبِدِيْ وَلَدِي في مكةَ عِنْدَ بَنِيْ عَبْدِ الأَسَدَ ، قَالَتْ وَرَأى بعضُ الناسِ ما أُعَالِجُ مِن أَحْزَانٍ وأَشْجَانٍ فَرَقَّتْ قُلُوبُهُم لِحَالِي وكلمُوا بَنِي عَبدِ الأَسَدِ في شأْنِي وَاسْتَعْطَفُوهُم عليَّ فَرَدُوا لِيْ وَلَدِيْ سَلَمَةَ قَالَتْ أُمُ سلمَةَ فَأعددتُ بَعِيْرِي وَوَضَعْت ولَدِي في حَجْرِي وخَرَجْتُ مُتَوجِهَةً إلى المدينَةِ أُرِيْدُ زَوْجِي وَمَا مَعِي أَحَدٌ مِن خلقِ اللهِ .

قالَت وما وَصِلْتَ التَنْعِيم حَتّى لَقِيتُ عُثْمَانَ بنَ طلحةَ فقالَ إلى أينَ يا بِنتَ زادِ الراكبِ فقلتُ أريدُ زَوجي في الْمدِيْنَةِ قالَ أمَا مَعَكَ أحدٌ قُلْتُ لا واللهِ إلا الله ثم ابنِي هَذَا قالْ عثمانُ واللهِ لا أتركُكِ أبدَا حتى تَبْلِغُي المدينةَ قالتْ أمُ سَلَمَة ثُمَّ أخذَ بِخِطَامِ بَعِيْري وانطلق يَهْوِي بِي قالتْ فواللهِ مَا رَأيتَ أكرمَ مِنْهُ ولاَ أشْرَفَ وسارَ مَعِي حَتى بَلْغْنَا المدِيْنَةَ .

فلمَّا نَظَرَ إلى قَرْيَةٍ بِقُبَاءِ لِبني عَمْرِو بنِ عَوّفٍ قالَ زَوْجُكِ فِي هَذِه القَرْيَةِ فادْخُلِيها عَلَى بَرَكةِ الله ، ثم انصرفَ راجِعاً إلى مَكَةَ ونَزَلَتْ على زَوجها وقَرَّتْ عَيْنُهَا بِهِ وبوَلَدِهَا .

ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ شَهِدَ أَبُو سَلَمةَ بَدْراً وعَادَ مِنْهَا مَعَ المسلمِينَ ، وقد انْتَصروا نصْراً مُؤَزّرَا ، وشَهِد أُحُداً وأَبْلَى بلاءً حَسَنا ، لكِنّه خُرِجَ منها وقَدْ جُرِحَ جُرْحا بَلِيْغاً ، فَمَا زَال يُعَالِجُه حَتى تَوارَى له أنَّه قَد اِنْدَمَلَ والْتأَمَ .

لكِن الجُرْحِ كانَ بِنَاؤُهُ عَلى فَسَادٍ ، فَمَا لَبَثِ أَنْ نَفَرَ وأَلْزَمَ أبَا سَلَمة الفِرَاشَ .

وبَيْنَما أبو سَلَمَة يُعالجُ جَرْحَهُ قَالَ لِزَوجَتِهِ يا أمَّ سَلَمَةَ سمعتُ رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم يقول لا يُصِيبُ أَحَدَاً مُصِيبةٌ فَيَسْتَرْجِعُ عِندَ ذَلك وَيَقُولَ اللَّهمَّ عندَكَ أحْتَسِبُ مُصِيْبَتِي هَذهِ ، اللهمَ أخلُفِنِي خيراً منها إلا أعطاهُ الله عَزَّ وجل .

وظلَ أَبُو سَلَمة على فِرَاشِ مَرَضِهِ أَيَّاماً وفي ذَاتِ صَبَاحٍ أَقْبَلَ رسولُ اللهِ صلى اللهِ عليه وسلم على بَيْتِهِ لِيَعُودَهُ ، فلمْ يَكَدْ يُجَاوِزُ بابَ

الدارِ حَتَّى فارَق أبُو سَلَمة الحَيَاةَ .

فأَغْمَضَ النبيُ صلى الله عليه وسلم أباً سلمةَ وقالَ إن الرُّوْحَ إذا قُبضَ اتبعهَ البصرُ ورَفع صلى الله عليه وسلم طَرْفَهُ إلى السماءِ وقالَ اللهم اغْفر لأبي سَلَمَةَ وارْفَعْ دَرَجَته في المَهْدِيْنَ واخْلُفْهُ في عُقبِه وافسَحْ لهُ قَبْرَه ونَوّرْ لَه فيه ، ثُمَّ ما كادَتْ تَخْرُجُ مِنْ حِدادِ حتَّى تَتابع عَلْيها الخُطَّابُ فَتقدَّمَ أبُو بَكْرٍ إليها يَخْطُبُها فأبَتْ أَنْ تَسْتَجِيبَ لَه ثم تَقدَّمَ عُمَرُ ابْنُ الخَطَّابِ فَرَدَّتْهُ كَمَا رَدَتْ صَاحِبَهُ .

ثم تَقدَّمَ النبيُ صلى اله عليه وسلم فقالتَ لهُ يا رسولَ الله إن فيَّ خِلالاً ثلاثاً فأنا امْرَأةٌ شَدِيْدةُ الغَيْرةِ فأَخافَ أن تَرى شيئاً مِنِي يُغْضِبُكَ فَيُعَذِبُنِيْ اللهُ .

وأنا امرأةٌ قَدْ دَخَلْتُ في السِنّ وأنَا امْرَأةٌ ذاتُ عِيالٍ .

فقال صلى الله عليه وسلم أما مَا ذكَرْتِ مِنْ غَيْرتِكَ فإنِيْ أَدْعو اللهَ عزّ وجل أنْ يُذْهِبَهَا عَنْكِ .

وأَمَّا مَا ذَكَرْتِ في السِّن فقدَ أَصَابَنِي مِثْلُ الذِيْ أصَابَكِ وأَمَّا مَا ذَكَرْتِ مِن العِيال فإنَّمَا عِيَالُكِ عِيالِي .

ثم تَزَوَّجَها رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم فاسْتَجَابَ اللهُ دَعاءَها وأخلَفَها خَيْراً مِن أَبِي سَلَمةَ .

ومُنْذُ ذَلِكَ اليومِ لَمْ تَكُنْ أمُّ سَلَمَةَ فَقَطْ بَلْ كانَتْ أمَّاً للمُؤْمنينَ رضيَ اللهُ عنها وأرضَاها وجَعَل جَنَّةَ الفِرْدَوْسِ مَثْوانا ومَثْوَاهاً أ هـ .

باختصارِ بسيطٍ من صورٍ مِن حياةِ الصحابةِ .

شعرا :

فَياوَيْحَ مَن شَبَّتْ على الـزَّيْغِ نَفْسُهُ
إلى أن دَهَاهَا الشَيْبُ وهـو نَـذِيْـرُ
ومات ومَا لاقَى سِوَى الخِزْي والشَّقَا
وَوَبـخَـهُ بَـيْـنَ الـقُـبُـورِ نـكِـيـرُ
ولَاقَى إلَه العَرْشِ فِي ثَـوْبِ حَسْرةٍ
وقـد كـانَ في ثَـوْبِ الغُـرُورِ يَـدُوْرُ
فـقَال خُـذُوهُ لِـلْجَحِيْمِ مُـكَبَّـلاً
وصَـلُّوهُ نـاراً إنّـهُ لَـكَـفـوْرُ
ويـا فَـوْزَ مَن أَدَّى مَنـاسِكَ دِيْنِـه
وعـاشَ سَلِيْمَ القلْبِ وهْـوَ طَهُـوْرُ
وتَـابَـعَ دِينَ الحَقِ فِقْهـاً وحِكمـةً
ولـبـى نِـدَاءَ الـلـهِ وهْـوَ شَـكُـوْرُ
فَهَـذا الـذِي في الخُلْدِ يَنْعَمُ بـالُـه
وَتَحْـظَوْا بـهِ بَيْنَ الأَرَائِـكِ حُـوْرُ
فَـلَا تُهْمِلُوا يـا قَـوْمُ آدابَ دِينِكِمْ
فَـهَجْـرُ طـريـق الأنْبِـيَـاءِ فُـجُـوْرُ
ومـا العَيْشُ إلا غَمْضَـةٌ والتِفَـاتَـةٌ
وحُـلْوُ أَمـانِي فَـوْتُـهُـنَّ مَـرِيْـرُ

وما المَرْءُ إلاَّ طائِرٌ وجَناحُهُ
مُرُورُ لَيالِي العُمْرِ وهْوَ قَصِيْرُ
ومَا الموتَ إلاَّ جَارِحٌ لا يَعوُقُهُ
إذا انقَضَّ بُنْيَانٌ عَلاَ وقُصُوْرُ
ورَامِيْ المَنَايَا لا تُرَدُّ سِهامُه
سَواءٌ لَدَيْهَا حَاكِمٌ وحَقِيْرُ
وإنّا وإنْ عِشْنَا زَمَانا مُطوَّلاً
وطابَ لَدَيْنَا العَيْشُ وهْوَ نَظِيْرُ
فَبَطْنُ الثَرَى حَتْماً مَحَطُ رِحَالِنا
وهَلْ ثَمَّ حَيٌّ مَا حَوَتَهْ قُبُوْرُ
ويَا لَيْتَها كَانَتْ نِهَايَةُ ظَعْنِنَا
ولكِنَّ عُقْبَى الظَّاعِنينَ نُشُوْرُ
وحَشْرٌ مَهُوْلٌ وازْدِحَامٌ بمَوْقِفٍ
علىَ كُلِّ إخْوانِ الضَيَاعِ عَسِيْرُ
ومَصْرَفُهُ سِجْنٌ لِمنْ عاشَ لاهِياً
بِهِ لَهَبٌ يَشْوِي الحَشا وسَعِيْرُ
وخُضْرُ جِنَانٍ لِلَّذِي ماتَ تَائِباً
وكانَ لَهُ في الدَاجِيَاتِ زَفِيْرُ
فلا تُسْلِمُوْا لِلنَّارِ حَرَّ وُجُوهِكُمْ
ولا تُغْضِبُوا الرحمنَ فَهْوَ غَيُوْرُ
وتُوبُوا إلَيْهِ واسأَلُوه حَنَانَهُ
فَوَاللهِ ربي إنَّهُ لَغَفُوْرُ

ولَا يَغْتَرِرْ ذُو الجَاهِ مِنْكُمْ بجاهِهِ
فأكْبَرُ عَاتٍ في المَعَادِ حَقِيْرُ
وعَن جاهِهِ والمالِ مَنْ مَاتَ خَارِجٌ
وأَغْنَى غَنِيٌّ إذ يَمُوتُ فَقِيْرُ
وَلَا تُلْهِكُم دُنْيَاً أَبَادَتْ وأهْلَكَتْ
مُلُوكَ قُرُونٍ عَدُهُنَّ كَثِيْرُ
وإنّا وإنْ كَانَتْ أَسافِلُ قَوْمِنا
تَسَاوَى لَدَيهِم مُؤْمِنٌ وكَفُوْرُ
وبَاعُوا بِدُنْيَاهُم فَضَائلَ دِينِهم
وفَاسِقُهُمْ لِلْمَاكِرِينَ نَصِيْرُ
فَقَدْ أَسْخَطُوا الرَّحْمنَ حَتَى أَهَانَهُمْ
ولَيْسَ لَهُمْ لِلإِنْتِقَامِ شُعُوْرُ
فَمِنَّا أُنَاسَ فِي الدَّيَاجي نَوَاحُهُمْ
تَبين لَهُمْ عِنْدَ البُكَاءِ صُخُوْرُ
يُنَادُونَ يَا رَحْمَنُ لُطْفاً فَإِنَنا
عَهِدْنَاكَ عَطْفاً لِلَّهُوفِ تَجِيْرُ
فَيَا مَصْلِحَ الأَحْوَالِ جَمِّلْ شُؤُونَنَا
فأنْتَ لِاصْلَاحِ الشُؤُونِ جَدِيْرُ
وأَنْتَ إلهُ العَالِمينَ بأَسْرِهِمْ
وأنْتَ سَمِيْعٌ عَالِمٌ وبَصِيْرُ
فَلَا يَأْسَ إذْ أَنْتَ القَدِيْرُ وكُلُ مَنْ
تَوَلَّاهُ يَأسٌ مِنْكَ فَهْو كَفُورُ

وصَـلِّ وسَـلِّم يـا إلهـي تَفَـضُـلاً
عَلَى مَنْ بِـذِكْـرَاهُ الـقُلُوبُ تُـنِيْـرُ
مَحَمَّـدُ قُطْبُ المُـرْسَلِينَ ومَنْ رَحَى
رِسـالـتِهِـمْ جَمْـعـاً عـلـيـهِ تَـدُورُ

اللهم يا حيُ يا قَيُّومُ طَهِّر قُلوبَنا من النِّفَاقِ وعَمَلنا مِن الرِّيَاء وأَلْسُنَنا مِن الكَذِبِ وأعْيُنَنا مِن الخِيانة إنَّكَ تعلمُ خائِنةَ الأعيُن وما تُخْفِي الصُدُورَ واغْفِرْ لنَا ولِوالدِينا ولِجَميع المسلمِينَ برحمتك يا أرحم الراحمين وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

نَمَاذِجُ مِنْ سِيْرَةِ بَعْضِ الْعُلَمَاءِ الْمُخْلِصِيْنَ وَنُصْحِهِمْ لِوُلاَةِ الأُمُوْرِ وَبُعْدِهِمْ عَنْ الطَّمَعِ والْجَشِع عَكْسُ مَا عَلَيْهِ أَكْثَرُ عُلَمَاءِ هَذا الزَّمَانِ

عَنْ الأَوْزَاعِيِّ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عُمَرَ قَالَ بَعَثَ إليَّ أَبُـو جَعْفَرٍ الْمَنْصُوْرُ أَمْيْرُ الْمؤمِنِيْنَ وَأَنَا بالسَاحل فأَتَيْتُهُ ، فَلمَّا وَصَلْتُ إلَيْهِ وسَلّمْتُ عَلَيْهِ بالْخِلاَفَةِ ، رَدَّ عَلَيَّ وَاسْتَجْلَسَنِيْ ، ثُمَّ قَالَ لِيْ مَا الَّذِي أَبْطَأَ بِكَ عَنَّا يَا أَوْزَاعِيُّ .

قَالَ قُلْتُ ومَا الَّذِي تُرِيْدُ يَا أَمِيْرَ الْمُؤْمِنِيْنَ ، قَالَ أُرِيْدُ الْأَخْذَ عَنْكُمْ وَالإِقْتِبَاسَ مِنْكُمْ ، قَالَ فَقُلْتُ فانْظُرْ يَا أَمِيْرَ الْمُؤْمِنِيْنَ أَنْ لاَ تَجْهَلَ شَيْئاً مِمَّا أقولُ لَكَ ، قَالَ كَيْفَ أَجْهَلُهُ وأَنَا أسْأَلُكَ عَنْهُ وَفِيْهِ وَجَّهْتُ إلَيْكَ وَأقْدَمْتُكَ لَهُ .

قَالَ قُلْتُ أخَافُ أنْ تَسْمَعَهُ ، ثُمَّ لاَ تَعْمَلُ بِه ، قَالَ فَصَاحَ بِيْ الرَّبِيْعُ

وَأَهْوَى بِيَدِهِ إِلَى السَّيْفِ ، فَانْتَهَرَهُ المَنْصُورُ وقَالَ هَذَا مَجْلِسُ مَثُوبَةٍ لَا مَجْلِسُ عُقُوبَةٍ فَطَابَتْ نَفْسِي ، وَانْبَسَطْتُ فِيْ الْكَلَامِ .

فَقُلْتُ يَا أَمِيْرَ الْمُؤْمِنِيْنَ حَدَّثَنِيْ مَكْحُوْلُ عَنْ عَطِيَّةَ عَنْ بِشْرٍ قَالَ قَالَ رَسُوْلُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، أَيُّمَا عَبْدٍ جَاءَتْهُ مَوْعِظَةٌ من اللَّهِ فِي دِيْنِهِ ، فإنَّهَا نِعْمَةٌ مِنَ اللَّهِ سيْقَتْ إِلَيْهِ ، فَإِنْ قَبلَهَا بِشُكْرٍ وإلا كَانَتْ حُجَّةً مِنَ اللَّهِ عَلَيْهِ ، لِيَزْدَادَ بِهَا إِثْماً وَيَزْدَادَ اللَّهُ بِهَا سُخْطاً عَلَيْهِ .

يَا أَمِيْرَ الْمُؤْمِنِيْنَ حَدَّثَنِي مَكْحُوْلُ عَنْ عَطِيَّةَ ابْنِ يَاسِر قَال قَال رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ «أَيّمَا والٍ مَاتَ غَاشاً لِرَعِيّتِهِ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ .

يَا أَمِيْرَ الْمُؤْمِنِيْنَ مِنْ كَرِهَ الْحَقَّ فَقَدْ كَرِهَ اللَّهُ ، إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِيْنُ ، إِنَّ الذّي لَيَّنَ قُلُوبَ أُمتِكِمْ لَكُمْ حِيْنَ وَلَّاكُمْ امُورَهُمْ لِقَرابتكُم مِنْ رَسُوْلِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ وقَدْ كَانَ بِهِمْ رَؤُوفاً رَحِيْماً مُوَاسِياً لَهُمْ بِنَفْسِهِ في ذَاتِ يَدِهِ مَحْمُوداً عِنْدَ اللَّهِ وعِنْدَ النَّاسِ ، فَحَقِيْقٌ بِكَ أَنْ تَقُومَ لَهُ فِيْهِمْ بِالْحَقِّ ، وَأَنْ تَكُوْنَ بِالْقَسْطِ لَهُ فِيْهِمْ قَائِماً ، وَلِعَوْرَاتِهِمْ ساتِراً لا تُغْلَقْ عَلَيْكَ دُوْنَهُمْ الْحِجَابَ ، تَبْتَهِجْ بِالنِّعْمَةِ عِنْدَهُمْ وتَبْتَئِسْ بِمَا أَصَابَهُمْ مِنْ سُوءٍ .

يَا أَمِيْرَ الْمُؤْمِنِيْنَ قَدْ كُنْتَ فِي شُغْلٍ شَاغِلٍ مِنْ خَاصَّةِ نَفْسِكَ عَنْ عَامَّةِ النَّاسِ الذّيْنَ أَصْبَحْتَ تَمْلِكُهُمْ أَحْمَرِهِمْ وَأَسْوَدِهِمْ مُسْلِمِهِم وَكَافِرِهِمْ وَكُلٌّ لَهُ عَلَيْكَ نَصِيْبٌ مِن الْعَدْل ، فَكَيْفَ بِكَ إِذَا انْبَعَثَ مِنْهُمْ فِئَامٌ ، ولَيْسَ مِنْهُمْ أَحَدٌ إِلَّا وَهُوَ يَشْكُو بَلِيَّةً أَدْخَلْتَهَا عَلَيْهِ أَوْ ظَلَامَةً سُقْتَهَا إِلَيْهِ .

يَا أَمِيْرَ الْمُؤْمِنِيْنَ حَدَّثَنِيْ مَكْحُوْلُ عَنْ عُرْوَةَ بْنِ رُوَيْمٍ قَالَ كَانَ بِيَدِ رَسُوْلِ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ جَرِيْدَةٌ يَسْتَاكُ بِهَا وَيُرَوِّعُ بِهَا الْمُنَافِقِيْنَ فَأَتَاهُ جِبْرِيْلُ عَلَيْهِ السَّلامُ فَقَالَ لَهُ يَا مُحَمَّدُ مَا هَذِهِ الْجَرِيدَةُ الَّتِيْ كَسَرْتَ بِهَا قُلُوْبَ أُمَّتِكَ وَمَلأْتَ قُلُوْبَهُمْ رُعْباً ، فَكَيْفَ بِمَنْ شَقَّقَ أَسْتَارَهُمْ وَسَفَكَ دِمَاءَهُمْ وَخَرَّبَ دِيَارَهُمْ ، وَأَجْلاَهُمْ عَنْ بِلاَدِهِمْ وَغَيَّبَهُمْ الْخَوْفُ مِنْهُ .

يَا أَمِيْرَ الْمُؤْمِنِينَ حَدَّثِنِيْ مَكْحُولُ عَنْ زِيَادَةَ عَنْ حَارِثَةَ عَنْ حَبِيْبِ ابْنِ مَسْلَمَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دَعَا إِلَى الْقِصَاصِ مِنْ نَفْسِهِ فِي خَدْشٍ خَدَشه أَعْرَابِيٌّ لَمْ يَتَعَمَّدْهُ ، فَأَتَاهُ جِبْرَيْلُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ ، فَقَالَ يَا مُحَمَّدُ إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَبْعَثْكَ جَبَّاراً وَلاَ مُتَكَبِّراً ، فَدَعا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ الأَعْرَابِيَّ فَقَالَ « اقْتَصَّ مِنِّي » فَقَالَ الاعْرَابِيُّ قَدْ أَحْلَلْتُكَ بِأَبِيْ أَنْتَ وأُمِيْ ، وَمَا كُنْتُ لِأَفْعَلَ ذَلِكَ أبداً ، ولَوْ أَتَيْتَ على نَفْسِيْ فَدَعَا لَهُ بِخَيْرٍ .

يَا أَمِيْرَ الْمُؤْمِنِيْنَ رَضِّ نَفْسَكَ لِنَفْسِكَ ، وَخُذْ لَهَا الاَمَانِ مِنْ رَبِّكَ ، وَارْغَبْ في جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمواتُ والأَرْضُ ، التِّيْ يَقُوْلُ فِيْهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ لَقَيْدُ قَوْسِ أَحَدِكُمْ فِيْ الْجَنَّةِ خَيْرٌ لَهُ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيْهَا .

يَا أَمِيْرِ الْمُؤْمِنِيْنَ إِنَّ الْمُلْكَ لَوْ بَقِيَ لِمَنْ قَبْلَكَ لَمْ يَصِلْ إِلَيْكَ ، وَكَذا لا يَبْقَى لَكَ كَمَا لَمْ يَبْقَ لِغَيْرِكَ .

يَا أَمِيْرَ الْمُؤْمِنِيْنَ أَتَدْرِيْ مَا جَاءَ فِي تَأْوِيْلِ هَذِهِ الآيَةِ عَنْ جَدِّكَ ﴿مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لاَ يُغَادِرُ صَغِيْرَةً ولاَ كَبِيْرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا﴾ قَالَ الصَّغِيْرَةُ التَّبَسُّمُ

وَالْكَبِيْرَةُ الضَّحِكُ ، فَكَيْفَ بِمَا عَمِلَته الايْدِيْ وحَصَدَتْهُ الأَلْسُنُ .

يا أَمِيْرَ الْمُؤْمِنِيْنَ بَلَغَنِيْ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ لَوْ مَاتَتْ سَخْلَةٌ عَلَى شَاطِىءِ الفُرَاتِ ضُيِّعَتْ لَخَشَيْتُ أَنْ أُسْأَلَ عَنْهَا ، فَكَيْفَ مِمَّنْ حُرِمَ عَدْلَكَ وهُوَ عَلى بِسَاطِكَ .

يَا أَمِيْرَ الْمُؤْمِنِيْنَ أَتَدْرِيْ مَا جَاءَ فِيْ تَأْوِيْلِ هَذِهِ الآيَةِ عَنْ جَدِّكَ ﴿يَا دَاوُدُ انَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيْفَةً في الاَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بالْحَقِّ ولاَ تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيضِلُّكَ عَنْ سَبِيْلِ اللَّهِ﴾ قَالَ اللَّهِ تَعالى في الزَّبُورِ يَا دَاوُدُ إذَا قَعَدَ الخَصْمَانُ بَيْنَ يَدَيْكَ ، فَكَانَ لَكَ فِي أَحَدِهِمَا هَوَى ، فَلاَ تَتَمَنَّيَنَ فِيْ نَفْسِكَ أَنْ يَكُوْنَ الْحَقُّ لَهُ فَيُفْلِحَ عَلَى صَاحِبِه ، فَأَمْحُوكَ عَنْ نُبُوَّتِي ثُمَّ لاَ تَكُونُ خَلِيْفَتِيْ ، وَلاَكَرَامَةَ ، يَا دَاوُدُ إنَّما جَعَلْتُ رُسُلِيْ الى عِبَادِي رُعَاةً كَرُعَاةِ الإبِلِ ، لِعِلْمِهِمْ بالرِّعَايَةِ وَرِفْقِهِمْ بالسِّيَاسَةِ لِيَجْبُرُوا الْكَسِيْرَ وَيُذَلِّلُوا الْهَزِيْلَ عَلى الْكَلاَءِ وَالْمَاءِ .

يَا أَمِيْرَ الْمُؤْمِنِيْنَ إنَّكَ قَدْ بُلِيْتَ بِأَمْرٍ لَوْ عُرِضَ عَلى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ لأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهُ وَاشْفَقْنَ مِنْهُ .

يَا أَمِيْرَ الْمُؤْمِنِيْنَ حَدَّثَنِي يَزِيْدُ بْنُ جَابِرٍ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ غَمْرَةَ الانْصَارِي أنّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّاب رَضِي اللَّهُ عَنْهُ اسْتَعْمَلَ رَجُلاً مِنَ الانْصَارِ عَلى الصَّدَقَةِ ، فَرَآه بَعْدَ أَيَّامٍ مُقِيْمَاً فَقَالَ لَهُ مَا مَنَعَكَ مِنَ الْخُرُوْجِ إلى عَمَلِكَ ، أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ لَكَ مِثْلَ أَجْرِ الْمُجَاهِدِ في سَبِيْلِ اللَّهِ ، قَالَ لاَ ثُمَّ قَالَ وَكَيْفَ ذَلِكَ قَالَ إنّهُ بَلَغَنِي أَنَّ رَسُولَ الله صَلَّى اللَّهِ عَلَيْهِ وسَلَّمَ قَالَ مَا مِنَ وَالٍ يَلِيْ شَيْئاً مِنْ أُمُورِ النَّاسِ إلاّ أُتِيَ بِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ مَغْلُولَةً يَدُهُ إلى

عُنُقِهِ ، لاَ يَفُكُّهَا إلاَّ عَدْلُهُ ، فَيُوقَفُ عَلَى جَسْرٍ مِنَ النّارِ يَنْتَفِضُ بِهِ ذَلِكَ الْجَسْرُ انْتِفَاضَةً تُزِيْلُ كُلَّ عُضْوٍ مِنْهُ عَنْ مَوْضِعِهِ ، ثُمَّ يُعَادُ فَيُحَاسَبُ ، فَانْ كَانَ مُحْسِناً نَجَا بِإِحْسَانِهِ ، وَإِنْ كَانَ مُسِيْئاً انْحَرَفَ بِهِ ذَلِكَ الْجسرُ ، فَيَهْوَى بِهِ فِي النَّارِ سَبْعِيْنَ خَرِيْفاً ، فَقَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مِمَّنْ سَمِعْتَ قَالَ مِن أَبِيْ ذَرٍّ وَسَلْمَانُ فَأَرْسَلَ إِلَيْهِمَا عُمَرُ فَسَأَلَهُمَا فقـــالا نَعَمْ سَمِعْنَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ فَقَالَ عُمَرُ واعُمَرَاهُ مَنْ يَتَوَلاَّهَا بِمَا فِيْهَا فَقَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَنْ سَلَتَ اللَّهُ أَنْفَهُ ، وَأَلْصَقَ خَدَّهُ بِالأَرْضِ قَالَ فَأَخَذَ الْمِنْدِيْلَ فَوَضَعَهُ عَلَى وَجْهِهِ ثُمَّ بَكَى وَانْتَحَبَ حَتَّى أَبْكَانِي .

ثُمَّ قُلْتُ يَا أَمِيْرَ الْمُؤْمِنِيْنَ قَدْ سَأَلَ الْعَبّاسُ النَّبِيَّ صَلّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ إِمَارَةَ مَكّةَ أَوْ الطّائفَ أَوْ اليَمَنَ ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ يَا عَبَّاسُ يَا عَمَّ النَّبِيِّ نَفْسٌ تُحْيِيْهَا خَيْرٌ مِنْ أَمَارَةٍ لاَ تُحْصِيَهَا ، نَصِيحَةٌ مِنْهُ لِعَمِّهِ وَشَفَقَةٌ عَلَيْهِ ، وَأَخْبَرَهُ أَنَّهُ لاَ يُغْنِيْ عَنْهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً إِذْ أَوْحَى اللَّهُ اِلَيْهِ ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيْرَتَكَ الأَقْرَبِيْنَ﴾ ، فَقَالَ يَا عَبَّاسُ ويَا صَفِيَّةُ ويَا فَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ إِنِّي لَسْتُ أُغْنِي عَنْكُمْ مِن اللَّهِ شَيْئاً إِنّ لِيْ عَمَلِيْ وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ وَقَدْ قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِي اللَّهُ عَنْهُ لاَ يَقْسِمُ أَمْرَ النَّاسِ إلاَّ حَصِيْفُ الْعَقْلِ أَرِيْبُ الْعَقدْ ، لاَ يُطّلَعُ مِنْهُ عَلَى عَوْرَةٍ ، لاَ يُخَافُ مِنْهُ عَلى حُرَّةٍ ، وَلاَ تَأْخُذُهُ فِي اللَّهِ لَوْمَةُ لاَئِمٍ ، وقَالَ الامُرَاءُ أَرْبَعَةٌ فَأَمِيْرٌ قَوِيٌّ ظَلِفَ نَفْسَهُ وَعُمَالَهُ ، فَذَلِكَ كَالْمُجَاهِدِ فِي سَبِيْلِ اللَّهِ يَدُ اللَّهِ بَاسِطَةٌ عَلَيْهِ الرَّحْمَةِ ، وَأَمِيْرٌ فِيْهِ ضَعْفٌ ظَلَفَ نَفْسَهُ وَأَرْتَع عُمَّالَهُ لِضَعْفِهِ ، فَهُوَ عَلى شَفَاءِ هُلاَكٍ إلاّ أَنْ يَرْحَمَهُ اللَّهُ ، وَأَمِيْرٌ ظَلَفَ عُمَّالُه لِضَعْفِهِ ، فَهُوَ عَلى

شَفَاءِ هلاكٍ إلاّ أنْ يَرْحَمَهُ اللَّهُ ، وَأَمِيرٌ ظَلَفَ عُمَّالَهُ وَارْتَعَ نَفْسَهُ فَذَلِكَ الْحُطَمَةُ ، الذَّي قَالَ فِيْهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم شَرُ الرَّعَاءِ الْحُطَمَةُ فَهُوَ الْهَالِكُ وَحْدَهُ ، وأمِيرٌ أرْتَعَ نَفْسَهُ وعُمّالَهُ فَهَلَكُوا جَمِيْعاً .

وَقَدْ بَلَغَنِي يَا أمِيْرَ المُؤْمِنِينَ أَنَّ جِبْرِيْلَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ أَتَى النَّبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ أَتَيْتُكَ حيْنَ أَمَرَ اللَّهُ بِمَنافِخِ النَّارِ فَوُضِعَتْ عَلَى النَّارِ تُسَعَّرُ لِيَوْمِ القِيَامَةِ فقَالَ لَهُ يا جَبْرِيْلُ صِفْ لِيْ النَّارَ فَقَالَ إنَّ اللهَ تَعالى أمَرَ بِهَا فأوقدَ عَلَيْهَا أَلْفَ عَامٍ حَتَّى احْمَرّتْ، ثُمَّ أَوْقَد عَلَيْهَا ألف عَامٍ حَتَّى اصْفَرَّتْ ، ثُمَّ أوْقَدَ عَلَيْهَا ألفَ عامٍ حَتَّى اسْودَتْ ، فهي سَوْدَاءُ مُظْلِمَةٌ ، لا يُضِيءُ جَمْرُهَا ، وَلاَ يَطْفأُ لَهَبُهَا ، وَالّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَوْ أنَّ ثَوْباً مِنْ ثِيَابِ أَهْلِ النَّارِ أُظْهِرَ لِأَهْلِ الاَرْضِ لَمَاتُوا جَمِيْعاً وَلَوْ أنَّ ذُنُوباً مَنْ شَرابِها صُبَّ في مِيَاهِ الأَرْضِ جَمِيْعاً قَتَلَ مَنْ ذَاقَهُ ، وَلَوْ أنَّ ذِرَاعاً مِنْ السِّلْسِلَةِ التَّيْ ذَكَرَ اللَّهُ وُضِعَ عَلَى جِبَالِ الأَرْضِ جَمِيْعاً لذَابَتْ وَمَا اسْتَقَلّتْ ، وَلَوْ أَنَّ رَجُلاً أُدْخِلَ النَّارَ ثُمَّ أُخْرِجَ مِنْها لمَاتَ أَهْلُ الاَرْضِ مِن نَتَنِ رِيْحِهِ وَتَشْوِيْهِ خَلْقِهِ وَعِظامِهِ .

فَبَكَى النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَبكَى جبْرِيْلُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ لِبُكَائِهِ فقَالَ أَتَبْكِي يَا مُحَمَّدُ وَقَدّ غَفَرَ اللّهُ لَكَ مَا تَقَدَمَّ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ، فَقَالَ أَفَلاَ أَكُوْنُ عَبْداً شَكُوْراً ، وَلِمَ بَكَيْتَ يَا جِبْرِيْلُ وأَنْتَ الرُّوْحُ الأَمِيْنُ أَمِيْنُ اللَّهِ عَلى وَحْيِهِ .

قَالَ أَخَافُ أَنْ أُبْتَلى بِمَا ابْتُلِيَ بِهِ هَارُوْتُ وَمَارُوْتُ ، فَهُوَ الَّذيْ مَنَعَني مِنْ اتِّكَالِي عَلَى مَنْزِلَتِي عِنْدَ رَبِّي ، فَأَكُوْنُ قَدْ أَمِنْتُ مَكْرَهُ ، فَلَمْ يَزَالاَ يَبْكِيَانِ حَتَّى نُودِيَا مِنَ السَّمَاءِ ، يَا جِبْرِيْل ، وَيَا مُحَمَّدُ إنَّ اللَّهَ قَدْ

أَمَّنكُمَا أَنْ تَعْصِيَاهُ ، فَيُعَذِّبُكُمَا ، وَفَضْلُ مُحَمَّدٍ على سَائِرِ الأَنْبِيَاءِ كَفَضْلِ جِبْرِيل عَلَى سَائِرِ الملاَئِكَةِ .

وَقَدْ بَلَغَنِي يَا أَمِيْرَ المُؤْمِنِيْنَ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ اللهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي أُبَالِي إِذَا قَعَدَ الْخَصْمَانِ بَيْنَ يَدَيَّ عَلَى مَنْ مَالَ الْحَقُّ مِنْ قَرِيْبٍ أَوْ بَعِيْدٍ ، فَلاَ تُمْهِلْنِيْ طَرْفَةَ عَيْنٍ .

يَا أَمِيْرَ الْمُؤْمِنِيْنَ انَّ أَشَدَّ الشِّدَّةِ الْقِيَامُ لِلَّهِ بِحَقِّهِ ، وَانَّ أَكْرَمَ الْكَرَمِ عند الله التَّقْوَى ، وإِنَّهُ من طَلَبَ العِزَّ بطاعةِ اللَّهِ رَفَعَهُ اللَّهُ وَأَعَزَّهُ .

وَمَنْ طَلَبَهُ بِمَعْصِيَةِ اللَّهِ أَذَلَّهُ اللَّهُ ، وَوَضَعَهُ ، فَهَذِهِ نَصِيْحَتِيْ الَيْكَ والسَّلاَمُ عَلَيْكَ ، ثُمَّ نَهَضْتُ فَقَالَ لِي إِلَى أَيْنَ فَقُلْتُ إِلى الْوَلَد وَالْوَطَن ، بِإِذْنِ أَمِيْرِ الْمُؤْمِنِيْنَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

فَقَالَ قَدْ أَذِنْتُ لَكَ ، وَشَكَرْتُ لَكَ نَصِيْحَتِكَ ، وَقَبِلْتُهَا ، وَاللَّهُ الْمُوَفِّقُ لِلْخَيْرِ وَالْمُعِيْنُ عَلَيْهِ ، وَبِهِ أَسْتَعِيْنُ ، وَعَلَيْهِ أَتَوَكَّلُ ، وَهُوَ حَسْبِيْ وَنِعْمَ الوَكِيْلُ فَلاَ تُخْلِنِيْ بِمُطَالَعَتِكَ ايّايَ ، بِمِثْلِ هَذَا فَإِنَّكَ الْمَقْبُولُ الْقَوْلَ غَيْرَ الْمُتَّهَم في النَّصِيْحَةِ ، قُلْتُ أَفْعَلُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ واللَّهُ أَعْلَمُ وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَسَلَّم .

(فَصْـلٌ)

وَلَمَّا اسْتَوْلَى الْمَلِكُ الصَّالِحُ عَلَى دِمَشْقَ اسْتَعَانَ بِالإِنفِرَنْجِ ، وَاصْطَلَحَ مَعَهُمْ عَلَى أَنْ يُسْعِفُوهُ ضِدَّ أَخِيْه ، مَلِك مِصْرَ ، وَيُعْطِيْهِم مُقَابِلَ مَعُوْنَتِهِمْ صَيْدَا وَقَلْعَةَ الشَّقِيْفِ ، وَغَيْرَهَا مِنْ حُصُوْنِ الْمُسْلِمِيْنَ .

وَدَخَلَ الصَّلِيْبِيُّونَ دِمَشْقِ ، لِشِرَاء السِّلاَحِ فَاسْتَفْظَعَ الشَّيْخُ الْعِزُّ بْنُ

عَبْدِ السَّلَامِ ذَلِكَ ، وَغُمَّ غَمًّا شَدِيْداً ، فَأَفْتَى بِتَحْرِيْمِ بَيْعِ السِّلَاحِ لِلإِفْرَنْجِ ، وَتَرَكَ الدُّعَاءَ لِلسُّلْطَانِ فِي خُطْبَةِ الْجُمُعَةِ .

وَنَدَّدَ بِخِيَانَةِ السُّلْطَانِ لِلْمُسْلِمِيْنَ ، وَكَانَ مِمَّا دَعَا بِهِ فِي خُطبةِ : « اللَّهُمَّ أَبْرِمْ لِهَذِهِ الأُمَّةِ أَمْرَ رُشْدٍ تُعِزُّ فِيْهِ وَلِيَّكَ ، وَتُذِلُّ بِهِ عَدُوَّكَ ، وَيُعْمَلُ فِيْهِ بِطَاعَتِكَ ، وَيُنْهَى فِيْهِ عَنْ مَعْصِيَتِكَ ، وَالنَّاسُ يُؤَمِّنُوْنَ عَلَى دُعَائِهِ ، فَبِمِثْلِ لَمْحِ الْبَرْقِ بَلَّغَ الْمَلِكَ مَا فَعَلَهُ قَاضِي الْقُضَاةِ .

وَمَا أَكْثَرَ الْمُبَلِّغِيْنَ وَالْمُتَوَدِّدِيْنَ وَالنَّمَّامِيْنَ فِيْ كُلِّ زَمَانٍ ، وَمَكَانٍ ، فَغَضِبَ السُّلْطَانُ ، وَعَزَلَ الشَّيْخَ عَنِ الْقَضَاءِ فَرَحَلَ الشَّيْخُ عَنْ دِمَشْقَ إِلَى مِصْرَ ، وَبَيْنَمَا هُوَ فِي الطَّرِيْقِ أَرْسَلَ السُّلْطَانُ فِي أَثَرِهِ ، فَأَدْرَكَتْهُ رُسُلُ الْمَلِكِ الصَّالِحِ ، وَطَلَبُوا مِنْهُ الرُّجُوْعَ ، وَقَالُوْا لَهُ إِنَّ السُّلْطَانَ عَفَا عَنْكَ وَسَيَرُدُّكَ إِلَى مَنْصِبِكَ عَلَى أَنْ تَنْكَسِرَ لَهُ وَتَعْتَذِرَ ، وَتُقَبِّلَ يَدَهُ .

فَقَالَ لَهُمْ الشَّيْخُ أَنَا مَا أَرْضَى أَنْ يُقَبِّلَ يَدِيْ ، فَضْلاً عَنْ أَنْ أُقَبِّلَ يَدَهُ ، يَا قَوْمُ أَنْتُمْ فِي وَادِي ، وَأَنَا فِي وادِي ، ثُمَّ مَضَى فِي طَرِيْقِهِ حَتَّى وَصَلَ مِصْرَ . هكذا العلماء الذين لا تأخذهم في الله لومة لائم.

(فَصْـلٌ)

وَلَمَّا عَلِمَ مَنْذِرُ بْنُ سَعِيْدٍ قَاضِي الْجَمَاعَةِ بِقُرْطَبَةَ ، أَنَّ أَمِيْرَ الْمُؤْمِنِيْنَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ النَّاصِرُ بَنَى مَدِيْنَةَ الزَّهْرَاءِ وَوَضَعَ فِيْهَا الصَّرْحَ الْمُمَرَّدَ ، وَاتَّخَذَ لِقُبَّتِهِ قَرَامِيدَ مِن الذَّهَبِ والفِضَّةِ .

فَغَضِبَ الشَّيْخُ لِذَلِكَ ، وَتَأَلَّمَ لِهَذَا الْبَذْخِ فِي مَالِ الدَّوْلَةِ وَعَلِمَ أَنَّهُ الْمَسْؤُولُ الأَوَّلُ أَمَامَ بَدِيْعِ السَّمواتِ والأَرْضِ ، وَأَنَّهُ يَتَعَيَّنُ عَلَيْهِ أَنْ يَنْهَى

عَنْ هَذَا السَّرَفِ الْمُضِرِّ بِصَالِحِ الْمُسْلِمِيْنَ .

فَجَاءَ إِلى النَّاصِرِ وَقَبَّحَ عَمَلَهُ هَذَا وَأَنَّبَهُ بِقَوْلِهِ مَا ظَنَنْتُ أَنَّ الشَّيْطَانَ أَخْزَاهُ اللَّهُ بَلَغَ بِكَ هَذَا الْمَبْلَغَ ، وَلَا أَنْ تُمَكِّنَهُ مِنْ قِيَادِكَ هَذَا التَّمْكِيْنَ حَتَّى أَنْزَلَكَ اللَّهُ مَنَازِلَ الْكَافِرِيْنَ مَعَ مَا آتاكَ اللَّهُ وَفَضَّلَكَ عَلَى الْعَالَمِيْنَ .

فاقشَعَرَّ عَبْدُ الرَّحْمَن النَاصِرِ مِنْ قَوْلِ الشَّيْخ وَقَالَ لَهُ أُنْظُرْ مَاذَا تَقُولَ كيفَ أَنْزَلَنِي مَنَازِلَهُمْ قَالَ نَعَمْ أَلَيْسَ اللهُ تَعَالى يَقُول ﴿ وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ الناسُ أُمَّةً واحِدةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بالرَّحْمنِ لِبُيوتِهِم سُقُفاً مِن فِضةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ، وَلِبُيُوتِهِمْ أَبوابَاً وَسُرُراً عَلَيْهَا يَتَّكِئُوْنَ وُزُخْرفاً ، وإِنْ كُلَ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الحَيَاةِ الدُّنيا والآخِرَةُ عِنْدَ رَبِكَ لِلْمُتَقِّينَ ﴾

فَسَكَتَ الناصِرُ وَنَكَّسَ رَأْسَه سَاعةً ، واغْرورَقَتْ عَيْنَاهُ مِنَ البُكاءِ وصارَتْ دُمُوعُهُ تَجْرِي عَلَى خَدَّيْهِ وَلِحْيَتِهِ ، خَوْفاً مِنْ اللهِ حيثُ وَصَلَتِ المَوعِظَةُ الخالِصةُ إِلَى قَلْبِهِ ، وَتَأَثَّرَ تَأَثُّراً عَظِيْماً لِأَنَّهَا مِن قَلْبٍ إِلى قَلْب .

ثم قالَ لِلشَّيخِ جَزَاكَ اللهُ عَنَّا وَعَن المُسْلِمِيْنَ خَيْراً ، وأَكْثَرَ فِيْنَا مِن أَمْثَالِكَ ، فالذي نَطَقَت بِهِ حقٌ واللهِ وقامَ مِنْ مَجْلِسِهِ يَلْهَجُ بالاستغفارِ ثم أَمَرَ بِنَقْصِ سَقْفِ القُبَةِ ، وأَعَادَ قَرَامِيدَهَا تُرابا .

فَتَأَمّل يا أَخِي كَيْفَ أَنَّ سُلْطَانُ الدُّنْيَا والمَادَّةِ وَقَفَ خَاشِعـاً أَمَامَ هَذَا العَالِم الذي لا تَأْخُذُهُ في اللهِ لَومةُ لَائِمٍ الذي أَدَّى وَاجِبَه على الوَجْهِ الأَكملِ مُعْتَمِداً على فاطِرِ السمواتِ والأَرْضِ الذي ما مِن دَابَةٍ الَّا هُو آخِذٌ بِنَاصِيَتِها وَلَو كَانَ مِن عُلَمَاءِ هذا العَصْرِ المُظْلِمِ لَسَمِعْتَ غَيْرَ هَذَا فَلَا حَولَ وَلَا قُوَةَ إِلَّا باللهِ العلي العَظِيمِ وهو حَسْبُنَا ونِعمَ الوكيل .

وَذُكِرَ أَنَّه قَدِمَ أَمِيْرُ المُؤمِنينَ المَنْصُوْرُ مَكَّةَ شَرَّفَهَا اللَّهُ حَاجاً فكانَ يَخْرُجُ مِن دارِ النَّدْوَةِ إلى الطوافِ في آخِرِ الليلِ ، يَطُوفُ وَيُصَلِّي وَلَا يُعْلَمُ بِهِ ، فإذا طَلَعَ الفَجْرُ ، رَجَعَ إلى دَارِ النَّدْوَةِ ، وَجاءَ المؤذِّنونَ فَسَلَّمُوْا عَلَيه وأُقِيْمَتِ الصلاةُ فَيصَلِي بالناسِ .

فَخَرَجَ ذاتَ لَيْلَةٍ حِيْنَ أَسْحَرَ فَبَيْنَمَا هُو يَطُوفُ إِذْ سَمِعَ رَجُلاً عِنْدَ المُلْتَزَمِ وَهُوَ يقولُ ، اللهم إني أشكُو إليكَ ظُهُورَ البَغْيِ والفَسَادِ في الأَرضِ ، وما يَحُولُ بَيْنَ الحَقِ وَأَهْلِهِ مِن الظُلمِ ، والطَّمَعِ ، فأَسْرَعَ المَنْصُورُ في مَشْيِهِ ، حَتَّى مَلأَ مَسَامِعَهُ مِن قولِهِ وَفَهِمَ قَولَهُ كَلَّهُ .

ثم خَرَجَ فَجَلَسَ نَاحِيَةً مِنَ المسجِدِ ، وأَرْسَلَ إليهِ فَدَعَاهُ ، فأَتَاهُ الرسولُ ، وقال له أَجِبْ أميْرَ المؤمنينَ ، فَصَلَّى ركعتينِ واسْتَلَمَ الرُكْنَ وأَقْبَلَ مَعَ الرسولِ فَسَلَّمَ عليهِ فقال لهُ المنصورُ : مَا هَذَا الذي سَمِعْتُكَ تقولُ مِنْ ظُهورِ البَغْيِ والفَسادِ في الأَرضِ وما يَحُولُ بَيْنَ الحق وأهلهِ مِنْ الطَّمَعِ والظُلمِ ، فواللهِ لَقَدْ حَشَوْتَ مَسَامِعِي ما أَمْرَضَنِي وأَقْلَقَنِي .

فقالَ يَا أَمِيْرَ المُؤمنينَ إن أَمَّنْتَنِي على نَفْسِي أَنبأْتُكَ بالأُمُوْرِ مِن أُصُولِها وإلا اقْتَصَرْتُ على نَفْسِي فَفِيهَا لي شُغُلٌ شَاغِلٌ ،فَقالَ لَه أَنْتَ آمِنٌ عَلَى نَفْسِكَ فقال الذي دَخَلَهُ الطمعُ حَتَّى حَالَ بَينَهُ وَبَيْنَ الحَقِ واصْلاحِ ما ظَهرَ مِن البَغْيِ والفَسادِ في الأَرضِ أَنْتَ .

فَقَال وَيْحَكَ يَدْخُلِنِي الطمَعُ والصَّفْرَاءُ والبَيْضَاءُ في يَدِي والحُلْوُ والحَامِضُ في قَبْضَتِي قالَ وَهَلْ دَخَلَ أَحَداً مِنَ الطَّمَعِ مَا دَخَلَكَ يَا أَمِيْرَ المُؤْمِنِيْنَ إن اللهَ تعالى اسْتَرعَاكَ أُمُورَ المُسْلمينَ وأَمْوَالَهُم فأَغْفَلْتَ أُمُورَهُم واهْتَمَمْتَ بِجَمْعِ أَمْوَالِهِم .

وَجَعَلْتَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُم حِجاباً مِن الجصّ ، والآجُرِ وَأَبْواباً مِن الحَدِيْدِ وحَجَبْتَ مَعَهم السِّلاحُ ثم سَجَنتَ نَفْسَكَ فِيها عَنْهُم وَبَعَثْتَ عُمّالَكَ في جَمْعِ الأموالِ وَجِبايَتِها .

واتَّخَذْتَ وُزَرَاءَ وأَعْواناً ظَلَمَةً إن نَسِيْتَ لم يُذَكِّرُوكَ وإنْ ذَكَرْتَ لم يُعِينُوكَ وَقَوّيتَهُم على ظُلْمِ الناسِ بالأَمْوَالِ والكُراع ، والسِّلاحِ وأَمَرْتَ بِأَنْ لاَ يَدْخُلَ عليكَ مِن النَاسِ إلاَّ فُلاَنٌ وفلانٌ نَفَرٌ سَمَّيتَهُم ولم تَأْمُر بإيصالِ المَظْلُومِ والمَلْهُوْفِ ولا الجَائِعِ ولا العارِي ولا الضَّعِيْفِ ولا الفقيرِ ولا أحدٌ إلا ولَهُ في هذا المالِ حَقٌ .

فَلمَّا رَآكَ هَؤُلاَءِ النَّفَرُ الذين اسْتَخْلَصْتَهُم لِنَفْسِكَ وآثَرْتَهُم عَلى رَعِيّتِكَ وأَمَرْتَهُم أنْ لاَ يُحْجَبُوا عَنكَ تَجْبِي الأَمْوَال ولا تَقْسِمُهَا قالُوا هَذَا قَدْ خَانَ اللهَ فما لَنَا لا نَخُونُهَ وقد سُخِرَ لَنَا .

فائْتَمرُوا على أَنْ لاَ يَصِلَ إليكَ مِن عِلْمِ أَخْبَار الناسِ إلاَّ ما أرادُوا وانْ لاَ يَخْرُجَ لكَ عَامِلٌ فَيُخَالِفَ لَهُم أمراً إلاَّ أَقْصَوهُ حَتَّى تَسْقطَ مَنْزِلَتُه وَيَصْغُرَ قَدْرُه .

فلمَّا انْتَشَرَ ذَلِكَ عَنْكَ وَعَنْهُم ، أَعْظَمَهُم الناسُ ـ وَهَابُوهُم وكانَ أَوَّلُ مَن صَانَعهُم عُمَّالُكَ بِالهَدَايَا والأموالِ لِيَتَّقَوْا بِهِم على ظُلْمِ رَعِيَّتِك .

ثم فَعَلَ ذلِكَ ذَوُوْ القُدْرَةِ والثَّرْوَةِ مِن رَعِيَّتِكَ لِيَنَالُوْا ظُلْمَ مَن دُوْنَهُم مِن الرعيةِ فامْتَلأَتْ بلادُ اللهِ بالطمعِ بَغْياً وَفساداً وَصَارَ هَؤُلاَءِ القومُ شُرَكَاءَكَ في سُلْطانِكَ وأنْتَ غافلٌ .

فإن جَاء مُتَظَلِّمٌ حِيْلَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الدُخولِ إلَيْكَ وإنْ أَرَادَ رَفْعَ صَوْتِهِ أَوْ

قِصَّتِهِ إليكَ عندَ ظُهُورِكَ وَجَدَكَ قد نَهَيْتَ عن ذَلِكَ ، وَقَّفْتَ لِلنَاسِ رجلاً يَنْظُرُ في مَظَالِمهم ، فإن جَاءَ ذَلِكَ الرجُلُ وبَلَّغَ بِطَانَتَكَ سَأَلُوا صَاحِبَ المَظَالِمِ أَنْ لَا يَرْفَعَ مَظْلَمَتَهُ وان كانَتْ لِلْمُتَظَلِّمِ بِهِ حُرْمَةٌ وإِجَابَةٌ لم يُمكِنْهُ مِمَّا يُرِيْدُ خَوْفاً مِنْهم .

فَلَا يَزَالُ المظلومُ يَخْتَلِفُ إليهِ وَيَلُوْذُ بِهِ وَيَشْكُو ، وَيَسْتَغِيْثُ وهو يَدْفَعُهُ وَيَعْتَلِي عليه ، فإذا جُهِدَ ، وأُخْرِجَ وَظَهَرْتَ صَرَخَ بَينَ يَـدَيْكَ فَيُضْرَبُ ضَرباً مُبرِّحاً ، لِيَكُونَ نَكَالاً لِغَيْرِهِ ، وأنْتَ تَنْظُرُ ، وَلَا تُنْكِرُ وَلَا تُغْنِي ، فما بقاءُ الإسلامِ وأهلِهِ على هذا .

وَلَقَدْ كَانَ بَنُـو أُمَيَّةَ وكانَتِ العَرَبُ لا يَنْتَهِيَ إليهم المَظْلُومُ إلا رُفِعَتْ ظَلامَتُه إليهم ، فَيُنْصَفُ ولَقد كان الرَجلُ يأتيْ مِن أَقْصَى البِلادِ حَتَّى يَبْلُغَ بَابَ سُلْطَانِهم ، فَيُنَادِي يا أَهْلَ الإسلامِ فَيَبْتَدِرونَهُ مَالَكَ فَيَرفَعُونَ مَظْلَمَتَهُ إلى سُلْطَانِهم فَيَنْتَصِفُ .

وَلَقد كُنْتُ أُسَافِرُ إلى أَرْضِ الصِيْنِ وبها مَلِكٌ فَقَدِمْتُها مَرَّةً وَقَدْ ذَهَبَ سَمْعُ مَلِكِهِم ، فَجَعَلَ يَبْكِي فقال وُزَرَاؤُهُ مَا لَكَ تَبكِي لَا بَكَتْ عَيْنَاكَ .

فقال أَما إني لَسْتُ أَبْكِي على المُصِيْبَةِ التي نَزَلَتْ بِي ، ولكن أَبْكِيْ لِمَظْلُومٍ يَصْرَخُ بالبابِ فلا أَسْمَعُ صَوْتَهُ .

ثم قال أَمَا إِنْ كَانَ ذَهَبَ سَمْعِي فإِنَّ بَصَرِيْ لَمْ يَذْهَبْ ، نَادُوا في الناسِ أَلَا لَا يَلْبَسُ ثَوْباً أَحْمَرَ إلا مَظْلُوماً ، فكان يَرْكَبُ الفِيْلَ وَيَطُوفُ طَرَفي النَّهَارِ هَلْ يَرَى مَظْلُوماً فَيُنْصِفَهُ .

هذا يَا أَمِيْرَ المُؤْمِنينَ مُشْرِكٌ باللهِ ، قَدْ غَلَبَتْ رَأْفَتُهُ بالمُشْرِكِينَ ، وَرِقَتُهُ ، على شُحِّ نَفْسِهِ في مُلْكِهِ وأنْتَ مُؤْمِنٌ باللهِ ، وابنُ عَمِّ نَبِي اللهِ لا تَغْلِبُكَ رَأفتُكَ بالمُسْلمين ، ورِقَّتُكَ على شُحِّ نَفْسِكَ ، فَانكَ لَا تَجْمَعُ الأَمْوَالَ إلَّا لِوَاحِدٍ مِن ثَلَاثَةٍ .

إن قُلْتَ أَجْمَعُهَا لِوَلَدِي فَقَدْ أراكَ اللهُ عِبَراً في الطِّفْل الصَّغِيرِ يَسْقُط مِن بَطْنِ أُمِّهِ وَمَالَهُ على الأَرْضِ مَالٌ ، وما مِن مالٍ إلا وَدُوْنَهُ يَدٌ شَحِيْحَةٌ تَحْوِيهِ ، فَمَا يَزالُ اللهُ تعالى يَلْطُفُ بِذَلِكَ الطِفْلِ حَتَّى تَعْظُمَ رغبَةَ النَاسِ إليهِ ، وَلَسْتَ الذي تُعْطِي بَلِ اللهُ يُعْطِي مَن يَشَاء .

وان قُلْتَ أَجْمَعُ لأُشَيِّدَ سُلْطَانِي فَقَدْ أَرَاكَ اللهُ عِبَراً فِيمَنْ كان قبلكَ مَا أَغنَى عَنْهُم ما جَمعُوهُ مِنَ الذهّب والفضةِ ، وما أعدُّوا مِنَ الرجِال والسلاحِ والكُراعِ وَمَا ضرُّكَ وَوَلَدَ أَبيكَ ما كنتُم فيهِ مِن قِلةِ الجِدَةِ والضَّعْفِ حينَ أرادَ الله بِكمْ ما أراد .

وان قُلْتَ أَجْمَعُ لِطَلَبِ غَايَةٍ هِيَ أَجْسَم مِن الغَايَةِ التي أنتَ فِيها فَواللهِ ما فَوقَ مَا أَنْتَ فِيه إلا مَنْزِلَةٌ لا تُدْرَك إلا بالعمَلِ الصالحِ ـ يُرِيدُ الجَنَّةَ وَصَدَقَ رَحِمَهُ اللهُ ـ .

يا أميرَ المؤمنين هَلْ تُعاقِبَ مَن عَصَاكَ مِن رَعِيَّتِكَ بأَشَدَ مِنْ القَتْلِ قَالَ لَا قَالَ فَكَيْفَ تَصْنَعُ بِالمَلِكِ الذي خَوَّلَكَ ، وَمَا أَنْتَ عليهِ مِن مُلْكِ الدُنيا .

وهو تعالى لَا يُعاقِبُ مَنْ عَصَاهُ بالقَتْل ، ولكنْ يُعَاقِبَ مَن عَصَاهُ بالخُلُودِ في العَذابِ الأليمِ ، وهو الذي يَرَى مِنكَ مَا عَقَدَ عليهِ قَلْبُكَ

وَأَضْمَرْتَهُ جَوارِحُكَ فَمَاذَا تَقُولُ إذا انْتَزَعَ الْمَلِكُ الحقُ المُبين مُلْكَ الدنيا مِن يَدِكَ وَدَعَاكَ إلى الحِسَابِ هَلْ يُغْنِي عَنْكَ عندَهُ شَيءٌ مِمَّا كُنْتَ فيهِ مِمَّا شَحَحْتَ عليهِ مِن مُلْكِ الدنيا .

فَبَكَى المَنْصُورُ بُكَاءً شَدِيْدَاً حَتَّى نَحَبَ وارْتَفَعَ صَوْتُهُ ثُم قَالَ كَيْفَ احْتيالِي فِيْمَا خُوِّلْتُ فِيهِ ولم أَرَ مِنَ الناسِ إلَّا خَائِناً قال يَا أمِيْرَ المُؤْمِنين عَلَيْكَ بالأئمةِ الأعْلَامِ المُرشِدين قال وَمَن هُم ، قال العُلَمَاءُ قال قَدْ فَرُّوا مِنِّيْ ، قَالَ هَرَبُوا مِنْكَ مَخَافَةَ أن تَحْمِلَهُم على مَا ظَهَرَ مِن طَرِيْقَتِكَ مِن قِبَلِ عُمَّالِكَ .

ولكن افْتَحْ الأَبْوَابَ وَسَهِّل الحِجَابَ ، وانْتَصِرْ لِلْمَظْلُومِ من الظَّالِم ، وامْنَعِ المَظَالِمَ وَخُذْ الشَّيءَ مِمّا حَلَّ وَطَابَ واقْسِمْهُ بالحَقِ والعَدلِ ، وأنا ضَامِنٌ عَلَى أنَّ مَن هَرَبَ مِنْكَ أَنْ يَأتِيْكَ ، فَيُعَاوِنَكَ على صَلاحِ أمْرِكَ ، وَرَعِيَّتِكَ فقالَ المَنْصُورُ اللَّهُمَّ وَفِّقْنِي أَنْ أعْمَلَ بما قالَ هذا الرجلُ وأقِيْمَتِ الصلاةُ فَخَرَجَ فَصَلَى بِهِم الخ .

اللهم قَوِ إيمانَنَا بِكَ وبملائكتِكَ وَبِكُتُبِكَ وَبِرُسُلِكَ وباليومِ الآخر وبالقدرِ خيرِهِ وشرِّهِ اللهمّ نَوِّرْ قُلُوبَنَا بِطَاعَتِكَ وَحُل بَيْنَنا وَبَيْنَ مَعْصِيَتِكَ وألْهِمْنَا ذِكرَكَ وَشُكْرَكَ واجْعَلْنَا هُدَاةً مُهْتَدين واغفر لَنَا وَلِوالِدَينا ولجميعِ المسلمينِ بِرَحْمَتِكَ يا أرحَمَ الراحِمين وصلَّى الله على نبينا محمدٍ وعلى آلِهِ وصحبِهِ أَجْمَعِيْن .

نَصِيْحَةُ سُفْيَانَ الثَّوْرِيْ لِهَرُوْنَ الرَّشِيْد

مِن عَبْدِ اللهِ هَارُوْنَ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ ، إلى أخيهِ في اللهِ سُفيانَ ابنِ

سعيدٍ الثَّوْرِي .

أما بَعدُ يا أخي ، فَقَدْ عَلِمْتَ أَنَّ اللهَ آخَى بَيْنَ المُؤْمِنينَ ، وَقَد آخَيْتُكَ في اللهِ مُؤآخاةً لم أصْرِمْ فِيهَا حَبْلكَ ، ولم أَقْطَعْ منها وِدَّكَ ، وإني مُنْطَوٍ لَكَ على أَفْضَلِ المَحَبَّةِ ، وأَتَمِ الإِرَادَةِ .

ولولاَ هَذهِ القِلاَدَةِ الَّتِي قَلَّدنيْهَا اللهُ تعالى لأَتَيْتُكَ ولو حَبْواً ، لما أجدُ لَكَ في قَلْبِي مِن المَحَبَّةِ ، وإنَّهُ لَمْ يَبْقَ أحدٌ مِن إخواني إلاَّ زَارَنِي وهَنأَنِي بِمَا صِرْتُ إليهِ .

وقد فَتَحْتُ بُيُوْتَ الأَمْوَالِ ، وأَعْطَيْتُهُـم مِن المَوَاهِبِ السَّنِيةِ ، ما فَرِحَتْ بِهِ نَفْسِي وَقَرَّتْ بِهِ عَيْنِي وَقَدْ اسْتَبْطَأْتُكَ ، وقد كَتَبْتُ كِتَاباً مِنِي إليكَ أُعْلِمُكَ بالشوقِ الشَّدِيْدِ إليكَ .

وقد عَلِمْتَ يا أَبا عَبدِ اللهِ ما جَاءَ في فَضْلِ زيارَةِ المؤمِنِ وَمُوَاصَلَتِهِ فَاذا وَرَدَ عَلَيْكَ كِتابِي هذا فالعَجَل العَجَلَ .

ثم أَعْطَى الكِتَابَ لِعَبَّادِ الطالِقانِي وأَمَرَه بايْصَالِهِ إلَيْهِ ، وأَنْ يُحْصِى عليهِ بِسَمْعِهِ وَقَلْبِهِ دَقِيْقَ أَمْرِهِ وَجَلِيْلَهُ لِيُخْبِرَهُ بِهِ . قال عَبّادُ : فانطلَقْتُ إلى الكُوفَةِ فَوَجَدْتُ سُفيانَ في مَسْجِدِهِ ، فلما رآني على بُعْدٍ قَامَ وقالَ : أَعُوذُ باللهِ السَّمِيْعِ العَلِيمِ مِن الشيـطَانِ الرجيم ، وأعوذُ بكَ اللَّهُم مِن طارِقٍ يَطْرُقُ إلا بخَيرٍ .

قال : فَنَزَلتُ عن فَرَسِي بِبابِ المسجدِ ، فقامَ يُصَلِي وَلَمْ يَكُن وَقتَ صَلاةٍ : فَدَخَلْتُ وَسَلَّمْتُ فَمَا رَفَع أَحَدٌ مِن جُلَسَائِهِ رأسَه إلَيَّ ، قالَ : فَبَقِيْتُ وَاقِفاً وَمَا مِنْهم أَحَدٌ يَعْرِضُ عَلَيَّ الـجُلُوسَ ، وَقَدْ عَلَتْنِي مِن

هَيْبَتِهم الرِّعْدَةُ ، فَرَمَيتُ بالكِتَابِ إليهِ .

فلمَّا رأى الكِتَابَ إرتَعَدَ وَتَبَاعَدَ مِنْه كأَنَّه حَيَّةٌ عَرَضَتْ لَهُ في مِحْرَابِهِ فَرَكَعَ وَسَجَدَ وَسَلَّمَ وأَدْخَلَ يَدَهُ في كُمِّهِ وأَخَذَهُ وَقَلَبَهُ بِيَدِهِ ، ورماهُ الى مَنْ كان خَلْفَهُ ، وقال : لِيَقْرَأَهُ بَعْضُكُم فإني أَسْتَغْفِرُ اللهَ أَنْ أَمسَ شَيْئاً مَسَّهُ ظَالِمٌ بِيَدِهِ .

قال عَبَادُ : فَمَدّ بَعْضُهم يَدَهُ اليهِ وَهُوَ يَرْتَعِدُ كَأَنَّهُ حَيَّةٌ تَنْهَشُهُ ثم قَرأَهُ فَجَعَل سُفْيَانُ يَبْتَسِمُ تَبَسُّمَ المُتَعَجِبِ ، فَلَمَّا فَرَغَ مِن قِرَاءَتِهِ ، قال أَقْلِبُوْهُ وأَكْتُبُوْا لِلظَّالِمِ على ظَهْرِهِ ، فَقِيلَ له يا أَبَا عَبْدِ اللهِ إِنَّهُ خَلِيفَةٌ فَلَو كَتَبْتَ إليهِ في بَياضٍ نَقِي لَكَانَ أَحْسَنَ .

فقال : اكتُبوا لِلظَّالِمِ في ظَهْرِ كِتَابِهِ ، فإِنْ كَانَ اكْتَسبَه مِن حَلَالٍ فَسَوْفَ يُجْزَى بِهِ وإِن كانَ اكتَسَبَهُ مِن حَرَامٍ فَسَوْفَ يُصْلَى بِهِ ولا يَبْقَى شَيءٌ مَسَّهُ ظَالِمٌ بِيَدِهِ عِنْدَنَا ، فَيُفْسِدُ عَلَيْنَا دِيْنَنَا ، فَقِيل له ما نَكْتُب إليهِ ، قال : اكْتُبُوا لَهَ :

بسم الله الرحمن الرحيم

مِنَ العَبْدِ المَيِّتِ سُفْيَانُ إلى العبدِ المَغْرُوْرِ بالآمالِ هارونِ الذي سِلِبَ حلاوةَ الايمانِ ، وَلَذّةَ قِراءةِ القرآن .

أَما بعدُ . . فإني كَتَبْتُ إليكَ أُعْلِمُكَ أَنِي قَدْ صَرَمْتُ حَبْلَكَ ، وَقَطَعْتَ وُدَّكَ ، وأنكَ قَدْ جَعَلْتَنِيْ شَاهِداً بإقرَارِكَ عَلى نَفْسِكَ في كتابِكَ بِما هَجَمْتَ عَلَى بَيْتِ مَالِ المُسْلِمِينَ فَأَنْفَقْتَهُ في غَيرِ حَقِّهِ ، وأَنْفَذْتَهُ بِغَيْرِ حُكْمِهِ ، وَلَم تَرْضَ بِمَا فَعَلْتَ وَأَنْتَ نَاءٍ عِني حَتى كَتَبْتَ إليَّ تُشهِدُني

على نَفْسِكَ .

فأَمَّا أنا فإني قد شَهِدْتُ عَلَيْكَ أَنا وَإِخْوَانُكَ الذينَ حَضَرَوْا قِرَاءَةَ كِتَابِك، وَسَنُؤَدِي الشهادَةَ غداً بَيْنَ يَدَي اللهِ الحَكَمِ العدلِ يا هارُوْنُ هَجَمْتَ على بَيْتِ مالِ المُسْلِمِيْنَ بِغيرِ رِضاهُم .

هَلْ رَضِيَ بِفِعْلِكَ المُؤَلَّفةُ قُلُوبُهم ، والعَامِلُونَ عَلَيْهَا في أَرِضِ اللهُ ، والمُجَاهِدُوْنَ في سَبْيلِ الله وابنُ السبيلِ ، أَمْ رَضِيَ بِذَلِكَ حَمَلَةُ القُرْآنِ وأَهْلُ العِلْم يَعْنِي العَامِلِيْنَ ، أَمْ رَضِيَ بِفِعْلِكَ الأَيْتَام والآرامل ، أم رَضِيَ بِذَلِكَ خَلْقٌ مِن رَعيّتِك .

فَشُدَّ يَا هَارُوْنُ مِئْزَرَكَ ، وأَعِدَّ لِلْمَسْأَلَةِ جَواباً وَلِلْبَلاَءِ جِلْباباً ، واعْلَمْ أَنّكَ سَتَقِفُ بَيْنَ يَدَيِ الحَكمِ العدلِ فاتّقِ اللهَ في نَفْسِكَ اذْ سُلِبْتَ حَلاَوَةَ العِلْمِ والزُهْدِ وَلَذَّةِ قِراءةِ القُرْآنِ ، وَمُجَالَسةَ الأَخْيَارِ ، وَرَضِيْتَ لِنَفْسِكَ أن تُكونَ ظالماً وَلِلْظَّالِمينَ إماماً .

يا هَارُوْنُ . . قَعَدْتَ على السَّرِيْرِ ، وَلَبِسْتَ الحَرِيْرَ ، وأَسْبَلْتَ سُتُوراً دُونَ بَابِك ، وَتَشَبَّهْتَ بالحَجَبَةِ بِرَبِّ العالمينَ ثم أَقْعَدْتَ أَجْنَادَكَ دُوْنَ بَابِكَ ، وَسِتْرِكَ يَظْلِمُونَ الناسَ ولا يُنْصِفونَ ، وَيَشْرَبُونَ الخَمْرَ وَيَحُدُّونَ الشَّارِبَ ، وَيَزْنُونَ وَيَحُدُّونَ الزانِيَ ، وَيَسْرِقُونَ وَيَقْطَعُون السَّارِقَ ، وَيَقْتُلُوْنَ ويُحدُّون القاتل .

أفلا كَانَتْ هَذِهِ الأَحْكَامُ عَلَيْكَ وَعَلَيْهِم قَبْلَ أَن يَحْكمُوا بِها على الناسِ .

فكيفَ بِكَ يا هَارُوْنُ غَدَا إذا نَادَى المُنَادِي مِن قِبَلِ اللهِ أُحْشُرُوْا

الظَّلَمَةَ وَأَعْوانَهُم ، فَتَقَدّمتَ بَيْنَ يَدَي اللهِ ويَداكَ مَغْلُولَتَانِ إِلَى عُنُقِكَ لَا يَفُكَهُمَا إلا عَدْلُكَ وإنصَافُكَ ، والظالِمُونَ حَوْلَكَ وأَنْتَ لَهُمْ إمَامٌ أو سَائِقٌ إلى النارِ .

وكَأَنِي بِكَ يَا هَارُوْنَ وَقَدْ أُخِذتَ بِضيقِ الخِنَاقِ ، وَوَرَدْتَ المَسَاقَ وَأَنتَ تَرَى حَسَناتِكَ في مِيْزَانِ غيرِكَ ، وَسَيّئاتِ غيرِكَ في مِيْزَانِكَ على سَيِئّآتِك ، بلاءٌ على بَلاءٍ ، وَظُلْمَةٌ فوقَ ظُلْمَةٍ .

فاتّقِ اللهَ يا هارُوْنُ في رَعِيَّتِكَ ، واحْفَظْ مُحَمَّداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ في أمَتِهِ ، واعْلَمْ أنَّ هَذَا الأَمَر لم يَصِرْ إلَيْكَ إلاَّ وَهُوَ صَائِرٌ إلى غَيرِكَ ، وَكَذَلِكَ الدُنْيَا تَفْعَلُ بِأَهْلِهَا وَاحِداً بَعْدَ واحِدٍ ، فَمِنْهم مَن تَزَوَّدَ زَاداً نَفَعَهُ ، وَمِنْهُم مَن خَسِرَ دُنْيَاهُ وآخِرَتَه ، وايَّاكَ ثمَّ إيَّاكَ أنْ تَكْتُبَ إلَيَّ بَعْدَ هَذا ، فإنِّيْ لا أُجِيْبُكَ والسَّلام .

وَلَما وَلَى ابْنُ هُبَيْرَةَ حُكْمَ الْعراق جَمَعَ فُقَهَاءَهَا وَاسْتَشَارَهُمْ فِيْمَا يَفْعَلُ إِذَا أَمَرَهُ أَمِيْرُ الْمُؤْمِنِيْنَ بِالأَمْرِ وَهُوَ يَعْتَقِدُ أَنَّ فِيْهِ ظُلْماً فَالآنَ لَهُ بَعْضُ العُلَمَاءِ الْقَوْلَ .

وَأَبي الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ إِلاَّ أَن يَصْدَعَ بِالْحَقِّ وَيُنْفِذَ الشَّعْبَ مِنْ ظُلْم ابْن هُبَيْرَةَ وَيُنْقِذَ ابْنَ هُبَيْرَة مِنْ عَذَابِ اللهِ انْ أَطَاعَهُ فَقَالَ لَهُ إِنَّ حَقَّ الرَّعِيَّةِ لَازِمٌ لَكَ وَحَقٌّ عَلَيْكَ أَنْ تَحُوطَهُمْ بِالنَّصِيْحَةِ وَقَدْ قَالَ رَسُوْلُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا مِنْ عَبْدٍ يَسْتَرْعِيْهُ اللَّهُ رَعِيَّةً يَمُوْتُ يَوْمَ يَمُوْتُ وَهُوَ غَاشّ لِرَعْيَّتِهِ إِلاَّ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الجَنَةَ .

اعْلَمْ أَنَّ حَقَّ اللَّهِ أَلْزَم مِنْ حَقِّ أَمِيْرِ المُؤْمِنِيْنَ واللَّهُ أَحَقُّ أَنْ يُطَاعَ

وَلَا طَاعَةَ لِمَخْلوقٍ في مَعْصِيَةِ الْخَالِقِ يَا ابْنَ هبَيْرَةَ اتَّقِ اللَّهَ فإِنَّهُ يُوْشِكُ أَنْ يَأْتِيْكَ رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِيْنَ يُزِيْلُكَ عَنْ سَرِيْرِكَ وَيُخْرِجُكَ مِنْ سِعَةِ قَصْرِكَ إِلى ضِيْقِ قَبْرِكَ فَتَدَعُ سُلْطَانَكَ وَدُنْيَاكَ خَلْفَ ظَهْرِكَ وَتَقْدَم عَلى رَبِّكَ وَتَنزلُ على عَمَلِكَ .

يَا ابْنَ هُبَيْرَةَ إِنَّ اللَّهَ لَيَمْنَعُكَ مِنْ أَمِيْرِ الْمُؤْمِنِيْنَ وَلَا يَمْنَعُكَ أَمِيْرُ الْمُؤْمِنِيْنَ مِنَ اللَّهِ وَإِنَّ أَمْرَ اللَّهِ فَوْقَ كلِّ أَمْرٍ وَإِنِّي أُحَذِّرُكَ بَأْسَهُ الَّذِيْ لا يُرَدُّ عَنْ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِيْنَ .

فَقَالَ لَهُ ابْنُ هُبَيْرَةَ إِرْبَعْ عَلَى ظَلْعِكَ أَيُّهَا الشَّيْخُ وَأَعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ أَمِيْرِ الْمُؤْمِنِيْنَ فانَّ أميْرَ الْمُؤْمِنِيْنَ صَاحِبُ الْعِلْمِ وَصَاحِبُ الحُكْم وَصَاحِبُ الَفَضْلِ وَإِنَّمَا وَلَّاهُ الله تَعَالَى مِنْ أَمْرِ هَذِهِ الأمَّةِ لِعِلْمِهِ بِهِ وَمَا يَعْلَمُهُ مِنْ فَضْلِهِ وَنِيَّتِهِ فَقَالَ لَهُ الْحَسَنُ يَا ابْنَ هُبَيْرَةَ الْحِسَابُ وَرَائَكَ سَوْط بِسَوْط وَغَضَبٌ بِغَضَبٍ وَاللَّهُ بالْمِرْصَادِ إِنَّكَ إِنْ تَلْقَ مَنْ يَنْصَحُ لَكَ في دِيْنِكَ وَيَحْمِلُكَ عَلَى أَمْرِ آخِرَتِكَ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَلْقَى رَجُلًا يَغُرُّكَ وَيمنِّيك فَقَامَ ابنُ هُبَيْرَةَ مِن المَجْلِسِ وَقَد اصْفَرَّ وَجْهُهُ وَتَغَيَّرَ لَوْنُهُ وَعَلَيْهِ الْكَآبَه وَقَامَ الحَسَنُ وَقَدْ أَدَّى مَا عَلَيْهِ وَأَرْضَى رَبَّهُ وَأَخْلَصَ لَهُ وَنَصَحَ لِأُمَّتِهِ وَهَكَذَا العُلَمَاءُ يَنْبَغِي أَنْ يَكُوْنُوا .

هَذِهِ نَمَاذِجُ وَأَمْثِلَةٌ سُقْنَاهَا مِنْ سِيْرَةِ العُلَمَاءِ الْمُخْلِصِيْنَ الْعَامِلِيْنَ بِعِلْمِهِمْ الَّذِيْنَ لَا تَأْخُذُهُمْ في اللهِ لَوْمَةُ لَائِم واللَّهُ أَعْلَمُ وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى نَبِيْنَا مُحَمْدٍ وَعَلى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ .

(فَصْــلٌ)
في الأَمْر بالمَعْرُوْفِ والنَّهْي عَن الْمُنْكَر

اعْلَم وَفَّقَكَ اللَّهُ أَنَّ الآمْرَ بِالْمَعْرُوْفِ والنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ يَجِبَانِ وُجُوبَ كَفائِيٍّ يُخَاطَبُ بِهِ الْجَمِيْعُ ، وَيَسْقُطُ بِمَنْ يَقُوْمُ بِهِ ، وَان كَانَ الْعَالِمُ بِهِ وَاحِداً تَعَيَّنَ عَلَيْهِ ، وَانْ كانُوا جَمَاعَةً لَكِنْ لاَ يَحْصُلُ الْمَقْصُودُ الاَّ بِهِمْ جَمِيْعاً تَعَيَّنَ عَلَيْهِمْ .

وَأَمَّا تَعْرِيْفِهُمَا ، فالمَعْرُوْفُ اسْمٌ جَامِعٌ لِكُلِّ مَا عُرِفَ مِنْ طَاعَةِ اللَّهِ وَالتَّقَرُّبِ اليْهِ وَالاحْسَانِ الى النَّاسِ ، والمُنْكَرُ ضِدُّهُ وَعَرَّفَهُ بَعْضُهُمْ بِقَوْلِهِ الْمُنْكَرُ اسْمٌ جَامِعٌ لِكُلِّ مَا يَكْرَهُهُ اللَّهُ وَيَنْهَى عَنْهُ وَالمَعْرُوْفُ اسْمٌ جَامِعٌ لِكُلِّ مَا يُحِبُّهُ اللَّهُ مِنَ الإِيْمَانِ والْعَمَلِ الصّالِحِ .

وَقَدْ حَبَّبَ اللَّهُ إِلَيْنَا الْخَيْرَ وَأَمَرَنَا أَنْ نَدْعُوَ إِلَيْهِ ، وَكَرَّهَ إِلَيْنَا الْمُنْكَرَ وَنَهَانَا عَنْهُ ، وَأَمَرَنَا بِمَنْعِ غَيْرِنَا مِنْهُ ، كَمَا أَمَرَنَا بِالتّعَاوُنِ عَلَى البِرِّ وَالتَّقْوَى . فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَتَعَاوَنُوْا عَلى البِرِّ والتَّقْوَى ، وَلاَ تَعَاوَنُوا عَلى الإِثْمِ والْعُدْوَانِ ، وَاتَّقُوْا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيْدُ العِقَابِ ﴾ .

وَالأَصْلُ في وجُوْبِهما : الْكِتَابُ وَالسُّنَّةَ وَالإِجْمَاع قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَلِتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُوْنَ إِلَى الْخَيْرِ ، وَيَأْمُرُوْنَ بِالْمَعْرُوْفِ وَيَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنْكَرِ وَأولَئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُوْنَ ﴾ .

وَأَبَانَ جَلَّ وَعَلاَ أَنَّنَا بِهِمَا خَيْرُ الأُمَمِ فَقَالَ : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُوْنَ بِالْمَعْرُوْفِ وَتَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنْكَر ، وَتُؤْمِنُوْنَ بِاللَّهِ ﴾ .

وَفِيْ الْمُسْنَدِ وَالسُّنَنِ مِنْ حَدِيْثِ عَمْرو بْنِ مُرَّةَ عَنْ سَالِم بْنِ أَبِيْ الْجَعْدِ عَنْ أَبِيْ عُبَيْدَةَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بِنْ مَسْعُوْدٍ عَنْ أَبِيْهِ قَالَ قَالَ رَسُوْلُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَان إِذا عَمِلَ الْعَامِلُ الْخَطِيئَةَ جَاءَهُ النَّاهِيْ تَعْذِيْراً فإِذَا كَانَ الْغَدُ جَالَسَهُ وَوَاكَلَهُ وَشَارَبَهُ كَأَنَّهُ لَمْ يَرَهُ عَلَى خَطِيْئَةٍ بِالأَمْسِ فَلَمَّا رَأَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ذَلِكَ مِنْهُمْ ضَرَبَ بِقُلُوْبِ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ ثُمَّ لَعَنَهُمْ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِمْ دَاوُدَ وَعِيْسَى بْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوْا يَعْتَدُوْنَ .

وَالَّذِيْ نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوْفِ وَلَتَنْهَوُنَّ عَنْ الْمُنْكَرِ وَلِتَأْخُذُنَّ عَلَى يَدِ السَّفِيْهِ وَلَتَأْطُرُنَّهُ عَلَى الْحَقِّ أَطْراً أَوْ لَيَضْرِبَنَّ اللَّهُ بِقُلُوْبِ بَعْضِكُم عَلَى بَعْضٍ ثُمَّ لِيَلْعَنَكُمْ كَمَا لَعَنَهُمْ .

وَذَكَرَ ابْنُ أَبِيْ الدُّنْيَا عَنْ ابْرَاهِيْمَ بْنِ عَمْرو الصَّنْعَانِيِّ فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَى يُوشِعَ بْنِ نُونٍ إِنِّي مُهْلِكٌ مِنْ قَوْمِكَ أَرْبَعِيْنَ أَلْفاً مِنْ خِيَارِهِمْ وَسِتِّيْنَ أَلْفاً مِنْ شِرَارِهِمْ قَالَ يَا رَبِّ هَؤُلاَءِ الاشْرَارُ فَمَا بَالُ الأَخْيَارِ قَالَ إِنَّهُمْ لَمْ يَغْضَبُوا لِغَضَبِيْ وَكَانُوا يُواكِلُونَهُمْ وَيُشَارِبُونَهُم .

وَذَكَرَ أَبُوْ عُمَرَ بْن عَبْدِاللَّهِ عَنْ أَبِيْ عِمْرَانَ قَالَ بَعَثَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مَلَكَيْنِ إِلى قَرْيَةٍ أَنْ دَمِّرَاهَا بِمَنْ فِيْهَا فَوَجَدُوا فِيْهَا رَجُلاً قَائِماً يُصَلِّي في مَسْجِدٍ فَقَالاَ يَا رَب إِنَّ فِيْهَا عَبْدَكَ فُلاَناً يُصَلِّيْ فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ دَمِّرَاهَا وَدَمِّرَاهُ مَعَهُمْ فَإِنَّهُ مَا تَمَعَّرَ وَجْهُهُ فِيَّ قَطُّ .

وَذَكَرَ الْحُمَيْدِيُّ عَنْ سُفْيَانَ بْنِ عُيَيْنَةَ قَالَ حَدَّثَنِيْ سُفْيَانُ ابْنُ سَعِيْدٍ عَنْ مِسْعَرٍ أَنَّ مَلَكاً أُمِرَ أَنْ يَخْسِفَ بِقَرْيَةٍ فَقَالَ يَا رَبِّ إِنَّ فِيْهَا فُلاَناً الْعَابِدَ .

فَأَوْحَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَيْهِ أَنْ بِهِ فَابْدَأْ فَإِنَّهُ لَمْ يَتَمَعَّرْ وَجْهُهُ فِيَّ سَاعَةً قَط .

وَذَكَرَ ابْنُ أَبِيْ الدُّنْيَا عَنْ وَهْبِ بْنِ مُنَبِّهٍ قَالَ لَمَّا أَصَابَ دَاوُدُ الخَطِيْئَةَ قَالَ يَا رَبِّ اغْفِرْ لِيْ قَالَ قَدْ غَفَرْتُ لَكَ وَأَلْزَمْتُ عَارَهَا بَنِيْ اسْرَائِيْلَ قَالَ يَا رَبِّ كَيْفَ وَأَنْتَ الحَكَمُ الْعَدْلُ لَا تَظْلِمُ أَحَداً أَنَا أَعْمَلُ الْخَطِيْئَةَ وَتُلْزِمُ عَارَهَا غَيْرِيْ .

فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ إِنَّكَ لَمَّا عَمِلْتَ الْخَطِيْئَةَ لَمْ يَعْجَلُوا عَلَيْكَ بِالإِنْكَارِ .

وَأَوْضَحَ سُبْحَانَهُ أَنَّ الأَجْرَ بِهِمَا عَظِيْمٌ فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ : ﴿ لَا خَيْرَ فِيْ كَثِيْرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ ، أَوْ مَعْرُوْفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيْهِ أَجْراً عَظِيْماً ﴾ .

وَوَصَفَ الْمُؤْمِنِيْنَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِأَنَّ بَعْضَهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُوْنَ بِالْمَعْرُوْفِ وَيَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنْكَرِ وَيُقِيْمُونَ الصَلَاةَ وَيُؤْتُوْنَ الزَّكَاةَ وَيُطِيْعُونَ اللَّهَ وَرَسُوْلَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيْزٌ حَكِيْمٌ .

وَشَهِدَ اللَّهُ بِالصَّلَاحِ لِلْمُؤْمِنِيْنَ الَّذِيْنَ أَضَافُوْا إِلىٰ ايْمَانِهِمْ الْقِيَامَ بِهِمَا فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ، يُؤْمِنُوْنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوْفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَيُسارِعُونَ فِيْ الخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِيْنَ ﴾ .

وَبَيَّنَ جَلَّ شَأْنُهُ أَنَّ قَوْماً مِنْ بَنِيْ اسْرَائِيْلَ اسْتَحَقُّوْا اللَّعْنَ بِتَرْكِهِمَا فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ لُعِنَ الَّذِيْنَ كَفَرُوْا مِنْ بَنِيْ اسْرَائِيْلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ

وَعِيْسَى بْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوْا يَعْتَدُوْنَ ، كَانُوْا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوْهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُوْنَ ﴾ .

قَالَ الْقُرْطُبِيُّ وَبَّخَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عُلَمَاءَهُمْ فِيْ تَرْكِهِمْ نَهْيَهُمْ فَقَالَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ .

قَالَ وَدَلَّتْ الآيَةُ عَلَى أَنَّ تَارِكَ الْمُنْكَرِ الَّذِيْ لَا يَنْهَى عَنْهُ كَمُرْتَكِبِهِ .

وَذَلِكَ أَنَّ الأُمَّةَ فِي عَهْدِ اسْتِقَامَتِهَا وَتَمَسُّكِهَا بالسُّنَنِ لَا تَتْرُكُ بَيْنَ أَظْهُرِهَا عَاصِياً وَلَا مَعْصِيَةً فَإِذَا رَأَتْ شَيْئاً مِنْ ذَلِكَ ثَارَتْ ثَوْرَةَ الأُسُوْدِ وَلَمْ تَسْكُنْ حَتَّى تُذِيْقَهُ مَا يَسْتَحِقّ عَلَى مَعْصِيَتِهِ .

كُلُّ ذَلِكَ غَيْرَةً عَلَى دِيْنِهَا وَطَلَباً لِمَرْضَاةِ رَبِّهَا . وَالْعُصَاةُ وَالْفَسَقَةُ يَرْتَدِعُونَ عِنْدَمَا يَرَوْنَ رَدْعَ اخْوَانِهِمْ . انْتَهَى كَلَامُهُ .

وَفِي سُوْرَةِ الاعْرَافِ يُخْبِرُنَا جَلَّ وَعَلَا عَمَّا كَانَ مِنْ بَنِيْ اسْرَائِيْلَ وَمَا نَزَلَ بِهِمْ مِنْ العَذَابِ فَيَقُوْلُ : ﴿ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُوْنَ قَوْماً اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيْدَاً قَالُوْا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ . فَلَمَّا نَسُوْا مَا ذُكِّرُوْا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِيْنَ يَنْهَوْنَ عَنْ السُّوء وَأَخَذْنَا الَّذِيْنَ ظَلَمُوْا بِعَذَابٍ بَئِيْسٍ بِمَا كَانُوْا يَفْسُقُوْنَ فَلَمَّا عَتَوا عَمَّا نُهُوْا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُوْنُوْا قِرَدَةً خَاسِئِيْنَ﴾ . فأفادَتْ هَذِهِ الآيَاتُ أَنَّ بَنِيْ اسْرَائِيْلَ صَارُوْا إِلَى ثَلَاثِ فِرَقٍ .

فِرْقَةٌ ارْتَكَبَتْ الْمَحْذُوْرَ وَاحْتَالُوْا عَلَى اصْطِيَادِ الأَسْمَاكِ يَوْمَ السَّبْتِ الْمُحَرَّمِ فِيْهِ الصَّيْدُ ، وَفِرْقَةٌ نَهَتْ عَنْ ذَلِكَ واعْتَزَلَتْهُمْ ، وَفِرْقَةٌ سَكَتَتْ فَلَمْ تَفْعَلْ وَلَمْ تَنْه وَلَكِنَّهَا قَالَتْ لِلْمُنْكِرَةِ لِمَ تَعِظُوْنَ قَوْماً اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ

مُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيْداً ، أَيْ لِمَ تَنْهَوْنَ هَؤُلاَءِ وَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّهُمْ قَدْ هَلَكُوْا وَاسْتَحَقُّوا الْعُقُوْبَةَ مِنَ اللَّهِ فَلاَ فَائِدَةَ فِي نَهْيِكُمْ إِيَّاهُمْ .

قَالَتْ لَهُمْ الْمُنْكِرَةُ مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ أَيْ فِيْمَا أُخِذَ عَلَيْنَا مِنْ الأَمْرِ بِالمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُوْنَ أَيْ وَلَعَلَّ لِهَذَا الإِنْكَارِ يَتَّقُوْنَ مَا هُمْ فِيْهِ وَيَتْرُكُوْنَهُ وَيَرْجِعُوْنَ إِلَى اللَّهِ تَائِبِيْنَ فَإِذَا تَابُوا تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَحِمَهُمْ .

فَلَمَّا نَسُوْا مَا ذُكِّرُوا بِهِ (أَي فَلَمَّا أَبَى الْفَاعِلُوْنَ قَبُوْلَ النَّصِيْحَةِ) أَنْجَيْنَا الَّذِيْنَ يَنْهَوْنَ عَنْ السُّوْءِ وَأَخَذْنَا الَّذِيْنَ ظَلَمُوا (أَيْ اللَّذِيْنَ ارْتَكَبُوا الْمَعْصِيَةِ) بِعَذَابٍ بَئِيْسٍ ، فَنَصَّتْ الآيَاتُ عَلَى نَجَاةِ النَّاهِيْنَ وَهَلاَكِ الظَّالِمِيْنَ وَسَكَتَتْ عَنْ السَّاكِتِيْنَ .

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا كَانُوا ثَلاَثَةً ثُلُثٌ نَهَوْا وَثُلثٌ قَالُوا لِمَ تَعِظُوْنَ قَوْماً اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيْداً وَثُلُثٌ أَصْحَابُ الْخَطِيْئَةِ فَمَا نَجَا إِلاَّ الَّذِيْنَ نَهَوْا وَهَلَكَ سَائِرُهُمْ وَهَذَا اسْنَادُهُ جَيِّدٌ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ .

وَفِي الحَدِيْثِ الثَّابِتِ عَنْ أَمِيْرِ الْمُؤْمِنِيْنَ أَبِيْ بَكْرٍ الصِّدِيْق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ خَطَبَ النَّاسَ عَلَى مِنْبَرِ رَسُوْل اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ : « أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّكُمْ تَقْرَءُوْنَ هَذِهِ الآيَةَ وَتَضَعُونَهَا عَلَى غَيْرِ مَوْضِعِهَا ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لاَ يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ﴾ .

وَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُوْلَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُوْلُ : « إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا الْمُنْكَرَ فَلَمْ يُغَيِّرُوْهُ أَوْشَكَ أَنْ يَعُمَّهُمُ اللَّهُ بِعِقَابٍ منه » وَفِي لَفْظٍ

(مِنْ عِنْدِهِ) رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ والتِّرْمِذِيْ وَقَالَ حَدِيْثٌ حَسَنٌ صَحِيْحٌ وابْنُ مَاجَةَ والنَّسَائِيُّ وَلَفْظُهُ : إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُوْلُ : « إِنَّ الْقَوْمَ إِذَا رَأَوْا الْمُنْكَرَ فَلَمْ يُغَيروْهُ عَمَّهُمُ اللَّهُ بِعِقَابٍ » .

وَفِيْ رِوَايَةٍ لِأَبِيْ دَاوُدَ سَمِعْتُ رَسُوْلَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُوْلُ : « مَا مِنْ قَوْمٍ يُعْمَلُ فِيْهِمْ بِالْمَعَاصِيْ ثُمَّ يَقْدِرُوْنَ عَلَى أَنْ يُغَيِّرُوْا ثُمَّ لَا يُغَيِّرُوْا إِلَّا يُوشِكَ أَنْ يَعُمَّهُمُ اللَّهُ مِنْهُ بِعِقَابٍ » وَفِيْ رِوَايَةٍ : « إِنَّ النَّاسَ إِذا رَأَوْا الظَّالِمَ فَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدَيْهِ أَوْشَكَ أَنْ يَعُمَّهُم اللَّهُ بِعِقَابٍ مِنْ عِنْدِهِ » .

وَقَالَ الشَّيْخُ عَبْدُاللَّهِ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ حُمَيْدٍ وَلَقَدْ وَصَلْنَا إِلى حَدٍ مَاتَتْ فِيْهِ الْغَيْرَةُ الدِّيْنِيَّةُ عِنْدَ كُلِّ أَحَدٍ مِمَّنْ يُرْجَى وَيُظَنُّ أَنَّهُمْ حُمَاةِ الإِسْلَامِ وَأَبْطَالَ الدِّيْنِ مِمَّا جَعَلَ العُصَاةَ يَمْرَحُونَ فِي مَيَادِيْنِ شَهَواتِهِمْ وَيَفْتَخِرُوْنَ بِعِصْيَانِهِمْ بِدُوْنِ حَسِيْبٍ وَلَا رَقِيْبٍ .

وَلَوْ شِئْتُ لَقُلْتُ وَلَا أَخْشَىٰ لَائِماً نَحْنُ فِيْ زَمَنٍ عَلَا فِيْهِ وَاعْتَزَّ أَرْبَابُ الرَّذَائِلِ وَأَصْبَحَتْ الدَّوْلَةُ لَهُمْ وَأَهْلُ الْفَضِيْلَةِ الْمُتَمَسِّكُوْنَ بِأَهْدَابِ دِيْنِهِمْ عِنْدَمَا يُنْكِرُوْنَ عَلَى الْمُجْرِمِيْنَ إِجْرَامهُمْ يَكُوْنُوْنَ كَالْمضغَةِ في الأَفْوَاهِ الْبَذِيْئَةِ تَرْمِيْهِمْ بِكُلِّ نَقِيْصَةٍ وَأَقَلُّ مَا يَقُوْلُوْنَ إِنَّهُمْ مُتَأَخِّرُوْنَ جَامِدُوْنَ في بَقَايَا قُرُوْنِ الْهَمَجِيَّةِ يَسْتَهْزِؤُنَ وَيُقَهْقِهُوْنَ وَيَغْمِزُونَ بالحَواجِبِ وَالعُيونِ وَيُخرِجُون أَلسِنَتَهم سُخْرِيَة واسْتِهْزاءً بهم وَيَضْحَكُون مِن عُقولِهم لَمَّا راجَتْ الرَّذِيْلة هَذا الرَّوَاجُ وما دَرَى هَؤلآءِ أَنَّهم في غَايَةٍ مِن السُّقُوطِ والهَمَجِيَّةِ لِفَسَادِ عُقولِهم وَبُعْدِهم عن مَعْرِفَةِ أَوَامِرِ دِيْنِهِم .

وَنَاهِيْكَ لَوْ قَامَ كُلّ مِنّا بما عَلَيهِ مِن الدَّعْوَةِ لـلإِسْلَامِ والأَمْـرِ

بالمَعْرُوفِ والنهي عن المنكر وارشَادِ النَّاسِ وَعِظتِهم وَتَذْكِيرِهم بما فِيْهِ صَلاَحُهم واسْتِقَامَتُهم لا اسْتَقَرَّ الخَيْرُ والمَعْرُوفِ فِيْنَا وَامْتَنَعَ فُشُوُّ الشَّرِّ والْمُنْكَرِ بَيْنَنَا أ هـ واللهُ أعلَمُ وصلَّى اللهُ على مُحَمَّد .

(فَصْـلٌ)

وَعَن أبي سَعِيْد الخُدْري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللهُ صَلَّى الله عَلَيهِ وسَلَّمَ يَقولُ : « مَنْ رَأَى مِنْكُم مُنْكراً فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ فإنْ لَمْ يَسْتَطع فَبِلِسَانِهِ فإنْ لَم يَسْتَطع فَبِقَلْبِهِ وَذَلِكَ أَضْعَفُ الإِيْمَانِ » رَوَاهُ مُسْلِم .

وَعَنْ ابن مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عنه أنَّ رسُولَ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّم قالَ : « مَا مِن نبي بَعَثُه اللهُ في أمّةٍ قَبْلِي إلا كانَ لَه مِنْ أُمَّتِهِ حَوَارِيُّونَ وأصْحَابٌ يأخذُونَ بِسُنّتِهِ ، وَيَقْتَدُوْنَ بِأَمْرِهِ » .

ثُمَّ تَخَلَّفَ مِن بَعْدِهم خُلوفٌ يَقُولُونَ مَا لاَ يَفْعَلُونَ وَيَفْعَلُونَ مَا لاَ يُؤمَرُونَ ، فَمَن جَاهَدَهُم بِيَدِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ ، وَمَن جَاهَدَهُم بِلِسَانِهِ فَهُوَ مُؤْمنٌ ، وَمَنْ جَاهَدَهُم بِقَلْبِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ ، لَيس وَرَاءَ ذَلِكَ مِن الإِيْمَانِ حَبَّةُ خَرْدَلٍ ، رَوَاهُ مُسْلم .

وَعَنْ حُذَيفة رَضِيَ اللهُ عنهُ عن النَّبي صَلَّى اللهُ عليهِ وسلم قال : « والذي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَأْمُرونَّ بالمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوُنَّ عن المُنْكَرِ أَوْ لَيُوْشِكَنَّ اللهُ أنْ يَبْعَثَ عليكُم عِقَاباً مِنهُ ثم تَدْعُوْنَهُ فَلاَ يُسْتَجَابُ لَكُمْ » رَوَاهُ التِّرْمِذِيّ ، وَقَالَ حَدِيْث حَسَنٌ .

وَرَوى الترمذيّ عن أبي هريرة أنّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم مَرَّ على صُبْرَةِ طَعَامٍ فَأَدْخَل يَدَه فيها فَنَالَتْ أَصَابِعُه بَللاً فقالَ : « مَا هَذا

يَا صَاحِبَ الطَّعَام ؟ فقال : أَصَابَتْهُ السَّماءُ يَا رَسولَ اللهِ قال : أَفَلَا جَعَلْتَه فَوْقَ الطَّعَامِ حَتى يَرَاهُ النَّاسُ مَن غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا » .

فَهَذَا نَهْيٌ منهُ صَلَّى الله عليه وسلم عَن مُنْكَرٍ ، هُوَ غِشُّ الناسِ في طَعَامهم وأَجْمَعَتْ الأُمَّةُ على وُجُوبِ الأَمْرِ بالمَعْرُوفِ والنَّهيِ عن المُنْكَر .

وَأَخَرَج الامَامُ أَحْمَد في المَسْنِدِ أنَّ الوَليدَ بن عُقْبَةَ أَخَّرَ الصلاةَ مرّةً فقامَ عبْدُ اللهِ بن مَسْعُودٍ فَثَوَّبَ بالصَّلَاةِ فَصَلَّى بالنَّاسِ فأَرْسَلَ إليهِ الوَلِيْدُ : مَا حَمَلكَ على مَا صَنَعْتَ أَجَاءَك مِن أَميرِ المؤمنينَ أمْرٌ فِيْمَا فَعَلْتَ أَمِ ابْتَدَعْتَ قالَ لَمْ يَأْتِنِيْ أَمْرٌ مِن أَمِيْرِ المؤمنِينَ وَلِم ابْتَدَعْ وَلَكِنْ أَبَى اللهُ وَرَسُولَهُ عَلَيْنَا أَنْ نَنْتَظِرُكَ بِصَلاتِنا وَأَنْتَ في حَاجَتِكَ .

قَالَ شَيْخُ الإِسْلَامِ رَحِمَهُ اللهُ : لَا بُدَّ مِن العِلْمِ بالمَعْرُوْفِ والمُنْكَرِ والتَّمْيِيْزِ بَيْنَهُمَا . الثَّاني أنه لا بُدَّ مِن العِلْمِ بِحَالِ المَأْمُورِ والنَّهْيِ ، وَمِنَ الصَّلَاحِ أَنْ يَأتِيَ بالأَمْرِ والنَّهي بالصِّرَاطِ المُستقيمِ وهو أَقْرَبُ الطّرقِ إلى حُصُولِ المَقْصُودِ ولا بدَّ في ذلكَ مِن الرِّفقِ وَلا بُدَّ أنْ يَكونَ حَلِيْماً صَبُوراً على الأذى فانَّهُ لا بُدَّ أن يَحْصُل له أذىً فإنْ لَم يَحْلَمْ وَيَصْبِرَ كانَ ما يُفْسِدُ أَكْثَرَ مِمَّا يُصْلِحُ فَلَا بُدَّ مِنَ العِلْمِ والرِّفْقِ والصَّبْرِ ، والعِلْم قَبْلَ الأَمْرِ والنَّهي والرِّفْقِ مَعَهُ والصَّبْرُ بَعْدَهُ .

وَقال سُفيانُ لا يَأْمُرْ بالمَعْرُوفِ ولا يَنْهَى عن المُنْكَر إلَّا مَنْ كَان فِيهِ خِصَالٌ ثلاثٌ رَفِيقٌ بِمَا يَأْمُرُ رَفِيقٌ بما يَنْهَى عَدْلٌ بما يأْمُر عَدلٌ بما يَنْهَى عالِمٌ بما يَأْمُرُ عالِمٌ بما يَنْهَى .

وَقال عبدُ الملكِ بنِ عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ لأَبيهِ يَا أَبَتِ ما يَمْنَعُكَ أن تَمْضِي لِمَا تُرِيْدُ مِن العَدْلِ فواللهِ مَا كُنْتُ أُبَالِيْ لو غَلَتْ بي وبكَ القدورُ في ذلكَ قال يَا بُنَيَّ إِنِّي إِنَّمَا أُرَوِّضُ الناسَ رِياضَةَ الصَّعْبِ إني أُرِيْدُ أَنْ أُجِيءَ الأَمرَ مِن العَدْلِ فأؤخِرُ ذَلِكَ حَتَّى أُخْرِجَ مَعَهُ طَمعاً مِن طَمَعِ الدنيا فَيَنْفُرُوْا مِن هَذَا وَيَسْكُنُوا لِهَذِهِ .

وَيُشْتَرَطُ في وُجُوبِ الانكارِ أَنْ يَأْمَنَ عَلَى نَفْسِهِ وَأَهْلِهِ وَمَالِهِ ، فانْ خَافَ السَّبَ أَوْ سَمَاعَ الكلامِ السَّيءِ لـم يَسْـقطْ عنه والحَزْمُ أَنْ لاَ يُبَالِي لِمَا وَرَدَ « أَفْضَلُ الجهادِ كَلِمَةُ حَقٍ عِنْدَ سُلْطانٍ جَائِرٍ » وَقولُه « لا يَمْنَعَنَّ أَحَدَكُم هَيْبَةُ النَاسِ أن يَقُولَ بِحَقٍ إذا عَلِمَهُ » .

وقال ابنُ القيم رحمه اللهُ : انكارُ المنكرِ له أربعُ درجاتٍ :

(الأُولَى) أنْ يَزولَ وَيَخلُفَهُ ضِدُهُ .

(الثانيةُ) أن يَقِلَّ وانْ لَم يَزلْ مِن جُمْلَتِهِ .

(الثالثة) أن يَخْلُفَهُ ما هُو مِثلُهُ .

(الرابعة) أن يَخْلُفَهُ ما هُوَ شَر منه .

فالدرجتان الأُولَيَانِ مَشْرُوْعَتَانِ ، والثالثةُ مَوْضِعُ اجتهادٍ والرابعـةُ مُحَرَّمَةٌ ، وَلْيَحْذَرِ الآمرُ والناهِيُ مِن أنْ يُخَالِفَ قولَهُ أو أنْ يَأمُرَ بِمَالا يَأْتَمِرُ بِهِ .

فَقَدْ وَرَدَ عن أَنسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللهُ عنه قال : قال رسولُ الله صلى اللهُ عليه وسلم : « مَرَرْتُ ليلةَ أُسْرِيَ بِي على قومٍ تُقْرَضُ شِفَاهُهُم

بِمَقَارِيْضَ مِن نَارٍ : قال قُلْتُ مَنْ هَؤُلَاءِ قَال خُطَبَاءُ أُمَّتِكَ مِن أهلِ الدنيا مِمَّنْ كانُوا يأمُرُوْنَ الناسَ بالبرِ وَيَنْسَوْنَ أَنْفُسَهُم وَهُمْ يَتْلُونَ الكتابَ أَفلا يَعْقِلون » . وَحَتَّى لَا يَتَعَرَّضَ لِسُخْرِيَّةِ الناسِ بِهِ واسْتِهْزَائِهِم به وحتى تكونَ دعوتُه مَقْبُولَةً .

(فَصْــلٌ)

قال شَيخُ الإسلامِ رحمـه اللـه : مَن لَمْ يَكنْ في قَلْبِهِ بُغْضُ ما يُبْغِضُه اللهُ وَرَسولُه مِن المنكرِ الذي حَرَّمَهُ مِن الكفرِ والفُسوقِ والعِصيانِ ، لم يَكُنْ في قَلْبِهِ الإيمانُ الذي أَوْجَبَهُ اللهُ عليه فانَّ مَن لم يَكنْ مُبْغِضاً لِشَيءٍ مِن المُحَرَّمَاتِ أَصْلاً لَمْ يَكُنْ مَعَهُ إيمانٌ أَصْلاً .

والحَاصلُ أنَّ الإنسانَ يَأْتِيْ مِن ذَلِكَ بِمَا يَسْتَطِيعُ ولا يُقَصِّرُ في نُصْرةِ دِينِ اللهِ ولا يَعْتَذِرْ في إِسْقَاطِ ذَلِكَ بِالاعْذَارِ التي لا تَصِحُ وَلَا يَسْقُطُ بها ما أَوْجَبَ اللهُ عليهِ مِن أَمْرِ اللهِ ، وَعَليهِ بالأخذِ بالرِفقِ واللُّطْفِ واظهارِ الشَّفَقَةِ والرحمةِ فانَّ ذلكَ عليهِ مَدَارٌ كَبِيْرٌ عندَ الأَمْرِ بالمعروفِ والنهيِ عن المُنْكَرِ .

قال الله تعالى : ﴿ أدعُ إلى سَبِيلِ رَبك بالحِكمةِ والموعظَةِ الحسنةِ وَجادلهم بالتّي هي أحسن ﴾ وَمِن الحكمةِ أَنْ يَدْعُوَ كُلَّ أحدٍ على حَسَبِ حالهِ وَفَهمهِ وَقَبُولِهِ وانقيادِهِ .

وَمِن الحِكْمَةِ الدَّعْوَةُ بالعلمِ والبَدَاءَةُ بالأَهَمِ فالأَهَم ، وبالأَقربِ إلى الأَذهَانِ والفَهْمِ وَبِما يكونُ قَبُولُه أتَمَّ ، وبالرِّفْقِ واللّينِ ، فإنْ انْقَادَ بالحِكْمَةِ والا فَيُنْتَقَلُ مَعَه إلى الدَّعْوَةِ بالموعِظَةِ الحَسَنَةِ ، وَهُوَ الأَمْرُ

وَالنَّهيُ المَقْرُوْنُ بالترغِيب والترهِيب .

وَلْيَحْذَرْ مِن المُدَاهَنَةِ في الدِيْن ، وَمَعْنَاهُ أن يَسْكُتَ الإنسانُ عن الأَمرِ بالمَعْرُوْفِ والنَّهيِ عن المنكرِ وعن قولِ الحقِ وكلمةِ العدلِ : طَمَعاً في الناسِ وتوَقُّعاً لِمَا يَحْصُلُ منهم مِن جاهٍ أو مالٍ أو حُظُوظِ الدنيا .

وقال أَبُو عَبْدِ اللهِ لِعُمَرَ بنِ صَالِحٍ يا أَبا حَفْصٍ يَأتِيْ على الناسِ زمانٌ يكونُ المؤمنُ فيه بَينَهُمْ مِثلَ الجِيْفَةِ ويكونُ المُنافِقُ يُشارَ اليهِ بالاصَابع فَقُلْتُ يا أَبا عبد الله وَكَيْفَ يُشارَ إلى المُنَافِقُ بالاصَابعِ فقال يا أبا حَفْص صَيَّروا أمر الله فُضُولا .

وَقَال المؤمِنُ اذا رَأَى أمْراً بالمعروف أو نَهْياً عن المُنكر لم يَصْبِرْ حتى يَأمُرَ وَيَنْهَى قالوا يعني هَذا فُضُولٌ قال والمنافقُ كُلُّ شيءٍ يَرَاهُ قَال بِيَدِهِ على فَمِهِ « أَيْ صَمَتَ فلم يَنْهَ ولم يَأْمُرْ فقالوا : نِعْمَ الرَّجُلُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الفُضُولِ عَمَلٌ » .

وَقَد رُوِيَ أن الجَارَ يومَ القيامةِ يَتعَلَّقُ بجارِهِ وَيَقولُ ظَلَمني فَيَرُدُّ عَلَيهِ بأنُهُ ما ظلَمَهُ وَلَا خَانَهُ في أهلٍ ولا مَالٍ فَيَقُولُ الجَارُ صَدَقَ إِنَّهُ لم يَخُنِّي في أَهْلٍ وَلَا مَالٍ وَلَكِنَّهُ وَجَدَنِي أَعْصِي اللهَ فلم يَنْهَنِي هَذا الأَثَرُ بالمعنى وَرُوِيَ حَدِيْثٌ آخَرَ وَيْلٌ للعَالِمِ مِنْ الجَاهِلِ حَيْثُ لَا يُعَلِّمُهُ .

وعن عُبَادة بن الصَّامِتْ رَضِيَ اللهُ عنهُ قالَ بَايَعْنَا رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلم على السَّمْعِ والطَّاعَةِ في العُسْرِ واليُسْرِ والمَنْشَطِ والمَكْرَه وعلى أَثَرَةٍ عَلَيْنَا وَعَلى أَنْ لَا يُنَازِعَ الأَمْرَ أَهْلَهُ إلا أَنْ تَرَوا كُفْراً بُوَاحاً

عِنْدَكُم مِنْ اللهِ تَعالَى فِيه بُرْهَانٌ وَعلى أَنْ نَقُولَ بالحَقِّ أَيْنَما كُنَّا لاَ نَخافُ في اللهِ لومَةَ لاَئِمٍ رَوَاهُ البُخارِيْ وَغَيْرُهُ .

وَأَخْرَجَ أَحْمَدُ وغيرُه مِن حَدِيثِ عَبْدِاللهِ بن عَمْرُو بن العَاصِ إِذَا رَأَيْتَ أمّتِي تهَابُ الظالِمَ أَنْ تَقُولَ لَهُ : إِنّكَ ظَالِمٌ فَقَدْ تُوُدِّع مَنْهُم وَلَقَدْ كَان سَلفُنا الصَّالِحُ الكرامُ لَهُم مَواقِفُ عَظِيْمَةٌ شَرِيْفَةٌ وَنَوادِرُ طَرِيفَةٌ وَقِصَصٌ غَرِيْبَةٌ وحِكَايَاتٌ عَجِيْبَةٌ دَالَّةٌ على صِدْقِ إِيْمَانِهم وَقُوّةِ يَقِيْنِهِمْ وَشِدَّةِ وَرَعِهم فكانُوا لا يَخشونَ في اللهِ لَوْمَةَ لاَئِمٍ أَوْ كَلِمَةَ مُدَاهِنْ أو فِرْيَةَ مُفْتَرٍ أو قُوَّةَ ظَالِمٍ بَلْ يُجَاهِرُونَ بالحَقِّ بِكُلِّ صَرَاحَةٍ وَيَنْطِقُوا بالصدْقِ وإِنْ غَضِبَ الخَلقُ وَيَأْمُرُونَ بالمَعْرُوْفِ وَيَنْهَونَ عن المُنْكَرِ في أَشَدَّ المَوَاقِفِ وأَحْرَجِهَا .

وَإليكَ ما كانَ مِن مَوْقِفِ الصَّحَابِّي الجَرِيْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِي رَضِيَ اللهُ عنه مَعَ مَرْوَانِ بنِ الحكمِ أمير مِن قِبلِ معاوية بن أَبِي سُفيان فَمِن السنة المأثُورةِ والطريقةِ المعروفةِ مِن فِعْلِهِ صَلَّى الله عليه وسلم إذا خَرَجَ يومَ الفِطرِ والأَضْحَى إِلى المُصَلى فَأَوَّلُ شيءٍ يَبْدَأَ بِهِ الصلاةَ .

ثُمَّ يَنْصَرِفُ فَيَقُوْمُ مُقَابلَ الناسِ والناسُ جُلُوسٌ على صُفُوفِهم فَيعَظُهُم وَيُوْصِيْهِم بتقْوى الله وَيَأْمُرُهُم بحَلالِ اللهِ وَيَنْهَاهُم عن حَرَامِهِ ، ثُمَّ يَنْصَرِفُ ، قال أَبُو سَعِيْدٍ فَلَمْ يَزَلِ الناسُ عَلَى ذَلِكَ حَتَّى خَرَجْتُ مَعَ مَرْوَانَ وَهُوَ أمير المدينةِ في عيْدِ الأَضْحَى أو الفِطرِ فلمَّا أَتَيْنَا المُصَلَّى إِذَا مِنْبَرٌ بَنَاهُ كَثِيرُ بنُ الصَّلْتِ التابعي الكَبِيرِ والمَولُود في الزَّمَن النَّبوي .

فإِذا مَرْوَانُ يُرِيْدُ أَنْ يَرْتَقِيَهِ قَبْلَ أَنْ يُصَلِي وفيه مُخَالَفَةٌ لِلسُّنَّةِ

الصَّحِيْحَةِ والعَملِ المأثورِ عن النبي صلَّى الله عليه وسلم فَجَذَبْتُ بِثَوْبِهِ لِيَبْدَأَ بِالصلاةِ قَبْلَ الخُطْبَةِ فَجَذَبَنِي فارْتَفَعَ على المِنْبَرِ فَخَطَب قَبْلَ الصلاةِ .

فَقُلْتُ لَهُ ولأَصْحَابِهِ غيَّرتُمْ واللهِ سُنةَ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم وخلفائِهِ مِن بَعْدِهِ فإنَّهُم كانُوا يُقَدِمُون الصلاةَ على الخُطْبَةِ في العِيْدَين فقال مَرْوَانُ يا أبا سَعيدٍ قَدْ ذَهَبَ مَا تَعْلَمُ مِن تَقْدِيم الصلاةِ على الخُطْبةِ في العِيْدَيْنِ فَقُلتُ مَا أعلَمُ واللهِ خيرٌ مِمَّا لاَ أعلمُ .

لِأَنَّ الذِي أَعْلمُ طَرِيْقُ رسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلم الذي أُمِرْنا باتِّباعِهِ والتأسِي بهِ ﴿لقد كَان لَكمْ في رَسول الله أُسوةٌ حَسَنةٌ﴾ فقالَ مَرْوَانُ مُعْتَذِراً عن تَرْكِ السُنةِ إن الناسَ لم يَكُونوا يَجْلِسُونَ لَنَا بَعْدَ الصلاة فَجَعَلْتُهَا قَبْلَ الصلاةِ » .

فَتَأَمَلْ هَذَا المَوقِفَ المشرِفَ الذي وَقَفَه أبو سعيدِ الخدري رَضِيَ اللهُ عنه وكَيْفَ جَذبَ مَرْوَانَ بِثَوْبِهِ وقال لَهُ غَيرتُم واللهِ وَلم يَخَفْ صولةَ الإمارَةِ وجاهَ الحُكم وَجَاهَرَ بالحقِّ وأنكَرَ البدعةَ وأمرَ بالسنةِ على رُؤُسِ الأشهادِ مِنَ الناسِ فَحَفِظَهُ اللهُ ونصَرَه وأيده وَأعزَه وصدَق الله حيثُ قال ﴿ وَلَيَنْصُرَّن اللهُ مَن يَنْصُرُه ﴾ .

وَرُوِيَ أَنَّ ضَبَّةَ بنَ مِحْصَنٍ العَنَزي قال كَانَ عَلَيْنَا أَبُو مُوسَى الأَشْعَري أميراً بالبصرةِ فكان إذا خَطَبنَا حَمِدَ الله وأَثْنَى عليهِ وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم وأنشأَ يَدْعُو لِعُمَر رَضِي اللهُ عنه قال فَغاظَنِي ذَلِكَ فَقُمْتُ إليهِ فقلتُ له أَيْنَ أَنْتَ مِن صَاحِبِهِ تُفَضِّلُهُ عليه فَصَنَعَ ذَلِكَ جُمَعاً .

ثم كَتَبَ إلى عُمَرَ يَشْكُونِي يَقولُ إنَّ ضَبَّةَ بنَ مِحْصَنٍ العَنَزِي يَتَعَرَّضُ لِيْ في خُطْبَتِي فَكَتَبَ إليهِ عُمَرُ : أَنْ أشْخِصْهُ إلَيَّ فأشخصَنِي إليهِ فَقَدَمتُ فَضَرَبْتُ عليهِ البابَ ، فقال مَن أَنْتَ فَقُلتُ أَنا ضَبَّةُ فقال لا مَرْحَباً ولا أَهْلاً قُلْتُ أَمَّا المَرْحَبُ فَمِنَ اللهِ ، وَأَمَّا الأهلُ فلا أَهْلَ لِي ، ولا مَالَ فَبِمَا اسْتَحْلَلْتَ يا عُمَرُ إشْخاصِي مِنْ مِصْرِي بِلا ذَنْبٍ أذْنَبْتُهُ ، ولا شيءٍ أَتَيْتُه ، فقال مَا الذي شَجَرَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ عَامِلِي ، قال قُلْتُ الآنَ أُخْبِرُكَ بِهِ ، إنه كانَ اذا خطبنا حَمِدَ اللهَ وأثنَى عليهِ وَصَلَّى على النبي صلَّى الله عليه وسلم ، ثم أنشأ يَدْعُوْ لكَ فَغاظَنِي ذَلِك مِنه ، فَقُمْتُ إليهِ فقلتُ لَهُ أينَ أنتَ مِن صَاحِبِه ، تُفضِّلُهُ عليه ، فَصَنَعَ ذَلِكَ جُمَعاً .

ثُمَّ كَتَبَ إليكَ يَشْكُوني ، قال فانْدَفَعَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بَاكِياً ، وهُوَ يَقُولُ أَنْتَ واللهِ أَوْفَقُ مِنه وَأَرْشَدُ فَهَلْ أَنْتَ غَافِرٌ لِيْ ذَنْبِي يَغْفِرَ الله لَك .

قال فَقُلْتُ غَفَرَ اللهُ لكَ قال ثُمَّ انْدَفَعَ بَاكِياً ، وهو يَقُوْلُ واللهِ لليلةٌ مِن أَبِي بَكرٍ ، وَيَوْمٌ خيرٌ مِن عُمَرَ وآلِ عُمَرَ ، وَبَعثَ الحَجَّاجُ الظالمِ المَشهورُ إلى الحَسَن فَلّما دَخَلَ عليهِ قالَ أَنْتَ الذي تقولُ قاتَلَهم اللهُ قَتلوا عِبَادَ اللهِ عَلى الدِرْهَمِ والدِّيْنَارِ . قال نَعَمْ قال ما حَمَلَكَ على هَذَا قَالَ ما أَخَذ اللهُ على العُلَمَاءِ مِنَ المواثيقِ ﴿ لَيُبَيِّنُنَّهُ للناسِ ولا يَكْتُمُونَه ﴾ قال يا حَسَنُ أَمْسِكْ عَليكَ لِسَانَك وإيَّاكَ أن يَبْلَغَنِي عنكَ ما أَكْرَه فَأفَرِّقَ بَينَ رأسِكَ وَجَسَدِكَ نَعُوذُ باللهِ مِن الظلمةِ وأعوانِ الظلمةِ من أمثالِ الحَجَّاجِ .

ثُم تَطَاوَل الزمنُ وَمَضَتْ فَتْرَةٌ مِنْهُ فاندَرَسَ هَذَا الوَاجِبُ وَعَفَتْ أثارُهُ وامحَتْ مَعَالِمُهُ وانْطَوَتْ أَخْبَارُهُ وَداهَن النَاسُ بَعْضُهُم بَعْضاً وَجُبْنَ الناسُ

عن المُصَارَحة لِلْوُلَاتِ في المُخَالَفاتِ إلا نَوادِرُ مَرُوْا خِلالَ القُرُوْنِ الأُوْلَى أمَّا نحنُ فَصَارَتْ شَجَاعَتُنَا وَصَلَابَتُنَا وإنكَارَاتُنا حَوْلَ ما يَتَعلَّقُ بالدنيا أمَّا مَا يَتَعَلَقُ بالدينِ فَلَيْسَ عِنْدَنَا مِن الإنكارِ إلا التَلاَوُم فِيمَا بَيْنَنَا إذا أَمِنَ بَعْضُنا مِن بَعْضٍ فلا حَوْلَ ولا قُوَةَ إلَّا باللهِ العليِ العليم العظيم .

قال ابنُ القيم رَحِمَهُ الله :

قُـلْ لِيْ مَتَى سَلِمَ الـرسـولُ وَصَحْبُـهُ
والـتـابِعُـونْ لـهـم عـلَى الإحْسَـانِ
مِـن جَـاهِـلٍ وَمُـعَـانِـدٍ وَمُـنَـافِـقٍ
وَمُـحَـارِبٍ بَـالـبَـغْـيِ والـطُغْـيَـانِ
وَتَـظُنُّ أَنَّـكَ وارِثـاً لَـهُـمُ ومَـا
نِـلْتَ الأَذَى فـي نُـصْـرَةِ الـرَّحْـمَـنِ
كَـلَّا ولا جَـاهَـدْتَ حَـقَّ جِـهَـادِهِ
فـي الـلهِ لا بِـيَـدٍ ولا بِـلِسَـانِ
مَـنتـكَ واللهِ المُـحَـالَ الـنفس فَـاسْـ
ـتَحْـدِثْ سِـوَى ذا الـرأيِ والحُسْبَـانِ
لَـوْ كُـنْـتَ وارثَـهُ لآذاكَ الأُولَـى
وَرَثُـوا عـدَاهُ بِـسَـائِـرِ الأَلْـوَانِ

وقد قِيْلَ : إن المُنْكَرَاتِ أشْبَه بِجَراثِيْم الأَمْرَاضِ في تَنَقُلِها وانتِشَارِهَا ، والتأثرِ بها بإذْنِ اللهِ . فـان وَجَدَتْ كِفاحاً يَحْجُرُ عليها في مَكَانِهَا حَتَّى يَقْتُلَها وَيُبِيْدَهَا سَلِمَ منها مَوْضِعُهَا ، وَسَلَم منها ما وَرَاءَهُ ، وإذا لَم تَجِدْ كِفاحاً وَتُرِكَتْ وَشَأنَهَا اتَّسَعَتْ دائرتها ، وَتَفَشَّتْ في جَمِيْعِ

الأَرْجَاءِ وَقَضَتْ عَلَى عَنَاصِرِ الحَيَاةِ وَعَرَّضَتْهَا للفَنَاءِ والدَّمَارِ .

وَمِنْ هُنَا كَانَ أَثَرُ المنْكَرَاتِ غَيْرَ خَاصٍ بِمُرْتَكِبِيْهَا ، وَكَانَ السَّاكتونَ عَلَيها عامِلين على نَشْرِها وإذاعَتِهَا ، وَبِهَذا الموقِفِ السَّلْبِي يَكُونُونَ أَهْلاً لِحُلُولِ العِقَابِ بِهم وإصَابَتِهِمْ بِمَا يُصَابُ بِهِ المباشِرُونَ لهَا .

وَمِمَا يَدُلُّ عَلَى هَذَا قَولُه تَعالى : ﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيْبَنَّ الَّذِيْنَ ظَلَمُوْا مِنْكُمْ خَاصَّةً ﴾ وَقَالَ الشَّيْخُ عَبْد اللهِ بنُ مُحَّمدِ بنِ حُمَيدٍ في آخِرِ رِسَالةٍ له تَتَضَمَّنُ الحَثَّ عَلَى الأَمْر بالمَعْرُوفِ والنهي عن المنكـرِ : قِفانَبْكِ عَلَى رُسُومِ عُلومِ الدّينِ والاسلامِ الذي بَدَأَ يَرْتَحِلُ مِن بِلاَدِهِ وَلَكنْ يا للأَسَفِ عَلَى مَنَامِ القلوبِ وَقِيَامِ الأَلْسُنَةِ بالتَّقَوُّلِ والتأوِيلِ عَلى الإسلامِ بِمَا لاَ حَقِيقَةَ لَهُ .

لَقَدْ انْطَمَسَ المَعْنَى وَذَهَبَ اللبُ وما بَقِيَ إلا قُشُورٌ وَرُسُومٌ اكْتَفَى الكَثِيْرُونَ مِن الإسلامِ بِمُجَرَّدِ الانْتِسَابِ إِلَيْهِ بدون أَنْ يَعْمَلُوا بِهِ وَيَقُومُوا بالدَّعْوةِ إليهِ تَحْذيراً وإنْذَارَاً وَأَمْرَاً وَنَهْيَاً وَتَبْصِيْراً لِلنَّاس بِدِيْنِهِمْ بِذِكْرِ فَضْلِهِ وَعَظَمَتِهِ وإيْضَاحِ أَسْرَارِهِ وَحِكَمِهِ وَغَرْسِ العَقِيْدَةِ الحَقّةِ في قُلوبِهِمْ فَهَذَا وَاجِبٌ المسلمينَ بَعْضِهِم لِبَعْضٍ كُلٌ عَلَى قَدْرِ استِطَاعَتِهِ وَمَقْدِرَتِهِ أ هـ .

وَقَولُهُ صَلَّى اللهُ عليه وسَلم في حَدِيثِ جابر « أَوْحَى اللهُ عَزَّ وَجَلَّ إلى جِبْرِيل عَلَيْهِ السَّلامُ انْ أقلبْ مدِينةَ كَذَا وكَذا بِأَهْلِهَا ، قَالَ يَا رب إنَّ فِيْهِمْ فلاناً لَمْ يَعْصِكَ طَرْفَةَ عَيْنٍ قَالَ : فَقَال : اقْلِبْها عليهِ وَعَلَيْهِمْ ، فانَّ وَجْهَهُ لَمْ يَتَمَعَّرْ فِيَّ سَاعَةً قَط .

وَذَكَرُ الامامُ أَحمَدَ عَنْ مالِكِ بنِ دينار قَالَ كَانَ حَبْرُ مِنْ أَحْبَابِ بَنِي

إسرائيلَ يَغْشَى مَنْزِلَهُ الرِّجالُ والنِّساءُ فَيَعِظُهُمْ وَيُذَكِرُهُمْ بأيامِ اللهِ فَرَأَى بَعْضَ بَنِيْهِ يَغْمِزُ النِّسَاءَ في يَوْمٍ فَقَالَ مَهْلاً يَا بُنَيَّ فَسَقَطَ مِنْ سَرِيْرِه فَانْقَطَعَ نُخَاعُهُ واسْقَطَتْ امرأَتُه وَقُتِلَ بَنُوه .

فَأَوْحَى اللهُ الى نَبِيِّهِمْ أَنْ أَخْبِر فلاناً الحَبْرَ أَنّي لا أُخْرِجُ مِنْ صُلْبِكَ صِدِّيقاً أَبَداً مَا كانَ غَضَبُكَ إلاَّ أَنْ قُلْتَ مَهْلاً يَا بُنَيَّ .

إذا فَهِمْتَ ذَلِكَ فَاعْلَمْ أَنَّ الانْتِقَامَ إذا وَقَعَ ليسَ هو أخذاً للبريء بِجَرِيْمَةِ المُذْنِبِ كَمَا يَظُنُّ البَعْضُ ، وإنمَا هُوَ أخـذاً للمذنب بجريمةِ ذَنْبِهِ ، فالذَّنْبُ ذَنْبانِ : ذَنبٌ يَصْدُرُ عَنْ شَخْصٍ ، وَهُوَ الفِعْلُ نَفْسُهُ ، وَذَنْبٌ يَصْدرُ عَن مَنْ يَعْلَمُ هَذَا الذنبَ ، وَهُو يَقْدِرُ عَلَى مُكَافَحَتِهِ .

ثُمَّ هُو يُبْعِدُ نَفْسَهُ عَنْ مكافَحَةِ هَذَا الذَّنْبِ طَمَعاً في مَالٍ أَوْ مَكانَةٍ وَبِذلكَ يَكُونُ شريكاً في العَملِ على نَشْرِهِ أ هـ .

وفي السُّننِ أَنْ عَبْدَ اللهِ بنَ مَسْعودٍ رضِيَ اللهُ عَنْهُ حَكَمَ بِكُفْرِ أَهْلِ مَسْجدٍ بالكوفةِ قَالَ وَاحدٌ إنَّمَا مُسَيْلَمَةُ عَلَى حَقٍّ فِيْمَا قَالَ وَسَكَتَ البَاقُونَ فَأَفْتَى بِكُفْرِهِمْ جَمِيعاً أ هـ من الدرر السنيةِ .

قُلْتُ لأَنَّ الواجِبَ عَلَيْهِمْ أَنْ يُكَذِّبُوهُ وَيَقُولوا لَهُ كَذَبْتَ بَلْ هُوَ عَلَى بَاطِلٍ فَالسَّاكِتُ شَرِيْكُ الفاعِلِ لقدرَتِهِ عَلَى الإنْكارِ باللِّسَانِ .

وقَالَ سُفْيَانُ إذَا أَمَرْتَ بالمَعْرُوفِ شَدَدْتَ ظَهْرَ المُؤْمِنِ وإذَا نَهَيْتَ عَنِ المُنْكَرِ أَرْغَمْتَ أَنْفَ المُنَافِقِ .

اللهُمَّ اجْعَلنَا مِنْ حِزْبِكَ المُفْلِحينَ ، وَعِبَادِكَ الصَّالِحينَ الذينَ أَهَّلْتَهُم لِخِدمَتِكَ وَجَعَلْتَهُمْ آمِرِيْنَ بالمَعْرُوفِ فَاعِلِينَ لَهُ ، وَنَاهِيْنَ عَن

المُنْكَرِ ، وَمُجْتَنِبِيْنَ لَهُ ، وَاغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَلِجَمِيْعِ المسلمينَ الأَحْيَاءِ مِنْهُمْ والمَيِتِينَ بِرَحْمَتِكَ يا أرحمَ الراحمينَ ، وصَلَّى اللهُ عَلَىٰ مُحمدٍ وعَلى آلِهِ وَصَحْبِهِ أجْمَعينَ .

(فَصْـلٌ)

وَكَتَبَ عُمَرُ بنُ عبدِ العَزيز الى بعضِ عُمَّالِهِ ، أَمَّا بَعْدُ فإِنَّهُ لَمْ يظهرْ المنكرُ في قومٍ قَطّ ثم لَمْ يَنْهَهمْ أَهْلُ الصَّلاحِ مِنْهُمْ إِلَّا أَصَابَهُمْ اللهُ بعذابٍ من عندهِ أو بأيْدِي مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ، وَلَا يَزَالُ الناسُ مَعْصُومِينَ مِن العُقُوباتِ والنَّقَمَاتِ ما قُمِعَ أهلُ الباطل واسْتُخْفِي فِيهم بالمَحَارِم .

فَلا يَظْهرُ مِن أَحدٍ مُحَرَّمٌ إلا انْتَقَموا مِمنْ فَعَلَه فإِذَا ظَهَرتْ فيهم المَحَارمُ فَلَمْ يَنْهَهَم أَهْلُ الصَّلاحِ أُنْزِلَتِ العُقوباتُ مِن السماءِ إلى الأرضِ ولعلَّ أهلَ الإِدْهَانِ أَنْ يَهْلِكوا مَعَهم وإِنْ كَانُوا مُخَالفينَ لَهُمْ ، فانّي لم أسمعْ اللهَ تباركَ وتَعالى فِيْمَا نَزَّل مِن كِتابِهِ عند مُثْلَةٍ أَهْلَكَ بها أحداً نَجَّى أَحَداً مِن أَولِئكَ ، إلا أَنْ يَكونُ الناهِين عن المنكرِ .

وَيُسَلِّطُ اللهُ عَلى أَهْلِ تِلْكَ المحارمِ إِنْ هُوَ لم يُصِبْهُمْ بِعذابٍ مِن عندِهِ أَوْ بِأَيْدِي مَنْ يَشَاءُ مِن عِبَادِهِ مِن الخوفِ والذُلِّ والنِّقَمِ فإنه رُبَّمَا انْتَقَمَ بالفاجرِ مِن الفاجِرِ وبالظَالمِ مِنَ الظَالمِ ثُم صارَ كِلا الفريقَينِ بِأَعْمَالِهِمَا إلى النارِ ، فَنَعُوذُ باللهِ أَنْ يَجْعلنَا ظالمينَ ، أَوْ يَجعلَنَا مُدَاهِنِينَ لِلظَّالمين .

وانَّهُ قَدْ بَلَغَني أَنَّه قَد كَثُرَ الفُجورُ فِيكُم وأَمن الفُسَّاقُ في مدائِنِكُمْ وَجَاهَرُوا بالمَحَارِمِ بأَمْرٍ لا يُحِبُّ اللهُ من فَعَلَهُ ولا يَرْضَى المُدَاهَنَةَ عليه ،

كانَ لا يَظْهَر مِثْلُه في عَلانيةِ قومٍ يَرْجُونَ للهِ وقاراً وَ يَخافُونَ منه غِيرَاً وَهُمْ الأَعزُّونَ الأَكْثرون مِن أَهْلِ الفجورِ . أي أكثرُ مِنْ أَهْلِ الفُجُورِ وَأعزُّ منهم .

وَلَيْسَ بِذَلِك مَضَى أَمْرَ سَلَفِكُم ولا بِذَلِك تَمَّتْ نِعمةُ اللهِ عليهِمْ بل كانُوا ﴿أَشِدَّاءُ عَلى الكُفّارِ رحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾﴿أَذلَّةٍ عَلَى المُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الكَافِرِيْنَ يُجَاهِدُونَ في سَبِيْلِ اللهِ وَلَا يَخُافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ﴾ .

وَلَعَمْرِي إِنَّ مِنَ الجِهَادِ الغِلظةُ على مَحارِمِ اللهِ بالأَيْدِي والأَلْسُنِ والمُجاهَدِةِ لهم فيهِ .

وإِنْ كانُوا الآباءَ والأَبْنَاءَ والعَشَائِرَ ، وإِنمَا سبيلُ اللهِ طاعَتُهُ .

وَقَدْ بَلَغني أَنَّهُ بَطَّأَ بِكَثِيرٍ مِنَ الناسِ عَنْ الأَمْرِ بالمعروفِ والنهي عن المنكر ، إِتّقاءُ التلاوُمِ أَنْ يُقَالَ فلانٌ حَسَنُ الخُلْقِ ، قليلُ التكلفِ ، مُقبِلٌ على نَفْسِهِ ، وَمَا جَعَل اللهُ أُولئكَ أحاسِنَكُمْ أَخْلاقاً بَلْ أولَئكَ أَسْؤُكُمْ أَخْلاقاً .

وَمَا أَقْبَلَ عَلى نَفْسِهِ مَنْ كَانَ كَذلكَ ، بلْ أَدْبَرَ عَنْهَا ، وَلَا سَلِمَ مِن الكُلفةِ لها ، بَلْ وَقَعَ فِيْهَا ، إِذْ رَضِيَ لِنَفْسِهِ مِن الحالِ غيرَ ما أَمَرَهُ اللهُ بِهِ أَنْ يكونَ عليهِ ، مِن الأمرِ بالمعروفِ ، والنهي عن المنكرِ .

وَقَدْ ذَلَّتْ أَلْسِنَةُ كَثِيْرٍ مِن الناسِ بآيةٍ وَضَعُوهَا غَيْرَ مَوْضِعِهَا ، وَتَأَوَّلوا فِيْهَا قول اللهِ عَزَّ وَجَل ﴿ يَا أَيُّها الذِيْنَ آمَنُوا علَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ﴾ وَصَدقَ اللهُ تبارك وَتَعَالى ، ولا يَضُرنا ضلالةُ مَن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْنَا ، وَلَا يَنْفَعُنا هَدْي مَنْ اهتدى إِذا ضَلَلْنَا ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرةٌ وِزْرَ

أُخْرَى ﴾ وإنَّ مِمَّا عَلَى أَنْفُسِنَا وَأَنْفُسِ أُولئك ممَّا أَمَرَ اللهُ بِهِ مِن الأمْرِ بالمَعرُوفِ والنهي عن المنكرِ ، فلا يُظهرُوَا للّهِ مُحَرَّماً إلا انتَقَمُوا مِمَنْ فَعَلَه مِنْهم ، مَنْ كُنْتُم ، وَمَنْ كانُوا ، وَقَولُ مَنْ قالَ إنَّ لنا في أَنْفُسِنَا شُغْلاً ، وَلَسْنَا مِن الناسِ في شيءٍ .

وَلَو أَنَّ أهلَ طاعةِ اللهِ رجعَ رأيهُم إلى ذلك ، ما عُمِلَ لِلهِ بِطاعةٍ ، ولا تَنَاهَوا له عن معصيةٍ ، ولقَهَر المُبْطِلونَ المُحِقينَ ، فصَارَ الناسُ كالأَنْعَامِ ، أَوْ أَضلَّ سَبيلاً ، فتسلَّطُوْا عَلى الفُسَّاقِ مَن كُنْتُمْ وَمَنْ كانُوا فادْفَعُوْا بحَقِكمْ باطِلَهُم ، وَبِبَصرِكُمْ عَماهُمْ ، فإن اللهَ جَعَل لِلأبْرارِ على الفُجارِ سُلْطاناً مُبِيْناً ، وإنْ لَمْ يَكُونُوا وُلاَةً ولا أَئِمَّةً .

مَن ضَعُفَ عَن ذَلِكَ فليرْفَعْهُ إلى إمَامِهِ ، فإنَّ ذَلِكَ مِن التعاونِ على البِرِّ والتّقْوَى ، قَالَ الله لأهلِ المعاصِي : ﴿ أَفَأَمِنَ الَّذِيْنَ مَكَرُوا السَّيئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللهُ بِهِمْ الأَرْضَ أَو يَأْتيهُمْ العَذَابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ أَوْ يَأْخُذَهُمْ في تَقَلُّبِهِمْ فَمَاهم بِمُعْجِزِيْنَ ﴾ .

وَلَيتنتَهِينَّ الفُجارُ أَوْ لَيُهِيْنَنَّهم اللهُ بما قَالَ ﴿ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ﴾ الآية .

وَذَكَرَ ابنُ أَبِي الدُّنيا عَن أَنس بنِ مالكٍ أَنَّهُ دَخَلَ على عَائِشَةَ هُوَ وَرَجُلٌ آخرُ فَقالَ لهَا الرَّجُل : يا أمّ المؤمنينَ حَدِّثينا عن الزَّلْزِلةِ ، فقالتْ إذَا اسْتَبَاحُوا الزِّنَا ، وَشَرِبُوا الخُمُورِ ، وَضَرَبُوا بالمَعازِفِ ، غَارَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ في سَمَائِهِ ، فَقَالَ لِلأَرْضِ تَزَلْزَلِي بِهِمْ ، فَإِنْ تَابُوا وَنَزَعُوْا وإلا هَدَمَهَا عَلَيْهِم .

قَالَ يَا أُمَّ المؤمنينَ أَعَذاباً لَهُمْ ؟ قَالتْ بلْ مَوْعِظةً وَرَحْمَةً لِلْمُؤْمنينَ

وَنَكالاً وَعَذَاباً وَسُخْطاً على الكافِرينَ فقال أَنَسُ مَا سَمِعْتُ حديثاً بَعْدَ رَسُولِ اللهِ صَلى اللهُ عليهِ وسلَّم أنا أَشَدُّ فَرَحاً بِهِ مِني بِهَذَا الحَديثِ .

وَذَكَرَ ابنُ أَبي الدُّنيا حديثاً مرسلاً أَنَّ الأَرضَ تَزَلْزلتْ عَلَى عَهْدِ رَسولِ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ ، فوضَعَ يَدَهُ عَلَيهَا ثمَّ قَالَ اسْكُني فَانَّه لم يأنِ لكِ بَعْدُ .

ثُمَّ التفَتَ إلى أَصْحَابِهِ ، فَقَالَ إنَّ رَبَّكم لَيَسْتَعْتِبكُمْ فَأَعتِبُوهُ ، ثُمَّ تَزَلْزلَتْ بالنّاسِ عَلَى عَهْدِ عُمَرَ بنِ الخطابِ ، فَقَالَ أَيّها الناسُ مَا كانَتْ هَذِهِ الزَّلزَلَةُ إلاَّ عَلَى شَيءٍ أَحدَثْتُمُوهُ ، والَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لِئِنْ عَادَتْ لا أُسَاكِنُكُمْ فِيهَا أَبداً .

وفي مَنَاقِبِ عُمَر لِابْنِ أَبِي الدُّنيا أَنَّ الأَرضَ عَلَى عَهْد عُمَرَ تَزَلْزَلَتْ فَضَربَ يَدَهُ عَلَيْهَا ، وَقَالَ مالَكِ ؟ أَمَا إنها لَوْ كَانَتْ القِيَامَةُ حَدَّثْتِ أَخْبَارَكِ ، سَمِعْتُ رَسولَ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ يَقولُ إذا كانَ يومُ القيامةِ فَلَيْسَ فِيها ذِرَاعٌ ولا شِبْرُ إلا وهو يَنطقُ .

وَكَتَبَ عُمرُ بنُ عبدِ العزيز إلى الأَمْصار أَمَّا بعدُ فإنَّ هَذَا الرَّجْفَ شَيءٌ يُعاقِبُ اللهُ عَزَّ وَجَلَ بِهِ العبادَ ، وقدْ كَتَبْتُ إلى الأَمْصار أَنْ يَخْرُجُوا في يوم كذَا وكَذَا في شَهْر كَذَا وَكَذَا فَمَنْ كَانَ عِندَهُ شيءٌ فَلْيَتَصَدَّق بِهِ ، فإنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَ يقولُ ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴾ وَقُولوْا كَمَا قَالَ آدمُ ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أنفسنا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُوْنَنَّ مِنَ الْخَاسِرِيْنَ ﴾ وَقُولوا كما قَالَ يُونسُ ﴿ لَا إِلَهَ إلا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِن الظَّالِمينَ ﴾ .

اللهُم يا عالمَ الخَفياتِ وَيَا سَامِعَ الأَصْواتِ ويَابَاعِثَ الأَمْواتِ وَيَا مُجِيْبَ الدَعَوَاتِ وَيَا قَاضِيَ الحَاجَاتِ يَاخَالقَ الارضِ والسَّمواتِ أَنْتَ اللهُ الاحدُ الصمدُ الذي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يولَدْ ولَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَد الوَهَّابُ الذي لا يَبْخَلُ والحَليمُ الذي لا يَعْجَلُ لا رادَّ لامْرِكَ ولا مُعَقِّبَ لِحُكمِكَ نَسْأَلكَ أنْ تغفرَ ذنوبَنَا وَتُنورَ قلوبنَا وَتُثَبِّتَ مَحَبَّتَكَ في قُلوبِنَا وَتُسْكِنَنَا دَارَ كَرَامَتِكَ إنك عَلَى كُلِ شَيْءٍ قَدِير وَصَلَّى اللهُ على محمدٍ وآلِه وَصَحْبِه أَجْمَعِيْنَ .

مــوعظة

قَالَ اللهُ تَعالى ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ المُؤْمِنِيْنَ ﴾ وَقَالَ ﴿ فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتْ الذِّكْرَىٰ﴾ وَقَالَ تَعَالى ﴿ فَذَكِّرْ بِالقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيْدِ ﴾ فيَا عِبَاد اللهِ لَقَدْ خَاطَبَ اللَّهُ المؤمنينَ بقولهِ ﴿ كُنتُمْ خيرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ للنّاسِ تَأْمُرُونَ بالمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنْ المُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ خَاطَبَهُمْ بِهَذَا الخِطَابِ الرّائعِ وَوَصَفَهُمْ بِهَذَا الوَصْفِ العَظِيْمِ ، بِأَنَّهُمْ خَيْرَ أُمّةٍ أُخْرِجَتْ للنَّاس ، وأنَّ مجتَمَعَهُمْ أَعْلا وَأَعَزُّ مُجتمعٍ في العالم حاضِره وَمَاضِيهِ لِمَا اتَّصفُوا بِهِ مِن الصِفاتِ الفاضِلةِ ، والأَخلاقِ العالِيَةِ ، والغَيْرةِ الصَّادِقَةِ ، على حُدُودِهِ .

وَهَذا الوَصْفُ وَقْتَ انْ كـانُوا مُتَمَسِّكِينَ بِتَعَـالِيم دِيْنِهِمْ ، وَكَانَ الاسْلامُ وَبَهَاؤُهُ يَلُوحُ في أَعْمَالِهِمْ ، وَمُعَامَلاَتِهِمْ ، وَأَخْلاَقِهِمْ فَلاَ غِشَّ وَلاَ خِدَاعَ ولا كَذِبَ ، ولا خِيَانَةَ وَلاَ غَدْراً ، ولا نَمِيمَةَ ، ولا غِيْبَةَ ، وَلاَ ظُلْمَ وَلاَ نِفَاق وَلاَ رُشَا ولا مَلْق ولا رِيَاءَ ولا بَهْتَ ولا سُخْرِيَّةَ ولا عُقُوقَ ولا قَطِيْعَةَ.

هَدَفُهُم القَضَاءُ عَلى المُنكَراتِ وإماتَتِهَا ، وإعْزَازُ المَعْروفِ وَنَشْره

بَيْنَ المسلمين ، وَهَذا يَدُلُ على قوةِ إيمانِهم ، وَشِدَّةِ تَمَسُكِهِمْ بِهِ وَرَغبةٍ في النَّجاةِ التي وَعَدَ اللهُ بِهَا النّاهِي عَنْ السُّوءِ ، قال تعالى ﴿ فَلَمَّا نَسُوا ما ذُكِّرُوْا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِيْنَ يَنْهَوْنَ عَنَ السُّوْءِ وَأَخَذْنَا الَّذِيْنَ ظَلَمُوْا بِعَذابٍ بَئِيْسٍ بِمَا كَانُوْا يَفْسُقُوْنَ ﴾ .

فَيا عِبَادَ اللهِ تَأَملوا حَالَتَنَا الحَاضِرَةِ ، وَحَالَة سلفنا الكِرام الذينَ كانوا كلٌ مِنْهم يحبُ لأَخِيهِ ما يُحبُّ لِنَفْسِهِ ، وَيَرْحَمُ كبيرُهم الصغيرَ ويوقرُ الصغيرُ الكبيرَ ، يَتآمَرونَ بالمَعروفِ ، وَيَتناهَونَ عن المنكرِ ، يُنْصِفُونَ حَتَّى الأعْداءِ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وأولادِهِمْ .

فَالقَويُّ عِنْدَهُمْ ضَعِيْفٌ ، حَتَّى يُسْتَوْفَى مِنه الحقُّ ، والضَعِيْفُ عِنْدَهم قَويٌ حَتَّى يَؤْخَذَ حَقُّهُ ، إذا فَقَدُوا أَخَاهُم بَحَثُوا عنه فإِنْ كانَ مَرِيضاً عادُوه وساوَوْهُ واذا مَاتَ شَيَّعُوهُ ، وانْ احتاجَ أَقْرَضُوهُ ، وَوَاسَوْه وإنْ نَزَلَ عليهم أَكْرَمُوه .

عامِلِيْنَ بقولِهِ صلَّى اللهُ عليه وسَلَّم « مَثَلُ المؤْمِنِيْنَ في تَوَادِّهم وتراحُمِهِمْ كَمَثَلِ الجَسَدِ إذا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعى له سَائِرُ الجَسَدِ بالسهر والحمى » ، وحديثِ « المؤمنُ للمؤمِن كالبنيانِ يشد بعضُه بعضاً » .

أما نَحْنُ فحالتُنا حالةٌ مُخِيْفَةٌ جداً لأَننَّا على ضِدِ ما ذَكَرْنَا مِن حالةِ سَلَفِنَا ولا حَاجَةَ إلى تَكْرارٍ ، أَلْقِ سَمْعَكَ وَقَلِّبْ نَظَرَكَ ، وأحضرْ قَلْبَكَ تَرَى ذَلِك بِعَيْنِ بَصيرتِكَ وَتَرى مَا يُخِيْفُكَ وَيُقْلِقُ رَاحَتَكَ وَيُقْضُّ مَضْجَعَكَ من المنكرات في البيوتِ والأسواقِ والبر والبحر.

وإن شَكَكْتَ فَفَتِشْ على نَفْسِكَ تَجِدْ ذلك ، فالمُنْكَرُ نَرَاهُ بِأَعْيُنِنَا وَنَسْمَعُه بِآذَانِنَا بَلْ وفي بُيوتِنَا فهَلْ بيتكَ خالٍ من صِوَرِ ذواتِ الأرواح هَلْ هُوَ خالٍ مِن المِـذْيَاعِ ، هـل هُوَ خـالٍ من التَّلفَزيـون ، والسِّيْنَمَاء والبَكَمَاتِ وَمُسَجِّلاتِ الأَغَاني ، هَلْ هو خالٍ مِنْ شَرابِ المُسْكراتِ ، هَلْ مَا يَأْتي لِبَيتكَ إلا أُنَاسٌ طيبينَ طاهِري الأَخْلاقِ ، هَلْ هُوَ خالٍ من حَالقي اللِّحى هَلْ هُوَ خالٍ من المخَنْفِسِيْنَ ومطِيْلي أَظفارِهِمْ تَشَبُّهاً باليَهُود ، وهَل هُو خالٍ من المتشبهينَ بالمَجُوسِ والمتشَبِهِيْنَ بالإِفْرَنجِ ، هل هو خالٍ مِمَّن لا يَشْهُدونَ صَلاةَ الجَمَاعةِ أو لا يَصلونَ أَبداً ، هَلْ هُو خَالٍ مِن النساء القاصَّاتِ لِرُؤسِهِنَّ المُطِيْلاتِ لِأَظْفَارِهِنّ ، هَلْ هو خالٍ من شَرَّابِ أَبِ الخَبَائِث الدُّخَانِ ، ونحوهِ مِن المنكرات وأمَا في الاسْواقِ فحدِثْ عَن كثرةِ المنكرَاتِ وَلَا حَرَجَ على حدَّ قولِ المتنبي :

وَقَـدْ وَجَدتُ مكـانَ القـولِ ذا سَعـةٍ
فـإن وجَـدتَ لِسَـانـاً قَـائـلاً فَقُـلِ

وَمَعَ ذَلِكَ فَلا أَلْسِنَةٌ تَنْطِقُ ولا قُلُوبٌ تَتَمَعَّرُ إلا النَّوادِرَ ، الموجودُ هو التلاومُ والقيلُ والقالُ ، والمداهَنَةُ ، والجُلوسُ مَعَ أَهْلِ المَعَاصِي ، وَمُحَادَثَتُهُم وَمُبَاشَرَتُهُم وإِظْهَارُ البِشْرِ لَهُمْ وَتَعْظِيْمُهمْ وَتَقْلِيدُهُمْ في الأقوالِ والأَفْعَالِ .

فَيَا عِبَادَ اللهِ اتقُوا اللهَ واسْلُكوا طريقَ سَلفِكُمْ واصْدعُوا بالحقِ وَأمْرُوا بالمَعْرُوفِ وانْهَوْا عن المُنْكَرِ ، واعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيْعاً ولا تَفَرَّقُوا ، وَكُونوا عِبادَ اللهِ إخواناً ، قَبْلَ أَنْ يَحِلَّ بِكُمْ مَا حَلَّ بِمَنْ قَبْلَكُمْ ، وَتُضْـرَبَ قُلوبُ بَعْضِكِم عَلَى بَعْضٍ ، قَبْـلَ فِتْنَـةٍ لَا تُصِيْبَنَّ الـذين

ظَلَمُوْا مِنْكُم خاصَّةً ، قَبْلَ أنْ تُلْعَنُوا كَمَا لُعِنَ الذينَ مِنْ قَبْلِكُم ، بِسَبَبِ عَدَمِ تَنَاهِيْهِمْ عَنْ المُنْكَر .

قَالَ اللهُ تَعَالى ﴿ لُعِنَ الَّذِيْنَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ على لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيْسَى بْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ، كَانُوْا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوْا يَفْعَلُوْنَ ﴾ .

فَيَا عبادَ اللهِ إِنَّ الأمْرَ بالمعروفِ والنّهْيَ عَنْ المنكرِ لَمِنْ أَعظَم الشعَائِر الاسْلامِيّةِ ، وأقوَى الأسُس التي يقومُ عليهَا بناءُ المجتمعاتِ النزيهةِ الراقيةِ ، فَاذا لَمْ يَكنْ أمرٌ ولا نهيٌ أو كانَ ولكنْ كالمَعدومِ ، فعلى الأَخلاقِ والمُثْلِ العُلْيَا السَّلامُ ، وَيَلٌ يومئذٍ لِلْفَضِيْلةِ مِن الرذيلةِ ، ولِلْمُتَدَيِّنِين مِن الفَاسِقِيْنَ والمنافقين .

فَيا عبادَ اللهِ تَدَارَكُوا الأَمْرَ قَبْلَ أنْ يَفوتَ الأَوَانُ وَتَعضُّوا على البَنَانِ فقدْ قَالَ لَكُم سيدُ ولدِ عَدْنان مَنْ رَأى منكَم منكراً فليغيْرِه بيدِهِ ، فانْ لَمْ يَسْتَطِع فبِلِسَانِه ، فان لَمْ يَسْتَطِعْ فبقلبِهِ وذلكَ أضْعَفُ الايْمَانِ .

عبادَ اللهِ بالأمْرِ بالمعروفِ والنّهْي عن المُنْكَرِ نأْمَنُ بإذنِ اللهِ على الدّينِ من الاضْمحلالِ والتلاشيَ ، ونَأْمَنُ بإذنِ اللهِ عَلى الأخلاقِ الفاضلةِ مِن الـذهابِ والانْحِلَالِ ، والحَذَرَ الحَذَرَ مِنْ مُخَالَفَةِ القولِ لِلفِعلِ ، فتأثيرُ الدَّعْوةِ بالفِعلِ أَقْوَى بكثيرٍ منْ الأقوالِ المجَّردَةِ مِن الأفْعَالِ .

وفي المُسْندِ وغيرِه منْ حَديثِ عروةَ عن عَائِشَةَ قالتْ دَخلَ عَلَيَّ رسولُ الله صلى اللهُ عليه وسلمَ ، وقدْ حَفزَهُ النَّفسُ فعَرَفْتُ في وجْهِهِ أنْ قَدْ حَفزَهُ شَيءٌ ، فمَا تَكلّمَ حتى تَوَضَّأ وَخَرجَ فلصِقْتُ بالحُجْرةِ ، فصَعِدَ

المِنْبَر فحَمَدَ اللهَ وأَثْنَى عَلَيهِ ، ثم قالَ أَيُّهَا الناسُ إنَّ اللهَ عَز وجَلَّ يقولُ لَكُمْ مُرُوا بالمَعْرُوفِ وانْهَوْا عَن المنكَرِ ، قَبْلَ أَنْ تَدْعُونِي فَلا أُجيْبكم ، وتَسْتَنْصُرونِي فَلا أَنْصُركُم ، وتسألونِي فَلا أُعْطِيكُمْ .

وقال العُمَري الزَّاهدُ إنَّ مِنْ غَفْلَتِكَ عنْ نَفْسِكَ وإعرَاضِكَ عن اللهِ أنْ تَرَى مَا يُسْخِطُ اللهَ فَتَجاوَزَهُ ، ولا تَنْهَى عَنه ، خَوفاً مِمَنْ لا يَمْلكُ لنفْسِهِ ضَراً ولا نَفْعَاً ، قُلْتُ ومَا أكثرَ المدلِّسِين السَّاكِتينَ الذينَ يَمرّونَ بالجَالِسين أَمَامَ التلفِزيُونْ وعندَ المذيَاع والكورةِ بلْ ولا يأمرُونَهم بالتّي هِيَ أحْسَن ويَمُرّونَ بأولادِهِمْ في فُرُشِهِم ولا يُوْقِضونَهم للصَّلاةِ وكَأَنَّ أَمْرَهُمْ أَمرٌ مُبَاحٌ إن شَاءَ أَنْكَرَ وإن شَاءَ تَرَكَ ، وَقَالَ مَن تَـرَكَ الأَمْرَ بالمَعْروف والنهيَ عن المنكر مَخَافَةً مِن المَخْلوقِينَ نُزِعَتْ منهُ الطَّاعةُ ، ولو أَمَرَ وَلَدَهُ أو بَعْضَ مَواليهِ لا اسْتَخَفَّ بِحَقِهِ .

وَذَكَرَ الامامُ أحمدُ عن عمرَ بِن الخطابِ تُوشِكُ القُرَى أَنْ تَخْرُبَ وهي عامرةٌ قيلَ وكَيْفَ تَخْرُبُ وهِي عامِرةٌ ، قَالَ إذا عَلَا فُجَّارُها أَبْرَارَها وَسَادَ القبيلةَ مُنافِقُوها قلتُ وممَّا يُؤَيِّدُ ذَلِكَ قوله تَعَالَى ﴿ وذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيْهَا فَفَسقُوا فِيْهَا ﴾ الآية وإليك هذَا نَظْم للأَسْبَابِ التي بِهَا حياةُ القلبِ فَأَلْقِ لَهَا سَمْعَكَ وَأَحْضِرْ قَلْبَكَ .

حَمِـدْتُ الّـذي أَغْنَى وَأَقْنَى وَعَلَّمَـا
وَصَيَّـرَ شُكْـرَ العَبْـدِ لِلخَيْـرِ سُلَّمَـا
وأُهـدِي صَـلاَةً تَسْتَمِـرُّ عَلَى الـرِّضَـا
وَأَصْـحَـابِـهِ والآل جَمْعَـاً مُسَـلَّمَـا

أَعَـادَ لَنَـا فِي الْـوَحْيِ والسُّنَنِ الَّتِي
أَتَـانَا بِهَـا نَحْـوَ الـرَّشَـادِ وعَلَّمَـا
أَزَالَ بِهَـا الأَغْـلاَف عَنْ قَلْبِ حَـائِرٍ
وَفَـتَّـحَ آذانـاً أُصِـمَّـتْ وَأَحْكَـمَـا
فيـا أَيُّهَـا البَـاغِي استنَـارَةَ عَـقْلِهِ
تَـدَبَّـرْ كِـلاَ الـوَحْيَينِ وانْقَـدْ وَسَلِّمَـا
فَعُنْـوانُ اسْعَـادِ الفَـتَى فـي حَيَـاتِـهِ
مَـعَ الـلهِ إقبـالاً عـليـهِ مُعَـظِّمَـا
وَفَـاقِـدُ ذَا لا شَـكَّ قَـدْ مَـاتَ قَلْبُـهُ
أَو اعْتَـلَّ بالأَمْـراضِ كـالـرَّينِ والعَمَـا
وآيـةُ سُقْمٍ فـي الجَـوَارِحِ مَـنْعُـهَـا
مَـنَـافِعَـهَـا أو نَقْصُ ذَلـكَ مِـثْـلَمَـا
وَصِحّتُهـا تَـدرِي بِـاتْيَـان نَـفْعِـهَـا
كَنُـطْقٍ وَبَـطْشٍ وَالتَّصَـرُّفِ والنُّمَـا
وَعَيْنُ امْتِـراضِ القَلبِ فقدُ الـذي لَـهُ
أُرِيْـدَ مِن الأَخْلاصِ والحُبِّ فـاعْلَمَـا
وَمَـعْـرِفَـةٌ والـشَّـوْقُ إِلـيـه انـابَـةً
بِـايْثَـارِه دُونَ المَحبَّـاتِ فَـاحْكَمَـا
وَمُـوثِـرُ مَحْبُـوبٍ سِـوَى اللهِ قَلْبُـهُ
مَرِيْضٌ على جُرْفٍ مِنَ المَوْتِ والعَمَا
وَأَعْـظَمُ مَحْـذُورٍ خَفَى مَـوْتُ قَلْبِـهِ
عَـلَيْـهِ لِشُـغْـلِ عَنْ دَوَاهُ بِـصَـدِمَـا

وآيَـةُ ذَا هُـوْنُ الـقَـبَـائـحِ عِـنْـدَهُ
وَلَـوْلَاهُ أَضْـحى نَـادِمـاً مُـتَـأَلِّـمَـا
فَجَـامِـعَ أمْـراضِ القلوبِ اتِّبـاعُهَـا
هَـواهَـا فخَـالِفهَـا تَصِـحَّ وَتَسْلَمَـا
وَمِن شُؤْمِـهِ تَـرْكُ اغتِـدَاءٍ بِنَـافِـعٍ
وَتَـرْكُ الدَّوا الشَّافِي وَعَجْـزٌ كِـلَاهُمَـا
إذا صَحّ قَلبُ العَبْدِ بَانَ ارتِحَالُـهُ
إلى دَارِهِ الأخْـرَى فَـرَاحَ مُسَلِّمـا
وَمِنْ ذاكَ إحْسَاسُ الـمُحِبّ لِقَلْبِـهِ
بِضَـرْبٍ وَتَحْـرِيْـكٍ إلى اللهِ دَائِمَـا
إلـى أَنْ يُهَنَّـا بِـالإِنَـابَـةِ مُخْبِتـاً
فَيَسْكُنُ فـي ذَا مُـطْمَئِنـاً مُـنَعَّمَـا
وَمِنْهـا دَوَامُ الـذِكْـر في كُـلِّ حَـالَـةٍ
يَـرى الأُنسَ بـالـطّاعَـات لِلهِ مَغْنَمَـا
وَيَـصْحَـبُ حُـرَّاً دَلَّـهُ فـي طَـرِيْـقِـهِ
وكـان مُـعِيْنَـا نـاصحـاً مُـتَيَـمِّـمَـا
وَمـنهـا إذَا مَـا فَـاتَـه الـوِرْدُ مَـرَّةً
تَـرَاهُ كَئِـيْـبـاً نَـادِمـاً مُـتَـأَلِّـمَـا
وَمِنْهَـا اشْتِياقُ القَلْبِ في وَقْت خِـدْمَةٍ
إلَيْهَـا كَمُشْتَـدٍّ بـه الجُـوعُ والـظَّمَا
وَمِنْهَـا ذَهَـابُ الهَمِّ وَقْتَ صَـلَاتِـهِ
بِـدُنْيَـاهُ مُـرتَـاحَـا بِهـا مُـتَنَعِّمَـا

وَيَشْتَدُّ عَنْهَا بَعْدَهُ لِخُرُوجِهِ
وَقَدْ زَالَ عنهُ الهَّمُ والغَمُّ فاسْتَمَا
فَأكْرِمْ بِهِ قَلْباً سَلِيْماً مُقَرَّباً
إلى اللَّهِ قَدْ أَضْحَى مُحِبّاً مُتَيَّمَا
وَمِنْهَا اجْتِمَاعُ الهَمِّ منهُ بِرَبِّهِ
بِمَرضَاتِهِ يَسْعَى سَرِيعاً مُعَظِّمَا
وَمِنْهَا اهْتِمَامٌ يُثْمِرُ الحِرْصَ رَغْبَةً
بِتَصْحِيْحِ أَعْمَالٍ يَكُونُ مُتَمِّمَا
بِإِخْلَاصِ قَصْدٍ وَالنَّصِيْحَةِ مُحْسِناً
وَتَقْيِيْدِهِ بالاتِّبَاعِ مُلازِمَا
وَيَشْهَدُ مَعْ ذا مِنَّةَ اللهِ عِنْدَهُ
وَتَقْصِيْرَهُ في حَقِّ مَوْلَاهُ دَائِمَا
فَسِتُّ بِهَا القَلْبُ السَليمُ ارْتِدَاءُهُ
وَيَنْجُو بِهَا مِنْ آفَةِ الموتِ والعَمَا
فَيَارَبِّ وَفِّقْنَا إلى مَا نَقُولُهُ
فَمَازِلْتَ يَاذَ الطَّوْلِ بَرّاً ومُنْعِمَا
فَإِنِي وَإِنْ بَلَغْتُ قَولَ مُحَقِّقٍ
أُقِرُّ بِتَقْصِيرِيْ وَجَهْلِي لَعَلَّمَا
وَلَما أَتَى مِثْلِي إلى الجَوِّ خَالِياً
مِنَ العِلمِ أَضْحَى مُعْلِناً مُتَكَلِّمَا
كَغَابٍ خَلا مِنْ أُسْدِهِ فَتَوَاثَبَتْ
ثَعَالِبُ مَا كَانَتْ تَطَافِي فِنَا الحِمَا

فَيا سَامِعَ النَّجْوَى وَيَا عَالِمَ الخَفَا
سَأَلْتُكَ غُفْرَانَاً يكونُ مَعَمِّمَا
فَأَجْرَ أَنِي إِلَّا اضْطِرَارٌ رَأَيْتُهُ
تَخَوَّفْتُ كَوْنِي إِنْ تَوقَّفْتُ كَاتِمَا
فَأَبْدَيْتُ مِن جُرَّاهُ مُزْجَي بِضَاعَتي
وَأَمَّلْتُ عَفْواً مِن إلهي وَمَرْحَمَا
فَمَا خَابَ عَبْدٌ يَسْتَجِيرُ بِرَبِّهِ
أَلَحَّ وَأَمْسَى طَاهِرَ القَلْبِ مُسْلِمَا
وَصَلُّوا عَلَى خَيْرِ الأنامِ محمدٍ
كَذا الآلِ والأصحابِ مَا دَامَتْ السَّمَا

(فَصْلٌ)

اعلَمْ وفقنَا اللهُ وايَّاكَ وجميعَ المسلمينَ لما يُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ وَجَعَلَنَا وإياكَ وإِيَّاهُمُ مِن الْمُصَدّقِينَ لِلهِ ولِرُسُلِهِ فِيْمَا أَخْبَرُوْا بِهِ وَحَيْثُ أَنَّهُ قَدْ كَثُرَ في زَمَنِنَا المُنْكِرونَ لِلْجِنّ وَغَالِبُهُمْ يَسْتَنِدُونَ في إنكارِهم بِأَنَّ طَرِيْقَ مَعْرِفَةِ وُجُودِهِم هِيَ النَّظَرُ أَوْ السَّمْعُ أو اللَّمْسُ وَأَنَّهُمْ لَمْ يَرَوْا جِنَاً وَلَمْ يَسْمَعُوهُم وَلَم يَمَسّوْهُمْ .

وَلَكِنْ عَدَمُ النَّظَرِ أَو السَّمعِ أو اللَّمْسِ أَوْ عَدَمِ وُصُولِ أَحَدِ الحَوَاسّ الخمسِ إِلى وُجُودِ الجِنّ لا يَقُومُ دليلاً عَلَى عَدَمِ وُجُودِهم لا نَقْلاً ولا عَقْلاً أَمَا العقلُ فانه يُجَوّزُ وُجُودَ كائنٍ حَيٍ غَيْرِ مَرْئِي بالْعَينِ بِدُوْنِ واسِطَةِ الْمَجْهَرِ المكتَشَفِ أَخِيراً فانَّ المكروبَ كائنٌ حَيٌ خلَقَهُ اللهُ وَهُوَ كَثِيرٌ في طَبَقَاتِ الجَوِّ ولا يُمكن رُؤْيَتُه بالعيْنِ .

وَمَنْ لم يُقرَّ وَيَعْتَقِدَ ما غَابَ عَنْ سَمْعِهِ وَلَمْسِهِ لَزَمَهُ إنكارُ الرُّوْحِ والآلامِ والعَقْلِ والجُوْعِ والظَّمَاء لأنهَا لَيْسَتْ مَرئِيةً ولا مَسْمُوعَةً ولا مَلْمُوْسَةً وَلَا مَذُوْقَةً وَأَمَّا النَّقْلُ فَكَثِيْرٌ فَمِنَ الأدِلَةِ قولُه تعالى ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ والإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ وَقَالَ اللهُ تَعَالَى آمراً رسولَه صَلَّى اللهُ عليهِ وسلمَ أَنْ يُخْبِرَ قَوْمَهُ أَنَّ الجِنَّ اسْتَمَعُوا لِقِرائةِ القُرْآن فَآمَنُوا بِهِ وَصَدَّقُوا لِمَا قَالَ وَتَلَا وانْقَادُوا لهُ كَمَا في قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ قُلْ أُوْحِيَ الَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ من الجِنِّ فَقَالوا إنّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَبًا يَهْدِي إلى الرَّشْدِ فَآمَنّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَداً ﴾ الآيات . وقال تعالى ﴿ وإذْ صَرَفْنَا إلَيْكَ نَفَراً مِن الجِنّ يَسْتَمِعُونَ القُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ تَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِي وَلوا إلى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِيْنَ ﴾ .

وقال تعالى ﴿ إنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيْلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ﴾ . وَهَذَا من حِكمَةِ اللهِ وَلُطْفِهِ بِعِبَادِهِ البَشَرِ فَلَوْ كَشَفَ لَنَا عنْ حَقِيْقَتِهِمْ وَسَلَّطَ نَظَرَنَا المَحْدُودَ على ذَوَاتِهِم لَمَا أَمْكَنَ واللهُ أَعْلَمُ أَنْ يَعِيشَ الإِنْسَانُ مَعَهُمْ وقال تعالى ﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودَهُ مِن الجِنِّ والإِنْسِ ﴾ .

وَقَال ﴿ قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتْ الإِنس والجِنُّ عَلَى أنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا القُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ ﴾ . وقال في مَنْ سخَّرَ لِسُلَيْمَانَ ﴿ وَمِنَ الجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ الآيات ، وقالَ تعالى ﴿ الَّذِيْنَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُوْمُونَ إلا كَمَا يَقُومُ الذي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمسِّ ﴾ . قَالَ ابنُ عَبَّاسٍ آكلُ الرِّبَا يُبْعَثُ يومَ القِيَامَةِ مَجْنوناً يُخْنَقُ رواهُ ابنُ أَبِي حَاتِم قالَ وَرُوِيَ عَن عَوفِ بن مَالِكٍ وَسَعِيدٍ ابنِ جُبَير والسُّدّى والرَّبِيعِ بن أَنَسٍ وَقَتادَةَ وَمُقَاتِلِ بنِ حَيانَ نَحوُ ذلكَ إلى غيرِ ذلك مِن الآياتِ .

وَأَمَّا السُّنةُ فوردَ عَن النبيّ صلى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ « ان عفريتاً مِن الجِنّ تَفَلَّت عَلَيَّ البَارِحَةِ لِيَقْطَعَ عَلَيَّ الصَّلاَةَ فأمكَنَنِي اللهُ مِنهُ فَأَرَدتُ أَنْ أَرْبِطَهُ إِلى سَارية مِن سَوَارِي المَسْجِدِ حَتَّى تُصْبِحُوا وَتَنْظُروا إِلَيْهِ فَذَكرْتُ قَولَ أَخِي سُلَيْمَانَ ﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لاَ يَنْبَغِي لأَحدٍ مِنْ بَعدِي ﴾ .

وَوَرَدَ أَنَّ صفيةَ زوجَ النبي صلى اللهُ عليهِ وسلمَ جَاءَتْ تَزُورُهُ وَهُوَ معتكفٌ فقام مَعَهَا مودّعاً حَتَّى بَلَغَتْ بَابَ المَسْجِدِ فرآهُ رَجُلانِ مِن الانْصَارِ فَسَلَّمَا عَليهِ فقالَ عَلى رِسْلِكُمَا إنمَا هِي صَفِيَّةُ بنتُ حُيَى فقالاَ سُبحانَ اللهِ يَا رَسُولُ اللهِ وَكَبُرَ عَلَيْهِمَا فَقَالَ النبيُ صَلَّى اللهُ علىهِ وَسَلَّمَ إنَّ الشَّيطانَ يَبْلغُ مِن الانسانِ مَبْلَغَ الدم وإني خَشِيْتَ أن يَقْذِفَ في قُلوبِكُمَا شَيْئاً .

وَهَذَا صَرِيحٌ واضحٌ في أَنَّ الشَيْطَان يَخْتَرِقُ الجِسْمَ البَشَرِي وَيَسْرِي فيهِ كَمَا يَسْري الدَّمُ وَمَعَ خَفَائِهِ فَقَدْ التَزَمَ الشَيطَانُ لعنهُ اللهُ في عَدَاوَته سَبْعَةَ أُمُور : أَرْبعةٌ في قَولـه تَعالى﴿ وَلأُضِلَّنَّهُمْ وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنّ آذانَ الأنعامِ وَلآمُرَنَّهُمْ فَليغيُرنَّ خَلْقَ اللّهِ ﴾ وثَلاثَةٌ منهَا في قَوْلِهِ تَعالَى ﴿ لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ المُسْتَقِيْمَ ثُمَ لآتِيَنَّهُم مِنْ بينِ أَيْدِيْهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِيْنَ ﴾ .

وَهَذَا الإلتِزَامُ يُبَينُ أَنَّهُ عدوٌ مُتَظَاهِرٌ بالعَدَاوَةِ وَلِذَلِكَ فَصَّلَ اللهُ عَداوتَهُ باشْتِمَالِهـا عَلى ثَلاَثَـةِ أَشْيَاءَ : (السُّـوءُ) وَهُو مُتَنَـاوِلٌ جَمِيْعَ المَعَاصِي مِنَ القَلْبِ والجَوارِح (والفَحْشَاء) وهِيَ ما عظمَ جُرْمُهُ وَذَنْبُهُ كالكبَائِر التي بَلَغَت الغَايَةَ في الفُحْشِ وذلك كالزنَا واللِّواطِ . والقولِ

عَلى اللهِ بِلا عِلْمٍ في أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَشَرْعِهِ .

وَرَوَى مُسلم أَنَّ فتىً مِن الأَنْصَارِ قَتَل حَيَّةً في بَيْتِهِ فَمَاتَ في الحَال فَقَالَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَم : إِنَّ في المَدِيْنَةِ جِنًّا قَدْ أَسْلَمُوا فإِذَا رَأَيْتُم مِنهُم شيئاً فآذِنُوهُ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ فانْ بَدَا لَكُمْ بَعْدَ ذلك فَاقْتُلوهُ فانما هُوَ شَيْطَانٌ .

وَهَكَذا تَكَرَّرُ الرِّوَايَاتُ الصحيحةُ أَنَّ الجِنَّ كانُوا بالمَدِيْنَةِ وقد أَسْلَم بَعضُهُمْ وَرَوَى مسلمٌ في صحيحهِ عنْ أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عنهُ أَنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَليهِ وَسَلَّمَ قالَ (مَا مِنْ مَولودٍ يُولَدُ إِلا نَخَسَهُ الشَّيْطَانُ إلا ابنَ مَرْيمَ وَأُمَّهُ ﴾ .

وَرَوى مُسْلم قَوْلَ النبي صَلَّى اللهُ عَليهِ وَسَلَّمَ : مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ وَقَدْ وُكِّلَ اللهُ به قَرِيْنَهُ مِنَ الجِنِّ ، فَرَأَى الصحابَةُ أَنَّ قَوْلَهُ صلى اللهُ عليه وسلمَ عامٌ فقالُوا يا رسول اللَّه وإِيَّاكَ ، أَيْ حَتَّى أَنْتَ فقالَ صلى اللهُ عليهِ وسلَّمَ (وإِيَّايَ لكنَّ اللهَ قَدْ أَعَانَنِي عَلَيهِ فَأَسْلَم فَلا يَأْمُرُنِي إلا بِالخَيرِ) .

وَرَوَى البُخاريُ في صحيحهِ عن أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : وَكَّلَنِي رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم بِحِفْظ زَكاةِ رَمَضَانَ فَأَتَانِي آتٍ فَجَعَلَ يَحْثُو مِنَ الطَّعَامِ فَأَخَذْتُهُ وَقُلْتُ لأَرْفَعَنَّكَ إلى رَسُولِ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلَم قال دَعْنِي فإِنِّي مُحْتَاجٌ وَلِي عِيَالٌ وَبِي حَاجَةٌ شَدِيْدَةٌ .

قَالَ فَخَلّيتُ عَنْهُ فَأَصْبَحْتُ فقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلم (يا أَبَا هُريرةَ ما فَعَلَ أَسِيْرُك البَارِحة) قال قُلْتُ يا رسولَ الله شَكَا حَاجةً شديدةً وعيالاً فَرَحِمْتُهُ فَخَلّيْتُ سَبِيْلَهُ قَالَ أَمَا إِنهُ قَدْ كَذَبَكَ وَسَيعودُ فَرَصَدْتُه

فَجاءَ يَحْثُو مِن الطعامِ فَعَلَ ذَلِكَ ثلاثَ لَيَالٍ كلُّ ذَلِك والرَّسولُ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ يقولُ أَمَا إِنَّهُ قَدْ كَذَبَكَ وسَيَعُودُ .

فَلَمَا كان في الثالثةِ قُلْتُ لأَرْفَعَنَّكَ إلى رَسُولِ الله صلَّى اللهُ عليه وَسَلَّمَ ، وَهَذا آخرُ ثلاث مَرّاتٍ تَزْعُمُ أَنَّكَ لاَ تَعُودُ فَقَالَ دَعْنِي أُعَلِّمْكَ كلمَاتٍ يَنْفَعُكَ اللهُ بِهَا فقلتُ وَمَا هِـي قَالَ اذَا أَوَيْتَ إلى فِرَاشِكَ فاقْرأْ آيةَ الكُرْسي ﴿ اللَّهُ لاَ إِلَهَ إلا هُوَ الحَيُّ القيوم ﴾ حتى خَتَمَ الآيةَ فإنه لَنْ يَزَالَ عليكَ مِن اللهِ حَافِظٌ ولا يَقْرَبُكَ شَيْطانٌ حتى تُصْبِحَ فقال النبي صلى الله عليه وسلم أَمَا إِنَّهُ صَدَقَكَ وهو كَذُوبٌ تَعْلَمُ مَن تُخَاطِبُ مُنْذُ ثَلاَثِ لَيالٍ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ قُلْتُ لا قال ذَلِكَ شَيْطَانٌ .

عن أَبِي السَّائِبِ أَنَّه دَخَلَ على أَبِي سَعيدٍ الخُدْرِي في بَيْتِهِ قال فَوَجَدْتُهُ يُصَلي فَجَلَسْتُ أَنْتَظِرُهُ حَتَّى يَقْضِي صَلاتَهُ فَسَمِعْتُ تَحْرِيْكاً في عَرَاجِيْنٍ في نَاحِيَةِ البَيْتِ فالتَفَتُ فاذا حَيَّةٌ فَوَثَبْتُ لأَقْتُلَهَا فَأَشَارَ إِلَيَّ أَنْ أَجْلِسْ فَجَلَسْتُ فَلَمَّا انْصَرفَ أَشَارَ إلى بَيْتٍ في الدَّارِ فقال أَتَرى هَذَا البَيْتَ فَقُلْتُ نَعَمْ فَقَالَ كَانَ فِيه فَتىً مِنَّا حَدِيثَ عَهْدٍ بِعُرْسٍ قَالَ فَخَرجْنَا مَعَ رسول اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلم إلى الخَنْدَقِ فَكَانَ ذَلِكَ الفَتَى يَسْتَأْذِنُ رسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلم بأَنْصَافِ النَّهَارِ فَيَرجِعَ إلى أَهْلِهِ .

فاسْتَأْذَنَه يَوْماً فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلم خُذْ عَلَيْكَ سِلاَحَكَ فإني أَخْشَى عَلَيْكَ قُرَيْظَةَ فَأَخَذَ الرجلُ سِلاَحَهُ ثم رَجَعَ فإذَا امْرَأَتُه بَيْنَ البَابَيْنِ قَائِمةً فَأَهْوَى إِلَيْهَا بالرُّمْحِ لِيَطْعُنَهَا بِهِ فَأَصَابَتْهُ ، فَقَالَتْ اكْفُفْ عَلَيْكَ رُمْحَكَ وادْخُل البَيْتَ حَتَّى تَنْظُرَ مَا الذِيْ أَخْرَجَنِي فإذا بِحَيَّةٍ عَظِيْمَةٍ مُنْطَوِيَةٍ على الفِرَاشِ فَأَهْوَى إِلَيْهَا بالرُّمْحِ فَانْتَظَمَهَا بِهِ ثُمَّ خَرَجَ فَرَكَزَهُ في الدارِ فاضْطَرَبَتْ عَلَيْهِ فَمَا يُدْرَى أَيُّهُمَا كَانَ أَسْرَعَ مَوْتاً الحَيَّةُ أم

الفَتى قَال فَجِئْنَا إلى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلم فَذَكَرْنَا ذَلِكَ لَهُ وَقُلْنَا ادْعُ اللهَ يُحْيِيْهِ لَنَا فقالَ اسْتَغْفِرُوا لِصَاحِبِكُمْ .

ثُمَّ قَال إنَّ بالمَدِيْنَةِ جِنًّا قَدْ أَسْلَمُوا فإذَا رَأَيْتُمْ مِنْهُمْ شَيْئاً فآذِنُوهُ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ فإنْ بَدَا لَكُم بَعْدَ ذَلِكَ فَاقتُلُوهُ فإنَّمَا هُوَ شَيْطَانٌ وفي روايةٍ عنه فقال رسول اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وسلم إن لِهَذِهِ البُيُوتِ عَوَامِرَ فإذا رَأَيْتُمْ شَيْئاً مِنْهَا فَحَرِّجُوْا عَلَيْهَا ثَلاَثةً فإنْ ذَهَبَ وإلا فاقْتُلُوهُ فإنَّهُ كَافِرٌ وقال لَهُم اذْهَبُوا فادْفُنُوا صَاحِبَكُم .

وعن أبي هريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه قال قال رسول اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلم « إذا نُودِيَ بالصلاةِ أَدْبَرَ الشَّيْطَانُ وَلَهُ ضُرَاطٌ حتى لا يَسْمَعَ التَّأْذِيْنَ فإذا قُضِيَ النِّدَاءُ أَقْبَلَ حَتَّى إذَا ثوبَ بالصلاةِ أَدْبَرَ حتى اذا قُضِيَ التَّثْوِيْبُ أَقْبَلَ حَتَّى يَخْطُرَ بَيْنَ المَرْءِ وَنَفْسِهِ يَقُولُ اذْكُرْ كَذَا واذْكُرْ كَذَا ـ لِمَا لَمْ يَذْكُرْ مِن قَبْلُ ـ حَتى يَظَلَّ الرَجُلُ ما يَدْرِيْ كَمْ صَلَّى » متفق عليه « التثويب » : الإقامة يَخْطُر : يُوَسْوِسْ .

وعن ابن مسعودٍ رضِي اللهُ عنه قال ذُكِرَ عِنْدَ النبي صلَّى الله عليه وسلم رَجُلٌ نامَ لَيْلَةً حَتى أَصْبَحَ قال « يَعْقِدُ الشيطانُ على قَافِيةِ رَأْسِ أَحَدِكُم إذَا هُوَ نَامَ ثَلاَثَ عُقَدٍ يَضْرِبُ على كُلِّ عُقْدَةٍ عَلَيْكَ لَيْلٌ طَوِيْلٌ فَارْقُدْ فإن اسْتَيْقَظَ فَذَكَرَ اللهُ تعالى انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ فإن صَلَّى انْحَلَّتِ عُقَدُهُ كُلُّهَا فاصْبَحَ نَشِيْطاً طَيِّبَ النَّفْسِ وإلا أَصْبَحَ خَبِيْثَ النَّفْسِ كَسْلاَنٌ متفق عليه .

وروى مسلمٌ عن ابنِ مَسْعُودٍ قَالَ قالَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلم لا تَسْتَنْجوا بالرَّوْثِ ، ولا بالعِظامِ ، فإنه زَادُ اخْوانِكُم مِن الجِن

وَوَرَدَ في السنةِ الصَّحِيْحَةِ باللَّفْظِ الصَّرِيْحِ أَكْلُ الشَّيْطَانِ ، وَشُرْبُهُ فَقَدْ وَرَدَ إذا أَكَلَ أَحَدُكُم فَلْيَأْكُلْ بِيَمِيْنِهِ وَلْيَشْرَبْ بِيَمِيْنِهِ ، فإنَّ الشيطَانَ يَأْكُل بِشِمَالِه ، وَيَشْرَبُ بِشِمَالِهِ ، وَيَأْخُذُ بِشِمَالِهِ وَهَذَا لا يَحْتَاجُ إلى شَرْحٍ ، ولا تَأْوِيلٍ لوضوحه .

وَحَدِيْثِ الوَادِي الذي نَامَ فِيهِ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلم ، عن زَيْدِ بنِ أسلمَ قال عَرَّسَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم لَيْلةً بِطَرِيْقِ مَكَّةَ ، وَوَكَّلَ بِلالاً يُوْقِظُهُم لِلصَّلاةِ ، فَرَقَدَ بِلَالٌ وَرَقَدُوا ، حَتَى اسْتَيْقَظُوا وَقَدْ طَلَعَتْ عَلَيْهِم الشَّمْسُ ، فَاسْتَيْقَضَ القَومُ قَدْ فَزِعُوا ، فَأَمَرَهُم رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم أنْ يَرْكَبُوا ، حَتَّى يَخْرُجُوا مِن ذلك الوادِي .

وَقال هَذَا وَادٍ فِيْهِ الشيطانُ ، فَرَكِبُوا حَتَّى خَرَجُوا مِن ذَلِكَ الوَادِي ثُمَّ أَمَرهم النبيُ صَلَّى اللهُ عليه وسلم أنْ يَنْزِلُوا ، وأَنْ يَتَوَضَؤُا ، وَأَمَرَ بلالاً أنْ يُنَادِي بالصَّلاةِ ، فصَلى رَسُولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلم بالناسِ ثُمَّ انْصَرَفَ ، وَقَدْ رَأَى مِن فَزَعِهِم ، فقال أَيُّها الناسُ إنَّ اللهَ قَبَضَ أَرْوَاحَنَا وَلَو شَاءَ لَرَدَّهَا إلَيْنَا في حِيْنٍ غَيرِ هذا ، فإذا رَقَدَ أَحَدُكُم عن الصلاةِ أَوْ نَسِيَهَا ، ثم فَزِعَ إلَيْهَا فَلْيُصَلِهَا كما كان يُصَلِيْهَا في وَقْتِهَا .

ثم التَفَتَ رَسُولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلم إلى أبِي بَكْرٍ الصِّدِيْقِ فقال إنَّ الشيطانَ أَتَى بلالاً وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِي فَأَجْمَعَهُ ، ثم لم يَزَلْ يُهدِيْهِ كَمَا يُهَدَى الصَّبِيُ حَتَّى نَامَ ، ثم دَعَا رَسُوْلُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم بلالاً فَأَخْبَرَ بلالُ رَسُولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم مِثْلَ الذي أَخْبَرَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم أَبَا بَكْرٍ ، فقال لَهُ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنه أَشْهَدُ

أَنَّكَ رَسُولُ اللهِ رواه مالك في الموطاء مرسلاً .

وعن ابن مَسْعُودٍ قال خَرَجَ رَجُلٌ مِن الإِنْسِ فَلَقِيَهُ رَجُلٌ مِن الجِنّ فقال هَلْ لَكَ أَنْ تُصَارِعَنِيْ ، فإِنْ صَرَعْتَنِيْ عَلَّمْتُكَ آيَةً إِذا قَرَأْتَهَا حِيْنَ تَدْخُلُ بَيْتَكَ لم يَدْخُلْهُ شَيْطَانٌ ، فَصَارَعَهُ فَصَرَعَهُ ، فقال إِنّي أَرَاكَ ضَئِيْلاً ، كأَنَّ ذِرَاعَيْكَ ذِرَعَا كَلْبٍ ، أَهَكَذَا أَنْتُمْ أَيُّها الجِنُ ، أَمْ أَنْتَ مِن بَيْنِهِم ، قال إِنّي فِيْهِم لَضَلِيْعٌ فَعَاوِدْنِي فَعَاوَدَهُ فَصَرَعَهُ الانْسِيُ قَالَ تَقرأُ آيَةَ الكُرْسِي ، فإنه لاَ يَقْرَؤُهَا أَحَدٌ إِذا دَخَلَ بَيْتَهُ إِلا خَرَجَ الشَّيْطَانُ وَلَهُ خِجِيْجٌ كَخَجِيْجِ الحِمَارِ فَقِيْلَ لابنِ مسعودٍ أَهُوَ عُمَرُ قال مَن عَسَى أَنْ يَكُونَ إِلاَّ عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عنه .

وَمِن ذلكَ مَا فِي مَجِيءِ الشَّيْطَانِ في صُوْرَةِ شَيْخٍ نَجْدِي في دَارِ النَّدْوَةِ .

ومِن قِصَّتِهَا أَنَّهُ لَمَّا اجْتَمَعَ قُرَيْشٌ لِلتَّشَاوُرِ في أَمْرِ رَسُولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم ، قال أَهْلُ العلمِ بالأَخْبَارِ هَاجَرَ أَصْحَابُ النبي صلى اللهُ عليه وسلم مِثْلُ عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ ، وابنِهِ عبدِاللّهِ وأَخِيهِ زَيْدِ بْنِ الخطاب ، وعثمانَ بْنِ عَفَّان ، وطَلْحةِ بنِ عُبَيْدِ اللهِ ، وحمزةِ بنِ عبدِ المطلبِ ، عَمِّ رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم وزيدِ بنِ حَارِثَةَ وَغَيرِهِمْ .

وأَقَامَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم بَعْدَ أَصْحَابِهِ يَنْتَظِرُ الإِذْنَ في الهِجْرَةِ ، وَلَمْ يَتَخَلَّفْ مَعَه بمكَّةَ أَحَدٌ مِن المُهَاجِرِيْنَ ، إِلا مَنْ حُبِسَ ، أَوْ فُتِنَ ، إِلا أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيْقُ ، وَعَلي بنُ أَبِي طَالِبٍ وكانَ أَبُو بَكْرٍ كَثِيراً ما يَسْتَأْذِنُ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلم فيقولُ لَهُ لا تَعْجَلْ لَعَلَ اللهَ أَنْ

يَجْعَلَ لَكَ صَاحِباً ، فَيَطْمَعُ أبو بَكْرٍ أَنْ يَكُونَ هُوَ .

وَلَمَّا رَأَتْ قُرَيْشٌ أَنَّ لِرَسُولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم شِيْعَةً ، وَأَصْحاباً مِن غيرِ بَلَدِهِم ، وَرَأَوْا خُرُوْجَ المُهَاجِرِيْنَ إِلَيْهِم ، حَذِرُوْا خُرُوْجَ رَسُولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم ، وَعَلِمُوْا أَنَّهُ قَدْ أَجْمَعَ لِحَرْبِهِم فاجْتَمَعُوا في دَارِ النَّدْوَةِ ، وهِيَ دَارُ قُصَيِّ ابنِ كِلابٍ ، وكانَتْ قُرَيْشٌ لا تَقْضِيْ أَمْراً إِلاَّ فِيْهَا يَتَشَاوَرُوْنَ فِيْمَا يَصْنَعُونَ ، بِرَسُولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم حِيْنَ خَافُوْهُ .

قال ابنُ عَبَّاسٍ لَمَّا خَرَجُوا في اليومِ الذي اتَّعَدُوْا لَهُ ، كان ذَلِكَ اليَوْمُ يُسَمَّى يَوْمَ الرَّحْمَةِ ، فاعْتَرَضَ إِبلِيْسُ في هَيْئَةِ شَيْخٍ جَلِيْلٍ ، عَلَيْهِ بَتْلَةٌ أَيْ كِسَاءٌ غَلِيْظٌ ، فَوَقَفَ على بَابِ الدَّارِ ، فَلَمَّا رَأَوْهُ قَالُوا مَن الشَّيْخُ ، قال شَيْخٌ مِن أَهْلِ نَجْدٍ ، سَمِعَ بالذِي اتَّعَدْتُمْ لَهُ ، فَجَاءَ لِيَسْمَعَ ما تَقُولُونَ ، وعَسَى أَنْ لا يَعْدِمَكُم مِنه رَأْياً ، وَنُصْحاً ، قالُوا فأدْخُلْ .

وقد اجْتَمَعَ أَشْرَافُ قُرَيْشٍ ، فَقَالَ بَعْضُهم لِبَعْضٍ إِنَّ هَذَا الرَّجُلَ قد كَانَ مِن أَمْرِهِ مَا قَدْ رَأَيْتُم ، وإِنا وَاللهِ مَا نَأْمَنُهُ عن الوُثُوبُ عَلَيْنَا ، فَأجْمعُوا فِيه رَأْياً ، فَقَالَ قَائِلٌ احْبِسُوهُ في الحَدِيدِ وَأَغْلِقُوا عليهِ بَاباً ، ثُمَّ تَرَبَصُوا بِهِ مَا أَصَابَ أَمْثَالَهُ مِن الشُعَراءِ مِن الموتِ ، فقال الشَّيْخُ النَّجْدِيَّ لا واللهِ مَا هَذَا لَكُم بِرَأْيٍ ،واللهِ لَئِنْ حَبَسْتُمُوْهُ كَمَا تَقُوْلُونَ لَيَخْرُجُنَّ أَمْرُهُ إلى أَصْحَابِهِ فَيَثِبُوْا عَلَيْكُم فَيَنْتَزِعُوهُ مِنكم ، ما هَذَا لَكُم بِرَأيٍ فانْظُرُوْا في غَيْرِهِ .

فَتَشَاوَرُوْا ، ثُمَّ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُم نُخْرِجُهُ عن بِلَادِنَا ، ثُمَّ إِذا خَرَجَ فَواللهِ لا نُبَالِي أَيْنَ ذَهَبَ ، فقال الشيخُ النَجْدي لَا واللهِ مَا هَذَا لَكُم

بِرَأْيٍ أَلَمْ تَرَوْا حُسْنَ حَدِيْثِهِ ، وَحَلاَوَةَ مَنْطِقِهِ ، وَغَلَبَتَهُ على قلوبِ الرِجالِ بِمَا يَأتِي بِهِ ، واللهِ مَا هُوَ رَأْيٌ .

فَقَالَ : أَبُو جَهْلٍ واللهِ إِنَّ لِيَ رَأْياً ، قَالُوا وَمَا هُوَ يَا أَبَا الحَكَمِ قَالَ أَرَى أَنْ نَأْخُذَ مِن كُلِّ قَبِيْلَةٍ شَاباً ، ثُمَّ نُعْطِي كُلَّ فَتىً سَيْفاً ، ثُمَّ يَعْمِدُوْا إِليهِ فَيَضْرِبُوهُ بِهَا ضَرْبَةَ رَجُلٍ وَاحِدٍ ، فَيَقْتُلُوْهُ فَتَسْتَرِيْحُوا مِنه فإِنَّهم إِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ تَفَرَقَ دَمُهُ فِي القَبَائِلِ جَمِيْعاً ، فَلَمْ يَقْدِرْ بَنُو عَبْدِ مَنَافٍ عَلى حَرْبِ قَوْمِهِم جَمِيْعاً ، فَرَضُوا بالعَقْلِ فَعَقَلْنَا لَهُمْ .

فقال الشَّيْخُ النَّجْدِيْ هَذَا هُوَ الرَّأْيُ الذِي لا أَرَى غَيْرَهُ ، فَتَفَرَّقَ القومُ على ذَلِكَ ، فَأَتَى جِبْرِيْلُ النبيَّ صَلَّى اللهُ عليه وسلم ، فقال لا تَبِيْتَ اللَّيْلَةَ عَلَى فِرَاشِكَ ، فَلَمَّا كَانَ عَتَمَةٌ مِن اللَّيلِ ، اجْتَمَعُوا على بَابِهِ يَرْقُبُونَهُ حَتَّى يَنَامَ فَيَثِبُوْنَ عَلَيهِ .

فَلَمَّا رَأى رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم مَكَانَهُم قال لِعَلِيِّ بنِ أَبِي طَالِبٍ نَمْ عَلى فِرَاشِيْ وَتَسَجَّ بِرِدَائِي الأَخْضَرَ ، فإِنَّهُ لَنْ يَخْلُصَ إِليكَ شَيءٌ تَكْرَهُهُ مِنهم ، فَلَمَّا اجْتَمَعُوا على بَابِهِ قال أَبُو جَهْلٍ إِن مُحَمَّداً يَزْعُمُ أنكُم إِنْ تَابَعْتُوهُ عَلَى أَمْرِهِ كُنْتُمْ مُلُوكَ العَرَبِ ، والعَجَمِ ثم بُعِثْتُم مِن بَعْدِ مَوْتِكُم وَجُعِلَتْ لَكُم جَنَّاتٌ كَجَنَّاتِ الأَرْدُنِ ، وإِنْ لَم تَفْعَلُوا كَانَ فِيكم ذَبْحٌ ، ثم بُعِثْتُمْ مِن بَعْدِ مَوْتِكُم ، ثم جُعِلَتْ لكمُ نَارٌ تُحْرَقُونَ فِيها .

قَالَ وَخَرَجَ عَلَيْهِمْ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم فَأَخَذَ حَفْنَةً مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ نَعَمْ أَنَا أَقُولُ ذلكَ أَنْتَ أَحَدُهُمْ فَأَخَذَ اللهُ على أَبْصَارِهِم عَنْهُ فَلاَ يَرَوْنَهُ وَجَعَلَ يَنْثُرُ ذَلِكَ التُرابَ على رُؤُوْسِهِم ، وَهُوَ يَتْلُو عَلَيْهِم يسٓ والقرآنِ الحَكِيْم إِلى قَولِهِ فأَغْشَيْنَاهُم فَهُم لاَ يُبْصِرُون ، ولم يُبْقِ مِنهم

رَجُلاً إلاَّ وَقَدْ وَضَعَ على رَأْسِهِ تُرَاباً .

ثم انْصَرَفَ فَأَتَاهُم آتٍ فَقَالَ ما تَنْتَظِرُوْنَ هَهُنَا ، قالُوا مُحَمَّداً قال خَيَّبَكُم اللهُ ، واللهِ خَرَجَ عَلَيكُم مُحَمَّدٌ ثُمَّ مَا تَرَكَ مِنكم رَجُلاً إلاَّ وَقَدْ وَضَعَ على رَأْسِهِ تُرَاباً ، وانْطَلَقَ لِحَاجَتِهِ .

قال فَوَضَعَ كُلُ وَاحِدٍ مِنهم يَدَهُ على رَأْسِهِ فاذَا عَلَيْهِ تُرَابٌ ، ثُم جَعَلَوا يَتَطَلَّعُونَ ، فَيَرَوْنَ عَلياً عَلى الفِرَاشِ مُسَجَّى بِبُرْدِ رسول الله صَلَّى اللهُ عليه وسلم ، فَيَقُولُونَ واللهِ إنَّ هَذَا لَمُحَمَّدٌ نَائِماً في بُرْدِهِ ، فلم يَبْرَحُوا كَذَالكَ حَتَّى أَصْبَحُوا .

فَقَامَ عَليٌ عَن الفِرَاشِ فَقَالُوا وَاللهِ لَقَدْ صَدَقَنَا الذي كَانَ حَدَثَنَا وَأَنْزَلَ اللهُ في ذلكَ ﴿ وإذ يَمْكُر بِكَ الذينَ كَفَروا لِيُثبتُوكَ أَوْ يَقْتُلوكَ أَوْ يُخْرِجوكَ وَيَمْكُرُوْنَ وَيَمْكُرُ اللهُ واللهُ خَيْرُ الماكِرين ﴾ والشاهدُ هُوَ مَجِيءُ الشيطانِ وَرُؤْيَتُهُ وَكَلاَمُهُ وهو أَبُو الجِنِ لَعَنَهُ اللهُ .

ومِن ذَلِكَ صِيَاحُ ابْلِيْسَ يَوْمَ أُحُدٍ أَنَّ النبيَّ صَلَّى اللهُ عليه وسلم قُتِلَ ، فَلَمْ يُشَكَّ في ذَلِكَ ، حَتَّى طَلَعَ رَسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم بَيْنَ السَّعْدَيْنِ ، قال الرَّاوِيْ نَعْرِفُهُ بِكَتِفَيْهِ إذا مَشَى قال فَفَرِحْنَا حَتَّى كَأَنَّهُ لم يُصِبْنَا مَا أَصَابَنَا ، فاؤمَأ نَحْونَا الحَدِيْثَ .

وَ مِن ذَلِكَ مَا وَرَدَ عَن أبي هُريرةَ رضي اللهُ عنه قال قالَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم إذا اسْتَيْقَظَ أَحَدُكُم مِن مَنَامِهِ فَلْيَتَوَضَأ وَلْيَسْتَنْثِرْ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ فإن الشَيْطَانَ يَبِيْتُ على خَيَاشِيْمِهِ متفق عليه .

وَمِنْ ذَلِكَ مَا وَرَدَ عن أبي سعيدٍ الخُدري أن رسولَ اللهِ صلى اللهُ

عليه وسلم قامَ فَصَلَى صَلاةَ الصُّبْحِ وهو خَلْفَهُ فَقَرَأَ فالتُبِسَتْ عَلَيْهِ القِرَاءةُ فَلَمَّا فَرَغَ مِن صَلاتِهِ قَالَ لَوْ رَأَيْتُمُونِي وابْلِيْسَ فَأَهْوَيْتُ بِيَدِي فَمَا زِلْتُ أَخْنِقُهُ حَتَّى وَجَدْتُ بَرْدَ لُعابِهِ بَيْنَ أَصْبُعَيَّ هَاتَيْنِ الإِبْهَامِ وَالتِي تَلِيْهَا وَلولا دَعْوَةُ أَخِيْ سُلَيْمان أَصبَح مَرْبُوطاً بِسَارِيَةٍ مِن سَوَارِي المَسْجِدِ يَتَلاَعَبُ بِهِ صِبْيَانُ المَدِيْنَةِ .

وقال شَيْخُ الإِسلامِ والجِنُ يَتَصَوَّرُوْنَ في صُوَرِ الإِنْسِ ، والبَهَائِم فَيَتَصَوَّرُوْنَ في صُوَرِ الحيَّاتِ، والعَقَارِبِ ، وَغَيْرِهَا ، وفي صُوَرِ الإِبل ، والبَقَرِ والغَنَمِ ، والخَيْلِ ، والبِغَالِ ، والحَمِيْرِ ، وَفي صُوَرِ الطَّيْرِ ، وفي صُوَرِ بَنِيْ آدَمَ ، كَمَا أَتَى الشَّيْطَانُ قُرَيْشاً في صُوْرَةِ سُرَاقَة بْنِ مالكٍ بنِ قَشم ، لَمَّا أَرَادُوْا الخُرُوْجَ إلى بَدْرٍ ، قال تعالى ﴿ واذْ زَيَّنَ لَهُم الشيطانُ أَعْمَالَهُـم وقـال لا غَالِبَ لَكُم اليَوْمَ مِن النَّاسِ وإني جَارٌ لكُم ﴾ إلى قَوْلِهِ ﴿ واللهُ شَدِيْدُ العِقَابِ ﴾ .

وَذَكَر ابنُ أَبي الدُنْيَا في كِتَابِهِ مَكَائِدِ الشَّيْطانِ أَنَّ رَجُلاً مِن أَهْلِ الشامِ مِن أُمَرَاءِ مُعَاوِيَةَ غَضِبَ ذَاتَ لَيْلَةٍ عَلى ابْنِهِ ، فأَخْرَجَهُ مِن مَنْزِلِهِ فَخَرَجَ الغُلاَمُ لا يَدْرِيْ أَيْنَ يَذْهَبُ ، فَجلَسَ وَرَاءَ البَابِ مِن خَارِجٍ ، فَنَام سَاعةٍ ثُمَّ اسْتَيْقَضَ ،وَبَابُهُ يَخْمِشُهُ هِرٌ أَسْوَدٌ بَرِيٌ ، فخَرَجَ إِليهِ الهِرُ الذِيْ في مَنْزِلِهِمْ .

فقال لَهُ البرِيُ وَيْحَكَ افْتَحْ ، فَقالَ لا أَسْتَطِيْعُ فَقَالَ وَيْحَكَ ائْتِنِيْ بِشَيءٍ أَتَبَلَغُ بِهِ ، فإني جَائِعٌ وَأَنَا تَعْبَانٌ ، هَذَا أَوَانُ مَجِيْءِ مِن الكُوفَةِ وَقَدْ حَدَثَ اللَّيْلَةَ حَدَثٌ عَظِيْمٌ ، قُتِلَ عَلِيُ بنُ أَبِي طالبٍ ، قَالَ فَقَالَ لَهُ الهِرُ الأَهْلِي واللهِ إنه لَيْسَ شيءٌ هَاهُنَا ، إلاَّ وَقَدْ ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ ، غَيْرَ سَفُّوْدٍ

كَانُوا يَشْوُوْنَ عَلَيهِ اللَّحْم .

فقال ائْتِنِي بِهِ فَجَاءَهُ بِهِ فَجعَل يَلْحَسُهُ حَتَّى أَخَذَ حَاجَتَهُ وانْصَرَفَ وذَلِكَ بِمَرْأى مِن الغُلَامِ ،وَسَمْعٍ ،فقامَ إلى البَابِ فَطَرَقَهُ،فَخَرَج إليهِ أَبُوهُ ، فَقَالَ مَنْ فَقَالَ افْتَحْ ، فَقالَ وَيْحَكَ مَالَكَ ، فَقَالَ افْتَحْ فَفَتَحَ فَقَصَّ عَلَيهِ خَبَرَ مَا رَأى .

فَقَالَ وَيْحَكَ أَمَنَامٌ هَذَا ، قال لَا وَاللهِ قَالَ وَيْحَكَ ، فَأَصَابَكَ جُنُونٌ بَعْدِي ، قال لَا وَاللهِ ، وَلَكِنْ الأَمْرُ كَمَا وَصَفْتُ لَكَ .

فاذْهَبْ إلى مُعَاوِيَةَ الآنَ فاتَّخِذْ عِنْدَهُ بِمَا قُلْتُ لَكَ ، فَذَهَبَ الرَّجُلُ فاسْتأذَنَ عَلَى مُعَاوِيَةَ فَأَخْبَرَهُ خَبَرَ مَا ذَكَرَ لَهُ ، وَلَدُهُ ، فَأَرَّخُوْا ذَلِكَ عِنْدَهُم قَبْلَ مَجِيْءِ البُرُدِ ، وَلَمَّا جَاءَتْ البُرُدُ وَجَدُوْا مَا أَخْبَرهُم قَبْلَ مَجِيْءِ البُرُدِ ، وَلَمَّا جَاءَتْ البُرُدُ وَجَدُوْا مَا أَخْبَرُوْهُم بِهِ مُطَابقاً لِما كَان خَبَّرَ بِهِ الغُلامُ .

وَرُوِيَ أَنَّ سَعْدَ بنِ عُبَادَةَ بَالَ بِجُحْرٍ بالشام ثُمَّ اسْتَلْقَى مَيِّتاً فَسُمِعَ مِن بِئْرٍ بالمدَيْنَةِ قَائلاً يَقُولُ نَحْنُ قَتَلْنَا سَيِّدَ الخَزْجِ سَعْدَ بنَ عُبَادَة ، رَمَيْنَاهُ بِسَهْمَيْنِ فَلَمْ نُخْطِي فُؤَادَهُ ، فَحَفِظُوا ذَلِكَ اليومَ الذي ماتَ فيه سَعْدٌ فَوَجَدُوْه اليومَ الذي سُمِعَ فيه الخَبَرُ ، والله أعلم .

اللَّهُمَّ وَفِّقْنَا لِتدبُر كِتَابك وإطَالةِ التأمُلِ فيه وَجَمْعِ الفِكْرِ على مَعَانِي آياتِه . اللهم ثَبِّت قَوَاعِدَ الإيمانِ في قُلُوبِنَا وَشَيِّدْ فيها بُنْيَانَهُ وَوَطِّدْ فِيها أَرْكَانَهُ وَأَلْهِمنَا ذِكْرَكَ وَشُكْرَكَ وآتِنَا في الدُّنْيَا حَسَنَةً وفي الآخِرةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النار واغْفِرْ لَنَا ولِوَالدينا وجميع المسلمين بِرحمتكَ يا أَرْحم الراحِمين وصلَى اللهُ على محمدٍ وعلى آلِهِ وصَحْبِهِ أَجْمَعِيْن .

(فَصْــلٌ)

وقال شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميةَ رَحِمه اللهُ ، ولا رَيْبَ أَنَّ الأوثانَ يَحْصُلُ عِندَهَا مِن الشياطينِ ، وَخِطَابِهِم ، وَتَصَرُّفِهِم ما هُوَ مِن أَسْبَابِ ضَلالِ بَنِيْ آدَمَ ، وَجَعْلُ القُبُورِ أَوْثَاناً ، هُو أَوَّلُ الشِّرْكِ ، وَلِهَذَا يَحْصُلُ عِنْدَ القُبورِ لِبَعْضِ الناسِ مِن خِطابٍ يَسْمَعُهُ ، وَشَخْصٍ يَرَاهُ ، وَتَصَرُّفٍ عَجِيْبٍ ، مَا يَظُنُّ أَنَّهُ مِن المَيْتِ .

وَقد يَكُونُ مِن الجِنِّ والشَّيَاطِيْنِ ، مِثْلُ أَنْ يَرَى القَبْرَ قَدْ انْشَقَّ ، وَخَرَجَ مِنه المَيِّتُ ، وَكَلَّمَهُ وَعَانَقَهُ وَهَذَا يُرَى عِنْدَ قُبُورِ الأَنْبِيَاءِ وَغَيْرِهِم وإِنَّمَا هُوَ شَيْطَانٌ فإِنَّ الشَّيْطَانَ يَتَصَوَّرُ بِصُوَرِ الإِنْسِ ، وَيَدَّعِي أَحَدُهُمْ أَنَّهُ النَّبِيُ فُلَانٌ أَوِ الشَّيْخُ فُلانٌ وَيَكُونُ كاذِباً في ذَلِكَ .

وفي هَذَا البَابِ مِن الوَقَائِعِ مَا يَضِيْقُ هَذَا المَوْضِعُ عَنْ ذِكْرِهِ وهِيَ كَثِيْرَةٌ جِدًّا ، والجَاهِلُ يَظُنُّ أَنَّ ذَلِكَ الذي رَآهُ قَدْ خَرَجَ مِن القَبْرِ وَعَانَقَهُ أَوْ كَلَّمَهُ هُوَ المَقْبُوْرُ أَوِ النَّبِيُ ، أَو الصَّالِحُ ، أَوَغَيْرُهُمَا ، والمُؤْمِنُ العَظِيْمُ يَعْلَمُ أَنَّهُ شَيْطَانٌ ، وَيَتَبَيَّنُ ذلك بأُمورٍ .

أَحَدَها أَنْ يَقْرَأَ آيَةَ الكُرْسِيْ بِصِدْقٍ ، فإِذَا قَرَأَهَا تَغَيَّبَ ذَلِكَ الشَّخْصُ ، أَوْ ساخَ فِي الأَرْضِ ، أَو احْتَجَبَ ، وَلَوْ كَان رَجُلاً صَالِحاً أَوْ مَلَكا أَوْ جِنِّيَاً مُؤْمِناً لَمْ تَضُرَّهُ آيةُ الكُرْسِيْ ، وإِنَّمَا تَضُرُّ الشَّيَاطِيْنَ كَمَا ثَبَتَ في الصَّحِيْحِ مِن حَدِيْثِ أَبِي هُرَيْرَةَ إِقْرَأ آيَةَ الكُرْسِيْ إِذَا أَوَيْتَ فِرَاشَكَ ، فإِنَّهُ لاَ يَزالُ عَلَيْكَ مِن اللهِ حَافِظٌ ولا يَقْرَبُكَ شَيْطَانٌ حَتَّى تُصْبِحَ ، فقال النَّبِيُ صَلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم صَدَقَكَ وَهُوَ كَذُوْبٌ .

وَمِنْهَا أَنْ يَسْتَعِيْذَ باللهِ مِن الشَّيَاطِيْنِ.

وَمِنْهَا أَنْ يَسْتَعِيْذَ بالعُوْذَةِ الشَّرْعِيَّةِ ، فانَّ الشَيَاطِيْنَ كَانَتْ تَعْرِضُ لِلأَنْبِيَاءِ في حَيَاتِهِم ، وَتُرِيْدُ أَنْ تُؤْذِيْهِمْ ،وَتُفْسِدُ عِبَادَتَهُم كَمَا جَاءَتِ الجِنُّ إِلى النَّبي صَلَّى اللهُ عليه وسلم بِشُعْلَةٍ مِن نَارٍ تُرِيْدُ أَنْ تَحْرِقَهُ ، فَأَتَاهُ جِبْرِيْلُ بالعُوْذَةِ المَعْرُوفَةِ ، الَّتِي تَضَمَّنَها الحَديثُ المرْوِيُ عَن أَبِي التَيَّاحِ أَنَّهُ قال سَأَلَ رَجُلٌ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بنَ حُبَيْشٍ ، وكان شَيْخاً كَبِيراً قَدْ أَدْرَكَ النَّبِيَ صَلَّى اللهُ عليهِ وسلم كيفَ صَنَعَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلم حِيْنَ كادَتْهُ الشَّيَاطِينُ ، قال تَحَدَرَتْ عَلَيْهِ مِن الشِّعَابِ ، والأَوْدِيَةِ ، وفِيْهِم شَيْطَانٌ مَعَهُ شُعْلَةٌ مِن نَارٍ ، يُرِيْدُ أَنْ يُحْرِقَ بها رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم .

قَالَ فَرُعِبَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم ، فَأَتَاهُ جِبْرِيْلُ عليه السلام ، فقال يا مُحَمَّدُ قُلْ قَالَ مَا أَقولُ قَالَ قُلْ أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَاتِ ، الَّتِي لاَ يُجَاوِزُهُنَّ بَرٌ وَلاَ فَاجِرٌ ، مِن شَرِّ ما خَلَقَ ، وَذَرَأَ وَبَرَأَ وَمِن شَرِّ مَا يَنْزِلُ مِن السَّمَاءِ ، وَمِن شَرِّ مَا يَعْرُجُ فِيها ، ومِن شَرِّ مَا يَخْرُجُ مِن الأَرْضِ ، ومِن شَرِّ مَا يَنْزِلُ فِيها، ومِن شَرِّ فِتَنِ اللَّيْلِ والنَّهَارِ ، وَمِن شَرِّ كُلِّ طَارِقٍ يَطْرُقُ إِلاَّ طَارِقاً يَطْرُقُ بِخَيْرٍ يَا رَحْمَن .

قال فَطَفِئَتْ نَارُهُم ، وَهَزَمَهُم اللهُ عَزَّ وَجَلَّ ، وفي صحيح مسلم عن أَبِي الدَّرْدَاءِ أَنَّهُ قَالَ قَامَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَليهِ وسلم يُصَلِّي ، فَسَمِعْنَاهُ يَقُولُ أَعُوْذُ باللهِ مِنْكَ ، ثم قَالَ أَلْعَنُكَ بلَعْنَةِ اللهِ ثلاثاً ، وَبَسَطَ

يَدَهُ يَتَنَاوَلُ شَيْئاً ، فَلَمَّا فَرَغَ مِن صَلاتِهِ ، قُلْنَا يَا رَسُولَ اللهِ سَمِعْنَاكَ تَقُولُ شَيْئاً في الصلاةِ لم نَسْمَعْكَ تَقُولُ قَبْلَ ذلكَ ، وَرَأَيْنَاكَ بَسَطْتَ يَدَكَ .

قَالَ إِنَّ عَدُوَ اللهِ إِبْلِيْسُ جَاءَ بِشِهَابٍ مِن نَارٍ ، لِيَجْعَلَهُ في وَجْهِي ، فَقُلْتُ أَعُوْذُ باللهِ مِنكَ ثلاثَ مَرَّاتٍ ، ثم قُلْتُ أَلْعَنُكَ بِلَعْنَةِ اللهِ التَّامَّةِ فاسْتَأْخَرَ ، ثم أَرَدْتُ أَنْ آخُذَهُ ، وَلَولاَ دَعْوَةُ أَخِيْنَا سُلَيْمَانَ لأَصْبَحَ مُوْثَقاً يَلْعَبُ بِهِ وِلدَانُ المَدِيْنَةِ .

وَكَثِيْراً مِن العُبَّادِ يَرَى الكَعْبَةَ تَطُوفُ بِهِ وَيَرَى عَرْشاً عَظِيماً ، وَعَلَيهِ صُوْرَةٌ عَظِيْمَةٌ ، وَيَرَى أَشْخَاصاً تَصْعَدُ ، وَتَنْزِلُ فَيَظُنُّهَا المَلاَئِكَةَ وَيَظُنُّ أَنَّ تِلْكَ الصُوْرَةَ هِيَ اللهُ ، تَعَالَى ، وَتَقَدَّسَ ، وَيَكُونُ ذَلِك شَيْطَاناً .

وَقَدْ جَرَت هَذِهِ القِصَّةُ لِغَيْرِ وَاحِدٍ مِن النَّاسِ ، فَمِنْهُم مَن عَصَمَهُ اللهُ وَعَرَفَ أَنَّه الشَّيْطَانُ ، كالشَّيْخِ عبدِ القادِرِ في حِكايَتِهِ المَشْهُوْرَةِ ، حَيْثُ قَالَ كُنْتُ مَرَّةً في العِبَادَةِ فَرَأَيْتُ عَرْشاً عَظِيْماً ، وَعَلَيهِ نُوْرٌ ، فقال لِيْ يَا عَبْدَ القادِرِ ، أَنَا رَبُّكَ ، وَقَدْ حَلَّلْتُ لَكَ مَا حَرَّمْتُ على غَيرِكَ ، قال فَقُلْتُ لَهُ أَنْتَ اللّهُ الذي لا إله ألا هُوَ ، إخْسَأْ يَا عَدُوَ اللهِ ، قال فَتَمَزَّقَ ذَلِكَ النُوْرُ ، وَصَارَ ظُلْمَةً ، وقال يا عَبْدَ القَادِرِ نَجَوْتَ مِنِّيْ بِفِقْهِكَ في دِيْنِكَ ، وَعِلْمِكَ وَمُنَازَلَتِكَ ، في أَحْوَالِكَ ، لَقَدْ فَتَنْتُ بِهَذِهِ القِصَّةِ سَبْعِيْنَ رَجُلاً .

فَقِيْلَ لَهُ كَيْفَ عَلِمْتَ أَنَّهُ الشَّيْطَانُ قَالَ بِقَوْلِهِ لِيْ حَلَّلْتُ لَكَ مَا حَرَّمْتُ عَلَى غَيرِكَ ، وَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّ شَرِيْعَةَ مُحَمَّدٍ لاَ تُنْسَخُ وَلاَ تُبَدَّلُ ، وَلأَنَّهُ قَالَ أَنَا رَبُّكَ ، ولم يَقْدِرْ أَنْ يَقُولَ أَنا اللهُ الذي لا إِلَهَ إِلاَّ أَنا ، ومِن

هَؤُلآء مَن اعْتَقَدَ أنَّ المَرْئِي هُوَ اللَّهُ وصَارَ هُوَ وَأَصْحَابُهُ يَعْتَقِدُونَ أَنَّهُم يَرَوْنَ اللهَ تعالى ، في اليَقَظَةِ ، وَمُسْتَنَدُهُم ما شَاهَدُوْهُ ، وَهُمْ صَادِقُونَ فِيْمَا يُخْبِرُوْنَ بِهِ ، وَلَكِنْ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ ذَلِكَ هُوَ الشَّيْطَانُ .

وَهَذَا قَدْ وَقَعَ كَثِيْراً لِطَوائِفَ مِن جُهَالِ العُبَّادِ يَظُنُّ أَحَدُهُم أَنَّهُ يَرَى اللهَ تَعالى بِعَيْنِهِ في الدُّنْيَا لأَنَ كَثِيْراً مِنهم رَأَى مَا ظَنَّ أَنَّهُ اللهُ وإِنمَا هُوَ شَيْطَانٌ .

وَكَثِيْرٌ مِنْهُم مَن رَأَى مَن ظَنَّ أَنَّهُ نَبِيٌّ أَوْ رَجُلٌ صَالِحٌ أَوْ الخَضِرْ وَكَانَ شَيْطَاناً قَالَ وَمِنْهُم مَن يَظُنُّ أَنَّهُ مَلَكٌ والمَلَكُ يَتَمَيَّزُ عن الجِنّي بِأُمُوْرٍ كَثِيْرَةٍ والجِنُ فِيْهِم الكُفَّارُ والفُسَّاقُ والجُهَالُ وفيهم المُؤْمِنُونَ المُتبِعُونَ لِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عليه وسلم فَكَثِيْراً مِمَّنْ لَم يَعْرِف أنَّ هَؤلآء جِنّ وَشَيَاطِيْنُ يَعْتَقِدُهُمُ مَلاَئِكَة وإِنَّمَا هُمْ مِن الْجِنِّ والشَّيَاطِينِ .

قال والشَّيَاطِينُ يُوَالُونَ مَن يَفْعَلُ مَا يُحِبُوْنَهُ مِن الشِرْكِ والفُسُوقِ والعِصْيَانِ فَتَارَةً يُخْبِرُوْنَهُ بِبَعْضِ الأُمُورِ الغَائِبَةِ ، لِيُكَاشِفَ بِهَا ، وَتَارَةً يُؤْذُوْنَ مَنْ يُرِيْدُ أَذَاهُ ، بِقَتْلٍ ، وَتَمْرِيْضٍ ، وَنَحْوِ ذلك .

وَتَارَةً يَجْلِبُونَ لَهُ مَايُرِيْدُ ، مِن الانْسِ وَتَارَةً يَسْرِقُونَ لَهُ مَا يَسْرِقُونَهُ مِن أَمْوَالِ الناسِ مِن نَقْدٍ وَطَعَامٍ ، وَثِيَابٍ وَغَيرِ ذَلِكَ ، فَيَعْتَقِدُ أنهُ مِن كَرَامَاتِ الأَوْلِياءِ ، وإِنَّمَا يَكُونُ مَسْرُوْقاً .

وَتَارَةً يَحْمِلُونَهُ في الهَوَاءِ فَيَذْهَبُوْنَ بِهِ إِلى مَكَانٍ بَعِيْدٍ ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَذْهَبُونَ بِهِ إلى مَكةَ عَشِيَّةَ عَرَفَةَ ، وَيَعُودُوْنَ بِهِ فَيَعْتَقِدُ هَذَا كَرَامَةً ، مَعَ أَنَّهُ لَمْ يَحُجَّ حَجَّ المُسْلِمِينَ لا أَحْرَمَ ولا لَبَى وَلاَ طَافَ بِالبَيْتِ ولا بَيْنَ الصَّفَا والمَرْوَةِ وَمَع أَنَّ هَذَا مِن أَعْظَمِ الضَّلاَلِ انتهى باختصار .

« مَوْعِظَةٌ في التَّحْذِيْر عَن الانْهِمَاكِ »
« في الدُّنْيَا وَلَذَاتِهَا وَشَهَواتِهَا »

عِبَادَ اللهِ إن مَن نَظَر إلى الدُنيا بِعَيْنِ البَصِيْرةِ أَيْقَنَ أَنَّ نَعِيْمَهَا ابْتِلاءٌ ، وَحَياتَهَا عَنَاءٌ وَعَيْشَهَا نكدٌ ، وَصَفوَهَا كدَرٌ وَأَهلَهَا مِنْهَا عَلَى وَجَلٍ إما بِنِعْمَةٍ زائِلةٍ ، أَوْ بَلِيَّةٍ نَازِلةٍ أَوْ مَنِيَّةٍ قَاضِيَةٍ .

مِسْكِيْنٌ مَن اطْمَأَنَّ وَرَضِيَ بِدَارٍ حَلاَلُهَا حِسَابٌ ، وَحَرامُهَا عِقَابٌ ، إن أَخَذَهُ مِن حَلاَلٍ حُوْسِبَ عَلَيْهِ ، وإِنْ أَخَذَهُ مِن حَرَامٍ عُذِّبَ بِهِ ، مَنْ اسْتَغْنَى في الدُّنيا فُتِنَ ، وَمَن افْتَقَرَ فِيها حَزِنَ ، مَن أَحبَهَا أَذَلَّتْهُ ، وَمَن التَفَتَ إليها وَنَظَرَهَا أَعْمَتْهُ .

« لَـوْ كُنْتَ رَائِـدَ قَـوْمٍ ظَـاعِـنِيْـنَ إلى
دُنْيَـاكَ هَـذِي لَمَـا أَلْفَيْتَ كَـذَّابَـا »
« لَـقُـلْتَ تِـلْكَ بَـلاَءٌ نَبْـتُـهَـا سَـقَـمٌ
ومَـاؤُهَـا الـعَـذْبُ سُمٌ لِـلْفَتَى ذَابَـا »

وَكَمْ كُشِفَ لِلسَّامِعِينَ عَن حَقِيْقَةِ الدُنْيَا وَبَيّنَ لَهُمْ قِصَرَ مُدَّتِهَا وانْقِضَاءَ لَذَتِهَا بِمَا يُضْرَبُ مِن الأَمْثَالِ الحِسّيَةِ قال اللهُ تعالى ﴿ اعْلَمُوا أَنَّما الحياةُ الدنيا لعبٌ وَلَهوٌ وزينةٌ وتفاخرٌ بَيْنَكُم وتكاثرٌ في الأَموالِ والأولادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الكُفارَ نَباتُهُ ثم يَهِيْجُ فَتَراهُ مُصْفَراً ثم يَكُونُ حُطَاماً وفي الآخِرةِ عَذابٌ شَدِيْدٌ وَمَغفرةٌ مِن اللهِ وَرِضْوانٌ وما الحَيَاةُ الدنيا الا متاعُ الغُرُور ﴾ .

شَرَحَ لنا العَلِيمُ الحَكِيمُ في هذهِ الآيةِ حَالَ الدُنْيَا التي افْتَتَنَ الناسُ

بِها الذينَ قَصُرَ نَظَرُهُم وَبَيَّنَ أَنَّها مِن مُحقَّرَاتِ الأُمُوْرِ التي لا يَرْكَنُ إِلَيْهَا العُقَلاء فَضْلاً عن الافْتتَانِ بِهَا والانْهِمَاكِ في طَلَبِها وَقَتْلِ الوَقْتِ في تَحْصِيْلِهَا بأنَّها لَعِبٌ لا ثَمَرَةَ فِيه سِوَى التَّعَبِ ، وَلَهْوٌ تَشْغَلُ صَاحِبَهَا وَتُلْهِيْهِ غَمَّا يَنْفَعُهُ في آخِرَتِهِ ، وَزِيْنَةً لا تُفِيْدُ المَفْتُونَ بِهَا شَرَفاً ذَاتِياً كَالمَلاَبِسِ الجَمِيْلَةِ والمَرَاكِبِ البَهِيَّةِ والمَنَازِلِ الرَّفِيعَةِ الواسِعَةِ ، وَتَفَاخُرٌ بالأَنْسَابِ والعِظَامِ البَالِيَةِ وَمُبَاهَاتٌ بِكَثْرَةِ الأَمْوَالِ والأَوْلاَدِ وعِظَمِ الجَاهِ .

ثم أَشَارَ جَلَّ شَأْنَهُ إلى أَنَّهَا مَعَ ذَلِكَ سَرِيْعَةُ الزَّوَالِ ، قَرِيْبَةُ الاضْمِحْلالِ ، كَمَثَلِ غَيْثٍ رَاقَ الزُّرَّاعَ نَبَاتُهُ الناشِيءُ بِهِ ، ثم يَهِيْجُ وَيَتَحَرَّكُ وَيَنْمُو إلى أَقْصَى ما قَدَّرَهُ اللهُ لَهُ فَسَرَعَانَ مَا تَرَاهُ مُصْفَرّاً مُتَغَيِّراً ذَابِلاً بَعْدَمَا رَأَيْتَهُ أَخْضَرَ نَاضِراً ، ثم يَصِيْرُ مِن اليُبْسِ هَشِيْماً مُتَكَسِّراً ، فَفِيْهِ تَشْبِيْهُ جَمِيْعِ مَا في الدُّنْيَا مِن السِنِينِ الكَثِيْرَةِ بِمُدَّةِ نَبَاتِ غَيثٍ وَاحِدٍ يَفْنَى وَيَضْمَحِلُ وَيَتَلاَشَى في أَقَلَّ مِن سَنَةٍ .

إِشَارَةٌ إلى سُرْعَةِ زَوَالِهَا وَقُرْبِ فَنَائِهَاوَبَعْدَ ، مَا بَيَّنَ جَلَّ وَعَلا حَقَارَةَ الدُّنْيَا وَسُرْعَةَ زَوَالِهَا تَزْهِيْداً فِيْهَا ، وَتَنْفِيْراً وَتَحْذِيْراً مِن الانْهِمَاكِ في طَلَبِهَا أَشَارَ إلى فَخَامَةِ شَأنِ الآخِرَةِ وَفَظَاعَة مَا فِيْهَا مِن الآلام وَعِظَم مَا فِيْهَا مِن اللَّذَاتِ تَرْهِيْباً مِن عَذَابِهَا الأليم ، وَتَرْغِيْباً في تَحْصِيْلِ النَّعِيْمِ المُقِيْمِ والعَيْشِ السَّلِيْمِ مِمَّا لاَ عَيْنَ رَأَتْ وَلاَ أُذنٌ سَمِعَتْ وَلاَ خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَر .

والناسُ فِيْهَا قِسْمَانِ فُطَنَاءُ قَدْ وَفَّقَهُم اللهُ فَعَلِمُوا أَنَّهَا ظِلٌ زَائِلٌ وَنَعِيْمٌ حَائِلٌ وَأَضْغَاثُ أَحْلاَمٍ ، بَلْ فَهِمُوا أَنَّها نِعَمَ في طَيِّهَا نِقَمٌ ، وَعَرَفُوا أَنَّها حَيَاةٌ فَانِيَةٌ ، وَأَنَّهَا مَعْبَرٌ وَطَرِيْقٌ إلى الحَيَاةِ البَاقِيَةِ ، فَرَضُوا مِنهَا بالْيَسِيْرِ ،

وَقَنِعُوا مِنها بالقَلِيْلِ ، فاسْتَرَاحَتْ قُلُوبُهم مِن هَمِّهَا وَأَحْزَانِهَا واسْتَرَاحَتْ أَبْدَانُهُم مِن نَصَبِهَا ، وَعَنَائِهَا ، وَسَلِمَ لَهُم دِيْنُهُم ، وَكَانُوا عِندَ اللهِ هُم المَحْمُوْدِين ، فلم تَشْغَلْهُم دُنْيَاهُمْ عن طاعَةِ مَوْلاهُم .

جَعَلُوا النَّفَسَ الأَخيْرَ وَمَا وَرَاءَهُ نَصْبَ أَعْيُنِهم ، وَتَدَبَرُوْا مَاذَا يَكُونُ مَصِيْرُهُم ، وَفَكَّرُوا كَيْفَ يَخْرُجُونَ مِن الدُّنْيَا ، وإِيْمَانُهُم سَالِمٌ لَهُم وَما الذي يَبْقَى مَعَهُم مِنْهَا في قُبُورِهِم ، وَمَا الذي يَتْرُكُونَهُ لِأَعْدَائِهم في الدنيا ، وَمَن لا يُغْنِيْهِم مِن اللهِ شَيْئاً ﴿ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ ولا بَنُونَ ﴾ ، ﴿ يومَ لا يُغْنِي مَوْلًا عَن مَوْلًا شَيْئاً ﴾ ، ﴿ يَوْمَ يَفِرُ المَرْءُ مِن أخِيْهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيْهِ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيْه ﴾ وَيَبْقَى عليهم وبَالَ مَا جَمَعُوا وَمَا عَمَرُوا في غَيرِ طَاعةِ اللهِ .

أَدْرَكُوْا كُلَّ هَذَا فَتَأَهَّبُوا لِلسَّفَرِ الطَّوِيْلِ وَأَعَدُّوُا الجَوَابَ لِلْحِسَابِ ، وَقَدَّمُوا الزَّادَ لِلْمَعَادِ وَخَيْرُ الزادِ التَّقْوَى ، فَطُوبَى لَهُم خَافُوا فَآمِنُوا وَأَحْسَنُوا فَفَازُوا وأَفْلَحُوا .

شعراً :

إِنَّ لِلهِ عِبَاداً فُطَنَا
طَلَّقُوا الدُّنْيَا وَخَافُوا الفِتَنَا
نَظَرُوْا فِيْهَا فَلَمَّا عَلِمُوْا
أَنَّهَا لَيْسَتْ لِحَيٍّ سَكَنَا
جَعَلُوهَا لُجَّةً واتَّخَذُوْا
صَالِحَ الأَعْمَالِ فِيْهَا سُفُنَا

اللهمَ نَوّرْ قُلُوبَنَا بنُوْرِ الإيمانِ وَأَعِنَّا على أَنْفُسِنَا والشَّيْطَان وَأَيِّسْهُ مِنَّا كَمَا أَيَّسْتَهُ مِن رَحْمَتِكَ يا رَحْمَان وآتِنَا في الدُّنْيَا حَسَنةً وفي الآخِرَةِ حَسَنةً وَقِنَا عَذَابَ النَّار واغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَلِجَمِيْعِ المُسْلِمِيْنَ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وصَلَّى الله على محمدٍ وعلى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

(فَصْلٌ)

والقِسْمُ الثانِي مِن الناسِ جُهَّالٌ عُمْيُ البَصَائِرِ لَمْ يَنْظُرُوْا في أَمْرِهَا وَلَمْ يَكْشِفُوا سُوءَ حَالِهَا وَمَآلِهَا ، بَرَزَتْ لَهُم بِزِيْنَتِها فَفَتَنَتْهُمْ ، فإليهَا أَخْلَدُوْا ، وَبِهَا رَضُوا ، وَلَهَا اطْمَأَنُوا ، حتى أَلْهَتْهُم عن اللهِ تعالى ، وَشَغَلَتْهُم عن ذِكْرِ اللهِ ، وَطَاعَتِهِ ، نَسُوا اللهَ فأنْسَاهُم أَنْفسَهم أولَئِكَ هُمُ الفَاسِقون » .

قال تعالى ﴿ إنَّ الذِيْنَ لا يَرْجُونَا لِقَاءَنَا وَرَضُوا بالحَيَاةِ واطمأنُوا بِهَا والذيْنَ هُمْ عَن آياتِنَا غَافِلُون ، أولَئكَ مَأوَاهُم النارُ بما كانوا يكْسِبُوْن﴾ .

نَعَمْ إنَّهُم نَسُوا اللهَ وَأَهْمَلُوا حُقُوْقَهُ وَمَا قَدَرُوْهُ حَقَّ قَدْرِهِ ، ولم يُرَاعُوا لِانْهِمَاكِهِم في الدُّنْيَا وَتَهَالُكِهِم عَلَيْهَا مَوَاجِبَ أَوَامِرِهِ وَنَوَاهِيْهِ حَقَّ رِعَايَتِهَا ، فأنْسَاهُم أَنْفُسَهُم أَنْسَاهُم مَصَالِحَهُمْ وَأَغْفَلَهُم عَن مَنَافِعِهَا وَفَوَائِدِهَا فَصَارَ أَمْرُهُمْ فُرُطًا فَرَجَعُوا بِخَسَارَةِ الدَّارَيْنِ ، وَغُبِنُوا غَبْناً لا يُمْكِنُ تَدَارُكُهُ ولا يُجْبَرُ كَسْرُهُ ، وَسَيَرَوْنَ يومَ القِيَامَةِ مِن الأَهْوَالِ ما يُنْسِيْهِم أَرْوَاحَهُمْ ، وَيَجْعَلَهُم حَيَارَى ذَاهِلِيْنَ يَوْمَ تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عن ما أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وترَى الناسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى ولكن عَذَابَ اللهِ شَدِيْد .

وفي مِثْلِ هَذَا يَقُولُ أَحَدُ العُلَمَاءِ اجْتِهَادُكَ فِيْمَا ضُمِنَ لَكَ مَعَ تَقْصِيْرِكَ فِيمَا طُلِبَ مِنْكَ دَلِيْلُ انْطِمَاسِ بَصِيْرَتِكَ ، أَقَامُوْا الدُّنْيَا فَهَدَمَتْهُم ، واعْتَزُوْا بِهَا مِن دُوْنِ اللهِ فَأَذَلَّتْهُم ، أَكْثَرُوْا فِيها مِن الآمَالِ وَأَحبُوْا طُوْلَ الآجَالِ وَنَسُوا الموتَ وَمَا بَعْدَهُ مِنَ الشَّدَائِدِ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ قال تعالى ﴿ قُلْ إِنَّ الخَاسِرِيْنَ الذين خَسِرُوا أَنْفُسَهُم وأهلِيْهِم يَومَ القِيَامَةِ ألا ذلكَ هُوَ الخُسْرَانُ المُبِين ﴾ .

وَرَوَى التِرمِذِي مِن حَدِيْثِ أَنسٍ رَضِيَ اللهُ عنه قال قال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم « مَنْ كانتِ الآخرةُ هَمُّهُ جَعَل اللهُ غِنَاهُ في قَلْبِهِ وَجَمَعَ عَلَيْهِ شَمْلَهُ وَأَتتِ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ .

وَمَنْ كَانَتِ الدُّنْيَا هَمُّهُ جَعَلَ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ وَفَرَّقَ عَلَيْهِ شَمْلَهُ ولم يَأْتِهِ مِن الدُّنْيَا إلا مَا قُدِّرَ لَهُ ، فلا يُمْسِي إلا فَقِيْراً ولا يُصْبِحُ إلَّا فَقِيْراً .

وما أَقْبَلَ عَبْدُ على اللهِ بِقَلْبِهِ إلا جَعَلَ اللهُ قُلُوبَ المُؤْمِنِيْنَ تَنْقَادُ إِلَيهِ بالوِدِ والرَّحْمَةِ ، وكان اللهُ بِكُلِ خَيْرٍ إليه أسْرَع أ هـ .

وقال في عِدَةِ الصَّابِرِيْن ، وقد أَخْبَرَ صَلَّى اللهُ عليه وسلم أَنَّها لَو سَاوَتْ عِنْدَ اللهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِراً مِنها شَرْبَةَ مَاءٍ ، وأَنَّها أَهْوَنُ على اللهِ مِن السَّخْلَةِ المَيتَةِ عَلَى أَهْلِهَا .

وَأَنَّ مَثَلَهَا في الآخِرَة كَمَثَلِ مَا يَعْلَقُ بِأَصْبُعِ مَن أَدْخَلَ أَصْبُعَهُ في البَحْرِ وَأَنَّها مَلْعُونَةٌ مَلْعُونٌ ما فِيها إلَّا ذِكْرُ اللهِ وَمَا وَلَاهُ ، وعَالِمٌ وَمُتَعلِّمٌ وَأَنَّها سِجْنُ المؤمِنِ وَجَنَّةُ الكافرين .

وأَمَرَ العَبْدَ أَنْ يَكُونَ فِيها كَأَنَّه غَرِيْبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيْل وَيَعُدُّ نَفْسَهُ مِن

أَهْلِ القُبُورِ وإذا أَصْبَحَ فَلاَ يَنْتَظِرِ المَسَاءَ وإذا أَمْسَى فلا يَنْتَظِرِ الصَّبَاحَ .

وَنَهَى عَن اتّخَاذِ مَا يُرغِبُ فِيْهَا ، وَلَعَنَ عَبْدَ الدِيْنَارِ وَعَبْدَ الدِرْهَمِ وَدَعَا عَلَيْهِ بالنّعسِ والانْتِكَاسِ وَعَدَمِ إقَالَةِ العَثْرَةِ بالانتقَاشِ

وَأَخْبَرَ أَنَّها خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ أَي تَأْخُذُ العُيُونَ بِحُظْرَتِهَا والقُلُوبَ بِحَلاَوَتِهَا ، وأَمَرَ باتّقَائِهَا والحَذَرِ مِنها كما يُتَّقَى النِسَاءُ وَيُحْذَرُ مِنْهُنَّ وأَخْبَرَ أَنَّ الحِرْصَ عَلَيْهَا ، وعلى الرِّيَاسَةِ والشَّرَفِ يُفْسِدُ الدِّيْنَ .

وَأَخْبَرَ أنّه في الدُّنْيَا كَرَاكِبٍ اسْتَظَلَّ تحتَ شَجَرَةٍ في يوم صَائِفٍ ، ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا ، وَهَذَا في الحَقِيقَةِ حَالُ سُكانِ الدنيَا كُلِّهِمْ ، وَلَكِنْ هُوَ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ شَهِدَ هَذِهِ الحَالَ ، وَعُمِيَ عنها بنو الدُّنيا .

وَمَرَّ بِهِمْ وَهُمْ يُعَالِجُونَ خُصَّالَهُمْ قَدْ وَهِيَ ، فقالَ ما أَرَى الأَمْرَ إلا أَعْجَلَ من ذَلِك ، وأَمر بِسِتْرٍ على بابِهِ فَنُزِعَ وقالَ إنَّه يُذَكّرني الدُّنيا ، وأَعْلَمَ النَّاسَ أَنَّهُ لَيْسَ لِأَحَدٍ مِنْهم حقٌّ في سِوى بيتٍ يَسكنُه ، وَثَوْبٍ يُوارِي عَوْرَتَه وَقوتٍ يُقِيمُ صلبَهُ .

وَأَخْبَرَ أَنَّ الميتَ يتبعُهُ أهلُهُ ، ومالُهُ ، وعَمَلُهُ فيرجِعُ أَهْلُهُ ومالُهُ ويبقَى عَمَلُه ، وكانَ يقولُ : الزُّهْدُ في الدُّنْيَا يُرِيحُ القلبَ والبَدَنَ ، والرغبةُ في الدّنيا تُطِيْلُ الهُمُومَ ، والحزَنَ ، وكانَ يقولُ مَنْ جَعَلَ الهُمُومَ كُلَّهَا هَمّاً واحداً ، كفاهُ اللهُ سَائِرَ هُمومِهِ ، وَمَنْ تَشَعّبَتْ بِهِ الهُمُومُ في أَحْوالِ الدُّنْيَا لَمْ يُبالِ اللهُ في أَيِ أَودِيَتِها هَلَكَ .

وَأَخْبَرَ أَنَّ بَذْلَ العَبدِ ما فَضَلَ عن حاجتِهِ خيرٌ له ، وامسَاكُهُ شَرٌّ لهُ

وأَنهُ لا يُلَامُ على الكَفَافِ ، وأَخْبَرَ أَنَّ عِبَادَ اللهِ لَيُسُوا بالمتنعِّمِيْنَ فِيْهَا فإنَّ أَمَامَهُمْ دَارَ النعيم فهمْ لا يَرْضُونَ بِنَعِيْمِهم في الدّنيا عِوَضاً مِنْ ذَلِكَ النَعِيم .

وفي حَدِيْثِ مناجاةِ مُوسَى : ولا تُعجِبَنَّكُمَا زَينته ولا مَا مُتِّعَ به ولا تَمُدَّانِ إلى ذَلِكَ أَعْيُنَكُمَا ، فإنَّهَا زهرةُ الدّنيا ، وزينةُ المترَفِيْنَ وإنِّي لو شِئْتُ أَنْ أُزَيِّنَكُمَا من الدّنيا بزينةٍ يَعْلَمُ فرعونُ حِيْنَ يَنظُر إليهَا أَنَّ مَقْدِرَتَهُ تَعْجَزُ عن مِثْلِ ما أوتِيْتُمَا فَعَلْتُ .

ولكنْ أَرْغَبُ بِكُمَا عن نَعِيْمِها ذَلِكَ ، وَأَزْوِيهِ عَنْكُمَا ، وَكَذَلِكَ أَفْعَل بِأَوْلِيَائِي ، وقديماً ما أَخَّرْتُ لَهُم في ذَلِكَ فإنِّي لأذُودُهُمْ عَنْ نَعِيْمِهَا وَرَخَائِهَا كَمَا يَذُودُ الرّاعِي الشَّفِيْقُ غَنَمَهُ عن مَرَاعِي الهَلَكَةِ وإنِّي لأجُنِّبُهُمْ سَلوَتَها ، وَعَيْشَها كما يَذُودُ الراعي الشفيق إبله عن مَبَارِكِ الغِرَّةِ .

وَمَا ذلِكَ لِهَوَانِهِمْ عَلَيَّ ، وَلَكِنْ لِيَسْتَكْمِلُوا نصيْبَهُمْ مِن كَرَامَتِي سَالماً مُوَفَّراً لم تَكلِمْهُ الدُّنيا وَلَمْ يُطْغِهِ الهَوَى .

واعْلَمْ أَنَّه لَمْ يَتَزَيَّنْ لِيَ العِبَادُ بِزِيْنَةٍ هِيَ أَبْلَغُ مِن الزُّهدِ في الدُّنْيَا فانَّهَا زِيْنَةُ المُتَّقينَ عَلَيْهِم مِنْهَا لِباسٌ يُعْرَفُونَ بِهِ مِن السَّكينةِ ، والخُشُوع سِيْمَاهم في وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السَّجودِ .

أُولَئِكَ أَوْلِيَائِي حَقاً فَإِذَا لَقِيْتُهمْ فاخْفِضْ لَهُمْ جَنَاحَكَ ، وَذَلِّلْ لَهُم قَلبُكَ ، وَلِسَانكَ ، وَقَالَ الحَوارِيُّونَ يا عِيْسَى مَنْ أَوْلِياءُ اللهِ الذينَ لا خَوْفٌ عليْهِمْ ولا هُمْ يَحْزَنونَ ؟ .

قالَ الذينَ نَظَروا إلى بَاطِنِ الدُّنْيَا ، حينَ نَظَرَ الناسُ إلى عَاجِلِهَا

فَأَمَاتُوا مِنْهَا ما يَخْشَونَ أَنْ يُمِيْتَهُمْ ، وَتَرَكُوا ما عَلِمُوا أَنْ سَيَترُكَهُمْ ، فَصارَ استِكْثَارُهُمْ مِنْهَا استِقْلالاً ، وَذِكْرُهم إيّاهَا فَوَاتاً ، وَفَرَحُهُمْ بِمَا أَصَابُوا مِنْهَا حَزَناً ، فَمَا عَارَضَهُمْ مِن نائِلها رَفَضُوهُ ، وما عَارَضَهم مِن رِفْعَتِها بِغَيرِ الحقِ وَضَعُوْهُ .

خَلُقَتْ الدُّنْيَا عندَهُم فَلَيْسُوا يُجَدِّدُونَهَا ، وَخَرِبَتْ بَيْنَهُمْ فَلَيْسُوا يَعْمِرُونَهَا ، وماتَتْ في صُدُوْرِهم ، فَلَيْسُوا يُحْيُونَها ، يَهْدِمُونَها فَيَبْنُونَ بِهَا آخِرَتَهُم ، وَيَبِيْعُونَها، فَيَشْتَرُونَ بِهَا ما يَبْقَى لَهُمْ .

رَفَضُوهَا فكانُوا بِهَا هُمْ الفَرِحِينَ ، وَنَظَرُوا إلى أَهْلِهَا صَرْعَى قَدْ حَلَّتْ بِهِمْ المَثُلاتُ، فَأَحْيَوا ذِكرَ الموتِ وأَمَاتُوْا ذِكْرَ الحياةِ .

يُحِبّونَ لله ، وَيُحِبّونَ ذِكْرَهُ ، وَيَسْتَضِيْئُونَ بِنُوْرِهِ ، وَيُضِيْئُونَ بِهِ لَهُمْ خَبَرٌ عَجِيْبٌ وَعِنَدَهُم الخَبَرُ العَجِيْبُ ، بِهِمْ قَامَ الكتابُ ، وَبِهِ قامُوا وَبِهِمْ نَطَقَ الكتابُ ، وَبِهِ نَطَقُوا ، وَبِهِمْ عُلِمَ الكتابُ ، وبِهِ عَمِلُوا لَيْسُوا يَرَونَ نائلاً مع ما نَالُوا ، ولا أَمَاناً دُونَ ما يَرْجُونَ ، ولا خَوْفاً دُونَ ما يَحْذَرُونَ .

وَقَالَ يَا بَني إِسْرَائِيلَ ، اجْعَلُوا بُيُوتَكُم كَمَنَازِلِ الأَضْيَافِ فَمَا لَكُمْ في العَالَمِ مِنْ مَنْزِلٍ إِنْ أَنْتُمْ إلا عَابِري سَبِيْلٍ .

وَقَالَ يَا مَعْشَر الحَوَارِيينَ أَيُّكُمْ يَسْتَطِيْعُ أَنْ يَبْنِي فَوقَ مَوجِ البحر دَاراً ، قَالوا يَا رُوحَ اللهِ مَنْ يَقدِرُ عَلَى ذَلِكَ ، قَالَ إياكُمْ والدُّنْيَا فَلا تَتَّخِذوهَا قَرَاراً .

وَقَال حلاوةُ الدُّنْيَا مَرارةُ الآخِرَةِ ، وَمَرارةُ الدُّنْيَا ، حَلاوةُ الآخِرَةِ .

وَقَالَ يَا بَني اسْرَائِيْلَ تَهَاوَنُوا بالدُّنْيَا ، تَهُنْ عَلَيْكُمْ ، وَأَهِيْنُوا الدُّنْيَا

تَكْرُم عَلَيكُمْ الآخِرَة ، ولا تُكْرِمُوا الدُّنْيَا ، تَهُنْ عَلَيْكُمْ الآخِرَة ، فانَّ الدُّنيَا لَيْسَتْ بأهْلٍ لِلْكَرَامَةِ ، وَكُلُ يَوْمٍ تَدْعُوا إلى الفِتْنَةِ والخَسَارَةِ .

قَالُوا وَقَدْ تَوَاتَرَ عَنْ السَّلَفِ أَنَّ حُبَّ الدُّنْيَا رَأْسُ الخَطَايَا ، وَأَصْلُهَا وَقِيْلَ انَّ عِيْسَى بْنَ مَرْيَمَ عَليهِ السَّلامُ قَالَ رَأْسُ الخَطِيئةِ حُبُّ الدُّنْيَا ، والنِّسَاء حُبَالَةُ الشَّيْطَانِ ، والخَمْرُ جِمَاعُ كُلِّ شَرّ .

شعراً : قال الإمام الشافعي رحمه الله :

خَبَتْ نَـارُ نَفْسِي بـاشْتِعَـالِ مَفَـارِقِي
وَأَظْـلَمَ لَـيْـلِي إِذْ أَضَـاءَ شِـهَـابُـهَـا
أَيَـا بُـوْمَـةً قَـدْ عَشَّشَتْ فَـوْقَ هَـامَتِي
عَلَى الـرَّغْمِ مِنّي حِيْنَ طَـارَ غُـرَابُهَـا
رَأَيْتِ خَـرَابَ العُمْـرِ مِنّي فَـزُرْتِنِي
وَمَـأْوَاكِ مِنْ كـلِ الـدِّيَـارِ خَـرَابُهَـا
أَأَنْعَم عَيْشـاً بَعْـدَ مَـا حَـلَّ عَـارِضِيْ
طَـلَائِـعُ شَيْبٍ لَيْسَ يُغْنِي خِضَـابُهَـا
إِذَا اصْفَـرَ لَـوْنُ المَـرْءِ وابْيَضَّ شَعْـرُهُ
تَـنَـغَّصَ مِـنْ أَيَـامِـهِ مُـسْـتَـطَابُـهَـا
وَعِـزَةُ عُمْـرِ المَـرْءِ قَـبْـلَ مَشِـيْبِـهِ
وَقَـدْ فَنِيَـتْ نَفسٌ تَـوَلّى شَبَـابُـهَـا
فَـدَعْ عَنْـكَ سَـوْآتِ الأُمـورِ فـإِنَّهَـا
حَـرَامٌ على نَفْسِ التَّقِي ارْتِكَـابُهَـا

وَأَدِّ زَكَاةَ الجَاهِ واعْلَمْ بِأَنَّهَا
كَمِثْلِ زَكَاةِ المَالِ تَمَّ نِصَابُهَا
وَأَحْسِنْ إِلى الأَحْرارِ تَمْلِكْ رِقَابَهُمْ
فَخَيْرُ تِجَارَاتِ الرِّجَالِ اكْتِسَابُهَا
وَلَا تَمْشِيَن في مَنْكِبِ الأَرْضِ فَاخِراً
فَعَمَّا قَلِيلٍ يَحْتَوِيكَ تُرَابُهَا
وَمَنْ يَذُقِ الدُّنْيَا فَاني طَعمتُهَا
وَسِيْقَ إِلَيْنَا عَذْبُهَا وَعَذَابُهَا
فَلم أَرَهَا إِلَّا غُرُوراً وَبَاطِلاً
كَمَا لَاحَ في ظَهْرِ الفَلاةِ سَرَابُهَا
ومَا هِيَ إِلَّا جِيْفَةٌ مُسْتَحِيْلَةٌ
عَلَيْهَا كِلَابٌ هَمُّهُنَّ اجْتِذَابُهَا
فَإِنْ تَجْتَنِبْهَا كُنْتَ سِلْماً لأَهْلِهَا
وإِنْ تَجْتَذِبْهَا نَازَعَتْكَ كِلَابُهَا
إِذا انْسَدَ بابٌ عَنْكَ مِنْ دُونِ حَاجَةٍ
فَدَعْهَا لأُخْرَى يَنْفَتِحْ لَكَ بَابُهَا
فَإِنَّ قُرَابَ البَطْنِ يَكْفِيكَ مِلؤُهُ
وَيَكْفِيكَ سَوآتِ الأُمُورِ اجْتِنَابُهَا
فَطُوبى لِنَفْسٍ أَوْطَنَتْ قَعْرَ بَيْتِهَا
مُغلَقَةَ الأبوابِ مُرْخَىً حِجَابُهَا
فَيَارَبِّ هَبْ لِي تَوْبَةً قَبْلَ مَهْلَكٍ
أُبَادِرُهَا مِنْ قَبْلِ إِغْلاقِ بَابِهَا

فَمَا تَخْرَبُ الدُّنْيَا بِمَوتِ شِرَارِهَا
وَلَكِنْ بِمَوْتِ الأَكْرَمِيْنَ خَرَابُهَا

اللَّهُمَّ ثَبِّتْنَا عَلَى قَوْلِكَ الثَّابِتِ في الحياةِ الدُنيا وَفي الآخِرَةِ اللهم وَأَيِّدْنَا بِنَصْرِكَ وَأَرْزِقْنَا مِن فَضلِكَ وَنَجِّنَا مِنْ عَذَابِكَ يومَ تَبْعَثُ عِبَادَكَ ، واغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَلِجَمِيعِ المسلمينَ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الراحِمينَ وَصَلَّى اللهُ على مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وسَلَّمَ .

(فَصْلٌ)

وَعَنْ سُفْيانَ قَالَ كَانَ عِيْسَى بْنُ مَرْيَمَ يقولُ حُبُّ الدُّنْيَا أَصْلُ كُلِّ خَطيئةٍ والمالُ فيهِ داءٌ كثيرٌ ، قَالُوا وَمَا دَاؤُهُ قَالَ لا يَسْلَمُ مِن الفَخْرِ والخُيَلاءِ ، قالوا فَإِنْ سَلِمَ ، قالَ يَشْغَلُه إصْلاحُهُ عَنْ ذِكْرِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ .

قَالُوا وَذَلِكَ مَعْلُومٌ بالتَّجْرِبَةِ والمُشَاهَدَةِ ، فانَّ حُبَّهَا يَدْعُوا إلى خَطِيئةٍ ظَاهِرةٍ وبَاطِنَةٍ،ولا سِيَّمَا خَطيئةٌ يَتوقّفُ تَحْصِيْلُهَا عَلَيْها،فَيُسْكِرُ عَاشِقَهَا حُبُّهَا عَن عِلْمِهِ بِتِلْكَ الخَطِيئةِ ، وَقُبْحِهَا وعن كَرَاهَتِهَا واجْتِنَابِها .

وَحُبُّهَا يُوْقِعُ في الشُّبُهَاتِ ، ثُمَّ في المَكْرُوهَاتِ ، ثمَّ في المُحَرَّمَاتِ ، وَطَالَمَا أَوْقَعَ في الكُفْرِ ، بَلْ جَمِيْعُ الأمَمِ المُكَذِّبَةِ لأنْبيائِهِمْ إنما حَمَلَهُمْ على كُفْرِهِمْ وَهَلاكِهِمْ حُبُ الدُّنيا ، فإنَّ الرسل لما نَهَوْهُمْ عَنْ الشِّرْكِ والمَعَاصِي التي كَانُوا يَكْتَسِبُونَ بِهَا الدُّنيا ، حَمَلَهُمْ حُبُّهَا عَلَى مُخَالَفَتِهم وَتَكْذِيبِهِمْ .

فكلُّ خَطِيئَةٍ في العَالَمِ أَصْلُها حُبُّ الدُّنْيَا ، ولا تَنْسَ خَطِيْئَةَ الأَبَوَيْنِ قَدِيْماً ، فانَّمَا كَانَ سَبَبُهَا حُبُّ الخُلُودِ في الدُّنْيَا ، وَلَا تَنْسَ ذَنْبَ ابْلِيْسَ

وَسَبَبُهُ حُبُّ الرِّيَاسَةِ ، التي مَحَبَّتُهَا شَرٌّ مِنْ مَحَبّةِ الدُّنيَا .

وَبِسَببِهَا كَفَرَ فِرْعَونُ وَهَامانُ وَجنودُهُمَا ، وَأَبُو جَهْلٍ وَقَوْمُهُ ، واليَهُودُ ، فَحُبُّ الدُّنْيَا والرِّيَاسَةُ هو الذي عَمَرَ النَّارَ بِأَهْلِهَا .

والزُّهْدُ في الدُّنْيَا والزُّهْدُ في الرِّيَاسَةِ هُوَ الَّذِي عَمَر الجَنَّةَ بِأَهْلِهَا .

والسُّكُرُ بِحُبّ الدُّنْيَا أَعْظَمُ مِن السُّكْرِ بِشُرْبِ الخَمْرِ بِكَثِيرٍ ، وَصَاحِبُ هَذَا السُّكْر لاَ يُفيقُ مِنْهُ ، إلا في ظُلْمَةِ اللَّحْدِ ، وَلَوْ انكشَفَ عَنْهُ غِطاؤُهُ في الدُّنْيَا لَعَلِمَ مَا كَانَ فيهِ مِنَ السُّكْرِ ، وأَنَّهُ أَشَدُّ مِن سُكْرِ الخَمْرِ والدُّنْيَا تَسْحَرُ العُقُولَ أَعْظَم سِحْرٍ .

قَالَ الامامُ أَحْمَدُ حدثنا سَيّارٌ حَدثَنَا جَعْفَرٌ قالَ سَمِعْتُ مالَك ابنَ دِينارٍ يقولُ اتقُوا السَّحَارَةَ ، اتَّقُوا السَّحَارَةَ ، فانَّهَا تَسْحَرُ قلوبَ العُلَمَاءِ .

(فَصْـلٌ)

وَأَقَلُّ مَا في حُبِّهَا أَنَّهُ يُلْهى عن حُبّ اللهِ ، وَذِكره ، وَمَنْ أَلْهَاهُ مَالُهُ عَنْ ذكر اللهِ فَهُوَ من الخَاسِرِيْنَ ، قَالوا وإِنَّمَا كَانَ حُبُّ الدُّنْيَا رأْسُ الخَطَايَا وَمُفسِداً لِلدِّين مِن وُجوهٍ ، أَحَدُهَا أَنَّه يَقْتَضِي تَعظِيْمَهَا وهِيَ حَقِيرةٌ عندَ اللهِ .

ومِن أَكْبَرِ الذُّنُوبِ تَعْظِيمُ ما حَقَّرَهُ اللهُ ، وَثَانِيْهَا أَنَّ اللهَ لَعَنَهَا ، وَمَقَتَهَا ، وأَبْغَضَهَا إلا مَا كَانَ لَهُ فِيْهَا ، وَمَنْ أَحَبَّ مَا لَعَنَهُ اللهُ ، وَمَقَتَهُ وَأَبْغَضَهُ ، فَقَدْ تَعَرَّضَ لِلْفِتْنَةِ ، وَمَقْتِهُ وَغَضَبِهِ .

وثالِثُهَا أَنَّهُ إذا أَحَبَّهَا صَيَّرهَا غَايَتَه ، وَتَوَسَّلَ إليهَا بالأَعْمَالِ التي

جَعَلَهَا اللهُ وَسَائِلَ إِلَيْهِ ، وإِلى الدَّارِ الآخِرَةِ ، فَعَكَس الأَمْرَ وَقَلَبَ الحِكْمَةَ فانتَكَسَ قَلْبُهُ ، وانْعَكَسَ سَيْرُهُ إِلى وَرَاءَ .

فَهَاهُنا أَمْرانِ : أَحَدُهُمَا جَعْلُ الوَسِيلةِ غَايَـةً ، والثّانِي التَّـوَسُّل بأَعْمَالِ الآخرةِ إلى الدُّنْيَا ، وهذا شرٌ مَعْكوسٌ مِن كلِّ وجهٍ ، وقلبٌ منكوسٌ غاية الانتِكاسِ .

وَهَذَا هُوَ الذِي يَنْطَبِقُ عليه حَذْوَ القُذَّةِ بالقُذَّةِ قَولُهُ تَعَالَى ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيْدُ الحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِيْنَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِم أَعْمَالَهُمْ فِيْهَا وَهُمْ فِيْهَا لَا يُبْخَسُونَ أُوْلَئِكَ الذِيْنَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلَّا النارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيْهَا وَبَاطِلٌ ما كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ .

وَقَولُه ﴿ مَنْ كانَ يُرِيْدُ العَاجِلةَ عَجَّلْنَا لهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا له جَهَنَّمَ يَصْلاَها مَذْمُوْماً مَدْحوراً ﴾ وقوله ﴿ مَنْ كانَ يُرِيْدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ في حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيْدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ في الآخِرَةِ مِنْ نَصِيْبٍ ﴾ .

فهذه ثلاثُ آياتٍ يُشبِهُ بعضُها بَعْضاً ، وَتَدُلُّ عَلَى معنًى واحدٍ ، وَهُوَ أَنَّ مَن أَرَادَ بِعَمَلِهِ الدُّنْيَا وَزِيْنَتَهَا دُونَ اللهِ والدّارِ الآخرةِ ، فَحظُّهُ مَا أَرَادَ ، وَهُوَ نَصِيْبُهُ ، لَيْسَ لَهُ نَصِيْبٌ غَيْرُهُ .

وَالأَحَادِيْثُ عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسلَّمَ مُطابِقَةٌ لِذَلِكَ مُفَسِّرَةٌ لَهُ ، كَحَدِيْثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في الثَلاثَةِ الذينَ هُمْ أَوّلُ مَن تُسعرُ بِهِمْ النارُ ، الغازِي والمتصَدِّقُ ، والقارِىءُ الذينَ أَرَادُوا بِذَلِكَ الدُّنْيَا والنّصِيْبَ وَهُوَ في صَحِيْحِ مُسْلِمٍ .

وفي سُنَنِ النَّسَائِي عن أَبِي أُمَامَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ جَاءَ رَجُلٌ إلى النّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ يَا رَسُوْلَ اللهِ: رجلٌ غزا يلتمس الأجر والذكر، ماله فقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا شَيْءَ لَهُ، فَأَعَادَهَا ثَلَاثَ مَراتٍ يَقُوْلُ لَهُ رَسُوْلُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ لَا شَيْءَ لَهُ ثُمَّ قَالَ إِنَّ الله تَعَالَىٰ لَا يَقْبَلُ إِلَّا مَا كَانَ خَالِصاً وابْتُغِيَ بِهِ وَجْهُهُ.

فَهَذَا قَدْ بَطَلَ أَجْرُه وَحَبِطَ عَمَلُه مَعَ أَنَّه قَصَدَ حُصُولَ الأَجْرِ لَمَّا ضَمَّ الَيْهِ قَصْدَ الذِكرِ بَيْنَ الناسِ فَلَمْ يُخْلِصَ عَمَلَهُ للهِ فَبطلَ كُلُّهُ، قَالَ وَرَابِعُهَا أَنَّ مَحبَّتَهَا تَعْتَرِضُ بَيْنَ العَبْدِ، وَبَيْنَ فِعْلِ مَا يَعُودُ عَلَيْهِ نَفْعُهُ في الآخِرَةِ، لاشْتِغَالِهِ عَنْهُ بِمَحْبُوبِهِ والنَاسُ هَاهُنَا مَرَاتِبُ.

فمنهُمْ مَنْ يَشْغَلُهُ مَحْبُوبُه عن الإيمانِ، وَشَرَائِعِهِ.

ومِنْهُمْ مَن يَشْغَلُه عن الوَاجِبَاتِ التي تَجِبُ عَلَيهِ لِلهِ وَلِخَلْقِهِ فلا يَقُومُ بِهَا ظاهِراً ولا بَاطِناً.

ومِنْهُمْ مَن يَشْغَلُهُ حُبُهَا عَنْ كَثيرٍ مِن الوَاجِبَاتِ.

وَمِنْهُمْ مَن يَشْغَلُه عن وَاجِبٍ يُعَارِضُ تَحْصِيْلَهَا وإن قَامَ بِغَيْرِهِ.

وَمِنْهُمْ مَن يَشْغَلُهُ عن القيامِ بالواجِبِ في الوَقْتِ الذي يَنْبَغِي عَلَى الوَجْهِ الذي يَنْبَغي فَيُفَرِّطُ في وَقْتِهِ، وفي حُقُوقِهِ.

وَمِنْهُمْ مَن يَشْغَلُهُ عن عُبُودِيَّةِ قَلْبِهِ في الوَاجب، وَتَفْرِيْغِهِ لِلَّهِ عِنْدَ أَدَائِهِ، فَيُؤَدِّيْهِ ظَاهِراً لَا بَاطِناً، وَأَيْنَ هَذَا مِن عُشَّاقِ الدُّنْيَا وَمُحِبِّيْهَا هَذَا مِنْ أَنْدَرِهِمْ، وَأَقَلُّ دَرَجاتِ حُبِّهَا أَنْ يُشْغِلَ عن سَعَادَةِ العَبْدِ وَهُوَ تفريغُ

القَلْبِ لِحُبِّ اللهِ ، وَلِسَانِهِ لِذِكْرِهِ وَجَمْعِ قَلْبِهِ على لِسَانِهِ وَجَمْعِ لِسَانِهِ وَقَلْبِهِ عَلى رَبِّهِ ، فَعِشْقُهَا وَمَحَبَّتُهَا تُضِرُّ بِالآخِرَةِ ، وَلَا بُدَّ ، كَمَا أَنَّ مَحَبَّةَ الآخِرَةِ تُضِرُّ بالدُّنْيَا .

وَخَامِسُهَا أَنَّ مَحَبَّتَهَا تَجْعَلُهَا أَكْثَرَ هَمِّ العَبْدِ .

وَسَادِسُهَا أَنَّ مُحِبَّها أَشَدُّ الناسِ عذاباً بِهَا ، وَهُوَ مُعَذَّبٌ في دُوْرِهِ الثلاثِ ، يُعَذَّبُ في الدُّنيا بِتَحْصِيْلِهَا ، وفي السَّعْيِ فِيْهَا وَمُنَازَعَةِ أَهْلِهَا وفي دَارِ البَرْزَخِ أي في القَبْرِ بِفَوَاتِهَا ، والحَسْرَةِ عَلَيْهَا ، وَكَوْنِهِ قَدْ حِيْلَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَحْبُوْبِهِ على وَجْهٍ لَا يَرْجُو اجتماعَهُ بِهِ أَبَداً وَلَمْ يَحْصُلْ لَهُ هُنَاكَ محبوبٌ يُعَوِّضُهُ عَنْهُ .

فَهَذَا أَشَدُّ الناسِ عَذَاباً في قَبْرِهِ ، يَعْمَلُ الهمُّ ، والغَمُّ ، والحَزَنُ والحَسْرَةُ ، في رُوْحِهِ ما تَعْمَلُ الدِيْدَانُ وَهَوَامُّ الأَرضِ في جِسْمِهِ .

وَسَابِعُهَا أَنَّ عَاشِقَهَا وَمُحِبَّهَا الَّذِي يُؤْثِرُهَا عَلى الآخِرَةِ مِن أَسْفَهِ الخَلقِ وَأَقَلِّهِمْ عَقْلاً ، إِذْ آثَرَ الخَيَالَ عَلَى الحَقِيْقَةِ ، والمَنامَ على اليَقَظَةِ والظِلَّ الزائِلَ على النَّعِيْمِ الدَّائِمِ والدّارَ الفانِيَة على الدارِ الباقِيَةِ إِنَّ اللَّبِيْبَ بِمِثْلِهَا لَا يُخْدَعُ .

ثم عقَدَ فَصْلاً وَذَكَرَ فِيْهِ أَمْثِلَةً تُبَيِّنُ حقيقةَ الدُّنْيَا : المثالُ الأَولُ : للعبدِ ثَلَاثَةُ أَحْوالٍ ، حَالَةٌ لَمْ يَكُنْ فِيْهَا شَيئاً ، وَهِيَ مَا قَبْلَ أَنْ يُوجَدَ ، وحالةٌ أُخْرَى وهِيَ مِن سَاعة موتِهِ ، إِلى مَالَا نِهَايَة له في البَقَاءِ السَّرْمَدِي فَلِنَفْسِهِ وجودٌ بَعدَ خُرُوجِهَا مِنَ البَدَنِ ، إِمَّا في الجَنَّةِ وإِمَّا في النَّارِ .

ثمَّ تُعَاد الى بَدَنِهِ ، فَيُجَازَى بِعَمَلِهِ ، ويَسْكُنُ إِحْدَى الدَّارَيْن في

خُلُودٍ دائِمٍ ثم بَيْنَ هَاتَيْنِ الحَالَتَيْنِ وَهِيَ مَا بَعْدَ وجُودِهِ وَمَا قَبْلَ مَوْتِهِ حَالَةٌ مُتَوسِّطَةٌ ، وَهِيَ أَيَّامُ حَيَاتِهِ فَلْيَنْظُرْ إلى مِقْدَارِ زَمانِهَا ، وَيَنْسِبه إلى الحَالَتَين ، يَعْلَمُ أنه أقلُّ مِن طَرفَةِ عَيْنٍ في مِقْدَارِ عُمُرِ الدُّنْيَا .

وَمَنْ رَأَى الدُّنْيَا بِهَذِهِ العَيْنِ لم يَرْكَنْ إِلَيْهَا ، وَلَمْ يُبَالِ كَيْفَ تَقَضَّتْ أَيَّامُهُ فِيْهَا في ضُرٍّ وَضِيْق أَوْ فِي سَعَةٍ وَرَفَاهِيَّةٍ وَلَهَذَا لَمْ يَضَعْ النبيُ صَلَّى الله عليهِ وسلم لَبِنَةً على لَبِنَةٍ ولا قَصَبَةً على قَصَبَةٍ ، وقال مَالِي وَلِلدُّنْيَا ، إِنَمَا مَثَلي وَمَثَلُ الدُّنْيَا كَرَاكِبٍ قَالَ في ظِلِّ شَجَرَةٍ ، ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا .

وإلى هَذَا أَشَارَ المسيحُ بِقَوْلِهِ عليهِ السلامُ « الدُّنْيَا قَنْطَرَةٌ فاعْبُرُوهَا ولا تَعْمِرُوهَا » ، وَهَذَا مَثَلٌ صَحِيْحٌ فإِنَّ الحَيَاة مَعْبَرٌ إلى الآخِرَةِ ، والمَهْدُ هُوَ الرُّكْنُ الأَوَّلُ ، عَلَى أَوَّلِ القَنْطَرةِ ، واللَّحْدُ هو الرُّكْنُ الثاني عَلَى آخِرِهَا .

وَمِنَ الناسِ من قَطَعَ نِصفَ القَنْطَرَةِ .

وَمِنْهُمْ مَنْ قَطَعَ ثُلُثَيْها ، وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ يَبْقَ لَهُ إِلَّا خُطْوةً واحدة، وهو غافلٌ عنهَا وكيْفَمَا كانَ فلا بُدَّ مِن العُبُورِ ، فَمَنْ وَقَفَ يَبْنِي على القَنْطَرةِ ، وَيُزَيِّنُهَا بأَصْنافِ الزِيْنَةِ ، وَهُوَ يُسْتَحَثُّ على العُبُورِ فَهُوَ في غايةِ الجَهْلِ والحُمْقِ . المِثَالُ الثاني شَهَوَاتُ الدُّنْيَا في القَلْبِ كَشَهَواتِ الأَطْعِمَةِ في المَعِدَةِ ، وسوفَ يَجِدُ العبدُ عندَ الموتِ لِشَهَوَاتِ الدُّنْيَا في قَلْبِهِ مِن الكَرَاهَةِ والنَّتَنِ والقُبْحِ ما يَجِدُه لِلأَطْعِمَةِ اللَّذِيْذَةِ إذا انْتَهَتَ في المَعِدَةِ ، غَايَتُها، وكمَا أَنَّ الأَطْعِمَةِ كُلَّمَا كانَتْ أَلَذَّ طَعْمَاً وأَكْثَرَ دَسَماً وأَكْثَرَ حلاوةً كانَ رجيْعُهَا أَقْذَرُ ، فكذلِكَ كُلُّ شهوةٍ كانَتْ في النَّفْسِ أَلَذَّ وَأَقْوَى فالتَّأذِي بِهَا عندَ المَوْتِ أَشَدُّ ، كَمَا أَنَّ تَفَجُّعَ الانسانِ بِمَحْبُوبِهِ إِذَا فَقَدَهُ يَقْوَى بِقَدْرِ مَحَبَّةِ المَحْبُوبِ .

شعراً قال بعضُهُمْ يُخَاطِبُ نَفْسَهُ :

إلى مَ أَرَى يـا قَلْبُ مِنْـكَ التَّـرَاخِيَـا
وَقَدْ حَلَّ وَخْطُ الشَّيْبِ بـالرَّأْسِ ثَـاوِيَا
وأَخْبَرَ عن قُرْبِ الرَّحِيـلِ نَصِيْحَـةً
فَـدونَـكَ طَـاعَـاتٍ وَحَـلِّ المَسَـاوِيَـا
وَعُضَّ عَلَى مَـا فَـاتَ مِنْـكَ أَنَـامِـلاً
وَفَجِّـرْ مِنَ العَيْنِ الـدَّمُـوعَ الهَـوَامِيَـا
فَكَمْ مَـرَّةٍ وَافَـقْتَ نَـفسـاً مَـرِيْـدَةً
فَقَـدْ حَمَّلَتْ شـراً عليـكَ الـرَّوَاسِيَـا
وَكَمْ مَـرةٍ أَحْـدَثتَ بِـدْعـاً لِشَهْـوَةٍ
وَغَـادَرْتَ هَـدْيـاً مُسْتَقِيْمـاً تَـوَانِيَـا
وَكَـمْ مَـرَّةٍ أَمْـرَ الإلـه نَـبَـذْتَـهُ
وَطـاوَعْتَ شَيْطَانـاً عَـدُوّاً مُـدَاجِيَـا
وَكَمْ مَـرَّةٍ قـد خُضْتَ بَحْـرَ غِـوَايَـةٍ
وَأَسْخَـطْتَ رَبـاً بـاكْتِسَـابِ المَعَـاصِيَـا
وكَـمْ مَـرَّةً بِـرَّ الإلـه غَـمَـصْتَـهُ
وقـد صِـرْتَ في كُفْـرانِـهِ مُتمَـادِيَـا
وَلَا زِلْتَ بـالـدُّنْيَـا حَـرِيْصَـاً وَمُـوْلَعـاً
وَقَـدْ كُنْتَ عن يـومِ القِيَـامَةِ سَـاهِيـا
فَمَـا لَكَ في بَيْتِ البـلا إِذْ نَـزَلْتَـهُ
عَن الأَهْـلِ والأَحْبَابِ والمَـالِ نَـائِيَـا

فَتُسْأَلَ عن رَبٍّ وَدِيْن مُحَمَّدٍ
فإن قُلْتَ هَاهٍ فادْرِ أَنْ كُنْتَ هَاوِيَا
وَيَأْتِيْكَ مِن نارٍ سَمُومٌ أَلِيْمَةٌ
وَتُبْصُرُ فِيْهَا عَقْرباً وَأَفَاعِيَا
ويالَيْتَ شِعْرِيْ كَيْفَ حَالُكَ إذْ نُصِبْ
صِرَاطٌ ومِيْزَانٌ يُبِيْنُ المَطَاوِيَا
فَمَنْ نَاقَشَ الرَّحْمَنُ نُوْقِشَ بَتَّةً
وَأُلْقِيَ في نَارٍ وإنْ كَانَ وَالِيَا
هُنَالِكَ لا تَجْزِيْهِ نَفْسٌ عنِ الرَدَى
فَكُلُ امْرىءٍ في غَمِّهِ كانَ جَاثِيَا

اللَّهُمَ ثَبِّتْ قلوبَنَا على دِيْنِكَ وألهِمْنَا ذكرَكَ وشُكرَكَ واخْتِمْ لَنَا بِخَاتِمَةِ السَّعَادَةِ واغفِرْ لَنَا ولوالِدَيْنَا وَجَمِيعِ المسلمينَ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وصلَّى اللهُ على محمدٍ وَعَلَى آلِهِ وصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

(فَصْلٌ)

المثالُ الثَّالثُ لَهَا ولأَهْلِهَا في اشْتِغَالِهِمْ بِنَعِيْمِهَا عَن الآخِرَةِ وما يُعْقِبُهُمْ مِن الحَسَراتِ مَثَلُ أَهْلِ الدُّنْيَا في غَفْلَتِهِمْ مَثَلُ قَوْمٍ رَكِبُوا سَفِيْنَةً فَانْتَهَتْ بِهِمْ إلى جَزِيْرَةٍ فَأَمَرَهُمْ الملاحُ بالخُروجِ لِقَضَاءِ الحَاجَةِ وَحَذَّرَهُمْ الابْطَاءَ ، وَخَوَّفَهمْ مُرُوْرَ السَّفِيْنَةِ .

فَتَفرقُوا في نَواحِي الجَزيرةِ ، فَقَضَى بعْضُهم حاجَتَه وَبَادَرَ إلى السفينةِ فَصَادَفَ المكانَ خالياً ، فَأَخَذَ أَوْسَعَ الأَمَاكِن وأَلْيَنَهَا .

ووقَفَ بَعضُهم في الجَزيرةِ ، يَنْظُرُ إلى أَزْهَارِهَا وَأَنْوَارِهَا العَجِيْبَةِ وَيَسْمَعُ نَغَمَاتِ طُيُورِهَا ، وَيُعْجِبُهُ حُسْنُ أَحْجَارِهَا ، ثم حَدَّثَتْهُ نَفْسُهُ بِفَواتِ السَّفِيْنَةِ ، وَسُرْعَةِ مُرورِهَا ، وَخَطَرِ ذَهَابِهَا فَلَمْ يُصَادِف إلا مَكَاناً ضَيِّقاً فَجَلَسَ فِيْهِ .

وأكبَّ بَعْضُهم على تِلْكَ الحِجَارَةِ المُسْتَحْسَنَةِ ، والأَزْهَارِ الفائِقَةِ فَحَمَلَ مِنْهَا حِمْلَهُ فَلَمَّا جَاءَ لم يَجِدْ في السَّفِيْنَةِ إلا مكاناً ضيقاً ، وزَادَهُ حِمْلُه ضِيْقاً ، فصارَ مَحْمُوْلُه ثقْلاً عَلَيْهِ ، وَوَبَالاً وَلَمْ يَقْدِر على نَبْذِه بَلْ لم يَجِدْ مِن حَمْلِهِ بُدّاً وَلَمْ يَجِدْ لَهُ في السفينةِ مَوْضِعاً ، فَحَمَلُه على عُنُقِهِ وَنَدِمَ على أَخْذِهِ ، فَلم تَنْفَعْهُ النَّدَامةُ ، ثم ذَبَلَتْ الأَزْهَارُ ، وَتَغَيَّرَتْ أَرَايِيْحِهَا وَآذَاهُ نَتْنُهَا .

وتولَّجَ بَعْضُهم في تِلكَ الغِيَاضِ ، وَنَسِيَ السَّفِينةَ ، وَأَبْعدَ في نُزْهَتِهِ ، حَتَّى إن المَلاَّحَ نادَى بالنَّاسِ ، عِندَ دَفْعِ السَّفِيْنَةِ ، فلم يَبْلُغْهُ صَوْتُه ، لاشْتِغَالِهِ بِمَلاهِيْهِ ، فَهُوَ تارةً يَتَنَاوَلُ مِنَ الثَّمرِ وتارةً يشُمُّ تِلْكَ الأَزهارِ وتارَةً يُعْجَبُ مِن حُسْنِ الأَشْجَارِ .

وَهُوَ على ذَلِكَ خائفٌ مِن سَبُعٍ يَخْرُجُ عليهِ ، غيرَ مُنْفَكٍّ مِن شَوْكٍ يَتَشَبَّثُ في ثِيَابِهِ ، وَيَدْخُلُ في قَدَمَيهِ أَوْ غُصْنٍ يَجْرَحُ بَدَنَهُ أَوْ عَوْسَجٍ يُخَرِّقُ ثِيابَهُ ، وَيَهْتِكُ عَوْرَتَهُ ، أَوْ صَوتٍ هائلٍ يُفزِعُهُ .

ثم مَن هؤلاءِ مَن لَحِقَ بالسَّفِيْنَةِ ، ولَمْ يَبْقَ فِيْهَا مَوْضِعٌ ، فَمَاتَ على السَّاحِلِ ، ومِنْهُم مَن شَغَلَهُ لَهْوُهُ ، فافْتَرَسَتْهُ السِّبَاعُ وَنَهَشَتْهُ الحَيَّاتُ ومِنهُم مَن تَاهَ فَهَامَ على وَجْهِهِ حَتَّى هَلَكَ ، فَهَذا مِثَالُ أَهْلِ الدُّنْيَا في

اشْتِغَالِهِمْ بِحُظُوظِهِم العَاجِلَةِ ، وَنِسْيَانِهِمْ مَورِدَهُم وعاقِبَةَ أَمْرِهِمْ ، وما أَقبَحَ بالعاقِلِ أَنْ تَغُرَّهُ أَحْجَارٌ ، وَنَباتٌ يَصِيرُ هَشِيماً .

المثالُ الرابعُ لاغتِرَارِ الناسِ بالدُّنْيَا ، وضَعْف إيْمَانِهِمْ بالآخِرَةِ أَنَّ رسولَ الله صلى اللهُ عليهِ وسلمَ قالَ لأصْحابِهِ ، إنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُكُمْ وَمَثَلُ الدُّنْيَا كَمَثَلِ قومٍ سَلَكُوا مَفَازَةً غَبْرَاءَ ، حَتَّى إذا لَمْ يَدْرُوا ما سَلَكُوا مِنْها أَكْثَرَ أَمْ ما بَقِيَ ، أَنْفَدُوا الزَّادَ ، وَحَسَرُوا الظَّهْرَ ، وَبَقُوا بَيْنَ ظَهْرَانَيْ المَفَازَةِ ، لا زَادَ ولا حَمُولَةَ ، فَأَيْقَنُوا بالهَلَكَةِ .

فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ ، إِذْ خَرَجَ عَلَيْهِمْ رَجُلٌ في حُلَّةٍ يقْطر رأْسُهُ ، فَقَالُوا إِنَّ هَذَا قَرِيبُ عَهْدٍ بريْفٍ ، وما جَاءَكُمْ هَذَا إلا مِنْ قَرِيْبٍ ، فلمَّا انتهَى اليهِمْ ، قالَ يا هَؤُلاءِ علامَ أَنْتُمْ ، قالُوا على مَا تَرَى ، قال أَرأَيْتُم إنْ هَدَيْتُكم على ماءٍ رُوَاءٍ ورِيَاضٍ خُضْرٍ ما تَجْعَلُونَ لِي ؟ .

قَالوا لا نَعْصِيْكَ شَيْئاً ، قالَ عُهُودَكُمْ ، وَمَواثِيْقَكُمْ باللهِ ، قالَ فَأَعْطَوهُ عُهُودَهُمْ ، ومواثِيْقَهُمْ باللهِ لا يَعْصُونَهُ شيئاً قَالَ فَأَوْرَدهُم مَاءً وَرِيَاضاً خُضْراً قالَ فَمَكَثَ ما شَاءَ اللهُ .

ثم قالَ يَا هَؤُلاءِ الرَّحِيْلَ ، قالوا إلى أَيْنَ، قَالَ إلى ماءٍ لَيْسَ كَمَائِكُم ورياضٍ لَيْسَتْ كَرِياضِكُمْ ، قالَ فقالَ جُلُّ القومِ ، وهُمْ أَكْثَرُهُمْ واللهِ ما وَجَدْنَا هَذَا حتى ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نَجِدَهُ ، وما نَصْنَعُ بِعَيْشٍ هُوَ خَيْرٌ مِنْ هذا ؟ .

قال وقالَتْ طائفةٌ وَهُمْ أَقَلُّهُمْ ، أَلَمْ تُعْطُوا هَذَا الرَّجُلَ عُهُودَكُمْ ، وَمَواثِيْقَكم باللهِ ، لا تَعْصُونَهُ شيئاً ، وَقَدْ صَدَقَكُم في أَوَّلِ حَدِيْثِهِ ، فَوَاللهِ

لَيْصْدُقَنَّكمْ في آخِرِه ، فَرَاحَ بِمَن اتَّبَعَهُ ، وتخلَّفَ بَقِيَّتُهُمْ ، فَبَادَرَهُمْ عَدُوُّهُمْ ، فَأَصْبَحُوا بَيْنَ أَسِيرٍ وَقَتِيْلٍ .

شعراً :

إذَا عَاجَلَ الدُّنْيَا أَلَمَّ بِمَفْرَحٍ
فَمِنْ خَلفِهُ فَجْعٌ سَيَتْلُوهُ آجِلُ
وَكَانتْ حَياةُ الحَيِّ سَوْقاً إلى الرَّدى
وَأَيَّامُهُ دُوْنَ المَمَاتِ مَرَاحِلُ
وما لُبْث مَنْ يَغْدُو وفي كُلِّ لَحْظَةٍ
لَهُ أجلٌ في مُدَّةِ العُمْرِ قَاتِلُ
وَلِلْمَرْءِ يومٌ لا مَحَالَةَ مَا لَهُ
غَدٌ وَسْطَ عَامٍ مالَهُ الدَّهْرَ قَابِلُ
كَفَانا اعْترافاً بِالفَنَاءِ وَرُقْبَةً
لِمَكروهِهِ أَنْ لَيْسَ لِلْخُلْدِ آمِلُ

اللهم ثَبِّتْ محبَتَك في قُلوبِنَا وَثَبِّتْ إيْمَانَنَا وَنَوِّرْ بَصَائِرَنَا واهدنا سُبُلَ السَّلَامِ وَجنِّبْنَا الفواحِشَ ما ظهرَ مِنْهَا وما بَطَنَ وأَلْهِمْنَا ذِكْرَكَ وشُكْرَكَ واعمُرْ أَوقَاتَنَا بِتِلَاوَةِ كِتابِكَ وأَرْزُقْنَا التَدبُر له والعَمَل به في الدقِيْقِ والجليل واغفِرْ لَنَا وَلِوَالدَيْنَا وجميعِ المُسْلِمِيْنَ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وَصَلَّى اللهُ على محمدٍ وعلى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

(فَصْلٌ)

المثالُ الخامِسُ لِلدُّنْيَا وَأَهْلِهَا ، مَا مَثَّلَها بِهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ كَظِلِ شَجَرَةٍ ، والمَرْءُ مُسَافِرٌ فِيها إلى اللهِ ، فاسْتَظَلَّ في ظِلِ تلكَ

الشجرةِ في يومٍ صَائِفٍ ، ثم راحَ وَتَرَكَهَا .

فَتَأَمَّلْ حُسْنَ هذا المِثَال ، ومُطَابَقَتَهُ لِلْوَاقِعِ سَوَاءً ، فإنَّها في خُضْرَتِهَا كَشَجَرَةٍ ، وفي سُرْعَةِ انقضائِهَا وَقَبْضِهَا شيئاً فَشَيْئاً كالظِّلِّ والعَبْدُ مُسَافِرٌ إلى رَبِّهِ ، والمُسَافِرُ إذَا رَأَى شَجَرَةً في يومٍ صَائِفٍ لا يَحْسُنُ به أَنْ يَبْنِيَ تَحْتَهَا داراً ، ولا يَتَّخِذَهَا قَراراً ، بَلْ يَسْتَظِلُّ بها بِقَدْرِ الحاجةِ ، وَمَتَى زَادَ على ذَلِكَ انْقَطَعَ عن الرِّفَاقِ .

المثالُ السادِسُ تَمْثِيْلُهُ لها صلَّى اللهُ عليهِ وسلمَ بِمُدْخِلِ أَصْبُعِهِ في اليَمِّ ، فالذيْ يَرْجِعُ بِهِ أَصْبُعُه مِن البَحْرِ هُوَ مَثَلُ الدُّنيَا بالنِّسْبَةِ إلى الآخِرَةِ .

المِثالُ السابعُ ما مَثَّلَهَا بهِ صَلَّى اللهُ عليه وسَلَمَ في الحديثِ المتفَقِ على صِحَّتِهِ من حَدِيثِ أبي سَعِيْدِ الخُدْرِي رَضِيَ اللهُ عنْهُ ، قالَ إنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسَلَمَ جَلَسَ ذَاتَ يَوْمٍ ، عَلَى المِنْبَرِ وَجَلَسْنَا حَوْلَهُ ، فقالَ إنَّ مِمَا أَخَافُ عليكُم مِن بَعْدِي مَا يُفْتَحُ عليكُمْ مِن زَهْرَةِ الدُّنْيَا ، وزِيْنَتِها فقالَ رجلٌ يا رسولَ اللهِ : أَوَ يَأْتِي الخَيْر بالشَّرِ ، فَصَمَتَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلمَ .

ثُمَّ قالَ كَيْفَ قُلْتَ ؟ قَالَ يا رَسُولَ اللهِ أَوَ يَأْتِي الخيرُ بالشَّرِ ، فقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ إنَّ الخَيْرَ لَا يَأْتِي إلا بِالخَيْرِ ، وإنَّ مِمَا يُنْبِتُ الرَّبِيْعُ مَا يَقْتُلُ حَبَطاً أَوْ يُلِمُّ ، إلّا آكِلَةَ الخَضِرِ ، أَكَلَتْ حتى اذَا امْتَلأَتْ خَاصِرَتَاهَا ، اسْتَقبَلت الشَّمْسَ فَثَلَطَتْ وَبَالَتْ ، ثم اجْتَرَّتْ فعادَتَ فَأَكَلَتْ .

فَمَنْ أَخَذَ مالاً بِحَقِّهِ بُورِكَ له فِيْهِ ، ومَنْ أَخَذَ مالاً بغير حَقٍّ ، فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الذي يَأْكُلُ ولا يَشْبَعُ ، فَأَخْبَرَ صلى اللهُ عليه وسلم أنَّ مما يَخافُ عليهِمْ الدُّنْيَا ، وَسَمَّاهَا زَهْرَةً ، فَشَبَّهَهَا بالزَّهَرِ ، في طِيْبِ رائِحَتِهِ وَحُسْنِ مَنْظَرِهِ ، وقِلَّةِ بَقَائِهِ .

فهذهِ الفِقْرَةُ اليَسِيْرةُ ، مِن جَوامِعِ كَلِمة صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ ، حَوَتْ على إيْجَازِها بَشارةَ الصَحابَةِ الكرامِ بِمَا سَيكونُ عَلى أَيْدِيْهِمْ ، مِن فَتْحِ البِلادِ ، وإِخْضَاعِ العِبادِ ، وَجَلْبِ الأَمْوالِ الطائِلةِ ، والغَنَائِمِ الكَثيرةِ ، وَتَحْذِيْرِهِم مِنَ الغُرُورِ ، والرُّكُون إلى هذهِ الاشياءِ الفانيَةِ ، والأَعْرَاضِ الزَّائِلَةِ .

وَضَرَب صلَّى اللهُ عليه وسلمَ مَثَلَيْنِ حَكِيْمَيْنِ أَحَدُهُمَا مَثَلُ المَفْرِط في جَمْعِ الدنيا ، والآخرَ مَثلُ المَقْتَصِدِ فِيْهَا ، أَمَّا الأَوَّلُ ، فَمَثَلُه مَثَلُ الرَّبِيْعِ وذَلِكَ قولُه فإنَّ مِمَا يُنْبِتُ الرَّبِيْعُ ما يَقْتُلُ حَبَطاً أو يُلِمَّ ، بأَنْ يُقَارِبَ الهَلاكَ .

فهذا المطرُ ماءٌ ينزِلُهُ لإغاثَةِ الخَلْقِ وإرْواءِ كلِّ ذي رُوحٍ فَرَغْمَ فَوَائِدِهِ الكثيرةِ وَمَنَافِعِهِ الغزيْرةِ وما يَتَسَبَّبُ عن ذلك مِنْ إِنْبَاتِ العُشْبِ والكَلاَءِ ، يَأْكُل منهُ الحيوانُ فَيُكْثِرُ فينتفخُ بَطْنُه ، فَيَهْلِكُ أو يقاربُ الهلاكَ ، وكذَلك الذي يُكْثِرُ من جَمْعِ المالِ ، ويكونُ عندَهُ مِن الجَشَعِ والشَّرَهِ ، والحِرْصِ ، ما يتجاوزُ بِهِ الحَدَّ ، ولاسِيَّمَا اذا جَمَعَ المالَ مِن غَيْرِ حِلّه ، وَمَنَع ذا الحَقِ حَقَّهُ ، فإنْ لم يَقْتُلْهُ قارَبَ أَنْ يَقْتُلَه .

وَلِذَلِكَ كَثِيْرٌ مِنْ أَهْلِ الأَمْوالِ قَتَلَتْهُم أموالُهم فانَّهم شَرِهُوا في

جَمْعِهَا ، واحْتَاجَ إليهَا غيرُهم ، فلم يَصِلوا إلى ذَلِك إلا بِقَتْلِهم ، أو ما يُقارِبُ ذَلِكَ مِن إذْلَالِهم وَقَهْرِهم والضَّغْطِ عَليهم .

وأَمَّا المثالُ الثاني : وهُوَ مثالُ المُقْتَصِد في جَمْعِ الدُّنْيَا ، الطَّالِبِ لِحِلِّهَا ، فَقَدْ مَثَّلَ له صَلَّى اللهُ عليهِ وسلمَ بقولِه « إلَّا آكِلَةِ الخُضَرِ » ، فكأنهُ قالَ ألا انظرُوا آكِلَة الخَضْراءِ ، واعتَبِرُوا بشأْنها « أَكَلتْ حتى إذَا امْتَدَتْ خاصِرتَاهَا » وَعَظُمَ جَنْبَاهَا ، أَقْلَعَتْ سَرِيعاً « اسْتَقْبلت عينَ الشَّمْسِ » تَسْتَمْرِئُ بذلكَ ما أَكَلتْ وَتَجْتَرُّه « فَثَلَطَتْ » أَلَقَتْ ما في بَطْنِها مِن أَذَى سَهْلاً رَقِيْقاً .

وفي قوله « اسْتَقْبَلَتْ عينَ الشَّمسِ فَثَلَطَتْ وبالَتْ » ثلاثُ فوائِدَ أحَدُها أنَّها لَمَّا أَخَذَتْ حاجَتَها مِن المَرْعى تَرَكَتْهُ ، وَبَرَكَتْ مُسْتَقْبلةً عينَ الشَّمْسِ ، تَسْتَمْرِيءُ ،الفائدةُ الثانيةُ أَنَّهَا أَعْرَضَتْ عَمَّا يَضُرُّها مِن الشَّرَهِ في المَرْعَى ، وأَقْبَلَتْ على مَا يَنْفَعُهَا ، مِن استقبالِ الشَّمْسِ التي يَحْصُل لها بِحَرارَتِهَا انْضَاجُ ما أَكَلَتْهُ وإخراجُهُ .

الثالثةُ : أَنَّها استَفْرغَتْ بالبَوْلِ والثَّلْطِ ما جَمَعَتْهُ مِن المَرْعَىٰ في بَطْنِهَا ، فاسْتَرَاحَتْ بإِخْرَاجِه ولو بَقِيَ فِيها لَقَتَلَها ، هَكذا جامعُ المالِ مَصلحتُه أَنْ يَفْعَلَ بِهِ كَمَا فَعَلَتْ هَذِهِ الشَّاة فَتَنَبَّهْ لِذَلِكَ أيُّهَا المُغَفَّلُ الجَمُوْعُ المَنُوْع .

وإيَّـاكَ والـدُّنْـيَـا الـدَّنِيَّـةَ إنَّـهَـا
هِيَ السِّحْـرُ في تَـخْيِيْلِهِ وافْـتِـرَائِـهِ
مَـتَـاعُ غُـرُوْرٍ لَا يَـدُوْمُ سُـرورُهـا
وَأَضْـغَـاثُ حُلْمٍ خَـادِعٍ بِـهَـبَـائِـهِ

فَمَن أَكْرَمَتْ يوماً أَهَانَتْ لَهُ غَداً
وَمَنْ أَضْحَكَتْ قَدْ آذنَتْ بِبُكَائِهِ
وَمَن تُسْقِهِ كَأْساً مِن الشهْدِ غُدْوَةً
تُجَرِّعُهُ كَأسَ الرَّدَى في مَسَائِهِ
وَمَن تَكْسُ تَاجَ المُلْكِ تَنْزَعُهُ عَاجِلاً
بأَيْدِي المَنَايَا أَوْ بِأَيْدِي عِدَائِهِ
أَلَا إنَّها لِلْمَرْءِ مِنْ أَكبَرِ العِدَا
وَيَحْسَبُهَا المَغْرُوْرُ مِن أَصْدِقَائِهِ
فَلَذَّاتُهَا مَسْمُومَةٌ وَوُعُودُها
سَرَابٌ فَمَا الظَّامِي رَوَى مِن عَنَائِهِ
وَكَمْ في كِتَابِ اللهِ مِنْ ذِكْرِ ذَمِّهَا
وَكَمْ ذَمَّهَا الأَخْيَارُ مِن أَصْفِيَائِهِ
فَدُوْنَكَ آياتِ الكتابِ تَجِدْ بِهَا
مِن العِلْمِ مَا يَجْلُوا الصَّدَا بِجَلَائِهِ
وَمَن يَكُ جَمْعُ المالِ مَبْلَغَ عِلْمِهِ
فَمَا قَلْبُهُ إلَّا مَرِيْضاً بِدَائِهِ
فَدَعْهَا فإنَّ الزُّهْدَ فِيْهَا مُحَتَّمٌ
وإنْ لَم يَقُمْ جُلُّ الوَرَى بِأَدَائِهِ
وَمَن لَمْ يَذَرْهَا زَاهِداً في حَيَاتِهِ
سَتَزْهَدُ فيهِ النَاسُ بَعْدَ فَنَائِهِ
فَتَتْرُكُهُ يَوْماً صَرِيْعاً بِقَبْرِهِ
رهِيْناً أَسِيْراً آيِساً مِن وَرَائِهِ

وَيَنْسَاهُ أَهْلُوْهُ الْمُفَدَّى لَدَيْهِمُ
وَتَكْسُوهُ ثَوبَ الرُّخْصِ بَعْدَ غَلائِهِ
وَيَنْتَهِبُ الْوُرَّاثُ أَمْوَالَهُ الَّتي
عَلى جَمْعِهَا قاسَىٰ عَظِيمَ شَقَائِهِ
وَتُسْكِنُهُ بَعْدَ الشَّواهِقِ حُفْرَةً
تَضِيقُ بِهِ بَعْدَ اتِّسَاعِ فَضَائِهِ
يُقِيمُ بِهَا طُولَ الزمانِ وَمَالَهُ
أنيسٌ سوى دُوْدٍ سَعَى في حَشَائِهِ
فَوَاهاً لَهَا مِن غُربَةٍ ثم كُرْبَةٍ
ومِن تُربَةٍ تَحْوِي الفَتَى لِبَلائِهِ
وَمِن بَعدِ ذا يَومُ الحِسَابِ وِهَوْلُه
فَيُجزَى بِهِ الانسانُ أَوْ فى جَزائِهِ
وَلَا تَنْسَ ذِكرَ الموتِ فالموتُ غائبٌ
ولا بُدَّ يَوْماً لِلْفَتَى مِن لِقَائِهِ
قَضَى اللهُ مَوْلانا عَلى الخَلْقِ بِالفَنَا
ولا بدَّ فِيهِم مِن نُفُوذِ قَضَائِهِ
فَخُذْ أُهْبَةً لِلْمَوتِ مِن عَمَلِ التُّقَى
لِتَغْنَمَ وَقْتَ العُمْرِ قَبْلَ انْقِضَائِهِ
وإِيَّاكَ والآمالَ فالعُمْرُ يَنْقَضِي
وَأَسْبَابُهَا مَمْدُوْدَةٌ مِن وَرَائِهِ
وَحَافِظْ على دُينِ الهُدَى فَلَعَلَّهُ
يَكونُ خِتامَ العُمْرِ عندَ انتِهَائِهِ

فَـدَوْنَـك مِنّي فـاسْتَمعهـا نَصِيْحَـةً
تُضَـارِعُ لَـونَ التِّبْـرِ حَـالَ صَفَـائِـهِ
وصَلِّي على طُـوْلِ الـزمـانِ مُسَلِّمَـاً
سَـلاماً يَفُـوقُ المِسْـكَ عَـرْفُ شَـذَائِـهِ
عَلى خـاتَمِ الرسْـلِ الكِـرَامِ مُحَمَّـدٍ
وأَصـحـابِـهِ والآلِ أَهـل كِـسَـائِـهِ
واتْبَـاعِهم في الدينِ مـا اهْتَزَّ بـالـرُّبَـا
رِيـاضٌ سَـقَـاهَـا طَـلَّهَـا بِـنَـدَائِـهِ

اللهمَّ اجْعَل قلوبَنا مَمْلوءةً بِحُبِّكَ وألْسِنَتَنا رَطْبَةً بِذِكْرِكَ وَنُفُوسَنا مُطِيْعَةً لِأَمْرِكَ وأرْزقنَا الزُّهْدَ في الدُّنْيَا والاقبالَ على الآخرةِ واغفرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا ولِجَمِيعِ المسلمينَ برحمتِكَ يا أرحَمَ الراحمينَ وَصَلَّى اللهُ على محمدٍ وعلى آلهِ وسَلم .

(فَصْـلٌ)

اعلمْ وَفَّقَنَا اللهُ وايَّاكَ وجميعَ المسْلِمِينَ لما يُحِبُّه وَيَرْضَاهُ ، أن الأُلْفَةَ ثمرةُ حُسْنِ الخُلُقِ ، والتَّفرُّقَ ثمرةُ سوءِ الخلقِ ، فَحُسْنُ الخُلُقِ يوجِبُ التَّحَابَ ، والتآلفَ والتوافُقَ ، وَسُـوءُ الخلقِ يثمرُ التباغضَ ، والتحَاسُدَ ، والتَدَابُرَ .

ومهمَا كانَ المثمِرُ محموداً،كانَتْ الثمرةُ محمودةً ،وحُسْنُ الخلقِ لا تخفَى في الدِّينِ فَضيلتُه ، وقالَ اللهُ تعالى لِنَبيه ﴿ وإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيْمٍ ﴾ وقال صلى اللهُ عليه وَسَلَم (أَكْثَرُ ما يُدْخِلُ الجنةَ تقوىً ، وحُسْنَ الخُلُقِ) ، وقال أُسَامةُ بنُ شَرِيكٍ قلنَا يا رَسُولَ اللهِ ما خَيْرُ ما

أُعْطِيَ الإِنْسَانُ ؟ فقال : حُسْنُ الخلقِ) وقالَ صلى الله عليهِ وسلم (بُعِثْتُ لأُتَمِمَ مكارِمَ الأَخْلاَقِ) .

وقالَ صلى اللهُ عليهِ وسلَّمَ (أَثْقَلُ ما يُوضَعُ في المِيْزانِ خُلُقٌ حَسَنٌ) ، وقالَ صلى اللهُ عليهِ وسلم (المُؤْمِنُ الِفٌ مَأْلوفٌ ، ولا خَيْرَ فِيْمَنْ لا يَأْلَفُ ولا يُؤْلَفُ) ، ولأبِي عبدِ الرحْمَنَ السُّلَمِي في آدَابِ الصُّحْبَةِ مِنْ حديثِ عَلِيٍ : مِنْ سَعادَةِ المرْءِ أنْ يكونَ لَه إِخْوان صالحين) .

وللإِخَاءِ أَربعُ خِصَالٍ : الأَوْلَى العَقْلُ الموفُوْرُ الهَادِي إلى مَرَاشِدِ الأُمُورِ بِإِذْنِ اللهِ ، فَإِنَّ الحُمْقَ لا تَثْبُتُ مَعَهُ مَوَدَةٌ ولا تَدُومُ معه صُحْبَةٌ ، لِعَدَمِ مُراعاتِهِ حُقُوقَ الإِخَاءِ .

والخَصْلَةُ الثَّانِيَةُ الدِّيْنَ الوَاقِفُ بِصَاحِبِهِ عَلَى الخَيْراتِ ، فإِنَّ تارِكَ الدِّيْنِ عَدوٌ لِنَفْسِهِ يُلقِيْهَا في المَهَالِكِ ، فَكَيْفَ يُرْجَى مِنْه نَفْعٌ وَمَوَدَّةٌ لِغَيْرِهِ .

وقالَ بعضُ الحُكَماءِ اصْطَحِبْ مِنَ الاخوانِ صَاحِبَ الدِّيْنِ ، والحَسَبِ ، والرَّأْيِ والأَدَب ، فانه عَوْنٌ لَكَ عندَ حاجَتِكَ ، لأَنَّ دِيْنَه يُحتِّمُ عليه ذلك ، لأنه مِنْ مُقْتَضَيَاتِهِ وَيَدٌ عندَ نائِبَتِك ، وذلِكَ مِن مُوْجِبَاتِ رَأْيِهِ ، وَحَسَبِهِ ، وأُنسٌ عندَ وَحْشَتِك لأَدَبِهِ .

وَمِنْ كلامِ بَعْضِ العارِفين : الأَخُ الصَّالحُ خيرٌ مِن نَفْسِكَ ، لأن النفسَ أمَّارةٌ بالسُوءِ ، والأَخُ الصالحُ لا يَأْمُرُ إلا بالخيرِ .

الثالثةُ : أن يكونَ مَحْمُودَ الأخلاقِ ، مَرْضِيَّ الأفعالِ ، مُؤْثراً

لِلْخَيْرِ ، آمراً به لِخَلِيْلِهِ ، كارهاً لِلشَّرِّ دِيَانَةً ، وَخُلُقاً ، ناهياً عن الشر مُرُوْءَةً وَحَسَباً ، فإنَّ مَوَدَّةَ الشرِّيْرِ تَكْسِبُ الأعداءَ ، وَتُفْسِدُ الأخْلاقَ ، ولا خيرَ في مَوَدَّةٍ تَجْلِبُ عَدَاوةً ، وَتُوْرِثُ مَذَمَّةً وَمَلَامةً .

وقد ضَرَبَ النبيُّ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ مَثَلَين لِلْجَلِيْسِ الصَّالحِ ، والجَلِيْسِ السُّوءِ ، فعنْ أبي مُوسى الاشعَري رَضِيَ اللهُ عنه قَالَ قَالَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلمَ (مَثَلُ الجَليسِ الصَّالحِ ، والْجَلِيسِ السُّوءِ ، كَحَامِلِ المِسْكِ ، وَنَافِخِ الكِيْرِ ، فَحَامِلُ المِسْكِ إمَّا أَنْ يَحْذِيكَ ، وامَّا أَنْ تَبْتَاعَ منهُ ، وإمَا أنْ تَجِدَ منه ريحاً طيبةً ، ونافخُ الكيرِ إما أنْ يُحْرِقَ ثِيابَكَ ، وإما أن تَجِدَ منه رِيْحَةً خَبِيْثَةً) ، متفقٌ عليه .

هذا الحديثُ يُفِيْدُ انَّ الجَلِيْسَ الصَّالِحَ جميعُ أَحْوالِ صَدِيْقِهِ مَعَهُ خَيرٌ وَبَرَكَةٌ وَنَفعٌ وَمَغْنَمٌ مِثْلُ حَامِلِ المِسْكِ الذي تَنْتَفِعُ بما معه منْه ، إمّا بِهِبَةٍ ، أو بِبَيْعٍ أو أَقَلُّ شَيْءٍ مُدَّةَ الجُلوسِ مَعَهُ ، وأنتَ قريرُ النَفسِ ، مُنْشَرِحِ الصَّدرِ ، بِرَائِحَةِ المِسْكِ .

وهذا تقريبٌ ، وَتَشْبِيْهٌ لَهُ بِذَلِكَ وإلا فَمَا يَحْصُل مِنَ الخيرِ الذي يُصيبُه العبدُ من جَلِيْسِهِ الصَّالِحِ أَبلغُ وَأَفْضَلُ من المِسْكِ الأَذْفَرِ ، فانه إمَّا أنْ يُعلِّمَكَ أموراً تَنْفَعُكَ في دِينكَ ، وإمَّا أَنْ يُعَلِّمَكَ أُمُوْراً تَنْفَعُكَ في دُنياكَ ، أو فِيْهما جَمِيْعاً ، أو يُهْدِيْ لَكَ نَصِيْحَةً تنفعُكَ مُدّةَ حياتِكَ ، وَبَعْدَ وَفاتِكَ أو يَنْهاكَ عَمَّا فِيْهِ مَضرةٌ لكَ .

فَأَنْتَ مَعه دائماً في مَنْفَعةٍ ، وَرِبْحُكَ مَضْمُونٌ بإذنِ اللهِ ، فَتجدهُ دائماً يَرى أَنَّكَ مُقَصِّرٌ في طاعةِ اللهِ ، فَتَزْدَادُ هِمَّتُكَ في الطاعةِ ، وَتَجْتَهِدُ

في الزِّيَادَةِ منها ، وَتَرَاهُ يُبصِّرُكَ بِعيُوبِكَ ، وَيَدْعوكَ إلى مَكَارِمِ الأخلاقِ ، وَمَحَاسِنِها بقولِهِ وَفِعْلِه وَحَالِهِ .

فالإنسانُ مَجْبُولٌ على التقْلِيدِ ، والاقتداءِ بِصَاحِبِه ، وجَليسِهِ ، والطباعُ والأرواحُ جُنودٌ مُجَنَّدَةٌ ، يَقُودُ بعضُها إلى الخيرِ ، أَو إلى الشرِ ، وأقلُ نفعٍ يَحْصُلُ مِن الجَلِيسِ الصالحِ انكفافُ الإنسانِ بِسَببِهِ عن السيئاتِ ، والمسَاوِي والمَعَاصِي ، رِعايَةً لِلصُّحْبَةِ ، وَمُنَافَسَةً في الخَيرِ وَتَرَفُعاً عن الشرِ .

وَمِنْ ما يُستفادُ مِن الجليسِ الصالح أَنَّه يَحْمِي عِرْضَك في مَغِيْبِكَ ، وفي حَضْرتِكَ ، يُدافِعُ وَيَذُبُ عنكَ ، ومِن ذلكَ أنَّكَ تَنْتَفِعُ بِدُعَائِهِ لَكَ حياً أَوْ مَيّتاً .

وأمَّا مُصَاحَبَةُ الأَشرارِ فَهيَ السُّمُ الناقِعُ ، والبَلاءُ الواقعُ ، فَتَجدهُمْ يُشَجِّعُونَ على فِعْلِ المعاصِي ، والمنكراتِ ، وَيَرْغبونَ فيهَا وَيَفْتَحُونَ لِمنْ خَالَطَهُمْ ، وجالَسَهُمْ أَبْوَابَ الشُرُوْرِ وَيُزَيِنُونَ لِمُجَالِسِيْهِمْ أنواعَ المَعَاصِي .

وَيَحُثُّونَهم على أَذِيَّةِ الخَلْقِ ، وَيُذَكِّرُونَهُمْ بأُمُورِ الفَسَادِ ، الَّتِي لَمْ تَدرْ في خَلَدِهِمْ ، وإن هَمَّ بِتَوْبَةٍ وانْزِجَارٍ عن المَعَاصِي حَسَّنُوا عِندَهُ تأجيلَ ذلك ، وطوْلَ الأَمَلِ ، وأَنَّ ما أَنْتَ فيهِ أَهْونُ مِن غيرِهِ ، وفي إمكانِكَ التّوبةُ ، والإنابةُ إذا كَبُرْتَ في السِّنِ .

وما يُقلِّدُهُم بِهِ وَيَكْسَبُه مِن طِباعِهِم أَكْثَرُ مِن مَا ذكَرْنَا ، وكم قادُوا أصحابَهم إلى المَهَالِكِ واللهُ أعلمُ وصلى الله على محمدٍ وآله وسلم .

(فَصْـلٌ)

وَكَمْ حَثَّ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ على أَهْلِ الدِّينِ فعن أَبي هريرةَ رضي اللهُ عنهُ قَالَ قَالَ رسول الله صَلَّى اللهُ عليهِ وسلمَ (الْمَرْءُ على دِينِ خَلِيلِهِ فلينظرْ المرءُ مَنْ يُخَالِلْ) قالَ العلماءُ معناهُ لا تُخَالِلْ إلا مَنْ رضيتَ دِينَه وأمانَتَه فإنكَ إذا خَالَلْتَه قَادَكَ إلى دِيْنِهِ ، وَمَذْهَبِهِ ، ولا تُغَرِّرْ بدِيْنِك ولا تُخَاطِرْ بِنَفْسِكَ ، فَتُخَالِلْ مَن لَيْسَ مَرْضياً في دِينِهِ ومذهَبِهِ .

وقالَ سفيانُ بنُ عيينةَ ، وَوَقد روي في تَفسير هَذَا الحديثِ انْظُرُوا إلى فِرْعَونَ مَعَهُ هامَان وانظُروا إلى الحجاجِ مَعَهُ يزيدُ بنُ أبي مُسْلِم شَرٌّ مِنْه قُلْتُ وانظروا إلى يزيدِ بنِ معاويةَ معه مُسْلِمُ ابنُ عقبةَ المُرّي شرٌ منه انظروا إلى سليمان بنِ عبدِ الملكِ صحبَهُ رجاءُ بنُ حَيْوَةَ الكنْدِيُ أَحَدُ الأعلامِ الأَفَاضِلِ ، فَقَوَّمَهُ وسَدَّدَهُ .

وعن أَبي سعيدٍ الخدري عن النبي صَلَّى الله عليه وسلم قال « لا تُصَاحِبْ إلا مُؤْمناً ولا يَأكل طعَامَكَ إلا تَقِيٌّ » قَالَ العلماءُ مَعنى الحديثِ لا تَدْعُو إلى مُواكَلَتِكَ إلاَّ الأتقياءَ ، لأنَّ المُؤَاكلةَ تَـدْعو إلى الأُلْفَةِ ، وتُوجِبُهَا ، وَتَجْمَعُ بينَ القلوبِ ، يقول النبي صلى الله عليهِ وسلمَ فَتَوَخَّ أنْ يكونَ خُلَطاؤُكَ وَذَوُو الاختصاصِ بك أَهْلُ التقوى .

وعن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عنها قَالَتْ قَالَ رسول الله صلى الله عليه وسلم (لا تَلْزَمُوا مَجَالسَ العَشَائِرَ فإنَّها تُميتُ القلبَ ، ولا يُبَالي الرجلُ بما تَكَلم ، ناديهم ، وَتَفرقُوا في العَشَائِرِ فَإنهُ أَحْرَى أَنْ تُحْفَظُوا في المَقَالَةِ) .

قالَ العلماءُ قَدْ حَذَّرَ النبيُ صَلَّى اللهُ عليه وسَلم مِن مُجَالَسَةِ مَنْ لا يَسْتَفيدُ المَرْءُ بهِ فَضِيْلةً ، ولا يَكْتَسِبُ بِصُحْبَتِهِ عِلْماً وَأَدَباً .

وعن وَدِيْعَةَ الانْصَارِي قَالَ سَمِعْتُ عُمَرَ بن الخطابِ رَضِيَ اللهُ عنه يقولُ وهو يَعِظُ رَجلاً لا تَتكلمْ فيما لا يَعْنِيكَ ، واعتزلْ عَدُوَّكَ ، واحذرْ صَدِيْقَكَ ، إلا الأمينَ ولا أَمِيْنَ إلا مَنْ يَخْشَىٰ اللهَ عَزَّ وجلَ ، ويطيعُه ، ولا تَمْشِ مَع الفَاجِرِ ، فَيُعَلِّمَكَ مِن فُجُورِهِ ، ولا تُطلعْه على سِرِّكَ ولا تُشاوِرْ في أمرِكَ إلا الذينَ يَخْشَونَ اللهَ سبحانَه .

وَوَعظَ بعضُهم ابنَهُ فقالَ له إيَّاكَ واخوانَ السُوءِ ، فإنَّهُمْ يَخُونونَ مَن رَافَقَهمْ ، وَيُفْسِدونَ مَن صَادَقَهم ، وَقُرْبُهم أَعْدَى مِن الجَرَبِ ، وَرَفْضُهم والبُعْدُ عَنْهُمْ مِن استكمالِ الأَدبِ والدِّين والمَرْءُ يُعْرَفُ بِقَرِينِهِ ، قالَ والإخوانُ إثنانِ فَمُحَافِظٌ عليكَ عندَ البَلاءِ ، وَصَدِيْقٌ لكَ في الرَّخاءِ ، فاحفظ صديقَ البَلِيَّة ، وَتَجَنَّبْ صَدِيقَ العَافِيَةِ فانَّهمْ أَعْدَى الاعْدَاءِ وفي هَذَا المعنى يقولُ الشاعرُ :

« أَرَى النـاسَ إخـوانَ الـرَّخـاءِ وإنَّمـا
أَخُـوكَ الـذي آخَـاكَ عِنـدَ الشَّـدائِـد »

« وكـل خـليـلٍ بـالهـوْيـنـا مـلاطِفُ
ولـكـنَّـمـا الإخـوان عـنـد الـشـدائِـد »

آخـر : فما أَكْثَـرَ الإخـوانَ حِيْنَ تَعـدُّهُمْ
ولـكـنَّـهُـمْ فـي الـنـائِـبَـاتِ قـلـيـلُ

آخـر : فريـدٌ مِن الخـلانِ في كِـلّ بلدةٍ
إذا عـظمَ المـطلوبُ قَـلَّ المسـاعـدُ

وعن شريكِ بن عبدِ اللهِ كانَ يُقَالُ لا تسافرْ مع جَبَانٍ فانَّهُ يَفِرُ مِن أبيهِ وأمِه ، ولا تُسَافرْ معَ أحْمَقَ ، فإنْهُ يخذلِكَ أحْوَجَ ما تكونُ إليهِ ولا تُسَافِرْ مَعَ فاسِقٍ فإنه يَبِيْعُكَ بِأَكْلَةٍ وَشَرْبَةٍ .

وعن أَبي مُوسَى الاشْعَرِي قال قالَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم أنَّ الله خلقَ آدمَ عليهِ السلامُ مِن قَبْضَةٍ قَبَضَهَا مِن جَمِيْعِ أَجْزَاءِ الأَرضِ فَجَاءَ بَنُوا آدَمَ عَلَى قَدْرِ الأَرْضِ ، مِنْهُمْ الأَحمرُ والأَسودُ والأَبيضُ والسَّهْلَ والحَزَنُ .

قال العُلَماءُ في هَذَا الحديثِ بيانُ أَنَّ الناسَ أَصنافٌ ، وطَبقاتٌ ، وأنهمْ مُتَفَاوِتُونَ في الطِّبَاعِ ، والأَخلاقِ ، فمنهُمْ الخَيِّرُ الفاضلُ ، الذي يُنْتَفَع بِصُحْبَتِهِ ، وصداقَتِه ، وَمُجَاوَرَتِهِ ، ومُشَاوَرَتِهِ وَمُقَارَنتهِ وَمُشَارَكَتِهِ وَمُصَاهَرَتِهِ .

ومنهُمْ الرَّدِيءُ الناقصُ العقلِ الذي يُتَضَرَّرُ بقُرْبِهِ ، وعِشْرَتِهِ وَصَداقَتِهِ وَجَمِيْعُ الاتصالاتِ به ضررٌ وشرٌ ، ونكدٌ ، وأشبهُ ما لِهَذَا الدَّلْبُ المسمَّى الخُنَيْز ، وَبَعضُهم يُسَمِيْه شَبَّابَ النارِ ، فهذا النَّبْتُ يَمُصَّ الماءَ عن الشَّجرِ والزَّرْعِ وَيُضَيِّقُ عليهِ ، وَيَضُرُ مَن اتَّصَلَ بِهِ ، قال ابنُ القيمُ رحمهُ اللهُ في وَصْفِ المنحرِفينَ مُشَبِّهاً لهُمْ بِهِ وهو شَبَهٌ مُطَابِقٌ :

فَهُمُ لَدَى غَرْسِ الإلهِ كَمثْلِ غَرْ
سِ الدَّلْبِ بَيْنَ مَغَارِسِ الرُّمانِ
يَمْتَصُّ مَاءَ الزَّرْعِ مَعْ تَضْيِيْقِهِ
أَبَدَاً عليهِ وليسَ ذَا قِنْوانِ

ومنها السِّباخُ الخَبِيْثَةُ التي يَضِيْعُ بُذُورُهَا ، وَيَبِيْدُ زرْعُهَا وما بين ذلكَ على حَسَبِ ما يُشَاهَدُ منها وَيُوْجَدُ حساً .

وعن أَبِي هريرةَ رضِي اللهُ عنهُ قالَ قَالَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وسَلَمَ الناسُ مَعَادنُ قال الخَطابي على هَذا الحديثِ ، وفي هذا القولِ أَيضاً بيانُ أَنَّ اختلاف الناسِ غرائزُ فيهمْ ، كَمَا أن المعادِنَ ودائعُ مَرْكُوزةٌ في الأَرضِ فمنهَا الجَوهَرُ النفيسُ ومنها الفِلْزُ الخَسِيْسُ .

وكذلكَ جواهِرُ الناسِ ، وطباعُهُمْ ، منهَا الزكيُّ الرضيُّ ومنها الناقصُ الدَّنِيءُ وإذا كانُوْا كذلِكَ ، وكانَ الأَمْرُ على العِيَانِ مِنْهم مُشْكِلاً واسْتِبْراءُ العَيْبِ فيهمْ مُتَعذّراً فالحَزْمُ إذاً الامْسَاكُ عنهُمْ ، والتَّوَقُفُ عَن مُدَاخَلَتِهِمْ إلى أن تَكْشِفَ المِحْنةُ عن أَسْرارِهْم وَبَواطنِ أَمْرِهِمْ فيكونُ عندَ ذَلِكَ إقدامٌ على خِبْرةٍ ، أَو إحْجَامٌ عنْ بَصِيْرَة .

وَلَعَلَّكَ أَسْعَدَكَ اللهُ إِذَا خَبَرْتَهم قَلَيْتَهُم ، وإذا عَرَفتَهم أَنكَرْتَهُمْ ، إلا مَن يَخُصُّهُم الثُّنَيَاءُ وَقَلِيْلٌ مَا هُمْ ، وَعَنْ أَبِي جُحَيْفَةَ أَنَّ رسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلمَ كَانَ جالساً ذاتَ يومٍ وَقُدَّامُه قومٌ يَصْنَعُونَ شيئاً كَرِهَهُ مِن كَلَامٍ وَلَغَطٍ ، فقيلَ يا رسولَ اللهِ أَلا تَنْهَاهُمْ ، فقالَ لو نَهَيْتُهم عن الحجُون ، لأَوشَكَ بَعْضُهُم أَنْ يَأْتِيَهُ ، وَلَيْسَتْ لَهُ حَاجَةٌ .

قال الخَطَّابي على هَذا الحديثِ قد أَنْبأَ النبيُ صلى اللهُ عليه وسلم بهذا القول أَنَّ الشَّرَ طباعٌ في الناسِ ، وأَنَّ الخِلافَ عادةٌ لَهُم ، قُلْتُ وممَّا يَدُلُ على ذلكَ قِصَّةُ آدَمَ وَحَوَاءَ حِيْنَمَا نَهَاهُمَا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عن الأكلِ مِن الشجرةِ أَكَلا مِنها .

فَبَعْضُ الناسِي نَهْيُهُ عن الشيءِ كَأَنَّه إغراءٌ لهُ فيهِ ، فَإِذَا نَهيْتَه عن شِدَةِ الإِقبَالِ على الدُّنيا والإِقْلالِ مِن مَحَبَّتِهَا ، ازْدَادَ وَفطِنَ لِأَشْيَاءَ قَدْ نَسِيها قال بعضهم :

وإِذَا زَجَـرَتَ الـنَّفْسَ عـن شَغَـفٍ بـهـا
فـكـأنَّ زَجْـرَ غـويّـهَـا إِغْـرَاؤُهَـا

قال بَعْضُ الحُكَمَاءِ الشرُّ في طباعِ الناسِ ، وحُبِّ الخِلافِ لهم عادةٌ ، والجَورُ فيهم سُنّةٌ .

وَلِذَلِكَ تَرَاهُمْ يُؤْذُونَ مَن لا يُؤْذِيهم ، وَيَظْلِمونَ مَنْ لا يَظْلِمُهُمْ ، وَيُخَالِفُونَ مَن يَنْصَحُهُم وَقَدِيْماً قِيْلَ :

والـظُّلْمُ مِن شِيَم النُفُوْسِ فـإِنْ تَجِـدْ
ذا عِـفَّـةٍ فَـلِعِـلَّةٍ لا يَـظْلِمُ

قيلَ لِرَجُلٍ أَمَا تَسْتَحِي تُؤْذِي جِيرانَك ، قَالَ فَمَنْ أُوْذِي ، أُوذِي مَنْ لا أَعْرِفُ ، نَعُوذُ باللهِ مِن هذهِ الحالِ هذا مَطْبُوعٌ على الشَرِّ والأَذِيَّةِ .

إذا فَهِمْتَ ذَلِكَ فاعْلَمْ أَنَّ الإِخَاءَ فِيْمَا مَضَى غالباً بينَ الأَخَوَيْنِ كانَ أَحَدُهُمْ يَعْتَمِدُ على اللهِ ثُمَّ عَلَى أَخِيْهِ ، وَيَطْمَئِنُ إليهِ ، في مَهَامِّهِ كُلَّ الإِطْمِئْنَانِ ، كَان أَحدُهُم يُؤآخِي أخاهُ على الصَّفَاءِ بَيْنَهُم والحَنَانِ ، كَأَنَّ الأَخَ نَفْسُ أخيهِ ، وربَّمَا زادَ عنه ، في القيامِ بِشُؤُنِهِ مرَّاتٍ ، كان الأَخُ لا يُؤآخِي إِلَّا إذا أَحَبَّ لِأَخِيهِ ما يحبُ لنفسِهِ .

وكانَ أَحَدُهُمْ يدخلُ بَيْتَ أَخيهِ بِحَضْرَتِهِ وَيَأْخُذُ مِن خِزَانَتِه ما يُرِيْدُ

كانَ أحدُهم إذا سأَلَ أَخاهُ ما هُو محتاجٌ إليه أَنَبَ نَفْسَه إِذْ أَهْمَلَهُ حتى أَفْصَحَ هو عَنْ حاجَاتِه ، كانَ بعضُهم يُلاَحِظُ بعضاً فإذا رَأى فُرْجَةً سَدَّها وَوَجْهُ أَخِيْهِ غَيْرُ مَبْذُولٍ .

كانَتِ الصُّحْبَةَ أَوَّلاً صَافِيَةً وكانَ الحُبُ لِلهِ مَا فيهِ شائبةٌ ، أو طَمَعٌ مِن الأطماعِ ، وَحَيْثُ أنَّ الصاحبَ هُوَ العَضُدَ الأَقْوى ، والساعد الأَيْمَن لِلْمَرْءِ في حَيَاتِهِ وما يَنْتَابُهُ في مُلِمَّاتِهِ فَعلى العَاقِلِ أن يَخْتَارَ أَصحابَهُ وَيَنْتَقِيَ جُلَسَاءَهْ وَيَنْتَخِبَهُمْ مِن ذَوِي السِيْرةِ المَحْمُوْدَةِ والعقلِ الراجِحِ ، والرَّأْيِ السَّدِيدِ ، والدِّين المتين ، ولْيَحْذَرْ مِنْ مؤآخاةِ مَن لا يَصْلَحُ للأخوةِ ، ولا يُرَاعِي حقَّ الوِدَادِ وآدابِ المُجَالَسَةِ والمُحَادَثَةِ .

وأَوْصَى بَعْضُهُم ابنَهُ لَمَّا حَضَرَتْهُ الوَفاةُ فقالَ يا بُنيَ إذا أَرَدْتَ صُحْبَةَ انسانٍ فاصْحَبْ مَن إذا خَدَمْتَه صَانَكَ ، وإن صَحِبْتَهُ زَانَكَ ، اصحبْ مَنْ اذا مدَدْتَ يَدَكَ للخيرِ مَدَّهَا ، وان رَأَى منكَ حَسَنَةً عَدَّهَا ، وان رَأَى منك سَيِّئَةً سَدَّهَا .

اصْحَب مَن إذا حَاوَلْتَ أَمْراً أعانَك ، وَنَصَرَكَ ، وان تَنَازَعْتُمَا في شيءٍ آثَرَكَ ، فإن يَسَّرَ اللهُ لكَ بصاحبٍ مِن هَذَا الطِّرازِ فاسْتَمْسِكْ بِغَرْزِه ، قال الامامُ الشافعيُ رحمهُ اللهُ لولا القيامُ بالأسحارِ ، وصُحْبَةُ الأخيارِ ، ما أَخْتَرتُ البَقاءَ في هذِهِ الدارِ ، وقال بعضُ الأُدَبَاءِ أَفْضَلُ الذَّخَائِرِ أَخٌ صاحبُ وفاءٍ وقال بعضُ الشعراء :

(هُمُومُ رِجَالٍ في أُمُوْرٍ كَثِيرَةٍ
وَهَمِيْ مِن الدُّنْيَا صَدِيْقٌ مُسَاعِدُ)

(نَكُونُ كَرُوْحٍ بَيْنَ جِسْمَيْنِ قُسِّمَتْ
فَجِسْمَاهُمَا جِسْمَانِ والرُوْحُ وَاحِدُ)

ورُوِيَ عن النبي صلى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ أنه قَالَ عليكمْ باخوانِ الصِدْقِ فإنهم زِينةٌ في الرَّخاءِ وعِصْمةٌ في البَلاءِ .

فإذا عَزَمَ الانسانُ على اصْطِفَاءِ الاخوانِ سَبَرَ أَحْوالَهم قبلَ إخَائِهِمْ وكَشَفَ عن أَخْلاقِهم قَبْلَ اصطفائِهم قال بعضُهُمْ :

أَبْلِ الرِّجَالَ إذا أَرَدْتَ إخاءَهُمْ
وَتُوَسَّمَنْ أُمُورَهم وَتَفَقَّدِ
فإذا ظَفِرْتَ بِذِي الأَمَانَةِ والتّقى
فِبِهِ اليَدَينِ قَرِيْرَ عَيْنٍ فأشْدُدِ

ولا تَبْعَثُهُ الوَحدَةُ على الاقدامِ قبلَ الخِبْرَةِ ، ولا حُسْنُ الظنِ على الاغترارِ بالتَّصَنُعِ .

فان التَّملقَ الذي هُو القَولُ الحَسَنُ مَعَ خُبْثِ القَلْبِ ، مَصَائِدُ العُقولِ ، والنِّفَاقُ تَدْلِيْسُ الفِطَنِ ، والمَلْقُ والنِّفَاقُ سَجِيتَا المُتَصَنِّعِ ، وليسَ فِيْمَنْ يَكونُ النِفَاقُ والمَلْقُ سَجَاياهُ خيرٌ يُرْجَى ، ولاصلاحٌ يؤمَّلُ بَلِ الشَّرُ والأَذَى فيهِ ، فلْيَكُنْ اللَّبِيْبُ فَطِناً حاذِقاً ، صاحبَ فِرَاسَةٍ لا يُحْسِنُ الظنَّ بكُلِّ أحدٍ .

وقالتِ الحُكَمَاءُ إعْرِفْ الرجُلَ مِن فِعْلِهِ ، لا مِنْ كَلاَمِهِ، وأعْرِفْ مَحَبَّتَهُ مِن عَيْنَيْهِ ، لا مِنْ لِسَانِهِ ، وَعَلَيكَ بِمَنْ حَالاَهُ في العُسْرِ ، واليُسْرِ واحِدةٌ أَيْ يُحبُّكَ كلَّ حِيْنٍ ، سَواءً كُنتَ غَنِياً أَو فَقِيْراً أَمَّا إخوانُ الرخاءِ

فاترُكْهُمْ ، قالَ بعضهم :

ولا خَيْرَ في ودّ مْرىءٍ مُتَلَوّنٍ
إذا الرِّيْحُ مَالَتْ مَالَ حَيْثُ تَمِيْلُ
جَوَادٌ إذ اسْتَغْنَيْتَ عن أَخْذِ مَالِهِ
وعِندَ احْتِمَالِ الفَقْرِ عنْكَ بَخِيْلُ
فَمَا أَكْثَرَ الإخوانِ حِيْنَ تَعدُّهُمْ
وَلَكِنَّهمْ في النَّائِبَاتِ قَلِيْلُ

على أَنَّ الإنسانَ مَوْسُومٌ بِسِمَاتِ مَن قارَبَ ، وَمَنْسُوبٌ إليه أفاعِيلُ مَن صَاحَبَ ، قَالَ صلى اللهُ عليه وسلم (المرءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ . وقَالوا ما مِنْ شيءٍ أَدَلُّ على شيءٍ مِنَ الصاحبِ على صَاحِبِهِ وقديماً قيل :

عَنِ المَرْءِ لا تَسْأَلْ وَسَلْ عَنْ قَرِيْنِهِ
فَكُلُّ قَرِيْنٍ بالمُقَارِنِ يَقْتَدِي
آخر : إذا كُنْتَ في قَومٍ فَصَاحِبْ خِيَارَهُمْ
ولا تَصْحَب الأَرْدَى فتَرْدَى مَعَ الرَّدِي
آخر : إذا قَرَّبَ السُلطانُ أَخْيارَ قَوْمِهِ
واعْرَضَ عن أشرارِهِمْ فَهُوَ صالِحُ
وإنْ قَرَّبُ السُلطانُ أَشْرَارَ قَوْمِهِ
واعْرَضَ عن أَخْيَارِهِم فَهُوَ طَالِحُ
وكُلُ امْرىءٍ يُنْبِيْكَ عَنْهُ قَرِيْنُهُ
وذلكَ أَمْرٌ في البَرِيَّةِ وَاضِحُ

والله أَعْلمُ وصلى اللهُ على محمد وآله وسَلم .

(فَصْـلٌ)

والمُؤآخاةُ في النَّاسِ عَلى وَجْهَينِ أحدُهُمَا أُخُوَّةٌ مُكْتَسَبةٌ بالاتفاقِ الجارِي مَجْرَى الاضْطِرَارِ ، والثانيةُ مُكْتَسَبةٌ بالقَصْدِ والاختِيَارِ ، فأمَّا المُكْتَسَبَةُ بالاتّفَاقِ فَهِيَ أَوْكَدُ حَالاً ، لِأَنَّهَا تَنْعَقِدُ عَنْ أَسبابٍ مَوْجُودَةٍ في المُتَاخيينِ ، تَعُودُ المؤآخاةُ إلى تِلكَ الأَسْبابِ ، وهي مَوْجُودَةٌ فِطْرَةً .

فالموآخاةُ ضَرُوْرِيَّةٌ لا يُمْكِنُ دَفْعُهَا ، كَمَا لا يُمْكِنُ دفعُ الإيلام ، والمُكْتَسَبَةُ بالقَصْدِ ، تُعقَدُ لها أَسْبابٌ اختياريَّةٌ ، تَنْقَادُ إليها ، وَتَعْتَمِدُ عَلِيها بِحَسَبِ قُوَّتِهَا وَضَعْفِهَا ، وربَّما تَكُون تكلُّفاً وَخَدِيْعَةً ، فَتَصِيرُ المؤآخاةُ معاداة ، وما كان جارياً بالطَّبْعِ فهو أَلْزَمُ ، مِمَّا هُوَ حَادِثٌ بالقَصْدِ .

وانَّمَا كانَ كذلكَ لأَنَّ الائتلافَ بالتشاكُلِ ، والتَّوافُقِ ، والتَّشاكُلُ بالتَّجَانُسِ فإذا عُدِمَ التجانسُ مِن وَجْهٍ ، انْتَفى التشاكُلُ مِن وَجْهٍ وَمَعَ انتفاءِ التشاكلِ يُعْدَمُ الائتلافُ فَثَبَتَ أَنَّ التَّجَانُسَ ، وإِنْ تَنَوَّعَ أَصْلُ الإِخَاءِ وقاعِدَةُ الإِئتلافِ .

وقد رُوِيَ عن عَائِشةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالتْ سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلمَ يقولُ « الأَرْواحُ جنودٌ مجندةٌ فَمَا تَعَارفَ منها ائْتَلَفَ وما تَناكَرَ مِنهَا اختَلَفَ » رواه البخاري ، فالظواهرُ التي تَبْدُو لَنَا وَنَرَاها في الاجْتِمَاعاتِ العامَّةِ ، مَيْلُ كُلُّ امرىءٍ إلى مَنْ يُشَاكِلُهُ وَيُنَاسِبُهُ ، رُوْحاً وَخُلُقاً ، أَوْ دِيْناً ، وَأَدباً أَوْ مَبْدأً أو مَذْهَباً أَوْ حِرْفَةً وَعَمَلاً .

فَتَرَى المُجْتَمِعِيْنَ بَعْدَ مُدَّةٍ وَجِيْزَةٍ مِن بَدْءِ الاجتماعِ ، قَدْ انْقَسَمُوا جَمَاعاتٍ ، تَتَحَدَّثُ كل جماعةٍ في شُؤُونِها الخَاصَةِ ، وأُمُورِهَا المُشْتَرَكةِ ، وَتَتَغَيَّرُ نُفُوْسُها إذا رَأَتْ دَخِيْلاً بَيْنَ جَمَاعَاتِهَا لا تَرْبِطُهُ بِهِمْ صِلَةٌ ، ولا تَجْمَعُهُم بِهِ جَامِعَةٌ ، وَعِنْدَمَا تَرْكَبُ في قطارٍ ، أو سيارةٍ أو سَفِيْنَةٍ أو في مجلسٍ مِن المجالسِ ، تَرى نَفْسَكَ مُنْجَذِبَةً إلى بَعْضِ الحاضِرِيْنَ مُشَمِئِزَةً ونافِرةً مِن الآخَرِيْن ، ورُبَّمَا أَنَّهُ لم يَكُنْ قَبْلَ ذلكَ اجْتِمَاعٌ ولا تَعَارُفٌ ، ولا تَعَادٍ وتَخَاصُمٌ .

فالسِّرُ في هَذَا ما بَيَّنَهُ المصطَفى صلَّى اللهُ عليهِ وسلمَ بهذا الحديثِ فهُو يَقُولُ إنَّ أَرْوَاحَ العِبَادِ وَنُفُوسَهمُ جُنُودُ مُجْتَمِعَةٌ ، وجُيُوشٌ مُجَيَّشَةٌ فالتي بيْنَها تَعارفٌ وتَشَاكلٌ وتوافُقٌ وَتَنَاسُبٌ ، يَأْلفُ بعضُها بعْضاً ، ويُسَرُّ باجتماعِهِ ، وَيَفْرَحُ لِلِقَائِهِ ، لاتِّفَاقٍ في المَبْدإِ وَتَقَارُبٍ في الرُوْحِ .

رَوَى أبو يعلى في مُسندِهِ عن عَمْرَةَ بنتِ عبدِ الرحمنِ قالَتْ كانَتْ امرأةٌ بمكةَ مَزَّاحَةٌ ، فَنَزَلَتْ على امرأَةٍ مِثْلِها في المدينةِ ، فَبَلَغَ ذلك عائشةَ رضي اللهُ عنها فقالتْ صَدَقَ حِبِّي سَمِعْتُ رسولَ الله صلَّى اللهُ عليهِ وسلم يقولُ الأَرْواحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ ، فَمَا تعارفَ منها ائتلفَ ، وما تناكَرَ منها اختلفَ .

فالأَخْيارُ الأَبرارُ الأَتْقِيَاءُ الأَمْجَادُ الأَطهارُ ، إذا وُجِدُوا في مُجْتَمَع جَذَبُوا أَشبَاهَهَم ، أَوْ انْجَذَبُوا إِلَيْهِم ، وَسَرَى بَيْنَهُم تَيارٌ مِن المحبةِ جَمَعَ قُلُوبَهم وَقَوَّى رَوَابِطَهَا وَثَبَّتَ صِلَتَهَا .

وكَذَلِكَ الأَشْرَارُ والفُجَّارُ والفَسَقَةُ والظَلَمَةُ ، إذا حَضَرُوْا بِنادٍ بادَرَ

إليهم الفَسَقَةُ ، والمُجْرِمُونَ ، والسُّفَّلُ ، واللؤَمَاءُ ، وَجَذبَهُمْ قُرنَاؤُهُم ، وَنَفَرُوْا مِمَنْ لاَ يَتَخَلَّقُ بأَخلاقِهِمْ ، ولا يَسِيْرُ في رِكابِهم .

قالَ صلَّى اللهُ عليه وسلَمَ « لو أَنَّ مؤمناً دَخَلَ إلى مَجْلِسٍ فيهِ مائةُ مُنَافِقٍ ، وَمُؤْمِنٌ وَاحِدٌ ، لَجَاءَ حَتَّى يَجْلِسَ إليه ، وَلَوْ أَنَّ مُنَافقاً دَخَلَ إلى مجلسٍ فيه مَائةُ مُؤْمِنٍ ، ومنافِقٌ واحدٌ ، لَجَاء حتى يَجْلِسَ إليهِ .

وهذا يدلُّ على أَنَّ شِبْهَ الشيءِ مُنْجَذِبٌ اليه بالطبْعِ ، وإن كانَ هُوَ لا يَشْعُرَ بهِ ، وكانَ مالكُ بنُ دينارٍ يقولُ « لا يَتَّفقُ إثنانِ في عِشْرةٍ إلا وفي أَحَدِهِمَا وَصْفٌ عن الآخَرِ ، وانّ أَجناسَ الناسِ كأجناسِ الطيرِ ولا يتفقُ نوعانِ مِن الطيرِ في الطيرانِ إلا وبينهُمَا مُناسَبةٌ .

قال فَرَأَى يوماً غراباً مَعَ حَمَامةٍ فَعَجِبَ مِنْ ذَلِكَ فقالَ اتَّفَقَا وَلَيْسَا مِن شَكْلٍ واحِدٍ ، ثُمَّ طَارَا فإذا هُمَا أَعْرَجانِ فَقَالَ مِنْ هَاهُنا اتَّفَقَا ، وقَالَ بَعضُ الحكماءِ كلُّ انسانٍ إلى شَكْلِهِ كَمَا أَنَّ كُلَّ طَيرٍ يَطِيْرُ مَعَ جِنْسِهِ قال بعضهم :

(لِكلِّ امرىءٍ شَكْلٌ يَقَرُ بِعَينِهِ
وقرةُ عينِ الفَسْلِ أنْ يَصْحَبَ الفَسْلاَ)

ويقول الآخر :

فَلاَ تَحْتَقِر نَفْسِي وَأَنْتَ خَلِيْلُهَا
فكلُّ امرىءٍ يَصْبُو إلى مَنْ يُشَاكِلُ

آخر :

وقُـلْتُ أَخِـي قَـالُـوا أَخٌ مِـن قَـرَابَـةٍ
فَـقُـلْتُ لَـهُـمْ إِنَّ الـشُّـكُـولَ أَقَـارِبُ
نَـسِـيْـبِـيَ فـي رَأْيٍ وعَـزْمِـي وَهِـمَّـتِـي
وإِنْ فَـرقَتْنَـا في الأُصُـوْلِ المَنَـاسِبُ

واذا عَرَفْتَ رِجَالاً بالبِرِّ والتُقى والاسْتقامة ونَفَرَتْ منْهُم نَفْسُكَ ونَبَا عنهم قلبُك ، فاعْلَمْ أنكَ مَرِيضٌ ، إمَّا مَرَضُ شُبْهَةٍ وإلا مَرَضُ شَهْوةٍ ، وأنَّك نَاقِصٌ مَعِيبٌ ، دُوْنَهُمْ في الطهَارةِ ، فَدَاوِ نفسَك مِن عُيوبِها ، وَطَهِّرْهَا مِن أَوْزَارِهَا حَتَّى تَتَقَارَبَ الأَرْوَاحُ وَتَتَشَاكلَ النُفوسُ ، فَتَحُلَّ الإِلْفَةُ مَحَلَّ النُّفْرَةِ .

وإذا رَأَيْتَ نَفْسَكَ تَمِيْلُ إلى مَنْ تَعْرِفُهُمْ بالشَّر والفُجُورِ ، والفِسْق والخَلاَعَةِ والعُهْرِ فإتْهِمْ نَفْسَكَ واسْتَدْرِكْ عُمرَكَ ، قَبْلَ الفَوْتِ ، وابْتَعِدْ عنهم كُلَّ البُعْدِ ، وتُبْ إلى اللهِ واسأَلْهُ أَنْ يُعافِيَكَ ، مِمَّا ابْتَلاهُمْ .

وإذا رَأَيْتَ نَفْسَكَ تُحَدِّثُكَ بأَنَّكَ البَرُ الأَمِيْنُ التَّقِيُّ المُخْلَصُ أو الإنسانُ المُهَذَّبُ ، فَكَذِّبْ نَفْسَكَ في هذا الإعْجَابِ ، وفي هذا الوَهْم الكاذِبِ ، وأعْتَقِدْ أَنكَ غِرٌّ مَخْدُوعٌ ، وأَبْلَهٌ مَفْتُونٌ ، فَفَتِشْ في زَوَايَا قَلْبِكَ ، تَجِدْ لِلْبَاطِلِ رُكْناً ، وَلِلشَّيْطانِ حَظاً ، وَلِلْفَسَادِ جَوّاً وهذَا مَا جَذَبَ قَلْبَكَ إلى الأشْرَارِ .

واذا رَأَيْتَكَ تَمِيْلُ إلى الأخيارِ ، وَتُحِبُ مَجَالِسَهُمْ ، وَتَنْجَذِبُ نَفْسُكَ إلَيْهِمْ ، مَعَ عِلْمِكَ بِسُوْءِ سِيْرَتِكَ واعْوجَاجِ طَرِيْقَتِكَ ، فاعْلَمْ أَنَّ فِيْكَ

بَقِيَّةَ خَيْرٍ ، ولا يَزَالُ فِيْكَ أَملٌ فَرَبِّ هذهِ البَقيَّةَ وَقَوِّ هَذَا الأَمَلَ ، حتى يَرْحَلَ عنكَ الشَّرُ ، وَتَدْخُلَ في حِزْبِ الخيرِ .

وكذلكَ إذا رَأَيتَ في نَفْسِكَ بَعْضَ المَيْلِ للمُجرمِيْنَ ، وَأَنْتَ طَاهِرٌ تَقِيٌ نَقِيٌ ، فاعْرِفْ أَنَّ الشَّيطانَ قَدْ نَفَثَ فِيْكَ نَفْثَةً ، وثَغَرَ في قَلْبِكَ ثَغْرَةً ، فَتَدَارَكْ أَمْرَكَ وتَحصَّن منه واسْتَعِذْ باللهِ قال اللهُ تعالى لِنبيهِ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ ﴿ وإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فاستعِذْ باللهِ ﴾ الآية ، وقالَ ﴿ قُلْ أَعُوْذُ بِرَبِّ الفَلَقِ ﴾ الى آخرِ السورةِ أهـ من الادَبِ النبوي .

وعن أَبِي ذَرٍّ أَنَّهُ قَالَ : الصَّاحِبُ ، الْخَيِّرُ خَيْرٌ مِنَ الوَحدةِ والوَحْدَةُ خيرٌ من جَلِيس السُّوءِ وَمُمْلِي الخَيرَ خيرٌ مِن الساكِتِ والسَّاكِتُ خيرٌ مِن مُمْلِي الشَّرِّ والله أعلم وصلى الله على محمد وآله وسلم .

(فَصْــلٌ)

قال بعضُ الحُكَمَاءِ عَداوةُ العاقل أَقلُّ ضَرراً مِن مَودَّةِ الأَحْمَقِ لأَنَّ الأَحْمَقِ رُبَّمَا ضَرَّ وهو يَقْدِرُ أَنْ يَنْفَعَ لِعَدَمِ تَمْيِيْزِهِ بَيْنَ النفعِ والضَّرِ فَيَتَجاوَزُ الحدَّ ، والعَاقِلُ لا يَتَجاوَزُ الحَدَّ في مَضَرَّتِهِ فَمَضَرَّتُهُ لَها حَدٌ يَقِفُ عليهِ العَقْلُ إذا انْتَهَى إلى ذلكَ الحدِّ .

وَمَضرةُ الجَاهِلِ لَيْسَتْ بِذَاتِ حَدٍّ والمَحْدُوْدُ أَقلُّ ضَرراً مِمَّا هُوَ غيرُ مَحْدُوْدٍ قَالَ بعضهم :

ولأَنْ يُعَــادِيَ عَـاقِــلاً خَيرٌ لَــهُ
مِـن أَنْ يَكُـونَ لَــهُ صَــدِيْـقٌ أَحْـمَـقُ

فـارْغَبْ بِنَفْسِـكَ أنْ تُصَـادِقَ جَـاهِـلاً
إنَّ الـصَّـدِيْقَ عـلى الصَّـدِيْـقِ مُصَـدَّقُ

وقال بعضُ الأُدَبَاءِ مَن أشارَ عليكَ بِمُصَاحبةِ جَاهِلٍ لَمْ يَخْلُ مِنْ أَمْرَيْن إمَّا أَنْ يكونَ صَدِيقاً جاهلاً ، مَا يَعْرِفُ ولا يُمَيِّزُ بَيْنَ مَن يَصلحُ لِلصُحْبَةِ وَمَنْ لا يَصْلُحُ وإمَّا أنْ يكونَ هذا المُشِيرُ عليكَ عدواً لكنَّهُ عاقلٌ لِأنه يُشِيْرُ بما يَضُرّكَ وَيَحْتَالُ عليكَ بالأشياءِ الّتي تَضُرَّكَ ، وقديماً قيل :

ولا تَصْحَبِ الحَمْقَى فَذَو الجَهْلِ إنْ يَرُمْ
صـلاحـاً لأمْـرٍ يَـا أخَـا الحَـزْمِ يُفْسِـدِ

ويقول الآخر :

فَـعَـدَاوَةُ مِـنْ عـاقـلٍ مُـتَـجَـمِّـلٍ
أَوْلـى وأَسْـلَمُ مِـن صَـدَاقَـةِ أَحْـمَـق

وقال بعضُهمْ الأَصْدِقَاءُ ثلاثةُ أَحدُّهم كالغذَاءِ لا بُدَّ مِنْهُ ، والثاني كالدَّواءِ يُحتاجُ إليهِ في وَقْتٍ دُوْنَ وَقْتٍ . والثالثُ كالدّاءِ لا يُحْتَاجُ إليهِ قَطّ ، وقد قِيلَ مَثَلُ جُمْلَةِ الناسِ كَمَثَلِ الشَّجَرِ والنَّبَاتِ فمِنْها مالَهُ ظلٌّ وَلَيْسَ له ثَمَرٌ وهو مِثْل الذي يُنْتَفعُ به في الدُّنيا دُوْنَ الآخِرَةِ ، فإنَّ نَفْعَ الدنيا كالظلِ السَّرِيعِ الزَّوَالِ وَمِنْهَا مَالَهُ ثَمَرٌ وليْسَ له ظلٌّ .

وَمِنْهَا ما لَيْسَ له واحدٌ منهُمَا كأُمِّ غَيْلان تُمزّقُ الثيابَ ولا طَعْمَ فيها ولا شَرَابٍ ومثلهُ مِنَ الحَيَوانِ الحيةُ والْعَقْرَبُ والفَأْرُ ومثلهُ في النَّباتِ الخُنَيْزُ فإنه يُضَيّقُ على الزَّرْعِ وَيَضُر مَنْ لَمِسَهُ ولا يُؤْكلُ ولا لَهُ ثَمَرٌ يؤكلُ وَيَشْرَبُ ماءَ الزّرْعِ وَيُعَوّقُ نُمو الزَّرْعِ .

شعراً :

النَّاسُ شَتَّى إِذَا مَا أَنْتَ ذُقْتَهُمُ
لَا يَسْتَوُوْنَ كَمَا لَا يَسْتَوِي الشَّجَرُ
هَذَا لَهُ ثَمَرٌ حُلْوٌ مَذَاقَتُهُ
وذاكَ لَيْسَ لَهُ طَعْمٌ ولا ثَمَرُ

اذا فَهِمْتَ تفاوتَ النَّاسِ في العَقْلِ والدِّيْنِ فعليكَ قَبْلَ الصَّدَاقَةِ أَنْ تَفْحَصَ عَنْ مَنْ تُرِيْدُ صَدَاقَتَهُ وإِخَاءَه فإِذَا حَصَلْتَ على مَنْ تَرْضَاهُ ديناً وَعَقْلاً وأَدباً فألزَمْهُ ، كَمَا قِيل :

ابْلُ الرِّجَال إِذا أَرَدْتَ إِخَاءَهُمْ
وَتَوَسَّمَنْ أُمُورَهُمْ وَتَفَقَّدِ
فَإِذَا ظَفِرْتَ بِذِي الأَمَانَةِ والتُّقَى
فَبِهِ اليَدَيْنِ قَرِيْرَ عينٍ فَاشْدُدِ

موعظة

عِبَادَ اللهِ لا شَيء أَغْلى عَليكُمْ مِن أَعمارِكُمْ وَأَنْتُم تُضَيِّعُونَهَا فيما لا فَائِدَةَ فيه . وَلَا عَدُوَّ أعدَى لَكُمْ مِنْ إِبْلِيْسَ وَأَنْتُمْ تُطِيْعُونَهُ ، ولا أَضَرَّ عَليكُمْ مِن مُوافَقَةِ النَّفْسِ الامَّارَةِ بالسُّوءِ وأَنْتُم تُصَادِقُونَهَا ، لَقَدْ مَضى مِن أعمارِكُمْ الاطَايِبُ ، فما بَقِيَ بعد شَيْبِ الذوائِبِ .

يا حاضِرَ الجسم والقلبُ غائبُ ، اجتماعُ العَيْبِ مَعَ الشَّيبِ مِن أعظَم المَصَائِب ، يَمْضِي زَمَنُ الصِّبَا في لَعِبٍ وسَهْوٍ وَغَفْلَةٍ ، يا لَهَا مِن مَصَائِب ، كَفَى زاجراً واعظاً تشيْبُ منه الذَوَائِب ، يا غافلاً فاتَه الأَرْبَاحُ

وَأَفْضَلُ المَنَاقِبِ ، أَيْنَ البُكاءُ والحَزَنُ والقلقُ لِخَوفِ العظيمِ الطالبِ أَيْنَ الزَّمَانُ الذي فَرَّطْتَ فيهِ ولَمْ تخشَ العَواقِبَ ، أَيْنَ البُكَاء دَماً عَلى أَوقَات قُتِلَتْ عندَ التَّلَفِزْيُون والمِذياعِ والكُرَةِ والسِيْنَماءِ والفيديُوْ والخَمْرِ والدُّخَانِ والمَلاعِبْ .

كَمْ في يومِ الحَسْرةِ والنّدامَةِ مِن دَمْعٍ سَاكِبْ على ذُنُوبٍ قَد حَوَاها كِتابُ الكَاتِبْ ، مَنْ لَكَ يَومَ يَنْكَشِفُ عَنْكَ غِطَاؤكَ في مَوقِفِ المُحَاسِبْ ، إذا قيلَ لَكَ مَا صَنَعْتَ في كُلِّ وَاجِبْ ، كَيْفَ تَرْجُو النجاةَ وأنتَ تَلْهُوْ بِأسِرِ المَلاعِبْ ، لقد ضَيَّعتكَ الأمَاني بالظن الكاذِب ، أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ الموتَ صَعْبٌ شَدِيْدُ المَشَارِبْ ، يُلْقِي شَرَّهُ بكأسِ صُدُوْرِ الكَتائِبْ ، وأنَّهُ لا مَفَرَّ مِنْهُ لِهَارِبْ فانظرْ لِنَفْسِكَ واتَّقِ اللهَ أَنْ تَبْقَى سَلِيْماً مِن النَّوائِبِ فقدْ بَنَيْتَ كَنَسجِ العنكبوتِ بَيْتاً أَيْنَ الذينَ عَلَوا فوقَ السُّفنِ والمراكبِ أينَ الذينَ عَلَوْ على مُتونِ النجائِبِ ، هَجَمت عليهِمْ المنايَا فأصبحوا تَحْتَ النصَائِبْ وأنتَ في أَثَرِهِمْ عن قريبٍ عَاطِب ، فانظرْ وَتَفَكَّرْ واعْتَبِرْ وَتَدَبَّرْ قبلَ هُجُومِ مَن لا يَمنعُ عنه حَرَسٌ ولا بابٌ ولا يَفوتُهُ هَرَبُ هارِب .

شعراً :

وكيفَ قَرَّتْ لِأَهْلِ العِلم أَعْيُنُهُمْ
أَوْ اسْتَلَذّوْا لَذيذَ النَومِ أو هَجَعَوا
والموتُ يُنذِرُهُمْ جَهْراً عَلانيةً
لَوْ كانَ لِلقومِ أَسْمَاعٌ لَقد سَمِعُوا

والنـارُ ضـاحِيَـةٌ لا بُـدَّ مَـوْرِدُهُـمْ
وليسَ يَـدْرُونَ مَن يَنْجُـو وَمَنْ يَقَـعُ
قَـدْ أَمْسَتْ الـطيـرُ والأنعـامُ آمِنـةً
والنّـونُ في البَحرِ لا يُخْشَى لهَـا فَزَعُ
والآدَمِـيُ بـهـذَا الـكَسْبِ مُـرْتَـهَـنٌ
لـه رَقـيـبٌ عـلى الأَسْـرارِ يَـطَّلِعُ
حَتَّى يُـرَى فِيـه يـومَ الجَمْـعِ مُنْفَـرِداً
وَخَصْمُـهُ الجِلْدُ والأَبْصَـارُ والسَّـمَـعُ
واذْ يَـقـومُـونَ والأشـهـادُ قـائِـمـةٌ
والجنُّ والإنسُ والأملاكُ قـد خَشعُـوا
وطـارتْ الصُّحْفُ في الأَيْـدِي مُنْشّـرَةً
فـيهـا الـسَّـرائـرُ والأخْـبَـارُ تُـطَّلَعُ
فـكيـفَ بـالنّـاسِ والأنـبـاءُ واقـعَـةٌ
عَمَّـا قَلِيـلٍ وَمَـا تَـدْرِي بِمَـا تَقَـعُ
أَفِي الجِنَـانِ وَفَـوزٍ لا انقـطاعَ لَـهُ
أمْ في الجَحِيمِ فـلا تُبْقِي ولا تَـدَعُ
تَهْـوِيْ بُسُكَّـانِهَـا طَـوْراً وَتَـرْفُعُهُـمْ
إذا رَجَـوْا مَخْـرَجـاً مِنْ غَمّهَـا قُمِعُـوا
طَـالَ البُكـاءُ فَلَم يَنْفَـعْ تَضـرُّعُـهُم
هَـيْهَـاتَ لا رِقّـةٌ تُـغْنِي ولَا جَـزَعُ

اللهم ثَبِّتْ مَحَبَّتَكَ في قُلُوبِنَا وَقَوِّهَا وَنَوِّرْ قُلُوبَنَا بِنُور الإيمانِ واجعلنا

هُدَاةً مُهْتَدِيْن وآتِنا في الدُّنيا حَسَنةً وفي الآخِرَةِ حَسَنَةً وقِنَا عذَابَ النارِ واغْفِرْ لَنَا ولوالدينا وَلِجَمِيْعِ المُسْلِمِينَ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وَصَلَّى اللهُ على محمدٍ وعلى آلِهِ وصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

(فَصْـلٌ)

وقالَ ابنُ القَيّم أَصْلُ الخَيرِ والشَّرِ مِن قبلِ الفِكْرِ ، فَإِنَّ الفكرَ مَبْدأُ الإِرادَةِ والطَّلَبِ في الزُهْدِ ، والتّرْكِ ، والحُبِ والبُغضِ وَأَنْفَعُ الفِكْرِ في مَصَالِحِ المَعَادِ وفي طُرُقِ اجتلابهَا ، وفي دَفْعِ مَفَاسِدِ المعادِ وفي طُرُقِ اجْتِنَابِهَا ، فَهَذِهِ أربعةُ أفكارٍ ، هِي أَجَلُّ الأَفكارِ ، وَيَليها أربعةٌ ، فِكرٌ في مَصَالِحِ الدّنيا وَطُرُقِ تَحصيلِها وفكْرٌ في مَفَاسِدِ الدنيا وطرق الاحْتِرَازِ منها فَعَلى هذِهِ الأقسامِ الثّمانيةِ دارت أفكارُ العُقلاءِ .

وَرَأْسُ القِسْمِ الأولِ ، الفِكْرُ في آلاءِ اللهِ وَنِعَمِهِ وأَمْرِه وَنَهْيِهِ وَطُرُقِ العِلْمِ بِهِ ، وبأَسْمَائِهِ وصِفَاتِهِ مِن كتَابِهِ وَسُنّةِ نَبِيّهِ صلى اللهُ عليهِ وسلم وَمَا وَالاَهُمَا ، وَهَذَا الفِكْرُ يُثْمِرُ لِصَاحِبِهِ المَحَبَّةَ ، والمَعْرِفَةَ ، فإِذَا فَكَّرَ في الآخرةِ وَشَرَفِهَا ، وَدَوامِهَا وفي الدنيا وَخِسَّتِهَا وفَنَائِها أثمَرَ لَه ذلكَ الرَّغْبَةَ في الآخرةِ والزهْدَ في الدنيا .

وكلَّمَا فكَّرَ في قِصَرِ الأَمَلِ . وضِيْقِ الوَقْتِ ، أَوْرَثَه ذلك الجِدَّ والاجْتِهَادَ ، وَبَذْلَ الوُسْعِ في اغتنامِ الوَقْتِ .

وهذه الأفكارُ تَعْلِي هِمتَه ، وَتُحْيِيْهَا بَعْدَ مَوتِهَا وَسُفُولِهَا وَتَجْعَلَهُ في وادٍ والناسُ في وادٍ .

وبإِزَاءِ هذِه الأَفْكارِ الرَّدِيْئَةِ ، الّتِي تَجُولُ في قُلُوبِ أَكْثَـرِ هذا

الخَلْقِ ، كالفِكْرِ فِيما يُكلِّفُ الفِكْرُ فِيه ، ولا أُعْطِيَ الاحاطَةَ بِهِ مِن فُضُولِ العِلْمِ الذي لا يَنْفَعُ ، كالفِكْرِ في كَيفيةِ ذاتِ اللهِ وصفاتِهِ مما لا سَبِيْلَ لِلْعُقولِ إلى إدْرَاكِهِ بِهِ .

ومنها الفِكرُ في الصِّناعاتِ الدّقِيْقَةِ التي لا تَنْفَعُ بل تَضُرُّ ، كالفِكْرِ في الشِّطْرَنْجِ والمُوْسِيْقَى وَأنواعِ الأشْكالِ ، والتَّصاوِيْرِ .

ومِنْهَا الفِكْرُ في العُلُومِ التي لَوْ كَانَتْ صَحِيْحَةً لَمْ يُعْطِي الفِكرُ فيهَا النَّفْسَ كَمالاً ولا شَرَفاً كالفِكْرِ في دَقَائِقِ المَنْطِق ، والعِلْمِ الرِّياضِي ، والطَّبِيْعِي ، وأكْثرِ علوم الفلاسِفَةِ التي لَو بَلغَ الانسانُ غايتَهَا لَمْ يَكْمُلْ بِذَلِكَ ، ولم يُزَكِّ نَفْسَهُ .

ومنها الفكر في الشَّهَواتِ ، واللّذاتِ وطُرُقِ تَحصيلَهَا ، وهَذَا وإنْ كانَ للنَّفْسِ فيهِ لذةٌ لكِنْ لا عاقِبَة له ومضَرَّتُه في عَاقِبةِ الدُّنْيَا قَبْلَ الآخِرَةِ أَضْعَافُ مَسَرَّتِهِ .

ومنها الفِكْرُ فِيْمَا لَمْ يَكُنْ لو كانَ كَيْفَ كَانَ كالفِكْرِ فِيْمَا إذا صَارَ مَلِكاً أَوْ وَجَدَ كَنْزاً أو مَلَكَ ضَيْعَةً مَاذَا يَصْنَعُ وَكَيْفَ يَتَصَرَّفُ ، وَيَأْخذُ وَيُعْطِي وَيَنْتَقِمُ ونحوَ ذلكَ مِن أَفْكارِ السِّفْلِ .

ومنها الفِكْرُ في جُزْئياتِ أحوالِ النّاسِ ، وَمَاجِرِيَّاتِهِمْ ، وَمَدَاخِلِهِمْ وَمَخَارِجِهِمْ ، وَتَوَابِعِ ذَلِكَ مِن فكر النُّفُوسِ المُبْطِلَةِ الفَارِغَةِ ، مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ والدَارِ الآخرةِ .

ومنها الفِكرُ في دَقَائِقِ الحِيَلِ ، والمَكْرِ ، التّي يَتوصَّلَ بِهَا إلى أَغْرَاضِهِ وَهَوَاهُ مُبَاحَةً كانَتْ أو مُحَرَّمةً .

وَمِنْهَا الفكْرُ في أَنْواعِ الشِّعْرِ ، وصُروفِهِ وَأَفَانِيْنِه في المدْحِ والهِجَاءِ والغَزَلِ والمَراثِي وَنَحْوِهَا ، فإنَّه يَشْغَلُ الإنْسَانَ عن الفِكْرِ فِيْمَا فِيْهِ سَعَادَتُهُ وَحَيَاتهُ الدَّائِمَةُ .

ومنهَا الفكرُ في المُقَدَّرَاتِ الذِّهْنِيَةِ ، الْتي لا وُجُودَ لَهَا في الخارِجِ ولا بالنّاسِ حاجةٌ إليها البتَةَ ، وذلك موجودٌ في كُلّ علمٍ حَتَّى في عِلْمِ الفِقْهِ والأُصُولِ والطّبِّ ، فكلُّ هذهِ الأفكارِ مَضَرَّتُها أَرْجَحُ مِن مَنْفَعَتِهَا وَيَكْفِي في مَضَرَّتِهَا شُغْلُها عن الفِكْرِ فيما هُوَ أَوْلَى بِهِ ، وأعودُ عَليهِ بالنفعِ عاجلاً وآجلاً أهـ .

شـعراً :

يَـا غافـلاً عنْ صُروفِ الـدَّهْـرِ في سِنَـةٍ
والـدَهْـرُ يُـوقِظُ بـالآيـاتِ والـعِـبَـرِ
كَـمْ ذَا تَنَـامُ وَعَـيْنُ الـدَّهْـرِ سَـاهِـرَةٌ
لَـهُ حَـوَادِثُ فـي الـغُـدْوَاتِ والـبُـكَـرِ
لا تَـأْمن الـدَّهْـرَ وأحـذَرْ مِن تَـقَلُّبِـهِ
فَشِيْمَـةُ الـدَّهْـرِ شَـوْبُ الصَّفْـوِ بـالكَـدَرِ
وارغَبْ بِنَفْسِـكَ عَمَّـا سَـوفَ تُـدْرِكُـه
فِعْـلَ اللبِيْبِ أخِـي التَّـحْقِيقِ والـنَّـظَرِ
مـاذَا يَـغـرُّكَ مِـن دارِ الـفَـنَـاءِ ومِـنْ
عُمْـرٍ يَمُـرُّ كَمِثْـلِ اللَّمْـحِ بـالبَصَـرِ
فـامْهَـدْ لِنَفْسِـكَ فـالسـاعـاتُ فَـانِيَـةٌ
والـعُمْـرُ مُـنْتَقَصٌ والمَـوْتُ فـي الأَثَـرِ

اللهم أَعِذْنَا مِن الهَمِّ والحَزَنِ والعَجْزِ والكَسَلِ والجُبْنِ والبُخْلِ وصِلَعِ الدَّيْنِ وَغَلَبَةِ الرِّجَالِ واغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا ، ولِجَمِيْعِ المُسْلِمِيْنَ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمين وصَلَّى الله على محمدٍ وعلى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

(فَصْـــلٌ)

اعلم وفقنَا اللهُ واياكَ وَجميعَ المُسلمينَ أَنَّ الحُبَّ في اللَّهِ والبُغْضَ في الله ، أَصْلٌ عَظِيْمٌ مِن أُصُولِ الإِيْمَانِ يَجِبُ مُرَاعَاتُه ولهذا جَاءَ في الحَدِيثِ (أَوْثَقُ عُرَى الإِيْمَان الحُبُّ في الله والبُغْضُ في الله) ، وأَكْثَرَ اللهُ مِن ذِكْرِهِ في القرآنِ قالَ الله تعالى ﴿ لَا يَتَّخِذِ المُؤْمِنُونَ الكَافِرِيْنَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُوْنِ المُؤْمِنِيْنَ ﴾ .

فالمعنَى أَنَّ لَكم أَيُّهَا المؤمِنُونَ في مُوَالاتِ المُؤْمِنينَ مَنْدُوْحَةً عن مُوالاتِ الكفَّارِ ، فَلا تُؤْثِر وهُمْ عليهمْ ، وقولُهُ ﴿ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ في شَيءٍ ﴾ المعنى وَمَنْ يَتولَّاهُمْ فهو بَرِيءٌ مِن اللهِ واللهُ بَرِيءٌ منه كقولِهِ تَعَالى ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّهُم مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ﴾ .

وقوله ﴿ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُم تُقَاةً ﴾ أي إلا أَنْ تَخافُوا عَلَى أَنْفسِكُمْ في إبداءِ العدَاوةِ للكافِرينَ ، فَلَكم في هَذِهِ الحال الرُّخْصةُ في المُسَالَمَةِ والمهَادَنَةِ ، ولا في التَّولِّي الذي هُوَ مَحبَّةُ القَلْبِ الذي تَتْبعُهُ النُّصْرةُ ، بلْ يكونُ القلبُ مُطْمَئِناً بالعَدَاوةِ ، والبَغْضاءِ ، يَنتظرُ زَوَالَ المَانِعِ .

وقال اللهُ تَعَالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا الا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُوْنكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبَا لأودّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتْ البَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي

صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الآياتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ، هَا أَنْتُمْ أُوْلاءِ تُحِبّونَهُم وَلاَ يُحِبّونَكُمْ وَتُؤْمنونَ بالكتاب كله واذا لَقوكم قالُوا آمنا ، واذا خَلَوا عَضُوا عليكم الأناملَ مِن الغَيظِ قلْ مُوتوا بِغَيْضِكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيْمُ بِذاتِ الصُّدورِ ، إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ، وان تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌيَفْرَحُوا بِهَا ﴾ الآية .

ففي هذهِ الآياتِ تحذِيرٌ مِنَ اللهِ لِعِبَادِهِ المؤمنينَ عَنْ وِلايةِ الكفَّارِ واتَّخاذِهِم بطانةَ أَوْ خَصِيْصةً وأَصدِقاءَ ، يُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ ، وَيُفْضُونَ لهم بأَسْرارِ المؤمنينَ ، فَوَضَّحَ لِعِبَادِهِ المؤمنينَ الأُمُورَ الْمُوْجِبَةَ لِلْبَرَاءَةِ مِنْ اتَخَاذِهِمْ بطانةً ، أَوّلاً أَنَّهُم لا يُقَصِّرُونَ في مَضَرَّةِ المؤمنين ، وإِفْسادِ الأمرِ على المؤمنينَ مَا استطاعُوا إلى ذلك سبيلاً .

ثانياً : مَحَبَّتُهم ما شَقَّ عَلى المؤمنينَ ، وَتَمَنِّيْهِمْ ضرَرَ المؤمنينَ في دُنْيَاهُمْ وَدِيْنِهِمْ .

ثالثاً : أَنَّهم يُبْدونَ العَدَاوةَ والبَغْضَاءَ في كَلامِهِمْ وفي فَلَتَاتِ أَلْسِنَتِهِمْ .

رابعاً : أَنَّ ما تُخْفِيْهِ صُدُورُهُمْ مِنَ البَغْضَاءِ والعَدَاوةِ أَكْبَرُ مِمَّا ظَهَرَ لكمُ مِنْ أَقْوالِهِمْ وَأَفْعَالِهِمْ ، ثُم ذَكَرَ نوعاً آخرَ مِن التَّحْذِيْرِ عن مُخَالَطةِ الكافِرِينَ واتَخَاذِهِمْ بِطَانةً .

وفيهِ تَنبيهٌ على خَطَئِهِمْ في ذلكَ وقدْ ضَمَّنَهُ أُموراً ثلاثاً كلٌ منها يَسْتَدْعِي الكَفَّ عن مُخَالَطةِ الكُفَّارِ ، أَوَّلاً أنكُم تُحِبونَهم ولا يُحِبونَكم ، ثانياً أَنَّكُمْ تُؤمنونَ بالكِتَابِ كُلِّهِ مَا نَزَلَ عَلى نَبِيِّكُم ومَا نَزَلَ على نَبِيِّهِمْ ،

ثالثاً أنَّهم يُدَاهِنُونَكم وَيُنَافقوْنَكمْ فإذا لَقوكُمْ قالوا آمَنَا وإذا خَلَوْا مَعَ بَنِي جِنْسِهِمْ عَضَّو عليكُم الأنامِلَ مِن الغَيظِ والبُغْضِ .

وانَّما فَعَلُوا ذَلِكَ لِمَا رَأَوْا مِن ائْتِلافِ المُسْلِمِيْنَ ، واجْتماعِ كَلِمتِهم وَصَلاحِ ذاتِ بَيْنِهِمْ ، وَنَصْرِ اللهِ إيَّاهُم ، حتى عَجِزَ أَعْداؤهُم أَنْ يَجِدوا إلى ذَلِكَ التَّشَفِّي سَبيلاً ، فاضطُرّوا إلى مُدارَاتِهم .

وقالَ تَعالى ﴿ يَا أَيُّها الْذِيْنَ آمَنوا لا تَتَّخِذُوا اليَهُودَ وَالنَّصارى أَوْلِياءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ، وَمَنْ يَتَولَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ﴾ .

وَالآياتُ هَذِهِ تُنادِي بالنَّهْيِ المُطْلقِ عن الوَلاءِ لِلْيَهُودِ وَالنَّصارَى وعن الاسْتِنْصَارِ بِهِمْ ، والرُّكُونِ إِلَيْهِم والثِّقةِ بِهِمْ ، وَبِمَودَّتِهم والاعْتِقادِ في قُدْرَتِهم على إيصَالِ خيرٍ لِلْمُسلمينَ ، أَوْ دَفْعِ أَذَى بلْ هُمْ على العَكْسِ لا يَأْلُونَ جُهْداً في دَفْعِ النَّفْعِ عَن المسلمينَ ، وإيْصَالِ الضَّرَرِ والأذَى لِلْمُسْلِمِينَ فانتبهْ يا أَخِيْ وَاحْذَرْهُمْ وَحَذِّرْ عَنْهُمْ .

قَالَ شَيْخُ الاسْلَامِ وَلِهَذَا كَانَ السَّلَفُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يَسْتَدِلّونَ بِهَذِهِ الآياتِ عَلَى تَرْكِ الاسْتِعَانَةِ بِهِمْ في الوِلاَيَاتِ ، فَرَوَى الإِمَامُ أَحْمَدَ بِاسْنَادٍ صَحِيْحٍ عَنْ أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، قَالَ قُلْتُ لِعُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، إنَّ لِي كَاتِباً نَصْرَانِياً ، قَال مَالَكَ قَاتَلَكَ اللَّهُ ، أَمَا سَمِعْتَ اللَّهَ يَقُولُ ﴿ يَا أَيُّها الَّذِيْنَ آمَنُوْا لَا تَتَّخِذُوْا اليَهُوْدَ والنَّصَارَى أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْض ﴾ أَلَا اتَّخَذْتَ حَنِيْفياً .

قَالَ قُلْتُ يَا أَمِيْرَ المُؤْمِنِيْنَ لِي كِتَابَتُهُ وَلَهُ دِيْنُهُ ، قَالَ لَا أُكْرِمُهُمْ إِذَا أَهَانَهُمْ اللَّهُ ، وَلَا أُعِزّهُمْ إِذَا أَذَلَّهُمْ اللَّهُ ، وَلَا أُدْنِيهِمْ إِذَا أَقْصَاهُمْ اللَّهُ

« بَلِّغْ يَا أَخِيْ مَنْ وَالاَهُمْ وَوَلَّاهُمْ وَوَثِقُ بِهِمْ » .

وَلِمَا دَلَّ عَلَيْهِ مَعْنَى الْكِتَابُ وَجَاءَتْ بِهِ سُنَّةُ رَسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَسُنَّةُ خُلَفَائِهِ الرَّاشِدِيْنَ ، التي أَجْمَعَ الفُقَهَاءُ عَلَيْهَا بِمُخَالَفَتِهِمْ ، وَتَرْكِ التَّشَبُّهِ بِهِمْ ، فَفِي الصَحِيْحَيْنِ عَن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَمَ إِنَّ اليَهُودَ والنَصَارَىٰ لا يَصْبَغُونَ ، فَخَالِفُوهُم أَمْرٌ بِمُخَالَفَتِهِمْ قَال .

وَقَالَ تَعَالىٰ لِنَبِيه عَلَيهِ الصَّلاةُ والسَّلَامُ ﴿ لَسْتُ مِنْهُمْ في شَيْءٍ ﴾ وذَلِكَ يَقْتَضِي تبرّؤُهُ مِنْهُمْ في جَمِيْعِ الأَشْيَاءِ ، وَإِذَا كَانَ اللهُ قَدْ بَرّأَ رَسُولَهُ صَلى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ مِنْ جَمِيْعِ أُمُورِهِمْ ، فَمَنْ كَانَ مُتَّبِعاً للرّسُولِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَوَسلَم حَقِيْقَةً كَانَ مُتَبرِئاً مِنْهُمْ ، كَتَبَرّئِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَم مِنْهُم وَمَنْ كَانَ مُوَافِقاً لَهُم كَانَ مُخَالِفاً لِرَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَم بِقَدْر مُوَافَقَتِهِ لَهُمْ .

وَقَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ : إِنَ مُشَابَهَتَهُمْ في بَعْضِ أَعْيَادِهِمْ ، تُوجِبُ سُرُورَ قُلوبِهِمْ بِمَا هُمْ عَلَيهِ مِنَ الْبَاطِل ، خُصُوصاً إِذَا كَانُوْا مَقْهُورِيْنَ ، تَحْتَ ذُلِّ الجِزْيَةِ والصَّغَارِ ، فَإِنَّهُمْ يَرُوْنَ المُسْلِمِيْنَ قَدْ صَارُوا فَرْعاً لَهم في خَصائِصِ دِينِهِم ، فإِنَّ ذَلِك يوجِبُ قَسْوَةَ قُلوبِهِمْ وَانْشِرَاح صُدُورِهِمْ وربَّمَا أَطْمَعَهم ذَلِكَ في انْتِهَازِ الفُرَصِ واسْتِذلالِ الضُّعَفَاءِ وَقَالَ رَحِمَهُ الله .

وَكُلَّمَا كَانَتْ المُشَابَهَةُ أَكْثَرَ كان التَّفَاعُلُ فِي الأَخْلَاقِ والصِّفَاتِ أَتَم حَتَّى يَؤُلَ الأَمْرُ إلى أَنْ لا يُمَيَّزَ أَحَدُهُما عَنِ الآخَرِ إلا بِالعَينَ فَقَطْ .

وَلَمَّا كَانَ بَيْنَ الإِنْسَانِ مُشَارَكَةٌ في الجِنْسِ الخَاصّ ، كَانَ التَّفَاعُلُ فِيهِ أَشَدُّ ، ثُمَّ بَيْنَهُ وبينَ سَائِرِ الحَيَوَانِ مُشَارَكَةٌ في الجِنْسِ المُتَوَسِّطِ ، فَلاَ بُدَّ مِنْ نَوعِ تَفَاعُلٍ بِقَدْرِهِ .

ثُمَّ بَيْنَه وَبَيْنَ النَّبَاتِ مُشَارَكَةٌ في الجِنْسِ البَعِيْدِ مَثَلاً ، فَلاَ بُلّ مِنْ نَوْعٍ مَا مِنَ المُفَاعَلَةِ : قَالَ وَلأَجْلِ هَذَا الأَصْلِ وَقَعَ التَّأَثُّرُ وَالتَّأثِيرُ في بَنِي آدَمَ ، وَاكْتِسَابِ بَعْضِهِمْ أَخْلاقَ بَعْضٍ بالمُشَارَكَةِ ، وَالمُعَاشَرَةِ ، وَكَذَلِكَ الآدَمِيُّ إذا عَاشَرَ نَوْعاً مِنَ الحَيَوَانِ ، اكْتَسَبَ مِنْ بَعْضِ أَخْلاقِهِ .

وَلِهَذَا صَارَتْ الخُيَلاَءُ وَالْفَخْر في أَهْلِ الإِبِلِ ، وَصَارت السَّكِيْنَةُ في أَهْلِ الغَنَمِ ، وَصَارَ الجَمّالُونَ والبَغّالُونَ فِيْهِمْ أَخْلاقٌ مَذْمُومَةٌ ، مِن أَخْلاَقِ الجِمَالِ والبِغَالِ ، وَكَذَا الكَلاّبُون .

قُلْتُ وَهَذا وَاضِحٌ مُشَاهَدٌ عِنْدَ الذِيْنَ يَتَأَمّلون بِدِقَّةٍ ، فَالمعَاشِرُونَ لِلدَّجَاجَ والحَمَام ، والأَرَانِبِ والحُمُرِ والبَقَرِ يَأْخُذُونَ مِنْ أَخْلاَقِهَا .

قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ وَصَار الحَيَوانُ الإِنْسِي فِيهِ بَعْضُ أَخْلاقِ الإِنْسِ مِنَ المُعَاشَرَةِ والْمُؤَالَفَةِ وَقِلَّةِ النُّفْرَة ، فالمشَابَهَةُ والمُشَاكَلَةُ في الأُمُورِ الظَّاهِرَةِ تُوجِبُ مُشَابَهَةً وَمُشَاكَلَةً في الأُمُورِ البَاطِنَةِ عَلَى وَجْهِ المَسَارَقَةِ والتَّدَرِيْج الخَفِي .

قَالَ : وَقَدْ رَأَيْنَا اليَهودَ الَّذِيْنَ عَاشَرُوا المُسْلِمِيْنَ ، هُمْ أَقلُّ كُفْراً مِنْ غيرهم ، كَمَا رَأَيْنَا المُسْلِمِيْنَ الّذِيْنَ أَكْثَروا مِن مُعَاشَرَةِ اليَهُودِ والنَّصَارَى هُمْ أَقَلُّ ايماناً من غَيْرِهِمْ ، والمُشَارَكَةُ في الهَدْى الظاهِر ، تُوجِبُ أَيْضاً مُناسبةً وائتلافاً وإِنْ بَعُدَ المَكَانُ ، والزَّمَانُ ، فَهَذَا أَيْضاً أَمْرٌ مَحْسُوسٌ

فَمُشَابَهَتُهُمْ في أَعْيَادِهِمْ وَلَوْ بالقَلِيلِ ، هُوَ سَبَبٌ لِنَوْعٍ مَا مِن اكْتِسَابِ أَخْلاَقِهِمْ التي هِيَ مَلْعُونةٌ .

فَنَقُولُ مُشَابَهَتُهُمْ في الظاهِرِ سَبَبٌ وَمَظِنةٌ لمشابَهَتِهِمْ في عينِ الاخْلاق والأفعالِ المَذمُومَةِ ، بل في نَفْس الاعتقادِ ، وتأثيرُ ذَلِكَ لاَ يَظْهَرُ ولا يَنْضَبِطُ وَنَفْسُ الفَسَادِ الحَاصِلِ مِن المشابهةِ قد لا يَظْهَرُ ولا يَنْضَبِطُ وقد يَتَعَسَّرُ ، أو يَتَعَذَرُ زَوالهُ ، بَعْدَ حُصولِهِ لو تفطِنَ لهُ .

وَكُلُّ ما كان سبباً إلى مِثْل هَذا الفَسَادِ فإن الشَّارِعَ يُحَرِمُهُ كمَا دَلتْ عليهِ الأُصُولُ المقررةُ .

وقَالَ إنَّ المُشَابَهَةَ في الظاهِرِ تُورثُ نَوْعَ مَوَدَّةٍ وَمَحَبَّةٍ وموالاةً في الباطن قالَ والمَحَبَّةُ والموالاةُ لَهُمْ تُنَافِي الإِيْمَانَ قَالَ اللهُ تَعَالَى ﴿ يا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوْا لا تَتخذوْا اليَهُودَ والنَّصَارَى أَولياء ﴾ إلى قوله تعالى ﴿ فأصبحوا خاسرين ﴾ وقال تعالى فيما ذم به أهل الكتاب ﴿ لعن الذينَ كَفروا مِن بَني اسرائِيْل على لِسَان داودَ وَعِيسى بِن مَريم ﴾ الآيات إلى قوله ﴿ ولكِن كثيراً مِنهم فَاسقون ﴾ .

فَبَيَّنَ تعالى أَنَ الإِيْمَانَ باللّهِ والنبي وَمَا أَنْزَلَ مُسْتَلْزِمٌ لِعَدَمِ ولاَيَتِهِمْ فَثُبُوتُ وِلاَيَتِهِمْ يُوجِبُ عَدَمَ الإِيْمانِ ، انتهى كلامه .

إذا فَهِمتَ ذلك ، فاعْلَمْ أَنَ المقصُودَ مِن كُلّ ما ذكَرْنا ، هُوَ أَنَّكَ تَكُونُ مُتَيَقِضاً حافظاً لِمَنْ وَلاَّكَ اللهُ عَلَيْهِمْ حَسَبَ قُدْرَتِكَ وَاسْتِطَاعَتِكَ مُبْعِداً لَهُمْ كُلَّ البُعْدِ عَنْ الإِتّصَالِ بالكُفَّارِ ، والسَّفَرِ إلى بِلادِهِمْ ، والإِقامةِ عندَهُمْ ، لِمَا وَضَّحْنَا لَكَ سَابِقَاً فان قَبِلْتَ ذَلِكَ فَهُو المطلوبُ ،

والحَمْد لِلهِ عَلَى ذلك وإنْ أَبَيْتَ قُبُولَ هَذِهِ النَّصِيْحَةِ فَسوفَ تَعْلَمُ إِذَا انْجَلَى الغُبَارُ ، أَفَرسٌ تَحْتَكَ أَمْ حِمَارٌ ، واللهُ المُسْتَعانُ واللهُ أَعْلَم وَصَلَّى اللهُ على نَبِيِّنَا مُحَمَّد وَعَلى آلِهِ وصَحْبِهِ وَسَلَمَ .

(فَصْـلٌ)

وَقَالَ تَعَالَى ﴿ تَرَى كَثِيْراً مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الذِيْنَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُم أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللهُ علَيْهِمْ ، وَفي العَذَاب هُمْ خَالدون ﴾ الآيتين وقال ﴿ ولا تركنوا إلى الذينَ ظلموا فتمسكم النَّارُ وَمَالكمْ مِن دونِ اللهِ مِن أَوْلياءَ ﴾ الآية .

قال ابْنُ عَبَّاس : لَا تَمِيْلُوا وقَالَ عِكْرِمَةُ أَنْ تُطْيِعُوهُمْ أَوْ تَوَدُّوهُمْ ، أَوْ تَصْطَنِعُوهُمْ ، أَيْ تُوَلّوهُمْ الأَعْمَالَ ، كَمَنْ يُوَلِّي الفُسَّاقَ والفُجَّارَ .

وَقَالَ الثَّورِيُ وَمَنْ لاَقَ لَهُمْ دَوَاةً أَوْ بَرَى لَهُمْ قَلَماً أَوْ نَاوَلَهُمْ قِرْطَاساً دَخَل في هذا ، قَالَ بَعْضُ المُفَسِّرِيْن في الآيةِ فالنَّهْيُ مُتَناولٌ لِلانْحِطَاطِ في هَوَاهُمْ ، والانقِطَاعِ إليْهِمْ ، وَمُصَاحَبَتِهِمْ ، وَمُجَالَسَتِهِمْ ، وَزِيَارَتِهِمْ وَمُدَاهَنَتِهِمْ والرِّضَا بِأَعْمَالِهِمْ والتَّشَبُّهِ بِهِمْ والتَّزَيي بِزِيِّهِمْ ، وَمَدِّ العَيْنِ إِلَى زَهْرَتِهِمْ ، وَذِكْرِهم بِمَا فِيهِ تَعْظِيْماً لَهُمْ قُلتُ مَا أكثر هذا في زَمَننا نسأل اللهَ أنْ يَحْفَظَنا عن ذَلِكَ .

وَقَالَ آخرُ لَا تَسْتَنِدُوا وَتَطْمَئِنُّوا إِلَى الَّذِيْنَ ظَلَمُوْا و إِلَى الجَبَّارِيْنَ الطُّغَـاةِ الظالِمِيْنَ ، أَصْحابِ الجَوْرِ والظُّلْم الذِيْنَ يَقْهَرونَ بِقُـوتِهِمْ ، وَيَظْلِمُونَ لا تَمِيلوْا إِلَيْهِمْ طَالِبِينَ نُصْرَتَهمْ أو حِمايَتَهُمْ مَهْمَا يَكُنْ في أَيْدِيهم مِنَ القوةِ والسُّلْطانِ والمالِ ، فإنَّ رُكُونكم إليهمْ عَلَى هَذَا النَّحْوِ

يَقْدَحُ في اعْتِمَادِكُمْ عَلَى اللهِ ، وفي إخْلاصِكُمْ بالتوجُهِ إلَيْهِ وَحدَهُ والاتكالِ عَلَيْهِ وَحْدَه والاعتزازِ به وَحْدَهُ .

والرُكُونُ إلى الظَّلمةِ المُتَسَلِّطينَ سَواءٌ كانُوا أَفْرادَاً أَوْ كانُوا دُوَلاً يَتَمَثّلُ في صُوَرٍ شَتّى ، وَمِنْهُ التّعَاوُنُ مَعَ الطُّغَاةِ على الشُّعُوبِ ، الذينَ لا يَحْكُمُونَ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ ، وَمِنْهُ مُعَاهَدَاتِ الحماية ، وَمُعَاهَداتُ الدِّفاعِ المُشْتَرَك ، وَمُعَاهَدَاتُ الصَّدَاقَةِ ، والتَّحَالُفِ مَعَ الَّذِيْنَ يُؤْذُونَ المؤمِنينَ في دِيَارِهِمْ ، وَكُلُّ صُورَةٍ يَتَحَقَّقُ فِيهَا اعْتِمَادُ المُسْلِمينَ عَلَى أَهْلِ الظُلم أَفْرَاداً وَدُوُلاً والاسْتِنادُ إلى قُوَّتِهم ، وَعَوْنِهم ، وَمُسَاعَدَتِهِمْ .

وَقَالَ تَعَالَى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوّيْ وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بالمودَّةِ ﴾ صَدْرُ هَذِهِ السُّورَةِ نَزَلَ في حَاطِبِ بْن أَبِي بَلْتَعَةَ ، لما كَتَبَ إلى المُشْرِكِيْنَ ، يُخْبِرُهُمْ بِمَسِيْرِ رَسُولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلَيْهِمْ ، فَمَا ظَنُّكَ بِمَنْ يُعَوِّلُ عَلَى الْكَفَرَةِ وَيَعْتَمدُ عَلَيْهِمْ وَيَتَّخِذُهُمْ أَوْلِيَاءَ نَسْأَلُ اللَّه العِصْمَةَ إنَهُ القَادِرُ عَلَى ذَلِكَ .

فَيَجِبُ عَلَيْنَا مَعْشَرَ المُؤْمِنِيْنَ أَنْ نَتَبَاعَدَ عَنْهُمْ وَلَا نُقَارِبَهُمْ في المَنَازِلِ وَلَا نَذْهَبَ إلَيْهِمْ ، وَلَا نَكُونَ مَعَهُمْ ، وَأَنْ نَنْصَحَ مَنْ كانَ مِنَ المُسْلِمِيْنَ في بلادِهِمْ ، بِأَنْ يُهَاجِرَ عَنْهُمْ ، وَأَنْ نُبَينَ لَهُ ، قَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمَ « لا تَسْتَضِيْئُوْا بِنَارِ المُشْرِكِيْنَ » .

وَقَالَ « مَنْ جَامَعَ المشْرِكَ أَوْ سَكَن مَعَهُ فَهُوَ مِثْلُه » وَحَدَيْثُ « أَنَا بَرِيْءٌ مِنْ مُسْلِمٍ بَيْنَ أَظْهُر المُشْرِكِيْنَ لا تَرَائى نَارَاهما » ، وَكَانَ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ يَأْخُذُ عَلَى أَصْحَابِهِ عِنْدَ البَيْعَةِ يَأْخُذُ عَلَى يَدِ أَحَدِهِمْ « أَنْ لا تَرَى نَارُكَ نَارَ المُشْرِكينَ إلَا أَنْ تَكُوْنَ حَرْباً لَهُمْ » .

وَفِي حَدِيثِ مُعَاوِيَةَ بْنِ حَيْدَةَ مَرْفُوعاً « لا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنْ مُسْلِمٍ عَمَلاً أَوْ يُفَارِقَ المُشْرِكِيْنَ » ، أَخْرَجَهُ النَّسَائِي وَوَرَدَ عَنْ أَبي هُرَيْرَةَ أَنَّهُ أَقْسَمَ لاَ يُظِلُّهُ سَقْفٌ ، هُوَ وَقَاطِعُ رَحِمٍ » .

فَكَيْفَ بِمَنْ يَذْهَبُ إلى بِلاَدِ الكُفْرِ وَيَجْلِسُ مَعَهُمْ ، وَيَأْكُلُ ، وَيَشْرَبُ وَيَتَبَادَلُ مَعَهُمْ الْكَلاَمَ بِلِيْنٍ وَبِشْرٍ وَيَنَامُ وَيَصْحُو ، وَيَقُومُ وَيَقْعُدُ وَهُوَ بَيْنَهُمْ في تَقَلّبَاتِهِ وَحَرَكَاتِهِ وَسَكَنَاتِهِ .

وَلَقَدْ وَصَلَ الأَمْرُ في هَذَا الزَّمَن إلى أَنَّ أُناساً يَبْعَثُونَ أَمَاناتِهم أَفْلاذَ اكْبَادِهِمْ إلى بِلادِ الكُفْرِ والشّرْكِ والحُرِّيّةِ والفَسَادِ يَتَعَلّمُونَ عِنْدَ أُولئكَ الكَفَرَةِ أعداءِ الاسلام وَأَهْلِهِ الّذِيْنَ تَجِبُ الهِجْرَةُ مِنْ بِلاَدِهِمْ وَرُبَّمَا كَانَ عِنْدَ الأَوْلاَدِ المَبْعُوثِيْنَ لِلتَّعَلم عِنْدَ الكَفَرَةِ مَبَادِىءُ طَيّبَةٌ وَأَخْلاقٌ فاضِلَةٌ فإذَا ذَهَبُوْا إلى بِلاَدِ الكُفْرِ والعِيَاذُ باللهِ ضَيَّعُوا دِيْنَهُمْ وَأَخْلاَقَهُمْ واعْتَاضُوا عَنْ قَصْدٍ وَعَنْ غَيْرِ قَصْدٍ شُرُوراً وَسُمُوماً يَحْمِلُونَهَا ثُمَّ يَأْتُونَ بِهَا فَيَنْفُثُونَهَا بَيْنَ المُسْلِمينَ ثُمّ يُعْدُونَ أَقْرَانَهُمْ وَيُزَيّنُونَ لَهُمْ طَرِيْقَتَهُمْ فَيَهْلِكُون وَيُهْلِكُونَ وَلاَ أَدْرِيْ مَاذا عِنْدَ مُضَيّعِ هَذِهِ الأَمَانَةِ مِنَ الجَوَابِ إِذَا وَقَفَ بَيْنَ يَدَيْ الجَبَّارِ جَلَّ وَعَلاَ وَسَأَلَهُ عَنْ هَذِهِ الأَمَانَةِ وَمَا أَعْقَبَتْ مِنْ شُرورٍ وَفَسادٍ .

هَلْ يَدَّعِي أَنَّهُ لاَ يَعْرِفُ أَنَّهَا بِلادُ كُفْر وَإِلْحادٍ فَيَكُونُ كاذِباً أَوْ يَقُولُ إِنَّهُ يَدْرِيْ وَلَكِنّه لا يُبَالِي بِهَذِهِ الأَمَانَةِ قُولُوا لَه أَلَسْتَ تَقْرَأُ قَوْلَ اللهِ تَعَالى ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَواتِ وَالأَرْضِ والجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا ﴾ الآيَةَ .

وَقَوْلَهُ تَعَالَى ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوْا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا ﴾ هَذَا إِذَا كَانَ البَاعِثُ رَاضِياً بِذَلِكَ أَوْ آمِراً بِهِ .

فَهَلْ الكُفَّارُ أَهْلٌ لِوَضْعِ هَذِهِ الأَمَانَةِ عِنْدَهُمْ أَمَا تَخْشَى اللَّهَ هَذَا وَاللَّهِ جُرْمٌ عَظِيْمٌ قَالَ تَعَالَى ﴿ أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً ﴾ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الوَهَّابُ ، فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَي القُلُوبُ الَّتي في الصُّدُورِ ﴿ إِنَّ مِنْ أَمْوَالِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ ﴾ .

والشَّيءُ الّذي يُضْحِكُ الإِنْسَانَ مِنْ جِهَةٍ وَيُبْكِيْهِ مِنْ جِهَةٍ هُوَ أَنَّهُ رُبَّمَا يَكُوْنُ المُرْسِلُوْنَ مِنَ الّذِيْنَ يُعَدّونَ طَاهِرَةً قُلُوبُهُمْ وَلَكِنْ غَفَلُوا عَنْ هَذِهِ المَسْأَلَة فَلَمْ يَسْأَلُوا عَنْهَا هَلْ يَجُوزُ لَهُمْ أَمْ لَا ثُمَّ الشَّيءُ الثَانِي يَأْتِي أُنَاسٌ آخَرُونَ لَا يَعْرِفُونَ الوَلَاء والبَرَاءَ أَوْ يَعْرِفُوْنَهُ وَلَكِنْ يَتَسَاهَلُونَ فَيَأْخُذُونَ الذي جَاؤُا مِن بِلَادِ الكُفْرِ يَحْمِلُونَ شَهَادَاتِهِمْ بِالدَّوَائِرِ وَالْوَلَائِم وَهَذا وَالْعِيَاذُ بِاللهِ تَشجِيْعاً عَلَى المَعَاصِي وَحَثاً عَلَيْهَا وإغراءً بها نسأل اللهَ العافية .

لأنَ الوَاجِبَ هَجْرُهُمْ والابْتِعَادُ عَنْهُمْ وَلَوْ كَانُوْا آباءَهم أَوْ أَبْنَاءَهُم أَوْ إِخوَانَهم كَمَا هُوَ المَعْهُود في الزَّمَنِ البَعِيْدِ وَالْقَرِيْبِ فِيْمَنْ جَاءَ مِن الْبِلَادِ التي مُسْتَعْمَرةٌ لِلْكَفَرَةِ يُهْجَرُ لَا يُكَلَّمُ وَلَا يُدْعَى وَلَا تُجَابُ دَعْوَتُهُ عِنْدَ المُتَمَسِّكِيْنَ بالدِيْنِ تَمَاماً الصَّدَّاعِيْنَ بِالحَقِ المُخْلِصِيْنَ لِلهِ النَّاصِحِيْنَ لِلهِ وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِوُلَاةِ المُسْلِمِيْنَ وَلَكِنْ يَا لِلأَسَفِ ذَهَبَ النَّاسُ وَبَقِيَ النَّسْنَاسُ الذِيْنَ لَا يَعْرِفُونَ الوَلَاءَ وَالْبَرَاءَ إلا فِيْمَا يَتَعَلَّقُ بِخُطَامِ الدُّنْيَا .

فَمَا النَّاسُ بِالنَّاسِ الذينَ عَهِدْتَهُمْ
وَلَا الدَّارُ بِالدّارِ التّي كُنْتَ تَعْرِفُ

وَيُذْكَرُ عَنْ عِيْسَى عَلَيهِ السَّلامُ أَنَّهُ قَالَ تَحَبَّبُوْا إِلَى اللَّهِ بِبُغْضِ أَهْلِ المَعَاصِي ، وَتَقَرَّبُوا إِلَى اللّهِ بِالْبُعْدِ عَنْهُمْ ، واطْلُبُوْا رِضَى اللَّهِ بِسَخْطِهِمْ فَإِذَا كَانَ هَذَا مَعَ أَهْلِ المَعَاصِي ، فَكَيْفَ بالكَفَرةِ والمُشْرِكَيْنَ والمُنَافِقِيْنَ أَعْدَاءِ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَالمُؤمنين .

وَقَدْ أَجَابَ أَبْنَاءُ شَيْخِ الإِسْلامِ مُحَمدِ بن عبدِ الوهابِ لَمَّا سُئِلُوا عَن السَّفَرِ إلى بِلادِ المُشْرِكِيْنَ ، لِلتِّجَارَةِ بِمَا حَاصِلُهُ أَنهُ يَحْرُمُ السَّفَرُ إلى بِلاَدِ المُشْرِكِيْنَ إلا إذا كانَ المُسْلِم قَوِيّاً لَهُ مَنَعَةٌ يَقْدِرُ عَلَى إِظْهَارِ دِيْنِهِ وإِظْهَارُ الدِّيْنِ تَكْفِيْرُهُم وَعَيْبُ دِيْنِهِمْ والطَّعْنُ عَلَيْهِمْ والبَرَاءَةُ مِنْهُمْ والتَّحَفُظُ مِنْ مُوَادَّتِهِمْ والرُّكُونُ إِلَيْهِمْ وَاعْتِزَالُهُمْ وَلَيْسَ فِعْلُ الصَّلَوَاتِ فَقَطْ إِظْهَارٌ لِلدِّيْنِ أهـ .

نَسْأَل الله السَّلاَمَةَ والْعَافِيَةَ فَيَا أَيُّهَا المُعَافي احْمَدْ رَبَّكَ حَمْداً كَثِيْراً طَيِّباً مُبَارَكاً وأَكْثِرْ مِنْ قَولِ : رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الوَهَّابُ وَمِنْ قَوْلِ يَا مُقَلِّبَ القُلُوبِ ثَبِّتْ قُلُوبَنَا عَلَى دِيْنِكَ وَيَا مُصَرِّفَ القُلُوبِ اصْرِفْ قُلُوْبَنَا إِلى طَاعَتِكَ وَقَوْلِ اللهُمّ لاَ تَكِلْنِي إِلى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنَ وَلاَ إِلَى أَحَدٍ مِنْ خَلْقِكَ وَأَحْسِنْ خَاتِمَتِي في الأُمُورِ كلّهَا واغْفِرْ لِي وَجَمِيعِ المُسْلِمينَ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرّاحِمِينَ وَصَلَّى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

مــوعظــة

عِبَادَ اللَّهِ كُلُّنَا يَعْلَمُ أَنَ النَاسَ قِسْمَانِ ، قِسْمٌ انْحَازَ إِلَى اللَّهِ ، وَهَؤُلاءِ حِزْبُ اللّهِ ، الذِيْنَ قَالَ اللّهُ فِيْهِمْ ﴿ أُوْلَئِكَ حِزْبُ الله أَلاَ إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمْ المُفْلِحُونَ ﴾ .

وَقِسْمٌ انْحَازَ إِلَى عَدُوِّ اللَّهِ إِبْلِيْسَ لَعَنَهُ اللَّهُ وَهَؤُلاَءِ حِزْبُ الشَّيْطَانَ الذِيْنَ قَالَ اللَّهُ فِيْهِمْ :﴿أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ ألا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمْ الخَاسِرُون﴾ فَالأَوَّلُوْنَ الذِيْنَ هُمْ حِزْبُ اللهِ لاَ تَرَاهُمْ يُطِيْعُونَ الشَّيْطَانَ أَبَداً وَلِذَلِكَ لا تَجِدُهُمْ يُفْسِدُونَ في الأَرْضِ ، بَلْ هُمْ بَرَكَةٌ في هَذَا الوُجُودِ .

فَإِذَا رَأَيْتَ مَسْجِداً مَعْمُوراً فَهُمْ الذِيْنَ وَفَّقَهُمْ اللَّهُ لِبِنَائِهِ ، وَإِنْ قِيلَ لَكَ إِنَّهُمْ لاَ يَظْلِمُونَ ، وَيَنْهَوْنَ عَنِ الظُّلْمِ والجَوْرِ فَصَدِّقْ ، وَإِنْ رَأَيْتَ مُحْتَاجاً سُدَّتْ حَاجَتُه ، فَهُمْ الْذِيْنَ وَفَّقَهُمْ اللّهُ لإِنْعَاشِهِ ، وَسَدِّهَا ، وإِنْ رَأَيْتَ عَارِياً فَهُمْ الذِيْنَ وَفَّقَهُمْ اللّهُ لِكِسْوَتِهِ ، وإِنْ قِيْلَ إِنَّ المُنْكَرَ الفُلاَنِي أُزِيْلَ فَهُمْ الذيْنَ وَفَّقَهُمْ اللّهُ لِلتَّسَبُبِ في إِزَالَتِهِ ، وَإِنْ قِيْلَ لَكَ إِنْ إِصْلاحاً في الأَرْض كَانَ صَعْباً فَسُهِّلَ بِإِذنِ اللهِ ، فَهُمْ الذِيْنَ وَفَّقَهُمْ اللَّهُ لإِزَالَتِهِ أَوْ تَسْهِيْلِهِ .

وَإِنْ قِيْلَ إِنَّ أُنَاساً يَدُورُونَ عَلَى البُيُوْتِ يَتَفَقَّدُونَ الفُقَرَاءَ الذينَ لَيْسَ لَهُمْ مَوَارِدُ فَهُمْ الذِيْنَ وَفَّقَهُمْ اللَّهُ لِذَلِكَ ، وَإِنْ قِيْلَ إِنَّ أُنَاساً يَتَفَقَّدُونَ مَنْ عَلَيْهِ دَيْنٌ فَيَتَسَبَّبُونَ لِوَفَائِهِ ، فَهُمْ الذينَ وَفَّقَهُمْ اللَّهُ لِذَلِكَ ، وإِنْ قِيلَ إِنَّهُمْ يَعْبُدُونَ اللهَ عِبَادَةَ مَنْ لاَ يَمَلُّ وَلاَ يَفْتُرُ ، فَصَدِّقْ بُمَجَرَّدِ مَا يُقَالُ لَكَ .

وإِنْ قِيلَ إِنَّ بَعْضَ البُيُوتِ وَهِيَ القَلِيْلَةُ إِنَّكَ تَسْمَعُ فِيها باللَّيْلِ صَوْتَ بُكَاءٍ وَأَنِيْنٍ وَتَهَجُّداً واستغفاراً ، فَهُم أُولَئِكَ الذينَ وَفقَهُم اللهُ وجَعَلَهُم حِزْبَهُ .

وإِنْ قِيْلَ لَكَ إِنَّ أُناساً عِنْدَهُم عَطْفٌ عَلَى الفُقَراءِ ، وَرَحْمَةٌ وايثارٌ واحْسانٌ إِلى الجارِ ، وَمُوَاسَاتٌ لِلضُّعَفَآءِ ، وَغَيْرِ ذَلِكَ ، مِمَّا يَكَادُ في زَمَنِنَا

هَذَا أنْ يَكُونَ نَادِراً فَهُم أُولَئِكَ الذينَ وَفَقَهُم العَلِيمُ الخَبِيْرُ ، وَهَؤلآءِ هُم المُهَذَّبُونَ المُتَنَوِّرُوْنَ المُتَأَدِبُون .

أما الفَرِيْق الثانِي عَصَمَنَا اللهُ وايَّاكَ عن طريق سُلُوكِهِم ، فَهُم حِزْبُ الشيطان لا يحْصُلُ فَسَادٌ في الأَرْضِ إلاَّ مِنْهُمْ ، لأَنَّهُمْ حِزْبُ الشَّيْطانِ وإنْ قِيْلَ إنَّ مُؤْمِناً قُتِلَ فَهُم الذينَ قَتَلُوهُ ، أو تَسَبَّبُوا لِقَتْلِهِ ، لاَ يَخْتَلِفْ في ذلك اثْنَانِ ، وإنْ قِيْلَ لكَ إنَّ سَيارَةً سُرِقَتْ فَهُمْ الذَين سَرَقُوْهَا .

وإنْ قِيْلَ إنَّ مَنْزِلاً هُوْجِمَ وَسُرِقَ فَقُلْ بِلاَ تَرَدُّدٍ هُم الذينَ هَاجَمُوهُ ، وَسَرَقُوهُ ، وَهَلْ حِزْبُ الرحمن يَعْتَدُوْنَ مِثْلَ هَذَا العُدْوَانِ ، وإن قِيْلَ إنَّ إنْساناً خُطِفَ وَغُيِّبَ ولا يُعْلمُ أيْنَ كَانَ ، فَقُلْ هُمُ الذِينَ خَطَفُوهُ وَغَيَّبُوهُ ، وإن قِيْلَ إنَّ مُسْلِماً ذَا ثَرْوَةٍ نُشِلَ وأُخِذَ منه آلافٌ ، فَقُلْ وَهَلْ يَنْشُلُ وَيَخْطِفُ وَيَعْبَثُ بِأَمْوالِ الناس إلا أولَئِكَ الأَشْرَارُ حِزْبُ الشيطانِ .

حِزْبُ اللهِ المُوفَّقُونَ الكُمَّلُ بَعِيْدُونَ عن المَعَاصِي جِدَا ، فَلاَ تَرَى الوَاحِدَ مِنهم يَتَعَمَّدُ الجُلُوسَ في الطُرقِ ، وَيُدَاوِمُ المُرُوْرَ فِيْهَا لِمُطَارَدَةِ النِساء ، وَمُغَازَلَتِهِنَّ ، ولا تَرَاهُ يُرْكِبُ النِسَاءَ بلا مَحْرَمٍ ولا يُدْخِلُهـا لِتَشْتَرِيْ أَوْ يُفَصِّلُ عَلَيهَا وَلَيْس مَعَهَا مَحْرَمٌ ولا تَجِدْهُ يَبِيْعُ صُوَرَ ذواتِ الأَرْوَاحِ ، ولا يُصَوِّرُهَا ، ولا يَبِيْعُ البِدَعَ المُنْكرَاتِ ، ولا يَجْلِسُ عِنْدَها ، وهِيَ البِدَعُ المُحَرَّمَةُ ، التي حَدَثَتْ في زَمَنِنَا مِثْلَ التَّلَفْزِيُون والسِّيْنَماء والمِذْيَاعِ ، والكُرةِ ، والوَرَقِ ، والبَكَمِ والدُّخَانِ والفدْيُو ونحو المنكراتِ التي قَضَتْ على الغَيْرَةِ والمُرُوْءَةِ والشِّيْمةِ والرُجُولَةِ.

ولا يَغُشُّ المُسْلِمِيْنَ ، ولا يَكُونُ ذَا وَجْهَينِ يَتَكَلَّمُ عِنْدَ هَؤلآءِ بِوَجْهٍ

وعندَ الآخِرِيْنَ بِوَجْهٍ ، ولا يُنَافِقُ ولا يُوْقِعُ بَرِيْئاً في مَأزِقٍ ولا يَشْهَدُ بالزُوْرِ ، ولا يَحْظُر عِندَ المُنكَراتِ ، بَل تَرَاهُمْ في مَجَالِسِ الذِكْرِ يَدُوْرُوْنَ حَوْلَ مَا يُقَرِبُهُم إلى اللهِ .

وَلَا تَرَاهُمْ يَرْكَنُونَ إلى أَعْدَاءِ اللهِ ، ولا الفَسَقَةِ ولا يُعَظِّمُونَهُم ولا يَتَمَلَقُونَ لَهُم ، وَيَضْحَكُونَ مَعَهُم ، كَمَا يَفْعَلُهُ السُذَّجُ، الذِيْنَ لا يَعْرِفُونَ الوَلآءَ والبَرَاءَ ، ولا تَنْشَرِحُ صُدُوْرُهُم ، ولا تَهْتَزُ عَوَاطِفُهُم ولا تَسْتَرِيْحُ قُلُوبُهُمْ ، ولا يَهْدَؤُ بالُهم ، ولا يَسْكُنُ قَلَقُهُم ، إلا إذا زَاحَمُوهُم وجَالَسُوهُمْ ، ومازَحُوهُم وَعَظَّمُوهُم ، مِمَّنَ نَسُوا اللهَ فأنْسَاهُم أَنْفُسَهُم والتَهَوا عَمَّا هُم إليه صَائِرُوْنَ ، فَلَمْ يَحْسِبُوا لَهُ حِسَاباً قال تعالى ﴿ ولا تُطِعْ مَن أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عن ذِكْرِنَا واتَّبَعَ هَوَاهُ وكان أَمْرُهُ فُرطا ﴾ .

وقال تعالى ﴿ فَأَعْرِضْ عَمَّن تَوَلَّى عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إلَّا الحَيَاةَ الدُنيا ، ذلكَ مَبْلَغُهُم مِن العِلْمِ ﴾ وقال تعالى ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَن اتَّخَذَ إلٰهَهُ هَواهُ وأَضَلَهُ اللهُ عَلى عِلْمٍ ﴾ الآية .

فالذي يَنْبَغِي أَنْ يُتَّبَعَ وَيُقْتَدَى بِهِ مَن تَمَسَّكَ بِكِتَابِ اللهِ ، وامْتَلأَ قَلْبُهُ بِمَحَبَّةِ اللهِ ، وَفَاضَ ذَلِكَ عَلى لِسَانِهِ ، فَلَهَجَ بِذِكْرِ اللهِ ، ودَعَا إلى اللهِ واتَّبَعَ مَرَاضِيْهِ ، فَقَدَّمَهَا على هَوَاهُ وحَفِظَ وَقْتَهُ في طاعَةِ اللهِ بَعِيْدَاً عن أَذِيَّةِ المُسْلِمينَ لا يُقَابِلُ الإِسَاءَةَ بِمِثْلِهَا بَلْ يَدْفَعُ بالتِي هِيَ أَحْسَنُ وَهَذَا حَقاً هُوَ المَهَذَّبُ المُتَنَوِرُ :

قال بعضهم :

وأُحِبُّ كُلَّ مُهَذَّبٍ لَوْ أَنَّهُ
خَصْمِيْ وَأَرْحَمُ كُلَّ غَيْرِ مُهَذَّبِ

يَـأْبَى فُـؤَادِي أَنْ يَـمِيْـلَ إِلَـى الأَذَى
حُـبُ الأذيـةِ مِـن طِـبَـاعِ الـعَـقْـرَبِ
لِـيْ إِنْ أَرَدْتُ مَـسَـاءَةً بِـمَـسَـاءَةٍ
لَـوْ أَنَـنِـي أَرْضَـى بِـبَـرْقٍ خُـلَّبَ
حَـسْـبُ الـمُـسْـيءِ شُـعُـوْرُهُ وَمَـقَـالُـهُ
فـي سِـرِّهِ يَـا لَـيْـتَـنِـي لَـمْ أُذْنِـبِ

اللهم خَفِّفْ عَنَّا الأَوْزَارَ وأَرْزُقْنَا عِيْشَةَ الأَبْرَارِ واصْرِفْ عَنَّا شَرَّ الأَشْرَارِ وأَعْتِقْ رِقَابَنا ورِقَابَ آبائِنَا وأُمَّهَاتِنَا مِن النَّارِ يا عَزِيْزُ يا غَفَّارُ ويا كَرِيْمُ ويَا سَتَّارُ ويا حَلِيْمُ ويا جَبَّارُ واغفر لنا ولوالدينا وجميع المسلمين برحمتك يا أرحم الراحمين وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

(فَصْـلٌ)

وَجَاءَ في تَفْسِيْرِ قَولِهِ تَعَالَى ﴿ لَا تَجِدُ قَوماً يُؤْمِنُونَ باللهِ واليومِ الآخِرِ يُوَادُّوْنَ مَن حَادَّ اللهَ ورسولَهُ ولو كانُوا آبَاءَهُم أَوْ أَبناءَهُم أَو إِخْوانَهُم أو عَشِيْرَتَهُم أولَئكَ كَتَبَ في قُلُوبِهِم الايمانَ وأَيَّدَهُم بِرُوْحٍ منه﴾ الآية أنَّها نَزَلَتْ في أَبِيْ عُبَيْدَةَ .

وإليكَ القِصَّةَ مَسُوْقَةً بِأَكْمَلِهَا ، أَبُو عُبَيْدَةَ بنُ الجَرَّاحِ رضي الله عنه ، كانَ صَحَابِياً جَلِيلاً وَبَطَلاً عَظِيْماً مِن أبطال الإسلامِ مِن المُجَاهِدِيْنَ ، حَرِصَ أَبُوهُ عبدُ اللهِ على قَتْلِهِ في أَوَّلِ لِقَاءٍ ، لأَنَّ أَبَا عُبَيْدَةَ رَضِي اللهُ عَنهُ تَرَكَ دِيْنَ أَبِيْهِ ، واعْتَنَقَ الإِسلامَ ، وتَخَلَّفَ عن قَافِلَةِ

قُرَيْشٍ ، والتَحَقَ بقافلةِ مُحَمدٍ بنِ عبدِ اللهِ عليه الصلاةُ والسلامُ مُؤمناً بِدِيْنِهِ مُصَدِّقاً بِرِسَالتِهِ .

تَصَدَّى عَبْدُ اللهِ لابْنِهِ مُحَاوِلاً قَتْلَهُ ، في غَزْوَةِ بَدْرٍ ، ولكنْ الابنُ أَبْعَدَ عَنه ، وَحَوَّلَ سَيْفَهُ عن أَبِيْهِ وانْطَلَقَ إلى فِئَةٍ أُخْرَى غَيْرَ التي فِيهَا أَبُوهُ ، يُقَاتِلُهَا وَيُجَاهِدُهَا وافْتَرَقَ الرَّجُلانِ وَلَكِنْ الأَبُ بَحَثَ عن ابنِهِ حَتَّى التَّقَى بِهِ مرةً ثانِيَةً ، وَرَفَعَ سَيْفَهُ عَلَيه وَوَجَّهَ إليه ضَرْبَةً قَاضِيَةً اسْتَقْبَلَهَا أَبُو عُبَيْدَةَ بحَرَكَةٍ خَفِيْفَةٍ ، جَعلتْهَا تَهْوِيْ في الفَضَاءِ .

ولَكِنْ الأَبُ مُصَمِّمٌ على أَنْ لاَ يُفْلِتَ الابنَ مَهْمَا كَلَّفَهُ ذَلِكَ مِن غَالِي الثَّمَنِ فَبَحَث عن ابنِهِ هُنَا وَهُناكَ ، وَنَقَبَ عَنه في كُلِّ مكَانٍ حتى التَقَى بِهِ مَرَةً ثَالِثَةً ، وَرَفَعَ الرَّجُلُ سَيْفَهُ لِيُوجِّهْ إلى ابْنِهِ ضَرْبَةً قَاضِيَةً مُمَيْتَةً يَشْفِي كُلُومَ قَلْبِهِ ، وَتَهْدَؤُ بِهَا نَفْسُهُ الثائِرَةُ على ابنِهِ الصَّابِىءِ .

وَهُنَا نَظَرَ أَبُو عُبَيْدَةَ أَنَّ أَبَاهُ يَعْتَرِضُ وَيَتَصَدَّى لَهُ وفي اعْتِرَاضِهِ هَذَا اعْتِرَاضٌ لِلإِسْلامِ ، فَمَا أَبُو عُبَيْدَةَ إلا جُنْدِيْ مِن الجُنُودِ القَائِمِينَ بِنَصْرِ الإِسلامِ ، وأَنَّ في تَصَدِيْهِ لَهُ سَداً بَيْنَهُ وَبَيْنَ إِقَامَةِ دِيْنِ الرحمنِ ، وانْتِشَارِ كَلِمَةِ اللهِ في الأَرضِ فَهَلْ يَصْمُتُ أَبُو عُبَيْدَةَ عَلَى هَذَا ، وَهَلْ يَسْكُتُ على مَنْ يَحُولُ بَيْنَ دَعْوَةِ اللهِ ، أَنْ تَقُومَ في الأَرْضِ وأَنْ تُنْشَرُ بَيْنَ الناسِ كَلا لَقَدْ أَدَّى مَا عَلَيهِ نَحْوَ أَبِيْهِ وَأَعْرَضَ عنه مَرَّتَيْن .

وَلَكِنْ مَا دَامَ أَبُوهُ يَحْرِصُ على هَذِهِ الصُوْرَةِ ، فَلْيَكُنْ هُوَ أَسْبَقُ مِن أَبِيْهِ في حِرْصِهِ عَلَى قَتْلِهِ ، كَذَلِكَ والتقى السَّيْفَانِ وتَقَابَل الرَّجُلانِ وَوَقَفَ الخَصْمَانِ ، وفي لَمْحَةٍ خَاطِفَةٍ رَفَعَ الرجُلانِ سَيْفَيْهِمَا كُلٌّ يَحْرِصْ عَلَى قَتْلِ صَاحِبِهِ ، والانْتَصَارِ لِدِيْنِهِ .

وَرَفَعَ أَبُو عُبَيْدَة يَدَهُ عَالِيَةً خَفَّاقَةً ، وفي سُرْعَةٍ وَمِضَاءٍ أَهْوَى بِسَيْفِهِ البَتَّارِ عَلَى قَلْبِ وَالِدِهِ المُمْتَلِىء حِقْداً وَغَضَباً ، على الإسلامِ وَدَعْوَةِ الاسلامِ وَمَزَّقَ السَّيْفُ قَلْبَهُ ، وانْفَجَرَ الدَّمُ منه بكَثْرَةٍ وكانَتْ هَذِه السَّاعَةُ مِن سَاعَاتِ التاريخِ الفَاصِلةِ .

هَذَا مِن آثَارِ الحُبِ في اللهِ ، والبُغْضِ في اللهِ ، وهَذَا الوَاجِبُ على كُلِّ مُسْلمٍ أَن تَكُونَ أَعْمَالُهُ كُلُهَا مُنْطَبِقَةً على مَا تَأْمُرُ به الشرِيْعَةُ المُطَهَّرَةُ فَيُحِبُ مِن الناسِ مَن نَهَجَ الطَرِيْقَ المُسْتَقِيْمَ وَيَبْتَعِدُ عَن مَن حَادَ عَن الطَّرِيْقِ المُسْتَقِيْمِ ، ولو كانَ أَقْرَبَ قَرِيْب.

وَمَن اتَّبَعَ هَذِهِ الطَّرِيْقَةَ انْطَبَعَ في قَلْبِهِ حُبُّ الكَمَالِ والإيمانِ فيكُونُ عَدوُ اللهِ في نَظَرِهِ عَدُواً ، وَحَيْنَئِذٍ يَرَى أَنَّ أَعْظَمَ الناسِ قِيْمَةً أَهْلُ الاخلاصِ والطاعةِ وَأَحطهُم مَنْزِلَةً أَهْلُ المَعَاصِي والشَّنَاعَةِ والفَسَادِ في الأَرضِ .

وكذلكَ كانَ شَأنُ المُصْطَفى صلَّى اللهُ عليهِ وسلم وشأْنُ أَصْحَابِهِ رَضِيَ اللهُ عنهم يُحِبُونَ في اللهِ ، وَيُبْغِضُوْنَ في اللهِ يُوَادُّوْنَ الطائِعينَ وإِنْ كَانُوا بُعَدَاءَ وَيُعَادُوْنَ العَاصِين وانْ كانُوا أَقْرِبَاءَ فَرَابِطةُ التَّقْوَى عِنْدَهُم أَشَدُّ وَأَقْوَى مِن رَابِطَةِ النَّسَبِ والقَرَابَةِ .

وعن البَراءِ بنِ عَازِبٍ أَوْثَقُ عُرَى الإيمانِ الحُبُّ في اللهِ والبُغْضُ في اللهِ .

وفي حديث مَرْفُوعٍ اللَّهُمَّ لا تَجْعَلْ لِفَاجِرٍ عِنْدِيْ يَداً وَلَا نِعْمَةً فَيَوَدُّهُ قَلْبِي فإني وَجَدْتُ فِيْمَا أُوْحِيَ إلي ﴿لا تَجِدُ قوماً يُؤْمِنُونَ باللهِ واليومِ

الآخِرِ يُوَادُّوْنَ مَن حادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ﴾ رواه بن مردويه وغيره .

المَعْنَى الآيةُ بِلَفْظِ الخَبَرِ والمُرَادُ بِهَا الإِنْشَاء أَي لَا تَجِدُ قوماً يَجْمَعُونَ بَيْنَ الإِيمانِ باللهِ واليومِ الآخرِ ، والمحبةِ والمُوَالَاةِ لِأَعْدَاءِ اللهِ ورسولِهِ .

فلا يَكُونُ المؤمنُ باللهِ واليومِ الآخِرِ حَقِيْقَةً إِلا كَانَ عَامِلاً عَلى مُقْتَضَى إِيمانِهِ ، وَلَوَازِمِهِ مِن مَحَبَّةِ مَن قَامَ بالإِيمانِ وَبُغْضِ مَن لَمْ يَقُمْ بِهِ وَمُعَادَاتِهِ .

وَلَوْ كَان أَقْرَبَ الناسِ إليهِ ، وَهَذَا هُوَ الإِيمانُ عَلَى الحَقِيْقَةِ الذي وُجِدَتْ ثَمَرَتُهُ وَمَقْصُوْدُهُ فَمَنْ أَحَبَّ أَحَداً امْتَنَعَ أَنْ يُوَالِيْ عَدُوَّهُ .

وَلَقَد أَصَابَ المُسْلِمُونَ اليومَ مِن المُوالَاةِ لِأَعْداءِ اللهِ بَلَاءٌ شَدِيْدٌ فَتَجِد كَثيراً مِن الناسِ الذيْنَ يَدَّعُونَ الإِيمانَ يُوَالُونَ أعداءَ الشَّرائِعِ الدِيْنِيَّةِ وَيُعَظِّمُونَهُم وَيُقَدِّرُوْنَهُم وَيَنْصُرُوْنَهُمْ على أَبْنَاءِ جِنْسِهِم وَلَوْ كَانَ في هذَا ذِلٌ لَهُم ولِأُمَّتِهِم ولِدِيْنِهِم فإنا للهِ وإنا إليه رَاجِعُون)

قال في النُونِيَّةِ :

أَتُحِبُ أَعْدَاءَ الحَبِيْبِ وَتَدَّعِيْ
حُباً لَهُ مَاذاكَ في إِمْكَانِ
وكَذَا تُعَادِيْ جَاهِداً أَحْبَابَهُ
أَيْنَ المَحَبَّةُ يَا أَخَا الشَّيْطَانِ
لَيْسَ العِبَادَةُ غَيْرَ تَوْحِيْدِ المَحَبْ
بَةِ مَعَ خُضُوْعِ القَلْبِ والأَرْكَانِ

والـحُـبُ نَـفْسُ وِفَـاقِـهِ فِـيْـمَـا يُـحِـبْ
ـبُ وَبُـغْضُ مَـالا يَـرْتَـضِـي بِـجَـنَـانِ

اللهم طَهِّرْ قُلُوبَنا مِن النِفاق وعَمَلَنا مِن الرِياء وَأَلْسِنَتَنَا مِن الكَذِبِ وَأَعْيُنَنَا مِن الخِيانَةِ وآذانَنَا عَن الاستماعِ إلى مَا لا يُرْضِيْكَ وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ وَأَلْحِقْنَا بالصَّالِحِيْنَ واغفر لَنا وَلِوَالِدَيْنَا وَجَمِيْعِ المسلمين برحمتك يا أرحم الراحمين وصلى الله على محمد وآله وصحبه أجمعين .

(فَصْلٌ)

وعن أبي ذَرٍ مَرْفُوعاً ، أَفضَلُ الأَعْمالِ الحُبُّ في اللهِ والبُغْضُ في الله رواه أبو داود .

وفي الصحيحين المَرْءُ مَعَ مَن أَحَبَّ وعن علي مرفوعاً لا يُحِبُ رَجُلٌ قوماً إلّا حُشِرَ مَعَهُم رواه الطبراني باسناد جيد .

وقد رَوَى الإمامُ أحمدُ مَعْنَاهُ عن عائِشة باسناد جيد أيضاً عنها مرفوعاً الشِرْكُ أَخْفَى مِن دَبِيْبِ الذَّرِ على الصَّفاءِ في اللَّيْلَةِ الظَّلْماءِ ، وأَدْنَاهُ أَنْ تُحِبَّ عَلى شَيءٍ مِن الجَوْرِ ، أَوْ تُبْغِضَ على شيءٍ مِن العَدْلِ وَهَلِ الدِّيْنُ إلا الحُبُّ في اللهِ والبُغْضُ في اللهِ .

يَفْتَخِرْ بَعْضُ المُتَحَذْلِقِيْنَ أَنَّه لَا يَكْره أيَّ انْسانٍ ، ولا يُبْغِضُ أَحداً ، وأَنهُ يَسْلُكُ مَعَ الفَجَرَةِ والفَسَقَةِ ، وَمَعَ أَهْلِ الدِّيْنِ والصَّلاحِ بَلْ وَمَعَ الكَفَرَةِ والمُنَافِقِيْنَ ، وَيُلَقِبُ نَفْسَهُ وَمَن سَلَكَ مَذْهَبَهُ بأَنَّه دُبْلُمَاسِي ، ويَظُنُّ هَذَا فَخْراً وَكَرماً في الأَخْلَاقِ وَنُبْلاً وَطِيْباً .

وَلَكِنْ مَنْ لَا يعْرف البُغْضَ ، فَلَنْ يَعْرِفَ الحُبَّ وَمَن لَا يَكْرَهُ انساناً عَاصِياً هَيْهَاتَ أن يُحِبَّ عَبْداً مُطِيْعاً إِنْ تُحِبَّ مُؤْمِناً بِسَبَبِ اخْلَاصِهِ وَتَقْوَاهُ فَكَيْفَ لَا تُبْغِضُهُ إِذَا زَالَ عَنهُ سَبَبُ الحُبِّ فانْقَلَبَ فَاجِراً مُتَهَتِّكاً ، تَعْفُو عَمَّنْ ظَلَمَكَ ولَكِنْ مَا رَأْيُكَ فِيْمَنْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَظَلَمَ عِبَادَ اللهِ ، مَا رَأْيُكَ في الزّناةِ هَاتِكِيْ الأعْرَاضِ ، وَمُدْمِنِي الخَمْرَ وَشَارِبِي الدُّخَان وحَالِقِي لِحَاهُم ، وأهْلِ الخَنَافِسِ والتَّشَبُّهِ بِأعْدَاءِ اللهِ أَعْدَاءِ الإِسلامِ وَمَن يَشْهَدُوْنَ الزُّوْرَ ولا يَشْهَدُوْنَ صَلاةَ الجَمَاعَةِ ، وَيَغْتَصِبُونَ الحُقُوقَ وَيُؤْذُوْنَ العِبَاد وَيَخُوْنُونَ الدِيْنَ والبِلَادَ هَلْ تُحِبُّهُمْ أَوْ تُبْغِضُهُم لِله فتِشْ عَن قَلْبِكَ وَحَاسِبْ نَفْسَكَ هَلْ تُحِبُّهُمْ فَتُعِيْنُهُم على الظُّلْمِ أَمْ تُبْغِضُهُم وَتَحْقِرُهُم وَتُنَابِذُهُم وَتَبْتَعِدُ عَنهُم عَسَى أَنْ يَرْجَعُوا عن غيْهِم وَبَغْيِهِم لا مَفَرَّ مِن أَنْ يَكُونَ لَنَا أَعْدَاءُ نُبْغِضُهُمْ في اللهِ كَمَا يَكُونُ لنا أَصْدِقَاءُ نُحِبُّهُم في اللهِ .

فَيا عِبَادَ اللهِ تَقَرَّبُوا إلى اللهِ بِبُغْضِ أَهْلِ المَعَاصِيْ والظَّلَمَةِ والمُنَافِقِينَ كَمَا تَتَقَرَّبُونَ إليهِ بِحُبِّ الصَّالِحِيْنَ ، أَشْعِرُوْهُمْ بِمَقْتِكُم لِآثَامِهِم ، وسَخَطِكُم عَلَى إِجْرَامِهِم ، ولا تَتَسَامَحُوْا فِيْمَا يَمَسُّ الدِّيْنَ وَلَا تَصْفَحُونَ عَمَّنْ يُحَارِبُ رَبَّ العَالَمِيْنَ ، وَلَوْ كَانَ أَقْرَبَ قَرِيْبٍ .

قال اللهُ جَلَّ وعَلَا لِأَشْرَفِ الخَلْقِ ﴿ وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِم شَيْئاً قَلِيْلَا إِذاً لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الحَيَاةِ وَضِعْفَ المَمَاتِ﴾ ، أَيْ لَوْ مِلْتَ إِلَيْهِمْ لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ عَذَابِ الحياةِ وَضِعْفَ عَذَابِ المَمَات أَيْ ضَاعَفْنَا عَلَيْكَ العَذَابَ في الدنيا والآخِرةِ ، لِأَنَّ الذَّنْبَ مِن العَظِيْم يَكُونَ عِقَابُهُ أَشَدَّ مِن غيرِهِ .

وَمِن ثَمَّ يكون عِقَابُ العُلَمَاءِ عَلَى زَلَّاتِهِم أَشَدَّ مِن عِقَابِ غَيرِهِم

مِن العَامَّةِ ، لأنَّهُم يَقْتَدُوْنَ بالعُلَماءِ ، رُوِيَ عَن قَتَادَةَ أنهُ قال لما نَزَلَ قُولُه تعالى ﴿ وإنْ كَادُوْا لَيَفْتِنُونَكَ عن الذي أَوْحَيْنَا إلَيْكَ﴾ الخ قال صلى اللهُ عليه وسلم « اللَّهُمَّ لا تَكِلْنِيْ إلى نَفْسِيْ طَرْفَةَ عَيْن » .

فَيَنْبَغِي لِلْمُؤْمِن أَنْ يَتَدَبَّرَ هَذِه الآيةَ وَيَسْتَشْعِرَ الخَشْيَةَ وَيَسْأَلَ الله أَنْ يُثَبِّتَهُ ، وَيَسْتَمْسِكْ بِأَهْدَابِ دِيْنِهِ ، وَيُكْثِرَ مِن قَولِ يا مُقَلِّبَ القُلُوبَ ثَبِّتْ قَلْبِي على دِيْنِكَ وَيَقُولَ كَمَا قالَ صَلى اللهُ عليهِ وسلم«اللَّهُمَّ لا تَكِلْنِي إلى نَفْسِيْ طَرْفَةَ عَيْنٍ » فإذا كانَ هَذَا الخِطَابُ لِأَشرَفِ الخَلْقِ فَكَيْفَ بِغَيْرِهِ .

وقال تعالى آمِراً رسولَهُ صلى اللهُ عليه وسلم بالإعْرَاضِ عَمَّنْ تَوَلَّى وَأَعْرَضَ عن الذِكْرِ الحَكِيْمِ والقُرآنِ العَظِيم ﴿ فَأَعْرِضْ عَمَّنْ تَولَّى عن ذِكْرِنَا ولَمْ يُرِدْ إلَّا الحياةَ الدُنيا ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِن العِلم﴾ وعلى العَكْسِ مَن أَقبلَ على كِتَابِ اللهِ وَوَقَّرَهُ وَقَدَّرَهُ وأَحَبَّهُ واتَّبعَهُ وَدَعَى إليه نَسْألُ اللهَ العظيمَ أنْ يَغْرِسَ مَحَبَّتَهُ في قُلُوبِنَا وَيَرْزُقَنَا تِلاوَتَهُ والعَمَل بِهِ .

وقال ابنُ عباسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا « مَنْ أَحَبَّ في اللهِ وعَادَى في اللهِ وَأَبْغَضَ في اللهِ وَوَالَى في اللهِ فإنَّمَا تُنَال وِلَايَةُ اللهِ بِذلِكَ » ، رواه ابن أبي شيبة وابن أبي حاتم .

وفي حديث رواه أبو نعيم وغيره عن ابن مَسْعُودٍ قَالَ قَالَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم أَوْحَى اللهُ إلى نَبِيٍ مِن الأَنْبِيَاءِ أَنْ قُلْ لِفُلَانٍ العَابِدَ أَمَّا زُهْدُكَ في الدُنيا فَتَعَجَّلْتَ رَاحةَ نَفْسِكَ وأما انْقِطَاعُكَ إلَيَّ فَتَعَزَّزْتَ بِهِ ، فَمَا عَمِلْتَ لِيْ عَلَيْكَ ، قَالَ يَا ربُّ وَمَالَكَ عَليَّ ، قالَ هَلْ وَالَيْتَ لِيْ وَلِياً ، أَوْ عَادَيْتَ لِيْ عَدُواً .

وقال تعالى ﴿ والذينَ كَفروا بعضُهم أولياءُ بَعضٍ إلَّا تَفْعَلُوهُ تكن فتنةٌ في الأرض وفسادٌ كبير ﴾ فَعَقَدَ تَعَالى المُوَالاةَ بَيْنَ المُؤْمِنِيْنَ ، وَقَطَعَهُم مِن وِلايَةِ الكَافِرِيْنَ وَأَخْبَرَ أَنَّ الكُفَّارَ بَعْضُهُم أَولِيآءُ بَعْض ، وَإِنَّ لَمْ يَفْعَلُوا ذَلِكَ وَقَعَ فِتْنَةٌ وَفَسَادٌ كَبِيْر ، وكَذَا يَقَعُ فَهَلْ يَتِمُّ الدِّيْنُ أَوْ يُقَامُ عَلَمُ الجِهَادِ وعَلَمُ الأَمْرِ بالمَعْرُوفِ والنَّهْي عن المُنْكَرِ إلا بالحُبِ في اللهِ والبُغْضِ في الله والمُعَادَاةِ في الله والمُوَالاَةِ في اللهِ .

وأَحْبِبْ لِحُبِّ اللهِ مَنْ كَانَ مُؤْمِناً
وَأَبْغِضْ لِبُغْضِ اللهِ أَهْلَ التَّمَرُّدِ
وما الدِّيْنُ إلَّا الحُبُّ والبُغْضُ والوَلَا
كَذَاكَ البَرَا مِن كُلِّ غاوٍ وَمُعْتَدِ

ولو كَانَ الناسُ مُتَّفِقِيْنَ على طَرِيْقَةٍ وَاحِدةٍ وَمَحَبَّةٍ مِن غَيْرِ عَداوَةٍ ولا بَغْضَاءَ لَمْ يَكُنْ فَرْقٌ بَيْنَ الحَقِّ والبَاطِلِ ولا بَيْنَ المُؤْمِنِينَ والكُفَارِ ولا بَيْنَ أَوْلِيَآءِ الرحمنِ وَأَوْلِيآءِ الشيطانِ .

وَمِن مُوَالاةِ الأَعْدَاءِ وَمُصَادَقَتِهم ما يَفْعَلُه كَثِيْرٌ مِن ضُعَفَاءِ الإيمانِ مِن الذهابِ إلى أَعْدَاءِ الله في أَيَّامِ أَعْيَادِهِم فَيَدْخُلُونَ في كَنَائِسِهم وَبُيُوتِهم وَأَنْدِيَتِهم وَيُهَنُّونَهُم بِأَعْيَادِهِم ، والعِيَاذُ باللهِ .

وقَد قِيْلَ في تَفْسِيْرِ قولِهِ تعالى والذينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّوْرَ أَنَّ المُرَادَ أَعْيَادُ المُشْرَكِيْنَ وقال عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عَنه إِيَّاكُمْ وَرَطَانَةُ الأَعَاجِمِ وأَنْ تَدْخُلُوا على المُشْرِكِين يَوْمَ عِيْدِهِم في كَنَائِسِهِم .

وقال رَضِيَ اللهُ عَنْهُ اجْتَنِبُوا أَعْدَاءَ اللهِ في عِيْدِهِم ، ومِن الأَعْيَادِ

المُحْدَثَةِ التي لا يَجُوزُ لِلْمُسْلِم حُضُورُهَا لأَنَّهَا أَعْيَادٌ بَاطِلَةٌ ما يُسَمَّى بِعِيْدِ الاسْتِقْلَالِ ، وعِيْدِ الجَلاَءِ وَعِيْدِ الجُلُوسِ وَعِيْدِ الثَّوْرَةِ ، وَنَحْوِ ذلكَ مِن أَعْيَادِ الكَفَرَةِ والمُنَافِقِين وَأَتْبَاعِهِم .

وقال الشيخُ حَمَدُ بنُ عَتِيْق رَحِمَهُ اللهُ ، ومِن أَعْظَم الوَاجِبَاتِ على المؤمِنِ مَحَبَّةُ اللهِ وَمَحَبَّةُ مَا يُحِبُّهُ مِنْ الأَقْوَالِ والأعمالِ الظَّاهِرَةِ والبَاطِنَةِ وكذا مَا يُحِبُّهُ مِن الأَشْخَاصِ كالملائكةِ ، وصَالِحِ بَنِيْ آدَمَ ، ومُوالاتِهِمْ وَبُغْضِ مَا يُبْغِضُهُ اللهُ ، مِن الأَقْوَالِ والأَعْمَالِ الظَّاهِرَةِ والبَاطِنَةِ ، وَبُغْضِ مَن فَعَلَ ذَلكَ فاذا رَسَخَ هَذَا الأصلُ في قَلْبِ المُؤْمِنِ لم يَطْمَئِنَّ إلى عدُوِّ اللهِ ، ولم يُجَالِسْهُ وَلَمْ يُسَاكِنْهُ وَسَاءَ نَظَرُهُ إليهِ .

فَلَمَّا ضَعُفَ هَذَا الأَصْلُ في قُلُوبِ كَثِيْرٍ مِن الناسِ واضْمَحَلَّ صَارَ كَثِيْرٌ مِنهم مَعَ أَوْلِيآءِ اللهِ كَحَالِهِ مَعَ أَعْدَاءِ اللهِ ، يَلْقَى كُلاً مِنْهُم بِوَجْهٍ طَلِقٍ ، وَصَارَت بِلاَدُ الحَرْبِ كَبِلاَدِ الإِسلامِ ، وَلَمْ يُخْشَ غَضَبُ اللهِ الذي لاَ تُطِيْقُ غَضَبَهُ السَّمواتُ والأَرْضُ والجِبَالُ الرَّاسِيَاتُ قُلْتُ فَكَيْفَ لو رَأى تدفقَ الكفرَة على المسلمين وتدفق الشبابِ على بلادِ الكُفْرِ .

وَلَمَّا عَظُمَتِ الفِتْنَةُ فِتْنَةُ الدُّنْيَا ، وَصَارَتْ أَكْبَرَ هَمِّهِمْ ، وَمَبْلَغَ عِلْمِهِم حَمَلَهُم ذَلِكَ عَلى التِمَاسِهَا وَطَلَبِهَا وَلَو بِمَا يُسْخِطُ اللهَ ، فَسَافَرُوْا إلى أَعْدَاءِ اللهِ في بِلاَدِهِم ، وَخَالَطُوهُمْ في أَوْطَانِهِم وَلَبَّسَ عَلَيْهِم الشَيطانُ أَمْرَ دِيْنِهِم فَنَسُوا عَهْدَ اللهِ وَمِيْثَاقَهُ الذي أَخَذَ عَلَيهم ، في مِثْلِ قَولِهِ ومَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوْهُ ، وما نَهَاكُم عَنه فَانْتَهُوْا .

وقال تَعَالى لَمَّا ذَكَر حَالَ المُنَافِقِيْنَ ﴿ أُولئكَ الذينَ يَعْلَمُ اللهُ ما في

قُلُوبِهِم ، فَأَعْرِضْ عَنْهُم وعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُم في أَنْفُسِهِم قَولاً بَلِيْغاً ﴾ قال بعضُ المُفَسِرِيْنَ ، أَمَرَ اللهُ نَبِيَّهُ صلى اللهُ عليهِ وسلم بالإعْرَاضِ عَن المُنَافِقِينَ واغْلاَظِ القَولِ عَلَيْهِم وأَنْ لاَ يَلْقَاهُم بوجْهِ طَلِقٍ ، بَلْ يَكُونُ وَجْهُهُ مُكْفَهِراً عَابِساً مُتَغَيِّراً مِن الغَيْظِ فاذا كَانَ هَذَا مَعَ المنافقين ، الذينَ بَيْنَ أَظْهُرِ المُسْلِمِينَ ، يُصَلُونَ مَعَهُم وَيُجاهِدُوْنَ مَعَهُم وَيَحُجُّونَ فَكَيْفَ بِمَنْ يُسَافِرُ إلى المُشْرِكينَ وَأَقامَ بَيْنَ أظهُرِهِمْ أَيَّاماً وَلَيَالِياً واسْتَأْذَنَ عَلَيهِم في بُيُوتِهِم وَبَدَأَهُم بالسَّلامِ وَأَكْثَرَ لَهُم التَّحِيَّةَ وَأَلآن لَهُمْ الكَلامَ وَلَيْسَ لَهُ عُذْرٌ إلا طلبُ العَاجِلَةِ ولم يَجْعَلِ اللهُ الدُنْيا عُذْراً لِمَن اعْتَذَرَ بِهَا قال تعالى ﴿ قل إنْ كَانَ آباؤكُم ﴾ الآية .

وقال في آخِرِ كَلاَمِهِ : فالوَاجِب على العاقل الناصحِ لِنفسهِ النَّظَرُ في أَمْرِهِ والفِكْرُ في ذُنُوبِهِ وَمُجَاهَدةُ نَفْسِهِ على التَّوبَةِ النَّصُوحِ ، والنَّدَمُ على مَا فَاتَ ، والعَزِيْمَةُ عَلى أَن لا يَعُودَ ، والتّبديلُ بالعَمَلِ الصَّالِحِ وَتَقْدِيمُ مَحَبَّةِ الله على جَمِيْعِ المَحَابِّ وايثَارُ مَرْضَاتِهِ على حُظُوظِ النَّفْسِ ، فَانَّ كُلَّ شَيءٍ ضَيَّعَهُ ابْنُ آدَمَ رُبَّمَا يَكُونُ لَهُ مِنه عَوَضٌ ، فإن ضيَّعَ حَظَّهُ مِن اللهِ لم يَكُنْ لَه عِوَضٌ ، قُلْتُ وقد أَحْسَنَ مَن قَال :

« مِنْ كُـلِّ شَيءٍ إذا ضَـيَّعْتَـهُ عَـوَضٌ
وَمَـا مِـن الـلهِ أنْ ضَـيَّعْتَـه عَـوَضُ »

وقَدْ خَابَ مَن كَانَ حَظُّهُ مِن اللهِ دُنْيَا يَحْتَلِبُ دَرَّهَا ، والخَاسِرُ مَن خَسِر دِيْنَهُ ، وانْ أَفَادَ في دُنْيَاهُ نسأل اللهَ بأَسْمائِه الحُسْنَى أَن يَأْخُذَ بِنَواصِيْنَا إليه وأن يُلْزِمَنَا كَلِمَةَ التَّقْوَى وأَنْ يَجْعَلَنَا مِن أَهْلِهَا وصلى الله عَلى محمدٍ وآله وسلم .

شـعراً :

بَكَيْتَ فَمَـا تَبْكِي شَبَـابَ صَبَـاكَـا
كَفَـاكَ نَـذِيْـرُ الشَّيْبِ فِيْـكَ كَفَـاكَـا
أَلَمْ تَـرَ أَنَّ الشَيْبَ قَـدْ قَـامَ نَـاعِيـاً
مَكَـانَ الشَّبَـابِ الغَضِّ ثُمَّ نَعَـاكَـا
أَلَـمْ تَـرَ يَـوْمـاً مَـرَّ إلا كَـأَنَّـهُ
بـاهـلاكـه لِـلْهَـالِكِيْـنَ عَـنَـاكَـا
أَلَا أَيُّهَـا الفَـانِي وقَـدْ حَـانَ حَيْنُـهُ
أَتَـطْمَـعُ أَنْ تَـبْقَى فَلَسْـتَ هُنَـاكَـا
سَتَمْضِيْ وَيَبْقَى مَـا تَـرَاهُ كَمَـا تَـرَى
فَـيَنْسَـاكَ مَـنْ خَـلَّفْتَـهُ هُـوَ ذَاكَـا
تَمُـوتُ كَمَـا مَـات الَّـذِينَ نَسِيْتَـهُمْ
وَتُنْسَى وَيَهْـوى الحَيُ بَعْـدَ هَـوَاكَـا
كَـأَنَّـكَ قَـدْ أُقْصِيْتَ بَعْـدَ تَـقَـرُّبٍ
إلَـيْـكَ وَإِنْ بَـاكٍ عَـلَيْـكَ بَـكَـاكَـا
كَـأَنَّ الـذِيْ يَحْثُـوْ عَلَيْـكَ مِن الثَّـرَى
يُـرِيْـدُ بِمَـا يَحْثُـو عَلَيْـكَ رِضَـاكَـا
كَـأَنَّ خُطُوْبَ الـدَّهْرِ لَمْ تَجْرِ سَاعَـةً
عَلَيْـكَ اذا الخَـطْبُ الجَلِيْـلُ دَهَـاكَـا
تَـرَى الأَرْضَ كَمْ فِيْهَـا رُهُـونٌ كَثِيْـرَةٌ
غَـلِقْنَ فَـلَمْ يَحْـصُـلْ لَهُـنَّ فِكَـاكَـا

اللهم انا نسألك التوفيقَ لِلْهدايةِ والبُعدَ عن أسبابِ الجهالةِ والغِوَايَةِ ونسألك الثباتَ على الاسلامِ والسنةِ ، وأن لا تَزِيْغَ قُلُوبَنَا بَعدَ اذ هَدَيْتَنَا ، وَنَعُوذُ بِكَ مِن مُضِلاَتِ الفِتَنِ ، مَا ظَهَرَ منها ومَا بَطَنَ ونسألكَ أَنْ تَنْصُرَ دِيْنَكَ ، وَكِتَابَكَ ورسولكَ وعبادَك المؤمنين وأن تُظْهِرَ دِيْنَك على الدين كلِهِ ولو كره الكافِرون والله أعلم وصلى الله على محمد .

(فَصْــلٌ)

وقال ابنُ رَجَبٍ رَحِمَهُ الله تعالى :

ومِن تمامِ مَحَبَّةِ اللهِ مَحَبَّةُ مَا يُحِبُّهُ ، وَكَرَاهَةُ مَا يَكْرَهُهُ ، فَمَنَ أَحَبَّ شَيْئاً مِمَّا كَرِهَهُ اللهُ ، أَوْ كَرِهَ شَيْئاً مِمَّا يُحِبُهُ اللهُ ، لم يَكْمُلْ تَوْحِيْدُهُ وصِدْقُهُ في قَولِهِ لاَ إِلهَ إِلا اللهُ ، وكانَ فِيه مِن الشِرْكِ الخَفي بحَسَبِ مَا كَرِهَهُ مِمَّا أَحَبَّه اللهُ ، وَمَا أَحَبَّه مِمَّا يَكْرَهُهُ الله .

قال اللهُ تعالى ﴿ ذلكَ بأنَّهم اتَّبَعُوا ما أَسْخَطَ اللهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فأحْبَطَ أَعْمَالَهُم﴾وقال الحسنُ إعْلَمْ أَنَّكَ لَنْ تُحِبَّ اللهَ حَتَّى تُحِبَّ طَاعَتَهُ وقال بَعْضُهم كُلُّ مَن ادَّعى مَحَبَّةَ اللهِ ولم يُوافِقِ اللهَ في أَمْرِهِ فَدَعْوَاهُ بَاطِلَةٌ .

وقال يَحْيَى بنُ مُعَاذٍ لَيْسَ بِصَادِقٍ مَنْ ادَّعَى مَحَبَّةَ اللهِ ولم يَحْفَظْ حُدُوْدَه ، وقال رُوَيْمُ المَحَبَّةُ الموافقَةُ في جَمِيْعِ الأحوالِ وانشد يقول :

« وَلَـوْ قُلْتَ لِيْ مُتْ مُتُّ سَمْعـاً وَطَـاعَـةً
وَقُلْتُ لِـدَاعِيْ المَـوْتِ أَهْــلاً وَمَـرْحَبَـا »

وَيَشْهَدُ لِهَذَا المَعْنَى قولُه تعالى ﴿ قُلِ إِن كُنْتُم تُحِبُونَ اللهَ فاتَّبِعُونِي يُحِبِبْكُم اللهُ ﴾ وقال الحَسَنُ قالَ أَصْحَابُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلم : إِنَّا نُحِبُّ رَبَّنَا حُباً شَدِيْداً ، فَأَحَبَّ اللهُ أَنْ يَجْعَلَ لِحُبِّهِ عَلاَمَةً فَأَنْزَلَ هَذِهِ الآية .

ومِنْ هُنَا يُعْلَمُ أَنَّه لا تَتِمُ شَهَادَةُ أَنْ لاَ إِلهَ إِلاَّ اللهُ إِلاَّ بِشَهَادَةِ أَنَّ مُحَمَّداً رسولُ اللهِ ، فإذا عُلِمَ أَنَّهُ لاَ تَتِمُ مَحَبَّةُ اللهِ إلا بِمَحَبَّةِ ما يُحِبُّهُ وَكَرَاهَةِ مَا يَكْرَهُهُ ، فَلاَ طَرِيْقَ إِلى مَعْرِفَةِ مَا يُحِبُّهُ وَيَكْرَهه إِلاَّ باتِّبَاعِ مَا أَمَرَ بِهِ واجْتِنَابِ ما نَهَى عَنْهُ ، فَصَارَتْ مَحَبَّتُهُ مُسْتَلْزِمَةً لِمَحَبَّةِ رسُولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلم وَتَصْدِيْقِهِ وَمُتَابَعَتِهِ .

وَلِهَذَا قَرَنَ اللهُ مَحَبَّتَهُ وَمَحَبَّةَ رَسُولِهِ صلَّى اللهُ عليه وسلم في قوله تعالى ﴿ قُلِ انْ كَانَ آباؤُكُم وأَبْنَاؤُكُم وإِخْوانُكُم ﴾ إلى قَوْلِهِ ﴿ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِن اللهِ وَرَسُولِهِ ﴾ كمَا قَرَنَ طَاعَتَهُ وَطَاعَةَ رَسُولِهِ في مَوَاضِعَ كَثِيْرَةٍ .

وقال صَلَّى اللهُ عليه وسلم ثلاثٌ مَن كُنَّ فيه وَجَدَ بِهِنَّ حَلاَوَةَ الإِيمانِ ، أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُه أَحَبَّ إِليهِ مِمَّا سِوَاهُمَا ، وأَنْ يُحِبَّ المرءَ لاَ يُحِبُهُ إِلا لِلهِ ، وأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَرْجِعَ إِلى الكُفْرِ بَعْد إِذْ أَنْقَذَهُ اللهُ مِنهُ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُلْقَى في النارِ ، وَهَذِهِ حَالَةُ السَّحَرَةِ لَمَّا سَكَنَتْ المَحَبَّةُ في قُلُوبِهِم سَمَحُوا بِبَذْلِ نُفُوسِهِم ، وقالُوا لِفِرْعَونَ اقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ .
وَمَتى تَمَكَّنَتِ المَحَبَّةُ مِن القَلْبِ لَمْ تَنْبعِثِ الجَوَارِحُ إِلاَّ إِلى طاعةِ الربِ ، وَهَذا مَعْنَى الحَدِيْثِ الإِلهي « ولا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِليَّ بالنوافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الذي يَسْمَعُ بِهِ ، وَبَصَرَهُ الذي يُبْصِرُ بِهِ

وَيَدَهُ التي يَبْطِشُ بِهَا وَرِجْلَهُ التي يَمْشِيْ بها » وفي بَعْضِ الرِوَايَاتِ فَبِيْ يَسْمَعُ وَبِي يُبْصِرُ .

والمَعْنَى أَنَّ مَحَبَّةَ اللهِ إِذَا اسْتَغْرَقَ بِهَا القَلْبُ واسْتَوْلَتْ عَلَيْهِ لَمْ تَنْبَعِث الجَوَارِحُ إِلَّا إِلى رِضَا الرَّبِ ، وَصَارَتِ النَّفْسُ مُطْمَئِنَةً حِيْنَئِذٍ بِإِرادَةِ مَوْلَاهَا عَن مرادِهَا وَهَواهَا ، وفي بعض الكتب السابقة مَن أحَب الله لم يكن شيء عِنْدَهُ آثر من رضاه .

وقال : لا يَنْجُو غداً إِلَّا مَن أَتَى اللَّهَ بقَلْبٍ سَلِيْم ، لَيْسَ فِيْهِ سِواهُ ، قال تعالى ﴿ يَوْمَ لا يَنْفَعُ مَالٌ ولا بَنُونَ إِلَّا مَن أَتَى اللهَ بقَلْبٍ سَلِيْم ﴾ وهُوَ الطَّاهِرُ مِن أَدْنَاسِ المُخَالَفَاتِ .

فأَمَّا المُتَلَطِّخُ بِشَيءٍ مِن المُكْرُوْهَاتِ ، فَلَا يَصْلَحُ لِمُجَاوَرَةِ حَضْرةِ القُدُّوْسِ إِلَّا بَعْدَ أَنْ يُطَهَّرَ بِكِيْرِ العَذَابِ فإِذَا أَزَالَ عَنْهُ الخَبَثَ صَلَحَ حِيْنَئِذٍ لِلْمُجَاوَرَةِ إِنَّ اللهَ طَيِّبٌ لا يَقْبَلُ إلا طَيِّبًا ، فأَمَّا القُلُوبُ الطَّيبَةُ فَتَصْلُحُ لِلْمُجَاوَرَةِ مِن أَوَّلِ الأَمْرِ ﴿سَلَامٌ عَلَيْكم بما صَبَرْتُم فَنِعْمَ عُقْبَي الدَّار﴾ ﴿سلامٌ عَلَيْكُم فادْخُلُوْهَا خالدين﴾ ﴿ الذينَ تَتوفَاهُم الملائكةُ طَيِّبِيْنَ يقولون سَلام عليكم ادخُلُوا الجنةَ بما كنتم تعملون ﴾ .

مَنْ لَمْ يُحرِّقْ نَفْسَهُ اليومَ بِنَارِ الأَسَفِ عَلى مَا سَلَفَ أَوْ بِنَارِ الشَّوْقِ إِلى لِقَاءِ الحَبِيْبِ ، فَنَارُ جَهَنَّم أَشَدُّ حَراً مَا يَحْتَاجُ إِلى تَطْهِيرٍ بِنَارِ جَهَنَّمَ إِلا مَنْ لَمْ يُكَمِّل التَّوْحِيْدَ والقِيَامَ بحُقُوقِهِ .

أَوَّلُ مَن تُسَعَّرُ بِهِمُ النَّارُ مِن المُوَحِّدِيْنَ المُرَاؤُوْنَ بأَعْمَالِهِم وَأَوَّلُهُم العَالِمُ والمُتَصَدِّقُ والمُجَاهِدُ لِلرِّيَاءِ ، ولأَنَّ الرِيَاءَ شِرْكٌ ما تَظَاهَرَ المُرائِي

إلى الخَلْقِ بِعَمَلِهِ إلا لِجَهْلِهِ بِعَظَمةِ الخَالِقِ ، المُرَائِي يُزَوِّرِ التَّوْقِيْعَ على اسْمِ المَلِكِ لِيَأْخُذَ البَرَاطِيْلَ لِنَفْسِهِ ، وَيُوْهِمُهُمْ أَنَّهُ مِن خَاصَّةِ المَلِكِ ، وَهُوَ مَا يَعْرِفُ المَلِكَ بالكُلِّيَةِ ، نَقَشَ المُرَائِي عَلى الدِّرْهَمِ الزَائِفِ اسْمَ المَلِكِ لِيُرَوِّجَ والبَهْرَجُ لا يَجُوْزُ إلاَّ على غَيْرِ النَّاقِدِ .

وقال ابنُ القِيَم رَحِمَهُ اللهُ مَن أَحَبَّ شَيْئاً سِوَى اللهِ ولم تَكُنْ مَحَبَّتُهُ لَهُ لِلهِ ولا لِكَوْنِهِ مُعِيْناً لَهُ على طاعةِ اللهِ ، عُذِّبَ بِهِ في الدنيا قَبْلَ اللِّقَا كما قِيْلَ :

أَنْتَ القَتِيْلُ بِكُلِّ مَنْ أَحْبَبْتَهُ
فَاخْتَرْ لِنَفْسِكَ في الهَوَى مَن تَصْطَفِي

فإذا كانَ يومُ القِيَامَةِ ، وَلَّى الحَكَمُ العَدل سُبْحَانَهُ كُلَّ مُحِبٍّ ما كَانَ يُحِبُّهُ في الدُنْيَا فَكَانَ مَعَهُ إمَّا مُنَعماً وإمَّا مُعَذَّباً ، ولِهَذَا يُمَثَّلُ لِمُحِبِ المَالِ مَالُهُ شُجَاعاً أَقْرَعَ ، يَأْخُذُ بِلِهْزِمَتَيْهِ ، يَقُولُ أَنَا مَالُكَ أَنا كَنْزُكَ وَيُصَفَّحُ لَهُ صَفَائِحَ مِن نَارٍ يُكْوَى بِهَا جَنْبُهُ ، وَجَبِيْنُهُ ، وَظَهْرُهُ .

وكذا عَاشِقُ الصُوَرِ إذَا اجْتَمَعَ هُوَ وَمَعْشُوْقُهُ على غَيْرِ طَاعَةِ اللهِ ، جُمِعَ بَيْنَهُمَا في النارِ وَعُذِّبَ كُل مِنْهُمَا بِصَاحِبِهِ ، قال تعالى ﴿ الأخلاَّءُ يومَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌ إلا المُتَقِيْنَ ﴾ وَأَخْبَرَ سُبْحَانَهُ أَنَّ الذينَ تَوَادُّوْا في الدُنْيَا عَلَى الشِرْكِ يَكْفُرُ بَعْضُهُم بِبَعْضٍ يَوْمَ القِيَامَةِ ، وَيَلْعَنُ بَعْضُهُم بَعْضاً وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَمَالَهُمْ مِن نَاصِرِيْن .

فالمُحِبُّ مَعَ مَحْبُوْبِهِ دُنْيَاً وأُخْرَى ، وَلِهَذَا يَقُولُ تَعَالَى يومَ القِيَامَةِ لِلْخَلْقِ أَلَيْسَ عَدْلاً مِنِّي أَنْ أُوَلِيْ كُلَّ رَجُلٍ مِنْكُمْ مَا كَانَ يَتَوَلَّى في دَارِ

الدُنْيَا قال صلى الله عليه وسلم المَرْءُ مَن أَحَبَّ .

وقال تعالى ﴿ ويومَ يَعَضُ الظَّالِمُ على يَدَيْهِ يَقُولُ يَالَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيْلاَ يَا وَيْلَتَا لَيْتَنِي لم أَتَّخِذْ فُلاَناً خَلِيْلاَ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَني وكان الشيطانُ لِلإنسانِ خذولا ﴾ .

وقال تعالى ﴿ أُحْشُرُوْا الذينَ ظَلَمُوا وأَزْوَاجَهُم ومَا كَانُوا يَعْبُدونَ مِن دون الله ﴾ إلى قوله ما لكم لا تناصرون ، قال عُمَرُ بـنُ الخطابِ رضي الله عنه أَزْوَاجَهُم أَشْبَاهُمُ وَنُـظَرَاؤُهُم ، وقال تعـالى ﴿ وإذا النُفُوسُ زُوِّجَتْ ﴾ .

فَقُرِنَ كُلُّ شَكْلٍ إلى شَكْلِهِ ، وَجُعِلَ مَعَه قَرِيْنَا وَزَوْجاً ، البَرُّ مَعَ البَرِ والفَاجِرُ مَعَ الفَاجِرِ .

والمَقْصُودُ أَن مَنْ أَحَبَ شَيْئاً سِوَى اللهِ فالضَّرَرُ حَاصِلٌ لَهُ بِمَحْبُوبِهِ إِنْ وُجِدَ وَإِن فُقِدَ ، فإِنَّهُ إِنْ فَقَدَهُ عُذِبَ بِفَوَاتِهِ ، وَتَأَلَّمَ على قَدْرِ تَعَلُّقِ قَلْبِهِ بِهِ ، وانْ وَجَدَهُ كَانَ مَا يَحْصُلُ له مِن الألمِ قَبْلَ حُصُولِهِ ، ومِن النَّكَدِ في حَالِ حُصُوْلِهِ ، وَمِن الحَسْرَةِ عليهِ بَعْدَ فَوَاتِهِ ، أَضْعَافُ مَا فِي حُصُولِهِ لَهُ مِن اللَّذَةِ .

وَهَذَا الأَمْرُ مَعْلُومٌ بالاسْتِقْرَاءِ ، والاعْتِبَارِ ، والتَّجَارُبِ ولِهَذَا قَالَ النَّبِيُ صلَّى اللهُ عليه وسلم في الحديثِ الذي رواه الترمذي وَغَيْرُهُ الدنيا مَلْعُونَةٌ مَلْعُونٌ ما فِيها إِلاَّ ذِكْرُ اللهِ وَمَا وَالاهُ .

فَذِكْرُهُ جَمِيْعُ أَنْوَاعِ طَاعَتِهِ فَكُلُ مَن كانَ في طَاعَتِهِ فَهُوَ في ذِكْرِهِ ، وانْ لَمْ يَتَحَرَّكْ لِسَانُهُ بالذِكْرِ ، وَكُلُّ مَن وَالاهُ اللهُ فقد أَحَبَّهُ وَقَرَّبَهُ فاللَّعْنَةُ لا تَنالُ ذلكَ بِوَجْهٍ وَهِيَ نَائِلَةٌ كُلَّ مَا عَدَاه .

مَــوعظــة

عِبَادَ اللهِ إِنَّ لِكَلِمَةِ التَّوْحِيْدِ فَضَائِلُ عَظِيْمَةٌ لا يُمْكِنُ اسْتِقْصَاؤُهَا مِنْهَا أَنَّها كَلِمَةُ الإِسلامَ وأَنَّهَا مِفْتَاحُ دَارِ السَّلامِ فَيَا ذَوِيْ العُقُولِ الصِّحَاحِ وَيَا ذَوِيْ البَصَائِرِ والفَلَاحِ جَدِّدُوْا إِيْمَانَكُم في المَسَاءِ والصَّبَاحِ بِقولِ لَا إِلَهَ إِلا اللهُ مِن أَعْمَاقِ قُلُوبِكُم مُتَأَمِّلِيْنَ لِمَعْنَاهَا عَامِلِيْنَ بِمُقْتَضَاهَا .

عِبَادَ اللهِ مَا قَامَتِ السَّمواتُ والأَرْضُ ولا صَحَّتِ السُّنَّةُ والفَرْضُ ولا نَجَا أَحَدٌ يَومَ العَرْضِ إِلَّا بِلَا إِلَه إِلا اللهُ ولا جُرِّدَتْ سُيُوفُ الجِهَادِ ، ولا أُرْسِلَتِ الرُّسُلُ إِلى العِبَادِ ، إِلا لِيُعَلِّمُوهم العَمَلَ بِلَاإِلهَ إِلا اللهُ .

تَاللهِ إِنَّها كَلِمَةُ الحَقِ ، وَدَعْوَةُ الحَقِّ وَأَنَّها بَرَاءَةٌ مِن الشِرْكِ وَنَجَاةُ هَذَا الأَمْرِ وَلأَجْلِهَا خَلَقَ اللهُ الخَلْقَ ، كَمَا قال تعالى ﴿ وما أَرْسَلْنَا مِن رَسُولٍ إِلَّا نُوحي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنا فَاعْبُدُوْن ﴾ وقال تعالى ﴿ يُنَزِّلُ الملائِكَةَ بالرُّوْحِ مِن أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِن عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوْا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلا أَنَا فاتَّقُوْنِ ﴾ .

قال ابنُ عُيَيْنَةَ رَحِمَهُ اللهُ ما أَنْعَمَ اللهُ على عبدٍ مِن العِبَادِ نِعْمَةً أَفْضَلَ مِن أَنْ عَرَّفَهُ لَا إِلَهَ إِلا اللهُ ، وإِنَّ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ لأَهْلِ الجَنَّةِ كَالمَاءِ البَارِدِ لأَهْلِ الدُّنْيَا وَلأَجْلِهَا أُعِدَّتْ دَارُ الثَّوَابِ ، وَدَارُ العِقَابِ وَلأَجْلِهَا أَمِرَتِ الرُّسُلُ بالجِهَادِ .

فَمَنَ قَالَهَا عَصَمَ مَالَهُ وَدَمَهُ ، وَمَن أَبَاهَا فَمَالُهُ وَدَمُهُ حَلَالٌ ، وَبِهَا كَلَّمَ اللهُ مُوْسَى كِفَاحاً وَهِيَ أَحْسَنُ الحَسَنَاتِ كَمَا في المُسْنَدِ عن شَدَّادِ

بنِ أَوْسٍ ، وَعُبَادَةَ بنِ الصَّامِتِ رَضِيَ اللهُ عنهما أَنَّ النَّبِيَ صلَّى اللهُ عليه وسلم قالَ لِأَصْحَابِه ، ارْفَعُوا أَيْدِيَكُم وَقُولُوا لَا إِلهَ إِلا اللهُ ، فَرَفَعْنَا أَيْدِيَنَا سَاعَةً فَوَضَعَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلم يَدَهُ وقَالَ الحَمْدُ لِلهِ اللَّهُم بَعَثْتَنِي بِهَذِهِ الكَلِمَةِ ، وَأَمَرْتَنِي بِهَا وَوَعَدْتَنِي الجَنَّةَ وإِنَّكَ لا تُخْلِفُ المِيْعَاد .

ثُم قَالَ أَبْشِرُوْا ، فانَّ اللَّهَ قد غَفَرَ لَكُمْ وَهِيَ أَحْسَنُ الحَسَنَات ، وَهِيَ تَمْحُو الذُنُوبَ والخَطَايَا .

وفي سنن ابنِ مَاجَةَ عَن أُمِّ هَانِيءٍ عن النبي صلى الله عليه وسلم قال لَا إِلهَ إِلا اللهُ لا تَتْرُكُ ذنْباً ولا يَسْبِقُهَا عَمَلٌ ، وَرُوِيَ بَعْضُ السَّلَفِ بَعْدَ مَوْتِهِ في المَنَامِ فَقَالَ مَا أَبْقَتْ لَا إِلهَ إِلا اللهُ شَيْئاً وَهِيَ تُجَدِّدُ مَا دَرَسَ مِن الإِيمانِ في القَلْبِ .

وفي المسندِ أَنَّ النَّبِيَّ صلى اللهُ عليه وسلم قال لِأَصْحَابِهِ جَدِّدُوْا إِيْمَانَكُم قَالُوا كَيْفَ نُجَدِّدُ إِيْمَانَنَا قَالَ قُوْلُوا لَا إِلهَ إِلَّا اللهُ ، وهيَ الَّتِي لَا يَعْدِلُهَا شَيءٌ في الوَزْنِ ، فَلَو وُزِنَتْ بالسمواتِ والأَرْضِ لَرَجَحَتْ بِهِنَّ .

كَمَا في المسندِ عن عبدِ اللهِ بنِ عمروٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا عن النبي صلى الله عليه وسلم أَنَّ نُوحاً عليهِ السلامُ قالَ لِابْنِهِ عندَ مَوْتِهِ آمُرُكَ بِلَا إِلهَ إِلَّا اللهُ فانَّ السمواتِ السبعَ والأَرضِينَ السَّبْعَ لَو وُضِعْنَ في كَفَّةٍ وَوُضِعَتْ لَا إِلهَ إِلا اللهُ بِكَفَّةٍ لَرَجَحَتْ بِهِنَّ وَلَوْ أَنَّ السَّمواتِ السبعَ والأَرضِينَ كُنَّ في حَلَقَةٍ مُبْهَمَةٍ فَصَمَّتْهُنَّ لا إِلهَ إِلا اللهُ .

وإِنَّهَا تَرْجَحُ بالسمواتِ والأَرْضِ كَمَا في حَدِيْثِ عبدِ اللهِ بنِ عمروٍ

رَضِيَ اللهُ عنهُ أَنَّ مُوْسَى عليه السلامُ قالَ يَا رَبُّ عَلِّمْنِيْ شَيْئاً أَذْكُرُكَ وَأَدْعُوْكَ بِهِ ، قال يَا مُوْسَى قُلْ لَا إِلـٰهَ إِلا اللهُ قال مُوسى يا ربُّ كُلُّ عِبَادِكَ يَقُولُونَ هَذَا .

قال يَا مُوسَى قُلْ لَا إِلهَ إِلا اللهُ قال لا إِلهَ إِلا اللهُ إِنَّما أُرِيْدُ شيئاً تَخُصُّنِيْ بِهِ ، قَالَ يَا مُوْسَى لَوْ أَنَّ السمواتِ السبعَ والأَرضِيْنَ السَّبْعَ وَعامِرَهُنَّ غَيْرِي في كَفَّةٍ ولا إِلـٰهَ إِلَّا اللهُ في كفَّةٍ مَالَتْ بِهِنَّ لَا إِلـٰهَ إِلا اللهُ .

وكذلكَ تَرْجحُ في صَحَائِفِ الذُنُوْبِ ، كَمَا في حَدِيْثِ السِّجِلاتِ ، والبِطَاقَةِ ، وفي حديثِ عبدِ اللهِ بنِ عمـرٍو فِيْمَا أخرجه أحمدُ والنسائِيُ والترمذيُ عن النبي صلَّى الله عليه وسلم .

وهِيَ التي تَخْرِقُ الحُجُبَ ، حَتَّى تَصِلَ إلى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ ، وإِنَّهَا لَيْسَ لَها دُوْنَ اللهِ حِجَابٍ ، لِمَا تَقَدَّمَ وَلِمَا في التِرمِذِي عن عبدِ اللهِ بنِ عَمْرٍو وعن النبي صلى اللهُ عليه وسلم قَالَ لَا إِلـٰهَ إِلَّا اللَّهُ لَيْسَ لَها دُوْنَ اللَّه حِجَاب .

وَأَنَّهَا تُفْتَحُ لَهَا أَبْوابُ السَّمَاءِ كَمَا في حَدِيْثِ أَبِي هريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه عن النبي صلَّى الله عليه وسلم أنه قَالَ مَا مِن عَبْدٍ قال لَا إِلـٰهَ إِلَّا اللهُ مُخلصاً إلا فُتِّحَتَ لهَا أَبْوَابُ السماءِ حتى تُفْضِيْ إلى العَرْشِ .

وَيُرْوَى عن ابن عباسٍ رضِيَ اللهُ عنهما مَرْفُوْعَاً مَا مِنْ شَيْءٍ إلا بَيْنَهُ وبَيْنَ اللهِ حِجَابٌ ، إلا قَولُ لَا إِلهَ إلا اللهُ كَمَا أَنَّ شفتيْكَ لا تَحْجِبُهَا كذَلِكَ لا يَحْجِبُهَا شَيْءٌ حَتَّى تَنْتَهِيْ إلى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ .

وَوَرَدَ عن النبي صلى الله عليه وسلم مَنْ قال لَا إِلَهَ إلا اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيْكَ لَه ، لَهُ المُلْكُ ولَهُ الحَمْدُ وَهو على كُلِّ شيءٍ قَدِيْر مُخْلِصاً بِهَا قَلْبُهُ يُصَدِّقُ بِهَا لِسَانُهُ إلا فَتَقَ اللهُ لَهُ السَّمَاءَ فَتْقاً حَتَّى يَنْظُرَ إلى قَائِلِهَا مِن أَهْلِ الأَرْضِ ، وَحَقٌّ لِعَبْدٍ نَظَرَ اللهُ إليهِ أَنْ يُعْطِيهُ سُؤآلَهُ ، وهِيَ الكَلِمَةُ التِي يُصَدِّقُ اللهُ قَائِلَهَا .

كَمَا في حَدِيْثِ أَبِي هُرَيْرَةَ وَأَبِيْ سَعِيْدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا عن النبي صلَّى اللهُ عليهِ وسلم قالَ إذا قَالَ العبدُ لا إلهَ إلَّا اللهُ واللهُ أَكْبَرُ صَدَّقَهُ رَبُّهُ . وَقَال لَا إِلـهَ إلا أَنَا ، وأنا أَكْبَرُ ، وإِذَا قال لَا إِلهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيْكَ لَهُ قَالَ اللهُ لَا إِلـهَ إِلَّا أَنَا وَحْدِيْ لَا شَرِيْكَ لِيْ ، وَإِذا قَالَ لَا إِلهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيك لَه ، لَهُ المُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ ، قال اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا لِيْ المُلْكُ وَلِيَ الحَمْدُ ، وإِذَا قَالَ العَبْدُ لَا إِلَـهَ إِلَّا اللهُ ولَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إلا باللهِ قَالَ اللهُ لَا إِلهَ إِلَّا أَنا ولا حَوْلَ ولَا قُوَّةَ إلا بِيْ وكَانَ يَقُولُ مَن قَالَهَا في مَرَضِهِ ثُمَّ مَاتَ لَم تَطْعَمْهُ النارُ .

وهِيَ أَفْضَلُ مَا قَالَهُ النَّبِيُّونَ كَمَا وَرَدَ ذَلِكَ في دُعَاءِ عَرَفَةَ وهِيَ أَفْضَلُ الذِكْرِ كَمَا في حَدِيْثِ جَابِرٍ المَرْفُوعِ أَفْضَلُ الذِكْرِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وعن ابن عباس رَضِيَ الله عنهما أَحَبُّ كَلِمَةٍ إلى اللهِ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ ، لا يَقْبَلُ اللهُ عَمَلاً إلا بِهَا .

وهِيَ أَفْضَلُ الأَعْمَالِ ، وَأَكْثَرُهَا تَضْعِيْفاً وَتَعْدِلُ عِتْقَ الرِّقَابِ وَتَكُونُ حِرْزاً مِن الشَّيْطَانِ ، كما في الصَّحِيْحَيْنِ عن أبي هريرة رضيَ اللهُ عنه عن النبي صلَّى الله عليه وسلم قالَ مَن قال لَا إِلـهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، لَهُ الملكُ وله الحمدُ وهو على كلِّ شَيْءٍ قَدِيْرٌ في يَومٍ مَائَةَ

مَرَّةٍ ، كَانَتْ لَهُ عِدْلُ عَشْرُ رِقَابٍ ، وكُتِبَ لَهُ مائَةُ حَسَنَةٍ ، وَمُحِيَ عَنه مائَةُ سَيِّئَةٍ وَلَمْ يَأْتِ أَحَدٌ بِأَفْضَلَ مِمَّا جَاءَ بِهِ ، إِلَّا وَاحِدٌ عَمِلَ أَكْثَرَ مِنَ ذَلِكَ .

وَوَرَدَ أَنَّ مَن قَالَهَا عَشْرَ مَرَّاتٍ كَانَ كَمَنْ أَعْتَقَ أَرْبَعَةَ أَنْفُسٍ مِن وَلَدِ اسْمَاعِيلَ ، وفي الترمذي عن عُمَرَ مَرْفُوعاً مَن قَالَهَا إِذا دَخَلَ السُوقَ وَزادَ فِيهَا يُحْيِي وَيُمِيْتُ وَهُوَ حَيٌّ لا يَمُوْتُ بِيَدِهِ الخيرُ وَهُوَ على كُلِّ شَيْءٍ قَـدِيْرٌ كَتَبَ اللهُ لَهُ أَلْفَ أَلْفِ حَسَنَةٍ وَمَحَى عنه أَلْفَ سَيِّئَةٍ وَرَفَعَ لَهُ أَلْفَ أَلفِ دَرَجَةٍ وفي روايةٍ يُبْنَي لَهُ بَيْتاً في الجَنَّةِ .

وَمِن فَضَائِلِهَا أَنَّهَا أَمَانٌ مِن وَحْشَةِ القَبْرِ وَهَوْلِ المَحْشَرِ كَمَا في المُسْنَدِ وَغَيرِهِ عن النبي صلَّى الله عليه وسلم لَيس على أَهْلِ لا إِلهَ إلا اللهُ وَحْشَةٌ في قُبُوْرِهِم ولا في نُشُوْرِهِم ، وَكَأَنِّيْ بأهلِ لا إِلهَ إِلا اللهُ يَنْفُضُوْنَ التُرَابَ عن رُؤُوسِهِم وَيَقُوْلُونَ الحمـدُ لِلهِ الذي أَذْهَبَ عَنَّـا الحَزَنَ .

وفي حديثٍ مُرْسَلٍ مَنْ قَالَ لَا إِلـهَ إِلَّا اللهُ المَلِكُ الحَقُّ المُبِيْنُ كُلَّ يَوْمٍ مائَةَ مَرَّةٍ كانَتْ أَمَاناً مِن الفَقْرِ ، وَأُنْساً مِن وَحْشَةِ القَبْرِ ، واسْتُجْلِبَ بِهِ الغِنَى ، واسْتُقْرِعَ بِهِ بَابُ الجَنَّةِ وَهِيَ شِعَارُ المُؤْمِنِيْنَ إِذا قَامُـوْا مِن قُبُورِهِم .

ومِن فَضَائِلِهَا أَنَّها تَفْتَحُ لِقَائِلِهَا أَبْوَابَ الجَنَّةِ الثَّمَانِيَةَ ، يَدْخُلُ مِن أَيِّهَا شَاءَ وفي الصَّحِيْحَيْنِ عن عُبَادَةَ بنِ الصامِتِ رَضِيَ الله عنه عن النبي صلَّى الله عليه وسلم قالَ مَن شَهِدَ أَنْ لا إِلهَ إِلَّا اللهُ وَحَدَهُ لَا شَرِيْكَ لَهُ ، وأَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُوَرَسُولُهُ ، وأَنَّ عِيْسَى عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ ، وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا

إلى مَرْيَمَ وَرُوْحٌ مِنْهُ ، وأنَّ الجَنَّةَ حَقٌ ، والنارَ حَقٌ وأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لا رَيْبَ فيها ، وأنَّ اللهَ يَبْعَثُ مَن فِي القُبُورِ ، فُتِحَتْ لَهُ أَبْوابُ الجَنَّةِ الثَّمَانِيَةَ يَدْخُلُ مِن أَيِّهَا شَاءَ .

وفي حديثِ عبدِ الرحمن بن سَمُرَةَ رَضِيَ اللهُ عنه عن النبي صلَّى اللهُ عليه وسلم في قِصَّةِ مَنَامِهِ الطَّوِيْلِ ، وفيه قال رَأَيْتُ رَجُلاً مِن أُمَّتِي انْتَهَى إلى أَبْوَابِ الجَنَّةِ فأُغْلِقَتْ دُوْنَهُ ، فَجَاءَتْهُ شَهادَةُ أَنْ لاَ إِلهَ إلا اللهُ فَفَتَحَتْ لَهُ الأَبْوَابَ وأَدْخَلَتْهُ الجَنَّةَ .

وَمِن فَضَائِلِهَا أَنَّ أَهْلَهَا وإِنْ دَخَلُوا النَّارَ بِتَقْصِيْرِهِم في حُقُوقِهِم ، فانَّهُم لاَ بُدَّ أَنْ يَخْرُجُوا مِنها ، وفي الصحيحينِ عن أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عنه عن النبي صلَّى الله عليه وسلم يَقُولُ اللهُ وَعِزَّتِي وَجَلاَلِي وَكِبْرِيَائِي وَعَظَمَتِي لأُخرِجَنَّ مِنْهَا مَن قالَ لاَ إله إلاَّ اللهُ أهـ .

اللهم عَلِّمْنَا ما يَنْفَعُنَا وانْفَعْنَا بِمَا عَلَّمْتَنَا ولا تَجْعَلْ عِلْمَنَا وَبَالاً عَلَيْنَا اللَّهُمَّ قَوِي مَعْرِفَتَنَا بِكَ وَبِأَسْمَائِكَ وَصِفَاتِكَ وَنَوِّرْ بَصَائِرَنَا وَمَتِّعْنَا بِأَسْمَاعِنَا وَأَبْصَارِنَا وَقُوَّاتِنَا يا رَبَّ العالمين واغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَلِجَمِيْعِ المُسْلِمِيْنَ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وصلَّى الله على محمدٍ وعلى آلِهِ وصحبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

قال الشيخ سليمان بن سحمان رحمه الله :

رَسَائِلُ اخْوَانِ الصَّفَا والتَّوَدُدِ
إلى كُلِّ ذِيْ قَلْبٍ سَلِيْمٍ مُوَحِّدِ

وَمِن بَعْدِ حَمْدِ اللهِ والشُكْرِ والثَّنَا
صَلاةً وَتَسْلِيْماً عَلَى خَيْرِ مُرْشِدِ
وآلٍ وَصَحْبٍ والسلامُ عَلَيْكُمُ
بِعَدِّ وَمِيْضِ البَرْقِ أَهْلَ التَّوَدُّدِ
وَبَعْدُ فَقَدْ طَمَّ البَلاءُ وَعَمَّنَا
مِن الجَهْلِ بالدِّيْنِ القَوِيْمِ المُحَمَّدِي
بِمَا لَيْسَ نَشْكُوْ كَشْفَهُ وَانْتِقَادَنَا
لِغَيْرِ الإلهِ الوَاحِدِ المُتَفَرِّدِ
ولم يَبْقَ إلاَّ النَزْرُ في كُلِّ بَلْدَةٍ
يُعَادِيْهُمُ مِن أَهْلِهَا كُلُّ مُعْتَدِ
فَهُبُّوْا عِبَادَ اللهِ مِن نَوْمَةِ الرَّدَى
إلى الفِقْهِ في أَصْلِ الهُدَى والتَّجَرُّدِ
وَقَدْ عَنَّ أَنْ نُهْدِيْ إلى كُلِّ صَاحِبٍ
نَضِيْداً مِن الأَصْلِ الأَصِيْلِ المُؤَطَّدِ
فَدُوْنَكَ مَا نُهْدِي فَهَلْ أَنْتَ قَابِلٌ
لِذَلِكَ أَمْ قَدْ غِيْنَ قَلْبُكَ بالرَّدِ
تَرُوْقُ لَكَ الدُنْيَا وَلَذَّاتُ أَهْلِهَا
كَأَنْ لَمْ تَصِرْ يَوْماً إلى قَبْرِ مَلْحَدِ
فان رمت أَنْ تَنْجُوْ مِن النارِ سَالِماً
وَتُحْظَى بِجَنَّاتٍ وَخُلْدٍ مُؤَبَّدِ
وَرَوْحٍ وَرَيْحَانٍ وَأَرْفَهِ حِبْرَةٍ
وَحُوْرِ حِسَانٍ كَاللَيَوَاقِيْتِ خُرَّدِ

فَحَقِّقْ لِتَـوْحِيْـدِ العِبَـادَةِ مُخْلِصـاً
بِـأَنْـوَاعِـهَـا لِـلَّهِ قصـداً وَجَـرِّدِ
وَأَفْـرِدْهُ بـالتَّعْـظِيْمِ والخَوْفِ والـرَّجَـا
وبـالـحُبِّ والـرُّغْبَى إلَيْـهِ وَجَـرِّدِ
وبـالنَّذْرِ والـذَّبْحِ الـذي أَنْتَ نَـاسِـكٌ
ولا تَسْتَغِثْ إلَّا بِـرَبِّـكَ تَـهْتَـدِ
وَلَا تَـسْتَـعِـنْ إلَّا بِـهِ وَبِـحَـوْلِـهِ
لَـهُ خَـاشِيـاً بَـلْ خَـاشِعـاً في التَّعَبُّـدِ
وَلَا تَـسْتَـعِـذْ إلا بِـهِ لَا بِـغَـيْـرِهِ
وَكُنْ لَائِـذَاً بـاللَّهِ في كُـلِّ مَقْصَـدِ
إلَيْـهِ مُـنِـيْـبـاً تَـائِـبـاً مُـتَـوَكِـلاً
عَلَيْـهِ وَثِقْ باللهِ ذِيْ العَـرْشِ تَـرْشُـدِ
وَلَا تَـدْعُ إلَّا الـلَّهَ لا شَـيْءَ غَـيْـرَهُ
فَـدَاعٍ لِـغَـيْـرِ الـلهِ غَـاوٍ وَمُـعْـتَـدِ
وفي صَرْفِهَا أَوْ بَعْضِهَا الشِّرْكُ قَدْ أَتَى
فَجَـانِبْـهُ واحْـذَرْ أنْ تَجِيءَ بُمؤيِـدِ
وَهَـذَا الذي فِيْـهِ الخصومة قَـدْ جَـرَتْ
عَلَى عَهْـدِ نُـوْحٍ والـنَّبِي مُحَـمَّـدِ
وَوَحِـدْهُ فـي أَفْـعَـالِـهِ جَـلَّ ذِكْـرُهُ
مُـقِـراً بـأَنَّ الـلهَ أَكْـمَـلُ سَـيِّـدِ
هُـوَ الخَـالِقُ المُحْيِي المُمِيْتُ مُـدَبِّرٌ
هُـوَ المَالِـكُ الـرَّزَاقُ فـاسْـأَلْـهُ واجْتَـدِ

إلى غَيْـرِ ذَا مِن كُـلِّ أَفْعَـالِهِ التِي
أَقَـرَّ وَلَمْ يَجْحَدْ بِهَـا كُـلُّ مُلْحِـدِ
وَوَحِّـدْهُ فِي أَسْمَـائِـهِ وصِفَـاتِـهِ
ولا تَـتَـاوَلْـهَـا كَـرَأْيِ الـمُـفَـنَّـدِ
فَـلَيْسَ كَمِثْـلِ الـلهِ شَـيْءٌ وَلَا لَـهُ
سَمِـيٌّ وَقُـلْ لَا كُـفْـوَ لـلهِ تَـهْتَـدِ
وَذَا كُـلُّهُ مَـعْـنَـى شَـهَـادَةِ أَنَّـهُ
إِلـهُ الـوَرَى حَـقـاً بِـغَـيْـرِ تَـرَدُّدِ
فَحَقِّـقْ لَهَـا لَـفْـظاً وَمَعْـنىً فَـإِنَّـهَـا
لَنِعْمَ الـرَّجَـا يَـوْمَ اللقَـا لِلْمُـوَحِّـدِ
هِيَ العُـرْوَةُ الـوُثْقَى فَكُنْ مُتَمَسِّكـاً
بِهَـا مُسْتَقِيْمـاً فِي الـطَّرِيْقِ المُحَمَّـدِي
فَـكُنْ وَاحِـداً فِي وَاحِـدٍ وَلِـوَاحِـدٍ
تَـعَـالَـى ولا تُـشْـرِكْ بِـهِ أَوْ تُـنَـدِّدِ
وَمَنْ لَمْ يُقَيِّـدْهَـا بِكُـلِّ شُـرُوْطِهَـا
كَمَـا قَـالَـهُ لأَعْـلَامُ مِن كُـلِّ مُهْتَـدِ
فَلَيْسَ عَلَى نَهْـجِ الشَّـرِيْعَـةِ سَـالِكـاً
وَلَـكِـنْ عَـلَى آراءِ كُـلِّ ملـدِّدِ
فَـأَوَّلُـهَـا العِـلْمُ المُـنَـافِي لِـضِـدِّهِ
مِن الجَهْـلِ إِنَّ الجَهْلَ لَيْسَ بِمُسْعِـدِ
فَلَوْ كَـانَ ذَا عِلْمٍ كَـثِيْـرٍ وَجَـاهِـلٌ
بِمَـدْلَـوْلِهَـا يَـوماً فَبـالجَهْـلِ مُـرْتَـدِ

وَمِن شَـرْطِهَا وَهُـوَ القَبُولُ وَضِـدُّهُ
هُـوَ الرَّدُ فـافْهَمْ ذَلِكَ القَيْدَ تَرْشُدِ
كَحَالِ قُرَيْشٍ حِيْنَ لَمْ يَقْبَلُوا الهُدَى
وَرَدُّوْهُ لَـمَّـا أنْ عَتَـوْا فـي التَّـمَـرُّدِ
وَقَـدْ عَلِمُـوْا مِنـهَـا المُـرَادَ وَأَنَّـهَـا
تَـدُلُ عَـلَى تَـوحِيْـدِهِ وَالـتَّـفَـرُّدِ
فَقَـالُـوا كَمَـا قَـدْ قَـالَـهُ اللَّهُ عَنْهُمُ
بِسُـوْرَةِ (صٓ) فـاعْلَمَنْ ذَاكَ تَهْتَـدِ
فَـصَـارَتْ بِـهِ أَمْـوَالُهُـمْ وَدِمَـاؤُهُـمْ
حَـلالاً وَأَغْـنَـامـاً لِكُـلِّ مُـوَحِّـدِ
وَثَـالِثُهَـا الإِخْـلَاصُ فـأَعْلَمْ وَضِـدُّهُ
هُـوَالشِّرْكُ بـالمَعْبُـودِ مِن كُـلِّ مُلْحِدِ
كَـمَـا أَمَـرَ الـلهُ الـكَـرِيْـمُ نَـبِيَّـهُ
بِسُـوْرَةِ تَنْـزِيْـلِ الكتـابِ المُمَجَّـدِ
ورَابِـعُهَـا شَـرْطُ الـمَحَبَّـةِ فَـلتَكُـنْ
مُـحِبـاً لِـمَـا دَلَّـتْ عَـلَيْـهِ مِـن الـهُـدِ
واخْـلاصُ أَنْـوَاعِ الـعِـبَـادَةِ كُـلِّهَـا
كَـذَا النَفْيُ لِلشِّـرْكِ المُفَنَّـدِ والـدَّدِ
وَمَـنْ كَـانَ ذَا حُـبٍ لِـمَـوْلَاهُ إِنَّـمَـا
يَـتِـمُّ بِـحُـبِّ الـدِّيْـنِ دِينِ مُحَمَّدِ
فَعَـادِ الـذِيْ عَـادَى لِـدِيْنِ مُحَمَّـدٍ
وَوَالِ الـذِي وَالَاهُ مِن كُـلِّ مُهْتَـدِ

وَأَحْبَبْ رَسُولَ اللهِ أَكْمَلَ مَن دَعَى
إِلى اللهِ والتَّقْوَى وأَكْمَلَ مُرْشِدِ
أَحَبَّ مِن الأَوْلَادِ والنَّفْسِ بَلْ وَمِنْ
جَمِيْعِ الوَرَى والمَالِ مِن كُلِّ أَتْلَدِ
وَطَارِفِهِ والوَالِدَيْنِ كِلَيْهِمَا
بِآبَائِنَا والأُمَّهَاتِ فَنَفْتَدِ
وأَحْبِبْ لِحُبِّ اللهِ مَن كَانَ مُؤْمِناً
وَأَبْغِضْ لِبُغْضِ اللهِ أَهْلَ التَّمَرُّدِ
وَما الدِّيْنُ إِلاَّ الحُبُّ والبُغْضُ والوَلاَ
كَذَاكَ البَرَا مِن كُلِّ غَاوٍ وَمُعْتَدِ
وَخَامِسُهَا فَالإِنْقِيَادُ وضِدُّهُ
هُوَ التَّرْكُ لِلْمَأْمُوْرِ أَوْ فِعْلُ مُفْسِدِ
فَتَنْقَادُ حَقاً بِالحُقُوْقِ جَمِيْعِهَا
وَتَعْمَلُ بِالمَفْرُوْضِ حَتْماً وَتَقْتَدِ
وَتَتْرُكُ مَا قَدْ حَرَّمَ اللهُ طَائِعاً
وَمُسْتَسْلِماً لِلهِ بِالقَلْبِ تَرْشُدِ
فَمَنْ لَمْ يَكُنْ لِلهِ بِالقَلْبِ مُسْلِماً
وَلَمْ يَكُ طَوْعاً بِالجَوارِحِ يَنْقَدِ
فَلَيْسَ عَلى نَهْجِ الشَّرِيْعَةِ سَالِكاً
وإِنْ خَالَ رُشْداً مَا أَتَى مِن تَعَبُّدِ
وَسَادِسُهَا وَهُوَ اليَقِيْنُ وَضِدُّهُ
هُوَ الشَّكُّ في الدِيْنِ القَوِيْمِ المُحَمَّدِي

وَمَنْ شَكَّ فَلْيَبْكِ عَلَى رَفْضِ دِيْنِهِ
وَيَعْلَمَ أَنْ قَدْ جَاءَ يَوماً بِمَوْئِدِ
وَيَعْلَمْ أَنَّ الشَّكَ يَنْفِي يَقِيْنَهَا
فَلا بُدَّ فِيْهَا بِاليَقِيْنِ المُؤَكَّدِ
بِهَا قَلْبُهُ مُسْتَيْقِناً جَاءَ ذِكْرُهُ
عَنِ السَّيِدِ المَعْصُومِ أَكْمَلَ مُرْشِدِ
وَلَا تَنْفَعُ المَرْءَ الشَهادَةُ فَاعْلَمَنْ
إِذَا لَمْ يَكُنْ مُسْتَقِيْناً ذَا تَجَرُّدِ
وَسَابِعُهَا الصِّدْقُ المُنَافِي لِضِدِّهِ
مِن الكَذِبِ الدَّاعِي إِلَى كُلِّ مُفْسِدِ
وَعَارِفُ مَعْنَاهَا إِذا كَانَ قَابِلاً
لَهَا عَامِلاً بِالمُقْتَضَى فَهْوَ مُهْتَدِ
وَطَابَقَ فِيْهَا قَلْبُه لِلسَانِهِ
وعن وَاجِبَاتِ الدِيْنِ لَم يَتَبَلَّدِ
وَمَنْ لَمْ تَقُمْ هَذِهِ الشُرُوْطُ جَمِيْعُهَا
بَقَائِلِها يَوْماً فَلَيْسَ عَلَى الهُدِي
اذا صَحَّ هَذَا واسْتَقَرَّ فَانَّمَا
حَقِيْقَتُهُ الاسلامُ فَاعْلَمْهُ تَرْشُدِ
وإن لَهُ ـ فَاحْذَرْ هُدِيْتَ ـ نَوَاقِضاً
فَمَنْ جَاءَ مِنها نَاقضاً فَلْيُجَدِّدِ
فَقَدْ نَقَضَ الإِسلامَ وارْتَدَّ واعْتَدَى
وزَاغَ عن السَّمْحَاءِ فَلْيَتَشَهَّدِ

فَمِنْ ذَاكَ شِـرْكٌ في العِبَـادَةِ نَـاقِضٌ
وَذَبْـحٌ لِـغَيْـرِ الـوَاحِـدِ الـمُـتَـفَـرِّدِ
كَمَنْ كَـانَ يَغْـدُوْ لِلْقِبَـابِ بِـذَبْحِـهِ
ولِـلْجِنِ فِـعْـلَ المُـشـرِكِ المُـتَـمَـرِّدِ
وجَـاعِـلِ بَيْنَ اللهِ ـ بَغْيـاً ـ وَبَيْنَـهُ
وَسَـائِطَ يَـدْعُـوْهُـمْ فَلَيْسَ بِـمُهْتَـدِ
وَيَـطْلُبُ مِنْهُم بـالخضُـوعِ شَفَـاعَـةً
إلى اللهِ والـزُلْـفَى لَـدَيْـهِ وَيَـجْتَـدِ
وَثَـالِـثُهَـا مَـن لَمْ يُـكَفِّـرْ لِـكَـافِـرٍ
وَمَـنْ كَـانَ في تَـكـفِـيْـرِهِ ذَا تَـرَدُّدِ
وَصَحَّـحَ عَمْداً مَـذْهَبَ الكُفْرِ والـرِّدَى
وذَا كُلُّهُ كُفْـرٌ بـاجْمَـاعِ مَن هُـدِي
وَرابِـعُهَـا فـالاعْـتِـقَـادُ بـأنَّـمَـا
سِوَى المُصْطَفَى الهَادِيْ وَأَكْمَلِ مُرْشِدِ
لأَحْسَنُ حُكْمـاً في الأُمُـورِ جَمِيْعِهَـا
وَأَكْمَـلُ مِنْ هَـدْيِ النبيِ مُحَمَّـدِ
كَحَـالَـةِ كَعْبٍ وابنِ أَخْـطَبَ والـذِي
عَلَى هَـدْيِهِم مِن كُـلّ غَـاوٍ وَمُعْتَـدِ
وَخَـامِسُهَا يَـا صَاحِ مَنْ كَـانَ مُبْغِضَـاً
لِشَيْءٍ أَتَى مِن هَـدْي أَكْـمَـلِ سَيِّـدِ
فَقَـدْ صَـارَ مُـرْتَـداً وانْ كَـانَ عَـامِـلاً
بِـمَـا هُـوَ ذَا بُغْضٍ لَـهُ فَـلْيُـجَـدِّدِ

وَذَلِكَ بالاجْمَاعِ مِن كُلِّ مُهْتَدِ
وقد جَاءَ نَصٌ ذِكْرُهُ في (مُحَمَّدِ)
وَسَادِسُهَا مَن كَانَ بالدِيْنِ هازِئاً
ولو بعِقَابِ الوَاحِدِ المُتَفَرِّدِ
وَحُسْنُ ثَوَابِ اللهِ للعبد فَلْتَكُنْ
عَلى حَذِرٍ مِن ذلكَ القِيْلِ تَرْشُدِ
وَقَدْ جَاءَ نَصٌ في (بَرَاءَةَ) ذِكْرُهُ
فَرَاجِعْهُ فِيها عِندَ ذِكْرِ التَّهَدُّدِ
وَسابِعُهَا مَنْ كَانَ لِلسِّحْرِ فاعِلاً
كَذَلكَ رَاضٍ فِعْلَهُ لَم يُفَنِّدِ
وفي سُوْرَةِ (الزَّهْرَاءِ) نَصٌ مُصَرِّحٌ
بِتَكْفِيْرِهِ فاطْلُبْه مِن ذَاكَ تَهْتَدِ
وَمِنه لَعَمْرِي الصَّرْفُ والعَطْفُ فاعْلَمَنْ
أَخِيْ حُكْمَ هَذَا المُعْتَدِي المتمَرِّدِ
وَثَامِنُهَا وهِيَ المُظَاهَرَةُ الَّتِي
يُعَانُ بِهَا الكفارُ مِن كُلِّ ملحِدِ
على المُسْلِمِيْنَ الطائِعِينَ لِرَبِهِم
عِيَاذاً بِكَ اللَّهُمَّ مِن كُلِّ مُفْسِدِ
وَمَن يَتَولَّى كَافِراً فَهْوَ مِثلُهُ
وَمِنْهُ بلا شَكٍ بِهِ أَوْ تَرَدُّدِ
كَمَا قَالَه الرَّحْمن جَلَّ جَلالُهُ
وَجَاءَ عن الهادِي النبيِ مُحَمَّدِ

وتـاسِعُهَـا وَهُـوَ اعْـتِـقَـادٌ مـضَـلِّلٌ
وصـاحِبُـهُ لا شَـكَ بـالكُفْـرِ مُـرْتَـدِ
كَـمُعْـتَقِـدٍ أَنْ لَـيْسَ حَـقـاً وَوَاجِـبـاً
عَلَيـه اتِّبـاعُ المُصْـطَفَى خَيْرِ مُـرْشِـدِ
فَـمَنْ يَـعْتَـقِـدْ هَـذَا الضَّـلَالَ وأَنَّـهُ
يَسَعْـهُ خُـرُوْجٌ عَن شَـرِيْعَـةِ أَحْمَـدِ
كَمَـا كَانَ هَـذَا في شَـرِيْعَـةِ مَن خَـلاَ
كَصَـاحِبِ مُـوْسَى حَيْثُ لَمْ يَـتَقَيَّـدِ
هُوَ الخَضِرُ المَقْصُوصُ في (الكهفِ) ذِكْرُهُ
وَمُـوْسَى كَلِيْمِ اللهِ فـافْهَمْ لِمَقْصَـدِ
وَهَـذَا اعْـتِقَـادٌ لِـلْمَـلاحِـدَةِ الأُولَى
مَشَـايِـخِ أَهْـلِ الإِتِّحَـادِ الـمُفَنَّـدِ
كَنَحْـوِ ابنِ سِيْنَـا وابنِ سَبْعِيْنَ والـذي
يُسَمَّى ابْنَ رُشْـدٍ والـحَفِيْـدِ المُـلَدَّدِ
وَشَيْخِ كَبِيْرٍ في الضَـلَالَةِ صَـاحِبُ الْـ
ـفُصُـوصِ وَمَن ضَاهَـاهُمُ في التَّمَـرُّدِ
وَعَـاشِـرُهَـا الإِعْـرَاضُ عن دِيْنِ رَبِّنَـا
فَـلاَ يَـتَـعَـلَّمْـهُ فَـلَيْسَ بِـمُـهْـتَـدِ
وَمَن لَمْ يَكُنْ يَـوماً مِن الـدَّهْرِ عَـامِلاً
بِـهِ فَهُـوَ في كُـفْـرَانِـهِ ذُوْ تَعَـمُّـدِ
وَلاَ فَـرْقَ في هَـذِي النَـواقِضِ كُلِّهَـا
إِذا رُمْـتَ أَنْ تَنْجُـوْ وَلِلْحَـقِّ تَهْـتَـدِ

هُنَالِكَ بَيْنَ الهَزْلِ والجِدِّ فاعْلَمَنْ
ولا رَاهِب منهم لِخَوْفِ التَّهَدُّدِ
سِوَى المُكْرَهِ المَضْهُودِ إِنْ كَانَ قَدَ أَتَى
هُنَالِكَ بِالشَّرْطِ الأَطِيْدِ المُؤَكَّدِ
وَحَاذِرْ، هَدَاكَ اللهُ، مِن كُلِّ نَاقِضٍ
سِوَاهَا، وَجَانِبْهَا جَمِيْعَاً لِتَهْتَدِ
وَكُنْ بَاذِلاً لِلْجِدِّ والجُهْدِ طَالِباً
وَسَلْ رَبَّكَ التَّثْبِيْتَ أَيَّ مُوَحِّدِ
وإِيَّاهُ فارْغَبْ في الهِدَايَةِ لِلْهُدَى
لَعَلَّكَ أَنْ تَنْجُوْ مِن النارِ في غَدِ
وَصَلِ الهِي مَا تَأَلَّقَ بَارِقٌ
وما وَخَدَتْ قُودٌ بِمَوْرٍ مُعَبَّدِ
تَؤُمُّ إِلى البَيْتِ العَتِيْقِ وَمَا سَرَى
نَسِيْمُ الصَّبَا أَو شَاقَ صَوْتُ المُغَرِّدِ
وَمَا لاَحَ نَجْمٌ في دُجَى اللَّيْلِ طَافِحُ
وما انْهَلَّ صَوْبٌ في عَوَالٍ وَوُهَّدِ
على السَّيِدِ المَعْصُومِ أَفْضَلَ مُرْسَلٍ
وأَكْرَمَ خَلْقِ اللهِ طُراً وَأَجْوَدِ
وآلٍ وَأَصْحَابٍ وَمَن كَانَ تَابِعاً
صَلاةً دَوَاماً في الرَّوَاحِ وفي الغَدِ

اللهم مَكِّنْ مَحَبَّتَكَ في قُلُوبنا وَقَوِّهَا وَنَوِّرْ قُلُوبَنَا بنُوْرِ الإيمانِ وألْهِمْنَا

ذِكْرَكَ وشُكْرَكَ بِحضُوْرِ قَلْبٍ واجْعَلَنا هُدَاةً مُهْتَدِيْنَ وآتنَا في الدُّنْيَا حَسَنَةً وفي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النارِ واغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَجمِيْعِ المُسْلِمِيْنَ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وصلَّى الله على محمدٍ وعلى آلِهِ وصَحْبِهِ أَجْمَعِيْن .

فهرس الكتاب الجزء الأول

الموضوع	الصفحة
خطبة الكتاب	٥
تعريف التوبة وبيان شروطها وحكمها	٨ - ٩
النصح في التوبة وما يتضمنه والحث عليها والاجماع على وجوبها والأدلة على ذلك	٩ - ١٢
ما ذكره ابن القيم من آثار المعاصي وذكر أضرارها	١٣ - ١٦
أمثلة لأضرار الذنوب والمعاصي في الأمم الماضية	١٨
قصيدة زهدية ، الصغيرة من الذنوب تعظم باسباب	١٩ - ٢١
أدلة قبول التوبة اذا اجتمعت شروطها وانتفت الموانع	٢٢ - ٢٤
قصيدة في مدح رب العزة وتضرع اليه	٢٥
صاحب البصيرة اذا صدرت منه الخطيئة نظر الى أمور	٢٧ - ٢٩
ما يستفيده من نظره الى الأمور المذكورة	٣٠ - ٣١
علامات التوبة المقبولة ذكرها ابن القيم رحمه الله	٣٢
وما قاله على قول صاحب المنازل حول هذا الموضوع	٣٣ - ٣٤
موعظة من الأمام علي رضي الله عنه وهي وصية لابنه	٣٥ - ٣٦
طبقات المغتربين والتحذير من طريقتهم المذكورة	٣٨ - ٤٥
خطبة لعمر بن عبد العزيز وبعدها قصيدة زهدية	٤٦ - ٤٧
فصل في العلم وفضله وتعريفه ومن مزايا سلفنا الصالح	٤٨ - ٤٩
كل من آثر الدنيا من أهل العلم فلا بد أن يقول على الله غير الحق	٥٠ - ٥٢
قصيدة تحتوي على الحث على طلب العلم	٥٣ - ٦٤
مما ورد في فضل العلم من الأحاديث	٦٤ - ٧٣
كلام ابن القيم في العلم وفضله وشرفه وعموم الحاجة اليه بل الضرورة	٧٣ - ٧٦

الموضوع	الصفحة
قصيدة في الحث على طلب العلم وبيان فضله	٧٧ – ٨٣
بقية كلام ابن القيم رحمه الله حول فضل العلم وشرفه	٨٣ – ٨٩
ما قاله العلماء والأدباء والحكماء في فضل العلم والحث عليه	٨٩ – ٩٥
أبيات في مدح العلم وفضله وشرفه	٩٥ – ١٠١
قصيدة لابن مشرف في مدح العلم	١٠١ – ١٠٧
حث على الاخلاص في العلم وغيره وما ورد في ذلك	١٠٦ – ١٠٩
قصيدة في مدح العلم وذكر بعض ثمراته	
النية عليها مدار الأعمال فلعتنا بها	١٠٩ – ١١١
ناوي الخير لا يزال عاملا وان لم يعمل والأدلة على ذلك	١٠٢ – ١١٤
الآفات التي تعرض للعامل وعلاج ذلك	١١٤ – ١١٥
الرياء يبطل الاعمال والحث على معرفة ما يفسد العمل من رياء أو نحوه	١١٥ – ١١٦
ذكر بعض فوائد الاخلاص وبعد ذلك موعظة	١١٧ – ١١٩
فصل في محاسبة النفس والطريق اليها وبماذا تحصل	١٢٠ – ١٢١
حق على العاقل أن لا يغفل عن أربع ساعات ،	١٢٢
محاسبة النفس لها ثلاثة أركان	١٢٣
النفس منبع كل شر وأساس كل نقص ولا بد من سوء الظن بها ومشارطتها على حفظ الجوارح	١٢٤ – ١٢٥
موعظة بليغة في الحث على التفتيش على النفس	١٢٦ – ١٢٧
محاسبة النفس نوعان وبيان ما تفرع عن ذلك	١٢٧
حق الله في الطاعات بمراعات ستة أمور	١٢٧ – ١٢٨
النعيم المسؤول عنه نوعان ، وذكر بعض مصالح محاسبة النفس والقيام عليها قومة صادقة	١٢٩ – ١٣٠
ما ينبغي لمن حاسب نفسه فرآها قد قارفت معصية	١٣٠
ما ينبغي لمن فاتته بعض الفضائل نسيانا أو توانيا	١٣٠

الموضوع	الصفحة
موعظة لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب	١٣١ – ١٣٢
موعظة بليغة لبعض العلماء على قوله تعالى « ولا تكونوا كالذين نسوا الله الآية »	١٣٥
كتاب الحسن الى عمر بن عبد العزيز في ذم الدنيا	١٣٥
نصيحة للشيخ الواسطي	١٣٦
تقسيم القلوب الى ثلاثة لابن القيم ويليها كتاب الصلاة	١٣٧
مكانة الصلاة وأهميتها والأدلة على ذلك	١٣٩
الصلاة تعين على مصالح الدنيا والآخرة وهي أحب العمل الى الله	١٤٠
الحث على الخشوع في الصلاة وما ينبغي أن يستحضره ويقوله	١٤٢
ما ينتظره من جواب ربه عند قراءته لآيات الفاتحة	١٤٣
ما يشهده عند ذكر اسمه تعالى الرحمن الرحيم ... الخ	١٤٣
ما اشتملت عليه كلمة اياك نعبد واياك نستعين	١٤٦
ما اشتمل عليه طلب الهداية من الأمور وبيان شدة فاقة العبد الى الهداية	١٤٧ ١٤٨
الحث على المحافظة على الصلاة وبيان معنى اقامتها	١٤٩
أسهم الاسلام ومنزلة من أدى الشهادتين والصلوات الخمس والزكاة وصام رمضان وقامه وبيان حكم تأخير الصلاة والأدلة على تحريم تأخيرها عن وقتها لغير عذر	١٥٠ ١٥١
أركان الاسلام الخمس	١٥١
حكم تأخير الصلاة وحكم ترك الصلاة تهاونا وكسلا	١٥٢
وماذا يعمل مع من تركها	١٥٢
الأدلة على كفر تارك الصلاة ويليها موعظة وقصيدة زهدية	١٥٣ – ١٥٨
الناس في الصلاة على مراتب خمس موضحة لابن القيم رحمه الله	١٥٩ ١٦٠

الموضوع	الصفحة
الالتفات في الصلاة منهي عنه وهو قسمان	١٦٠ – ١٦١
غضب الشيطان عند قيام العبد الى الصلاة وبيان من تكفر	١٦٢
الصلاة سيآته وهو من جعلت قرة عينه ونعيم قلبه	١٦٢ – ١٦٣
لكل مطلوب مفتاح وذكر بعض المفاتيح	١٦٥
خسارة من فاتته الصلاة مع الجماعة وبيان الصلاة	١٦٦
الكاملة والناقصة ويليها قصيدة زهدية وعظية	١٦٧ – ١٦٨
موعظة بليغة عبارة عن خطبة وكل موعظة تصلح خطبة	١٧٠ – ١٧١
مما ذكرنا اذا كملت الشروط والأركان	١٧٢ – ١٧٣
ذكر بعض فوائد الصلاة وذكر طرف من بعض فوائد	١٧١ – ١٧٢
صلاة النوافل والأدلة على وجوب صلاة الجماعة	١٧٤
فضل صلاة العشاء والصبح في جماعة	١٧٥
أدلة على فضل الصلاة في جماعة والحث على تسوية	١٧٦
الصفوف وبيان ما يعتبر في ذلك وهو الرقبة والأكعب	١٧٧
وبيان ما يفعل وما يقال بعد ما يكبر للصلاة ـ	١٧٨
مقدار القراءة في الركعتين الأوليين في الظهر والآخرتين والأوليين	١٧٩
في العصر والآخريين في العصر ومقدار قيامه فيهما	١٨٠
وما يقرأ في صلاة المغرب	١٨١
مقدار التسبيح التسبيح في الركوع والسجود	
وما يقال بعد الرفع من الركوع	١٨١
أسوة الناس سرق الذي يسرق من صلاته	١٨٢
مقدار القراءة في صلاة الصبح	١٨٣
الحث على الخشوع في الصلاة والتحذير من السرعة فيها	
وبيان معنى اقامتها وأن المصلين كثيرون والمقيمين	
لها قليلون	١٨٥ – ١٨٦
الذكر بعد الصلاة والاستغفار والدعاء وسياق بعض	
الوارد من السور والآيات والكلمات والأحاديث	١٨٧ – ١٩٢

الموضوع	الصفحة
الحث على المحافظة على الرواتب والنوافل وذكر فوائدها	١٩٢ – ١٩٤
من فوائد الصلاة ما ذكره ابن القيم	١٩٤ – ١٩٥
قصيدة زهدية وعظية تحتوي على توبيخ النفس	١٩٦ – ١٩٩
الزكاة هي أحد أركان الاسلام	١٩٩ – ٢٠١
بيان ما تجب فيه ، نصاب الزكاة ، وصفة زكاة الفضة أو الذهب من الأوراق وما يتعلق بذلك	٢٠١ – ٢٠٤
زكاة الحبوب والثمار وما يشترط في ذلك وانها لا تكرر	٢٠٤
وزكاة مال الصبي والمجنون	٢٠٣
متى تجب في الحبوب والثمار ومتى تستقر وما الذي ينبغي للامام نحوها ويلي ذلك موعظة وجيزة	٢٠٥
شروط الخارص وما يجب أن يتركه لرب المال	٢٠٦
حث على البحث عن المستحق بدقة	٢٠٦
موعظة بليغة في الحث على الاستعداد للموت	٢٠٦
بيان مصارف الزكاة وما ينبغي أن يقوله المخرج والآخذ	٢٠٧
لا يدفع بالزكاة مذمة ولا يقي بها ماله ولا يستخدم بها	٢٠٩
بيان ما يأخذه كل صنف من أصناف الزكاة	٢٠٩
موعظة بليغة في الحث على التأهب للموت	٢١٠
ما ورد من الوعيد الشديد في ترك الزكاة	٢١١
ذكر بعض آداب الزكاة وما يلاحظ في ذلك	٢١٤ – ٢٢١
موعظة بليغة في الحث على إخراجها	٢٢٣ – ٢٢٦
فيمن تحل له الصدقة والتحذير لمن لا تحل له	٢٢٧
أحاديث في التحذير من المسألة لمن لم تسقه ضرورة اليها	٢٢٨ – ٢٣١
موعظة في الحث على القناعة يليها قصيدة في الحث عليها أيضا	٢٢٨
أحاديث وآثار في الحث على الورع والزهد في الدنيا	٢٣١
قصيدة في مدح رب العزة تبارك وتعالى والتحذير عن الدنيا	٢٣٤–٢٣٥
موعظة بليغة في تعداد بعض نعم الله في الحث على التزود	٢٣٨–٢٣٩
	٢٣٧–٢٤٥

الموضوع	الصفحة
لدار القرار	
فصل في صدقة التطوع وما ورد من الآثار الشرعية في فضلها	٢٤٠
أحاديث في الحث على الصدقة وبيان بعض آثارها	٢٤١
حديث سعيد بن المسيب في حماية الله للانسان بسبب	٢٤٣-٢٤٤
ما وفقه له من صالح الاعمال وكلام شيخ الاسلام	
على هذا الحديث	٢٤٥
الحث على الصدقة ما دام الانسان صحيح وبيان المسكين	
حقيقة	٢٤٦
أفضل الصدقة جهد المقل والأدلة على أن الاعمال	٢٤٨
الصالحة تضاعف في الأمكنة الفاضلة	٢٤٩-٢٥٠
الأولى في الزكاة والصدقة الأقرباء الفقراء وطلاب العلم	٢٥٠
والجيران الفقراء	٢٥١
موعظة بليغة في التهيؤ للارتحال الى المقابر ويليها قصيدة	٢٥٢
زهدية في الحث على التزود لدار القرار	٢٥٣
الفوائد المترتبة على أداء الزكاة وبذل صدقة التطوع	٢٥٤-٢٦٢
موعظة بليغة في التحذير عن المعاصي	٢٦٢-٢٦٣
فصل في البشارة في دخول شهر رمضان	٢٦٤-٢٦٥
حول فضل شهر رمضان والأحاديث الواردة في فضله	٢٦٦-٢٦٧
موعظة بليغة من كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم	٢٧٠
أكثرها	٢٧٢
حكم صوم شهر رمضان ومن يجب عليه	٢٧٢-٢٧٤
ما يثبت به شهر رمضان وما يترتب على ثبوت	٢٧٥-٢٧٦
رؤية الهلال	٢٧٧
لا بد للصوم من النية وحكم صوم التطوع	٢٧٨-٢٧٩
من يسن له الفطر ومن يباح له الفطر ومن عرض له	٢٨٠
جنون أو اغماء	٢٨١-٢٨٢

الموضوع	الصفحة
موعظة في الحث على عدم الغفلة عن ذكر الله والتزود للآخرة	٢٨٣
ذكر أشياء تحرم على الصائم ويفطر بها وحكم ما اذا أكل أو شرب ناسيا أو قاء أو استقاء	٢٨٤-٢٨٦
موعظة بليغة في مسائل متعددة	٢٨٧
قصيدة زهدية وعظية	٢٨٩
بعض فوائد الصيام	٢٩٠-٢٩٤
ذكر أشياء تخفى على بعض الناس في الصيام	٢٩٤
ذكر أشياء تحرم ويتأكد تحريمها في حق الصائم	٢٩٦-٢٩٧
التحذير من الكذب وتأكده في حق الصائم	٢٩٨
أنواع الكذب وقول الزور ومضار شهادة الزور	٢٩٩
في التحذير من الغيبة	٣٠١-٣٠٢
الدواوين ثلاثة أثقلها ديوان ظلم العباد	٣٠٥
ربما تكون الغيبة واجبة أو جائزة لأمور	٣٠٦
أسباب الغيبة احدى عشر وهي ما ذكر	٣٠٧-٣٠٨
قصيدة في التحذير من الغيبة ويليها الحث على اجتناب ما لا يحل من النظر كالنظر إلى الاجتناب	٣٠٩-٣١١
تحريم الخلوة بالمرأة بدون محرم والتحذير من اتخاذ صبي يخلو بهن أو اتخاذ خادمة تخلو بالرجال	٣١٢-٣١٦
موعظة في الحث على صون النساء عن الخروج الا لحاجة ماسة أو ضرورة	٣١٧-٣١٨
فصل فيما يستحب للصائم أن يقوله أو يفعله وبان مايسن عليه الفطر	٣١٩-٣٢٠
مايقول الصائم اذا أفطر والحث على الفطر على حلال	٣٢١-٣٢٣
الدعاء عند الفطر وآداب الدعاء	٣٢٤
حكم قضاء رمضان ويليه موعظة	٣٢٤
صلاة التراويح وبيان كيفية صلاة التراويح	٣٢٧-٣٣٢
	٣٣٢-٣٣٤

الموضوع	الصفحة
التراويح سنها رسول الله صلى الله عليه وسلم	٣٣٤
الذي عليه جمهور المسلمين عشرون ركعة بدون الوتر	٣٣٥-٣٣٦
قصيدة زهدية أصولية	٣٣٨-٣٣٩
مشروعية صلاة الوتر وبيان وقته وبيان عدد	٣٤١-٣٤٢
الوتر أقله وأكثره	٣٤٤
دعاء القنوت ويليه قصيدة لابن عبد القوي	٣٤٧-٣٤٨
كتاب الفضائل	٣٤٩
ماينبغي أن يفعل في ليالي عشر رمضان	٣٥٠-٣٥٤
موعظة بليغة يليها قصيدة زهدية وعظية	٣٥٤-٣٥٥
فضائل ليلة القدر وعلاماتها والأحاديث	٣٥٦-٣٥٧
الواردة في ذلك	٣٥٨
الحث على قيام ليلة القدر والاجتهاد فيها	٣٥٩
بالعبادة	٣٦٠-٣٦١
وبعده قصيدة زهدية وذكر بعض الأدعية الواردة عن	٣٦٢-٣٦٣
عن النبي صلى الله عليه وسلم	٣٦٤-٣٦٨
موعظة بليغة في بيان العارف بالله من هو	٣٦٨-٣٦٩
زكاة الفطر وما ورد فيها من الآثار	٣٧٠-٣٧١
ومقدارها وبيان من تجب عليه وبمن يبدأ من وجبت عليه فطر متعددة	٣٧٢
وحكمها عن الجنين وعن الزوجة الناشز	٣٧٣
وقت وجوب صدقة الفطر ووقت استحباب اخراجها	٣٧٣-٣٧٤
وحكم تأخيرها وماذا يعمل من فوت وقتها	٣٧٤
من وجبت عليه فطر متعددة محل اخراجها	٣٧٥
مقدار الواجب وحكم اخراج الدقيق والقيمة وشرائها	٣٧٥
والمعيب والمختلط بغيره	٣٧٧
فصل يحتوي على موعظة لتدارك بعض الفائت	٣٧٨
اذا أراد الله بعبد خيرا فتح له باب الذل	٣٨٠
والانكسار	٣٨١

الموضوع	الصفحة
قصيدة لتوديع شهر رمضان	٣٨٢
فصل في تلاوة القرآن الكريم وذكر ما ورد في فضل حمل القرآن	٣٨٣
في الحث على قراءة القرآن وحفظه وان فيه فضل عظيم	٣٨٤
مما ورد في فضل القرآن وتفهمه واستحباب ترتيله	٣٨٥
قال ابن القيم عشرة أشياء ضائعة وبعدها ذكر ما ورد في فضل بعض سور القرآن وآياته	٣٨٧
استحباب تحسين الصوت في التلاوة	٣٨٨
الخشوع والخشية والبكاء عند تلاوة كلام الله تعالى	٣٩٠
موعظة بليغة في الحث على توقير كتاب وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم والكتب التي تستمد منها	٣٩١
الحث على تعاهد القرآن والترهيب من نسيانه	٣٩٣
هجران القرآن أنواع متعددة	٣٩٤
التمسك بالقرآن والحذر من الاعراض عنه	٣٩٥
يجب الرجوع الى الكتاب والسنة في الدقيق والجليل	٣٩٧
في الحذر من الحكم بغير ما أنزل الله والرد على القانونيين مؤيدة بالأدلة والبراهين	٣٩٨
فصل في فضائل ذكر الله وما ورد في ذلك من الأحاديث	٤٠٠
الحث على ذكر الله وذكر فوائده	٤٠١
قال في حادي الأرواح كلاما في الحث على العمل الصالح والتشويق الى الجنة وما أعد الله فيها وبعده أبيات من النونية	٤٠٢
فصل في فضل الاستغفار والأدلة على ذلك	٤٠٢
فصل في الاعتكاف وما يتعلق به	٤٠٢–٤٢٠
	٤٢٠–٤٢٩
	٤٢٩–٤٣٦
	٤٣٦–٤٣٧
	٤٣٨–٤٣٩
	٤٤٠–٤٤٧
	٤٤٧–٤٥٠

الموضوع	الصفحة
فصل في الحث على بناء المساجد وصيانتها وما يصان	٤٥١-٤٥٢
عنه المسجد وما يتعلق بذلك	٤٥٣-٤٥٧
حكم زخرفة المساجد وحكم التزام موضع	٤٥٨
معين من المسجد	٤٥٩
الأيام التي يسن صيامها والتي يكره صيامها	٤٦٠-٤٦١
والتي يحرم صيامها	٤٦٢-٤٦٥
النهي عن التشبه بالكفار والأدلة على ذلك	٤٦٦-٤٧٠
الحث على التقوى وفوائدها ويليها	٤٧٠-٤٧١
وصف المؤمن المتقي	٤٧٢-٤٧٣
قصيدة بليغة في الحث	٤٧٥-٤٧٦
الى الجنة	٤٧٧-٤٨١
فصل في الوعظ والارشاد وصفات المرشد التي	٤٨٢-٤٨٣
يعتني بها	٤٨٤-٤٨٥
عدم تأثير موعظة الواعظ اذا لم يعمل بعلمه	٤٨٥
والأسئلة لذلك	٤٨٥
التربية النافعة تكون بالعلم مقرونا بالعمل	٤٨٦
باذن الله	٤٨٧-٤٨٨
مثال ما قد يكون الواعظ سببا لوقوع الناس بالمعصية	٤٨٩-٤٩٣
مثال الذي يعلم ولا يعمل به ، أفسد الناس جاهل وعالم	٤٩٤
فاجر	٤٩٥
الحث على بث العلم وتحريم كتمانه لغير عذر شرعي	٤٩٦-٤٩٧
وأنه ينبغي الورع وقطع الطمع لمن يدعو الناس	
الى الخير ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر	٤٩٨-٤٩٩
موعظة بليغة تحتوي على الحث على نصيحة المسلم لأخيه	٤٩٩-٥٠١
نماذج من صبر النبي صلى الله عليه وسلم على الشدائد	
والأذى في الدعوة الى الله	٥٠٢-٥١٣

الموضوع	الصفحة
موعظة تتضمن الثناء على الصحابة	٥١٣
نموذج من صبر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم	٥١٦
أبي بكر الصديق رضي الله عنه وعمر وعثمان	٥١٧-٥١٨
وعلي وبعض الصحابة رضوان الله عليهم	٥١٩-٥٢٠
اسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه	٥٢٢
اسلام عثمان وطلحة بن عبيد الله رضي الله عنهما	٥٢٣
الزبير بن العوام رضي الله عنه	٥٢٤
بلال بن أبي رباح رضي الله عنه	٥٢٥-٥٢٦
آل ياسر ، عمار وأبوه وأمه رضي الله عنهم	٥٢٧-٥٢٨
من كلام عيسى عليه السلام	٥٢٩-٥٣٠
أبو ذر رضي الله عنه	٥٣١-٥٣٤
موعظة في الحث على التأهب للرحيل	٥٣٤
سعيد بن زيد وزوجته رضي الله عنهما	٥٣٥
وإسلام عمر	٥٣٦
عثمان بن مظعون رضي الله عنه	٥٣٧-٥٣٨
مصعب بن عمير رضي الله عنه	٥٣٩
عبد الله بن حذافة رضي الله عنه	٥٤٠-٥٤١
مع ملك الفرس	٥٤٢-٥٤٤
عبد الله بن حذافة مع ملك الروم	٥٤٥-٥٤٦
قصيدة وعظية زهدية تضرع الى رب العزة	٥٤٧
سعيد بن عامر الجمحي وخبيب	٥٤٩-٥٥٤
البراء بن مالك الأنصاري	٥٥٤-٥٥٩
أم سلمة رضي الله عنها	٥٥٩-٥٦٤
قصيدة زهدية	٥٦٤-٥٦٧
نماذج من سيرة بعض العلماء ونصحهم لولاة الأمور	
وصدعهم بالحق	٥٦٧-٥٨٦

الموضوع	الصفحة
فصل في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر	٥٨٦-٦١١
قصيدة تحتوي على الأسباب التي بها حياة القلب باذن الله	٦١١-٦١٥
الرد على منكري الجن	٦١٥-٦٣٢
موعظة في التحذير من الانهماك في الدنيا	
الناس حول الدنيا قسمان	٦٣٢-٦٤٠
قصيدة للشافعي في التحذير من الدنيا	٦٤٠-٦٤١
حب الدنيا رأس الشرور والمعاصي كلها	٦٤٢-٦٤٣
حب الدنيا فنون متنوعة كل فن يشغل قسما من الناس	٦٤٤-٦٤٧
قصيدة لبعضهم يبكت نفسه ويؤنبها	٦٤٨
أمثلة للدنيا متعددة	٦٤٩-٦٥٥
قصيدة في ذم الدنيا والتحذير من الاغترار بها	٦٥٥-٦٥٧
فصل في الحث على الآلفة وحسن الخلق	٦٥٨
الجليس الصالح والجليس السوء والتحذير من مصاحبة الأشرار	٦٥٩-٦٦٠
توصية حول الجلساء الصالحين	٦٦٢-٦٦٩
المؤآخاة في الناس على وجهين	٦٧٠-٦٧١
المؤمن يلتجيء الى الله ثم المؤمن والمنافق يلتجي للمنافق	٦٧٢
ميل الانسان الى الأخيار أو الأشرار دليل على حاله	٦٧٣-٦٧٤
التحذير من صحبة الأحمق	٦٧٤
الأصدقاء ثلاثة ويلي ذلك موعظة وقصيدة	٦٧٥-٦٧٨
كلام حول الفكر النافع والفكر الضار	٦٧٩-٦٨٠
الحب في الله والبغض في الله والتحذير من موالاة أعداء الله والأدلة على ذلك	٦٨٢-٦٨٣
التحذير من مشابهة أعداء الله وتوليهم	٦٨٤-٦٩٢
موعظة في أن الناس قسمان	٦٩٢-٦٩٣
قصة أبي عبيدة بن الجراح مع أبيه	٦٩٦-٦٩٧

الموضوع	الصفحة
أصيب كثير من الناس في زمننا بموالاة أعداء الله	٦٩٩
المرء مع من أحب وأفضل الاعمال الحب في الله والبغض في الله وبعد ذلك الحث على التقرب الى الله ببغض أهل المعاصي الظلمة والمنافقين	٧٠٠-٧٠١
التحذير من رطانة الأعاجم واجتنابهم وأعيادهم	٧٠١
السفر الى بلاد الكفر	٧٠٣-٧٠٤
ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الايمان	٧٠٥-٧٠٧
الحث على محبة الله ومحبة من يحبه الله من أهل طاعته	٧٠٨
موعظة بليغة في فضائل كلمة التوحيد	٧٠٩
ذكر بعض فوائد « لا إله إلا الله »	٧١٠-٧١١
قصيدة تحريضا على طلب العلم	٧١٢
	٧١٣-٧١٧
	٧١٧-٧٢٧